

# مَنَاهِلُ الْعُرْفَانِ

## فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ

طبق مقررہ مجلس الأزهر الأعلى فی دراسة تخصص الكليات الأزهرية

بقلم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ

محمد عبد العظيم الزرقاني

مدرس علوم القرآن وعلوم الحديث بتخصص الدعوة والإرشاد  
بكلية أصول الدين سابقاً

جميع الحقوق محفوظة

الجزء الأول

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، إِيَّاكَ  
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ  
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ. آمِينَ.

# تصدير الطبعة الثالثة وفهرسها

## ١ - التصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

« الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى » . أما بعد ، فهذه الطبعة الثالثة من كتاب « مناهل العرفان في علوم القرآن » أقدمها لقراءى الأكرمين بعد أن أعدتُ النظر فيه ، رجاء أن أدرك الكمال أو أقارب ، فردتُ وحذفتُ ، وقدمتُ وأخرتُ ، وصححتُ واستدركتُ ، ثم هتأ الله . تباركت آلاؤه . مطبعة عا ونقى على حسن إخراجها ، فضبطته وشكلته ، ونقلتُ وصقلته . ولولا أزمة الورق الحادة لبس الكتاب حلةً أبهى من هذه الحلة . ولكن إذا سلم لك الجوهر واللباب ، فلا عليك من القشر والإهاب . « خُذْ بِنَصْلِ السِّيفِ وَاتْرِكْ عُقْدَهُ » واعتبر فضلاً التقى دون الخلل .

على أن الذنب في ذلك هو ذنب هذه الحرب الضروس الطاحنة ، التي طغت وبغت ، وطُتْ وعُتْ ، حتى لم ينبج من شرها شرق ولا غرب ، ولا ضيق ولا رحب ، بل تعدت للناس بكل صراط ، وأثرت في جميع المرافق حتى أدوات الطبع ( بالطبع ) .

لطف الله بالبلاد والعباد ، وأخرج الإسلام من هذه المحنة قوى السناد ، رفيع العاد ، على الكلمة ، مسموع الصوت ، حتى يفي الجميع إلى محبوبته ، وبنه يمشوا وإرف ظلاله وسلامه ، وأمنه وإيمانه ، وعدله ورحمته ، ويسره وسماحته ، وحتى يعلموا أن نهضة العلم جنابة على الإنسانية جائحة ، إن لم تسابرها نهضة روحية صالحة ، توقى بين مطالب الروح والجسد ،

وتواخي بين إنسان الشرق والغرب، وتواصل الثمرات الجنسية والطائفية، وتنظم من الكل جهةً متحدةً على صراط الحق والخير، « حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ » .

وهل توجد هذه المزايا مجتمعة إلا في الإسلام؟ وهل يوجد الإسلام بغير القرآن؟ وهل يفهم القرآن إلا « بعلوم القرآن »؟ وهو موضوع كتابنا الآن؟ « بَيَّأُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ نَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ • قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ • » .

#### محاولاتي :

ولقد حاولت في هذا التأليف أموراً خمسة :

أولها - أن تكون كتابتي من النسق الأزهرى الجديد في تفكيره وفي تعبيره ، بحيث يتيسر فهمه وهضمه للقراء من أبناء هذا الجيل ، سواء منهم المحقق الأزهرى والمثقف اللدنى ، فإن لكل زمان لغة ولساناً ، ومنطقاً وبرهاناً . « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » .

على أننى في هذه المحاولة لا أدعى أننى أنشأت وابتكرت ، ولا أحدثت وابتدعت . بل قصارى أننى فهمت وأحسنت العرض إذا كنت قد وقفت . أما المادة نفسها فالفضل فيها لعلماء هذه الأمة الذين أبلّغوا في جمعها بلاءً حسناً ، ولم يخرجوا من الدنيا إلا بعد أن شقوا لنا الطريق ، وقرّبوا البعيد ، وجمعوا الشقيت ، وتركوا من خلفهم ثروة علمية هائلة ، وكنوزاً ثقافية زاخرة ، لا يوجد مثلهما ولا قريب منها في أية أمة من أمم الأرض إلى يوم الناس هذا . وأعتقد أننا لو أحسنّا القيام على هذه التركة لكان لنا شأن غير هذا الشأن ، ومكانة وسلطان لا يدان بهما مكانة ولا سلطان !



ولكن ما مضى كان . ولعل المستقبل القريب يكون أسعد من هذا الحاضر الحزين  
الأسوان ١ .

ثانيها — أن أعالج شبهات عصرنا الراهن علاجاً ينجي الأذى عن طريق عشاق الحق ،  
وطلاب الحقيقة ، ورواد البحث ، ومريدي الإسلام .

ولقد التزمت في علاج هذه الشبهات أدب الباحث وواجب المناظر . ورأيت لمثل  
هذا الاعتبار أن أرخي الستر على أسماء أصحاب هذه الشبه خصوصاً المعاصرين منهم .  
وتعمدت هذه السياسية محاسبة لهم عسى أن يرعوا ، وحباً في سلام البحث وهدوءه عسى  
أن يسلموا ويهدوا ، وغضباً من شأنهم إن كان لهم شأن كيلا يقلدوا ، فإننا أصبحنا في  
زمان افتتن كثير من الناس فيه بالأسماء والرتب ، والأموال والنسب . وباتوا لا يعرفون  
الرجال بالحق إنما يعرفون الحق بالرجال ، فالباطل إن صدر من فلان النابه فهو عندهم حق  
وزين ، والحق إن جاء به فلان الخامل فهو عندهم باطل وشين ! وهكذا اختلت الضوابط  
واقلبت الموازين ١ .

ثالثها — أن أظهر عند كل مناسبة جلال التأخي بين الإسلام والعلم ، لتتكشف  
تلك الدسيسة الرخيصة المفضوحة التي خيلت إلى المخدوعين أن بين الدين والعلم خصومة  
قائمة ، وحرماً طاحنة ، وعداوة متأصلة ، كأن الدين رديف الجهل ، وكأن العلم حليف  
للكفر ! « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » .

رابعها — أن أجلي أسرار التشريع وحكمه كلما دعاني المقام ، ليعلم من لم يكن يعلم  
أن هذا الدين هو حاجة الإنسانية ، ودواء البشرية ، وكال الفرد ، وصالح الجماعة ، ولتتقطع  
أنفاس تلك الدعاية الضالة ، دعابة فصل الدين عن السياسة ، والثقافة الدنيوية عن الثقافة الدنيوية ،

وقوانين العدل ودساتير الحكم من مقررات العقيدة وشعائر العبادة! وهي أخبت الدعوات وأفسحها فيما نعلم ! .

ولئن صحَّ أن يقال هذا في أديان قاصرة عن الوفاء بحاجات الإنسانية في مناحي الإصلاح البشري ، فما كان يصحُّ أن يقال هذا في دين الإسلام بحال من الأحوال ، لأنه دين عقيدة وعمل ، وعبادة وقيادة ، وعلم وخلق ، وحكم وعدل ، ورحمة وحق ، ومصطف ، وسيف ، ودنيا وآخرة !

ومن كان في ريب فليسال التاريخ عن جليل الآثار التي تركها الحكم الإسلامي الصالح في أتباعه ومن انضوى تحت لوأهم من الأقليات الأجنبية ، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم الطائفية .

بل ليسألوا العالم وأحداه ، والدهر وتصاريفه : أي الحكيم كان أنجح في تربية الأفراد ، وأنجح في إصلاحات الجماعات ، وأهدى سبيلاً في الاعتدال والاستدلال ؟ أحكم السماء أم حكم الأرض ؟ وقانون الخالق أم قوانين الخلق ؟ وتشرع العالم الحكيم المنزه عن الغرض والهوى ، أم تشاريع الإنسان القاصر النظر والاطلاع ، المتأثر بطغيان الغرائز وجحش القوى ؟ « وَأَنِ أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَاحْذَرْهُمْ أَنِ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمُ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ . وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ » أَفَحُكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ؟ »

وإن لم يكفهم هذا فليسالوا المصنفين من مشاهير الغرب ، كغوستاف لوبون الفرنسي وبرناردشو الانجليزي ، وأمثالهما من الذين درسوا الإسلام وبحثوه ، ثم حكموا له وأنصفوه ، وأطروه وامتدحوه . « والفضل ما شهدت به الأعداء » ! .

ولنترك القلم عن الجولان في هذا الميدان، فالكلمة هنا للتصدير والتنوير، لا للمقارنة والتنظير. وحسبنا أن نردّد قول الشاعر العربي :

« مَا مَكَّنَّا فَمَكَّنَ الْعَفْوُ مَنَا سَجِيَةً      فَلَمَّا مَلَكَكُمْ سَالَ بِالْدمِ أَبْطَحُ »  
« فحسبكم هذا التفاوتُ بيننا      وكلُّ إناء بالذى فيه يَنْضَحُ »

خامسها : أن أضع الروح من بوق هذا الكتاب في الكرام القارئين ، لاسيما حلالى الأعزاء الذين هم على وشك النزول إلى ميادين الدعوة والإرشاد، فأوقظهما أخاف أن تكون قد نامت ، وأحيى عزائم معاذ الله أن تكون قد ماتت . والروح هي كل شيء ! هي القوة الدافعة ، وهي الحياة الرائعة ! والروح الصحيحة لا توجد إلا في القرآن بل الروح الصحيحة هي القرآن ! « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » ! إن الإسلام لا يريد من النسل ولا برضى له أن يكون هيكلًا جامدًا، ولا أن يكون تمثالًا جامدًا ، فإن الإسلام عدوُّ الهياكل والجود ، خصم التماثيل والممود .

إنما يريد الإسلام أن يكون المسلم روحًا يبعث الروح ، وحياةً يملأ الدنيا حياة ، ورسولاً من رسل السلام والرحمة والنجاة ! أجل : ويريد الإسلام أن يكون أهل العلم من أتباعه أصحاب همم عليّة، ونفوس أبيّة لا يثثرون بمهد الله ثمناً قليلاً، ولا يريدون بعلمهم عرض هذا الأدنى. إنما همهم ورائة الأنبياء في إصلاح العالم؛ وتبليغ دعوة الإسلام على وجهها لطبقات الخلق ، وتنفيذ أحكام الله في الأقضية وسائر شئون الحكم . « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » !

وهنا في هذه الآية الحكيمية تتجلى رسالة العالم والطالب . ويلها رسالة ! ثم يلها أمانة ! نسأل الله السلامة والإعانة .

## رجائي

تلك محاولات وأهداف، فإذا كنت قد أصبتها فذلك الفضل من الله، « وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ». وإن كانت الثانية فإنما هي نفسى، وأستغفر الله .  
ورجائي من كل ناظر بطلم على عيب أن بدلتى عليه، ويرشدنى إليه . فالدين النصيحة، والمسلمون بخير ماتوا ونوا . وما نبح سلفنا الصالح وكانوا خير أمة أخرجت للناس إلا بهذه الفضيلة . وإنه ليحلولى أن أقول هنا ما قاله عمر بن الخطاب رضى الله عنه: « رحم الله رجلاً أهدى إلى عيوب نفسى » .

## شكرى

وإلى لمدن ببالغ الشكر، وسابغ الحمد، لأولئك السادة الأماجد الذين طوفوا عنقى بحليل معاونتهم وتشجيعهم، وجميل تقريظهم وتقديرهم .  
ولا أزال أحفظ بالإجلال والإكبار، ما لقيته فى هذه المناصب السعيدة من بعض رجالات الدولة، وكبار العلماء ورؤساء الجماعات الإسلامية، وأصحاب المجلات والصحف اليومية، وإخوانى أبناء الأقطار الشقيقة، خصوصاً الذين عملوا منهم على ترجمة هذا الكتاب ونقله فى دقة وأمانة إلى بعض اللغات الشرقية .  
وأعتذر عن عدم نشر تقاريفهم والتقنويه بفضلهم فى هذه المرة، لتجمل فى طبعى، وضيق فى طبع الكتاب .

عجل الله الفرج للأنام، وأعاد عهد الرخاء واليسر والسلام، وجعل العاقبة للإسلام وبلاد الإسلام « إِنَّ اللَّهَ بِأَلْعُ أَمْرِهِ . قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا » .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الْحمد لله الَّذي أنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا » ، والصلاة والسلام على من أرسله الله بالقرآن رحمة للعالمين وفرجًا ، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحابه ، وأتباعه ومحبيه وأمه .

أما بعد ، فهذا كتاب « مناهل العرفان في علوم القرآن » . كتبه تحقيقًا لرغبة طلابي المتخصصين في الدعوة والإرشاد من كلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية . مستمدًا معارفه - بعد فتوح الله وتوفيقه - مما كتب علماء الإسلام قديمًا وحديثًا ، في القرآن الكريم وعلومه ، والتفسير ومقدماته ، وعلم تاريخ التشريع ، وعلى الكلام والأصول ، وعاروم اللغة العربية ومعالجها ، وعلى الفلسفة والاجتماع ، وعلى النفس والأخلاق ، وبعض البحوث المنشورة هنا وهناك ، في غضون الرسائل والمجلات ، من عربية صميمة ، ومرجمة منقولة .

وإلى الله تعالى أضرع ، أن يكتب لي فيه النجاح والتوفيق والقبول ، وأن يحقق به النفع المرجو والأثر المأمول . « إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ » .

## مقدمة

في القرآن وعلومه ومنهجي في التأليف

القرآن الكريم : كتاب ختم الله به الكتب، وأنزله على نبي ختم به الأنبياء، بدين عام خالد ختم به الأديان .

فهو دستور انطاق لإصلاح انطق، وقانون السماء لهداية الأرض ، أنهى إليه منزله كل تشريع ، وأودعه كل نهضة ، وناط به كل سعادة .

وهو حجة الرسول وآية الكبري : يقوم في فم الدنيا شاهداً برسالة ، ناظراً بذبوت ، دليلاً على صدقه وأمانته .

وهو ملاذ الدين الأعلى : يستند الإسلام إليه في عقائده وعباداته ، وحكمه وأحكامه وآدابه وأخلاقه ، وقصصه ومواظفه ، وعلومه ومعارفه .

وهو عماد لغة العرب الأسمى : تدين له اللغة في بقائها وسلامتها ، وتستمد علومها من على تنوعها وكثرتها ، وتفوق سائر اللغات العالمية به في أساليبها ومادتها .

وهو - أولاً وآخرأ - القوة المحولة التي غيرت صورة العالم ، ونقلت حدود الممالك ، وحولت مجرى التاريخ ، وأنقذت الإنسانية العائرة ، فمكأنما خلقت الوجود خلقاً جديداً .

لذلك كله ، كان القرآن الكريم موضع العناية الكبرى من الرسول ﷺ وصحابته ، ومن سلف الأمة وخلقها جميعاً إلى يوم الناس هذا .

وقد اتخذت هذه العناية أشكالاً مختلفة ، فتارة ترجع إلى لفظه وأدائه ، وأخرى إلى أسلوبه وإيجازه ، وثالثة إلى كتابته ورسمه ، ورابعة إلى تفسيره وشرحه إلى غير ذلك .

ولقد أورد العلماء كل ناحية من هذه النواحي تاسحت والتأليف ، ووصفوا من أحسن العلوم ودوتوا الكتب ، وساروا في هذا السبيل الواسع أشواطاً بعيدة ، حتى رَحَرَت المكتبة الإسلامية ثمرات مجيدة من آثار سلعها انصاح ، وعمتها الأعلام . وكانت هذه الثروة والأتان مفخرة تتحدى بها أمم الأرض ، وتُحَمِّمُ بها أهل الملل والمحل في كل عصر ومصر .

وهكذا أصبح بين أيدينا الآن مصنعات متنوعة . وموضوعات قديمة ، فيها تسميه عم القراءات ، وعلم التجويد ، وعلم النسخ العثماني ، وعلم التفسير ، وعلم النسخ والنسوخ ، وعلم عرب القرآن ، وعلم إعراب القرآن ، وما شاكل ذلك من العلوم الدينية والعربية ، مما يعتبر بحق أروع مطهر عرفه تدريج الدراسة كتاب هو ميد الكتب ، وياب هذا مطهر معجزة جديدة مصدقة لقوله سبحانه « إِنَّا نَحْنُ مُرْسِلُوهُ بِذِكْرِ وَإِلَّا لَهُ الْوَهْدُ الْوَاحِدُ »

ولقد أجمعت تلك العلوم الألفية ويبدأ حديث ، هو مريح منها جميعاً ، وسبيلها جميعاً ، فيه مفادها ، وأعراسها وخصائصها وأسرارها ، و « الولد سرٌّ أبيه »

وقد أجمعوا ( علوم القرآن ) وهو موضوع دراستنا في هذا الكتاب إن شاء الله وسأحاول فيه أكتفه أن أمرُج بين حاجة الأحرار إلى البحث والتحليل ، وبين رغبات محبي القراء لمعاصرين في تقريب الأسلوب وتيسر السبيل ، ما وسعى الإمكان . وسأضطر سبب ذلك إلى شيء من الإسهال والتطويل ، ولسكنها تصحيفة صنيعة محاب تادية رسالتنا في وجوب الاتصال بالمدني بالجاهل .

وسأعرض بعون الله وتأييده - لعلاج الشهوات التي أطلق بحورها أعداء الإسلام ، وسددوا سهامها لثائته إلى القرآن ، وسكن عند الماسمة وسووح العرصة .

وسنحزى في كل معش سمع أمثلة من القرآن الكريم ، دون أن أحول  
 ما جوده سيف . كما بين من استيعاب كل فرد ، لكن نوع ، بين حصل ذلك طوبى  
 وثقيل ، على حين أن له طر تكفيه لإيضاح نفس من التمثيل  
 وسنحمل معه منسج مقرر عدوين . ثم بين من بحث حتى يوم عليه هذا الكتاب  
 مقتنيا في العلم أثره لفظ في التسمية وفي ترتيب « و هو يومى لا اله الا الله عليه  
 بؤ كنت و هية أريب »

## المبحث الأول

①

في معنى علوم القرآن

مقتصدا منهج بحث تحليلي هذا ، المركب الإحصائي ، أن يحدث عن طريقه ، وعن  
 الإضافة إليه ، ثم عن إيراد هذا المركب مدققة وتسميه هذا من المدونات به  
 (١) أما المصوم شمع علم ، وانعم في اللغة مصدر يرادف الفهم والتميز ، ويرادف  
 الجزء أيضا في أى ثم نداولت هذا لفظ اصطلاحات محبة  
 فالحكماء : يريدون به صورته الشيء الحاصلة في العقل ، أو حصول الصورة في  
 العقل ، أو تفوق نفس شئ ، على جهة اكتشافه والتحقق عندهم هو الإطلاع الأول  
 (٢) المنكسرون : هم قرون العلم ، به صفة تتجلى في الأمر (١) امت به ، وهو مراد  
 من قال منهم : « إنه صفة وحب محم تميز لا يحمل عيصر » ولو كان هذا التمييز  
 يوم طه لحوس كما هو . أى الأشعري

(٣) ونطلق العلم في القرآن اشترط له م على معرفته الله تعالى وآياته ، وأفعاله في عباده  
 وحجته (٤) الإمام الغزالي في الإحياء : « قد كان لعلم يصدق على العلم . لله تعالى وإياه  
 وأفعاله في عباده وحلقه ، فتصرفوا فيه ، تخصص عن حتى امتهم في مناظره مع المصوم



في مسائل العقيدة وغيرها . ولكن ما ورد في فصل لعنوا الله أكتفه في معنى الأول ما هو  
وهو يفيد أن العلم الشرعي الخاص يطبق على أحسن من هذا الذي ذكره العرب في مسائل  
الشرع العام ، ولكن بحسب مقتضيه لمقام . من قد يصحح على نفسه في الإجابة  
أبصاراً على أن الناس اجتهدوا في العلم الذي هو مريضه على كل مسير ، وقال : إنهم تفرقوا  
فيه إلى عشرين فرقة . ثم ذهب إلى أن الله علم لخدمة الشامل لما يصلح بغيره من  
عبادات وعبادات إسلامية ، وبما يصلح الباطن من عقائد الإسلام وأخلاقه  
والماديين : يزعمون أن العلم ليس إلا خصوصيات يقينية ، لا تستند إلى الحس  
وحده . وسند قش مذهبهم في مبحث نزول القرآن .

وسبب تسمية بين تلك الاصطلاحات الآفة المذكور ، فلم أعومها وكتبها ومباحثها ،  
إني هو عرض عدم ، يعرف منه كيف أن (معنا واحداً) هو العلم - أهيكتها الاصطلاحات  
المتعددة ، وتدونه لنقول المتسوعة ، فلا تنفع في لبس إذا ورد عليك في صورة شبهة مخرضة .  
اعلم في عرف التدين العلم :

والذي يصحبه كثيراً هو له في اصطلاح آخر ، هو اصطلاح عدم التدين : لأننا  
نصدد الكلام في عدم القرآن كمن مدون .

(قالوا : يطلق العلم على المسائل منسوبة بحجة واحدة) واسباب أن تكون تلك  
المسائل نظرية كلية ، وقد تكون ضرورية ، وقد تكون حادثة . أقول : وقد تكون  
شخصية أيضاً . كما أن علم الحديث رواية ، وبها في الواقع قضايا شخصية موصوفة ،  
دلت المي عز وجل .

وقال السعد في «مصدر» وعند حكيم على مطلق ما يفيد أن العلم المدون قد  
يطلق على طائفة من تصورات أي معارف التي يتصورها العقل منسوبة بحجة واحدة  
وأقول . يمكن أن يستخلص من ذلك كلام (أن العلم في حرف تدوين عام من  
على المعلومات منسوبة بحجة واحدة) سواء أكانت وحدة موضوع أم وحدة كمية أو سواء

أكانت تلك المعلومات تصورات كعلم المديع ، أم تصديقات . وسواء أكانت تلك التصديقات قصايا كاية - وهو الغالب - أم حزئية أم شخصية كعلم الحديث رواية . هذا كله إطلاق واحد من إطلاقات ثلاثة لعلماء التدوين . والإطلاق الثاني عندهم : ( هو الإدراك أى إدراك تلك المعارف السالفة ) والإطلاق الثالث : هو على ما يسمونه ملكة الاستحصاء أى التى تستحصل بها تلك المعارف . أو ملكة الاستحضار أى التى تستحضر بها المعارف بعد حصولها . وأول هذه الإطلاقات هو أولها باقبول لأنه المتبادر من نحو قولهم : « تعلمتُ علماً من العلوم ، وموضوع العلم كذا » والقبادر - كما يقولون - أمانة الحقيقة . ذلك ما أردنا بسطه فى الكلام على لفظ « علوم » من قولنا : « علوم القرآن » .

( ٢ - أما لفظ القرآن : فهو فى اللغة مصدر مرادف للقراءة ، ومنه قوله تعالى : « إِنَّا عَلَّمْنَاهُ جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَسَحُ قُرْآنَهُ » ثم نقل من هذا اللفظ المصدرى وحمل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبى ﷺ ، من باب إطلاق المصدر على مفعولاه . ذلك ما نخفاه استناداً إلى موارد اللغة ، وقوانين الاشتقاق ، وإليه ذهب اللحيانى وجماعة . أما القول بأنه وصف من القرء بمعنى الجمع ، أو أنه مشتق من القرائن . أو أنه مشتق من قرئت الشيء بالشئ ، أو أنه مرتجل أى موضوع من أول الأمر علماً على الكلام المعجز المنزل ، غير مهموز ولا مجرد من أل ، فكل أولئك لا يظهر له وجه وحيد ، ولا يحلو توجيهه من كلفة ، ولا من بعد عن قواعد الاشتقاق وموارد اللغة . وعلى الرأى المختار فلفظ قرآن مهموز ؛ وإداء حذف همزة ، فبما ذلك للتخفيف ، وإذا دخلته « أل » بعد التسمية فبما هى للمح الأصل لا للتشريف )

( ويقال للقرآن : قرآن أيضاً ، وأصله مصدر كذلك ، ثم سمي به العظيم الكريم ، تسمية للمفعول أو الفاعل بالمصدر ، باعتبار أنه كلام فارق بين الحق والباطل ، أو مفروق

بعضه عن بعض في الدلول ، أو في أسرار والآيات . قال تعالى : « تَسْمُرُكَ الَّذِي سَمَّرَ  
 لِقُرُونٍ عَلَى عَثِدِهِ (لَيْسَ كَوْنُ الْفَاعِلِينَ تَدِيرُ) » ثم إن هذين الاسمين هما أشهر أسماء  
 لعظم الكرم . بل جميع بعض مفسرين مرجع جميع أسمائه ، كما ترجع صفات الله على  
 كثرتها إلى معنى الخلاص والنجاة . وإلى هذين الاسمين في الشهرة هذه الأسماء الثلاثة .  
 الكتاب ، والذكر ، والتميز . وقد تمحور صاحب الهمم حدود تقسمة ، فجمع بعضها  
 حصة وحسين ، وأسرف غيره في ذلك حتى بلغ بها سقاً ونسعين ، كما ذكره صاحب  
 التنبؤ . واعتمد هذا ودره على إطلاقات وارده في كثير من الآيات وأسور ، وفاتهم  
 أن يعرف بين ما جاء من تلك الأله ط على أنه اسم ، وما ورد على أنه وصف ، ويصح  
 ذلك لك على سبيل التمثيل ، في عدده من الأسماء ، عطف « قرآن » وعطف « كريم » أحداً  
 من قوله على « إِنَّهُ لَمُرَّانٌ كَرِيمٌ » كما عدنا من الأسماء ، عطف « ذكر » وعطف « مبارك »  
 اعتماداً على قوله على « وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ تُرْتَضُّ » على حين أن له ط قرآن و ذكر  
 في الآيتين مقبول كونه اسمين . ثم عطف كريم ومبارك « فَلَاشْكُ أَيْهِ وَصَدِّكَ كَاتِرِي .  
 واخطب في ذلك سهل سير ، بيد أنه صعب طول ، حتى لقد أفردت بعضه بالتأليف .  
 وفي ذكره كره . « وَصَلَّى اللَّهُ قَضْدُ تَسْتِيلِ »

### القرآن في الاصطلاح

معلوم أن القرآن كلام الله ، وأن كلام الله غير كلام البشر ، ما في ذلك بس .  
 ومعلوم أيضاً أن الإنسان له كلام ، قد يراد به المعنى لمصدرى ، أى امتكلم ، وقد يراد  
 به المعنى الحاصل بالمصدر ، أى امتكلم به . وكل من هذين المعنيين . المعنى الأول  
 فكلام البشرى ، المعنى الثاني . هو تخريك الإنسان لكلامه وما يساعده في  
 إخراج الحروف من الأحارج . والكلام المعنى بالمصدر هو تلك الكلمات

المطلوقة ، التي هي كمية في الصوت الحسي ، وكلا هذين ظاهر لا يحتاج إلى توضيح .  
 أما الكلام المعنى بالمعنى المصدري ، فهو تحصيل الإنسان في نفسه قوته التي كلمة الباطنة ،  
 تلك الكلمات التي لم تبرز إلى الجوارح ؛ فيشكلكم بكلمات متحيزة يرتبها في الذهن بحيث إذا  
 تنعظ بها صوت حسي كانت طبق كلماته اللفظية . والكلام المعنى بالمعنى اخلاص  
 المصدر : هو تلك الكلمات المعسية والألفاظ الذهبية المترتبة ترتباً ذهنياً منطقياً عليه  
 المترتب الخارجي

ومن الكلام الشرعي المعنى سوعيه قوله تعالى « فَاسْرَّهَا يَوْمَئِذٍ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ  
 يُبْدِهَا لَهُمْ فَإِنْ أَسْمَ شَرُّ مَكَانًا » ومنه الحديث الشريف الذي رواه الطبراني  
 عن أم سمة أنها سمعت رسول الله ﷺ وقد سأله رجل فقال « إِنْ لَأُحْدِثُ نَفْسِي  
 «شَيْءٌ لَوْ نَكَلَّمْتُ بِهِ لَأَحْطَطُ أُخْرَى » فقال عليه السلام : « لَا تُلْقِ ذَلِكَ الْكَلَامَ  
 إِلَّا مُؤْمِنٌ » فإت ترى أن النبي ﷺ سَمَّى ذلك الشيء الذي تحدث به النفس كلاماً ،  
 مع أنه كلمات ذهنية لم ينطق بها الرجل بحفاة أن يحط بها أخرى . وهذا الإطلاق من  
 الرسول يحمل على الحقيقة لأنها الأصل ولا صرف عنها .

كذلكم القرآن كلام الله - والله لمثل الأعلى - قد يطلق ويراد به الكلام المعنى ،  
 وقد يطلق ويراد به الكلام اللفظي والذين يصفونه إطلاقاً للكلام المعنى هم المتكلمون  
 حسب ، لأنهم يتحدثون عن صفات الله تعالى المعبودة من ناحية ، ولغرض حقيقة  
 أن القرآن كلام الله غير محبوف من ناحية أخرى . أما الذين يصفونه إطلاقاً بالكلام  
 اللفظي ، فالأصوبون والفقهاء وعلماء العربية ، وإن شاركهم فيه المتكلمون أيضاً ،  
 بإطلاق ثالث معدوم كما سبق لك بعد . وإذ عني الأصوبون والعلماء بإطلاق القرآن  
 على الكلام اللفظي ، لأن عرصهم الاستدلال على الأحكام وهو لا يكون إلا بالألفاظ  
 وكذلك علماء العربية بعينهم أمر الإيجاز ، فلا حرم كانت وجهتهم الألفاظ

والمشككون يُؤمنون أيضاً بتعريف واحد للإيمان بكتب الله المبثورة ومنها القرآن ،  
وإنشأت سورة الرسول ﷺ معجزة القرآن وندهى أن ذلك كله مدله الأضطر ، فلا  
بدع أن ساهموا في هذا الإصلاق الثالث

### القرآن عند المتكلمين

ثم إن متكلمين حين يطعمونه على الكلام المعنى بالاحطون أمري :  
(أحدهم أن القرآن علم أي كلام مختار عن كل ما عده من الكلام الإلهي .  
ثانيهما - أنه كلام الله ، وكلام الله قديم غير مخلوق ، فيجب تبره عن الحوادث  
وأعراض الحوادث)

وقد علمت أن الكلام المعنى الشري تصق بإطلاوين أحدهما - على المعنى المصدري  
وثانيهما - على المعنى الحاصل بالمصدر فكذلك كلام الله المعنى ، يطلق بإطلاوين أحدهما -  
على نظير معنى مصدري فنشر وثانيهما - على نظير المعنى الحاصل بالمصدر للنشر وإنما  
قلنا (على نظير) - هو مقرر من وجوب تبره الكلام الإلهي المعنى عن الخلق وأشياء  
الخلق معروفه - المعنى الأول أشبه بالمعنى المصدري الشري وقالوا «إياه أصفة  
التيهه بمنفعة ما كتبت الحكمة من أول العاتجة إلى آخر سورة الناس» .

وهذه كتبت أربعة مجردة عن الحروف اللغوية والذهنية والروحية وهي مقرنة  
غير متعاقبة كالصورة تطبع في امرأة مقرنة - غير متعاقبة وقالوا في تعريفهم هذا :  
إياها حكمة لأنها ليست أمداً حقيقياً مصوراً - صورة الحروف والأصوات وقالوا -  
إياها أربية ، ليستواها معنى تقدم . وقالوا - إياها مجردة عن الحروف اللغوية والذهنية  
والروحية ليستواها أيها محبوبة ، وكذلك قالوا - إياها غير متعاقبة ، لأن التعاقب يستلزم  
الزمان ، والزمان حدث وأثبتوا لها الترتيب ، ضرورة أن القرآن حقيقة مترتبة بل بمقارنة  
سجل ترتبها واستدام .

إذا عرفت هذا الإطلاق الأول عند المتكلمين ، سهل عليك أن تعرف إطلاقهم الثاني للقرآن الكريم ( وهو أنه تلك الكلمات الحكيمية الأثرية لقرينة في غير تعاقب الحروف المجردة عن الحروف اللفظية والذهنية والروحية ) وهو تعريف للقرآن كلام الله تعالى شبه المعنى الحاصل بالمصدر لكلام البشر لنفسه . ذلك إطلاق احتشوا به متكلمون كآراء

وهذا إطلاق ثالث للقرآن نقول به متكلمون أيضاً لكن بشارتهم فيه الأصوليون وادعوا علماء العربية ذلك أنه هو .

الاشك في اللفظ مرسل على النبي ﷺ من أول النسخة إلى آخر سورة الناس « متارخصاً » التي سذكرها بعد قليل .

وهو مظاهر وصور لتلك الكلمات الحكيمية الأثرية ، التي أشهد لها بها أفعالاً

وطلق القرآن إطلاقاً رابعاً على النقوش المرقومة بين دفتي مصحف ، باعتبار

أن النقوش دالة على الصفة القديمة ، والكلمات المعينية ، واللفظ مدرج . وهذا إطلاق شرعي سام . ولصرب لك مثلاً يوضح ذلك المقام الذي صلب فيه الأفهام ، ولت في فيه الأقدام

رحل شاعر ، كشراف الدين النوصيري رحمه الله - لا رب أنه كان يحمل في نفسه قوة شاعرة ، يستصيع أن يصوغ بها ما شاء من غرر القصائد ، وعندما اتجهت شاعريته فعلاً ، أن يتمدح أفضل الخديوة بصوات الله وسلامه عليه بقصيدته المعروفة « همرية » ، لا شك أنه عالج الموضوع في نفسه ، واستحضر المعاني والألفاظ والأوزان ، حتى تمثل له ذلك القصيدة في نفسه وانتزعت نفسه به ، على وجه إذا تكلم به بصوت حمي كان عين نظمه لمعق لمورور . ثم لا شك أنه « طق » بقصيدته بعد ، ثم كفه بعد أن أشده بهذا الاسم الشهير بطهرية في مدح حيدرآبرية ، يمكن أن يقر

به الإطلاقات الأربعة التي أطلعهم القرآن الكريم : نصح أن يطلق اسمرة على امرأة الشاعر لذلك ارجل . اعتبر اتحاهم إلى هذا النظم الخاص ، الذي تمثل في نفسه من قبل أن يأخذ صورة اللحن والنقش . وبصح أن يطلق على هذا نظم الخاص ، الذي تمثل في نفسه من قبل أن يظهر بمظهر الألفاظ والنقوش كذلك . وبصح أن يطلق على هذا النظم بعد أن تمثل أصواتاً ملفوظة وحروفاً موروثة . وبصح أن يطلق على هذا النظم متمثلاً في صورته المرسومة ، ونقوشه المكتوبة .

### القرآن عند الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية

أظنى قد أطلت عليك ولكن المقام دقيق وخطير ، فلا تصق ذرعا بهذا التطويل والتمثيل ، ثم استمع لب وعدتك إياه من بيان (معنى القرآن على أنه اللفظ منزل على النبي ﷺ من أول فاتحة إلى آخر سورة الناس)

هذا الإطلاق كما عمت — ينسب إلى علماء الأصول والدقة والفنسة العربية . ويوافقهم عليه المتكلمون أيضا . غير أن هؤلاء الذين أطلقوه على اللفظ المنزل الخ اعتبروا في تعريفه : قسم من أطل في التعريف وأطنب ، يذكر جميع خصائص القرآن المتأخرة . ومنهم من اختصر فيه وأوحز . ومنهم من اقتصد وتوسط . والذين أطنبوا عرفوه (بأنه الكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ ، المكتوب في المصحف ، المنقول بالقراءة ، المتعمد تلاوته) وأنت ترى أن هذا التعريف جمع بين الإيجاز ، والتعريف على النبي ﷺ ، وسكتانة في المصحف ، واليقين ، والثبات ، والتعمد ، والتلاوة . وهي الخصائص العظمى التي اعتمد بها القرآن الكريم . وإن كان قد امتد كثير سواها . ولا يخفى عليك أن هذا التعريف كان يكفي فيه ذكر مصداق الاوصاف ويكون جامعاً ، غير أن مقدم التعريف مقام إصحاح وبيان ، فيدسه الإطالة بغير ضرورة ذلك والسر . لذلك استدلوا لأقسامهم أن يريدوا منه ومنهوا .

والذين اختصروا وأوحزوا في التعريف . منهم من اقتصر على ذكر وصف

واحد هو الإعجاز ووجهه نظرم في هذا الاختصار أن الإعجاز هو الوصف الداني للقرآن .  
وأه الآية الكبرى على صدق النبي ﷺ ، والشاهد العدل على أن القرآن كلام الله .

ومهم من اقتصر على وصيين : هما الإبرال و الإعجاز ، وحجتهم أن ما عدا هذين الوصفين ليس من الصفات اللازمة للقرآن . بدليل أن القرآن قد تحقق فعلاً بهما دون سواهما على عهد النبوة .

ومنهم من اقتصر على وصفي النقل في المصاحف و التواتر ، لأنها يكفين في تحصيل الغرض ، وهو بيان القرآن وتمييزه عن جميع ما عداه .

والذين توسعوا : منهم من عرض للإزال الأنفاظ ، وللكفاية في المصاحف والنقل بالتواتر لحسب ، موثقاً رأيه بأن المقصود هو تعريف القرآن لمن لم يدركه زمن النبوة ، وأن ما ذكره من الأوصاف هو من القوازم البينة لأولئك الذين لم يدركوها ، بخلاف الإعجاز فإنه غير بين بالنسبة لهم ، وليس وصفاً لازماً لما كان أقل من سورة من القرآن . ومن أولئك الذين توسعوا من عرض للإزال والنقل بالتواتر والتعبد بالتلاوة فقط ، مستنداً إلى أن ذلك هو الذي يناسب عرض الأصوليين . وعرفوه بأنه : (اللفظ المنزل على النبي ﷺ ، المنقول عنه بالتواتر ، المتعبد بتلاوته) فاللفظ حتم في التعريف ، يشمل المفرد والمركب . ولا شك أن الاستدلال على الأحكام كما يكون بالمركبات يكون بالمفردات ، كالعام والخاص والمطلق والمفيد . وخرج بالمنزل على النبي ﷺ ما لم ينزل أصلاً مثل كلامه ، ومثل الحديث السوي ، وما نزل على غير النبي ﷺ كالتوراة والإنجيل . وخرج بالمنقول تواتراً جميع ما سوى القرآن من منسوح التلاوة والقراءات غير المتواترة ، سواء أ كانت مشهورة نحو قراءة ابن مسعود « متتابعات » عقيب قوله تعالى « فَمَنْ لَّمْ يُحِزْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ » أم كانت آحادية كقراءة ابن مسعود أيضاً لفظ « مُتَتَابِعَاتٍ » عقيب قوله سبحانه « وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » فإن شيئاً



من ذلك لا يسى قرآنا ، ولا بأحد حكمه . وحررت الأحاديث القديمة إذا تواترت  
بقولهم « انفع به بتلاوته » .



### هل القرآن علمُ شخص ؟

أسلفنا أن القرآن يطلق على الصفة القديمة ، ويطلق على الكلمات الحكمية الأرية ،  
وهذان الإطلاقان لا تعدد فيهما ألبتة ، لا حقيقة ولا اعتباراً . بل هما مبرهان عنه ،  
لأن التعدد من أمارات الحدوث . كيف وهما قديمان ؟

وإذا فنفظ القرآن علم شخص بهذين الإطلاقين لا محالة . أما إذا أريد بالقرآن  
« اللفظ المنزل » فمذا يكون الاختلاف . فإحدى السائد أنه علم شخص ، مدلوله تلك الآيات  
للنزلة المتأخرة بمصانفها العليا من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس . وهذه الألفاظ المعينة  
لا يقدح في تشخيصها اختلاف المتفطين ولا تعدد القارئین ، كما لا يقدح في تشخيص محمود مثلاً  
أن يكون في مكة أو في المدينة ، ولا أن يقترب في أطوار مختلفة من طفولة إلى شيخوخة ،  
ومن صحة إلى مرض ، ومن حياة إلى موت ، ونحو ذلك . وبعضهم يجعله علم جنس ، نظراً  
إلى تعدد هذه الألفاظ المنزلة بتعدد قارئها وكاتبها . وهذا مردود من وجهين :

أحدهما : أن علم الجنس ضرورة محوية اقتضتها أحكام لفظية ، كما متناع إضافته ،  
ودخول آل عليه . ولا ضرورة لها لفظية .

ثانيهما : أن علم الجنس نسكرة في المعنى . وأفراده منتشرة متعددة حقيقة لا اعتباراً .  
والتعدد المحسوس هذا اضارى لا حقيقى . لقطع بأن ما قرؤه أو يكتبه كل منا فهو القرآن  
عينه لا فرد من أمراه .

### هل يُصاع للأعلام تعريف

في علينا أن نذكر . إذا كان القرآن علماً فكيف يصح أن يُصاع له تعريف

بل تعاريف على نحو ما سبق ؟ مع أن التعاريف لا تكون إلا للكليات ، والقلم حر في  
مركب من الماهية ومشخصتها . والمشخصات لا يمكن معرفتها إلا بالاطلاع عليها بالحواس  
كالإشارة مثلاً ، أو بالتعبير عنها باسم علم ؟  
ولنا على ذلك أحوية ثلاثة :

أولها : أنا نعلم أن التعاريف لا تكون إلا للكليات . لم لا يجوز أن نعرف  
الجزئيات بأمور كلية لا يتحقق مجموعها في الخارج إلا في هذا الشخص مخصوصه . وهذا  
الطواب قريب مما ذكره صاحب التنوير ؛ إذ قال : « الحق أن الشخص يمكن أن يُحدَّ بما  
يفيد امتياده عن جميع ما عداه بحسب الوجود ، لا بما يفيد تميّنه وتخصّصه بحيث لا يمكن  
اشتراكه بين كثيرين بحسب العقل . فإن ذلك إنما يحصل بالإشارة لا غير » .

ثانيها : أن نعلم أن التعاريف لا تكون إلا للكليات . لكن ماد كره ليس  
تعريف حقيق إنما هو صابط بغير ، وليس معرف .

ثالثها : أن هذا تعريف على رأي الأصوليين الذين لا يشترطون في التعاريف أخصاصاً  
ولا فصولاً بل الحد عديم هو الجامع لما عدا مطلقاً وعليه فيصح أن يحد الشخص عند  
الأصوليين دون المناطقة

### إطلاق القرآن على الكل وعلى أبعاضه

لا شك أن القرآن يطلق على الكل وعلى أبعاضه . فيقال لمن قرأ اللفظ المراد كله :  
إنه قرأ قرآنًا وكذلك يقال لمن قرأ ولو آية منه : إنه قرأ قرآنًا لكنهم احتجوا :  
ففي : إن بعض قرآن حقيقة في كل منهما ، وإدأ يكون مشتركاً بعبارة . وفي : هو موضوع  
للقدر المشترك بينهما ، وإدأ يكون مشتركاً معويًا ، ويكون مدلوله حينئذ كلياً

وقد يقال : إن إطلاقه على الكل حقيقته وعلى البعض محار والنحقيق أنه مشترك لفظي ، دليل التبادر عند إطلاق اللفظ على الكل وعلى البعض كليهما ، والتبادر أمانة الحقيقة . والقول بعمية الشخص فيه كما حققه آغا يجمع أنه مشترك معنوي ، فتعين أن يكون مشتركاً لفظياً . وهو ما يفهم من كلام الفقهاء إذا قالوا مثلاً : ( يحرم قراءة القرآن على الحب ) فهم يقصدون حرمة قراءته كله أو بعضه على السواء

### ٣ — معنى علوم القرآن بالمعنى الإصافي

الآن وقد انتهينا من الكلام على انتصايفين في لفظ « علوم القرآن » مثقل بك إلى أن الإضافة بينهما تشير إلى طوائف المعارف المتصلة بالقرآن سواء أكانت تصورات أم تصديقات ، على ما عرفت وحه اختياره في مدلول لفظ العلم في عرف التدوين العام . وإذ حمت هذه العلوم ولم يرد لأنه لم يقصد إلى علم واحد يتصل بالقرآن إنما أريد شمول كل علم يخدم القرآن أو يستند إليه ويتقطن ذلك علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الرسم العثماني ، وعلم إخراج القرآن ، وعلم أسباب النزول ، وعلم الناصح والمنسوخ ، وعلم إعراب القرآن ، وعلم عرب القرآن ، وعلوم الدين واللغة إلى غير ذلك . وتلك أشتات من العلوم توسع السيوطي فيها حتى اعتبر منها علم الهيئة والهندسة والطب ونحوها . ثم نقل عن أبي بكر بن العربي في قانونه ابتأويل أنه قال : « علوم القرآن ٧٧٤٥٠ جنس وأربعمائة وسبعة آلاف وسبعون ألف علم ، على عدد كلم القرآن مصروبة في أربعة . إذ أن لكل كلمة ظهراً وطلاً ، وهداً ومطلماً . وهذا في المفردات حسب أم إذا اعتبرت التراكيب وما يندرج من روائط كان ما لا يحصى ، مما لا يعد ، إلا الله تعالى » اهـ تنصرف قليل

وأحب أن نعرف أن هذا الكلام من السيوطي وابن العربي ، محمول على صرف

كبير من التأويل والتوسع ، بأن يراد من العلوم كل ما يدل عليه القرآن من المعارف ، سواء أكانت علوماً مدونة أم غير مدونة ، وسواء أكانت تلك الدلالة تصرّحية أم تلميحية ، عن قرب أم عن بعد . فأما أن تُراد العلوم المدونة صراحة فدون ذلك حرط القناد وصمود السباء .

### القرآن كتاب هداية وإعجاز

ونتحقق لقول في هذا الموضوع : أن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز ، من أجل هذين المصطلحين بول ، وفيهما تحدّث ، وعليهما دل . فكل علم يتصل بالقرآن من ناحية قرآنيته ، أو يتصل به من ناحية هدايته أو إعجازه ، فذلك من علوم القرآن . وهذا ظاهر في العلوم الدينية والعربية

أما العلوم السكونية ، وأما المعارف والصناعات ، وما حدّ أو يحث في العالم من فروع ومعارف كعلم الهندسة والحساب ، وعلم الهيئة والملك ، وعلم الاقتصاد والاجتماع ، وعلم الطبيعة والكيمياء ، وعلم الحيوان والنبات ، فإن شيئاً من ذلك لا يحمل عبء من علوم القرآن ؛ لأن القرآن لم يبرل سُدّال على نظرية من نظريات الهندسة مثلاً ، ولا ليقرّر قانوناً من قوانينها . وكذلك علم الهندسة لم يوضع ليخدم القرآن في شرح آياته ، أو بيان أسرارها . وهكذا القول في صنائر العلوم السكونية والصناعات العالمية . وإن كان القرآن قد دعا المسلمين إلى تعلمها وجِدقها والتمهّز فيها خصوصاً عند الحاجة إليها وإنما قصد إياه لا يحمل اعتبار علوم السكون وصناعاتها من علوم القرآن مع أن القرآن يدعو إلى تعلمها ؛ لأن هناك فرقاً كبيراً بين الشيء يحثّ القرآن على تعلّمه في هومته أو خصوصاته ، وبين العلم بذلك القرآن على مسائله أو يرشد إلى أحكامه ، أو يكون ذلك العلم حادماً للقرآن بمسائله أو أحكامه أو معرّياته . فالأول ظاهر أنه لا يعتبر من علوم القرآن بخلاف الثاني وهو ما يريد أن يرشدك إليه ، وأن تخرص أنت بدورك عليه .

## القرآن يحصُّ على الانتفاع بالكون

أحل: إن القرآن حصَّ على معرفه علوم الكون وصنائع العالم، وحثَّ على الانتفاع بكل ما يقع تحت نظرنا في الوجود قال سبحانه وتعالى ﴿لَقَدْ نَظَرْنَا مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقال حدث حكيمته ﴿وَسَخَّرْنَا لَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون ﴿فَلَا يَبْقَى بِاسْمَيْنِ وَهُمَا الْمُخَاطَبُونَ هَذَا أَنْ يَرَوْا مِنْ وَجْهِ هَذِهِ الْمَنَافِعِ عَاقِبَةً، وَلَا أَنْ يَرَهُدُوا فِي عِلْمِ الْكَوْنِ، وَلَا أَنْ يَحْرَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَوَائِدَ التَّمَتُّعِ شَمَرَاتِ هَذِهِ الْقُوَى الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَوْعَدَهَا اللَّهُ تَخْلُقُ، فِي حِرَاسِ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، وَلِهَذَا بَصَّرَ عَامِلُونَهَا عَلَى أَنْ تَعْمَلَ تِلْكَ لِعِلْمِ الْكَوْنِيَّةِ، وَحَقِيقِ هَذِهِ انْصَاعَاتِ الْعَبِيدِ، فَرَصَّ مِنْ فُرُوشِ الْكَمَالَاتِ، مَادَامُوا فِي حَاجَةِ إِيَّاهِ، لِلْمَصْنُوعَةِ الْمَرْدُ أَوْ الْمَجْمُوعِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْأَصْحَحَ، وَحَيَاةً فِي هَذَا الْوُجُودِ لِلسَّلَامِ الْمُسْلَحِ، وَالْأَسْلُحَةِ فِي كُلِّ عَصْرٍ عَامَّةً وَفِي هَذَا الْمَصْرِ حَاصَّةً إِنَّهُ تَعَوُّمٌ عَلَى التَّمَتُّعِ فِي الْعِلْمِ وَعَلَى السَّقَى فِي خِدْمَةِ الْمَصْنَعَاتِ وَتَعْمُورِ، وَالْوَيْلُ لِمَنْ لِلضَّعِيفِ، وَخَطَّ كُلَّ الْخَطِّ لِلْقَوِيِّ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ ﴿وَأَعِذُوا لَهُمْ أَسْتَغْفِرُ مِنْ قُوَّتِهِ﴾، وَالَّذِي عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ فَمَا رَوَاهُ مِنْهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «مُؤْمِنٌ قَوِيٌّ خَيْرٌ مِنْ مُؤْمِنٍ لَضَعِيفٍ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ أَحْرَصٌ عَلَى مَا سَعَلَكَ، وَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: نَوَءٌ أَنْ فَعَلْتُ كَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَيْسَ قَوْلُ: قَدَّرَ اللَّهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ. إِنَّا نَوَءٌ تَفْتَحُ عَمَّا اشْتَبَهَ».

## إحسان علمي للقرآن

وأحب ألا أنتهى من هذا الموضوع حتى أسبغك في شيء آخر حدير «الطير» واشتدِير: وهو أن القرآن الكريم في طريقة عرصه للهداية والإعمار على الخلق قد حاكم الناس إلى عيولهم، وفتح عيولهم إلى الكون وما في الكون من سماء وأرض،

حور وعمر ، وحيوان وسات ، وخصائص وطواهر ؛ وبوامس وسنن . وكان القرآن  
 في صفة عرصه هذه موقفة كل لتوفيق ، من كان معصراً أسير الإعجاز ؛ لأن حداثته  
 عن تلك انكوبيات كان حديث العظيم سرارها ، الخبير بشفقة ، المحيط بعومها  
 ومعارفها ، على حين أن هذا الذي جاء بالقرآن رَحْلُ أُمِّيٍّ ، شَأْنُ أمة أُمِّيَّة حذله ،  
 لا صلة لها بتلك العنوم ، وبهم ، ولا إلامَ لها بكنسها ومداخلها . بل إن حص تلك  
 العنوم لم يشأ إلا بعد عهد النبوة ومهبط الوحي بقرون وأحويل . فَيَ يكون لرحل  
 أُمِّيٍّ كمحمد ذلك اسجل الجامع تلك المعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم  
 عليم ؟ قال سبحانه مقررأ هذا الإعجاز العلي : « وما كُنْتُمْ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ  
 كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّوا سَبِيلَ نَبِيٍّ إِذَا تَلَّاتِ الْمُبْتَلُونَ » . « كُنْ هُوَ آيَاتُ نَبِيِّتٍ فِي  
 صُدُورِ الَّذِينَ أَوْفُوا أَعْلَمُ ، وَمَا يَخْتَصِرُ بِآيَاتِهِ إِلَّا الْقَائِمُونَ » . ولعل من الحكمة أن  
 أن سوق لك عودحين من انقرآن على سبيل التمثيل ، أوهم في سورة النور بإذ يقول  
 الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَعَادَتَهُمْ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يُجْعَلُهُ رُكَّامًا فَيَقْرَأُ  
 الْقُرْآنَ يَخْرُجُ مِنْ حِلَالٍ وَيُخْرِجُ مِنْ سُتُورٍ مِنْ حَيْثُ يُرِيدُ فَيَصِيبُ بِهِ  
 مَنْ يَشَاءُ وَيُضِرُّهُ غَيْرُ شَاءٍ تَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأُنْصَارِ » قل لي - ربك -  
 ألا يملكك المعجب حين تقرأ هذا النص الكرم الذي يتعمق وأحدث الطويات العمية  
 في الطواهر الطعمية . من سحاب ، ومطر ، وروي ١٩

المودج اثنى : يقول الله تعالى في سورة اقبامه مسافاً ومقرر كمال اقتداره على  
 إعادة الإرسال وعنه مدموته . « يُجْعَلُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ لَنْ يَجْمَعَ عِصْمَةً . كُلُّي  
 قَادِرِينَ عَلَى أَنْ سُوِّىَ سَاءٌ » . أرحوا أن تف قبيلا عند تخصيصه « السان »  
 بالقسوة في هذا المقام ثم نسمع بعد ذلك إلى هذا العلم الوليد ( علم تحقيق الشخصية )  
 في عصر الأخير ، وهو يقرر أن أدق شيء وأبدع في ساء جسم الإنسان ، هو نسوة  
 السان ، حتى إنه لا يمكن أن نجد ساء لأحد يشبه ساء آخر بحال من الأحوال .  
 وقد استهوا من هذا الفرار إلى أن حكموا السان في كثير من القصا ، والحوادث

« فَتَدَارَى لَهُ أَجْسُنُ الْخَائِبِينَ » ، ولا أريد أن أصيل عليك في هذا ، فمجردات القرآن العلمية لها ميدان آخر ، إنما هي نظرة خاصة بوضوح ، المراد بعلوم القرآن ، ونوحيها ككلام سيوصي في الإتقان ، ونعتد به عن ابن عربى في التناول وافقه وحده هو المحيط بأسرار كتابه . ولا يزال السكون وما يحدث في السكون من علوم وفنون وشؤون لا يزال كل أوثق يشرح القرآن ويفسره ، ويميط اللثام عن نواح كثيرة من أسرارهم ويعمرهم ، مصداق لقوله جل ذكره « سُبْحَنَهُمْ آيَاتِهِ فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى نَسْتَبِينَ بِهِمْ أَنَّهُ حَقٌّ » . « وَاللَّهُ غَايِبٌ عَلَى أَعْيُنِهِمْ » . « الْكُرْآنُ أَكْثَرُ أَمْسٍ لَا يَنْفَعُونَ »

٤ معنى علوم القرآن كعلم مدون ، وموضوعه ، وقائده

أما بعد ، فقد تبين لك في سبق ، أن لفظ علوم القرآن يراد علمه الإصافي ، ما يشمل العلوم الدينية والعلمية ، وميدك هذا أن هذا اللفظ يدل من ذلك المعنى الإصافي ، ثم جعل غملاً على نفس المدون ، وأصبح مدلوله بعد النقل وهو علم ، غير مدلوله قبل النقل وهو مركب إصافي ، ضرورة أن هذا العلم ليس هو مجموعة العلوم الدينية والعلمية ، بل هو غيرهما ، وإن كان مستمداً منهما ، وموجوداً عنهما ، ويمكن أن يُعرفه ، بأنه ما حدث تنسيق بقرآن الكريم من ناحية بروه ، وترتيبه ، وجمعه ، وكنهه وقرأته وتفسيره ، وإيجازه ، ووسجته ومسوحه ، ودفع شبه عنه ، ونحو ذلك .

وموضوعه قرآن الكريم من أية ناحية من أسواحي المذكورة في التعريف بخلاف علوم القرآن ، المعنى الإصافي ، فإن موضوعه هو مجموع موضوعات تلك العلوم المنصوبة تحت لوائه . وموضوع كل واحد منها هو قرآن الكريم من ناحية واحدة من تلك أسواحي . فبعد انقراءات مثلاً موضوعه القرآن الكريم من ناحية معطه وأدائه ، وعلم تفسير موضوعه قرآن الكريم من ناحية شرحه ومعناه ، وهما خيراً

وقائده هذا العلم ترجع إلى ثقته إلهامية إمامة في القرآن الكريم ، وإلى التسليم بالمعروف لقيمه فيه ، مستعنداً بحسن الدفاع عن حقي الكتاب العزيز ، ثم إلى سهولة

حوص عمار تفسير القرآن الكريم به كمفتاح للمفسرين ، مثله من هذا الناحية كمثل علوم الحديث بالنسبة لمن أراد أن يدرس علم الحديث .

وقد صرح السيوطي بذلك في حطية كتابه الإتقان إذ قال : « ولقد كنت في زمان الطلب أنصب من المتقدمين ، إذ لم يدوبوا كتاباً في أنواع علوم القرآن ، كما وصموا ذلك بالنسبة إلى علم الحديث » ١٠ .

ثم رأيت صاحب كتاب التبيان في علوم القرآن ، يشير إلى ذلك المعنى ؛ إذ وضع على طرقة كتابه الكلمة الآتية :

« وهذا هو المقدمة الصغرى من مقدمتي التفسير » .

هذا - وإتنامي هذا العلم القرآن ( بالجمع دون الأفراد ) . للإشارة إلى أنه خلاصة علوم متنوعة ، باعتبار أن مباحثه المدونة تتصل اتصالاً وثيقاً - كما علمت - بالعلوم الدينية والعلوم العربية ، حتى إنك لتجد كل مبحث منها خليقاً أن يُنْشَأَ في عداد مسائل علم من تلك العلوم .

فنسبته إليها كنسبة الفرع إلى أصوله ، أو الدليل إلى مدلوله وما أشبهه بباقة منسقة من ورود والياسمين ، إزاء ستار حافل بألوان الزهور والرياحين . « والحمد لله رب العالمين » .

## المبحث الثاني

في تاريخ علوم القرآن وظهور اصطلاحه

عهد ما قبل التدوين

كان الرسول ﷺ وأصحابه يعرفون عن القرآن وعلومه ، ما عرف العلماء وموق ما عرف العلماء من بعد . ولكن معارفهم لم توصع على ذلك العهد كفتون مدونة ، ولم تجمع في كتب مؤلفة ، لأنهم لم تسكر لهم حاجة إلى التدوين والتأليف .



أما الرسول - صواب الله وسلامه عليه - فلا به كان يتلقى الوحي عن الله وحده .  
والله تعالى كتب على نفسه الرحمة ، ليجمعه له في صدره ، وليطلق له به قراءته  
وتريته ، ويهيئ له الله من عنده وأسراره . اقرأ إن شئت قوله سبحانه .  
« لَا تُحَرِّكْ بِهِ بِنَاكَ يُفْعَلُ » . إن علمنا حجة وقراءته ، فإذا قرأه وسبح  
دُرَّاهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلِيمًا نَدَاهُ .

ثم بلغ الرسول ما أرس عليه لأصحابه ، وقراه على الناس على ما كتبه أي على  
مهل ونودة ، يجمعوا أحده ، ويحفظوا لفظه ، ويهملوا سره . ثم شرح الرسول  
لهم القرآن قوله ، وعمله ، وتقريره ، وتخلقه ، أي حقه الجامعة لأقواله وأفعاله ،  
وتعريفاته ، وصفاته ، مصدق قوله سبحانه « وَنَزَّلْنَا إِلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ  
مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَمَعْلَمُهمْ يَتَفَكَّرُونَ » . ولكن الصحابة وقتئذ كانوا عرباً خلصاً ،  
متشبهين بجميع خصائص مروية ومرايها . الحكامة من قوة في الحافظة ، ودكاء في  
القرينة ، وتدقيق للبيان ، وتقدير للأسماء ، وورع ! يسمعون دقق معير ، حتى  
أدركوا من علوم القرآن ومن بحاله سيقتهم وصفاً فطرتهم لا يستطيع بحس أن يدركه  
مع راحة علوم وكثرة العلوم .

وكان أصحابه رضوان الله عليهم مع هذه الخصال أميين ، وأدوات الكثرة  
لم تكن ميسورة لديهم ، والرسول بهم أن يكتبوا عنه شفعا غير القرآن وقال لهم أول  
العهد نزول القرآن فيما روه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه  
« لَا تَكْتُبُوا عَنِّي . وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي قُرْآنَ فَلَمْ يَحْجُ . وَحَدَّثُوا عَنِّي فَلَا حَرْجَ وَمَنْ  
كَتَبَ عَنِّي فَلَمْ يَحْجُ فَلْيَبْئُوهُ مِنْ بَعْدِهِ » . وذلك بحافة أن يلتبس القرآن بغيره ، أو  
يختلط بالقرآن ما ليس منه ، ما دام الوحي لا يزال بانقرآن . فمثل تلك الأسباب المتصورة لم  
تكتب علوم القرآن ، كما كتب الحديث الشريف . ومضى لرعين الأول على ذلك في عهد  
الشريطين أي بكر وعمر . ولكن الصحابة كانوا معرب الأمثال في نشر الإسلام

وتعاليمه ، والقرآن وعيونه ، والسنة وتحريرها ، لميلاً لا بدوياً ، ومشاهدة لا كتابة .

### عهد التمهيد لتدوين علوم القرآن

ثم جاءت خلافة عثمان رضي الله عنه ، وقد انقسمت رقعة الإسلام ، واختلط العرب الفتحون بالأُمم التي لا تعرف العربية ، وحيث أن تذوق حصائص العروة من العرب من جراء هذا الفتح والاختلاف ، يل حيف على القرآن نفسه أن يحتلف المسنون فيه لأن لم يجمعوا على مصحف إمام ، فتكون فتنة في الأرض وفساد كبير . لهذا أمر رضي الله عنه أن يجمع القرآن في مصحف إمام ، وأن تُنسخ منه مصحف يبعث بها إلى أقطار الإسلام ، وأن يحرق الناس كل ما عداها ولا يعتمدوا سواها . كما بأتيتك تفصيله في مبحث جمع القرآن وكتابه .

وهذا العمل وضع عثمان رضي الله عنه الأساس لما سمي به علم رسم القرآن أو علم الرسم العثماني .

ثم جاء علي رضي الله عنه فلاحظ المعمة تحيف على اللفظة العربية ؛ وسمع ما أوحس منه حينئذ على لسان العرب فأمر أن الأسود الدؤلي أن يصنع بعض قواعد لحجية القرآن من هذا التبعث والتخل ، وخط له الخطوط وشرع له المسجع . وبذلك يمكن أن يعتبر أن علي رضي الله عنه قد وضع الأساس لما سمي به علم النحو ، ويليه علم إعراب القرآن . (على الخلاف في هذه الرواية) .

ثم انقضى عهد الخلافة الرشيدة ، وحده عهد بني أمية ، وبعده مشهيرة لصحابة والتابعين مسجعة إلى نشر علوم القرآن برواية والتفصيل ، لا بالكدة والتدوين . ولكن هذه المهمة في هذا الشر صحت أن تعتبره تمهيداً لتدوينه . وعلى رأس من صرت سهم وفيه في هذه الرواية . الأئمة الثلاثة ، واس عيسى ، واس مسعود ، ورند من ثبت . وأبو موسى الأشعري ، وعند الله من لا يزول وكلمهم من الصحابة رضوان الله عليهم .

وعلى رأس التاميين في ثلث الروايات : محاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، وقتادة ،  
والحسن البصري ، وسعيد بن جبير ، ورند بن أسيد المديني ، وعنه أحمد بن عبد الرحمن  
ومالك بن أنس من تلميذ التابعين ، روى عنه عهدهم أجمعين . وهؤلاء جميعاً يعقبون أنهم  
واضعوا الأساس لما يسمى علم التفسير ، وعلم أسباب النزول ، وعلم النسخ والمنسوخ ،  
وعلم عرب القرآن ، ونحو ذلك . وستجد طائفة هذا لإجمال في بحث طبقات المفسرين .

### عهد التدوين لعلوم القرآن بالمعنى الإصافي

ثم جاء عصر لتدوين ، فأنعت كتب في أنواع علوم القرآن ، وأنعمت المهم قبل  
كل شيء إلى التفسير ، . عنباره أم العلوم القرآنية لما فيه من تعرض لمسألة في كثير  
من المسائل عند شرح لكتاب العزيز . ومن أوائل السكاكين في التفسير : شعبة بن  
الحجاج ، وسفيان بن عيينة ووكيع بن الخراج ، ونفاصهم جماعة لأقوال الصحابة  
والتابعين . وهم من علماء القرن الثاني . ثم تلاهم ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ  
وكتابه أحسن التفسير وأعظم ، لأنه أول من عرض لنحوه الأقوال ، وترجيح بعضها  
على بعض ، كما عرض للإعراب والاستنباط . وفتت العناية بالتفسير قائمة إلى عصرنا  
هذا ، حتى وجدت منه مجموعة رائعة فيها لمعجب والمطرب ، وموخر والمطوّل والمتوسط ،  
ومنها التفسير المفعول والتفسير بالأنوار ، ومنها تفسير القرآن كله ، وتفسير جزء ، وتفسير  
سورة وتفسير آية ، وتفسير آيات الأحكام إلى غير ذلك

أما علوم القرآن الأخرى ، وفي مقدمة مؤرخين فيها : علي بن المديني شيخ المجازي ؛  
إدريس بن أبي بكر ، وأبو عبيد بن قاسم بن سلام ؛ إذ كتب في المنسوخ والمنسوح ؛  
وكلاهما من عهد القرن الثالث . وفي مقدمة من أتوا في عرب القرآن : أبو بكر  
ابن جني ، وهو من علماء القرن الرابع . وفي طليعه من صنف في إعراب القرآن :  
علي بن سعيد الخواف ، وهو من علماء القرن الخامس . ومن أوائل من كتب في

مبهمات القرآن: أبو القاسم عبد الرحمن المعروف بالسبيل، وهو من علماء القرن السادس. كذلك تصدّر للتأليف في محار القرآن: ابن عبد السلام، وفي القراءات: عمّ الدين السحاوي، وهما من علماء القرن السابع.

وهكذا قويت العزائم، وتبارت المهمم، ونشأت علوم جديدة للقرآن. وظهرت مؤلفات في كل موع منها، سواء في ذلك أقسام القرآن، وأمثال القرآن، وحيح القرآن، وبدائع القرآن، ودرسم القرآن، وما أشبهها مما يروعك نصوره. ثم لا يزال المؤلفون لا اطلاع عليه، ومما يعلأ حرائن كاملة من أعظم المكتبات في العالم. ثم لا يزال المؤلفون إلى عصر ما هذا يزيدون، وعلوم القرآن ومؤلفاته تنسى وتردهر وتريد، بينما الزمان ينفى والعالم يبيد! أليس إبحاراً آخر للقرآن؟ يريك إلى أي حد بلغ علماء الإسلام في خدمة التفريل. ويريك أنه كتاب لا تنفى محامته، ولا تنقصى مدارفه، ولن يستطيع أن يحيط بأسراره إلا صاحبه ومفرله!

إذا أصغت إلى علوم القرآن ما جاء في الحديث السوي الشريف وعلومه وكتبه ونحوه باعتبارها من علوم القرآن، نظراً إلى أن الحديث شارح للقرآن سبب مهماته، وبفضل محملاته، ويخصص عامته، كما قال سبحانه لنبيه ﷺ «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ لَقَدْ كُرِّرَ لِنُتَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا بُرُكَّ إِلَيْهِمْ وَكَوَلَّمَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» أقول: إذا أصغت الحديث السوي وعلومه إلى علوم القرآن، تراءى لك بحر متلاطم الأمواج. فإذا ردت عليها سائر العلوم الدينية والعربية باعتبارها خادمة للقرآن أو مستمدة منه، رأيت نفسك أمام مؤلفات كالحبال، وموسوعات تكاثر الزمان، ولا يسعك حيشد إلا أن تردّد قول الله «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ».

وترداد محباً إذا علمت أن طريقة أولئك المؤلفين في تأليفهم، كانت طريقة استقيام واستقصاء، يثمّد أصحابها أن يحيطوا بمحزنيات القرآن من الناحية التي كتبوا فيها بقدر طاقتهم البشرية. فن يكتب في عريب القرآن مثلاً بذكر كل مورد

من معردات القرآن التي فيها عراة وإسهام ، ومن يكتب في محار القرآن يقتنى أثر كل لفظ فيه محاراً أياً كان نوعه في القرآن ، ومن يكتب في أمثال القرآن يتحدث عن كل مثل صر به الله في القرآن ، وهكذا سائر أنواع علوم القرآن ولا ريب أن تلك المحمودات الحارة لا تنهي لإسار أن يحيط بها ولو أوى عمره ، واستنفذ وسعه .

لهذا اثراً أنت أعماق العلماء أن يمتصروا من تلك العلوم عمداً حديداً يكون كاللهرس لها ، والدليل عليها ، والمتحدث عنها . وكان هذا العلم هو ما سمي ( علوم القرآن ) بالعلم المدون .

ولا نعلم أن أحداً قبل لائحة الزاعة للهجرة ألف أو حاول أن يؤلف في علوم القرآن مالمعنى المدون ، لأن الدواعي لم تكن موفورة لديهم نحو هذا النوع من التأليف . وإن كنا نعلم أنها كانت مجموعة في صدور المبرزين من العلماء ، على الرغم من أنهم لم يدونوها في كتاب ، ولم يعرودوها باسم

أحد : كانت علوم القرآن مجموعة في صدور المبرزين من العلماء . فنحن نقرأ في تاريخ الشافعي رضي الله عنه أنه في محنته التي أشم فيها مأه رئيس حرب العلويين باليمن ؛ وسبق سب هذه التهمة إلى الرشيد مَكْتَلًا بالحدبدي نداد ؛ سأل الرشيد حين لمع علمه وفصله ، فقال : كيف علمك يا شافعي بكتاب الله عز وجل ؟ فإنه أولى الأشياء أن يُبتدأ به . فقال الشافعي : عن أي كتاب من كتب الله نألي يا أمير المؤمنين ؟ فإن الله تعالى قد أرسل كتباً كثيرة . قال الرشيد : قد أحسنت ، لكن إنما سألت عن كتاب الله المنزل على ابن عمي محمد ﷺ . فقال الشافعي : إن علوم القرآن كثيرة ، فهل نألي عن محكمه ومنشأه ، أو عن تقديمه وتأخيره ، أو عن ناصحه ومسوحه ، أو عن . . . أو عن . . . ؟ وصار يسرد عليه من علوم القرآن ، ويحجب على كل سؤال بما أدهش الرشيد والحاضرين .

فأنت ترى من حوار الشافعي هذا ، ومن منحه بالصواب في هذا الموقف الرهيب ،

ما بذلك على أن قلوب أكابر العلماء كانت أماجيل علوم القرآن من قبل أن تجمع في كتاب ، أو تدون في علم . وقد نوه حلال الدين البلقيني في حطبة كتابه مكنية الشافعي التي ذكرتها إذ قال : « قد اشتهر عن الإمام الشافعي رضي الله عنه مخاطبة بعض خلفاء بني العباس ، فيها ذكر بعض أنواع علوم القرآن يحصل منها لمقصداً الاقياس . ونحن لا نستبعد على الشافعي هذا ، فقد كان آية من آيات الله في علمه وذكائه ، وفي ابتكاره وتحميده ، وفي قوة حجته وتوفيقه . حتى إنه وضع كتابه ( المحجة ) في العراق . يستدرك به على مذاهب بعض أهل الرأي ، وألف في مصر كتاباً يستدرك بها على مذاهب بعض أهل الحديث . ثم وضع دستوراً للاجتهاد والاستنباط لم يكن لأحد قبله ، إذ كان أول من صنف في أصول الفقه وهو من علوم القرآن كما علمت . قال ابن خلدون في مقدمته « كان أول من كتب فيه . أي علم أصول الفقه . الشافعي رضي الله عنه ، أمل فيه رسالته المشهورة ، تكلم فيها على الأوامر والنواهي ، والبيان ، والخبر ، والنسخ ، وحكم العلة المنصوصة من القياس » اهـ .

وقال الزركشي في كتابه البحر المحيط في أصول الفقه « الشافعي أول من صنف في أصول الفقه . صنف فيه كتابه الرسالة ، وكتاب أحكام القرآن ، واخلاف الحديث ، وإبطال الاستحسان ، وكتاب جماع السم ، وكتاب القياس الذي ذكر فيه تفصيل المعزلة ورجوعه عن قبول رسالتهم » اهـ رضي الله عنه وعن سائر الأئمة المجتهدين .

## أول عهد لظهور هذا الاصطلاح

ولقد كان المروف لدى الكتاتين في تاريخ هذا الفن ، أن أول عهد ظهر فيه هذا الاصطلاح أي اصطلاح علوم القرآن ، هو القرن السابع . لكني ظفرت في دار الكتب المصرية مكنية لعل من إبراهيم بن سعيد الشهير

بالخوف للثوفى سنة ٣٣٠ هـ « اسمه البرهان فى علوم القرآن » . وهو يقع فى ثلاثين مجلداً ،  
 والموجود منه الآن خمسة عشر مجلداً ، غير مرتبة ولا متعاقبة ، من نسخة مخطوطة .  
 وإذن استطيع أن تقدم تاريخ هذا الفن نحو قرنين من الزمان أى إلى بداية القرن  
 الخامس بدلا من القرن السابع . ولقد كنت مشوقاً أن أقرأ مقدمة كتابه هذا ،  
 لأحد اغترافاً صريحاً منه عن دوائه لإنشاء هذا العلم الوليد . ولكن ماذا أصنع ، والجرء  
 الأول مفقود ؟ غير أن اسم الكتاب يدلنى على هذه المحاولة . وكذلك استعرضت  
 بعض الأجزاء الموحودة فرائقه يعرض الآية الكريمة بترتيب المصحف ثم يتكلم  
 عليها من علوم القرآن ، خاصاً كل نوع منها بعنوان ، فيسوق العظم الكريم تحت عنوان :  
 ( القول فى قوله عز وجل ) . وبعد أن يفرع منه يصنع هذا العنوان : ( القول فى  
 الإعراب ) ويتحدث عنها من الساحة النحوية والصوبية : ثم يتبع ذلك هذا العنوان ( القول  
 فى المعنى والتفسير ) ويشرح الآية بالمأثور والمعقول . ثم ينتقل من الشرح إلى العنوان  
 الآتى : ( القول فى الوقف والتمام ) مبيناً تحته ما يحور من الوقف وما لا يحور . وقد  
 يورد القراءات بعنوان مستقل فيقول ( القول فى القراءات ) . وقد يتكلم فى الأحكام  
 الشرعية التى تؤخذ من الآية عند عرضها ، فى آية ( وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ  
 وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَحَدُّوهُ عِنْدَ اللَّهِ ) من سورة البقرة يذكر أوقات  
 الصلاة وأدائها ، وأنصبة الزكاة ومقاديرها . ويتكلم على أسباب الدنول ، وعلى السجدة ،  
 وما إلى ذلك عند المناسبة . فأتى ترى أن هذا الكتاب أتى على علوم القرآن ، ولكن  
 لا على طريقة صم السطائر والأشياء بعضها إلى بعض تحت عنوان واحد لنوع واحد ، بل  
 على طريقة النشر والتوزيع نعماً لانهشار الأنماط المتشكلة فى القرآن وتوزيعها . حتى كأن  
 هذا التأليف تفسير من التفاسير عرس فيه صاحبه لأنواع من علوم القرآن عند المسبات .  
 وأباً ما يكن هذا الكتاب فإنه محمود عظيم ، ومحاولة حذيره بالتقدير فى هذا الباب . جرى  
 الله مؤلفه خير الخراء .

ثم جاء القرن السادس فألف فيه ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ كتابين : أحدهما اسمه « فنون الأفتان في علوم القرآن » والثاني اسمه « المحتفي في علوم تتعلق بالقرآن ». وكلاهما مخطوط بدار الكتب المصرية.

وفي القرن السابع ألف مَلِكُ الدين السخاوي المتوفى سنة ٦٤١ هـ كتاباً سماه « جمال القراء » وألف أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ كتاباً أسماه « المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز » وما - كما قال السيوطي - عبارة عن طائفة يسيرة ، ونبذة قصيرة ، بالنسبة للمؤلفات التي ألفت بعد ذلك في هذا النوع .

ثم أهل القرن الثامن فكتب فيه بسدر الدين الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ هـ كتاباً سماه « البرهان في علوم القرآن » وتوجد منه نسخة مخطوطة بالخرزانة التيمورية ، في دار الكتب المصرية ، تقع في مجلدين ناقصين . ثم طبع القرن التاسع على هذا العلم باليمن والبركة ، فدرج فيه وترعرع ، إذ ألف محمد بن سليمان الكافيحي المتوفى سنة ٨٧٣ هـ كتاباً يقول السيوطي عنه : « إنه لم يسبق إليه ، وقد اشتمل على بابين : الأول في ذكر معنى التفسير والتأويل والقرآن والسورة والآية . أما الثاني ففي شروط القول في القرآن بالرأى . وبمدها خاتمة في آداب العالم والمثلم » غير أنه قال أخيراً : « ولكن ذلك لم يشف لي غيلاً ؛ ولم يهتدي إلى المقصود سبيلاً » ١ . وفي هذا القرن أيضاً وضع حلال الدين الهلبليي كتاباً سماه « سواقع العلوم من مواقع النجوم » . وقد رتبته على ستة محاور : الأول في مواطن النزول وأوقاته ووقائمه ، وفيه اثنا عشر نوعاً<sup>(٢)</sup> . الثاني في سند القرآن وهو ستة أنواع<sup>(٣)</sup> . الثالث في أداته وهو ستة

(١) السكي ، المدنى ، المعرى ، المصرى ، الليلى ، النهدي ، الصيو ، الشقاني ، الغراشي ،

أسات برول ، أول ما برل ، آخر ما ترز

(٢) للتواتر ، الأحاد ، الشاذ ، قراءات التي سبقت منه رسم ، الرواة ، الخطاط





## علوم القرآن في القرن الأخير

بعد أنه ظهرت في أيامنا نوادر استنفاة لحرارة النشاط والتأليف في هذا العلم إذ ألفت العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري كتاباً جليلاً سماه « التبيان في علوم القرآن » يقع في قريب من ثلاثمائة صفحة . ودرج من تأليفه سنة ١٣٣٥ هـ .

وألف العلامة المرحوم الشيخ محمود أبو دقيفة مذكرة قيحة لطلاب تخصص الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين ، وقفاه العلامة الشيخ محمد علي سلامة فوضع كتاباً جليلاً لطلاب تخصص الدعوة والإرشاد كذلك سماه « منهج الفرقان في علوم القرآن » .

وتوجد مؤلفات في بعض مباحث علوم القرآن لكثير من أفاضل العلماء والأدباء ، نذكر من بينهم الأعلام المرحومين : الشيخ محمد نجيت ، والشيخ محمد حسين الطوسي والشيخ محمد حنف الحبيبي ، إذ كتبوا في نزول القرآن على سبعة أحرف ، وفي نسخ مباحث أخرى ، والمرحوم السيد مصطفى صادق الرافعي ؛ إذ ألفت في إيجاز القرآن كتاباً جليلاً طبعه المحفورة الملك فؤاد الأول على سنته . ومنهم للمرحوم الشيخ عبد العزيز جاديش ، إذ كتب محاضرات موضوعها : أثر القرآن في تحرير العقل البشري وألقاها في نادي دار العلوم . والمرحوم الشيخ عبد العزيز الخولي ؛ إذ وضع كتابه « للقرآن الكريم : وصفه ، أثره ، هدايته ، وإعجازه » . والمرحوم الشيخ طنطاوي جوهري ؛ إذ وضع رسالة سماها : القرآن والعلوم العصرية .

ثم أرى حضرة صاحب لفظة الأستاذ الأكرم الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر للقول بحوار ترجمة القرآن ، وكتب في ذلك رسالة عظيمة شأن وأبداه آخرون ، وتصدى العلامة الكبير الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام فركبها ساعداً للرد على ذلك في كتاب دقيق سماه « مسألة ترجمة القرآن » وظهره آخرون .

وقد طلعت أخيراً على صدر كتاب اسمه « الباطن العظيم عن القول في القرآن الكريم »

والطريقة المثلى في دراسته ، مراعى دقة بحثه وتفكيره ، وراعى رقة أسلوبه وتعبيره  
ووددت لو تم هذا الكتاب ، وهو لصديق العلامة الشيخ محمد عبد الله درار صموث  
الأمر إلى فرنسا الآن ( رزاه الله سلماً عما وأمتع به الإسلام والمسلمين آمين ) .

### خلاصة

ويمكنك أن تستخلص مما سبق أن علوم القرآن كفن مدون استحدث صراحة على  
يد الحرفى في أواخر لقرون الرابع وأو. ثل الخامس ، ثم تربت في حجر بن الجورى والسخاوى  
وأبى شامة في القرنين السادس والسابع . ثم تهرعت في القرن الثامن برعاية أنزركشى .  
ثم بلغت أشدها واستوت في القرن التاسع بعناية اسكافيى وحلال الدين البلقينى . ثم  
اهتزت وربت وأبنت من كل روج بهيج في نهاية القرن التاسع وبداية لعاشر ، بهمة  
خارس ذلك الميدان صاحب كتبى التعبير ، والإنفاق في علوم القرآن . لتسيوطى  
عليه ألف رحمة من الله ورضوان . ثم وقف تنوّه ، بعد ذلك حتى هذا القرن الأخير .  
ثم بدأت تدمش في هذه السنين من حديد ، وعسى أن تعود سيرتها الأولى ( ألا إن  
فصر الله قريب ) .

### كلمة لا يد منها

وقبل أن ننتهى من هذا البحث نعت نظرنا إلى أن هذا العلم يسير على سنة غيره  
من العلوم بين حرر ومعدّ وريده وعصا هى مقدر ما يستهدف له من مؤثرات  
خاصة . فلا بدع أن نحدد في مسهب دراستك اليوم مباحث جديدة ، ومواضع مستكرة ،  
لم يتعلم قبل في سمع عنوم لقرآن ؛ ذلك لأن الأفكار متحركة ومتعددة ، ولأن  
الشهات التى تحوم في رؤوس بعض الناس في هذا العصر ، وبطعن التى يوجهها

أعداء الإسلام في هذا الجليل ، قد تكون هي الأخرى حديثة ومستكرة . ومن الحكمة أن تقابل الناس بمثل سلاحهم ، وأن تدرس في علوم القرآن ما يحمي حتى القرآن الشريف ، من هذا العدوان الخبيث . أضف إلى ذلك أن العلوم نجو بالإعمال والترك ، وتركو بالدرس والبحث . **سُئِلَ أَفَرِ فِي خَلْقِهِ ؟ وَلَنْ نَحْمَدَ لِسَانَ اللَّهِ تَهْدِيلاً .**

## المبحث الثالث

### في نزول القرآن

ل

هذا مبحث مهم في علوم القرآن بل هو أهم مباحثه جميعاً ، لأن العلم بنزول القرآن أساس للإيمان بالقرآن وأنه كلام الله ، وأساس للتصديق بنبوة الرسول ﷺ وأن الإسلام حق . ثم هو أصل لسائر المباحث الآتية بعد في علوم القرآن . فلا جرم أن يقصد رعا جماء : ليكون من تقريره وتحقيقه ، سبيل إلى تقريرها وتحقيقها . وإلا فكيف يقوم البناء على غير أساس ودعام ؟

ولأجل الإحاطة بهذا المطلب العزيز ، نتكلم - إن شاء الله - على معنى نزول القرآن ، ثم على مرات هذا النزول ، ودليل كل نزول ، وكيفيته ، وحكمته ، ثم على الوحي وأدله العقلية والعلمية ، مع دفع الشبهات الواردة في ذلك للتمام .

### ١ - معنى نزول القرآن

جاء التعبير بمادة نزول القرآن وما تصرف منها في الكتاب والسنة ، ومن أمثله قوله سبحانه في سورة الإسراء : **« وَبِالْحَقِّ أَتْرَكْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ »** . وقوله

ﷺ : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سِتَّةِ أَحْرَفٍ » . وهو حديث مشهور بل قيل فيه بالتواتر كما سيأتي .

لكن النزول في استعمال اللغة يطلق ويراد به الحلول في مكان والأولى به . ومنه قولهم « رل الأمير المدينة » ولتعدى منه وهو الإرسال يكون معناه إحلال الحير في مكان وإيواءه به . ومنه قوله جل ذكره « رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » ويطلق النزول إطلاقاً آخر في اللغة على إبعاد الشيء من علو إلى سفلى نحو « نَزَلَ قُلَانٌ مِنَ الْجَبَلِ » . ولتعدى منه يكون معناه تحريك الشيء من علو إلى سفلى ومنه قوله سبحانه : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » .

ولا ريب أن كلا هذين المعنيين لا يليق إرادته هنا في إنزال الله للقرآن ، ولا في نزول القرآن من الله ، لما يلزم هذين المعنيين من المسكانية والجسمية . والقرآن ليس جسمًا حتى يحل في مكان أو ينحدر من علو إلى سفلى ، سواء أردنا به الصفة القديمة المتعلقة بالكلمات الغيبية الألفية ، أم أردنا به نفس تلك الكلمات ، أم أردنا به اللفظ المجزئ ؛ لما عشت من تنزه الصفة القديمة ومتعلقها وهو الكلمات الغيبية عن الحوادث وأعراض الحوادث ، ولما تعرفه من أن الألفاظ أعراض سيالة تنقص بمجرد النطق بها ، كما يقولون .

إذن فنحن بحاجة إلى التحول ، والمجاز باه واسع وميدانه فسيح . ولهكن المعنى المجازى لإنزال القرآن هو الإعلام في جميع إطلاقاته . أما على أن المراد بالقرآن الصفة القديمة أو متعلقها ، وإرساله : الإعلام به بواسطة ما يدل عليه من النقوش بالنسبة لإرساله في اللوح المحفوظ وفي بيت انعة من لسماء الدنيا ، وبواسطة ما يدل عليه من الألفاظ الحقيقية ، النسبة لإنزاله على قلب النبي ﷺ ، والعلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازى هي النزوم ، لأن إنزال شيء إلى شيء يستلزم إعلام من أرسل إليه ذلك الشيء . وإن كان عاقلاً ، ويستلزم إعلام من يطبع عليه من الخلق به مطلقاً ، وإدس فالخار مرسل .

وأما على أن المراد بالقرآن اللفظ لمعجز ، فسمى إزاله الإعلام به أيضاً ، ويمكن  
بوساطة إثباته هو أو إثبات دالّه ، وإثباته هو بالنسبة لإزاله على قلب النبي ﷺ ،  
وإثبات دالّه بالنسبة إلى اللوح المحفوظ وبيت العزة ، والعلاقة للزوم كذلك ، والمحار  
مرسل كتابه .

ويمكن أن يكون هذا التصوّر من قبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، بأن  
يُسَمَّى إعلام . ليسد لعبده بإزال الشئ من علو إلى سفلى ، مجامع أن في كل من طرف  
التشبيه صدوراً من جانب أعلى إلى جانب أسفل ، وإن كان العلو والسفل في وجه  
الشئ حسياً بالنسبة إلى المشبه به ، ومعنوياً بالنسبة إلى المشبه .

وأنت حير بأن الترويل مطاوع الإزال ، فما يجرى من التحوّر في أحدهما يجرى  
نظيره في الآخر . وقل مثل ذلك في التزليل والتزل .

وكان وجه اختيار التعبير عمادة الإزال وما تصرف منها أو التقي معها ، هو التوبة  
مشرف ذلك الكتاب ، نظراً إلى ما تشير إليه هذه المادة من علو صاحب هذا  
الكتاب المنزل علواً كبيراً ، كما قال تعالى في فاتحة سورة الزحرف : « حَمَّ وَالْكِتَابِ  
الْمُبِين ، إِنَّا حَطَّطْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، وَإِنَّمَا فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَرْبَانَا  
لَنَبِيِّ حَكِيمٍ » .

ثم إن تأويل الإزال «إعلام على ما رأيت هو الأقرب والأوفق بالمقام ، وذلك  
من وجوه ثلاثة :

أولها : أن تعلق الكلام تعلق دلالة وإيهام ، ولا ريب أن القرآن كلام ،  
فتأويل إزاله بالإعلام ، رجوع إلى ما هو معلوم من تعلقه ، ومفهوم من تحقّقه  
ثانيها : أن المصنوع من ثبوت القرآن في اللوح وفي سماء الدنيا وفي قلب النبي  
ﷺ ، هو إعلام الخلق في العالمين العلوي والسفلي عما شاء الله دلالة الشر عليه من  
هذا الحق .

(تمثلها : أن تفسير الإبرار بالإعلام ، يسعهم مع القرآن نأى إطلاقات من إطلاقاته ،  
وهي أي برآء من تعلايه .)

## ٢ - تنزيلات القرآن

شرف الله هذا القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزيلات :

١- التنزيل الأول إلى اللوح المحفوظ ، ودليله قول سبحانه : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ  
مُحِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْمُودٍ » . وكان هذا الوحد في اللوح بطريقة وفي وقت لا يعلمها  
إلا الله تعالى ، ومن أطلعه على عيبه . وكان جملة لامعرقاً ، لأنه لظاهر من اللفظ  
عند الإحلاق ، ولا صدف عنه . ولأن أسرار تنعيم القرآن على أمي صلى الله عليه وسلم  
لا يقلل تحقها في هذا التنزيل .

وحكمة هذا النزول ، ترجع إلى الحكمة العامة من وحد اللوح نفسه ، وإقامته  
صحلاً جامعاً لكل ما قضى الله وقدر ، وكل ما كان وما يكون من هواله الإيجاد  
والتكوين . فهو شاهد ناطق ، ومظهر من أروع لمآهر ، الدلة على عظمة الله ،  
وعله ، وإرادته ، وحكمته ، وواسع سلطانه وقدرته . ولا ريب أن الإيمان به  
يقوى إيمان العبد ربه من هذه النواحي ، ويثبت لعله بينة إلى نفسه ، واشتة بكل  
مدبظوره لله خلقه ، من أنوار هدايته وشرائعه وكتبه وسائر أفضيته وشؤونه في  
عبده ، كما يحمل الناس على السكون والرضا ، تحت سلطان القدر وانقياد ، ومن  
هنا تهون عليهم أحياء نصراتها ، وسرايتها ، كما قال - جل شأنه - « مَا أَصَابَ مِنْ  
مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا » . لما ذلك  
على الله سبيل بكتلاً شؤن حتى ما فكم ولا تفرحوا ربكم ، وقه  
لا يحب كرم تحف قصوره اه من سورة الحديد وبلايد من اللوح وماكتية  
فيه ، أثر صامح في استقامه المؤمن على العادة ، وهاميه في صاعة الله ومراضيه ، وعله  
عن مساحطة ومعصية ، لاعتقاده أنها مسطورة عند الله في لوحه . مستحلة لديه في

كتابه كما قال - حلّد كره - « وكل صغير وكبير مستطو » اه من سورة القمر .

{ ب - التبرّل لثاني بقراء القرآن كان هذا التبرّل الذي إلى بيت لهجة في السماء الدنيا ، والدليل عليه قوله سبحانه في سورة الدخان « إِنَّ أَوَّلَ بُرْءٍ فِي آثِهِ مُدْرَكَةٌ » . وفي سورة القدر « إِنَّ أَوَّلَ بُرْءٍ فِي سُحْبِهِ أَنْقَذَ » وفي سورة النجم « شهرُ رمضاءَ البري أنزل فيه القرآن » (

دلّت هذه الآيات الثلاث على أن القرآن أنزل في ليلة واحدة ، بوصف بأنها مباركة أحداً من آية الدخان ، وتسمى ليلة القدر أحداً من آية سورة القدر ، وهي من ليالي شهر رمضان أحداً من أنه المرة . وإنما قلنا ذلك تحملاً بين هذه النصوص في العمل بها ، ودفعاً للتعارض فيما بينها . ومعلوم بالأدلة الناقطة . كما دلت - أن القرآن أنزل على النبي ﷺ مرة واحدة في ليلة واحدة ، بل في مدى سبعين عدد ، فتبين أن يكون هذا التبرّل الذي بوقت به هذه الآيات الثلاث رويلاً آخر غير التبرّل على النبي ﷺ . وقد جاءت الأحاديث الصحيحة متينة لمكان هذا التبرّل وأنه في بيت امرء من السماء الدنيا ، كما يدل الروايات الآتية

١٨ - أخرج الحاكم بسنده عن سعد بن حبيب عن ابن عباس أنه قال « فُضِّلَ القرآن من الذكر فوضّح في بيت امرء من السماء الدنيا فحمل خبره أنزل به على النبي ﷺ »

٢٨ - وأخرج النسائي وأبو داود عن أبي هريرة عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : « أنزل القرآن حمة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة » ثم قرأ « وَلَا يَتُوبُ عَلَيْكَ مَنْ تَابَ إِلَّا جِزَاءُ بِحَقِّ



وَأَحْسَنَ نَصِيحاً » « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا » .

٣ — وأخرج الحاكم والبيهقي وغيرهما من طريق منصور بن سعيد عن حبر عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، وكان مواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ نعمة في إثني عشر

٤ . وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود فقال : « أوقع في قلبي الشك فؤنه تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » وقوله : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » وهذا أنزل في شوال ، وفي ذي القعدة ، وفي ذي الحجة ، وفي المحرم ، وصفر ، وشهر ربيع . فقال ابن عباس : « إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام » . قال أبو شامة : رسلاً أي رفقاً وعلى مواقع النجوم أي على مثل مساقطها . يريد أنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم مفرقاً ، يتلو نعمة نعمة على تودة ورفق .

هذه أحاديث أربعة من جملة أحداث ذكرت في هذا الباب ، وكلها صحيحة كما قال السيوطي ، وهي أحاديث موقوفة على ابن عباس ، غير أن لها حكم المرفوع إلى النبي ﷺ ، لما هو مقرر من أن قول الصحابي ما لا يحال لראى فيه ولم يعرف بالأحد عن الإسرائيليات ، حكمه حكم المرفوع . ولا ريب أن رسول القرآن إلى بيت العزة من أسماء العيب التي لا تعرف إلا من المعصوم ، وابن عباس لم يعرف بالأحد عن الإسرائيليات ، فثبت الاحتجاج بها .

وكان هذا الرسول جملة واحدة في ليلة واحدة هي ليلة القدر كما علمت ؛ لأنه المتبادر منصوص الآيات الثلاث السابقة ، وللتنصيص على ذلك في الأحاديث التي

مرصعها عليك . بل ذكر السيوطي أن القرطبي نقل حكاية الإجماع على دخول القرآن  
حجة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا .

وهناك قول ثان بدول القرآن إلى السماء الدنيا في عشرين ليلة قدر ، أو ثلاث  
وعشرين ، أو خمس وعشرين بول في كل ليلة قدر فيها ما يقدر الله إمرأته في كل لسة ،  
ثم بدول بعد ذلك منعاً في جميع السنة على النبي ﷺ .

وثمة قول ثالث : أنه انتهى إمرأته في ليلة القدر : ثم بول بعد ذلك منعاً في  
أوقات مختلفة من مائر الأزمان على النبي ﷺ . وكل صاحب هذا القول يرى البرول  
حجة إلى بيت العزة في ليلة القدر .

ودكروا قولاً رابعاً أيضاً هو أنه روى من اللوح المحفوظ حجة واحدة ، وأن الحجة  
نحست على حبر بل في عشرين ليلة ، وأن حبر بل تحمى على النبي ﷺ في عشرين سنة .  
ولكن هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة تعمول عن التحقيق ، وهي محسوبة بالأدلة  
التي سبقها بين يديك تأييداً لقول الأول .

والحكمة في هذا البرول ، على ما ذكره السيوطي نقلاً عن أبي شامة - هي تفخيم  
أمره ( أي القرآن ) وأمر من برز عليه ، بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر  
الكتب المبرلة على حاتم الرسل لأشرف الأمم ، وإمرأته مريم ، مرة حجة ومرة مبرلة  
بمخلاف الكتب السابقة ، فقد كانت بول حجة مرة واحدة .

ودكر بعضهم أن البرول إلى السماء الدنيا إلهام لشوق النبي ﷺ إليه على حد  
قول المائل :

« وأعظم ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الحياض من الحياض »

أقول . وفي تعدد البرول وأما كنهه ، مرة في اللوح ، وأخرى في بيت العزة ،  
وثالثة على قلب النبي ﷺ : في ذلك التعدد مدعاة في بني الشك عن القرآن وزيادة

للإيمان ومانعت على الثقة فيه ، لأن الكلام إذا سُحِّل في سَجَلات متعددة ، وضعت له وعودات كثيرة ، كان ذلك أنى للرب عنه وأدعى إلى تسليم ثبوته ، وأدى إلى وفرة الإيقان به ، مما لو سُحِّل في سَجَل واحد ، أو كان له وجود واحد .

(ج - التبرُّل الثالث للقرآن هذا هو واسطة عقد التبرُّلات ، لأنه المرحلة الأخيرة التي منها شمع النور على العالم ، ووصلت هداية الله إلى انطلق ، وكان هذا النزول بواسطة أمين الوحي جبريل يهبط به على قلب النبي ﷺ . ودليله قول الله تعالى في سورة الشعراء مخاطباً لرسوله عليه الصلاة والسلام : « نزل به الروح الأمين » . على قبلك لتكون من المنذرين . بسانه عربى مبين » .)

### كيفية أخذ جبريل للقرآن ، ومن أخذ

هذا من أنباء الغيب . فلا يطمئن الإنسان إلى رأى فيه إلا إن ورد به دليل صحيح عن المعصوم ، وكل ما عثرنا عليه أقوال منشورة هنا وهناك ، نجعلها لك فيما يأتي مع إبداء رأينا في كل منها :

(أولها : قال الطيبي : « لعل نزول القرآن على لك أن يلقمه تلقفاً روحانياً أو يحفظه من القروح المحفوظ ، فينزل به على النبي ﷺ فيلقه إليه » (أهـ) وأنت خير بأن كلمة ( لعل ) هنا لا تشفى غليلاً ، ولا تهدينا إلى المقصود سبيلاً ، ولا نستطيع أن نأخذ منها دليلاً .

(ثانيها : حكى الماوردي أن الحنفية نجحت القرآن على جبريل في عشرين ليلة ؛ وأن جبريل نجَّه على النبي صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة هـ . ومضى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الحنفية نحوماً عشرين ) . ولكن لا يعرف لصاحب هذا الرأى دليلاً ولا شبه دليل .

ثالثها : قال البيهقي في معنى قوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » « يريد - والله أعلم - إِنَّا أَسْمَعُ الْمَلِكِ وَأَنْهِيهِمْ إِلَيْهِ وَأَرْسَلَهُ بِمَا سَمِعَ » . ومعنى هذا أن جبريل أحد القرآن عن الله سمعاً . وذلك فيما أرى أمثل الأقوال من ناحية أحد جبريل عن الله لأن ناحية تأويل النزول في الآية باقتداء النزول . وبؤيده ما أخرجه الطبراني من حديث النّوّاس بن سَمْعَانَ مرفوعاً إلى النبي ﷺ « إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمَاءُ رَجْعَةً شَدِيدَةً مِنْ خَوْفِ اللَّهِ ، فَإِذَا سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ صُوفُوا وَخَرُّوا سَجْدًا فَيَكُونُ أَوَّلُهُمْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جَبْرِيلُ ، فَيَكَلِّمُهُ اللَّهُ بِوَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ ، فَيَنْتَهِي بِهِ إِلَى اللَّائِكَةِ فَكَلِمًا مَرَّةً بِسْمَاءٍ سَأَلَهُ أَهْلُهَا : مَا قُلَ رَبُّنَا ؟ قَالَ : الْحَقُّ ، فَيَنْتَهِي بِهِ حَيْثُ أَمَرَ » .

وأياً ما تكن هذه الأقوال ، فإن هذا الموضوع لا يقتضي به كبير عرض ، مادامنا نقطع بأن مرجع التنزيل هو الله تعالى وحده .

### ما الذي نزل به جبريل ؟

ولنعلم في هذا المقام ، أن الذي نزل به جبريل على النبي ﷺ هو القرآن باعتبار أنه الألفاظ الحقيقية المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس . وتلك الألفاظ هي كلام الله وحده ، لا دخل لجبريل ولا لحمد في إنشائها وترتيبها ، بل الذي رتبها أولاً هو الله سبحانه وتعالى ، ولذلك تنسب له دون سواه ، وإن نطق بها جبريل ومحمد ، وملايين الملائكة من بعد جبريل ومحمد ، من لدن نزول القرآن إلى يوم الساعة . وذلك كما ينسب الكلام الشرعي إلى من أنشأ ورتبه في نفسه أولاً دون غيره ، ولو نطق به آلاف الملائكة ، في آلاف الأيام والليالي إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين .

فإنه - حلت حكمته - هو الذي أمر أفاض القرآن وكلماته مرتبة على وفق ترتيب كلماته لتعريف لأهل التعميم والتفهيم ، كما يرد عن كلامنا اللغوي على وفق كلامنا المعنى

لأجل سعيهم و تقصيرهم ، ولا نسب كلام محال إلا إلى من رتبته في نفسه أولاً ، دون من اقتصر على حكاية وقراءته ، ولذلك لا يجوز إضافة امرأ على سبيل الإتيان إلى حبر بل أو محمد ، ولا لعير حبر بل ومحمد ، كما لا يجوز نسبة كلام أشبه شخص ورتبه في نفسه أولاً إلى شخص آخر حكاه وقرأه حين اطلع عليه أو سمعه .

وقد أسف بعض لباس و عم أن حبر بل كان يروي على النبي ﷺ عندي العرس ، والرسول بعد عنها بعه كعرب ورعم آخرون أن اللفظ لحبر بل وأن الله كان يوحى إليه بمعنى خط ، وكلامه قول باطل أنهم ، مصدق لصريح الكتب وسنة والإجماع ، ولا يساوي قيمة هذا الذي كتبه به . وعبيدتي أنه مذكور على سعيهم في كتبهم وإلا فكيف يكون ثمر أن حيثما معجراً واللفظ لمحمد أو لحبر بل ؟ ثم كيف نصح سنته إلى الله واللفظ حس قد أعان الله هؤلاء . ( حتى سمع كلام الله ) ، إلى غير ذلك مما يطول به تفصيله .

والحق أنه ليس لحبر بل في هذا ثمر سوى حكاية للرسول وإيمانه به ، وليس للرسول ﷺ في هذا ثمر سوى وحيه وحقيقته ، ثم حكاية وسليته ، ثم بيانه ونفسه ، ثم نصيبه وتمييزه . ثم أي ثمر لنفسه أنه نفس من إتيان حبر بل ولا محمد نحو « وإني سئلت من الله من لدن حكيم عليم » ونحو « وإذ رتبهم فيه قالوا لنؤتيهنهم من لده أنيس ما يوحى إلى من ربي » . ونحو « وإذ أنسى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون عذاب ربنا غير هذا أو ندله فلما يكون لي أن أندله من لده ، نفسي إن أنيس إلا ما يوحى إلى أي أحد إن نصبت ربي عذاب نومي عظيم » . ونحو « ونؤتيه من لده من الأوبل لأحد من آلين . ثم لقطع منة آلين في منكم من آخر غنة حارين » .

ثم إن ما ذكرناه هو تحقيق ما رتل على النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن، وإن كان قد رتل عليه أيضاً غير القرآن؛ نقل السيوطي عن الحويص أنه قال: «كلام الله المنزل قساق: (قسم) نقله الله لجبريل؛ نقل النبي الذي أتت مرحل إليه: إن الله يقول افعل كذا وكذا، وأمر بكذا وكذا ففهم جبريل ما قاله ربه ثم نزل على ذلك النبي، وقال له ما قاله ربه. ولم تكن العبارة تلك العبارة، كما يقول لك لمن يثق به: قل لفلان يقول لك ذلك: اجتهد في الخدمة واحسب جندك للقتال، فإن قال الرسول: يقول لك ذلك: لا تنهون في خليفتي، ولا تترك الجند يتفرق، وحشهم على المقاتلة، لا ينسب إلى كذب ولا تهوير في إيراد الرسالة. (وقسم آخر) قال الله لجبريل: اقرأ على لبي هذا الكتاب، فترتل به جبريل من الله من غير تنوير، كما يكتب لك كتاباً ويسلمه إلى أمين، ويقول اقرأه على فلان، فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفاً» ٥١.

قال السيوطي بعد ذلك: قلت: «القرآن هو القسم الثاني والقسم الأول هو السنة، كما ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن، ومن هنا حارروا رواية السنة بالمعنى؛ لأن جبريل أداها بالمعنى. ولم يحز القراءة بالمعنى لأن جبريل أداها باللفظ، ولم يبح له أداؤه بالمعنى. والسر في ذلك أن للتصود منه التقيد بلفظه والإجماع به، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه، وأن تحت كل حرف منه معنى لا يحاط بها كثرة، فلا يقدر أحد أن يأتي مدله بما يشتمل عليه. والضعيف على الأمة حيث جعل المنزل إليهم على قسمين: قسم يروونه بلفظه للموحى به وقسم يروونه بالمعنى. ولو جعل كله مما يروى باللفظ لشق، أو بمعنى لم يؤمن بتعديل والتعريف فتأمل» ٥٢.

أقول: وهذا كلام عسير، بيد أنه لا دليل أصداً على أن جبريل كان ينصرف في الانقضاء الموحاة إليه في غير القرآن. وما ذكره الجويني فهو احتمال عسى لا يسكني في هذا الباب. ثم إن هذا التقسيم خلا من قسم ثالث للكتاب والسنة، وهو الحديث القدسي الذي قاله الرسول صلى الله عليه وسلم حاكياً عن الله تعالى، فهو كلام الله تعالى أيضاً،

غير أنه ليست فيه خصائص القرآن التي امتاز بها عن كل ما سواه. والله تعالى حكيم في أن يجعل من كلامه المنزل معجزاً وغير معجز ، مثل ما سبق في حكمة انتقاص الآف ، من إقامة حجة لرسول ولدين الحق بكلام الله المعجز ، ومن التعميم على الأمة غير المعجز ، لأنه تصح روايته بالمعنى ، وقراءة الحنف وحمله ومسه إياه ، إلى غير ذلك .

وصفة القول في هذا المقام أن القرآن أوحيت ألفاظه من الله اتفاقاً ، وأن الحديث القدسي أوحيت ألفاظه من الله على المشهور ، والحديث النبوي أوحيت معانيه في غير ما اجتهد فيه الرسول والألفاظ من الرسول صلى الله عليه وسلم . بيد أن القرآن له خصائصه من الإعجاز والتعبدية ووجوب المحافظة على أدائه بفظه وبحر ذلك (وليس للحديث القدسي والنبوي شيء من هذه الخصائص) والحكمة في هذا التفريق أن الإعجاز موطئ لفظ القرآن ، فلو أتيح أداءه بالحق لذهب إعجازه ، وكان مظنة للتغيير والتدليل ، واختلاف الناس في أصل التشريع والتتزيل . أما الحديث القدسي والحديث النبوي فليست ألفاظهما مناط إعجاز ، وهذا أباح الله روايتهما بالحق ، ولم يمنعهما تلك الخصائص والقداسة المتأثرة التي معها القرآن الكريم ، تجميعاً على الأمة ، ورعاية لمصالح المخلقيين الحاليين من منفع ومنع . **« إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي النَّاسَ كَرَاهٍ وَهُمْ رَاجِمُونَ »** فمدة هذا النزول

وانتدأ هذا الإنزال من مبثته عليه الصلاة والسلام ، وانتهى بقرب انتهاء حياته الشريفة ، وتقدير هذه المدة بعشرين أو ثلاثة وعشرين أو خمسة وعشرين عاماً ، تبعاً للاختلاف في مدة إقامته صلى الله عليه وسلم في مكة بعد البعثة ، أكانت عشرين أم ثلاث عشرة أم خمس عشرة سنة . أما مدة إقامته بالمدينة وعشرين اتفاقاً . كذلك قال السيوطي . ولكن مصر محقق تاريخ التشريع الإسلامي يذكر أن مدة مقامه صلى الله عليه وسلم مكة اثنتي عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً من ١٧ رمضان سنة ٤١ من مولده

الشريف إلى أول ربيع الأول سنة ٥٤ منه . أما مدة إقامته في المدينة بعد الهجرة فهي تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام من أول ربيع الأول سنة ٥٤ من مولده إلى تاسع ذي الحجة سنة ٦٣ منه . وبوافق ذلك ستة عشر من الهجرة . وهذا التحقيق قريب من القول بأن مدة إقامته ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة وفي المدينة عشر سنين ، وأن مدة الوحي بالقرآن ثلاثة وعشرون عاماً .

لكن هذا التحقيق لا يزال في حاجة إلى تحقيقات ثلاثة ؛ ذلك لأنه أهمل من حسابه ما كوره الوحي إليه ﷺ عن طريق الرؤيا الصادقة ستة أشهر ، على حين أنها ثمانية في الصحيح . ثم جرى فيه على أن اشتداء مرول القرآن كان ليلة السابع عشر من رمضان وهي ليلة القدر على بعض الآراء ، غير أنه يخالف المشهور الذي يؤيده الصحيح ثم ذهب فيه مذهب القائلين بأن آخر ما رول من القرآن هو آية « أَنْبِئُوا كَمْ لَكُمْ دِينَكُمْ » وذلك في تاسع ذي الحجة ستة عشر من الهجرة ، وسرى فرسحت آخر ما رول من القرآن أن هذا اللذهب غير صحيح .

### دليل تنجيم هذا النزول

والدليل على تفرق هذا النزول وتنجيمه ، قول الله تعالى حكيمته - في سورة الإسراء : « وَقَدْ آتَيْنَاهُ الْكِتَابَ عَلَى الْغَدَقَةِ عَلَى الْوَسْطَى ، وَتَرَكْنَاهُ تَفَرُّقًا » وقوله في سورة الفرقان : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً . كَذَلِكَ لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا . وَلَا يَأْتِيكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جُثَّةً بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » . روى أن الكفار من يهود ومشركين عابوا على النبي ﷺ مرول القرآن مفروقاً ، واقترحوا عليه أن ينزل جملةً ، فأمر الله هاتين الآيتين ردّاً عليهم ، وهذا الرد يدل على أمرين :



أحمد أن قرآن رول مرقاً على النبي ﷺ وأثنى أن الكتب السماوية من قبله ربت حملة ، كما شتهر ذلك بين جمهورهم ، حتى كاد يكون إجماعاً ووجه الدلالة على هذين الأمرين ، أن الله تعالى لم يكلمهم فيما ادعوا من زول الكتب السماوية حملة ، بل أحدهم يعين الحكمة في زول القرآن مرقاً ، وهو كان زول الكتب السماوية مرقاً كالقرآن لرد عليهم ما تكذب ، وبإعلان أن التحميم هو منه الله فيما أرسل على الأنبياء من قبل ، كما رد عليهم قوله : ( وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إياهن نزلنا ) ( طه : ١٣٠ ) ( الأتفاق ) حين طمغوا على الرسول وظنوا : ( وهذا لرَسُولٍ نَأْكُلُ طَعْمَهُ وَيُشَى فِي الْأَسْوَاقِ ) ؟ ( ١٤٠ ) من سورة الفرقان .

### الحكم والأسرار في تحميم القرآن

تحميم رول القرآن الكريم أسراراً عدة وحكمة كثيرة ، استطاع أن يحفظها في أربع حكيم رئيسية :-

#### الحكمة الأولى

نُسبت فؤاد امي ﷺ ، وتقوية قلبه ، وذلك من وجوه خمسة :  
الوجه الأول : أن في تحميد الوحي ، وسكرار رول الملك به من جانب الحق إلى رسوله ﷺ ، سروداً يملأ قلب الرسل ، وعظمة تشرح صدره ، وكلاهما يتحدّد عليه بسبب ما يشعر به من هذه العناية الإلهية ، وتعمد مولاه إياه في كل موطن من موطن هذا الرول

الوجه الثاني أن في التحميم تسييراً عليه من الله في خطه وهدى ، ومعرفة أحكامه وحكمه ، وذلك مُصمّين به على ونهى ، ونوحى إياه حصصاً وهدى ، وأحكاماً وحكماً ، كما أن فيه عوامة شريفة على ضبط ذلك كله .

تجده يد المميرة

الوجه الثالث : أن في كل نوبة من نوبات هذا الزلزال المسحوم معصرة جديدة عالية حيث تدهام كل مرة أن يأتوا بمثل نوبة من موت التعرّيل ، فطهر عوهم عن المعارضة ، وصاقت عليهم الأرض بما رحبت . ولا شك أن المعصرة تشدُّ أزره وترهف عزمه ، باعتبارها مؤيدة له وطاربه . خدلة لأعدائه وتلصصه .

الوجه الرابع : أن في تأييد حقه ودحض باطل عدوه - المرة بعد الأخرى - تكراراً للذة فوزه وقلجته بالحق والصواب ، وشهوده لضلال الباطل في كل مهبط للوحي والكتاب . وإن كل ذلك إلا مشجع للنفس مغرور للقلب والفؤاد . والفرق بين هذا الوجه والذي قبله ، هو الفرق بين الشيء وأثره ، أو المزموم ولازمه ، فالمعصرة من حيث إنها قوة للرسول ومؤيدة له مطمئنة له ومثبتة لفؤاده ، بقطع النظر عن أثر انتصاره وهزيمة خصمه بها . ثم إن هذا الأثر العظيم وحده مطمئن لقلبه الكريم ومثبت لفؤاده أيضاً ، أشبه شيء بالسلاح : وجوده في يد الإنسان مطمئن له ولو لم يستعمله في حصه ثم اتصل الإنسان وهزيمة خصمه به إذا أحمل فيهم مطمئن لفؤاده مريح للقلب مرة أخرى .

الوجه الخامس : تمنّى الله إياه عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه بما يحون عليه هذه الشدائد ، ولا ريب أن تلك الشدائد كانت تحدث في أوقات متقدمة ، فلا حرم كانت القلبية تحدث هي الأخرى في مرات متكافئة . فكلما أخرج خصمه ، سلاّ ربه . ونحيى تلك القلبية تارة عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين ، التي لها في القرآن عرّص طويل ، وفيها يقول الله : « وَكَلاَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشَأُ بِهِ قُورَادَكَ » من سورة هود . وتارة نحيى القلبية عن طريق وعد الله لرسوله بالنصر والتأييد والحط ، كما في قوله سبحانه في سورة الطور : « وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » وقوله في سورة المائدة : « وَاللَّهُ يَمْصِفُكَ مِنَ النَّاسِ » ومع ما في

سورتي الصبحي والم شرح من الوعود الكريمة ، والعطايا العظيمة . وطوراً ثانياً التسلية  
عن طريق إعاد أعدائه وإبدارهم بحقوقه تعالى في سورة القمر : « سَبِّحْهُمُ الْجَمْعُ  
وَيُؤَلِّوْنَ الْفُتُورَ » وقوله سبحانه في سورة قصص : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْتَدِرْتُمْ كُمْ  
صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » . وطوراً آخر يرد التسلية في سورة الأمر الصريح  
بأنصر بحقوقه حل شأنه في سورة الأحقاف : « وَضُرِبَ كَمَا صَبَرِ أُولُوا الْقُرْمِ مِنْ  
الرَّسْلِ » أو في صورة الهوى عن التمتع عليهم : والحزن منهم بحقوق الله في سورة  
حاطر . « فَلَا تَذَهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْعُقُونَ » وهو  
قوله سبحانه في حواتم سورة النحل : « وَأَضْرِبْ وَمَضْرُكُ إِلَّا بَاقِهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ  
وَلَا تَكُ فِي صَبَقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » .

ومن موارد تسلية الله لرسوله أن يحوّه عواقب حربه من كبر أعدائه بحو :  
« لَعَلَّكَ رَاجِعٌ مَعَكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » في فاتحة سورة الشعراء . ومنها أن  
يؤسسه منهم لسترخ ونفلى عنهم بحو : « وَإِنْ كَانَ كِبَرَ هَلَيْكِ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ  
أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَنْقِي مَعَكَ فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمَا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَاقِيَةٌ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ  
لَفَصَمَهُمْ عَلَى الْيُدَى فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ . إِنَّمَا سَتَجِدُ أَذِينَ تَسْمَعُونَ  
وَالْمُؤْمِنِينَ يَنْتَعِمُ بِهِمُ اللَّهُ نِعْمَ إِلَهِهِ يُرْحَمُونَ » من سورة الأنعام .

ويمكر أن سدرج هذه الحكمة بوجوهها الخمسة تحت قول الله في بيان الحكمة من  
تحريم القرآن « كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » من سورة الفرقان .

### الحكمة الثانية

التدرج في تربية هذه الأمة الناشئة عملاً وعملاً . وينضوى تحت هذا الإجمال أمور  
حسنة أيضاً :

أولها : تيسير حفظ القرآن على الأمة العربية ، وهي كما عمت كانت أمة أمة .

وأدوات الكثرة لم تكن ميسورة لدى اسكانيين منهم على مدرتهم ، وكانت مُستعمدة  
بمعالجتها المعدنية ، وبالموقع عن دسها الحديد الحديد والدم ، فو إزال القرآن حملة  
واحدة لبحروا عن حفظه ، فاقصت الحكمة العليا أن يرله الله إليهم مفرقا يسهل  
عليهم حفظه ، ويتمياً لهم استظهاره .

ثانيها : تسهيل فهمه عليهم كذلك ، مثل ما سبق في توحيه التيسير في حفظه .

ثالثها : التمهيد لكمال تحملهم عن عقائدهم الساطلة ، وعباداتهم الفاسدة ، وعاداتهم  
للردولة . وذلك بأن يراضوا على هذا الصلح شيئاً فشيئاً ، بسبب إزول لقرآن عليهم  
كذلك شيئاً فشيئاً ، فكما يحج الإسلام معهم في هدم باطل ، انتقل بهم إلى هدم آخر ،  
وهكذا يبدأ بالأهم ثم بالهم ، حتى انتهى بهم آخر الأمر من تلك الأرحاس كلها فطهرهم  
منها وهم لا يشعرون بعت ولا حرج ، فطهرهم عنها دون أن يتركسوا في سابق  
فطنة أو عادة . وكانت هذه سياسة رشيدة ، لانه منها في تربية هذه الأمة المحيطة ،  
لأسيما أنها كانت أئمة معادة ، تتعسس لوروثاتها ، وتسميت في الذبح مما امتدده  
من شربها ؛ وتتهوّر في سفك الدماء وشن العداوات ، لأنه الأسباب .

رابعها : التمهيد لكمال تحملهم بالعقائد الحقّة ، ونمادات الصليحة ، والأخلاق  
الفاصة ، مثل تلك السياسة الرشيدة السابقة . ولهذا بدأ الإسلام بطلبهم عن الشرك  
والإباحة ، وإحياء قلوبهم بمقائد التوحيد والجزاء ، من جرّاء ما فتح عيونهم عليه  
من أدلة التوحيد ، وراهمين البعث بعد الموت ، وحجج الحساب والمسئولية والجزاء .  
ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة إلى العادات فبدأهم بعرضه الصلاة قبل الحجرة ، وثى  
الركاء والمنصوم في السنة الثانية من الهجرة ، وحتم الحج في السنة السادسة منها .  
وكذلك كل الشأ في العادات : حرّم عن الكفر وشدّد المكبر عليهم فيها .  
ثم ساهم جن الصغار في شيء من ارفق ، وتدرّج بهم في تحريم ما كان مستصلاً بهم

كالحجر . . مدحاً حكماً بحق العامة ، وأقدهم من كابوس في الهبة ، وكان الإسلام في  
استهاج هذه الحصة المثنى أحد بصر ، وأهدى سيلاً ، وأحجج تشريعاً ، وأجمع سياسةً ،  
من تسلم لأهم المدينة لمتحصره اتى أفسد في تحريره أخرج على شعوبه أطلع إفلان ،  
وفشلت أمرٌ فشل . وما عهد أمرٌ كما في مهلة تحريره أخرج بغيره ١

أليس ذلك إمعاناً للإسلام في سياسة الشعوب ، وتهذيب الجماعات ، وتربية الأمم ؟  
بلى ، والتدريج على ذلك من شهدتين ١

حاسب : شئت فقول المؤمنين وتسليحهم . شئت فقل النصر واليقين ، سب ما كان  
يعتضه القرآن عليهم انقصة بعد لقية والحين عداوين ، من قصص الأنبياء والمرسلين  
وم كان لهم ولأنواعهم مع أعداء والمجاهدين ، وم وعد الله به عسده الناصحين ، من  
النصر والآخر والتأييد والتكبير والالاء في ذلك كثرة حسبك من قول العن  
الكبير في سورة البور : « وَعَسَدَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَآمَنُوا بِمَا تُصَدِّقُ  
بِشَخِطَتِهِمْ فِي الْأَرْضِ كُلَّ امْتَحِلٍ يُزِيلُهُمْ وَيَقْتُلُهُمْ وَنَمَكُنُّ لَهُمْ دِينَهُمْ أَلَّذِي  
رَفَعْنَاهُمْ مِنْ قُلُوبِهِمْ مِنْ حَقٍّ حَقِيقَةٍ فَتَابَعْتُهُ وَبَيَّ لَا يُشْرِكُونَ فِي شَيْءٍ .  
وَمَنْ كَفَرَ فَعَنْ ذَلِكَ قَوْلُكَ هُمْ أَسْفَلُونَ » . وقد صدق الله وعده ونصر عبده  
وآتاه حذمه ، وهرم لأحزاب وحده « فَطُغِيَ دَابِرُ أَقْوَمٍ لَا يَنْ طَلُّوا وَالْحَدُ فِيهِ  
رَبُّ الْعَالَمِينَ » .

ويمكن أن ندرج هذه الحكمة لثانيه بما انصوى تحتها في قول الله تعالى في سورة  
الإسراء « وَقرَأْنَاكَ قُرْآنَهُ لَتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ » كما يمكن أن يفسرها قوله  
تعالى في سورة العنقل في بيان أسرار التنجيم « وَرَزَقْنَاهُ تَرْبِيلاً » باعتبار أن التربيون  
للتعظيم إشارة إلى المعنى اسطوانة تحت هذا الترتيل

### الحكمة الثالثة

مُسَبَّرَةُ الحوادث والطوارئ في محددها وتفرعها ، وكلها حدٌ منهم حديد ،  
نزل من القرآن ما يبدسه ، وفصل الله بهم من أحكامه ما يوافقه . ويستعلم هذه الحكمة  
أموراً أربعة :

أولها : إجابة السائلين على أسئلتهم عند ما يوجهونها إلى الرسول ﷺ . سواء  
أكانت تلك الأسئلة لغرض التثبت من رسالته . كما قال الله تعالى في جواب سؤال  
أعدائه إياه . « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ  
الْكِتَابِ إِلَّا قَلِيلًا » في سورة الإسراء ، وقوله « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقُرْآنِ قُلْ سَأُنْذِرُكُمْ  
عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا » الخ الآيات في هذا الموضوع من سورة الكهف . أم كانت  
لغرض التنوير ومعرفة حكم الله كقوله تعالى في سورة البقرة : « وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا  
يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ » . « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْبَيْتِ آمِي ؟ قُلْ : لِإِصْلَاحِ لَهُمْ خَيْرٌ . وَإِنْ  
تَحَايَطُوا مِنْهُ فَأَخْوَاهُكُمْ » . . .

ولا ريب أن تلك الأسئلة كانت تُرفع إلى النبي ﷺ في أوقات مختلفة ، وعلى  
نوباتٍ متعددة ، حاكيةً أسهم سألوا ولا يزالون يسألون . فلا بدع أن ينزل الجواب  
عليها كذلك في أوقاتها المختلفة ، ونوباتها المتعددة .

ثانيها : تحذارة الأخصية والوقائع في حينها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها  
ووقوعها . ومعومٌ أن تلك الأخصية والوقائع لم يقع بطلانها ، بل وقعت تفصيلًا وتدرجًا ،  
حلا مسائلٍ يادن من فصل الله فيها نزول القرآن على طيبتها تفصيلًا وتدرجًا . والأمنه  
على هذا كثيرة ، منها قوله سبحانه في سورة النور : « إِنْ أَلْبَسَ حَادُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةً  
جَمِيعُكُمْ » إلى قوله سبحانه « أُولَئِكَ مَتَرُؤُونَ ثَمَّ يَقُولُونَ لَهُمْ مَعِيرَةٌ وَدَرَقٌ كَرِيمٌ »  
وهن عشر آيات ران في حدث من أروع الحوادث . هو اتهام السيدة العظيمة

أَمَ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِالْإِفْكَ . وَبِهَا دُرُوسٌ جَمَاعِيَّةٌ لَا تَزَالُ تُقْرَأُ عَلَى النَّاسِ ، كَمَا لَا تَزَالُ تُسَجَّلُ بَرَاءَةُ هَذِهِ الْخَصَصِ الظَّاهِرَةِ مِنْ هَوَاقِفِ سَمَوَاتِ .

ومن الأمثلة قوله تعالى في مُفتتح سورة الحادة : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي رُوحِهَا وَتَشْعِكِي إِلَى اللَّهِ ، وَآلَهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ نَصِيرٌ » إلى قوله تعالى « وَلَيْكَ حُذُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ » . وهن ثلاث آيات زلن عندما رعت حَوَاتُ بِنْتُ نَعْمَةَ شَكُوهُنَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَنَّ رُوحَهَا أَوْسَرَ مِنَ الصَّامِتِ طَهَرَ مَهَا ، وَحَادِلَتِ الرِّسُولَ بِأَنَّ مَعَهَا صَبِيَّةً صَعْدَرَأَ إِنْ صَمَّتْهُنَّ إِلَى رُوحِهَا صَاعُوا ، وَإِنْ صَمَّتْهُنَّ إِلَيْهَا حَاعُوا .

ثالثها : لفت أنظار المسلمين إلى تصحيح أعلالهم التي يحطون فيها ، وإرشادهم إلى شاكلة الصواب في الوقت نفسه . ولا ريب أن تلك الأعلال كانت في أركان حاضرة ، فمن الحكمة أن يكون القرآن السارل في إصلاحها ، متكافئاً معها في رماها .

اقرأ إن شئت قوله سبحانه في سورة آل عمران : « وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ » إلى آيات كثيرة بعدها ، وكلها برلت في عروة أحد إرشاداً للمسلمين إلى مواضع أخطائهم في هذا الموقف الرهيب والمآرق العصب . وكذلك اقرأ قوله سبحانه في سورة التوبة : « وَيَوْمَ حُشِنَ إِذْ أُنْجِبَكُمْ كَثْرَتُكُمْ قَلَمَ نَمْرٍ عَلَيْكُمْ شَيْئًا ، وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحِمَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ حُسُودَهُمْ وَوَعَدَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَوَدَّكَ حَرَاهُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وهي آيات تردع المؤمنين عن رديلة الإعصاء والاعتلال في يوم من أيام الله ، وتلفت نظرهم إلى مقدار نذارك الله لهم في شدتهم ، وإلى وجوب أن يشوبوا إلى رشدهم ، وتشوبوا إلى دهم .

رأسها: كشف حال أعداء الله للناقيين، وَهَكَذَا أَسْتَارَهُمْ وَسِرَّائِهِمْ لِنَبِيِّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ،  
 كَيْفَا يَأْخُذُوا بِهِمْ حُدُودَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ . وَحَتَّى يَقُوبَ مِنْ شَاءَ مِنْهُمْ . أَقْرَأ - إِنْ شِئْتَ -  
 قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : « وَمِنَ النَّاسِ مَنُ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ  
 وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ » إِلَى قَوْلِهِ « وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » وَهُنَّ ثَلَاثُ عَشْرَةَ آيَةً  
 فَضَعَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا فَضَعَتْهُنَّ سُورَةُ الْعُذْبَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ ، وَكَأَنَّ كَشْفَ الْقُرْآنِ  
 أَسْمَاءَهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمُنَاسِبَاتِ . وَيُمْكِنُ أَنْ تَنْدَرِجَ هَذِهِ الْحِكْمَةُ الثَّلَاثَةُ بِمَضَامِينِهَا  
 الْأَرْضِيَّةِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي تِلْكَ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ الْفُرْقَانِ : « وَلَا يَأْتُواكَ بِمِثْلِ إِلَّا  
 جِثَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » .

### الحكمة الرابعة

الإرشاد إلى مصدر القرآن ، وأنه كلام الله وحده ، وأنه لا يمكن أن يكون كلام  
 محمد ﷺ ولا كلام مخلوق سواء .  
 وبيان ذلك . أن للقرآن الكريم تفرؤ من أوله إلى آخره ، فإذا هو مُحْكَمُ السَّرْدِ ،  
 دَقِيقُ السَّبْكِ ، مَتِينُ الْأَسْلُوبِ ، قَوِيُّ الْإِتِّصَالِ ، آخِذٌ بِمَعْنَى بَرَقَابِ بَعْضِ فِي سُورِهِ  
 وَأَيَّاتِهِ وَجُملُهُ ، يَجْرِي دَمُّ الْإِيجَازِ فِيهِ كُلُّهُ مِنْ أَلْفِهِ إِلَى يَانِهِ كَأَنَّهُ سَبْكَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَلَا يَكَادُ  
 يَوْجَدُ بَيْنَ أَجْزَائِهِ تَفْصِيكٌ وَلَا تَخَافَلٌ كَأَنَّهُ حَلْقَةٌ مُفْرَغَةٌ أَوْ كَأَنَّهُ سَيْخٌ وَاحِدٌ وَهَقْدُ  
 فَرِيدٌ يَأْخُذُ بِالْأَبْصَارِ : نُظُمَتْ حُرُوفُهُ وَكَلَامُهُ ، وَنُسِجَتْ جُملُهُ وَأَيَّاتُهُ ، وَجَاءَ آخِرُهُ مُسَارِقًا  
 لِأَوَّلِهِ ، وَبَدَأَ أَوَّلُهُ مُوَاتِنًا لِآخِرِهِ ١١ .

وَهَذَا نَسْأَلُ : كَيْفَ اتَّسَقَ لِلْقُرْآنِ هَذَا التَّأْنِيفُ الْمُعْجَزُ ؟ وَكَيْفَ اسْتَقَامَ لَهُ هَذَا التَّمْلِيقُ  
 لِلدَّهْشِ ؟ عَلَى حِينٍ أَنَّهُ يَقْتَضِي جُمْلَةً وَاحِدَةً مِلَّ تَنْزِيلِ أَحَادٍ مُفْرَقَةٍ تَفْرِقُ الْوَقَائِعَ  
 وَالْحَوَادِثَ فِي أَكْثَرِ مِنْ عَشْرِينَ عَامًا ١٢ .

الْجَوَابُ : أَنَّنَا نَلْمَحُ هُنَا سِرًّا حَدِيدًا مِنْ أَسْرَارِ الْإِيجَازِ ، وَشَهِدَ حَقٌّ قَدْرًا مِنْ



سِمَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ ، وقرأ دليلًا ساطعًا على مصدر انقراض ، وأنه كلام الواحد الديان  
« وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

وإلا فسدنى - ريك - كيف تستطيع أنت ؟ أم كيف يستطيع انخلق جميعاً أن  
يأبوا بكتابات بحكم الاتصال ، القرائط ، مئين النسخ والمرزدة ، متآلف البدايات والنهايات ،  
مع حصوعه في التأليف بعوامل خارجة عن مقدور النشر ، وهي وقائع الزمن وأحداثه  
التي يحى ، كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعاً لها ، ومتحدتها بها : سبباً بعد سبب ،  
وداعية إثر داعية ، مع اختلاف ما بين هذه الدواعي ، وتعاير ما بين تلك الأسباب ،  
ومع تراخي زمان هذا التأليف ، وتناول آحاد هذه النجوم ، إلى أكثر من عشرين  
عاماً .

لأرب أن هذا الفصل الرماني ، وذلك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعي ،  
يستلزم في محرى المادة التعكُّك والاعمال ، ولا بدعاً عن محلاً للارتباط والاتصال  
بين نجوم هذا الكلام .

أما القرآن الكريم فقد حرق المادة في هذه الداعية أيضاً : برل مُفَرَّقاً منعجاً ،  
ولكنه تمّ مقراطاً مُحْكَمًا . وَتَفَرَّقَتْ نَحْوُهُ تَفَرَّقَ الْأَسْبَابُ ، ولكن اجتمع بطيه  
اجتماع شمل الأحياء . ولم يتكامل بروله إلا بعد عشرين عاماً ، ولكن تكامل استقامته  
بدايةً وحقاً !! .

أبس ذلك رهاناً ساطعاً على أنه كلام حائى القوى والقدر ، ومالك الأسباب  
والقدرات ، ومدمر الخلق والكائنات ، وقبوم الأرض والسموات ، العليم بما كان  
وما سيكون ، الخير بالزمان وما يحدث فيه من شئور ؟؟ .

لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله ﷺ كان إذا برت عليه آية أو آيات ،  
قال « صموها في مكان كذا من سورة كذا » . وهو شر لا بدري ( طبعاً )  
ما سيجي به الأيام ، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان ، ولا يدرك ما سيحدث

من الدواعي والأحداث فصلا عما سيرل من الله فيها . وهكذا يمضي العمر الطويل والرسول على هذا العهد ، يأتيه الوحي بالقرآن مجمعا بعد مجمل ، وإذا القرآن كله مد هذا العمر الطويل يكمل ويتم ، وينتظم وينتهي وبأنلف ويلتم ، ولا يوحد عليه أدنى تخاذل ولا تفاوت ، بل يصحز الخلق طرعا فافيه من الاسعاج ووحدته وترايط : « كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » ١١ .

ولأنه ليستبين لك سر هذا الإعجاز ، إداما علمت أن محاولة مثل هذا الاتساق والاسعاج ، لن يمكن أن يأتي على هذا النمط الذي نزل به القرآن ولا على قريب من هذا النمط ، لا في كلام الرسول ﷺ ولا كلام غيره من البلغاء وغير البلغاء .

حد مثلا حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ما هو في روعته وبلاغته ، وطهره وسموه : لقد قاله الرسول ﷺ في مناسبات مختلفة ، لدواع متباينة ، في أزمان متطاولة فهل في مسكتك ومكتبة الشرم معك ، أن ينظموا من هذا السرد الشئيت وحدة ، كتابا واحدا يصفه الاسترسال والوحدة ، من غير أن ينقصوا منه أو يزيّدوا عليه أو يتصرفوا فيه ؟؟ .

ذلك ما لم يكون ، ولا يمكن أن يكون ، ومن حاول ذلك فإمّا يحاول العتس ، ويخرج للناس بثوب مرقع ، وكلام ملقق ينقصه الترايط والاسعاج ، وتؤثره الوحدة والاسترسال ، وتعمجه الأسماع والأفهام .

إذن : فالقرآن الكريم ينطق نزوله متصفا بأنه كلام الله وحده . وتلك حكمة جليلة الشأن ، تلك الخلق على الحق في مصدر القرآن : « قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا »

### ٣ - الحركة الطاحنة

أو الوحي بين معتقديه ومكركيه

كل ما قدمناه إليك في رول امرآن لا يسفه ولا يقبله إلا من آمن بالوحي وأسانيه ، والاتصالات الروحية بالملأ الأعلى ، واستمداد لسان لمعارفه عن الله تعالى بوساطة الملك ، على غير الطريقة المعتادة بين البشر . ولكن العقيدة المصرية أصابها من مادية والإلحاد والإساحة ، فأصبح كثير من المتعلمين تعدياً مدرسياً ناقصاً ، لا يهتمون هذه الحقائق العليا ، ولا يستقيعون فهمها ، بل يكتفون حبلاً وعصياً في سبيل المؤمنين بها ، ولا شبهة لهم فيما ذهبوا إليه إلا شكوك تلقوها من هنا وهناك ، يروحوها باسم العقل مرة ، واسم العلم مرة أخرى

لهذا يرى لزاماً علينا أن نضع هذا الوحي وقفةً رفيعاً فيها الغياب عن حقيقته وأنواعه وكيهياته ، ثم نقسح ذلك بالأدلة العلمية على الوحي وإمكانه ، ثم ردعها بالأدلة العقلية على تحفته ووقوعه . ثم نحتم هذا المبحث بعلاج الشبهات التي تعترضهم ويعترضون بها في هذا الموقف الخلل . والموضوع الخطير .

تلك نقاط أربع إذا وقفت في بحثها ، قطعت الطريق على عصيات محرمة ، اتخذت مبحث الوحي أداة للفتنة ، وستاراً يقصرون من ورائه وطراً للعوابة ، ومأرباً للإساحة ، وصيلاً إلى هدم الأدب ، وصلال الإنسانية والإنسان .

### ١ - حقيقة الوحي وأنواعه وكيهياته

أما الوحي فمعناه في أساس الشرع : أن يُتِلَمَ الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ، ولكن بطريقة مبررة حمية ، غير معتادة للبشر

ويكون على أنواع شتى : منه ما يكون مكالمة بين اللحد وربّه ، كما كلم الله موسى تسليماً ، ومنّه ما يكون إلهاماً يقوده الله في قلب مُصْطَفاه على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دواء ، ولا يجد فيه شكاً ، ومنّه ما يكون ساماً صادقاً يجيء في تحفته ووقوعه ، كما يجيء منق الصبح في تبلّجه وسطوعه ، ومنّه ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام : وهو منك كريم ذو قوة هندی لعرش مكين ، مطاع ثم أمين . وذلك النوع هو أشهر الأنواع وأكثرها . ووحى القرآن كله من هذا القبيل ، وهو المصطلح عليه بالوحي الجلي . قال الله تعالى في سورة الشعراء : « نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » .

على

ثم إن ملك الوحي يهبط هو الآخر على أساليب شتى : فتارة يظهر للرسول في صورته الحقيقية المملوكة . وتارة يظهر في صورة إنسان يراه الحاضرون ويسمعون إليه . وتارة يهبط على الرسول حفية فلا يرى ، وسكن يظهر أثر التغير والانفعال على صاحب الرسالة فيفط غليظاً لثاماً ، وبعبارة غريبة كأنها غشية أو إغماء وما هي في شيء من الغشية والإغماء ، إن هي إلا استعراق في نداء الملك الروحاني ، وانحلال عن حالته البشرية المادية ، فيؤثر ذلك على الجسم ، فيفط ويتقل ثقلاً شديداً ، قد يتصلّب منه العيين عرقاً في اليوم الشديد البرد . وقد يكون وقع الوحي على الرسول كوقوع حجر من إذا صلّ في أذن سامعه ، وذلك أشد أنواعه . وربما سمع الحاضرون صوتاً عند وجه الرسول كأنه ذوى السجل ، لكنهم لا يفهمون كلاماً ، ولا يفهمون حديثاً . أما هو - صلات الله وسلامه عليه - فإنه يسمع ويعي ما يوحى إليه ، ويعلم علماً ضرورياً أن هذا هو وحى الله دون أنس ولا جسد ، ومن غير شك ولا أرياب ، فإذا انجلى عنه الوحي وحده ما أوحى إليه حاصراً في ذاكرته ، متبشراً في حافظته ، كما كتبت في قلمه كقائمة

والأدلة الشرعية على ما ذكرنا كثيرة في الكتاب والسنة ، منها ما قصصنا عليك في ثلاث القرآن ، ومنها قوله تعالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ » .

ومنها الحديث الذي يرويه البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس - وهو أشده علي - فيفهم هني وقد وعيت عنه ما قال . وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفهم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

### ب - الوحي من ناحية العلم

اعلم أن أعداء الوحي ومنكره لا يؤمنون بالشرع وأدلة الشرع . إنما يؤمنون بالعقل على الطريقة التي يستسمونها ، وبالعالم الذي تواضعوا عليه في اصطلاحهم الحديث ، وهو جملة المعارف اليقينية التي ألتصفتها دستور البحث الجديد في الوجود وكنائنه ، من جعل الشك أساساً للبحث ، والاستناد إلى القاطع الذي يؤيده الحس دون سواه ، فهم يقدّمون الشك ويؤمنون فيه ، ثم لا يعترفون إلا بالحسبات ، ولا يعمّلون بمجرد العتبات . ومن هنا سجدوا أنفسهم في سجن المادة ، ومكنوا حيناً من الدهر ينكرون ما وراء المادة ، ويسرفون في الشكوك إلى أبعاد الحدود ويستحققون بأمر الإلهيات والسموات والوحي إلى مدى بعيد لم تصل إليه أعظم عهود الحضارة ، لولا أن صدمهم العلم بمسألة صدمة عميقة غيرت رأيهم في إمساك ما وراء المادة كما يأتي إن شاء الله . ولما نبذوا هذه أدلة الوحي العمدية ، لأنها في الواقع أدلة لإمكان الوحي وتقرّيبه إلى العقول . وإمكان الوحي هو الخطوة الأولى في الموضوع ،

وهو ملحوظ في المقدمة الأساسية من مقدمات الدليل العقلي الآتي ، فلا عرو أن يكون لتلك الأدلة العلمية مكان الصدارة والتقديم .

« الدليل الأول » التكوين الصناعي ، أو لتكوين المضافي ، وهو من المفردات العلمية الثابتة . كشمه الدكتور « مسمر » الألماني في القرن الثامن عشر ، وجاهد هو وأتباعه مدى قرن كامل من الزمان في سبيل إثباته وتخلي الماء على الاعتراف به وقد مجحوا في ذلك ، فاعترف العلماء به علمياً ؛ بعد أن احتجوا به الآلاف المؤلفة من الخلق واطأوا إلى تجاربه . وأخيراً أثبتوا بواسطة ما يأتي :

١ - أن للإنسان عقلاً باطنياً أرق من عقله المعتاد كثيراً .

٢ - أنه وهو في حالة التكوين يرى ويسمع من بعد شاسع ، ويقرأ من وراء حجب ، ويحير مما سيحدث ، مما لا يوجد في عالم الحس أقل علامة لحدوثه .

٣ - أن للتكوين درجات بعضها فوق بعض يزداد العقل لباطن سموه بفضله فيها .

٤ - أنه قد يصل إلى درجة مخرج فيها روح الوسيط من جسده ؛ وتمثل

إلى جانبه غير مرئية ، بينما يكون الجسم في حالة شبه الموت ، نولا علاقة

خفية بين الروح والجسم .

٥ - أثبتوا من وراء ذلك أن هناك روحاً .

٦ - أن الروح مستقلة عن الجسم كل الاستقلال

٧ - أن الروح لا تدخل بالحوالة .

٨ - أنها تتصل بالأرواح التي سبقها إذا تجردت عن المادة ، إلى غير ذلك مما

لا سلّم جميع تفاصيله تفيداً ، وإن كسا سلّم هذا العلم وتجاربه ومقرراته

في الحسنة ، لتبوت القديس بها في الحلة أيضاً بواسطة التجارب العديدة

ولمشاهدات الكثيره . وله في العرب أنصار من علماء وطلاب ؛ وله دورٌ وكتب ، وله مستشفيات يؤمها الناس للتداوى به .

وايس من موصوعا أن تنوسع لك في هذا العلم وتاريخه وتجاربه وفوائده ، وسكا نريد أن نتقدم إليك بفكرة بحلقه عنه ، تربك إلى أي حد أظهر الله في هذا العصر آيات باهرات ، على أيدي الطيبين الذين ينكرون ماوراء المادة ويسرفون في الإنكار ، فقلوا بنعمة من الله وفضل يشقون ماوراء المادة ويسرفون في الإنهات . تحقيقاً لقوله سبحانه « سَأُرِيهِمْ آيَاتِي فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ سَاقِ يَذَّيْبُنَ لَهُمْ أَنَّهُ السَّاطِقُ » اه من خاتمة سورة فصلت .

وإننا نضع بين يديك هنا تجربة واحدة من تحارب التنويم ، تقرّب إليك الوحي كل القريب ، وهذه التجربة رأيتها بعيني ، وسمعتها بأذني ، بنادي جمعية الشبان المسلمين ، على مرأى وسماع من جمهور متقف كبير ، حضر لبشهاد محاضرة مهمة في التنويم المغناطيسي وإثبات أنه يمكن أن يتخذ سلاحاً مسموماً لتغيير عقيدة الشخص ودينه ، كما نسأل إلى ذلك بعض المبشرين ، إذ متن بهذا العدوان الخبيث شاكياً من خيرة الشبان المسلمين حول سنة ١٣٥١ هـ في حادثة مشهورة مروّعة ، وما هي متكم بعيد .

قام المحاضر ، وهو أستاذ في التنويم المغناطيسي ، وأحضر الوسيط وهو فتى فيه استعداد خاص للتأثر بالاستقاز ، والأستاذ فيه استعداد خاص للتأثير على الوسيط ، فالأول ضعيف النفس ، والثاني قويها . وللصنف والقوة وحوه ليس هذا موضوع بينهما . نظر الأستاذ في عين الوسيط نظرات عميقة دفة ، وأخرى عليه حركات يسبونها سحبات ، فما هي إلا لحظة حتى رأينا الوسيط يعط عطيط البائم ، وقد امتنع لو ، وهذا جسمه ، وهذا إحساسه للعتاد ، حتى قد كان أحداً بجرحه . لإمرة وحرّات عنه ، ويحرم كذلك ثاب وثالث ، فلا يبدى الوسيط حرّاً كذا ، ولا يظهر أي عرض لشوره وإحساسه بها . وحينئذ نأكدنا أنه قد دام ذلك اليوم الصاعى أو الصاعطى

وهناك تسلط الأستاذ على الوسيط بدأله : ما اسمك ؟ فأجاب باسمه الحقيقي . فقال الأستاذ :  
 ليس هذا هو اسمك ، إنما اسمك كذا ( وافترى عليه اسماً آخر ) ثم أحد يقرر في نفس  
 الوسيط هذا الاسم الجديد الكاذب ، ويمحو منه أثر الاسم القديم الصادق ، بواسطة  
 أعاليق بلقها إياه في صورة الأدلة ، وبكلام يوحى إليه في صيغة الأمر والهي . وهكذا  
 أملى عليه هذه الأكذوبة إملأ ، وورصها عليه ورصاً ، حتى حصع لها الوسيط  
 وأدعس .

ثم أحد الأستاذ وأحداً ساديه باسمه الحقيقي لمرة بعد الأخرى في فترات متقطعة ،  
 وفي أثناء الحديث على حين غفلة ، كل ذلك وهو لا ينجب . ثم ساديه كذلك باسمه  
 الموضوع فيجيب ، دون تردد ، ولا تلمع .

ثم أمر الأستاذ وسيطه أن يتذكر دائماً أن هذا الاسم الجديد هو اسمه الصحيح  
 حتى إلى ما بعد نصف ساعة من صحوه وبقطته ثم أيقظه وأحسد يتم محاصرته ويحس  
 تحت الوسيط بالاسم الحقيقي فلا يجيب ، ثم يحوّه باسمه الثاني فيجيب ، حتى إذا مضى  
 نصف الساعة المصروب عاد الوسيط إلى حاله الأولى من العلم باسمه الحقيقي .

وبهذه التجربة أثبت الأستاذ أن النائم « تكسر الواو » يستطيع أن يحو من  
 نفس وسيطه كل أثر يريد محوه ، مهما كان ثباتاً في النفس ، كاسم الإبل عيسه ،  
 ومهما كان مقدساً فيها كعائذ الدين .

ولما احتار الأستاذ محو الاسم دون الدين لأمرين : أحدهما أن محو الدين عدوان  
 أثيم ، وإحرام شنيع ، لم تقده «سمة المحاصر ولا المحاصرين . ثانيهما : أن الاسم أثبت  
 في نفس صاحبه من ديبه ؛ فتحوه منها أعجب ، ومنه تعلم أن محو الدين منها أيسر .  
 وبهذه التجربة أيضاً ثبت لي أنا من طريق علي ، ما قرأت إلى الوحي عملياً ،  
 وما جعلني أغلله تعليلاً علياً : فالوحي « عن طريق الملك » عبارة عن اتصال الملك



بالرسول اتصالاً يؤثر به الأول في الثاني ، ويتأثر فيه الثاني بالأول ، وذلك باستعداد خاص في كليهما ، فالأول فيه قوة الإلقاء والتأثير ، لأنه روحاني محض ، والثاني فيه قابلية التلقي عن هذا الملك بصفاء روحانيته ، وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك . وعند تسلط الملك على الرسول يسلح الرسول عن حالته العادية ، ويظهر أثر التعبير عليه ، ويستغرق في الأخذ والتلقي عن الملك ، وينقطع ما تدفعه في نفسه ، حتى إذا انجلى عنه الوحي وعاد إلى حالته الأولى ، وجد ما تلقاه مائلاً في نفسه ، حاضراً في قلبه ، كأنما كتب في صحيفة فؤاده كتاباً .

أنظرن - أيها القاري الكريم - أن الخلق يستطيع أن يؤثر في نفس مخوق آخر ذلك التأثير بواسطة القويم المناطيسي ، ثم لا يستطيع مالك القوى والقدر أن يؤثر في نفس من شاء من عباده بواسطة الوحي ؟ كلا ثم كلا « إِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ » .

« الدليل العلمي الثاني » أن العلم الحديث استطاع أن يمتدح من المعائب ما عرفه وشاهده ونفع به ، مما يسمونه القديفون ، واللاسلكي ، والميكروفون ، والراديو . وعن طريق أولئك أمكن الإنسان أن يخاطب من كان في آفاق بعيدة عنه وأن يفهمه بما شاء وبرشده إلى ما أراد . فهل يعقل مد قيام هذه المخترعات المادية أن يعجز الإله القادر ، عن أن يوحى إلى بعض عباده ما شاء ، عن طريق الملك أو غير الملك ؟ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

« الدليل الثالث » استطاع العلم أيضاً أن يملأ بعض أسطوانات من الجلود الجاهل الجاهل ، بأصوات وأدم ، ونقرات وأغانٍ وكلامٍ ، على وجه يحسب حاكية له ندقة وإتقان ، وبين أيدينا من ذلك شيء كثير لاسيما إلى إسكارة يسمونه ( مانوغراف ) أسد هذه المخترعات القائمة ، يستمد على القادر تعالى بواسطة ملك ومن غير وساطة ملك ؛ أن يملأ بعض نفوس شريفة صامية من خواص عباده ، بكلام مقدس

يهدى به حيلة . ويُصهر . حقه . على وجه يجعل ذلك كلام مستعشا في قوت رسو ،  
حتى يحكمه دقة وإتقان كذلك ؟

« اللبس الرابع » . شاهد بعض الحيوانات الدنيا رثن معانات الأتصا  
والأعمال ، مما يُحِين معه أن يكون صدرًا عن تمكيد هـ ، أو عزيزه صادحة فيها ،  
ومما يجعلنا نوقن بأنهم لم تصدر في ذلك إلا عن إرادة عُلْبَا ، توحى إليهم ودمهم تلك  
معانات ولعراش ، من الصعاعات والأعمال ، والدقة والاحتيل .

وإذا صبح هـ في عالم الحيوان ، فهو أولى أن يصب في عالم الإنسان ، حيث استعداده  
للافتعال لأفنى لأعلى يكون أقوى ، وأحد عنه يكون أتم ، ومن ذلك ما يكون  
نصرون توحى .

وإن شئت أمثلة لتفت الحيوانات التي صرناها لك مثلاً في إلهاماته العجوبة ،  
فدورك الملل والحل ، وما تأتيك من صروب الأعمال ، ودقة النظام وهات  
حيواناً عرباً أسموه « كسيكوب » وقال عنه الأستاذ « مبین إدوار » ندرس  
نحمة ( السوربون ) عرباً ما ترحته « إن الحيوانات المسماة « الكسيكوب »  
تعيش مسردة ، وتموت بعد أن تبصر مباشرة ، وتمرح صدرها على حالة دبدب  
لا أرحلها ، ولا تستطيع حبه قسم من أيسة عادية ، كما لا تستطيع الحصول على  
عدائهم ومع ذلك فحياتهم تقتضى أن تعيش مدة سنة في مكان مقعر ، وفي هدوء تام ،  
والإلهامك .

فترى لأم متى حال ووت بيصها ، تعتمد إلى قطعة من الحشب ، فتعقر فيها  
سبرد ناكطو بلا ، فإذا أتمته أحت في حب دحرة إليه ، تنكبي صغيراً واحداً مدة  
سنة ، تلك الدحيرة هي صنع الأزهر وبعض الأوراق الشكزية ، فتعشوا بها قاع  
السرداب ، ثم تصنع عنه بيصه واحده ، ثم تأتي بشرة الحشب ، وتنكوبها  
عجوة تمصها سفا على تلك البيصة ، ثم تأتي بدحيرة أخرى فتصنعها فوق ذلك

السقف ، ثم تصعب بصفة أخرى ، وهم حراً حتى يفرغ بيصها ، ثم تترك الكل وتموت !!

من ذا الذي علم هذه الحشرة الصعبة الساذجة ، تلك الصفاة الخيرة للعقل ؟ ومن أهمها وهي تموت بعد أن تنبص مباشرة أن صغارها لن تستولد ، في حاجة إلى النقاء سنة في حالة صممهم وعجزهم ؟ من الذي غرس في قلبها هذه العمادة سوعها ، حتى كلفتها كل هذه المشقة في وضع بويضاتها ؟

لأرب أن قبيوم لوحود يؤثي الكائنات عملاً بما يقيمها وما يصلحها ، من غير طريق الحواس التي لا تستطيع أن تسكنها . ومن العبث وصلال الرأي أن يثبت الباحث الطبيعي إلهاماً تمنعته القدرة الإلهية إلى أحقر الحشرات ، ثم يعميه عن النوع الشرى وهو أشد ما يكون حاجة إلى هذا الوحي والإلهام في حياته العردية والاجتماعية

« الدليل الخامس » المبقرية ، ويعرفها أفلاطون بأنها حال إلهية مولدة للإلهامات المعوية للشر ، ويقرر العلاسعة أنها حال عوية لا شأن للعقل فيها . ويقول الطبيعيون : إنها هنة من الصيغة ، وسها لا تخصصها دراسة ، ولا يوجد لها معكبر

وهاك أمثلة للمبقرية والعاقرة ، تشع على موضوع الوحي ورأ كشافاً يهذى الحيارى الصابين ، إلى سواء السبيل .

١ - قال الأستاذ « ميرس » ، الانجليزى مدرس علم النفس بجامعة « كامبردج » في كتاب كبير له أسماء « لشخصية الإنسانية » ما ترجمته كان للسير بيدل حاصنة تكاد تتحقق بالمعجرات ، فإنه كان يعين على البديهة عوامل التي إذا ضرب بعضها في بعض أنتجت عدداً من خمسة أو ثمانية أرقام . فإذا مثل مثلاً : ما هما العددان اللذان إذا ضرب أحدهما في الآخر نتج العدد ( ١٧٨٦١ ) أحاطك على الفور بأشياء

( ٥٣٣٧٧ ) وهو يقول . إنه لا يدري على أية حال يأتي به هذا الخواب ، وكانت الإحابة عنده كأنها عريرة طبيعية .

( ٢ ) ونقل عن الشاعر الكبير ( سولي برودوم ) العرسي أنه قال : « حدث لي في بعض الأحيان أني كنت أجد في رهن «طرية هندسية أقيمت إلى مند سنة ، وذلك بدون أن أتق إليها أقل التعتات » .

( ٣ ) ودكر لسيو ( ريسه ) الشاعر العرسي أنه ينام عاكفاً وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتم ، ثم يستيقظ فيجدها تامة

( ٤ ) وكذلك يقول الشاعر ( موسيه ) العرسي « إنما لا أعمل شيئاً ولكن أسمع ما يلقى إلى فائقه ، فكأن إنساناً مجهولاً يساخني في أدنى » .

وهذه الأمثلة التي سقناها تثبت وجود اتصالات روحانية باطنة في بعض الأفراد ، يُبدئ الإنسان بعلم وهداية من طريق غير معتاد ؛ وذلك يقرب الوحي أليماً تقرب ؛ في وقت اشتد شك الناس فيه حتى كذبوا بالإلهيات والسوات ، وسجروا بالآديان والشرائع ، مع أنها أعظم عوامل التحول الاجتماعي والعكري في الإنسان ؛ وأكبر الأحداث التي غيرت العالم وحوالت محرى التاريخ ، ومن العار الخارج لكرامة انشر ، أن تكون تلك العوامل والأحداث العطى ، قامت على أوهام خاطئة ، أو على أكاذيب متعددة .

« الدليل السادس » قرّر العلم الحديث أنه شوهد على بعض الناس أنهم يظهرون مظاهر روحانية ، تعتبر من الخوارق التي لم يكن يحلم بمحدثها العلماء ، على حين أن هؤلاء الذين أتوا تلك الظواهر الخارقة كانوا في حالة دهل ، وقد استحال تليل ما أتوا تليلاً مادياً يستند إلى الحس ، وقد احتجروا تلك الظواهر ، واحتجسروا شهودها أكبر مشهودى الأرض ، فشهدوا بأنها ليست من الشعوة في شيء ؛ وإنما هي أحداث روحانية ، لا أثر فيها للمهارة وحفة اليد .

تلك حقيقة من حقائق العلم المحدث الحاضر ، نقررون فيها أنه قد يفتح على بعض الناس في حالة من حالات دھولهم ، مكشافات وظواهر روحية ، فكيف يُستبعد بحادث هذا الكشف ، المعنى أن يفتح الله على بعض المستأجرين من خلقه ، مكشافات عميقة عن طريق الوحي ، بينما هم من كلمة العقول والأخلاق ؟ لقد أسفر لصح لذي عيبي !

### ج - الوحي من ناحية العقل

عرفت فيما سبقناه لك من الأدلة العلمية أن لوعي ممكن وقريب من الوقوع ، وتبين لك الدليل العقلي هذا على أن هذا الأمر الممكن قد وقع فعلاً : ذلك أنه قد أحرر بوقوعه الصادق لمعصوم محمد ﷺ ، وكل ما أحرر بوقوعه الصادق لمعصوم فهو حق ثابت ، وذلك هو المطلوب ، أما الدليل على أنه قد أحرر بوقوعه الصادق المعصوم ، فما مرّ عليك من أسماء الوحي في الكتاب والسنة ، وأما الدليل على أن كل ما أحرر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حق ثابت ، فإن ذلك هو مقتضى الصادق والمعصية . وأما الدليل على أن محمداً ﷺ صادقاً معصوماً ، فإنما هي المعجزة القائمة مقام قوله تعالى لصادقه في شأن تصديق رسوله : « صدق أعدى في كل ما يُنطقُ به » ، ومن ذلك أنه يوحى إليه مي .

وهنا نجد أنفسنا قد انتهينا إلى معجزة ، فما هي المعجزة ؟ .

### المعجزة

هي أمر يعجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله ، أو هي أمرٌ خارجٌ للعادة ، خارجٌ عن حدود الأسباب المعروفة ، بحلقه الله تعالى على يد مدعي السوء عند دعواه إلهاً شاهداً على صدقه ، فإذا قام إنسان ما ، وادعى أنه معوث الله إلى

خلقه ؟ ورسوله إلى عباده ؛ وقال : إن آية صدقي فيما أدعيه ؛ أن يعير الله الذي أرسني عادة من عاداته على يدي ، وأن يخرج الآن عن سنة من سنته العامة في وجوده ، ثم قال : وسيأتيكم الله بهذا الأمر المحتاب من باب ترون أمكم فيه ناعمون ، وعليه قادرون ، وإلى أنحدكم رزاقات ووعدنا أن نأتوا بمثل هذه الآية ، وأمامكم اسباب مفتوحا كما تفتقدون ، وفيكم السبوع موفور كما تدعون ، ثم أنتم محتشمون وأما وحدي . قال ذلك لئلا الوثائق ؛ وتعدنا هذا التحدى الظاهر ، في وقت شور فيه على عقائدها وعاداتها وأحلاقها ، ويسع في أحلامها وأحلام أمثالها من آباءنا ، ونحن أحرص ما نكون على تعجيزه وتسيته والعمدة عنيه والطير به ، دفاعا عن كرامتنا ، وانتصارا لأعرشي لدينا .

ثم لم يلبث أن قام وقفا ؛ وأحج أمره وأجمعنا ، وإدائن جميعا بعد محاولات ومحاولات ؛ لم استطع أن تأتي بمثل ما أتى به ، فصلا عن أعظم منه . مع أنها أمة وهو فرد . ومع أنه قد دخل علينا من أسير الطرق في نظرها ؛ ومن أشهر فن في زمانها ، ومع أنه قد أعطاه الفرصة السكانية لمناظرته ، وأنصفه كل أنصاف من نفسه !! هل يشك ذو مسكة من عقل ، في أن هذا الإنسان المتفوق لمقتار ، صادق في رسالته ، محقق في دعايته ؟ خصوصا إذا عرفنا فوق ذلك كله ، أنه شأ فينا على انصدق والأمانة ومكارم الأخلاق ، من لدن صباه وطفولته ، إلى يوم مبعثه ورسالته .

لأنه جاء بالحجرة من باب لا يعرفه ، نقلنا : رحل حديق فما من السنون التي لا علم لها ، أو نعلم صناعة من الصناعات التي لم نحيط بحبرها . أما وقد جاءنا من الماحية التي شهد لأمرها فيها بالهوق والسبق ، فلا يسعد إلا الإدعاء له ، والإيمان بما جاء به ، ما دمتا منصفين .

كولن صرب لك مثالا : جاء موسى عليه السلام بمعجزته عصا من الخشب ، لا روح

فيها ولا حركة ، ولا بين ولا رطوبة ، ثم ألقاها باسم الذي أرسله ؛ فإذا هي حبة تسمى  
ببما الأمة انتمى تحذرها سلك كانت قد توقفت في السحر وحدقة ، وصرت فيه ؛ وجر  
مهم وأوفى نصب ، خصوصاً أنهم أمة وهو فرد . وهم باضون في السحر وهو مع شأته  
فيهم لم يعرف يوماً من الأيام عملاقة لسحر . وهم معتزون بمددهم وعندهم وسلطانهم ،  
وهو حي من هذه الأسباب وبظاها .

فهل بقي للشك ظل بعد أن أتى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما أوفى كون ، ووقع  
الحق وبطل ما كانوا يعملون ، وأتت السحرة ساجدين قائلوا : آمنا برب العالمين  
رب موسى وهارون .

الحق أبلغ . ولذلك كان أول من آمن به هم لسحرة أنفسهم ، لأنهم أعرف بالسحر  
ومقدماته ونتائجه ، وقد رأوا رأي لعين أن ذلك لإبحار ليس من نوع هذا السحر المسمى  
على مقدمات يستطيع كل إفسار أن يزاوها ، وهذا نافع محدودة لا يمكن أن يتجاوزها  
معم لم يطق السحرة صبراً عن المسارعة إلى الاعتراف والخضوع للحق بعد ما تبين ،  
مهما كلّفهم ذلك أن يقتلوا أو يصلبوا ؛ وقالوا لفرعون ملكهم ومعبودهم بالأمس  
« لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا حَاةَ مَا مِنْ الْغَيْبِ وَأَنْدَى وَطَرًا . فَصِرْ مَا أَنْتَ قَاصِرٌ إِلَّا مَا  
تَقْصِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » . اقرأ إن شئت الآيات بعدها في سورة طه إلى قوله  
صحة : « وَذَلِكَ خَرَجَهُ مِنْ نَرَكُنِي » .

قل مثل ذلك في معجزة كل رسول أرسله الله . قل في عيسى عليه السلام وإمرانه  
الأكره والأرض وإحيائه الموتى وحققه من لطف كهيئة الطير بإذن الله ، أمام قوم  
بمعوا في الطب أيّ نوع ومهر واقع فيه أيّ مهارة<sup>(١)</sup> .

(١) لا تفت هنا في يعزى إلى المسيو ريب من إنكاره نوع قوم عيسى في الطب  
فيه ناف ، والمثبت مقدم على النافي وعلى فرض صحة هذا النبى فإن هذا لا يصح لنا  
شيئاً لأن المعجزة تكفى في تحققها عمر بشر عن مثلها . وليس تفوق المواهبين بها  
شرطاً ، إنما هو أمر رائد غير مشروط .

بهي

وقل مثل ذلك وأكثر من ذلك في حاتم الأسياء سيدنا ومولانا محمد ﷺ وما جاء به من آيات بيّنة ، ومعجزات وأصحت اوحسبك القرآن وحده برهاناً ساطعاً بل براهين ساطعات ؛ كل مقدار ثلاث آيات منه حجة قاطعة تقوم في فهم الدنيا إلى يوم الساعة . تتحدّى العالم بما يكون فيها من أسرار الفصاحة والبيان ، والعلوم والمعارف ، وأنباء الغيب وشواهد الحق .

أضف إلى ذلك أن الدين شوقوا بخطابه عند مهبط الوحي كانوا أئمة الفصاحة ، وقرّسان البلاغة ، صاهتهم الكلام والفتن في إجادته . وصناعتهم القياس في النثر ودباجته ، والشعر ورواقه . وكرامتهم مرتبطة بما يُحمّدون في هذا الباب ، لا بما يحمّون من الذهب أو يحسون من القاب . حتى ينفوا في هذا الميدان شأواً لا يُبارى ، وغاية لا تُدرك . وما يكون له أن نطق العنان هنا لقم . وإلا صاق بنا التأليف والزمن . وأنت حبير إجمار القرآن ، وما كتب في إجمار القرآن . فاكثف بهذه الإشارة الخطاطة . وإن أردت المزيد فعليك بما كتب في إجمار القرآن .

### د - دفع الشبهات

ولكني أعالج بين يديك لهذه المناسبة شبهات عشرأ يردّها كثير من المفتونين : « الشبهة الأولى » يقولون : إن المعجزات شأنها شأن كثير من المخترعات . فإذا كان فيها طرافة أو دهشة أو حجب ، فكذلك آثار العلم ومدعياته فيما يرى وسع . والجواب : تعرفه بما ذكرناه آنفاً في بحث المعجزة . مما يقين به الفرق بعيداً واليون شاسعاً بين المعجزة وما جدّ أو يحدّ في العالم من عجائب العلم ، وروائع الفن ، وبدائع الاختراع . فالمعجزة ليست لها أساليب معروفة حتى تلمس ويؤتى بمثليها . أما هذه المخترعات فإن لها أساليباً معروفة عند أصحابها ، ويمكن معرفتها لمن لم يعرفها يسر وسهولة متى التمسها من طرفها

« الشبهة الثانية » يقولون : إن المعجزة كالسحر والشعوذة وما لهما : إن هي إلا تحييلات وتضليلات .



والجواب : يتبين لك من قصصنا عليك في المعجزة وفي ضرب المثل لها معنى موسى . ويمكن تجميعه من المعجزة معجزة من معجرات الحق تخرج عن أفق الأسباب المعتادة ، والوسائل للشاهدة ، وانفايات المألوفة . أما السحر وما أشبهه ، فإنها من خبيثات ذات قواعد وأوصاف يعرفها كل من أتم بها ، ويصل إلى وسائلها وعلاقتها كل من هاجلها من بابها . ولهذا كان أول من آمن بموسى هم السحرة أنفسهم ، لأنهم أعلم بهذا العرف الواضح ، واليهون الشاسع ، كما تقدم .

« الشبهة الثالثة » يقولون : إن ما تسمونه معجزات من العلوم والمعارف التي اشغل على منها القرآن ، ما هي إلا آثار مواهب بعض الدافين من الناس ، وهذه المواهب وآثارها وجدت ويمكن أن توجد في كل أمة .

والجواب : أن مواهب الدافين ، ونوع الموهوبين ، وما يكون منهم من آثار وأعمال كل ذلك له وسائل وهوامل ، ثم له أشباه معتادة ونظائر ، في كل أمة وجيل ، وفي كل عصر ومصر ، أما المعجزات فن تجد لها من وسائل ولا عوامل ، وإن نستطيع أن تصل إلى أشباه معتادة لها نظائر ، اللهم إلا إذا خرجنا عن نطاق الـ يكون المعروف ، وسنن الوجود المألوف .

« لشبهة الرابعة » يقولون : إن حرف الله لعاداته على أيدي رسله كما يقولون ، يعتبر حروفاً عن النظام العام الذي تقتضيه الحكمة ، وتناط به المصلحة .

والجواب : أن المعجزة - وإن كانت خارجة عن حدود الأنظمة المعتادة لا تعتبر خروجا على النظام العام الذي تقتضيه الحكمة ، وتناط به المصلحة ، بل هي من مقتضيات ذلك النظام العام الذي تملية الحكمة ، وتوجيه المصلحة . وأي حكمة أحسن من تأييد الحق وأهل الحق ؟ وأي مصلحة أعظم من اعتناء الحق إلى طريق سعادتهم ؟ بواسطة تلك المعجزات التي يفهمون منها مراد الخالق من تأييد رسله ، ووجوب قصد يقم لهم ، واتباعهم إياهم .

« الشبهة الخامسة » يقولون : لو كان الوحي ممكناً لأوحى الله إلى أفراد البشر علامة ، ولم يخص به شريحة قليلين يجمعهم واسطة يده وبين خلقه .

والجواب : أن عامة البشر ليس لديهم استعداد لتلقي الوحي عن الله ، لا مباشرة ولا بواسطة الملك ، حتى لو جاءهم ملك لم يستطيعوا رؤيته إلا إذا ظهر في صورة إنسان ، وحينئذ يعود اللبس ويبقى الإشكال . فقصة الحكمة أن يجعل الله من نبي الإنسان طائفة مختارة لها استعداد خاص بؤهلها لأن تتلقى عن الله الوحي ، ثم تؤديه في أمانة إلى العامة من إخوانهم في الإنسانية ، بعد أن وضع الله في أيديهم شواهد الحق الناطقة التي تدل العالم على مراده سبحانه من تصديقهم ، وبعد أن سلّحهم بالآيات التي تعاضد الناس على أنهم رسل لا تقاوم وإرشادهم من عند ربهم . ثم إن اختصاص بعض أفراد النوع الإنساني بالوحي والنبوة ، فيه نوع من الاختيار والابتلاء ، الذي بنى الله عليه هذه الحياة وميز به الخبيث من الطيب . « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

وتلك الشبهة بقول الله في مثلها من سورة الأنعام : « وَقَالُوا أَوَلَا نُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مَلَكًا . وَلَوْ أُنْزِلْنَا عَلَيْكُمْ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَتَّبِعُونَ » .

« الشبهة السادسة » يقولون : كيف تدل المعجزة على تصديق الله لرسوله ، مع أننا ما رأينا الله وما سمعناه .

والجواب : أن دلالة المعجزة على تصديق الرسول ، كدلالة الكون على خالقه مع أننا ما رأينا الله وما سمعناه . ولنضرب لهم المثال ، كيلا تبقى لهم شبهة ولا يقوم لهم عذر : افرض أنك حصرت مجلساً عاماً فيه ملك من الملوك ، وكان من تقاليد هذا الملك ألا يكشف رأسه ويحس من المجلس العامة ، وبينما تقوم جلوس في حصرة صاحب الخلافة إذ بهن رجل من الحاضرين معروف للجميع بصدقه وأمانته ، وأدبه واستقامته ، وحسبه ونسبه . وإذا هذا الرجل يقول على مرأى وسميع من الملك ورعيته : أيها القوم إن مولاي الملك حتمى هذه الرسالة أبصركم إياها ، وهي أن تعملوا

كذا ، وتتركوا كذا ، ثم سكنت الملك ولم يكده ، ثم يكثف الرجل طهارة ماضيه ، وسكوت مليكه في ترويج دعوه ، وتأيد رسالته ؛ بل قال إن آية صدق أن يُعَيَّر مولاى الملك عادته الآن ، ويخرج عن تقيد من تقايله المعروفة لكم جميعا ، وذلك أن يُعَرِّى رأسه في هذا المجلس العام ثم ما كاد ينتهى حتى عرّى اللبث رأسه وجمع تاحه . أفلا يعتبر ذلك دليلا كافيا على صدق هذا رجل وصدق ما جاء به ؟ ثم ما نالك إذا هو قد عرّر دليله بالتحدّى فقال : إن أحدكم أن يحبسكم الملك إلى مثل ما أجاسى إليه فاحه واطبوس وبلجوس ، فلم يستعب لهم الملك ، ولم يغير عادته معهم ولا مرة واحدة . أفلا تكون ذلك رهانا ألتج من الصبح على أن هذا الداعي هو رسول هذ الملك حق ؟ ثم ألا يكون الكذب بعد ذلك معامداً ومكارراً ، ويكون بالحيوان الذى لا يفهم ولا يقتل ؛ أشبه منه الإنسان الذى يفهم ويعقل ؟ « أُوَيْلِكَ كَلَّا لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » .

وذلك لمثل هو مثل دُئِلَ الله ، تؤيدهم معجرات الله . « وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ أَتَقَرَّرُ الْحَكِيمُ »

« لشبهة الساعة » يقولون : إن هذا الوحي الذى تدعونه وتدعوس تحميمه ، جاء بهذا القرآن غير مرتب ولا منظم ، ثم يُقرّر دكل عرص من أعراضه بفصل أو باب ، شأن سائر الكتب المنظمة . بل مُرحت أعراضه مرحاً غير مُراعى فيه نظام لتأليف ، فيسعد أن يكون وحياً من الله . وهذه الشبهة وردة كما ترى على تحميم القرآن وترتبه أيضاً .  
والجواب : أن مخالفة القرآن لأظمة لكتب دؤامة لا تعتبر عيباً فيه ، ولا وحيه

وموحيه ، بل هى - على العكس - دليل مادى ، على أنه ليس بكتاب وصى بشرى ؛ يحس إليه واضعه من الناس ؛ فيجعل لكل طائفة من معلوماته المتناسقة فصلاً ، ولكل مجموعة من فصوله المتناسقة باباً ؛ بل هو مجموع إشرافات من الوحي الإلهى الأعلى . اقتضيتها الحكمة ودعت إليها المصلحة . على ما هو مفصل في أسرار تحميم القرآن .

ثم إن هذا مريح لطرف الذي يحده في كل سورة أو طائفة منه ، له أثر نافع في اقتداد قارئه ، وتشويق سامعه ، واستفادة المستفيد بأبواب متنوعة منه ، في كل حصة من حصاته أو درس من درسه وهذا هو الأسلوب الحكيم في تقليم والإشهاد ، خصوصاً تلك الأمة الأتية التي رول عليها ، فما أشبه كل مجموعة من القرآن بروحه يادة بِسَمَلُ الإِسْرار بين أديانها متمتعة بكل الثمرات ، أو عائلة حافلة شتى الأطعمة يُشجع الخائض حاجته ، فيها من جميع الأنوال .

وهذا دقيقة أحب ألا تغرب عن عتق . وهي أن هذا أرواحاً إلهية إلهية ( القرآن الكريم ) تقوم بين تحله وآية وشوهره صاحب نافع ، وراسطاً بحكم ، وانتلاف بدع ، ينهي إلى حد الإعجاز ، خصوصاً إذا لاحظنا روله مُنَحَّك على السنين واشهور والأيم

قال اشعشع ولي الدين للوى . « قد وهبهم مَنْ قال لا يُطلب إلا الكريمة » مناسبة لأنها على حسب الوقائع لمفرقة . وقيل الحظوظ أنها على حسب الوقائع مريلاً ، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتخصيلاً . فالصحف على وفق ما في الألواح المحفوظ مرتبة سورته ، كلها وآية ، لتتوحيق كما في حلة إلى بيت معرفة ومن معجزات أسبوعه ونظمه الناهر ، والذي يسعى في كل شيء يُبحث أولاً كل شيء عن كونه ممكنة لما قبله أو مستترة ، ثم يستترة ما وجه مداسنها ، فبها في ذلك علم حم . وهكذا في السور يصدر وجه اتصالها ، وما سميت له »

وقال الإمام حجر الدين الرازي في عسيره لسورة اسفرة ما حصة :

« ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها ، علم أن القرآن كما أنه معجز محسب فصحة أبحاثه وشروط معانيه ، فهو معجز أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته » وعن الذين قالوا : إنه معجز بسبب أسبوعه أرادوا ذلك ، إلا أني رأيت جمهور

المعسر معرصين عن هذه اللطائف عبر منتهين لهذه الأسرار وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل :

والمعسر تستصير الأبصار رؤيته والذنب الطرف لا للجهر في الصغر

« الشبهة الثامنة » يقولون : إن محمداً كان مصيباً حادّ الزاج ، وكان مريضاً بما يسمونه ( المستريا ) فالوحي الذي كان يزعمه ما هو إلا أعراض لتلك الحال التي أصيب بها .

والجواب : أن هذه فريضة تدلُّ على جهلهم الفاضح بمحمد ﷺ . فالمعروف عنه بشهادة التاريخ الصحيح ، والأدلة القاطعة ، أنه كان صلى الله عليه وسلم وديعاً ، صبوراً حديماً ، بل كان عظيم الصبر ، واسع الحلم ، فسيح الصدر ، حتى إنه وسع الناس جميعاً بسطه وخافقه . وكان شجاعاً مقداماً سليم الجسم ، صحيح البدن ، حتى إنه صارع رُكَّانة المشهور بشجاعته قصره ، وكان يثبت في الميدان حين يفرّ الشجعان ، ويعزع الخلق ويشتدُّ الأمر ، ويقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » ويقول : « إني عبادة الله » ولا يزال كذلك حتى يُنفذ الموقف ويكسب المركة . ولو أفضنا في هذا الموضوع اطلل بها الكلام ، ولكن موضوعه كتب السيرة والشعائل الحمديّة فارجع إليها إن شئت . . أما مرض ( المستريا ) الذي يصمونه ﷺ كذباً به فهو داء عصيّ عُصَال ، أكثر إصاباتة في النساء . ومن أعراضه شذوذ في الخلق ، وضيق في التنفس ، واضطراب في المعيم . وقد يصل نصاحه إلى شلل موصى ، ثم إلى تشنج ، ثم إلى إغماء ، ثم إلى هذيان مصحوب بحركة واضطراب في اليدين وأرجلين ، وتقرُّح من مكان إلى مكان . وقد يرغم المصاب أنه يرى أشباحاً تهدّده ، وأعداء تحاربه أو أنه يسمع أصواتاً تحاطبه ، على حين أنه لا وجود لشيء من ذلك كله في الحسّ والواقع .

مهل يتفق ذلك وما هو معروف عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه كان أمة وحلمه في أخلاقه ، وثباته ، وحلمه ، وعقله ، ورأبطة خاشه ، وسلامة جسمه ، وقوة بنيانه ؟ ثم كيف يتمق ذلك الداء العصال الذي أعيا الأطباء ، وما انتدب له محمد ﷺ من تكوير أمة شמוש أبيه ، وتزيتها على أسنى نوااميس الهداية ، ودساتير الاجتماع ، وقوانين الأخلاق ، وقواعد النهضة والرقى ؟

أصف إلى ذلك أنه نجح في هذه المحاولة المعجزة إلى درجة جعلت تلك الأمة بعد قرن واحد من الزمان ، هي أمة الأمم ، وصاحبة العلم ، وربة السيف والقلم ؟ فمل المريض التهوؤ الذي لا يصلح لقيادة نفسه بنفسه ، أن يقوم بهذه القيادة العالمية لفائدة ثم ينجح فيها هذا النجاح للمعجز المدهش ؟

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ  
« الشبهة القاسية » يقولون : إنكم تستدلون على الوحي بإعجاز القرآن وتستدلون على إعجاز القرآن بما فيه من أسرار البلاغة ، ونحن لا ندرك تلك الأسرار ولا نصلها ، فلا نسلم الوحي المبني عليها .

والجواب : أن للقرآن نواحي أخرى في الإعجاز غير ما يحويه من أسرار البلاغة والبيان ، ومن السهل معرفتها على من لم يتمهر في علوم العربية واللغة . منها ما يحويه هذا التنزيل من المعارف السامية والعاليم العالية ، في العقائد والعبادات ، وفي التشريعات للبدنية والجسائية ، والحربية والمالية ، والحقوق الشخصية ، والاجتماعية والدولية . وإن مقارنة بسيطة بين تلك الهدايات القرآنية وبين ما يوجد على وجه الأرض من سائر التشريعات الدينية وغير الدينية ، توضح لك ذلك الإعجاز الباهر ، خصوصا إذا لاحظت أن هذا الذي جاء بتلك المعارف الخارقة كان رجلا أميا ، شأ وعاش ، وشب وشاب ، وسى ومات ، بين لمة أمية ، كانت لا تدرى ما الكتاب ولا الإيمان !

كذلك أبناء العيب اننى تحدث بها القرآن . وهى كثيرة - يمكن إدراك وحه الإيجاز فيها بيسر وسهولة لكل مصنف . اقرأ إن شئت قائمة سورة الروم ، لتعرف كيف أحسب القرآن صراحة دمر كل لا يزال مستتراً فى صمائر العيب ، بل كانت العوامل وظواهر لا تساعد عليه ، ذلك أنه أخير فى وقت انتصر فيه الفرس على الروم فى أدنى الأرض ، بأن الروم سيهدال لهم على الفرس وينصرون فى بضع سنين ؛ وكان كما قال .

ثم اقرأ قوله سبحانه مخاطباً لنبيه فى موقف من مواقف الخصومة والمخاجة بينه وبين أعدائه اليهود : « قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » وهذا من أبرز شواهد الإيجاز والقصوى : إذ كيف يتسنى لرجل عظيم فى موقف من المواقف انفصاله بينه وبين أعدائه ، أن يجرؤ على تحديثهم بشئ هو من شأنهم وحدهم ، وكان فى استطاعتهم عادة ، بل فى استطاعة أقل واحد منهم ، أن يقول ولو ظاهراً : « إني أتمنى الموت » ليظفروا بذلك التنى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ويطلبوا به دعوته ، ويستريحوا منه على رءوسهم . ولكن كل ذلك لم يمكن ، فإتمنى أحد منهم موت ، بل صرفوا وما رانوا مصروفين عنه أبداً ، ثم سئل القرآن عليهم ما هو أعمد من ذلك ، إذ قال عقيب تلك الآية : « وَاتَّخِذْتَهُمْ أَضْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ أَنْ يُبَعَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُخْرِجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُبَعَّرَ ، وَاقْتُلُوا نَفْسًا يَكْتُمُونَ » ١٠ من سورة المقرة .

أليست تلك أدلة مادية قاطعة ولا تزال قائمة ، على أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه كان مؤيداً بالوحي من ربه ، وأنه لما يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ؟

أما إعجاز القرآن من ناحية الأسرار الملائكية فلا يقدح فيه أن حبرة الناس اليوم لا يدركونها ولا يتدققونها ، فإن ذلك لا يرجع إلى خلو القرآن من أسرار الملائكة وبيان ، إنما يرجع إلى جهل الناس باللغة العربية وأصاليها ، وإلى فساد ذوقهم من عادة المعجمة عليهم ، ومعرفة أن عدم الإدراك لشيء ، لا ينافي دليله على عدم ذلك الشيء . ونظير ذلك أن عدم معنا بلغة من اللغات الأجنبية مثلا ، لا يلزم منه أن ننكر أن فلانا متفوق في تلك اللغة بشهادة الإخصائيين فيها والخادقين لها ، بل نحن نؤمن بوجود لغات لا نعرف منها شيئا ، كما نؤمن بوجود فاضلين فيها لا نعرفهم ولا نعرف من وحوه نبوغهم شيئا ، اللهم إلا من طريق سمعنا لذلك من مصادر تثق بها .

كذاكم القرآن الكريم ، قد شهد الفنيون والإخصائيون من خدائق اللغة العربية ، في أزهي عصور التفوق عليها والتميز فيها ، أنه كتاب فاق الكتب ، وكلام تزاثر ضروب الكلام ، وبلغ في سموه وتفوقه حدود الإعجاز والإحكام ، من ناحية فصاحة والبلاغة وما يحمل لها من أسرار . ثم نقل إلينا ذلك كله نقلاً متواتراً قاطعاً لا ظل فيه للشك والسكران .

فإذا لا نقبل هذا الحكم العادل ، ومصادره كثيرة محترمة كل الاحترام !  
أبسط ذلك تمصيا وعنادا ، على حين أن الباب كان ولا يزال مفتوحاً أمام كل من يحقق علوم اللغة العربية وأصاليها ، أن يتدقق أسرار البلاغة والإعجاز في هذا القرآن ، وأن يحكم هو نفسه بحكم الآلاف المؤلفة في كل زمان ومكان !  
وإدالم تر الملال مسلم لأداس رأؤهُ بالأنصار  
على أن لإعجاز القرآن ميداناً آخر فاطله إن شئت . « وَاللَّهُ أَعْلَمُ »

( الشبهة العاشرة ) يقولون : إن إعجاز القرآن للعرب لا بدل على أن القرآن كلام الله . بل هو كلام محمد نبيه إلى ربه ليستمد قدسيته من هذه النسبة وإعجازه جاء من



من ناحية أن محمدًا كان مردًا تكامل في بيته بين قومه ، لذلك - قرآن الفرد  
لكامل أيضًا بين - جاء به قومه ، وقد يستطيعوا هذا لاعتماد وحده أن يأتوا بمثله ،  
شأن الرجل القذ بين أقرانه في كل عصر .

وبجيب على هذه الشبهة بأدوية حسنة :

( أولها ) أن كل من أوتي حفظًا من حسن البين وذوق البلاغة ، يفرق بين أساليب  
القرآن وأساليب الحديث سبويًّا فرقًا كبيرًا يمثل الفرق الكبير بين مفردات الخلق  
ومفردات الحق . وهما القرآن والحديث السوي ، لا يزالان قائمين فيما ، بمادلات  
القدس بهذا الفرق بعيد ، إن كان هم أحسن في البين وذوق في الكلام .

ولو كان لهذه الشبهة شيء من الوجدانية ، لكان أولى الناس أن يرفعوا عقيرتهم  
بها هم أولئك العرب الخُلص الذين شققتهم لقرآن ؛ لأنهم كانوا أحرص على تعجير  
محمد وإسكاته للاعتبارات التاريخية المعروفة . لكنهم مقلوا هذا . بل كانوا أكرم  
على أنفسهم من أن يقولوه ، إية بما منهم ظهور المميزات الدالة بكلام أروبية عن  
كلام النبوة ، بحيث لا يلبس أحدهما بالأخرى شيء . وهكذا : مَنْ ذَاقَ حَرَفَ وَمَنْ  
حُرِمَ انْحَرَفَ .

وَكَمْ مِنْ عَنِيبٍ قَوْلًا صَحِيحًا      وَآفَقُهُ مِنْ قَوْمٍ لَسَنِيمٍ

( الجواب الثاني ) أن القرآن مأت أماس من الخف ، يسئل حده من أوسع  
الأبواب ، ودخل عليهم من طريق العرب انحصاء دوى اللس واليس . وتحدثهم من  
السحبة التي سعوا فيها وهي صدعة الكلام ، تلك اصصاعة اميدنة ، نمة التي وقفوا  
عليهم مواهبهم وألقوا فيها حديثهم ، حتى صارت موضع سفسهم وسفهم ، وموضوع  
حرم وفوقهم شأن من معجزة الله تعالى . أت الناس إلّا من

إساحية المفهومة لم كل المصمم ، وذلك ليظهر أمر الله واضحاً حلياً ، لا لبس فيه ولا عوض ، ولا شبهة ولا شكوك ، وثلاً تكون للس على الله حجة عند الرسل ، وكان الله عزيراً حكماً .

ومن هنا نعلم ، والتاريخ يشهد ، أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد - كما يقول أولئك الملاحدة - لأمكن هؤلاء العرب البارعين في البيان أن يعرفوا أنه كلامه ، بما أوتوا من ملكة النقد ، وما وهبوا من نباهة الحس والذوق ، ثم لأمكنهم أن يجاروه ولو شوطاً قريباً إن لم يمكنهم مجاراته شوطاً بعيداً . لاسيما أن القرآن قد اكتفى منهم في معرض التعدي بأن باتوا بسورته من مثل أقصر سورة ، أي بمثل ثلاث آيات قصار من بين تلك الآلاف المؤلفة التي اشغل عليها الكتاب العزيز . وأنت خير بأن هؤلاء لم تكن تقتضيهم تلك الساجدة وهم فرسان ذلك المهدان ، وأئمة الفصاحة والبيان ، لو كان الأمر من صناعة محمد ﷺ وإشائه . كما يزعم أولئك الخرافسون . فما بالك وقد خربت السنتهم ، وخشمت أصوات الأجيال كلها من بعدهم .

ومعلوم أن لفظة الفذ في أي عصر من العصور ، يستطيع أقرانه بيسر وسهولة ، أن يحاكموه مجتمعين ومنفردين في الشيء القليل ، على فرض أنهم لا يستطيعون معارضته في الجميع أو الشيء الكثير .

( الحواب الثالث ) أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد ، لكان من المعسر له أن يسبه إلى نفسه . ولأمكن أن يدعى به الألوهية فضلاً عن النبوة . ولكان مقدماً في نظر الناس وهو إله ، أكثر من قداسته في نظرهم وهو نبي . ولما كان في حاجة إذاً إلى أن يلمس هذه القدسية الكادمة منسقة القرآن إلى غيره « فَمَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكْذِبُونَ مَقْهُونَ حَدِيثًا » ١٤٩

(الجواب الرابع) أن هؤلاء الملاحدة عاب عنهم أنهم يتحدّثون عن أكرم شخصية عرفها التاريخ طمّراً وبُبلًا، ودهوا عن أنهم يَمُورُ أسمى مقامٍ اشتهر أمانةً وصدقًا. فكان عليه السلام إذا مرَّ بقومه يشيرون إليه بالمان ويقولون: هذا هو الصادق الأمين. ثم صدروا عن رأيه، وروصوا بحكمه. والعقل المصنف قال ولا يرال يقول: ما كان هذا الأمين لصدوقي لِيَذَرَ الكُذْبَ على الناس ثم يكذب على الله « وَلَكِنْ أَلْمُنَا فِتْنَيْنِ لَا يَعْلَمُونَ ».

(الجواب الخامس) أن هذه الشبهة وليدة الغفلة عن مضامين القرآن العلوية، وأنبائه النبية، وهداياته الخارجة عن أفق العادة في كافة النواحي البشرية، فردية كانت أو اجتماعية. لاسيما أن الآتي بهذا القرآن رجل أمي في أمة أمية كانت في أظلم عبود الجاهلية. أضف إلى ذلك ما سجّل القرآن على النبي عليه السلام من أخطاء في بعض اجتهداته، ومن عتاب نحسُّ نارةً بطنه، وأخرى تُعنفه. ولو كانت هذا التنزيل كلامه ماموح أن يسجّل على نفسه ذلك كله. ولكن الملاحدة يَمُورُ أنفسهم؛ حوزعوا رَغَمَ هذه البراهين اللامعة أن محمداً انظرى القرآن على ربه. كذبوا وضلّوا. « مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى: وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ».

(ذيل لهذه الشبهة) ويتصل بهذه الشبهة شبهة أخرى قد نعرض لبعض المأثورين. وهي أن هذا القمّند الشامع بين القرآن والحديث لم يحس من ناحية أن القرآن كلام الله والحديث كلام محمد، إنما جاء من ناحية أن محمداً كان له ضربان من الكلام: أحدهما محتمل به كل احتفال، ويُعنى مَزِيدُ العناية بهديه وتعميقه وتخصيره، وذلك هو ما سماه بالقرآن وسماه إلى الله. وثانيهما يُرْسِلُهُ لإرسالاً غير حَقِيقِيّ تصغيره وتحريره، وهو لسمي بالحديث السوي ثم يقولون لترويح شهتهم هذه:

لأن ذلك ليس بدعاً فيما يرى من آثار الأدباء والبلغاء ، بل يحس ملحوظ أن الأديب الواحد يعو كلامه الصادر عن دمل وعصابة وروية ، علواً كبيراً عن كلامه المرسل على البديهة ، حتى كأنهما لكاتبين اثنين ، يدبهما بُعد ما بين المشرقين

( والجواب الأول ) أن هذه الشبهة الجديدة مبنية على قياس فاسد ، وهو تشبيه أدباء ذلك العصر الزاهر الذي نزل فيه القرآن وحضت فيه السليقة العربية ، بأدباء هذا العصر المولدين الذين فسدت لغتهم ، وتبطلت ألسنتهم . وشتان ما بين الطبقتين ، وابتداء ما بين العصرين ١١ .

« أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الرَّبِّيَّةُ سَهَيْلًا عَمْرَكَ اللَّهُ كَيْفَ بَلَقْتِيَا ؟  
هِيَ شَاكِمِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ وَسَهَيْلٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّ بِمَاتِ »

فالتفاوت البعيد بين الكلام المرسل والكلام المخبر ، لم يظهر إلا منذ فسد اللسان العربي ، وتطورت العجمة إلى المولدين من العرب وأشباههم . أما أولئك العرب النخلص الذين كانوا يتكلمون العربية بالسليقة ، فلم يك منهم أحدهم البهائم مختلفاً هذا الاختلاف الكبير ، تبعاً للإرسال والتعبير . بل العربي الفصح نهج في الكلام نهج واحد ، هو نهج السليقة الصافية والطبيعة السليمة . ولم يكن التعبير ليذهب به مذهب الذبذبة التي تجعل له أسلوبين متباينين في كلامه ، بل قصاره في التعبير أن يحيط بأطراف موضوعه دون أن يلبس عنه مقصد من مقاصده ، ودون أن يخرج عن أسلوبه الذي ينبع من نفسه وتفيض به سمحيته القرباء ، ذلك الأسلوب الذي يتسبب أهل الفن منا أنفسهم في عماكاته وحيات أن يبلنوا إلا بعد طول عناء .

على أن معاناة ذلك العربي الفصح إذا عانى التسميق والترويق ، لم تكن لتزيد كلامه روعة وحساً بل كانت تنزل به بمقدار ما يطن أحداً أنها تصعد فيه . ولهذا كان العرب يعافون من الكلام ما ظهرت فيه آثار العجمة والتكلف ويعدون ذلك من التفاضح النازل إلى شهوة العبي والتسطع ، كما كانوا مأخوذين بالجليل السليس ، وبالمسهل المشتمع

ولقد كان لبي عليه السلام أهدى حرب عن هذا العمل والتقصير والتعسير ، حتى ينفذ  
 من ذلك ورطته أهلاً والخسائر المبررة برويه مسلم وأبو داود من أن  
 لبي عليه السلام قال : « هلك متصعون » والتصع في الكلام : التعمق فيه والتعاضج  
 وروى الشيخ أنه صلى الله عليه وسلم جاءه رجل من همدان يصر في دمه الحنين ،  
 قال : « رسول الله كيف شرم دمه من لا شرب ولا أكل ولا تصق ولا استنهل »  
 فثن ذلك أهل مكة رسول الله عليه السلام : « ما هذا من إخوان الكهان من أخير  
 سنخه لدى منخه » وفي رواية أنه قال : « أسنخ كمنخ الأعراب » وفي رواية  
 أخرى أنه قال : « أسنخ الجاهلية وكهنتها » فأتى نرى أنه صلى الله عليه وسلم دم  
 هذا السجع لمصوغ ، ورحم صاحبه من إخوان الكهان ومن حملة الجاهلية ومن يسمي  
 به صلى الله عليه وسلم أن يذم شيئاً ثم يقع فيه أو يحدث به الشرف ، من  
 هذا الإسلاف ولتعلن الحيس ودونك شبه النبوة فأولاً من عشت ، فلي تحل  
 إلا حذاء معصوماً ، ومعد الله أن تحذفها متكلاً معصوماً ، واقرأ أعلى في هذا  
 السب وأحل : « ولقد ستر القرآن للذكر ، ومن من مذكر » .  
 ( إخوان شىء ) أن هذه الشبه تحالف في أسسهم ، هو واقع معروف ، ذلك  
 أن القرآن كبريمه مدرج في حجة على غير تقطع وعكس ، وبدون تدبیر ،  
 وهو أكثره . ومنه مدرج من تشويق وإعشراق وطول انتص ، وهو أدبه ومع هذا  
 فسبوه الأعلى هو أسس الأعلى ، وطمه لمعجر هو بطمه لمعجر ، في الحديث عن سواء  
 تمثل من جاء في صلب رسول قوله سبحانه : « ولا تقولن شيئاً على بغير علم »  
 عداً إلا أن نشأ الله وهو أن اليهود قالوا قرش . سلوا محمد عن لروح وعن أصعب  
 كهف وعن دى الحريين ، فسأله ، فقال : « اتقوا سباً أحرككم » ولم يستش ، فأطأ  
 عليه الوحى حتى شق عليه ، ثم رت الآيات حوايا تلك الأسئلة ، بعد ثبوت المدة الطويلة

التي قدّرها بعضهم بأربعين يوماً ، وأنت إذا قرأتها لن تجد فرقاً بين أسلوبها وأسلوب كثرة القرآن العامرة التي نزلت مُبَاعْتَةً مُمَاحِثَةً .

وهذا الذي يقال في القرآن ؛ يقال مثله في الحديث النبوي . فله ما كان وليد التكسير والتدوير والمشاورة والمداولة ، كحديثه ﷺ في شئون الحرب والصلح ، ومنه ما كان وَحْيَ السَّاعَةِ وإرسالَ البديهة ، كحديثه الكثير فيما هو ظاهر من أمور الدين . ومنه ما كان وَحْيَ اللَّهِ إِلَيْهِ يَهْبِطُ بِهِ الْأَمِينُ جِبْرِيلُ ، كحديث المَعْقِرِ لِلتَّضَمُّغِ بِالطَّيِّبِ ، وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم يسأله من طيبه في عمرته هذه . فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ساعة حتى جاءه الوحي ، وَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ قَالَ : «أَيُّ السَّائِلِينَ مِنَ الْمُتَمَرِّغَةِ خَيْرٌ؟» به ، فقال عليه الصلاة والسلام : «أَمَّا الطَّيِّبُ الَّذِي بَكَ فَأَغْصِلُهُ ثَلَاثَ مَرَاتٍ . وَأَمَّا الْجَبَبَةُ فَانْزِعْهَا وَأَصْنَعْ فِي عُمُرَيْكَ مَا تَصْنَعُ فِي حَبْلِكَ» رواه الشيخان .

نعرف هذه الظروف المختلفة لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكننا نعلم اختلافها لم يختلف فيها الأسلوب النبوي ، بل هو طراز واحد من أرق الأساليب البشرية إن لم يكن أرقها ، وقبلنا تلحظ فيه تفاوتاً كثيراً . لا فرق في ذلك بين ما أرسله على البديهة ، وما أجال فيه الرأي والاستشارة ، وما نزل به وَحْيُ الشَّيْءِ ، وما احتفل به احتفالاً بمجازاً ، بالمواقف المشهودة ، والهامع المحشودة .

إذن مما نطمان متمايزان لا يشبهان : نخط القرآن كله ونخط الحديث كله لكل منهما مَسْنَعَةٌ وبَيَانٌ ودرجةٌ في الفرق واسبق ، بينها وبين الأخرى بُعد ما بين شأني الخلق والخلق ، ومرتق ما بين مَسْكَاتِي السَّيِّدِ والعبد ، فالقرآن يمتد بمنعة بلاعية خاصة ، وطابع بيدي فريد ، لا يترك باباً لأن يلتبس بغيره أو يشقه بسواه ، ولا يعطى الفرصة لأحد أن يعارصه أو يحوم حول حجاب ، بل مَنْ حَاصَهُ حُصِمَ ، ومن عَارَصَهُ قُصِمَ ، ومن حَارَبَهُ هُزِمَ . أما الحديث الشريف فهو وإن حَكَّنْ في حَوْءِ المصاحبة ، وسما في حملته

عن أساليب العرب ، فبنة لا يزال في أرض العبودية لم يصل إلى سماء الإعجاز ، وتُسَمَّيه  
أساليب بعض خواص أصحابه ، وبينه وبين حِكْمِ العرب للمأثورة قرينة مأساة وشبهه  
قريب . بخلاف القرآن فإنه ليس كمثلها ياب ، لأنه كلام من ليس كمثلها شيء . « وكلامُ  
الملوك ملوك الكلام » .

### خاتمة البحث

بحسب أنا أقصا في هذا البحث ، ولكنا نعتقد أن هذه الإفاضة واجب لا بد  
منه ، ما دمتنا نصدّد نسيحاً للألبا متحصّصي الدعوة والإرشاد ، وهم على أهبة العزول  
إلى ميادين الوعظ العامة ، وفيها المؤمن والجاهل ، والتدين والمجد ، والإلهيون  
والطبيعيون ، وفيها ضحايا الطوائف المعادية للإسلام ، وصُرغى المذاهب المتطرفة  
في العالم

وملقت نظرك إلى أن بعض ما ذكرناه في أدلة الوحي العمية ، قد اعتمدنا فيه على  
أدلة حالية يؤمن بها المسكرون أكثر مما يؤمنون بآيات الله .  
ولم أردت التوسّع في هذا فأرجع إلى ما كتبه العلامة « محمد فريد وحدي » في  
المجلد العاشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٨ هـ ، وما كتبه من قبل في المجلد الخامس من  
مجلة الهدية الإسلامية سنة ١٣٥١ هـ ، وما كتبه العلامة الشيخ محمد عبد الله ددار في  
كتابته : « السأ العظيم » . والله تعالى التوفيق .

## المبحث الرابع

في أول ما نزل ، وآخر ما نزل من القرآن

مدار هذا البحث على النقل والتوقيف . ولا مجال للامتنع فيه إلا بالترجيح بين الأدلة ، أو الجمع بينهما فيما ظاهره التعارض منها .

ومن فوائد الإلزام بأول ما نزل وآخره ، تمييز الناسخ من المنسوخ بما إذا وردت آيات أو آيات على موضوع واحد ، وكان الحكم في إحدى هذه الآيات يعبر الحكم في الأخرى ومن فوائد أيضاً معرفة تاريخ التشريع الإسلامي ، ومراقبة سيره التدريجي ، والوصول من وراء ذلك إلى حكمة الإسلام وسياسته في أحده الناس بأموادة والرفق ، والعقد بهم عن عوائل الطغرة والضعف ، سواء في ذلك عدم ما قرءوا عليه من باطل ، وبناء عالم يحيطوا بعلمه من حق .

يضاف إلى هاتين الفائدتين فائدة ثالثة : هي إظهار مدى العناية التي أحيط بها القرآن الكريم ، حتى عُرف فيه أول ما نزل وآخر ما نزل ، كما عُرف مكانه ومديته ، وسفريته وحضرته ، إلى غير ذلك . ولارغب أن هذا معطى من مظاهر الثقة ، ودليل على سلامته من التعيير والتبديل . « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ » .

وليس من عرصا في هذا الباب أن نتحدث عن أول ما نزل وآخر ما نزل في كل تعليم من تعاليم الإسلام ، فتلك غاية تعميده المدى ، وبحمود طويل حدير أن يُقرّد بالتأنيف ، وله مواضع أخرى يمكن طلبه منها . إنما اليسور لنا أن نحدثك عن أمرين :

أحدهما : أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ، وآخر ما نزل منه على الإطلاق ، وهذا هو المقصود المهم .

الثاني : مدج من أول ما نزل في بعض الأحكام التشريعية وآخر ما نزل منها ، أي أوائل وأواخر إصافية محصورة ومقيّدة ببعض الأحكام



## أول ما نزل على الإطلاق

ورد في ذلك أقوال أربعة :

« القول الأول » وهو أصحها أنه صدر سورة « اقرأ باسم ربك الذي خلق »

إلى قوله سبحانه « علم الإنسان ما لم يعلم » ودليله ما يأتي .

١ — روى البخاري ومسلم ( والعظم للبخاري ) عن عائشة أم المؤمنين رضى

الله عنها أنها قالت « أول ما نزل به رسول الله ﷺ من الوحي أنزلها الصالحة في

النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبَّ

إليه الخلاء ، وكان يحلو به جراد ، فيتحدث فيه « وهو التعمد » الذي دوات

المدبر قبل أن يبرع إلى هذه ، ويترود لذلك ، ثم يرجع إلى حديجة

فيتروذ أينسليها ، حتى حازه الحق وهو في عار جراد ، فعاهه ألم فقال اقرأ .

قلت : ما أنا بقارى . فأحذني فعطيت حتى نلت مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ

قلت : ما أنا بقارى . فأحذني فعطيت أنثاية حتى نلت مني الجهد ثم أرسلني .

فقال اقرأ . قلت : ما أنا بقارى . فأحذني فعطيت أنثاية ثم أرسلني فقال :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق حقيق الإنسان من عني اقرأ ورك الأكرم »

وفي بعض الروايات « حتى نلت ما لم يعلم » فوَحَّعَهَا إلى حديجة برحمة

فؤادها « إلى آخر الحديث وهو طويل ، وعلق الصبح . صياؤه . والتحدث المراد به التعمد

وأصده ترك الحديث ؛ لأن هذه الصيغة تدل على السحب والتسحي عن مصادرها ونظيره

التهجد ، والتأثم ، والتصرُّج . وعطى بفتح المعين وتشديد الطاء لمتوحة أى صمى صمًا

شديداً حتى كان لى عطيط ، وهو صوت من حُسَّتْ أسنانه بما يشبه الحق والجهد بفتح

الجيم : يطق على المشقة وعلى الوسع والطاقة ، ونصم الجيم يطاق على الوسع والطفة لا غير ،

وما رواه ابنان

٢ - وصحح الحاكم في مستدركه ، والبيهقي في دلائله عن عائشة أيضاً رضي الله عنها أنها قالت : «أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ « أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ » .

٣ - وصحح الطبراني في الكبير بسنده عن أبي رباح العطاردي قال : كان أبو موسى يُقْرَأُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُسَ حِلَقًا وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَيْصَانِ ، إِذَا تَلَاهُ السُّورَةَ « أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » قال : هذه أول سورة نزلت على محمد ﷺ .

٤ - وردت آثار في هذا المعنى أيضاً في بعضها زيادة تعرفها من رواية الرهري وهي : أن النبي ﷺ كان محمراً إذ أتى الملكُ سبطاً من دباج مكتوب فيه « أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » إلى « مَا لَمْ يَسْلَمْ » اهـ . والنمط معناه النون والميم هو الثياب ، والدباج هو الحرير .

« القول الثاني » أن أول ما نزل إطلافاً : « بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » . واستدل أصحاب هذا الرأي بما رواه الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه قال : سألت حازم بن عبد الله : أي القرآن أنزل قبل ؟ . فقال : « بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » . قلت : أو « أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ » وفي رواية نثبت أنه « أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » . فقال : أَحَدُنَا مَاحِدٌ ثَمَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنِّي حَاوَرْتُ عِمْرَاءَ ، فَلَمْ قَصَبْتُ جَوَارِي نَزَلَتْ ، فَاسْتَبَطَنْتُ الْوَادِي « رَأَيْتُ رِوَايَةً » فَوَدِدْتُ أَنْ تَنْظُرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي ، ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى السَّمَاءِ هَذَا هُوَ ( يَعْنِي جَبْرِيلُ ) رَأَيْتُ رِوَايَةً : خَالِسٌ عَلَى عَرْشٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » فَأَحَدُنَا رَحْمَةً وَتَبَّتْ حَدِيثُهُ ، وَأَمَرْتُهُمْ فَدَنَوْا مِنِّي ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : « بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » .

لكن هذه الرواية ليست نصاً فيما نحن بسبيله من إثبات أول ما نزل من القرآن إطلافاً ، بل تحتل أن تكون حديثاً مما نزل بعد فترة الوحي ، وذلك هو الظاهر من رواية أخرى رواها الشيخان أيضاً ، عن أبي سلمة عن حازم أيضاً « فَبَيْنَمَا أَنَا أُمَشِّي إِذْ

سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ دَرَسْتُ نَصْرِي قَبْلَ السَّمَاءِ ، هَذَا أَمْلَكُ الَّذِي حَامَى بِحِرَاءِ قَاعِدَةٍ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَحَثَّتُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ ، وَحَثَّتُ أَهْلِي ، قُلْتُ : رَمَلُونِي وَرَمَلُونِي . « نَزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِبَيِّنَاتٍ أَلْمَدَنَةِ » . ثُمَّ قَامَ دَرَسَ وَرَبَّكَ فَكَتَبَ وَرَبَّكَ فَصَحَّرَ وَالزُّجْرَ فَاجْعَرَ » قَالَ أَبُو سَلَمَةَ : وَارْجُرُ : الْأَوَّلُ أَنَّهُ قَتَلَ : وَحَثَّتُ عَلَى وَزْنِ فَرَحَتِ مَعْنَاهُ ثَقُلَ جَسَدِي عَنِ الْقِيَامِ ، وَسَبَّهِ مَزَعَ الرَّسُولَ وَخُوفَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ .

في فظاهر هذه الرواية يدلُّ على أن جابرًا استند في كلامه على أن أول ما نزل من القرآن هو المدثر ، إلى ما سبَّه من رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي ، وكأنه لم يسمع به ، حدث به رسول الله ﷺ عن الوحي قبل فترته ، من نزول الملك على الرسول في حراء بصدر سورة اقرأ « كما روت عائشة » فاقصر في إخباره على ما سمع فلا أنه ليس هناك غيره ، اجتهداً منه ، غير أنه أخطأ في اجتهداده بشهادة الأدلة السابقة في القول الأول ، ومعلوم أن النص يقدم على الاحتجاج ، وأن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال ، سقط به الاستدلال ، فبطل إذا القول الثاني وثبت الأول .

### القول الثالث :

أن أول ما نزل هو سورة الفاتحة . وقد استدلل أصحاب هذا الرأي بما رواه البيهقي في الدلائل بسنده عن ميسرة بن عمر بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لحديجة « إني إذا سَلَوْتُ وَحْدِي سَمِعْتُ نَدَاءً قَدْ نَادَى اللَّهَ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ يَكُونَ هَذَا أَمْرًا » . قَالَتْ : مَعَادَ اللَّهِ ، مَا كَانَ اللَّهُ لِيَعْمَلَ لَكَ ، يَا ابْنَتُ عَبْدِ الْأُمَيَّةِ ، وَتُفَصِّلِ الرَّحِمَ ، وَتُفَصِّلِ الْحَدِيثَ . وَهَذَا أَبُو بَكْرٍ ذَكَرْتُ حَدِيثَهُ حَدِيثَهُ لَهُ وَقَالَتْ : إِذْ هَبْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ إِلَى وَرْقَةٍ فَأَطْلَقَا فَقَصَّ عَلَيْهِ فَقَالَ : « إِذَا حَلَوْتُ وَحْدِي سَمِعْتُ نَدَاءً حَلَوْتُ يَا مُحَمَّدُ ، فَأَطْلَقُ هَارِمًا فِي الْأَفْقِ » . فَقَالَ : لَا تَفْعَلْ إِذَا أَبَاكَ قَامَتْ حَتَّى تَسْمَعَ مَا يَقُولُ . ثُمَّ انْتَهَى لِأَخِي . هَذَا حَلَا مَادَاهُ : يَا مُحَمَّدُ قُلْ :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » . لِحَدِّثُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . حتى بلغ « وَلَا السَّالِينَ »  
ولكن هذا الحديث لا يصلح للاحتجاج به على أولية منازل مطلقاً ، وذلك من وجهين :  
أحدهما - أنه لا يفيهم من هذه الرواية أن العائنة التي سمعها الرسول صلى الله عليه وسلم  
كانت في حر انسوة أول عهده فالوحي آتياً وهو في غار حراء ، بل يفيهم منها أن العائنة  
كانت بعد ذلك العهد ، وبعد أن أتى الرسول إلى ورقة ، وبعد أن سمع النداء من حلقه  
غير مرة ، وبعد أن أشار عليه ورقة أن شئت عمد هذا النداء حتى يسمع ما يلقى إليه .  
وليس كلامنا في هذا ، إنما هو فيما نزل أول مرة <sup>من</sup> الثاني : أن هذا الحديث مرسل سقط  
من مسنده الألباني ، فلا يقوى على معارضة حديث عائشة السابق في بدء الوحي ،  
وهو مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فظل إذاً هذا الرأي الثالث وثبت الأول  
أيضاً .

بيد أن صاحب الكشف عرّف هذا القول الثالث إلى أكثر التفسير ، ولكن  
إن حصر فيه فيما ذهب إليه من هذا العزو ، وصرح بأن هذا القول لم يقل به إلا عدد  
أقل من القليل .

القول الرابع :- أن أول ما نزل هو « بسم الله الرحمن الرحيم » واستدل قائلوه بما  
أخرجه الواحدي بسنده عن عكرمة والحسين قالا : « أول ما نزل من القرآن » بسم الله  
الرحمن الرحيم . وأول سورة أقرأ . وهذا الاستدلال مردود من ناحيتين أيضاً :  
إحدهما أن الحديث مرسل كسأته فلا ساهى المرفوع الثانية : أن البسلة كانت  
طبيعية الحال نزل صدر الكل سورة إلا ما استثنى . إذن فهي مارة مع ما نزل من صدر  
سورة أقرأ ، ولا يستقيم اعتبار الأولية في رولها قولاً مستقلاً برأسه

### آخر منازل على الإطلاق

احتج العلماء في تعيين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق ، واستند كل منهم

إلى آثار ليس فيها حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فكان هذا من دواعي الاشتباه ، وكثرة الخلاف على أقوال شتى :

١ - الأول : أن آخر ما نزل ، قول الله تعالى في سورة البقرة « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أخرجه النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس ، وكذلك أخرجه ابن أبي حاتم قال : « آخر ما نزل من القرآن كله » « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » الآية . وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها تسع ليالٍ ، ثم مات لليلتين خلتا من ربيع الأول .

الثاني : أن آخر ما نزل هو قول الله تعالى في سورة البقرة أيضاً « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ » . أخرجه البخاري عن ابن عباس والبيهقي عن ابن عمر .

الثالث : أن آخر ما نزل آية الدين في سورة البقرة أيضاً وهي قوله سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ » إلى قوله سبحانه : « وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » وهي أطول آية في القرآن . أخرجه ابن جرير عن سعيد بن المسيب : « أنه بلغه أن أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدين » . أخرجه أبو عبيد في الفصائل عن ابن شهاب قال : « آخر القرآن عهداً بالعرش آية الربا وآية الدين » .

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة مما قاله السيوطي رضي الله عنه من أن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف لأنها في قصة واحدة ، فخير كل من نص ما نزل بأنه آخر ، وذلك صحيح .

أقول : وسكن النفس سترجع إلى أن آخر هذه الثلاثة روي لا هو قول الله تعالى : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » وذلك لأمرين أحدهما . ما تحمله هذه الآية في طياتها من الإشارة

إلى حاتم الوحي والدين، سب ما تحث عليه من الاستعداد ليوم معاد، وما تنوّه من الرجوع إلى الله، واستيقظ الخزاء لاعداء من سر عني ولا ظنم، وذلك كله أنسب بالنظم من آيات الأحكام المذكورة في سياقها ثنيهما التخصيص في رواية من أي حاتم بقوله على أن النبي صلى الله عليه وسلم عاش بعد نزوله تسع بيل فقط، وأنه ظهر الآيات الأخرى بنص مثله.

رابع : أن آخر قرآن نزل في سورة آل عمران : « فَاسْتَصَبْ لَهُمْ رَيْهْمُ أُنَى لَا أَصِيعُ عَمَرٍ مِنْكُمْ مِنْ دَكْرٍ أَوْ أُنَى » الآية . ودليل هذا القول ما أخرجه ابن مردويه من طرق لمجاهد عن أم سمة أنها قالت : آخر آية نزلت هذه الآية : « فَاسْتَصَبْ لَهُمْ رَيْهْمُ أُنَى لَا أَصِيعُ عَمَرٍ مِنْكُمْ » إلى آخرها . وذلك أنها قالت : يا رسول الله . أرى الله ذكر الرجال ولا يذكر النساء امرأت <sup>(١)</sup> ولا تمتنوا ما قص الله به نفضكم على أنفسكم ، ونزل « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ » <sup>(٢)</sup> ونزلت هذه الآية ، فهي آخر الثلاثة نزلت ، وآخر ما نزل بعد ما كان ينزل في الرجال خاصة .

ومن السهل رد الاستدلال بهذا الخبر على آخر ما نزل مطلقاً ، وذلك لما بهرّح به الخبر نفسه من أن الآية المذكورة آخر الثلاثة نزلت وآخر ما نزل بالإضافة إلى ما ذكر فيه النساء أي فهي آخر عقيد لا مطلق ، وليس كلامنا فيه .

الخامس : أنه آية ( وَمَنْ يَدْتُلْ مُؤْمِنًا مَقْعَدًا فَجَرَّأُوهُ حَتَّى يَمُوتَ مَعَالِدًا ) يَسَّهَ وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَمَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ) واستدلوا بما أخرجه البخاري وغيره

(١) من سورة النساء . (بَرَّحِبْ نَصِيبٌ لِمَا أُكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبْنَ . وَاسْتَأْذِنُوا اللَّهَ مِنْ نَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ) .

(٢) أي من أولها إلى آخرها وهي في سورة الأحزاب

عن ابن عباس . قال : هذه الآية : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ » هي آخر ما نزل ، وما نسخها شيء . ولا يحى عليك أن كلمة « وما نسخها شيء » تشير إلى أن المراد من كونه آخر ما نزل ، أنها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمداً ، لا آخر ما نزل مطلقاً .

السادس : أن آخر آية نزلت « يَسْتَفْتُواكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » وهي خاتمة سورة النساء وأن آخر سورة نزلت سورة « براءة » . واستند صاحب هذا الرأي إلى ما يرويه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أنه قال : آخر آية نزلت « يَسْتَفْتُواكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » وآخر سورة نزلت « براءة » . ويمكن نقض هذا الاستدلال بعمل الظاهر المذكور على أن الآية آخر ما نزل في الموارث وأن السورة آخر ما نزل في شأن تشريع القتال والجهاد ، فكلامه آخر إضافي لا حقيقي .

السابع : أن آخر ما نزل سورة المائدة . واحتج صاحب هذا لقول رواه الترمذي والحاكم في ذلك عن عائشة رضي الله عنها . ويمكن ردّه بأن المراد أنها آخر سورة نزلت في الحلال والحرام ، فلم ينسخ فيها أحكام ، وعليه فهي آخر مقيد كذلك . الثامن : أن آخر ما نزل هو خاتمة سورة براءة : « لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » إلى آخر السورة . رواه الحاكم وابن مردويه عن أنس بن مالك . ويمكن نقضه بأنهما آخر ما نزل من سورة براءة لا آخر مطلق ، وبزوجه ما قيل من أن هاتين الآيتين مكيتان بخلاف سائر السورة . ولعل قوله سبحانه : « وَابْنُ مَرْثَدَةَ قَتَلَ حَسَنَ اللَّهِ » الخ : تشير إلى ذلك من حيث عدم الأمر فيه بالجهاد عمداً سوى الأعداء وإعراضهم .

التاسع : أن آخر ما نزل هو آخر سورة البقرة : « وَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » أخرجه ابن جرير

عن معاوية بن أبي سفيان . قال ابن كثير: « هذا أثرٌ مشككٌ ، ولعله أراد أنه لم يزل  
 بعدها آية نسخها ولا تغير حكمها بل هي مثبتة بحكمة » اهـ . وهو يفيد أنها آخر مقيد  
 لا مطلق

العاشر : أن آخر ما رزل هو سورة « إِذَا حَاءَ نَضْرُ اللَّهُ وَالْفَتْحُ » رواه مسلمٌ عن  
 ابن عباس . ولكذلك نستطيع أن نحمل هذا الخبر على أن هذه لسورة آخر ما رزل  
 مُشعراً بوقاة النبي صلى الله عليه وسلم . ويؤيده ما روى من أنه صلى الله عليه وسلم قال  
 حين رُزِلت : « نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي » وكذلك فهم بعض كبار الصحابة . كما ورد أن عمر  
 رضي الله عنه نكح حين سمعها وقال : « السكَّالُ دليلُ الزوال » ويحتمل أيضاً آخر  
 ما رزل من السور فقط ، وبذلك عليه رواية ابن عباس : آخر سورة رُزِلت من القرآن جميعاً  
 « إِذَا حَاءَ نَضْرُ اللَّهُ وَالْفَتْحُ »

تلك أقوال عشرة ، عرفت موجهها ، ورأيت أن الذي نستريح إليه النفس  
 منها هو أن آخر لقرآن رُوِيَ على الإطلاق قولُ الله في سورة انفرة : « وَأَنفُتُوا نَوْمًا  
 رُحَمَوتِ بِهِ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ نُوِي كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » وأن ماسواها  
 أواخر إصافية أو مقيدة بما علمت ، لكن انقاضي أنها بكر في الامتصاد يذهب مذهباً آخر  
 إذ يقول : « هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلُّ  
 قال نصرب من الاحتياط وعدمه انظن ، ويحتمل أن كلامهم أحبر عن آخر ما سمعه من  
 النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرصه قليل ، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن  
 لم يسمعه هو » اهـ ، وكأنه يشير إلى الجمع بين تلك الأقوال للتشبيه بأنها أواخر مقيدة بما  
 سمع كل منهم من النبي ﷺ وهي طريقة مريحة ، غير أنها لا تلقى صوتاً على ما عسى أن  
 يكون قد احتتم الله به كتابه الكريم .



## مثلاً من أوائل وأواخر محصورة

صنع بين حديث هذا مثبته من أوائل وأواخر محصورة بمعنى الأحكام الشرعية لاحتياطهما سبيل التشريع الإسلامي وتدرج الحكيم .

### ١ - ما نزل في الحرم

روى الطهالسي في مستدركه عن ابن عمر قال : نزل في الحرم ثلاث آيات ، فأول شيء : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحُمْرِ وَالْمَيْسِرِ » الآية (١) فقيل : حرمت الحرم ، فقالوا : يا رسول الله دعنا فننتفع بها كما قال الله ، فسكت عنهم . ثم نزلت هذه الآية (٢) « لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » فقيل : حرمت الحرم قالوا : يا رسول الله لا نشرهها قرب الصلاة فسكت عنهم . ثم نزلت : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ » (٣) فقال رسول الله ﷺ : « حُرِّمَتِ الْحُمْرُ » .

### ٢ - ما نزل في أمر الجهاد والدفاع

لم يشرع الجهاد دفاعاً في صدر الإسلام حتى ارغم من أن الأذى كان يُصَبُّ على المسلمين من أعدائهم صلباً . بل كان الله يأمر بالعمو والصنيع ، ومن ذلك قوله

(١) وهي في سورة البقرة وتتمتها : « قُلْ وَبِهِمَا إِلَهُكُمْ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمْ أَكْثَرٌ مِن نَّفْعِهِمَا » .

(٢) وهي من سورة النساء وكالمها : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَذْكُرُوا مَا تَقُولُونَ » .

(٣) والآية وما بينها : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ » إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْمَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَبِهُونَ » وهي من سورة المائدة .

سبحانه في سورة البقرة : « وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ نَوْا يَرُدُّوكُمْ مِنْ تَعْدِ  
لِيَدِيكُمْ كَعَارَ أَحَدًا مِنْ عِنْدِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ تَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْخُلُقُ ، وَاعْمُوا وَاصْفَحُوا  
حَتَّى تَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فكانت أمراً صريحاً لهم بالعمو  
والصفح حتى تأتي الله بأمره وبهم من القتل ، ونصص ذلك لهم عن القتال حتى  
يأتي أمر الله . ثم شرع المتن دفاعاً في السلة الثانية من المحرة ، بقوله تعالى في سورة الحج  
« الَّذِينَ يَلِدِينَ نَفْسًا لَوْ يَأْتِيهِمْ طُغْيَانٌ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى تَعْدِيرِهِمْ قَدِيرٌ الَّذِينَ آخَرُوا مِنْ  
دِيَارِهِمْ بَعْدَ حَقِّهِ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ تَعَصُّهُمْ لَنَقَصَ  
لَهُدًى صَوَامِعُ وَبَسَاطَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ  
اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَزِيزٌ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّدَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقْدَمُوا  
الضَّلَاةَ وَآوَاوَا لِرُكَاةٍ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » .  
ثم حصن الله عليه حصناً شديداً في آخر الأمر ، فبرلت سورة رامة وهي من آخر  
ما رل من أمراء . وفيها قوله سبحانه « وَقَالُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا بَقَا لِيُؤْمِنُكُمْ  
كَافَّةً » وقوله : « أَنْفِرُوا جُفَاً وَتَمَاقُلاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ  
اللَّهِ . دِينُكُمْ حَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » وقوله « إِلَّا تَعْرَفُوا لَعَدَّتْكُمْ  
عَذَابًا أَلِيمًا وَسَقَمْتُمْ قَوْمًا عَيْرَكُمْ وَلَا تَعْرُدُّهُ سَتَقَاتُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

## شبهة في هذا المقام

بقي أن ندحص شبهة أثرت حول تعيين آخر ما رل من القرآن قالوا : لماذا لا  
تكون آية لائحة آخر ما رل من القرآن ؟ وهي قوله سبحانه « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ  
دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » مع أنها صريحة  
في أنها إعلام بأكمل الله لدينه في ذلك اليوم المشهود الذي رلت فيه ، وهو يوم عرفة  
في حجة الوداع بالسة العاشرة من المحرة .

والظاهر أن إكالم دبه لا تكون إلا إكالم رول القرآن ، وإتمام جميع الفرائض والأحكام .

والجواب : أن هناك قرآناً رول بعد هذه الآية حتى ما أكثر من شهرين ، ولعلك لم تنس أن آية : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » كانت آخر آيات رولاً على الإطلاق ، وأن النبي ﷺ عاش بعدها تسع أيام فقط . وتلك قريبة تبعاً أن معهم إكالم رول القرآن من كان الدين في آية مائدة المذكورة . والأقرب أن تكون معنى إكالم الدين فيها يومئذ هو إتمامه وإقراره ، وإظهاره على الدين كله ولو كره الكافرون . ولا ريب أن الإسلام في حجة الوداع كان قد ظهرت شوكته وعُلت كلمته ، وأدبل له على الشرك وحره ، والكفر وحده ، ولعنوا وحشرته ، حتى لقد أخفى المشركون عن البلد الحرام ؛ ولم يحافظوا المسلمين في الحج وإحرام . قال ابن جرير في تفسير الآية المذكورة : « الأول أن يقول على أنه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام ، وإحلال المشركين عنه ، حتى حجة مسلمون لا يحافظهم المشركون » وأثبت هذا التأويل ، رواه عن ابن عباس قال : « كان المشركون والمسلمون يحجّون جميعاً ، فلما رأوا سورة براءة من النبي المشركون عن البيت ، وحجّ المسلمون لا يشاركونهم في البيت الحرام أحسد من المشركين ، فكان ذلك من تمام البعثة » وأتممت عليكم نعمتي . »

سأل الله أن يبرئ عبيداً منته آمين

## ملاحظة

اعلمك بعد تحقيق أول ما نزل وآخره ، نستطيع أن نستدرك على ما أسلفناه في البحث الثالث ، تقديرًا لمدة نزول القرآن على النبي ﷺ ما قلين إليه عن بعض محققى تاريخ التشريع الإسلامى . ذلك أنه اعتبر يوم التاسع من ذى الحجة سنة عشر من الهجرة ، هو آخر أيام النزول وكأنه اعتمد على ما فهمه في قوله سبحانه : « أَلَيْوَمَ أَكُنْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » الآية ، من أنه إكمال للدين بإكمال نزول القرآن . لكنك قد علمت ما فيه .

فلتصرف أنت إلى تلك المدة التي ذكرها اثنين وسبعين يومًا ، هي مدة الفرق بين التسعة والواحد والثمانين يومًا ، إذ أن آية « أَلَيْوَمَ أَكُنْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » عاش النبي ﷺ بعدها أحدًا وثمانين يومًا كما روى ، وآية « وَإِن تَقْرَأُوا يَوْمًا تُرْجَمُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » عاش ﷺ بعدها تسعة فقط كما عرفت .

أما مبدأ نزول الوحي بالقرآن فمعلوم أنه كان في اليوم الذي هبط فيه جبريل على النبي ﷺ بغار حراء بصدر سورة اقرأ . وقد قالوا : إنه يوافق التاسع عشر من رمضان ، واعتمدوا في ذلك على قوله سبحانه في سورة الأنفال : « إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَى الْبُخْعَانِ » . فجعل يوم الفرقان هو يوم انتقاء الجمين في غزوة بدر . وكان يوافق التاسع عشر من رمضان على ما ذكره بعض أصحاب المغازى والسير .

ولا ريب أن هذا احتمال في الآية مقبول ، ولكن هذا الاحتمال لا يكفي في مثل هذا المقام ، لأنه احتمال مرحوح ، وظاهر الأدلة على خلافه . ذلك لأن السنة الصحيحة جاء فيها ما يعيد جراحة أن أُرْجَى ما تكون ليلة القدر التي نزل فيها القرآن ، في الوتر في العشر الأخير من رمضان . وإلى ذلك ذهب جمهور العلماء بل ثبت من طريق

صحيح برويه لحدري أصلاً أنه عليه السلام قال : « انتمسوها في ساعة تنقي ، في سبعة تنقي » أي اطلبوا ليلة القدر ليلة إحدى والعشرين أو ليلة ثلاث والعشرين من ذلك الشهر وهو مذهب الثماني صيغته ولا جدل في أن هذه نصوص تكفي أن تكون ليلة القدر ليلة السابع عشر من رمضان . .

ثم إن هذه الآية التي استدل بها هؤلاء ليست نصاً صريحاً في أن المراد بما أنزله الله على عبده يوم الفرقان هو ما أنزله على نبيه ليلة القدر من القرآن . بل الظاهر أن قوله سبحانه : « وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ » معناه وما أنزلنا على عبدنا محمد عليه السلام من الوحي وملائكة وفتح في ذات يوم الشهود الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل ، وبين الإسلام والكفر ، في أول موقعة تاريخية انتصف فيها الإسلام من أعدائه ، وقدم للمسلمين بسبب شوكة ودولة وسطا . « وهي غزوة بدر الكبرى » . وإلى هذا الرأي حنح أكثر المفسرين ، وتؤيده سياق لفظ القرآن الكريم : « فإن الآية نزلت لترويض قلوب المسلمين على الرضا بما شرع الله في قسمة الغنائم ، وليقطعوا أطماعهم من الخمس الذي قضى الله أن يكون له لا هم ، وليقتنعوا بعد ذلك بالأربعة لأشخاص الباقية ، فإن الفصل في هذه غنائم إمام هو لله قبلهم » ، هو الذي أنزل في هذا اليوم ما أنزل من هدايات وشائر أثبتت قلوبهم . وهو الذي أنزل مدداً من لدنه ملائكة مقربين كقربين وهو الذي سخر صائر أسبب الانتصار ، معروفة في هذه المعركة العظيمة . وإذا كان الفصل يرجع إلى الله في هذا الانتصار ، فأصعبوا أيها المسلمون أموره في قسمة الغنائم لمصلحة عنه . « وعلووا أيما سمعتم من شيء فاقه حسنة وللرسول وذي القربى وأنتصموا وأمسكوا بالأسلحة ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ انْتَقَى الْخَمْعُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

## المبحث الخامس

### في أسباب النزول

القرآن الكريم قسمان : قسم نزل من الله ابتداءً غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة ، إما هو لمخص هداية الخلق إلى الحق . وهو كثير طاهر لا يحتاج إلى بحث ولا بيان . وقسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة . وهو موضوع بحثنا الآن . غير أننا لا نريد أن نستعرض جميع الآيات التي جاءت على أسباب ، فذلك شأنٌ بعيد وقد ائتمدت له جماعة أفردوه بالتأليف ، منهم على س لمسدي شيخ السعدى ومنهم النوحدى والحمدى وابن حجر ، ومنهم السيوطى الذى وضع فيه كتاباً حافلاً بحراً أسماء ( أبواب القول في أسباب النزول ) .

إما عرصنا في هذا المبحث أن نحيطك عمماً بأسباب النزول من أطرافه الأربعة عشر وهى معنى سبب النزول ، وقوائمه معرفة أسباب النزول ، وطريق هذه المعرفة ، والتمميزات عن سبب النزول ، وحكم تعدد الأسباب والبدل واحد ، وتعدد البازل والسبب واحد ، والعموم والخصوص بين نطق الشارع وسببه ، وتحقيق الخلاف في عموم اللفظ وخصوص سببه ، وأدلة جمهور في ذلك ، وشبهات المخالفين وتعميدها ، وشبهه بالسبب الخاص مع اللفظ العام

### معنى سبب النزول

سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متعديئة عنه أو مُنيئة لحكمه أيام وقوعه . والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبى ﷺ ، أو سؤال وحج إليه ، فزلت الآية أو الآيات من الله تعالى بيان ما يتصل بتلك الحادثة ، أو بحواب هذا السؤال .

سواء أكانت تلك الحادثة حصومة دبت ، كالحلاف الذي شعر بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزرج ، ودسيسة من أعداء الله اليهود حتى سادوا : السلاح ، وبرل بسبه تلك الآيات الحكيمة في سورة آل عمران من أول قوله سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَهَيَّئُوا لِلَّذِينَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ رُذُوكُمْ لَعْنًا يُعْلَىٰ إِن كُمْ كَافِرِينَ » إلى آيات أخرى بعدها هي من أروع ما يقرأ من الانقسام والشفاق ويرعب في الحجة والوحدة والاتفاق . أم كانت تلك الحادثة خطأ فاحشاً ارتكب ، كذلك انكرا الذي أم بالداس في صلاته وهو في شوبه ، ثم قرأ السورة بعد العائجة فقال : « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ أَعْبُدُوا مَا تَعْبُدُونَ » وحذف لفظ ( لا ) من « لَا أَعْبُدُ » فبرلت الآية : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَهَيَّئُوا لِلْكَافِرِينَ وَلَئِنْ كُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » في سورة النساء

أم كانت تلك الحادثة عمياً من التفتيت ، ورعة من الرعسات ، كوافقت عمر رضى الله عنه لتي أوردته بعضهم ، التاليف ، ومن أمثلتها ما أحرجه البخارى وغيره عن أنس رضى الله عنه قال : قال عمر ( وافقت رضى في ثلاث : قلت يا رسول الله لو اتحدت من مقدم إبراهيم مصلى فبرلت « وَأَتَّحِدُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وقلت يا رسول الله : إن سادك يدخل عليهن ابنة والفاخر ، فلو أمرهن أن يحتججن ، فبرلت آية الحجاب <sup>(١)</sup> . واحتتمع على رسول الله ﷺ ساؤه في العيرة فبرلت له « عَسَىٰ رَأَتْهُ إِنْ طَلَّقَكَ أَنَّ يُبْدِيَهُ أَرْوَاهَا خَيْرًا مِنْكَ » فبرلت كذلك ( ٥١ - وهذه في سورة التحريم

(١) وهي قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَمٍ عِنْدَ بَابِهَا . وَلَئِنْ دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرِفُوا وَلَا مُسْتَقْبِلِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذَىٰ النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْخَلْقِ . وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقَائِهِمْ وَقَوْلُهُنَّ » من سورة الأحزاب

وسواء أكان ذلك السؤال المرفوع إلى النبي ﷺ يتصل بأمر مصى بحوقله سبحانه في سورة الكهف : « وَاسْأَلْكَ عَنْ دِي الْقُرْآنِ » الخ . أم يتصل بمحاصر بحوقله تعالى في سورة الإسراء : « وَاسْأَلْكَ عَنْ أَرْوَجِ قُلِّ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَئِي » وما أوردتهم من العلم إلا قليلاً » أم يتصل بمستقبل بحوقله جل ذكره في سورة الماعين : « يَسْأَلُكَ عَنْ السَّاعَةِ أَبَانَ مُرْسَاهَا » الخ .

والمراد بقولنا ( أيام وقوعه ) الظروف التي يزل القرآن فيها متحدثاً عن ذلك السبب ، سواء أوقع هذا النزول عقب سببه مباشرة ، أم تأخر عنه مدة لحكمة من الحكم ، كاحداث ذلك حين سألت قريش رسول الله ﷺ من الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين . فقال ﷺ ( غداً أخبركم ) ولم يستثن ( أى لم يقل إلا أن يشاء الله ) فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يوماً على ما رواه ابن إسحاق ، وقيل ثلاثة أيام ، وقيل أربعين يوماً ، حتى شق عليه ذلك . ثم نزلت أجوبة تلك المقترحات ، وفي حايها يرشد الله تعالى رسوله إلى أدب الاستئشاء بالمشيئة ويقول له في سورة الكهف : « وَلَا تَقْوَانِ إِشْيْءُ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ » وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهَيَّيَنَّ رَئِي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا » .

ثم إن كلمة « أيام وقوعه » في تعريف سبب النزول ، فيدل لا بد منه للاختراز عن الآية أو الآيات التي تنزل ابتداءً من غير سبب ، وإنما هي تتحدث عن بعض الوقائع والأحوال الماضية أو المستقلة ، كمص فصل الأبياء السابقين وأممهم وكالحديث عن الساعة وما يتصل بها ، وهو كثير في القرآن الكريم .



## ٢ - فوائد معرفة أسباب النزول

رغم قصر الناس أنه لا فائدة للإلمام بأسباب النزول، وأنها لا تعدو أن تكون تاريخاً للنزول أو حادثة عجز التاريخ، وقد أخطأ فيها رعم؛ فإن لأسباب النزول فوائد متعددة، لا فائدة واحدة: (الأولى) معرفة حكمة الله تعالى على التعمين، فيما شرعه بالقرآن، وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن. أما المؤمن فيزداد إيماناً على إيمانه، ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله والعمل بكتابه، لما يتحلى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام ومن أحاطها بهذا النزول. وأما الكافر فتنسوق تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان مصنفًا، حين يعلم أن هذا التشريع لإسلام قام على رعاية مصالح الإنسان، لا على الاستبداد والتعكم والظلم، وإذا لاحظ سير ذلك التشريع وتدرجه في موضوع واحد، وحسبك شاهداً على هذا تحريم الخمر وما نزل فيه، وقد مرّ بك في البحث السابق، فلا يعيده، ولا تفعل.

(للفائدة الثانية) الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال عنها. حتى لقد قال الواحدى: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها. وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، وإن العلم بالسبب يورث العلم بالسبب اهـ.

واينبغي لك ذلك بأمثلة ثلاثة: (الأول) قال الله تعالى في سورة البقرة: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَإِذَا سَأَلَكَ السَّائِلُونَ فَقُلْ إِنِّي خَشِيتُ أَنِ يَأْخُذَنِي عَذَابٌ عَظِيمٌ» فهذا اللفظ الكريم يدلّ على ظاهره على أن الإنسان أن يصلى إلى أبيه حمة شاء، ولا يجب عليه أن يولى وجهه شطر البيت الحرام، لا في سفر ولا حضر. لكن إذا علم أن هذه الآية نزلت في نافذة السمر حاصة، أو فيمن صلى باحتشاده ثم بان له خطوه، تبين له أن الظاهر غير مراد، إنما مراد التحذير على خصوص السامر في صلاة المأفلة، أو على الاحتشاد

في الصلاة إذا صلى ونسيت له حظوه . عن ابن عمر رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في صلاة لمساقر على الراحة أما بوجه . وقيل : سميت القنلة على قوم فصبوا إلى أحماء محتلة ، فما أصبحوا تنبوا حظهم فعدوا . وقيل في الآية غير ذلك ، ولكن ما ذكرناه يكفيك .

( المثال الثاني ) دوى في الصحيح أن مروان بن الحكم أشكل عليه معنى قوله تعالى : « لَا تَحْبِسْهُمُ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا نَمُّوا فَلَا يَحْسَبُ لَهُمْ جَزَاءٌ مِنْ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » من سورة آل عمران .

وقال : لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يعمل معداً لمدح أحمون . وبقي في إشكاله هذا حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم نبي الله ﷺ عن شيء فكتبوه إياه وأخبروه بمبيرة ، وأرواه أهم أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه أي طلبوا منه أن يحمدهم على ما فعلوا . وهذا راو الإشكال عنه ، وفهم مراد الله من كلامه هذا ووعيده

( المثال الثالث ) أشكل على عمرو بن الزبير رمى الله عنه أن منهم فرصة اسمي بين الصفا والمروة مع قوله سبحانه : « إِنْ لَصَقَّا وَتَبَرَّوْا مِنْ شُعَائِرِ اللَّهِ مَنْ حَجَّ أَلَمَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا حَاجَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا »

وإشكاله نشأ من أن الآية الكريمة معناه الحاج ، وبقي الحاج لا تنطق والفرصة في رأسه ، وبقي في إشكاله هذا حتى سأل حاله أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، فأهمته أن يبقى الحاج هنا ليس معناه فرصة ، إنما هو بئ لما وقر في أذهان المسلمين بومئذ من أن اسمي بين الصفا والمروة من عمل الحلبية نظراً إلى أن الصفا كان عليه صم يقر به ( لإصاف ) وكان على المروة صم يقال له : ( باللة ) وكان المشركون إذا سموا بينهما تمسحوا بهما . فما طهر الإسلام وكثر

الأصنام ، تخرج المسلمون أن يطوفوا بيهما لذلك ، فبرأه الآيه كذلك جاءت بعض الروايات .

سكن جاء في رواية صحيح البخاري ما نصه : قال ( أى عروة ) لها ( أى لعائشة ) أ رأيت قول الله تعالى « إِنْ أَصْغَا وَ لَمْ تَرْوْهُ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، فَمَنْ حَاجَّ النَّيْتَ وَ اعْتَمَرَ فَلَا حُجَّاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا » . فوالله ما على أحد حرج ألا يَطُوفَ بأصفا والمروة . قالت : شما فدت با من آحتي ، بر همه نه كانت كما أو ثلها عليه ، كانت « لا حُجَّاحَ عليه ألا يَطُوفَ بهما » ولا كنها أزلت في الأصابع . كانوا قبل أن يُسَمُّوا يهلون لمدة الطائفة التي كانوا يمدونها عند المشلل ، فكان من أمره يتجرح أن يطوف «أصفا والمروة» فما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك ، قالوا : يا رسول الله إن كُنتَ تجرح أن تطوف بين الأصفا والمروة ، فأمر الله « إِنْ أَصْغَا وَ لَمْ تَرْوْهُ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ » الآية . قالت عائشة « وقد سئ رسول الله ﷺ لأصواف بيهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بيهما » انتهى ما أردنا نقله . ومعنى يهلون يحجرون ومناه طوعية . اسم صم ، وكل صغيرة بصفا عمرو بن يحيى بحجة البحر فكانوا يمدونها . و شلل يصم لهم ، واللام الأولى مشددة مفتوحة . اسم موضع قريب من قديد من جهة البحر . وقديد يصم القاف : قرية بين مكة والمدنة . وكلمة « سَنَّ » معناها في هذا الحديث شرع ، أو فرض دليل من السنة لا من الكتاب

وهذه الرواية — كما ترى — تدل على أن عروة فهم من جملة « فَلَا حُجَّاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا » أن الحجاج معنى أصفا عن عدم الطواف بهما وعلى ذلك تنفي العصرية ، وكأنه اعتمد في فهمه هذا على أن نبي الحجاج ، أكثر ما يستعمل في الأمر اللجاج . أما عائشة رضي الله عنها فقد فهمت أن فرضية السعي بين أصفا والمروة مستمدة من السنة ، وإن جملة « فَلَا حُجَّاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا » .

لا تُساق تلك العرصة كما هم عروة إماما الذي بعينها أن يقال : « وَلَا حُجَّاحَ عَلَيْهِ إِلَّا يَطُوفَ بِهِمَا وَإِنَّمَا تَوَحَّه نَبِيُّ الْحَرْجِ فِي الْآيَةِ عَنِ الطَّوَّافِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ، لِأَنَّ هَذَا الْحَرْجَ هُوَ الَّذِي كَانَ وَاقِفًا فِي أَذْهَانِ الْأَعْيَانِ ، كَمَا بَدَّلَ عَلَيْهِ سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ الَّذِي ذَكَرْتَهُ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ فَقَدِيرٌ .

( الفائدة الثالثة ) دفع توهم الحصر ، مما يفند نظائره الحصر : نحو قوله سبحانه في سورة الأنعام : « قُلْ لَا أُجِدُّ فِيهَا أَوْحِيَّ إِلَىٰ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَائِفَةٍ بِطَاعَتِهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَبْعَثًا أَوْ دَمًا مَسْنُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ ، فَإِنَّهُ رِجْسٌ ، أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » . ذهب الشافعي إلى أن الحصر في هذه الآية غير مقصود ، واستعان على دفع توهمه ، بأنها نزلت بسبب أولئك الكفار الذين أبوا إلا أن يحرموا ما أحل الله ويحلوا ما حرم الله عناداً منهم ومحاداة لله ورسوله ، فنزلت الآية بهذا الحصر الصوري مشادة لهم ومحاداة من الله ورسوله ، لا قصداً إلى حقيقة الحصر .

نقل السبكي عن الشافعي أنه قال مامعناه : « إِنْ الْكُفَّارُ لَمْ يَحْرِّمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ ، وَأَحَلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَكَانُوا عَلَى الْمُنَادَاةِ وَالْمُحَادَاةِ جَاءَتِ الْآيَةُ مُنَاقِضَةً لِمَرْضِهِمْ . فَكَانَ قَالَ : لَا حِلَّ إِلَّا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَلَا حَرَامَ إِلَّا مَا أَحَلَّتْهُمُ . نَازِلًا مُنْزِلَةً مِنْ يَقُولُ لَكَ : لَا نَأْكُلُ الْيَوْمَ حَلَاوَةً فَقُولَ لَا آكُلُ الْيَوْمَ إِلَّا حَلَاوَةً ، وَالْفَرْضُ الْمُنَادَاةُ لَا يَنْفِي وَالْإِثْبَاتُ عَلَى الْحَقِيقَةِ . فَكَانَ تَعَالَى قَالَ : « لَا حَرَامَ إِلَّا مَا أَحَلَّتْهُمُ مِنَ اللَّحْمِ ، وَالدَّمِ ، وَلَحْمِ الْخَنَازِيرِ ، وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » ولم يقصد حين ما وراعه ، إذ القصد إثبات التحريم ، لا إثبات الحل ١٥ .

قال إمام الحرمين : وهذا في عنة الحسن ، ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا نستعجز بحالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية ١٥ .

( مبادئه الرابعة ) تخصيص الحكم بأسبب ، عند من يرى أن العبرة بمحصول السبب لا بصوم اللفظ . فأبات الطهارة في مُؤْتَقِحِ سورة المحادلة - وقد تقدمت -

سبها أن أوس بن الصامت ظَاهر من روحته حَوَالَة بنت حكيم بن ثعلبة ، والحكم الذي تصبَّته هذه الآيات حاصَّتها وحدها (على هذا أرى) ، أما غيرها فيعلم بدليل آخر قياساً أو سواه . ونَدَّهَى أنه لا يمكن معرفة المقصود بهذا الحكم ولا القياس عليه إلا إذا علم السب . ومدون معرفة السب نصير الآية مُعْطَلَةً حالية من العائدة . (العائدة الخامسة) معرفة أن سب البرول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مُخَصَّصٌ لها . وذلك نقيم الإجماع على أن حكم السب باقٍ قطعاً . فيكون التخصيص قاصراً على ما سواه . فهو لم يعرف سب البرول لخار أن فهم أنه بما خرج بالتخصيص ، مع أنه لا يجوز إخراج قطعاً للإجماع المذكور . ولهذا يقول العراي في مستصفى . ٥ (ولذلك يشير إلى امتناع إخراج السب بحكم التخصيص بالاحتياط) عطف أو حيفة رحمه الله في إخراج الأمة المستترشة من قوله ﷺ (الولد للعراش) والخبر إنما ورد في وليدة رَمْعَة إذا قال عَمْدُ رَمْعَة : هو أحمى وابن وليدة أنى ، ويدعى فراشه . وقال عليه الصلاة والسلام ، (لولد للعراش وللعاهر الحجر) «ثبت الأمة فراشاً وأبو حبيبه لم يبلغه السب : فخرج الأمة من العموم» ١ هـ

(العائدة السادسة) معرفة من رأت فيه الآية على التعيين ؛ حتى لا يشكك غيره ، فيتمه الذي ويزأ لم يرب (مثلاً) وهذا ردَّت عائشة على مروان حين نهَّم أحبا عند الرحمن من أي نكر أنه الذي ردت فيه أنه «والذي قل لو أديته أوف أنك» . (سورة الأحقاف) وقالت : ( والله ما هو بي ، وتو شئت أن أسميه لسميته ) إلى آخر تلك العصة .

(العائدة السابعة) تفسير الخط . وتسمين امهم ، وشيت الوحي ، في دهر كل من يسمع الآية إذا عرف سبها . وذلك لأن ربط الأسماء بالسمات ، والأحكام بالحواث ، والحواث بالأشخص والأرمنة والأمكنة . كل أوكد من دواهي

تَقَرَّرُ الأشياءُ وانتعاشها في الدهس ، وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها في الفكر ، وذلك هو قانون تداعي المعاني ، المقرَّر في علم النفس

### ٣ طريق معرفة سبب النزول

لا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا بالنقل الصحيح ، روى الواحدى بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « اتَّقُوا الْخُدُثَ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ فِيقَهُ مَنْ كَذَبَ عَلَى مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّخِذْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ . وَمَنْ كَذَبَ عَلَى الْقُرْآنِ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَّخِذْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » . ومن هنا لا يحل القول في أسباب النزول إلا برواية والسمع من شاهدوا التبريل ووقفوا على الأسباب ومحتوا عن غيرها . ٥١ .

وعلى هذا روى سبب النزول عن صحابيٍّ فهو مقبول ، وإس لم يَتَّخِذْ أَى لم يُعَرِّرْ رواية أخرى تُقَوِّيه . وذلك لأن قول الصحابي فيما لا مجال للاختصاص فيه ، حكمه حكم لم يروى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه بعد كل المعدل يكون الصحابي قد قال ذلك من إلقاء نفسه ، على حين أنه خير لا مَرَدَّ له إلا لسمع والنقل ، أو مشاهدته والرواية

أما إذا روى سبب النزول محدث مرسى ، أى سقط من سنده الصحابي وانتهى إلى التابعي ، فحكمه أنه لا يقبل إلا إذا صح واعتضد عرس آخر وكان الراوى له من أئمة التفسير الأحدين عن الصحابة ، كجاهل وعكرمة وسعيد بن جابر

### ٤ — التفسير عن سبب النزول

مختلف عبارات القوم في التعبير عن سبب النزول فتارةً يُصرَّح فيها ، بلطف السب فيقال . ( سبب نزول الآية كذا ) وهذه الصارة تُصَنَّفُ في السبب لا يُحتمل غيرها .

وذكره لا يصرّحُ بسقط السب ولكن يؤتى به داخلية على مدّة لروى الآفة عن  
سرد حادثة ، وهذه لصارة مثل تلك في الدلالة على السنية أيضاً ، ومثاله رواية حار  
الآفة قريباً ومرة يسأل الرسول ، فيؤخى إليه ويحيى من عليه ولا يكون تعديراً  
بسقط السب لروى ، ولا تعديراً من ذلك الغاء ، ولكن السنية معهم قطعاً من لقوم ، كرواية  
ابن مسعود الآفة عنده سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن اروج وحكم هذه أيضاً  
حكم ما هو نص في السنية ومدة أخرى لا يصرّح بسقط السب ولا يؤتى من تلك الغاء ،  
ولذلك الجواب امسى على السؤال ، بل قل : رأت هذه الآفة في كذا ( مثلاً )  
وهذه العدة ليست نصاً في السنية ، بل تعتمد وتحتل أمر آخر ، هو بين ما نصبت  
الآفة من الأحكام والقرائن وحده هي التي عين أحدهم هذين الاحتمالين أو رخصه  
ومن هذا علم إذا ودع رتب في موضوع واحد ، أحدهما نص في السنية لروى  
آفة أو آت ، والثانيه ليست نص في السنية لروى تلك لاية أو آت ، هذ لك ، أحده  
في السنية ، هو نص ، ويحمل الأخرى على أم بين الجدول الآفة ، لأن النص أقوى  
في الدلالة من المحتمل

من ذلك ما أخرجه مسلم عن حارقال كانت يهود تقول « من أتى امرأه من  
دبره في رقتهم جاء بولد أخو » ، وقول الله « يسؤكم حرثكم » ، وقول  
« حرثكم أي شئتم » ، وقد مؤوا لأفكم ، وقولوا لله ، وقولوا « ككف ملافوه ،  
وشر مؤمين » من سورة طه . وما أخرجه البخاري عن ابن عمر قال ،  
( أرت « يسؤكم حرثكم » في إيباء ماء في أدبره )

فأقول عليه في بين السب هو رواية حار الأولى ، لأنهم صرحوا في دلالة على السب  
وأما رواية ابن عمر فتخص على أم بين حكمهم بين ماء في أدبره وهو انحصار  
استساق منه

أما إذا كان الاختلاف دائراً بين عبارتين أو عبارات ليس شيء منها نصاً ، كأن يقول بعض المفسرين : قلت هذه الآية في كذا ، ويقول الآخر : روت في كذا ، ثم يدكر شيئاً آخر غير ما ذكره الأول ، وكان اللفظ مدلولاً ، ولا قرينة تصرف إحداهما إلى السلبية ، فإن الروايتين كلتيهما تحملان على بيان ما يتناوله من لدلولات ولا وجه لخلهما على سبب .

وأما إذا كان الاختلاف دائراً بين عبارتين أو عبارات كلها نص في السببية ، فهذا ينشعب ان الكلام . وسعده نعمان .

### ٥ تعدد الأسباب والدارك واحد

إذا جاءت روايتان في دارك واحد من القرآن ، ودكرت كل من الروايتين سبباً صريحاً غير ما ذكره الأخرى ، نظر فيهما ، فإذا أن تكون إحداهما صحيحة ، والأخرى غير صحيحة ، وإذا أن تكون كلتاها صحيحة ، ولكن لإحداهما مرجح دون الأخرى ، وإذا أن تكون كلتاها صحيحة ، ولا مرجح لإحداهما على الأخرى ، ولكن يمكن لأحداهما معاً ، وإذا أن تكون كلتاها صحيحة ، ولا مرجح ، ولا يمكن لأحد منهما معاً ، فتتصور أربع ، لكن منها حكم خاص سوفه إليك :

« أما الصورة الأولى » - وهي ما صحت فيه إحدى الروايتين دون الأخرى - وحكمها ، لا يعتمد على الصحة في بيان السبب . وزد لأخرى غير الصحيحة مثال ذلك ما أخرجه الشيعة وغيرهما عن حذاف قال : « استسكى النبي ﷺ فلم يقم الله أو ليقتل ، فأنتم امرأه فاب : يا محمد ، ما أرى شيئاً ، لا قد تركت » وروى الله « ولصحنى ، والنفس إذا سحى ، ما ودعت رنك وما قى » وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة ، عن حماد بن مسهر عن أمه عن أمي وكانت



خادم رسول الله ﷺ : « أَنْ خَرُّوا دَحْلَ بَيْتِ الْمَنِيِّ ﷺ ، فَدَحَلَ تَحْتَ السَّرِيرِ فَاتَ ، فَكَثَّ الْمَنِيُّ ﷺ أَرْضَهُ أَيَّامَ لَا يَزُلُّ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فَفَان : مَخَوْنَةٌ مَا حَدَّثَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ حَبْرٌ لَا أَتْبَى فَقُلْتُ فِي نَفْسِي لَوْ هَمَّائِي الْبَيْتَ وَكَتَبْتُهُ ، فَأَهْوَسْتُ بِإِمِكَسَّةٍ تَحْتَ السَّرِيرِ ، فَأَحْرَحْتُ الْجُرُوءَ ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ تَرَعْدُ<sup>(١)</sup> لِحِقَّتُهُ ، وَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ أَخَذَتْهُ الرُّعْدَةُ » فَأَنْزَلَ اللَّهُ : « وَأَلْصَقِي » إِلَى قَوْلِهِ « فَفَرَضِي » . فَمَنْعَ بَيْنَ هَاتَيْنِ الرَّوَابِئِينَ نَقَدْتُ الرِّوَايَةَ الْأُولَى فِي بَيَانِ السَّبَبِ لِمَصْنَعِهَا دُونَ الثَّانِيَةِ لِأَنِّي فِي إِسْتِنَادِهَا مِنْ لَا يَمُرُّفَ . قَالَ ابْنُ حَبْرٍ : « قِصَّةٌ لِإِطَاءِ جَبْرِيلَ بِسَبَبِ الْجُرُوءِ مَشْهُورَةٌ ، لَكِنْ كَوْنُهَا سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ غَرِيبٌ ، وَفِي إِسْمَاعِدِهِ مِنْ لَا يَمُرُّفَ ، فَلَمَعْتُهُ مَا فِي الصَّحِيحِ » ١٠١ .

« وَأَمَّا الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ » - وَهِيَ صَحَّةُ الرَّوَابِئِينَ كَلَّتِيهَا وَإِلْحَادُهَا مَرْجُوحٌ - فَحُكْمُهَا أَنْ أَخُذَ فِي بَيَانِ السَّبَبِ بِالرَّاجِعَةِ دُونَ الْمَرْجُوحَةِ . وَلِلْمَرْجُوحِ أَنْ تَكُونَ إِحْدَاهُمَا أَصَحُّ مِنَ الْأُخْرَى ، أَوْ أَنْ يَكُونَ رَاوِي إِحْدَاهُمَا مُشَاهِدًا لِقِصَّةِ دُونَ رَاوِي الْأُخْرَى . مِثَالُ ذَلِكَ : مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : « كُنْتُ أُمَشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ . وَهُوَ يَتَوَكَّمُ عَلَى عَيْيَبٍ . فَرَأَى بَنِيَّ مِنَ الْيَهُودِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَوْ سَأَلْتُمُوهُ ، فَقَالُوا : حَدَّثْنَا عَنْ الرُّوحِ . فَقَامَ سَاعَةً وَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَرَفَتْ أَنَّهُ بِوَحْيِ إِبْرَاهِيمَ ، حَقِّ صِدْقِ الْوَحْيِ ، ثُمَّ قَالَ : « قُلُّوا أَلْرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أَوْيَتُمْ مَنْ أَلْعَلِمَ إِلَّا قَلِيلًا » . وَمَا أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : « قَالَتْ قَرِيشُ لِلْيَهُودِ ، أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ هَذَا الرَّسُولَ فَقَالُوا : اسْأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ ، فَسَأَلُوهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : « وَبَسَّأَلُواكَ عَنِ الرُّوحِ » الْآيَةَ .

(١) قَالَ فِي الْقَامُوسِ : « وَقَدْ رَعْدَ كَصَعْرٍ وَمِصْعٍ . وَقَالَ هَامِشُ الْقَامُوسِ : وَقَدْ اسْتَعْمَلَ رَعْدَ ثَلَاثِيًا أَيْضًا مَجْهُولًا دَائِمًا ، كَحُضْرٍ قَالُوا : رَعْدَ أَيْ أَصَاتِهِ رَعْدَةً . قَالَهُ الْجَمَاهُورُ فِي شَرْحِ لِسَانِهِ » ١٠١ .

فهذا الخبر الذي يدل على أنها نكحة ، وأما سبب ترويه سؤاں قريش بإياه ، أما الأول  
فمصرح في أنها روت بالمدينة بسبب سؤاں يهود بإياه ، وهو أرجح من وجهين أحدهما  
أنه رواية أم حنيفة ، أما الثاني فإنه رواية أنتمدى ، ومن غير أن ما رواه أم حنيفة  
أصح مما رواه غيره . ثم بما أن روى الخبر الأول وهو أن مود كل شاهد قصة  
من أود إلى آخره كما تدل على ذلك الرواية الأولى ، بخلاف الخبر الثاني فإن روايته  
من عباس لا يدل على رواه على أنه كان حاضرا قصة ، ولا ريب أن بعض هذه فتوه في  
انقضاء وفي الأداء ، وفي الاستيفاء يستتبع هذه ، ومن هنا أعمت الرواية الأولى ،  
وأختمت الثانية

« وأما صورة الثالثة » - وهي ما استوت فيه الروايات في النصحة ، ولا مرجح  
لإحداها ، لكن يمكن الجمع بينهما ، أن كلاً من السنين حصل وبرت الآية عقب  
حصولها معاً ، فترتب بينهما في حكم هذه صورة أن يحمل الأمر على تعدد السبب لأنه  
أصح ، ولا مانع يعمه . قال ابن حجر « لا مانع من تعدد الأسباب »

مما دل ذلك : ما أخرجه البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية  
قد رآه امرأته عند أمي عليه السلام بشر بك من سمعته . فقال أمي عليه السلام « النسيئة أو حدٌ  
في طهرت » . فقال يا رسول الله ، إذا وحد أحد مع امرأته رَحَلًا مطلقاً يكتسب  
حيثه . وفي رواية أنه قال : والذي بعثت بالحق إلى صادق ، ولست بلاقته تعلى  
ما بُرئى ظهري من الحد فمن حبل عليه السلام وأمر عليه . « ولذين يزعمون  
أنواحدة ولم ينكروا شهاده إلا أنفسهم » حتى سمع « إن كان من الصادقين » اهـ  
وهذه الآيات من سورة أمور

وأخرج الشيخان « واللعن للبخاري » عن سهل بن سعد « أن غديراً أتى عاصم  
ابن عدي ، وكان سيد بني عجلان ، فقال : كيف تعولون في رجل واحد مع

امرأيه رجلاً يقتله فتقتلونه ، أم كيف يصنع ؟ قل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فأتى عاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله « وفي رواية مصم » فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعاصم . فقال عويمر والله لأنتهي حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فهاه عويمر فقال يا رسول الله رجل واحد مع امرأ رجلاً ، يقتله فتقتلونه ، أم كيف يصنع ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر الله القرآن فيك وفي صاحبك . فمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بإدلاء عبيد بن ربيعة في كتابه ولأعصا « ١٥ » . فها ان الروايتان صحيحتان ، ولا مرجح لإحدهما على الأخرى ، ومن السهل أن يأخذ بسكاتيهما لقربهما بهما ، على اعتبار أن أول من سأل هو هلال بن أمية ، ثم فها عويمر قبل إحاقته ، فأن بواسطة عاصم مرة وبسبب مرة أخرى ، فأمر الله الآلة إحاقته للحادثين معاً . ولأرب أن إعمال الروايتين ههنا الجمع ، أولى من إعمال إحداها وإهمال الأخرى ، إذ لا مانع بجمع الأحاد ههنا على ذلك الوجه ثم لاحترار ردّها معاً ، لأهمها صحيحتان ولا تعارض بينهما . ولا حائر أن يأخذ بواحد وورد الأخرى ، لأن ذلك ترجيح بلا مرجح . فتعين المصير إلى أن يأخذ بهما معاً . وإليه حرج النووي وسبقه إليه الخطيب فقال : « لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد » ١٥

ويمكن أن يفهم من الرواية الثمانية أن آيات الملاعبة برلت في هلال أولاً ، ثم جاء عويمر فأفتاه الرسول بالآيات التي برلت في هلال . قال ابن الصباع : قصة هلال تُبين أن الآية نزلت فيه أولاً وأما قوله صلى الله عليه وسلم لعويمر « إن الله أمر فيك وفي صاحبك » فها ما نزل في قصة هلال ؛ لأن ذلك حكم عام لجميع الناس .

« وأما الصورة الرابعة » - وهي استواء الروايتين في الصحة ، دون مرجح

لإحداها ، ودون إمكان لأحدهما معاً يُشَدُّ الرمان بين الأسناب - فحكمها أن  
يحمل الأمر على تكرار زوال الآفة بعدد أصناف الثمرات التي تحدثت عنها ، دون  
البرهان ، أو تلك الروايات . لأنه إعمال لكل رواية ، ولا مانع منه . قال الزركشي  
في البرهان : « وقد نرى الشيء تعطى لشأبه ، وقد كبراً عند حدوث صفة خوف  
سبابه » اهـ

( مثال ذلك ) ما أخرجه البيهقي والترمذي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ وقف على  
حرّة حين استشهد وقد مُثِّلَ به ، فقال : « لَأَمَثَلُنَّ سَعِينَ مِنْهُمْ مَكَائِكَ » وروى  
خيريل وسفيان بن عيينة - نحو أبيهم سورة النحل « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ  
مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ » إلى آخر السورة ، وهن ثلاث آيات

وأخرج الترمذي والحاكم عن أبي بن كعب قال : ( ما كان يومٌ أُحدٍ أصاب من  
الأنصار أَرْبَعَةٌ وستون ، ومن مهاجرين ستة ، منهم حرّة ، فمَثُّوا به ، هات الأضر :  
لئن أصابنا بهم يوماً مثل هذا بُرِّينَ ) ( أي لم يبدن ) عليهم . فَمَثُّوا به كان يوم فتح  
مكة أمرل الله « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ » الآية

فالرواية الأولى تعيد أن الآية رلت في عروء أحد ، والثانية عيّد أهلها رات يوم  
فتح مكة ، على حين أن بين عروء أحد وسورة الفتح الأعظم اصع سبعين ، فمَثُّوا به  
يكون رول الآية كان مرة عقيبهما معاً . وإذن لا مانع لنا من القول بتعدد رولها ،  
مرة في أحد ومرة يوم الفتح . وقد ذهب البعض إلى أن سورة النحل كلها مكية .  
وعليه فيكون حواشيم المذكورة مرت مرة بمكة قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ،  
وتكون عدّة مرات برولها ثلاثاً . وبعضهم يقول إن سورة النحل مكية ما عدا  
حواشيمها تلك فإنها مدنية ، وعليه فعدّة مرات برولها ثنتين فقط

### شبهة وجوابها

وبإزالة الشبهة على تكرار البرور ، به عمث ما دامت الآية قد برزت من ذلك  
السبب احدى ، وحفظهم برسول ﷺ واستظلمهم ، لخصه من صحة ، ويمكن رجوع  
إليها من غير حاجة إلى مروي مرة أخرى

( والجواب أن هذه الحكمة عينية في هذا التكرار ، وهي تبيين الله بعدده ، ولقد نظرهم  
إلى ما في طي نيت الآيات ، تكرار من الوعد ، بالدعوة ، وبتوئيد الحق ، التي هم في أشد  
الحاجة إليها ، فحواليه سورة النحل التي مع مثلاً ، ملاحظ أن الحكمة في تكرارها هي  
تبيين الله بعدده أن يحصى ، على العمل بنا اختونه من لإشارات الدعية في تحري أفعال الله ،  
وصط الله بعدده ، ومراعاة الحق حتى في لخصه من الخلق ، والتدريج ، لصبر  
والثبات ، واعتناء على الله ونية تزيده وبصره ، لتكمل من إتمام وأحسن في عمله ،  
جعل الله منهم أجمعين آمين

أصف إلى هذه الحكمة ، مكررة ، ركشياً ، كما من أن تكرار البرور تعظيم لشأن  
مكرر ، وقد كبر به خوف الله

### ٦ - تمدد البازل والسبب واحد

قد يكون أمر واحد سداً لبرور آيين أو آيات متعددة على عكس ما سبق ، ولا مانع  
من ذلك ، لأنه لا ينافي الحكمة في إفادته من ، وهذا هو الحق ، وبين الحق عند الحاجة ،  
بل إنه قد يكون أسع في الإفادع وأصغر في البزل

مثال حسب ما وجد في قوله ، م أخرجه من حرير الظهري ، واطعاني  
واسر مؤدونه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ حالاً في جبل شعتر ، فقال :  
« يا أيها الذين آمنوا ، انظروا لأنفسكم ، فاني شعث ، فأدخ ، فلا تكفوه »  
فلم يلبثوا أن طلعوا رجلاً ، رقيق العنق ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال : علام  
تشتمني أنت وأصحابك ؟ فيمضوا إلى الجاه ، فأصعبه وصعبوا الله ما افلوا حتى تجاوزوا

عَمَهُمْ . فَأَمَرَ اللَّهُ : «يَحْمِلُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَنَقَدَ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا نَقْدَ  
إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا ، وَمَا نَقَدُوا إِلَّا أَنْ أَسْمَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ .  
فَإِنْ تَوَلَّوْا لَكُمْ حَيْرَانَةٌ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا بَعْدَئِهِمْ أَفْهَ عَدَايَا أُرِيَتْ فِي الْغَيْبِ ، وَلَا حِرَّةَ ،  
وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » من سورة التوبة .

وأخرج الحاكم وأحمد هذا الحديث بهذا اللفظ وقالا : فأنزل الله : «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ  
جَمِيعًا فَيَحْطِلُونَ لَهُ كَمَا يَحْطِلُونَ لَكُمْ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ  
الْكَافِرُونَ . اسْتَعِذْ عَذَابَ الَّذِينَ هَبَّ اللَّهُ الشَّيْطَانَ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَهُ . وَأَنذِرْ حِزْبَ الشَّيْطَانِ .  
أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ » ١ هـ من سورة المجادلة .

ومثال السب الواحد ينزل فيه أكثر من آيتين ما أخرجه الحاكم والترمذي عن أم  
سلة أنها قالت : يا رسول الله ، لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله :  
«فَاستَحَابَّ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَلَّا يَصْبِعُ عَمَلٌ عَامِلٍ مِنْكُمْ ، مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى تَمُتُّكُمْ  
مِنْ تَمَتُّي ، فَأَلَدِينَ هَجَرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَأُودِدُوا فِي سَبِيلِي ، وَقَاتَلُوا  
وَقُتِلُوا ، لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلَتْهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ نَوَافِلًا  
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ » ٢ هـ من سورة آل عمران .

وأخرج الحاكم أيضا عنها أنها قالت : قلت لرسول : تذكر الرجال ولا تذكر  
النساء ؟ نزلت : «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ» (١) وأنزلت : «أَلَّا يَصْبِعُ عَمَلٌ عَامِلٍ  
مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى» (٢) .

(١) من سورة الأحزاب وتعامها : «وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْأَقْبَاتِ وَالْأَقْبَاتِ ،  
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ  
وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَّامِعِينَ وَالصَّامِعَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوحَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ، وَأَلَدًا كَرِيمًا  
أَفْهَ كَثِيرًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ »

(٢) وهي من آية آل عمران السابقة .

وأخرج الحاكم أيضاً قالت تمرُّ والرجال ولا تمرُّ النساء، وإيماناً بصف الميراث  
ما نزل الله « وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ نَعْمَتَكُمْ عَلَى بَعْضٍ »<sup>(١)</sup> وأرسل : « إِنْ  
الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ »<sup>(٢)</sup>.

## ٧ — العموم والخصوص

بين لفظ الشارع وسنه

هذا مبحث أعده الأصوليون بالكلام لأن مهمتهم الاستدلال بالفاظ الشارع على  
الأحكام ، ونحن نلخص لك هنا ما يسمح به لتمام المناسبة أسباب النزول وما ينزل فيها  
عما يوافقها أو لا يوافقها في العموم والخصوص فنقول : اعلم أن لفظ الشارع الوارد جواباً  
لسؤال أو سبب قد يكون مستقلاً أو معيداً وحده قطع النظر عن السبب أو السؤال  
الوارد فيه . وقد يكون غير مستقل ، بمعنى أنه لا يعيد إلا إذا لوحظ معه السبب أو  
السؤال .

ولكل من هذين النوعين حكمه :

فأما الجواب الذي ليس مستقلاً . فعلمه أنه يساوي السؤال في عمومه باتفاق  
الأصوليين ويساويه أيضاً في خصوصه على الرأي السائد عندهم .

فلو قال سائل : هل يجوز الوضوء بماء البحر ، فأجيب بلفظ ( نعم ) ، أو لفظ  
( يجوز ) ، كان المعنى : يجوز الوضوء بماء البحر لكل من أراد من الناس لا لخصوص  
هذا السائل ، وذلك لأن السؤال استقهم عن الجوار مطلقاً من غير اعتبار خصوص  
المتكلم ، فكذلك جوابه ، لأنه غير مستقل .

ولو قال السائل : توصأت بماء البحر ، فأجيب بلفظ ( يُجْزِيكَ ) ، كان معناه :

(١) من سورة النساء وتامها قد تقدم .

(٢) من سورة الأحراب ، وتامها قد تقدم أيضاً قريباً .

أن الوصوء ماء للمحر يمرى السائل وحده ، لأن السؤال خاص بالتكلم ، فكذلك جوابه غير المستقل . أما غير التكلم فلا يعلم حكمه من هذا الجواب ، بل يعلم من دليل آخر كالقياس ، أو كقوله **يُحْكَمُ** : « حكى على الواحد حكى على الجماعة » . ذلك كله في الجواب غير المستقل .

وأما الجواب المستقل . فغارة يكون مثل السبب ، في أن كلاً منها عام أو خاص . وحكمه إذن أنه يساويه . فاللفظ العام يتناول كل أفراد سببه العام في الحكم ، واللفظ الخاص مفصور على شخص سببه الخاص في الحكم . وهذا محل اتفاق بين العلماء ، لمكان التكافؤ والتساوي بين السبب وما زل فيه . وأمثلة الأول - وهو العام - فيها - كثيرة . منها الآيات النازلة في غزوة بدر ، والآيات النازلة في غزوة أحد من سورة آل عمران . ومثال الثاني - وهو الخاص - فيها - قوله سبحانه في سورة الليل : « وَسَيَجْزِيهَا الْآتَى . أَرْدَى بُرَى مَالَهُ يَتَزَكَّى » .

قال الجلال الحلبي : هذا فزل في الصديق رضي الله عنه ، لما اشترى بلالا المذنب على إيمانه وأعتقه . فقال للكفار : إنما فعل ذلك ليد كانت له عنده فزلت : « وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا أَتْبَعًا وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى » .

واعلم أن هذا التمثيل لا يستقيم إلا على اعتبار أن آل في لفظ « الأتقى » للعمد ، والمهود هو الصديق رضي الله عنه .

وتارة يأتي الجواب المستقل غموضاً متكاملاً مع السبب في عمومته وخصوصه . ونحت ذلك صورتان : (إحداها) عقلية محضة غير واقعة ، وهي أن يكون السبب عاماً واللفظ خاصاً . وإما كانت عقلية محضة وفرصية غير واقعة ، لأن حكمة الشارع تحمل على أن تأتي محواسب قاصية ، لا يتناول جميع أفراد السبب . أصعب إلى ذلك أنه يحمل ببلاغة القرآن ، القائمة على رعاية مقتضيات الأحوال . وهل يحفل أن يسأل



سائل فيقول مثلاً؟ هل يجوز لمائة المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم ويقاتلوا من قاتلهم،  
هياتي الجواب قائلاً : لك أنت أن تدافع عن نفسك وتقاتل من قاتلك  
( الصورة الثانية ) هي عموم اللفظ وخصوص سببه

#### ٨ - عموم اللفظ وخصوص سببه

ومعناه أن يأتي الجواب أعم من السبب، ويكون السبب أخص من لفظ الجواب،  
وذلك حائز عقلاً، وواقع فعلاً، لأنه لا محذور فيه ولا قصور، بل إن عمومته مع  
خصوص سببه موجب بالغاية، ومؤذٍ للمقصود وزائدة .  
بيد أن العلماء اختلفوا في حكمه : أعموم اللفظ هو المعتبر أم خصوص السبب ؟ .  
ذهب الجمهور إلى أن الحكم يتناول كل أفراد اللفظ، سواء منها أفراد السبب، وغير  
أفراد السبب . ولنضرب لك مثلاً : حادثة قذف هلال بن أمية لزوجته، وقد نزل  
فيها قول الله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ » الخ ، لاحظ فيها أن السبب  
خاص، وهو قذف هلال هذا، لكن حادثة الآية النازلة فيه بلفظ عام - كما ترى -  
وهو لفظ « الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ » . وهو اسم موصول ، والموصول من صيغ  
العموم، وقد جاء الحكم بالملاءنة في الآية محمولاً عليه من غير تخصيص . فيتناول بمومه  
أفراد القاذفين في أزواجهم ، ولم يحدوا شهداء إلا أنفسهم ، سواء منهم هلال بن أمية  
صاحب السبب وغيره ، ولا يحتاج في سحب هذا الحكم على غير هلال إلى دليل آخر  
من قياس أو سواء بل هو ثابت وعموم هذا النص . وعموم أنه لا قياس ولا اجتماع  
مع النص . ذلك مذهب الجمهور .

وقد عبر الجمهور عن العمدة بخصوص السبب ومعنى هذا، أن نطق الآية يكون  
مقصوراً على الحادثة التي يراد بها ، أما أشباهها فلا يعلم حكمها من نص لأنه ،  
إما يعلم بتدليل مستأنف آخر ، هو قياسها استوفى شروطه ، أو قوله يَرْمُونَ :

« حُكْمِي عَلَى الْوَاحِدِ حُكْمِي عَلَى الْجَمْعِ » . فَيَهِي الْقُدْرَةُ الصَّافَةُ الدَّالَّةُ سَبَبُ حَادِثَةٍ هَلَالٍ مَعَ وَجْهِ حَاصِلٍ هَهُنَا الْحَادِثَةُ وَحَدَّثَهَا ، « عَلَى هَذَا الرَّأْيِ » . أَمَّا حُكْمُ غَيْرِهَا بِمَا يَشْبَهُهَا ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ قِيَاسًا عِنْدَهَا أَوْ عَمَلًا بِالحَدِيثِ الْمَذْكُورِ

وَيَجِبُ أَنْ نَلَاظِظَ ، أَنَّ هَذَا التَّخْلَافَ الْقَائِمَ بَيْنَ الْجُمْهُورِ وَغَيْرِهِمْ ، يَحْتَكِلُهُ إِذَا لَمْ تَقُمْ قُرْبِيَّةٌ عَلَى تَخْصِيسِ لَفْظِ الْآيَةِ الْعَامَّةِ سَبَبُ نَزْوِلِهِ ، أَمَّا إِذَا قَامَتْ تِلْكَ الْقُرْبِيَّةُ فَبَيْنَ الْحُكْمِ بِكَوْنِهِ مَقْصُورًا عَلَى سَبَبِهِ لَا عَمَالَةٍ ، بِإِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ .

كَأَيْبُ أَنْ نَلَاظِظَ أَيْضًا أَنَّ حُكْمَ النَّصِّ الْعَامِّ الْوَاردِ عَلَى سَبَبٍ يَتَعَدَّى عِنْدَهُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ إِلَى أَفْرَادٍ غَيْرِ السَّبَبِ . بَيِّدُ أَنَّ الْجُمْهُورَ يَقُولُونَ إِنَّهُ يَتَنَاوَلُهُمْ هَذَا النَّصُّ نَفْسَهُ ، وَغَيْرِ الْجُمْهُورِ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَا يَتَنَاوَلُهُمْ إِلَّا قِيَاسًا أَوْ بِنَصِّ آخَرٍ كَالْحَدِيثِ الْمَعْرُوفِ : « حُكْمِي عَلَى الْوَاحِدِ حُكْمِي عَلَى الْجَمْعِ » .

وَالْيَاقِينُ هَذَا الْمَعْنَى بِشِيرِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ بِقَوْلِهِ : « قَدْ يَحْيَى كَثِيرًا مِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُمْ : هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي كَذَا ، لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ الْمَذْكُورُ شَخْصًا ، كَقَوْلِهِمْ : إِنْ آيَةُ الظَّهَارِ نَزَلَتْ فِي امْرَأَةِ قَيْسِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَإِنْ آيَةُ الْكَلَالَةِ نَزَلَتْ فِي حَبْرٍ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ ، وَإِنْ آيَةُ قَوْلِهِ « وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ » بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ » نَزَلَتْ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّصِيرِ ، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ مِمَّا يَذْكُرُونَ أَنَّهُ نَزَلَ فِي قَوْمٍ مِنْ مُشْرِكِيْنِ عَمَكَةَ ، أَوْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، أَوْ فِي قَوْمٍ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ . فَالَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ لَمْ يَقْصِدُوا أَنَّ حُكْمَ الْآيَةِ يَحْتَصُّ بِأُولَئِكَ الْأَعْيَانِ دُونَ غَيْرِهِمْ ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ وَلَا عَاقِلٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَالْمَاسِ وَإِنْ سَارَعُوا فِي التَّهْطِطِ الْعَامِّ الْوَاردِ عَلَى سَبَبٍ هَلْ يَحْتَصُّ بِنَفْسِهِ ؟ لَمْ يَجِبْ أَحَدٌ إِنْ عَمُومَاتِ الْكِتَابِ وَاسْتَوْسَتْ تَحْتَصُّ بِالشَّخْصِ الْمَعْنِيِّ وَإِنْ عَمَدَ مَا يَقْدِرُ لَهَا تَحْتَصُّ بِمَوْضِعِ ذَلِكَ الشَّخْصِ ، فَتَعَمُّ مَا يَشْبَهُهُ وَلَا يَكُونُ عَمُومًا فِيهَا تَحْتَصُّ اللَّفْظُ وَالْآيَةُ الَّتِي لَهَا سَبَبٌ مُعَيَّنٌ إِنْ كَانَتْ أَمْرًا أَوْ مَهْيَاً فَهِيَ مُقْتَضِيَّةٌ لَذَلِكَ الشَّخْصِ وَالْمَعْنَى مِنْ كَالِ غَيْرِ لَتِهِ » اهـ

ولعل ثمر هذا الخلاف ترجح إلى أمرين «أحدهم» أن الحكم على أفراد غير السب مدلول عليه بالنسبة البازل فيه عند الجمهور. وذلك النص قطعي لأن اتفاقاً، وقد يكون مع ذلك قطعي الدلالة. أما غير الجمهور فالحكم عندهم على غير أفراد السب ليس مطلقاً عليه بذلك النص بل «بتقياس أو الحديث المعروف»، وكلامه غير قطعي.

«الثاني» أن أفراد غير السب كلها يتناولها الحكم عند الجمهور، مادام اللفظ قد تناولها. أما غير الجمهور فلا يسحبون الحكم إلا على ما استوى شروط القياس منها دون سواه إن أحداً فيه بالتقياس.

### د - أدلة الجمهور

استدل الجمهور على مذهبهم بأدلة ثلاثة «الأول» أما علم أن لفظ الشارع وحده هو الحجة والدليل دون ما احتج به من سؤال أو سبب؛ فلا وجه إذن لأن محض اللفظ بالنسبة. وكيف يسوع أن جعل ما ليس حجة في الشرع متحكماً بالتحصيل على ما هو الحجة في الشرع؟

والدليل على أن لفظ الشارع وحده هو الحجة أن الشارع قد يصرف المظهر عن السؤال، ويعدل بالحوادث عن سن السؤال الحكمة، نحو قوله تعالى في سورة البقرة: «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُعْقِبُونَ؟ قُلْ مَا أَتَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْآخِرِينَ وَاتَّبِعُوا مَنِّي وَأَنسُوا كِبِيرَ وَاسِ السَّجِيلِ» فإن ظاهر هذه الآية أن النبي ﷺ سئل عن بيان ما يعقوبه؛ فجاء الجواب ببيان من يعقوبون عليهم وذلك من أسلوب الحكمين؛ لأن معرفة مصارف النفقة والصدقة أهم من معرفة انصروف فيها، فإن إصلاح الجماعة الشريعة لا يكون إلا عن طريق تنظيم النفقة والإحسان، على أساس توجيهها إلى المستحقين دون سواهم وهذا وجه في الآية براه وجهها،

ولم كانت الآية قد أوردت إشارةً حبيبه إلى بيان ما نفعله بقوله سبحانه « من خير »  
غير أنها إشارةٌ إجمالية لا تشيع حاجة السؤال .

ويمكن أن ننظم من هذا دليلاً مطلقاً من باب القياس الافتراضى ، تقريره هكذا :  
اللفظ العام الوارد على سبب خاص هو الجهة وحده عند الشارع ، وكل ما كان كذلك  
يعتبر عمومه ، فاللفظ العام الوارد على سبب خاص يعتبر عمومه وهو المطلوب .

كما يمكن أن ننظم منه قياساً استثنائياً ، تقريره :

لو لم يكن اللفظ العام الوارد على سبب خاص مُستقراً عمومه لم كان لفظ الشارع  
وحده هو الجهة ، لكن الذى يطل ، فبطل ما أدى إليه وهو مقدم ، وثبت نقيضه وهو  
أن اللفظ العام الوارد على سبب خاص يعتبر عمومه ، وهذا هو المطلوب .

« الدليل الثانى » أن الأصل هو حمل الألفاظ على معانيها المتبادرة منها عند  
الإطلاق أى عند عدم وجود صارفٍ يصرف عن ذلك لتباعد ، ولا صارفٍ للفظ هنا  
عن إرادة العموم ، فلا حرم ببقى على عمومه . أما ما يتوهمه المذهبون من أن خصوص  
السبب صارفٌ عن إرادة العموم ، مدفوعٌ بأن مجرد خصوص السبب لا يستلزم إخراج  
غير السبب من تناول اللفظ العام إياه . فلا يصح أن يكون قرينة ماسة من إرادة  
ما وضع له اللفظ عام . وهو العموم الشامل لجميع الأفراد .

ويمكن أن ننظم من هذا الدليل قياساً افتراضياً هكذا : اللفظ العام الوارد على سبب  
خاص يتبادر منه العموم عند الإطلاق ، وكل ما كان كذلك يبنى على عمومه فاللفظ  
العام الوارد على سبب خاص يبنى على عمومه وهو المطلوب .

ويمكن أن ننظم من ذلك الدليل قياساً استثنائياً أيضاً يقول : لو لم يكن اللفظ  
العام الوارد على سبب خاص دليلاً على عمومه عند الإطلاق لزم استعمال اللفظ على غير  
ما وضع له لا قرينه ، لكن لم يطل ، فبطل المقدم وثبت نقيضه وهو أن اللفظ العام

الوارد على سبب خاص يأتي على عمومه عند الإطلاق . وذلك هو المطلوب .

« المليل الثالث » احتجاج الصعابة والمجهدين في سائر الاعتصام والأصهار بمجموع تلك الألفاظ الواردة على أسباب خاصة في وقائع وحوادث كثيرة من غير حاجة إلى قياس أو استدلال بدليل آخر . وكيف ينكر هذا ؟ وأكثر أصول الشريعة اخرجت على أسباب خلعة ، وهو رغم خصوص تلك الأسباب قد فيها من الألفاظ النازلة فيها بمقتضى العموم ، ثم صاعوا بنحو ما فيها كثيرا من الأمثلة : فاستدلوا بآية الميرقة على وجوب قطع كل يد مع أيها نازلة في خصوص سرقة الجن أو داء جنون . واحتجوا بآيات الظهار على وجوب الكفارة المذكورة فيها والعمل بأحكامها على كل من ظاهرها مع أنها نازلة في خصوص من عرفت قبل . وكذلك برهنوا بآيات القمان على قبول حكمه لكل من كذب زوجته ولم يكن معه شهود على حين أنها نازلة في خصوص من ذكرنا سابقا .

ويمكن أن ننظم من هذا المليل قياساً اقترانياً نصح : عموم اللفظ لوارد على سبب خاص قد اعتبره الصعابة والمجهدون ، وكل ما كان كذلك فهو المعتبر . فعموم اللفظ الوارد على سبب خاص هو المعتبر .

ويمكن أن ننظم منه دليلاً جهتناً نصح : لو لم يكن عموم اللفظ الوارد على سبب خاص هو المعتبر ، لما اعتبره الصعابة والمجهدون ، لكن التالي باطل فبطل المقدم ، وتبطل قضيته ، وهو المطلوب .

#### ملاحظة :

لا يبعد عليك أن تستدل للمقدمات الصغرى والكبرى في الأقضية الاقتراعية التي ذكرناها ، خصوصاً بعد أن نطرق فيما نراه قبلها من عرض الأدلة بالأسلوب المألوف الخالي من القيود الشكلية ، في الاصطلاحات المنطقية .

ويمثل ذلك تستطيع أن تستدل بالاعتراف بطلان التوالى، فيما نظامه بين يدك من  
الأقضية الاستثنائية **حامل**

### ١٢١ - شبهات المخالفين وتبسيطها

استند مخالفو الجمهور إلى شبهات خمس لتأييد مدعيتهم - وهو أن المعبرة بخصوص  
السبب لا بصوم القبط - ولكنك ستجد مصراع هذه الشبهات بين يدك :

« الشبهة الأولى » يقولون - إن الإجماع قد استند على عدم حوار إخراج السبب من  
حكم العام الواردة على سبب خاص، وإذا ورد محصن وذلك يستلزم أن العام مقصور  
على أفراد السبب لا يتناول غيرها، لأنه لو لم يكن مقصوراً عليها لتساوت هي وغيرها  
في حوار الإخراج عند المحصن. وذلك ممنوع، للإجماع المذكور.

والجواب : أن الإجماع المذكور لا يستلزم قصر العام على أفراد الخاص  
كما يقولون، بل هو واقف عند حدود يحدده من أن أفراد السبب لا يخرج بالمحصن،  
وذلك المعنى ممتنع لعدم التساوى بين أفراد السبب وغيرها في حالة الإخراج بالمحصن،  
لأنه لا يمنع خروج غير أفراد السبب في حكم العام إذا تناوله القبط، وذلك لأدلة الجمهور  
الساقطة :

ويمكن أن تعظم من هذا قياساً استثنائياً يقول :

لو لم تكن المعبرة بخصوص السبب، لجاز إخراج أفراد السبب إذا ورد محصن  
لكن إخراج أفراد السبب عند وجود المحصن ممنوع، لاستناد الإجماع على امتناعه.  
بطل ما أدى إليه وهو التقدم، ونستقيمه، وهو أن المعبرة بخصوص السبب.  
دليل التلادم أن العام يتجرى أفراداً، فإذا أخذت عموم القبط ولم تحصه بالسبب

تساوت أفراد السب وغيرها مما اندرج تحت ذلك العام ، بإدعاء محض حار أن يخرج أفراد السب .

ونجاء بإبطال الملازمة ، ومنع أن أفراد العام مقسومة . وسد اسم أن الإجماع مستحيل على أن أفراد السب تختار عن غيرها ، أنها لا تخرج بالتحصيل . فإن تساوت هي وأفراد غير السب دحولاً ، فلن يتساوى الجميع خروجاً وإدخالاً يبقى العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السب ، للأداة السابقة

« الشبهة الثانية » يقولون ، إن الرواة نقلوا أسباب البرول واهتموا بها وتداولوها . ولا فائدة لذلك إلا ما يذهب إليه من وجوب قصر العام على أفراد سببه الخاص . وهذا معنى أن العبرة بخصوص السب لا بعموم اللفظ .

والجواب . أنه لا وجه حكمي أن نحموا فائده من الأسباب هي قصر العام على أفراد سببه ، فإن لأسباب البرول والإحاطة بها علماً عن طريق نقل الرواة فوائدها ، ومراياها ، وذكرها في مطالع هذا البحث . وهي غير صاد كرتهم ، فادعوا إليها بل شتمهم ويمكن أن نعلم من ذلك فيسألف قضائياً أيضاً هكذا : ولم تكن العبرة بخصوص السب لما نقل الرواة واهتموا به ، فلو بدد منه لكن لتألي سطل بخس والمشاورة ، فثبت بقبض المقدم وهو أن العبرة بخصوص السب دليل الملازمة . لأنه لا يمكن نقل الرواة وعمايتهم بغير الأسباب فائدة غير التحصيل

والجواب أن جميع دليل الملازمة ، كيف ؟ ولأسباب البرول فوائده متعددة قد قصصناها عليك أول هذا البحث فحذار أن تنسى .

« الشبهة الثالثة » يقولون إن تأخير جيل عن وقوع الواقعة وتوجيه السؤال في العام الوارد على سبب يدل على أن العبرة بخصوص السب ، لأن تأخير لفظ الشارع إليها بعد حدوث سببه ، فهم منه أن السبب هو الملحوظ وحده للشارع في الحكم عليه بهذا اللفظ العام البارز فيه ، وإلا لما ربطه بالسبب ، بل لأثره قبله ، أو أخره عنه .

والجواب أنه يكفي في حكمة تأخير البيان إلى ما بعد السب أن يكون اللفظ العام بياناً له ولو مع ما يشابهه من كل ما يندرج تحت اللفظ العام، ولا يستلزم أن يكون بياناً له وحده كما ذكرتم.

ويمكن أن نصوع من هذا قياساً هكذا : لو لم تكن العبرة بخصوص السب ، لما أحرّج البيان إلى وقوع الواقعة أو توجيه السؤال. لكن التالي باطل ، فثبت تقيص المقدم وهو الظاهر . دليل الملازمة أن تأخير لفظ الشارع إلى ما بعد وقوع الواقعة وتوجيه السؤال لا يفهم منه إلا أنه بيان لهذا السب وحده ، وذلك مع أن العبرة بخصوصه .

والجواب : أما نمنع دليل الملازمة ، أي نمنع أنه لا يفهم من تأخير البيان إلى ما بعد وقوع الواقعة وتوجيه السؤال إلا أن يكون اللفظ العام المارل بينهما بياناً لهذا السب وحده . كيف ؟ والتأخير يفهم منه أن اللفظ العام بياناً له مع أشباهه من كل ما ينظم وإياه في سلك لعامة الأدلة السابقة .

« الشبهة الرابعة » يقولون : قد انتفتت كلمة القهء على أنه إذا دعا رجل رجلاً آخر إلى طعام القداء وقال له : ( تمذّ عدى ) فرفض وقال : ( والله لا أتمذّى ) ، ولم يقل « عدى » ، ثم تناول القداء عند غير هذا الداعى ، فإنه لا يحث . ومادك إلا لأن هذا اللفظ العام قد تخصّص بسببه وهو كلمة ( تمذّ عدى ) التى حصّسها الداعى منه ، فكان الحلف قال : ( لا أتمذّى عندك وحدك ) ولذلك لا يحث بعدائه عند غيره .

والجواب : أن حكم القهء في هذا المثال ليس مبدئياً على أن كل عام يتخصّص بسببه كما فهمتم ، بل هو معنى على أن هذا المثال وأشباهه تخصّص بقرينة معارضة وعلى حكم العرف هنا بأن الحالف إنما يريد ترك القداء عند داعيه فقط . وليس كلامنا فيما يخصّص بقرينة معارضة ، سواء أكانت العرف أم سواء ، وذلك بحسب ما سبق .



وظهيره أن يقلل لك (كلمة ملائاً في واقعة معينة) فتقول ( والله لا أسكنه أبداً ) فإنك لا تبحث إذا كتبه في غير تلك الواقعة ، لأن العرف يحكم أيضاً بأنك تريد عدم تسكليه في خصوص تلك الواقعة لا مطلقاً .

ويمكن أن تنظم من هذا قياساً استثنائياً يقول :

لو لم تكن للمبرة محصور السب ، سكان من قال ( والله لا أئدي ) ولم يقل ( عذرك ) ، في إجابة من قال له ( تعذ عدي ) حاشاً إذا أئدي عند غيره . لكن التالي باطل ، ليس الفقهاء على عدم حشه حينئذ ، فبطل للقسم ، وثبت تقيضه ، وهو المطلوب .

دليل الملازمة أن كلمة ( لا أئدي ) شاملة للتخدي عند مخاطب وعند غيره ، لأن حذف المعمول يؤدى مضموم . وقد حاشت هذه الكلمة على سبب وهو دعوة المخاطب إياه للفداء . فلو أجدنا مضموم هذا اللفظ ، وأهميت محصور هذا السبب ، سكان يبحث عدائه عند غيره ، لأنه فرد من أفراد ذلك العام .

والجواب : أن التحصيل بالسبب هنا لم يحى من نفس السبب ، إنما حاش من قرينة خارجة هي حكم العرف بأن حاش مثل هذه التبيين إنما يقصد عدم التخدي عند من دعاه وحده . ولا كلام بما في ذلك ، لأن التحصيل بانقرية الخارجة محل اتفاق كما تقدم .

« الشبهة الخامسة » يقولون : إن التطابق بين السؤال وجوابه واجب ، في نظر الحكمة ، وبحكم قابول البلاغة . وهذا التطابق لا يستقيم إلا بالتساوى بين لفظ العام وسببه الخاص . والتساوى لا يكون إلا إذا حصصنا اللفظ العام بسببه الخاص . لاسيما إذا وقع ذلك في كلام لشارع الحكيم ، وحاش وأرقى نصوص البلاغة وواحدتها إيجازاً ، وهو القرآن الكريم .

والجواب : أن طرفي المقام على عمومية لا يحمل مطابقة نسبة الخاص ؟ لأن هذه الطاقة تحصل بكون اللفظ أعم من مدته ، كما تحصل مساواته إياه ، فإن القصور من الطاقة أن يكون اللفظ مبيهاً لحكم السب وغير قاصر عن الوفاء به ، وهو إذا جاء أعم يكون قد وفى بالمراد و زاد

ويمكن أن تسبك من هذا قياساً استثنائياً صيغته هكذا . لو لم تكن العبرة بخصوص السب ، لكان اللفظ غير مطابق للسب . لكن التالي باطل ، فثبت بقياس المقدم دليل الملازمة : أن الكلام هنا مفروض في سبب خاص ولفظ عام ، ولا شك أن العام لا يطابق الخاص ، ودليل يطلان التالي : أن عدم الطاقة معاف للعكس ، وحمل بالبلاغة .

والجواب : أننا نبتل تلك الملازمة ، ومع دليلها وهو أن العام لا يطابق الخاص كيف ؟ والطاقة كما تحصل بمساواة اللفظ للسب عمومياً وخصوصاً ، تحصل بكون اللفظ أعم من السب ، لأن المراد من الجواب أن يتحدث عن السب وبين حكمه ، وذلك حاصل مع كونه أعم منه ، ولا يتوقف على مساواته إياه .

ملاحظة : يمكنك بعد هذا البيان ، أن تحول تلك الأقيسة الاستثنائية إلى أقيسة افتراضية ، ثم تستدل على منتهياتها بسهولة وسر ، على نظمنا أدلة الجبرور . فأما ملك الخيال ، ولا داعي لإطالة المقل .

كما أرجو أن يمدني القاري الكريم ، إذا شق عليه بعض الشيء أن يهضم تلك الصناعة العميقة في صياغة الأدلة بعض الأحياء ؛ فإن لا وسط قضاء لا يرد ، وللصناعة حكماً لا ينقص . ومن واجبي أن أشع حاجة هؤلاء وهؤلاء ، لذلك تراءى طوراً هنا وطوراً هناك . والله هو الفتح العظيم ؛ وهو موفق والمعين

# ١١ - شبه السبب الخاص مع اللفظ العام

نوع التفسير في الإتيان ، وان الشك في المحل في مع الجوامع وشرحه ، بأن القرآن الكريم قد يرد فيه ما يشبه السبب الخاص مع اللفظ العام للقرآن فيه ، فيكون لهذا شبه آخر صالح في تناول الآية العامة لفصوص الخاص في الآية التي معها ، بتوالت عتاراً يحميه سبق إلى الذهن من غيره ، وأبعد عن حروجه بالتخصيص إذا ورد مخصص لتلك الآية العامة . فكانه قطع الموصول . وكأنه مع كل تقدم حروجه بالتخصيص ، كما أجروا على عدم خروج السبب الخاص من لفظ العام الدال فيه .

وهاك مثلاً بوضع لك المقام : قال الله تعالى في سورة النساء : « أَنْتُمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ، يَوْمِنُونَ بِالْجُبُوتِ وَالْعَافُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا » إلى آخر الآيات الواردة في هذا الموضوع .

فأنت ترى أن هذه الآيات شئت على الخيانة والظالمين من اليهود ، ونوع ذنبهم أقطع الوحيد ، ووعظهم أشد ، والتوبيخ . وذلك في معنى السبب الباطل عن تلك الخيانة أي خيانتهم لله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، حيث حملوا لشر كين أهدى سبيلاً منهم . ومن المقرر أن النهي من شيء أمر صدق ، فلا جرم تضمنت هذه الآيات أيضاً أمر اليهود بالأمانة في الحكم على النبي ﷺ وأصحابه ، ووصفهم بالصفات الحقيقية . خصوصاً أنهم قد مدحوا في كتابهم التوراة كما قال الله تعالى في سورة الأعراف : « يَجِدُونَهُ مَكْتُومًا عِنْدَهُمْ فِي تَوْرَةٍ وَإِنْ تُبَيِّنْ لَهُمْ آيَاسِهِمْ ، وَكَأَنَّ فِي تَوْرَةِ الْفَتْحِ بَدَأَ وَصَفَ الْمَنِي وَأَصْحَابِهِ : « ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي تَوْرَةٍ وَمَنْهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ » الخ .

ثم جاء عقب تلك الآيات في الترتيب الوصفي قوله سبحانه وتعالى : « إِنْ أَفْهَمَ



يُؤَدُّوهُمَا عِيْشَةً طَالَا السَّكَنَارُ : أَنْتُمْ أَعْدَى سَيِّئاً حَمْدًا لِّنَبِيِّ ﷺ . وَقَدْ تَصَيَّغَتْ  
الآيَةُ مَعَ هَذَا الْقَوْلِ التَّوَعُّدِ عَلَيْهِ لِمَعِيدَةِ الْأَمْرِ بِمُقَابَلَةِ الْمُشْتَمَلِ عَلَى أَدَاءِ الْأَمَانَةِ الَّتِي هِيَ  
بَيَانُ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، بِإِزْدَادِ أَنَّهُ الْمَوْصُوفُ فِي كِتَابِهِمْ ، وَدَلَّكَ مَنَاسِبُ تَقْوِيهِ تَعَالَى :  
« إِنْ آتَاكَ بِطَعْنٍ مِنْهُمْ أَنْ تَرْكُضُوا وَالْأَمَانَاتُ إِلَى أَهْلِهَا » هَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ أَمَانَةٍ ،  
وَبِذَلِكَ خَاصٌّ بِأَمَانَةِ هِيَ بَيَانُ صِفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالطَّرِيقِ السَّابِقِ ، وَالْعَامُّ تَبْلِي  
الْمَعْنَى فِي الرِّسْمِ مَقَرَّاعٍ عَلَيْهِ فِي الْغَزْوِ بَسْتُ سَنِينَ ، مَدَّةَ حَابِئِينَ بِشَرِّ فِي رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ  
الثَّانِيَةِ ، وَالْمَقَرَّاعُ فِي رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ ، وَإِنَّمَا قَالَ : وَيَقْرُبُ سَنِبْ كَذَا ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ  
لِعَامٍّ بِسَبْعَةٍ بِخِلَافِهَا « ١٥ » وَالْجِدْفُ أَوَّلًا وَآخِرًا .

## المبحث السادس

### في نزول القرآن على سبعة أحرف

هَذَا مَبْعُوثٌ طَرِيفٌ وَشَائِقٌ ، عِبَرُ أَنَّهُ مُحِيفٌ وَثَنُوكَ ١ . أَمَّا طَرَاغُهُ وَشَوْقُهُ ،  
فَلِأَنَّهُ يَرِينَا مَظْهُورًا مِنْ مَظَاهِرِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَتَحَنُّنِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَتَبْيِيزِهِ لِكِتَابِهِ عَلَى كَافَّةِ  
الْقِبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ ، بَلْ عَلَى جَمِيعِ شُعُوبِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، مِنْ كُلِّ حَيْلٍ وَقَبِيلٍ ، حَتَّى  
يَنْظُنُّوهُ بِهَيْئَةٍ أَلْسِنَتِهِمْ ، سَهْلَةً لِفَهْمِهِمْ ، بِرَعْمٍ مَا يَنْفُخُ مِنْ اِجْتِلَافِ فِي اللَّفْظِ ، وَتَنَوُّعٍ  
فِي الْخُصَائِصِ وَالْمُبْرَآتِ .

وَمِنْ طَرَاغِهِ هَذَا الْمَبْعُوثُ أَيْضًا أَنَّكَ تَشَاهِدُ فِيهِ عَرَصًا عَامًّا لِمُنْتَجَبَاتِ أَسْكَارِ كَثِيرَةٍ ،  
وَتَشْهَدُ حَيْثُ حَرَارًا مِنْ مَدَاهِبِ وَأَرْوَاحٍ كُلِّهَا تَحَاوِلُ الْعَمَلَ بِخِدْمَةِ الْعِلْمِ ، وَإِعْلَافِ الْحَقِّ ،  
وَالْمُخَالَعِ مِنَ عَرِينِ الرِّبَآنِ وَالْإِسْلَامِ .

وَأَمَّا مَحَافِئُ هَذَا الْمَبْعُوثِ وَشَوْقُهُ ، فَلِأَنَّهُ كَثُرَ فِيهِ تَمِيمٌ وَانْتِمَالٌ ، إِلَى حَدِّ كَادٍ  
يَعْتَمِدُ أَوْارِ الْحَقِيقَةِ . حَتَّى اسْتَعْمَلَ فِيهِ عَلَى نَعْمِ اِلْتِمَافٍ وَلَادَ بَاعِدَ رَاسِهِ وَقَالَ : إِنَّهُ

مشكل. وحقق اضطراب جماعة من كبار المحققين أن يعودوه بالتأليف قديماً وجديهاً، ما بين  
العلامة المعروف بأنه شامة في القرون المتأخرة المصرية، ولعلامة الشيخ محمد بحيث في القرن  
الرابع عشر.

أصنف إلى ذلك أن الخطأ في هذا الكتاب قد يتعد منه أمداء الإسلام سبيلاً هو حاك إلى  
توجيه للطاعن الخبيثة إلى القرآن، كما وقعت أو وقع على كتاب أن يدعون أنفسهم  
مبشرين، أموهة صابحة قرآنية، ويطروا موضوع الجزء الأول منه « هل من تحريف  
في الكتاب الشريف؟ » ونصيدوا فيه من الآراء المزيفة ما لحق منه برى، وهو ما  
لم ينالوا.

ونحن نستعين الله ونستعديه، أن نخلص لنا الورد من الشوك في هذا الموضوع الشائق  
الثالث، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً.

وسنحاول في هذا الميدان - إن شاء الله - حركات عدة، نتحدث فيها من أدلة  
نزول القرآن على سبعة أحرف، وعن شواهد بارزة في هذه الأحاديث الواردة، بينها فوائد  
كثيرة لا اختلاف الحرفاء والقراءات، وعن معنى نزول القرآن على سبعة أحرف وعن  
الوجوه السبعة في المذهب المختار، وعن تحقيق النسبة بين المذهب المختار وأشباهه، وعن  
وجوه اختيار هذا المذهب، وعن دفع الاعتراضات الواردة عليه، وعن بقاء هذه الأحرف  
السبعة في المصاحف، وعن الأقوال الأخرى وتمييدها، وعن دفع إجمالي للأقوال الأخيرة  
منها، ثم نختم البحث بملاحق الشهادت الواردة على هذا الموضوع : والله المستعان.

## ١ - أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف

لا سبيل إلى الاستدلال على هذا إلا بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء هذا النقل الصحيح من طرق مختلفة كثيرة ، وروى حدث نزول القرآن على سبعة أحرف عن حمير كبير من الصحابة . منهم عمر ، وعثمان ، وابن مسعود وابن عباس ، وأبو هريرة ، وأبو بكر ، وأبو جهم ، وأبو سعيد الخدري ، وأبو طلحة الأنصاري ، وأبي سكت ، وروى عن أرقم ، وسبرة بن حذاف ، وسفيان بن عمار ، وعدد من بني عوف ، وعمر بن أبي سعة ، وعمر بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأبو أسيد ، وحذيفة ، وأم أيوب ، وأبو الأضرى ، رضى الله عنهم أجمعين . هؤلاء أحد وعشرون صحابياً ، منهم إلا روى وحكاة

وروى سعد بن أبي يعقوب في مسنده السكندر أن عثمان رضى الله عنه قال : وما وهو على لسر . « أذكر الله رجلاً سمع مني صلى الله عليه وسلم قال : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلف شاف كلف » . ثم قدموا حتى لم يخلصوا ، فشهدوا أن رسول الله ﷺ قال : « أنزل القرآن على سبعة أحرف كلف شاف كلف » فقال عثمان رضى الله عنه : « وأنا أشهد معهم » .

وكل هذه مجموع التي يؤمن بتواطؤهم على تكذيب من أتى جمع لإمام أبي عبيد اس سلام يقول : « ثم هذا الحديث سكت حمير عن من شروط التواتر ، وإما جمع يؤمن بتواطؤهم على تكذيب كل طائفة من صفات الرواية وهذا الشرط إذا كان موقوراً هما في طائفة نصيحة كآيات ، فمن موقور يدنا في الطائفت متآخرون وهذا طائفة من تلك الأحاديث سوقها إليك استدلالاً من ناحية ، وتوثيراً في نفس السامع وإقامة معالم الحق فيه من ناحية » .

(١) روى البخاري ومسلم في صحيحيه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرأني حبرين على حروف مراحمته، هم أول ما أنزل الله عليه ويريدني حتى أتني إلى سمعة أحرف» زاد مسلم: «قال ابن شهاب: سمى أول تلك السمعة في الأمر الذي يكون واحداً لا يختلف في حلال ولا حرام».

(٢) وروى البخاري ومسلم أيضاً - (ويحفظ للبخاري) - عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حديق رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة، لم يقرأ فيها رسول الله ﷺ، فكذبت أساوره في الصلاة، فانظرته حتى سمعته، ثم أتته بردائه أو بردائي، فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأني رسول الله ﷺ. فقلت له: كذبت، فوالله إن رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرأها، فطلعت أقدوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرأ فيها، وأنت أقرأني سورة الفرقان. فقال رسول الله ﷺ: أرسنه يا عمر: اقرأ يا هشام، فقرأ هذه القراءة التي سمعتك تقرأها. قال رسول الله ﷺ: هكذا أنزلت. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن هذا القرآن أنزل على سمعة أحرف، فاقروا ما تيسر منه».

(٣) وروى مسلم بسنده عن أبي بن كعب قال: «كذبت في المسجد، ودخل رجل بصي، فقرأ قراءة أسكرتها عليه، ثم دخل آخر، فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضيت الصلاة دحسا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: إن هذا قراء قراءة أسكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه. فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ، فحس النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما، فصعق في نفس من التكسب ولا إذ كذبت في الحديفة. ثم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قد



عشبي صرت في صدري ، فصنت عرقاً ، وكانت أنظر إلى الله عز وجل ورقة فقال لي  
يا أي ، أرسل إلى أن أقرأ القرآن على حريف ورددت إليه : أن هو أن على أمي ،  
وردت إلى الثانية : أقرأه على حريف ، ورددت إليه : أن هو أن على أمي ، وردت إلى  
الثالثة : أقرأه على سبعة أحريف ، ولث نكل ردته مسألة تسألهم . فسمت  
« اللهم اعز لأمتي اللهم اعز لأمتي وأحرب ثلاثة بيوم برعت إلى الحق كلهم  
حتى ، برهم صلى الله عليه وسلم » .

واعلم أن معنى قول أبي س كعب رضي الله عنه « سقط في نفسي من مكذب  
الح » أن الشيطان أتى به من وسوس التكب ك ما شوش عليه ، حين رأى  
النبي ﷺ قد حسن القراءتين وصورهما على ما بينهما من اختلاف ، وكانت في سورة  
وحدة هي سورة النحل على ما رواه نضري . وكان يدي مرّ بخطره وقتل أن هذا  
الاختلاف في القراءة قد أتى من عند الله . أكنه كان خاطراً من الخواطر الدائمة  
التي لا بد من من صاحبها مذكراً ، ولا تفقها عن عقيدته ، ولا تكون لها أثر في  
ولا عمل دنم .

ومن رحمة الله بعداه أنه لا يؤخذهم بهو حسن البعوس وحجرات الضمائر المارة .  
وسكن يؤاخذهم بكسبت قلوبهم ، حين يفتح الإنسان للشبهة صدره ، ويوجه إليها  
اختياره وكسبه ، ثم يفتد عليها فؤاده وقده .

قال قرطبي « فكل هذا الخطر ( يشير إلى ما سجد في نفس أبي ) من قبيل  
ما قال فيه النبي ﷺ حين سأله . إن يحد في أمست ما يقع ضم أحد ، أن يتكلم  
به . قال : أوقد وحدتوه ؟ قالوا نعم . قال : ذلك صريح الإيمان » . رواه  
مسلم .

ومن هذا تعلم أن ما خطر لبده أبي س كعب رضي الله عنه ، لا يمس مقامه

ولا يصادم إيمانه ، مادام قد دفعه بإرشاد رسول الله ﷺ مريباً كما في الحديث الشريف

وأي إنسان يستطيع أن يحصى نفسه حواطراً أسوأ الهوانجاء ، ورياح الهوانجاء الشفهية ؟ إنما الواجب على المؤمن أن يجتنب تلك الحواطرات الرديئة بأسلحة العلم ونهـ . إيم الشريعة ، ولا يستسلم لها ولا يستسلم معها ، وعليه أن يتجاوز في هذا الميدان كما فعل الرسول ﷺ ، إذ صرَّح في صدره ، ليصرِّفه أشدَّ عن الاشتغال بهذا الخطر ، وليدفعه بقوة إلى ما قصه عليه علاجاً شهيته ، من أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فهو على أمته وتبسيطاً له . وقد صحَّح الرسول ﷺ في هذا العلاج أيما صحَّح حتى دلَّ أيُّ نفسه « فَعَصَتْ عِرْقًا ، وَكَأَنَّ أَهْرًا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَرَقًا »

ذلك ما رآه مُخَلِّصٌ في هذا المقام الذي رأت فيه بعض الأقدام ، وللعلامة الشيخ محمد عبد الله درار كلامٌ حَمْدٌ في مثل هذا الموضوع من كتبه النجدة ، فارجع إليه إن أردت توسيع ومزيد البيان

أُصِفَ إلى ما ذكرنا أن حصومة أي من كتب في أمر اختلاف القراءة على هذا النحو ، إنما كانت من قبل أن يقرَّأ القرآن أنزل على سبعة أحرف ، وهو وقتئذ كان معسوراً ، سليلين إليه لما علم بذلك ، وأطمأنت إليه نفسه ، عمل بما علم ، وكان مرجعاً منهم من مراجع القرآن على اختلاف رواياته ، وكان من رواه هذا العلم للناس كما ألاحظه في الحديثين للسيد إلى ما بعد

(٤) روى مسلم بسنده عن أبي نعيم أن النبي ﷺ كان عند أصحابه يبيِّن عِفْرَ قَسٍ « فَتَنَهُ حَبْرُنٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكَ أَنْ تَقْرَأَ أَمْرُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ . فَقَالَ أَسْأَلُ اللَّهَ مُدَافَعَتَهُ وَمُعَاوَنَتَهُ ؛ وَإِنْ أَمْنِي لَا تُطِيقُ



(٧) روى احمد بن حنبل بسنده عن ابن مسعود قال : « قرأ رسول الله ﷺ سورة من آياتهم ، فوحي الي المسحور ، فمكت رجل : قرأها ، وهذا هو قرأها حروفها أقرأها . قال : أقرأ بها رسول الله ﷺ فاصفها لي رسول الله ﷺ فحزبه فغير وجهه وقال : « إني أهدت من قبلكم الاختلاف » ثم أسر لي عن شيئا . فقلت هي : « إن رسول الله ﷺ يأمركم أن يقرأ كل رجل منكم كما علم . قال : فاطلقه وكل رجل يقرأ حروفه لا يقرأها صاحبه » . هـ .

(٨) وأخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود أنه سمع رجلا يقرأ آية سمع النبي ﷺ يقرأ خلافها . قال : « وحيت بيده فاصف لي » إلى النبي ﷺ قال : « كلا كما يحسن » ، فأقرأ « قل شعبة أحد رواة هذا الحديث : أكره عني أن النبي ﷺ قال : « من من كان قبلكم احتدوا فمكوا » .

(٩) روى البخاري وصغير في عن زيد بن أرقم قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : « قرأ رسول الله ﷺ سورة أقرأنيهم زيد بن ثابت » ، وأقرأهم ثم من كسر فاحشيت قرأهم ، فقرأه في أيهم أحد ؟ فسكت رسول الله ﷺ وعني إلى جيبه ، فقال هي : « لا يقرأ كل واحد منكم كما علم ، فهو حسن جميل » .

(١٠) وأخرج ابن جرير البخاري عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا القرآن نزل على سبعين ألف حرف ، فاقروا ولا حرج ولكن لا تغمموا ذكر رحمة ربكم ، ولا ذكر عذاب ربكم » .

## ٢ — شواهد بارزة في هذه الأحاديث الواردة

إننا نرى في هذه الأحاديث الشريعة ومبادئها ، يستطيع أن يقيم منها شواهد بارزة ، تكون مبادئ هدى ، ومصدر إشباع ونور ، ترشده إلى ما عسى أن تكون هو الحق والصواب في بين معنى الأحرف السبعة ، كما يستطيع أن يأخذ منها موارد ومه بنس يحكم به كل ما شجر من هذا الخلاف البعيد ، في هذا الموضوع الدقيق

( لث هذا الأول ) أن الحكمة في تروى قرآن على الأحرف سبعة هي التيسير على الأمة الإسلامية كلها ، خصوصاً الأمة العربية التي شرفت بالقرآن ، وبها كانت قبائل كثيرة ، وكان منها اختلاف في اللهجات ونبرات الأصوات ، وطريقة الأداء وشبهه ، بعض الأنفاض في بعض مدلولات على رسم أسهل ، كانت تجمعهم العروبة ، وتوحد بينها لسان لغوي عام ، وهو أحدث كلها بقراءة القرآن على حرف واحد ، شق ذلك عليهم ، كما يشق على القاهري ما أن يتكلم بلهجة الأمميوطى مثلاً ، وإن جمع بين اللسان مصري الم ، وأمت بينه لوطنية مغربية في لفظ الواحد وهذا شاهد محدد ما لا يوضح بين الأحاديث سابعة في قوله ﷺ في كل مرة من مرآت الأسرودة « فرددت إني أن هو » سبى متى « وقوله : « أسأل الله معافاته ومعهرة ، و « متى لا تنطق ذلك » ومن « ﷺ في تحرير فعل : « يا حبر بل إلى أرسلت في قبة أمية فيهم برحن وبراء ، وإعلام واحدة ، وإشباع إلى ندى لم يقرأ أكثر قط » الخ

قال الحق أن حبرى « وأما سبب وروده على سبعة أحرف فالتخفيف على هذه الأمة ، و « هذه السبعة » ، وأنهم يرون عليها شرفاً ، وتوسعة ورحمة وخصوصية لعصم ، و « واحدة » قصد فيها فصل الخلق وحبيب حق ، حيث أنه حبر بل قال :

« إن الله أمرنا أن نقرأ أمثلك القرآن على حرف ، فمن يعلم : أن الله معاهته  
وموته من أمتي لا يتحقق ذلك ، ومن يقرأ يردد الله حتى يسمع أحرف »  
ثم قال : « وكذا أن القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف ، وأن  
الكتاب نفسه كان من باب واحد على حرف واحد ، وذلك أن الله عز وجل  
أصله والسلام كما هو يمشى إلى قومهم المصدين ، ومن يعلم : أن الله عز وجل  
أحرفهم وأصواتهم ، عربهم ومحبهم ، وكان العرب الذي نزل القرآن منهم .  
لغتهم مختلفة وأصواتهم شتى ، ويسر على أحدهم الانتقال من لغة إلى غيرها ، أو من  
حرف إلى آخر . بل قد يكون بعضهم لا يفكر على ذلك ولو بالتعليم والعلاج ، لا سيما  
الشيخ ، والمرأة ، ومن لم يقرأ كتاب كما أشار إليه عليه السلام ، فلو كتموا أصدون عن لغتهم ،  
والانتقال عن أصواتهم ، نكأن من الشكاي لا يستمع ، وما عسى أن يشكك  
مشكك وتنفى لطبع » ١٥١ .

### فوائد أخرى لاختلاف القراءة وتمديد الحروف

كل من مر عليه في الشاهد لأول تقرير الحكمة واحدة ، وفائدة واحدة من  
فوائد اختلاف القراءات وتمديد الحروف في نزل عبيد القرآن الكريم وهي أرباعون  
وأشهرها ، وأقربها إلى الذهن ومحيطاتهما ، هذا الاختلاف وتمديد ما نزل أخرى :  
مع جميع الأمة الإسلامية متعددة هي سبع واحد واحد ، وهو لسان  
قريش الذي نزل به القرآن الكريم ، والذي انقسم كثير من محدثي السنة  
الفقهية العربية التي كانت تختلف إلى مكة في موسم الحج وأسواق العرب المشهورة .  
فكان قريشون يستمعون ما يسمعون ، ويصنعون ما يرون من أمم اليهود  
عربيه مقدمة إياهم من كل صوب وحذب ثم يصفونه ويهدونه ويدخلونه

في دائرة لغتهم المرمية ، التي أدعن جميع العرب لها بالزعامة ، وعقدوا لها راية الإمامة . وعلى هذه السياسة الرشيدة برل القرآن على سبعة أحرف يصطفي ما شاء من لغات القبائل العربية ، على عطف سياسة القرشيين بل أوفق . ومن هنا صح أن يقال : إنه نزل بلغة قريش ، لأن لغات العرب جميعاً تمثلت في لسان القرشيين بهذا المعنى . وكانت هذه حكمة إلهية سامية ؛ فإن وحدة اللسان العام من أهم العوامل في وحدة الأمة ، خصوصاً أول عهد بالتوثب والمهوض .

ومنها بيان حكم من الأحكام ، كقوله سبحانه : « وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ » قرأ سعد بن أبي وقاص « وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِّنْ أُمِّ » بزيادة لفظ « من أم » فتبين بها أن المراد بالإخوة في هذا الحكم الإخوة للأُم دون الأشقاء ومن كانوا لأب ، وهذا أمرٌ يجمع عليه .

ومثل ذلك قوله سبحانه في كفارة اليمين : « فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَخْرِيرُ رَقَبَةٍ » وجاء في قراءة : « أَوْ تَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤَمَّنَةٍ » بزيادة لفظ « مؤمنة » فتبين بها اشتراط الإيمان في الرقيق الذي يعتق كفارة يمين . وهذا يؤيد مذهب الشافعي ومن يحا نحوه في وجوب توافر ذلك الشرط .

ومنها الجمع بين حكيتين محتامين بمجموع القراءتين ، كقوله تعالى . « فَأَعْرِضُوا النِّسَاءَ فِي أَنْفُسِكُنَّ . وَلَا تَقْرَنُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ » قرئ بالتخفيف والتشديد في حرف الطاء من كلمة « يطهرن » ولا ريب أن صيغة التشديد تفيد وجوب الباطلة في طهر النساء من الحيض ؛ لأن زيادة النسي تدل على زيادة المعنى أما قراءة التخفيف فلا

تعيد هذه المبالغة . ومجموع القراءتين يحكم بأمرين : أحدهما أن الخائض لا يقرها روحها حتى يحصل أصل الطهر . وذلك بانقطاع الخبيص . وثانيهما أنها لا يقرها روحها أيضاً إلا إن بالمت في الطهر وذلك بالاغتسال ، فلا بد من الطهرين كليهما في حواز قربان النساء . وهو مذهب الشافعي ومن وافقه أيضاً .

ومنها الدلالة على حكمين شرعيين ولكن في حالين مختلفين : كقوله تعالى في بيان الوصوء « فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ » قرئ بنصب لفظ « أرحلكم » وبجرها . فالنصب يفيد طلب غسلها ؛ لأن العطف حينئذ يكون على لفظ « وجوهكم » المنصوب ، وهو مفسول . واجزأ يفيد طلب مسحها ؛ لأن العطف حينئذ يكون على لفظ « رؤوسكم » المجرور ، وهو ممسوح . وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن المسح يكون للناس الخلف وأن افضل يحب من لم يلبس الخلف .

ومنها دفع نوم ما ليس مراداً كقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمٍ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » وقرئ « فامضوا إلى ذكر الله » . فالقراءة الأولى بتوهم منها وجوب السرعة في المشي إلى صلاة الجمعة ، ولكن القراءة الثانية رفعت هذا التوهم لأن المضي ليس من مدلوله السرعة .

ومنها بيان لفظ مهم على المعنى نحو قوله تعالى : « وَتَكُونُ الْخَبَالُ كَالِإِهْنِ الْمَنْفُوشِ » وقرئ « كالصوف المنفوش » فبيت القراءة الثانية أن الإهْن هو الصوف ومنها تحمية عقيدة ضل فيها بعض الناس - نحو قوله تعالى في وصف الجنة وأهلها : « وَإِذَا رَأَيْتَ نَمْرًا رَأَيْتَ نَمِيًّا وَمُلْكًا كَبِيرًا » جاءت القراءة بضم النيم



وسكون اللام في لفظ (وملكا كبيرا) وجاءت قراءة أخرى بفتح الميم وكسر اللام في هذا اللفظ نفسه ، فرصت هذه القراءة الثانية نقاب الخفاء عن وجه الحق في مقيدة رؤية المؤمنين لله تعالى في الآخرة ، إلهه سبحانه هو الملك وحده في تلك الدار « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » .

وانخلاصة : أن تنوع القراءات ، يقوم مقام تعدد الآيات . وذلك ضرب من ضروب البلاغة ، يعتد من جمال هذا الإيجاز ، وينتهي إلى كمال الإيجاز .

أضف إلى ذلك ما في تنوع القراءات من البراهين الساطعة ، والأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله ، وعلى صدق من جاء به وهو رسول الله ﷺ ، فإن هذه الاختلافات في القراءة على كثرتها لا تؤدي إلى تناقض في المقروء ، وتضاد ، ولا إلى تهافت وتخاذل ، بل القرآن كله على تنوع قراءاته ، يصدق به بوضوح ، ويبين بوضوح ، ويشهد بوضوح لبعض ، على نمط واحد في علو الأسلوب والتعبير ، وهدف واحد من سمو الهداية والتعليم . وذلك - من غير شك - يفيد تعدد الإيجاز بتعدد القراءات والحروف .

ومعنى هذا أن القرآن يُعْرَضُ إذا قرئ بهذه القراءة ، ويمعز أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة الثانية ، ويمعز أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة الثالثة ، وهلم حسرا . ومن هنا تتعدد المعجزات بتعدد تلك الوجوه والحروف .

ولا ريب أن ذلك أدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه أعظم في اشتمال القرآن على مناسخ حجة في الإيجاز وفي البيان ، على كل حرف ووجه ، وبكل لمحة ولسان . « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

(الشاهد الثاني) أن مرآت استعادة الرسول للتبشير على أمته ، كانت ستاً غير الحرف الذي أقرأه أمين الوحي عليه أول مرة فتلك سبعة كاملة بخطوطها ومبهموها .

عائل حديث ابن عباس السابق وقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيه . « أقرأني جبريل على حرف ، فراحته ، ثم أزل أستريده ويردني حتى سمع سبعة أحرف » وكذلك جاء في حديث لآني نكرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « نظرت إلى ميكانيل فكنت فعلت أنه قد انتهت المدة » ، يضاف إلى ذلك المراجعات الثابتة في الأحاديث الأخرى ، وإن كانت لم تبلغ ستاً صراحةً ، غير أن الحديث جاء بلفظ السبعة ، فهم من مجموع تلك الروايات ، أن المراد بلفظ سبعة حقيقة العدد المعروف في الأحاد بين الستة والثمانية .

( الشاهد الثالث ) أن من قرأ حرفاً من هذه الحروف ، فقد أصاب شاكلة للصواب إما كان ذلك الحرف ، كما يدل عليه فيما مضى قوله صلى الله عليه وسلم : ( فأبما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا ) وقوله صلى الله عليه وسلم لكل من المختلفين في القراءة ( أصبت ) وقوله صلى الله عليه وسلم لهما في رواية ابن مسعود : ( كلا كما يحسن ) وقوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عمرو بن العاص : ( فأبى ذلك قرأتهم أصبت ) . وعدم موافقة صلى الله عليه وسلم لعمر ، وأبي ، وابن مسعود ، وعمرو بن العاص ، على معارضة مخالفهم بالطرق الآتية في الأحاديث السابقة . ودفعه في صدر أبي حين امتنع عليه أن يقرأ هذا الاختلاف في القراءة . ولا ريب أن ذلك كله فيه معنى النهي البالغ عن منع أي أحد من القراءة بأي حرف من الأحرف السبعة النازلة

( الشاهد الرابع ) : أن القراءات كلها على اختلافها كلام الله ، لا مدخل لشرفها . بل كلها كلمة من عنده تعالى ، مأخوذة من كتابي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . يدل على ذلك أن الأحاديث الماضية تميز أن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يقرءون فيما يقرءون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأخذون عنه ويتفقون منه كل حرف يقرءون عليه ، انظر قوله صلى الله عليه وسلم في قراءة كل من المختلفين ( هكذا أزلت ) وقول المخالف لصاحبه : « أقرأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ثم أصف إلى ذلك أنه لو صح لأحد أن يعبر ما شاء من القرآن مراده أو غير مراده ، لظلت قرآنية القرآن وأنه كلام الله ، ولذهب الإجماع ولما تحقق قوله سبحانه ونعالى : « إِنَّمَا نَحْنُ بَرَزْنَا لَكَ كَذِبًا وَإِنَّمَا لَكَ لَحَافِطُونَ » ثم إن التبدل والتغيير مردود من أساسه بقوله سبحانه في سورة يونس : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتَبِرُ أَنْ تُغِثَ هَٰؤُلَاءِ مِنْ دُونِهِ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُتَدَّاهُ . قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » ، قل : « إِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ مَا يَكُونُ عَلَيْنَا مِنْكُمْ وَلَا أَذْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »

فإذا كان أصل الحق محمد ﷺ قد نخرج من تبدل القرآن هذا الأسلوب ، فكيف يسوع لأحد مها كان أمره أن يتبدل فيه ويعبر ، مرادف أو غير مرادف ؟ « سُبْحَانَكَ هَٰذَا هُتَاتَانِ عَظِيمٌ » .

( الشاهد الخامس ) أنه لا يجوز مع أحد من القراءة بأي حرف من تلك الأحرف السبعة النارية . يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « فَلَا تُمَارُوا فِيهِ » ، فإن المرأة فيه كُفِّرَتْ » وعدم موافقة لعمر ، وأبي ، وابن مسعود ، وعمر بن العاص ، على معارضة محالهم بالطرق الأربعة ، في الأحاديث السبعة . ويدل على ذلك أيضاً دفعه في صدر أبي حين استصعب عليه أن يقرأ هذا الاختلاف في القراءة ولا ريب أن ذلك كله فيه معنى النهي الباطح عن مع أي أحد من القراءة بأي حرف من الأحرف السبعة النارية

( الشاهد السادس ) أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا مُحْتَمِسِينَ في الدفاع عن القرآن ، مُتَنَبِّسِينَ في المحافظة على التنزيل ، متيقظين لكل من يحدث فيه حداً ، ولو كان من طريق الأداء واختلاف اللمحات ، صالنين في هذه اللفظة حتى ليأخذون

في هذا الباب ما نقلناه ، وبما نفرد عن القرآن بكل عناية وهذه وحديثك استدلالاً على ذلك ما فعل عمر بن الخطاب مع صاحبه هشام بن حكيم ، على حين أن هشاماً كان في واقع الأمر على صواب فيما يقرأ ، وأنه قال لعمر نسويماً لقراءته : أقرأ بها رسول الله ﷺ لكن عمر لم يسمع ، بل لبَّيه وساقه إلى الحائكة ، ولم يتركه حتى قصي رسول الله ﷺ لهشام ما به أصاب . قل مثل ذلك فيما فعل أيُّ من كتب نصاحه ، وما كان من ابن مسعود وعمر بن العاص وصاحبيهما . والأحاديث بين يديك عن كُتب ، فارحع إليها إن أردت .

( الشاهد السابع ) أنه لا يجوز أن يجعل اختلاف انقراءات معركة حداثٍ وبراعٍ وشفاقٍ ، ولا مثارَ ترددٍ وتشكيكٍ وتكذيبٍ ، ولا سلاحَ عصيَّةٍ وتطعيرٍ وحمودٍ . على حين أن نزول القرآن على سبعة أحرف إنما كانت حكمته من الله التيسير والتخفيف والرحمة والتهوين على الأمة ، فما يسكون لما أن يجعل من هذا اليسر عسراً ، ومن هذه الرحمة ثقله ! . يرشد إلى ذلك قوله ﷺ فيما سبق « فَلَا تُمَارُوا فِيهِ فَإِنَّ الْمَرَاءَ فِيهِ كَعَمْرٍ » . وكذلك تغير وجهه الشريف عند اختلافهم مع قوله : « إِنَّمَا أَهْلَكَ مِنْ قُلُوبِكُمُ الْإِخْتِلَافُ » وصره في صدر أبي بن كعب حين جال بمخاطره حديثُ السوء في هذا الموضوع الخليل .

( الشاهد الثامن ) أن المراد بالأحرف في الأحاديث السابقة وجوهٌ في الألفاظ وحدها لا بحاكة . بدليل أن اختلاف الذي صورته له الروايات المذكورة كان دائراً حول قراءة الألفاظ لا نصير المعاني ، مثل قول عمر : « إِذَا هُوَ يَقْرُؤُهَا عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يَقْرَأْ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » ثم حكم الرسول أن يقرأ كلٌ منهما ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « هَكَذَا أَرَأَيْتَ » . وقوله : « أَيْ ذَلِكَ قَرَأْتُمْ قَدْ أَصْنَمْتُمْ » وعمو ذلك ولا ريب أن القراءة أداء الألفاظ ، لا شرح المعاني .

### ٣ — معنى نزول القرآن على سبعة أحرف

يهما بعد الذي أسلفنا إليك أن بين لك معنى الجملة الشريفة : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » فإليك :

أما لفظ القرآن فقد أشبهناه كلاماً في المبحث الأول . وأما الإنزال فقد استوفيناه تحقيقاً في المبحث الثالث . وأما السبعة فقد عرفت في الشاهد الثاني من الشواهد الماضية أن المراد بها حقيقتها وهي العدد المعروف في الآحاد بين الستة والثمانية . وأما الأحرف فجمع حرف ، والحرف يطلق على معان كثيرة ، أتى عليها صاحب القاموس ؛ إذ يقول ما نصه : « الحرف من كل شيء طرفه ، وشفيره ، وحذوه ، ومن الجبل أعلاه المخدود ، وواحد حروف التهجى ، والناقة الضامرة أو للهزولة أو العظيمة ، وصيل الماء ، وآرام سودّ ببلاد سيم . وعند النحاة ما جاء بمعنى بسم ولا فعل . » وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، أى وحده واحد ، وهو أن يعبد على السراء لا على الضراء ، أو على شك ، أو على غير طمأنينة من أمره ، أى لا يدخل في الدين متمكناً . « وَنَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ » : سبع لغات من لغات العرب . وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه وإن جاء على سبعة أو عشرة أو أكثر ، ولكن معناه أن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن ؛ ١ هـ بتصرف قليل . وهذه الإطلاقات الكثيرة تدل على أن لفظ الحرف من قبيل المشترك اللفظي ، والمشارك اللفظي يراد به أخذ معانيه التي تمنحها القرائن وتناسب المقام .

وأما المعاني بالمقام هنا في إطلاقات لفظ الحرف أنه الوَحْدُ بالمعنى الذى سمعناه عليك ، لا بالمعنى الذى ذهب إليه صاحب القاموس وغيره من أنه اللمعة أو غيرها فيأتيك تأكيد هذه الآراء بعد .

ثم إن كلمة (عَلَى) في قوله صلى الله عليه وسلم «أُزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ» تشير إلى أن المسألة على هذا الشرط من التوسعة والتيسير، أي أُزِلَ القرآن موسعة فيه على أن يقرأ على سبعة أوجه، يقرأ بأي حرف أراد منها على البدل من صاحبه، كما قال: «أُزِلَ عَلَى هَذَا الشَّرْطِ وَعَلَى هَذِهِ التَّوْسِعَةِ».

وليس المراد أن كل كلمة من القرآن تقرأ على سبعة أوجه؛ إداً لقول صلى الله عليه وسلم «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُزِلَ سَبْعَةَ أَحْرَفٍ» بحذف لفظ (عَلَى). بل المراد ما علمت من أن هذا القرآن أُزِلَ على هذا الشرط وهذه التوسعة، بحيث لا تتحاور وحوه الاختلاف سبعة أوجه، منها كثير ذلك التعدد والتنوع في أداء اللفظ الواحد، ومنها تعددت القراءات وطرقها في لكمة الواحدة. فكلمة «مَالِكٍ يَوْمَ الدِّينِ» التي ورد أنها تقرأ بطرق ثلث السبعة أو العشرة، وكلمة «وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ» التي ورد أنها تقرأ باثنتين وعشرين قراءة، وكلمة «أَفِي» التي أوصل الرماني إلهاها إلى سبع وثلاثين لغة، وكل أولئك وأشياء أولئك، لا يخرج القعابر فيه عن كثرتهم من وحوه سبعة.

## ٤ - الوجوه السمة في المذهب المختار

بقى علينا أن نقسّم ما هي تلك الوجوه السمة التي لا تخرج القراءات عنها مهما كثرت ودوّعت في الكلمة الواحدة ؟

هذا يستخدم الحذف والحلاف ، وكثير القيل والقال

والذي يختاره - سور الله ونوفيقه - من بين تلك المساهم والآراء هو ما ذهب إليه الإمام أبو الفصّل الرارى في اللوائخ إر بمول :

انكلام لا يخرج عن سمعه أحرف في الاختلاف

( الأول ) اختلاف الأسماء من أفراد ، وثنية ، وجمع ، وذكور ، وتأنث

( الثانى ) . اختلاف تصرف الأفعال من ماضى ، ومصارع ، وأمر .

( الثالث ) : اختلاف وجوه الإعراب

( الرابع ) الاختلاف بالقص والزيادة .

( الخامس ) الاختلاف بالتقديم والتأخير .

( لـ دس ) : الاختلاف بالإبدال

( السابع ) اختلاف الهمت « يرمد اللهجات » كالتصح والإمالة والترقيق

والتعجيم ، والإظهار والإدغم ، وبحو ذلك اءء عىر أء البقل كما ترى لم شعم شمل  
هيا عثرا

ويمكن التمثيل بوجه الأول منه وهو اختلاف الأسماء بقوله سبحانه :

« وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » قرى هكذا : « لِأَمَانَاتِهِمْ » أحماً  
وقرى : « لِأَمَانَاتِهِمْ » بإفراد

ويمكن التمثيل للوحة الثاني وهو اختلاف تصرف الأفعال بقوته سبحانه :  
 « فَقَالُوا رَبَّنَا نَاعِدُ نَبِيَّ أَسْمَارًا » قرئ هكذا منصوب لفظ « ربنا » على أنه مبادى  
 ولفظ « ناعِدُ » فعل أمر ، وبمعناه أسب بالمقام « فعل دعاء » . وقرئ هكذا : « رَبَّنَا  
 نَعِدُ » رفع « رب » على أنه مبتدأ ولفظ « نعد » فعلاً ماضياً مضارع العين حتمه خبر .

ويمكن التمثيل للوحة الثالث ، وهو اختلاف وجوه الإعراب ، بقوته سبحانه  
 « وَلَا بُدَّ كَاتِبٍ وَلَا شَهِيدٍ » قرئ بفتح الراء وصح . فالفصح على أن « لا »  
 نافية ، فالعمل محروم بعدها ، وابتعته المدحوظة في الراء هي فتحة إدعاء شين أما  
 الصم على أن « لا » نافية ، فالعمل مرفوع بعدها .

ومثل هذا المثال ، قوله سبحانه : « دُؤِ أَنْعَرُشِ الْخَيْدِ » قرئ رفع لفظ « الخيد »  
 وحرره ورفع على أنه مبتدأ لكلمة « دؤ » ، والخر على أنه مبتدأ لكلمة « أنعرش » .  
 فلا فرق في هذا الوجه بين أن يكون اختلاف وجوه الإعراب في اسم أو فعل كما رأيت  
 ويمكن التمثيل للوحة الرابع ، وهو الاختلاف بالنقص والزيادة بقوته سبحانه :  
 « وَمَا خَلَقَ إِلَّا ذَكَرًا وَأُنْثَى » قرئ بهذا اللفظ وقرئ أيضاً « وَاذَكَرَ وَالْأُنْثَى »  
 بنقص كلمة « ما خلق » .

ويمكن التمثيل للوحة الخامس - وهو الاختلاف بالتقديم والتأخير - بقوله سبحانه :  
 « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ » وقرئ « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ خَلْقِ الْمَوْتِ »  
 ويمكن التمثيل للوحة السادس وهو الاختلاف بالإبدال - بقوله سبحانه .  
 « وَطَرَفِي أُعْطِمْ كَيْفَ تُشِيرُهَا » برأى وقرئ « تُبَشِّرُهَا » بالراء ، وكذلك  
 قوله سبحانه « وَطَلَحَ نَمْدُودِ » بالحاء ، وقرئ « وَصَنَعَ » بالعين فلا فرق في هذا  
 الوجه أيضاً بين الاسم والفعل .

ويمكن التمثيل للوحة السابع - وهو اختلاف اللهجات - بقوله سبحانه : « وَهَلْ  
 أَنْتَ خَدِيتُ مُوسَى » تقرأ بفتح والإمالة في « أنى » ولهظ « موسى » فلا فرق في هذا



الوجه أيضاً بين الاسم والعمل. والحرف مثلها بحرف « بلى قَادِرِينَ » قرى بالفتح والإمالة في لفظ « بلى » .

### ٥ — لماذا اخترنا هذا المذهب

وإنما اخترنا هذا المذهب لأربعة أمور :

( أحدها ) : أنه هو الذي تؤيده الأدلة في الأحاديث العشرة الماضية وما شابهها .  
( ثانيها ) : أنه هو الراجح في تلك الموازين التي أقيناها شواهد بارزة من تلك الأحاديث الواردة . فارجع النظر إليها ، ولا داعي لإعادتها . أما المذاهب الأخرى فترى أن التوفيق أخطأها في رعاية تلك الأدلة أو معصها ، وستطيش بين يديك في موازين هذه الشواهد قليلاً أو كثيراً .

( ثالثها ) : أن هذا المذهب يعتمد على الاستقراء القام باختلاف القراءات وما ترجع إليه من الوجوه السبعة ، بخلاف غيره فإن استقرأه ناقص أو في حكم الناقص . فكلما « أف » التي أوصلها الرمان إلى سبع وثلاثين لغة يمكن ردُّ لغاتها جميعاً إلى هذه الوجوه السبعة ولا يخرج عنها . وكذلك الاختلاف في التهجئات . وهو اختلاف شكلي - يردُّ إليها ولا يخرج عنها . بخلاف الآراء الأخرى فإنه يتعذر أو يتعسر الرجوع بالقراءات كلها إليها . وليس من صواب الرأي أن يحصر النبي ﷺ الأحرف التي نزل عليها القرآن في سبعة ثم يترك نحن طرقات القراءات المروية عنه دون أن نردّها إلى السبعة ؛ لأن ذلك يلزمه أحد خطرين : فإما أن تكون تلك الطرق المقروء بها غير نذالة ، وإما أن تكون هي حروف مارل وراء السمة الأحرف التي نزل عليها القرآن ، ويكون الحصر في كلام الرسول ﷺ غير صحيح . وكلا هذين خطأ عظيم وإنهم كبير .

( رابعها ) : أن هذا الرأي لا يبرمه محدود من الحدودات الآتية التي يستهدف لها الأقوال الأخرى ، وسرّحها إليك قريباً ، فاصبر وما صبرك إلا بالله .

## الذين قالوا بهذا المذهب

ولا يبرهن عن ذلك أن هذا المذهب قد احتضره في حقيقته حول من العلماء ، وقاربه كل القرب مذهب الإمام ابن قتيبة ، والمحقق ابن الجردى ، وناقصى ابن الطيب كما يأتى :

ولا فرق بين آرائهم وبين هذا الرأى إلا اختلاف في طرق النفع والاستقصاء ، والتعبير والأداء . وسيظهر لك أن الرأى كان أهدى منهم سبيلاً ، وأكثر توفيقاً حتى لقد ذهب العلامة ابن حجر إلى أن مذهب الرأى هو مذهب ابن قتيبة بعد تنقيحه وتهذيبه ، فقال ما نصه : « وقد أخذ ( أى الرأى ) كلام ابن قتيبة ونقحه » ١ .

وقد احتار هذا المذهب أيضاً من المتأخرين بعض أعلام المحققين ، كالعلامة للرحوم الشيخ الحصرى الدمياطى والعلامة للرحوم الشيخ محمد محيت المطيعى لكن منهم من ناعصى عن العروى الدقيقة التى بين الرأى ومذاهب أولئك الثلاثة الذين تشاركت آراؤهم في المحلة ، ومنهم من صرح بـ « لا اتحاد بين هذه المذاهب جميعاً وما شابهها ، واعتبر الخلاف بينها لعظمياً حسب

لهذا رى أن سوق إليك في هذا المقام تلك المذاهب الثلاثة أيضاً ، جمعاً بين المقاشيات من ناحية ، وتمهيداً لتحقيق الفرق بينها وبين مذهب الرأى من ناحية أخرى ، وريادة في تنوير المذهب المختار وغيره من ناحية ثالثة

أما ابن قتيبة فيقول :

إن المراد بالأحرف السبعة ، الأوجه التى يقع بها استعاب :

( فأولها ) ما تتغير حركته ، ولا يرول معه ولا صورته ، مثل « ولا يُصَارُّ »

كاتب ، مفتاح الرء وصحتها .

( وثانيها ) ما يتميّز بالفعل مثل « تَعَدَّ وَتَأَعَدَّ » باعطاء الطلب والماضي  
( وثالثها ) ما يتميّز باللفظ مثل « مُنْشِرُهَا وَنُشِيرُهَا » بالراء المهملة والزاى المعجمة .  
( ورابعها ) ما يتميّز بإبدال حرف قريب المخرج مثل « طَبِيعٌ مَنْصُودٌ وَطَلْعٌ  
مَنْصُودٌ »

( وخامسها ) ما يتميّز بتقديم والتأخير مثل « وَحَاءَتِ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ  
وَحَاءَتِ سَكْرَةُ الْخَلْقِ بِالدَّوْنِ »

( وسادسها ) ما يتميّز بالزيادة والنقصان مثل : « وَمَا حَقَّقَ أَمْرٌ كَرًّا وَالْأَنْثَى .  
وَأَتَدَكَّرِ وَالْأَنْثَى » نقص لفظ « مَا حَقَّقَ »

( وسابعها ) ما يتميّز بإبدال كلمة بأخرى مثل « كَالْمَنْهِنِ الْمَنْشُوشِ . وَكَالضُّوْفِ  
الْمَنْشُوشِ » .

وأما ابن العربي فيقول

فقد تمتعت بصحيح اقراءات وشاذها وصميمها ومسكرها ، فإذا هي يرجع اختلافها  
إلى سبعة أوجه لا يخرج عنها .

١ - وذلك إما في الحركات ملا تميّز في المعنى والصوره نحو « الْمَجَل » بأربعة  
أوجه « وَيَجِيئُ » و « يَجِيئُ » و « يَجِيئُ » و « يَجِيئُ » .

٢ - أو تميّز في المعنى فقط نحو « فَسَلَقَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ » . رفع لفظ  
آدم ونصب لفظ كلمات ، وبالعكس

٣ - وإما في الحروف تميّز المعنى لا الصورة نحو « تَنَلُّوْا وَتَنَلُّوْا » .

٤ - وعكس ذلك نحو « تَصَلُّةٌ وَتَصَلُّةٌ » ونحو « الصَّرَاطُ وَالسَّرَاطُ » .

٥ - أو تميّزها نحو « فَاْمُصُوا ، فَاسْتَمُوا » .

٦ - وإما في التقديم والتأخير نحو « فَيَقُولُونَ وَيَقْتُلُونَ » نفتح ياء المضارعة مع بناء الفعل للفاعل في إحدى الكلمتين ، وصمما مع بناء الفعل للمعمول في الكلمة الأخرى .

٧ - أو في الزيادة والنقصان نحو « أَوْصَى ، وَوَصَّى » .

فهذه سبعة لا يخرج الاختلاف عنها .

وأما القاضي ابن الطيب فيقول فيما يحكيه القرطبي عنه :

تدبرّت وجوه الاختلافات في القراءة فوجدتها سبعة :

١ - منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته . مثل « هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ،

وَأَطْهَرُ » أي إسكان الراء وضما « وَبَيْضِقُ صَدْرِي ، وَبَيْضِقُ صَدْرِي » أي إسكان القاف وضما .

٢ - ومنها ما لا تتغير صورته ، ويتغير معناه بالإهراب مثل « رَبَّنَا بِأَعْدُ بَيْنَ

أَسْمَارِنَا ، وَبَاعَدَ » أي بصيغة الماضي والطلب .

٣ - ومنها ما تبقى صورته ، ويتغير معناه باختلاف الحروف ، مثل قوله « نُذِيرُهَا ،

وَنُذِيرُهَا » أي بالراء وبالزاي .

٤ - ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه ، مثل « كَالْمُهْنِ الْمُنْفُوشِ ، وَكَالْمُشُوفِ

الْمُنْفُوشِ » .

٥ - ومنها ما تتغير صورته ومعناه مثل : « وَطَلَحَ مَصْبُودٍ وَطَلَعَ مَصْبُودٍ » .

٦ - ومنها التقديم والتأخير مثل : « وَحَاءَتِ مَسْكِرَةٌ أَمَوْتِ بِأَلْحَقِّ ، وَحَاءَتِ

مَسْكِرَةٌ لَحَقَّ بِأَمَوْتِ » .

٧ - ومنها الزيادة والنقصان نحو : « لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْعَةً . وَلَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ

نَجْعَةً أَتْنَى » أي زياده لفظ أثنى

## ٦ - النسبة بين هذه المذاهب

## ومذهب الرازي

ومذهب بعض الجهادية إلى القول بالاتحاد بين هذه المذاهب الثلاثة ومذهب الرازي ، بل بينها جميعاً وبين ما يشابهها ، ويجعل الخلاف بينها كلها نظيئاً لا حقيقياً وذلك سكتاً بعيداً فيما أرى ، لأننا نلاحظ وحمّ كاملاً في كلام الرازي ، لم يمتوّه به واحد من أولئك الثلاثة فهو فضلاً عن أنه أدمج وجوههم السبعة في وجوه ستة نظريته الدقيقة ، محذوفاً عقد الوحدانية لاختلاف المسببات ، كالتفتيح والإزالة والتفريق والتعظيم ونحو ذلك

على حين أنه ما رآنا واحداً من أولئك الأعلام الثلاثة عرّض هذا النوع من الاختلاف بل واحداً في كلامهم ما جعلهم يهملون هذا الوجه عن قصد وعمد فهذا امر فتيبة نقول :

« وأما نحو خلاف الإظهار والإدغام والروم والإشتم ، والتجفيف والتسهيل ونحو ذلك ، فهذا ليس من الاختلاف لدى تقويع في اللفظ وبمعنى ، لأن هذه الصفات للتسوية في أدائه ، لا تخرج عنه أن يكون لفظاً واحداً »

وسكنى أرى أن هذا صدر نهى قدّمه ابن قيس للإمام هذا الوجه ، لأنّ سوء ذلك الإمام من المسألة ليست مسألة أسماء وعاديين يترتب عليها أن اختلاف المسببات في اللفظ الواحد تخرج عنه أن يكون واحداً أو لا تخرج عنه ، بل المسألة مسألة رعاية أمر واقع تختلف به القراءات ويمكن أن يكون مثلاً إراءاً انساق الذي دسّ بين الصداقة في اختلاف القراءات ، كما يكون أيضاً مثلاً للبراع في كل عصر ومصر بين القراء ، إذا لم يعموا أن الجميع من عداد الحروف السبعة التي رل عبيد القرآن وذلك لأن بحرف القرآن

يحرم كما يمسُّ صورته وطريق أدائه وكيفية لهجته ، كما يحرم كما يمسُّ جوهره وتغيير حروفه وكمكانه وحركاته وترتيبه .

أمر آخر : هو أن التيسير على الأمة - وهي الحكمة النادرة في نزول القرآن على سبعة أحرف - لا يتحقق على الوجه الأكمل إلا بحسبان هذا الوجه الذي نوه به الرازي ؛ وهو اختلاف اللهجات . بل هذا قد يكون أولى بالحبان وأحرى بالرعاية في باب التخصيف والتيسير ؛ لأنه قد يسهل على المرء أن ينطق بكلمة من غير لفته في جوهرها ، ولا يسهل عليه أن ينطق بكلمة من غير لفته نفسها بنهضة غير لهجته ، وطريقة في الأداء غير طريقته . ذلك لأن الترفيق والتفخيم ، والهمز والتسهيل ، والإظهار والإدغام ، والفتح والإمالة ونحوها ، ما هي إلا أمورٌ دقيقة ، وكيفياتٌ - كَتَنَفَّةٌ بشيء من الغموض والعسر في النطق على من لم يتعودها ولم يشأ عليها .

واختلاف القبائل العربية فيما مضى ، كان يدور على اللهجات في كثير من الحالات وكذلك اختلاف الشعوب الإسلامية وأقاليم الشعب الواحد منها الآن ، يدور في كثير من الحالات أيضاً على اختلاف اللهجات .

وإن تفتخيف الله على الأمة بنزول القرآن على سبعة أحرف ، لا يتحقق إلا بملاحظة الاختلاف في هذه اللهجات . حق إن بعض العلماء جعل الوجوه السبعة منعصرة في اللهجات لا غير ، كما يأتي .

قال الإمام ابن قتيبة نفسه في كتاب المشكل ما نصه : « فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه ﷺ أن يُقرئ كل أمة ( الله يريد بالأمة القبيلة ) بلغتهم ، وما جرت به عادتهم ، فنهَّدني بقرأ « عَتَّى حَمِي » يريد ( حَتَّى حِينَ ) هكذا يلفظ بها ويستعملها ( أي يقلب الحاء عينا في النطق ) . والأصدي قرأ « يَعْلَمُونَ » وَيَعْلَمُ ، وَيَسُودُ وَحُوءٌ ، أَلَمْ إِعْهَدْ » تكثر حروف المصارعة في ذلك كله ، والتميز بهمز ، والقرشي لا بهمز . ولآخر بقرأ « قِيلَ لَهُمْ » وَعِيسَى آمَنَاءُ » يشتمل الصم مع الكسر

و « بِصَاعَتُنَا دُرَّتْ إِيَّانَا » بثمام الكسر مع الصم . و « مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا » بثمام الصم مع الإدغام .

ثم قال ابن قتيبة أيضاً - « ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يروى عن لسانه وما جرى عليه اعتياده ، طعناً وباطلاً وكملاً ، لاشتد ذلك عليه ، وعظمت الحجة فيه ، ولا يمكن إلا بعد دراسة للنس طوالة ، وتدليل للسان ، وقطع للمادة . وراى الله رحمة ولطمة ، أن يحمل لهم شتمة في اللغات ، ومقتصر في الحركات ، كتبسيه عليهم في الدين » اهـ

فأنت تراه قد اعتبر اللهجات وطرق الأداء صراحة في هذه الكلمات

وكذلك نجد العلامة ابن الخردى ، يعترف بهذا الاختلاف في اللهجات ، ويقول ما نصه :- وهذا يقرأ « عَلَيْهِمْ ، وَفِيهِمْ » بصم الماء ، والآخر يقرأ « عَلَيْهِمْ ، وَفِيهِمْ » بالنصه . وهذا يقرأ « قَدْ أَفْلَحَ ، وَقُلْ أَوْحَى ، وَإِذَا حَلَّوْا إِلَى شَيْءٍ أُطِيعُوا » بالنقل ، والآخر يقرأ « مُوسَى ، وَغِيثَى » بالإعالة وغيره يُلَطِّفُ وهذا يقرأ « حَيْرَاءُ بَصْرَاءُ » بتريق الراء ، والآخر يقرأ « الصَّلَاةُ ، وَالطَّلَاقُ » بالتعجيم ، إلى غير ذلك اهـ .

ولكن من العجب العاجب أن هذين الإمامين الخليليين ، اللذين اعترفا صراحة باختلاف اللهجات وطرق الأداء على هذا الوجه ، قائما أن ينظاما في حركات الوجود السبعة التي رول بها القرآن تفسيراً على الأمة والعصمة في وحده .  
فالأحق والأدق ما ذهب إليه الرازى ! .

ولعل هذه الدقة ، وهذا الشمول الذى وفق إليه الرازى في الوجود السبعة هو التفتيح الذى نوه به ابن حجر ، إذ قل : « وقد أخذ ( أى الرازى ) كلام ابن قتيبة ونقحه » . وليس معناه الاتحاد بينهما ، لما علمت من وضوح الفرق ؛ وأن كلام الرازى أعم من كلام أولئك الثلاثة صوماً مطلقاً .

## ٧ - دفع الاعتراضات الواردة على هذا المذهب

اعتراض على هذا المذهب وما قاربه من مذهب ابن قتيبة وابن الجري والعلبي  
محلة اعتراضات تقدمها إليك ، ثم بعد ذلك ، فيما يأتي :

« الاعتراض الأول » يقولون : إن هذا القول مع اختلاف قائله في بيانه ، لم يذكر واحد منهم دليلاً إلا أنه تتبع وحوه الاختلاف في القراءة ، فوجدوا لا تخرج عن سبعة . وهذا لا يهمل دليلاً لأي واحد منهم على أن المراد بالأحرف السبعة الأوجه التي تختلف فيها القراءة

ونحيط أولاً : بأن هذا المذهب الذي استقر ما لم يخلف ولم يتردد في بيانه  
ثانياً : أما ابتدائه ، هذه أدلة لا بدليل واحد . إنما لا سلم كون تتبع وحوه  
الاختلاف في القراءة لا يصلح دليلاً لبيان الأحرف السبعة بهذه الوحوه السبعة . كيف  
والاستقراء التام دليل من حملة الأدلة التي يحرمها المطلق القديم ومطلق الحديث ، مادام  
متوفياً لشروطه الثلاثة التي أولها أن تكون القضية الاستقرائية متضمنة حكماً حقيقياً ،  
وثانيها أن تكون كلية حقيقية أي موضوعها كلياً حقيقياً صادقاً على ما واحد من أفرادها  
فيما مضى ، وما هو موجود في الحال ، وما يمكن أن يوجد في المستقبل . وثالثها أن  
تكون الوصول إلى القضية الاستقرائية بواسطة ملاحظة والتجربة .

ولا ريب أن الوحوه السبعة التي ذكرها أبو العليل الرازي تحقق في استقرائهما  
الشروط الثلاثة ، لأن الرازي لاحظ كل وحوه الاختلاف فوجدوها لا تخرج عن  
هذه السبعة ، ثم أصدر بهذا الاستقراء التام حكماً حقيقياً بأنه لا معنى لهذه  
الأحرف السبعة في الحديث الشريف سوى تلك الأوجه السبعة . وهو حكم يقوم على  
قضية كلية سالمة كما ترى



« الاعتراض الثاني » يقولون . إن طريق تفهيم آية اللوح المراري ، وابن قتيبة ، وابن الجزري ، وابن الطيب ، يخالف بعضها بعضاً وهذا يدل على أنه يمكن الزيادة على سبعة وحده .

ومحيط : بأن مجرد الاختلاف في طرق استقراء هؤلاء الأئمة لا يلزم منه إمكان الزيادة على سبعة في مذهب كل منهم . إنما يلزم ذلك من كانت استقراؤه ناقصة دون من كان استقراؤه تاماً . وقد أثبتنا أمامك أن استقراء الرازي تامٌ مستوفٍ لجميع شروط الإنتاج . ولا يصير أن يسلك في طريقة استقرائه سبيلاً يسلككم المحلوه ، فكل إنسان أن يختار في استقرائه ما شاء من الطرق التي يراها أصوب وأقرب ، مادام ملتزماً لشروط إنتاجه . وإذا كان غيره قد وقع في نقص من تقدمه واستقصائه ، فلا يصير ذلك مذهب الرازي أنه تم على الاستقراء التام في قليل ولا كثير « وَلَا تَرَوْهُ وَإِدْرَاةً وَبِرَرٍّ أُخْرَى » .

« الاعتراض الثالث » يقولون : إنك قد علمت أن الزيادة إلى سبعة أحرف كان العرض منها الرحصة ، وأكثر الأئمة يومئذ أمي لا يكتب ولا يعرف الرسم ، وإنما كانوا يعرفون الحروف وبحارها فحس ، والرحصة ليست ظاهرة في قراءة العمل الملبى للمجهول أو المعلوم ، أو في إبدال حركة بأخرى ؛ أو حرف بآخر ، أو تقديم وتأخير ، في القراءة بأحدها لا توجب مشقة ، يسأل "ابن أبي عمير" عن المعاقاة منها ويقول : « إن الأئمة لا يطبق ذلك » ، ويطلب لتفسير على الأئمة بإبدال حرف أو تغيير فعل من المص إلى الأمر ، أو من الساء للمعوم إلى الساء للمجهول ، هذا لاتفيده الروايات السابقة ولا تدل عليه .

ومحيط : بأنه لا سلم حفاء الرحصة في قراءة العمل الملبى للمجهول أو المعلوم أو في إبدال حركة بأخرى ، أو حرف بآخر ، أو تقديم وتأخير كيف ؛ ورحصة في ذلك ظاهرة أيضاً ، بل هي ظاهرة فيما كان دونها وهو اختلاف اللهجات مع فقاء الكلمة ، والحرف ،

والحركة، والترتيب بين الكلمات والحروف وهذا شاهد محس ومحمس في تبشّر أو تنسّر  
بمع صمات الحروف على بعض الناس في النطق، دون صمات أخرى فالبعض سهل  
عليه التعميم دون الترتيق، أو المعقّعة دون الإمالة، أو الإظهار دون الإدغام، والبعض  
يصعب عليه ذلك ويسهل عليه. فكيف إذا تغيّرت الكلمات أو الحروف أو الحركات  
أو الترتيب.

« الاعتراض الرابع » يقولون : إنه لا يُتصوّر وجود أوجه اختلاف في القراءات  
المذكورة في كلمة واحدة، حتى يكون ذلك تبسيراً وتخفيفاً كما تقدم. وإن أرادوا أن  
ذلك مفرق في القرآن جميعه كالتأثر باللفظ السبع المتفرقة في القرآن لم يكن أمة رخصة  
ولا اختلاف بين الصعابة.

. ونجيب : بأن هذا الاعتراض مبني على أساسه على غفلة عن حقيقة هذا اللذهب  
الختار وأشباهه، لأنه عبارة من وجود صيغة إليها ترجع جميع الاختلافات في القراءة  
دون أن تانزم هذه الوحد السبعة في الكلمة الواحدة، ودون أن يقال : إنها موزعة  
أشتاتاً على أبعاض القرآن. وإذا فالرخصة متعقّقة، بل لا تتعقّق على الوجه الأكمل  
إلا بهذا القول. وماذا عسى أن يبقى من التيسير والتخفيف وقد جمعت هذه الوحد  
كل اختلاف في القراءات معواتراها وصعبيها وضعيفها وشاذّها بكل طريق من  
طرق الاختلاف حتى ولو كان في اللمحات، ولو وصلت لغات الكلمة إلى سبع وثلاثين،  
كما أسلفنا في كلمة « أف » حكاية عن الرماني.

« الاعتراض الخامس » يقولون : إن الرخصة قد وقعت، وأكثرهم ومثد لا يكف  
ولا يعرف الرسم، وإنما كانوا يرمون الحروف ومحارحها  
وأحيباً باحتمال أن يكون المعصّر المذكور وقع اسماً، وإعاً أطلق عليه  
بالاستقراء

والأَمَدُ من هذا في الجواب أن يقال : إن الإحصار المذكور عُرف طريق الاستقراء التام ، وهو دليل من الأدلة القاطعة كما تقدم الكلام عليه حذوياً عن اعتراض سابق . وكون الرحمة وقعت وأكثرهم أميرون ، لا يتدح في بيان الحروف السبعة المذكورة ، لأن الحاجة لم تكن ماسة إلى تحديد معنى الأحرف السبعة بهذا الوصف العسوي الذي اعتبرت به تلك الوجوه سبعة ، فحسبهم أن يعلموا أن وجوه الاختلاف بينهم سبعة وجوه ، ولا يصبرهم ألا يستطيعوا العسوة عنها عما نَمُونُ نحن ، ماداموا يعرفون السبعة تطبيقاً في جميع معرّات القرآن ، وما داموا يَعْمُؤُونَ في القراءة على تلقّهم عن رسول الله ﷺ الذي يؤمسون بأنه لا يفادر في إملاع القرآن وحياً من وجوه السبعة . ونظير ذلك أنهم كانوا لا يعرفون تلك العساوين والأسماء والقوانين التي تنصّل بالإعراب والبناء ، ولكمهم كانوا يعرفون أكثر ما كيف ينطقون بلفظ صحيحاً فصيحاً منطقاً عليه ما عرفوا نحن بعد من تلك الأسماء والقواعد المتصلة بالإعراب والبناء .

## ٨ — بقاء الأحرف السبعة في المصاحف

ينقل بك إلى نقطة أخرى : قبل الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم لها وجود في المصاحف العثمانية .

ذهب جماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى أن جميع هذه الأحرف موجودة بالمصاحف العثمانية .

واحتجوا بأنه لا يجوز للأمة أن تهمل قل شيء منها ، وأن الصحابة أجمعوا على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التي كتبها أبو بكر ، وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك . ومعنى هذا أن الصحف التي كانت عند أبي بكر جمعت الأحرف السبعة ، ونقلت منها المصاحف العثمانية بالأحرف السبعة كذلك .

وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط ، جامعة للعرصة الأخيرة التي عرطها النبي ﷺ على حبريل مضمنة لها .

وذهب ابن جرير الطبري ومن لفّ أمه إلى أن المصاحف العثمانية لم تشمل إلا على حرف واحد من الحروف السبعة ، وتأثروا في هذا الرأي بمذهبهم في معنى الحروف السبعة ، وما التزموه فيه من أن هذه السبعة كانت في صدر الإسلام أيام الرسول ﷺ ، وخلافة أبي بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان ، ثم رأت الأمة بقيادة عثمان أن تقتصر على حرف واحد من السبعة حملاً لكلمة المسلمين فأحدث له وأهملت كل ما عداه من الأحرف الستة ، وسع عثمان للمصاحف بهذا الحرف الذي استقرت الأمة وحده وسيأتي بيان هذا المذهب وما ورد عليه من توهين

والتحقيق أن القول باحتمال لمصاحف العثمانية على الأحرف السبعة كلها أو بعضها ، يتوقف على أمرين : أحدهما تحديد المراد من الأحرف السبعة ، وثانيهما الرجوع إلى ما هو مكتوب ومائل تلك المصاحف في الواقع ونفس الأمر .

ولقد أسلفنا لك ما احترياه في تحديد المراد من الأحرف السبعة ، وأما الأوجه التي يرجح إياها كل اختلاف في لقراءات ، سواء منها ما كان صحيحاً وشاذاً ومنكراً ، وأنها تنحصر في سبعة على ما ذكره الرازي الذي حالقه التوفيق في الدقة والاستقراء التام .

وعن إذا رجعنا بهذه الأوجه السبعة إلى المصاحف العثمانية وما هو معطوط بها في الواقع ونفس الأمر ، نخرج بهذه الحقيقة التي لا تقبل النقص ، ونصل إلى فصل الخطاب في هذا الباب ، وهو أن المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلها ، ولكن على معنى أن كل واحد من هذه المصاحف اشتمل على ما يوافق رسمه من هذه الأحرف كلها أو بعضها ، بحيث لم تحل لمصاحف في مجموعها عن حرف منها رأساً .

ولبيان ذلك في المذهب الذي اخترناه :

أما الوجه الأول منه وهو اختلاف الأسماء أفراداً وجمعاً نحو قوله سبحانه « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَائِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » المقروءة بجمع الأمانة وإفرادها ، فقد اشتمل عليهما المصحف ؛ إذ كان لرسم العثماني فيه هكذا :

« لَأَمَانِهِمْ » رسم المرد في الحروف ولكن عليهما أم صيغة نكير إلى قراءة الجمع وغير منقوطة ولا مشكولة .

وأما الوجه الثاني وهو اختلاف نصريف الأفعال نحو قوله سبحانه « يَفْكُفُونَ عَلَى أَصْحَابِهِمْ » المقروءة بكسر الكاف وصمها في العمل ، فقد وافقت كلتا القراءتين رسم

المصحف العثماني أيضاً ، لأن هيكल العمل واحد في الخط لا يتغير في كلتا القراءتين ،  
والمصحف العثماني لم يكن معجماً ولا مشكولاً .

وأما الوجه الثالث وهو اختلاف وجوه الإعراب كقراءة : « وَلَا تُهَارُكَ كَاتِبٌ »  
بفتح الراء وصمها ، فإن الرسم يحتسبها كالوجه السابق ، وهو واضح

وأما الوجه الرابع وهو الاختلاف بالقص والزادة ، فله ما يوافق الرسم في  
نص المصاحف نحو قوله سبحانه في سورة التوبة : « وَأَعِدُّ لَهُمْ حَسَبَ نَجْرِي تَحْتَهَا  
الْأَنْهَارُ » وقرئ : « نَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا » بزيادة لفظ « مِنْ » وهما قراءتان متواترتان  
وقد وافقت كلتاها رسم المصحف ، بيد أن ذات الزادة توافق رسم المصحف المكي لأن  
لفظ « مِنْ » ثابتة فيه . أما حذفها فإنه يوافق رسم غير المصحف المكي حيث لم تثبت  
فيه ، أي في غير المصحف المكي . ومن هذا الوجه ما لا يوافق رسم المصحف بحال من  
الأحوال نحو قوله سبحانه : « وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَمِيَةٍ عُصًا » وقرأ  
ابن عباس هكذا : « يَأْخُذُ كُلَّ سَمِيَةٍ صَاحِبَةٍ عُصًا » بزيادة كلمة « صَاحِبَةٍ » فإن هذه  
الكلمة لم تثبت في مصحف من المصاحف العثمانية ، وهي بخلافه لخط المصحف ، وذلك  
لأن هذه القراءة وما شاكلها مسبوحة بالعرضة الأخيرة أي عرض القرآن من النبي  
صلى الله عليه وسلم على حبريل آخر حياته الشريفة ، وبذلك على هذا التسج إحاطة الأمة  
على ما في المصاحف فتلخص مما ذكرنا أن نص هذا الوجه الرابع اشتملت عليه المصاحف ،  
وبعضه لم تشتمل عليه ، لأنه تسج

وأما الوجه الخامس : وهو الاختلاف بالتقديم والتأخير ، وهو مثل ما قدمه من ما هو  
موافق لرسم المصحف نحو قوله سبحانه في سورة التوبة : « فَتَقْتُلُونَ وَتُقْتَلُونَ وَعَدَا  
عَلَيْهِ حَقًّا » قرئ : العمل بالنساء للماعل في الأول ، وللمفعول في الثاني ، وقرئ : بالعكس ،  
وهما قراءتان متواترتان ، ولا يخالف شيء من المصاحف ومنه ما خالف رسم المصحف .

محو قوله سبحانه « وَحَافَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » وقرئ « وَحَافَتْ سَكْرَةُ  
 الْخَلْقِ بِالْمَوْتِ » فإن هذه القراءة الثانية لا يحتملها رسم المصحف وإن كانت منقولة عن  
 أبي بكر الصديق ، وحلجة س مطرف ، ورين العابدین ( رضى الله عنهم ) لكنها لم  
 تقوأت ، هي مسوحة بالمرصة الأخيرة ، وبإحجام الصجاة على المصحف العثماني ، فلا  
 يجوز القراءة بها بخلاف القراءة الأولى لأنها وافقت حط المصحف ، واستقرت القراءة  
 بها دون نسخ . ومثل ذلك قوله سبحانه : « إِذْ جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » وقرئ  
 « إِذْ جَاءَ فَتْحُ اللَّهِ وَالنَّصْرُ » فالأولى هي التي وافقت الرسم . والثانية لم توافقه فهي  
 منسوخة أيضاً لما ذكرنا .

وأما الوجه السادس : وهو الاختلاف بالإطال ، فقد وافق بعضه رسم المصحف ،  
 وخالفه البعض أيضاً . مثال ما وافق الرسم قوله سبحانه : « إِنْ جَاءَكُمْ فَأَسِقُوا فَلَئِنْ  
 قَتَلْتُمُوهُمْ » وقرئ « فَتَقْتُلُوهُمْ » وهما قراءتان متواترتان . وتوافق كلتاها رسم  
 المصحف . ومثال الثاني قراءة « إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَامْضُوا إِلَى  
 ذِكْرِ اللَّهِ » وقراءة « وَتَكُونُ آجِلَاتُ الْكَافِرِينَ أَمْتَفُوشٍ » فإنهما مخالفتان لرسم  
 المصحف . وذلك لتسخمها بالمرصة الأخيرة أيضاً ، واستقرار الأمر على ما وافق الرسم  
 منه ، وهو قراءة « فَاسْمَعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » وقراءة « كَانِمْهِنَّ أَمْتَفُوشٍ » .

وأما الوجه السابع ، وهو الاختلاف بسب تباین الهمجات فيوافق رسم المصحف  
 موافقة بامة لأنه اختلاف شكلي لا يترتب عليه تغيير جوهر الكلمة ، وهو ظاهر  
 وتجد شواهد كثيرة في حط المصحف تدل على عدم هذا النوع من الاختلاف نحو  
 « وَهَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى » وبها رسمت هكذا بياء في الفعل بعد التاء ، وشب  
 ألف موسى بياء ، ومن غير شكل ولا إعرام

## ٩ — الأقوال الأخرى ودفعها

وهناك ممرصاً عاماً تشهد فيه الآراء الأخرى ، لها وما عليها . رأياً من واجباً  
أن اسوقها إليك ثم يوهبها بين يدك ؛ كيلا يكون معها حجر عثرة في طريقك إلى  
ما احترناه وأيدناه .

## القول الأول

إن هذا الحديث مشكل لاسيما إلى معرفة معناه المقصود . وشبهته أن لفظ « أحرف »  
فيه ، جمع حرف . والحرف مشترك لفظي بين معان كثيرة . ولشترك اللفظ لا يدرى  
أى معانيه هو المقصود ؟

وبدع هذا الرأي أنا لا سم ما قلناه على إطلاقه من أن المشترك اللفظي لا يدرى  
أى معانيه هو المقصود ؟ بل المشترك اللفظي يدل على معناه المقصود متى قامت قرينة  
تعين ذلك المعنى ، تقول : نظرت بالعين المجردة ، وشررت من عين ربيدة ، ومعناها  
واضح غير مشكل ، مع أن لفظ العين فيها مشترك لفظي ، ولكن مدلوله يتعين  
في المثال الأول أن يكون حارحة الإنسان الناصرة ، ومدلوله في المثال الثاني يتعين  
أن يكون مائة الماء الجارية وذلك بقرينة لفظ نظرت في المعنى الأول ، ولفظ شررت  
في الثاني .

وعنى هذا الباب جاء لفظ « أحرف » في الحديث الشريف ، فإن سياق الروايات  
السابقة ، يدل على أن المراد بالحرف معنى من معانيه السابقة على التبيين وهو الوجه ،  
وأن الأحرف هي الأوجه التي يرجع إليها الاختلاف في قراءة العاظم القرآن لا معانيه .  
وقد قام الدليل العقلي وهو الاستقراء التام على أن هذه الوجوه سبعة كما أسلمنا فيك أن  
تسى ، ونذكر الشاهد الثامن إن سمعت الله كرى



## القول الثاني

وإليه حرج لقاضى عياض ومن تبعه : - أن لفظ السبعة في الحديث الشريف ليس مراداً به حقيقة العدد المعروف ، إنما هو كناية عن الكثرة في الآحاد ، كما أن السبعين تستعمل كناية عن الكثرة في العشرات ، وكما أن السبعائة تستعمل كناية عن الكثرة في المئات .

وبدفع هذا بما قد صنفه في الشاهد الثاني . فأرجع إليه ، وأحرص عليه .

## القول الثالث والرابع

أن المراد بالأحرف السبعة سبع قراءات . وبدفع بأنه إذا كان المراد بهذا أن كل كلمة من كلمات القرآن تقرأ سبع قراءات ، فذلك مسموع ، لأنه لا يوجد في القرآن كلمة تقرأ على سبعة أوجه إلا القليل . وإذا كان المراد أن غاية ما ينتهى إليه عدد القراءات في الكلمة الواحدة سبعة أحرف فهذا بضح أن يكون ( قولاً راسعاً ) كما قال السكيت ، ثم هو غير مسلم أيضاً ، لأن في كلمات القرآن ما يقرأ بطرق أكثر ، كما ورد أن كلمة « قَهَّذَ الطَّاعُوتَ » تقرأ بانثنين وعشرين وجهاً . وأن كلمة « أَمِ » فيها سبع وثلاثون لفة . وإذا كان المراد أن الاختلاف في القراءات لا يخرج من سبعة أوجه فعلى صاحب هذا القول التماس ، فإذا تيسر بها فوجوه التي ذكرها كان هذا القول متداحلاً معها ، فلا يستقيم اعتباره قولاً مستقلاً برأيه . وبعض أكاره المعاص حاول أن يجعله متصلاً مع القول الذي احترازه وما أشبهه ، ولكنك قد علمت ما فيه .

## القول الخامس والسادس والسابع

ما نقلناه آنفاً عن ابن قتيبة ، وعن ابن الحردي ، وعن ابن الطيب . وقد كان لك

هناك أن في ثلاثتها قصوراً عسى أن تشمل جميع القراءات المتواترة ، وإن كانت قريبة من القول المختار ، ثم بينها تداحلٌ يتعذر أو يتعسر معه اعتبارها أقوالاً مستقلةً .

### القول الثامن

أن المراد بالأحرف السبعة وجوه ترحم إلى كيفية السلق بالنسبة من إعدام وإظهار ، وتجميع وتريق ، وإسالة وإشباع ، ومد وقصر ، وتشدّد وتخفيف وتليين وهو مدبوعٌ بأنه قد راد فيها عدّة على سبعة . وإذا أحاط بأن السبعة غير مراد بها حقيقتها وأنها مثل في الكثرة فقد علمت ما فيه ثم إن الأوجه التي ذكرها واحداً واحداً ترحم كلها إلى نوع واحد هو اختلاف اللفظات وكميات السلق وحدها ، فلا تشمل القراءات التي ترحم إلى اختلاف مع الألفاظ بالإبدال أو التقديم والتأخير ، أو النقص والزيادة ، وهو ذلك . وفي هذا القصور ما فيه ، على أكثر مما أسلفنا في ردّ تلك الآراء انقاصاً .

### القول التاسع

وهو أن المراد بالأحرف السبعة أوجه من الألفاظ المختصة في كلمة واحدة ومعنى واحد ، وإن شئت قل : سبع لغات من لغات العرب المشهورة في كلمة واحدة ومعنى واحد ، نحو هلم ، وأقبل ، وتعال ، ومجمل ، وأسرع ، وقصدي ، ونحوي . فهذه ألفاظ سبعة معاً واحد هو طلب الإقبال ، وهذا القول منسوبٌ لجمهور أهل الفقه والحديث منهم سفيان ، وابن وهب ، وابن جرير الطبري ، والطحاوي . وحجّتهم ما جاء في حديث أبي بكر من قوله يُقال « كلّمأ شافه كاف مالمأ تحمأ آية عذاب رحمة ولا آية رحمة عذاب » ، نحو قولك « تعال وأقبل وهم » ، وأذهب ، وأسرع . ومما جاء في حديث أبي بن كعب أنه كان يقرأ « كلّمأ أضاء لهم مشوا فيه » ،

مَرُّوا فِيهِ ، سَمِعُوا فِيهِ ، وَمَا حَاءَ عَنْ اِسْمِ حُدُودِهِ كَانَ يَقْرَأُ لِلَّذِينَ آمَنُوا اَنْظُرُوا ،  
اَمْهَلُوا ، اَحْرُومًا ،

وبدفع هذا القول وحووه (أحدها) أن ما ذكر في هذه الأحاديث ليس من  
فصل حصر الأحرف السبعة فيها وفي نوعها وحده حتى يصح الاستدلال بها على  
مادهوا إليه ، بل هو كما قال ابن عبد البر من قبيل ضرب مثل للحروف التي رل  
القرآن عليها ، وأنها معبر متفق مفهومها ، مختلف مسموعها ، لا تكون في شيء منها  
ممنى وصدء

وكيف يكون مراد حصر الأحرف السبعة ، فيما ذكره ؟ على حين أنه يرجع إلى  
بعض نوع واحد من أنواع الاختلاف ، وهو إبدال كلمة أخرى أعم من أن يكون  
مرادف أو غير مرادف . ولا ريب أن مذهبهم يدكور تخلص في أنه إبدال كلمة  
أخرى على شروط الترادف وهذا بعض ذلك فإن يذهبون تلك الوحوه الأخرى  
وهي ماقية إلى اليوم في القراءات المتواترة المكتوبة بين دفتي المصنف على ما يراه  
في مذهب الحنابلة . فحصر الحروف السبعة على بعض ذلك النوع وحده ، فيه ما فيه  
من انقصور الذي أورد عليه ما أورد في الأقول السبعة القاصرة ، بل انقصور  
هذا أشد وأعش ، لأنه يرجع إلى بعض نوع واحد لا إلى نوع كامل ، لله أنواع  
متعددة .

( ثانيا ) أن أصحاب هذا المذهب على حلة قدرهم ، وساعة شأنهم - قد وضعوا  
أسمهم في مأزق صيوة ، لأن ترويحهم لمذهبهم ، اضطرب إلى أن يتورطوا في أمور حصرها  
عظيم ، إذ قالوا إن الماقية لأن حرف واحد من السبعة التي رل عليها القرآن . أما الستة  
الأخرى فقد دعت ولم يعد لها وجود أنة . وسوا أو تسوا تلك الوحوه المشورة القائمة  
في القرآن على حصة الدهر إلى انيسوم ثم حاولوا أن يؤيدوا ذلك فلم يستطيعوا

أن يشتوا للأحرف الستة التي يقولون ضياعها مستحلاً ولا رهماً ، وأسلمهم هذا الخبر إلى  
 ورطة أخرى ، هي دعوى إجماع الأمة على أن تنشت على حرف واحد ، وأن ترمز  
 القراءة بجميع ما عداها من الأحرف الستة . وأتى بكون لهم هذا الإجماع ولا دليل عليه ؟  
 هناك احتالوا على إيمانهم بورطة ثالثة ، وهي القول بأن استنساخ المصاحف في زمن عثمان  
 رضي الله عنه كان إجماعاً من الأمة على ترك الحروف الستة والاقتصار على حرف واحد هو  
 الذي نسخ عثمان المصاحف عليه ، مع أننا أثبتنا لك فيما مرّ بقاء الأحرف السبعة في المصاحف  
 العثمانية حرفاً حرفاً ، ومثلاً لذلك . وقصاري ما استطاعوا أن يسوغوا به مدعيتهم  
 وتورطانهم هذه ، أن الأمة على عهد عثمان رضي الله عنه قد اختلفت في قراءات القرآن  
 إلى حدّ جعلهم يتنازعون ويترامون بتكفير بعضهم بعضاً ، حتى خيبت الفتنة ، فرأى  
 الصحابة بقيادة خليفة م الحكيم عثمان رضي الله عنه أن يعالجوا المشكاة ، ويظفروا  
 الفتنة ، بهذه الطريقة ، من جمع الناس على حرف واحد ، ونسخ المصاحف على حرف  
 واحد ، وإهمال كل ما عداها من الحروف والمصاحف مسوخة عليهم .

وهذا لعمر الله - استدّ ما نزل ، واحتجّ باطل . فقد تنازع الناس على عهد الرسول  
 ﷺ أيضاً في قراءات القرآن على حروف مختلفة ، كما رأيت في الروايات السابقة ، ومع  
 ذلك أقرهم الرسول على هذه الحروف المختلفة ، وقرّرها فيهم ، وحلّم على التسليم بها  
 في أساليب متروكة . وجعل ذلك هو الحلّ الوحيد لمشكلاتهم ، ولعلاج الفاحش لنزاعهم .  
 وأفهمهم أن تعدّد وجوه القراءة إنما هو رحمة من الله بهم ، بل بالأمة كلها . وقرّري  
 صراحة وهو يسأل مولاة المريد من عدد الحروف أن الأمة لا تطيق حصرها في مَصْبِقِ  
 حرف واحد ، وقال : « وإن أمتي لا تطيق ذلك » إلى آخر ما عرفت . وأنت حبير بأن  
 أمة محمد ﷺ باقية إلى يوم القيامة . وهي لا تطيق ذلك كما هو رسولها المعصوم الرحيم  
 صلوات الله وسلامه عليه . كما شاهد نحن الآن من أن بعض الأئمة في بعض الشعوب  
 الإسلامية ، لا يقيسرها أن تحسن النطق ببعض الحروف ولا ببعض اللهجات دون بعض

وكيف يسوع للصحة وهم حير القرون ، أن يُعنفوا ، اب ارحمة والتخفيف الذي فتحه  
الله لأمة الإسلام ، محامين في ذلك هَدَى ارسول عليه الصلاة والسلام في عمله للتخفيف  
بطلب تعدد الحروف ، وعلاجه للزجاج بين المختلفين ، تقرير هذا التعدد للحروف ؟

ألا إن هذه نُفْرَةٌ لا يمكن سدّها ، وثُلْمَةٌ يصعب جبرها ، وإلا فكيف يوافق  
أصحاب رسول الله ﷺ على ضماع ستة حروف زل عليها القرآن ، دون أن يُبْقُوا  
عليها مع أنها لم تنسخ ولم ترفع ؟ وهل حين أن الرسول ﷺ قرّر بقوله وفعله ، أنه  
لا يجوز لأحد أيّ كان ، أن يجمع أحداً أيّ كان ، من القراءة بحرف من السبعة أيّ كان .  
فقد صوّب قراءة كلّ من المسلمين ، وقال لسكرّ « هَكَذَا أُنْزِلَتْ » وضرب في  
صدر أبي بن كعب حين استصحب عليه التسليم بهذا الاختلاف في القراءة . إلى آخر  
ما شرحنا في الشاهدين الثالث والخامس من الشواهد المأصية .

وُقْصَارَى القول ، أمه نَرَى ، أصحاب رسول ﷺ أن يكونوا قد وافقوا أو  
وَكُرُوا ، وصلاً عن أن ينامروا على ضماع أحرف القرآن الستة دون سبع لها . وحاش  
عنان رضى الله عنه أن يكون قد أقدم على ذلك ونزعّمه !

وكيف ينسب إليه هذا ؟ والمعروف أنه سمع المصاحف من المصحف التي جمعت على  
عهد أبي بكر رضى الله عنه قبل أن يدبّ النزاع في أقطار الإسلام بسبب اختلاف حروف  
القراءة في القرآن . فكانت تلك المصحف محتملة للأحرف السبعة جميعاً ، وموافقة لها  
جميعاً ، ضرورة أنه لم يحدث وقتئذ من النزاع والشقاق ما يدعو إلى الاقتصار على حرف  
واحد في رأيهم . ولم يثبت أن الصحابة تركوا من المصحف مجموعة على عهد أبي بكر  
حرفاً واحداً فصلاً عن ستة حروف ولو كان ذلك أميل إلية ، متواتراً ؟ لأنه مما تتوأم  
الدواعي على نقله تواتراً

ثم كيف يفعل عثمان رضى الله عنه ذلك وهو الذي عرف أن علاج ارسول لمثل هذا

النوع الذي دس في رسمه، كان يجمع الناس وتقريرهم على الحروف السبعة، لا عنهم عنها  
كلًا ولا نصًا.

ثم كيف يعمل عنان ذلك، ونوافقه الأمة، واثم الإجماع؟ ثم تكون خلاف في معنى  
الأحرف السبعة مع قيم هذا الإجماع؟ أي كيف تجمع الأمة على ترك ستة أحرف وإبقاء  
حرف واحد ثم يختلف بها في معنى الأحرف السبعة على أن يعين قولًا، وكذا دون يتفقون  
- دعم خلافهم هذا - على أن الأحرف السبعة «قوية» مع أن الإجماع حجة عند المسلمين،  
وبه يحل هلام الشك عن وجهه سبعين ١١

ولنعرض حدًا أن راع المسلمين في أفصار الأرض أيام خلافة عنان رضى الله عنه،  
قصى عليه أن يجمع اسمين على حرف واحد في قراءة، فلهذا لم تسمح نفسه الكريمة  
إبقاء الستة لأحرف بواقية للتاريخ لا للقراءة، مع أن الضرورة تُقَدَّرُ مدراها، وهذه  
استة الأحرف لم تسمح لا بلالوه ولا حكمًا حتى ذهب بحرفه فلو كذلك، ثم سجل عليها  
بانه «للتاريخ وحده في أعظم مرجع، وأقدس كتاب، وهو قرآن الكريم» على حين  
أن راعه رضى الله عنه رضى الله عنهم أجمعين، حفظوا للتاريخ آيات، سجلت بلاونها وسحت  
أحكامها جميعًا وعلى حين أنهم حفظوا آيات شديدة في قرآن، ثم ثقت إيمانهم، وكُتِبَ  
في الخلود إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم - بل هو إيمانهم أحداث مسووحه، وتحاول الدعاء  
أحداث موضوعه، ونصوا على حكم كل منها وعلى إهمال عملها

ثم إن من عرف خمس لصحابة لديهم وأسة منهم في الدفاع عن حتى القرآن يستعد  
كل استعداد، بل يُحِبُّ كل الإحالة أن يكونوا قد فعلوا ذلك، أو أقل من ذلك، عود  
مقرر، هي انشهد سادس من شواهد الدخيلة، وانظر في موقفهم من هشام وموقف  
هشام من عمر، وموقف أبي وابن مسعود وصاحبهم، وثم كيف أن كلًا من هؤلاء  
الصحابة رضى الله عنهم أنى أن يتدن عن قراءة سمعها عن رسول الله ﷺ وعملها

إياه رسول الله ﷺ ثم أقرهم رسول الله ﷺ على استمساكهم بهذا، وحل مشكلتهم بأن أعلمهم أن كل ما منهم مصيب ومحس، وأن قراءة كل منهم هكذا أمرت، وأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، وأن من كثر بحرف منها فقد كثر بها كتاب، وألا يحتلوا في ذلك؛ فقد أهلك الاختلاف من كانوا قبلهم وهذا « قَطَعَتْ حَيْبَرَةُ قَوْلِ كُلِّ حِطْبِ »

(أمر مكال) هو أن هؤلاء الذين شهدوا ذلك يذهب، المترمون أن يقولوا: إن اختلاف القراءات الحاصل اليوم، يرجع كله إلى حرف واحد، وهكذا شاء لهم رأيهم أن يحملوا تلك السكثرة لعلمه القائمة الآن حرفاً واحداً، على ما يذهب من اختلاف في الوجود والأنواع وعلى رسم أن من القراءات الحاصرة ما يكون وجه لاختلاف فيه شيئاً عن وجود العاطف مترادفة في كلمة واحد، ومضى واحد، ومنها ما هو من لغات قذائل محتاجة؛ كنص على ذلك السوطي في النوع التاسع والثلاثين ونقلنا منه شيئاً من موضع آخر من هذا البحث

ولساداتين مادي أيضاً على «أ» الأحرف السبعة جميعاً، هو بناء التبرير والتخفيف وتسهيل الأداء على الأمة الإسلامية الذي هو الحكمة في الأحرف السبعة

فها نحن أولاء لا نرى شاهداً عن طريق قراءات المختلفة القائمة الآن سبيلاً سهلاً قد وسيع كافة الشعوب المسلمة، سواء منها الأمم العربية وغير العربية، والحمد لله على دوام فضله ورحمته، وبناء تجميعه ويسيره وعمر الله لأوثق الأعلام الذين أخطأوا إصابة الرمي، فقد اجتهدوا ولم يجتهدوا أحراً وإن أخصاً، وسأل الله التوفيق والسداد، آمين.

## القول العاشر

أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب ، بمعنى أن القرآن لا يخرج عن سبع لغات من لغات العرب ، وهي لغة قرش ، وهذيل ، وثيب ، وهوازن ، وكنانة ، وتميم ، واليمن ، وهي أصح لغات العرب . قال بعضهم : هذا أصح الأقوال وأولها بالصواب ، وهو الذي عليه أكثر العلماء ، وصححه البيهقي ، واحتاره الأبهري ، واقتصر عليه صاحب القاموس .

وقال أبو عبيد : « ليس المراد أن كل كلمة تُقرأ على سبع لغات ، بل اللغات السبع مفرقة فيه ، فبعضه لغة قرش ، وبعضه لغة هذيل ، وبعضه لغة هوازن ، وبعضه لغة اليمن وغيرهم . قال : وبعض اللغات أسمى من بعض وأكثر تعديلاً » وقيل في مد القبايل السبع آراء أخر .

وبدفع هذا القول على جميع آرائه بأمري : ( أحدهم ) أن في القرآن الكريم ألفاظاً كثيرة من لغات قبائل أخرى غير السبعة التي عدوها .

مثل كلمة « سَامِدُونَ » في قوله تعالى : « وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ » فإياها بالخيرية . ومثل كلمة « خِرَاء » في قوله : « إِنْ أَرَادِيَ أُعْصِرُ خِرَاءً » فإياها لغة أهل نجران لأنهم يسمون اسم خِرَاء ( أي حقيقة لا خِرَاء ) . ومثل كلمة « تَعْلًا » في قوله تعالى : « أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَعْلًا » أي رَبًّا لعل أَرْضَ شِعْوَةَ . ومثل كلمة « لَا يَلَيْتُكُمْ » أي لآلة صكم في قوله تعالى : « لَا يَلَيْتُكُمْ مِنْ أَنْفَارِكُمْ شَيْءٌ » فيها لغة بني عَسْر . ومثل كلمة « قِبَاءُوا » بمعنى احتوحدوا في قوله تعالى : « قِبَاءُوا بِصَبْرٍ مِنَ اللَّهِ » فيها لغة خُرْهُم ومثل كلمة « رَفَث » بمعنى حراع في قوله تعالى : « فَلَا رَفَثَ » فيها لغة مذحج . ومثل كلمة « تَسْمُونَ » بمعنى تَرْغُونَ في قوله تعالى : « بِهِ تَسْمُونَ » فيها لغة حَضَم ، إلى



غير ذلك وارجع إلى النوع السابع والثلاثين من إقتبس السيوطي إن أردت المزيد

وحديث في هذا مقام ما نقله الواسطي في كتابه الذي وضعه في الإقراءات العشر  
إذ يقول : « إن في القرآن من أربعين لغة عربية وهي قرش ، وهذيل ، وكنداه ،  
وحثم ، والخرزج ، وأشعر ، وتبر ، وقيس بن عيلان ، وجُرهم ، واليمن ، وأردشيرة ،  
وكندة ، ونعيم ، وخمير ، ومذني ، وأخم ، وسعد المشيرة ، وحضر موت ، وسدوس  
والهائلة ، وأمار ، رَغَسان ، ومذحيج ، وخراعة ، وعطفان ، وسبأ ، وعُمان ، وبنو حنيفة  
والمطلب ، وحلي ، وعامر بن صعصعة ، وأوس ، ومزينة ، وثقيف ، وحذام ، وبلي ،  
وعذرة ، وهوازن ، والنير ، والجماعة » . هـ .

ولا ينبغي عن بالك أن هذه اللغات كلها تمثلت في لغة قرش باعتبار أن لغة قرش  
كانت المترجمة لها ، ومهمة عليها ، ولأخذة منها ما شاء ، في تحملوها ويرق في ذوقهم ، ثم  
يأخذ الجميع عنها ، حتى صبح أن يعتبر ابن قرش هو اللسان العربي العام ، وبه نزل  
القرآن ، هي ما سبق بيانه ، فلا تغفل . والله تعالى هُداة أجهين .

( ثانيهما ) أن نوحيه هذا المذهب بما قاله أبو عبيد ، يقتضي أن يكون القرآن أمصاً ،  
منه ما هو بلغة قرش ، ومنه ما هو بلغة هذيل ، وهكذا . ولا شك أن ذلك غير محقق  
لحكمة التيسير المصولة للشارع الحكيم في نزول القرآن على سبعة أحرف ، فإن هذا المذهب  
يستلزم أن كل شخص لا يمكنه أن يقرأ إلا لبعض الذي نزل بلغته ، دون البعض الذي نزل  
بلغة غيره . وهذا باطل من ناحية ، ويخالف للاختلاف الذي صورته لنا الروايات الثابتة  
بين الصحابة في القراءة من ناحية أخرى فإن المفروء فيها كان واحداً لا محالة ، كسوره  
الفرقان بين عمر وهشام وسوره من آل حم بين ابن مسعود وصاحبه ، وقد صوّك  
الرسول ﷺ قراءه كل من الخنساء ، وكلاهما قرشي .

## القول الحادى عشر

أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات قبائل مصر خاصة ، وأنها متفرقة في القرآن . وأن تلك القبائل السبع هي : قريش ، وكنانة ، وأسد ، وهذيل ، وتميم ، وضيبة ، وقيس .

وردد هذا بما رددناه سابقه ، بل هذا أدى إلى البطلان ، لأنه أحسن مما قبله الذى دحضناه من جهة خصوصه ، فكيف هذا ؟ تلك ناحية . ونجاة ناحية أخرى : وهي أن في قبائل مصر شواذ يمزجها القرآن الكريم مثل كَشَشَ كَشَّةً قَيْسَرٌ ، وهي جعل كاف المؤنث شيئاً ، فيقولون في قوله تعالى : « قَدْ جَمَلَ رَسُولُكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا » قد جَمَلَ رَأْسِي تَحْتِكَ سَرِيًّا ، ومثل كَشَشَ تميم الذين يجعلون السين تاء فيقولون في الناس « الناس » مع أن هذه لغات لم يُحفظ منها شيء في القرآن الكريم .

## القول الثانى عشر إلى الأربعين

أن المراد بالأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، سبعة أصناف في القرآن ، وأصناف هذه الأقوال يختلفون في تعيين هذه الأصناف . وفي أسلوب التعبير عنها إلى آراء تكل بها المدة أربعين قولاً .

فمنهم من يقول : إنها أمر ، ونهى ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومثابه ، وأمثال .

ومنهم من يقول : إنها وعد ، وعيد ، وحلال ، وحرام ، ومواظ ، وأمثال ، واحتجاج .

ومنهم من يقول : إنها محكم ومثابه ، وناسخ ، ومنسوخ ، وخصوص وعموم ، وقصر

ومهم من يقول : إنها لمعظم عام أريد به العام ، ولمعظم خاص أريد به الخاص ، ولمعظم عام أريد به الخاص ، ولمعظم خاص أريد به العام ، ولمعظم يستعمل بتعريفه عن تأويله ، ولمعظم لا يعلم فقهه إلا العلماء ، ولمعظم لا يعلم معناه إلا الراسخون في العلم ، ومنهم من يقول : إنها إظهار إربوبية ، وإثبات الموحداية ، وتعظيم الألوهية ، والتمجيد لله ، ومجاهدة الإشرار ، والترهيب في الثواب ، والترهيب من العقاب . ومنهم من يقول : إنها المطلق ، والمقيد ، والعام ، والخاص ، والاصح ، والافضل ، والناسخ ، والمنسوخ ، والاستثناء ، وأقسامه . ومنهم من يقول : إنها الحذف ، والصلة ، والتقديم ، والتأخير ، والاستعارة ، والتكرار ، والسكناية ، والحقيقة ، والمجاز ، والمحمل ، والمفسر ، والمظاهر ، والغريب . ومنهم من يقول سوى ذلك كله ، غير أنها من هذا الطراز أو بين طراز ما سبق في الأقوال ، الأخرى ، حتى أكمل بها بعضهم مدّة الأقوال أربعين قولاً .

## ١٠ — ردود إجمالية لهذه الأقوال الأخيرة

والكل مردود ردّاً إجمالياً بما يأتي :

( أولاً ) أن سياق الأحاديث السابقة ، لا ينطبق على هذه الأقوال بحال ، فإن هذه الأوصاف التي مئینوها ، لا يفتأ الاختلاف فيها بسبب القراءة . والاختلاف الذي نقتضيه الروايات السابقة تدلّ تلك الروايات نفسها على أنه ما كان إلا بسبب القراءة ، فتعين أن يكون مرجعه التعلّط وكيفية المطلق ، لا تلك الأوصاف والأشعار التي سردها في معرض الآراء . نظر الشاهد انقائهم من شواهدنا المأصية إن شئت .

( ثانياً ) أنه لا يوجد هم سند صحيح يدلّ على حصر الأحرف السبعة التي رتل عليها القرآن فيما يتّوه . وما يكون ما أن نقل رأياً غير مدلل ولا مؤيد بحجة .

( ثالثاً ) أن التوسمة الملعوظة للشرع الرحيم في رسول الله ﷺ على الأحرف السبعة ، لا تتحقق فيما ذكره من تلك الأصناف والأنواع .

( رابعاً ) أن بعض تلك الآراء ملاحظ علم أنها رادت على السبعة فيما ذكره من الأصناف والأنواع ، إما أن تكون أخطاء في العدد من أول الأمر ، وإما أن تكون متأثرة بذكره أن بعض السبعة كدبة لا حقيقة ، وقد علمت فيما سبق ما فيه من خطأ أيضاً .  
راجع الشاهد الثاني من شواهدنا الآتية إن أردت .

( خامساً ) أن أكثر ما ذكره في تلك الآراء والأصناف ، يتدخل بعضه في بعض ، ويشبه بعضه بعضاً ، فمن المنعسر اعتقادها أقوالاً مستعلة

مثل السيوطي عن الشرف الرضي أنه قال : هذه الوجوه أكثرها متداخلة ولا أدري مستندها ، ولا عن نفقات ؟ ولا أدري لم حص كل واحد منهم هذه الأحرف لسبعة مما ذكره مع أنها كلها موحودة في القرآن ، فلا أدري معنى لتخصيص بعضها بأشياء لا أهم معانها على الحقيقة . وأكثرها معارض لحديث عمر وهشام بن حكيم الذي في الصحيح بإسناد لم يختلفا في تفسيره ولا أحكامه ، وإما احتجته في قراءة حروفه . وقد ظل كثير من العوام أن المراد بها القراءات السبع ، وهو جهل قبيح » اهـ

## ١١ - علاج الشبهات الواردة

### على أصل الموضوع

أعداء الإسلام في كثرة وشايط وبقطة ، وبين المسلمين حملة يؤدون الإسلام والأمة بأشد مما يؤديه أعداؤه ، على حد قول القائل .

« لا ينفعُ الأعداء من جاهل ما يبلغُ الجاهل من نفسه »

وقد يرى ونسب اتهامات وشبهات ، مرة من هنا ، ومرة من هناك ، فمن واجب  
الإمامة في أعيننا ، أن سدّد ظلمات هذه الشبهات والنسب ، بما بين أيدينا من أدوار  
العلم وأصلحة المحجج . « وَلِلّٰهِ نَقُولُ كَلْفٌ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ » .

( الشبهة الأولى ) يقولون : إن أحاديث رسول القرآن على سبعة أحرف تثبت  
الاختلاف في القرآن ، مع أن القرآن نفسه يرفع الاختلاف عن نفسه ، إذ يقول :  
« أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا  
كَثِيرًا » وذلك تناقض ، ولا ندري أيهما يكون الصادق .

والجواب : أن الاختلاف الذي تثبته تلك الأحاديث ، غير الاختلاف الذي يفهمه  
القرآن . وهذا كافٍ في دفع التناقض ، فكلاهما صادق . وبهذا ذلك أن لأحاديث الشريفة  
تثبت الاختلاف بمعنى التنوع في طرق أداء القرآن والنطق بألفاظه في دائرة محدودة لا تعدو  
سبعة أحرف ، وبشرط التلقي فيها كلها عن النبي ﷺ .

أما القرآن فيمنى الاختلاف بمعنى التناقض والتدافع بين معاني القرآن وتعاليمه ،  
مع ثبوت التنوع في وجوه النطق والأداء السابق .

ومعنى ذلك أن نزول القرآن على سبعة أحرف ، لا يبرم منه تناقض ولا تعاذل ولا  
تصاد ولا تدافع بين مدلولات القرآن ومعانيه ، وتعاليمه ومراميها ، أمضاها مع بعض ، بل  
القرآن كله سلسلة واحدة ، مقصلة الحلقات ، بحكمة السور والآيات ، متآخدة المبادئ  
والفائات ، منها تعددت طرق قراءته ، ومنها تنوعت فنون أدائه .

وللمحقق ابن الجزري كلام نفيس يتصل بهذا الموضوع فنقل إليك شيئاً منه متبيل  
من التقصير ، إذ يقول : « قد تدبرنا اختلاف القراءات ، فوجدناه لا يحلو من ثلاثة  
أحوال : أحدها اختلاف اللفظ لا المعنى . انشأنا اختلافهما جميعاً مع حوار اجتماعهما في  
شيء واحد . انشأنا اختلافهما جميعاً مع امتناع حوار اجتماعهما في شيء واحد ، لكن  
يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التصادق »

وَمَا الْأَوَّلُ فَكَلاختلاف في ألقاظ « الصراط » ، وعليهم ، و يُؤْذَنُ ، ولقدس  
ويجس ، ، ونحو ذلك مما يطلق عليه أنه مات فقط . وأما إثبات وجوه « مالك  
ومالك » في الفاتحة ، لأن المراد في لقراءتين هـ — والله تعالى ، لأنه مالك يوم الدين  
وملكه . وكذا بشره بالزنى وبشره بالراء ، لأن المراد بهما هو العظم . وذلك  
أن الله تعالى أشرها أي أجهها ، وأشره أي رفع مصها إلى بعض ، حتى التأملت ،  
فصم الله المعيين في لقراءتين وأما الثالث ونحو قوله تعالى : « وَظَنُّوا أَنَّهُم قَدْ كَذَّبُوا »  
قرئ : بالتشديد والتخفيف في لفظ « كذبوا » ليسى للمجهول . وأما وجه التشديد ، ودعى :  
وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوا بهم . وأما وجه التخفيف ، فالعنى : ويوم المرسل إليهم  
أن يرسل قد كذبوا هم ( أي كذبوا عليهم ) فيما أخبرهم به . فاضر في الأولى يقين ،  
والصائر الثلاثة المرسل . والظن في لقراءة الثانية شك . والصائر الثلاثة المرسل إليهم  
ومن هذا القبيل قوله تعالى : « وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ أَنْتَرُونَ مِنْهُ الْحَبْلُ » فتج  
اللام الأولى ورفع الأخرى في كلمة « لنرون » ، ونكسر لأولى وفتح الثانية فيها أنصا  
فأما وجه فتح الأولى ورفع الثانية من « لنرون » فهو أن تكون كلمة « إن » محذوفة من  
التقبيلة ، أي وإن مكروهم كامل الشدة نقيض لسانه الخيال لراسيات من مواضعها . وفي  
القراءة الثانية « إن » هدية أي ما كان مكروهم وإن عاظم وعاقم ليرول منه أمر محمد  
ﷺ ودين الإسلام في الأولى تكون إحدى حقيقة ، وفي الثانية تكون محراً .  
ثم قال أيضاً « فليس في شيء من أمران سوف ولا نصدا ولا ساتن » وكل ما صح  
عن النبي ﷺ من ذلك ، فقد وحى بقوله ، ولم يسمع أحداً من الأمة رذاه ، ورم الإيم  
به وأه كنه من عند الله ، إذ كل قراءة منها مع الأخرى عملة الآية مع الآية ،  
يجب الإيمان بها كلها ، وإسباغ ما تضمنته عملاً وعملاً ، ولا يجوز ترك موحد إحداهما  
لأجل الأخرى غلطاً أن هذا تعارض « ١ » .  
إلى ذلك أشار عند الله بن مسعود رضي الله عنه بقوله : « لا تختلفوا في القرآن ،

ولا تارعوا فيه ، فإنه لا يحتلف ولا ينافى : ألا ترون أن شريعة الإسلام واحدة حدودها وقراءتها ، وأمر الله فيها واحد لو كان من الحرفين حرف بأمر شيء وبشيء عنه الآخر ، كان ذلك الاختلاف . ولكنه جامع ذلك كله . ومن قرأ قراءة فلا يدعيها رعية عنها ، فإنه من كفر بحرف منه كفر به كله « ١٤ » .

( الشبهة الثانية ) :

يقولون : إن هذا الاختلاف في القراءات ، يوقع في شك وراب من القرآن خصوصاً إذا لاحظنا في بعض الروايات معنى تخيير الشخص أن يأتي من عدة باللفظ وما يراد به ؛ أو باللفظ وما لا يصاد به المعنى ، كحديث أبي بكر ، « كذبت أبا بكر ، وفيه » كلها شاف كاف ، ما لم تحم آية عذاب رجلاً ، أو آية رجلة عذاب ، بحرفين : فقال ، وأقبل ، وهلم ، وادهب ، وأسرع ، وعجل » جاء بهذا اللفظ من رواية أحمد بن حنبل ، ومثله حديث أبي زرعة ، وأكثرت ذلك ما جاء في فضائل أبي عبيد الله بن مسعود أقروا رجلاً « إن شجرة الزقوم طعام الأليم » فقال الرجل « طعام لبيتم » فذها عليه ، فلم يستقم بها لسانه فقال « أتستطيع أن تقول طعام العاقر قال : نعم . قال : فاقبل « ١٥ » .

والجواب : أن اختلاف القراءات لا يوقع في شك ولا ريب ما دام الكل بارئاً من عند الله . وأما هذه الروايات التي اعتمدت عليها الشبهة ؛ فلا تسلم أنه يفهم منها معنى تخيير الشخص أن يأتي من تلقاء نفسه باللفظ وما يراد به ، أو باللفظ وما لا يصاد به المعنى ، حتى يوقع ذلك في ريب من هذا التبريل . بن قصارى ما ندل عليه هذه الروايات أن الله تعالى وسع على عباده ، خصوصاً في مبدأ عهدهم الفصحى ، أن يقرءوا القرآن بما تولى به ألسنتهم وكان من جملة هذه التوسعة القراءات المتعددة من اللفظ الواحد للمعنى الواحد ، مع ملاحظة أن الجميع بارئ من عند الله ، بل به الروح الأمين ، على قلب محمد ﷺ ،

وقرأه الرسول على الناس على مكث ، ومعه منه ، ثم مسح الله ما شاء أن يمسح بعد ذلك ، وأبقى ما أبقى ، بحكمة سامية تستغلك في محض مسح

يدل على أن الجميع رزق من عند الله تعالى قوله ﷺ لكل من اشتد عين المحتدين في القراءة من أصحابه . « هَكَذَا أُتِرْتُمْ » ، وقول كل من المحتدين لصاحبه : « أقرأنيها رسول الله ﷺ » ؟ وقول الله تعالى لرسوله جواباً لمن سأله تبدل القرآن : « قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْكَ آيَاتِي ، إِنْ أُبَدِّلُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ، وَإِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ » وليس بعد كلام الله ورسوله كلام . كذلك أجمعت الأمة على أنه لا مدخل لبشر في نظم هذا القرآن لا من ناحية أسلوبه ، ولا من ناحية ألفاظه ، بل ولا من ناحية قانون أدائه ، فمن يخرج على هذا الإجماع ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، يؤلفه الله ما تولى ويصله بهم وساءت مصيراً .

وها نحن أولاء قد رأينا القرآن في تلك الآية يمنع الرسول من محاولة ذلك منعاً باتاً مشفوعاً بأوعيد الشديد ، ومصحوباً بالعقاب الأليم . فما يكون لابن مسعود ، ولا لأكثر من ابن مسعود . بعد هذا - أن تبدل لفظاً من ألفاظ القرآن بلفظ من تلقاء نفسه . أنظر ما قرره في الشاهدين : الرابع والسابع من هذا البحث .

أما هذه الرواية المنسوبة إلى ابن مسعود من أنه أقرأ الرجل بكلمة « العاجر » بدلا من كلمة « الأيم » في قول الله تعالى « إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامٌ لِلْأَيْمِ » فتدل على أن ابن مسعود سمع روايتين عن رسول الله ﷺ . ولما رأى الرجل قد تمسر عليه الطلق بالأولى ، أشار عليه أن يقرأ « ثمانية » ، وكلامه « رزق من عند الله

وكذلك حديث أبي نكرة السابق . لا يدل على حوار سديد لشخص ما شاء من قرآن بما لا صاذه ، كإعصام الوهم ، إنما ذلك حدث وأشبهه ، من مثل الأمثال التي بصرها الرسول ﷺ للحروف التي مر عليها القرآن ، يبيد أن تلك الحروف



على اختلافها ، هي إلا أوضاع متوافقة مع هيمها ، متساندة مع بعضها لا تتجادل بينها ولا تنهات ، ولا تصد ولا تناقص ، ليس فيها معنى يحذف معنى آخر على وجه ينفيه ويناقضه ، كالرجحة التي هي خلاف العذاب وصدّها . وتلك الأحاديث بهذا الوجه ، تقرير لأن جميع الحروف نازلة من عند الله ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ بَرٍّ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا .

وهناك برهان آخر ذكره صاحب التبيين في مثل هذا المقام إذ يقول : « إن النبي ﷺ سلم البراء بن عازب دُعاء فيه هذه الكلمة : وَنَبِيِّكَ الَّذِي أُرْسِلْتُ » فلما أراد البراء أن يمرض ذلك الدعاء على رسول الله ﷺ قال : « وَرَسُولِكَ الَّذِي أُرْسِلْتُ » فلم يوافقه النبي ﷺ على ذلك ، بل قال له : « لا . وَنَبِيِّكَ الَّذِي أُرْسِلْتُ » . وهكذا نهاه عليه الصلاة والسلام أن يصح لفظة رسول ، موضع لفظة نبي ، مع أن كليهما حق لا يحيل معنى ، إذ هو ﷺ رسول ونبي معاً . ثم قال : فكيف يسوغ للعهد مقلان أن يقولوا : إنه عليه الصلاة والسلام كان يميز أن يوضع في القرآن الكريم مكان عزز حكيم ، غفور رحيم ، أو سميع عليم وهو يجمع من ذلك في دعاء ليس فرأى ، والله يقول مخبراً عن نبيه ﷺ « مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدُلَهُ مِنْ لِقَاءِ نَبِيِّ » ولا تبدل أكثر من وضع كلمة مكان أخرى ، اه بتصرف قليل .

( الشبهة الثانية ) :

يقولون : إن رسول القرآن على سبعة أحرف ، هي في ما هو مفرد من أن القرآن يزل لغة قريش وحدها ، ثم إنه يؤدي إلى صيغ الوحدة التي يجب أن تسود الأمة الواحدة بسبب اجتماعها على لسان واحد .

والجواب : أنه لا منافاة ، ولا صياح للوحدة ، فإن انوحوه السبعة التي يزلها القرآن الكريم واقعة كلها في لغة قريش ذلك أن قرشا كانوا قبل من ط الوحي والقمر بل ،

قد داوروا بينهم لغات العرب جميعاً وتداولوها ، وأحدوا ما استتمحوه من هؤلاء وهؤلاء في الأسواق العربية ومواسمها ووقائعها ، وحضها وعمرتها ثم استعملوه وأدعوه ، بعد أن هدبوه وصقوه . وهذا كانت لغة قريش مجمع لغات مختارة متفارقة من بين لغات انقراض كائنة . وكان هذا سبباً من أسباب انتهاء الزعامة إليهم ، واحتجاج أوزاع العرب عليهم .

ومن هنا شاعت حكمة الحكيم العليم أن يقطع عليهم القرآن من هذا الألف ، وأن يطلع عليهم من هذه السماء سماء قريش ولغتها التي أعطوها مقاديرهم ، وولوا شطرها وحوهم ، فحاطهم بهذا اللسان العام لهم ، ليصمّ نثرهم ، ولينظم نثرهم . وقد تمّ لهم ما أراد هذه سياسة الرشيدة التي حادتهم بالإعجاز النياتي عن طريق اللغة التي انتهت إليها أفصح اللغات ، وباللسان الذي حصنت له وتمثلت فيه كافة الألسنة العربية . \*

ولو نزل القرآن عبر لغة قريش هذه لكان مثار مشاحات وعصيات ، ولذهب أهل كل قبيلة بلغتهم ولغلاً بمعهم على نهجهم ، ولما اجتمع عليه العرب أبداً . بل لو نزل القرآن عبر لغة قريش لو احتشمتهم وافتروهم عليه أنه سحر وكهانة وما إليها ، نظراً إلى أنه قد دخل عليهم من غير باهم فلا يستطيعون القضاء فيه ، ولا إدراك المواضع البعيدة منه وبين الحديث السوي ، مما يحلهم يدوقون الإعجاز ويلسونه ، كما تدوقوه بوصوح حين نزل بلغاتهم . « إِنْ رَأَيْتَ لَطِيفٌ لِحَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » .

( الشبهة الرابعة ) :

يقولون : إنه لا معنى للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن إلا تلك القراءات اسمع المنقولة عن الأئمة السبعة المعروفين عند القراء .

والجواب : أن هذه شبهة تعرض كثيراً للغة ومضى حكمهم عن لمأخذوا من علوم

القرآن والحديث محظّر ولا يصيب .. فإن ذلك المعنى الذي رجموه عسيرٌ صحيح من وجهين :

( أحدهما ) أن الأحرف التي برز بها القرآن ، أعمُّ من تلك القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة القراء عمومًا مطلقًا ، وأن هذه القراءات أخصُّ من تلك الأحرف السبعة النازلة خصوصًا مطلقًا . ذلك لأن الوحي الذي أنزل الله عليها كتابه ، تنظم كل وجه قرأ به النبي ﷺ ، وأقرأه أصحابه ، وذلك ينظم القراءات السبع المنسوبة إلى هؤلاء الأئمة السبعة القراء ، كما ينظم ما فوقها إلى العشرة ، وما بعد العشرة ، وما كان قرآنًا ثم نسخ ولم يصل إلى هؤلاء القراء جميعًا ، ولهذا نصوا في المذهب المختار على أنه يشمل كل وجوه القراءات صحيحها وشاذها ومنكرها كما سبق .

( ثانيهما ) : أن السبعة لم يكونوا قد خلقوا ، ولا وجدوا حين نطق الرسول ﷺ بهذا الحديث الشريف . وعلم أن يرضى الرسول على نفسه وعلى أصحابه ألا يقرءوا بهذه الأحرف السبعة الدالة إلا إذا علموا أن هؤلاء القراء السبعة قد اختاروا القراءة بها ، على حين أن بين المهديين خمسة قرون ، وعلى حين أن هؤلاء القراء وسواهم إنما أخذوا عن النبي ﷺ من طريق أصحابه ومن أخذ عنهم إلى أن وصلوا إليهم . فهذه الشبهة تستلزم الدور الباطل فهي باطلة

ونستلزم أيضًا أن يبقى قول الرسول ﷺ « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » عارًا عن العائدة ، غير ناوذاً لآخر ، حتى يولد القراء السبعة المعروفون وتوحد لقراءتهم . وذلك باطل أيضًا . فكذلك الواقع من قراءة النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وقراءة أصحابه وتابعيه بالأحرف السبعة من قبل أن يولد القراء السبعة المعروفون .

قال المحقق ابن الحرى : « هو كان الخطيب مصرفاً إلى قراءات السبعة المشهورين أو سبعة غيرهم من القراء الذين ولدوا بعد التامين ، لأدّى ذلك إلى أن يكون الخرج عارياً عن العائدة إلى أن يولد هؤلاء السبعة ، فتوحد عنهم القراءة ، وأدّى أيضاً إلى أنه لا يجوز لأحد من الصحابة أن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء قد ولدوا وتعلموا احتاروا انقراة به . وهذا باطل ؟ إذ طريق أحد القراء أن توحد عن إمام ثقة ، لهطاً عن لهط ، إماماً عن إمام . إلى أن تتصل بالسنة » ١٠

## المبحث السابع

### في المكي والمدني من القرآن الكريم

ليس من عرصنا في هذا المبحث أن نستقصي الاستقصيل والتدليل آيات القرآن الكريم وسوره . وأن نحقق ما كان منها مكيّاً وما كان مدنيّاً ، فتلك محاولة كبيرة جديدة أن نورد بالتأليف ، وقد أوردناها أولاً بالتأليف جماعة ، منهم مكّي والبر الداربي .

وسكن حسدهما أن يتكلم على الاصطلاحات في معنى لمكي ومدني ، وعلى فائدة العلم بالمكي والمدني ، وعلى الطريق لموصلة إليه ، وعلى الصوائت التي أحرف بها ، وعلى السور المكية والمدنية والمختلف فيها ، وعلى أنواع السور المكية والمدنية ، وعلى أوجه تنوع المكي والمدني ، وعلى فروق أخرى بين المكي والمدني صعب من بعضها عطف في القرآن ، وعلى دفع تلك المطاعن بعضها

## ١ - الاصطلاحات في معنى المكي والمدني

العلماء في معنى المكي ومدني ثلاثة اصطلاحات :

( الأول ) أن لمكي ما رل مكة ولو بعد الهجرة ، والمدني ما رل بالمدينة . ويدخل في مكة صواحيبها كالبرن على النبي ﷺ بمي وعرفات وأخذ مذبة . ويدخل في لمدينة صواحيبها أيضاً كالبرن عليه في بدر وأحد . وهذا التقسيم أوط فيه مكان لبرول كاتري . لكن يرد عليه أنه غير صابط ولا حصر ، لأنه لا يشمل ما رن بغير مكة والمدينة وصواحيبها كقوله سبحانه في سورة لقوة : « وَكَانَ عَرَصًا قَرِيبًا وَسَمَرًا فَاصِيدُوا لَأَسْئُوكَ » الخ فيها برت ينسوء ، وقوله سبحانه في سورة لرحرف : « وَتَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا » الخ فيها برت سبت القدس ليلة الإسراء . ولا ريب أن عدم لصبط في لتقسيم يترك واسطة لا تدخل فيما نذكر من الأقسام ، وذلك عيئ يحل بالمقصود الأول من التقسيم ، وهو الصبط والحصر .

( الاصطلاح الثاني ) أن لمكي ما وقع خطاً لأهل مكة ، ومدني ما وقع خطاً لأهل المدينة . وعليه يحمل قول من قال : إن ما صدر في القرآن بلفظ « نَبِيَّهَا آدَمُ » هو مكّي ؛ وما صدر فيه بلفظ « نَبِيَّهَا آدَمُ » هو مدني ، لأن الكدر كان عالماً على أهل مكة فخطوطوا نبيها لناس ، وإن كان غيرهم داخلين فيه . ولأن لإد كان عالماً على أهل المدينة ، فخطوطوا نبيها الذين آمنوا ، وإن كان غيرهم داخلين فيه أيضاً . وأنحق مصمم صيغه بابي آدم بصيغة نبيها الناس . أخرج أبو عبيد في وسائل القرآن عن ميمون ابن مهران قال : « ما كان في القرآن نبيها الناس ، أو يا بني آدم ، فإنه مكّي ، وما كان نبيها الذين آمنوا ، فإنه مدني » .

وهذا التقسيم لو حط فيه المعاطون كما ترى، لكن يرد عليه أمران: أحدهما ما ورد على سابقه من أنه غير صاطر ولا حاصر، بل في القرآن ما من غير مصدر أخذ من قوله سبحانه في فاتحة سورة الأحزاب « تَأْتِيهِمْ نَفَسٌ مِنْ رَبِّهِمْ لَئِنْ كَانُوا هُمْ يَصْطِرُّونَ » وأما « نَفَسٌ » النج، ونحو قوله سبحانه في فاتحة سورة المؤمن « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا » وقول « قَبُولُ تَأْتِيهِمْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ رُشُودٌ » الآية.

(١) منهم أن هذا التقسيم غير مطرد في جميع مواضع النصيبين المذكورتين، بل إن هذا آيات مدنية صدرت نصيبه « يَأْتِيهَا » س، وهما آيات مكية صدرت نصيبه « تَأْتِيهَا » ر أمورا، مثال الأولى سورة « تَأْتِيهَا » مدنية وأو « تَأْتِيهَا » أنفسكم، وكذلك سورة لقمة مدنية وفي « تَأْتِيهَا » أنفسكم وعزم « تَأْتِيهَا » أنفسكم مع أن في أو حره « تَأْتِيهَا » أنفسكم أمورا أنفسكم وسجدة « سجدة »

قال بعضهم: « هذا القول إن أخذ على إطلاقه ففيه نظر، فإن سورة لقمة مدنية وفيها « تَأْتِيهَا » أنفسكم غمداً وأنفسكم » أي آية ما ذكره أممك غير أنه قال أحير ما نصه « فإن أراد أن له سب كذلك فصحيح ».

أقول: ولكن صحة الكلام في ذاته لا تسوء صحة التقسيم، وإن من شأن التقسيم أن يكون صاطراً، وأن يكون مطرداً، وفيه العلة المراد، لا يفتق الصطو والمصر وإن حق الاطراد، فيبقى التقسيم معيماً على أسهم فالوا سراد لا يفتق الإراد (الاصطلاح ثلث) وهو مشهور أن سكي ما من قبل حمرته <sup>بفتح</sup> إلى المدنية، وإن كان روله غير مكة، ولدى ما برل هذه الحجرة، وإن كان روه مكة.

وهذا التقسيم كما ترى لو حط فيه من مبرور، وهو تقسيم صحيح سليم، لأنه صاطر حاصر ومطرد لا يختلف، بخلاف مدنية، وذلك اعتمده العلماء واشتهر بينهم وعليه الآية « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضْتُ لَكُمْ »

الْإِسْلَامَ دِينًا» مدينة، مع أنها مرتتبة يوم الجمعة معرفة في حجة الوداع . وكذلك آية «إِنَّ اللَّهَ تَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأُمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا» فإنها مدينة مع أنها مرتتبة مكة في حوف السكينة عام الفتح الأعظم . وقل مثل ذلك فيما رل بأسفاره عليه الصلاة والسلام كما تاتح سورة الأنفال وقد نزلت بمكة ، فإنها مدينة لا مكبة على هذا الاصطلاح المشهور .

## ٢ — فائدة العلم بالمكي والمدني

من فوائد العلم بالمكي والمدني تمييزُ الماسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيات أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد ، وكان الحكم في إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مصادماً للحكم في غيرها ، ثم عُرِف أن بعضها مكي وبعضها مدني ، وإنما يحكم بأن مدني منها فاسخ للمكي نظراً إلى تأخر المدني عن المكي .

ومن فوائده أيضاً معرفة تاريخ التشريع وتدرجه في الحكم بوجه عام ، وذلك بترتيب عليه الإيمان باسم السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد . وميزة تلك في هذا البحث فروق بين مكي والمدني تلاحظ فيها خلال هذه الحكمة .

ومن فوائده أيضاً الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالم من التغير والتعريف . وسهل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام حتى ليعرفوا ويشاققوا ما نزل منه قبل المحترمة وما رل بعدها ، وما رل بالحضر وما رل بالسر ، وما رل بالهجر وما رل بالليل ، وما رل بالشتاء وما رل بالصيف ، وما رل بالأرض وما رل بالسما ، إلى غير ذلك فلا يقل بعد هذا أن يكتوا ويتركوا أحداً يمتد ويثبت به ، وهم المتحمسون لحراسته وحايته والإحاطة بكل ما تقصل به أو ينحرف به إلى هذا الحد !

### ٣ الطريق الموصلة إلى معرفة المسكى والمدنى

لا سبيل إلى معرفة المسكى والمدنى إلا ما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك ؛ لأنه لم يرد من أنبي عليهم السلام بيان للمسكى والمدنى وذلك لأن المهدين في زمانه لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان ، كيف وهم يشاهدون الوحي والتنزيل ، ويشهدون مكانه وزمانه وأسباب نزوله عياناً . « وليس بعد العيان بيان » .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « والله الذي لا إله غيره ، ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟ ولما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فمِمَّ نزلت ؟ ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبتلعه الإبل لركبته إليه » . وقال أيوب : سألت رجلاً عكرمة عن آية من القرآن فقال : « نزلت في سفح ذلك الجبل » وأشار إلى سطحه .

ولعل هذا التعجيب الذي ذكرته أولى مما ذكره القاضي أبو بكر في الاختصار ، إذ يقول ما نصه : « ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك قول ، لأنه لم يأمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ النسخ والنسوخ ، فقد يعرف ذلك بفهم نص الرسول » .

### ٤ - الضوابط التي يعرف بها

#### المسكى والمدنى

قد عرفنا فيما مضى أن مراد العلم بالمسكى والمدنى هو السماع عن طريق الصحابة والتابعين ، بيد أن هناك علامات وصوابط يعرف بها المسكى والمدنى . وهما صواب المسكى

١ - كل سورة فيها مقط « كلاً » فهي مسكية وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن ثلاثاً



٢٢ وثلاثين مرة ، في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير من القرآن . قال الدرسي رحمه الله :

« وَمَا بَرَأْتُ كُلًّا بِتَنَزُّلٍ فَأَعْلَمْتُ أَنَّمَا تَنَزَّلَتْ فِي آخِرِ الْقُرْآنِ فِي بَعْضِهِ تِلْكَ عَلَى »  
قال العماد : « وحكمة ذلك أن نصف القرآن الأخير من أكثره عكة ،  
وأكثرها جبارة ، فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم ولإلنكار إليهم  
بجلاف النصف الأول . وما نزل منه في اليهود لم يحتاج إلى إيرادها فيه لذلالتهم  
وضعفهم » اهـ .

٢ - كل سورة فيها سبعة فهي مكية لا مدنية .  
٣ - كل سورة في أولها حروف التمهيد فهي مكية سوى سورة البقرة وآل عمران  
فإنهما مدينتان بالإجماع . وفي العدد خلاف .

٤ - كل سورة فيها قصص لأنبيا . والأهم السابقة فهي مكية سوى البقرة .  
٥ - كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة أيضا .  
٦ - كل سورة فيها بأيها الناس وليس فيها يا أيها الذين آمنوا فهي مكية ، ولكنه  
ورد على هذا ما تقدم بين يديك من سورة الحج .

٧ - كل سورة من المفصل فهي مكية . أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : « نزل  
المفصل عكة ، فكشفنا جميعاً نقرؤه ولا ينزل غيره » لكن يرد على هذا أن بعض سور  
المفصل مدني نزل بعد الهجرة اتفاقاً كسورة النصر ، فهي كانت من أوامر ما نزل بعد  
الهجرة ، بل قيل إنها آخر ما نزل ، كما سبق في بحث أول ما نزل وآخر ما نزل . فلاؤلى  
أن نحمل كلام ابن مسعود هذا على الأكثره العادة من سور المفصل ، لا على جميع سور  
المفصل والمفصل على وزن مُعْطَم : هو السورة الأخيرة من القرآن الكريم مُتَدَاةً من

سورة الحجرات على الأصح وسميت بذلك لكثرة اتصالها بين السور بعضها وبعض  
من أجل قصرها وقيل سميت بذلك لأملة المنسوخ فيها ، فقرأها قوتل فصل لا نسخ  
فيه ولا نقص .

أما ضوابط المدني : فكلما يأتي :

- ١ - كل سورة فيها الحذر والفرائض هي مدنية .
- ٢ - كل سورة فيها إلف الجهاد وهي لأحكام الجهاد فهي مدنية .
- ٣ - كل سورة فيها ذكر المنافقين هي مدنية ما عدا سورة العنكبوت . والتحقق أن  
سورة العنكبوت مكية ما عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها ، إنها مدنية ، وهي التي  
ذكر فيها المنافقون

### ٥ - السور المكية والمدنية والمختلف فيها

نقل السيوطي في الإتقان أن الأكثرية في تعيين السور المكية والمدنية ، من أوقفها  
ما ذكره أبو الحسن الحصري في كتابه النسخ والمنسوخ إذ يقول :

« للذي باتفاق عشرون سورة ، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة ، وما عدا ذلك مكي  
باتفاق » ثم نظم في ذلك أبياتاً رقيقة جامعة ، وهو يريد بالسور العشرين المدنية بالاتفاق :  
سورة البقرة وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والنور ، والأحزاب ،  
ومحمد ، والفصح ، والحجرات ، الحديد ، والمجادلة ، والعنبر ، والممتحنة ، والجمعة ، والمنافقين ،  
والطلاق ، والتحریم ، والنصر .

ويريد بسور الاثني عشره المختلف فيها سورة النجم ، والرعد ، والرحم ،  
والصف ، والشمس ، والنطفي ، والقدر ، ولم يكن ، وإدريس ، والإحسان ،  
والمودين

ويريد بالسور المكية ، اتفاق ما عدا ذلك وهي اثنتان وثمانون سورة . وإلى هذا القسم المكي يشير في موطوعه بقوله :

« وما سوى ذلك مكي » تبرأه . فلا تكن من حلاف الناس في حصر .  
فليس كل حلاف حاء معتبراً . إلا حلاف له حظ من النظر .  
وقد جرى هذا البيت مجرى الأمثال عند أهل العلم .

## ٦ - أنواع السور المكية والمدنية

قد تكون السورة كلها مكية ، وقد تكون كلها مدنية ، وقد تكون السورة مكية ما عدا آيات منها ، وقد تكون مدنية ما عدا آيات منها ، فلك أربعة أنواع .  
مثال النوع الأول سورة الذثر فيها كلها مكية . ومثال الثاني سورة آل عمران فيها كلها مدنية ، ومثال الثالث سورة الأعراف فيها مكية . ما عدا آية « وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْخَجَرِ » قوله قتادة . واستثنى غيره هذه الآية المذكورة وما بعدها من الآيات إلى قوله سبحانه : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ » وقال : إن تلك الآيات مدنية . ومثال النوع الرابع سورة الحج فيها مدنية ما عدا أربع آيات منها ، فتتدى بقوله سبحانه « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَمَّتْ » إلى قوله « عَذَابٌ ثَوِيمٌ عَقِيمٌ » .

واعلم أن وصف لسورة بأنها مكية أو مدنية ، يكون تبعاً لما يعقب فيها ، أو تبعاً لما تمخضها ، فقد ورد أنه إذا برئت فاتحة سورة بمكة مثلاً كتبت مكية ، ثم يريد الله فيها ما يشاء . ولعل الأسب بالاصطلاح المشهور في معنى المكي والمدني أن يقال إذا برئت فاتحة سورة قبل الهجرة كتبت مكية ، وإذا برئت فاتحة سورة بعد الهجرة كتبت مدنية ثم ذكر المستثنى من تلك السور لمن كان هناك استثناء فيقول : سورة كذا مكية إلا آية كذا فيها مدنية ، أو سورة كذا مدنية إلا آية كذا فيها مكية أو نحو ذلك ، كما تراءى في كثير من المصاحف عنواناً للسورة .

وقد بدل العلماء حجة حجارة في استقصاء حال ما رل من السور والآيات حتى لقد قال أبو القاسم الساموري في كتاب التذية على فصل علوم القرآن ما نصه : « من أشرف علوم القرآن ، علم نزوله ، وحياته ، وترتيب ما رل بمكة والمدينة ، وما نزل بمكة ومدى ، وما رل بالمدينة وحكمه مكى ، وما نزل بمكة في أهل المدينة ، وما رل بالمدينة في أهل مكة ، وما يشه نزول مكى في المدني ، وما يشه رول المدني في مكى ، وما رل بالخصعة ، وما نزل بيت المقدس ، وما نزل بالطائف وما نزل بالحد نبية ، وما نزل ببلاد ، وما نزل بهاراً ، وما نزل مشيماً ، وما نزل مبرداً ، والآيات المدييات في السور المكية ، والآيات المكيات في السور المدنية ، وما حل من مكة إلى المدينة ، وما حل من المدينة إلى مكة ، وما حل من المدينة إلى أرض الحبشة ، وما رل عملاً ، وما رل مصراً ، وما احتلوا فيه ، فقال بعضهم : مكى وبعضهم مدنى ، فهذه خمسة وعشرون وحياً ، من لم يعرفها ويبرهنها لم يحل له أن يتسكك في كتاب الله تعالى » ١ .

قال السيوطى بعد أن أورد هذا : وقد أشعت الكلام على هذه الأوجه ، فيها ما أوردته بنوع ، ومنها ما تسكمت عليه ، في صن بعض الأنواع . ١ . وحرام الله أحسن الحرام .

### وُخُوءٌ تَتَعَلَّقُ بِالْمَكِيِّ وَالْمَدَنِيِّ

سأه السيوطى عند كلامه في هذا لمبحث إلى أن هناك وجوهاً في مكى ومدنى . منها ما تستطيع أن تفهمه مما قصصناه عليك آنفاً . ومنها ما يشه نزيل المدني في السور المكية ، في قوله تعالى في سورة النجم : « الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كَثِيرًا أَلْيَنُ مِنَ الْإِنِّمْ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّعَمَ » قال السيوطى في توجيهاه ما نصه : « فإن الفواحش كل ذب فيه حدٌ ، والكثير كل ذب عاقبته النار ، واللعم ما بين الحدين من الذنوب ، ولم تكن بمكة حدٌ ولا نحوه » اهـ . لكن فيه نظر من وجهين : ( أحدهما ) أن تفسير الفواحش بما ذكره غير متفق عليه ،

بل فسرّها غيره بأب السكائر مطلقاً . وفسرها آخر بما يكبر عقابه دون تخصيص محلي .  
وفسرها السيوطي نفسه في سورة الأسماء بأنها ركبة نر . ( والله لي ) أن بعضهم يستثنى  
هذه الآية من سورة النعم المسكية ، ويمصّ على أنها مدنية

ومنها : ما يشبه نزيل المسكى في أسور المدينة ، نحو سورة « وَالْمَآذِيَّاتِ صَنَّعًا » ،  
وكقوله سبحانه في سورة الأفعال المدنية : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ  
مِنْ عِنْدِكَ « الْح . وفي هذا نظر أيضاً ؛ فإن المعروف أن سورة « وَالْمَآذِيَّاتِ » من  
الأسور المسكية كما سبق ، وأن آية « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ » النخ منصوص على أنها رلت  
بمكة ، كما نقل السيوطي عنه عن مفسر ، وقال : إنها مستثناة من سورة الأفعال المدنية .  
بل نصّ بعضهم على أن هذه الآية مع آيتين قبلها وأربع بعدها كلها مكيات مستثنيات  
من سورة الأفعال المدنية .

ومنها : ما حُجِّلَ من مكة إلى المدينة ، نحو سورة يوسف وسورة الإخلاص وسورة سمح .

ومنها . ما حُجِّلَ من المدينة إلى مكة ، نحو آية الرّبا في سورة البقرة المدنية ، وصدر

سورة التوبة المدنية .

ومنها : ما حُجِّلَ إلى الحبشة نحو سورة مريم ، فقد صحّ أن جعفر بن أبي طالب

قرأها على الحبشي

ومنها : ما حُجِّلَ إلى الروم كقوله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران . « قُلْ

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » الآية

وأنت حير بأن الاصطلاح المشهور في المسكى والمدنى ينظم كل ما رل سواء أكان

مكة والمدينة ، أم غيرها كما جعلته ، والصدف ، وبيت المقدس ، والحديثة ، ومي ،

وعرفات ، وعُسمال ، وموك ، ودر ، وأحدي ، وجرأ ، وجرأ الأسد . وتفصيل ذلك

يخرج منا إلى حدّ الإطالة ، فاهيك ما ذكر . « والليب تنكبه الإشارة » .

## فروق أخرى بين المكي والمدني

توجد فروق أخرى بين المكي والمدني، غير ما قد ساء في صوابها وهذه الفروق فيها دقة عن تلك، لتعلقها في مجموعها بأمر معصية وبلاعية. ثم إن أعداء الإسلام قد صاعوا عن طريق بعضها لمهاجمة مددوا سهامها إلى القرآن الكريم لذلك أوردناها صفوان، توطئة لنقض تلك الشبهات « وَقَبْلَ الرَّمْيِ يُرَاسُّ الشَّجَرُ » .

ونذكر من خواص القسم المكي أنه قد كثرت فيه ما يأتي :

( أولاً ) أنه يحمل حجة شتواء على الشرك والوثنية، وعلى الشبهات التي تدفع بها أهل مكة للإصرار على الشرك والوثنية، ودخل عليهم من كل باب، وأنهم بكل دليل، وحاكمهم إلى الحق، وضرب لهم أبلغ الأمثال، حتى انتهى بهم إلى أن تلك الآلهة الزيفة لا تقدر أن تخلق مجتمعة أقل نوع من الذباب، بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شر هادبة الذباب، وقال : « يَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ . إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَلَّا يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ . ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » .

ولما عاندوا واحتجوا بما كان عليه آباؤهم، نفى عليهم أن يمتثلوا إكرام الإنسان إلى هذا الخسيس من الذلة للأحجار والأصنام، وسفه أحلامهم وأحلام آباؤهم الذين أمهلوا النظر في أنفسهم وفي آيات الله في الآفاق، وفتح إليهم الجود على هذا التقليد الأعمى للأباء والأجداد « أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ شَيْئًا وَلَا يَتَذَكَّرُونَ » وناقشهم كذلك في عقائدهم المصالة التي تحسب عن تلك الوثنية من حُجود الإلهيات والسوالات، وإسكار البعث والمسئولية والجزاء .

( ثانياً ) أنه فتح عيونهم على ما في أنفسهم من شواهد الحق، وعلى ما في الكون من أعلام الرشد، وأنوع لهم في الأدلة وتعين في الأساليب، وقاصاهم إلى الأوليات

والمشاهدات ، ثم فادهم من وراء ذلك قياده راشده حكيمة ، إلى الاعتراف بتوحيد الله في ألوهيته وربوبيته ، والإيمان بالبعث ومسئوليته ، والحراء لعادل وديقته ، ثم التقسيم الوحي وبكل ما حواه الوحي من هدى الله في الإلهيات والنبوءات والسمعيات في العقائد على سواء

( ثالثاً ) أنه تحدث عن عاداتهم القبيحة ، كالتنقل ، وسفك الدماء ، ووأد البنات ، واستباحة الأعراض ، وأكل مال الأيتام . علقت أنظارهم إلى مافى ذلك من أخطار ، وما زال بهم حتى طمّروهم منها ، ونجح في إعادهم عنها .

( رابعاً ) أنه شرح لهم أصول الأخلاق ، وحقوق الاجتماع ، شرحاً مهيئاً كرمه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وفوضى الجهل ، وجفاء الطبع ، وقدارة القلب ، وحشونة اللفظ ، وحسب إليهم لإيمان والطاعة ، والنظام ، والعلم ، والنجبة ، والزجة ، والإخلاص ، واحترام الغير ، ورؤ الو الدين ، وإكرام الجار ، وطهارة القلوب ، ونظامه الألسنة ، إلى غير ذلك .

( خامساً ) أنه قصّ عليهم من أنباء الرسل وأهمهم السابقة ، مافيه أبلغ المواءمة وأنفع العبر ، من تقرير مدّنه تعالى الكونية في إهلاك أهل الكفر والطغيان ، وانتصار أهل الإيمان والإحسان ، مهما طالت الأيام وامتد الزمان ، ماداموا قائمين بنصرة الحق وتأييد الإيمان .

( سادساً ) أنه سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه ، حتى جاءت السور المسكية قصيرة الآيات ، صعبة الشّور لأنهم كانوا أهل فصاحة ولسن ، صاعته لكلام ، واهتمهم الميان ؛ فباسبهم الإيجاز والإقلال دون الإسهاب والإطباب .

كما أن قاموا بالحكمة العالية ، قصى بأن يسلك سبيل التدرّج والارتقاء في تربية الأفراد ، وأن يقدم الأهم على المهم . ولا ريب أن عقائد والأخلاق والعادات ،

أهم من صروب العبادات ودقائق المعاملات ، لأن الأولى كالأصول بالنسبة للثانية ؛ لذلك  
كثرت في القسم للمكي التحدث عنها والمماثلة لها كما علمت في الخواص المماثلة حرياً على  
سنة التدرج من ناحية ، وتقديم للأهم على المهم من ناحية أخرى .  
أما خواص القسم المدني ، فذكر منها أنه قد كثرت فيه ما يأتي :

( أولاً ) التحدث عن دقائق التشريع ، وتفصيل الأحكام ، وأنواع القوانين المدنية  
والجنائية والحربية والاحتجاجية والدولية ، والحقوق الشخصية ، وصائر صروب العبادات  
والمعاملات . انظر - إن شئت - في سورة البقرة والنساء والمائدة والأنفال والفتح  
والحرث ومحوها .

( ثانياً ) دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الإسلام ، ومناقشتهم  
في عقائدهم الساطلة ، وبيان حمايتهم على الحق ، وتحريمهم لمكتب الله ، ومحاكمتهم  
إلى العقل والتدريج . انظر - إن شئت - سورة البقرة وآل عمران والمائدة والفتح  
ومحوها

( ثالثاً ) سلوك الإطبات والتطويل في آياته وسوره . وذلك لأن أهل المدينة  
لم يكونوا بصاهنون أهل مكة في الدكاء والألمعية وطول الناح في باحات العساحة والسير ؛  
فمما سببهم الشرح والإيضاح ، وذلك يستفيع كثيراً من السط والإسهاب ، لأن دستور  
البلاغة لا يقوم إلا على رعاية مقتضيات الأحوال ، وخطاب الأعياء غير ما يخاطب به  
الأدكياء « وَلَا تُبَيِّنْكَ مِثْرَ حَبِيرٍ » .



## نقص الشهات التي أثبتت

حول هذا الموضوع

قلنا ونقول : إن أعداء الإسلام كثيرون ، وإمامهم يتصرفون به الدوائر ، ويتصرفون كل فرصة ليستفيدوا إليه سهام المطاعين . وإن من واجبا أن تحمي العرب ونقوم بواجب الدفاع في هذا الموضع ، ولن ينفي ذلك إلا إذا أسلحنا بجميع الأسلحة ، وفي مقدمتها دراسة تلك الشهات التي يحرقون بحورها في مصر وغير مصر حتى إشبا بنا المتعلم ، في بعض المدارس والكتيب التي يزعمون أنها أدبية . وقد شهدت ، صرقتا معركة حامية الرطيس دارت رحاها حول أمثال هذه الشهات التي سرقها إليك ، فافتتحهم بأعمدة ، وخذها بقوة . ولا حول ولا قوة إلا بالله . وما أجل أن نرد قول الشاعر :

« أَنَا لَا أَلُومُ تَمَقِّدَ      دَ إِذَا نَعَمْتَ أَوْ نَعَدَ  
فَتَيْكُ أَنْ يَسْتَعِيدَ      دَ وَشَأْسُ أَنْ يَسْتَعِيدَا »

## الشبهة الأولى وفي طليها شبهات

يقولون : إن الباحث الساذج ، يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين ، لا ترمح  
الأول مائتاني صله ولا علاقة ، مما يدفع إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد حصص بطايف  
مختلفة ، وتأثر بنيتات متضادة ؛ ف يرى أن القسم المسكى منه يتنار بكل سميرات الأوساط  
المسحطة ، كما شاهد القسم المذى منه تلوح عليه أمارات الثقافة والاسمدارة . «القسم  
المسكى يتفرّد بالعنف والشدة ، والقسوة والحدة ، والعصب ، والناسب ، والوعيد  
والتهديد مثل سورة « تَتَذَكَّرُ أَيْ يَمْيُوتُ » وسورة « وَالْفَصْرِ إِنْ لِلْإِنْسَانِ  
لَبِىْ حُسْرٍ » وسورة « أَتُنْكِرُ » ومنل « فَصَّبَ عَلَيْهِمْ رَأْيُكَ سَوْطَ  
عَذَابٍ » إِنْ رَأَيْتَ لَدَائِمَ صَدِيدٍ »

والجواب : أن هذه الشبهة تتألف من شبهات أربع ، وإما شئت فقل تتألف  
من مقدّمات ثلاث كوادب ، تتأذى ، أو يريد صاحبها أن يتأذى بها إلى نتيجة هى  
الأخرى كادبة

فما المقدّمات الثلاث السكوادب هى أن القسم المسكى بمرّد العنف والشدة ، وأن  
فيه سدا وإقداعاً ، وأنه يتنار بكل سميرات الأوساط المسحطة . وأما النتيجة أو الهدف  
الذى يرمى إليه فهو أن القرآن موصّك الأحرار ، غير متصل الخلفات ، وأنه حصص  
للطروب ، متأثر ، لينة

وعرضهم من هذا معروف قطعاً ، وهو أن القرآن ليس كلام الله وليس معجراً  
إعما هو كلام محمد الذى تأثر أولاً بأهل مكة فكان كلامه حشاً بعيداً عن المعارف  
الالهية لتي ، اكتسبها من أهل الكتب في المدينة

ذلك كله ما يجب أن نحمل عليه انتقاد أولئك المصلين ، فإن قرينة عداوتهم للحق



فَالَّذِينَ وَالصَّفْحَ ، وَدَعَا حَتَّى الْمَكِّي مِنْ ذَلِكَ الَّذِينَ وَالصَّفْحَ . وَهَذَا الْمَقْهُومُ مَا طَلَّ كُنْطُوقَهُ  
 أَبْصَاحًا . وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ بَيْنَ السُّورِ الْمَكِّيَةِ آيَاتٍ كَرِيمَةً تَقِيصُ لَيْسًا وَصَفْعًا ، وَتَقْطُرُ سَمَاحَةً  
 وَعَمْرًا ، بَلْ تَنَادَى أَلْ تَقَابَلَ السَّبِيَّةُ بِالْحَمَةِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ سَبْعَانَهُ فِي سُورَةِ فَصَلَتِ الْمَكِّيَةِ :  
 « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا يَمُنُّ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَتَعَمَّلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ  
 وَلَا أَتَّبِعُ الْخَسَنَةَ وَلَا السُّبَّةَ ، أَذْفَعُ بِالنَّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ قَوْلًا إِذَا أَذَى بَيْنَكَ  
 وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا  
 ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » .

وَكَأَنَّهُ قَوْلُهُ سَبْعَانَهُ فِي سُورَةِ الشُّورَى الْمَكِّيَةِ : « فَمَا أَوْفَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعِ  
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا ، وَكَانَ رَبُّهُمْ بِذَوِّكَ كَلِيمٌ .  
 وَالَّذِينَ يَحْتَلِبُونَ كَثِيرَ الْإِنْمِ وَالْهَوَاحِشِ وَإِذَا مَا عَصَوْهُمُ يَقُولُونَ هُمُ الْبَاطِلُونَ . وَالَّذِينَ  
 اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ وَزَيَّادَ رِقْنَانَهُمْ يُنْفِقُونَ .  
 وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَكْتُمُونَ . وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا  
 وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ  
 مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ  
 بِدُونِ حَقٍّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ  
 الْأُمُورِ » .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ سَبْعَانَهُ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ الْمَكِّيَةِ : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَنًا مِنَ الْمَشَانِي  
 وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . لَا تَعْدُنَّ عَيْتَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ، وَلَا تَحْرَمْ عَلَيْهِمْ  
 وَأَحْمِصْ حَسَابَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » : إِلَى آخِرِ السُّورَةِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ اللَّهِ حَتَّى قُدْرَتِهِ فِي سُورَةِ  
 أَمْرِ الْمَكِّيَةِ : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ،  
 إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ أَنْعَمُ الرَّحِيمِينَ » .

( ٢ ) وأما ردهم أن في القسم المسمى سبائنا، ويريدون من السباب معناه المعروف  
عندهم من الفحشة والبداءة، والخروج عن حدود الأدب واللياقة، فقد « كبرت كلمة  
تخرج من أفواههم » أن يقولون « لا كذبنا ». ونحن نتحداهم أن يأتوا بمثال واحد  
في القرآن كله، مكية ومدنية، يكون من هذا اللون القدير الرحيم. وهل يعقل أن  
القرآن الذي جاء يعلم الناس أصول الآداب، يخرج هو عن أصول الآداب إلى السباب؟  
كيف وقد حرم على أتباعه المسلمين أن يسبوا أعداءه المشركين؟ فقال في سورة الأنعام:  
« وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » .

نعم إن في القرآن كله لا في القسم المسمى وحده تسفيها لأحلام المنتطفين، الذين  
يُصَيِّمون آذانهم، ويغمضون أعينهم عن الحق، ويهملون الحجة والبراهين، وهو في  
ذلك شديد عنيف، بيد أنه في شدته وعنفه، لم يخرج عن جادة الأدب، ولم يعقل عن  
صين الحق، ولم يصدف من سبيل الحكمة. بل الحكمة تقتضاه أن يشتد مع هؤلاء،  
لأنهم يستحقون الشدة، ومن مصلحتهم، هم، ومن الرحمة بهم، وأن يشتد  
عليهم ليزرعوا عن باطلهم، ويصبروا إلى صوت الحق والرشد، ويسيروا على هدى  
الدليل والحجة، على حد قول مقاتل:

« فقسا ليزدجروا، ومن بك حازما نبيقس أحيانا على من يرحم »  
أضف إلى ذلك أن هذا القفر يعجز الحكيم تجده في السور المدنية، كما تجده في  
السور المكية. وإن كان في المكي أكثر من المدني، لأن أهل مكة كانوا أشداء  
العارضة، صعب المراس، مسرفين في العبادة والإماء، لم يتركوا نائما من الشر إلا  
دحيره على رسول وأصحابه، ولم يكفهم أن يخرج من بلده وأهله ليل، بل وجهوا  
إليه الأذى في مهاجره .

والشاهد على أن في السور المدنية تمويهاً عتيقاً أيضاً عند اللباسات قوله سبحانه  
 من سورة البقرة للذين في شأن المشركين: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ  
 أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَغَلَّى سَمْعَهُمْ وَغَلَّى أَسْصَارِهِمْ  
 غِشَاوَةً وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » وقوله من سورة البقرة أيضاً في شأن المنافقين «وَمِنَ الَّذِينَ  
 مَنَ نَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» إلى تمام ثلاث عشرة آية مديئة  
 بالتوبيخ والتعنيف لتلك الحشرات الأدمية ، الذين ينفثون سموهم ، وينسدون  
 المجتمع بسلاحٍ خطير ذي حدّين هو سلاح النفاق والذبذبة . وكذلك نقرأ في هذه  
 السورة المدنية نفسها في شأن اليهود آيات كثيرة من هذا الطراز، نقدهم ونذمى جرائمهم،  
 ونحمل عليهم حجة شعواء ، تقيهاً لجناياتهم وحناءات آباءهم من قبهم . مثل قوله  
 سبحانه: «ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَيْنَ مَا تَخِفُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنْ نَاسٍ  
 وَبَادُوا نَفْسَ مِنْ اللَّهِ ، وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ أَلْسِنَةً كُنْتُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ  
 بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ يَسِيرِ الْخَلْقُ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » ومثل  
 قوله «يَسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِثْنَا أَنْ يُزِيلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ  
 عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَبَادُوا بِفَضْبٍ عَلَى غَضَبٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ » .  
 ومثل قوله تعالى في شأن النصارى من سورة آل عمران: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى  
 ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي جَاعِلُكَ إِلَى مُطَهَّرًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قَوْمًا  
 الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجُومِكُمْ وَخُحِكُمْ نَيْسِكُمْ وَمَا كُنْتُمْ  
 فِيهِ تَحْتَلِمُونَ وَمَا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعُدَّتْهُمْ عَدَاؤُنَا شَدِيدًا فِي آخِرَتِنَا وَلَا حِرَّةَ وَمَا لَهُمْ  
 مِنْ نَاصِرِينَ » الح . وقوله فيهم أيضاً من هذه السورة: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابُ  
 لِمَا يَكُونُ ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا أَنْ يُقْبَلَ تَوَسَّطَهُمْ وَأَوَّلِيكَ هُمُ الصَّالُونَ » الح .

أما السور والآيات التي عتمدت عليها شبهة ، ولا مدخل على ذلك اسباب الذي  
 دعوهم ووصفوا به لقرآن الكريم ، لأن سورة « تبت » أي « تبت » عامة ما اشتملت  
 عليه أنها إبدار ووعيد لأبي لهب وامرأته ، حواء أمه ، إلى أن رسول صلى الله عليه  
 وسلم وصحبه ، كما يدل على ذلك سب بروقه أخرج الإمام أحمد والشيخان وابن مرد  
 عن ابن عباس قال : « تبت » « وأبى بن خلف » « لأقرين » « صعدا » « صلى الله عليه  
 وسلم على الصفا فعمل بمادى : يا أي مهربى عدى » « مضمون » « من حق اجتماعوا  
 فعملوا رجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً مستظراً » « هو » « أبو لهب وقريش »  
 « فعل صلى الله عليه وسلم » « أنتم » « بكم » « أن حيلة بالوادي تريد أن تغير عليكم  
 أكنتم مصدقاً ؟ » « فابوا » « نعم ما حررنا عبيث إلا صدقة » « قال » « في سيركم  
 يدى عذاب شديد » « فإن أرباباً » « أهدى » « جمع » « فربما  
 وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن زيد أن أباه أي لهب كانت تدعوهم  
 انشؤا تطرحهم بالليل في حريق الرسول صلى الله عليه وسلم

وروى عن محمد بن أسلم كانت تمشي ثائيبه

فهذه الأسبب محممة بعيد أن اسوءه رتبت له أي هبته يستحق من الله  
 دلهلاك واعطاه ، وأن منه لا يسمع ولا يسمع ، وأنه حاسر هو وامرأته ، وأن مصيرهم  
 إلى الدار ونسبهم

ولا يب أن في هذا ما عيب العيب رداءه ولا مشاء ، ونسبة من أصب دأهم  
 من الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وذلك هو «اللاق» « مدلة لإلهية ، وانثوية  
 الحكيمه ارمائية

« ووضع المدي في موضع سيف دمهلاً

مصر كوضع سيف في موضع المدي »

وأما سورة « والعصر » فليس فيها اسبب ولا شبهة اسبب وكل ما عرفت له

أنها حدث الناس قسمين : قسماً عرماً في خسران ، وقسماً ظاراً وبخاً من هذا الخسران ،  
 وهم الذين جمعوا عناصر السعادة الأربعة : اقرأ قوله سبحانه : « وَالْقَصْرِ إِنْ لِلْإِنْسَانِ لَوِيٌّ  
 حُسْرٌ : إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَوَصَّوْا بِحَقِّ وَصْوَاهِ الصَّغِيرِ » فهل  
 ترى فيها ظلاً للسباب والإقذاع ؟ ولكن لقوم لا يستعجلون !

وأما سورة « أَنهَاكُمْ التَّسْكُرُ » - فليعلم تثير إليه ، أن المخاطبين شغلهم الدنيا  
 عن الدين ، وأنهم الأموال عن رب الأموال ، حتى انتهت أعمارهم وهم على هذه الحال .  
 وَعَذَّابُنَا عَنْ هِرِّ الْعَيْمِ ، وَيُعَاقِبُونَ عَلَى إِهْمَالِ شُكْرِ نِعْمَاتِ الْحَكِيمِ  
 وأما قوله سبحانه : « فَضَبَّ عَنْهُمْ رُتْكَ سَوَاطِعِ عَذَابٍ » ، فهو حكاية لما حلَّ  
 بالأمم السبعة كشمود وعاد ، حين طعموا في البلاد ، فكثر واقعها الفساد ، ليكون من  
 هذا القصص والحبر ، عبرة لأولئك الكفار ومُرَدَّحَر ، فلا يقعوا فيما وقع فيه أسلافهم ،  
 لأنَّ سُنَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ فِي الْأُمَمِ ، ومما إن عداوته قائم في كل حيل وقبيل . « أَكْفَرُكُمْ  
 حَيْثُ مِنْ أَوَّلِكُمْ » ، أَمْ أَكْفَرُكُمْ زَادَ فِي الرُّتْرِ »

### الخلاصة

وإخلاصة أن القرآن كله قائم على رعاية حال المخاطبين ، فتارة يشتدُّ وبارءٌ بليغ ،  
 تبعاً لما يقتضيه حالهم ، سواء منهم مكثيهم ومدثيهم ، بل دليل أنك تجد بين ثنايا  
 سور المكية والمدنية ، ما هو وعد ووعيد وتساميح وتشديد ، وأحد ورد ، وحذب  
 وشدة ، كما سبق لك في الأمثلة والشواهد لكثيرة . وإذا لوحظ أن أهل مكة كثر  
 خطاهم بالشدء والعنف ، فذلك لما مرَّ دوا عليه من أدى برسول وأصحابه ولكيد  
 لهم حتى أخرجوهم من أوطانهم . ولم يكتبوا بذلك بل أرسوا إليهم الأذى في  
 مهاجرهم .



وكان القرآن في حلقه عليهم وعلى أمتهم بالقول ، بعيداً عن كل معاني إسباب والإفداع ، متدرجاً بالحكمة والأدب الكامل في الإرشاد والاقناع ، حاداً على العدو والعمو والإحسان ، حتى ليحاطب الله رسوله في سورة الأعمام المكية بقوله : « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ . وَاقْتَدِ بِجَاهِكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُرْسَلِينَ وَإِنْ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ أَتْبَغِيَّ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَاتَّبِعْنِي يَأْتِيَنَّكَ الْوَيْلُ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتَهُمْ عَلَى الْإِهْدَى فَلَا تَكُونُ مِنَ الْخَالِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَالْحَوَاقِ يَهْتُمُّ اللَّهُ تُمْ إِلَيْهِ رُجْعُونَ » .

## إظهاره مسكته

عني أننا نلاحظ في آفاق الآيات والصور المسكية ، ظاهرة باهرة ، نسكت كل معانيد ، ونفطم كل مكابر في هذا الموضوع . وهي أن القسم المسكي حلاً خلوياً ناعماً من تشريع القتال والجهاد والحاشنة ، كما حلت أمامه في مكة هي طوله من مقاتلة القوم ، مثل ما يأتون من التكنيل والمصالاة ؛ فلم يسمع للمسلمين فيها صلصلة لسيوف ، ولا أقمعة لسلح ، ولا زخف على عدو . إنما هو الصبر والعفو والجمالة والحاشنة ، بالرغم من إيغال الأعداء في أذاهم ، وجراحهم في عثموتهم وأصاهم ، سباً وطمناً وقتلاً ونهباً ، وعذابات ومهاترة ، ومصالاة ومكاراة .

(٣) - وأما رعيهم أن القسم المسكي يمتد بكل مميزات الأوساط المحطة فهو مردود عليهم ، باطل من كل باب دخوله ، وعلى أي وجه أرادوه ؛ لأنهم إن أرادوا بذلك ما توهموه من انفرادة بالثقة والعمف ، أو السباب والإفداع ، فقد عمت مبلغ

ما فيه من كذب وافتراء وحبالة عما جاء في القرآن من ترعيب وترهيب ، في شطريه المكي والمدني على السواء .

وإن أرادوا ما يحطاطه ، الإشارة إلى قصر آياته ، أو إلى حلوله من التشريعات التفصيلية العملية فهذا لا يند<sup>ق</sup> على الاحتياط ، بل قصر الآيات والحوال من تفاصيل التشريع لها وجه آخر يظهر عند الكلام عليهما في «شبهات لانية :

وإن أرادوا بما ذكروا أن أهل مكة كانوا معطلين في الفصاحة والبيان والذكاء والألمعية ، فليكن ثمانية الأتاني ، لأن لتاريخ شاهد عدل بأدق ريش كانت في مركز الزعامة من جميع قبائل العرب ، يصدرون عن رأيها ، ويرحمون إلى حكمها ، ويأخذون عنها ، ويركعون ظهور الإبل إليها ، وينزلون على قولها فيما يعلو ويبرل من مطوم ومشور ، وبدعون لها بالسق في مصار الفصاحة والبلاغة ، والذكاء والألمعية ، والشرف والعدل . وكان لها هذا الامتياز من قبل الإسلام . ثم دام لها وراد عليها في الإسلام . واعترف لها به أهل المدينة وغيرهم من عرب وأعجم . ١

ثم إن وصف القسم لنسكى بميرات الأوساط المحططة ، تهمة حرثة وطعنة طائشة ، وأكذوبة مكشوفة ، ما رصها لأنفسهم أعداء الإسلام في شر دعوته من مشركين وأهل كتاب ، وعرب وعجم ، وأميين ومتفقيين ، على حين أن أولئك اعرب كانوا على أمتهم أعرف الناس بمحطاط الكلام ورؤيته ، وعلوه وبروله كما كانوا أحرص الناس على إحراج محمد ، ودخض حجته ، ونقص ديبه ، والقضاء على إسلام في مهده . ولكن سحيقتهم لم تسمح بهذا لثراء الذي يهزف به الملاحدة في القسم المكي من القرآن . بل «لم يحاسب هذا أن القرآن كان له سلطان على نومهم إلى حد خارق مدعش ، يقودهم بقوة إلى الإسلام ، ويدفع المعاند منهم إدا . استمع إليه أن يسجد لبلاغته ، ويهتر<sup>ق</sup> اعصاحته ، وأن أحد نفسه بالتشاعل عنه بحافة أن يؤمن عن طريق تأثره سماعه ١

وأما ردهم انقطاع الصلة بين القسم المكي والمدني والتعارض بين أسلوبيهما ، فهو زعمٌ ساقطٌ مسمى على الاعتبارات الخطاطبة المأصية التي أنشأ بطلانها . ثم هو دعوى حاحمة ، يكذبها الواقع ، وبُعْثُها الذوق البلاغي المصنف وأدل دليل على ذلك ، أن أساطين البلاغة من أعداء الإسلام في مكة نفسها أيام نزول القرآن لم يستطيعوا أن يتهموا أصاوب التعزير بمثل هذا الاتهام ولا كذباً ، لأنهم كانوا أحقل من ملاحظة اليوم ، يرون أن هذا الاتهام يكون كذباً مكشوقاً وافتراءً مفصوحاً . بل هذا وحيدهم الوليد بن المغيرة بقول لعملاً من قريش : « والله لقد سمعتُ من محمدٍ آتفاً كلاماً ، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن » ، إن له خلوةً ، وإن عنده لطلاوةً ، وإن أعلاه لحشير ، وإن أسفله لأمنديق ، وإنه يملؤ وما يُصَلِّ .

ولما قالت قريش عندئذ : حسباً واقع الوليد ، واحتالوا عليه أن يظن في القرآن ، لم يجد حيلة إلا أن يقول : « إن هذا إلا سيخرُّ بؤثر » . ولم يستطع أن يرمى القرآن بالتهافت ولتخاذل ، وانقطاع الصلة بين أجزائه والمخاطط شيء من أساليبه ، على نحو ما يُرجف أولئك الغفراصون . « وَاللَّهُ أَكْلَمُ بِمَا يُبَيِّتُونَ » .

٤ - وإذا بطل هذا وماسبقه ، بطل ما زعموه من تأثير القرآن بالوسط والبيئة ، وما رتبوه عليه من أنه كلام محمد لا كلام رب العزة . ثم إنها اتهامات سقيمة لا تستحق الرد ، مادام إمحاز القرآن دائماً ، يتحدَّى كل جيل وقبيل ، ويُصم كل معارض ومكارم . ولمعت إمعر الغرس محال آخر عسى أن تكون قريباً .

ولولا أن الشبهة الحاضرة من أصاب المتعلمين وأشبههم ، يخذعون بمثل هذه المنكرات ، ما أنعب أنفسنا في علاجها ولا أنعبك ، فاصبر معاً على دفع هذا المصاب ، والله يتولى هدايا وهداك .

## الشبهة الثانية

يقولون إن قصر السور والآيات المكية مع طول السور والآيات المدنية ، يدل على انقطاع الصلة بين القسم المكي والقسم المدني ، ويدل على أن القسم المكي يختص بمميزات الأوساط المصحفة ، ويدل على أن القرآن في نمطه هذا يتبعه لتأثر محمد بالوسط والنسبة ، وما كان في مكة أمياً بين الأميين جاءت سور المكي وآياته قصيرة ، ولما وجد في المدينة بين مثقفين مستنيرين ، جاءت سور المدني وآياته طويلة ، وعرضهم من إلقاء هذه الشبهة انشكك في أن القرآن من عند الله **يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كُتُوبَ اللَّهِ فَيُفَوِّسُهَا ، وَيَقُولُوا إِنَّمَا أَنزَلْنَاهُ لَنَا مَذْهَبًا وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ،

ونقص شبهتهم هذه عما تأتي .

أولاً - أن في القسم المكي سوراً طويلة مثل سورة الأنعام ، وفي القسم المدني سوراً قصيرة مثل سورة **« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ »** فكلامهم لا يسل على عمومهم

ثانياً - إذا أرادوا الكثرة العالية لا الكلية الشاملة فهذا بعده لهم ، بيد أنه لا يدل على ما افترضوه ورتبوه عليه ، لأن قصر معظم السور المكية وآياتها ، وطول معظم السور المدنية وآياتها ، لا تقطع الصلة بين قس القرآن : مكية ومدنية ، ولا بين سور القرآن وأماه حقيقاً بل بعده كما يحسبها كل صاحب دوى في البلاغة ، بحكمة وشائعة بين كافة أحرار التحرير وقد نفس العلماء وأشاعوا الحديث عن هذه التمايزات في عصون تفسيرهم لكتاب الله . وتقدم تقرير هذا التمايز البارح في صفحة ٨١

على أنك تلاحظ آيات مكية مثبتة بين آيات سور مدنية ، وتلاحظ آيات مدنية مثبتة بين آيات سور مكية ورغم ذلك لا يكاد أحد يحس التمايز أو التماثل

والانقطاع ، بل يروى ما بين الجميع من حلال الوحدة ، وكال الاتصال وحمل التماسق والاستعظام ، مما يجعل القرآن كله على طوله ، سلسلة واحدة محكمة متصلة الحقائق ، أو عقداً رائعاً أخذاً منتظم الحيات ، أو قانوناً رصيقاً مترابط المبادئ والعلايات

ثالثاً - أن قصر السور والآيات المسكية ، لا يدل على مازعوه من امتياز القسم المسكى عميرات الأوساط لمحلة ، بل القصر مطهر الإيجار ، والإيجار مطهر رُقي الخطاب ، وآية فهمه ود كانه ، بحيث يكفيه من الكلام موحده ، ومن الخطأ أقصره . أما من كان دونه ذكاء وفهماً ، ولا سبيل إلى إعادته إلا بالإسهاب والنسب ، إن لم يكن بالمساواة والتوسط .

ولهذا المعنى جاء قسم القرآن المسكى قصيراً موحراً في معظمه ، وجاء قسم المدنى طويلاً مسهباً في أكثره . ويرجع ذلك إلى ما أشرنا إليه قبلاً من أن القرشيين في مكة كانوا في الدؤابة من قبائل العرب ، ذكاء والمعبة وفصاحة وبلاغة ، وشرفاً وشجاعة فلا بدع أن يحاط بهم القرآن بالقصير من سوره وآياته ، رعاية لحق قانون البلاغة والبيان ، في خطاب الدكي الباه ، صير ما يحاط به من كان دونه . ولا يقدح في مرايا المسكين هذه أنهم كانوا أميين لم يستفروا بثقافة المدينين ، فلثقافة والاستدارة ميدان ، ولذكاء والتمهر في البيان ميدان ، وأهل المدينة لم يكونوا على استنارتهم ليعلموا شأن قرش في تلك الخصائص والمرايا ، وكان منهم أهل كتاب درجوا على ألا يستعبدوا إلا بالقطوب ، ولا يقصروا إلا بسط الكلام .

ومن هنا نعرف مبلغ ما في هذه الشبهة من ريب وكذب فيما رتوه على هذا من أن القرآن كان نتيجة لتأثر محمد بالمحيط أهل مكة في القسم المسكى ، وباستنارة أهل المدينة في القسم المدنى ، حتى جاء قرآنه قصيراً في الأول ، وطويلاً في الثاني .

راسماً - أن القرآن قد تحدّى السحرة مكيبهم ومدبريهم وعريبيهم وعجميهم ، أن يأتوا ولو عثا أقصر سورة من تلك السور القصيرة ، فمخروا أحمدين ، وأسلم السحرة من مهم قد رب العالمين . فلو كان لقصر أثره بالاحتياط كما يقول أولئك المرحفون ، لكان في مقدور المتقار غير المنحط أن يأتي بمثل ذلك المنحط ، بل يأتى منه « سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » .

وإذا أراد أولئك المفتولون ، أن يطلوا القصر ويطلوا بأن المكى لم يتعرض لتفاصيل التشريع بخلاف المدى ، فإليك هذه لشبهة وتمحيصها وإيا يليك .

### الشبهة الثالثة

يقولون : إن القسم المكى خلا من التشريع والأحكام ، بينما انقسم المدى مشعور بتفاصيل التشريع والأحكام . وذلك يدل على أن القرآن من وضع محد وتأنيه تبعاً لتأثره بالوسط الذى يعيش فيه ، فهو حين كان بحكمة بين الأميين جاء قرآنه المكى إخالياً من العلوم والمعارف العدية ، ولما حل بالمدينة بين أهل الكتاب المنقذين جاء قرآنه المدى مبيهاً تلك العلوم والمعارف العالية .

وننقض هذه الشبهة : ( أولاً ) - بأن القسم المكى لم يحد جهة من التشريع والأحكام ، بل عرض لها وجاء عديداً ، وسكن طريقة إجالية ، فإن مقاصد الدين خمسة : (١) الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره (٢) وحفظ النفس (٣) وحفظ حق (٤) وحفظ المال . وقد تحدت انقسم المكى عنها إجمالاً . اقرأ إلى شئت قوله تعالى من سورة الأنعام المكية « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ » إلى تمام ثلاث آيات بعدها ، جمعت الوصايا العشر لهذه المقاصد الخمسة ولا يحى عليك أن آيت التعمد في انقسم المكى ظاهرة واضحة ، وكثيرة شائعة ،

ليست من موضوع الاشتباه ، ولا يختلف اثنان في أنها لاكثر من مثيلاتها في السور  
المدينة بأصعاف ، الأصعاف

( ثانياً ) - أن كثرة التفاصيل في تشريع الأحكام بالمدينة ، ليس نتيجة لما رعموه .  
إنما هو أمر لابد منه في سياسة الأمم ، وتربية الشعوب ، وهداية الخلق . ذلك أن الطفرة  
حليفة الخلية والفشل ، والتدرج حليف التوفيق والصحاح ، وتقديم لأهم على المهم واجب  
في نظر الحكمة . لهذا بدأ الله عباده في مكة بما هو أهم : بدأهم بإصلاح القلوب  
وتطهيرها من شرك واللوثية وتقويمها بمبادئ الإيمان الصحيح والتوحيد الواضح ،  
حتى إذا استقاموا على هذا المبدأ تقويم ، وشعروا بمسئولية الدمع وأجروا ، وتقررت  
فيهم هذه العقائد الرشده ، فطهم عن أقبح العادات وأردل الأخلاق ، وقادهم إلى أصول  
الآداب وفصائل العادات ، ثم كلمهم مالا بدأ منه من أمهات العبادات وهذا ما كان  
في مكة ولما امرؤوا على ذلك ، ونهيات بموسم للترقى والسكال ، بتداول الأيام والسين ،  
وكانوا وقتئذ قد هاجروا إلى المدينة ، جاءهم بتفاصيل لتشريع والأحكام ، وأتم عليهم  
نصته ببيان دقائق الدين وقوانين الإسلام .

ونظير ذلك ما نواضع عنه انداس قديماً وحديثاً في سياسة التعليم ، من أنهم ينفقون  
البادئين في مراحل التعليم الأولى أحف المسائل وأوجرها ، فيما يشبه قصار أسور ، ويختصر  
القصص ، حتى إذا تقدمت بهم أسس وعظم الاستعداد ، بلاطم بحر التعليم ورا ، على  
حد قولهم : « الإمداد على قدر الاستعداد »

أما ما رعموه من أن ذلك كان نتيجة لاحتلاط محمد بأهل المدينة المستعيرين ؛  
فيفقه أن القرآن جاء بصالح عمدة نذ أهل الكتاب وأخطاءهم في التشريع وفي التعليل  
والتحريم ، وفي الأحكام والتواريخ ، فكيف يأخذ المصيب من المحطى ؟ وهل

يستمد الخ<sup>١</sup> حياته من مئت إلفاً إن شئت قوله تعالى: « قُلْ يَٰ أَهْلَ تَكْتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَادٍ بَيِّنَةٍ وَنَبِّئُكُمْ ۝ الْحِجْ . وقوله حل ذكره . » تَهْلُ تَكْتَابِ لِمَ تَحْجُونَ فِي إِتْرَاهِيمَ وَمَا أَتَرَاتِ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ مَدْرِهِ ؟ ۝ الْحِجْ وقوله عر اسمه . « كُنْ تَطْمَمَ كَانْ جَلَّ إِنِّي إِسْمَ إِتِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمْ إِسْمَ إِتِيلَ عَلَى عَسِيهِ مِنْ قَسْلٍ أَلْ تَدْرُلِ التَّوْرَةَ ۝ الْحِجْ وهذه الآيات من سورة آل عمران . وقوله تعاليت قدرته من سورة الدادة . « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ لَقِّنْ تَابَقْسٍ وَتَلَمِّقٍ تَالْقَيْنِ وَالْأَنْفَ تَالْأَنْفَ ۝ الْحِجْ .

( ثالثاً ) أن مدعوهم لو كان صحيحاً ، ظهر أنز<sup>٢</sup> أهل الكتاب المدينين فيس معهم من عرب أهل المدينة ، وفيمن حولهم من أهل مكة وآفاق الجزيرة ، وسكانواهم الأخرية . هذه النبوة والرسالة ، ولسبق محمداً إليها كثير غيره من فصحاء العرب ومحمد فريش لديهم كانوا يحتلطون بأهل الكتاب في المدسة والشتم أَيْ احتلاط ( رابعاً ) أن انقرآن تحدى الكافة من مكين ومديين ، بل من حري وإس ، فهلاً كان أسانده أولئك يستطيعون أن يحاروه ولو في مقدار سورة قصيرة واحدة إلا ما فرقة ثم ياها صدقة !

« هَذَا كَلَامٌ لَهُ حَيٌّ مَعْمَةٌ . كَيْسَتْ لَمَّا عُقُولُ »

### الشبهة الرابعة

يقولون : إن القرآن أقسم كثيراً بالصحي والليل ، والذين والزيتون وطور سينين ، وكثير من مخلوقات . ولأرب أن القسم بالأشياء الخسية ، يدل على دثر القرآن بلينة في مكة ، لأن القوم فيها كانوا أميين ، لانعدو مداركهم حدود الخفيات . أما مد الحجرة وانصال محمد بأهل المدينة ، وهم قوم متفقون مستنبرون ،



قد نثر القرآن هذا الوسط مر في الحديد ، وحلا من تلك الأبعاد الحسية الدالة على  
المسافة والسداحة .

وهذه لشبهة مدفوعة « أولاً » بما قد سما من أن أهل مكة كانوا أرقى دوقاً ،  
وأعلى كعباً ، وأعظم ذكاء ، من أهل المدينة ، وأن الخطاب معهم كان منجوعاً فيه  
اشغاله على أسرار وخصائص لا يدركها إلا التفوقون والمتمهرون في صناعة البيان .  
فلا يستقيم إذن ما رعموه من أن مدارك أهل مكة كانت لا تعدو حدود الحسيات .  
والتاريخ خير شاهد ، وأعدل حاكم بامتياز العرب في مكة عن سائر القبائل على عهد  
نزول القرآن .

( ثانياً أن القسم بالأمور الحسية في القرآن كالضحي والليل ، ليس منشؤه انحطاط  
القوم كما يزعمون ، إنما منشؤه رعاية مقتضى الحل فيما سبق القسم لأجله ، وذلك أن القرآن  
كان يصدد علاج أغش العقائد فيهم ، وهي عقيدة الشرك . ولا سبيل إلى استئصال هذه  
العقيدة ، وإقامة صرح التوحيد على أنقاضها ، إلا بالمتعقبات إلى ما في السكون من  
شئون الله وخلق الله ، وإلا بفتح عيونهم على طائفة كبيرة من نعم انطلق المحيط بهم ،  
لهبوا من وراء ذلك إلى أن يؤمنوا بالله وحده ، مادام هو الخالق وحده ، لأنه لا يستحق  
العبادة عقلاً ، إلا من كان له أثر الخلق في العالم فعلاً . وأمن يخلق كمن لا يخلق ؟  
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ )

فمرض بعض المخلفات على أنظار الجاهلدين بالتوحيد ، بعد إقرارهم أن ليس لها خالق  
إلا الله ، إلزام لهم بطرح الشرع ، وبوحيد الخلق . وهذا مطمح سبيل ، أحاد القرآن  
في أساسه عرص نعم الله عليهم من أحله ، وكان في إحادته هذه موقفاً على العاقبة ، واصلها  
إلى قبة الإحسان كعادته ، متمسكاً في ذكر النعم ، موعياً في سردها وبيانها قررة يحدث  
عن خلق السماء ، ومرة عن خلق الأرض ، وثالثة عن أمثلهم ، ورابعة عن أنواع  
الحيوان والنبات والجماد وهلم جرأً وتارة يختار القرآن في عرض طريقة السرد والشرح ،

وتارةً يختار طريقة الحلف والقسم ، لأن في الحلف والقسم معنى العظمة التي أودعها الله في هذه اللفظ دالة على توحيده وعظمته ، حتى صرح أن يدور انفس عليها ، وأن يحجى الحلف بها .

ومن هذا أقسم الله بما أقسم من الأمور الحسية والمعنوية ، فالأمور الحسية كما ذكرنا ، والمعنوية مثل القرآن الكريم في قوله سبحانه : « وَاقْرَأْ آيَاتِ كِتَابِكَ . إِنَّكَ لَكَيْنَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . قُلْ صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ » لنبيهم إلى مدى إنعامه عليهم بتلك الأقسام كلها ، حبسها وممنوعها ، فبرعوا عن شركهم بتلك الآلهة المزيفة التي لا تملك ضراً ولا نفعاً ، وليس لها أي شأن في هذا انطلق . على حد قوله سبحانه في سورة الأحقاف : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتَقُولُونَ بِكُتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عَمِلٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ، وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » .

وأنت خير بأن المصائب بداء الشرك لا سبيل إلى إقفاذه منه إلا بمثل هذه الطريقة المثلى ، التي سنسكها القرآن بعرض دلائل القويحة من آيات الله في الآفاق على أنظار للمشركين ، وهذا سبيل متعين في خطاب كل مشرك ولو كان واحد الفلاسفة ، ووحيد العاقر ، وأستاذ المثقفين والمفسرين . فعصفت القرآن ، أمثال هاتيك المحلقات والحسيات ، ليس دألاً على صداحة المخاطبين ومخاطبتهم ، وليس بالتعالى سبيلاً إلى الطعن في القرآن بأنه كلام محمد خاتم الأنبياء والرسول كما يحفون : « إِنَّ هَذَا إِلَّا آخِثَاقٌ » .

( ثالثاً ) أن في مصاميت تلك الأقسام بالحسيات أسراراً تنأى بها عن الصداحة والسطوة ونشهد ببراعة المخاطبين بها وتموقعهم في الفهم والذكاء والمصاحبة والبيان

ذلك أن المسم بها كما قلنا ، إشارة إلى الأسرار العظيمة التي وضعها الله في تلك الأمور التي أقسم بها . حتى صَحَّ أن يكون مقسماً بها . وتلك الأسرار لا يتركها إلا اللبيب ، لأنها غير مشروحة ولا مفسرة في القرآن الكريم ، فلا يفهمها إلا من كل عقله ، وسلم دوقه . ولشرح لك بعض الأسرار ، ليتبين الحال ، ولا يبق للشبهة مجال .

( المثال الأول ) أقسم الله سبحانه بالضحى والليل في قوله : « وَالصُّحَى \* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى \* مَا وَعَدَكَ رَبُّكَ وَمَا قُلَى \* » وَلَا آخِرَهُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى \* وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى \* » وسبب نزول هذه الآيات : أن النبي ﷺ فتر عنه الوحي مرة لا يبرل بقرآن ، فرماه أعداؤه بأن ربه ودعه وقلاه ، أي تركه وأسمعه ، وبرات هذه الآيات مصدرة بهذا القسم ، مشيرة إلى أن ما كان من سطوع الوحي على قلبه ﷺ عمرة الضحى ، تقوى به الحياة ، وتنسى به الناميات ، وما عرض بعد ذلك من فترة الوحي فهو بعمرة الليل إذا سجي ، اقتصر فيه القوى وتشتد فيه العيوس لما يستلها من العمل . ومن المعلوم أن النبي ﷺ لاقى من الوحي شدة أول أمره حتى جاء إلى حديجة رضى الله عنها ترجف بوادره ، كما هو معروف في حديث الصحبيين . وسكات فترة الوحي لتثبته عليه الصلاة والسلام ، وتقوية نفسه على احتمال ما يتوالى عليه منه حتى تتم به حكمة الله في إرساله إلى انطلق . ولهذا قال : « وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى \* » أي إن كره الوحي ثانياً سيكمل بها الدين ، وتتم بها نعمة الله على أهله ، وأين بداية الوحي من نهايته ؟ وأين إجمال الدين الذي جاء في قوله : « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » الخ من معصيل العقائد والأحكام الذي جاء في مثاني القرآن ؟ ثم اد الأمر توكيداً بقوله « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى \* » .

فمن هذا يعلم أن الحلف بالضحى والليل في هذا المقام ، ليس مجرد تكبير

بآياته ونعمه وحسب . بل هو أيضاً لإقامة دليل على أن نزول الوحي أشبه نضجوة النهار ، وأن فترة الوحي أشبه سهدأة الليل ، فإذا كانوا يتقبلون النسخ والليل بالرضا والقسيم ، لا فيهما من مع الإنسان ، السعى والحركة والحياة ، النهار والنوم والاستحمام ، الليل ، بحسب أن يتقبلوا أيضاً ما يجري على محمد ﷺ من نزول الوحي وفترة للمعنى الذى سلف .

(المثال الثانى) أقسم الله سبحانه ، الذين والذين ، بقوله حل ذكره : «وَالَّذِينَ وَرَثُوا وَطُورِ سِينِينَ \* وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ \* لَنُغْذِيَنَّكَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» قال العلامة المرحوم الشيخ محمد عبده عند تفسيره لهذه السورة ما نصه :

وقد يرجح أنها (أى الذين والذين) النوعان من شجر ، ولكن لا يعرفها كما ذكرنا ، بل لما يدكر أن به من الحوادث العظيمة التى لها آثار الباقية فى أحوال البشر . قال صاحب هذا القول : إن الله تعالى أراد أن يذكر فى خمسة فصول من كتاب الإنسان الطويل ، فإنه كان يستغل فى تلك الحفلة التى كان فيها بورق التين ، وعمد ما مدت له ولزوجته سواهما طعناً يحصفاً عن ورق التين . (والذين) إشارة إلى عهد نوح عليه السلام ودرجته ، وذلك أنه بعد أن فسد البشر وأهلك من أهلكت منه بالطوفان ، ونحى نوح فى سفينته ، واستقرت السفينة ، نظر نوح إلى ما دونه ، رأى المياه لا تزال تغطى وجه الأرض فأرسل بعض الطيور لعله يأتى إليه بحجر اسكف ، والماء عن بعض الأرض هاب ولم يأت بحجر ، فأرسل طيراً آخر فرجع إليه يحمل ورقة من شجر الزيتون ، فاستبشر ونسّر ، وعرف أن عصا الله قد سكن ، وقد أدن للأرض أن تنمو ، ثم كان منه ومن أولاده تحديد القهائل الشريعة العظيمة فى الأرض التى امتحن عمارتها ، فبعد عن ذلك الزمن برمن الزيتون . والإقسام بها بالزيتون لتذكير بتلك الحادثة وهى من أكبر ما يذكر من الحوادث .

(وطور سينين) إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية ، وظهور نور التوحيد فى العالم ،

بعد ما بدست حواصط الأرض بالوثنية، وقد استمر الأسياء بعد موسى يدعون قومهم إلى  
 التمسك بتلك الشريعة إلى أن كان آخرهم عيسى عليه السلام محمداً روحها بما عر من عليه  
 من مدح ثم طار الأمد على قومه وأمههم أمهات من قديمهم من الاختلاف في الدين،  
 وحفظ نوره، والمدح، وإحسانه، معناه بالتأويل، وإحداث ما يس منه تسبيل، فمن الله  
 على البشر مداده تزيين يسبح جميع تلك التواريخ، ويوصل بين ما سبق من أطوار  
 الإلهية وبين ما ملحق، وهو عهد ظهور أنوار المحمدي من مكة المكرمة. وإليه أشار  
 بذكر عند المؤمنين وعلى هذا القول لدى فصلنا بينه، ونسب القسم والمقسم عليه اه  
 هـ أورد

### الشبهة الخامسة

قوله: إن الله مكمل من القرآن قد اشتد على نحو من الكلام في كثير  
 من مواضع القرآن مثل « اسم وكهيمعش » وذلك بطل دعوى السمين أن القرآن بيان  
 للدين وهدى، وأنه كلام الله وأى بيان وأى هدى في قوله (آم) وقوله (كهيمعش)؟  
 بل هذه الأحرف وأمثلة في آية التمسك على هدى، تدل على أنه لم يهتد أحد منهم ولا  
 الراشدين في العلم بإدراك معناه، فاحطط بها كالحطاب للبهل، وإدراك هذه لأحط  
 من وضع كتبه محمد من اليهود سبباً على المصنع كلام واستشاف آخر، ومبها  
 (أو غير إلى محمد) أو (أمرى محمد) يشيرون بسلك إلى تراهم من الإيمان بما يأمرهم  
 نكباته وفروغ من هذا قول بعضهم إلى الحروف مربية غير المفهومة مفتوح بها  
 أو ثل بعض السور، إما أن تكون قصد منها التسمية أو التهنؤ أو إظهار القرآن في  
 حطه حقيق تحيف، أو هي مر للتميز بين المصاحف المختلفة ثم ألحقها مرور الزمن  
 بالقرآن فصارت قرآناً.

وسنقص هذه الشبهة بأمور : ( أولا ) أنه لم يكن للرسول ﷺ كفتة من اليهود أبداً ، وها هو التاريخ حاكم عدل لا يرحم ولا يحايى ، فيسألوه إن كانوا صادقين ( ثانيا ) أنه لا دليل لهم أيضاً على أن فوائج هذه السور تستعمل في تلك المعنى التي زعموها وهى ( أو عَزَّ إِلَى مُحَمَّد ) أو ( أمرنى محمد ) ، لا عند اليهود ولا عند غيرهم في أية لغة من لغات البشر . ( ثالثا ) أن اليهود لم يعرف عنهم انطق في القرآن مثل هذا . ولو كان هذا مطعماً عندهم لكانوا أول الناس جهراً به ، وموجِباً له ، لأنهم كانوا أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم والسلمين ، يتمنون أن يحدوا في القرآن مضمراً من أى نوع يكون ، يهدموا به دعوة الإسلام . كيف وهم يكفرون به حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ؟ ( رابعا ) أن اشتغال القرآن على كلمات غير ظاهرة المعنى لا ينافى وصف القرآن بأنه بيان للناس وهدى ورحمة ، فإن هذه الأوصاف يكفى في محققها ثبوتها للقرآن باعتبار جملته ومجموعه لا باعتبار تفصيله وعمومه لشامل لكل لفظ فيه . ولا ريب أن الكثرة الغامرة في القرآن كلها بيان للتعاليم الإلهية وهداية للناس إلى الحق ، ورحمة للعالم من وراء تقرير أصول السعادة في الدنيا والآخرة .

وهذا الجواب مبنى على أحد رأيين للمساء في فوائج تلك السور ، وهو أن المعنى المقصود غير معلوم لنا ، بل هو من الأسرار التي استأثر الله بعلمها ، ولم يطلع عليها أحد من خلقه . وذلك سلطنة من حكمه تعالى السامية وهى استلاؤه سبحانه ، وتمحيصه لعباده ، حتى يميز الحبيب من الطيب ، وصادق الإيمان من المنافق ، بعد أن أقامهم أعلام بيانه ، ودلائل هدايته ، وشواهد رحمته ، في غير تلك الفوائج من كتابه ، بين آيات وسور كثيرة . لا نثني لك الفوائج في حاشيها إلا قطره من بحر ، أو عيصاً من قيعن .

فأما الذين آمنوا فعملوا أن هذه افواتح حق من عند ربهم ، ولو لم يهملوا معها ، ولم يدركوا مغزاها ، ثقةً منهم بأنها صادرة من لدن حكيم عليم ، عمت حكيمته ما حي وما ظهر من معاني كتابه ، ووسع عمله كل شيء عرفه الخلق أو لم يعرفوه من أسرار تنزيله . « وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ » .

« وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ تَفْسِيرَةٍ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلَةٍ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » .

ونظير ذلك أن يكون لك أصدقاء تريد أن تعرفهم أو تعرف منهم مدى صداقتهم لك ، فتبديهم بأشياء يزل عنها نزيفون ، ويظهر الصادقون .  
على حد قول القائل : -

وعلى حد مثل القائل : « إِنَّ أَخَاكَ مِنْ وَاسَاكَ » .

أَبْلُ أَرْجَالٍ إِذَا أَرَدْتَ إِحَاءَهُمْ وَتَوَكَّمَنْ فِعَالَهُمْ وَتَفَقَّدَ فَإِذَا ظَفِرَتْ بِذِي اللَّبَانَةِ وَالْتَمَقَ قَبِيرَ الْيَدَيْنِ قَرِيرَ عَيْنٍ فَاشْدُدْ  
ونظير ذلك أيضاً أن تكون أستاذاً معصياً ، وتريد أن تقف على مدى انبلاء تلامذك ، وسميع ثقتهم فيك وفي علمك ، بعد أن زودتهم بمدك بدراسات واسعة وتعاليم واضحة فإنك تختبرهم في بعض الأوقات بكلمات فيها شيء من الإغارة والخطاء ، ليظهر الذكي من الذمى ، والواثق بك الواثق لك ، من المتشكك فيك المتردد في علمك وفصلك .  
فأما الواثق فيك فيعرف أن تلك الألفاظ والمعميات ، صدرت عن علم منك بها وإن لم يعلم هو تفسيرها ، ويعرف أن لك حكمة في إيرادها على هذه الصورة من الخلفاء ، وهي الاحتبار والانتلاء . وأما المتشكك فيك فيقول : ماذا أراد بهذا ؟ وكيف صنع له أن يورده ؟ وما صلح العلم الذي فيه ؟ ثم ينسى تلك المعارف الواسعة الواضحة التي رويته بها من قبل ذلك ، وكلها من أعلام العلم وآيات المعص .

ولا يعونك في هذا المقام أن تعرف أن ابتلاء الله لعباده ليس المراد منه أن يعلم سبحانه ما كان جاهلاً بهم « حاشاه حاشاه » وقد وسع كل شيء عدلاً إزاء المقصود منه إظهار مكنونات الخلق ، وإقامة المحجج عنهم من أنفسهم ، فلا يتمون الله في عدله وحرانه ، إذا حص من ليس أهلاً لثوابه وآخرين بعباده « ولا يصلم رلك أهدأ »

( الرأي الثاني في فوائد سور ) أن لها معنى مقصوداً معلوماً قالوا : لأن القرآن كتب هداية ، واهدأة لا تتحقق إلا بهم المعنى ، خصوصاً أن أمرنا بتدبر القرآن والاستمساك به ، وهذا لا يكون إلا إذا فهم المعنى أيضاً

غير أن أصحاب هذا الرأي شتمت أقوالهم في بيان هذا المعنى المقصود بفوائد تلك السور ، فذهب بعضهم إلى أن فاتحة كل سورة اسم للسورة التي افتتحت بها ، واستدلوا بأنار تفيد ذلك ، منها ما روى عن النبي ﷺ أنه قال « يس قلت أمرأتين » وقوله « مَنْ قَرَأَ السُّحُودَ حُمِطَ إِلَى أَنْ يَصْدِجَ » ومنها اشتهاى بعض السور بالتسمية بها . ثم إن ورودها في فوائدها سور مختلفة لمنط واحد ، يبنى كواها أسماء للسور . بل شأنها في ذلك شأن الأعلام لمشاركة اشتراكاً لفظياً كلفظ محمد المسمى به أشخاص كثيرون فيصم إلى اسم كل منهم ما يميز مسماه عن غيره فيقال - محمد لمصرى ومحمد الشامي مثلاً . وكذلك فوائده السور يقال فيه : « آلم المقرة وآلم آل عمران وحَم السحلة » وهم حراً

وبعضهم ذهب إلى أنها أسماء للحروف اللفظية التي وصفت بإزائها . وهؤلاء منهم من قال : إن المقصود من ذلك هو إلهام المخاطبين أن الذى سيتلى عليهم من الكلام الذى عجزوا عن معارسته والإنجاء بمثله ، إلهاماً تركب من مثل هذه الحروف التي في الفوائده ، وهى معروفة هم ، بتجطيرها بما يدور عليها ولا يخرج عنها .



ومهم من قال : إن المقصود منها هو الدلالة على انتهاء سورة والشروع في أخرى .  
ومهم من قال : إن المقصود منها تقسيمها لإظهار شرفها وفصلها ، إذ هي مبدى كشمس  
المرحلة . ومهم من قال : إن المقصود منها بيان سورة محمد ﷺ من مساحية أنه ينطق  
بأسماء الحروف مع أنه أمي ، يقرأ ولم يكتب ، والمعروف أن المطلق بأسماء الحروف من  
شأن القارى وحده ، لا سبيل للأمى إلى معرفتها ولا المطلق بها ، فإتيه بها وترديده  
لها ، دليل مادي أمامهم على أنه لا يأتي بهذا القرآن من تعبد به ، إنما يتلقاه من لدن  
حكيم عليم

ومهم من قال : إن المقصود منها هو سبب التسمين وإيقاظهم وذلك أن قرع السمع  
في أول الكلام بما ينبغي النفوس به أو بالأمر العريب ، دافع لها أن تصم وتنبط وتأنل  
وتزداد إقبالا : فهي كوسائل تشويق ، حتى تُعرض في مقدمة الدرس على مهيج الترتيب  
الحدث في التعليم .

ومهم من قال : إن المقصود منها سياسة النفوس المعرصة عن القرآن واستدراجها  
إلى الاستماع إليه ، ومعروف أن أعداء الإسلام في صدر الدعوة كان يقول مصمهم لبعض .  
« لَا يَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَلَعُوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَهْلِكُونَ » . ولما أزلت الشور والمددوة  
بحروف المعاني ، وقرع أسماعهم ما لم يألفوا ، انتمتوا ، وإداهم أمام آيات بينات استهوت  
قلوبهم ، واستمالت عقولهم ، فأمن من أراد الله هدايته ، وشارف الإيمان من شاء الله  
تأخير ، وقامت الحجة في وجه الطغاة المكابرين ، وأحدث عليهم الطرق فلا عذر لهم  
في الدنيا ولا يوم الدين .

وقال العلامة لمرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى في تفسيره لسورة آل عمران

« إعلم أن القرآن كتبه سماوى . والكتب السماوية تُصريح تارة وتزمر أخرى . والرمز والإشارة من المقاصد السامية والمعاني والمعارى الشريفة . وقد يما كان ذلك في أهل الديانات ؛ ألم تر إلى اليهود الذين كانوا متقشرين في المدينة وفي بلاد الشرق أيام النبوة كيف كانوا يصطلحون فيما بينهم على أعداد الجمل المعروفة اليوم في الحروف العربية ؟ فيجعلون الألف بواحد ، والباء باثنين ، والجيم بثلاثة ، والدال بأربعة ، وهكذا ما رين على الحروف الأبجدية ، إلى الهاء بمشرة والكاف بعشرين ، وهكذا إلى القاف بمائة والراء بمائتين ، وهكذا إلى الفين بألف ، كما استراه في هذا المقام .

كذلك ترى أن النصارى في إسكندرية ومصر وبلاد الروم وفي سوريا ، قد اتخذوا الحروف رموزاً دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن . وكانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في مصر . وكانوا يرمزون بلفظ « إكسيس » لهذه الجملة : « يسوع المسيح بن الله المخلص » فالألف من إكسيس هي الحرف الأول من لفظ « إي-وس » يسوع . والكاف منها هي الحرف الأول من « كرسطوس » المسيح . والسين منها هي حرف الثاء التي تبدل منها في الأنطق في لفظ « ثيو » الله . والياء منها تدل على « ابوت » ابن . والسين الثانية منها تشير إلى « تونير » المخلص . ومجموع هذه الكلمات : يسوع المسيح بن الله المخلص . ولفظ « إكسيس » اتفق أنه يدل على معنى سمكة ، فأصبحت السمكة عند هؤلاء رمزاً لإلههم .

فانظر كيف انتقلوا من الأسماء إلى الرمز بالحرف ، ومن الرمز بالحرف إلى الرمز بحيوان دلت عليه الحروف . قال الخبير الإبحليرى صموئيل موسج : إنه كان يوجد كثيراً في قبور رومة صور أسماك صغيرة مصوعة من الخشب والعظم . وكان كل مسيحي يحمل سمكة إشارة للتعارف فيما بينهم .

فإذا كان ذلك من طوائف الأمم التي أحاطت بالبلاد العربية وتغلغلت فيها و برل

القرآن لجميع الناس من عرب وعجم، كان لابد أن يكون على مذهب الأمم ويكون فيه ما يتفقون . وستجد أنه لا نسبة بين الرموز التي في أوائل السور ، وبين الحقل عند اليهود ورموز المصارى ، إلا كالنسبة بين علم الرجل لعقل والعبي ، أو بين علم العلماء وعلم العامة . وبهذا تبين لك أن اليهود والمصارى كل لم رموز ، وكانت رموز اليهود هي حروف الجمل .

قال ابن عباس رضي الله عنهما مر أبو ياسر بن أخطب رسول الله ﷺ وهو يتلو سورة الممتحنة : « أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ » ثم أتى أخوه حتى بن أخطب وكعب بن الأشرف ، فسأله عن « آم » وقالوا : شذوذ الله الذي لا إله إلا هو أحق أنها أتت من السماء ؟ فقال النبي ﷺ : نعم . كذلك زلت حتى : إن كنت صادقاً إلى لأعلم أحل هذه الأمة من السمين . ثم قالوا : كيف ندخل في دين رجل دلت هذه الحروف بحساب الحقل على أن منتهى أحل أمته إحدى وسبعون سنة ، وصحبت النبي ﷺ . فقال حتى : فهل غير هذا ؟ فقال نعم « آمص » . فقال حتى : هذا أكثر من الأول ، هذا مائة وإحدى وستون سنة فهل غير هذا ؟ قال : نعم « آر » فقال حتى : هذا أكثر من الأولى والثانية ، فمن شهد إن كنت صادقاً ما ملكك أمتك إلا مائتين وإحدى وثلاثين سنة . فهل غير هذا ؟ فقال نعم « آمر » قال حتى : فمن شهد أنا من الذين لا يؤمنون ، ولا يدري بأي أقوالك أحد . فقال أبو ياسر : أما أنا فأشهد على أن أسياء قد أحبرونا عن ملك هذه الأمة ولم يقيموا أسياكم تكونون ؟ إن كان محمد صادقاً فيما يقول إلى لأراه سيحتمع له هذا كله . فقام اليهود وقالوا اشتبه علينا بأمر ذلك فلا ندري أنا قليل فأحد أم بالكثير ؟

وهذا تعرف أيها الذي أن الجمل كانت للتمار عند اليهود ، وهو نوع من

الرموز الحرفية ، فكانت هذه الحروف لاط من زوالها في القرآن ليأخذ الدرس في فهمها كل عذبة ويتصرف العكر فيها .

ولانقتصر لك مما قرأته على ثلاث طرائق بما ترمز إليه هذه الحروف :

( الطريقة الأولى ) أن تكون هذه الحروف مقتطعات من أسماء الله ، كما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : الألف آلاء الله ، واللام لطفه ، والميم ملكه . وعندها « الأَر ، وَحَم ، وَن » مجموعها الرحمن . وعندها « الَم » معناه أنا الله أعلم ، ومحو ذلك في سائر العوائج . وعنه أن الألف من الله ، واللام من حبريل ، والميم من محمد أي القرآن منزل من الله بلعان حبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام . أقول : إنما أراد ابن عباس بذلك أن تكون الحروف مذكرة بالله عز وجل في أكثر الأحوال ، وذكر الله أحسن شيء . ويرجع الأمر إلى أنها أسماء مرموز لها بالحروف كما تقدم عن الأمم السالفة من النصارى في إسكندرية ورومة . ولكن لا بد أن يكون هناك ما هو أعلى وأجل .

( الطريقة الثانية ) أن هذه الحروف من أحسن المعجزات والفتالات على صدق النبي ﷺ . وهذا مما ترصاه النفوس . ألا ترى أن حروف المعجاء لا يبتطقها إلا من تعلم القراء . وهذا النبي الأمي ﷺ قد نطق بها . والذي في أول السور أربعة عشر حرفاً منها ، وهي كلها ثمانية وعشرون حرفاً إن لم تعد الألف حرفاً رأسه ، ولأربعة عشر بصفا . وقد جاءت في تسع وعشرين سورة وهي عدد الحروف المعجائية إذا عدت فيها الألف . وقد جاءت من الحروف المهموسة العشرة وهي « فحثة شخص سكت » بصفا ، وهي الحاء والهاء والصاد والسين وانكاف

ومعلوم أن الحروف إما مهموسة - أي يصعق الاعتماد عليها - وهي ما تقدم ، وإما معهورة وهي ثمانية عشر ، بصفا - وهو تسعة - ذكرت في فوائج السور ، ويجمعها « لن يقطع امر » -

والحروف الشديدة ثمانية وهي « أ ج د ط ذك » أربعة منها في الفوائج وهي « أ ق ط ك »

والحروف الرخوة عشرون وهي الضافية ، نصفها عشرة وهي في هذه الفوائج يجمعها « ح س ه ل ص ر ه » .

والحروف المطبقة أربعة : الصاد والضاد والطاء والظاء . وفي الفوائج نصفها : « ص د و الطاء » .

وثمة الحروف - وهي أربعة وعشرون حرفاً - تسمى منفحة ، نصفها وهو اثنا عشر في الفوائج المذكورة .

فانظر كيف أتى في هذه الفوائج نصف الحروف المحتاجة ، إن لم تعد الألف ، وجعلها في تسع وعشرين سورة عدد الحروف وفيها الأنف ؟ وكيف أتى بنصف المهموسة ونصف المجهورة ونصف الشديدة ونصف الرخوة ونصف المطبقة ونصف المنفحة ؟؟؟

وتند ذكر تلك قُلًّا من كُثْرٍ كما ذكره العلماء في هذا المقام ، ولا أطيل عليك خيفة السامة والحلل ، وكذلك ما أميته عليك في هذه الطريقة لثانية لتعرف كيف أتى بهذه الأوصاف ؟ وكيف وصفت الحروف على هذا النظام ؟ .

ولم يبق موقر أن نتعلم لو طلب منه أن يأتي بهذه الحروف منصبة على هذا الوجه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فإنه إن راعى نصف الحروف المطبقة فكيف يراعى الحروف الشديدة ؟ وكيف يراعى نصف المجهورة في نفس العدد ؟

إن ذلك دلالة على صدق صاحب الدعوة عليه السلام . فعائدة هذا الوجه أهم من الوجه الأول ، فالأول وثبته تذكير الإنسان بأسماء الله تعالى . وأما الوجه الثاني فببارة العقول وحيرة . فيقول : كيف تنصف الحروف المحتاجة وتنصف أمواتها من مهموسة

وشديدة الح . وهذه الأنواع لم يدرسها أحد في العالم أيام النبوة . ثم لما ظهرت تلك الدراسات وافقت تلك الحروف بأصافها !

‘ إن ذلك ليعطى العقول مثلاً من العراة الدالة على أن هذا لا يقدر عليه المتعمون جداً هو من الوحي . وهذا الوجه على قوته يفصله ما بعده .

( الطريقة الثالثة ) أن الله تعالى خلق العالم منظماً محكماً متناسقاً متناسجاً . والكتاب السماوى إذا جاء مطابقاً لنظامه ، موافقاً لإبداءه ، سائراً على منهاجه ، دلّ ذلك على أنه من عنده . وإذا جاء الكتاب السماوى مخالفاً لمنهجه ، متافراً لنقده ، منحرفاً عن سننه كان ذلك الكتاب مصطنعاً مفزعاً مقولاً مكنوياً ؛ « وَوَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

والعالم المشاهد ، فيه عدد الثمانية والعشرين . وذلك فيما يأتى :

(١) مفاصل الهدى في كل يد أربعة عشر .

(٢) خرزات عمود ظهر الإنسان منها أربع عشرة في أسفل الصلب ، وأربع عشرة في أعلاه .

(٣) خرزات العمود التى فى أصلاب الحيوانات العامة المخلقة كالبقرة والجمال والحمار والسباع وسائر الحيوانات التى تلد أولادها ، منها أربع عشرة فى مؤخر الصلب وأربع عشرة فى مؤخر البدن .

(٤) عدد الرشات التى فى أجنحة الطير المتمددة عندها فى الطيران أربع عشرة ريشة ظاهرة فى كل جناح .

(٥) عدد الحررات التى فى أذنان الحيوانات الطويلة الأذنان كالبقرة والسباع

(٦) عمود صلب الحيوانات الطويلة الخلق ، كالسماك والحيتان وبعض الحشرات .

(٧) عدد الحروف التى فى لغة العرب التى هى آتم اللغات ، ثمان وعشرون حرفاً .

منها أربعة عشر يدعم فيها لام التعريف ، وهي : ث د ذ ر س ش ص ض  
ط ظ ل ن وأربعة عشر لا تدعم اللام فيها ، وهي أ ب ج ح خ ع ف ق ك م  
ه و ي .

(٨) والحروف التي تحط بالقلم قسمان منها أربعة عشر معللة بالسقط وهي : ث  
ث ج خ در ش ض ط ع ف ق ن ، وأربعة عشر غير معللة وهي : ح در س ص ط  
ع ك و ه ل م لا . وهذا الحرف هو الألف التي هي من حروف العلة . أما الأولى  
فهى المبررة . فهذه أربعة عشر حرفاً . وبقيت الباء ، وهي تنقط في وسط الكلمة  
ولا تنقط في آخرها . فأصبحت الحروف للملة أربعة عشر ، وغير للملة أربع عشر ،  
والحرف التاسع والعشرون معهم وغير معلم ، يتكون القسمة عادلة . وللمصل في هذا  
العدل للحكيم الذي وضع حروف الهجاء العربية ، فإنه كان حكماً ، والحكيم هو الذي  
يشبه الله . قدر الطاقة البشرية . وهذا جعل ثمانية وعشرين حرفاً مقسمة قسمين ، كل  
منها أربعة عشر كما في مفاصل اليدين وفقرات بعض الحيوانات .

(٩) مدار القمر ثمان وعشرون مبرة في النروج الشمالية أربع عشرة وفي الجنوبية  
أربع عشرة . فهذا يعيد أن الموحودات التي عددها ثمانية وعشرون تكون قسمين كل  
منهما أربعة عشر . وهكذا هما في القرآن جاءت الحروف العربية مقسمة قسمين ، قسم  
منهما أربعة عشر منطوق به في أوائل السور ، وقسم منهما أربعة عشر غير منطوق به في  
في أوائلها . وكأنه تعالى يقول : «أني عبادي إن مدار القمر ثمان وعشرون وهي قسمان ،  
ومفاصل السكف ثمانية وعشرون وهي قسمان ، وهكذا . والحروف التي تدعم في حرف  
التعريف والتي هي معللة كلٌّ منها أربعة عشر . وصدها أربعة عشر فلتعلموا أن هذا  
القرآن هو تزييل ممي ، لأنى علمت حروفه على هذا النمط الذي اخترته في صنع المنارل  
والأجسام الإنسانية والأجسام الحيوانية وتقدم الحروف المعنائية ، ثم أين لشر كحمد أو غيره

أن يظلم هذا النظام ، ويجعل هذه الأعداد موافقة للنظام الذي وضعته ، وليس الذي رسمته ، والسهج الذي سنكته ؟ إن القرآن سريل<sup>١</sup> معنى وقد وضعت هذه الحروف في أوائل السور لتستعرجوا<sup>٢</sup> بهم ، ذلك ، فتعلموا أنى ما خلقت السموات والأرض وما بينهما باطلا ، بل حمت النظام في العالم وفي الوحي متصاحدا وهذا الكتاب مبدئى إلى آخر الزمان ، ولعنه منبقى معه إلى آخر الأحيال إن اللغات متغيرة ، وليس في العالم لغة تبقى غير متغيرة إلا التي حافظ عليها دين<sup>٣</sup> وهل غير اللغة العربية حافظ عليها دين ؟ » .

هذا - ولا يخفى عليك أن ذلك رأى الثانى فى فوائى السور أبلغ فى نفس الشبهة من الرأى الأول ؛ لأنه يبنى ما رصوه من أساس الاتهام ، وهو أنه ليس لهذه الفوائى معنى مفهوم ، ويقرر أن معانيها معهومة على ما نبئ<sup>٤</sup> فى تلك الوحيه السابقة وإذا كان بعض الناس لا يفهم تلك المعانى ، فليس ذلك عيبا فى القرآن إنا هو عيب فى استعداد بعض أفراد الإنسان . وكتاب الله حوطب به الخواص<sup>٥</sup> كما حوطب به العوام<sup>٦</sup> ، فلا بدع أن يكون فيه ألفاظ لا يفهمها إلا الخاصة دون العامة

وعلى كلا هذين الرأيين يتضح لك أن اشتغال القرآن على هذه الألفاظ ، ليس من قبيل اشتباه على نحو الكلام ، أو إظهار القرآن بمظهر عميق عجيب ، ولا نعم منه أسها رموز للمصاحف ألحقها مرور الزمن بالقرآن ، إلى غير ذلك من الهديان بل ثبوت هذه الفوائى لا يقدح فى كون القرآن من عند الله ، سواء أطلدت معنى ظاهرا أم لم تعد على ما يشاء من حكمة الله البالغة فى إيرادها والله هو الحكيم العظيم .



## الشبهة السادسة

يقولون : إن القرآن في قسمه المكي قد حلا من الأدلة وانبراهيم ، بخلاف قسمه المدني فإنه مليء بالأدلة ، مدغم بالحجج ، وهذا رهان جديد على تأثير القرآن بالوسط الذي كان فيه محمد !

ونفرض شبهتهم ( أولاً ) بما أسلفنا من أن القرآن لو كان نتيجة تأثير محمد بالوسط الذي يعيش فيه ، لكان الوسط أولى بتوجيه هذا اللطيف عليه ، ولما كان أعرف بهذا النقص فيه ، فيظفر عليه ويدخل إلى إبطال دعوته من هذا الباب الواسع ، لا سيما أن الرسول في مكة والمدينة كان له أعداء ألداء ، ليس لعداوتهم دواء .

( ثانياً ) أنه لو صح هذا لطلت نبوته ، ولصح أن تكون النبوة لم باعتبار أهم مصدرها ، وأنهم أسأذنت فيها . وهذا النقص يقال في رد شبهاتهم الماضية الساقطة ، التي تدل على فساد فطرتهم ، وعلى مقدار تبيخهم ومجانبهم على الحقيقة والتاريخ والاستغفاف بمقول الناس .

( ثالثاً ) أن كذبهم في هذه الشبهة صريح مكشوف ، لأن القسم المكي حافل بأقوى الأدلة ، وأعظم الطعج ، على عقيدة الإسلام في الإلهيات ، والنبويات ، والسمميات . استمع إليه في سورة « المؤمنون » لمكية وهو يرصع قواعد التوحيد ، ويزلزل نيل الشرك إذ يقول : « مَا تَحَدَّاهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كُنَّ مَعَهُ مِنْ إِنْتِهٍ ، إِذَا لَدَّهَتْ كُلُّ آلَةٍ عَمَّا خَلَقَ ، وَلَعَلَّا تَعْلَمُهُمْ عَلَى نَعَصٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ » وإذ يقول في سورة الأنبياء المكية : « لَوْ كُنَّ مِنْكُمْ آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتُمْ ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ . لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ . أَمْ تَحَدُّوا مِنْ دُونِهِ

آلِهَةً قُلْ هَاوَا رُبُّكُمْ . هَذَا دِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ، نَلَأْ كُتْرَهُمْ  
لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ قَوْمٌ مُفْرِصُونَ .

وأصبت إليه في سورة العنكبوت المكية وهو مدلل على سوء محمد ﷺ إذ يقول :  
« وَمَا كُنْتُمْ تَقْنَوْنَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحُطُّهُ بِبَيِّنَاتٍ ، إِذَنْ لَا تَرْتَابُ  
أَنْتَبِطُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ، وَمَا يُخَعِّدُ بَابَانَا  
إِلَّا أَنْظَامُونَ . وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِندِ اللَّهِ ،  
وَأِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ .  
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » . وتد رحسته التي أقامها فقريرا اقتداره  
على البعث بعد الموت في قوله سبحانه من سورة في المكية : « وَنَزَّلْنَا مِنْ سَّمَاءٍ مَبْرُكَةٍ  
قَابِقَاتٍ بِرِجْمَاتٍ وَحَبٍّ كَصَبِيدٍ ، وَأَنزَلْنَا بِأَسْفَلِهَا مَاءً طَلْعٌ أَصِيدٌ ، رَزَقْنَا بِهِ الْمَرْءَ  
وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا . كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » . وقوله فيها أيضا : « أَفَعَيَيْنَا بِحَلْقٍ  
الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي آيَاتِنَا مِنْ حَلْقٍ حَدِيدٍ » .

وانظر إليه بتمام الدليل القلي على البعث والجزاء في سورة المؤمنون المكية إذ يقول :  
« أَفَعَيَيْنَاكُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَادًا وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ » وفي سورة السجدة  
إذ يقول : « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ؟ لَا يَسْتَوُونَ . أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا  
الْبَخ . وفي سورة الحاثية المكية إذ يقول : « أَمْ سَيَبْقَى الَّذِينَ كَفَرُوا آلِ سَيْتَاتٍ أَنْ  
تَحْمِلَهُمْ كَأَنَّهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ تَحْتَهُمْ وَفَوْقَهُمْ ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ،  
وَحَلَقَ آفَةُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِحَلْقٍ وَلَيُنْزِلُنَّ كُلُّ فَرْقٍ كَسَاتٍ وَهُمْ لَا يَتْلَمُونَ » .

ونأمل مناقشته ونقصه بالحجة أوهم المشركين في احتصاصهم لأنماطيلهم بالشيئة  
الإلهية إذ يقول في سورة الأنعام المكية : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْلَا شَاءَ اللَّهُ

مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آتَاوْنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ  
 حَتَّى دَاقُوا نَاسًا . قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ  
 إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْصُصُونَ . قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ  
 أَتَمَّ عَيْنَ . إلى غير ذلك من أدلة ساطعة ، وبراہین بارعة ، لاتسکاد تحلو منها سورة  
 من الصور المکیة . وسکن القوم استحضوا المعنى على المدى ، فاستمرروا هذا السکد  
 والافتراء . سأل الله أن یکفیهم شرَّ لعنة ، وأن یثبتهما على الحق ، فإن قلوب الخلق  
 بیديه ، والأمور کلها منه وإلیه « مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ . وَمَنْ يَشَأِ يُصْطَقْ عَلَى  
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

## المبحث الثامن مظهر

( فی جمع القرآن وتاریخه ، والرد على ما یثار حوله )

من شبه ونماذج من الروایات الواردة فی ذلك )

کلمة جمع القرآن تطبق تارة ویراد منها حفظه واستظهاره فی الصدور وتطلق تارة  
 أخرى ویراد منها کتافته کله حروفاً وکلمات وآیات وسوراً . وهذا جمع فی الصحائف  
 والسطور ، وذلك جمع فی القلوب والصدور . ثم إن جمعه معنی کتافته حدث فی الصدر  
 الأول ثلاث مرات : الأولى فی عهد النبی صلی الله علیه وسلم ، والثانية فی خلافة  
 أبی بکر ، والثالثة على عهد عثمان ، وفی هذه المرة الأخيرة وحدها سعت المصاحف  
 وأرسلت إلى الآفاق . وقد أثبت فی هذا الموضوع شبه باردة لا ماص لها من أن  
 نکشف عنها اللثام ، ثم نعرضها لحرارة الحقائق العلمية الصعبة ، حتى تذوب وتنباع ،

أو تذهب وتفسد » فَأَمَّا الرَّابُّ فَقَدْ هَبْ خُمَاءً ، وَأَمَّا مَا نَنْفَعُ النَّاسَ فَيَنْفَكْتُ فِي الْأَرْضِ . كَذَلِكَ خَصَّيْتُ اللَّهَ الْأَمْثَالَ .

### جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور

نزل القرآن على النبي ﷺ ، فكانت همته بادية دى بده منصرفة إلى أن يحفظه ويستظهره ، ثم يقرأه على الناس على مكث ليحفظوه ويستظهروه ، ضرورة أنه <sup>٢</sup> أُمِّيٌّ نَعَثَهُ اللَّهُ فِي الْأُمِّيِّينَ « هُوَ الَّذِي نَزَّلَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ، يَقُولُوا عَلَيْنَهُمُ آيَاتِهِ ، وَزَكَّرَهُمْ ، وَبَعَثَهُمْ كِتَابَ الْحِكْمَةِ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ نَبِيِّ صَلَّاهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُمِيْنٌ » ١ هـ من سورة الجمعة . ومن شأن الأمي أن يعوّل على حافظته بما بهمه أمره ، ومبنيه استحضاره وجمعه . خصوصاً إذا أوتى من قوة الحفظ والاستظهار ، ما ييسر له هذا الجمع والاستحضار . وكذلك كانت الأمة العربية على عهد رسول القرآن وهي متمتعة بمخاض المرونة الكاملة ، التي صبا سرعه خط ، وسيلان الأدهان ، حتى كملت قلوبهم أبا حولهم ، وعقولهم سحلات أساهم وأبامهم ، وحوافطهم دوير أشدهم ومداخرهم ثم جاء القرآن فهرهم بقوة بياضه ، وأحد عليهم مشعرهم اسطوره سدهبه ، واستأثر بكريم مواهبهم في لفظه ومعباه ، فجاموا عليه حياتهم حين عموا أنه روح الحياة ١

أما النبي ﷺ فبمع من حرصه على استظهار القرآن وحفظه ؛ أنه كان يحترس به به في أشد حالات حرجه وشدة ، وهو يمدى ما يمدى به من الوحى وسطونه ، وحيريل في هروطه عليه بمو به . يفعل الرسول كل ذلك استحضاراً لحفظه وجمعه في قلبه ، بحرفه أن تعلمه كلمة ، أو يعلت منه حرف . ومداير ﷺ كذلك حتى طمأنه به أن وعده أن يجمعه به في صدره ، وأن يسهل له قراءه لفظه وفهم معناه ، حال له في سورة التقيامة « لَا تُحْرَكْ بِهِ لِسَانُكَ لِتَمَظَّلَ بِهِ إِنْ عَيْنَا نَحْفَعُهُ وَفَرَّانَهُ فَإِذَا قَرَأَهُ فَتَسْمِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنْ عَيْنَا نَبَّاهُ » وقال به في سورة طه « وَلَا تَمَظَّلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْصَلَ

إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ رِزْقِي عَلِيمٌ. ومن هذا كان ﷺ حامع القرآن في قلبه الشريف، وسيد الجعاط في عصره السيف ومرجع المسلمين في كل ما يعينهم من أمر القرآن وعلوم القرآن. وكان ﷺ يترؤء على الناس على مكث كما أمره موله، وكان يحكي به القليل ويزين الصلاة. وكان جبريل يعارضه إياه في كل عام مرة، وعارضه إياه في العام الأخير مرتين. قالت عائشة وفاطمة رضي الله عنهما: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إني جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة، وإني عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضراً أجلى»

وأما الصعابة رضوان الله عليهم، فقد كان كتاب الله في الحل الأول من عنايتهم. يتنافسون في استظهاره وحفظه. ويتسابقون إلى مدارسته وتفهمه. ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما يحفظون منه. وربما كانت قرة عين السادة منهم أن يكون مهرها في زواجها سورة من القرآن يمسها إياها زوجها. وكأبوا يهتدون لذة النوم وراحة المجهود، إظهاراً للذة القيام به في الليل، والتلاوة له في الأسفار، والصلاة به والناس نيام، حتى لقد كان الذي يمر بيوت الصعابة في غسق الدجى، يسمع فيها دويًا كدوي النحل بالقرآن وكان الرسول ﷺ يذكر فيوم روح هذه المنايا بالتنزيل، بينهم ما أنزل إياه من ربه. ويبحث إلى من كان سيد الدار منهم من يعلمهم ويقرئهم، كما بحث مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته، بطائفتهم الإسلام، ويقرئهم القرآن، وكما أرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته للتخفيف والإقراء.

قال عمادة بن الصامت رضي الله عنه. «كان الرجل إذا حاور دفعه النبي ﷺ إلى رجل مما يعلم القرآن، وكان يسمع لسعد رسول الله ﷺ صحبة تلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يحفظوا أصواتهم ثلاثاً تعانطوا».

ومن هذا كل حفاط لقرآن في حياطة ارسول ﷺ عمداً ، منهم الأربعة  
الخلعاء ، وطلحة ، وسعد ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وصه مولى أنى حذيفة ، وأبو هريرة ،  
وأس عمر ، وأس عباس ، ومهرو بن العاص ، وابنه عبد الله ، ومعاوية ، وابن زبير ،  
وعبد الله بن السائب ، وعائشة ، وحصة ، وأم سلمة ، وهؤلاء كلهم من لم يحرق ،  
رسول الله عليهم أجمعين وحفظ لقرآن من الأنصار في حياته صلى الله عليه وسلم أنى  
ابن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، ومجمل بن حارثة ، وأس  
ابن مالك ، وأبو زيد الذي مثل معه أس فقال إنه أحد عمويتي (رمى الله عنهم أجمعين) .  
وقيل إن بعض هؤلاء إنما أكمل حفظه للقرآن بعد وفاة النبي ﷺ وأما ما ذكره  
في الذين حفظوا قرآن من انصحه كانوا كثيرين ، حتى كان عدد القتل منهم مئتين  
معه وبوم ليلة أربعين ومائة قال البرطي « قد قتل يوم النيام سبعون من  
انقرء . وقتل في عهد رسول الله ﷺ مئتين معونة مثل هذا العدد »

قال الحق ابن الحريري « ثم لم لا يعتاد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور  
لا على خط الصحف وكتف هذه أشرف حصيلة من الله تعالى هذه الأمة ، هي  
الحديث الصحيح الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال « إني أرى ولي قم في  
قريش وأندهم ، تكفت له . أي رب أدب بشعور رأسي حتى تدعوه حبرة » .  
إني مسليتك ومسيك بك ، وممن علمت كتاباً لا يسهل . . . قرؤهُ . . . إنما وسطر ،  
فأعنت حسداً أعنت مشهم ، وفاتن بمن أطعك من عصاك وأتق يهق عليك »  
فخير تعالى أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة نسل بالاء ، بل يقرأ في كل  
حال كما جاء في صفة أمته « أناحيهم صدورهم » وذلك بخلاف أهل الكتف الذين  
لا يحفظونه إلا في الكتف ، ولا يقرؤونه إلا نظراً لا عن طهر قلب » اهـ  
. أردت بقله

ولا يشكك عليك في هذا المقام ما جاء في صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال « مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن عسيراً أربعة ، أبو الدرداء ومعاد بن جبل وريدين ثابت وأبو زيد قال « وعنه ورثناه » وأبو زيد هذا اسمه قبس من السكر كما رواه أبو داود بإسناد على شرط الشيخين . وإنما قد لا يشكك عليك هذا الحديث ، لأن الحصر الذي دللنا عليه فيه حصر نسبي ، وليس حصرأ حقيقياً حتى يبقى أن يكون غير هؤلاء الأربعة قد جمعه على عهد رسول الله ﷺ .

والدليل على أن هذا الحصر إصافي لا حقيقي هو ما رواه البخاري عن أنس نفسه أيضاً وقد سأله قتادة عن جميع القرآن على عهد رسول الله ﷺ . « أربعة كلهم من الأنصار أنس بن كعب ، ومعاد بن جبل ، وريدين ثابت ، وأبو زيد » اهـ . فأتت ترى أن أساً في هذه الرواية ذكر من الأربعة أنس بن كعب بدلاً من أنس الدرداء في الرواية السابقة . وهو صادق في كلتا الروايتين لأنه ليس ممنقول أن يكذب نفسه ، فتبين أنه يريد من الحصر الذي أورده الحصر الإصافي ، ثم نقول إن أساً رضى الله عنه تعاقب عرصه في وقت ما بأن يذكر الثلاثة ، ويذكر معهم أنس بن كعب دون أنس الدرداء ، حاصراً لجمع بينهم ، ثم علق عرصه في وقت آخر بأن يذكر الثلاثة ويذكر معهم أبو الدرداء دون أنس بن كعب .

وهذا التوجيه وإن كان مفيداً ، إلا أنه يفتقر لتبصير إياه حملاً بين الروايتين ، وسهلاً وبين روايات أخرى ذكرت غير هؤلاء . ومن هذا قال مساوردي لا يلزم من قول أنس رضى الله عنه « لم يجمعه غيرهم » أن يكون الواقع كذلك في نفس الأمر ، لأنه لا يمكن الإحاطة بذلك ، مع كثرة الصحابة ومقرقيهم في السلاسل ، ولا يتم له ذلك إلا إذا كان قد لقي كل واحد منهم ، وأخبر عن نفسه أنه لم يكمل له جمع القرآن في عهد النبي ﷺ . وهذا في عادة المحدثين العادة . وكيف يكون الواقع ما ذكر ، وقد جاء في صحيح البخاري أيضاً من طريق حمص بن ممر أن النبي ﷺ يقول : « حشدوا

القرآن عن أربعة . عن عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ،  
والأربعة مدكوروں منهم اثنان من المهاجرين وهم الأولان ، واثنان من الأنصار وهم  
الأخيران . اهـ . ولعل مراد الماوردي بهذا في المحصر الحقيقي ووجبه المحصر الإصدي ، على  
نحو ما تقدم مستدلين بحديث أس بن عتبة كما رأيت ، وما روايات الأخرى التي حكى عنهم  
فيها . فتواتر ، وهي بصرح أسماء أخرى غير أسماء هؤلاء الأربعة مدكوريں في روايته أس  
هم . من تلك الروايات ما أخرجه إمامي بسند صحيح عن عبد الله بن عمر أنه قال

« تَحَفَّتْ لِقْرَآنُ فَقَرَأْتُ بِرُكْلٍ لَيْلَةً ، فَلَمَّ بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي : اقْرَأْهُ فِي شَهْرٍ »

إلى آخر الحديث . ومنها ما أخرجه ابن أبي داود بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي  
قال « تَحَفَّتْ لِقْرَآنُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَمِصَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مُدَّسُ بْنُ حَنْبَلٍ ،  
وَعُذَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ، وَأَسُّ بْنُ كَعْبٍ ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ ، وَأَبُو أَنُوبَ الْأَنْصَارِيُّ »

وذهب بعضهم إلى أن الجمع في حديث أس المدكور مراد به كونه لا الخطأ  
ويعنيهم ذهب إلى أن مراد به جمع بوجوه قراءات كاه ، أو تنقيهاً ومثلهما عن الرسول  
ﷺ ، أو الجمع شدة شدة حتى تكلم برولة

والإمام أبي بكر بن قلاي أخوته ثمانية يحاوسهم ، دفع إشكال هذا الحديث  
بأن من حجر صفة ، ووجه فقهه ، وأخص سهل على كل حال ، وفي ذكره  
كعبه للخروج من هذا الإشكال

سواء لا موسى أن أوصى لك على هذا الإشكال كلمة أعجنتي عن ماري  
إذ يقول ما فيه . « وقد تمسك بقول أس هذا حجة من ملاحظة ، ولا تمتك هم فيه  
فإن لا سلم حجة على طهره : سنده . ولكن من أين هم أن الواقع في أس لأمر كذلك ؟  
سنداه ولكن لا يرم من كور كل من العلم . وفي لم يخطه كاه ؟ لا يكون حط مجموع



الحق العامير . ونس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه ، بل إذا حفظ الكل الكل ولو عي التواتر مع كفى ، وقال القرطبي : « قد قتل يوم القيمة سبعون ، وقتل في عهد النبي ﷺ مائة مائة مثل هذا العدد قال - وإنما حصّ أسن الأربعة مائة كرا لشدته بعدة مهم دون غيرهم ، أو بسكوهم كما روا في ذهبه دون غيرهم ، اهـ .

ثم إن ما ذكرناه في هذا مقام لا يتجاوز دائرة الصحابة الذين جمعت صدورهم كتاب الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام فقد أتم حفظ القرآن آلاف مؤلفة من الصحابة ، واشتهر بإقراء القرآن من بينهم سبعة : عثمان ، وعلي ، وأبي بن كعب ، وأبو الدرداء ، وريد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو موسى الأشعري . كلهم حموا التنزيل بين حفلا صدورهم ، وأقروا لسكثير غيرهم . حارهم الله أحسن الجزاء . آمين .

وأماك أيها القارىء الكريم لا تستكثر منا هذا المجهود الطويل في حديث أسن السابق ، فإن بمنى للملاحدة قد اتحد منه مثاراً للأطن في تواتر القرآن . ومن وظيفتنا أن ردّ الماطعن ونفعم الطاعن . وأردنا أن نشبع الكلام في هذا الموضوع عند هذه المناسبة إذاً لتواجب من ناحية ، ونستعمل من إيرادنا في الشبهات الآتية من ناحية أخرى . « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ » . « إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

## جمع القرآن بمعنى كتبه في عهد

رسول الله صلى الله عليه وسلم

قالا : إن حمزة الرسول وأصحابه كانت مصروفة أول الأمر ، إلى جمع القرآن في  
الأنبوب بحمزة واستظهاره صروحة أنه بنى أمي<sup>١</sup> بعثه الله في الأميين . أصب إلى ذلك  
أن أدوات السكت لم تكن مسورة بديهم في ذلك العهد ومن هنا كان التعويل على  
الجمع في الصدور ، يعوق التعويل على الجمع بين السطور على عادة العرب أيامئذ من  
حمل صفحات صدورهم وقلوبهم ، ذواوين لأشعارهم وأنسابهم ومعارهم وأيامهم  
ولكن القرآن حطى بؤفى أصيب من عناية لئى ﷺ وأصحابه ، فلم تصرفهم  
عما تهم بحمزة واستظهاره ، عن عما تهم بكتافته ونقشه ؛ ولكن مقدار ما سمعت به  
وسائل السكتاه وأدواتها في عصرهم .

فها هو ذا رسول الله ﷺ ، قد اتخذ كُتَّابًا لآوحي ، كل رجل شئ من القرآن  
أمرهم بكتافته ، مدعه في نسجيله وتبييده . وزيادة في التوثق والصبط والاحتياط في  
كتاب الله تعالى ، حتى تظاهر السكتة به الجمع وأنه حيد . فحش الألفظ

وكان هؤلاء السكتات من حيرة الصحابة ، فيهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ،  
ومعاوية ، وأبان بن سعيد ، وحاند بن الوائد ، وأبى بن كعب ، وريد بن ثابت ،  
وثابت بن قيس ، وعديهم . وكان صلى الله عليه وسلم يذهبهم على موضع  
المكتوب من سورته ويكتبونه فيما يسهل عليهم من الأعصاب<sup>(١)</sup> والأحاف<sup>(٢)</sup> ،

(١) العصب بضم العين والسين - جمع عيب - وهو حريد اسحل ، كانوا يكشمون  
الحوص ويكتبون في الطرف المريص

(٢) الأحاف - بكسر الهمزة - جمع حفة يفتح اللام وسكون الحاء ، وهى الحفارة  
الرفيقة . وقال الخطابي : صغائر الحفارة

والرقاع<sup>(١)</sup>، وقطع الأديم<sup>(٢)</sup> وعظم الأكتاف والأصلاع ثم يوضع لمكتوب في بيت رسول الله ﷺ . وهكذا انقضى العهد السوي السعيد والقرآن مجموع على هذا النمط، بيده أنه لم يكتب في صحف ولا في مصاحف . بل كتب مشوراً كما سمعت بين الرقاع والمظام ونحوها مما ذكرنا .

روى من ابن عباس أنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب ، فقال : « ضُمُّوا هَذِهِ السُّورَةَ فِي الْوَصِيعِ الَّذِي يُذَكَّرُ فِيهِ كَذًّا وَكَذًّا » . وعن زيد بن ثابت قال : « كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نُوَلِّفُ أَقْرَانَ مِنَ الرُّقَاقِ » .

وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي ﷺ وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام ، فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول : « ضُمُّوا كَذًّا فِي مَوْصِعٍ كَذًّا » . ولا ريب أن جبريل كان لا يصدر في ذلك إلا عن أمر الله عز وجل .

أما الصحابة - رضوان الله عليهم - فقد كان منهم من يكتبون القرآن ، ولكن فيما تبسر لهم من قرطاس أو كتف أو عظم أو نحو ذلك ، بالمقدار الذي يبلغ الواحد عن رسول الله ﷺ . ولم ياتزموا توالي أسور وترتيبها ، وذلك لأن أحدهم كان إذا حفظ سورة أُنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتبها ، ثم خرج في سرية مثلاً فنزلت في وقت عيابه سورة ، فإنه كان إذا رجع يأخذ في حفظها ينزل بعد رجوعه وكتابتها ، ثم يستدرك ما كان قد فات في عيابه ، فيجمعه ويشتتعه على حسب ما يسهل له ، فيقع فيما يكتبه تقديم ونأخير حسب ذلك . وقد كان من الصحابة من يعتمد على حفظه فلا يكتب

(١) ارقاع : جمع رقعة ، وقد تكون من حلد أو وري أو كاعد .

(٢) لأديم : الجلد .

حرماً على عادة العرب في حفظ أنسابها ، واستظهار مفارحها وأشعارها من غير كتابة .  
صفوة المقلد :

وصفة المقلد أن القرآن كان مكتوباً كله على عهد الرسول ﷺ ، وكانت كتابته ملحوظاً فيها أن تشمل الأحرف السبعة التي نزل عليها ، غير أن بعض الصحابة كان قد كتب بعض منسوخ لتلاوة ، وبعض ما هو ثابت بخبر الواحد ، وربما كتبه غير مراتب ولم يكن القرآن على ذلك العهد مجزئاً في صحف ولا مصاحف عامة .

لماذا لم يجمع القرآن أيامه في صحف ولا مصاحف ؟

وإنما لم يجمع القرآن في صحف ولا مصاحف لاعتبارات كثيرة :

أولها أنه لم يوجد من دواهي كتابته في صحف أو مصاحف مثل ما وجد على عهد أبي بكر حتى كتبه في صحف . ولا مثل ما وجد على عهد عثمان حتى بسطه في مصاحف . فالمسلمون وقتئذ بحيرة ، والقراء كثيرون ، والإسلام لم يستقر هماً بعد ، والفطنة مأثورة ، والتمويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة ، وأدوات الكتابة غير مستورة ، وعناية الرسول باشتغال القرآن تفوق الوصف وتوفي على الغاية ، حتى في طريقة أدائه على حروفه السبعة التي نزل عليها .

وثانيها : أن النبي ﷺ كان يعتقد أن يزل عليه الوحي بنسخ ما جاء الله من آية أو آيات .

ثالثها : أن القرآن لم يزل مرة واحدة ، بل نزل منجماً في مدى عشرين سنة أو أكثر .  
رابعها : أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله ، فقد علمت أن رولته ، كان على حسب الأسباب ، أما ترتيبه فكان لغير ذلك من الاعتبارات .

وأنت حبير بأن القرآن لو جمع في صحف أو مصاحف والحال على ما شرعنا

لكان عزيمة تمييز الصحف أو لمصاحف كل وقع نسخ ، أو حدث نسخ . مع أن الظروف لا تساعد ، وأدوات الكتابة ليست ميسورة ، والتمويل كان على الحفظ قبل كل شيء . ولكن لما استقر الأمر بحكم التنازل ووفاء الرسول ﷺ ، وأمن النسخ ، وتفرغ الترتيب ، وولدت من الدواخي ما يفتق في نسخة أو مصحف ، وفق الله المظاهار الراشدين فقاموا بهذا الواجب حفظاً للقرآن ، وخطابة لأصل لتشريع الأول ، مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ إِنْ يَحْكُمُ بَيْنَنَا أَدَّ كُرْ وَأَنَا لَهُ فَخَاطِرُونَ ۝ ﴾

### جمع القرآن على عهد أبي بكر رضى الله عنه

ألفت الخلافة قيادها إلى أنى بكر رضى الله عنه بعد غروب شمس اسوة ، وواحدة أبا بكر في خلافة هذه أحداث شديدة ومشاكل متعبة . منها موقعة الجمامة سنة ١٢ اتفقت عشرة للهجرة . وفيها دارت رحى الحرب بين المسلمين وأهل الردة من أنصار مسيئة الكذاب وكانت معركة حامية الوطيس ، استشهد فيها كثير من قراء الضعفاء وسقطت منهم للقرآن ، بنهى عدهم إلى السبعين ، وأنهاه بعضهم إلى حمالة ، من أحلهم سالم مولى أنى خليفة . وقد هال ذلك المسلمين ، وعز الأمر على عمر ، فدخل على أنى بكر وأخبره الخبر واقترح عليه أن يجمع القرآن ، حشية الصباغ بموت الحفط وقتل القراء . فتردد أبو بكر أول الأمر لأنه كان وقتاً عند حدود ما كان عليه الرسول ﷺ يخاف أن يجره التعبد إلى التعبد ، أو بسوقه لإشياء والاختراع ، إلى الوقوع في مهابى الخروج والابتداع .

وانتهكه ضد مناقشة بينه وبين عمر تحق له وجه لمصلحة ، فاجتمع نواب الكفرة وشرح الله لها صدره وعلم أن ذلك الجمع الذى يشير به عمر ما هو إلا وسيلة من أعظم الوسائل الناهية إلى حفظ الكتاب الشريف ، والحفاظة عليه من الضياع والتعريف ، وأنه ليس من محذورات الأمور المخارعة ، ولا من البدع

والإضافات العسقة بل هو مُسْتَمَدٌّ من القواعد التي وضعها الرسول بفتح كتابه القرآن ، وإيجاد كُتُب اللوحى ، وجمع ما كُتِبَ عنده حتى مات صوات الله وسلامه عليه قال الإمام أبو عبد الله المحاسنى فى كتاب فهم الدين ما نصه « كتابة القرآن ليست بمعدنة ، فيه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابتها ، وسكده كان مُعَرِّفًا فى الرضاع ، والأكتاف ، والنسب ، فإِذَا أمر الصديق بسحبها من مكان إلى مكان محتفظاً ، وكان ذلك عملة أوروپي وُحِدَتْ فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها القرآن منشرًا ، جمعها جامع ورَ بَطَلَهَا بحيط ، حتى لا يصيب منها شيء » اهـ .

### تعميد أى نكر للعكسة :

أهم أبو نكر لتحقيق هذه الرعية ، ورأى سور الله أن يدب لتحقيقها رجلاً من حيرة رحالات انصعابة هو زيد بن ثابت رضى الله عنه ، لأنه اجتمع فيه من مواهب ذات الأثر فى جمع القرآن ، ما لم يجتمع فى غيره من الرجال ، وكان من حفظ القرآن ، ومن كتاب الوحي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهد مُعَرِّضَةَ الأخيرة للقرآن فى مقام حياته صلى الله عليه وسلم . وكان فوق ذلك معروفاً بحصوية عقبة ، وشدة ورعه ، وعظم أمانته ، وكمال حقه ، واستقامة ديبه فاستشار أبو نكر عمر فى هذا موافقه . وجاء زيدٌ من عمر من أبو نكر عمية العكسة ورغب إليه أن يقوم بتعميدها ، فتردد زيدٌ أول الأمر ، وسكن أما نكر ما رآه به صالح شكوكه ، ويبقى له وجه المصلحة ، حتى اطمأن واقنع بصواب ما نذرت إليه ، وشرع بجمع ، وأبو نكر وعمر وكبار الصحابة يشرفون عليه ، ويدعونونه فى هذا المشروع الحبل ، حتى تمَّ لهم ما أرادوا « وَيَأْتِي اللَّهُ لِلْأَنْبِيَاءِ نُورٌ وَكُورَةٌ وَنُورُهُ وَنُورُ كُرَّةِ الْكَافُرُونَ » .

وفى ذلك يروى البخارى فى صحيحه أن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال :  
« أُرْسِلَ إِلَى أُنْثَى سَكْرٍ مُقْتَلٍ أَهْلِ الْيَمَامَةِ ( أى عقب استشهاد الفراء السمين

في واقعة اليمامة) فإذا عمرُ بنُ الخطابِ عنده . قال أبو بكرٍ رضي الله عنه : « إن عمرُ أتاني فقال : إن القتلَ قد استحضرَ » ( أى اشتد ) يومَ اليمامةِ بقرء القرآن ، ولما أحسنى أن يستحضرَ القتلُ ما قرأه بالمواطىء فمذهب كثيرٌ من القرآن ولما أرى أن أمرُ جمع القرآن . قلت لعمر : كيف تعملُ ما لم يعملهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هذا والله خيرٌ ، فلم يزل عمرُ يراجعني حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمرُ . قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجلٌ شاربٌ عاقلٌ لا تهتك ، وقد كنت تكتبُ الوحيَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتكتبُ القرآنَ فاجمع . فوالله لو كفوني نزلَ جبلٍ من الجبالِ ، ما كان أثقلَ عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن . قلت : كيف تعملون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو والله خيرٌ فلم يزل أبو بكرٍ يراجعني ، حتى شرح الله صدرى لأذى شرح له صدرُ أبي بكرٍ وعمر . فتبعت القرآنَ أجمعه من العُسبِ واللخافِ وصدورِ الرِّجالِ ، حتى وجدتُ آخرَ سورةِ التوبةِ مع أبي خزيمةَ الأنصاريِّ لمْ أحدها مع أحدٍ غيرِهِ . « أَقْدَ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ » حتى خاتمةِ براءة . فكانت المصنفُ عند أبي بكرٍ حتى توفاه الله ، ثم عند عمرَ حياته ، ثم عند حفصة بنتِ عمر . اهـ .

فهذا الحديث - كما ترى - يدلُّ على مبلغِ اهتمام كبار الصحابة بالحفاظ على القرآن وعلى مبلغِ ثقة أبي بكرٍ وعمرَ يزيد بن ثابت ، وعلى جدارة زيد بهذه الثقة لنواظر تلك المناقب التي ذكرها فيه أبو بكر . ويؤيد ورعَهُ ودينَهُ وأمانتَهُ قوله : « فوالله لو كفوني نزلَ جبلٌ من الجبالِ ، ما كان أثقلَ عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن » وبشهادة بوفرة عنه تردُّده وتوقُّفه أول الأمر ومناقشته لأنى نكر حتى راحمه أبو بكر وأقمعه بوجه الصواب ، وينطق بدقَّةِ تحريره قوله : « فَتَمَتَّ الْقُرْآنَ أَجْمَعَهُ مِنَ الْعُسْبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ » اهـ رضي الله عنه وأرضاه ، ورضي عنهم وعما أجمعين .

دُستور إلى تكر في كتابة الشَّعَف :

واستهج ريد في القرآن طريقة دقيقة مُحَكَّكة وصمها له أبو بكر وعمر ، فيها صمان  
لحياطة كتاب الله بما يليق به من تثنية بالغ وحذر دقيق ، وتحريرات شاملة ، فلم يكتف بما  
حفظ في قلبه ، ولا بما كتَّبت يده ، ولا بما سمع بأذنه . بل جعل يلتصق ويستغنى أحداً  
على نفسه أن يعتمد في جمعه على مصدرين اثنين : أحدهما ما كتَّبت بين يدي رسول الله  
صل الله عليه وسلم . والثاني : ما كان محفوظاً في صدور الرجال . وبإيجاز من مبالغة  
في الحفظ والحذر أنه لم يقبل شيئاً من المکتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه  
كتب بين يدي رسول الله ﷺ .

بعد ذلك ما أخرجه ابن أبي داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب  
قال : « قديم عمر ، قتل : من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن  
فلهاأت به ، وكانوا يسكتون ذلك في المصنف والألواح والمُصْب ، وكان لا يقبل من  
أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان » .

وبذلك عليه ما أخرجه أبو داود أيضاً ، ولكن من طريق هشام بن عروة عن أبيه  
أن أبا بكر قال لعمر ، ولزيد : « اقمدا على باب المسجد ، فمن جاءكم بشاهدين على شيء  
من كتاب الله فاكتباه » . وهو حديث رجاله ثقات وإن كان منقطعاً . قال ابن  
حجر : « المراد بالشاهدين : الحفظ والكتابة » .

وقال السخاوي في حال القراء ما يفيد أن المراد بهما رجلان عدلان إذا يقول ما نصح :  
« المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المکتوب كتَّبت بين يدي رسول الله ﷺ » .  
ولم يعتمد ريد على الحفظ وحده ، ولذلك قال في الحديث الذي رواه البخاري سابقاً ،  
لأنه لم يجد آخر سورة راءة إلا مع أي حزيمة . أي لم يجدوها مكتوبة إلا مع أي حزيمة  
الأنصاري ، مع أن ريداً كان يحفظها ، وكان كثير من الصعابة يحفظونها . ولكنه  
أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة ، زيادة في التوثيق ، ومبالغة في الاحتياط . وعلى هذا



الدستور الرشيد تم جمع القرآن بإشراف أنى بكر وهر وأكار الصعانة وإجماع الأمة عليه دون سكر . وكان ذلك مقمة خالدة لا يزال الفاريج يذكرها الجيـسـل  
لأنى سكر فى الإشراف ، ولعمري الاقتراح ، ولزبدى لتعبد ، وللصعانة فى المعاونة والإقرار ا .

قال من كرم الله وجهه : « أعظم الناس فى مصاحف أحرأ أو بكر ، رحمة الله على أى بكر ، هو أول من جمع كتب الله » أحره ابن أنى داود فى مصاحف سند حسن

وقد قولت تلك الصحف التى جمها رند بما ستحق من عناية فائقة ، فحفظها أنوبكر عنده ثم حفظها عمر بعده ثم حفظها أم المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة عمر ، حتى طلبها منها حبيفة المسلمين عثمان رضى الله عنه ، حيث اعتمد عليها فى امتساح مصاحف القرآن ثم ردها إليها كما بأنيك نيابة إن شاء الله

مرايا هذه الصحف

وامتازت هذه الصحف أولا منها جمعت القرآن على أدق وجوه البحث ولتنجوى ، وأسلم أصول انتشت المعنى ، كما سبق شرحه لك فى الدستور سابق  
ثانيا . أنه اقتصر فيها على ما لم تنسخ تلاوه

لذا : أنها طمرت بإجماع الأمة عليها ، وواتر ما فيها ولا يطعن فى ذلك التواتر مامراً عليك من أن أحر سودة راة لم يوجد إلا عند أى حريمة ، فإن المراد أنه لم يوجد مكتوباً إلا عنده ، وذلك لا يشأى أنه وجد محفوظاً عند كثرة عامرة من الصحابة ملئت حد التواتر ، وقد قدما غير مرة : إن معول عليه وقتئذ كان هو الخط والاستطهار ، وبما اعتمد على الكتابة كمصدر من المصادر ، زياده فى الاحتياط ؛ ومساعدة فى الدقة والحذر ولا يبرئ عن لك أن هذا اجمع كان شاملاً للأحرف

السبعة التي نزل بها القرآن تبسيرا على الأمة الإسلامية كما كانت الأحرف السبعة في الرفاع كذلك .

### ملاحظة :

جمع القرآن في مصحف أو مصحف على ذلك الخط الآنف عزاياه سابقة اني ذكرناها بين يديك ، لم يعرف لأحد قبل أبي بكر رضى الله عنه . وذلك لا ينافي أن الصحابة كانت لهم مصحف أو مصاحف كتبوا فيها القرآن من قبل لكنهم لم ينظفوها فلغرت به المصحف المجموعة على عهد أبي بكر ، من دقة البحث والتحرى ، ومن الانقصار على ما لم تسح تلاوته ، ومن بلوغها حد التواتر ، ومن إجماع الأمة عليها ، ومن شمولها للأحرف السبعة كما تقدم . وإذن لا يصيرنا في هذا البحث أن يقال إن عليا رضى الله عنه أول من جمع القرآن بعد رسول الله ﷺ ، ولا يكرر صوغ موضوعه أن يستدلوا على ذلك بما نقله السيوطي عن ابن العرس من حديث محمد بن سيرين عن عكرمة قال : « لما كان يده خلافة أبي بكر ، قدم على أبي طالب في بيته ، فقبل لأبي بكر : قد كرهت يومئذ . فُرسل إليه ، فقال : أكرهت يومئذ ؟ فقال : رأيت كذابا أتت به زياد فبدر ، فحدثت نفسي ألا أدس رداي إلا لصلافة حتى أجهه . قال له أبو بكر : فبئت نعم ما رأيت . قال محمد : فبئت بمكرمة : أنقوه كما أنزل الأول فالأول ؟ قال : لو احتمت الإِسْ والِسْ على أن يؤقوه هذا الكذيف ما استطعوا ! » اهـ وأحسرج اس أشته من وجه آخر عن ابن سيرين هذا الأثر ، وفيه أنه كتب في مصحفه نسخا واندسوح ، وأن ابن سيرين قال . فطابت ذلك الكتاب ، وكتبت فيه إلى الدمة ، فلم أقدر عليه اهـ

يقول إن هذا الرواية وأشاعها لا يصير محتملا ، ولا تمكر صوغ موضوعه ، فقصرها

أنها تثبت أن علياً أو بعض الصحابة كان قد كتب القرآن في مصحف لكنها لا تغطي هذا المصحف تلك لصفة الإجماعية ، ولا تجمع عليه تلك المراتب التي للمصحف أو المصحف المجموع في عهد أبي بكر . بل هي مصاحف فردية ، ليست لها تلك الثقة ولا هذه المراتب . وإذا كانت قد سمقت في الوجود وتقدم بها الرمان فإن جمع أبي بكر هو الأول من نوعه على كل حال . وقد اعترف على بن أبي طالب نفسه بهذه الحقيقة في الحديث الذي أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن أنها إذا قل : « أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع كتب الله » .  
فهذا اعتراف صريح من أبي الحسن ، الأولية لمجمع أبي بكر على النحو الآف  
ر صواب الله عليهم أجمعين

### جمع القرآن على عهد عثمان رضي الله عنه

انتهت الفتوحات في زمن عثمان ، واستبهر العرب ، وتفرق المسلمون في الأمصار والأقطار . ونشأت «شدة» جديدة كانت بحاجة إلى دراسة القرآن . وطال عهد الناس بالرسول والوحي والتمثيل . وكان أهل كل إقليم من أقاليم الإسلام ، يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة ، وأهل الشام يقرءون قراءة أبي بن كعب ، وأهل الكوفة يقرءون قراءة عبد الله بن مسعود ، وغيرهم يقرأون قراءة أبي موسى الأشعري فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء ووجوه القراءة ، فطريقه فتحت باب الشقاق والبراع في قراءة القرآن ، أشبه ما كان بين الصحابة قبل أن يعدوا أن القرآن من على سبعة أحرف من كان هذا الشقاق أشد ؛ لعمد عهد هؤلاء بالموت ، وعدم وجود الرسول بينهم ، يطمشون إلى حكمه ، ويصدرون حكماً من رآه . واستعمل الأداء حتى كثر بعضهم بعضاً ، وكادت تكون فتنة في الأرض وفساد كبير . ولم يفت هذا الطغيان عند حد ،

هل كاد يلمح سارده جميع البلاد الإسلامية حتى الجحار والمدينة ، وأصاب الصغار والكبار على سواء .

أخرج ابن أبي داود في المصاحف من طريق أبي قلابة أنه قال : « كانت خلافة عثمان ، جعل يعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، جعل المعلم يلتقون فيحتفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، حتى كثر بعضهم بعضاً ، فبلغ ذلك عثمان ، فخطب فقال : « أنتم عندى تعلمون ، فمن رأى من الأمصار أشدَّ اختلافاً » .

وصدق عثمان ، فقد كانت الأمصار البائية أشدَّ اختلافاً ونزاعاً من المدينة والجحار . وكان الذين يسمعون اختلاف القراءات من تلك الأمصار إذا جمعهم الجامع ، أو التقوا على جهاد أعدائهم ، يجمعون من ذلك . وكانوا ينعون في التعجب والإسكار ، كلما سمعوا زيادة في اختلاف طرق أداء القرآن . وبأدى بهم التعجب إلى الشك والذحاة ، ثم إلى التأنيم والملاحاة . وتيقظت الفتنة التي كادت تطيح فيها إريوس ، ونسعت الدماء . وتعود المسلمين إلى مثل اختلاف اليهود والنصارى في كتابهم كما قال حذيفة لعثمان في

والحدث الآتي قريباً

أصف إلى ذلك أن الأحرف السبعة التي رل بها القرآن لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار ، ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها ، حتى يتجأوا إليها في يحتفلون إنما كان كل صحابي في إقليم ، يقرئهم بما يعرف فقط من الحروف التي رل عليه القرآن . ولم يكن بين أيديهم مصحف جامع يرجعون إليه فيما شجر بينهم من هذا الخلاف والشقاق المعيد

لهذه الأسباب والأحداث ، رأى عثمان يشاقب رأيه ، وصادق نظره ، أن يتدارك الخطأ قبل أن ينسج على الزيف ، وأن يستصل امداء ، قبل أن يعرف الدواء ، فجمع أعلام

الصحابة وذوى النصر منهم ، وأحل الراى بينه وبينهم فى علاج هذه الفتنة ، ووضع حدًا لذلك الاختلاف ، وحسم مادة هذا النزاع فأحرموا أمرهم على استنساخ مصاحف يرسل منها إلى الأمصار ، وأن يؤمر الناس بإحراق كل ما عداها ، وألا يعتمدوا سواها . وبذلك يرأب الصدع ، ويحمر الكسر ، وتعتبر تلك لمصاحف العثمانية الرسمية مورث الهادى فى غلام هذا الاختلاف ، ومصاحفهم المكشوف فى ليل تلك الفتنة ، وحكمهم العدل فى ذاك النزاع ولمراء ، وشفاهم الناجع من مصيبة ذلك المدا .

### تنفيذ عثمان لقرار الجمع :

وشرع عثمان فى تنفيذ هذا القرار الحكيم ، حول أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين من الهجرة ، فعهد فى نسخ المصاحف إلى أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ ، وهم زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . وهؤلاء الثلاثة الأخيرون من قریش .

وأرسل عثمان إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر ، فبعثت إليه بالمصحف التى عندها ، وهى المصحف التى جمع القرآن فيها على عهد أبى بكر رضى الله عنه . وأخذت لجنة الأربعة هؤلاء فى نسخها ، وجاء فى بعض الروايات أن الذين تدبوا بالنسخ المصاحف كانوا اثنى عشر رجلاً . وما كانوا يكتبون شيئاً إلا بعد أن يعرض على الصحابة ، ويقرؤوا أن رسول الله ﷺ قرأ على هذا النحو الذى نمده الآن فى المصاحف .

### دستور عثمان فى كتابة المصاحف :

وعما تواضع عليه هؤلاء الصحابة أنهم كانوا لا يكتبون فى هذه المصاحف إلا ما تحقوا أنه قرآن ، وعموا أنه قد استمر فى العرصة الأخيرة ، وما أيقنوا صدقه عن النبى ﷺ عما لم يسح . وتركوا ما سوى ذلك نحو قراءة « فامضوا إلى ذكر الله » بدل كلمة « فاسموا » ونحو « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سميمة ضالقة عصباً »

بزيادة كلمة «صالحة» ، إلى غير ذلك . وإيما كتبوا مصاحف متعددة ، لأن عثمان رضى الله عنه قصد إرسال ما وقع الإجماع عليه إلى أقطار بلاد المسلمين ، وهى الأخرى متعددة ، وكتبوها متواترة فى إثبات وحذف وبدل وغيرها ، لأنه رضى الله عنه قصد اشتغالها على الأحرف السبعة وجعلوها حالية من النقط والشكل ، تحقيقاً لهذا الاحتمال أيضاً . فكانت بعض الكلمات يقرأ رسمها بأكثر من وجه عند تحريكها من النقط والشكل نحو «تَتَبَّيَّنُوا» من قوله تعالى «إِنْ هَآءِ كُمْ فَاسِقٌ يَنسَآ فَنَتَّبِعُهَا» بإثبات تصحح أن يقرأ «تَتَنَبَّيَّنُوا» عند حلولها من النقط والشكل وهى قراءة أخرى ، وكذلك كلمة «نُشِيرُهَا» من قوله تعالى «وَأَنظُرْ إِلَى الْعِطَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا» فإن تحريكها من النقط والشكل كما ترى يجعلها صالحة عندهم أن يقرأوها «نُشِيرُهَا» بالزاي ، وهى قراءة ولادة أيضاً ، وكذلك كلمة «أَفِ» التى وردت فيها تقرأ بسبعة وثلاثين وجهاً أما الكلمات التى لا بدل على أكثر من قراءة عند حلولها من النقط والشكل مع أنها واردة بقراءة أخرى أيضاً ، فإنهم كانوا يرسمونها فى بعض المصاحف رسم يدل على قراءة ، وفى بعض آخر رسم آخر يدل على القراءة الثانية ، كقراءة «وَصَى» بالتصنيف و (أَوْصَى) بالهمز ، وهما قراءتان فى قوله سبحانه «وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ» وكذلك قراءة «تَحْنَبُهَا الْأَنْهَارُ» وقراءة «مِنْ تَحْنَبُهَا الْأَنْهَارُ» بزيادة لفظ «مِنْ» فى قوله تعالى فى سورة التوبة : «أَلَمْ حَتَّاتٌ تَحْجَرِ مِنْ تَحْنَبُهَا الْأَنْهَارُ» وهما قراءتان أيضاً .

وصورة القول أن اللفظ الذى لا يختلف فيه وجوه القراءات ، كانوا يرسمونه بصورة واحدة لا محالة . أما الذى يختلف فيه وجوه القراءات ، فإن كان لا يمكن رسمه فى الخط محتملاً لتلك الوجوه كلها ، فإنهم يكتبونه رسم يوافق بعض الوجوه فى مصحف ، ثم يكتبونه رسم آخر يوافق بعض الوجوه الأخرى فى مصحف آخر وكانوا يتهاشون أن

يكتبونه بآرسمين في مصحف واحد حشية أن يتوهم أن اللفظ نزل مكرراً بالوحدين في قراءة واحدة ، وليس كذلك . بل هما قراءتان بل اللفظ في إحداهما بوحدة واحد ، وفي الثانية بوحدة آخر من غير تكرار في واحدة منهما .

وكذلك كانوا يعجاشون أن يكتبوا هذا اللفظ مصحف واحد بآرسمين : أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية ، لئلا يتوهم أن الثاني تصحيح للأول . أضف إلى ذلك أن كتابة أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية دون العكس تحكّم ، أو ترجيح بلا مرجع وذلك نحو كلمة ( وَصَى ) بالضم ، ويف ( أَوْصَى ) بالهمز كما سبق .

أما اللفظ الذي تختلف فيه القراءات ، وبدل<sup>ة</sup> عليه الرسم بصورة واحدة تحتل هذا الاختلاف ويساعد على ترك الإعجام والشكل نحو « فَبَيَّنُوا » وَتُذِيرُهُمْ » كما ساف بيانه ، فتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين ، شبهة بدلالة المشترك اللفظي على كلا المعنيين معقولين . والذي دعا لصحابة إلى اتباع هذه أخطاء في رسم المصاحف وكتابتها أنهم تلقوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميع وجوه قراءاته ، وبكافة حروفه التي أزل عليها ، فكانت هذه الطريقة أدنى إلى الإحاطة بالقرآن على وجوه كلها ، حتى لا يقال : إنهم أسقطوا شيئاً من قراءاته ، أو متعوا أحداً من القراء بأي حرف شاء على حين أنها كلها منقولة نقلاً متواتراً عن النبي صلى الله عليه وسلم . ورسول الله ﷺ يقول : « فَأَيُّ ذَلِكَ قَرَأْتُمْ أَصَبْتُمْ فَلَا تَمَارُوا » وكان من الدستور الذي وضعه عثمان رضي الله عنه هم في هذا الجمع أيضاً أنه قال للمؤلف القرشيين « إِذَا أَحْتَفَضْتُمْ أُنْتُمْ وَرَسُولُكُمْ » ثم ثارت في شيء من القراءات ، فَكَتَبُوهُ سَنَانُ قُرَشِيٍّ ، فلما نزل عليهم ففعلوا حتى إذا نسخوا المصحف في المصاحف رد عثمان المصحف إلى حصته ، وأرسل إلى كل أقر المصحف بما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

وفي ذلك يروى البخاري في صحيحه بسند عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه ، أن حديفة بن اليماني قدم على عثمان وكان يضارى أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأوزع حديفة احتلامهم في القراءة ، فقال حديفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل عثمان إلى حصّة . أن أُرسل إليكم بالصحف نسخها في المصاحف ، ثم ردها إليكم . فأرسلت بها حصّة إلى عثمان ، وأمر ربه أن تكتب ، وعند الله من الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فسحوها في المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، وإنما أول بلسانهم ، ففعلوا . حتى إذا سحوا الصحف في المصاحف ، رد عثمان الصحف إلى حصّة ، فأرسل إلى كل أمة بمصحف مما سحوا وأمر أن يسوا من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق » ١ هـ

#### تمحريق عثمان للمصاحف والصحف الخالصة :

بعد أن أتم عثمان سح المصاحف بالصورة السابقة ، همل على إرسالها وإتخاذها إلى الأقطار ، وأمر أن يحرق كل ما عدها مما يخالفها ، سواء كانت صحف أم مصاحف . وذلك ليقطع عرق النزاع من ناحية ، وليحمل المسلمين على الجدّة في كتاب الله من ناحية أخرى ، فلا يأخذوا إلا تلك المصاحف التي توافر فيها من الرايا ما لم يتوافر في غيرها .

وهذه الرايا هي :

- (١) الاختصار على ما ثبت بالتواتر ، دون ما كانت روايته آحاداً .
- (٢) وإهمال ما سخط تلاوته ولم يستقر في المروسة الأخيرة .



(٣) وترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن بخلاف صنف أبي بكر رضى الله عنه فقد كانت مرتبة الآيات دون السور

(٤) وكنت تهاطرافة كانت تجمع وحده القراءات المختلفة والأحرف حتى رز عبيد القرآن ، على ما مرّ ، ذلك من عدم إتمامهم وشكهم ، ومن توريع وحده القراءات على النص حسب إداام يحتملها الرسم الواحد .

(٥) وتحريرها من كل ما ليس قرآنًا كالذى كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة شرحاً لمعنى ، أو بياناً لمسح ومسوح ، أو نحو ذلك

وقد استنجدت النسخة عثمان ، المحرقة ، مصاحفهم ، واحتفظوا جميعاً على المصاحف الثمانية حتى عهد الله بن مسعود الذى نقل عنه أنه أسكر أولاً مصاحف عثمان ، وأنه أنى أن يحرق مصحفه ، رجع وعاد إلى حظيرة الجماعة ، حين طهره مراراً تلك المصاحف الثمانية ، واحتجوا الأمة عليهم ، وبوحيد الكلمة بها

وحديث طهر الحق الإسلامى من أو شئ لشفق والبراع ، وأصبح مصحف ابن مسعود ومصحف أبي بكر ، ومصحف عائشة ، ومصحف علي ، ومصحف سالم مولى أبي حذيفة أصبحت كلها وأمثالها في حبر كان ، ومسولة بالماء أو محروقة بالنيران . « وكفى آفة المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً »

ورضى الله عن عثمان ، فقد أرمى بذلك العمل الخليل ، ، وحافظ على القرآن ، وجمع كلمة الأمة ، وأعنى باب العقبة ، ولا يرح المسلمون يقطعون من ثمار صبيته هذا إلى اليوم وما بعد ليوم

ولن نقدر في عمله هذا أنه أحرق المصاحف والمصحف المختلفة للمصاحف الثمانية ، فقد علمت وجهة نظره في ذلك . على أنه لا يمكن ما فعل من هذا الأمر الجليل ، إلا بعد أن استشار اصحابه ، واكتسب موافقتهم ، بل وظفر نعمائهم وتأييدهم وشكرهم .

روى أبو بكر الأبارى عن سويد بن غفلة قال : « سمعت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والعلماء في عثمان ، وقولكم : حرقوا مصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصبحت رسول الله صلى الله عليه وسلم » وعن عمر بن سعيد قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « لو كنت الوائى وقت عثمان ، أدفنت في المصاحف مقتل الذي فعل عثمان رضي الله عن الجميع ، وحرام أحسن الخراء على هذا الصنيع »

فدلالة :

تستطيع مما سبق أن تعرف بين مرات جمع القرآن في عهوده الثلاثة : عهد النبي ﷺ وعهد أبي بكر ، وعهد عثمان ( رضي الله عنهما ) فاجمع في عهد النبي ﷺ كان عبارة عن كتابة الآيات وتربيتها ووضعها في مكائيلها الخاصة من سورها ، ولكن مع نفثة الكتابة ونفثها بين عصب وعظم ، وحجارة ورقاع ، ونحو ذلك حسبما يبيّن أدوات الكتابة ، وكان العرص من هذا الجمع ريده التوثيق للقرآن ، وإن كان التوثيق بل أيمنه كان على الحفظ والاستظهار .

أما الجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه فقد كان عبارة عن نقل القرآن وكتابه في صعب مرتب الآيات أيضاً ، مقتصرأ فيه على ما لم تدسح تلاوته مستوفأ له بالتواتر والإجماع وكان العرص منه تسجيل القرآن وتقييده بالكتابة مجموعاً مرتباً ، حشية دهاب شيء منه يموت حسبه وجه طه .

وأما الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه فقد كان عبارة عن نقل ما في تلك الصحف في مصحف واحد إمام ، واستباح مصاحف منه ترسل إلى الآفاق الإسلامية ملاحظاً فيها تلك الزايات اسلف ذكرها مع ترتيب سور وآياته جميعاً وكان العرص منه إطاء انقمة

التي اشتملت بين المسلمين حين احتلوا في قراءة القرآن ، وجمع شملهم وتوحيد كلمتهم ،  
والحفاظ على كتاب الله من التعمير والتدليل « لَا تَدِيلُ إِكْلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ  
الْعَوْرُ الْأَعْظَمُ » .

### الرد على ما يثار حول جمع القرآن من شبه

كان القرآن ولا يزال هَدًى لآعداء الإسلام ، يُسَدِّدُون إليه سهام اللطاعن ، ويتخذون  
من عيوبه مثاراً للشبهات يلقونها روراً وكدماً ، وبروحها ظمناً وعدواناً . من ذلك  
ما نقصه عليك في موضوعنا هذا مشعوعاً بالتعميد فيما يأتي :

### الشبهة الأولى وهي تعتمد على سبع شبه

يقولون : إن في طريقة كتابة القرآن وجمعه ، دليلاً على أنه قد سقط منه شيء وأنه  
ليس اليوم بأيدينا على ما رسم محمد أنه أنزل عليه . واعتمدوا في هذه الشبهة على المزاعم  
الآتية :

( أولاً ) أن محمداً قال : رحم الله فلاناً فقد أدكرني كذا وكذا آية كنت  
أُسْقِطُهُنَّ ، ويرى أنسيتهن . فهذا الحديث فيه اعتراف من النبي أنه أسقط عمداً  
بعض آيات القرآن أو ألسنها .

( ثانياً ) أن ما جاء في سورة الأعراف « سَقَرْتُكَ فَلَا تَنسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » يدل  
على طريق الاستثناء الواقع فيه على أن محمداً قد أسقط عمداً أو أنسي آيات لم يقع له من  
مذكره إياها :

( ثالثاً ) أن الصحابة حذفوا من القرآن كل ما رأوا لمصلحة في حذفه ، فمن ذلك

آية النعمة أسقطها على من أتى طالب نعمة ، وكانت يصرب من يقرأها . وهذا مما شئعت عائشة به عليه قالت : إنه يحل على القرآن ، ويهني عنه ، وقد بدله وحرّفه .

(رابعاً) أن أي من كتب حذف من القرآن ما كان يرويه ولا يحده اليوم في المصحف وهو : « اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَعِينُكَ وَنَسْتَهْدِيكَ وَنَسْتَعْمُرُكَ وَنَقُودُ بِإِيْسِكَ وَنُؤْمِنُ بِكَ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْكَ وَنُثْنِي عَلَيْكَ الْحَمْدَ كُلَّهُ . نَشْكُرُكَ وَلَا نَكْفُرُكَ ، وَنَعْلَمُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَعْصُرُكَ . اللَّهُمَّ إِنَّا كَ تَعْبُدُ وَلَكَ نُصَلِّي وَنَسُجُدُ ، وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَعْبُدُ . تَرْجُو رَحْمَتَكَ وَنَحَافُ عَذَابَكَ ، إِنْ عَذَابَكَ الْجَدِّ بِالْكَفَّارِ مُلْحَقٌ »

(خامساً) أن كثيراً من آياته لم يكن لها قيد سوى تحفظ الصحابة ، وكان منهم قد قتلوا في منازي محمد وحروب خلفائه الأولين ، وذهب منهم ما كانوا يتخطون منه من قل أن يؤعروا أو يكر إلى ريد من ثبات محمده ، فذلك لم يستطع ريد أن يجمع سوى ما كان يتحفظه الأحياء .

(سادساً) أن ما كان مكتوباً منه على العظام وغيرها ، فيه كان مكتوباً عليها ملائطاً ولا ضبط ، وقد صاع بعضها وهذا ما حدا العلماء إلى الزعم أن فيه آيات رُسخت حرفاً لا حكماً . وهو من عرب المزايعم . وخليفة الأمر فيها أنها سقطت نعمة بصياح العظم الذي كانت مكتوبة عليه ، ولم يبق منها سوى المعنى محفوظاً في صدورهم

(سابعاً) لما قام الحجاج بفسرة بني أمية لم يبق مصحفاً إلا حمه وأسقط منه أشياء كثيرة قدرلت فيهم ، وراد فيه أشياء ليست منه ، وكتب ستة مصاحف جديدة بتأليف ما أراده ووجهها إلى مصر والشام ومكة والمدينة والفسرة والكوفة

وهي القرآن المتداول ليوم. ونكتمد إلى المصاحف المتقدمة، فلم يبق منها نسخة إلا أعلى لها  
الحل وطرحها فيه حتى سقطت. وإنما رام بما فعله أن يتألف إلى هي أمية ،  
لم يبق في القرآن ما يسوهم .

نقص هذه المراجع لساطلة

ملخص هذه الشبهة أن القرآن الذي تأيد به دقن، سقط منه ماسقط، بدليل المراجع  
السبعة التي شقها أمامك . وإذن فليس بين يدك هذه المراجع ، لأنني بين هذه  
الشبهة من القواعد .

(١) أما احتجاجهم الأول - وهو الحديث الذي أوردوه - فإنه لا بهن حجة لهم  
فيما دعوا من الشك في الأصل الذي قامت عليه كتابة القرآن وجمعه . بل الأصل سليم  
قويم وهو وجود هذه الآيات مكتوبة في الوثائق التي استكنها الرسول ، ووجودها  
محمولة في صدور أصحابه الذين تلقوها عنه ، والذين سمع عنهم مسع النواثر ، وأجمعوا  
جميعاً على صحتها . كما عرفت ذلك في دستور جمع القرآن  
إما قُصارى هذا الخبر أنه يدل على أن قراءة ذلك لرحل ذكرت الذي عليه إبانها ،  
وكان قد أنسبها أو أسقطها ( أى سياها ) .

وهذا النوع من النسيان لا يرغزع الثقة بالرسول ، ولا يشكك في دقة جمع القرآن  
ونسخه ، فإن الرسول عليه كان قد حفظ هذه الآيات من قبل أن يحفظها ذلك الرجل ،  
ثم استكنها ككتاب الوحي ، وناها الناس لحفظوها عنه ، ومهم رجل الرواية عبء دس  
شأن رضى الله عنه على ما روى .

وليس في ذلك الخبر الذي ذكروه رائحة أن هذه الآيات لم تكن بالمحفوظات التي  
كتبها كُتّاب الوحي . وليس فيه ما يدل على أن أصحاب الرسول كانوا قد سوهو جميعاً ،  
حتى يحذف عليها وعلى أمثالها الصياغ ، ويخشى عليها السقوط عند الجمع واستنساخ المصحف الإمام ،

كما يفترى أولئك الظرفاء صور بل الرواية سمها نُشئت مراحةً أن في الصعابة من كان يقرؤها وسميها الرسول منه

ثم إن دستور جمع القرآن . وقد مرّ آنفاً - يؤيد أنهم لم يكتبوها في مصحف إلا مظاهر الحفظ والكتابة والإجماع على قرآنيته . ومنه هذه الآيات التي يدور عليها الكلام هنا من غير ما شئت .

ولا يفوتك في هذا لمقام أمران : ( أحدهما ) أن كلمة « أَسْقَطْنَهُنَّ » في بعض روايات هذا الحديث ، مماها أَسْقَطْنَهُنَّ سياماً ، كما تدلُّ على ذلك كلمة « أَسْقَطْنَهُنَّ » في الرواية الأخرى . ومحلُّ أن يُراد به الإسقاط عدماً ، لأن الرسول ﷺ لا يسعى له ولا يعقل منه أن يبدل شيئاً في القرآن برأيه أو يقص من تلقاء نفسه ، وإلا لكان حائساً أعظم الخطيئة . والحادثن لا يمكن أن يكون رسولاً

هذا هو حكم العقل المحرّد من الهوى ، وهو أيضاً حكم النقل في كتاب الله ؛ إذ يقول سبحانه : « إِنَّهُمْ نَرُنَا اللَّهَ تَكْرُماً وَإِنَّا لَهُ لَنَخَافُصُورٌ » ، وإذ يقول جلّ ذكره : « قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي . إِنْ أَرَادْتُ أَنْ أُبَدِّلَهُ لِي » .

( الأمر الثاني ) أن روايات هذا الخبر لا تفيد أن هذه الآيات التي سمعها الرسول من عبّاد بن بشر قد تَحَتَّتْ من دهنه الشريف حملةً غاية ما تفيد أنها كانت عائنة عنه ثم ذكرها وحصرته في دهنه بقراءة عبّاد وعيبة اشقي عن الدهن أو عملة الدهن عن الشيء ، غير محوّه منه بدليل أن الحديث مما لا يُرى نصٌّ من النصوص يعبّر عنه هذا النصُّ إذا اشتغل دهنه بغيره ، وهو يوقن في ذلك الوقت بأنه محروص في حافظته بحيث إذا دعا إليه داعٍ استعصره واستحصره ثم قرأه . أمّا التفسير القائم المرادف لأتجاه الشيء من الحافظة ، فإن الدليل قام على استعالاته على النبي ﷺ وبما يحلُّ بوظيفة الرسالة والتلخيص وإذا عرّض له سيار فإنه صعب لا تحي . إلا لتروى . ولا ريب أن سائر الرسول هنا كان بعد

أن أدنى وعظيمته وبلغ لباس وحطوا عنه . فهو سريان لم يحل بالرسالة والتبليغ . قال  
البدر العبي في باب سريان القرآن من شرحه لصحيح البخاري ما نصه :

وقال الجمهور : « حذر النسيان عليه ( أي على النبي ﷺ ) فيما ليس طريقه اسلاع  
والتعليم ، بشرط ألا يُقرَّ عليه ، بل لابد أن يذكره . وأما غيره فلا يجوز قبل التبليغ ،  
وأما نسيان ما بلغه كما في هذا الحديث فهو جائز بلا خلاف » ١٥ .

هـ . ولقد كنت في الطبعة الأولى تابعت بمصر السكاكيني هذا في اتهام هذه الرواية  
بالدس والوضع ، ولكن تبين لي بعد إعادة النظر ، وتنبه بعض ذوى الفطن ، أن الخبر  
صحيح رواه الشيخان ؛ ففي صحيح البخاري عن هشام بن عروة عن عائشة رضي الله عنها  
قالت « سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يَقْرَأُ فِي الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ : يَرْجُوهُ اللَّهُ .  
لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً مِنْ سُورَةِ كَذَا » . راد في رواية أخرى : « وَقَالَ : أَسْقَطْنَاهُ  
مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا » .

وفي صحيح مسلم عن هشام عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ  
مِنَ الْآيِلِ ، فَقَالَ : « يَرْجُوهُ اللَّهُ لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً كَذَبْتُ أَسْقَطْنَاهُ مِنْ سُورَةِ  
كَذَا وَكَذَا » .

وقال النووي في كذابه التبيان في آداب حملة القرآن ما نصه : « وثبت في الصحيحين  
أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ ، فَقَالَ : « رَجُوهُ اللَّهُ .  
لَقَدْ أَذْكَرَنِي آيَةً كَذَبْتُ أَسْقَطْنَاهُ » . وفي رواية في الصحيح « كَذَبْتُ أَيْبَاهُ » ١٥ .  
مسبحان روى ١ : « لَا يَصِلُ رَأْيِي وَلَا يَنْسَى » .

(٢) وأما احتجاجهم الثاني وهو الاستثناء الذي في قوله سبحانه « سَتَجِدُنَا فَلَ  
تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » فلا يدل على ما عموماً ، لأنه استثناء صوري لا حقيقي . والحكمة  
فيه أن نعلن الله عزاده أن عدم نسيانه ﷺ الذي وعده الله في قوله « فَلَا تَنْسَى »  
إمّا هو محض فضل من الله وإحسان ، ولو شاء سبحانه أن ينسيه لأساء . وفي ذلك

الاستثناء الصوري فإذ تارة : إحداهما ترجع إلى النبي ﷺ حيث يشعر دائماً أنه معذور .  
بمعة الله وعمايته ، مادام متذكراً للقرآن لا ينسئ ، والثانية تعود على أمته حيث يعلمون  
أن منهم ﷺ وفي حصص الله به من العطايا والخصائص لم يخرج عن دائرة المودة ، فلا  
يفتخرون فيه كما فتر المصارى في المسيح بن مريم

والدليل على أن هذا الاستثناء صوري لا حقيقي أمران ( أحدهما ) ما جاء في سب  
البرول وهو أن النبي ﷺ كان يتبع نفسه بكثرة قراءة القرآن حتى وقت نزول الوحى ،  
محافة أن ينسئ ، ونعت منه ، فاقصت رحمة الله بحبه أن يطمئه من هذه الحجة ، وأن  
يرجعه من هذا العناء ، فترت هذه الآية كما ترأت آية « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لَبَّكَ لِتَفْخَرُ  
بِهِ إِنْ عَلَيْنَا خِطْمُ الْقُرْآنِ » وآية « وَلَا تَفْخَرْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُصْغَى إِلَيْكَ  
وَحْيُهُ ، وَقُلْ رَبِّ رِزْقِي عَمَّا » .

( ثانياً ) أن قوله « إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » يعنى وقوع سيال على مشيئة الله إليه .  
والشيئة لا تقع بتدبير ما مررتك من محو قواه : « إِنْ عَلَيْنَا خِطْمُ الْقُرْآنِ » . وإدأ  
والسبب لم تقع ، للعلم بأن عدم حصول الملق عليه يستلزم عدم حصول الملق فإلى عدمه  
دوق لأساليب اللغة ، وطرقي وحوه الأدلة ، يتردد في أن الآية وعد من الله أكيد ،  
ن أن الرسول يقرئه الله فلا يسئ ، وعداً منه على وجه التأييد ، من غير استثناء حقيقى لوقت  
من الأوقات وإلا لما كانت الآية متطابقة له عليه الصلاة والسلام ، ولكان رولاً أشه  
مالمبث وهو الكلام .

قال العلامة الرحوم الشيخ محمد عبده عند تفسيره للاستثناء في هذه الآية ما نصه :  
« ولما كان الوعد على وجه التأييد والاروم ، ربما يوهم أن قدره الله لا تسع سيرة ، وأن  
ذلك خارج عن إرادته حل شأنه ، جاء بالاستثناء في قوله « إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » ، لإدأ  
أراد أن يسيلك شيئاً لم يعمره ذلك ، ويقصد هو بنى السيل رأساً . وقالوا إن ذلك





وإبقاء التشريع على قراءته وقرآيته من غير نسخ . وذلك على أن المراد من النسيان الحو التام من الذاكرة . أما إن أريد به غيبة الذهن عنه فقد سبق القول فيه قريبا . ولا تحسن أن دواعي سهو الرسول وسياحه تنال من مقامه ، فإنها دواع شريفة على حد ما قيل :

« يا سائل عن رسول الله كيف سها ؟ والمهوء من كل قلب عاقل لآهي سها عن كل شيء سره ، فسها عما سوى الله ، فالتعظيم لله

( ٤٣ ) وأما احتجاجهم الثالث والرابع بأن الصحابة قد حذفوا من القرآن عنه ما رأوا المصلحة في حذفه ، ومنه آية المتعة وصيغة القنوت ، فهو احتجاج باطل قائم على إهمال النصوص الصحيحة المتصاعدة على أن الصحابة رصوا الله عليهم كانوا أحرص الناس على الاحتياط للقرآن ، وكانوا أيقظ الخلق في حراسة القرآن ، ولهذا لم يمتروا من القرآن إلا ما نلت بالتواتر ، وردوا كل ما لم يثبت تواتره لأنه غير قطعي وبأن عيهم دينهم وعقلهم أن يقولوا بقرآنية ما ليس بقطعي . وقد سبق لك ما وصوه من الدساتير المحكمة الرشيدة في كتابة الصحف على عهد أبي بكر ، وكتابة المصاحف على عهد عثمان فارحم إليها إن شئت لتعرف مدى إمعان هؤلاء المسلمين في التحق والصلال .

وإذا كان هؤلاء الطاعنون يريدون أن يبرروا الصحابة ويمسحهم هذه الخيطة البالغة لكتابات الله ، حتى أسقطوا ما لم يتواتر ، وما لم يكن في العروة الأخيرة ، وما سحت ملاوته وكان يقروء من لم يبلغه النسخ ، تقول : إذا كانوا يريدون أن يبرروا الصحابة والقرآن بذلك ، فالأولى لهم أن يبرروا أنفسهم وأن يواروا سوءاتهم . لأن المسلمين كانوا ولا يزالون أكرم على أنفسهم من أن يقولوا في كتاب الله غير علم ، وأن ينسبوا إلى الله ما لم يتم عليه صحة قاطعة ، وأن يمسكوا بالقرآن مسك الكفت الحرفة والأماحيل المبدلة .

ولما ذكر هؤلاء بثلث الكلمة التي يردّدونها هم ، وهى : « من كان يشه من رجاج  
فلا يرجح الناس » صحابة ١ .

وكلمة لفصل فى هذا الموضوع : أن آية الفتنة التي يزعمون ، وصيغة الفتنة التي  
يحكمون ، لم تثبت قرآنيتهما حتى تكونا فى عداد القرآن ، وإن ادعوا قرآنيتهما فمعهم  
البين : « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ : إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »

قال صاحب الاختصار ما نصه : « إن كلام الفتنة المروى أن أنى بن كعب أنتمه  
فى مصحفه ، لم يتم الحجة بأنه قرآن مبرر ، بل هو صرف من الدعاء ، وأنه لو كان  
قرآناً لدلّ إلينا بقل القرآن ، وحصل اعلم نصحته » ثم قال « ويمكن أن يكون منه  
كلام كان قرآناً مبرراً ثم نُسح وأصبح الدعاء به وحُطّ عما ليس بقرآن ، ولم يصح ذلك  
عنه ، وإنما روى عنه أنه أنتمه فى مصحفه ، وقد أثبت فى مصحفه ما ليس بقرآن من دعاء  
أو توبيل ٢ ا هـ . وهذا الدعاء هو الفتنة الذى أحده السادة الحنفية . ومعهم ذكر  
أن أنى رضى الله عنه كتبه فى مصحفه ، وسماه سورة الجحجج والحمد ، نورود مادة  
هاتين الكلمتين فيه ، وقد عرفت بوحية ذلك

والخلاصة أن بعض الصحابة الذين كانوا يكتبون لقرآن لأنفسهم فى مصحف  
أو مصاحف خاصة بهم ربما كتبوا فيها ما ليس بقرآن ، مما يكون تأويلاً لبعض ما معهم  
عندهم من معانى لقرآن ، أو مما يكون دعاء يجرى مجرى أدعية القرآن فى أنه يصح للإيمان  
به فى الصلاة عند الفتنة ، أو نحو ذلك ، وهم يعلمون أن ذلك كله ليس بقرآن ،  
ولكن بدرجة أدوات الكتابة ، وكوهم يكتبون بقرآن لأنفسهم وخدمهم دون غيرهم ،  
هو عليهم ذلك ؛ لأنهم آمنوا على أنفسهم اللبس وشدوا القرآن بغيره . فطعن بعض  
قصار النظر أن كل ما كتبوه فيها إنما كتبوه على أنه قرآن ، مع أن الحقيقة ليست كذلك  
إنما هى ما عرفت . أصف إلى ذلك أن لى <sup>بالحق</sup> أنى عليه حين من الدهر هى

عن كتابة غير القرآن إذ يقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه مسلم : « لَا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلَيْمَئِهِ » وذلك كله بحالة الأمن والحفظ والاشتد في القرآن الكريم .

(٥) وأما احتجاجهم الخامس بأن كثيراً من آيات القرآن لم يكن لها قيد سوى تحفظ الصحابة ، وقد قُتل بعضهم وذهب معهم ما كانوا يتحفظونه ، فلا يُسلم لهم ؛ لأن نفس ما كان يتحفظه الشهداء من القراء ، كان يتحفظه كثير غيرهم أيضاً من الأحياء الذين لم يُسْتَشْهَدُوا ولم يموتوا ، الدليل قول عمر : « وَأَخْشَى أَنْ يَمُوتَ الْقُرَاءُ مِنْ سَائِرِ الْمَوَاطِنِ » ومعنى هذا أن القراء لم يموتوا كلهم إنما المسألة مسألة خشية وحوف . ومعلوم أن أبا بكر كان من الحفظ ، وكذلك عمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت وغيرهم ، هؤلاء عاشوا حتى جمع القرآن في المصحف ، وعاش معهم من عاش حتى نسخ في المصاحف وحينئذ فمكتوبة زيد ما كتبه ، هي كتابة لكل القرآن ، لم تزل منه كلمة ولا حرف .

وكان القرآن كله مكتوباً كما سبق شرحه وبيانه ، حتى إن الصحابة في جمعه كانوا يستوثقون له بأن يعتمدوا على الحفظ والكتابة معاً ، دون الاكتفاء بأحدهما وكانوا فيما يعتمدون عليه من الكتابة يقرأون من أنه كتب بين يدي النبي ﷺ ويطلبون على ذلك شاهدين ، كما سلف إيضاحه .

(٦) وأما احتجاجهم السادس بأن ما كان مكتوباً من القرآن على العظام ونحوها كالغير منظم ولا مصبوح ؛ فيستصحب ما أتمناه آنفاً في جمع القرآن ، من أن ترتيب آياته كان توقيفياً ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرشد كُتَّابَ الوحي أن يصعدوا آية كذا في مكان كذا من سورة كذا وكان يقرأها أصحاه كذلك ، ويعطها الجميع ، ويكتبها من شاء منهم لمسه على هذا النحو ، حتى صار ترتيب القرآن وصبط آياته معروفاً مستقيماً بين الصحابة حفظاً وكتابة . ووجدوا ما كتب عند الرسول من القرآن ،

مرتّب الآيات كذلك في كل رقعة أو عظمة ، ولمّا كانت المظالم والرقاع منشرة وكثيرة مُتَعَثِّرةً على أُنْبٍ قَرِّ ، ما عير مرة أن التعويل كان على الحفظ والتلقي قبل كل شيء ، ولم يكن التعويل على المكتوب وحده ، فلا خرم كان في الحفظ والكتابة معاً ، صلباً للنظام والترتيب ، والصسط والحصر .

وأما قولهم في هذا الاحتجاج : « وقد صاع بعضها » فيطهر أسهم استندوا في ذلك إلى ما ورد من أنه فقدت آية من آخر سورة براءة ، فلم يحدوها إلا عند حُرْجَةِ بن ثابت وطنّ هؤلاء أن هذا اعترافٌ من نصيح شيء من مكتوب القرآن . وليس الأمر كما ذهبوا ، بل المعنى أن الصعاب لم يحدوها تلك الآية مكتوبة إلا عند حُرْجَةِ بخلاف غيرها من الآيات ، فقد كانت مكتوبة عند عدّة من الصعابة ، ومع ذلك فقد كان الصعابة يقرءونها ويحفظونها ويعرفونها ، ليس قولهم : فقدت آية . وإلا فما أدرام أسما فقدت من الكتابة لو لم يحفظوها ؟

وأما قولهم في هذا الاحتجاج أيضاً : إن صياح ذلك البعض دعا الصعابة إلى دعوى النسخ وهو ممن عريب الراعم ، وهو قولٌ أثيمٌ أرادوا به الطعن على النسخ وإسكاره ، وسينيك الكلام على النسخ وحكته ودفع شبه عنه في موضعٍ خاصٍ إلى شاء الله .

(٧) وأما احتجاجهم لسابع بما سبوه إلى الخجاج ، فهي سبة كاذبة ، لا ترهان لهم بها ، ولا دليل عليها . وهاهو التدرّج ، فليأتوا بما فيه سلطان مبین على أن الخجاج جمع المصاحف ، فضلاً عن أنه ينقص منها أو راد فيها . ولو أنه فعل ذلك نقل إليهم متواتراً ، لأن هذا مما تتوافر الدواعي على نقله وتواتره وكيف يفعل ذلك ، والأمة كلها تقرّؤه ، وأئمة الدين الموحودون في عهده كالحسن البصري يسكتون ولا يسكرون ، ولا يدعون ولا يستفتلون ؟ « إن هذا إلا اختلاق » .

نم إن المحتاج كان عاملاً من العمال على بعض أقطار الإسلام ، فأى له أن يجمع  
 للمصاحف ويحرقها فيما عدا ولاية التي هو عامل عليها ؟  
 وإذا فرضنا أن المحتاج كان له من القوة ولشوة ما أسكت به كل الأمة في زمانه  
 على هذا الخرق الواسع في الإسلام والقرآن ، فما الذى أسكت المسلمين بعد انقضاء عهد  
 المحتاج ؟ وإذا كان المحتاج قد استطاع التحكم في المصاحف ، والقلاعب فيها بالزيادة  
 والنقص ، فكيف استطاع أن يتحكم في قلوب الحفاظ وهم آلاف مؤلفة في ذلك العهد ،  
 حتى يمحوا منها ما شاء ، ويثبت ما أراد ؟ ! .  
 هذه دعاوى ساقطة ، تحمل أدلة سقوطها في ألغاطها ، وتدلل على جرأة القوم وإغراقهم  
 في الجهل والضلال . « وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » . نسأل الله السلامة بمنه وكرمه .  
 آمين .

## الشبهة الثانية

يقولون : إن القرآن كما حصل فيه نقص عند الجمع ، حصلت فيه زيادة ، والدليل على ذلك إسكار ابن مسعود أن الموءدين من القرآن ، وأن القرآن مأهـو من كلام أنى بكر وكلام عمر .

ونقص هذه الشبهة (أولاً) . بأن ابن مسعود لم يصح عنه ما نقل الذي تمسكتم به من إسكاره كون الموءدين من القرآن . والمسألة المذكورة في كثير من كتب التفسير وعلوم القرآن مع تحصيلها وإحواث عليها

وحلاصة ماقلوه : أن المسلمين أجمعوا على وجوب تواتر القرآن وشكل على هذا ما نقل من إسكار ابن مسعود قرآنية الفاتحة والموءدين . بل روى أنه حكاه من مصنفه الموءدين ، رحمه الله أسماها يستأمن القرآن

وقد أحابوا عن ذلك منع صحة النقل ، قال النووي في شرح المهذب : « أجمع المسلمون على أن الموءدين والفاتحة من القرآن ، وأن من جحد شيئاً منهم كفر وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح » ١ . وقال ابن حزم في كتاب الفتح المكي : ( هذا كذب عني ابن مسعود وموضوع ) . بل صح عن ابن مسعود أنه قرأه عاصم ، وفيها الموءدين والفاتحة . وفي صحيح مسلم عن عوف بن عامر : « أنه صلى الله عليه وسلم قرأها في الصلاة » . روى ابن حبان من وجه آخر عن عوف بن عامر أيضاً : « فإن استعظمت ألا تموتك قراءتهما في صلاة فادمل » ، وأخرج أحمد من طريق أنى العلان الشَّحِير عن رجل من الصحابة أن النبي ﷺ قرأاً للموءدين وقال له : إذا أتت صليت فقرأتهما . وإسناده صحيح .

( ثانياً ) يحتمل أن إسكار ابن مسعود لقراءة الموءدين والفاتحة على فرض صحته ،

كان قبل علمه بذلك ، فلما تبين له قرآنيهما بعد ، تم التواتر ، واعتقد الإجماع على قرآنيهما كان في مقدمة من آمن ، وأنها من القرآن

قال بعضهم: ويحتمل أن ابن مسعود لم يسمع لمؤدتين من النبي صلى الله عليه وسلم ولم تتواترا عنده ، فتوقف في أمرهما ، ولم يسكر ذلك عليه ، لأنه كان يصدد إلي بحث والمطر ، والواحد عليه التثبت في هذا الأمر ، ولم يعمل هذا الجواب هو الذي سترج إليه الناس ، لأن قراءة عاصم عن ابن مسعود ثبت فيها للمؤدتين والعائجة وهي صحيحة ، ونقلها عن ابن مسعود صحيح ، وكذلك إسكار ابن مسعود لمؤدتين جاء من طريق صحيحة ابن حجر إذا فليحمل هذا الإسكار على أولى حالات ابن مسعود ، جمعاً بين الروايتين

وما يقال في نقل إسكارة قرآنية لمؤدتين يقال في نقل إسكارة قرآنية لعائجة من قبل إسكارة قرآنية لعائجة ، أدخل في البطلان ، وأغرق في الضلال ، باعتبار أن عائجة أم القرآن وأنها اسم الثانی التي تثنى وتكرر في كل ركعة من ركعات الصلاة ، على سائر كل مسلم ومسلمة ، بل لا من مسعود أن يكون قد حكي عليه قرآنيهما ، وصلاً عن إسكارة قرآنيهما . وقصارى ما نقل عنه أنه لم تكتسبها في مصحفه ، وهذا لا يدل على الإسكار قال ابن قتيبة حاشية : « وأما إسقاطه عائجة من مصحفه ، فليس بعينه أنها ليست من القرآن - معاذ الله - ، وسكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين بحافة الشك والبيان ، والزيادة والمقصار ، وهو مسمى هذا أن عدم كتابة ابن مسعود لعائجة في مصحفه كان سببه وصوح أنها من القرآن ، وعدم الخوف عليها من الشك والبيان والزيادة والمقصار

( ثالثاً ) أما إن سلمنا أن ابن مسعود أسكر لمؤدتين وأسكر عائجة من أسكر القرآن كله ، فإن إسكارة هذا لا ضرر في شيء ، لأن هذا الإسكار لا يمتنع تواتر القرآن ، ولا يرفع العلم القاطع بثبوته القائم على التواتر . ولم يقل أحد في الدنيا :



إن من شرط التواتر والعلم اليقيني المبني عليه ألا يخالف فيه مخالف . وإلا لأمكن هدم كل تواتر ، وإبطال كل علم قام عليه ، بمجرد أن يخالف فيه مخالف ، ولو لم يكن في الغير ولا في المير . قال ابن قتيبة في مشكل القرآن - « ظن ابن مسعود أن المودتين ايستا من القرآن لأنه رأى النبي ﷺ مود بهما الحسن والحسين فقام على ظنه ، ولا يقول إنه أصاب في ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار » اهـ

(راما) أن ما رعموه من أن آية « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » الخ من كلام أبي بكر وهو رعم باطل ، لا يستند إلى دليل ولا شبه دليل . وقد جاء في الروايات الصحيحة أنها نزلت في واقعة أحد ، لعنت أصحاب رسول الله ﷺ على ما صدر منهم ، وأنها بيئت من كلام أبي بكر . وذلك أنه لما أصيب المسلمون في عروة أحد عما أصيبت له ، وكسرت رماعية<sup>(١)</sup> النبي صلى الله عليه وسلم ، وشج<sup>(٢)</sup> وجهه الشريف ، وحششت<sup>(٣)</sup> ركبته ، وشاع بين لقنلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل همالك قال بعض المسلمين ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي قحافة لما أمانا من أبي سفيان ونعصمهم جلسوا وأنقوا بأيديهم . وقال أناس من المنافقين : إن كان محمد قد قتل ، فالحقوا بديكم الأول . فقال أنس بن الصمر عم أنس بن مالك : إن كان محمد قتل ، فإن رب محمد لم يقتل . وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفغانوا على ما قابل عليه ، ومونوا على ما مات عليه . ثم قال اللهم إني أعتذر إليك عما قال هؤلاء ، ( يعني المسلمين ) وأرى إليك عما قال هؤلاء . ( يعني المنافقين ) ، ثم شدّ نسيمه فقاتل حتى قتل رضي الله عنه .

وروي أن أول من عرف رسول الله ﷺ كتب بر مالك ، فقد ورد أنه قال .

(١) رماعية : هي النس التي بين الباب والثنية

(٢) شج : ألوحه : حرقه

(٣) حشش : الركة : حشها .

عرفت عيبه تحت المعر ترهرا ، فناديت بأعلى صوتي : يا ممشر المشمين : أشروا !  
 هدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجحد إليه ثلاثون من أصحابه رضي الله عنهم  
 فاجحدوا عنه ثم لام لبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على الفرار . فقالوا يا رسول الله  
 قد مالك بآماننا وأماننا . أنا الخبير أنك قتلت ، فرعبت قلوبنا ، فوليها مدبرين ، فويل  
 الله تعالى هذه الآية . « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ »  
 أو قتل أنفستكم على أعقابكم ؟ ومن يمشيت على أعقابكم فكل بصره الله شيناً ، الح  
 من سورة آل عمران .

والظاهر أن هؤلاء الصاعين ربيعة هذه الآية وأنها من كلام أبي بكر ، يعتمدون  
 فيها طعنوا على ما كان من عمر يوم وفاة رسول الله ﷺ ، ومن ردّ أبي بكر عليه بهذه  
 الآية ، فرعبوا أنها من كلام أبي بكر ، وما هي من كلام أبي بكر ، بما هي من كلام  
 رب العزة ، أنزلها قبل وفاة رسول الله ﷺ بيضع سنين ، واستمعوا جميعاً وصمم أبو بكر  
 وعمر - يحفظونها ويعرفونها غير أن منهم من دهن عنها كعمر ، لمول الحادث وشدة  
 الصدمة ، وتصدع قلبه بموت رسول الرحمة وهادي الأمة ﷺ .

وكان من آثار ذلك أن عمر رضي الله عنه عمل عن هذه الآية يوم نوى رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم فقام يومئذ وقال : « إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله  
 ﷺ توفى . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات . وسكبه ذهب إلى ربه ، كما  
 ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل : مات .  
 والله أيرحم رسول الله صلى الله عليه وسلم كارجع موسى فليقطع من أيدي رجاله وأرجلهم ،  
 رعبوا أن رسوله الله ﷺ مات

هالك بهم أبو بكر ينفذ لموقف فقال : على راسك يا عمر ، أنصبت ، فحمد الله  
 وأثنى عليه ثم قال أيها الناس : من كان يمدح محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان

يصدق الله حين لا يموت : ثم تلا هذه الآية : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » إلى آخرها قال الراوى : فوالله ، لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية رلت حتى تلاها أبو بكر يؤمئذ ، فأحدها للناس من أنى نكر وقال عمر : ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فمقرت<sup>(١)</sup> حتى وقعت على الأرض ، ما تحملى رجلي حتى وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات هـ ١٠ .

وهذه الآية - كما ترى - لا يشم منها رائحة أنها من كلام أنى نكر ، بل هى تحمل فى طياتها أدلة كوسها من كلام الله ، وأن الصعابة يعلمون أنها من كلام الله ، رلت قبل أن يبرل بهم هذا الخطب العادح بصعب سين . ولكن ما الحيلة فيمن أعمام الهوى وانتعصب ؟ « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَنْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي أَصْدُورٍ » . ( حاساً ) : أن ما ادعوه من أن آية « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » من كلام عمر ، مردوداً أيضاً مثل ما رددها به رعمهم السابق فى آية « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ » الحج . بن رعمهم هذا أظهر فى البطالان ، لأن الثالث عن عمر أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم « لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى » و رلت « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » فى سورة البقرة . وهناك فرق بين كلمة عمر فى تسميه الذى هو سب البرول ، وبين كلمة القرآن الدالة بذلك السب ، فأنت ترى أن الآية حاء فيها العمل بصيغة الأمر ولم يقرن بلفظ « لو » . أما تسمى عمر حاء العمل فيه بصيغة الماضى وقرن بلفظ « لو » وتحقيق القرآن أمية أو أميات لعمر ، لا يدل على أن ما برل تحقيقاً لهذه التسميات يعقير من كلام عمر بل السعد بينهما شاسع ، والبول بعيد

(١) قال فى المختار . « والمقر بتحتين : أن تسلم الرجل قوائمها فلا يستطيع أن يقابل من الفرق والدهش . وبانه طرب . ومنه قول عمر رضى الله عنه : فمقرت حتى حررت إلى الأرض هـ ١٠ .

### الشبهة الثالثة

برغم بعض غلاة الشيعة أن غش ومن قبله أبو بكر وعمر أيضاً قرءوا القرآن، وأسقطوا كثيراً من آياته وسوره. ورووا عن هشام بن سالم من أبي عبد الله. أن القرآن الذي جاء به جبريل إلى محمد ﷺ كان سبعة عشر ألف آية<sup>(١)</sup>. وروى محمد بن نصر عنه أنه قال: كان في سورة «م نكر» اسم سبعين: حلاً من قرش بأسمائهم وأسماء آياتهم وروى محمد ابن جهم اهتلالاً وسيرة عن أبي عبد الله لفظ «أُمُّهُ هِيَ أَرْزَى مِنْ أُمِّهِ» في سورة النحل ليس كلام الله، بل هو محرف عن موضعه، وحقيقة مدلول «أُمُّهُ هِيَ أَرْزَى مِنْ أُمِّكُمْ» ومنهم من قال: إن للقرآن كات فيه سورة سمي سورة الولاية وأنها أسقطت جامده، وإن أكثر سورة الأحراب سقط، إذ أنها كات مثل سورة الأحمدة، ونسقطوا منها فصائل أهل البيت. وكذا لك ادعوا أن لصحابة أسقطوا لفظ «وَالَّذِ» من قبل «لَا تَخْرُجْ بِأَنَّ اللَّهَ مَقْبٌ» وأسقطوا لفظ «عَنْ وَلَانِ بِعَلَى» من بعد «وَقَدْ وَهُمْ لِمَهُمْ مَسْئُولُونَ» وأسقطوا لفظ «عَلَى» من أبي طالب من بعد «وَكُفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ سِتَارًا» وأسقطوا لفظ «أَنْ تَحْمِزَ» من بعد «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا» إلى غير ذلك.

فالقرآن الذي زعموا لمسلمين اليوم شرقاً وغرباً، أشد تحريفاً عند هؤلاء الشيعة من التوراة والإنجيل، وأضعف تأليفاً منها وأجمع للأبطل. «قُلْتُمْ اللَّهُ أَيْ يُؤْتِكُمْ؟»

ومن بعض هذه الشبهة عما يأتي:

- (أولاً) أنها اتهامات مجردة عن السند والدليل، وكانت لا تستحق الذكر لولا
- (١) مع الاعم أن عدد آيات القرآن ستة آلاف ومئة آية وكسور كآيات

أن ردّدها بعض الملاحدة ، وربما يمدح بها بعض المفتوين . ويكنى في بطلانها أنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يقيموا عليها رهاناً ولا شبه رهان .

« والدعاوى ما لم يُقيموا عليها تَبَيَّنَتْ ، أبنائوها أذعبياه »

ولكن هكذا شاءت حماقتهم وسفاهتهم : « وَمَنْ يُؤْنِ أَفْئُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » .

(ثانياً) أن بعض علماء الشيعة أنفسهم تبرأ من هذا السخف ، ولم يُطلق أن يكون منسوباً إليهم وهو منهم ، فعزاه إلى بعض من الشيعة جمع بهم التكبر وغاب عنهم الصواب . قال الطبرسي<sup>(١)</sup> في مجمع البيان مانعه : « أما الزيادة فيه - أي القرآن - فجميع على بطلانها . وأما نقصان فقد روى عن قوم من أصحابنا وقوم من الخشوية . والصحيح خلافه . وهو الذي نصره المرتضى ، واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء » .

وقال الطبرسي أيضاً في مجمع البيان مانعه : « أما الزيادة في القرآن فجميع على بطلانها ، وأما النقصان فهو أشد استحالة . ثم قال : إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث السكبار والوقائع العظام والكسب المشهورة ، وأشعار العرب المسطورة ، فإن العناية أشدّت ، والهداوى توفّرت على نقله وحراسته ، وبلغت إلى حد لم يبلغه شيء فيها ذكرناه ، لأن القرآن مفخرة النبوة ، ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدنيوية ، وعلامة المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية ، حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته ، فكيف يجوز أن يكون مثيّر أو منقوصاً ، مع العناية الصادقة والصطل الشديد ؟ » .

(ثالثاً) أن اتواتر قد قام ، والإجماع قد انعقد ، على أن الموحود بين دفتي المصحف كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تغيير ولا تبدل . والتواتر طريق

(١) الطبرسي من رؤساء الشيعة ، وكتابه مجمع البيان هو المرجع عندهم .

واصححة من طرق العلم . والإجماع سبيل قوي من سبل الحق . « تَدَا نَعْدَ الْحَقِّ  
إِلَّا الصَّلَاةَ » .

( رابعاً ) أن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه - وهو الذي يرمعون أنهم  
بما صروه ويتشيعون له بهذه الهدايات - صحَّ النقل عنه بتصحيح جميع القرآن ، على  
عهد أبي بكر ثم عهد عثمان . ولعلك لم تنس أنه قال في جمع أبي بكر ما نصه : « أعظم  
الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع كتاب  
الله » . وكذلك قال في جمع عثمان ما نصه : « يا معشر الناس اتقوا الله ، وإياكم  
والفلو في عثمان ، وقولكم : « حرَّاقُ مصاحف ، فوالله ما حرقها إلا من ملأ منا أصحاب  
رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقوله : « لو كنت الوالي وقت عثمان لعلت في  
المصاحف مثل الذي فعل عثمان » وهذا قطع الإمام السنة أولئك المفتريين ، ورد كيدهم  
في نحورهم مخذولين . فأي مذهبون ؟ « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا  
التَّعْذَابَ وَقَطَّعَتْ سَائِمُ الْأَسْبَابُ » ؟ .  
« رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِنْ أَدْنِكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ  
الْوَهَّابُ » .

( خامساً ) : أن الخلافة قد انتهت إلى علي كرم الله وجهه بعد أبي بكر وعمر وعثمان ،  
فإذا منعه أن يجهز وقتئذ بالحق في القرآن ، وأن يصحح للناس ما أخطأ فيه أسلافه على  
هذا الزعم والبهتان ؟ مع أنه الإمام المعصوم في عقيدة أولئك المبطلين ، ومع أنه كان  
من سادات حفظة القرآن ، ومن أشجع خلق الله في نصرة الدين والإسلام . وأقد صار  
الأمر بعده إلى ابنه الحسن رضي الله عنه ، فإذا منعه الآخر من انتهاز هذه الفرصة  
كي يظهر حقيقة كتاب الله للأمة هذه مراعى لا يقولها إلا المحسنون ، ولا يصدق بها إلا المأمونون !!

وعفوها

## الشبهة الرابعة

يقولون : ورد أن عبد الله بن مسعود قال : « يا معشر المسلمين ، أغرل عن سح للصاحب ، وبتوا له رجل - والله - لقد أسعت وإياه لني صلب رجل كافر ؟ » اه .  
قالوا : وهو يعني هذا الرجل ريد بن ثابت ، ويريد بذلك الكلام الطعن على جمع القرآن . وهذا يدل بالتالي على أن القرآن الموحد بين أيدينا ليس موضع ثقه ، ولم يبلغ حد التواتر .

وينقص شتهم هذه . ( أولاً ) بأن كلام ابن مسعود هذا - إذا صح - لا يدل على الطعن في جمع القرآن ، إنما يدل على أنه كان يرى في نفسه أنه هو الأولى أن يسد إنيته هذا الخلق ، لأنه كان يثق بنفسه أكثر من ثقته يزيد في هذا الباب ، وذلك لا ينافي أنه كان يرى في ريد أهلية وكفاية للخصوص بما أسد إليه ، وإن كان هو في نظر نفسه أكثر وأحدر غير أن المسألة تقديرية ولا ريب أن تقدير أي نكر وصر وعثمان لريد أصدق من تقدير ابن مسعود له . كيف وقد عرفت فيما سبق مجموعة لمؤهلات والمرايا التي توافرت فيه ، حتى جعلته الجدير بتعميد هذه الآية السامية . أصف إلى ذلك أن عثمان سمع إليه ثلاثة ، ثم كان هو وجمهور الصحابة مشرفين عليهم مراقبين لهم ، وباهيك في عثمان أنه كان من حفاظ ومطلى القرآن .

وحلاصة هذا الجواب أن اعتراض ابن مسعود - على فرض صحته - كان منصفاً على طريقة تأليف جملة الجمع ، لا على صحة نفس الجمع مع أن كلمة ابن مسعود السالفة لا تدل على أكثر من أنه كان يكثر ريداً نزعاً طويلاً ، إذ كان عبد الله مسلماً ويريد لا يزال صغيراً مستقراً في صلب أبيه . وليس هذا بطعن في ريد ، فكيف ترك الأول للآخر . ولو كان الأمر بالنسب لا احتل كثير من نظام الكون . ثم إن كلمة

ابن مسعود ربما فهم منها الطعن في زيد من ناحية أن أمه كان كافراً ، وسكن هذا  
 ليس بمصنع ، فكثير من أكار الصلحة كانوا في مبدأ أمرهم كافرين ، وخرجوا من أصلاب  
 آباء كافرين . والله تعالى يقول « وَلَا تَرَوْا زُرَّةً وَذُرَّةً أُخْرَى » ويقول : « قُلْ لِلَّذِينَ  
 كَفَرُوا إِنْ يَدْنُوهُمْ يُهْمُ بِهِمْ مَا قَدْ سَلَفَ »

( ثانياً ) : أنا إذا سلمنا صحة ما نقل عن ابن مسعود ، وسدنا أنه أراد الطعن في صحة  
 جمع القرآن ، لا نسلم أنه دام على هذا الطعن والإسكار ، بدليل ما صح عنه أنه رجع إلى  
 ما في مصحف عثمان ، وخرق مصحفه في آخره الأمر ، حين تبين له أن هذا هو الحق ،  
 وبدليل ما صح عنه من قراءة عاصم عن ربيعة ، وقد تقدم .

( ثالثاً ) أن كلام ابن مسعود هذا - على تسليم صحته - وأنه أراد به الطعن في صحة  
 الجمع ، وأنه دام عليه ولم يرجع عنه - لا سلم أنه بدل على إبطال تواتر القرآن فإن التواتر  
 كما أسلفنا يكفي في القطع بصحة مرويه أن ينقل عن جمع يؤمن تواترهم على ما الكذب  
 بشرطه ، وليس من شروطه ألا يخالف فيه يخالف حتى يقدح في تواتر القرآن أن يخالف  
 فيه ابن مسعود أو غير ابن مسعود ، ما دام هم غفير من الصحابة قد أقروا بجمع القرآن على  
 هذا النحو في عهد أبي بكر مرة ، وفي عهد عثمان مرة أخرى .

### الشبهة الخامسة

يقولون : كيف يتكون القرآن متواتراً ، مع ما يروى عن زيد من ثابت أنه قال  
 في الجمع على عهد أبي بكر ما نصه « ففقت فتقسمت القرآن أحده من الرقاق  
 ولأكتاف والعصب وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع  
 أي حريمة الأصاير م أحدهما مع غيره ، وهما « لقد جاءكم رسول » إلى آخر السورة



ثم كيف يكون القرآن متواتراً ، مع ما يروى أيضاً عن زيد بن ثابت أنه قال في الجمع على عهد عثمان ما نصه : « فقدت آية من سورة الأحراب كسبت أسمع رسول الله ﷺ يقرأها ، لم أحدها مع أحدها إلا مع حزيمة بن ثابت الأنصاري الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته شهادة رحلين : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » ؟

والجواب على هذه الشبهة ( أولاً ) أن كلام زيد بن ثابت هذا ، لا يطل التواتر ويدين ذلك أن الآيتين حتام سورة التوبة ، لم تبت قرآنيتهما بقول أي حزيمة وحده بل ثبتت بحبار كثيرة عامرة من الصحابة عن حفظهم في صدورهم ، وإن لم يكونوا كتبوه في أوراقهم . ومعنى قول زيد : « حتى وجدت من سورة التوبة آيتين لم أحدها عند غيره » أنه لم يجد الآيتين اللتين هما حتام سورة التوبة مكتوبتين عند أحد إلا عند أي حزيمة ، فالذي امرده أبو حزيمة هو كتابتهما لا حفظهما ، وليس استحالة شرطاً في التواتر ، بل لمشروطة فيه أن يرويه جمع يؤمن بوطونهم على التكذب ولو لم يكتبه واحد منهم ، فكتابة أي حزيمة الأنصاري كانت توثيقاً واحتياطاً فوق ما يطلع التواتر وبقية نصيبه ، فكيف قدح في لتواتر ما مراده بها ؟ !

( ثانياً ) يقل مثل ذلك فيما روى عن زيد في آية سورة الأحراب : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فإن معناه أن زيدا لم يحدها مكتوبة عند أحد إلا عند حزيمة بن ثابت الأنصاري . ويدل على أن هذا هو المعنى الذي أراد به زيد بمصادره تلك ، قول زيد نصه فقدت آية من سورة الأحراب الخ ، فإن تعبيره بلفظ « فقدت » يشعر بأنه كان يحفظ هذه الآية ، وأنها كانت معروفة له ، غير أنه فقد مكتوبها ، فلم يحده إلا مع حزيمة ، وإلا فمن الذي أمّا زيدا أنه فقد آية ؟

( ثالثاً ) أن كلام زيد فيما مضى من حتام توبة وآية الأحراب ، لا يدل على

عدم تواترها ، حتى على فرض أنه يريد انفراد أى حرية وحرمة ذكرهما من حفظهما .  
عاية ما يدل عليه كلامه ، أسما انفراد ذكرهما ابتداء ، ثم ذكر الصحة ما ذكرناه ،  
وكان هؤلاء الصحابة جميعاً يؤمنون تواطؤهم على الكذب ، فدوت تلك الآيات في المصحف  
والمصحف ، بعد قيام هذا التواطؤ فيها .

### الشبهة السادسة

يقولون : كانت الآيات تكتب على الحجارة وسعف النخل والمطام خوافاً عليها  
من الضياع ، وبني جانب كبير منها محفوفاً في صدور الرجال . وقد نشأ عن ذلك عدة  
مث كل يعقربها الباحثون فوه كاهية لإثبات كون القرآن الحالى لا يحتوى جميع الآيات  
التي نطق بها محمد ، ومنصها يختلف في القراءة واللفظ والمعنى . ويقولون بعبارة أخرى  
لأنه من المستحيل أن يكون القرآن الحالى حاوياً لجميع ما أنزل ، إذ من المؤكد أنه ذهب  
منه جانب ليس بقليل ، وأسى منه جانب آخر ، قال ابن عمر : « لا يقول أحدكم  
قد أخذت القرآن كله . قد ذهب منه كثير . ولكن لو قل : قد أخذت ما ظهر منه » .  
بهذا يثبت أن لقرآن الحالى لا يتضمن جميع ما كان مسطوراً في اللوح المحفوظ . ولا هو  
طبق ما نطق به شفاه محمد ، سيما أن في آيات عديدة منه اختلافات مذهبة ، ولا يعلم  
نصها الصحيح أحد » اهـ .

ونقص هذه الشبهة بما يأتي :

( أولاً ) أن كتابة القرآن على الحجارة والسعف والمطام ، ونقاء جانب كبير منه  
محفوظاً في صدور الرجال ، لا يأم منه مشكلة واحدة فضلاً عن عدة مشاكل ، إنما  
هو وهم من الأوهام تحيروه الخوف ، وبذلك أسهم لم يدركوا سندهم فيما ذهبوا إليه من  
هذا الشطط .

(ثانياً) أن الحطارة وصعب المحل والعظام التي كتبت عليها بعض آيات القرآن لم تكن بحيث يمكن أن يتخيل أولئك الطاعمون أو يميلوا إلى الناس أنها لا تصلح للكتابة عليها، بل كانت العرب لبدونها ولعمدها عن وسائل الحاصرة والعمران، تصطف من أنواع الحطارة الموفرة عندها نوعاً رقيقاً يكون كالصحية يصلح للكتابة وللقاء، أشبه ما يراه اليوم من الكتابة الخجلة المنقوشة على صفحات مصنوعة مما تسمى (الحس). وكذلك صعب المحل تكشطون الخوص عنه، ويكتوبون في الخبز العريض منه بعد أن يصفقوه ويهذبوه فيكون أشبه بالصحية. وقل مثل هذا في العظام، بدليل أن الروايات الواردة في ذلك نصت على نوع خاص منه وهو عظام الأكتاف، وذلك لأنها عريضة رقيقة ومصفولة صالحة للكتابة عليها بسهولة.

(ثالثاً): أن استنتاجهم من هذا كون القرآن الخالي لا يحتوي جميع الآيات التي نطق بها محمد، استنتاجٌ معكوس، وهم معكوس، لأن كثرة القرآن وحفظه في آية واحدة في صدور آلاف مؤلفة من الخلق، أدعى إلى بقاء ذلك القرآن، وأدلى على أنه لم تغلث منه كلمة ولا حرف. كيف وأحد الأمرين من الكتابة والحفظ كافٍ في هذه النفقة؟ فما مالكم إذا كان القرآن كله مكتوباً بخطوط أشخاص كثيرين، ومحمولاً في صدور جماعات كثيرين؟

(رأساً) قولهم: «ويعصها يختلف في القراءة واللفظ والمعنى» إن أرادوا به الطعن في تعدد القراءات واختلاف وجوه الأداء، فقد سبق في بحث نزول القرآن على سبعة أحرف ما يكفيكم في الرد عليهم، وسيأتيك في بحث القراءات ما يزيدك تموراً في هذا الموضوع، وإن أرادوا به شيئاً آخر فمديهم البير. وحسبك أن تعرف أن اختلاف حروف القرآن أمر تقتضيه الحكمة، ويوحى به عموم الدعوة الإسلامية. خصوصاً لمن شافهم الرسول عليه الصلاة والسلام، وهم على اختلاف قبلاتهم، وتوابع

لمعاتهم ، وتمايز وجوه نطقهم ، عربٌ تولف بينهم العروبة الواحدة ، ويجمعهم اللسان العربي العام . وأي عيب على القرآن إذا احتضنت حروف أدائه ، وكميمات المطلق بكلماته ، ليسع القائل العربية جميعاً ، وليتسنى لها تلاوة ألقاظه ، وتفهم معانيه ؟ ولشلا يقول أحد منها : لوجاء القرآن بلغتنا لكان لنا معه شأن ، ولأنبنا بمنطقه ، وعارضه بلاغته ! « وَاللَّهُ خَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »

( خامساً ) : قولهم إنه من المستحيل أن يكون القرآن الخالي سائياً لجميع ما أنزل إلخ ، كلام مجرد من السند والحجة لا يستحق الرد ، فإن استندوا فيه إلى ما سبق فقد استندوا إلى أوهم من بيت المنكبوت ، وقد عرفت وجوه الوهن التي فيه . وإن استندوا إلى ما ذكره بعدد ما نسبوه لابن عمر ، فقد زادوا لطین بلة ؛ لأن هذه النسبة إلى ابن عمر نسبة خاطئة كاذبة ، وعلى فرض صحتها فهي موقوفة وليست مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى فرض رفعها فهي معارضة للأدلة القاطعة المتوافرة في تواتر القرآن وسلامته من التفسير والزيادة والنقصان ، ومعارض القاطع ساقط مهما كانت قيمة سنده في خير الواحد .

( سادساً ) : أن سياتهم التي حتموا بها هذه الشبهة أقرب من بدايتهم ، لأنهم رتبوها على تلك الأكاذيب والممارات ، ثم زادوا فيها اتهاماً جديداً مجرداً من السند والحجة أيضاً ، وهو أن في آيات عديدة من القرآن اختلافات مذهبة ، ولا يعلم نصها الصحيح أحد ، وهكذا حروا من اتهام إلى اتهام ، واحتجوا بكذب على كذب ، وهامت عليهم كرامتهم وعقولهم ، فقالوا ماش لهم اموى والتمصب إلى هذا الحد وأنت خير من القرآن الخالي وصل إنيما محفوظاً من كل عيب كما نطق به الرسول ﷺ وكما حصه الله تعالى نعمه في لوحه « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْغَايِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَمِيدٍ عَظِيمٍ »

أما رعمهم أن فيه اختلافات مدهشة ، فقد علمت في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف مدى اختلاف وجوه انقراءات وحكمته ، وأنه لا يؤدي إلى تحادل وساقص حتى يكون مدهشاً .

وأما بصوص القرآن الصحيحة فقد علمها وحفظها جمع يؤمن نواظروهم على الكذب في كل طبقة من طبقات الأمة من لدن رسول الله ﷺ إلى اليوم .  
فادعاء هؤلاء الجبهة الدجالين أنه لا يعلم نصوص القرآن الصحيحة أحد ، ادعاء منضوح ، وكذب مكشوف .

قال صاحب مُسَلَّم الثبوت - وهو من أشهر الكتّاب في أصول الفقه الإسلامي - :  
« مَا نَقِلَ أَحَاداً فَيُسَمَّى بِقُرْآنٍ قَطْعاً ، وَلَمْ يَعْرِفْ فِي هَذَا خِلَافٍ لَوَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ .  
وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ مِمَّا تَوَافَرَ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ لِنَصْنِهِ لِمَعْنَى ، وَلِأَنَّهُ أَصْلُ الْأَحْكَامِ بِاعْتِبَارِ لُغَتِهِ وَالْمَعْنَى جَمِيعاً ، وَلِذَلِكَ عُلِمَ جِهْدُ الصَّحَابَةِ فِي حِفْظِهِ بِالتَّوَاتُرِ الْقَاطِعِ ، وَكُلُّ مَا تَوَافَرَ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ يَنْقَلُ مَتَوَاتِراً عَادَةً ، فَوْجُودُهُ مَلْزُومٌ التَّوَاتُرِ عِنْدَ الْكُلِّ عَادَةً ، فَإِذَا انْتَفَى الْإِلَازِمُ وَهُوَ التَّوَاتُرُ انْتَفَى الْمَلْزُومُ قَطْعاً . وَالْمَنْقُولُ أَحَاداً لَيْسَ مَتَوَاتِراً فَيُسَمَّى قُرْآنًا » اهـ بتصرف قهول .

« خَطُّ مَنِيعٌ مِنْ خُطُوطِ الدَّفْعِ عَنِ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ »

أو الدواعي والعوامل التي توافرت في الصحابة حتى استظهروا القرآن

والحديث النبوي وتثبتوا بهما

إن الناظر في السمات السالفة وأمثالها ، يبدو له في وضوح أن القوم يحاولون الطعن في القرآن عن طريق اسيل من الصحابة ، فطوراً يقولون : إن الصحابة حين جمع القرآن لم يكونوا يستظهرونه ، وإن الدين استظهروه منهم ماتوا قبل حمله واستشهدوا ، وطوراً تقولون : إن الصحابة لم يثبتوا في جمع القرآن ، بل حطوا فيه دليل ، ورادوا فيه ونقصوا منه ماشاءوا .

وقد كثرت هجمات أعداء الإسلام من هذه الباحية كثرة فاحشة، بحيث إذا لمستقصيا  
شبهاتهم كلها صدق ما نطق هذا التأليف، وجرحا حملة من الحق العمى لما دى "الهديد"،  
إلى ميدان صاحب القليل والقال، والصيل والحدال، والدفاع والانصل.

وكذلك كثرت هجمات أعداء الإسلام على السنة النبوية من باحية الصحابة أيضا،  
فتارة يستكثرون عليهم أن يكونوا قد حفظوا الحديث الشريف وهو موسوعات كبيرة،  
وتارة يتهمونهم الخيانة والنزيد وعدم الثبات والتعريض، ويدنون على ذلك مغترلات  
ما أنزل الله بها من سلطان.

يريدون بهذه الاتهامات الجريئة للصحابة، أن يزغروا ثقة الناس بكتاب الله تعالى  
وسنة رسوله ﷺ، حتى يقتلوا المسلمين عن دينهم، وحتى يقيموا الحواجز والدوائر  
في طريق غير المسلمين، مخافة أن يمتد بهم الإسلام إليه بمحاسنه الأخاذة، وقوته المحولة،  
وتصميمه الوعدة.

وبرغم أن شبهات النجوم كلها متشابهة، وطرق دفعها هي لأخرى متشابهة، فمن واجب  
الخطبة والحذر بتضميننا بعد ما تقدم أن نقيم حصصا مبيحا من خطوط الدفاع عن الكتاب  
واسنة، وأن نؤلف هذا الخط من حجتين قويتين، الجهة الأولى تطاول أسماء بتحلية  
الدواعي والموامل التي توافرت في أصحاب رسول الله ﷺ حتى حمت منهم كثرة غامرة  
يحفظون القرآن والحديث، وينقلونهم نقلا متواترا مستفيضا. والجهة الثانية تفاخر  
الجاراء بنظم الدواعي والموامل التي توافرت فيهم رسول الله عليه، حتى حمت منهم بلشبون  
أبلغ ثبوت وأدق في القرآن وجمع القرآن وكل ما يتصل بالقرآن، وفي الحديث الشريف وكل  
ما يتصل بالحدث لشريف.

وإني أستمح الله متوحا وتوفيقا في هذه المحاولة الخفيفة «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ  
تَيَمُّنٍ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ تَيَمُّنٍ»، وإن الله تسميح عليم.

## ١ - الجبهة الأولى

أو الدواعي والعوامل في حفظ الصحابة للكتاب والسنة  
ونقلهم لها

ولنبدا بشرح العوامل والدواعي التي بشرت للصحابة حفظ الكتاب والسنة وقسمها،  
حتى لا يستبعد ذلك عليهم أحد ، ولا يظن في الكتاب والسنة من هذا الطريق أحد :

## العامل الأول

أنهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة؛ ولا يحذقون الخط والكتابة، اللهم إلا أنزُرَ  
يسيراً لا يصاع منهم حكم على المجموع . وترجع هذه الأمية السائدة فيهم إلى غلبة البداوة  
عليهم، وبُعْدِهِمْ عن أسباب المدنية والحضارة ، وعدم اتصالهم علمياً وثيقاً بالأمميين  
المتحضرين في العالم لذلك الحين ؛ أمة الفرس في الشرق ، وأمة الروم في الغرب . ومعلوم  
أن الكتابة والقراءة وأنحاء الأمية في أمة ، رهينٌ بخروجها من عهد السداجة  
والبساطة ، إلى عهد المدنية والحضارة .

ثم إن هذه الأمية تجعل المرء منهم لا يعول إلا على حافظته وذاكرته ، فيما يسهل حفظه  
ودكره . ومن هنا كان تمويل الصحابة على حواشيهم بقدهوسها في الإحاطة بكتابات الله  
وسنن رسوله ﷺ ، لأن الخط هو السبيل الوحيدة أو الشبيهة بالوحيدة إلى إحاطتهم بها .  
ولو كانت الكتابة شائعة فيهم ، لا اعتمادوا على النقش بين السطور ، بدلا من الخط  
في الصدور .

ثم عمل رسول على كتابة القرآن ، وكان له كُتُبٌ يكتبون الوحي كما سبق ، وكان بعض الصحابة يكتبون القرآن لأنفسهم كذلك ، غير أن هؤلاء وهؤلاء كانوا فئة قليلة بحسب إجماع الفقهاء من سواد الأمة الكثير . وبذلك لم ينس أن كتابة القرآن في عهد رسول كان العرص منه ، زيادة التوثيق والاحتياط للقرآن الكريم ، تنجيده وتسجيله بالقرش ، فوق تنجيده وتسجيله بالحفظ .

أما السنة النبوية فقد هي النبي ﷺ أصحابه من كتابتها أول الأمر بحافة اللبس بالقرآن ، إذ قال عليه الصلاة والسلام : « لَا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْسَحْهُ ، وَحَدِّثُوا عَنِّي فَلَا حَرَجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّخِذْهُ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري

ثم حتى لرسول صلى الله عليه وسلم أن يكتب القرآن بالسنة ، إذا هم كتبوا السنة كما كانوا يكتبون القرآن ، أو أن تتورع جهودهم وهي لا تحتل أن يكتبوا جميع السنة وجميع القرآن فمصرهم على الأمر أولاً وهو القرآن . خصوصاً إذا لاحظنا أن أدوات الكتابة كانت رديئة لديهم إلى حد بعيد ، حتى كانوا يكتبون في اللعاف والسعف والعظام كما عمت .

فرحة بهم من ناحية ، وأخذاً لهم بتقديم الأمر على المهم من ناحية ثانية ، وحفظاً للقرآن أن يشبهه لسنة إذا هم كتبوا السنة بحسب القرآن نظراً إلى عرصة الورق وندره أدوات الكتابة ، وعادة هذه عادات ثلاث هي رسول عن كتابة السنة

أما إذا أمن اللبس ، ولم يُحش الاحتياط ، وكان الأمر سهلاً على الشخص ، فلا عليه أن يكتب أحدث شريف ، كما يكتب القرآن الكريم . ومع ذلك نُحذِر لأحاديث الواردة في إلزام كتابة اسمه أحسن الأمر ، وإبادة في إلزام بعض الأشخاص



كعبدا لله من عمرو (رضي الله عنه) ولهذا الموضع مسحتُ خاصته فاطلمه إن شئت في  
عيوم الحديث .

وأياً ما تكن كتابة القراء والسنة السوية، فإن التعويل قبل كل شيء كان على الحفظ  
والاستظهار، ولا يزال التعويل حتى الآن على «تلقى من صدور الرجال» ثقةً عن ثقة،  
وإماماً عن إمام، إلى النبي ﷺ .  
غير أن الرجل الأمل والأمة الأمة يكونان أسبق من غيرها إلى الحفظ، للمعنى الذي  
أسلفناه لك .

### العامل الثاني

أن لصعوبة كانوا أمة يُحرب بها المثل في الذكاء والألمعية، وقوة الحافظة وصفاء  
الطبع، وسيلان الذهن وحدة الخطأ وفي التاريخ العربي شواهد على ذلك يطول بنا  
تفصيلها، ولعلها على حالٍ منك. حتى لقد كان الرجل منهم ربما يحفظ ما سمعه لأول مرة  
مهما كثر وطول، وربما كان من لفظة غير لفظه، ولسانٍ سوى لسانه، وحسبك أن تعرف أن  
ردوسهم كانت دواوين شهرهم، وأن صدورهم كانت سجلات أسابهم، وأن قلوبهم كانت  
كتاب وقائعهم وأيامهم أكل أولئك كانت خصائص كتاباتهم وفي سائر الأمة العربية  
من قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام فأزحف بهم هذه القوى والمواهب، وزادهم من تلك  
الزايما والخصائص ما أفاد طبعهم من ضيق، ونفوسهم من طهر، وعقولهم من تنوير،  
خصوصاً إذا كانوا يسمون لأصدق الحديث وهو كتاب الله، ولخير الهدى وهو هدى  
محمد ﷺ .

### العامل الثالث

اساطة هذه الأمة العربية ، واقتصارها في حياتها على ضروريات الحياة من غير  
 مَيُّل إلى التُّرف ، ولا إغراق جهد أو وقت في الكاليات. فقد كان حسب الواحد منهم  
 لَقِيَمَات يُقِيْنَ صَبِيه ، وكان يكفيه من معيشته ما يذكره شاعرهم في قوله :-  
 « وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا نَوْمَةٌ وَسَطْحٌ وَتَمَرٌ عَلَى رَأْسِ الْمَجِيلِ وَمَاءٌ »  
 ومثلك يعلم أن هذه الحياة المادنة الوادعة ، ولدت العيشة الراصية الفاصدة ، تُوقِرُ  
 الوقت والمجهود ، وترضى الإنسان الملوحد ، ولا تشغل الدل بالمقود ولهذا أثره العظيم  
 في صماء المذاكرة وقوة الحافظة وسيلان الأدهس ، حصوصاً أدهان الصحابه في اتحدها  
 إلى حفظ القرآن وحديث النبي عليه الصلاة والسلام ، وذلك على حد قول القائل :-  
 « ... فصادفَ قلماً حالياً فتصكَّمَا » .

### العامل الرابع

حُبُّهم الصادقُ لله ورسوله ، حبٌّ منك مشعرهم ، واحتلَّ مكان العقيدة فيهم .  
 وأنت تعرف من دراسة علم النفس ، أن الحبَّ إذا صدق وتمسك ، حلَّ الحبَّ حلاً  
 على نرسُم آثار محبوه والتلذُّد بحديثه ، ولشادُّ بأحارده ، ووعى كل ما يصدر عنه ويبدُر  
 منه . ومن هنا كان حب الصحابة لله ورسوله ، من أقوى العوامل على حفظهم كتاب  
 الله وسنة رسوله ﷺ على حد قول القائل :-  
 « لَمَّا أُحْدِثُ مِنْ ذِكْرِكَ تَشَعَّبَتْ عَنْ الشَّرَابِ وَلُطْفِهِ عَرِ الزَّادِ »  
 هَذَا بَوَاحِيكَ مُورُ يُنْمَصَا « وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَغْنِيهَا حَادٍ

إِذَا شَكَّتَ مِنْ كَلَالِ السَّيْرِ وَاعْتَدَهَا رُوحَ الْقُدُومِ فَتَحِيًّا عِنْدَ مِيعَادِهِ ،  
أما حبُّ لصحابة العميق لله تعالى ، فلا يحتاج إلى شرح وبيان ، ولا إلى إقامة  
دليل وبرهان ، فهم خير القرون بمصر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وخير القرون  
قَرَى ثُمَّ الَّذِينَ يَكُونُ هُمْ ، وهم الذين بذلوا نفوسهم وبنايتهم رخيصة في سبيل رضاء  
وهم الذين باعوا الدنيا بما فيها يبتغون فضلاً من الله ، وهم الذين حللوا هداية الإسلام  
إلى الشرق والغرب ، وأتوا بالمعجب العجيب في مجاز الدعوة الإسلامية بالحضر والبدو ،  
وكانوا أحراراً بامتداح الله إياهم غير مرة في القرآن ، وبثناء الرسول صلى الله عليه وسلم  
عليهم في أحاديث عظيمة الشأن .

وأما مظاهر حبِّهم للرسول صلى الله عليه وسلم فما حكاه التاريخ الصادق عنهم من  
أنه ما كان أحدٌ يحبُّ أحداً مثل ما كان يحبُّ أصحاب محمدٍ محمداً ، دَمُ الرجل منهم  
رخيص في سبيل أن يُنَادِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ من شوكة يشاكها في أسفل قدمه ، وماء  
وضوئه ينفذونه في اليوم الشديد البرد يتبرَّكون به ، وأب الواحد منهم وأبناءؤه من ألدِّ  
أعدائه ماداموا يبادون محمداً ، وحديث محمد موضع التنافس من رجالهم ونسائهم ، حتى  
إذا أعيى الواحد منهم طَلَابُهُ ، تناوب هو وزميله الاختلاف إلى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ، على أن يقوم أحدهما بعمل الآخر عند ذهابه ، ويقوم الآخر برواية ما سمعه  
وعرفه من الرسول بعد إيباه<sup>(١)</sup> .

وهذه واحدة النساء تقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيَّ عَلَيْكَ  
الرحال ، فاحملْ لِي مِنْ نَمِيكَ يَوْمًا نَتِيكَ فِيهِ تَعْلَمُ بِمَا عَلَمَكَ اللَّهُ » إلى غير ذلك  
من شواهد ومظاهر ، يدلُّ على مبلغ هذا الحب السامي الشريف ، ورحم الله القائل : -

(١) انظر باب التناوب في طلب العلم من صحيح البخاري .

« أَمَرْتُ قُرَيْشًا مُسْلِمًا فِي عَرْوَةٍ      قَمِصِي بِلَا وَحْدٍ إِلَى السِّيَافِ  
سَأَلُوهُ : هَلْ يُرْصِيكَ أَنْتَ سَالِمٌ      وَلَكَ النَّبِيُّ وَدَى مِنَ الْإِتْلَافِ  
فَأَحَابَ : كَلَّا. لَا سَلِمْتُ مِنَ الرَّدَى      وَبُصَاتَ أَتَفُؤُ مُحَمَّدٍ بِرُعَافِ

وانتد كان من مظاهر هذا الحب - كما رأيت تسابقهم إلى كتاب الله بأحدوه عنه ويحفظونه منه . ثم إلى سُنَّةِ الغُرَّاءِ يحيطون بأقوالها وأفعالها وأحوالها وتقريراتها . بل كانوا يصنِّفون في البحث عن هَذِهِ وَحِدَةٍ ، والوقوف على صمته وشكله ، كما تحد ذلك واصحابهم سؤال الحسن والحسين عن حِلْيَةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أحببها به من تحليّة تلك الصور الحمديّة الرائعة ، ورسمها بريشة المصوِّر الماهر ، والصَّاعِ القادر ، على يد أبيها علي بن أبي طالب ، وغالها هدد بن أبي هالة ، رضى الله عنهم أجمعين <sup>(١)</sup> .

### العامل الخامس

ملاحة القرآن الكريم إلى حدِّ فاق كل بيان ، وأخرس كل لسان ، وأسكت كل معارض ومكار ، وهدم كل محادل ومهاتر ، حتى قام ولا يزال يقوم في قلوب الدنيا معجزة من الله لحبيبه ، وآية من الحق لتأييد رسوله . وهذا كلام الله في إعجازه وملاحة ، كلام محمد ﷺ في إشرافه ودباحتته وبرايعته ، وحرارة أفعاله وشمُو معانيه وهدايته فقد كان ﷺ أصبح الناس وأبلغ الناس ، وكان العرب إلى جانب ذلك مأخوذون بكل فصيح بليغ ، متعاسين في حفظ أحوال المنظوم والمنثور . فمنها هُوَ أَمَّةٌ واحدة يحفظون القرآن ، ويضمُّون القرآن ، ويعملون بالقرآن ، وينامون ويسقيفون على القرآن . وكذلك

(١) انظر في ذلك ما يرويه محمد أبو عيسى الترمذى متفرقا في كتاب الثمائل من

أسمة النبوة كانت عندتهم محطهم والعمل بها في عبادتهم القرآن الكريم يتناقضها  
وتناديهم كما سمعت .

والكلام في أسرار البلاغة مرآن وروحهم إلهامهم وفي تلاوة كلام النبوة وامتنادهم  
وفي تدهن العرب في ميدان البيان ، كل ذلك لا يحتاج إلى شرح ولا تبين ، وهذا  
كتاب الله يطق علينا باحق ، ويتحدى بهجته كافة الخلق . وهذا بحر النبوة يفيض  
بالدراري والآل ، ويترى بالهدايات البصرة والحكم الفولى ، وهذا تاريخ الأدب العربى  
يسجل لأولئك العرب فؤادهم في صفة عن كلامهم ، وسبقهم في حبة الفصحى كافة الأمم ،  
وامتيازهم في تدقيق أسرار البلاغة خصوصاً بلاغة القرآن .

### العامل السادس

الترغيب في الإقبال على الكتاب والسنة مما وحلا ، وحفظاً وفهم ، وأملها ونشراً  
وكذلك لترهيب من الإعراض عنهم ، والإهمال لها .  
نفراً في القرآن الكريم قوله سبحانه : « إِنْ تَذَكَّرْتُمْ أَتَيْتُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَأَقَامُوا  
الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ، لِيُؤْتِيَهُمْ  
أُجُورُهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، غَفُورٌ شَكُورٌ » . فكم كيف قدّم تلاوة القرآن على  
إقامة الصلاة وإبقاء الركاة ؟ ونقرأ قوله جل ذكره : « كِتَابُ أُنزِلْنَا بِإِذْنِكَ مُبَارَكٌ  
لِيَذُرَّ الرَّوَابِ وَرَبِّكَ سَكْرٌ أُولُوا الْأَنْبَابِ » . فانظر كيف حثّ بهذا الأسلوب البارع  
على تدبر القرآن والتدكير والانتباه ؟ ونقرأ قوله عز وجل : « إِنْ أَرَادْتَ بِكُفْرَتِهِمْ  
مَا أَرْسَلْنَا مِنْ أَنْبِيَاءٍ مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا الْكَافِرِينَ أَتَوْا مُطِيعِينَ وَكُنْتُمْ أَنْتُمْ  
أَكْثَرُ الْكَافِرِينَ » . فكم كيف تذكروا وعيد من كتم القرآن وهدى القرآن ؟



الإعراف عن السمة ، قوله صلى الله عليه وسلم : « من رعب عن سُنتي فليس مني » .  
رواه مسلم وقوة صلى الله عليه وسلم : « ألا هل عمي رجلٌ يبلعه أخديث عني وهو  
مُتَّكِيٌّ عَلَى أُرْكَتَيْهِ ، يَقُولُ : بَيْسًا وَبَيْسًا كِتَابُ اللَّهِ ، مَا وَحَدَا فِيهِ حَلَالًا اسْتَحْلَامًا ،  
وَمَا وَحَدَا فِيهِ حَرَامًا حَرَامًا . وَإِنْ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
كَما حَرَّمَهُ اللَّهُ » أخرجه أبو داود والترمذي . راد أبو داود في أوله : « ألا إني أوتيتُ  
الكتابَ ومثله معه » . فأتت ترى في أمثال هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ،  
ما يحفره المؤمن الضعيف إلى الإقوال على روائع النوة بسننيتها ، ويدافع النبي صلى الله  
عليه وسلم يستظهرها ، فكيف أنت والصحابه الذين كانوا لا يصارعون طولَ باع  
ولا علوَّ همة في هذا الميدان !!

### العامل السامع

مرحلة الكتاب والسنة من الدين ، فالكتاب هو أصل التشريع الأول والدستور  
الجامع غير الدينا والآخرة ، والقانون المنظم لعلاقة الإنسان بالله وعلاقته بالمجتمع  
الذي يعيش فيه . ثم السنة هي الأصل الثاني للتشريع ، وهي شارحة للقرآن الكريم ،  
مفصلة لحكمه ، مفيدة لطائفه ، محصنة لأمامه ، مبيئة لمهمة ، مظهرية لأسراره كما قال  
سبحانه : « وَأَوْزَعْنَا إِيَّاكَ الْكَرِيمَ لِتُخَيِّرَ لِلنَّاسِ مَا رُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَنَعْلَمَهُمْ  
بِقَفْكَرُوتِهِ » ومن هنا يقول يحيى بن كثير : « السنة قاصية على الكتاب ، وإيسر  
الكتاب قاصية على السنة » يرد هذه الكلمة ما وصَّحه السيوطي بقوله : « والأصل  
أن معنى احتياج القرآن إلى السنة أنها مبيئة له ، ومفصلة لأمامه ، لأن لو حارته  
كسوراً تحتاج إلى من يعرف حجابها فيبهرها ، وذلك هو السؤل عليه عليه السلام

وهو معنى كون السمة قاصية على الكتاب، وبس القرآن مبيهاً للسمة، ولا قاصياً عليها، لأنها بقية نفسها، إذ لم نصل إلى حد القرآن في الإبحار والإيجار، لأنها شرح له، وشأن الشرح أن يكون أوضح وأبين وأسط من المشرح « اه  
ولا ريب أن الصحابة كانوا أعرف الناس بميزة الكتاب والسمة، فلا غرو أن كانوا أحرص على حفظها وتحفظها والعمل بها .

### العامل الثامن

ارتباط كثير من كلام الله ورسوله بوقائع وحوادث وأسئلة، من شأنها أن تثير الاهتمام وتنه الأذهان، وبلغت الأنظار إلى قصصه الله ورسوله فيها، وحدثتهما عنها وإحسانها عليها، وبذلك يتسكن الوحي الإلهي والكمال السوي في النفوس فصل متمسك، ويتنفس في الأذهان على مر الزمان .

تجوز مرّة في رياض القرآن الكريم، تحده بساير الحوادث والطوارئ في تحددها ووقوعها، فتارة يجيب السائلين على أسئلتهم بمثل قوله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ آتٍ إِلَّا قَلِيلًا» وتارة يعرض في مشكلة قامت، ويقضى على فتنة طغت، بمثل قوله تعالى: «إِنَّ أَدْنَىٰ حَقِّهَا بِالْإِيمَانِ عَصَمَةٌ مِنْكُمْ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» إلى قوله: «أَوَلَيْكَ مُبَرِّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَعْبُودَةٌ وَرَبُّكَ كَرِيمٌ» وهن ست عشرة آية من سورة البور تران في حادث من أروع الحوادث، هو اتهام أم المؤمنين السيدة الخليفة عائشة روح رسول الله ﷺ . وبت الصديق إلى نكر (رضي الله عنها وعن أبيها) . وى هذه الآيات دروس اجتماعية قرئت ولا تزال تقرأ على الناس إلى يوم الساعة ولا ترائ تسجل رواية هذه التحصيل الطاهرة من فوق سبع سموات وتارة بلغت القرآن أنظار المهين إلى تصحيح



أعلاطهم التي وقفوا فيها ، ويرشدكم إلى مشكلة الصواب . كقوله سبحانه في سورة  
 آل عمران « وَإِذْ عَدُوٌّ مِنْ أَهْلِكَ تُحَوَّى لِلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ » إلى آيات كثيرة بعدها .  
 وكلها روت في عروء أحد تدل مسلمين على خطئهم في هذا الموقف ارهيب ، وتهددهم  
 أن يقعوا حياً آخر في مثل ذلك المأرق العصيب

وعلى هذا النمط روت سور في القرآن وآيات تفوت لعدد وتجاوز الإحصاء .

وإذا تحولت في رصاص الحدث النبوي أنشرب بطاعتك منه لعب العاصب في  
 هذا الباب . انظر قصة الخرومية التي سرقته وقول الرسول ﷺ لمن سرق منها : « وَايْمُ  
 اللَّهِ لَوْ أَنَّكَ سَرَقْتَ سَرَقْتَ تَقَطَعُ يَدُكَ » رواه أصحاب الكتب الستة . ثم تأمل  
 حادث تلك المرأة الخمسية التي أفرت برأها بين يدي رسول الله ﷺ وهي حلى من  
 ارد ، كيف أمر الرسول فكملها وليها حتى وصعت حبلها ثم أتى بها فوجت ، ثم صلى  
 رسول الرحمة عليها . ولا مثل صلوات الله وسلامه عليه كيف نصلى عليها وهي رانية ؟  
 قال : « إِنَّمَا تَأْتِي وَهِيَ لَوْ قَسَمْتَ عَلَى سَمْعَيْنِ مِنْ أَهْلِ مَدِينَةٍ لَوَسَمْتَهُمْ » وهمل  
 وحدثنا الفصل من أن جادت نفسها لله عز وجل ؟ رواه مسلم . وبذر الحديث  
 المعروف بحديث حبريل ، وفيه يسأل حبريل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان  
 والإحسان والساعة وأشراطها على مرأى ومسمع من الصحابة . وقد قل لهم أخيراً :  
 هذا حبريل أناكم يعلمكم دنسكم » أخرجه خمسة غير البخاري والداطري في السنة

يحددها في كثرتها العديدة ، تدور على مثل تلك الوقائع والحوادث ولأسئلة  
 وقد قرر علماء الفقه أن ارتباط المعلومات أمور مقاربة في الفكر ، تحملها  
 أبقى على لزم ، وأثبت في النفس ، فلا بدع أن يكون ما ذكرنا داعية من دواعي حفظ  
 الصحابة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، على حين أنهم هم لمشاهدون لتلك الوقائع والحوادث ،  
 المشاهرون بمخاطبات الحق ، لمواجههم بكلام سيد الخلق ، في هذه المباحثات الثلاثة والأسباب

القائمة ، التي تحمل موسمهم مستشفة لقضاء الله فيها ، منعشة إلى حديث (سوله عه) ،  
فيرل الكلام على انقوب وهي مشوقة ، كما يرل القيث على الأرض وهي منعشة ،  
تهل بهف ، وتأخذ شعف ، وتمسكه ونحرف عليه ببقطة ، وتعتر به وتعتد عن حقيقة ،  
وتتبع به وتتبع ، بل تهتر به وترنو وتفت من كل روح هيج ١١ .

### العامل التاسع

اقرار القرآن دائماً بالإعجاز ، واقرار بعض الأحداث السوية بأمر حارقة  
للعادة ، تروع النفس ، وتشوق الماخر ، وتهول السامع . وإنما اعتبرنا ذلك الإعجاز  
وحرق العادة من عوامل حفظ الصحة ، لأن الشأن فيما يخرج على أوامير السكون  
وقوابله العامة ، أن يتقرر في حادثة من شاهده ، وأن يترك في قواد كل من عاينه فرداً  
كان أو أمة؛ حتى لقد يتجدد مبدأ نور حُجودته الأيام والسنون ، وتقاس بوجوده الأعز  
والأحسن

أما القرآن الكريم وبهجه سري فيه سريران الماء في العود الأحصر ، لا تسكاد  
تحو سورة ولا آية منه . وأعز الناس بوجوده إعجازه ، وأعظمهم ذوقاً لأسرار  
بلاغته ، هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهم يصدرون في هذه المعرفة وهذا  
الدور عن وطرتهم العربية الصادقة ، وسبقهم السيمه السامية ، وتهرهم في دور النيان  
وصداة القسان . ومن هذا كان القرآن حياتهم الصحيحة ، به يقومون ويقعدون ،  
وبسامون ويستيقظون ، ويعيشون وتعاملون ، ويلتذون وتعبدون . وهذا هو معنى  
كونه روحاً في قول الله سبحانه : « وَكَذَلِكَ نُوحِي إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » ويست  
هذا طائفة في التاريخ تمثل فيها انقراض روحاً ، كما تمثل في هذه الطبقة العليا الكريمة  
طبقة الصداة الذين وهبوا حياتهم فروعهم الحياة ، وطبعهم طمعة جديدة حتى صاروا

أشبه باللائكة ، وهكذا سوامهم الله بكتابه خلقاً آخر « فَتَشَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ  
الْخَالِقِينَ » ١١ .

وأما السنة النبوية ، فقد اقترن بعضها بمحركات حارقة ، وأمامك أحاديث بالمحركات  
وهي كثيرة فيها المعجب والمغرب . غير أنا رباً لك أن تكون فيها كالمطرب ليل ،  
على حين أن بين أدينا في الصحيح منها الجم الغفير والعدد الكثير ، « وَلَا يُبَلِّغُكَ  
مِثْلُ خَيْرٍ » .

وهذا نموذجاً واحداً رواه البخاري ومسلم عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي  
رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : « لَأُعْطِينَ هَذِهِ الرَّابَةَ  
غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فبات الناس  
يدوكون ( أي يخوضون ) لياتهم ، أيهم يعطاها ، فعما أصبح الناس غدواً على رسول الله  
صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها . فقال : أين على بن أبي طالب ؟ فقيل  
لارسل الله هو يشتكي مرضاً بعينه . قال : فأرسلوا إليه . فأتى به ، فبصق رسول الله  
صلى الله عليه وسلم بعينه ، ودعا له ، فبرئ حتى كأن لم يكن به وجع . فأعطاه  
الرابة ، فقال على رضي الله عنه : لارسل الله أفاتينهم حتى يكونوا مثلنا ؟ قال :  
انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يحب  
عليهم من حق الله تعالى فيه ، والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك  
من نحرهم النعم » .

وهذه الوصية من الرسول ﷺ على في هذا المقام ، حذيرة وحدها أن تقطع ألسنة  
أولئك الأفاكين الذين يرمون أن الإسلام قام على السيف والقوة ، واعتمد على البطش  
والقسوة ، ولم ينتشر بالدليل والحجة ولم يحى بالسلام والرحمة . « كَبُرَتْ كُذِبَةً تَخْرُجُ  
مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كُذِبًا » ! .

## العامل العاشر

حكمة الله ورسوله في التربية والتعليم ، وحسن سياستهما في الدعوة والإشادة ، مما جعل المكتتاب والسنة يتقرران في الأدهان ، ويسهلان على الصحابة في الحفظ والاستظهار .

أما القرآن الكريم ، فحسبك أن تعرف من حكمة الله به في التربية والتعليم ، أنه أنزله على الأمة الإسلامية باللغة الحبيبة إلى نفوسهم ، وبالأسلوب الخلاب والنظم المعجز الآخذ بقلوبهم ، وأنه تدرّج بهم في نزوله ، فلم ينزل جملة واحدة يرهقهم به ويسجزون عنه ، بل أنزله منجماً في مدى عشرين أو بضع وعشرين سنة ، ثم ربطه بالحوادث والأسباب الخاصة في كثير من سورته وآياته ، ودمجه بالدليل والحجة ، وخطب به العقول والضمائر ، واطب به حصلتهم وخيرهم وسعادتهم ، وصدر في ذلك كله عن رحمة واسعة بهم ، يكادون يلحسونها باليد وبرونها بالعين : « مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَكَانَ يُرِيدُ لِيُثْقَلَ بِهِمْ ذِكْرُكُمْ وَلِيُوْثِقَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَمَلَكُمْ تَشْكُرُونَ » . « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمَلِ » .

وأما السنة النبوية ، فقد ضربت رقم أقياسي في باب هذه السياسة العلمية الراشدة ، حتى إذا كان علماء التربية في العصور الحديثة قد دأبوا من الحكمة في التعليم والتربية الاستعانة بوسائل الإيضاح ، وألوان التشويق ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم النبي الأمي ، كان من قبل أربعة عشر قرناً ، ومن قبل أن تولد علم التربية وعلم النفس ، كان هو المعلم الأول في رعاية تلك الوسائل الموصحة ، وهاميك المشوقات الرائعة ، حتى تمتعت قلوب سامعيه للهداية ، وامتلات صدور أصحابه بتعاليمه ، كما كتبت فيها كلمة بالحكمة والحرف .

ذلك لأنه ﷺ كان أوصح الناس لساناً ، وأوصحهم بياناً وأخودهم إلقاءً ، ينتقى  
 غيور الكلام وهو الذي أوتى حوامع الكلم ، ويفتح الكلام ويحتس به بشداه وبصله  
 به صيلاً يرعى فيه للمام والأفهام ، ولا يسرد الحديث مردأً يرزى رزقه أو يذهب  
 بشيء منه ، بل يتكلم كلاماً لو عدّه العاد لأحصاه . وكان بعيد الكلمة ثلاثاً أو أكثر  
 من ثلاث عند الحاجة ، كيما تحفظ عنه ، كما جاء في صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم  
 قال : « هَلْكَ الْمُتَسَطُّعُونَ » قالوا ثلاثاً وكما جاء في حديث البخاري ومسلم أنه ﷺ قال :  
 « أَلَا أُبَيِّنُكُمْ كَثِيرَ الْكُثَايِرِ (ثلاثاً) قضا : أتى بأرسول الله قال : الإشراف بالله ،  
 وعقوف الوالدين ، ألا وقول الزور وشهادة الزور . وكان مُتَكِنًا جَلَسَ - فاراد -  
 بِكُرُّهُ حَتَّى قُلْنَا لَيْقَهُ سَكَتٌ »

ومن هذيه ﷺ أنه كان إذا حطب احترت عيانه ، وعلا صوته واشتدّ عصبه  
 حتى كأنه مسر جيش يقول : صَبَحَكُمْ وَمَسَّكُمْ . ويقول : بُعِثْتُ أُمًّا وَالسَّاعَةُ كَهَابِي  
 ( وَتَقْرُبُ مِنْ أَصْغَيْهِ السَّيِّئَةِ وَالْأَوْسَطَى ) ويقول : « آمَنَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ خَيْرَ الْخَدِيثِ كِتَابُ  
 اللَّهِ وَحَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُخَذَّنَاتُهَا وَكُلُّ مُخَذَّنَةٍ مَذْنَةٌ ، وَكُلُّ مَذْنَةٍ  
 صَلَافَةٌ . ثم يقول : أَنَا أَوَّلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ . مَنْ تَرَكَ مَا لَا فَلَاحَ لَهُ ، وَمَنْ  
 تَرَكَ دِينًا أَوْ صَيَاغًا <sup>(١)</sup> فَإِنَّ وَعَلَى » رواه مسلم

ومن وسائل إنصاحه ﷺ أنه كان يصرب لهم الأمثال الزائفة التي تُحَلِّي لهم المعاني ،  
 كأنها العروسُ درعةً ليلةً برقاءً ، أو الشمسُ ساحطةً بفس دوسها سحاب . تأمل قوله  
 وهو يصرب أمثال في ضروره الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحظر إهماله ، ثم قل لي  
 يرك . هل سارح ذا كركك هذا التمثيل الدج ؟

(١) الصياغ بفتح الصاد . يستعمل مصدرًا لصاع ، ويستعمل اسمًا معى العيال أو انصانه  
 مهم . قال في القاموس : « وَالصَّيَاغُ أَيْضًا الْعِيَالُ ، أَوْ صِيْعُهُمْ » اه ولا يحى أن المعنى  
 المصدرى غير مُرادٍ هنا .

يروى البخاري عن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال : مثل القنيم في حدود الله وألواقع فيها ، كمثل قوم استموا في سعية ، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذي في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤد من فوقنا . فبئ تركوكم وما أرادوا هلكوا جميعاً . وإن أخذوا على أيديهم نحوا ، ونحوا جميعاً .

ومن وسائل إيصاحه ﷺ أسئلته التي كان يلقيها على أصحابه ، ويوقظ بها انبساطهم ، ويرفع سببها شعورهم ، حتى يستقبلوا هديته بنفوس عطاش ، وقلوب طماء ، ويستقر فيها أنت استقرار ، ويعلق بها علوق الأرواح بالأحاسام .

وإليك مثلاً واحداً : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون من الفليس ؟ » قالوا : الفليس فينا من لا درهم له ولا دينار ولا متاع . قال : إن الفليس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا ، فبيعت هذا من حسابه ، وهذا من حسابه ، فإن بيعت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحته عليه ، ثم طرح في النار » رواه مسلم .

ومن العجائب في وسائل إيصاحه عليه الصلاة والسلام أنه كان يستعين برسم يديه الكريمتين على توصيح المعاني وتقريبها إلى الأذهان ، مع أنه النبي الأُمى الذي لم يقرأ كتباً ، ولم يحس إلى أستاذ ، ولم يذهب إلى مدرسة ، ولم يدرس الرسم ولا الهندسة .  
نقرأ في صحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « خطَّ أما رسول الله ﷺ خطاً مرتباً ، وخطَّ وسطه خطاً ، وخطَّ حطوطاً إلى حنْبي الخط ( أي الذي في الوسط ) ، وخطَّ خطاً خارجاً . فقال : أتدرون ما هذا ؟ قد : الله ورسوله أعلم . قال : هذا الإنسان ( يريد الخط الذي في الوسط ) وهذا الأهل مُحيط به ( يريد الخط الخارج )

وهذه الأعراسُ نَهَشَتْهُ ( شير في الحصوص لني حوله ) بِأَنَّ أَحْظَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا  
وهذا الأَمَلُ ( مَيَّ أَحْظَهُ الْحَج )

ومن سياسته حكيمة في تعميم ولتربيته ، أنه كان يسهر فرحه الحظ في أوقامهم ،  
فيصحبهم لهم لهكرة في حوض ، ومهمهم عاتية له مويه وموسمهم مستشرفة هـ . من ذلك  
ما يقصه عبيد ليحمدي وسلم عن أس رضي الله عنه قال : « حَ ، ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ إِلَى  
بُيُوتِ أَرْوَاحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ، فَلَمَّا أَحْبَرُوا كَأَنَّهُمْ  
تَقَدُّوْهَا ( أَيْ رَأَوْهَا فَيَقِينَهُ ) وَقَالُوا : أَيْنَ نَحْنُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ عُمِرَ لَهُ مَا تَقْدُمُ  
مِنْ دِينِهِ وَمَا تَخَّرَ ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَا أَنَا فَصَلَّى أَلَّيْلَ أَبَدًا . وَقَالَ لآخرُ : وَأَنَا  
أَصُومُ بِدَهْرٍ أَبَدًا . وَقَالَ لآخر : وَأَنَا أُعْتِرُ نِسَاءً فَلَا أُتَزَوِّجُ أَبَدًا . لَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : كَذَبْتُمْ كَذَابًا وَكُذَّابًا أَمْ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَحْشَاكُمْ  
لَهُ ، وَأَنْتُمْ كُمْ لَهُ ، وَنَسِيْتُمْ أَصُومُ وَأَنْطَرُ ، وَأَصْلِي وَأَرْقَدُ ، وَأَنْتُمْ أَنْتُمْ ، مَنْ رَغِبَ  
عَنْ سُنَّتِي فَيَسِّرَ مَرَّتِي » .

وكان من وسائل بصاحبه تذييه صلى الله عليه وسلم بعمله . يعنى ويقول : « صَلُّوا  
كَأَنَّكُمْ رَأَيْتُمُوهُ فِي أَصْلِي » ويحج ويقيم : « خُذُوا عَنِّي مَخَاصِرَكُمْ » ويشير بأصبعيه السبابة  
والوسطى ويقول : « بَشِّرْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَمَا تَبَيَّنَ » كما تقدم في رواية مسلم .

## العامل الحادي عشر

انترعيب والترهيب القذان ببعض عمر الكتات والسنة ولا ريب أن عريضة  
حب الإنسان لنفسه تدفعه إلى أن يحقق لها كل خير، وأن يحجبها من كل شر، سواء ما كان  
فيها من عاجل وما كان من آجل، ومن هنا تمحصر النفوس الموقفة على غنى هداية القرآن  
وهدى الرسول، وتعمل جاهدة على أن تحفظ مسهما ما ومهدى الإمكان

أما المموس الصلاة المحدولة ، فإنها معروفة عن هذه السعادة بصوارى الهوى والشهوة ، أو محصورة عن هذا المقام بحجاب التعمص والجمود على القتمة ، أو من أنظمة نظام الجهل في أو حال الصلال والكان .

ولما بحاجة أن ينقسم شواهد التعريب ، والتعريب من الكتب ، والاسم ، فمددنا  
فيما مضى ، وفي ما عرف العلم من صروب التعريب والتعريب ، وفوق الوعد والوعيد ،  
وأسماء التشير والإبداهلي وحوه مختلفة ، واعتبارات متنوعة ، في امة ثد والعبادات  
واللعمالات والأحلاق على سواء

وہاں نمودًا من ترعيات القرآن و ترہیمہ علی سنیل اتد کبر ، واند کری  
تمنع المؤمنین ۔ ۔

يقول ببارك اسمه في سورة واحدة هي سورة السجدة « وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ حَدِيدٍ ، بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ \* قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ ، وَلَوْ رَأَوْا إِلَهُ تَخْشَعُونَ \* مَا يَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ دَرَجَةٍ أَوْ تَرْجَعُهُمْ عَنْ عَمَلِهِمْ صَالِحًا بِإِذْنِ مُؤْتِفُونَ \* وَلَوْ شَاءَ لَأَنبَأَ كُلُّ نَفْسٍ مَقَدَّارَهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي



لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ لَحْمِهِ وَأَنْفُسِ أَتْحَابِهِ \* وَذُوقُوا مَا كَسَبْتُمْ يَوْمَ أَنْتُمْ مُنْجَوُونَ \* هَذَا  
 إِنَّمَا نَسَبْنَاكُمْ \* وَذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ \* كُنتُمْ تَعْمَلُونَ \* إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا  
 الَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ \*  
 تَتَخَفَى حُبُوبُهُمْ عَنِ نَفْسِهِ حَيْثُ يَدْعُوهُمْ رَبُّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا \* وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ \*  
 فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ حَزَاقًا \* مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* أَفَلَمْ يَكُنْ  
 مِنْكُمْ مَوَاسِمٌ كُنَّ كَلِمَةً فَاسْتَوْصَوْا \* أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَوْتِ \* زَلَّالًا \* مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* وَأَمَّا الَّذِينَ فَتَنَّا فَمَوَاجِدُ الْمَرْ  
 كَبًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا \* يُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ دُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِينَ  
 كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْهُمْ \* وَلَمَّا بَلَغْتُمْ مِنْهَا أَلْفَ دُورٍ \* قِيلَ لَهُمْ لَا تَكْبَرُوا  
 لَعَلَّكُمْ يَرْجِعُونَ \* وَمَنْ أَظْهَرُ مِنْ دُكْرٍ آيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ انْزَلْنَاهَا \* إِنَّمَا مِنْ  
 الْمُخْرِجِينَ مُنْقِضُونَ » .

فاظهر بعين بصيرتك في أساليب هذه الترميمات، وفنون تلك الترهيبات، التي احتوتها  
 هذه الآيات، وقرآن مليء كله من هذه الأنوار على هذا انوارها .

ولا تحسبن السنة النبوية إلا محراً متلاحم الأمواج في هذا الباب، وهالك نموذجاً بل  
 تداخل منها تدلك على مدى ما تنثره في نفوس البشر من البشارة عند ما يعرض بها الوعد والوعيد،  
 وما يتركه هذا التأثير من تداعيات الأوامر والنواهي واستقرارها في الذهن، وانتفاشها  
 في صحيفة الفكر، ثم الدفاع إلى - من ورثها - في العمل ولا تدع

هذه هي الله عليه وسلم بشر واصل رحمه الله سعة الرزق والبركة في العمر فيقول :  
 « من سرقة أن ينسبها في رزقه ، وأن سألته وأثره ، فلا يصير رحمه » أخرجه  
 البخاري و ترمذي

وهو هو ﷺ يتحدث بالوعيد لمن حصل الإحرام لله ، وبالوعيد من حصل الدنيا لله

فيقول : « مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ حَقَلَ اللَّهُ عِيَاهُ فِي قَبْرِهٖ ، وَحَمَعَ لَهُ شِمَهُ ، وَأَثَنَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ حَقَلَ اللَّهُ لِقَرَّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَفَرَّقَ اللَّهُ عَنَّهُ شِمَهُ ، وَلَمْ يَأْيِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ » رواه الترمذی

وها هو صلى الله عليه وسلم يحرّص المؤمنين على القتال ويحثهم على الدفاع والصال، فيقول : « تَصَمَّنَ اللَّهُ مَنْ حَرَجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا يَحْرُجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِ ، وَإِيمَانٌ فِي ، وَتَصَدِيقٌ رَسَنِي ، وَهُوَ عَلَى صَامِرٍ أَنْ أُذِجَهُ لَحْنَةً ؛ أَوْ أَرْجَعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي حَرَجَ مِنْهُ ، إِلَّا مَا مَالَ مِنْ أَحْرٍ أَوْ عَيْمَةٍ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلِمَةٍ كَلِمَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا حَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كَلِمَةٍ ؛ لَوْهُ لَوْ دَمٍ ، وَرِيحُهُ رِيحُ مِسْكٍ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ لَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى السَّعِينِ مَا فَعَدْتُ حِلَافَ مَرْيَمَةَ تَعْرِو فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَرًّا وَحَلًّا أَبَدًا ، وَلَكِنْ لَا أُحْدِثُ سَعَةً فَأُجَاهَتُهُمْ ، وَلَا يَحْدُونَ سَعَةً فَتَسْعَوُنِي وَبِشْقٍ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتَحَفَّقُوا عَنِّي وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنْ أُعْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ ، ثُمَّ أُعْزُو فَتُقْتَلَ » أخرجه الثلاثة والباقي

فأنت ترى في هذه الكلمات لسبوبة قوة هائلة محولة، تجعلها ماثلة في الأذهان، كما تجعل العفوس رحيصة هيبية في سبيل الدفاع عن الدين والأوطان حتى لقد كان الرجل يستمع إلى هذه المربعات والمشوقات وهو يأكل، في بصر حتى تم طعامه، بل يرمى بما في يده، ويثوم فيصعد مشوقاً إلى الموت، متيقناً على أن يستشهد في سبيل الله. كذلك أخرج مالك عن يحيى بن سعيد : « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَعِبَ فِي الْجِهَادِ وَذَكَرَ الْحَنَّةَ وَرَحَلَ مِنَ الْأَنْصَارِ بِأَكْلِ تَمَرَاتٍ ، فَقَالَ : إِنِّي لَخَرِيصٌ عَلَى الدُّنْيَا إِنْ حَلَسْتُ حَتَّى أَمْرَعُ مِنْهَا ، فَرَمَيْتُ مَا فِي يَدِي ، وَحَلَّ لِي بِهِ ، فَتَأَلَّ حَتَّى قُتِلَ »

## العامل الثاني عشر

اهتدوا الصِّحَّةَ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كَتَبَ اللَّهُ وَسَمِعَ رَسُولُهُ ﷺ ، يُحَدِّثُونَ مِنْهُمْ ،  
مِنْ حَلَالٍ ، وَيُحَرِّمُونَ مَا فِيهِمَا مِنْ حَرَامٍ ، وَيُضَمُّونَ مَا جَاءَ فِيهِمَا مِنْ نَصِيحٍ وَرَشَدٍ ،  
وَيَتَذَكَّرُونَ طَوَائِفَهُمْ وَبَوَائِبَهُمْ بِتَرْبِيَةِ وَالْآدَابِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، دَسْتُورِهِمُ الْقُرْآنَ ،  
وَأَمْرَهُمُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وما من شك أن العمل بالعلم بقرآنه في نفس أبهى تقرير ، وبفسحه في صحيفته  
الفكر أثبت نقش ، على نحو ما هو معروف في فن التربية وعدم سوس من أن التطبيق  
يؤيد للمعروف ، والأمثلة تُقَيِّدُ القواعد ، ولا تطبيق أسبق من العمل ، ولا مثال أفضل  
من الاتباع ، خصوصاً لما عرفه الدينية ، فيها تزكوا أنفسهم ، وتريد بانباها . قال  
تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » أي هداية ونورا  
تعرفون به بين الحق والباطل ، وبين الرشيد والفي كجا في بعض وجوه التعاضد .  
وذلك أن المحادة تؤدي إلى مشاهدة ، وسنابة العلمارة القلوب وتزكية النفوس تنحرف  
الحكمة في قلب المرء . قال لمرآة رحمه الله : « أما السكتب والتعليم فلا تنفي بذلك  
( أي بالحكمة تنفخر في القلب ) بل الحكمة الخارجة عن الحصر والحد ، إنما تنفتح  
بالمجاهدة ومراقبة الأحوال الظاهرة وباطنة ، والخيوس مع الله عز وجل في الخلوة ، مع  
حضور القلب بصفى الفكرة ، والانقطاع إلى الله عز وجل مما سواه ، وذلك مفتاح  
الإلهام ومنبع الكشف ، وأكرم من تعلم طال تدهه ولم يشدر على محورة مسبوقة بكلمة  
وكم من مقتصر على فهم في السعي ، ومتوفر على العمل ومراقبه الغلب ، فتح الله له من  
لصاف حكمة ما تحر فيه صفو دوى الأندب . ولذلك قال ﷺ : « مَنْ عَمِلَ بِ  
عَمِّ وَرَبِّهِ اللَّهُ عِلْمٌ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ »<sup>(١)</sup>

(١) قال الحافظ العراقي في هذا الحديث رواه أبو نعيم في الحلية لكن سند ضعيف .

### العامل الثالث عشر

وجود الرسول ﷺ بين ظهر آيهم ، يُحفظهم من الكتاب والسنة ما لم يحفظوه ،  
ويعلمهم ما جهلوه ، ويحييهم إذا سألوه ، ويربهم شاكفة الصواب فيما أخطأوه ، ويقفهم  
على حقيقة الأمر إذا تشككوه ، في صبر وأناة وسعة صدر وكرم نفس وطيب قلب .  
ولا ريب أن هذا عامل مهم يسرهم الحفظ ويهون عليهم الاستظهار ، ضرورة أنه  
ﷺ مرجع واضح ، ومهل عذب ، لا سيما إذا لا حطأ أنه ﷺ كان دائم النشر ،  
سهل الخلق ، لين الخاطب ، ليس بفظ ، ولا عليظ ولا صحاب ، ولا فحاش ، ولا عياب ،  
وأن من جالسه أو قارعه في حاجة صابرة حتى يكون هو المتصرف عنه ، ومن سأله حاجة  
لم يرده إلا سها أو عبسور من القول ، قد وسع الناس نطه وحفته ، وصار لهم أمنا وصروا  
عنده في الحق سواء . مجلسه مجلس علم وحياء وأمانة وصبر ، يُدرس فيه القرآن ، وتداع  
فيه السنة ، ويمتق منه أريج الهداية .

### عوامل خاصة بالقرآن الكريم .

تلك العوامل التي ذكرناها عوامل مشتركة بين الكتاب والسنة ، طوَّعت للصحابة  
حفظهما واستظهارهما ، والإحاطة بهما وحفظها .

بيد أن هناك عوامل خاصة توافرت في حفظ الصحابة للقرآن دون السنة

أولها : أن الله تعالى تحدَّى بالقرآن أمه العرب ، بل كافة الخلق فقال سبحانه :

« قُلْ إِنَّا نَحْنُ الْحَقُّ بِأَمْرِنَا وَمَا نَحْنُ بِمُتَحَدِّثِينَ مِثْلِهِ » ولما عجزوا ، قال : « فَأَنزَلْنَاهُ سُورَةً مِّثْلَهُ » ولا

عجزوا أبصا قال : « فَأَنزَلْنَاهُ بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ » ولا عجزوا الثالثة سجل عليهم

هر يمتهم وأمس فلج القرآن بالإنحر في هذا الميدان ، إذ قول عز اسمه : « قُلْ إِنِّي  
خَشِيتُ الْإِنْسَ وَجُنَّ عَلَىَّ أَنْ يَأْتُوا بِخَبَرٍ هَذَا غَرَابٍ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ  
نَعَصُومُ لِنَبْلُوهمَ أَطَمِيرًا »

هذا التحدى أي امتد به الغراب ، فتج عيون الناس جميعاً ، ولقمتهم بقوه إياه ، لا  
قوى بين أويته وأعدائه أما أوبأوه ومنعوه ، فقرأوه من هذه الماحية ، يهجموا به  
أعداءهم ، ويؤتمروا به ، يحرمهم دينهم ودينهم ، وأما أعداؤه ومحلفوه ، فقتلوا أنزله وتسعوه ،  
أملأ في أن يحذروا فيه منغير ، وأحدوا عنه معة فلا حرمه كل هذا التحدي من  
الدواعي التي توافرت على أهل القرآن وواتره وحرمه على كل لسان .

ثم إن الله ﷻ سكت به عن أن يفسر من أدوات اللفظ ، إذ الحمد كقائمه  
للوحى من أصحبه وأقره كل من مكسب لقرآن نفسه في الوقت الذي هي فيه عن كتابه  
السمي في الحديث الذي أسنده من رواه مسلم « لَا تَكْتُمُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا  
غَيْرَ الَّذِي فِيهِ نَحْنُ »

وعنى عن الميثاق ، أن أكتنه من عوامل يسير حفظ والاستظهار  
فيها : بشريع قراءة القرآن في الصلاة ، فرضاً كانت أو نقلاً ، سر أو جهراً ،  
سنة أو غيره ، حتى صلاة الخدر ، ومثل الصلاة في ذلك خطبه الجمعة وتلك وسيلة  
فدالة جعلت أصحبه مراءيه وسامعه ، ثم جعلتهم عن هذا غراباً متحفوه  
وسنظمه به ، لا فرق بين حل وامرأة ، وصغير وكبير ، وعبي وفقير ، على قدر ما سمح  
، استعداد كل منهم

واعلم : امر عيب في تلاوة القرآن وبو في غير صلاة ومن غير وضوء اقرأ آيات شئت  
قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا لِلَّهِ تِلْكَ صَلَاةُ وَأَتَقُوا لِلَّهِ مَا تُرِيدُونَ »

ميرٌ وغلابيةٌ برحونَ بحدرةٍ من ميوز، ليؤفقيهم أخورهم ويرسهم من فضله  
إليه عفورٌ شكورٌ. »

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أُنزِلَ الْقُرْآنُ وَهُوَ سَهِوٌّ مَعَ السَّهْوِ  
اسْكِرَامٍ لِقَرَّةٍ . وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ يَسْتَمْتِعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ ضَائِقٌ أَجْرَانِ »  
رواه البخاري ومسلم . ويقول ﷺ : « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ  
وَهُوَ يَقُومُ بِهِ آتَاءَ النَّبِيِّ وَآتَاءَ السَّهَارِ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَا لَا يَمُوتُ بِسُعْيِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ  
السَّهَارِ » رواه الشيخان أيضاً .

ويقول ﷺ : « مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَهُ حَسَنَةٌ ، وَحَسَنَةٌ  
يَعْقُرُ شَجَرًا . لَا أَقُولُ : آلِفٌ حَرْفٌ . وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ ؛ وَلَامٌ حَرْفٌ ؛ وَمِيمٌ  
حَرْفٌ » رواه الترمذي وقال : حسن صحيح .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « يُقَالُ لِقَارِي الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْقُ وَرُسْ كَمَا كُنْتَ  
تُرْسِلُ فِي الدُّنْيَا ؛ مِنْ مَزَلَّتْ عَمْدُ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا » رواه أبو داود والترمذي  
واسناني . ويقول صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ »  
رواه البخاري .

فهو بمنزلة أن أصحاب محمد ﷺ الذين سمعوا ذلك وأشد ذلك ؛ يتوانون لحظة  
عن قراءة القرآن ؟ ثم ألا تكون تلك الغلاوة سبيلاً إلى أن يحدقوه ويحرقوه ؟

فما سبب عناية رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعليم القرآن وإذاعته وشره ، إذ كان  
يعرِّضه على سبب على مكث كما أمره الله . وكان سببهم إياه في خطه وإصلاحه . وفي  
الدروس وعظاته ؛ وفي الدعوة والإرشاد ؛ وفي التقوى والنصيحة ؛ وكان مُرَّعاً في نفسه  
وشره كما سمع . وكان يرسل عشرات المقرئين إلى كل بلد يعلمون أهله كتاب الله ، كما  
أرسل مُصَنَّب بن عمر وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرة ﷺ إليهم ، وكما أرسل

مُعَاذِ بْنِ حُجَلٍ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ لَفْتَحِ بِلَاقِرٍ . قَالَ عُبَادَةُ بْنُ صَمْتَ كَانَ ابْنُ حُجَلٍ إِذَا  
 هَاجَرَ دَفَعَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى رَحْلِ مَسَاكِينِهِ الْفَرَاقِ

سَدَسُهَا . اَعْدَاسُهُ اَتَى امَةً بِهَا كَذَبَ اللَّهُ عَنْ كُلِّ مَاسُوٍّ ، حَيْثُ اجْتَمَعَ فِيهِ مِنْ  
 لَمْ يَزَلْ مَا قَبِضَ عَلَيْكَ وَمَا لَمْ يَفْضَلْ عَلَيْكَ كَذَبَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَكَرَّمَهُ قِرَاءَتُهُ عَلَى  
 الْحَبِيبِ وَالْحُصْنِ وَالنَّبِيِّ ، وَكَرَّمَهُ مَنْ مَضَى وَجْهَهُ عَلَى أَوْلَئِكَ جَمِيعًا وَهِيَ الْحَدِيثُ  
 حَدَّثَنَا أَصْبَحَ أَصْبَحًا ، بَلَى غَيْرَ ذَلِكَ

وَلَا شَكَّ أَنْ هَذِهِ قَدَاسَةُ نَفْسٍ لِأَطْلَافِهِ ، وَجَمْعُهُمْ لِمُؤْمِنِينَ بِهِ عَلَيْهِ ، فَحَيِّضُونَ  
 بِهِ عَمَّا ، وَيَحْضَمُونَ لِمُعْتَمِدِهِ عَمَلًا وَذَلِكَ مَا حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ فِي كُلِّ عَصْرِ وَمَعْرِ أَنْ يُقْتَنُوا  
 مَحْطُ كَذَبَ اللَّهُ حَتَّى عَصَرَ لِهَيْدِ عَشْرِ فِيهِ ، ذَلِكُمْ عَصَرَ الصَّحَّةِ وَهُوَ عَصَرَ لَعَلِّ  
 وَالْمَوْرِ ، وَالْمَقْوَى وَالْمُذَابَةِ ، وَشَرٌّ وَلَدَعُوهُ ؟  
 أَمْ نَعْدُ

فَهَذِهِ نَصَبُهُ شَرٌّ عَامِلًا تَوَارُفَ فِي أَصْحَابِ رَسُولٍ لَا كَرَمَ صَبَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَمَ حَتَّى  
 حَقَطُوا لِكِتَابِ وَاسِئَةٍ ، وَفَدَّ جَمْعَهُ ذَلِكَ هَذَا ، اِجْمَعُ ، مُعْتَمِدِينَ أَنْ مِنْ وَرَثَتِهَا عَوَامِلُ  
 شَخْصِيَّةٍ تَوَارُفَ فِي بَعْضِ نَحْوٍ وَحَصَ الْمُحَدِّثِينَ مِنْهُمْ دُونَ بَعْضٍ وَلَسْتِمْ بِأَنَّ تِلْكَ  
 الْعَوَامِلُ اشْتِصِيهِ دَرَاةٌ تَرَحُّمَ أَوْلَئِكَ مَرَّةً وَتَقْصِدُ رِيسَ رَوَايَةِ الْخَدِيثِ مِنَ الصَّحَابَةِ ،  
 فَارْجِعْ لَهَا مِنْ شَيْءٍ ، وَآخِرُ مَنْ عَمِيَ مَا ذَكَرْنَا لَكَ ، وَضَعُفُ مَنْ أَسْلَحَةُ عَمِيَّةٍ مَرَّةً شَهْرَهَا  
 فِي وَجْهِ أَوْلَئِكَ الْحَوَاثِلِ لَيْسَ بِمُحْصُوفٍ فِي الصَّحَّةِ بَعِيدٍ عَمَّا ، وَيَطْعَمُونَ فِي لِكِتَابِ وَاسِئَةٍ  
 مِنْ طَرِيقِ طَعْنٍ وَفِيهِمْ عَدَاوَةٌ وَلَصِطُ

وَمِنْ سَجْدَةٍ أَمَّا هَذِهِ الدَّوَاغِيَةُ تَوَارُفَ فِي الصَّحَابَةِ حَتَّى تَبَايَا لِكِتَابِ  
 وَلِسَةٍ ، وَوَارَ عَمَهُمْ ذَلِكَ حُصُوفًا لِقِرَآنِ كَرِيمٍ

« أَوْلَئِكَ أَتَى غُلِّيَّ مَشْهُمٍ إِذَا جَمَعْتُمْ مَاجِرًا لِمُجْمَعٍ ! »  
 عَمَرَهُ اللَّهُ رَحْمَتَهُ وَرِضْوَانَهُ ، وَصَبَّ عَلَيْهِمْ شَدِيدُ حُودِهِ وَإِحْسَانُهُ آمِينَ

## ب - الجبهة الثانية .

### أو عوامل تثبت الصحابة في الكتاب والسنة

الآن وقد فرغنا من عوامل حفظ الصحابة للكتاب والسنة ، امرج هلى عوامل تثبتهم - رضوان الله عليهم - فيها . فنذكر أن الناظر في تاريخ الصحابة ، يروعه ما يروعه عنهم في تثبتهم ، أكثر مما يروعه عنهم في حفظهم ؛ لأن الثبوت فصيحة ترجع إلى الأمانة الكاملة والعقل الناضج من ناحية ، ثم هو في الصحابة باع القمة من ناحية أخرى ، إذ كان تثبتاً بالغاً وحذراً دقيقاً ، وحيطة نادرة ، وتحريماً دقيقاً لكتاب الله تعالى وهدى رسوله ﷺ في كل ما يتصل بهما من قرب أو بعد .

ولهذا التثبت القادر في دقته واستقصائه ، بواعث ودواع ، أو أسباب وعوامل ، يجعل بنا أن نقدّمها إليك ، كأسلحة ماضية تنافع بهل من الكتاب والسنة ، ومن الصحابة في أدانهم للكتاب والسنة .

### العامل الأول

أن الله تعالى أمر في محكم كتابه بالثبوت والتعزى ، وحذر من الطيش والتمرّع ، في الأنبياء والأخبار ، به القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، فقال سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِ الَّذِي كُنْتُمْ تُصِيبُونَ قَوْمًا مَّا يَعْلَمُونَ مَا قَعَلْتُمْ مَادِينِ . » .

وكذلك هى الله عن اتناع ما لا دليل عليه إلا أن تسمع الأذى ، أو ترى العين ، أو يعتد القلب من برهان ، فقال عز من قائل : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . » .



وقد عاب القرآن على من نادى بالظن فيما لا يلقى فيه الظن ، فقال الله جل شأنه : « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ الظَّنُّ لَا يُعْجِبُ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » إلى غير ذلك من أدلة كثيرة في الكتاب ولغة تأمر بالظن ، وكان الصحابة هم المخاطبون بهذه التعاليم والشامعين بها ، فلا ريب أن تكون تلك الآداب الإسلامية من أهم العوامل في تثبتهم وحذرهم خصوصاً فيما يتعلق بكتاب ربهم وسنة نبيهم : وبמיד كل البعد ، بل بحال كل الاستعانة ، أن يكونوا قد أهملوا هذا النصيح السامى ، وهم خير طبقة أخرجت للناس .

### العامل الثانى

ما سمعوه من التهيب الشديد ، ومن التهديد والوعيد ، لمن يكذب على الله أو يقترى على رسوله ومصطفاه . قال الله سبحانه : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ، وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ؟ » فانظر كيف سلك الله من افتترى الكذب عليه سلك من قال أوحى إلى ولم يوح إليه شئ . ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله ؟ ثم انظر كيف قدّمه عليهما في الذكر وصدّده في الوعيد ، وبعثه أول من نعت بالإغراق في الظلم

وقال سبحانه : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ » وقال سبحانه : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَخُوفُهُمْ مُسَوِّدَةٌ ، أَلَيْسَ فِي حَقِّهِمْ مَتْنَوَى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ؟ »

ونقرأ في السنة النبوية أنه ﷺ قال : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . وهو حديث مشهور ، بل متواتر ، ورد أنه قد رواه اثنان وستون صحابياً منهم العشرة المنشرون بالجعة ، ولا يعرف حديث احتج عليه العشرة المنشرون بالجنة إلا

هذا ، ولا حديثٌ يروى عن أكثر من ستين صحبياً إلا هذا .

ولقد سمع الصحابة هذه الترهيبات وأمثالها . وما أمثالها في القرآن والسنة قليل ، بل لقد سمع الأصحاب سبى رسول الله ﷺ عما دون الكذب وما كان أقل من التريده ، إذ حذرهم رواية الأصماء والمدحولين فقال : سيكون في آخر أمتي أئسٌ يحدثونكم ما لم تسموا أنتم ولا آبؤكم ، فلا تكلموا بهم ، رواه مسلم . بل حذرهم ﷺ رواية المجهولين فقال : « إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتى القوم فيحدثهم الكذب ، فيتفرقون فيقول الرجل منهم : « سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أعرف اسمه يحدث كذا وكذا » رواه مسلم .

فهل ينبغي عاقل متصف لنفسه أن يقول : إن الصحابة الذين سمعوا هذه لصاحبه وتلك الزواجر عن التريده والافتراء يقدمون على كذب في القرآن والسنة ، أو يقصرون في الثبوت والتحرى والاحتياط في نقل الذكر الحكيم ، والمحدث النبوي الكريم ؟

### العامل الثالث

أن الإسلام أمرهم بالصدق ونهاهم عن الكذب إطلاقاً ، فقد سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » وأنت خير بأن هذا الخطاب بهذه الصيغة في هذا المقام مع تقديم الأمر بالتقوى ، فيه إشارة إلى أن الصدق المأمور به من مقتضيات الإيمان ومن دعائم التقوى ، وبفهم من هذا أن من كذب وافتري ، فسيله سبيل من كفر وطفى . كما صرح سبحانه بذلك في قوله : « إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » .

ويقول النبي ﷺ: «عليكم بالصدق فإنه مع البرِّ وهما في الجنة. وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار». رواه ابن ماجة

وعن صفوان بن سالم رضى الله عنه قال: قلنا يارسول الله: أليكون المؤمنُ جباناً قال: «نعم». فقال: أليكونُ مجيلاً؟ قال: «نعم». قلنا: أليكونُ كذاماً؟ قال: «لا». أخرجته ماله، وطر إلى الحديث الأول كيف جعل الصدق هادياً إلى البرِّ وإلى الجنة، وجعل الكذب هادياً إلى الفجور وإلى النار. ثم انظر إلى الحديث الثاني كيف اعترف بالكذب الخس من الخس والمحل، وأخرجته في هذه الصورة الشيعة اننى لا تجمع بين الإيمان في نفس واحدة أبداً.

وستنقى المحب حين تعلم أن الرسول ﷺ ماله في تصحيح الكذب حتى في نواحي الأشياء ومحقرات الأمور. استمع إليه ﷺ وهو ينهى عن الكذب في المراح بهذه الطريقة اراذعة فيقول: «ويلٌ لذي يحدث ليصحك منه القوم فيكذب، ويلٌ له، ويلٌ له». رواه أبو داود والترمذى. ثم استمع إليه ﷺ وهو يتوعد من يكذب في ممانه ويقول: «من كذب في حلمي كلف يوم القيامة أن يفقد بين شعبرتين، وليس يعقد بينهما أبداً».

قل لي ربك: هل تلك الطبقة الأولى المتارة التي سمعت ذلك وأصعاف ذلك بأذنها من رسول الله ﷺ والتي اعتنقت الإيمان بعد البحث والظفر، واعتقدته طريقاً إلى سمادتها وعمرها، والتي ناعت أنفسها وأمواها لله بأن لها الجنة في نعيمها وحلودها. تقول: هل تلك الطبقة الكريمة ترضى بعد ذلك كله أن تترك رأسها وتسكن على أعقابها؟ فكذب على الله ورسوله، أو لا تتعزى الصدق في كتب الله وسنة رسوله! ذلك شغلٌ بعيد لا يجوز إلا على عقول اسمعيلين.

## العامل الرابع

أن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا مُعَرِّمِينَ بالتفقه والتعلم ، مولعين بالبحث والتفتيش ، مشغوفين بكلام الله وكلام رسول الله ، يقدرون المجالس لمدارسة القرآن وفهمه ، ويركبون ظهور المطالب لطلب العلم وأحذه . وكانت عناية الرسول بتعليمهم القرآن تفوق كل عناية ، يقرؤه عليهم ، ويحط بهم به ، ويزين إمامته لهم بقراءته في صلواته ، وفي دروسه وعظاته . وكان فوق ذلك يحب أن يسمعه منهم كما يحب أن يقرأه عليهم . روى البخاري ومسلم أن ابن مسعود قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرأ على القرآن » . فقلت : يا رسول الله . أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمع من غيري . فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا جئت إلى هذه الآية : « فَكَتِفَ إِذَا حِثْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً » قال : حسبتك الآن . فالتفت إليه فودا عيناؤه تَذَرُفَان .

وكذلك كان الصحابة ، همهم أن يقرءوا القرآن ويستمعه . روى الشيخان عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعريف أصوات رُفُقَةِ الْأَشْعَرِيِّينَ بِاللَّيْلِ حِينَ يَذْهَبُونَ ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِأَسْجَارٍ » .

وروى الدارمي وغيره بأسانيدهم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول لأبي موسى الأشعري : دكر ما ربنا فيقرأ عمده القرآن . قال الووى : وقد مات جماعات من الصالحين بسبب قراءة من سألوه القراءة .

وقد سبق في عوامل حفظ الصحابة لئلا يمدى عنايتهم بالإقبال عليها والاهتمام بلفظه

رسول الله ﷺ لتعلم منه والأخذ عنه . وروى مكحول عن عبد الرحمن بن عيسى أنه قال :  
حدثني عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : كُنَّا نَدْرُسُ دَائِمًا فِي مَسْجِدِ قُدَّةَ  
إِنْ حَرَجَ عَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « تَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ أَنْ تَعْمَلُوا ، فَانْأَحِرْكُمْ اللَّهُ  
حَتَّى تَعْمَلُوا » . رواه الدارمي موقوفًا على معاذ بن عبد الله صحابي . وكلمة أعلم في هذا الحديث  
شاملة لعلم الكتب وعلم السنة .

أليس هذا النوع من الكتب والسنة من دواعي نفعهم فيها ، كما هو من دواعي  
حفظهم لها ، لأن اشتهار الشيء ودبوعه ، وإين الأسماء به ، يحمله من الوضوح والظهور ،  
محيث لا يشوبه جش ، ولا يحاطه رغب ، ولا يُفعل فيه دحيل .

### العامل الخامس

سرا، أو ما نل لدى الصحابة إلى أن يقتنوا ، وسهولة الوصول إليهم إلى أمة واعية واعية  
حالية الأمر ، فيما استعطف عليهم معرفته من الكتب والسنة . وذلك لمعاصرتهم رسول الله  
ﷺ يتصلون به في حياته ، فدش صدورهم من أريته والشك ، وريح قلوبهم بما يشيع  
عندهم من أنوار العلم وحقائق اليقين .

أما بعد عروب شمس النبوة ، وانقضاء صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه . فقد كان  
من السهل عليهم أن يتصوروا عن سمعوا نواحيهم من رسول الله ﷺ ، والسماعون  
بومئذ عدد كثير وجم عفير ، ساكنوهم في دهم ، ويحياهم في نواديهم ، فإن شك  
أحدهم في آية من كتب الله ، أو خبر عن رسول الله أمكنه التفتت من عشرات سواء ،  
دون غمت ولا عسر .

## العامل السادس

شجاعة الأصحاب شجاعةً قطرية ، وصراحتهم صراحةً طهيمية ، أشبوا عليهم  
 مُنْذُ خدائهم ، وطبعوا عليهم بفطرتهم وبشتمهم ، كأمة متبذية لا تعرف حَقَّ الحضارة  
 المدبورة ، ولا تألف نفاق اللئذية بذية . ثم جاء الإسلام فمزَّر فيهم هذا الخلق  
 الفاضل ، وزادهم منه ، وبني حضارته الصحيحة ومدنيته الطاهرة عليه ، بخل ، ما سمعت  
 في أصدق الحديث وخير الهدى . حتى لقد كان الرجل منهم يقف في وسط الجمهور  
 يردُّ على أمير المؤمنين وهو يلقى خطاب عرشه ردًّا قويًّا صريحًا حسنًا ، بل كانت المرأة  
 تقف في بهرة المسجد الجامع فتقاطع حليفة المسكين وهو يحطِّب ، وتعرض رأيه  
 برأيها ، وتفرغ حجته بحجتها فيما تعتقد أنه أخطأ فيه شاكَّة الصواب ، وأمير المؤمنين  
 في الحالين يفتبط بهاتيك الصراحة ويُسرُّ بذاك الشجاعة ، ويعلن اغتباطه بموقف  
 ذلك العربي النخس الذي ردَّ عليه ، كما يمان رجوه عن رأيه إلى رأى هذه السيدة  
 التي حادته بين يديه ، وما أمر عمر بيهود عنكم ، ولا يحول لكم ، لا عند ولا بعد  
 الخلافة وهو قائم يلقى خطاب عرشه ، ولا عند ما وقف على منبره ينهى عن التثالي  
 في مهور النساء . . .

فهل يرضى العقل والمنطق أن تُخرج هذه الأمة الصريحة لقوة وثبتهم ناكذب أو  
 ناسكوت على الكذب في كلام الله ، وفي سنة رسول الله ؟  
 ثم ألا يحمدهم هذا الخلق المشرق بهم على كمال التثبت ودقة التعرُّى في كتب الله  
 وسنة رسول الله ؟ « فَقَدْ أَشْهَرَا الصُّنْعُ أَمْرِي عَيْنِي » .

## العامل السابع

تكافل الصلابة تكافلاً اجتماعياً فرضه الإسلام عليهم ، لجعل عيولهم مفتوحة لكل من يكذب على الله ، أو يتبرى عن رسول الله ، أو يخوض في الشريعة بغير علم ، أو يعق في الدين بغير حجة .

أصل : لقد كان كل واحد منهم يعتقد أنه عضو في جسم الأمة ، عاينه أن يتعاون هو والمجموع في المحافظة على الله ، ويعتقد أنه أئمة في بقاء الجماعة ، عليه أن يعمل على سلامتها من الدغل والزعل ، والافتراء ، والكذب ، خصوصاً في أصل التشريع الأول وهو القرآن وأصله الذي وهو سنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وبين يديك الكذب والسنة ، فأقرأ فيهما ، شئت أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تحدهم . كثيرة متآخذة ، تقرر ذلك التكافل لاجتماعي الإسلامى بين أفراد الأمة ، بما لا يدع مجالاً لتبرئ عن الله ، ولا يترك حيلة لحطاب ابن في حديث رسول الله .

استمع إلى كلام الحق وهو يحض على دعوة الخير وفضيلة النصيحة ؛ إذ يقول سبحانه وتعالى في سورة آل عمران : « وَتَسْكُنُ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى تَخْلِيٍّ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » وَلَا تَسْكُنُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَيْنِ مَا هُمْ أُمَّةٌ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . تَوَدَّ الْمُتَنَصِّرُونَ وَخَوَةٌ وَتَشُودُ وَخَوَةٌ » أي أن كل ذكره « كَأَنَّهُمْ خَيْرٌ مُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلدِّينِ » يُأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُؤْمِنُونَ بِالله . وهكذا قدم الله لأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان به ، تنويراً بحالاتهم . وحث على التمسك بحملهم ، وإشارة إلى أن الإيمان بالله لا يخص ولا يكون إلا بهم .

وتدبر قول الله تعالى في سورة المائدة: «مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّيِّ إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ. ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّسْكَرٍ فَعْلُوهُ. لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» .

ثم تأمل حكم الله على بنى الإنسان جميعاً بأهمهم غربفون في الخسران ، إلا من جمع عناصر السعادة الأربعة ، وهى الإيمان ، والعمل الصالح ، والعوصية بالحق ، والقوصية بالصبر فى قوله سبحانه: «وَالْعَصِيرُ: إِنَّ الْإِنْسَانَ آفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» .

سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، وشوَّفوا بحظه من فم رسول الله من جبريل عن الله ، ثم سمعوا بعد ذلك من كلام رسول الله أمثل ما أتى : -

(١) يقول ﷺ : « والذى نفسى بيده تَشَأْمُرُنَّ بالمعروف وتُظْهِرُنَّ عن المنكر أو ليوشكن أن يبعث الله عليكم عقاباً منه ، ثم تدعونه فلا يُسْتَجَابَ لكم » . رواه الترمذى بسند حسن عن حذيفة رضى الله عنه .

(٢) وعن عُمارة بن الصامت رضى الله عنه قال : « ما بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَسْرِ وَالْبُسْرِ ، وَالنَّشْطِ وَالْمَكْرِهِ ، وَعَلَى أَمْرَةٍ صَبِيحَةٍ ، وَعَلَى الْفَنَازِعِ الْأَمْرِ أَهْلِهِ ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا ( أى ظاهراً ) ، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ بَرْهَانٌ ، وَعَلَى أَنْ تَقُولَ الْحَقُّ أَبْنَاءُكُمْ لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَّا يُمْرَ » رواه الشيخان .  
فهل بعد هذا كله يُعْقَلُ أَنْ يَبْعَثَ الصَّعْدَانَةُ ، أَوْ يَفْرُوا مِنْ يَبْسُ سَكَنَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ ١٩ .



## العامل الثامن

تعودهم لصدق وترويضهم عليه عملاً ، كما أرشدوا إليه وأدبوا به ، وبها سمعت عملاً .  
وأنت حبير في التربية غير التعليم ، وأن العلم غير العمل ، وأن نوح الفرد والأمة ، رهون  
بمقدار ما يَهْلَس من رحيق التربية ، وما يَقْطَع من ثمرات الريضة النفسية والقوانين  
الحقيقية .

أما العلم وحده فقد يكون سلاحاً شقياً وسيراً فناءً ، كما يرى وسمع ، ويظن ما يرى  
و... سمع . . .

ولقد أدرك لإسلام هذه السحابة الخبيثة في ساء الأمم ، وأعادها كل اهتمام وعِيٍّ  
بالتعميد والعمل أكثر مما عني به علم والكلام . وهناك من تنسأ به ﷺ قال لمن يدرسون  
العلم في مسجد قباء : « تلك الصحبة الذهبية الحكيمة » تعلموا ما شئتم أن تعلموا ، فمن  
يَخْرُكُمُ الله حتى تَعْمَلُوا !

وهناك من تنسأ أيضاً أن الإسلام شرع عقوبة من أشبه العقوبات ، من اقترف نوعاً  
من الكذب وهو نوع الخوص في الأعراس ، تلك العقوبة هي حد الغصص الذي  
يقول الحق جل شانه فيه من سورة النور : « وَلَذِينَ تَزْمُونَ الْغِصَصَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا  
بِزَعَةِ شُهَدَاءَ فَخَالِدُوهُمْ تَدْبِيرَ خِيَدَةٍ وَلَا تَعْمَلُوا بِهِمْ شَهَادَةً بَدَأَ وَآوَلَيْتَ  
هُمْ أَنْ يَقُولُوا » .

فتأمل كيف عاقب هذا القاذف الكاذب بالخلد نمامين ، وردَّ شهادته وحكم بأنه  
من العاسقين ، من قال : « وأوشك هم العاسقون » أي لا فاسق سواهم ولا خارج عن  
حدود الدين والأدب إلا هم !

ثم شَفَّ مسمعك بما يرويه أبو داود في سنده من أن عبد الله بن عمر قال :

« يا رسول الله ﷺ إلى بقية وأر صبي صغير ، مذهب لألم ، وقت نحي  
 تم حتى أغصيت فقل ﷺ وما أردت أن نعنه ؟ قلت : نعم . فقل : أما  
 إنك لو لم تعنى سكنت عليك كذبة » (صو) في هذه تراه - فيه كذب لم يسمع  
 الرسول ﷺ لأنهم أن مذهب طعن الصغير وعدم بر صادق ، من يسأله : ما الذي كانت  
 تعطيه لو جاء ؟ ثم يقول : لو خاست بعد هذا لكاتب ، الله عليهم كذبة ! وهكذا يكتفى  
 بذكر كلمة كذبة في هذا مقام ردعاً له وحرراً ، ومنه نعلم أن نطق الكذب كان سوط  
 عذاب يحيف الصعبة بة رجلاً وساء . وذلك لـ يسمعون عنه من شناعة ، ولما يعرفون  
 فيه من شاعة ! ولما تأنص في نفوسهم من فضيلة الصدق وشرف الحق ! أبعده هذه  
 التربية العالية يصح أن يُقال : إن الصالحة يكذبون على الله ورسوله ولا يفتنئون ،  
 ألا إن هؤلاء من أمركم بهر فون ، لا يعرفون ، وأسرفون في تخرج فضلاء واتهام  
 الأرباء ولا يستحقون ، فوس لهم من يومهم الذي يؤدون !

### العامل التاسع

القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة ! التي كانوا يحدوها في رسول الله ﷺ ، فائدة  
 كأمة ، حذابة أحادة . ولا يزال عن مالك أن القدوة الصالحة خير عامل من عوام  
 التعليم والتربية والتأديب والتهذيب ، خصوصاً بن جبر ، وتبدييه ، وأسد ومتهلميه ،  
 ورئيس ومردوسيه ، وراعي ورعيته .

وه من أولاء يرى علماء النفس والاجتماع ، وأقاصب التربية والتعليم ، وفاء  
 الأخلاق والأمم براهم لا يزالون متحدثون في القدوة الصالحة ، ووضوح باعدده الصالحة ،  
 وسعته عن القدوة الصالحة ؛ وذلك ، كما أنها من التثوير والإصلاح ، والتأويم والترح ،  
 في الأوراد والامم على سواء !

ولم يعرف الترخيص يعرف قدوة أسى. ولا أسوة أعلى، ولا إمامة أسى، من محمد ﷺ، في كفاة مدح الكمال لشري، خصوصاً حقه ارضى، وأدبه السى، ولا سب صدق وأمانته، ونحره، ودقته.

أهل: فقد كان ﷺ مشهوراً بصدق، معروفاً بالأمانة، حتى من قبل نعتته ورسلته، فكان إدا سار أشاروا إليه بالنس، وقالوا: هذا هو الله دق، وإدا حكم دصوا حكومته وقالوا: هذا هو الأمين.

وكانت هذه الصفات مشرفة فيه، من نواعث إيمان البصعين من أهل الجدية به. ولقد اضطر أن يشهد له بها أعداؤه الألداء، كما آمن بها أسعته لأوفياءه. وهذا أنوسفيان من حرب رعيم حرب المصارص به مقرئين بدي قنصراروم بصدق محمد وأهم لم يحفظوا عليه كذبة واحدة قبل رسالته، ومكاديو من لقيصر مدثرأ في حملة متأثر، هذه الشهادة التي انطق بها لسان ألد خصوم محمد يومئذ، ثم نقول في التعميق على كلام أي سفير ولتوبه بصدق محمد عليه الصلاة والسلام « ما كان (أي محمد) يذرك الكذب على الناس ويكذب على الله »، ولحديث طويل مشهور برويه البحري في صحيحه فراحه إلى شئت.

وهذا قائل قريش يقول للهي ﷺ في مقرص من المعرص: يا لا يكذبك وسكر يكذب ما حنت به. وسب ذلك أمر الله تعالى « فبهم لا يكذبونك ولكم أنظر ليلين آيات الله يمحذون ».

ومما يهكر بالإعجاب والاعجوبة في الإسلام صلى الله عليه وسلم أنه عرص لإسلام على بى عامر بن صعصعة، وذلك قبل الهجرة، وقيل أن تقوم الدين شوكة، فقال كبيرهم: أرأيت إن نحن نبعثك على أمرك، ثم أظهر الله على من حالك، أيبكون لنا الأمر من بعدك؟ فأحابه صلى الله عليه وآله وسلم تلك الكلمة الحكيمة الخالدة:

« الأمرُ لله بِضَمِّهِ حَيْثُ يَشَاءُ ». فقال له كبيرهم أَقْبَهُدُ<sup>(١)</sup> محوَرُ ما للعربِ دَوْمَكَ  
هَذَا أَطَهَرَكَ اللهُ كَانَ الأَمْرُ لغيرِنا ؟ لاحتاجةً لنا مُأْمَرَك .

وهنا تتجلى سياسة الإسلام ، وأها سياسةٌ صريحةٌ مكشوفة ، ورشيده شريفة ،  
لا تعرفُ الخلفَ والدورانَ ، ولا تعتمدُ السكِّدَ والتضليلَ ، كما تتجلى صراحةً نبيُّ الإسلامِ ،  
وصدقُ نبيِّ الإسلامِ ، وشرفُ نبيِّ الإسلامِ ؛ عليه الصلاة والسلام ۱۱ .

ثم : لقد كان محمد ﷺ في ضيقٍ أَيْ ضيقٍ ، يحتاج إلى أقلِّ معاونةٍ من عدوٍّ أو  
صديقٍ ، وهذا حَيْثُ من العربِ يستطيع أن يكتسبه ويقوى به ولكنه عليه الصلاة  
والسلام ، لا يستطيع أن يعدَّ فهو خائفٌ ، ولا أن يحدث فيكذب ، ولا أن يماهد فيفندِر !  
يسألونه أن يكونوا الخلفاء من بعده إذا أسدوا فيقول بطل فيه « لأمرُ لله بِضَمِّهِ  
حَيْثُ يَشَاءُ » ولو أنه قال إن شاء الله مثلاً لدانوا له أجمعين ، وأصبحوا من حزبه وجمعه  
باسمِهِ ۱ .

مرحى مرحى سياسة الإسلام . وأخلاق نبيِّ الإسلام ۱۱ .

وإذا كانت هذه الأخلاق العليا هي منار الهدى لأصحابه في رسول الله ، فكيف  
لا يقبسون من هذه الأنوار ، ولا يضربون في حياتهم على هذه الأوتار ؟ فصلًا

(١) في القاموس : أهدفَ له الشيءَ عرضَ ۱ هـ .

وقال في لسان العرب ، الإهدافُ : الهدؤُ . أهدفَ له لقومُ أي فرَّبوا . . وكلُّ شيءٍ  
قد استتمَّتْ استقبالاتُهُ فهو مهدوفٌ ومستهدفٌ ۱ هـ . وقال الزمخشري في أساس البلاغة :  
أهدفَ له الشيءَ واستهدفَ انتصب وعرض . وقال عبد الرحمن بن أبي نكرٍ لأبيه أي نكر  
رحمى الله تعالى عني : لقد أهدفتَ لي يومَ بدرٍ فصمتُ علك ۱ هـ فالعملُ لارمٍ غيرِ متمدنٍ .  
ومعنى صمتُ علك : ملت وأعرصت . تدبر .

عن أن يقر بهم : إمام تكذبون أو لا يتحرون في كتب الله وسنة رسول الله  
« سُبْحَانَكَ هَذَا هُتَاتٌ عَظِيمٌ »

### العامل العاشر

مهم تربية الصحابة على فاضل الإسلام كلها ، وكن تأديبهم بآداب هذا الدين  
الحنيف وشده حورهم من الله ، وصفاء نفوسهم إلى حـد لا ينفق والكذب  
خصوصاً الكذب على الله تعالى ، والتعصبي على أفضل الخليفة صلوات الله  
وسلامه عليه .

يقول علماء الأخلاق والمشتغلون بسم النفس وعلوم الاجتماع : إن يكذب حامية  
قبيحة ، لا يمكن أن يصدر إلا عن نفس ساقطة لم تعادب ، ولا يتصور أن ينشأ إلا في  
شعب شاذ لم يتهذب .

ومن إذا استعرضنا تاريخ الصحابة — رضوان الله عليهم — نشاهد المعجب في  
عظمة تأديب الإسلام هم ، وتربيته إمام تربية سامية جعلهم أشبه الملائكة يمشون  
على الأرض ، لاسيما ناحية الصدق والأمانة ، والتثبت والفحري والاحتياط . وذلك من  
كثرة مقرر القرآن فيهم لهذه الفصائل ، ومن عناية رسول الله ﷺ بهم علماً وحسلاً  
ومرافقة ، حتى أصبحوا بنعمة من الله وفصل منطبعة قلوبهم على هذه الجلائل ، منشفة  
نفوسهم بمبادئ الشرف والعدل ، تأنى عليهم كرامتهم أن يفاربوا الكذب أو يقارفوا  
التهجم . لاسيما تهجم على مقدم مكاتب العرب ، وكلام صاحب الرسالة ﷺ .

قلت عائشة رضي الله عنها : « ما كان حق أشد على أصحاب رسول الله ﷺ  
من الكذب . ولقد كان رسول الله ﷺ يطالع على الرحمن من أصحابه على الكذب  
فما يحل من صدره حتى يم أنه أحدث نوبة لله عز وجل » رواه مسلم ومقدمة صحيحه .

## عوامل أخرى

و قد استعرضت بعض العوامل السابقة في حقل واحدة للكتاب وسنة ، عدمهم عوامل صالحة أيضاً لأن تكون دواعي شتمهم في الكتاب والسنة ، ولهذا أكتفي بالإشارة إليها دون إعادتها :

١ - ذلك كله العرب وقوة عواطفهم وصفاء طبعهم ، إلى آخره ، ذكره في العمل شديداً هناك . لا شك أنه داعية من دواعي شتمهم أيضاً ، لأن الشأن فيمن شأ على هذه الصفة ؛ أن يكون وثيقاً بحفظه ، ولا يحتاج إلى تزئير ولا دفع في شتمهم .

٢ - وحب الصفة لله ورسوله عامل كذلك من عوامل انشئت ، لأن الحب الصادق لا يقنع إلا بما يتقوله كلام حبيبه من غير لاسي ولا شك ، ولا يرضى أن يفتري لكتاب على حبيبه ، ولا يقبل أن يتقول عليه أو ينهجم في كلامه ، خصوصاً إذا عرف أنه يكره ذلك منه . ( انظر العامل الرابع من عوامل الحفظ ) .

٣ - وموقف الصحابة في محراب الفصاحة والبيان ، وعلو كمهم في نقد الكلام ، وكل ذوقهم في إدراك عجز القرآن وبلاغة النبي عليه الصلاة والسلام ، كل أولئك يسر عليهم القنيت ، ويهون عليهم أن يردوا ما ليس من كلام الله وكلام رسوله ، ضرورة أنهم يدركون المواضع بين الأساليب الفصيحة والفحولة ، وبروز كلامهم ، ودرهم البلاغة الصادقة . ( انظر العامل الخامس من عوامل الحفظ ) .

٤ - وعلم الصفة شدة الكتاب والسنة من الدين ، يحفظهم بلا شتم يشعرون بالانشئت منهما ، والحيصة هي . ( انظر العامل السابع من عوامل الحفظ )

٥ - واقترب الكتاب إلى محرم ، واقترب لسانه بعض معجزات والعرائف ، ثم ارتبط كثير من آيات الله وأحاديث الرسول لحوادث والوفايع ، كل أولئك مما يحمل

النفس تتوثق منهما ولا تشبه فيهما ولا تمثل أثر بد والكذب فيهما . ( انظر العامل الثامن والتاسع من عوامل الخطأ ) .

إد جمعت هذه العوامل وأما لها إلى عشرة المطورة بين يديك ، رأيت صفة عشر عاملا من الله على المتوافره ، والأدلة القائمة ، على أمانة الصحابة وشتمهم من الكذب والسنة .

### مظهر هذا الثبوت

وهكذا نضع تاريخ الصحابة ، ونقتل آثارهم ، فإذا هي شواهد حق هل تفعل فصيلة الصدق فيهم ، وشدة نفورهم ، ونقد ساحتهم من الكذب وما يشبه الكذب . هذا امر رضى الله عنه يقول : « أَحْسَنُكُمْ إِلَيْنَا ، أَمَّ رَكْمٌ أَحْسَنُكُمْ تَنِيمًا ، فَوَإِذَا رَأَيْنَاكُمْ فَأَحْبَبُّكُمْ إِلَيْنَا أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا ، فَوَإِذَا اخْتَفَرْنَاكُمْ فَأَحْبَبُّكُمْ إِلَيْنَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا » . وهذا على كرم الله وجهه يقول : « أعظمُ الخطايا عند الله عز وجل اللسانُ الكذوبُ » . ويقول مرة أخرى : « إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ ، فلأن أخير من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه » .

وإن شئتم فاعلموا من سمع من السيب وهو أحد من ربهم الصحابة : رمدت عيناها مرة حتى بلغ الرمد خارجهما ( والرمد وسخ أبيض من مجرى الدمع من العين ) فقيل له : لو سمعت عبيدك فقال - وأين قول الصديق لا تمس عينيك فأقول : لا أفس ١٩ .

وتدرو ما رواه مسلم بسنده عن محمد قال : جاء شير المدوى إلى اس عباس ، فجعل يحدث ومول . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل اس عباس

لَا بَأْذَنُ لَهُ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ . فقال : يا ابن عباس ، مالي لا أراك تسمع لحديثي ، أحدثك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع ! فقال ابن عباس : إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلا يقول : قال رسول الله ﷺ : اتَّقَرْتُهُ أَنْصَارُ مَا ، وَأَضَعِيَا إِلَيْهِ نَادِيسَا ، فلما رَكِبَ النَّاسُ الصَّعْبَ وَالذَّلُولَ لَمْ نَأْخُذْ مِنَ الدَّاسِ إِلَّا مَا عَرَفَ .

ومن هذا الورع البالغ والحذر الدقيق، تخرج كثير من أكارر الصحابة عن الرواية والتحديث ، فلم يسمع منهم إلا البزء اليسير ، مع أن لديهم من رسول الله ﷺ العَمَرُ الكثير . يُحَدِّثُ ابْنُ الزَّيْبِرِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فيقول : قلت لأبي - مالي لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وعلان ؟ فقال : أما لي لم أطارقه مُنْذُ أَسَلْتُ وَلَكِنِ سَمِعْتُهُ يَقُولُ : مَنْ « كَذَبَ عَلَى مُتَعَمِّدٍ فَلْيَتَّقُوا مُعْتَدَهُ مِنَ النَّارِ » رواه البخاري وأبو داود .

وإذا كان هذا مطهراً من مظاهر حذرهم واحتياطهم للسنة النبوية ، فإذا تقدر من مظاهر حذرهم واحتياطهم لكتاب الله العزيز ؟ إني أعتقد أنك إذا رجعت إلى أدلة رول القرآن على سبعة أحرف ، تشاهد العجب العاجب من روائع هذه المظاهر .

فهذا عمر يأخذ عملاق هشام بن حكيم ويسوقه إلى النبي ﷺ وما تقم عليه إلا أنه قرأ سورة الفرقان على وجه لم يقرأه عمر ، ولم يكن يعرف عمر أنه هكذا نزل ، ولم يرسل عمر هشاماً حتى انتهى به إلى رسول الله ﷺ وأمره الرسول أن يرسله ، ثم استقرأها عليه الصلاة والسلام ، وقال في قراءة كليهما : « هَكَذَا أُتْرِيتُ » . وقال : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَنَةِ أَحْرَفٍ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » هذا ملخص ما كان بين عمر وهشام ، ومثل ذلك وقع من أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وغيرهما مع أصحابهم ، مما تعرضه عليك الروايات البسيطة هناك في هذا الموضوع ! .



أصب إلى هذا ست الدقة البالغة التي أحدها لك في دستور أي مكر وحسنه .  
عنان رضى الله عنهم في جمع القرآن بالصحيح والصحف ، وهي على معرفة من  
فارح ، أيها إن شئت .

ويشبه هذين الدستوريين في جمع القرآن ، دستور أبي بكر في حيازة السنة واجبة  
لهما والتأنيث من ، إذ جمع أصحاب رسول الله ﷺ وشاورهم في الأمر ، ثم اتفقوا  
إلى اتباع ما يأتي : -

أن يسطروا في حجر الواحد نظراً فاحصة ، يرمونه عن كتاب الله تعالى وما نواتر  
أو اشتهر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن خالف شيئاً منها زيّموه وردوه ،  
وإن لم يخالف سطروا نظراً ثانية فبين حده به ، فلا يقبلون إلا بمن عرف بالعدالة  
والصبط والصدق والتحرى ، وإلا طالموه بالتركيب من طريق آخر يشهد معه ويروى  
مردواً ، ورغم هذا وقد التزموا لتقليد من الرواية لأن الإكثار مَنظومة انعطاً  
ومثار الاشبهة .

نعم : حدهم ورغمهم وشدة خوفهم من الله ، أن يحصوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم  
الدستور الدقيق الرشيد القائم على رعاية هذه القواعد لثلاث : النظر في الظاهر والنظر  
في مخبر ، والإقلال من الرواية .

ويرحم الله أن الحداث قد أسس التي وصعها أبو بكر الحظيفة بكتاب  
وانسبه ، ثم من علمها ، وشيخها ، وإضافهم ، حتى تشدد مع الأئمة المؤمنين ، وصق  
الحق على الصعدة لمكثرين ، حتى روى أنه حسن ثلاثة من مشاهير الصحابة سنة  
كاملة ، وما هم منهم إلا أنهم أكثر الرواية وإداصح هـ ، فهو درس قسم من  
اعاروق صمة الشعب في الاحتياط لأصول فشرع والتعشّر والتدقيق في الرواية تحملاً  
وأداء ، على حد قول الشيخ .

« إلى وقتي سلّسكنا ثم أغلّنا » كالقوز يُصْرَبُ أمّ عاتٍ البقرُ »

ثم جاء دور عثمان وعلى ، حدّوا حدّوا أن بكر وعمر ، إذ أوى لكتاب في كسهما إلى ركن ركين وغلّ غليل ، وتقيت اسنة في عهدهما رفعة العبد ، قوية السناد ، حتى تلقّاها بنو أمية على ما تركها الخلفاء ، بيضاء مشرقة ، ليبدأ كسها رها .

وبدأت اسنة في عهد الأموي معقصة بدرّتها ومتمّتها ، حتى طلع بجم الملك العادل عمر بن عبد العزيز ، على رأس المائة الثانية فردّد صدق حدّ عمر بن الخطاب ، في ضرورة صون السنة ووقفيها ، ولكن رأى أن يكون ذلك من طريق الكتبة والنش في السطور بعد أن وهيت في العهد الماضي من طريق الخط في القرب والصدور . وبذلك انتقل الحديث النبوي إلى دور جديد سعيد ، هو دور التأليف والكتابة والتفصيل ، مما كان له أبلغ الأثر في وصوله إليها موزوناً بأدقّ موارد العلم والبحث الدقيق .

### نتيجة ذلك

ولقد كان من نتيجة ذلك كله أن أحيط الكتاب ولسنة سباح من الفولاذ والحديد ، وأن حُفظ الدين من العبث بأصول التشريع ، وأن أخذ حذف الأمانة درساً قيماً عن سلفهم الصالح في ضرورة الاستعانة للدين ، واليقظة في حراسة الكتاب ولسنة ، ووجوب نقد الرؤاء واختص المرويات وهذا أيضاً أحد الطريق على القدس والقدسين وحيكّت أشبالك للدخالين وأوصّ عين ، وأصبح الدين الإسلامي منبع الحوارة محفوظ لدمار ، إلى درجة تعاخر بها شعوب عالم وأمم الأرض ، وأديين الدنيا ، مما لا يمكن يوحد منه ولا قرب منه في تاريخ أمة شريفة من شرائع أمجادها والوصمية ، منذ حتى الله سموات ولأرض إلى يوم الناس هذا .

### اموقف خطير

ولا تخسأ ايها المرىء الكريم أى دامت أو أسرفت ، وبن كمت قد أطلت  
وأكثرت ، فإن هذا البحث جليل وخطير يقتضى فى حسنة وحظوره ، بقلك العذبة  
منارة لى أحقادها ، الله لتبقى كتبه ، ومعصرة رسوله ﷺ وحسن انفاية عنه فى اشرف  
هداية الإسلام ، والدفاع عن رضى الدين الخفيف .

أولئك هم حجر الزوية فى بناء هذه الأمة المسعدة ، عنهم قبل غيرهم تدقت الأمة كتاب  
الله ، وحدقت سنة رسوله ، وعرفت تعاليم الإسلام ، فالنص من شأنهم والمعتقد بهم ،  
بل انظر إليهم المحدث من لا اعتبار ، لا ينفق والمركز الاسمى الذى تموء به ،  
ولا يؤتم المهمة الكبرى التى انتدبوا لها ، ونهضوا بها ، كأل لطن فيهم ولنخرج لهم ،  
يزلزل بناء الإسلام ، ويقوض دعائم الشريعة ، وبشكك فى صحة القرآن ، وبصيح الثقة  
سنة سيد الأدم .

ومن أشد ما يجرح به اصحابه اتهامهم بسوء الحفظ وعدم ضبط وكمزؤهم بالكذب  
ولا تراء على الله ورسوله ، وبنهم بدم لذبت والتحرى فى مقام كتاب الله وسنة رسوله  
إلى الأمة .

لذلك عني عماء الإسلام قديماً وحديثاً بالدفاع عن عرين الصعوبة ، لأنه كدرايت  
دفاع عن عرين الإسلام . ولم يكن ذلك الدفاع روة هوى ، ولا نبوة عصبية ، بل كان  
نتيجة لدراسات تحليلية ، وأبحاث تاريخية ، وتحقيقات درعة واسعة ، أحصاهم عدد ،  
وبغدهم مردود ، وعرضهم على أدق موارد لرحل ، مة هي به الأمة الإسلامية  
كافة ، الأمام والأحيان .

وبعد هذا التحقيق والتدقيق ، حرح الصعوبة رضى الله عنهم من نوبة هدا  
البحث ، وإدام جبر أمة أحرحت للدم ، وأسعى طائفة عسرها الترخ ، وأسل

أصحاب نبي طهر على وجه الأرض، وأوعى وأصط جماعة تستعبطو عليه من كتاب الله وهدي رسول الله ﷺ .

وقد اضطروا أهل السنة والجماعة، أن يسوا رأيهم هذا كعتيدة، فقرأوا أن الصعوبة عدول ولم يشد عن هذا الرأي إلا للمتدعة ولزبدقة قبضهم الله - قال أبو زرعة الرازي : « إذا رأيت الرجل ينقص أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك لأن الرسول حق، والقرآن حق، وما جاء به حق، وإما أدى ذلك إنيما كاه للصعوبة. وهؤلاء (بمعنى لزبادقة) يريدون أن يمحروحو شهود، ليطلوا الكتاب والسنة والخرج سهم أولى، وهم زبادقة » اهـ

### شهادة عليا من الله للصعابة

وفوق ما تقدم محمد الحق سبحانه وتعالى، يمدح أصحاب محمد ﷺ غير مرة، ويرى الرسول ﷺ يصرى صحابه، في غير موضع اقرأ إن شئت قوله حل حلاله : « مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللهِ ، وَبَرِيْءٌ مَّعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » إلى آخر سورة الفتح ثم اقرأ إن شئت قوله عز اسمه : « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَتَى مِنَ الْقِبْلِ الْمُتَنَحِّطِينَ وَفَرَّ ، أُولَئِكَ أَعْطَيْنَاهُمْ دَرَجَةً مِنْ أَدْنَى نَقَبُوا مِنْ تَعْدُوهُمْ فَاتَّخَذُوا ، وَكَذَلِكَ وَعَدَ اللهُ الْخَاسِرِينَ » وقوله حلت حكته : « لِلَّهِ قَرَاهُ تَمَّ حَرِيْرٌ لَدَيْنَ أَخْرَجُوا مِنْ دِينِهِ وَأَمَّا إِيَّاهُمْ » إلى قوله . « وَأُوْثِرُوْنَ عَلَى أَمْسِيْنِهِمْ وَلَوْ كُنَّ مِنْهُمْ حَصَاةٌ » في سورة الحشر وتأمل قوله عز من قائل : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » الخ ، وقوله : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُوْلُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » ولا ريب أن الصعابة هم الشاهقون بهذا الحصاب ، فهم داحيون في مصمونه مادي دى مداه ، متحققون بما يراه أول الأمر اهـ

### شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه

وكذلك قرأ في صحيح نسخة ما يشهد بمصلحة وكمال أممهم على اثنين  
سوى عيسى وموسى روى ليرمى من حدس في تحييده أن رسول الله صلى الله عليه  
وسلم قال «الله الله في أصحابي، لا تجادلهم عن شيء عرضة»، ثم «أحبهم فبعضي أحبهم»،  
ومن «أصحبهم فبعضي أغضبهم»، ومن «أداهم فهدى داري ومن دى فقد أدى الله  
فيؤشك أن أجد»

وروى أنه قال في مسنده رحل كلهم موثقون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال  
«يا أيها الناس احذروا أصحابي عن ثلثين سوى عيسى وموسى» وفي صحيح البخاري  
ومسلم أنه عليه السلام قال في شأن أصحابه «لولا أهلك أحدكم مثل أخيه ذهب ما ذرركم  
أحدكم ولا يبقيه» ورواه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «أخبركم عن قرني،  
فما ترون نوبهم»

فإن ترى من هذه الشهادات في في السكت والسهو يرفع مذهب الصحابة إلى  
الدراسة، وما لا يتركه عن فيهم دمعاً ولا شبه دمل

### حكمة الله في اختيار الصحابة

والواقع أن الغرض المحرر من الهوى ومغضب، تحييل على الله في حكمته ورحمته، أن  
يترك عن شريعته الختامية أمراً معصوماً أو طائفة معصومة - في الله عن ذلك عواكز كبراً -  
ومن هذا كان وثيق هذه الحصة كمرئفة صفة النصحاء، يعتبر دفاعاً عن الكتاب والسنة  
وأصول الإسلام من ناحية، ومتمراً إلهياً لمن يستحقونه من ناحية ثانية، ويعتبر  
مقدراً لحكمة الله - لعل في احتسابهم هذه المهمة عظمى من حيث ثمنه كما أن توجيهم

والنيل منهم ، بُمْدُ عَزْزًا في هذا الاختيار الحكيم ، وَلَمْزًا في ذلك الاصطفا . والفكرين ،  
فوق ما فيه من هدم المكتاب والسنة والدين .

على أن التصريح لتاريخ الأمة العربية وطوائفها وميَّزاتها ، يرى من سلامة عصرها ،  
وصفاء حوهرها ، وسمو ميَّزاتها ، ما يجعله يحكم مطمئنًا ، بأنها صدرت خير أمة أخرجت  
للناس ، بعد أن صهرها الإسلام . وطهرها القرآن ، وبني حنظلها سيد الأنام ، عليه  
الصلاة والسلام

ولكن الإسلام قد أتى حديثًا يمثل أو ناشد بما بُتلى به قديمًا ، فاطلقت السنة  
في هذا العصر رُحف في كتاب الله غير علم ، وتحوص في السنة غير دليل ، وتطعن في  
الصحابة دون استحياء ، وتال من حَمَطة الشريعة بلا حجة ، وتتهمهم بارة سوء الحفظ ،  
وأخرى بالتزويد وعدم الثبوت وقد رَوَّدماك وسأحباك فازل في الميدان ولا يحشَ عِدَاك .  
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » نصرنا الله  
نصرة الإسلام ، وثبت ما الأقدام والأقلام ، والحمد لله في البدء وفي الختام ، وصلى الله  
على سيدنا محمد وآله وصحابه الأعلام ، آمين .

## المبحث التاسع

في ترتيب آيات القرآن وسوره

معنى الآية :

آيات القرآن جمع آية ، والآية يطلق في لسان اللغة بطلاقات :

أولها : المعجزة . ومنه قوله تعالى : « سَلِّ يَا رَبُّ عَلَى عَبْدِكَ » أَنِّي أَنَا مِنْ آيَةِ نَبِيِّهِ

أى معجزة واضحة .

ثانيهم : العلامة . ومنه قوله تعالى « إِنَّا يَتَذَكَّرُ أَنتُمْ » .  
 فيه تنبيه من رُسُلهم . أي علامة مدحه

ثالثهم : العبرة . ومنه قوله تعالى « هُنَّ فِي ذُرِّيَّتٍ لَّأَنَّهُ » أي سيرة لمن  
 يقترب .

رابعهم : الأمر العجيب . ومنه قوله تعالى « وَحَمَلْنَا مِنْ مَرْبِهِمْ وَأُمَّهُ يَتَبَوَّأُ  
 حَامِسُهَا » . الخ . ومنه قوله تعالى « وَحَمَلْنَا مِنْ مَرْبِهِمْ وَأُمَّهُ يَتَبَوَّأُ حَامِسُهَا »  
 لما بدعوا وراءهم شيئا .

سادسها : البرهان والدليل ، نحو قوله حين ذكره « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ » . والمعنى أن من برهين وجوده وقدرته  
 وإصابته بخلق عوالم السموات والأرض واختلاف الأنس والأوال .  
 إظهاره موافقة ، وقد يسمون مصها عصا . ثم خُصَّت الآية في الاصطلاح .  
 ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن ، وسلسلة بين هذه المعاني  
 والمعاني اللغوية .  
 والآية الواضحة ، لأن الآية القرآنية معجزة ، وهي ما عتدوا به على غيرها .  
 ثم هي علامة على صدق من جاء به عليه السلام ، وفيها عبرة وذكرى لمن أراد أن يتذكر ، وهي  
 من لأمر العجيب .  
 من السموات والأرض ، وفيها معنى الجملة لأنها مؤيدة من حمده  
 كليات وحروف ، وفيها معنى البرهان والدليل على ما تضمنه من هداية وعبر ، وعلى قدرته  
 الله وعظمته وحكمته ، وعلى صدق رسوله في رسالته .

## طريقه معرفة الآلة .

لا سبيل إلى معرفة آت نقرّ إلا بتوفيق من لشرع ، لأنه ليس للميسر ولا رأى  
 محول وهب ، وعدوهو محصن تعليم وشرهه ، منين أن الله عدّوا « مَص » آة ، ولم عدّوا  
 نصيرها وهو « نر » آة ، وعدو « نر » آة ، ولم عدّوا نصيرها وهو « نر » آة ، ولم عدّوا  
 آة ، وعدّوا « حَمَق » آة ، ولم عدّوا نصيرها وهو « كَمَص » آة ، ولم عدّوا  
 واحد . وفي كل الأمر منبى على اقياس سكال حكم مثليين واحداً كما ذكر ، ويحى  
 هكذا محصن

ذلك مذهب الكوفيين ، لأنهم عدّوا كل وتمة من فوايح اسود قى فيها شيء  
 من حروف الهجاء آة سوى حَمَق ، فإنهم عدّوها آة ، وسوى طَس ولم يعدّوا  
 من الآات فيه « ر » وهو « آر » و « نر » ، وما كان مردّ وهو « ق ، ص »  
 أى عدّوا شيئاً من آة

وسر الكوفيين لا يعتبرون شيئاً من فوايح ، إطلاقاً . وحيث قد إلى المسألة  
 بوقعية ، فلا شدة من عديم هذا الخلاف لأن كلاً وقف عند حدود ما سمعه أو عده .  
 ولا نقول كيف عدّوا ما هو كلمة واحدة ؟ لأن إيراد عن لشرع هو هذا ، كما عدت  
 كلمة « ارحم » في صدر سورة ارحم آة ، وكما عدت كلمة « مذهب » آة ، وفوق  
 عند لو د

أخرج البخاري وأبو داود وسنن أبي سعيد بن ابي قال . كنت أصلي  
 في المسجد ، فعدى رسول الله ﷺ ثم أحمه ، ثم أيقته فقلت . « رسول الله ﷺ  
 كنت أصلي فقل أم يقن الله تعالى » « أَيْهَا الَّذِينَ آمَنُوا سَتَجِدُوا لِلَّهِ  
 وَإِذْ سَأَلْتُمْ » ثم قال . لأعلمك سورة هي أعظم سور في القرآن قل  
 أن يخرج من مسجد ثم أحد يدي ، فما أراد أن يخرج قلت له . أم قل :



لَأَعْلَمَنَّكَ سُورَةٌ هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ؟ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أَوْتِيَتْهُ ، اه . فهذا الحديث يدل على أن الغائمة سبع آيات ، وعلى أنها هي لمراعاة السبع المثاني في قوله تعالى : « وَاقْرَأْ آيَاتِكَ سَمْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » .

وأخرج الترمذي والحاكم عن أبي هريرة أنه قال : قال النبي ﷺ : « إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَمَاءٌ ، وَإِنْ سَنَامٌ ، الْقُرْآنُ سُورَةٌ الْبَقَرَةُ ، وَفِيهَا آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ : آيَةُ الْكَرْسِيِّ اه .

وأخرج مسلم والترمذي عن أبي بن كعب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يَا أَيُّهَا الْمُنْذِرُ . أُنْذِرُ أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَكْثَرُ ؟ » قَالَتْ : « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، فَضَرْبَ فِي صَدْرِي وَقَدْ لَبِثْتُكَ الْعِلْمُ يَا الْمُنْذِرُ » اه .

وأخرج الحجة إلا النسائي عن أبي مسعود البصري أنه قال : قال النبي ﷺ : « مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتِينَ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةِ كَفَنَاءٍ » اه .

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود قال : « أَمَرَ أَيْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُورَةٌ مِنَ الثَّلَاثِينَ مِنْ آلِ حَمٍّ » قَالَ : يَعْنِي الْأَحْقَافَ ، لِأَنَّ السُّورَةَ إِذَا كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ آيَةً سَمِيَتْ الثَّلَاثِينَ .

وقال ابن العربي : ذكر النبي صلى الله عليه وسلم : « أَنَّ الْغَائِمَةَ سَبْعُ آيَاتٍ ، وَسُورَةٌ لِلْمَلِكِ ثَلَاثُونَ آيَةً » اه .

رَأَى آخِرُ :

وبعض العلماء يذهب إلى أن معرفة الآيات ، منه ما هو سماعيٌّ وتوقيفيٌّ ، ومنها ما هو قياسيٌّ ، ومرجع ذلك إلى العاصلة ، وهي الكلمة التي تكون آخر الآية ، نظيرها قريبة المسح في الثر ، وقافية البيت في الشعر . يقولون : فاشتقت أن النبي صلى الله عليه وسلم

وقف عليه دائماً تحقّف أنه فاصلة ، وما وصله دائماً تحقّقاً أنه ليس فاصلة ، وما وقف عليه مرةً ووصله أخرى احتمال الوقف أن يكون التعرف لفاصلة أو التعرف الوقف التام أو للاستراحة ، واحتمل الوصل أن يكون غير فاصلة أو فاصلة وصلها بتقديم نربها ، وفي هذا مجال للقيم ، وهو ما لحق غير منصوص عليه بالمصوص عليه لأمر يقتضي ذلك ولا محذور فيه لأنه لا يؤدي إلى زيادة ولا نقص في القرآن ، وإن كانت تعيين محل الفصل أو الوصل

وقد يلاحظ في الكلمة الواحدة من القرآن أمور ، يقتضي أحدها عدّها من المواصل ، والآخر يقتضي خلاف ذلك مثل ذلك كلمة « عبيهم » الأولى في سورة النّح ، منهم من يحتارها رأس آية ، ومنهم من لا يراها كذلك وسبب هذا أنهم اختلفوا في المسئلة أي آية من لفاتحة أم لا ؟ مع اعاقهم على أن عدد آيات النّح سبع . فالذين ذهبوا إلى أن المسئلة آية من النّح جعلوا « صراطاً مستقيماً » تحت « عبيهم » إلى آخر السورة آية واحدة . والذين ذهبوا إلى أن المسئلة تحت آية منها جعلوا الآلة المسئلة ما بعد كلمة « تليهم » الأولى ، واعتبروا هذه الكلمة فاصلة بوقوعها في آخر الآية السادسة ومن المرحّات لهذا وصلة تحقق التماسك بين الآيات في مقدار ، بخلاف ما إذا لم يمتد فاصله في هذه الآية الأخيرة فنحول وترد على ما سواها كثيراً ومن المرحّات لعدم عدّها وصلة أنها لا تلي كل مواضع لفاتحة ، لأنه إذا في كل واحدة منها قبل الحرف الأخير « بعد » بخلاف هذه أصف إلى ذلك أنه لا يخفى فاصله على هذا النمط في سورة من سور

واعلم أنه قد نطق لآلة لفرأيه ويراد بعضها أو أكثر ولكن على صريح من النحر وتشويع ، فلا تنوق فيه مثال إطلاق الآلة على بعضها ، قول ابن عباس : أرحني آية في القرآن : « وَبَرَّكَ لَدُوْكَ مَعْقِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى طَلْمِيحَةٍ » فإن هذه

الجنة الكريمة مع آية نافع ، ومثل إطلاق الآية على أكثر مما قول ابن مسعود .  
أَحْكُمُ آتَهُ قَمَلًا مِثْقَالُ ذَرَّةٍ خَيْرٌ يَرَهُ وَمَنْ يَتَّقِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .  
فيهما آية نافع

عدد آيات القرآن :

قال صاحب التبيين ما نصه : وأما عدد آي القرآن فقد اتفق لعادون على أنه مئة  
آلاف ومائة آية وكسر ، إلا أن هذا الكسر يخفف مبني باختلاف أعدادهم :  
وفي عدد المدي الأول سبع عشرة ، وفيه قال نافع .

وفي عدد المدي الأخير أربع عشرة عدد شعبة ، وعشر عدد أبي جعفر .  
وفي عدد المكي عشرون .

وفي عدد الكوفي ست وثلاثون . وهو مروي عن حمزة الزيات .

وفي عدد البصري خمس ، وهو مروي عن عاصم الجعدي . وفي رواية عنه أربع ،  
وفي قول أيوب بن انتوكل البصري ، وفي رواية عن البصريين أنهم قالوا : تسع عشرة ،  
وروي ذلك عن قتادة .

وفي عدد أنشاصي ست وعشرون وهو مروي عن يحيى بن الحارث الدماري .  
وقال صاحب التبيين أيضاً قبل ذلك ما نصه : عدد المكي منسوب إلى عبد الله  
ابن كثير أحد السبعة ، وهو يروي ذلك عن محمد بن ابن عباس عن أبي بن كعب .  
وعدد المدي على ضربين : عدد المدي الأول وعدد المدي الأخير . فعدد المدي  
الأول غير منسوب إلى أحد حيه وإنما نقله أهل الكوفة عن أهل المدينة مرسلاً ،  
وم سموه ذلك أحداً ، وكانوا يحدون به ولم كان لهم عدد مخصوص  
وعدد المدي الأخير منسوب إلى أبي جعفر بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن شيبه  
بن جراح وقد رواه عنهما إسماعيل بن جعفر بن أي كثير الأنصاري بواسطة

سليمان بن حمار . وقد وهم من نسب عدد المدي الأول إلى أبي جعفر وشيعة ، وعدد المدي الأخير إلى إسماعيل بن جعفر . وكان الذي أوقعه في ذلك ما ذكر في بعض الكتب من أن ما عا روى عنهما عدد المدي الأول ، وأن أبا عمرو عرض العدد المذكور على أبي جعفر ، فإن رواية ذلك عنهما لا تقتضي نسبه إليهما . وأما نسبة عدد المدي الأخير إليهما فهو مما لا ريب فيه . ما أردنا نقله ، سوياً في هذا الموضوع ، الذي اضطررت فيه بعض النقول .

### سبب هذا الاختلاف

سبب هذا الاختلاف أن النبي ﷺ كان يقف على رؤوس الأي عالياً لأصحابه أها رؤوس آخري ، حتى إذا علموا ذلك وصل ﷺ الآية ، بعدها طمأن نساء المعنى ، وبعض بعض الناس أن ما وقف عليه النبي ﷺ ليس فاصلة ، فيصلها ، بعدها معتبراً أن الجميع آية واحدة ، والبعض يعتبرها آية مستقلة فلا يصلها ، بعدها وقد علمت أن الخطأ في ذلك سهل ، لأنه لا يترتب عليه في القرآن زيادة ولا نقص

وآيات القرآن محتسمة في الطول والقصر ، فأطول آية هي الدَّيْش في سورة البقرة التي هي أطول سورة ، وأقصر آية كلمة « يس » الواقعة في صدر سورة يس .

### موائد معرفة الآيات :

يرجم بعض الناس أنه لا فائدة من معرفة آيات القرآن وأورد عليهم بذلك هذه المعرفة ثلاث فوائد لا فائدة واحدة

( انعامة الأولى ) : العلم بأن كل ثلاث آيات قصار معجزة للمسيح صلى الله عليه وسلم . وفي حكمها الآية الطويلة التي تعدل طولها تلك الثلاث القصار . ووجه ذلك أن الله تعالى أعس التحدى بالسورة الواحدة فقال سبحانه : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّن رَّبِّنَا فَلْيُتْلَ

عَنْدِمَا قَاتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ « والسورة تصدق بأقصر سورة كما تصدق بأطول سورة . وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر ، وهي ثلاث آيات . قصار . ثبت أن كل ثلاث آيات قصار معجزة ، وفي قوتها الآية الواحدة الطويلة التي تكافئها .

( العائدة الثامنة ) : حسن الوقف على رءوس الآي عند من يرى أن الوقف على الفواصل سمة ، ساء على ظاهر الحديث الذي استدلوا به فيما يرويه أبو داود عن أم سلمة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ قطع قراءته آية آية ، يقول « بسم الله الرحمن الرحيم ثم يقف » الحمد لله رب العالمين ثم يقف . « الرحمن الرحيم » ثم يقف .

قال صاحب التبيان في موضع آخر ما نصه : ( قال بعض العلماء - وفي الاستدال به - أي بذلك الحديث - على ما ذكره بطر ، وذلك لأنه حديث عريب غير متصل بالإسناد . رواه يحيى بن سعد الأموى وغيره عن ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن أم سلمة . والأصح ما رواه الليث عن ابن أبى مليكة عن يعلى بن مالك أنه سأل أم سلمة عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاته فقالت : ما كنتم وصلاته ؟ ثم نعتت قراءته مفسرة حروفا حروفا . ذكر ذلك الترمذى ( ١٥١ ) .

أقول : ويمكن الجمع بين هذين الحديثين بأن النبي ﷺ كان تارة يقف على كل فاصلة ولو لم يتم المعنى ، بياناً لرءوس الآي . وكان تارة يتبع في الوقف تمام المعنى فلا يلتزم أن يقف على رءوس الآي ، لتكون قراءته مفسرة حروفا وعلى هذا يمكن أن يقال : حيثما كان الناس في حاجة إلى بيان الآيات حسن الوقف على رءوس الآي ، ولو لم يتم المعنى ، وحيثما كان الناس في عنى عن معرفة رءوس الآي لم يحسن الوقف إلا حيث يتم المعنى .

ويعتدل أن كلمة «مفسرة» حرفاً حرّكاً في الحدث الآنف يرد بها ترتيب وإخراج الحروف من محارجه ، فلا تعارض الحديث الأول

( الفئدة الثالثة ) اعتبار الآيات في الصلاة والخطبة : قال السيوطي ما نصه : « ترتب على معرفة الآي وعددها وفواصلها أحكام فقهية ، منها اعتدائها فيس جهل لعائجة ، فإنه يجب عليه بدء سبع آيات . ومنها اعتدائها في الخطبة ، فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة ، ولا يكفي شطرها إن لم تكن طويلة ، وكذا انطوي على ما حقه جمهور ثم قال : ومنها اعتبارها في السورة التي تقرأ في الصلاة أو ما يقوم مقامها ، وفي صحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في لصحح باستين إلى مائة . ومنها اعتدائها في قراءة قيام الليل إلى آخر ما قال « اهـ ما أردنا بقوله بهذا أنه من الهدى في كامله ما نصه » علم أن قوماً جهلوا العدد وما فيه من موائد حتى قال الزعفراني : إن لعدد ليس بعلم ، وإنما شتم به بعضهم خروج . سوره قال : وليس كذلك فيه من لغوائد معروفة بوقف ، ولأن الإجماع اعتمد على أن الصلاة لا تصح بصف آية . وقال جمع من العلماء : تحرى آية ، وآخرون ثلاث آيات ، وآخرون لا شيء من سبع . والإجماع لا يقع بدون آية . فلهذا فائدة عظيمة في ذلك « اهـ غير أن لا بد من ما الذي أراده الهدى على تعيين من كلامه هـ ؟ ولا عن أي مذهب يتحدث ؟

### ترتيب آيات القرآن

يعتمد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن التكرير على هذا النمط الذي رآه انبيؤنا بالصحيح ، كان توقيف من النبي صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى ، وأنه لا مجال لظن أي ولاحتداد فيه . بل كان خبر بل خبر بل بالآيات على رسول صلى الله عليه وسلم ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها . ثم يقرأها النبي صلى الله عليه وسلم عن أصحابه ،

وإن مر كتاب لوحى نكفائها معنيها هم ان سورة لى نكفون فيها الآلة ، وموضع الآلة من هذه السورة وكان يتوهم عليهم مرراً وتكراراً فى صلاته وعظته وفى حكمه وأحكامه . وكان يعارض به حبريل كل عام مره ، وعارضه به فى يوم الأخير من كل ذلك كان على الترتيب المعروف لما فى المصحف وكذلك كان كل من حفظ القرآن أو شيئاً منه من الصلحانة ، حفظه من الآيات على هذا النمط وشاع ذلك وداع ، وملاً شجاع والأسماع ، يتدارسونه فيما بينهم ، وقرأوه فى صلاتهم ، وبأخذه بعضهم عن بعض ، ويسمعه بعضهم من بعض بالترتيب المتقدم الآن فليس يوجد من الصلحانة والخلفاء الراشدين بدولاً تصرف فى ترتيب شيء من آيات القرآن الكريم . من الجمع الذى كان على عهد أنى نكر لم يتجاوز نقل القرآن من بعض النسخات وغيرها فى مصحف ، والجمع الذى كان على عهد عثمان لم يتجاوز نقله من المصحف فى مصحف . وكلاهما يدين كان وفق الترتيب المعهوط المستفيض عن النبى ﷺ عن الله تعالى أحسن : انعقد الإجماع على ذلك ناماً لا ريب فيه . ومن حكى هذا الإجماع حمده ، منهم تركشى فى الرها ، وأبو حمزة فى دسامات إحد يقول ما صه : ( ترتيب الآيات فى سورة وقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف فى هذا بين المسلمين )

واستند هذا الإجماع إلى نصوص كثيرة منها ما سبق لك قريباً ، ومنها ما رواه الإمام أحمد عن عثمان بن أبى العاص قال كنت حديثاً عند رسول الله ﷺ ، وشخص مصره ثم صوته ثم قال : « أبى حبريل وأمرى أن أصح هذه الآية هذا موضع من السورة . إن الله يأمر بالعرفان والإحسان وإنشأ بى أنترنى » إلى آخره .

ومنها ما ثبت فى السنين صحيحة من قراءة النبى ﷺ سورة عبده كسورة البقرة وآل عمران ولدت . ومن قراءته لسورة الأعراف فى صلاة المغرب وسورة « قَدْ أُنْزِلَ الْمُؤْمِنُونَ » وسورة الروم فى صلاة الصبح ، وقراءة سورة السجدة وسورة « هَلْ نُنَبِّئُكَ عَلَى

الْإِنْسَانِ « في صبح يوم الجمعة ، وقرأه سورة الجمعة والماضين في صلاة الجمعة ، وقرأه سورة ق في خطبة وصورة فقرات وق في صلاة العبد ، كل يقرأ ذلك كله مرث الآيات على الجوالي في المصحف على مرأى ومسمع من المصنفه

ومع ما أخرجه البخاري عن ابن الزبير قال قمت ستمين من عمار : « وَلَدِينِ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَسْأَلُونَ أَرْوَاحَهُمْ سَجَّاتِهَا الْآيَةُ الْآخِرَى ، وَلَمْ تَكُنْ أَوْ لَدُنْهُمْ ( ولمع لمداد سكتها ؟ أو قن لمداد تتركها مكتوبة ؟ مع أمها مسووحة ) قول ياس أحي لا أَعْرِضُ شَيْئًا مِنْ مَكَانِهِ .

فهو حدث أبلغ من المصحف في أن إثبات هذه الآية في مكانها مع سجعها توقيفي لا يستطعم عمار باعتباره أن تعرف فيه ، لأنه لا محل للرأى في منه .

ومها : ما رواه مسلم عن عمر قال : ما سألت النبي ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن السكالة حتى طلع بأصبعه في صدرى ، وقول : « تَكَلِّمُكَ آتَةُ الضَّيْفِ » التي في آخر سورة النساء .

فأنت ترى أنه ﷺ دعه على موضع تلك الآية من سورة النساء ، وهي قوله سبحانه : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » الخ

#### ملاحظة

ذكر بعضهم أن كلمات قرآن ٧٧٩٣٤ مع ثلاثون وثلاثة وسبعة وسبعون ألف كلمة ، وذكر بعضهم غير ذلك . قيل وسب الاختلاف في عدد الكلمات أن السكالة لم حقيقة ومحور ، ولفظ ورسم ، واعتماد كل منها حائر ، وكل من العدد اعتبر أحدهما هو حائر ؟ قال السجاولي : « لا أعلم عدد الكلمات والحروف من فائدة ، لأن ذلك إن أفاد فيما يفيد في كتاب يمكن فيه الرماد والمقصود والمرآن لا يمكن فيه ذلك » اهـ ولكن



ورد من الأحاديث في اعتبار الحروف ما أحسنه ترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً « مَنْ  
قرأ حرفاً من كتب الله به سكتة ، والحسنة بمنزلة أمه ، لا قول : « آلم »  
حرف ، وسكن أم حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » وأخرج نظيراني عن عمر  
ابن الخطاب مرفوعاً « اقْرَأْ أَلِفٌ أَلِفٌ حَرْفٌ وَصَبَةُ وَعَشْرُونَ أَلِفٌ حَرْفٌ ، مَنْ  
قَرَأَهُ صَارَ مُخْتَصِيًا كَالَّذِي بِكُلِّ حَرْفٍ رُوحَةٌ مِنَ الطُّورِ يَمِينٍ » . قال تسيوطي : قد  
أُورده برجاه ثقات إلا شيخ الطبري محمد بن عبيد بن آدم رأى بإسنادكم فيه الذهبي  
ثم قال : وقد سمع ذلك ( أي لعدد المذكور في هذا الحديث ) علي بن صالح رحمه من  
القرآن ، إذ الموحود لأن لا يبلغ هذا العدد ، وهو يريد أن هذا الرقم للمكبر الذي روى  
في هذا الحديث معروضا فيه جميع الحروف الدالة من القرآن ما نسخ منها وما لم ينسخ  
والله تعالى أعلم .

#### شبهة وتقييدها

يقولون : إن ابن أبي داود أخرج سنده ، عن عبد الله بن ربيع عن أبيه قال :  
« أتني الحارث بن حريمة سبعتين لآيتين من آخر سورة براءة فقرأ : أشهد أني سمعتها  
من رسول الله ووعيتها . فقال عمر : « أشهد أني سمعتها » ثم قال : لو كانت ثلاث  
آيات لجمعناها على حدة ، فانظروا آخر سورة من القرآن فاحقوها في آخرها » يقولون :  
هذا الحديث يدل على أن ترتيب الآيات لم يكن في القرآن كله بتوقيف ، عما كان عن  
هوى من الصدقة وعن تصرف منهم وهو في بعض

ومحيط : ( أولا ) بأن هذا الخبر معروض للمطالع ، وهو ما أحضرت عليه الأمانة

ومع رص انقطاع ساقط عن درجته الاعتبار ، وهذا خبر ساقط مردود على قائمه

( ثانياً ) أنه مع رص لا يخص من الأحكام الدالة على خلافه ، وقد تقدم كثير  
منها بل لا يأتى داود بمرجه خبره رصه ، ذلك أنه أخرج أيضاً عن أبيهم

جمعوا القرآن ، فما انتهوا إلى الآية انتفى في سورة براءة : « ثُمَّ خَصِرُوا خَصِرَتْ آفَةُ قُلُوبِهِمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » طموا أن هذه آخر ما روي ، فقال أي : إن رسول الله ﷺ أقرأني هذه آيتين « أَفَدَّ سَخَاكُمْ رَسُولٌ » أي آخر السورة

## ترتيب السور

معنى السورة :

السورة في اللغة نطق على ما ذكره صاحب الشفا موسى بقوله : « والسورة : الأُمْرَةُ » ومن القرآن معروفه ، لأنها منزلة بعد منزلة : مقطوعة عن الأخرى ، والشرف ، وما طال من البهاء وحسن ، والعلامة ، وعرق من عروق الخطط » ٥١ .

ويمكن تعريفها اصطلاحاً ، بأنها طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع . قالوا : وهي مأخوذة من سور المدينة . وذلك إما لما فيها من وضع كلمة بحاب كلمة ، وآية بحاب آية ، كما سور توصل كل آية فيها بحاب لينة ، ويقام كل صف منه من صف .

وهي لما في السورة من معنى وهو وارعة المندوة الشبيهة بمعاني أسرار ورفعة الحسية ، وإما لأنها حصن وحماية لحمد ﷺ وما جاء به من كتاب الله القرآن ، ودين الحق الإسلام ، باعتبار أنها معصرة تحرس كل مكانه ، ويحقق الله بها الحق ويبطل الماثل ، ويذكره المحرمون أشبه سور مدية ، يُحَصَّنُ ويحميها عادة الأعداء ، وسواء الأشقياء وسور القرآن محتشفة طولاً وقصراً . فنصر سورة فيه سورة الكوثر ، وهي ثلاث آيات قصار . وأطول سورة فيه سورة النقرة ، وهي خمس وثمانون ومائتا آية وأكثر آياتها من الآيات الطوال . بل فيها آية الدُّبُّ التي هي أطول آية في القرآن كما سبق وبين سورة البقرة وسورة الكوثر سور كثيرة تختلف طولاً وتوسطاً وقصراً ومرجع الطول

وانقصر والتوسط وتحديد المطلاع ، وانقطع ، إلى الله وحده ، لحكم سامية ، بعضها من علم ،  
وحبها من جهلها

حكمة سور السور .

نتجرت القرآن إلى سور فوائد وحكم :

« منها التفسير على الناس وشوقهم إلى مدارس القرآن وتحفصه ، لأنهم لو كان سببها  
واحدة لاجتمعت بها بصوت عليهم حجة وفيهم ، وأعيدهم أن يحضروا عذب هذه المعر  
الخصم الذي لا يث هدون فيه عن كتب مراعى ولا شواطي

ومنها : الدلالة على موضوع الحديث وبحور الكلام ، فإن في كل سورة موضوعاً  
بارراً تتحدث عنه ، كسورة البقرة ، وسورة يوسف ، وسورة النمل ، وسورة النحل  
ومنها : إشارته إلى أن طول السورة يس شرطاً في إعجازها ، بل هي معجزة وإلهام  
بلغت غاية في قصر كسورة النكون

قال صاحب الكشف في فوائد تفصيل القرآن وعظيمه سوراً كثيرة ما نصه : منها  
( أى الفوائد ) أن الحس إذا صوت تحت أنواع وأصناف ، كان أحسن ونظم من أن  
يكون بآحاداً

ومنها : أن القارئ إذا أتى سورة أو آية من الكتاب ثم أحد في آخر كان  
أشبهه وأثبت على التفصيل منه لو استمر على الكتاب طوله ، ومثله استمر  
إذا قطع ميلاً أو فرسجاً نفس ذلك عنه وشط للسبر ، ومن ثم حُرِي القرآن  
أجزاء وأحاساً

ومنها : أن الحافظ إذا حفظ السورة اعتقد أنه أحد من كتب الله طائفة  
مستغنة بنفسها ، فيعظم عنده ما حفظه ، ومنه حديث أنس : « كَانَ الرَّحُلُ



## المذاهب في ترتيب السور :

اختلف في ترتيب السور على ثلاثة أقوال : ( الأول ) أن ترتيب السور على ما هو عليه الآن لم يكن بتوقيف من النبي ﷺ ؛ إنما كان ما شهد من الصحابة . وينسب هذا القول إلى جمهور العلماء ، منهم مالك واثقاص أبو بكر فيما اعتمد من قوايه ، وإلى هذا المذهب بشر بن فارس في كتاب المسائل الخمس بقوله : « جمع القرآن على ضربين : أحدهما تأليف لسور كتقديم السبع الطوال وتجميعها بالاثني ، فهذا هو الذي تولته الصحابة رضي الله عنهم . وأما جمع الآخر وهو الآيات في السور ، فذلك شيء تولاه النبي ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه عز وجل .

وقد استدلوا على رأيهم ، هذا ، أمرين : ( أحدهما ) أن مصحف الصحابة كانت مختلفة في ترتيب السور قبل أن يجمع القرآن في عهد عثمان ، فلو كان هذا الترتيب توقيفياً منقولا عن النبي صلى الله عليه وسلم ما ساغ لهم أن يملوه ويتعدوه ويحذفوا فيه ذلك الاختلاف الذي تصوره لنا الروايات . فهذا مصحف أبي بن كعب ، روى أنه كان مبدوءا بال فاتحة ، ثم البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران ، ثم الأنعام . وهذا مصحف بن مسعود كان مبدوءا بالبقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران الخ على اختلاف شديد . وهذا مصحف علي كان مرتباً على النزول ، فأوله « اقرأ » ثم لنذر ثم « ق » ، ثم الزمل ، ثم « تبت » ثم التكوير ، وهكذا إلى آخر المكي والمدني .

( الدليل الثاني ) : ما أخرجه ابن أشتة في المصاحف من طريق إسماعيل بن عباس عن حبان بن يحيى عن أبي محمد العرشي قال : « أمرهم عثمان أن يثابروا الطوال فجعل سورة الأنعام وسورة التوبة في السبع ، ولم يفصل بينهما باسم الله الرحمن الرحيم » اهـ وعله بشر بهذا ما رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : « فبت اثنيان ما حكمكم على أن عدهتم إلى الأنعام وهي من ثاني ، وهي رابعة وهي من

لثنين، فترتم بينهما، وم تكتبوا بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووصفتوها في السبع الطوال ؟ فقال عثمان رضي الله عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزل عليه السور دوات الممدد، فكان إذا أزل عليه شيء دعا بعض من يكتب فيقول : سمعوا هذه الآيات في السورة لتي يدكر فيها كذا وكذا » وكانت الأعدل من أوائل ما رزل بالمدينة، وكانت تراءى من آخر القرآن زولاً وكانت قصتها شبهة بمصها . فطفت أباها منها فقص رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين له أباها من ، فمن أجل ذلك فرت بينهما ولم أكتب بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووصفتها في السبع الطوال ٥١

ويمكن أن ساقش هذا الذهب بالأحاديث الدالة على التوقيف وسقائيك في الاحتجاج للقول الثاني ويمكن أيضاً مناقشته دليلهم الأول باحتيال أن اختلاف من حاص من الصحابة في العريب ، إنما كان قبل عنهم بالتوقيف ، أو كان في خصوص ما يرد فيه توقيف دون ما ورد فيه ويمكن مناقشته دليلهم الثاني أنه خاصٌ بنحل وروده، وهو سورة الأعدل والتوبة ويوس ، فلا يصح أن يصاغ منه حكم عام على القرآن كله القول الثاني :

أن ترتب لسور كلهم وقوف تسليم الرسول ﷺ كترتيب الآيات وأنه لم يوضع سورة في مكاتب إلا بأمر منه ﷺ واستند أصحاب هذا الرأي بأن صحابة أجمعوا على مصحف الذي كتب في عهد عثمان ولم يخلف منهم أحد وإجماعهم لا سم إلا إذا كان العريب الذي أجمعوا عليه عن توقيف ، لأنه لو كان عن اجتهد تمتلك أصحاب مصاحف مخالفة لمخالفتهم . لكنهم لم يتمسكوا بها بل عدلوا عنها وعن ترتيبهم ، وعدلوا عن مصاحفهم وأحرقوها ، ورجعوا إلى مصحف عثمان وترتبه جميعاً ثم ساقوا روايات مذهبهم كأدلة يستند إليهم الإجماع

منها ما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن حذيفة الثقفي قال كنت في الوعد الذي أسلموا من تقيف . إلى أن جاء في هذه الرواية ما نصه :

فقال له رسول الله ﷺ : « طرأ عليّ حربٌ من القرآنِ فاردتُ ألا أخرجَ حتى أقصيه فساننا أصحاب رسول الله ﷺ قلنا : كم تحزبون القرآن ؟ قالوا : بحزبه ثلاث سور ، وخمس سور ، وسبع سور ، ونسع سور ، وإحدى عشرة سورة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل من « ق » حتى نختم . قالوا : فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . »

لكن هذه الدلالة غير ظاهرة فيما نفهم ، اللهم إلا في ترتيب حزب المفصل خاصة بخلاف ما سواه .

واحتجوا المذهب أيضاً بأن السور المتعانة في القرآن لم يلتزم فيها الترتيب أو التوالى ، ولو كان الأمر بالاجتهاد للوحظ مكان هذا التعانس والتماثل دائماً ، لكن ذلك لم يكن ، بدليل أن سور المسبحات لم ترتب على التوالي بينما هي متماثلة في افتتاح كل منها بتسبيح الله . بل فصل بين سورها بسورة « قد سمع » وللمتعة والمنافقين ، وبدليل أن ( طسم الشعراء وطسم القصص ) لم يتعاقبا مع تماثلهما ، بل فصل بينهما بسورة أقصر منهما وهي « طس » .

وقد أيد هذا المذهب أبو جعفر النحاس فقال : « المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ لحديث واثقه : أعطيت مكان التوراة سبع الطوال » . وكذلك اشهر أبو بكر الأباري لهذا المذهب فقال : « أنزل الله القرآن إلى سماء الدنيا ثم رقه في بصع وعشرين سنة ، فكانت السورة تمرل لأمر يحدث ، والآله حواجا مستحير ، ويقف حبر بل السبي ﷺ على موضع السورة والآيات والحروف . كله من النبي صلى الله عليه وسلم من قدم سورة أو أخرها أو مد نظم القرآن » .

وأخرج ابن أبي شيبة في كتاب المصاحف من طريق ابن وهب عن سليمان بن ملال قال : سمعت ربيعة يسأل لم قدمت النقرة وآل هيران وقد أرسل قلمها بصع وتمايون

سورة نمكة، وإما أرنا بالمدينة؟ قال: قدمنا وألف القرآن على علم من أمه به. إلى أن قال: فهذا مما يُذْهَبُ إليه ولا يُسأل عنه اهـ .

ويمكن مناقشة هذا المذهب (أولاً) : بأن الرواية التي ساقوها وأمثالها خاصة بمعالها ، فلا يسحب حكم التوقيف على الكل . ثم هي غريبة في إفادة كون الترتيب عن توقيف .

(ثانياً) : أن حديث ابن عباس السابق في القول الأول صريح في أن عثمان كان قد اجتهد في ترتيب الأنفال والتوبة ويونس .

(ثالثاً) : أن الإجماع الذي استندوا إليه لا يدل على توقيف في ترتيب جميع السور؛ لأنه لا يشترط أن يستند الإجماع إلى نص في ترتيب جميع السور ، لحسب الصحابة أن يحلهم الاجتهاد الموفق على أن يجمعوا على ترتيب عثمان للسور ويتركوا ترتيب مصاحفهم ، توحيداً لكلمة الأمة ، وقطعاً لمروق الزاع والفتنة ، إذا ترك كل ورأيه في هذا الترتيب .

### القول الثالث :

أن ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبي ﷺ ، وترتيب بعضها الآخر كان باجتهاد من الصحابة وقد ذهب إلى هذا الرأي فطاحل من العلماء، ولعله أمثل الآراء، لأنه وردت أحاديث تفيد ترتيب البعض كما مرّ بك من الرأي الثاني القائل بالتوقيف، وحلا البعض الآخر مما يفيد التوقيف بل وردت آثار تصرح بأن الترتيب في البعض كان عن اجتهاد كالحديث الآنف في القول الأول المروي عن ابن عباس .

يَبْدَأُ أن المؤيدين لهذا المذهب اختلفوا في السور التي جاء ترتيبها عن توقيف والسور التي جاء ترتيبها عن اجتهاد . فقال القاضي أبو محمد ر عطية : « إن كثيراً من السور



قد علم ترتيبها في حياة النبي ﷺ كالسبع الطوال والخواص والمفصل. وأما ما سوى ذلك فيمكن أن يكون موضع الأمر فيه إلى الأمة بعده.

وقال أبو حمزة بن الزبير: «لأننا نشهدنا أكثر مما نص عليه من عطية، ويبقى فيها قليل يمكن أن يجري فيه اختلاف كما هو عليه ﷺ» «اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران» رواه مسلم.

وتحديث سميد بن خالد: «قرأ رسول الله ﷺ بالسبع الطوال في ركعة» رواه ابن أبي شامة في مصنفه. وفيه «أء عليه الصلاة وسلم كان يجمع المفصل في ركعة» وروى البحاري عن ابن مسعود أنه قال صلى الله عليه وسلم في بني إسرائيل والكتب ومرموطه والأنبياء: «إِنَّهُمْ مِنَ الْمُتَفَاتِلِ الْأَوَّلِ، وَهُمْ مِنْ لَدَى»<sup>(١)</sup>.

(١) المتفاتي: جمع عتيق، وهو القديم من كل شيء، والمراد بالمتفاتي هما ما رل أولا. والتلاد - بكسر التاء وفتحها - ضد الطارف وهو المستحدث من المال ومحوه. والمراد بالتلاد هما ما رل أولا أيضا. قال في المختار وفي الحديث «هُنَّ مِنْ لَدَى» يعني السور، أي من الذي أحدثه من القرآن قديما.

فذكرها تسميها كما استقر ترتيبها. وفي صحيح البخاري أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كتيبه ثم نكث فيهما فقرأ قل هو الله أحد، والمعوذتين.

وقال السيوطي ما نصه: الذي بشرح له الصدر ما ذهب إليه الميهقي، وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلا قراءة والأنفال. ولا يسمى أن يستدل بقراءة سور أو لا على أن ترتيبها كذلك. وحينئذ فلا يرد حديث قراءة النساء

قبل آل عمران ، لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب . ولعله فعل ذلك لبيان الجوار ١٤٤ .

والأمر على كل حال سهل ، حتى لقد حاول الرركشي في الدرهم أن يجعل الخلاف من أساسه لفظياً فقال : والخلاف بين الفريقين - أي القائلين بأن الترتيب من اجتهاد ، والقائلين بأنه من توقيف - لفظي ، لأن القائل بالثاني يقول : إنه رمز إليهم ذلك ، لعلهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته ، ولهذا قال مالك : إنما أنشأوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ مع قوله بأن ترتيب السور كان باجتهاد منهم ، قال الخلاف إلى أنه هل هو بتوقيف قولي ، أو مجرد إسناد فعل ، بحيث يبقى لهم فيه مجال للنظر ، وسبقه في ذلك جعفر بن الزبير ١٤٤ .

### احترام هذا الترتيب :

وسواء أكان ترتيب السور توقيفياً أم اجتهادياً فإنه ينبغي احترامه ، خصوصاً في كتابة المصاحف ، لأنه عن إجماع الصحابة ، والإجماع حجة . ولأن خلافه يجر إلى الفتنة ، ودفعه الفتنة وسد ذرائع الفساد واجب .

أما ترتيب السور في الصلاة ، فليس بواجب ، إنما هو مندوب . وإليك ما قاله الإمام النووي في كتابه الفبيان إذ جاء في هذا الموضوع بما نصه : « قال العلماء : الاحتيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ العاتمة ، ثم البقرة ، ثم آل عمران ، ثم ما بعدها على الترتيب ، سواء أقرأ في الصلاة أم في غيرها ، حتى قال بعض أصحابنا : إذا قرأ في الركعة الأولى سورة « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ثَمَسٍ » يقرأ في الثانية بعد العاتمة من البقرة .

قال بعض أصحابها : وبستح إذا قرأ سورة أن يقرأ بعدها انتي تنيها . ودليل هذا أن ترتيب المصحف إنما حمل هكذا الحكمة ، ويسمى أن يحافظ عليها إلا فيما ورد الشرع باستثنائه ، كصلاة الصبح يوم الجمعة ، يقرأ في الأولى سورة السجدة ، وفي الثانية « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ » . وصلاة العيد في الأولى « ق » ، وفي الثانية « أَفْقَرَبَتْ نَبَاتَةً » . وركعتي الفجر في الأولى « قُلْ بِآيَاتِهَا أَنْكُرُون » وفي الثانية « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » . وركعات الوتر في الأولى « سَبِّحْ أَمِّ رَبِّكَ الْأَعْلَى » وفي الثانية « قُلْ بِآيَاتِهَا أَنْكُرُون » وفي الثالثة « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » والمعوذتين .

ولو خالف الموازنة فقرأ سورة لا تنى الأولى ، أو خالف الترتيب فقرأ سورة قبلها ، جاز ؛ فقد جاءت بذلك آثار كثيرة . وقد قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الركعة الأولى من الصبح « الكهف » ، وفي الثانية بيوسف .

وقد كره جماعة مخالفة ترتيب المصحف . وروى ابن أبي داود عن الحسن أنه كان يكره أن يقرأ القرآن إلا على تأليفه في المصحف . ويُسَدِّدُ الصَّوْبَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَبِلَ لَهُ : إِنْ فَلَانًا يقرأ ، تَرَأَتْ مِنْكَ كُوسًا فَقَالَ : « ذَلِكَ مِنْكَ كُوسُ الْقَلْبِ » .

وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فممنوع منعاً كذاً ، لأنه يذهب ببعض ضرور الإيجاز ، ويُرْكَبُ حِكْمَةُ تَرْتِيبِ الْآيَاتِ . وقد روى ابن أبي داود عن إبراهيم النخعي الإمام الثاني الخليل وعن الإمام مالك بن أنس أنهما سكرها ذلك ، وأن مالكاً كان يعنيه ويقول هذا عظيم . وأما تسمي لصبيان من آخر المصحف إلى أوله محسن ، وليس هذا من الداب ، فإن ذلك قراءة متفصلة في أيام متعددة . على ما فيه من تسهيل الخط عليهم ، والله أعلم . اهـ رحمه الله .

شبهات حقيقتان :

( الشبهة الأولى ) ، يقولون : كيف كان ترتيب القرآن توقيفياً ، مع أن مصحف

الصحابة كانت محتمة ؟

والجواب أن هذه الشبهة لا ترد على القائلين بأن ترتيب القرآن كله اجتهادى أما القائلون بأن منه اجتهادى ومنه توقيفياً ، فمن السهل الجواب عنهم بأن الاختلاف بين الصحابة وقع في انقسم الاجتهادى لا للتوقيفى . وأما القائلون بأن ترتيب السور كله توقيفى ، ويمكن الجواب عنهم بأنهم اختلفوا فيما اختلفوا قبل أن يعلموا التوقيف فيه . وما جمع عنان القرآن على هذا الترتيب عموا ما لم يكونوا يعلمونه ، ولذلك تركوا ترتيب مصاحفهم ، وأحدوا ترتيب عنان . وبه وُزِن الأمر في اختلاف مصاحفهم أنها كانت مصاحف فردية ، لم تكونوا يكتبونها للناس إلا كما كانوا يكتبونها لأنفسهم ، فدهى أن الواحد منها لم يُثبت فيها إلا ما وصل إليه عجزه الفردى ، وقد نوه ما لم يمت سواء من تحقيق أدنى أو علم أوسع . ولهذا كان يوجد تلك المصاحف الفردية بعض آيات قد تكون مسوخة ، وربما لم يبلغ صاحب ذلك المصحف سجها . وقد يهمل صاحب المصحف إثبات سورة لشهرتها وعماها هذه الشهرة عن الإثبات ، كما ورد أن مصحف ابن مسعود لم يكن به منحة . وقد يكتب صاحب المصحف ما يرى أنه بحاجة إليه من غير القرآن في نفس المصحف كما تقدم ذلك في قسوت الخفية الذى روى أن بعض الصحابة كان قد كتبه مصحفه وسماه سورة الجمع والحمد

( الشبهة الثانية ) يقولون : كيف يكون ترتيب القرآن توقيفياً على حين أن رواية

ابن عباس الساقطة تصرح بأن عثمان لم يسمع في شأن ترتيب الأنفل مع رواية شريكاً ، كما هو اجتهاد ونظر منه ؟ .

والجواب أن هذه الشبهة لا ترد على القول بأن الترتيب احتمدى ، ولا على القول بأن منه احتشاديه ومنه توقيفيا أما الأول فظاهر ، وأما لثاني فلأن احتشاد عثمان كان فيها لم يرد فيه توقيف من الشارع .

أما القول بأن ترتيب السور كله توقيفي ، فقد أجابوا على هذه الشبهة بحوايين :  
(أوها) : أن حديث ابن عباس هذا غير صحيح لأن الترمذى - وهو راويه - قد نفى عنه : إسناده حسن عريب لا يعرف إلا من طريق يزيد الفارسى عن ابن عباس . ويؤكد هذا مجهول الخلل فلا يصح الاعتماد على حديثه الذى انفرد به فى ترتيب القرآن .  
(ثانيهما) : أنه على فرض صحته يجوز أن جواب عثمان لأن عباس كان قبل أن يعلم بالتوقيف ثم علمه بعد ذلك . لكن يرد على هذا الجواب أن الرواية تفيد أن جواب عثمان هذا كان بعد جمع القرآن وترتيب سورة ، فكيف كان توقيفيا وعثمان هو الجامع والترتيب ولا يعلم دليل التوقيف ؟ .

## المبحث العاشر

فى كتابة القرآن ورسمه ومصاحفه وما يتعلق بذلك

### ١ - الكتابة

معروف أن الأمة العربية كانت مؤسومة بالأمية مشهورة بها لاندري ما الكتابة ولا الخط . وجاء القرآن يتحدث عن أميتها هذه فقال : « هُوَ الَّذِي نَعَتْ فِي الْأُمِّيِّينَ ذُكُورًا لَا يَقْتَنُونَ بَنَاتٍ عَلَيْهِمْ آيَاتُ وَبُرْكَاتُهُمْ وَيُمْلَكُهُمُ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَسْرِ نَبِيِّ صَلَاتٍ مُبِينٍ » .

ولم يشد عن هذه القعدة إلا أفراد قليل فى قرىش ، نعموا نخط ودرسوه قبيل الإسلام

وكان ذلك كان، راحاً من الله وتمهيداً لمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وتقرير دين الإسلام،  
وتسهيل الوحي المبجل عليه بالقرآن، لأن الكتابة أدعى إلى حفظ التبريل وصبطه، وأمد  
عن صياغة وصياغة.

وكادت تنق كليمه لمؤرخين على أن قريشاً في مكة لم يحد احط إلا عن طريق  
حرب بن أمية بن عبد شمس. انكمم احتلوا فيس أحد عنه حرب. رواية أي  
عمر والداني تذكر أنه تعلم الخط من عبد الله بن جدعان، وفيها يقول ريد بن أنعم:  
« قتل لأن عباس: معاشر قريش هل كنتم تكتبون في الجاهلية بهذا الكتاب العربي  
تجمعون فيه ما اجتمع، وتعرفون فيه ما اختلف، هذه بالألف واللام والميم، والشكل  
والقطع، وما يكتب به اليوم؟ قال ابن عباس: نعم. قلت: فمن علمكم الكتابة؟ قال:  
حرب بن أمية، قلت: فمن علم حرب بن أمية؟ قال: عبد الله بن جدعان، قلت: فمن علم  
عبد الله بن جدعان؟ قال: أهل الأنبار، قلت: فمن علم أهل الأنبار؟ قال: طاري، طراً  
عندهم من أهل اليمن من كندة، قلت: فمن علم ذلك ابطاري؟ قال: انخلعن بن النهم  
كان كاتب هود بن أبي الله عر وحس. »

أما رواية السكيت فتعني علياً أن حرباً تعلم الكتابة من بشر بن عبد الملك وفيها  
يقول عوانة: « أول من كتب محطنا هذا وهو الجزم، مرامر بن مرة، وأسلم بن سدره،  
وكذا عامر بن حذرة، وهم من عرب طي، تعصوه من كاتب الوحي أسيدنا هود  
عليه السلام، ثم تعصوه أهل الأنبار، وصهم انقشرت الكتابة في العراق والحيرة وهيرما.  
فتعلم شر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وكان له  
صحة بحرب بن أمية لتجاره عندهم في بلاد العراق، فتعلم حرب منه الكتابة،  
ثم سافر معه شر إلى مكة فتزوج الصفاء بنت حرب أخت أبي سفيان فوهم منه جمعة  
من أهل مكة » اهـ

ومن هنا وجد عدد يحدو الخط والكتابة قبيل الإسلام ، ولكنهم رد بسير  
عامة تلك الكتبة العامة من الأميين . وفي ذلك يفتي رجل من أهل دومة الجندل  
على قرش يقول :

« لا تخطوا بقاء شر عبيكو فقد كان ميمون النخبة أرها  
أنكم تخط الجرم<sup>(١)</sup> حتى حطموه من مال ماقد كان شقي معثرا  
فأحرقتم الأقدام عوداً وبداء وصايعتمو كتب كسرى وقيصرا  
وأعنتمو عن مسد الحى حير وما ررت في الصنف أقدام حيرا »

أولئك أهل مكة . أما أهل المدينة فكان بينهم أهل الكتاب من اليهود ، وقد  
دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وفيها يهودى يعم الصبيان الكتاب ، وكان فيها صفة  
عشر رجلاً يحدقون كتابة ، منهم لمدر بن عمرو ، وأبى بن وهب ، وعمر بن سعيد  
وريد بن ثابت الذى تعلم كتابة اليهود بأمر من النبي ﷺ .

### شأن الكتابة في الإسلام

ثم جاء الإسلام ، فحارب فيما حارب أمية العرب ، وعمل على محوها ، وطلب  
يرفع من شأن الكتابة ويعلى من مقامها . وإن كنت في شك ، فمعه أوائل آيات نزل  
من القرآن الكريم ، بشيد الحق وبها بالقلم ، وما يعلم الله عباده بوساطة انهم ، إذ يقول  
حلت حكمته : « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » إلى أن قال : « وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ،  
الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »

وهذه سورة « ن » يحلف العلى الأهل فيها بالقلم وما يسطرون ، إذ يقول « ن وَالْقَلَمِ  
وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِمَعْمَرٍ رَبِّكَ يَعْلَمُونَ » وهذا من أروع ألوان تسميه إلى  
حلال الخط والكتابة ومراياها

(١) سمي بالجرم لأنه حرم - أى قطع - من الخط لمسى بالسند ، وهو خط حير

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع أصحابه دفعاً إلى أن يتعلموا الخط ويحذقوا الكتابة ، ويهيئ لهم السهل نكح ما يستطيع من وسيلة مشروعة حتى لقد ورد أن المسلمين في عروبة بدر أمروا ستين مشركاً فكل مما يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم في فداء الواحد منهم أن يعلم عشرة من أصحابه الكتابة والخط . وهكذا أعين الرسول صلى الله عليه وسلم هذا أن القراءة والكتابة عدلان للتجربة ، وهذا منتهى ما نصل إليه المهم في تحرير شعب أمي من رق الأمية .

وتمثل هذه الطريقة أحدث طلمات الأمية فقد تأمروا الإسلام شتاً فشتاً ، وحل محلها العلم والكتابة والقراءة . وهذا من أدل الأدلة على أن الإسلام دين العلم والحضارة والمدنية .

### المنهج في القراءة والكتابة :

حتى لقد قيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم عرف القراءة والكتابة في آخر أمره بعد أن قامت حجته . وعدت كلمته ، وعجز العرب في مقام التحدي عن أن يأتوا سورة من مثل القرآن الذي جاء به ، وكان الحكمة في ذلك هي الإشارة إلى شرف الخط والكتابة . وأن أمية الرسول صلى الله عليه وسلم في أول أمره إعاكات حائلة وقنية اقتضاها إقامة الدليل والإعجاز واصحابه على صدق محمد في نبوته ورسالته ، وأنه مبعوث الحق إلى خلقه ولو كان وقتئذ كاتباً قارئاً وهم أميون ، راحت شهرتهم في أن ما جاء به نتيجة اطلاع ودرس ، وأنظر في الكتب ويبحث .

وفي هذا المعنى يقول سبحانه :

« وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحِطُّوا بِبَيِّنَاتِكُمْ إِذَنْ لَا تَرْتَابُ »



الْمُطْلُونَ كُلُّهُوَ آيَاتٌ نَبَّاتٌ فِي صُدُورِ النَّبِيِّينَ أَوْتُوا أَنْعِلِمَ ، وَمَا يَجْعَلُهُ بَيِّنَاتٍ إِلَّا أَنْطَالُورَ . » .

قال العلامة الأتومسي بعد تفسيره لهذه الآية ما نصه : واحتج في أنه صلى الله عليه وسلم أكل بعد الصلوة بقرأ وكتب أم لا ؟ فنيل إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة ، واحتاره بغوى في التهديب ، وقال : إنه الأصح . وادعى بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها ، وعدم معرفتها سبب للمعجزة لهذه الآية ، صائر القرآن واشتهر الإسلام وطهر أمر الارتياح<sup>(١)</sup> تعرف الكتابة حينئذ . وروى ابن أبي شيبة وغيره . « ما مات ﷺ حتى كتب وقرأ » ونقل هذا للشمسي صدقة وقال : سمعت أقواماً يقولون به وليس في الآية ما يباهيه . وروى ابن ماجة عن ابن عباس قال : قال ﷺ : « رأيت ليلة أُسري لي مكتوباً على باب الجنة : الصدقة عشرة أمثالها والقرص ثمانية عشر » .

ثم قال : ويشهد للكتابة أحاديث في صحيح البخاري وغيره كما ورد في صلح الحديبية : فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب فكُتِبَ : هذا ما قاصى عليه محمد بن عبد الله الحديث

ومن ذهب إلى ذلك أبو ذر عبد بن أحمد الهروي ، وأبو داود ، وأبو الوليد الباجي من المغاربة ، وحكا عن اسمعاني . وصف فيه كتاباً ، وسقه إليه ابن مسية ولما قال أبو الوليد ذلك طعن فيه ورمى بالزندقة وصنع على لما رثم عقد له بحسن وقام الحجة على مدعاه ، وكتب به إلى عمه الأطلراف ، فأحانوا بما يوافقوه ، ومعرفة الكتاب بعد أميته صلى الله عليه وسلم لا تنافي المعجزة ، بل هي معجزة أخرى لكونها من غير تعليم .

(١) لعل مراده بهذه الكلمة ، ظهور عباد الارتياح وأنه لا قيمة له

وقدرّد بعض الأحلة كتاب الباقي لما في الحديث الصحيح : « إنا أمة أمية »  
لا نكتب ولا نحسب . وقال : كل ما ورد في الحديث من قوله « كتب » فعناه أمر  
بالكتابة ، كما يقال : كتب السلطان بكذا العلاء . وتقديم قوله تعالى : « من قبله »  
على قوله سبحانه : « وَلَا تَحْطُّهُ » كالصرح في أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقاً  
وكون التقيّد المتوسط راجعاً لما بعده غير مطّرد . وظنّ بعض الأحلة رجوعه إلى ما قبله  
وما بعده ، فقال : بهم من ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان قادراً على التلاوة والخط  
بعد إيراد الكتاب ، ولو لا هذا الاعتبار ، لكان الكلام حلواً عن الفائدة . وأنت تعلم  
أنه لو سلم مادّ كره من الرجوع ، لا يتم أمر الإفادة إلا إذا قيل محبة مفهوم ، والظاهر  
بمن لا يقول محبة .

ثم قال الألويسي في تعيد هذه الردود ما نصه :

« ولا يحى أن قوله عليه الصلاة والسلام : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب »  
ليس نصّاً في استمرار بني الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام . ولعل ذلك باعتبار أنه نعت  
عليه الصلاة والسلام وهو وأكثر من نعت إليهم وهو بين طهرانيّهم من العرب  
أميون ، لا يكتبون ولا يحسبون ، فلا يصر عدم بقاء وصف الأمية في الأكثر بعد .  
وأما مادّ كره من تأويل كتب أمر بالكتابة ، بخلاف الطاهر . وفي شرح صحيح مسلم  
للنووي عليه الرحمة نقلاً عن القاضي عياض ، إن قوله في الرواية التي ذكرناها : « ولا  
يحسن يكتب فكتب » كالمص في أنه عليه الصلاة والسلام كتب نفسه ، فاعيدول عنه إلى غيره محار  
لا ضرورة إليه ثم قال : « وقد طال كلام كل فرقة في هذه المسألة ، وشنعت كل فرقة  
على الأخرى في هذا . فاق الله تعالى أعلم » اهـ

وأقول إن التشيع ليس من دأب العلماء ولا من أدب الساجدين . والمسألة التي نحن  
بصددها مسألة نظرية . والحكم في أمثالها يجب أن يكون لما رجع من الأدلة لالاموي

والشهوة . ونحن إذا استعرضنا حُجج هؤلاء ، وهؤلاء ، ملاحظ أن أدلة أميته عليه السلام قطعية يقينية وأن أدلة كونه كذب وحطاً ببيمته طيبة غير يقينية ، ولم يدع أحد أنها قطعية يقينية ثم إن التعارض طاهر فيما بين هذه وتلك غير أنه تعارض طاهرى يمكن دفعه بأن يحمل أدلة الأمية على أوى حالاته صلى الله عليه وسلم ، وأن يحمل أدلة كتابته على أحرى حالاته ؛ وذلك جمعاً بين الأدلة . ولا ريب أن الجمع بينهما أهدى سبيلاً من إعمال المعص وإهمال البهص ، مادام في كلٍّ منهما قوة الاستدلال ، وما دهم الجمع ممكناً على أبة حال . أما لو لم يمكن الجمع فلا مشاحة حيث تدعى في قول القطعى ورد الطوى ، لأن الأول أقوى من الثانى « وإنَّ لَطْفَ لَا يُغْنِي مِّنْ خَلْقٍ شَيْئاً » هذا هو المبران الصحيح ، لدفع التعارض والترجيح ، فاحكم به عند الاختلاف والاشتباه ، « وَلَا تَمْسَعِ أَنفُوسِي فَضِيلَتِكَ عَنْ مَّيْدَانِ اللَّهِ »

### كتابة القرآن .

بعد ما قصصنا عليك من ملك العبد لكة التاريخية ، في الخطوط ولكتابة العربية ، بلغت نظراً إلى أن كتابة القرآن ، وفيما لها محتواها في مسحت جمع القرآن ( من ص ٢٣٢ إلى ص ٢٥٦ ) وذكرنا هناك كيف كتبت القرآن ؟ وفيم كتبت ؟ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم على عهد عثمان ( رضى الله عنهما )

ومنه تعلم أن عناية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بكتابة القرآن ، كانت عناية فائقة بذلك على هذه العناية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له كُتَّاب يكتبون الوحي ، منهم الأربعة الخفاء ، ومعاوية ، وأبان بن سعيد ، وحالد بن الوليد ، وأبى بن كعب ، وريد بن ثابت ، وثابت بن قيس ، وأرقم بن أبى ، وحطالة بن الربيع ، وغيرهم فكان صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه شيء يدعو أحد كتّابه هؤلاء ، وبأمره بكتابة ما نزل عليه ، ولو كان كلمة ، كما روى أنه

١٠ نزل عليه قوله تعالى : « لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الْأَرْسَالِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَوَاجِعَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ » قال ابن أم مكتوم وعبد الله بن جحش : يا رسول الله ، إنا أعمى ، فهل لنا رخصة ؟ فأرسل الله « غير أولي الأرسال » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انقوى بالكتمان والدواة » وأخر زيد أن يكتبها . فكتبها فقال زيد « كفى أنظر إلى موضعها عند صدع الكتف » . ورواية البخاري اقتضت هنا على عبد الله بن أم مكتوم وليس فيها ابن جحش . ولعلك لم تنس حديث ابن عباس : « لا كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعض مَنْ يُكْتَبُ ، فقال : « ضعوا هذه في الموضع الذي بدكر فيه كذا وكذا » . وقوله صلى الله عليه وسلم « من كتب مني شيئا غير القرآن فليمتعه » وقول أبي بكر لزيد ابن ثابت : إنك رجل شاب لا نهمك . وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ . أضف إلى ذلك أن الصحابة كانوا يكتبون القرآن فيما ينيسر لهم حتى في المطام وارفاع وجريد النخل ورقيق الحجارة ويحو ذلك مما يدل على عظيم بلائهم في هذا الأمر الجليل ( رضى الله عنهم أجمعين ) .

## ب - رسم المصحف .

رسم المصحف براد به الوصف الذي ارتضاه عثمان رضي الله عنه في كتابه كلمات القرآن وحروفه . والأصل في الكتاب أن يكون موافقاً تماماً لموافقة المخطوط ، من غير زيادة ولا نقص ، ولا تبديل ولا تغيير . لكن المصاحف العثمانية قد أهمل فيها هذا الأصل ، فوجدت بها حروف كثيرة جاء رسمها مخالفاً لأداء المطلق ، وذلك لأعراض شريفة ظهرت وتظهر لك فيما بعد .

وقد عني العلماء بالكلام على رسم القرآن وحصر تلك الكلمات التي جاء خطها على غير مقاس لنظمتها . وقد أفردوه بعضهم بالتأليف منهم الإمام أبو عمرو الداني إذ ألف فيه كتابه المسمى «المنعجم» ومنهم العلامة أبو عباس المراكشي إذ ألف كتاباً أسماه : «عنوان الدليل في رسوم خط التنزيل» . ومنهم العلامة الشيخ محمد بن أحمد الشبيري المتوفى إذ نظم أرجوزة سماها «الأواظ المنظوم في ذكر جملة من الرسوم» ثم جاء العلامة المرحوم الشيخ محمد خلف الحسيني شيوخ القاري بالنداء المصرية ، فشرح تلك المنظومة ، وذيل الشرح بكتاب سماه «مرشد الخيران إلى معرفة ما يجب اتباعه في رسم القرآن» .

### قواعد رسم المصحف :

وللمصحف العثماني قواعد في خطه ورسمه ، حصرها علماء الفن في ست قواعد ، وهي الحذف ، والزيادة ، والهمز ، والاسد ، والتصل ، والوصل ، وما فيه قراءات فري . على إحداها . وهالك شيئاً عنها بالإجمال ، يكون الفرق بينها وبين مصدح الخطوط في عصرها على نال ملك : -

( قاعدة الحذف ) : خلاصتها أن الألف تحذف من لاء اللاء نحو «لَيْلُهَا النَّاسُ»

ومن ها التنبية نحو « هاتم » ومن كلمة « ن » إذا وبها ضمير نحو « أحمياكم »<sup>(١)</sup> ومن لفظ الخلافة « الله » ، ومن كلمة « إله » ، ومن لفظي « الرحمن » ، « وسبح » ، « وسد لام نحو كلمة « حلائف » وبين اللامين في نحو « السكّالة » ومن كل مُنتهى نحو « رحلان » ، ومن كل جمع تصحيح لذكر أو لمؤنث نحو « مَنَاعُونَ » ، « بُولَمَات » ، ومن كل جمع على و ن معادل ومثبه نحو « لمساحد » ، « والمصدرى » ، ومن كل عدد نحو « ثلاث » ومن السلسلة ، ومن أَوْن الأمر من سأل ، وغير ذلك ، ( إلا ما استثنى من هذا كله ) .  
وتحذف الياء من كل مقوص منون رفعاً وحرراً ، نحو « عَزَّ بَاءٌ وَلَا عَدِي »  
ومن هذه الكلمات « جُيُوبٌ ، اتَّقُونَ ، حَافُونَ ، آزَهُونَ ، فَرَسِيُونَ ، وَاَعْدُونَ » ، ( إلا ما استثنى ) .

وتحذف الواو : إذا وقعت مع واو أخرى في نحو « لَا يَسْتَوُونَ » ، « وَوَاوَايَ انْكسب »

وتحذف اللام : إذا كانت مدعمة في منتهى نحو « الليل » ، « والدي » ( إلا ما استثنى )  
وهناك حذف لا يدخل تحت قاعدة كحذف الألف من كلمة « مالكة » وكحذف الياء من « إبراهيم » ، وكحذف الواو من هذه الأقوال الأربعة : « وَيَدْعُو لِبِئْسَ » ، « وَيَدْعُو لِبِئْسَ » ، « نَوْمٌ يَدْعُو الدَّاعِ » ، « سَمَدْعُو تَرْبَايَةِ » .

( قاعدة ارياده ) خلاصتها أن الألف تراد بعد الواو في آخر كل اسم مجموع أو في حكم المجموع ، نحو : « مُلَاوَا رَيْهَم » ، « نَوَا بَشَرْتِيل » ، « أُولُو الْأَنْبَاب » وسد الهجره الرسومية واواً نحو « نَفَقَةٍ تَفَتْ » فإن ترسم هكذا : « نَفَقَةٍ تَفَتْ » وفي كلمات « مِيَانة » ، « مِيَانَتَيْن » ، « وَالظُّنُون » ، « وَالرُّسُول » ، « وَالسَّبِيل » ، « وقوله تعالى : « وَنُحَدِّثُكَ بِاللُّغَةِ الطُّنُون » « وَأَطْمَأَنَّ رُسُولًا » « وَأَصْلُوا السَّبِيلَا »

(١) كل هذه لأمثلة ترسم بدون ألف هكذا : أحميكم الله . إله . الرحمن . الخ .

وتراد الياء في هذه الكلمات: «مَيْمًا، آءًا، مِنْ يَدِهِ» بِأَنَّكُمْ لَتَمُوتُوا، بِأَيْدِيهِ»  
من قوله تعالى: «وَاللَّهُمَّ بِمَسْنَاهُ بِأَيْدِيهِ» .

وتراد الواو في نحو «أَوَّلُو، أَوَّلِيكَ، أَوْلَاءَ، أَوْلَاتٍ»

«قاعدة الهمزة» خلاصتها أن الهمزة إذا كانت ساكنة تكتب بحرف حركة ما قبلها  
نحو «أَنْدَنْ، أَوْثَمِينَ أَبْسَاءَ»، (إلا ما استثنى). أما الهمزة المتحركة، فإن كانت  
أول الكلمة وانصل بها حرف زائد، كتبت بالألف مطلقًا، سواء أ كانت مفتوحة أم  
مكسورة نحو «أَبُوبَ، أَوَّلُو، إِذَا، سَأَصْرَفُ، سَأُرِلُ، قَبَائِي» (إلا ما استثنى).  
وإن كانت الهمزة وسطًا، فإنها تكتب بحرف من جنس حركتها، نحو «سَأَلُ،  
سُئِلَ، تَقَرَّرُوهُ» (إلا ما استثنى). وإن كانت متطرفة كتبت بحرف من جنس حركة  
ما قبلها، نحو «سَمَاءَ، شَاطِئِهِ، أَوَّلُو» (إلا ما استثنى) وإن سكن ما قبلها، حذفت<sup>(١)</sup> نحو  
«مِلْهُمُ الْأَرْضَ، يُخْرِجُ الْحَبَّ» (إلا ما استثنى). وللمستثنيات كثيرة في الكل.  
(قاعدة البدل): خلاصتها أن الألف تكتب وأوًا للتأنيب في مثل الصلاة والزكاة  
والحياة، (إلا ما استثنى) وتُرسم ياء إذا كانت متقلبة عن ياء نحو «بِقَوْلِكُمْ، بِأَحْسَرَاتٍ  
بِأَسْمَاءَ». وكذلك تُرسم الألف «آ» في هذه الكلمات: «إِلَى، هَلَى، أَيْ، عَفَى، كَيْفَ؟»  
«مَقَى، نَلَى، حَقَى، نَدَى» ما عدا «لدى الباب» في سورة يوسف، فإنها تُرسم أَلْفًا.  
وتُرسم النون أَلْفًا في نون التوكيد الخفيفة، وفي كلمة «إِذَنْ» .

وتُرسم هاء التأنيب «ه» مفتوحة في كلمة «رَحِمَتْ» بالهجرة والأعراف، وهود  
ومريم، والروم، والزخوف. وفي كلمة «لَعْنَةُ» ماسقرة، وآل همران، ومائدة،  
وإبراهيم، والنحل، ولهم، وقاطر، والطور. وفي كلمة «لَعْنَةُ اللَّهِ». وفي كلمة

(١) أي حذفت من الحرف ودرست مفردة

معصية « سورة قد سمع . وفي هذه الكلمات . « إِنَّ شَجَرَةَ آدَمَ قَوْمٍ ، فَرَمَ عَيْنٍ ،  
حَمَّةَ نَعِيمٍ ، يَقْبَلُ اللَّهُ » وفي كلمة امرأة أصبحت إلى روحها نحو « امرأة عمران ، امرأة  
نوح » وفي غير ذلك .

( قاعدة الوصل والعزل ) : خلاصتها أن كلمة « أُنْ » تفتح الحيرة توصل بكلمة  
« لا » إذا وقعت بعدها . ويستثنى من ذلك عشرة مواضع منها : « أُنْ لَا تَقُولُوا ،  
أُنْ لَا تَعْبُدُوا ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » .

وكلمة « مِنْ » توصل بكلمة « ما » إذا وقعت بعدها ويستثنى « مِنْ مَّا مَلَكَتْ  
أَيْدِيكُمْ » في النساء والروم ، « وَمِنْ مَّا رَفَعْنَاكُمْ » في سورة السافاتين .

وكلمة « مِنْ » توصل بكلمة « مَنْ » مطلقا

وكلمة « عَنْ » توصل بكلمة « ما » إلا قوله سبحانه « عَنْ مَاءٍ هَوا عَنهُ » .

وكلمة « إِنَّ » تالكسر توصل بكلمة « ما » التي بعدها ، إلا قوله سبحانه :  
فَإِنَّهُ رُبَّمَا تَكْفُرُ

وكلمة « أُنْ » تفتح توصل بكلمة « ما » مصدرا من غير اشتاء .

وكلمة « كُلُّ » توصل بكلمة « ما » التي بعدها ، إلا قوله سبحانه « كُلُّ مَارْدُوا  
إِلَى الْقَيْسِ ، مِنْ كُلِّ مَادَّةٍ مُنْمُوهُ »

وتوصل كلمات « بَعَثَ » ، « وَرَبَّنَا » ، « وَكُنَّا » ، « وَنَكْفُرُ » . ونحوها

( قاعدة ما فيه قراءتان ) خلاصتها أن الكلمة إذا قرئت على وجهين ، تكتب  
رسم أحدهما ، كما رسمت الكلمات الآتية بلا ألف في المصحف وهي : مَالِكٌ ، نَوْمٌ ، الَّذِينَ ،  
يُحَادِّثُونَ اللَّهَ ، وَوَعَدُنا مُوسَى ، تُفَادُّهُمْ » ، ونحوها ، وكلها مقرونة بإثبات الألف  
وحذفها . وكذلك رسمت الكلمات الآتية بالفتح المفتوحة ، وهي : عِيَاةٌ ، أَحَبُّ ، أُرِلَ  
عليه آيةٌ » في المسكوت « ثمرة من أكلها » في نصت ، « وهم في المعرفة آمنون »



في « سبأ » . وذلك لأنها جمعاء مقروءة بالجمع والإفراد . وغير هذا كثير ، وحسبنا ما ذكرناه للتشثيل والتشوير .

### مزايا الرسم العثماني :

لهذا الرسم مزايا وفوائد :

(الفائدة الأولى) الدلالة في القراءات المتفوعة في الكلمة الواحدة بقدر الإمكان ، وذلك أن قاعدة الرسم لوحظ فيها أن الكلمة إذا كان فيها قراءتان أو أكثر ، كتبت بصورة تحتل هاتين القراءتين أو الأكثر . فإن كان الحرف الواحد لا يحتمل ذلك بأن كانت صورة الحرف تختلف باختلاف القراءات جاء الرسم على الحرف الذي هو خلاف الأصل ، وذلك ليعلم جواز القراءة به وبالحرف الذي هو الأصل . وإذا لم يكن في الكلمة إلا قراءة واحدة بحرف الأصل رُسمت به ، مثال الكلمة تكتب بصورة واحدة وتقرأ بوجه متعددة قوله تعالى : « إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ أُنْ » رُسمت في المصحف العثماني هكذا : « إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ أُنْ » من غير نقط ولا شكل ولا تشديد ولا تخفيف في نوني إن وهذان ، ومن غير ألف ولا ياء بعد الدال من هذان .

وعجىء الرسم كما ترى ، كان صالحاً عندهم لأن يُقرأ بالوجوه الأربعة التي وردت كلها بأسانيد صحيحة . ( أولها ) قراءة نافع ومن معه إذ يشددون نون « إِنْ » ويخففون « هَذَا » بالألف .

( ثانياً ) : قراءة ابن كثير وحده إذ يخفف النون في « إِنْ » ويشدد النون في « هَذَا » .

( ثالثاً ) قراءة حفص إذ يخفف النون في « إِنْ » و « هَذَا » بالألف .

( راسها ) . قراءة ألى عمرو تشديد « إلب » وبالياء وتحييف الون في « هذين » فتدبر هذه الطريقة المثلى لصناعة لوحوه القراءة لتعلم أن سمعا الصلح كان في قواعد رسمه للمصحف أن بعد ما نظراً وأهدى سبيلاً

### القاعدة الثانية :

إفادة المدى المختلفة بطريقة تسكاد تكون ظاهرة ، وذلك نحو قطع كلمة « أم » في قوله تعالى : « أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » ووصفها في قوله تعالى : « أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » إذ كتبت هكذا « أمن » ببدعام الميم الأولى في الثانية وكتابتها ميماً واحدة مشددة ، فقطع أم الأولى في الكتابة للدلالة على أنها أم المنقطعة التي معنى بل ووصل أم الثانية للدلالة على أنها ليست كذلك

### القاعدة الثالثة :

للدلالة على معنى خفي دقيق كزيادة الياء في كتابة كلمة « أبدر » من قوله تعالى : « وَلَسَاءَ بَدِينًا هَآ بِأَبْدَرٍ » إذ كتبت هكذا « بأيدٍ » وذلك لإيحاء إلى تعظيم قوة الله التي بنى بها السماء وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة وهي : زيادة الميم تدل على زيادة المعنى

ومن هذا القبيل كتابة هذه الأعمال الأربعة بحذف الواو وهي

« وَيَدْعُو الْإِنْسَانَ » وَيَمْخُوفُهُ أَثَاطِلُ ، يَوْمَ نَدْعُوا الدَّاعِيَ ، ضَعُفُوا الرَّمَانَةَ ، فإنها كتبت في المصحف العثماني هكذا : « ويدْعُ الْإِنْسَانَ ، وَيَمْخُفُ اللَّهُ أَثَاطِلَ ، يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِيَ ، سَدْعُ الرَّمَانَةِ » والمكر من غير شط ولا شكل

في الجميع

قالوا : والسر في حذفها من « وَتَذَعُ الْإِنْسَانُ » هو الدلالة على أن هذا الدعاء سهل على الإنسان سارع فيه كما يسارع إلى الخير ، بل إثبات الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير . والسر في حذفها من « وَتَخُفُّ أَلْفُ الْبَاطِلِ » الإشارة إلى سرعة ذهابه واصطفاه

والسر في حذفها من « يَوْمَ تَذَعُ الدَّاعِ » الإشارة إلى سرعة الدعاء وسرعة إجابة الداعين . والسر في حذفها من « سَتَذَعُ الرَّمَايَةَ » الإشارة إلى سرعة الفعل وإجابة الرمايه وقوة البطش . ويجمع هذه الأسرار قول المراكشي « والسر في حذفها من هذه لأثر من سرعة وقوع الفعل وسهولته على العاقل وشدة قبول لمفعول المتأثر به في الوجود » هـ

#### البائنة الرابعة :

الدلالة على أصل الحركة مثل كتابة الكسرة .هـ وقوله سبحانه « وَإِيتَ دِي الْقَرْيَ » إذ كتبت هكذا « وَإِيتَ دِي الْقَرْيَ » ومثل كتابة الصمة واو وقوله سبحانه : « سَتَرِيكُمْ دَارَ الْغَامِزِينَ » إذ كتبت هكذا ( سَوْرِيكُمْ ) ومن ذلك الدلالة على أصل الحرف نحو الصلاة وبركة إذ كتبت هكذا . « الصلاة ، لركوة » يبينهم أن الألف فيهما منتزعة عن واو . ( من غير نقط ولا شكل كما سبق )

#### البائنة الخامسة

إعادة بعض الهمات الفصيحة ، مثل كلمة هـ التأنيث .هـ معنوه دلالة على حبة طيبة ، وقد تقدمت الأمانة لهذا النوع . ومن قوله سبحانه : « يَوْمَ تَأْتِي لَا تَكُنَّ مَقْسُورًا إِلَّا رِجْزُهُ » كتبت بحذف الياء هكذا « يَأْتِي » للدلالة على لغة هذيل

الفائدة السادسة :

حملُ الناس على أن يقتفوا القرآن من صدور ثقات الرجال ، ولا يتسكّلوا على هذا  
الرسم المتماي الذي جاء غير مطابق للفظ الصحيح في الجملة وينصوي تحت هذه الفائدة  
مربتل : ( إحداهما ) التوثيق من ألسان القرآن وطريقة أدائه وحسن ترتيبه ونحوه .  
فإن ذلك لا يمكن أن يعرف على وجه اليقين من المصحف ، مهما تكن قاعدة رسمه  
واصطلاح كتابته . فقد تحطت الطبعة في القطع ، وقد يحى على القارى بعض أحكام  
نحوه ، كالساقطة والإظهار والإحفاء والإدغام والروم والإشمام ونحوه ، فضلاً عن  
جاء تطبيقها .

ولهذا قرّر علماء أنه لا يجوز التعويل على لمصاحف وحدها . بل لابد من التثبت  
في الأداء والقراءة ، بالأخذ عن حافظ ثقة . وإن كنت في شك من ي ترك :  
هل يستطيع المصحف وحده نأى رسم يكون ، أن يدل قارئاً أيّ كان على اللفظ  
الصحيح فوائت السور الكريمة ؟ منسل و كهي مص حم عسق ، طسم ٩٩٩ ؟  
ومن هذا الباب الروم والإشمام في قوله سبحانه « مَا لَكَ لَا تَأْمَنُ عَلَى يُوسُفَ » من كلمة  
« لَا تَأْمَنُ » !

( المربة الثانية ) اتصال السد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك خاصة من  
حواسن هذه الأمة الإسلامية امتزجت بها على سائر الأمم .  
قال ابن حزم : « نَقُلُ الثقة عن ثقة يبلغه النبي صلى الله عليه وسلم مع الاتصال ،  
حصراً الله به المسلمين دون سائر الملل . وأما مع الإرسال والإعصال فيوجد في كثير من  
كتب اليهود ، ولكن لا يقرنون فيه من موسى قرناً من محمد صلى الله عليه وسلم بل  
يقعون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عاماً . إنهم يبلغون إلى ثمانين  
ونحوه ثم قال . وأما المصارى فليس عدم من صفة هذا النقل إلا تحريم إطلاق . وأما

النقل المشتمل على طريق فيه كذاب أو مجهول العين، فكثير في نقل اليهود والمصارى،  
وأما أقوال الصحابة والتابعين، فلا يمكن اليهود أن يسموا صاحب نبي أو ناسي، ولا  
يمكن المصارى أن يصوا إلى أعلى من شمعون وبولس . ١٠

### هل رسم المصحف توقيفي ؟

للعلماء في رسم لمصحف آراء ثلاثة .

( المأوى الأول ) : أنه توقيفي لا نحو مخالفة . وذلك مذهب الجمهور . واستدلوا  
بأن النبي ﷺ كان له كتاب يكسبون الوحي ، وقد كتبوا القرآن فعلاً بهذا الرسم  
وأقرهم الرسول على كتابتهم ، ومضى عهده ﷺ وانتهى على هذه الكتابة لم يحدث  
فيه تغيير ولا تعديل . بل ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان يضع الدستور بكتاب الوحي  
في رسم القرآن وكتبه . ومن ذلك قوله معاوية وهو من كتبة الوحي : « أقي لهواة  
وحرف القلم وأنصب الساء ، وفرق السير ، ولا تعور أمير ، وحسن الله ، ومعد  
الرحمن ، وحود الرحيم ، وضع فذلك على أدبك يسرى ، فإنه أدكر لك » .

ثم جاء أبو بكر وكتب القرآن بهذا الرسم في مصحف ، ثم حدا خذوه عثمان في  
خلافة ، فاستفح تلك المصحف في مصاحف على تلك الكتابة وأقر أصحاب النبي صلى  
الله عليه وسلم عمل أبي بكر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين ، وانتهى الأمر بذلك إلى  
التابعين وناسي ابنه ناسي ، فلم يخاف أحد منهم في هذا الرسم ، ولم يفعل أن أحدا منهم  
فذكر أن يستبدل به رسم آخر من الرسوم التي حدثت في عهد ارداد التاليف ، وشاط  
التدوير ، وتقدم العوم . بل بقي الرسم العثماني محترماً متبعاً في كتبة المصاحف لا يمس  
استقلاله ، ولا يباح جهه .

وملخص هذا الدليل أن رسم المصاحف العثمانية ، ظهر بأمور كل واحد منها يجعله

حذيراً بالتقدير ووجوب الانساع . تلك الأمور هي إقرار الرسول ﷺ عليه ، وأمره  
بمستوره وإجماع الصحابة - وكانوا أكثر من اثني عشر ألف صحابي - عليه ، ثم  
إجماع الأمة عليه بعد ذلك في عهد التابعين والأئمة المحمدين !

وأنت خير بأن اتبع الرسول وأحب فيما أمر به أو أمر عمنه ؛ فلو أنه تعالى : « قُلْ  
إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » ، والاهتداء  
بهدي الصحابة وأحب خصوصاً الخلفاء الراشدين ، لحديث المير باقر بن ساريّة وفيه  
يقول صلى الله عليه وسلم : « فَرَنَهُ مَنْ بَعَثَ مِنْكُمْ فَتَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَمَلَائِكُمْ  
يَسْتَنِي وَسَيِّئَةُ اخْتِلَافِ الرّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِرِ » ، ولا ريب أن  
إجماع الأمة في أي عصر واجب الاتباع ، خصوصاً العصر الأول . قال تعالى : « وَمَنْ  
يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ التَّوْحِيدِ نُوَلِّهِ  
مَا تَوَلَّى ، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا » .

وممن حكى إجماع الأمة على ما كتبه عثمان ، صاحب المنع إذ يروى بإساده إلى  
مصعب بن سعد قال : « أدركتُ الناسَ حين شقّق عثمان رضي الله عنه للمصاحف ،  
فأصحهم ذلك ولم يَمِئُهُ أَحَدٌ » . وكذلك يروى شارح العقيدة من أنس بن مالك رضي  
الله عنه أن عثمان أرسل إلى كل جنده من أحناف المسلمين مصحفاً ، وأمرهم أن يحرقوا  
كل مصحف يخالف الذي أرسل إليهم . ولم يُعرف أن أحداً خالف في رسم هذه  
المصاحف العثمانية .

واسناد الإجماع على تلك المصطلحات في رسم المصحف دليل على أنه لا يجوز المدول  
عنها إلى غيرها . ويرحم الله الإمام الخراز إذ يقول :

« وَمَعْدَهُ جَزْدُهُ الْإِمَامُ      فِي مُصْحَفٍ لَيْتَسَدَى الْأَنْبَاءِ  
وَلَا يَكُونُ مَعْدَهُ اصْطِرَابُ      وَكَانَ فِيهَا قَدْ رَأَى صَوَابُ »

وقصة اختلافهم شهيرة كقصة النيامة المسيرة  
 فيسمى لأخرى أن تقتنى مرسوم ما أصله في المصحف  
 وسندي معه وما رأى في جملة من يحط مخطأ

### أقوال العلماء في التزام الرسم العثماني :

روى السخاوي بسنده أن ماسكاً رحمه الله سئل : أ رأيت من استكتب مصحفاً  
 أنرى أن يكتب على ما استعمله الناس من المصنف اليوم ؟ فقال : لا أرى ذلك ، ولكن  
 يكتب على الكتابة الأولى . قال السخاوي : والذي ذهب إليه مالك هو الحق ، إذ فيه  
 نفاء الخلة الأولى إلى أن تذهب الطبقة الأخرى ، ولا شك أن هذا هو الأخرى بعد  
 الأخرى . إذ في خلاف ذلك تمهيل الناس بولية ما في الطبقة الأولى .

وقال أبو عمرو الداني : لا يخالف ذلك من علماء الأمة في ذلك . وقال أبو عمرو  
 الداني أيضاً : سئل مالك عن الحروف في القرآن مثل الواو والألف ، أ ترى أن يغير  
 من المصحف إذا وجد فيه كذلك ؟ قال : لا قال أبو عمرو : يعني الألف والواو المربدتين  
 في الرسم المدومتين في اللفظ نحو « أولوا »

وقال الإمام أحمد بن حنبل : تحرم بحرفة خط مصحف عثمان في واو أو ألف  
 أو باء أو غير ذلك .

وحاء في حواشي المنهج في فقه الشافعية ما نصه : « كلمة الرما تكتب بالواو  
 والألف كما جاء في الرسم العثماني ، ولا تكتب في القرآن بـياء أو نون ، لأن رسمه  
 سنة متبعة » .

وحاء في المحيط بـياء في فقه الحنيفة ما نصه : « إنه سمي ألا يكتب المصحف  
 بغير الرسم العثماني »

وقال العلامة نظام لدير لبساورى مائمه: «وقال جماعة من الأئمة بأن الواجب على  
 القراء والمعلم وأهل الكتابة أن ينسوا هذا الرسم في خط النصح؛ فإنه رسم ريدس  
 ثامت، وكان أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكاتب وحيه»  
 وقال البيهقي في شعب الإيمان: «من كتب مصصفاً ينبغي أن يحافظ على المحام  
 الذي كتبوا به تلك المصاحف ولا يحالفهم فيه ولا يغير من كتبوه شيئاً؛ فإنهم كانوا  
 أكثر علماً وأصدق قلباً وساناً وأعظم أمانة، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استعدداً كما  
 عليهم» اهـ.

ويمكن مناقشة هذا الرأي الأول بأن الأدلة التي ساقوها لا تدل على تحريم كتابة  
 القرآن بغير هذا الرسم؛ إذ ليس فيها زجر الإثم ووعيده، ولا نهى الحرام وتهديده.  
 إنما قصارها الدلالة على حوار الكتابة بالرسم العثماني ووجاهته ودقته. وذلك محل  
 اتفاق ونسليم.

### الرأي الثاني:

أن رسم المصاحف اصطلاحى لاتوقيفى، وعليه فتجوز محسنة. ومن جنح إلى  
 هذا الرأي ابن خلدون في مقدمته، ومن تحمس له الفاضل أبو بكر في الانتصار؛ إذ يقول  
 مائمه:

«وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً، إذ لم يأخذ عن كتاب القرآن  
 وحفاظ المصاحف رسماً يمينه دون غيره أو حبه عليهم وترك ما عداه، إذ وجوب ذلك  
 لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف وليس في نصوص الكتب ولا مفهومه، أن رسم  
 لقرآن وسطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تحاورة، ولا في نص  
 السنة ما يوجب ذلك ويبدل عليه، ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك، ولا دلت عليه  
 القياسات الشرعية.



بل السنة دلت على حوار رسمه، أى وحسه سهل، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وحها معيماً ولا سهى أحداً عن كتابته ولذلك اختلفت خطوط المصاحف، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، ومنهم من كان يريد وينقص لعمه بأن ذلك اصطلاح وأن الناس لا يحجب عليهم الخال، ولأجل هذا نعيه حار أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول، وأن يجعل اللام على صورة الكاف، وأن تدوِّج الألفات، وأن يكتب على غير هذه الوجوه، وحار أن يكتب المصحف بالخط والمجاهة لتقديمين أو حار أن يكتب بالخطوط والمجاهة الحديثة، وحار أن يكتب بين ذلك.

وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها محتمة متعايرة الصورة، وكان الناس قد أचारوا ذلك وأحاروا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته، وما هو أسهل وأشهر وأولى، من غير تأنيب ولا تذكير، علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حديث محدود محصور، كما أحد عليهم في القراءة والأذان.

والسبب في ذلك أن الخطوط إما هي علامات ورسوم تحرى بحرى الإشارات والعقود والرموز، فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تحت صحته وتصويب الكاتب به على أى صورة كانت.

وبالحيلة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم محصور وحب عليه أن يتقن الحجة على دعواه وأنى له ذلك؟ أم تتحيص ونوقش هذا المذهب

(أولاً): بالأدلة التي ساقها جمهور العلماء لتأييد مذهبهم. وهى بين يديك عن كتب، بعضها من السنة، وبعضها من إجماع الصحابة والكنة وتابعيهم.

(ثانياً): أن ما ادعاه من أنه ليس في المصاحف السنة ما يوجب ذلك وبدل عليه مردود عما سبق من إقرار الرسول كتاب الوحي على هذا الرسم، ومنهم من زعم أن الذى كتب

المصنف لأى نكر وكتب لمصاحف لبنان، ولحديث الألف، وفيه يقول الرسول لمعدوية  
 « أَلِفِ الدَّوَاهِ وَحَرَفِ الْقَلَمِ الْحِ ». وفيه حجة على أنه عليه السلام كان واضع دستور الرسم هم  
 ( ثانياً ) أنت قول القاصى أى نكر : « ولذلك اختلفت خطوط المصاحف » الخ  
 لا يُسلم له بعد قيام الإجماع واعتقاده وصرفه الناس بالرسم المتوقفى وهو رسم عثمان على  
 ما قرروه هناك

ومريدك هنا ماد كره العلامة ابن المارث نقلا عن العارف ناقضيه عند أمير الدماء  
 إدا يقول فى كتابه الإبرير ما نصه : « رسم القرآن سرٌّ من أسرار الله المشاهدة وكال  
 ابرقة ، قال ابن المارث فقلت له : هل رسم الواو يدل الألف فى نحو « الصلاة ، والزكاة ،  
 والحياة ، ومِسْكَاة » ، وريادة الواو فى « سَأُورِيكُمْ ، وَأُولَئِكَ ، وَأُولَاءِ ، وَأُولَاتِ » ،  
 وكالباة فى نحو « هَدَيْتُهُمْ ، وَمَلَأْتُهُ ، وَبَارَيْتُهُمْ » ، « وَأَبَيْدِ » هذا كله صادر من أنسى  
 صلى الله عليه وسلم ، أو من الصحابة ؟ فقال : « هو صادر من أنسى عليه السلام وهو الذى  
 أمر الكتّاب من الصحابة أن يكتبوه على هذه الهيئة ، فما نقصوا ولا أداوا على ما سمعوه  
 من أنسى » فقلت له : إن جماعة من العلماء ترحصوا فى أمر الرسم وقالوا : إنما هو  
 اصطلاح من الصحابة مشوا فيه على ما كانت قریش تكتب عليه فى الجاهلية ، وإنما  
 صدر ذلك من الصحابة لأن قریشاً تمنوا الكتّامة من أهل الخير ، وأهل الخبرة  
 يطقون الواو فى الرما ، وكتبوا على وفق مصنفهم . وأما قرش فبهم يطقون فيه  
 بالألف ، وكفائتهم له الواو على مطلق غيرهم وتقليد لهم ، حتى قل القاصى أبو نكر الملاقى :  
 كل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وحب عليه أن يقيم الحجة على رعاها ،  
 فإنه ببس فى الكتاب ولا فى السنة ولا فى الإجماع ما يدل على ذلك ؟ . فقال -

« ما للصحابة ولا لغيرهم فى رسم القرآن ولا شعره واحدة ، وإنما هو توفيق من  
 الله ، وهو الذى أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بريادة الألف ونقصها ، لأسرار

لا نهتدى إليها العقول، وهو سرٌّ من الأسرار حصّ الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب  
الساوية. وكما أن نظم القرآن معجز، فمرسمه أيضاً معجزاً وكيف نهتدى العقول إلى سر  
رياءه الألف في «مائة» دون «ثثة». وإلى سر زيادة الياء في «يأيند» و«يأييكم»؟  
أم كيف تتوصل إلى سر زيادة الألف في «سموا» بالخج، ونقصانها من «سَمَوْ» بسيا؟  
وإلى سر زيادتها في «عَمُوا» حيث كان، ونقصانها من «عَمَوْ» في الفرقان؟ وإلى  
سر زيادتها في «آمَنُوا»، وإسقاطها من «بَاؤُ»، «جَاؤُ»، «تَبَوَّؤُ»، «طَاؤُ» بالبقرة؟ وإلى  
سر زيادتها «يَعْمُوا» الذي، ونقصانها من «يعفونهم» في النساء؟ أم كيف تبليغ  
العقول إلى وجه حذف بعض أحرف من كلمات متشابهة دون بعض، كحذف الألف  
من «قُرْءَانًا» بيوسف والزحرف، وإثباتها في سائر المواضع؟ وإثبات الألف بعد واو  
«سموات» في فصلت وحذفها من غيرها. وإثبات الألف في «الميعاد» مطلقاً، وحذفها  
من الموضع الذي في الأنفال وإثبات الألف في «سِرَاجًا» حيثما وقع، وحذفه من  
موضع الفرقان وكيف تتوصل إلى فتح بعض القاءات ودرطها في بعض؟ فكل ذلك  
لأسرار إلهية، وأغراض نبوية. وإنما خفيت على الناس لأنها أسرار باطنية لا تدرك  
إلا بالفتح الرباني، فهي بمنزلة الألفاظ والحروف المقطعة التي في أوائل السور، فإن  
لها أسراراً عظيمة، ومعاني كثيرة. وأكثر الناس لا يهتدون إلى أسرارها، ولا يدركون  
شيثاً من المعاني الإلهية التي أشير إليها! فكذلك أمر الرسم الذي في القرآن  
حرفاً بحرف.

وأما قول من قال: إن الصحافة اصطلاحوا على أمر الرسم المذكور، فلا يعني ما في  
كلامه من البطلان، لأن القرآن كتب في زمان النبي ﷺ وبين يديه. وحينئذ فلا يحلو  
ما اصطلاح عليه الصحافة، إما أن يكون هو عين الهيئة أو غيرها، فإن كان عينها

نقل الاصطلاح ، لأن أسقية النبي ﷺ تدعى ذلك وتوجب الاسع وإن كان غير ذلك فكيف يكون الذي ﷺ كتب على هيئة كهيئة ارسى اقيسى مثلاً ، والصحابة حادوا وكتبوا على هيئة أخرى ؟ فلا يصح ذلك لو حيين : ( أحدهما ) سبه ، لصحابه إلى المحامدة ، وذلك محال ، ( ثانيهما ) : أن سائر الأمة من الصحابة وغيرهم أجمعوا على أنه لا يجوز زيادة حرف في القرآن ولا نقصان حرف منه . وما بين الدفتين كلام الله عز وجل ، فإذا كان الذي ﷺ أثبت ألف الرحمن والعالمين مثلاً ، ولم يزد الألف في «مائة» ولا في «ولأضعوا» ولا الياء في «بأيد» وبحو ذلك ، والصحابة عاكوه في ذلك وخلعوه ، لزم أنهم - وحاشم من ذلك - تعرفوا في القرآن بالزيادة والنقصان ، ووقفوا فيما أحصوا به وغيرهم على ملا محل لأحد فعله ، ولزم تطرق الشك إلى جميع ما بين الدفتين ، لأننا مهما جوزنا أن تكون فيه حروف ناقصة أو زائدة على ما في علم النبي ﷺ وعلى ما بعده ، وأنها ليست بوحي ولا من عند الله ولا يعلمها بعينها ، شككنا في الجميع . ولئن جوزنا لصحابة أن يزيد في كتابته حرفاً ليس بوحي ، زعمنا أن يجوز لصحابة آخر نقصان حرف من الوحي ، إذ لا فرق بينهما ، وعينئذ تنحل عروة الإسلام بالسكينة .

ثم قال ابن المبارك بعد كلام . . . فقالت له : فإن كان الرسم توقيفياً بوحي إلى النبي ﷺ وأنه كالألفاظ القرآن فلم لم ينقل تواتراً حتى ترتفع عنه الريبة وتطهر به القلوب كالألفاظ القرآن ؟ فإنه ما من حرف إلا وقد نقل تواتراً لم يقع فيه اختلاف ولا اضطراب . وأما الرسم فإنه إما نقل بالاحاد ، كما يعلم من الكتب الموصوعة فيه . وما نقل بالاحاد وقع الاضطراب بين العقلة في كثير منه . وكيف نصيب الأمة شيئاً من الوحي ؟ قل : « مصيعة الأمة شئت من الوحي ، وانقرآن محمد الله محفوظاً أصطفاً ورسماً فأهل عرفان وشهود وتعيين ، حفظوا ، أمأظه ورسمه ، وهم يصيغوا منها شعرة واحدة . وأدركوا ذلك بالشهود والعيان الذي هو فوق التواتر . وغيرهم حفظوا الأمثلة الواصلة إليهم بالتواتر واختلافهم

في بعض حروف الرسم لا يفتح ولا يحبر الأمة مصيعة ، كما لا يصح جعل العامة ناقراً  
وعدم جعلهم لأصله ٥١٤ .

### الرأي الثالث :

يحمل صاحب التبيين ومن قبله صاحب البرهان ، أي ما بينهم من كلام العرب  
عبد السلام ، من أنه يجوز بل يجب كتابة المصحف الآن بعامة الناس على الاصطلاحات  
للعروفة الشائعة عندهم ، ولا يجوز كتابته لهم بالرسم العثماني الأول ، لئلا يوقع في تغيير  
من الجهل ولكن يجب في الوقت نفسه المحافظة على الرسم العثماني ، كأثر من الآثار النفيسة  
الموروثة عن سلفنا الصالح ، فلا يهمل مراعاة الجهل الجاهلين ، بل يبقى في أيدي اعدائهم  
الذين لا تحوهم الأرض . وهك عبارة : «بيان في هذا المقام إذ يقول ما نصه :

وأما كتابته ( أي لمصحف ) على ما أحدثت له من المصاحف ، فقد جرى عليه  
أهل الشرق ، بناء على كونها أنشد من الناس ، وتجاهل أهل المغرب بناء على قول الإمام  
مالك وقد سئل . هل يكتب لمصحف على ما أحدث الناس من المصاحف ؟ قال : لا ؛ إلا  
على المكتبة الأولى . قل في البرهان : قلت : وهذا كان في الصدر الأول ، وأعلم حتى  
نفس . وأما الآن فقد بحثي الالتباس ، وهذا قال الشيخ عر الدين بن عبد السلام :  
« لا يجوز كتابة المصحف الآن على الرسم الأول بـ اصطلاح الأئمة ، لئلا يوقع في تغيير من  
الجهل . ولكن لا ينبغي إحراء هذا على إطلاقه ، لئلا يؤدي إلى دروس العلم . وشيء  
قد أحسنه قدماء لا يترش مرة لجهل الجاهلين » وارتجوا الأرض من قائم الله  
بحجته ٥١٤ .

أقول : وهذا للرأي سوم على رغبة الاحتياط للهراء من صاحبتين . أحية كتابته  
كل عصر بالرسم المعروف فيه ، إعاداً للناس من الناس والحفاظ في القراء ، وأحية إعادته

رسمه الأول المأثور ، بقروء العارمون ومن لا يحشى عليهم الالتهاس ولا شك أن الاحتياط  
مطلب ديني جليل ، خصوصاً في جانب حماية التمزيل

## ج - الشبهات التي أثيرت حول كتابة القرآن ورسمه

### الشبهة الأولى :

يقولون : روى من عثمان أنه حين عرض عليه للمصنف قال : « أحسنتم وأجأتم ،  
إن في القرآن لحناً مستقيمته العرب بالسفها » .

ويقولون : روى عن عكرمة أنه قال : « لما كتبت المصاحف مرضت على  
عثمان فوجد فيها حروفاً من الحسن فقال : لا تغيروها ، فإن العرب ستغيرها أو  
قال : ستعربها بالسفها . لو كان الكاتب من ثيف والملى من هذيل لم توجد فيه  
هذه الحروف .

أورد أعداء الإسلام هاتين الروایتين وقالوا : إنهما طعنان صريحان في  
رسم المصنف ، فكيف يكون مصنف عثمان وجهه للقرآن ، موضع ثقة ،  
وإجماع من الصحابة ؟ وكيف يكون توقيعاً ؟ وهذا عثمان نفسه يقول عمل فيه :  
« إن فيه لحناً » .

ومجيب على هذه الشبهة أولاً : بأن ما جاء في هاتين الروایتين ضعيف الإسناد ،  
وأن فيهما اضطراباً وانقطاعاً . قال العلامة الأنوسى في تفسيره : « إن ذلك لم يصح  
عن عثمان أصلاً » اهـ ولعلك تلح معي دليل سقوط هاتين الروایتين مائلاً فيهما

من حراء هذا التناقض الظاهر بين وصفها سائح المصحف بأنهم أحسنوا وأجلوا ،  
ووصفها المصحف الذي سحوه بأن فيه خطأ . وهل يقال للذين لحنوا في المصحف :  
أحسنتم وأجملتم ؟  
الهمم إلا إذا كان المراد معنى آخر

ثانياً : أن المعروف عن عثمان في دقته وكال ضبطه وتحريه يحمل صدور أمثال  
هاتين الروايتين من المستحيل عليه . انظر إلى ما سبق من دستوره في جمع القرآن .  
ثم انظر إلى ما أحرجه أبو عبيد عن عبد الرحمن بن هاشم مولى عثمان قال : كتبت  
عند عثمان وهم يبرصون المصاحف فأرسلني بكتف شاه إلى أبي بن كعب فيها « لم  
يقسن » وفيها « لا يبدل لخلق » وفيها « فأمهل الكافرين » فدعا بدواة فحبا  
أحد اللامين وكتب « خلق الله » و « فأمهل » وكتب « فمهل » وكتب « لم يقسن »  
والخلق فيها الماء .

قال ابن الأباري : فكيف يدعى عليه أنه رأى فساداً فأمصاه ؟ وهو يوقف على  
ما يكتب ويرفع الخلاف الواقع من الناسخين فيه ، فيحكم بالحق ويدبرهم لإثبات الصواب  
وتحليده .

ثالثاً : على فرض صحة ما ذكر يمكن أن يؤوله بما يتفق والصحيح للتواتر عن عثمان  
في نسخ المصاحف وجمع القرآن ، ومن نهاية التثبت والدقة والضبط .

وذلك بأن يراد بكلمة « خطأ » في الروايتين المذكورتين قراءة ولغة . والمعنى أن في  
القرآن ورسم مصححه وجهاً في القراءة لاثنين به ألسنة العرب جميعاً ، ولكنها لا تلبث أن  
تلين به ألسنتهم جميعاً بالمران وكثرة تلاوة القرآن بهذا الوجه . وقد صرحت بعض أحلاء  
المعاصير لذلك مثلاً كلمة ( الصراط ) بالصاد المدللة من السين فتقرأ العرب بالصاد عملاً  
بالرسم ، وبالسین عملاً بالأصل .

### الشبهة الثانية .

يقولون : روى عن سعيد بن جبیر أنه كان يقرأ « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » ويقول « هُوَ مِنْ لَحْنِ الْكِتَابِ » .

والجواب : على غير ما سبق ، أي أن ابن جبیر لا يريد بكلمة « لحن » الخطأ . لما يريد بها اللمة والوجه في القراءة على حد قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي الصَّلَاةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُقَامُونَ » . والدليل على هذا التوجيه أن سعيد بن جبیر نفسه كان يقرأ : « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » ، فهو كان يريد باللمن الخطأ ما رضى لنفسه هذه القراءة . وكيف يرضى ما يعتقد أنه خطأ ؟

وهذه الكلمة في آية من سورة النساء ونصها : « لَكِنَّ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا » فكلمة « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » قرأها الجمهور بالياء منصوباً كما ترى . وقرأها جماعة بالواو ، منهم أبو عمرو في رواية بونس وهارون عنه . ولكل من القراءتين وجه صحيح فصيح في اللغة العربية ، فالنصب مخرج على المدح ، والتقدير « وأمدح للمقيمِينَ الصَّلَاةَ » . والرفع مخرج على المطف ، والمطفوف عنه مرفوع كما ترى .

### الشبهة الثالثة :

يقولون : ألا يسكن في الظن على جمع القرآن ورسمه ما روى عن ابن عباس في قوله تعالى . « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا » أنه قال : إن لكتاباً خطأ والصواب : « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا »



ومحيط (أولاً) في أحب به أبو حنبل إذا يقول ما فيه فإن من روى عن  
ابن عباس أنه قال ذلك ، فهو طاعن في الإسلام متعدي في الدين ، وابن عباس روى  
من ذلك القول ١ هـ .

(ثاني) ثم أخرجه ابن أبي حاتم وروى الألباني في مصابيح وابن جرير وابن  
مردويه عن ابن عباس أنه ستر « تَسْتُرُوا » وقال : أي تستأذنون من يملك الإذن من  
عن أصحابها يعني أصحاب البيوت

(ثالثاً) أن غراء يروو غير قراءة « تَسْتُرُوا » فلو كان ذلك لعقل صحيحاً عن  
ابن عباس ليقوا عنه أنه قرأ « تَسْتُرُوا » .

(رابعاً) إذ سمعنا لاجلهم أن هذا الخبر صحيح عن ابن عباس ، فربما رده رغم  
دعوى هذه الصيغة ، لأنه معارض لقاطع متواتر وهو قراءة « تَسْتُرُوا » ولقد عده أن  
معارض لقاطع مطلق ، وأن الرواية متى حافت رسم لمصحف فهي شاذة لا يثبت بها  
ولا يؤمن بها .

#### لشبهة اربعة :

يقولون : ألا يكفي في الظن من جمع القرآن ورسمه ، روى عن ابن عباس أيضاً  
أنه قرأ « أَقِمِّي بَنَاتِي آمَنِينَ آمِنُونَ أَنْ لَوْ بَشَّ اللَّهُ سَهْدِي سَهْمًا » . يقول له :  
إمام في المصنف « أَقِمِّي بَنَاتِي آمَنِينَ آمِنُونَ » قال : أظن سكناً كتبها وهو « آمن .  
ومحيط : بأنه م صحيح ذلك عن ابن عباس قول أبو حنبل : بل هو قول مجتهد  
يريدون وروى ابن جرير ويحيى بن لا يصدق هذا في كتب الله الذي لا يأتيه باطل  
من بين يديه ولا من خلفه . وكيف يحسن هذا حتى تنقن في دعوى الإمام ( أي  
مصحف الإمام ) وهو مصنف عثماني ، وكان مقتضاه أن يأتى أولئك الأعلام ، المختاطين

لدين الله المهيمين عليه ، لا يعمون عن خلافه ودقائقه ، خصوصاً عن القبول الذي إليه  
المرجع ، والقعدة التي أقيم عليها الساء ؟ هذا والله هزيمة ، ما فيها هزيمة ١ هـ . وقال القراء :  
لا يتلى إلا كما أزل « أَلَمْ يَأْسَ » ١ هـ . وعلى ذلك تكون رواية ذلك في الدر المنثور  
وغيره من ابن عباس رواية غير صحيحة . ومعنى « أَلَمْ يَأْسَ الَّذِينَ آمَنُوا » : أَلَمْ يَعْلَمُوا  
قال القاسم بن معن : هي لغة هوازن . وجاء بها الشعر العربي في قول القائل :  
« أَقُولُ لَهُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ بَأْسِرُونِي أَلَمْ تَيَأْسُوا أَيُّ نَفَّارٍ رَهْدَمَ »  
أى ألم تعلموا .

#### الشبهة الخامسة :

يقولون : من وجوه الطعن أيضاً ما روى عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله تعالى  
« وَقَصَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » إنما هي « ووصى رَبُّكَ » التزقت الواو بالصاد  
وكان بقراً : ووصى ربك ، ويقول : أَمَرَ رَبُّكَ ، إنها . واوان التفتت إحداها بالصاد  
وروى عنه أنه قال : أنزل الله هذا الحرف على لسان نبيكم . ووصى ربك أَلاَّ تَعْبُدُوا  
إِلَّا إِيَّاهُ . فلتفت إحدى الواوين بالصاد ، فقرأ الناس : « وَقَصَى رَبُّكَ » ولو نزلت هي  
النقضاء ما أشرك أحد .

ونحيب : عن ذلك كله ( أولاً ) بما أحاط به ابن الأثيرى إذ يقول : « إن هذه  
الروايات جميعية » .

(١) قال في القاموس : رَهْدَمَ كجحفرة . فرس لعمرة ، وفرس لبشر من عمرو الرِّياحى  
- إلى أن قال - وارَهْدَمَ من أخوان من عَشَى : رَهْدَمَ ، وَكَرِهْدَمَ .

(ثاني) أن هذه الروايات مع رخصة للتفاوت القطع ، وهو قراءة « وقصى » ومعارض القطع ساقط .

( ثالث ) أن ابن عباس رحمه ، وقد استفاض عنه أنه قرأ : « وقصى » وذلك دليل على أن ما نسب إليه في تلك الروايات من الدسائس ارحيصة التي لفظها أعداء الإسلام قول أبو حيان في النحر - والتواتر هو « وقصى » وهو المستفيض عن ابن عباس والحسن وقتاده ، عني أمر . وقيل ابن مسعود وأصحابه عني « وقصى » اهـ إذن رواية « وقصى » هي التي اعتقد الإجماع عني من ابن عباس ، وابن مسعود ، وغيرهما فلا يتعلق بأديان مثل هذه الرواية لساقطة إلا ما وجد ، ولا يرفع عقبره بها إلا عدو من أعداء الإسلام

#### الشبهة السادسة

يعقوب بن يزيد بن عباس روى عنه أيضاً أنه كان يقرأ : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ أَخْمَرَقَ صِيَاءً <sup>(١)</sup> » ويقوى ، حدوا هذه الواو ، واحملوها في « آتَيْنَا قُلْ لَهُمُ الْمَسُكِينُ : إِنَّ الْمَسْكَينَ قَدْ خَمَّوْا سَكْنَهُ » وروى عنه أيضاً أنه قال : « والواو ، واحملوها في « آتَيْنَا يَحْمِلُونَ أَعْرَاشَ وَمِنْ حَوْلَهُ » .

ومحيط ( أولاً ) أن هذه الروايات ضعيفة ؟ لم يصح شيء منها عن ابن عباس ( ثانياً ) أنها معارضة لقراءة لتواتر الجمع عليها ، وهي ساقطة ( ثالثاً ) أن ملاحة قرآن قاصية بوجود الواو لا محذوها ، لأن ابن عباس رحمه يفسر الفرق في الآية المذكورة بالهجر ، وعليه تكون الصيغة عني اتورا أو شريعة فانقام للواو لأجل هذا التعدير .

(١) الآية في سورة الأنبياء - لكن اتصال الواو بكلمة « صِيَاءً » . ونص الآية الكريمة : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ أَخْمَرَقَ صِيَاءً وَدِرْكَراً لِلْمُتَّقِينَ »

### الشبهة السابعة :

يقولون : روى عن ابن عباس في قوله تعالى « مَثَلُ نُورٍ كَمِثْلِ شَكَاةٍ » أنه قال : هي خطأ من الكاتب ، هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور اشكاة . إنما هي « مَثَلُ نُورٍ لِنُورٍ كَمِثْلِ شَكَاةٍ »

وحيث ( أولا ) بأنها رواية معارضة للقاطع المتواتر ، فهي ساقطة .

( ثانياً ) أنه لم يقل عن أحد من القراء أن ابن عباس قرأ : مَثَلُ نُورٍ لِنُورٍ ، فكيف يقرأ صلى الله عليه وآله بما يعتقد أنه خطأ ، ويترك ما يعتقد أنه صواب ؟ ألا إنها كدنة معصوفة ! ولو أنهم نسوها لأبى من كتب ، لكان الأمر أهول ، لأنه روى في الشواد أن أنى من كتب قرأ : مَثَلُ نُورٍ لِنُورٍ . والذي يسعى أن يحمل عليه هذه الروايات أن أبا صلى الله عليه وآله . أراد تفسير النصير في القراءة المعروفة للتواتر وهي مثل نوره . فهي روايات عنه في التفسير لاقى القراءة ، بدليل أنه كان يقرأ : « مَثَلُ نُورٍ » .

### دفع عام عن ابن عباس

كل ما روى عن ابن عباس في تلك الشبهات ، يمكن دفعه دفعا عظيما بأن ابن عباس قد أخذ القرآن عن زيد بن ثابت وأنى من كتب ، وما كان في جمع المصاحف . وزيد بن ثابت كان في جمع أنى مكر أيضا . وكان كاتب الوحي ، وكان يكتب ما يكتب بأمر النبي ﷺ وإقراره . وابن عباس كان يعرف ذلك ويوقن به ، فحصل إحد أن يطلق لسانه بكلمة تحمل رائحة اعتراض على جمع القرآن ورسوم القرآن أو إلفا فكيف يأخذ عن زيد وابن عباس ثم يترض على جمعهما ورسومهما ؟

### الشبهة الثامنة :

يقولون : روى من هشام بن مروه عن أبيه أنه قال : سألت عائشة عن الحسن القرآن ، عن قوله تعالى : « إِنَّ هَذَا لَسَاجِرٌ » وعن قوله تعالى : « وَالْمُتَّقِينَ الصَّالَةِ وَالْمُؤْتُونَ آرْكَاتَ » وعن قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَصَالِبُثُونَ » . فقالت : يا بن أخي هذا من همل الكتاب ، قد أخطأوا في الكتاب . قال السيوطي في هذا الخبر : إسناده صحيح على شرط الشيخين . ويقولون أيضاً : روى عن أبي خلف مولى بني جُحج أنه دخل مع عبيد بن عمير عن عائشة فقيل : حدث أسألك من آية في كتاب الله ، كيف كان رسول الله ﷺ يقرأها ؟ قالت : آية آية ؟ قال : « الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا » أو « الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا آتَوْا » . قالت : أيهما أحب إليكم ؟ قلت : والذي نفسي بيده لم أجد أحب إلي من الدنيا جميعاً . قالت : أيهما ؟ قلت : « الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا آتَوْا » . فقال : أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرأها ، وكذلك أنزلت ، ولكن المصحف حرف .

ونجيب ( أولاً ) بأن هذه الروايات مهما يكن سندها صحيحاً ، فإنها مخالفة متواترة القاطع ، ومعارض القاطع ساقط مردود ، فلا يلتفت إليها ، ولا يعمل بها .  
( ثانياً ) أنه قد مر في كتاب إتحاف فضلاء البشر ، على أن لفظ « هذان » قد رسم في المصحف من غير ألف ولا ياء ، ليحتمل وجوه القراءات الأربع فيها ، كما شرحنا ذلك سابقاً في فوائد رسم المصحف . وإذن فلا يفتل أن يقال أخطأ الكتاب ، فإن الكتاب لم يكتب ألفاً ولا ياء . ولو كان هناك خطأ تعتقده عائشة ما كانت تنسبه للمكتوب ، بل كانت تنسبه لمن قرأ بتشديد ( إن ) وبالألف لهطاً في ( هـ ) . ولم يقل عن عائشة ولا عن غيرها عطفة من قرأ بها ذكر ، وكيف تذكر هذه القراءة وهي متواترة مجمع عليها ؟ بل هي قراءة الأكثر ، ولها وجه فصيح في العربية لا يحق على مثل عائشة ذلك هو إرام اللحن الألف في جميع حالاته . وجاء منه قول الشاعر العربي : -

« واهل لسمى ثم واهل واهل » يا ليت عيناها لنا وفاه

وموضع الخلخال من رحلاها نحن يرتضى به أناه

إب أناه وأب أناه قد سمى الخلد عابدها

فصعدت عن عائشة أن تذكر تلك قراءة ولو جاءها وحدها رسم المصحف

( ثالثاً ) أن منسب إلى عائشة رضى الله عنها من تحطئة رسم المصحف في قوله تعالى

« والمقيم الصلاة » بالياء ، مردود على ذكره أبو حنبل في المنع إذ يقول ما نصه :

« وذكر عن عائشة رضى الله عنها وعن أس بن عثمان أن كتبوا من حصاً كتاب

المصحف ولا يصح ذلك عنهم ، لأنها عريان فصيحون ، وقطع الصوت مشهور في لسان

العرب وهو باب واسع ذكر عليه شواهد سيوفه وغيره وقال أبو محشرى : « لا يستفت

إلى ما دعوا من وقوعه حصاً في خط المصحف . وربما انتفت إليه من مسطر في الكتاب

يريد كتاب سيوفه » ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص

من الاقتس ، وحتى فيه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في اتورا ومثهم في الإحبل

كانوا أمة همة في الأمة على الإسلام ، ودب المطاع عنه ، من أن تركوا في كتاب الله

نعم سداها من بعدهم ، وحرق يرفوه من بعدهم »

( رابعاً ) أن قراءة « ولصشون » بالواو ، لم يفعل عن عائشة أنها حصات من

قرأها ، ولم يفعل أنها كانت تقرأ بالياء دون الواو فلا يفعل أن يكون حصات من

كتب بالواو

( خامساً ) أن كلام عائشة في قوله تعالى : « يؤمنون ما آتوا » لا يفيد إسكار

هذه القراءة لاعتوائهم الخمع عليها بل قالت للسائل أيها أحب إليك ؟ ولا تحصر

للمسوع عن رسول الله ﷺ فيما قرأت هي به . من قلت : إياه مسوع ومعدل فقط .

وهذا لا ينافي أن القراءة الأخرى مسبوقة ومزلة كذلك . خصوصاً أنها متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم . أما قولها : ولكن المحاء حرف ، فكلمة حرف مأخوذة من الحرف بمعنى لقراءة واللمة ، والمعنى أن هذه القراءة المتواترة التي رسم بها مصحف ، لمة ووجه من حوه الأداء في القرآن الكريم . ولا يصح أن تكون كلمة حرف في حديث هائلة مأخوذة من التعريف الذي هو انطباعاً ، وإلا كان حديثاً ممارساً للمتواتر ، وهو مرض القاطع ساقط .

### لشبهة التاسعة :

يقولون : روى عن حارثة بن زيد بن ثابت أنه قال : « قالوا لزيد يا أبا سعيد « أوهمت » إنما هي « ثمانية أرواح من الصان اثنين <sup>(١)</sup> اثنين ، ومن العز اثنين اثنين ومن لابل اثنين اثنين ، ومن البقر اثنين اثنين » . فقال : لا . إن الله تعالى يقول « لَبِّلْ مِنْهُ زَوْجَيْنِ الْأُنثَى » هما روحان ، كل واحد منهما زوج . الذكر روح ، والأنثى روح » هـ . قال أعداء الإسلام : فهذه الرواية تدل على تصرف مسخ المصحف واختيارهم ما شاءوا في كتابة القرآن ورسمه .

والجواب أن كلام زيد هذا لا يدل على ما زعموا . إنما يدل على أنه بيان لوجه ما كتبه وفراه سماحاً واحداً عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تصرفاً وتشبيهاً من تلقاء نفسه . وكيف يتصور هذا من المصعانة في القرآن وهم مصرّب الأمتال في كمال صيغتهم وتشتمهم في الكتاب والسنة . لا سيما زيد بن ثابت ، وقد عرفت فيما سبق من هو زيد في حفظه

---

(١) يريدون آية سورة الأنعام وصيها : « ثَمَانِيَةَ أَرْوَاحٍ مِنَ الصَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْعَزِّ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ قُلْ » الخ .

وأما نسخة ودره وورعه ؟ ! وعرفت دستوره ، لدقيق الحكيم في كثافة الحذف والمصاحف !  
« فاني يؤفكون » ؟

لشبهة واحدة :

يقولون : إن مروان هو الذي قرأ « ملك يوم الدين » من سورة الفاتحة بحذف  
الألف من لفظ « مالك » . ويقولون : إنه حذفها من تلقاء نفسه دون أن يرد ذلك  
عن النبي ﷺ ، فضلاً عن أن يقرأ عنه قراءةً ولفظاً ، أو يصح كتابته ورسمها .  
والجواب أن هذا كذب قاصح ( أولاً ) لأنه ليس لهم عليه حجة ولا سند .

( ثانياً ) أن الدليل قاطع ، والتواتر نعم ، والإجماع معتد ، على أن النبي ﷺ قرأ لفظ  
« مالك يوم الدين » بإثبات الألف وحذفها ، وأحد أصحاحه عنه ذلك . فمن قرأ بها  
على وابن مسعود وأبي بن كعب . ومن قرأ بالهجر أي حذف الألف أبو الدرداء  
واس عباس وابن عمر . ومن قرأ بالبداء أي بإثبات الألف أو بكر وعمر وعثمان رضي الله  
عنه جميعهم . وهؤلاء كلهم كانوا قبل أن يكون مروان ، وقبل أن يولد مروان ،  
وقبل أن يقرأ مروان . وفصاري ما في الأمر أن مروان اتفق أن روايته كانت القصر  
فقط . وذلك لا يصرفنا في شيء . كما اتفق أن رواية عمر بن عبد العزيز كانت المد فقط .  
( ثالثاً ) أن كلمة « إمالك » رسمت في المصحف انتهى هكذا « ملك »  
كما سبق .

مخالصة الدفاع :

والمخالصة أن تلك الشبهة وما فيها ، مدعومة بالصواب والمطابقة ، ولأدلة الصحة ،  
على أن جميع القرآن الذي أمره الله وأمر بإثباته ورسمه ، ولم يسمعه بأسح في تلاوته ، وهو  
هذا الذي حواه مصحف عثمان بين الدفتين ، لم يتقص منه شيء ، ولم يرد فيه شيء ، بل



إن ترتيبه ونظمه كلاهما ثابت على ما نظمه الله سبحانه وتعالى ورتبه رسوله ﷺ من أى وسور . لم يقدم من ذلك مؤخر ، ولم يؤخر منه مقدم . وقد صيغت الأمة عن النبي ﷺ ترتيب أى كل سورة ومواقعها ، كما صيغت منه نفس القراءات ودات التلاوة على ما سبق وما سيحى . فى الكلام على القراءات إن شاء الله .

فدلاحظ دائماً فى الرد على أمثلى تلك الشبهات أمران : (أولهما) تلك القاعدة الذهبية التى وضعها العلماء : وهى أن خبر الآحاد إذا عارض القاطع سقط عن درجة الاعتبار ، وصرب به عرض الحائط ، مهما تسكن درجة إساده من الصحة .  
(ثانيهما) خطأ الدفاع الذى أقامه فى البحث الثامن حصناً حصيماً دون النيل من الصحابة وآثارهم سوء الحفظ أو عدم التثبت والتحرى ، خصوصاً فى كتاب الله وصلة رسوله ﷺ

### شبهة على التزام الرسم العثمانى فى هذا العصر :

يقولون . إن كثيراً من المتعلمين لا يحفظون لقرآن ولا يحسمون قراءته فى المصحف ، لعدم معرفتهم الرسم العثمانى . فعادوا بتقيد بهذا الرسم ولا تسكتب انصاحف اليوم بمصطلح الكتابة للمعروف ، تسميلاً على انباشته ، ونسيباً على الناس ؟  
والجواب (أولاً) أن العلماء آراء فى ذلك بالحوار ، بل قال بعضهم - وهو العز ابن عبد السلام - يوجب كتابة المصحف للعامة بمصطلح كتابتهم الحديث خشية الانتباس كما يجب كتابته بالرسم العثمانى بحافظة على هذا التراث العريق . وقد سبق شرح آراء العلماء قريباً . وما هى ملك بعيد .

(ثانياً) أن فى الرسم العثمانى مزايا وفوائد ذكرها سابقاً .

(ثالثاً) أن مذهب الجمهور قديم على أدلة متوافرة على وجوب التزام هذا الرسم عندهم . وقد تقدمت تلك الأدلة أيضاً .

( رابعاً ) أن مصطلح الخط والكتابة في عصرنا ، عرصة للتعبير والتعديل ومن  
المبالغة في قداسة القرآن حمايته من للتعبير والتعديل في رسمه

( خامساً ) أن إحصاء المصحف لمصطلحات الخط الحديثة ، ربما يجرُّ إلى فتنة ،  
أشبه بالفتنة التي حدثت أيام عثمان ، وجملته على أن يجمع القرآن فرما يقول بعض الناس  
لبعض ، أو بعض الشعوب ببعض ، عند اختلاف قواعدهم في رسم المصحف : رسمي خيرٌ  
من رسمك ، أو مصحفي خيرٌ من مصحفك ، أو رسمي صواب ورسمك خطأ وقد يجر  
ذلك إلى أن يؤثَّم بعضهم بعضاً ، أو يقتل بعضهم بعضاً . ومن انفرَّ أن درء المفسد مقدم  
على حل المصالح

( سادساً ) أن الرسم العثماني أشبه بالرسم العام الذي يجمع الأمة على كتابة كتاب  
رسمها في سائر الأعصار والأمصا ، كاللغة العربية ، فلوها اللسان العام الذي يجمع  
الأمة على قراءة كتاب رسمها في سائر الأعصار والأمصا وما يكون إنما أن  
نرط في أمر هذا شأنه يجمع الشتات ، ونظم لأمة في سلك واحد لا فرق بين ما من  
وحاصر وآت ١ .

( سابعاً ) أنه يمكن تسهيل القراءة على الناس بإداعة القرآن كثيراً إداعة مصبولة  
دقيقة ، وبإداعة من التجويد في المدارس وفي أوساط المتعلمين ، وأخيراً يمكن  
- كما قالت محمّلة الأزر - أن ينبّه في ذيل كل صفحة من صفحات المصحف على  
ما يكون فيها من الكلمات المخالفة للرسم المعروف ، والاصطلاح لألوف . لاسيما أن  
رسم المصاحف العثمانية لا يخالف قواعدها في الخط والإسلاء إلا قليلاً ، وفي كلمات  
معدودة : أصب إلى ذلك أن الفرق بين الرسمين لا يوقع انفارٍ يقظ في نفس عند تأمله  
وإمعانه غالباً .

ولقد مرت على الأمة أحيال وقرون ، وما شعرت بمصاحفة في الترامها ، الرسم العثماني .  
على أن الموعول عليه أولا وقبل كل شيء هو التلقى من صدور الرجال ، والتلقى يذهب  
المعوص من الرسم كأنما ما كان . وليس بعد العيان بيان .

## د - المصاحف تفصيلا

لعلك لم تنس ما ذكرناه في المباحث السابقة من نشأة المصاحف العثمانية وكتابتها  
ورسمها ، وتحريق عثمان ماسواها من المصاحف الفردية التي كانت لبعض الصحابة ، والتي  
كان يخالف بعضها بعضا ، على مقدار ما وصل إليه علم الواحد منهم بأحرف القراءات ،  
وعما نسخ وما لم تنسخ تلاوته في العرصة الأخيرة . ولأجل الإحاطة بما يتصل بالمصاحف  
العثمانية ، يجدر بنا أن نتحدث عما يأتي :

### الحروف السبعة في المصاحف العثمانية :

المصاحف التي نسخها عثمان رضي الله عنه كان مجموعها مشتملا على الحروف السبعة  
التي نزل عليها القرآن ، كما بينا ذلك أوفى بيان تحت عنوان خاص في مبحث نزول  
القرآن على سبعة أحرف ، فارجع إليه إن شئت . ويؤيده هنا أن هذه المصاحف نسخت من  
الصحف التي جمعت على عهد أبي بكر وكانت عند حفصة .

ومن المتفق عليه أن هذه الصحف كتب فيها القرآن بحروفه السبعة التي نزل عليها  
ولم يرد أن عثمان أمرهم أن يتركوا ستة أحرف منها وبسقوا حرفا واحدا كما ذهب إلى ذلك  
بعض العلماء . فلنستمسك بالمتفق عليه حتى يثبت لدينا ما ينفعه . فما يكون لنا أن نترك  
اليقين للشك . ثم إن دفع العتمة ، وتوحيد الكلمة بين المسلمين لا يتوقف على ترك ستة

أحرف وإبقاء حرف واحد من الأحرف التي نزل عليها القرآن، بل إن الذي يدفع الفتنة ويوحّد السكينة، هو إقرار التنازل كما نزل، من تعدّد حروفه إلى سبعة، راحة هذه الأمة غاية ما يجب في هذا الباب، هو إحاطة المسلمين علماً بهذه الحروف، حتى يتركوا ما عداها، ولا يعتمدوا سواها؛ وحتى يعتمد كل منهم صواب قراءة غيره مادامت قراءته لا تعداها. ومن هنا تجمع كلهم وتنطفيق فتهم، على تعطى ما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم حين اشتعلت مثل هذه الفتنة بين بعض الصحابة، فالحكم بأن كلاً من المختصين على صواب في قراءته وأنها هكذا أنزلت وما كان لعناب وحمود الصحابة وجميع الأمة أن يتركوا هدى الرسول في هذا « وإن خير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم »

بقي أن نذكر معنى قول عثمان للرهط القرشيين الثلاثة « إذا اختلفتم أنتم وردت في شيء من القرآن، فاكثروا بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا » فقد فهم بعضهم من هذه الجملة أن عثمان أمر أن يتركوا ستة أحرف، ويقتصروا في نسخ المصاحف على حرف قريش ولغتهم وحدهم. وهذا مردود بوجه :

(أحدها) أن اللفظ لا يؤدى ذلك المعنى.

(ثانيها) أن القرآن فيه كلمات كثيرة من لغات قبائل أخرى وليست من لغة قريش. انظر في ذلك ما قدمناه في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف أيضاً، وما ذكره السيوطي في الإتيان في النوع السابع والثلاثين.

(ثالثها) أن المصاحف العثمانية كانت مشتملة على الأحرف السبعة كما بينا آنفاً.

(رابعها) أنه لم يقل إلينا نقلاً صحيحاً مريحاً أنهم تركوا من الأحرف السبعة شيئاً

«صلا عن أن يتركوها ما عدا واحدا، ولو فعلوا ذلك لقل متواتراً، لأن هذا الأمر الجليل، مما تتوافر الدواعي على نقله وبواتره. وقصارى ما وصلنا من بعض الطرق أنهم اختلفوا في كلمة «التابوت» في قوله تعالى من سورة البقرة: «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ» الخ أبكتوها بالناء المفتوحة، أم بالناء، فأمرهم عثمان أن يكتسوها بالناء المفتوحة، لأنها كذلك في لغة قريش

وهذا يوضح لنا أن عثمان في كلمته تلك، إنما يريد الاختلاف في الكتابة والرسم لا في الألفاظ والألفاظ والحروف أو يريد أن لغة قريش متوافر فيها التواتر أكثر من غيرها فليأخذوا بها عند الاختلاف لهذا المرض وحده، وهو التواتر الذي شرطوه في دستور كتاباتهم وجمعهم. أصب إلى ذلك أن المصاحف نقلت من الصحف التي جمع أبو بكر رضى الله عنه القرآن فيها، والتي ظهرت بالتواتر وإجماع الأمة كما قدمنا. فهل يرضى عثمان ويوافقه الصحابة جميعاً على أن يحرقوا هذا الإجماع، ويعتوا بذلك التواتر، في أمر جعل الله تعدد الوجوه والحروف فيه رحمة بالأمة إلى هذا اليوم؟ ذلك هم بعيد.

#### الصحف والمصاحف

قلنا: إن أما نكر رضى الله عنه جمع القرآن في صحب، وإن عثمان جمعه وسحب في مصاحف. والفرق بين الصحف والمصاحف في الأصل أن الصحف جمع صحيفة، وهي القطعة من الورق أو الخلد يكتب فيها.

أما للمصحب فهو بزيادة اسم للمعول من أصفه أى جمع فيه الصحف. فكأن المصحب ملحوظ في معناه اللعوى دفته، وهما جاباه أو حلاه اللذان يتحدان حامماً لأوراقه، صائفاً لمصحفه، حافظاً لها.

ولا يلحظ هذا في معنى المصحف ، وإن كان يصح استعمال كلا اللهدين في كلا المعنيين استعمالاً متوسماً فيه .

هذا في أصل اللفظ ، أما في الاصطلاح فالمراد بالمصحف الأوراق المخرجة التي جمع فيها القرآن في عهد أبي بكر ، وكانت سوراً مرتبة آياتها فقط ؛ كل سورة على حدة ، لكن لم يترتب بعضها إثر بعض . والمراد بالمصحف اصطلاحاً الأوراق التي جمع فيها القرآن مع ترتيب آياته وسوره جميعاً على الوجه الذي أجمعت عليه الأمة أيام عثمان رضي الله عنه . وقد أطلق بعضهم لفظ المصحف على مصحف أبي بكر ، وتوجيهه لا يخلو .

ولقد بقيت المصحف عند أبي بكر حتى حضرته الوفاة فدفعها إلى عمر لأنه وصي له بالعهد ، ولما مات عمر انتقلت إلى ابنه أم المؤمنين حفصة بوصية من عمر ، ثم طلبها عثمان ونسخ المصحف منها وردها إليها وبقيت عنده حتى توفيت رضي الله عنها .

وقد حضر جنازتها مروان والي المدينة وقتئذ ورغب إلى أخيها عبد الله بن عمر أن يبعث إليه بالمصحف ، فبعتها إليه ، وكان مروان قد طلبها من السيدة حفصة من قبل فأبى رضي الله عنها . أخرج ابن أبي داود في رواية أن مروان أحرق هذه المصحف ؟ وفي رواية أنه غلبها ، وفي رواية شقها . ولا مانع من الجمع بين هذه الروايات الثلاث بأنه غلبها أولاً ، ثم شققها ثانياً ، ثم أحرقها أخيراً ، مبالغة في التكريم والمحو ، كما روى أنه قال : إني فعلت هذا لأني خشيت أن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه المصحف مرتب ، أي يظن أن فيها ما يحذف لمصاحف ، فإنها كانت صفحة مستورة ، لا تأخذ شكل المصحف المجموعة المعلومه .

#### عدد لمصاحف

احتفظوا في عدد المصاحف التي استنسخها عثمان رضي الله عنه ، فعصفت ابن عاشر

أشها ستة : المسكي ، والشامي ، والمصري ، والكوفي ، والمدني العام الذي سيره عثمان رضي الله عنه من محل سجده إلى مقراء ، والمدني الخاص به الذي حسه لنفسه وهو المسمى بالإمام وقال صاحب رد الفراء : لما جمع عثمان القرآن في مصحف سماه الإمام وسح منه مصاحف فأبعد منها مصحفاً إلى مكة ، ومصحفاً إلى الكوفة ، ومصحفاً إلى البصرة ، ومصحفاً إلى انشام ، وحسن مصحفاً بالمدينة ، وهذا القول كسابقه في أشهره ، وذهب السيوطي وابن حجر إلى أنها خمسة ولعنهم ، وإذا بالخمسة ماعدا المصحف الإمام فيكون الخلاف له عليها بينه وبين سابقيه .

وقيل إنها ثمانية ، خمسة متفق عليها وهي : كوفي ، ومصري ، والشامي ، والمدني العام والمدني الخاص ، وثلاثة مختلف فيها وهي : مسكي ، ومصحف البحرين ، ومصحف اليمن .

وقيل إن عثمان رضي الله عنه أودع إلى مصر مصحفاً .  
وعمل القول أن عددها ستة ، هو أولى لأقوال القبول والمهور على كل حال أن عثمان رضي الله عنه ، قد استنسخ عدداً من المصاحف بغير بحاجة الأمة وجمع كلماتها وإطفاها فتنتها . ولا تتعلق شئ من العدد كبير عرص ، فيحتجوا في هذا التعمين ما وسعهم أدلة ذلك الاختلاف . والله تعالى أعلم بالحقيقة

### كيف أنفذ عثمان المصاحف العثمانية ؟

كان الاعتماد في نقل القرآن - ولا يزال - على التلقي من صدور الرجال ثقة عن ثقة وإماماً عن إمام إلى النبي ﷺ . لذلك احتار عثمان خفاطاً بشقهم وأنفدم إلى الأقطار الإسلامية واعتبر هذه المصاحف أصولاً تواني مباحة في الأمر ، وتوثيقاً للقرآن ولجمع كلمة المسلمين . فكان يرسل إلى كل إقليم مصحفه مع من يوافق قراءته في الأكثر الأغلب . وروى أن عثمان رضي الله عنه أمر يزيد بن ثابت أن يقرئ بالمدني ، وبعث عبد الله بن السائب

مع الملكى ، وبغيره من شهاب مع الشامى ، وأما عند رحى سلى مع الكوفى ، وعامر  
 ابن عبد القيس مع مصرى ، ثم نقلت من عن صحة فقرأ أهل كل مصر على  
 مصحفهم تنقياً عن تصحاحه للذين يلقوه من ثم اسى عليه السلام فقاموا فى ذلك مقام الصحابة  
 الذين يلقوه من ثم اسى عليه السلام ثم تفرع قوم للقراءة والأخذ والوسط ، حتى صاروا فى  
 هذا السبأ أئمة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم ، وأجمع أهل بلادهم على بلقي قرايمهم واعتماد  
 روايتهم ، ومن هذا سبب القراءة إليهم ، وأجمعت أئمة - وهى معصومة من الخطأ فى  
 إجماعها - على ما فى هذه المصاحف ، وعلى ترك كل ما جاءها من زيادة ونقص ، وبذلك ،  
 لأنه لم يثبت عندهم ثبوتاً متواتراً أنه من القرآن

### أين المصحف العثمانية الآن ؟

وبين أن السناد دليل قاطع على وجود المصحف العثمانية الآن فضلاً عن تعيين أماكنها  
 وقصارى ما عمدها أحيراً أن من الحررى رأى فى زمانه مصحف أهل الشام ، ورأى  
 فى مصر مصحفاً أيضاً

أما المصحف الأثرية التى محتوياتها - اثنتى المئتين والآثار فى مصر ويقال عنها إنها  
 مصاحف عثمانية فيما شك كثير فى صحته هذه النسبة إلى عثمان رضى الله عنه ، لأن بها  
 زركشة ونقوشاً موصوفة كعلامات تفصل بين السور ، وبين أعشار القرآن ، ومعلوم أن  
 المصحف العثمانية كانت حاية من كل هذا ، ومن النقط والشكل أيضاً كما عرفت

نعم ، المصحف المحفوظ فى حراة الآثار بالمسجد الحسينى والمسود إلى عثمان رضى الله  
 عنه ، مكتوب بالخط الكوفى القديم ، مع تحوير حروفه ووسمة حجمه جداً ، ومنه يوافق  
 رسم المصحف الذى أو لشمى حيث رسم فيه كلمة « من يزداد » من سورة المائدة بالدين اثنين



مع فك الإدغام ، وهي فيه هذا الرسم فأكبر الظن أن هذا المصحف منقول من المصاحف العثمانية على رسم بعضها . وكذلك المصحف المحفوظ بتلك الخزانة ويقال إن على بر أنى طالب رضى الله عنه كتبه بخطه ، يلاحظ فيه أنه مكتوب بذلك الخط الكوفي القديم . بيد أنه أصغر حجماً ، وخطه أقل تحويلاً من سابقه ، ورسمه يوافق غير مدنى . والثامى من المصاحف العثمانية ، حيث رسمت فيه الكلمة السابعة « من » يرد « » بدال واحدة مع الإدغام ، وهي في غيرها كذلك من الخزانة أن تكون كائنه عليها ؛ أو تكون قد أمر مكثاته في الكوفة .

ثم إن عدم بقاء المصاحف العثمانية فاطلة لا يصرنا شيئاً مادام العول عليه هو العقل والنطق ثقة عن ثقة ، وإماماً عن إمام ، إلى النبي ﷺ وذلك متواتر مستفيض على أكل وجه في القرآن حتى الآن

على أن المصاحف العثمانية سحبت على عرارها الآلاف المولدة في كل عصر وعصر ، مع المحافظة على الرسم العثمانى ، كما سيحى . إن شاء الله ، فاصبر و ما صدرك إلا بالله .

#### المصاحف في دور النجود والتحصين :

كانت المصاحف العثمانية أشبه بمدى من السماء ، وأصاب أرحماً حصاة صالحة ، ولكنها طامئة معطشة . فما كاد يصل إليها الماء حتى اهتزت ورددت وأمنت من كل روج هيج . كذلك المصاحف الشريفة ، ما كاد عثمان يرسلها إلى الأفاق الإسلامية حتى أقبلت عليها الأمة من كل صوب وحديد ، وحتى اجتمعت عليها الكلمة في الشرق والغرب ، وحتى سحبت على عرارها آلاف مولدة من المصاحف المقدسة في كل جيل وقبيل

وبما بلغت النظر أن يد التحويد والفضل وانتجين أحدث تقاويل المصاحف على ألوان شتى وضروب متنوعة ، فهناك تحيينات مادية أو شكلية ترجع إلى النسخ والطبع والحجم والورق والتعبيد والتذهيب ونحو ذلك وهذه لامتينا كثيرا ، لأن أمرها هين ، وإن كان فيها بعض التيسير أو التشويق إلى القرآن الكريم . وهناك تحيينات معنوية أو حورية ترجع إلى تقريب نطق الحروف وتغيير الكلمات وتحقيق المروق بين المقشبات عن طريق الإجمام والشكل ونحوهما . وفي هذه اسوق الحديث .

### الإجمام :

إجمام الكتاب : نقطه . قال في القاموس : « أَعْجَمَ فَلَانَ كَلَامًا : دَهَتْهُ إِلَى الْعُجْمَةِ ، وَالْمَكْتَابَ : نَقَطَهُ كَعَجْمَةٍ وَعُجْمَةٍ (أى تحيين الجيم وتصغيرها) » . والمعروف أن المصحف العثماني لم يكن منقوطاً ، وذلك للمعنى الذى أسفناه ، وهو فناء الكلمة محتملة لأن نقرأ بكل ما يمكن من وحوه القراءات فيها . بيد أن المؤرخين يختلفون ، فمنهم من يرى أن الإجمام كان معروفاً قبل الإسلام ولكن بركوه عمداً في المصاحف للمعنى السابق . ومنهم من يرى أن النقط لم يعرف إلا من بعد على يد أنى الأسود الدؤلى .

وسواء أكان هذا أم داك فإن إجمام المصاحف لم يحدث على المشهور إلا فى عهد عبد الملك بن مروان إذ رأى أن رقعة الإسلام قد اتسعت ، واحتلظت لعرب بالمعجم ، وكادت المعجمة تمس سلامة اللغة ، وبدأ الابس والإشكال فى قراءة المصاحف 'يلج' الناس ، حتى ليشق على المواد منهم أن يهتدوا إلى التمييز بين حروف المصحف وكلامه . وهى غير معجبة . هناك رأى يناقب نظره أن يتقدم للإيقاد ، وأمر الحاج أن يعنى بهذا الأمر الجلل ، وندب الحاج - طاعة لأمر المؤمنين - رحاين يماجان هذا الشكل ، مما نصر بن عاصم الليثى ، ويحيى بن يعمر العدوانى . وكلاهما كتب قدير على ما ندب له ،

إذ هما بين العلم والعمل، والصالح والورع، والحكمة بأصول اللغة ووجوه قراءة القرآن وقد اشتركا أيضاً في التلمذة والأخذ عن أبي الأسود الدؤلي.

وبرحم الله هذين الشيخين، فقد جمعا في هذه المحاولة، وأجمعيا المصحف الشريف لأول مرة، ونقطا جميع حروفه المتشابهة، والتمروا ألا تزيد النقط في أي حرف على ثلاث. وشاع ذلك في الناس بعد، فشكل له أثره العظيم في إزالة الإشكال واللبس عن المصحف الشريف.

وقيل إن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي، وإن ابن سيرين كان له مصحف منقوط، نقطه يحيى بن يعمر. ويمكن التوفيق بين هذه الأقوال بأن أبا الأسود أول من نقط المصحف ولكن بصفة فردية، ثم تبعه ابن سيرين، وأن عبد الملك أول من نقط المصحف، ولكن بصفة رسمية عامة، ذاعت وشاعت بين الناس، دفعاً للباس والإشكال عنهم في قراءة القرآن.

### شكل المصاحف:

شكل الكتاب في اللغة ردهم لإعجابه وقد عرفت أن الإعجام هو النقط قال صاحب القاموس مادة: «و» والكتاب (أي وشكل الكتاب: أعجمه، كأشكته كانه أزال عنه الإشكال) «هـ» ثم شاع استعمال الشكل في خصوص ما يعرض للحروف من حركة أو سكون والمناسبة بين المعنيين ظاهرة، لأن في كل منهما إزالة لإشكال الحرف ودفعاً للباس عنه.

واسبق المؤرخون على أن العرب في عهدهم الأول، لم يكونوا يعرفون شكل الحروف والكلمات فضلاً عن أن يشكلوها. ذلك لأن سلامة لغتهم، وصعاب سلياتهم ودلالة أسنتهم

كل أولئك كان نصيبهم عن الشكل . ولكن حين دخلت لإسلام أمم جديدة ؛ منهم  
 منهم الذي لا يعرفون العربية ، بدأت لعممة تخيف على لغة القرآن . بل قبل أن  
 أبا الأسود الدؤلي سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى : « اللَّهُ تَعَالَى » من « مُشْرِكِينَ »  
 وَرَسُولُهُ . فقرأها بحرف الهمزة من كلمة « رسوله » . فأدرك هذا اللحن الشيخ أبو الأسود  
 وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله . ثم ذهب إلى رباد وإلى لبصرة وقال له وقد  
 أحبتك إلي مسألت . وكان رباد قد سأله أن يجعل للهمزة علامات يعرفون بها كتب  
 الله ، فتباطأ في الجواب حتى راعه هذا الحادث ، وهما جدد جدده ، وانتهى به اجتهاده إلى  
 أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، وحمل علامة الكسرة نقطة أسفله ، وجعل علامة  
 الضمة نقطة بين أحزاء الحرف ، وحمل علامة الكون نقطتين

طعن الناس ينهجون منهجه ، ثم امتد الزمان بهم فبدوا يريدون ويستكرون ،  
 حتى جمعوا للحرف المشدد علامة كالقوس ، ولألف الوصل جرّة فوقها أو تحته . أو وساماً ،  
 على حسب ما قبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة . ودمت الخلل على هذا حتى جاء عبد الملك  
 ابن مروان ، فرأى بذات بصيرته أن يميز ذوات الحروف من بعضها ، وأن يتخذ سبيلاً إلى  
 ذلك التمييز بالإلحاح والمنطق ، على نحو ما تقدم تحت العنوان السابق . وهذا اضطراً أن  
 يستبدل بالشكل الأول الذي هو المنطق ، شكلاً جديداً هو ما نعرفه اليوم من علامات  
 الفتحة والكسرة والضمة والسكون . والذي اضطره إلى هذا الاستبدال ، أنه لو أتى  
 بالعلامات الأولى على ما هي عليه نقضاً ، ثم جاءت هذه الأخرى نقضاً كذلك للشاهمة واشتبه  
 الأمر فميز بين الطائفتين بهذه الطريقة . وربما فعل .

### حكم نطق المصحف وشكله

كان المعاصرون في الصدر الأول يرون كراهة نطق المصحف وشكله . مبهمةً منهم في  
 الحفاضة على أداء القرآن كما رسمه المصحف ، وحوفاً من أن يؤدي ذلك إلى التعبير فيه .

ومن ذلك ما روى عن ابن مسعود أنه قال : حرّروا القرآن ولا تحلّطوه شيء . وما روى عن ابن سيرين أنه كره اللفظ والعوانح وانلواهم إلى غير ذلك . ولكن الزمان تعيّر - كما علمت - فاضطر المفسرون إلى إجماع المصحف وشكله بنفس ذلك السبب أي لتجديده على أداء القرآن كما رسمه المصحف ، وخوفاً من أن يؤدي تجرده من النقط والشكل إلى التغيير فيه .

فمقول حينئذ أن يزول القول بكراهة ذبنت الإجماع والشكل ، ويحلّ محلّه القول بوجوب أو باستحباب الإجماع والشكل . لنا هو مقرر من أن الحكم بدور مع علته وجوداً وعدمًا قال النووي في كتابه التبيين مانعه : قال العلماء : ويستحب نقط المصحف وشكله ، فإنه صيانة من التحسين فيه . وأما كراهة الشعبي والنخعي النقط ، فإدعاء كراهه في ذلك الزمان خوفاً من التغيير فيه . وقد أمن ذلك اليوم فلا يمنع من ذلك لكونه محدثاً ، فإنه من المحدثات الحسنه ، فلا يمنع منه كمنظومه مثل تصنيف العلم وبناء المدارس والرباطات وغير ذلك . والله أعلم اهـ .

### تجزئة القرآن :

كانت المصاحف العثمانية مجردة من التجزئة التي بدكرها ، كما كانت مجردة من النقط والشكل . ولما امتدّ الرمان بالناس جعلوا يفتنون في المصاحف وتجزئتها عدة تجزئات ، مختلفة الاعتبار . فمنهم من قسم القرآن ثلاثين قسماً ، وأطلقوا على كل قسم منها اسم الطر . بحيث لا يحظر بالبال عند الإطلاق غيره ، حتى إذا قال قائل : قرأت جزءاً من القرآن ، تبادر إلى الذهن أنه قرأ جزءاً من الثلاثين جزءاً التي قسموا المصحف إليها . وحرى على ذلك أصحاب الرنعات ، إذ طمسوا كل جزء نسخة مستقلة ، وعموع السجج الجمة مع القرآن كله بسموه ( رنعة ) ويوجد من هذا القليل أحرار مستقلة بالطبع أيدي صغار التلاميذ في المدارس وغيرهم

ومن الناس مَنْ قَسَمُوا الخُزْمَ إلى حَرْبَيْنِ، وَمَنْ قَسَمُوا الحَرْبَ إلى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءَ سَمَوْا كُلَّ وَاحِدٍ مَهَا رُغْمًا .

ومن الناس مَنْ وَصَعُوا كَلِمَةً جَمِيسًا ، عَمْدَ سَهَابَةٍ كُلِّ حَمْسِ آيَاتٍ مِنَ السُّورَةِ ، وَكَلِمَةً عَشْرَ عَمْدَ سَهَابَةٍ كُلِّ عَشْرِ آيَاتٍ مِنْهَا ، فَإِذَا انْقَضَتْ حَمْسٌ أُخْرَى بَعْدَ الْعَشْرِ أَعَادُوا كَلِمَةً حَمْسًا ، فَإِذَا صَارَتْ هَذِهِ ، خَمْسَ عَشْرًا أَعَادُوا كَلِمَةً عَشْرًا وَهَكَذَا دَوَّالِيكَ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ . وَبَعْضُهُمْ يَكْتُبُ فِي مَوْصِعِ الْأَحْمَاسِ رَأْسَ الْحَاءِ بِدَلًّا مِنْ كَلِمَةٍ حَمْسٍ ، وَيَكْتُبُ فِي مَوْصِعِ الْأَعْشَارِ رَأْسَ الْعَيْنِ بِدَلًّا مِنْ كَلِمَةٍ عَشْرٍ . وَبَعْضُ النَّاسِ يَرْمِزُ إِلَى رُءُوسِ لَأَيِّ رَقْمٍ عَدَدَهَا مِنَ السُّورَةِ أَوْ مِنْ عِبَرِ رَقْمٍ وَبَعْضُهُمْ يَكْتُبُ فَوَاتِحَ السُّورِ كَعَمَوانَ نَبُوَّةٍ فِيهِ دَاسِمُ السُّورَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الْمَلَكِيَّةِ وَالْمَدْيِيَّةِ إِلَى عِبَرِ ذَلِكَ

وَاللَّعَلَّاءُ فِي ذَلِكَ كَلَامٌ طَوِيلٌ ، بَيْنَ الْخَوَارِ مَكْرَاهَةٍ وَالْخَوَارِ مَلَا كَرَاهَةٍ ، وَلَكِنَّ الْخَطْبَ سَهْلٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، مَا دَامَ الْعَرَضُ هُوَ التَّنْصِيرُ وَالنَّسْبُ ، وَمَا دَامَ الْأَمْرُ عَيْدًا عَنِ الْمَلَسِ وَالتَّرِيدِ وَالذَّحِيلِ « وَكَفَى اللَّهُ قَصْدُ السَّبِيلِ » .

#### احترام المصحف :

لَيْسَ هَذَا بِرَأْيٍ وَسَمْعٍ ، كِتَابٌ أُحِيطَ سَهَابَةٌ مِنَ الْإِحْلَالِ وَالتَّمْدِيسِ ، كَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حَتَّى بَعْدَ وَصْفِهِ الْحَقُّ حُلْ شَأْنُهُ أَنَّهُ كِتَابٌ مَكْدُونٌ ، وَحُكْمُ بَأَنَّهُ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ، وَأَقْسَمَ عَلَى ذَلِكَ إِذْ يَقُولُ : « فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْاَفِعِ الْقُرْآنِ وَإِنَّهُ لَفَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ » إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْدُونٍ . لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

وَحَتَّى سَمَى الرَّسُولُ ﷺ عَنْ السَّفَرِ « إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ ، إِذَا حَيفَ وَقَوَعَ الْمَصْحَفُ فِي أَيْدِيهِمْ . وَالْخَدِثُ مَرَّوِيٌّ فِي الْمَصْحُوحِينَ .

وحتى أفتى العلماء بكفر من رمى به في فادورة ، ومحرم من باعه لسكاف ولو دميًا ،  
وقالوا بوجوب الطهارة لسه وجهه ، وكذلك ما يتصل به من حريطة وغلاف وصندوق  
على المصحف .

واستعملوا تسمين كتابته ، وإبصارها ، وتحقيق حروفها .

قال النووي : ويستحب أن يقوم المصحف إذا قُرئ به عليه ، لأن القيام يستحب  
للعلماء والأخيار ، فالمصحف أولى اهـ .

ورقنا الله الأدب معه ومع كتابه ، ومع كافة من اصطفاهم من عباده ، آمين .

## المبحث الحادى عشر

فى القراءات ، والقراء والشهات التى أثبتت فى هذا المقام

### ١ - القراءات

القراءات جمع قراءة ، وهى فى اللغة مصدر ميماعى لقراء . وفى الاصطلاح مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مجامعاً به عبره فى النطق به القرآن الكريم ، مع اتفاق الروايات والطرق عنه ، سواء أ كانت هذه المخالفة فى نطق الحروف أم فى نطق هيشانها . قال السيوطى عند كلامه على تقسيم الإسماع إلى عدل ونزل مانعه : ومما يشبه هذه التقسيم الذى لأهل الحديث ، تقسيم القراء أحوال الإسناد إلى قرءة ورواية وطريق ووجه . فاختلاف إن كان لأحد الأئمة السبعة أو العشرة أو محوهم ؛ واتفقت عليه الروايات والطرق عنه ، فهو قراءة . وإن كان للراوى عنه ، ورواية ، أو لمن بعده ففاضلاً ، فطريق . أو لا على هذه الصفة مما هو راجع إلى تمييز القارىء فيه ، فوجه . ١ .

وفى متعدد مترين لأن الجازى مانعه : « قراءات علم بكيفيات أداء كلمات القرآن » واختلافها بقرءو الباقلة<sup>(١)</sup> ... ومقرىء : العالم بها رواها مشهورة ، فهو حفظ لتفسير مثلاً . ليس له أن يقرىء بها فيه إن لم يشافه من شؤفة به مسلسل ، لأن فى القراءات أشياء لا تحكم إلا بالجماع والمشاهدة . والقارىء المبتدىء من شرع فى الأفراد إلى أن يفرد ثلاثاً من القراءات . والمتهى من نقل من قراءات أكثرها وأشهرها ١ .

شاة علم القراءات :

قله غير مرة : إن الممول عليه فى القرآن انكريم ، هو التلقى والأخذ ، فقة

(١) قال فى القاموس : « الباقلة : صد الفاطين »



عن ثقة ، وإماماً عن إمام إلى الذي عليه السلام ، وإن المصاحف لم تكرر ولن تكرر هي المدة في هذا الباب . إنما هي مرجع جامع للمسلمين ، على كتاب دينهم ، ولكن في حدود ما تدل عليه وتعييه ، دون ما لا تدل عليه ولا تعييه . وقد عرفت أن المصاحف لم تكن منقولة ولا مشكولة ، وأن صورة الكلمة فيها كانت لكل ما يمكن من وجوه القراءات المختلفة ، وإذا لم تحتملها كتبت الكلمة بأحد الوجوه في مصحف ، ثم كتبت في مصحف آخر بوجه آخر وهم جراً . فلا غرو أن كان التعويل على الرواية والطلاق هو المدة في باب القراءة والقرآن .

وقلنا : إن عثمان رضي الله عنه حين بعث المصاحف إلى الأفاق أرسل مع كل مصحف من يوافق قراءته في الأكثر الأعظم ، وهذه القراءة قد تحالف الذائع الشائع في القطر الآخر من طريق المبعوث الآخر بالمصنف الآخر .

ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم قد اختلف أخذهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنهم من أخذ القرآن عنه بحرف واحد ، ومنهم من أخذه عنه بحرفين ، ومنهم من زاد . ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذه الحال ، فاختلف سبب ذلك أخذ التابعين منهم ، وأخذ تابع التابعين من التابعين ، وهم جراً حتى وصل الأمر على هذا النحو إلى الأئمة القراء المشهورين الذين تخصصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها ويؤمنون بها وينشرونها كاباق . هذا منشأ علم القراءات واختلافها ، وإن كان الاختلاف يرجع في الواقع إلى أمور يسيرة بالنسبة إلى مواضع الاتفاق الكثيرة كما هو معلوم : لكنه - على كل حال - اختلاف في حدود السبعة الأحرف التي رل عليها القرآن كلها من عند الله ، لا من عند الرسول ولا أحد من القراء أو غيرهم .

ولنوزي كتاب محطوط بدار الكتب في مصر ، وصمه شرحاً لطيفة في القراءات العشر ، يحمل في أن أقل إليك منه ها الكلمة الآتية :

والاعتماد في نقل القرآن على الحفظ . ولذلك أُرسل ( أى عثمان رضى الله عنه ) كل مصحف مع حَمَنٍ يوافق قراءته في الأكثر وليس يلام . وقرأ كل مصحف بما في مصحفهم ، وتفقوا ما فيه من الصحابة الذين تدفوا عن النبي ﷺ ثم تجرد لأحد عن هؤلاء قوم أسبروا بينهم في صيطر ، وأنعموا نهارهم في نقلها ، حتى صاروا في ذلك أئمة للاقتداء ، وأحماً للاعتداء ، وأجمع أهل بلد على قبول قراءتهم ، ولم يختلف عليهم اثنان في صحة روايتهم ودرابتهم . ولقد ثبتهم لقادة أُسبت بهم ، وكان الموقل فيما بينهم . ثم إن القراء بعد هؤلاء كثروا ، وفي البلاد انشروا ، وحلهم أعم بعد أم ، وعرفت طبقاتهم ، واحتلفت صفاتهم ، فكان منهم المتفنن للقلادة المشهورة برواية والدراية ، ومنهم المحصل لوصف واحد . ومنهم المحصل لأكثر من واحد ، فكثرت بينهم لذلك الاختلاف ، وقل منهم الاتفاق .

فقام عند ذلك جهابذة الأمة ، وصناديد الأئمة ، فبرعوا في الاحتجاج بتدبر الحاصل ، وميزوا بين الصحيح وباطل ، وحسموا الحروف والقراءات ، وقرروا الأوجه ولروايات ، وبينوا الصحيح والشاذ ، والكثير والنفذ ، بأصول أصوها ، وأركان أصوها ، إلخ .

### طبقات الحفاظ المقرئين الأوائل :

ولقد اشتهر في كل طبقة من طبقات الأمة جماعة بحفظ القرآن وإقرانه . فالمشهورون عن الصحابة بإقراء القرآن عثمان ، وهشام ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت وابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري ، وسائر أولئك الذين أرسلهم عثمان بالمصاحف إلى الأفاق الإسلامية .

والمشهورون من التابعين : ابن مسيب ، وعروة ، وسالم ، وعمر بن عبد العزيز وسفيان ابن يسار ، وأخوه عطاء وزيد بن أسلم ، ومسلم بن حذاف ، وابن شهاب الزهري ،

وعبد الرحمن بن هرم ، ومعاد بن الحارث شهيد ، معاد القاري . ( وكل هؤلاء كانوا بالمدينة )

وعطاء ، ومجاهد ، وطاوس ، وعكرمة ، واس ابن مَيْسَكَة ، وعبيد بن حمير ، وغيرهم ( وهؤلاء كانوا بمكة )

وعامر بن عبد القيس ، وأبو العالية ، وأبو رحة ، واهن بن عاصم ، ويحيى بن يعمر<sup>(١)</sup> وحارث بن زيد ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة ، وغيرهم ( وهؤلاء كانوا بالبصرة ) .

وعلمسة ، والأسود ، ومسروق ، وعُتَيْبَة ، والربيع بن خَيْثَم ، والحارث بن قيس ، وعمر بن شُرَحْبِيل ، وعمرو بن ميمون ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، ورُبَيْن بن حبيش ، وعبيد بن فضالة ، وأبو ذُرَّة بن عمرو ، وسعيد بن حدير ، وانسجى ، والشعي . ( وهؤلاء كانوا بالكوفة )

والعبدة بن أبي ثعلبة الحرومي صاحب مصحف عثمان ، وحُمَيْد بن سفيان صاحب أبي الدرداء ، وسيرها . ( وهؤلاء كانوا بالشام ) .

ثم تفرع قوم للقراءات بصطووسها ، ويُقَنَوْنَها . فكان بالمدينة أبو حمزة يزيد بن القعقاع ، ثم شيبه بن بصاح<sup>(٢)</sup> ، ثم دفع بن أبي يعين .

وكان بمكة عبد الله بن كثير ، وحيد بن قيس الأعرج ، ومحمد بن مُحَنِّص .

وكان بالكوفة يحيى بن وثاب ، وعاصم بن أبي المعود ، وسليمان الأعمش ، ثم حمزة ثم الكسائي

(١) قال في القاموس : « يَعْمَرُ كَيْفَعَلُ أَسْمَاء » .

(٢) قال في القاموس : « بِصَاحَةُ وَالدُّشَيْبَةُ الْقَارِي » هكذا بالناء المربوطة . ولكن الذي في كتب القراء كان نشر وطلقات القراء « بِصَاح » من غير ناء مربوطة .

وكان دةصرة عبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمرو، وأبو عمرو بن ملاء، وعصم  
أحمد بن زكريا، ثم يعقوب الحمصري.

وكان دةشام عبد الله بن عمرو، وعطية بن قيس الكلابي، وإسماعيل بن عبد الله  
ابن مباحر، ثم يحيى بن الحارث الدمشقي، ثم شريح بن يزيد الحمصري.

وقد لمع في سماء هؤلاء لقراء نجوم عدة صهروا في القراءة والصبط حتى صاروا في هذا  
الباب أئمة يرُحل إليهم، ويُؤخذ عنهم.

### أعداد القراءات :

ثم اشتهرت عبادات تحمل أعداد القراءات ففيل : القراءات السبع ، وقراءات  
العشر ، والقرءات لأربع عشرة .

وأحاطي الجميع بالشهرة ونبهة الشأن ، القراءات سبع .

وهي اقراءات منسوبة إلى الأئمة السبعة المعروفين وهم : دمع، وعصم، ووحدة، وعبد  
الله بن عامر ؛ وعبد الله بن كثير ؛ وأبو عمرو بن ملاء ، وعلى الكسائي . والقراءات  
العشر هي هذه سبع وروادة قراءات هؤلاء : أبي جعفر ، ويعقوب ، وحكف .  
وعلم لقراءات أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . ثم أهل عهد  
القدوين للقراءات ولم يكن لهذه السبعة بهذا العنوان وجود أيضاً، بل كان أول من صنف  
في القراءات أمثال أبي عميد القاسم بن ملام، وأبي حاتم السجستاني، وأبي حمزة الطبري،  
وإسماعيل النخعي . وقد ذكروا في لقراءات شيئاً كثيراً ، وعرضوا روايت تروى على  
أصناف قراءة هؤلاء السبعة .

ثم اشتهرت قراءات هؤلاء السبعة كذلك على رأس لمانين في الأندلس والإسلامية  
وسكان الناس في مصر على قراءه أبي عمرو ويعقوب، وبالكوفة على قراءه حمزة وعصم،  
و دةشام على قراءه ابن عامر ، وبمكة على قراءه ابن كثير ، وبالدنية على قراءة دمع .

ومكثت القراءات السبع على هذه الحال دور أن تأخذ مكانها من التدوين حين  
خاتمة القرن الثالث ، إذ بهض بعدد الإمام ابن مجاهد أحمد بن موسى بن عباس طبع  
قراءات هؤلاء الأئمة السبعة غير أنه أنث اسم الكسائي وحذف يعقوب

وجاء اقتصاره على هؤلاء السبعة مصادرة واتعافاً ، من غير قصد ولا عمد ذلك  
أه أحد على نفسه ألا يروى إلا عن اشتهر بالوسط والأمانة وطول العرفى ملازمة القراء  
و، تعافى الآراء على الأخذ عنه والتقى منه فلم يتم له ما أراده هذا إلا عن هؤلاء السبعة  
وخدم وإلا فأنه لعراء لا يحصون كثرة ، وفيهم من هو أحل من هؤلاء قدراً ،  
وأعظم شأنًا .

وإذن فليس اقتصار ابن مجاهد على هؤلاء السبعة محصور للقراء فيهم ، ولا نعلم أحداً  
أن ينف بعد حدود قراءاتهم . من كل قراءة توافرت فيها الأركان الثلاثة للصايط  
شهور وحب قسود<sup>(١)</sup>

ومن هنا كانت القراءات العشرة ، سبعة قراءات يعقوب ، وأبي حمزة ، وحلف  
على قراءات أولئك السبعة

وكانت القراءات الأربع عشرة ، زيادة أربع على قراءات هؤلاء العشرة ، وهي  
قراءات الحسن البصري ، وابن أبي عمير ، وبني البريدي ، والشاذلي .

(١) أي إن وجدت الآراء ولكن هيئت أن توحده ، بعد أن ستر الأمر في الواقع  
وعرف أنه ليس بعد القراءات لعشر التي بين أيدينا قراءة أخرى متواترة . وسيستفاد ذلك  
تحقيقه فيما بعد فانتظره

### فوائد اختلاف القراءات :

استوفينا هذه النقطة بياناً في مسبحث نزول القرآن على سبعة أحرف (من ص ١٣٨ - ص ١٤٢) .

### أنواع اختلاف القراءات

تكلمنا على هذا الموضوع في مسبحث نزول القرآن على سبعة أحرف أيضاً (من ص ١٧٨ - ص ١٨٠)

### صايط قسول القراءات

لعلنا القراءات صايط مشهور ، يزعم به الروايات الواردة في القراءات فيقول : كل قراءة وافقت أحد المصاحف العثمانية ولو بتدبيراً ، ووافقت العربية ولو بوجه ، وصح إسنادها ولو كان عن فوق المشرقة من القراء ، فهي القراءة الصحيحة التي لا يحور ردها ، ولا يحل إسكارها ، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن . وهذا الصايط نظمه صاحب الطيعة فقال :

« وكل ما وافق وجه السور      وكانت للرسم احتمالاً يحوى  
وصحّ إسناداً ، هو القرآن      بهذه الثلاثة الأركان  
وحيثما يحتج دكر أنست      شدوذه لو أنه في السمية »

والمراد بقولهم : « ما وافق أحد المصاحف العثمانية » أن يكون ثابتاً ولو في بعضها دون بعض . كقراءة ابن عامر : « قالوا الحمد لله ولداً » من سورة النقرة ، نغير واو وكقراءته : « وبالزبر وبالكتاب المنير » زيادة الباء في الاسمين ، فإن ذلك ثابت في

المصحف الشامي وكفراده ابن كثير : « حَسَبَ تَحْرِيرِ مَنْ تَحْتَهَا الْأَسْمَاءُ » والموضع الأخير من سورة التوبة ، ريباده كلمة « مَنْ » فإن ذلك ثابت في المصحف للمكي .

والمراد بقولهم : « ولو تقدراً » أنه يكتفى في الرواية أن توافق رسم المصحف ، ولو موافقة غير صريحة ، نحو : « مَالِكٌ يَوْمَ الْقِيَامِ » ، فإنه رسم في جميع المصاحف محذوف الألف من كلمة « مالك » . فقرأه الحذف تحتمله تحقيقاً كما كتبت « مَلِكِ النَّاسِ » ، وقراءة الألف تحتمله تقدراً كما كتبت « مَلِكِ الْمَلِكِ » ، فتكون الألف حدثت اختصاراً ، كما حدثت في حالات كثيرة ألغيت إليها صائفاً في قواعد رسم المصحف أما الموافقة الصريحة وكثيرة نحو قوله سبحانه : « وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا » فإنها كتبت في المصحف بدون سقط . وهذا وافق قراءة « نُشِرُهَا » بلزاي وقراءة « نُشِرُهَا » مالا .

ومن بعد نظر الصحابة في رسم المصحف أن الكلمة التي رُوت على الأصل وعلى خلاف الأصل كانوا يكتبونها بالحرف الذي يخالف الأصل ، ليتعادل مع الأصل الذي لم يكتب في دلالة الصورة الواحدة على القراءتين ، إذ يدل على أحدهما بالحروف وعلى الثانية بالأصل . نحو كلتي (الصراط ، والمصيطرون) الصاد المدلة بالسين ، فيهم كتبوها بالصاد وعدلوا عن السين التي هي الأصل ، لتكون قراءة السين وإن خالفت الرسم قد أتت على الأصل فيمتدلان ، وتكون قراءة الإشمام أيضاً محتملة . ولو كتبت ذلك بالسين على الأصل لقات هذا الاحتمال وعدت قراءة غير السين محالة للرسم والأصل كليهما . ولذلك كان الخلاف المشهور في نضطة الأعراف دون سطة البقرة ، لتكون حرف البقرة كتب بالسين وحرف الأعراف كتب بالصاد

والعلامة الويرى على العلية كلمة نغيسة في هذا الموضوع إذ يقول ما نصه :

« اعلم أن الرسم هو تصوير الكلمة بحروف شتى بتقدير الانتداء بها والوقف عليها والعناية هو الذي رسم في المصاحف العثمانية. وينقسم إلى قياسي، وهو ما وفق اللفظ، وهو معنى قولهم: تحقيقاً وإلى سماعي وهو ما خالف اللفظ، وهو معنى قولهم: تقديرأ وإلى احتمالي وسيمي

ومخالفة الرسم اللفظ محصورة في حصة أقسام، وهي الدلالة على البدل نحو: «الصراط» وعلى الزيادة نحو: «مالك»، وعلى الحذف نحو: «لكها هو»، وعلى الفصل نحو: «قال هؤلاء»، وعلى أن الأصل الموصل نحو: «ألا يسجدوا» فقرأه اصاد والحذف والإثبات والفصل والوصل حسبها وافقها لرسم تحقيقاً، وبغيره تقديرأ، لأن السين تبدل صاداً قبل أربعة أحرف منها لظن كاسياني، وأب مالك عند الثلث رائده، وأصل «لكها» الإثبات، وأصل «قال» الفصل، وأصل «ألا يسجدوا» الوصل فالبدل في حكم بدل منه، وكذا انشاق وذلك ليتحقق الوفاق التقديري، لأن اختلاف القراء بين إذا كان يتم ير دون صاد ولا ينافي فهو في حكم المواقي، وإذا كان متصادم أو ناقص في حكم الخلف. والواقع الأول فقط، وهو الذي لا يلزم من صحة أحد الوجهين فيه بطلان الآخر.

وتحقيقه: أن اللفظ نارة يكون له حبة واحدة، يرسم على وفقها فالرسم هنا حصر حبة اللفظ، فبحالها منافع وتارة يكون له حبات يرسم على إحداها، ولا يبحر حبة اللفظ، فباللفظ به موافق تحقيقاً، وبغيره تقديرأ، لأن البدل في حكم البدل منه. وكذا نية الجملة

والقسم الثالث ما وافق الرسم احتمالاً. وسدرج فيه ما وقع الاختلاف فيه بالحركة ولسكون نحو «انقذس»، وبالتخفيف والتشديد نحو «نشر كم» يونس، وبالتقطع والوصل لمعنى بالشكل نحو «ادخلوا» صافر، واختلاف الإغمام نحو «يعلمون» و«يمنح»، والإغمام والإهمال نحو «نشرها» وكذا المختلف في كيميعة بطلها



كالمذموم والمسهل والممأل والمرفق والمدور ، وإن اصاحف الغيبة هكذا كلم ، لتعريدها  
عن أوصافها

فصول الناطم « وكان لرسم احتمالاً » دخل فيه ماوافق الرسم تحقيقاً بطريق الأولى ،  
وسواء وافق كل اصاحف أو بعضها ، كمرآة ابن عامر « قالوا آتخذ الله ولداً » وبالرؤى  
وبالكتاب « فيه ثبات دائم » وكان كثير في « حمات تحرير من تحتها الأنهار »  
بالتوبة ، « فيه ثبات في السكوى » إلى غير ذلك

وقوله « احتمالاً » يحتمل أن يكون عمله مقابلاً للتحقيق فتكون اللمعة عنده  
ثباتية ، وهو التحقيق والاحتمال ، ويكون قد أدخل التقدير في الاحتمال ، وهو الذي  
عمله في نشره . ويحتمل أن يكون ثلث اللمعة ، ويكون حكم الأولين ثباتاً بالأولوية .  
ولولا تقدير موافقه لرسم اللرم ، الكمل مخالفة الكل في نحو « السموات والصالحات  
والليل » .

ثم إن بعض الأباط يقع فيه موافقة إحدى القراءتين أو القراءات تحقيقاً والأخرى  
تقديراً ، نحو « مَنِيْكَ » ، وبعضها يقع فيه موافقة القراءتين أو القراءات تحقيقاً ، نحو  
« أَنْصَارًا لِلَّهِ ، فَكَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ » ، ومعرف لكم ، وهيت لك » .

واعلم أن محائف صريح الرسم في حرف مدغم أو منديل أو ثبات أو محذوف أو نحو  
ذلك ، لا يُعدُّ مخالفاً إذا ثبتت القراءة ووردت مشهوره إلا نرى أنهم يعدُّون إثبات  
يامات ارواند وحذف ياء « تَنْبِيْ » بالكسب ، وقراءة « وَأَكُوْرَ مِنَ الْعَالَمِيْنَ »  
ونحو ذلك من مخاليف الرسم غير مردود ، رجوعه لمعى واحد ، وتمشية مع صحة القراءة  
وشهرتها . بخلاف زيادة كلمة ونقصائها ، وتقديمها وتأخيرها ، حتى ولو كانت حرف معنى  
فإن له حكم الكلمة ، ولا يسوع مخالفة لرسم فيه وهذا هو الحد الفاصل في حقيقة اتباع  
الرسم ومخالفته » اهـ

وقولهم في الصائط المذكور : « وافق العربية ولو نوحه » يريدون وحها من وجوه قواعد اللغة سواء أكان أفصح أم فصيحاً ، نعماً عليه أم محتلاً فيه احتلاً لا لبصر مثله ، إذا كانت القراءة شاع وداع وتلقاها الأئمة بالإسناد الصحيح وهذا هو المختار عند المحققين في ركن مواضة العربية

هناك الحافظ أبا عمرو الداني في كتابه جامع البيان بعد ذكره إسكان كلمة « بَارِئُكُمْ » و « بَأْمُرُكُمْ » في قراءة أبي عمرو ، وبعد حكاية إسكار سيبويه لذلك ، يقول ما نصه : « والإسكان أصح في النقل وأكثر في الأداء وهو الذي أحترره وأحده به ، إلى أن قال : وأئمة القراء لا تعتمد في شيء من حروف القرآن على الألف في اللغة والألف في العربية ، بل على الألف في الأثر والأصح في النقل . والرواية إذا ثبتت عندهم لا يردوها قياس عربية ولا فتواً لأن القراءة سمة متبعة يلزم قولها والمصير إليها » اهـ .

( قمت ) وهذا كلام وحيه فإن علماء النحو إنما استمدوا قواعدهم من كتاب الله تعالى وكلام رسوله وكلام العرب ، فإذا ثبتت قرآنية القرآن بالرواية المقبولة كان القرآن هو الحكم على علماء النحو وما قمدوا من قواعد ، ووجب أن يرجعوا إلى قواعدهم إليه ، لا أن يرجعوا بالقرآن إلى قواعدهم المخالفة لمحكمها فيه ، وإلا كان ذلك عكساً للآية ، وإجمالاً للأصل في وجوب الرعاية

وقولهم في ذلك الصائط : « وصح إساده » يريدون به أن يروى تلك القراءة عدل صائط عن مثله وهكذا إلى الرسول ﷺ من غير شذوذ ولا غلة قاذية . بل شرطوا فوق هذا أن تكون الرواية مشهورة عند أئمة هذا الشأن الصائطين له ، غير معدودة عندهم من الغلط ، ولا بما شذ به بعضهم . والمحقق أن الجري بشرط التواتر ويصرح به في هذا الصائط ، ويعتبر أن ما اشتهر واستعاض موافقاً لرسم والعربية في قوة التواتر في القطع بقرآنيته ، وإن كان غير متواتر .

مطوق هذا الصاط ومعلومه :

بدل هذا الصاط بمطوقه، على أن كل قراءة احتج بها هذه الأركان الثلاثة بحكم  
قبولها، بل أعد حكوا بكسر من حده<sup>(١)</sup>، سواء أكانت تلك القراءة مروية عن  
الأئمة السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة القويين. وبدل هذا الصاط  
بمعلومه على أن كل قراءة متواتر فيها هذه الأركان الثلاثة يحكم بعدم قبولها وعدم  
كبر من يحفظها سواء أكانت هذه القراءة مروية عن الأئمة السبعة أم عن غيرهم،  
ولو كان أكبر منهم مقاماً، وأعظم شأنًا. وهذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف  
الحنف، كما صرح به الداني، ومكي، والهدوي، وأبو شامة، وهيك هؤلاء الأربعة  
أهم أئمة في قراءات القرآن وعلوم القرآن

قال أبو شامة في كتابه، لمرشد الوخير ما نصه : « فلا ينبغي أن يعتد بكل قراءة  
نُفِرت إلى واحد من هؤلاء الأئمة السبعة ويطلق عليها الصلة، وأنها كذلك أثبتت،  
إلا إذا دخلت في ذلك الصاط. وحيث فلا يفرق نقلها مصنف عن غيره، ولا يحتصر  
ذلك نقلها عنهم، بل إن نقلت عن غيرهم من القراء فذلك لا يخرجها عن الصلة؛ فإن  
الاعتداد على استجماع تلك الأوصاف لأعلى من أنسب إياه والقراءات المنسوبة إلى كل  
قارئ من السبعة وغيرهم، مصفاه إلى الجمع عليه ولشأن غير أن هؤلاء السبعة  
لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه في قراءاتهم، تركى الناس إلى ما نقل عنهم فوق  
ما نقل عن غيرهم، اه لكن رأى أى شامة وأصراره في القراءات السبع غير شديد  
كما سيحى.

(١) قد يقال : لا نعلم لم ذلك إلا أن كانت اقراءة متواترة معلومة من الذين  
بالضرورة، ويمكن أن يحتمل أن هذه الأركان الثلاثة أمارة متواترة والعلم من الذين  
بالضرورة. كما يأتي تفصيله. وهذا يكون الحكم صحيحاً.

ثم إن مفهوم هذا المصباح المحكوم عليه ، ترى مصوى تحته هذه صور  
بمختلف مصباحكم بعض تفصيلاً ، وإن اشتركت كلها في الحكم عليها إحداهما لعدم قوفها  
كما علمت

ذلك أن أحد طرقي كور تصدى مفهومه متى الأركان الثلاثة ، ويصدق متى واحد  
واثنين منها . وبشكل حالة حكم خاص بعلوم من عبارة لإمام مكى حتى سوفها إنك  
وتصو لا في سأل سائل ما لدى نقل من إقرءات لا فيقأ به ؟ وما الذي نفس  
ولا يقرأ به ؟ وما الذي لا يقرأ ولا يقرأ به ؟ فأجواب أن جميع ما روى من إقرءات  
على أقسام قسم يقرأ به اليوم : وذلك ما احتج فيه ثلاث حلال ، وهى أن ينقل عن  
اشقات عن النبي ﷺ ، ويكون وجهه في العربية التي يقرأ بها العرب سائلاً ، ويكون  
موافقاً لحظ المصحف .

ويذكر احتجتم فيه هذه الحلال ثلاث قرى ، به وقطع على تعيينه وصحته وصدقه ،  
لأنه أحد عن إجماع من جهة موافقة خط لمصحف وكثير من حججه قال : وأنه سمي ثانياً  
ما صحح به عن الأحاد وصحح وجهه في العروة وحذف أوطى خط المصحف فهذا  
نقل ولا يقرأ به " لعتين إحداهما أنه لم يؤخذ عن إجماع ، إحداهما الآخر الآحاد ،  
ولاشك قرآن يقرأ به بحر الواحد . ولعلنا لندرك أنه محرف لما قد أجمع عليه فلا يصح  
على تعيينه وصحته ، وما يقطع على صحته لا يجوز الإبراء به ولا تكثير من حججه ،

(١) ومعنى هذا أنه قبل على اعتبار أنه خبر شرعى صحيح الاحتجاج به عند من يرى  
ذلك وهم الحنفية دون الشافعية ، ولا يقرأ به على أنه قرآن ، ولا يؤمر بالقرآن . أحد آله  
قرآن قال أبو بكر : ما أعلم أن الذي استقر عليه له أهل وآراء لعنه أن من  
قرأها (أى الشواذ) غير معتقد أنها قرآن ولا مؤمناً أحد ذلك بل فيها من الأحكام .

وليس صعب إذا جعده . والقسم الثالث : هو ما نقله عن ثقة أو ثقة ثقة ولا وجه له في العربية فهذا لا يقبل وإن وفق خط المصحف . قال : وسكل صعب من هذه الأقسام تمثيل تركاد كره احتصاراً « اهـ » .

ثم أبدى المحقق ابن الحرري يدك التمثيل الذي تركه مكلياً احتصاراً فقال : -

( مثال القسم الأول ) . ملك ومالك ، ومحمدون ، ويحمدون ، وأوصى ووصى ،

وبطوع ، وتطوع ، ونحو ذلك من انقراءات المشهورة

( ومثال الثاني ) قراءة ابن مسعود وأبي الدرداء : « والله كز والأني » في قوله تعالى

« وَنَا حَقِّكَ لَدَّ كَزْ وَتَلَأْسَتْ » بحذف لفظ « ماحق » وقراءة ابن عباس : « وَكَلَّ

أَمَامَهُمْ مَالِكٌ تَأْخُذُ كُلَّ سَعِيَةٍ صَالِحَةٍ عَصَا » ، بإبدال كلمة أم أمام من كلمة وراء ، وبإعادة

كلمة صالحة « وأما إلام « وكان كافرأ » بزيادة كلمة « كافرأ » وبحذف ذلك مما انت رواية

الثقات إلى أن قال :

( ومثال القسم الثالث ) مما نقله عن ثقة كثير كما في كتب أشواد بما عاب

إسناده ضعيف كقراءة ابن السميع وأبي السمال وغيرهما في « سُحَيْكٌ <sup>(١)</sup> يَدْرِكُ »

بالجيم المصححة « وَبِئْسَ حَلَقٌ آيَةٌ » بفتح اللام أي من قوله « حديثك » يسكوها .

وكالقراءة المدونة إلى الإمام أبي حمزة رضي الله عنه والتي جمعها أبو الفصّل محمد

ابن حمزة الحرّمي ونقدها عنه أبو القسم الهدلي وغيره « إِنَّمَا يَحْتَشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ

— انشعية عندهم يحنجها أو الأحكام الأدبية ؛ فلا كلام في حوار قراءتها . وعلى هذا

يحمل حال من قرأها من المتقدمين . وكذلك أيضاً يجوز تدويرها في الكتب واستكمل

على ما فيها ولم قرأها باعتقاد قراءتها أو لإيهاهم قراءتها حرم ذلك . ونقل ابن عبد البر

في تهذيبه إجماع مسلم عليه « اهـ »

(١) هنا سقط . والصواب « سُحَيْكٌ » بالخاء المهملة في « سُحَيْكٌ يَدْرِكُ » الخ .

العلماء « رفع اليده ونصب يده » بمعنى رفع لفظ اخلالة ونصب لفظ الطه .  
وقد راجع ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه فتكلف توجيهها ، فإنها لا أصل  
لها ، وإن أن حبيبة ترى منها .

ومثال ما نقله عنه ولا وجه له في العربية ولا يصدر هذا إلا على وجه اسهو  
واعطى وعدم الصبط ، يعرفه الأئمة المحققون والخطاطون ، وهو قليل جداً بل  
لا يكاد يوجد .

وقد جعل بعضهم « واية حارحة عن نافع » « مَنَاشَر » باسم نافع ، ويدخل  
في هذين التسميتين ما يذكره بعض المتأخرين من شراح اشطبه في وقف حرة نحو .  
« أَمْنَاهُمْ » ، « وَأَوْنُك » ، « حَالِصَة » ، « شُرَكَاءُكُمْ » ، « وَأَحْسَنُكُمْ » ، « وَأَوْحِدُكُمْ »  
« وَأَدْنَاهُمْ » ، « وَأَحَدُكُمْ » ، « نَافِع حَالِصَة » ، « وَأَوْحِدُكُمْ » ، « وَأَدْنَاهُمْ » ، « وَأَحَدُكُمْ »  
في اشتركت ، « وَأَدْنَاهُمْ » في « فَأَدْنَاهُمْ » ، « وَأَحَدُكُمْ » في ذلك كله . وهو لا التحصيف  
الرمي ولا يجوز في وجه من وجوه العربية ، فإنه إن يكون مقولاً عن نافع ولا يصح  
إلى ذلك . فهو لا يقل ، إلا لا وجه له . وإن أن يكون مقولاً عن غير نافع ، فبعضه  
أخرى ورده أولى مع أي تمت ذلك فلم أحده مقصوداً لحرة لا طريق صحبة  
ولا صيغة .

ثم قال : ويبقى قسم مردود أيضاً ، وهو ما وافق العربية والرسم ولم يعمل  
أئمة فهدارده أحق ، ومنه أشد ، ومرتكبه مرتكب لعظيم من الكسائر  
وقد ذكر حوار ذلك عن محمد بن الحسن بن مقسم السعدي المقرئ النحوي وكان  
بعد اثلاثمائة .

قال الإمام أبو طاهر من أبي هاشم في كتبه المبين : « وقد سمع نافع في عصرنا فرغم  
أن كل ما صح عنده وجه في العربية محرف من القرآن يوافق ما صحف فقراءته حذره في  
الصلاة وغيرها فاستدعى بدعة صلحها قصد السهل ( قلت ) وقد عقد له سبب ذلك

مجلس بعدد حصصه العظمى ، والقراء ، وأجمعوا على منعه ، وأوقف للصرب ، ورجع ،  
وكتب عليه محصر ذلك كما ذكره الخياط أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد ، وأشرنا  
إليه في الطبقات » ١ هـ

ملاحظته .

إلى اكتفى القراء في صايط القراء المشهورة بصحة الإسناد مع الركبي الآخرين  
ولم يشترطوا التواتر مع أنه لا بد منه في تحقق قرآنية لأسباب ثلاثة . -

أحدها . أن هذا صايط لا يعرف ، والتواتر قد لوحظ في تعريف القرآن على أنه شرط  
أو شرط على الأقل . ولم يلحظ في الصايط لأنه يعتد في الصوايط فلا يعتد في التعريف .  
فالصوايط ليست لبيان الماهية والحقيقة .

ثانيها . التبسيط على المطلوب في تمييز القراءات لقسولة من غيرها ، وبه يسهل عليه  
مجرد رعايته لهذا الصايط أن يميز القراءات المتشعبة من غير المقسولة أما إذا اشترط  
التواتر وبه يصعب عليه ذلك التمييز ، لأنه يصعب في تحصيله إلى أن يصل إلى جمع  
يؤمن تواترهم على الكذب في كل حلقة من طبقات الرواة وهيئات أن  
ينيسر له ذلك .

ثالثها : أن هذه الأركان الثلاثة كاد يكون مساوية للتواتر في إضاده العلم  
القاطع بالقراءات لقسولة بيان هذه المساواة أن ما بين دفتي المصحف متواتر وجمع عليه  
من الأمة في أفضل عهد ، وهو عهد الصحابة ، وإذا صح سند القراءة ووافقت قواعد  
العلماء ثم جاءت موافقة خط هذا المصحف للتواتر ، كانت هذه الموافقة قرينة على زيادة  
هذه الرواية للعلم أنه صحيح وإن كانت آحاداً

ولا ينس ما هو مقرر في علم الآثار من أن خبر الآحاد بعيد العلم إذا احتجته به  
قرينة توجب ذلك

فكان التواتر كان يطلب تحصيله في لإسناد قبل أن يقوم المصحف وثيقة متواترة بالقرآن أما بعد وجود هذا المصحف المجمع عليه ، فيمكن في الرواية صحتها وشهرتها متى وافقت رسم هذا المصحف ولدان العرب

قال صاحب الكواكب اللدنية مثلاً عن المحقق ابن الحردي مائة : « قولنا : « وصح سندها » نعى به أن يروى تلك لقراءة العدل الصابط عن مثله ، وهكذا حتى تنهى ، ويكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن الصابطين له غير معدودة عندهم من انعط أو مما شذ به بعضهم

وقد شرط بعض المتأخرين اتواتر في هذا الركن ولم يكتف بصحة السند ورسم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر<sup>(١)</sup> وأن ما جاء بحجج الأحاد لا يثبت به قرآن . وهذا مما لا يحجج مافيه ، فإن التواتر إذا ثبت لا يحتاج فيه إلى الركبين الآخرين من موافقة الرسم وغيره . إذا ما ثبت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبي ﷺ وحب قوله وقطع نكوه قرآناً ، سواء وافق الرسم أم حافه » اهـ .

وهذا التوجيه الذي وحها به الصابط المذكور ، يهون اعتراض العلامة الدويري في شرحه على الطيئة ، إذ يقول مائة : وقوله . « وصح إسناداً » ظاهره أن القرآن يكتفى في ثبوته مع الشرطين للتقدمين بصحة السند فقط ولا يحتاج إلى تواتر . وهذا قول حادث يخالف لإجماع الفقهاء والمحدثين وغيرهم ، كما استراه إن شاء الله تعالى ونقدصل سبب هذا القول قوم فصاروا يقرءون أحرفاً لا يصح لها سند أصلاً ، ويقولون : التواتر

( ١ ) أى في هذا الصابط الذي لوحظ فيه وجود الركبين الآخرين مع هذا الركن .

ولما فسره كلامه بذلك لأن التواتر مجرد شرط أو شرط في القرآن كما هو التحقيق . ولأن موضوع حديثه هنا إنما هو اشتراط التواتر في هذا الركن الذي هو جزء من الصابط ، كما صرح به أولاً ، كما يرشد إليه كلامه آخرأ .



ليس شرط وإدا طولوا سند صحيح لا يستطيعون ذلك . ولا يدّ هذه المسألة من بعض أساطير ، فلذلك أخذت فيها مذاهب القراء والعقهاء الأربعة المشهورين وما ذكر الأصوليون والمفسرون وغيرهم . رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وقد كرت في هذا التعليق المهم من ذلك ، لأنه لا يحتمل التطويل ، فأقول :

« اقرأ القرآن عند الجمهور من أئمة المذاهب لأربعة منهم العراقي وصدر الشريعة وموافق الدين المقدسي وابن مفتح والطوفي ، هو ما نقل بين دفتي المصنف نقلاً متواتراً . وقال غيرهم : هو الكلام المنقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم للإيجاز سورة منه ، وكل من قال بهذا الحد اشترط التواتر كما قال ابن الحارث رحمه الله تعالى ، لقطع بأن العادة تقضى بالتواتر في تفاصيل مثله . والقائلون « لأول » لم يحتاجوا للعادة ، لأن التواتر عندهم جزء من الحد ، فلا تنصور ماهية « قرآن » إلا به . وحينئذ فلا بد من التواتر عند أئمة المذاهب الأربعة ، ولم يخالف منهم أحد فيما علمت بعد انقضاء الزائد ، وصرح به جماعات لا يحدون ، كابن عبد البر وابن عطية وابن تيمية والنويسي في تفسيره والنووي واسبكي والإسنوي والأذري والركشي والدميري وابن الحارث والشيخ خليل وابن عرفة وغيرهم ، رحمهم الله تعالى .

وأما القراء فاجمعوا في أول الزمان على ذلك وكذلك في آخره ، لم يخالف من المتأخرين إلا أبو محمد مسكي ، وبعده بعض المتأخرين . وهذا كلامهم . . الخ » اه . ثم ساق نقولاً كثيرة مراداً إليهم بقصر المقام هنا عن عرضها . وفيما ذكرناه كعبية وهذا التوجيه الذي وجهناه انصافاً لمعمل الخلاف كأنه عطى ، ويرى جماعات « القراء » على حدّ الطريق في تواتر القرآن « وَمَنْ سَلَكَ الْخَلْدَةَ ، مِنَ الْمَشَارِقِ ،

أنواع انقراءات من حيث السند .

بمثل السيوطي من ابن الجردى أن أنواع انقراءات ستة : -

(الأول المتواتر) وهو ما رواه جمع عن جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم : مثاله ما اتفقت الطارق في نقله عن السبعة . وهذا هو الغالب في القراءات .

(الثاني المشهور) : هو ما صحَّ سنده بأن رواه العدل الصابط عن مثله وهكذا ، ووافق العربية ، ووافق أحد الصحاح العمانية ، سواء أكار عن الأئمة السبعة أم العشرة أم غيرهم من الأئمة القبولين ، واشتهر عند القراء فلم يعد له من اعطى ولا من الشدود ، إلا أنه لم يبلغ درجة المتواتر . مثاله : ما احتلقت الطرق في نقله عن السبعة ، ورواه مصر الرواة عنهم دون مصر . ومن أشهر ما صنف في هذين النوعين التيسير للداني ، والشاطبية ، وطيبة النشر في القراءات العشر . وهذان النوعان هما اللذان قرأ بهما مع وجوب اعتقادهما ، ولا يجوز إمسك شيء منهما .

(النوع الثالث) ما صحَّ سنده ، وحافظ الرسم أو العربية أو م يشتهر الاشتهار المذكور . وهذا النوع لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده . من ذلك ما أحرجه الحاكم من طريق عاصم الجعدي عن أبي نكرة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « مُتَكِينِينَ قُلَى رَفَارِفَ حُضِرَ وَعَبَّاقِرِي حِسَانِ » . ومنه قراءه « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » بفتح الغاء .

(الرابع الشاذ) وهو ما لم يصحَّ سنده ، كقراءة ابن السَّمِيعِ : « قَالَتِمْ سَحِيكَ سَدَنِكَ » بالحاء المهملة « لَتَكُونَنَّ حَلَفَكَ آيَةً » بفتح اللام من كلمة « حَلَفَكَ » .

(الخامس الموصوع) وهو ما نسب إلى قائله من غير أصل . مثال ذلك القراءات التي جمعها محمد بن حمير الخراعي ، ونسبها إلى أبي حنيفة . وقد سبق الكلام عليها في شرح الصابط الآف .

( النوع السادس ) ما يشه المذرج من أنواع الحديث وهو ما رند في القراءات على وجه التفسير كقراءة سعد بن أبي وقاص « وَلَهُ أَحْ أَوْ أَحْتُ مِنْ أُمِّ » ريادة لفظ « مِنْ أُمِّ » . وقراءة : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ حُجَّاجُ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فِي مَاسِمِ الْحَجِّ » ريادة لفظ « فِي مَاسِمِ الْحَجِّ » . وقراءة الزبير « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّهُ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَنَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَسَتَعْبِيدُونَ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ » ريادة لفظ « وَيَسْتَعْبِيدُونَ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ »

وإنما كان شمسها ولم يكن مذكرًا ، لأنه وقع خلاف فيه قال عمر رضي الله عنه : « ٢ أدري أكانت قراءاته ( حتى الزبير ) « أم مكر » أخرجه سعيد بن منصور ، وأخرجه ابن الأسيدي وحرم بأنه مكر . وكان الحسن يقرأ : « وَإِنْ مِنْكُمْ لِمَا وَارِدُهَا ، الْوُرُودُ : الدُّخُولُ » قال ابن الأسيدي : قوله « الْوُرُودُ : الدُّخُولُ » ، نصير من الحسن إلى الورد . وعلط فيه بعض الرواة ودخله في القرآن

قال ابن الجري و آخر كلامه « وربما كانوا يدخلون التفسير في الكلام بإصاحا ، لأنهم متحققون لما تلقوه عن رسول الله ﷺ قراءا . فهم آمنون من الالتباس » انتهى تصرف بعدا فيه صاحب السكواك الدرنة .

بواخر القرآن :

أكتفى في هذا الموضع بأن أسوق إليك بقولاً ثلاثة فوق ما نقلته عن النويري من قبل :

أولها : يقول الإمام الغزالي في المستقصى ما نصه : حَدَّثَنَا الْكَتَابُ مَا نَقَلَ إِلَيْنَا مِنْ دَفْتِي الْمَصْحَفِ عَلَى الْأَحْرَفِ السَّبْعَةِ اشْمُورَةً قَلَامًا تَوَاتَرَ وَبَعِيَ بِالْكِتَابِ الْقُرْآنَ الْمُنَزَّلَ . وَقِيدَ بَاهُ الْمَصْحَفِ لِأَنَّ الصَّعَانَ بِالْعَوَا فِي الْإِحْتِيَاظِ فِي نَفْسِهِ ، حَتَّى كَرِهُوا التَّعَاشِيرَ وَالْمَقْطَ ،

وأمروا بالتحرید : كيلا يخلط القرآن غيره : ومن يبد متواتراً ، فبهم أن يكتبوا  
في الصحف متفق عليه هو القرآن ، وأن ما هو خارج عنه وليس منه : إذ يستحيل في العرب  
والعادة مع تواتر الدواعي على حفظه أن يهمل نغصه فلا ينس ، أو يخلط به ما ليس منه  
ثم قول : ومن قد : ثم شرطتم التواتر ؟ قلنا ليحصل العلم به ، لأن احكاماً لا يعلم جهل  
وكون الشيء كلام الله تعالى أمر حقيقي ليس بوصفي حتى يتلق فلسفاً ، فيقال : إذ طستم  
كذا فقد حرمانا عنكم فعلاً ، أو حلاله لكم ، فيكون التحريم معلوماً عند طسنا ،  
ونكون ظناً علامة لتعيق التحريم به إلى أن قال :

ونشأ عن حد الكلام مآلات : « ( إحداهما ) مسألة التتبع في صوم كفارة  
اليمين : فإنه ليس بواجب على قول ، وإن قرأ ابن مسعود « صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ »  
لأن هذه الزيادة لم تتواتر ، فليست من القرآن ، فتحمل على أنه ذكرها في معرض اليقين ،  
لما اعتقده مذهبها ، فلهذا اعتقد انتفاع حلاله لمطلق على تنقيده انتفاع في طهاره وقال  
أبو حنيفة : يجب الانتفاع ، لأنه وإن لم تثبت كونه قرآناً ، فلا أقل من كونه حبراً ، والمعنى  
يجب بحر الواحد وهذا ضعيف ، لأن حبر الواحد لا دليل على كونه ، وهو <sup>(١)</sup> إن حمله  
من القرآن فهو خطأ قطعاً ، لأنه واجب على رسول الله ﷺ أن يسمعه طائفة من  
الأمة تقوم الحجة بقولهم ، وكان لا يجوز له مدحاة الواحد به ، وإن لم يحمله من أعراس ،  
احتمل أن يكون ذلك مذهباً له للدليل قد دلل عليه ، واحتمل أن يكون حبراً وما تردد بين

(١) كذا بالأصل الذي نقلت عنه . ومن الواو في الخط « وهو » رادتها الضميمة خطأ .  
وحمله « لا دليل على كونه » حالية من لفظ « الواحد » ، والمعنى هكذا : لأن حبر  
الواحد هنا حال كونه لا دليل على كونه ، ولعل هو صير فصل أو عائد على حبر الواحد ،  
إن حمله ( أي أبو حنيفة ) من قرآن الخ . ويمكن أن تكون كلمة « وهو » كلها  
مدحاة في لطيف أو السح فتدبر .

أن يكون حبراً أو لا يكون ، فلا يجوز العمل به ، وإنما يجوز العمل بما يصرح الراوى  
بسماعه من رسول الله ﷺ .

( أما المسألة الثانية ) فهي أن السلسلة آية من القرآن لكن هل هي آية من أول كل  
سورة ؟ فيه خلاف . وميل الشافعى - رحمه الله - إلى أنها آية من سورة الحمد وصائر السور ،  
لكونها في أول كل سورة آية برأسها ، أو هي مع أول آية من صائر السور آية هذا مما نقل  
عن الشافعى فيه تردد . وهذا أصح من قول من حل تردد قول الشافعى على أنها هل هي  
من القرآن في أول كل سورة ؟ بل الذى يصح أنها حيث كتبت مع القرآن يحيط القرآن ،  
وهي من القرآن « ١ » ما أردنا نقله نتصرف طفيف

ثانيها : يقول صاحب مسلم الثبوت وشارحه ما نصه : « ما نقل آحاداً فليس بقرآن  
قطاً » ولم يعرف فيه خلاف لواحد من أهل المذاهب ، واستدل بأن القرآن مما تتواتر  
الدواعى على نقله ، لتصميمه التحدى ، ولأنه أصل الأحكام ، باعتبار للمعنى والنظم جميعاً ،  
حتى تعلق نظمه أحكامه كثيرة ، ولأنه يشترك به في كل عصر بالقراءة ، ولذا علم جهد  
الصعابة في حفظه بالتواتر القاطع . وكل ما تتواتر دواعى نقله ، يقل متواتراً عادة  
فوجوده ملزوم التواتر عند الكل عادة ، فإذا انتفى الالزام وهو انتواتر ، انتفى للزوم  
قطاً . والنقول آحاداً ؛ ليس متواتراً فليس قرآناً « ١ » .

ثالثها : يقول الحافظ حلال الدين فى الإتيان ما نصه : لا خلاف أن كل ما هو من  
القرآن يجب أن يكون متواتراً فى أصله وأجزائه . وأما فى محله ووصفه وترتيبه ،  
فكذلك عند محقق أهل السنة ، لا قطع بأن العادة تقضى بالتواتر فى تفاصيل مثله ،  
لأن هذا المحرر العظيم ، الذى هو أصل الدين القويم ، والضرط المستقيم ؛ مما  
تتواتر الدواعى على نقل جملة وتفصيلاً ، فما نقل آحاداً ولم يتواتر بقطع بأنه ليس  
من القرآن .

« وذهب كثير من الأصوليين إلى أن لتواتر شرط في ثبوت ما هو من القرآن بحسب أصله . وليس شرط في محله ووصفه وتربيته بل تكثر فيها نقل الآحاد . قيل وهو الذي يقتضيه صريح الشافعي في إثبات السلسلة من كل سورة . ورد هذا المذهب بأن الدليل السابق يقتضي لتواتر في الجميع ، ولأنه لو لم يشترط خبر سمعوا كثير من القرآن المكرر ، وثبت كثير مما ليس بقرآن منه . أما الأول فلا لما لم يشترط التواتر في المحل ، حار ألا يتواتر كثير من المكررات الواقعة في القرآن مثل « عَمَّيْ آلاء ربكنا تكديان » . وأما الثاني فلا أنه إذا لم يتواتر بعض القرآن بحسب المحل ، حار إثبات ذلك البعض في الموضع بنقل الآحاد . وقيل القاصي أو نكر في الانتصار : « ذهب قوم من الفقهاء ومتكلمين إلى إثبات قرآن حاكماً لا علماً بخبر الواحد دون الاستفاضة . وكره ذلك أهل الحق وامتنعوا منه وقول قوم من المتكلمين إنه يسوع يعمل رأي والاحتياط في إثبات قراءة وأوجه وأحرف ، إذا كانت تلك الأوجه صواباً في العربية ، وإن لم يثبت أن النبي ﷺ قرأ بها . وإلى ذلك أهل الحق وأكبره وحظوا من قول به » اهـ

وقد نبى « بسكية وغيرهم بمن قل به نكار السلسلة قولهم على هذا الأصل ، ودرروا أنها لم تتواتر في أوائل أسور ، ومالم تتواتر فليس بقرآن وأحجب من قسنا نجمع كونهما لم تتواتر ، قرب متواتر عند قوم دون آخرين ، وفي وقت دون آخر . وبكفي في تواترها إثباتها في مصاحف الصحابة من بعدهم بخط المصحف مع مضمون أن يكتب في المصحف ما ليس منه ، كأسماء السور وآمين والأعشار . فلم تكن قرآناً لما استعبدوا إثباتها بخط من غير تمخير ، لأن ذلك يحمل على اعتقاد كونها قرآناً . فيكونون معررين بالمسندين حاميين لهم على اعتماد ما ليس بقرآن قرآناً ، وهذا مما لا يحوز اعتقاده في الصحابة وإن قيل . لعلها أُنشئت للفصل بين السور أحجب : أن هذا فيه تمخير ،

ولا يجوز إرساؤه لمجرد الفصل ، ولو كانت له لكتبت بين راءه والأفعال ١٠٥ هـ .  
كلام السيوطي .

وهذه القول الثلاثة كافية في الموضوع كما ترى لأن عذارتي المستصفي ومسلم الثبوت  
يقينان الدليل واضحاً على تواتر القرآن وإن اختلف طريقهما في الاستدلال وعارة  
السيوطي تذكر اختلاف في عموم هذا التواتر لما كان أصلاً وغير أصل ، وتؤيد هذا العموم  
وبرد على من قصر التواتر على أصل القرآن دون محله ووصفه وترتيبه .

### الآراء في القراءات السبع :

هنا يجد الباحث نفسه في معترك مليء بكثرة الخلافات واضطراب القول واتساع  
المسافة بين المختصين إلى حد بعيد .

وإليك صورة مصغرة تشهد فيها حرب الآراء والأفكار مشوبةً بين السكابين  
في هذا الموضوع :

( ١ ) يبلغ بعضهم في الإشادة بالقراءات السبع ويقول : من رعم أن القراءات السبع  
لا يلزم فيها التواتر فقله كعمر لأنه يؤدي إلى عدم تواتر القرآن حملة ويعبري هذا  
الرأي إلى معنى البلاد الأندلسية الأستاذ أي سعيد فوج س لب ، وقد نحس رأيه كثيراً  
وألف رسالة كبيرة في تأييد مذهبه والرد على من رد عليه .

ولكن دليله الذي استند إليه لا يسلم له ، فإن القول بعدم تواتر القراءات السبع  
لا يستلزم القول بعدم تواتر القرآن كيف ؟ وهناك فرق بين القرآن والقراءات السبع بحيث  
يصح أن تكون القرآن متواتراً في غير القراءات السبع ، أو في القدر الذي اتفق عليه  
القراء جميعاً ، أو في القدر الذي اتفق عدد يؤمن تواترهم على الكذب قرءاء كانوا

أو غير قراء ، بينما تكون القراءات السبع غير متواترة ، وذلك في القدر الذي احتسب فيه القراء ، ولم يجتمع على روايته عدد يؤمن نواظروهم على الكذب في كل طبقة ، وإن كان احتمالاً لا يعميه الواقع كما هو التحقيق الآن

(٢) يبالغ بعضهم في توهين القراءات السبع والعص من شأنها ، ويرغم أنه لا فرق بينها وبين سائر القراءات ، ويحكم بأن الجمع روايات آحاد ، ويستدل على ذلك بأن القول بتواترها منكر يؤدى إلى تكفير من ظن في شيء منها ، مع أن الظن وقع فعلاً من بعض العلماء والأعلام

وناقش هذا الدليل بأن لا سم أن إنكار شيء من القراءات يقتضى التكفير على القول بتواترها. وإنما يحكم بالتكفير على من علم تواترها ثم أنكره. والشيء قد يكون متواتراً عند قوم غير متواتر عند آخرين، وقد يكون متواتراً في وقت دون آخر فظن من ظن منهم يحمل على ما لم يعلموا بتواترها منها ، وهذا لا ينهى التواتر عند من علم به ، وهو في كل ذي علم عليم .

ويمكن مناقشة هذا الدليل أيضاً بأن ظن الطاعين بما هو فيما احتسب فيه وكان من قبيل الأداء. أما ما اتفق عليه فليس بموضع ظن ونحن لا نقول إلا بتواتر ما اتفق عليه دون ما احتسب فيه .

(٣) يقول ابن انسكى في جمع الخوامع وشارحه ومخشيته: « القراءات السبع متواترة تواتراً تاماً أى نقلها عن النبي ﷺ جمع يمتنع عادة نواظروهم على الكذب لثقتهم ، وهم حرا ولا يصرون أساييد القراء آحاداً ، إذ تخصيصها بمحاجة لا يجمع على القراءات عن غيرهم ، بل هو الواقع ، فقد تنفاه عن أهل كل بلد قراءة إمامهم الجهم العبير عن مشهورهم ؛ وهم حرا . وإنما أسدت إلى الأئمة المذكورين وروايتهم بد كورين في أساييدهم ، لتصل إليهم



أصبط حروفها وحفظ شيوعهم لكل فيها ٥١٤

وقد ساقش هذا بأنها لو تواترت جميعاً ، ما احتلت القراء في شيء منها لكانهم اختلفوا في أشياء منها ، وإدراكاً لا سلم أن تكون كلها متواترة

ويحاج من هذا بأن الخلاف لا ينفي التواتر بل الكل متواتر وهم فيه محتفون ، فإن كل حرف من الحروف السبعة التي نزل بها القرآن بلغه الرسول ﷺ إلى جماعة يؤمنون تواتروهم على الكذب حفظاً لهذا الكتاب ، وهم ينفون إلى أمثالهم وهكذا . ولا شك أن الحروف بخلاف بعضها بعضاً ، فلا جرم تواتر كل حرف عند من أخذ به وإن كان الآخر لم يعرفه ولم يأخذ به . وهنا يجتمع التضال والتواتر . وهنا يستقيم القول بتواتر القراءات السبع بل القراءات العشر كما يأتي .

(٤) ويذهب ابن الحاجب إلى تواتر القراءات السبع ، غير أنه يستثنى منها ما كان من قبيل الأداء كالمدة والإمالة وتخفيف الميمزة . قال البناني على جمع الجوامع : « وكان وجه ذلك أن ما كان من قبيل الأداء بأن كان هيئة للفظ يتحقق اللفظ بدونها ، كزيادة المد على أصله ومساعدته من الأمثلة ، وما كان من هذا القبيل لا يضبطه السماع عادة لأنه يقبل الزيادة والنقصان ؛ بل هو أمر احتشادي . وقد شرطوا في التواتر ألا يكون في الأصل عن اجتهاد . فإن قيل

فقد يتصور الضبط في الطبقة الأولى للعلم بضبطها ما سمعته منه ﷺ على الوجه الذي صدر منه من غير تفاوت بسبب تكرار عرضها ما سمعته منه ﷺ . قلنا إن سلم وقوع ذلك لم يفد ، إذ لا يأتي نظيره في بقية الطبقات ، فإن الطبقة الأولى لا تقدر عادة على النطق بأن ما نطقه الثانية حار على الوجه الذي نطق به الذي ﷺ . وما نطق به علم أن الكلام يجازى على أصل المد ومساعدته لا في الأصل فإنه متواتر .

الحاصل أنه إن أريد متواتر ما كان من قبيل الأداء نواتره باعتبار أصله ، كأن يراد تواتر المد من غير نظر لمقداره ، وتواتر الإمالة كذلك ، فالوجه خلاف ما قال

ابن الخاحب ، للعلم متواتر ذلك . وإن أريد تواتر الخصوصيات الزائدة على الأصل ، فالوجه ما قاله ابن الخاحب . قال ابن قاسم « أ » قليل من التصرف .

لكسا إدار حنا لمدارة ابن الخاحب محدها كما يقول في مختصر الأصول له : « القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء ، كالند والإمالة وتحييف المبرة ومحوه » أ » وهذا رعم صريح منه بأن الند والإمالة وتحييف المبرة ومحوها من قبيل الأداء وأنها غير متواترة . وهذا غير صحيح ، كما أتيتك سكوته في مناقشة ابن الجردى له طويلا .

(هـ) يذهب أبو شامة إلى أن القراءات السبع متواترة فيما اتفقت الطرق على نقله عن القراء ، أما ما اختلفت الطرق في نقله عنهم فليس بمتواتر ، سواء أكان الاختلاف في أداء الكلمة كما ذهب ابن الخاحب أم في لهظها . فالاستثناء هنا أعم مما استثناء ابن الخاحب . وعبرة أنى شامة في كتابه للمرشد الوحيد بصها ما تأتي : « ما شاع على السنة جماعة من متأخري القرنين وغيرهم من أن القراءات السبع متواترة ، ونقول » فيما اتفقت الطرق على نقله عن القراء السبعة ، دون ما اختلفت فيه ، بمعنى أنه يمتد ستة إليهم في بعض لطرق . وذلك موحود في كتب القراءات ، لاسيما كتب للمعارفة والمشاركة ، فمهما تباين في مواضع كثيرة . والحاصل أن لا يلتزم التواتر في جميع الألفاظ المختلف فيها بين القراء . أي بل لمهما المتواتر وهو ما اتفقت الطرق على نقله عنهم ، وغير المتواتر وهو ما اختلفت فيه بالمعنى السابق . وهذا نظايره يناول ما ليس من قبيل الأداء وما هو من قبيله « أ » . نقلًا عن الحلال الحلى في شرح جمع الجوامع بتعديل منه .

ورأى أبو شامة هذا كست أقول في الطبعة الأولى إنه أمثل الآراء فيما أرى ، وذلك لأمرين : أرسمة :

أولها : أنه رأى سليم من التوهينات التي فوقت بها الآراء السابقة .

ثانيها : أن يستند إلى الواقع في دعواه وفي دليله . ذلك أن القراءات السبع وقع اختلاف مصمها حقيقة في النطق بألفاظ الكلمات تارة ، وبأداء تلك الألفاظ تارة أخرى . ومن هنا كانت الدعوى مطابقة للواقع . ثم إن دليله يقوم على الواقع أيضاً في أن بعض الروايات مضطربة في نسبتها إلى الأئمة القراء ، وبعضهم بغاها وبعضهم أثبتها . وذلك أمانة انتفاء التواتر ، لأن الاتفاق في كل طبقة من الجماعة الذين يؤمنون تراجمهم على الكذب لازم من لوازم القواتر . وقد انتهى هذا الاتفاق هنا فينتفى التواتر ، لما هو معلوم من أنه كلما انتفى اللازم انتفى الملزوم .

ثالثها : أن هذا الرأي صادر عن إخصائي مشهور في القراءات وعلوم القرآن وهو أبو شامة « وصاحب الدار أدري بما فيها » .

رابعها : أن هذا الرأي يتفق وما هو مقرر لدى المحققين من أن القراءات قد تنوافت فيها الأركان الثلاثة المذكورة في ذلك الضابط المشهور ، وقد تنفى هذه الأركان الثلاثة كلاً أو بعضاً ، لا فرق في هذا بين القراءات السبع وغير السبع على نحو ما تقدم . ويتفق ههنا الرأي أيضاً وما صرحوا به من تنقسم القراءات باعتبار السند إلى ستة أقسام كما سبق .

#### استدراك :

لكنني بعد معاودة البحث والنظر ، واتساع أفق اطلاعي فيما كتب أهل التحقيق في هذا الشأن ، ثبنت لي أن أبا شامة أخطأ الصواب أيضاً فسين أخطأ ، وأني أخطأت في مشايخته وأبيده .

وبصطري بإصاف الحق أن أسكر على الوحوم التي أبدت لها بين يديك ، فأقتضها وجهاً وحباً « والرحوم إلى الحق فضيلة » .

١ - قرأى أبى شامة المسطور لم يسلم من مثل تلك التوهيمات التى بوقشت بها الآراء السابقة ، وحترى قريباً شدة مناقشته الحيات فى كلام ابن الجوزى

٢ - ثم إن العطاء قد اكتشف عن أن القراءات السبع بل القراءات العشر كلها متواترة فى الواقع ، وأن الخلاف بينهما لا يبنى عليها التواتر ، فقد يجتمع التواتر والتعديف ، كما بينا عند عرض رأى ابن السبكي ، وكما يستبين لك الأمر فيما يأتى من تحقيق ابن الجوزى .

٣ - أما أن أباشامة إخصائى متميز ، فبهان من له العصمة ، والكمال لله تعالى وحده . على أن الذى رد عليه واحترق رأيه - وهو ابن الجوزى - إخصائى متميز أيضاً ، وإليه انتهت الزعامة فى هذا الفن ، حتى إذا أطلق لقب المحقق لم ينصرف إلا إليه « وكم ترك الأول للآخر » .

٤ - وأما ما قرره المحققون من تقسيم لقراءات إلى متواتر وغير متواتر ، فهو تقسيم لا يبنى عن أبى شامة شيئاً فى رأيه هذا ، لأن كلامهم هناك كان فى مطلق القراءات ، أما كلامنا وكلام أبى شامة هنا فهو فى خصوص لقراءات السبع . وبينهما برزخ لا ينفكان .

### الآراء فى القراءات الثلاث للعصمة للعشر :

لقد عمت فيما سبق ما قيل فى القراءات السبع من أنها متواترة أو غير متواترة . أما القراءات الثلاث لمصلحة للعشر ، فقيل فيها بالتواتر ، ويعرى ذلك إلى ابن السبكي . وقيل فيها « بصحة فقط » ، ويعرى ذلك إلى الحلال المحلى . وقيل فيها « بالشدود » ، ويعرى ذلك إلى الفقهاء الذين يعتبرون كل ما وراء القراءات السبع شاذاً .

التحقيق نواتر القراءات العشر كلها :

والتحقيق الذى يؤيده الدليل ، هو أن القراءات العشر كلها متواترة ، وهو رأى المحققين من الأصوليين والمراء كان السبكي وابن الجزرى والنويرى ، بل هو رأى أى شامة فى نقل آخر صححه النجاشى عنه ، وحوّ وأل تكون أى الألف مذكوراً عليه ، أو فالة أول أمره ثم رجع عنه بعد ولعل من الصواب والحكمة أن أتراء الكلام هما للمحقق ابن الحررى ، يصول فيه وبحول ، ويسهب ويصرب ، واصماً للحق فى صا ، دفعاً للخطأ وشهادة . فاقراء واصبر على الإكثار والتطويل ، فإن اللقم دقيق وحيل ، « وَلَا تُعَيِّنْكَ مِثْلُ حَبِيرٍ »

قال - رحمه الله - فى كتابه معجم المفردين ، ابتداء من الصعقة السابعة والخمسين ما نصه .

( الفصل لثانى فى أن القراءات العشر متواترة قرشاً وأصولاً ، حال اجتماعهم وافتراقهم ، وحلّ مشكل ذلك ) اعلم أن العلماء بالغوا فى ذلك نصياً وإنشائياً ، وأدأكر أحوال كلّ ثم أبين الحق من ذلك أما من قال بتواتر المرش<sup>(١)</sup> دون الأصول فابن الحاجب . قال فى مختصر الأصول له : « القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء ، كالمذ والإمالة وتخميف الممره ونحوه » اه فرعم أن المذ والإمالة وما أشبه ذلك من الأصول كالإدغام ورفيق القراءات ومعجم اللامات ونقل بحركة وسهيل الممره ، من قبيل الأداء وأنه غير متواتر وهذا قول غير صحيح كما سنبينه

(١) يراد بالمرش الحرفيات التى يقع الخلاف فى قراءتها ولا تقاس عليها كقراءة « يَحْدُغُونَ » فى سورة البقرة لا تقاس عليها ما جاء فى سورة النساء من كلمة « يَحْدُغُونَ » الله مع أن الخلاف وقع فى قراءة الأولى . ويراد بالأصول اسكليات التى تدرج تحتها جميع الحرفيات المتماثلة ، كمواعد مذ والهمر والإمالة

أما مدّه فأطلقه ونحوه ما يركب المعرفت ، وبه إما أن يكون طبعياً أو عريضاً .  
والطبيعي هو الذي لا تقوم ذات حروف لمد مدونه ، كالألف من قال ، والواو من تقول ،  
ولياء من قيل . وهذا لا يقو لمعلم لعدم تواتره ، إذ لا تمكن قراءة مدونه والمد  
العرصي هو الذي يعرض ويده على الطبيعي لموجب إما سكوت أو همز فاما السكون فقد  
يكون لازماً كما في فوائح السور ، وقد يكون مشدداً نحو « آلم ، ق ، ن ، ولا اصالين »  
ونحوه ، فهذا بلحق بالطبيعي لا يجوز فيه قصر ، لأن المد قام منهم حرف توصلاً للذوق  
بالساكن . وقد أجمع المحققون من الناس على مدّه قدرأ سواء . وأما الهمز فعلى قسمين :  
( الأول ) إما أن يكون حرف المد في كلمة والهمز في أخرى وهذا تسميه لقراء منفصلاً ،  
واحتشوا في مدّه وقصره ، وأكثرهم على مدّه . فادعوه عدم تواتر المد فيه ترجيح بلا مرجح ،  
ولو قال العكس لكان أظهر لشبهته ، لأن أكثر قراء على للمد . ( الثاني )  
أن يكون حرف المد والهمز في كلمة واحدة ، وهو الذي يسمى متصلاً . وقد أجمع القراء  
صلياً وحلقاً من كبير وصغير وشريف وحفير ، على مدّه ، لا خلاف بينهم في ذلك  
إلا ما روى عن بعض من لا يؤول عليه بطريق شاذة فلا يجوز بقراءة به . حتى إن إمام  
الرواية أيا انقسم الهدى - الذي دخل المشرق والمغرب وأخذ القراءة عن ثلاثمائة وخمسة  
وسعين شيخاً ، وقال : رحمت من آخر المقرب إلى فرعاء يميناً وشمالاً ، وجبالاً وبحراً ،  
وألف كتابه الكامل الذي جمع فيه بين الذرة وأذن الجرة ، من صحيح وشاذ ومشهور  
ومسكّر - قال في باب المد في فصل المتصل : « لم يختلف في هذا الفصل أنه ممدود على  
وغيره واحد ، فالقراء فيه على عطف واحد ، وقد روي ثلاث أبحاث - إلى أن قال وذكر  
العراقي أن الاختلاف في مد كلمة واحدة كالاختلاف في مد كلمتين ، ولم أسمع هذا خبره .  
وطلما مارست انكتب والماء فلم أحد من يجعل مدّه - كلمة الواحدة كذا - كلمتين  
إلا العراقي » قلت - والعراقي هو منصور بن أحمد المنفرد كان بحر سن - وقد أحصا

في ذلك ، وشيخه الذين قرأ عليهم نعرهم : الإمام أبو بكر بن مهرون ، وأبو العرج  
 الشمودي ، وإبراهيم بن أحمد بن وري ، ولم يرو عنهم شيء من ذلك في طريق من الطرق .  
 فإذا كان ذلك يحسن من الحاح أو من هو أكبر منه على أن يقدم على ما أجمع  
 عليه فيقول : هو غير متواتر ، فهذا أقسام المد العرسي أيضاً متواترة : لا يشك في ذلك  
 إلا جاهل . وكيف يكون المد غير متواتر وقد أجمع عليه الناس خلفه عن سلف ؟

فإن قيل : قد وجدنا القراء في بعض الكتب كاتبيين للمعاني وغيره ، جعل  
 لهم فيما مدّ لهم مراتب في المد إشباعاً وتوسطاً وفرقة ودونه ، وهذا لا ينصبط ؛ إذ للمد  
 لا حد له . وما لا ينصبط كيف يكون متواتراً ؟ قلت : نحن لا ندعي أن مراتبه متواترة ،  
 وإن كان قد ادّعى طائفة من القراء والأصوليين . بل نقول : إن المد العرسي من حيث  
 هو متواتر مقطوع به قرأه النبي ﷺ ، وأمر الله تعالى عليه ، وأنه يس من قبيل الأداء ،  
 فلا أقل من أن نقول : القدر المشترك متواتر . وأما ما زاد على القدر المشترك كمد صم وحمة  
 وورش ، فهو إن لم يكن متواتراً فصحيح مستفاد من<sup>(١)</sup> متلقي بالقبول . ومن ادعى تواتر  
 الرائد على القدر المشترك فليبين .

وأما الإمالة على نوعين ، فهي وصدها لفتن فاشيتن من الأحرف السبعة التي نزل بها  
 القرآن ، مكتوبتان في المصاحف ، متواترتان ، وهل يقول أحد في لغة أجمع المصاحفة  
 والمسلمون على كتابتها في المصاحف إنها من قبيل الأداء ؟ وقد نقل الحافظ الخجة أبو عمرو  
 الداني في كتابه إيجاز العيان الإجماع على أن الإمالة لغة الله تبارك وتعالى ، دعاهم إلى الذهاب  
 إليها لتيسر الحمة . وإن الإمام أبو القاسم الهذلي في كتاب الكامل من الإمالة والتعجيم  
 معتار ليست إحداها أقدم من الأخرى : بل بل القرآن بها جميعاً . إلى أن قال : والخجة

بعد لتحويل أن من قال: إن الله تعالى لم يبرن القرآن بالإمالة أخطأ وأعظم العزبة على الله تعالى، وطئ بالصحة خلاف ما عليه من الورع والتقى.

قلت: كأنه يشير إلى كونهم كتبوا بالإمالة في المصاحف نحو «يحيى، وموسى، وهدي، ويسى، والهدى، وبشيبه، وحليها، وآسي، وتيسسكم» وما أشبه ذلك مما كتبوه بانياء على لغة الإمالة، وكتبوا مواضع تشبه هذا بالآلاف على لغة الفصح، منها قوله عز وجل في سورة إبراهيم: «وَمَنْ عَصَاكَ فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ» حتى إنهم كتبوا «تَعْرِفُهُمْ بِسَمَائِهِمْ» في البقرة بانياء، وكتبوا «سَيَمَانُ فِي وَجُوهِهِمْ» بالآلاف وأي دليل أعظم من ذلك؟

قال الهذلي: وقد أجمعت الأمة من لدن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا على الأخذ والقراءة والإقراء بالإمالة والتفخيم. وذكر أشياء، ثم قال: وما أحد من القراء إلا رويت عنه إمالة قلت أو كثرت - إلى أن قال - وهي (بنى الإمالة) لغة هوارن، وبكر بن وائل، وسعد بن بكر.

وأما تخفيف الهمزة ومحوه من النقل والإدغام وترقيق الراءات وتفخيم اللامات فتواتر قطعا، معلوم أنه من من الأحراف السبعة، ومن لغات العرب الذين لا يحسنون غيره، وكيف يكون غير متواتر أو من قبيل الأداء؟ وقد أجمع القراء في مواضع على الإدغام في مثل «مُدِّكِرٍ، أَنْفَلَتْ»<sup>(١)</sup> دَعَا اللَّهَ رَهْمًا، مَلَكٌ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ، وكذلك أجمع القراء في مواضع على تخفيف الهمزة نحو «الآلَ، آلهُ، آندَ كَرِيْنِ» في الاستمهام، وفي مواضع على النقل نحو «لَيْسَ كُفُوًا لَّهِ رِيٌّ»، و«بَرِيٌّ، دَرِيٌّ» وعلى ترقيق الراءات في مواضع نحو «جِرْعَوْنَ، وَجِرْمَةٌ» وعلى تفخيم اللامات في مواضع نحو اسم الجلالة بعد الصصة والفتحة.

(١) لعله يريد إدغام التاء في الدال



وأجمع الصحابة - وصواب الله عليهم - على كثرة المهر الثانية من قوله أدى في آل  
 عمران : « أَوْ تَشْكُم » ، أو قال أبو عمرو الداني وغيره ، إنما كثرت وذلك على إرادة  
 تسمين المهر بين بين ٥ . وكيف يكون ما أجمع عليه القراء إنما عن أم غير متواتر ، وهذا  
 كان مدّ وتحييف المهر ، ولإدغام غير متواتر على الإطلاق ، فإدى يكون متواتراً أقصر  
 « ألم ، ودانية ، وأدبلك » ، أدى مقرأ به أحد من الناس ؟ أم تحيف مهر « ألد كرين ،  
 الله » ، الذى أجمع الناس على أنه لا يجوز ، وأنه لحسن ؟ أم إظهار « مدكر » ، الذى  
 أجمع الصحابة والمفسرون على كثرتة وتلاوته ، ولإدغام ، فبقت شعري من أدى فقدمه  
 قبل هذا القول ، فبقى أثره . ولظاهر أنه ما سمع قول الناس : إن النوار فيما ليس من  
 قبيل الأداء ، ظل أن السد والإمالة وتحيف المهر ونحوه من قبيل الأداء . فقل  
 غير معك فيه . وإلا فاشيح أبو عمرو ، فذكر فيه ، ما أقدم عليه ، أو لو وقف على  
 كلام إمام الأصوليين من غير مداومة ، فمضى إلى تكرس الطيب القلاني في كتاب  
 الانتصار ، حيث قال : « جميع ما قرأ به قراء الأمصار ما اشتهر عنهم استعاض بقوله  
 ولم يدخله في حكم الشدود ، بل رآه سائماً حائراً من مهر وإدغام ومدّ ، وتشديد وحذف  
 وإمالة ، أو ترك ذلك كله أو شيء منه ، أو تقديم أو تأخير ، أو به كنه مبرور من عند  
 الله تعالى ، وبما وقف الصحابة على صحته ، وخير منه وبين غيره ، وصوب للجميع  
 القراءة به قال . ولو سوغنا بعض القراء إمالة ما لم يُبَيِّنْهُ الرسول صلى الله عليه وسلم  
 والصحة أو غير ذلك ، لسوغنا لهم جميع قراءة الرسول الله صلى الله عليه وسلم  
 ثم أطال رحمه الله - الكلام على تقدير ذلك ، وحوّر أن يكون سبيحاً أقرأ واحداً  
 بعض القراء بحرف وبه صه بحرف آخر ، على ما قد برأه أبسر على انقاري ٥ ١٥ .  
 قلت : وظهر من هذا أن اختلاف القراء في الشيء ، أو أحد مع اختلاف المواضع قد  
 أحده الصحاح كذلك من رسول الله ﷺ ، وأقرأه كذلك ، إلى أن اصل بالقراء .  
 نحو قراءه حصص « تحريها » ، بالإمالة فقط ، ولم يُبَيِّنْ في القرآن غيره ، وقراءة ابن عامر

« إنزاعه » في مواضع محصورة ، وقراءه أنى حعفر « يُحْزِر » في الأنبياء فقط بهم انبياء وكسر الزاي . وفي « في القرآن مفتاح انبياء وصم الزاي ، وقراءه دفع عكس في جميع القرآن بهم الياء وكسر الزاي إلا في الأنبياء فإنه فتح الهاء وضم الزاي ، وشبه ذلك مما يقول القراء عنه : جمع بين اللفتين .

وليت الإمام ابن الحاجب أخلى كتابه من ذكر القراءات وتواترها ، كما أحلى غيره كتبهم منها . وإذا قد ذكرها ميتة لم يتعرض إلى ما كان من قبيل الأداء . وإذا قد تعرض فليقه سكت عن التمثيل ، فإنه إذا ثبت أن شيئاً من القراءات من قبيل الأداء لم يكن متواتراً عن لبي (عليه السلام) ، كتقسيم وقف حمزة وعشام وأبواب تسهيله ، فإنه وإن تواتر تخفيف الهمز في الوقف عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فم يتواتر أنه وقف على موضع محسب وجهاً ولا بمشرين ولا بنحو ذلك . وإنما إن صحَّ شيء منها قَوْحَةً ، والباقي لاشك أنه من قبيل الأداء (١) .

ولم قال ابن السكيت في كتابه جمع الجوامع : « والسبع متواترة ، قيل : فيما ليس من قبيل الأداء كالمدة والإمالة وتخفيف الهمز ونحوه » وسئل عن ريدته عن ابن الحاجب « قيل » : لاختصاصه أن ما هو من قبيل الأداء كالمدة والإمالة إلى آخره متواتر فاجاب - رحمه الله - في كتابه منع لموضع : أعلم أن السبع متواترة ، وللمدة متواترة ، والإمالة متواترة ، كل هذا بين لا شك فيه . وقول ابن الحاجب : « فيما ليس من قبيل الأداء » صحيح لو نخره عن قوله كالمدة والإمالة لكن تمثيلاً لهما أو حباً منه كما سمعنا من بعض ، ولذلك قال : « قيل » : ليس أن القول بأن المدة والإمالة والتخفيف - سبعة متواترة

(١) نعلك فهمت أن مرادهم بكلمة « من قبيل الأداء » ما يتصل بتقدير الأصوات المتواترة مثلاً المدة للهمز أصل جاء متواتراً ، أما تقديره أربع حركات أو صوت فليس متواتراً ، لأنه لا سهل صغره . وقيل فيه « المواتر أيضاً »

صحيح عنده ، بل هي متواترة . ثم أحيد كركر اللد والإمالة وانتحيف - إلى أن قال -  
فإذا عرفت ذلك فكلامنا قص متواتر السمع ومن السمع مطلق اللد والإمالة وتتحيف  
الهمز بلا شك .

أما من قال : إن لقراءات متواترة حل اجتماع اقراء لاحال افتراقهم ، فهو شامة  
في في الإرشد الموحى في الباب الخامس منه : « في القراءات المنسوبة إلى كل قاري من  
السبعة وغيرهم منسوبة إلى المجمع عنده ، والشاذ ، غير أن هؤلاء السبعة شهرتهم وكثرة  
الصحيح في قراءاتهم تركب النفس إلى ما أهل عنهم فوق ما نقل عن غيرهم . فما نسب  
إليهم وفيه إسكار أهل اللغة وغيرهم ، اجمع بين الساكنين في «اءات النرى» ، وإدغام  
أى عمرو ، وقراءه حمزة « فاستصعوا » وتسكين من أسكن « بارئكم » ونحوه  
« وسأ » ، « يابى » ، « ومكر السبي » ، « وإشباع الياء في « يرتقى » ، « ويتقى » ، « ويصر »<sup>(١)</sup>  
وأخذت من الناس « وقراءه « ملائكة » مفتاح الهمزة ، « وهر » « سد فها »<sup>(٢)</sup> « وحفص  
« والأر حام » في أول السد ، « وصب » « كن فيكون » والعصل بين المنتصايين في الأعمام ،  
وعبر ذلك ، إلى أن قال : وكل ذلك محمول على قلة ضبط الرواة فيه ، ثم قال :  
وإن صحَّ النقل فيه فهو من نقايا الأحرف السبعة التي كانت لقراءة اللبحة عليه على  
ما هو حائز في العربية ، فصيحاً كال أو دون ذلك . وأما بعد كتابة المصاحف على  
اللفظ المراد ، فلا يسعى قراءة ذلك اللفظ إلا على اللغة الفصحى من لغة قرش وما نسبها ،  
حالا لقراءة النبي صلى الله عليه وسلم وإسادة من أصحابه على ما هو اللائق ، فإنهم  
إنما اكتنوه على لغة قریش ، فكذا قراءتهم به . قال : وقد شاع على ألسنة جماعة من  
المقرئين المتأخرين وغيرهم من المتأخرين : أن القراءات السبع كلها متواترة ؛ أى في

(١) كذا بالأصل فتأمل

(٢) لعل الصواب « سوقيه » من قوله سبحانه ، « فاستَوَى عَلَى سَوَاقِهِ » فقد ر .

كل فرد ممن روى عن هؤلاء الأئمة السمة . قالوا : ولقطعناها مرة من عند الله تعالى واحب . قال : ونحن بهذا نقول ، لكن فيها اجتمعت على نقله عنهم الطارق ، واتفقت عليه العرق من غير تكبير له ، مع أنه شاع واشتهر واستعاض ، فلا أقول من اشتراط ذلك إذا لم يفتق التواتر في بعضها .

فانظر يا أخى إلى هذا الكلام الساقط ، الذى خرج من غير تأمل ، للتناقض ، في غير موضع في هذه الكلمات البسيرة ! أو قفت عليه شيخنا الإمام ولي الله تعالى أباعبد ابن محمد بن محمد الجالى رضى الله عنه ، فقال : ينبغي أن يُعدم هذا الكتاب من الوجود ولا يظهر الأئمة ، وإنه طعن في الدين . قمت : ونحن - بشهد الله - أننا لا نقصد إسقاط الإمام أبى شامة ، إذ الجواد قد يثر ، ولا يجهل قدره . بل الحق أحق أن يُنبع . ولكن نقصد التنبيه على هذه الزلة المزلة ، ليحذر منها من لا معرفة له بأقوال الناس ولا اطلاع له على أحوال الأئمة .

أما قوله : « فما نسب إليهم وفيه إنكار أهل اللغة الخ » فغير لائق بمثله أن يجعل ما ذكره منكراً عند أهل اللغة . وعلماء اللغة والإعراب الذين عليهم الاعتماد سلفاً وخلفاً ، يوجهونها ويستدلون بها . وأنى يسمهم إنكار قراءة تواترت أو استفاضت عن رسول الله ﷺ إلا نوبس لا اعتبار بهم لا معرفة لهم بالقراءات ولا بالآثار ، جحدوا على ما علموا من القياسات ، وظنوا أنهم أحاطوا بجميع لغات العرب أفصحها وفصيحتها ، حتى لو قيل لأحدهم شئ من القرآن على غير النحو الذى أنزل الله يوافق قياساً ظاهراً عنده ولم يقرأ بذلك أحد ، أقطع له ماصحة . كما أنه لو سئل عن قراءة مشوارة لا يعرف لها قياساً لأكرها ولقطع شدوذا ، حتى إن بعضهم قطع في قوله عز وجل : « مَالِكٌ لَا تَآمَنَّا » بأن الإدغام الذى أجمع عليه الصحابة رضى الله عنهم والسلمون نحن وأنه لا يجوز عند العرب ، لأن الفعل الذى هو تآمن مرفوع ، فلا وجه لسكونه حتى يدعم في الوزن التى تليه !

عائظ يا أحمى - إلى قلة حياء هؤلاء من الله تعالى . يعملون ماعرفوه من القياس أصلاً والقرآن والعظيم فرعاً حاشا العلماء المتقدي بهم من أئمة اللغة والإعراب من ذلك بل يمشون إلى كل حرف مما تقدم وبحوه ، بماعون في توحيه والإسكار على من أمكروه . حتى إن إمام اللغة والنحو أبا عبد الله محمد بن مالك قال في منظومته السكاكية الشافعية في الفصل بين المتضامين :

« وَعُمِدَتِي قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ فَكَمْ لَهَا مِنْ عَاضِدٍ وَنَاصِرٍ »

ولو لا خوف الطول وخروج الكتاب عن مقصوده ، لأوردت مازعم أن أهل اللغة أنكروه ، وذكرت أقوالهم فيها ، ولكن إن مد الله في الأجل ، لأضمن كتاباً مستغلاً في ذلك ، يشفي القلب وبشرح الصدر ، أذكر فيه جميع ما أنكروه من لا معرفة له بقراءة السبعة والعشرة .

والله در الإمام أبي نصر الشيرازي حيث حكى في تفسيره عند قوله تعالى « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ » كلام الزجاجي في تضعيف قراء الخلفاء . ثم قال : ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين ، لأن القراءات التي قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فمن رد ذلك فقد رد على النبي ﷺ واستفح ما قرأ به . وهذا مقام محظور لا يقدر فيه أئمة اللغة والنحو . ولعلمهم أرادوا أنه صحيح فصيح وإن كان غيره أفصح منه ، فإننا لاندعي أن كل ما في القراءات على أرفع الدرجات من الفصاحة .

وقال الإمام الحافظ أبو عمرو الداني في كتابه جامع البيان ، عند ذكر إسكان « يَأْمُرُكُمْ وَيَأْمُرُكُمْ » لأنهم ومن العلماء : « وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الألف في اللغة والأفيس والعربية . بل على الألف في الأثر والأصح في

التقل والرواية إذا ثبتت عندهم لم يردّها قياس عربية ولا مشوّمة ، لأن للقراءة سنة متبعة ، فارم قبولها والمصير إليها .

قلت : ثم لم يكف الإمام أبا شامة حتى قال : « فكل ذلك ( يعني ما تقدم ) محمول على قلة ضبط الرواة » لا والله . بل كله محمول على كثرة الجهل من لا يعرف لها أوجها وشواهد صحيحة تخرج عليها ، كما سنبيته إن شاء الله تعالى في الكتاب الذي وعدنا به آنفاً ، إذ هي ثابتة مستفاضة ؛ وروايتها أئمة ثقات . وإن كان ذلك محمولاً على قلة ضبطهم ، فليت شعري أكان الدين قد هان على أهله ؟ حق يحيى . شخص في ذلك الصدر يدخل في القراءة بقلة ضبطه ما ليس منها ، فيسمع منه ويؤخذ عنه ، ويقرأ به في الصلاة وغيرها ، وبذلك الأئمة في كتبهم ، ويقرءون به ويستفاض ، ولم يزل كذلك إلى زماننا هذا لا يمنع أحد من أئمة الدين القراءة به ، مع أن الإجماع معتقد على أن من زاد حركة أو حرفاً في القرآن أو نقص من تلقاء نفسه مُصرّاً على ذلك بكفر ؛ والله جلّ وعلا تولى حفظه : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » .

وأعظم من ذلك تنزهه ؛ إذ قال : « وعلى تقدير صحتها وأنها من الأحرف السبعة ، لا ينهى قراءتها ، » محلاً لقراء النبي ﷺ وأصحابه على ما هو السائق بهم . فإذا كان النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم لم يقرءوا بها مع تقدير صحتها وأنها من الأحرف السبعة ، فمن أوصلها إلى هؤلاء الذين قرءوا بها .

ثم يقول : « فلا أقل من اشتراط ذلك » يعني اشتراط الشهرة والاستعانة . قلت : ألا تنظرون إلى هذا القول ؟ ثم أحد في الدنيا يقول : إن قراءة ابن عامر وحزرة وأبي عمرو ومن اجتمع عليه أهل الحرمين وإشام أبي جعفر وبامع وابن كثير وابن عامر ، وقراءة

المرى وقيل وهشام ، إن تلك غير مشهورة ولا مستعانة وإن لم تسكن متواتره ١٩  
هذا كلام من لم يدر ما يقول ، حاشا للإمام أبوشامة منه وأما من ورط اعتقادي فيه  
أكاد أحرم بأنه ليس من كلامه في شيء ، ربما يكون بعض الجهلة المتعصين الخلفه بكتابه ،  
أو أنه ألف هذا الكتاب أول أمره ، كما يقع لكثير من المصنفين ، وإلا فهو في غيره من  
مصنفاته كشرحه على الشاطبية ، بالغ في الانتصار والعرجية لقراءة حمزة « والأرحام »  
بالخفص ، والفصل بين المتضامين . ثم قال في الفصل : ولا التفات إلى قول من زعم أنه  
لم يأت في الكلام مثله ، لأنه باف ، ومن أسند هذه القراءة مثبت والإثبات مرجع  
على النفي بالإجماع . قل : ولو نقل إلى هذا الزاعم عن العرب أنه استعمله في النشر  
لرجع عن قوله . فإله ما يكتفى بناقلي القراءة من التابعين عن الصحابة رضي الله عنهم  
ثم أخذ في تقرير ذلك . قلت : هذا الكلام مباين لما تقدم ، وليس منه في شيء . وهو  
الأليق بمنه ، رحمه الله .

ثم قال أبوشامة في المرشد بعد ذلك القول : « فالخاصل أن اسما من يلتزم التواتر  
في جميع الألفاظ المختلف فيها » . قلت : وعن كذلك ؛ لكن في القليل منها ، كما تقدم  
في الباب الثاني (١) .

قال : « وغاية ما يديه مدعى تواتر المشهور منها ، كدغام أبي عمرو ، ونقل الحركة  
نورث ، وصلة ميم الجمع وها السكتاية لابن كثير ، أنه متواتر عن ذلك الإمام الذي أسست  
تلك القراءة إليه بعد أن يجهد نفسه في استواء الطارقين والواسطة ، إلا أنه بقي عليه التواتر

(١) يشير بذلك إلى مثل قراءة هشام « أفئذه » بياء بعد الحمز . فإنه اعتبره صحيحا  
مقطوعاً به وإن لم يتواتر ، لأن استه صته وموافقة الرسم والعربية قرائن مثلها يعيد العلم  
في غير المتواتر . انظر المسند ص ١٩ .

من ذلك الإمام إلى النبي ﷺ في كل فرد فرد من ذلك . ومن ثم نكتب العبرات ، فيها من ثم لم يبق لها إلا آحاد إلا اليسير منها .

قلت : هذا من جسد ذلك الكلام للتقدم . أوقفت عليه شيخنا الإمام واحد زمانه شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب ببيروند لشافعي ، فقال لي : معذور أبو شامة ، حيث إن القراءات كالحديث ، يخرجها كمنهج ، إذا كان مدارها على واحد كانت آحادية ؛ ونفى عليه أنها نسبت إلى ذلك الإمام اصطلاحاً ؛ وإلا فكل أهل بلدة كانوا يقرأونها أخذوها أمّا عن أم . ولو انفرد واحد بقراءة دون أهل بيته لم يوافقه على ذلك أحد ، بل كانوا يحتنبونها ويأمرون باجتنابها .

قلت : صدق . وما يدل على هذا ما قال ابن مجاهد : قال لي قتيل : قال القواس في سنة سبع وثلاثين ومائتين : اق هذا الرجل ( يعني البري ) قتل له : هذا الحرف ليس من قراءتنا . يعني « وما هو بعيت » مخففاً . وإنما يخفف من الميت من قد مات ، ومن لم يميت فهو مشدد . فقلت البري فأخبرته ، فقال له : قد رجعت عنه . وقال محمد بن صالح : سمعت رجلاً يقول لأبي عمرو : كيف تقرأ « لا يعضد » عدا به أحد . ولا يوتئ وثقه أحد ؟ فقال : « لا يعضد » بالكسر . فقال له الرجل : كيف ؟ وقد جاء عن النبي ﷺ « لا يعضد » بالفتح . فقال له أبو عمرو : لو سمعت الرجل الذي قال : سمعت النبي ﷺ ما أخذته منه . أو تدري ما ذلك ؟ لأني أتهم الواحد الشاذ إذا كان على خلاف ما جاءت به العامة . قال الشيخ أبو الحسن السجّادي : وقراءة الفتحة أيضاً شاذة بالتواتر . قلت : صدق ؛ لأنها قراءة الكسائي . قال السجّادي : وقد تواتر الخبر عند قوم دون قوم وإنما أسكرها أبو عمرو ؛ لأنها لم تبلفه على وجه لتواتر .

قلت : وهذا كان من شأنهم على أن تعيين هؤلاء القراء ليس بلام ، ولو عين غير



هؤلاء لحاز ونعيمهم إما انكسروا تصدوا للإقراء أكثر من غيرهم ، أو لأنهم شيوخ  
المعين كما تقدم . ومن ثم كره من كره من السلف أن تنسب القراءة إلى أحد . روى  
ابن أبي داود عن إبراهيم النخعي قال . كانوا يكوهون سعد فلان وقراءة فلان . قلت :  
وذلك حوقاً مما توهمه أبو شامة من انصرائه إذا نسبت إلى شخص تنكون آحادية . ولم يذكر  
أن كل قراءة نسبت إلى قارئ من هؤلاء كان قراؤها من قارئها وقبيلها أكثر من قرائنها  
في هذا الزمن وأصنافهم . ولو لم يكن المراد القراء متواتر الكان بعض القرآن غير متواتر  
لأما محد في القرآن أحرفاً تختص القراء فيها ، وكل منهم على قراءة لا توافق الآخر ،  
كأرحه وغيرها ، فلا يكون شيء منها متواتراً . وأيضاً قراءة من قرأ «مالك» و«بجاءعون»  
فكثير من القرآن غير متواتر ، لأن التواتر لا يثبت مائتين ولا ثلاثاً .

قال الإمام الحميري في رسالته : وكل وجه من وجوه قراءته كذلك (يعني متواتراً)  
لأنها أصاحه . ثم قال : يظهر من هذا صناديق قول من قال : هو متواتر دونها ، إذ هو عبارة  
عن مجموعها .

ثم قال ابن الجوزي : وما يحقق لك أن قراءة أهل كل بلد متواترة بالنسبة إليهم  
أن الإمام الشافعي رضي الله عنه حمل البسمة من القرآن مع أن روايته عن شيبه مالك  
فتنصى عدم كونها من القرآن ، لأنه من أهل مكة وهم يشتقون البسمة بين السورتين  
ويملأونها من أول الفاتحة آية ، وهو قرأ قراءة ابن كثير على إسماعيل القسطنطيني  
ابن كثير ، فلم يعتمد في روايته عن مالك في عدم البسمة ، لأنها آحاد ، واعتمد على  
قراءة ابن كثير لأنها متواترة ، وهذا لطيف فتأمل ، وإنني كنت أحد في كتب أصحابنا  
يقولون : إن الشافعي رضي الله عنه روى حديث عدم البسمة عن مالك ولم يعول عليه ،  
مدل على أنه ظهرت له فيه علة ، وإلا لما ترك العمل به . قلت . ولم أر أحداً من أصحابنا

بين اللمعة ، فيها أما لينة مفكرو ، إذ فتح الله تعالى ، تقدم - والله تعالى أعلم - أنها هي  
اللمعة . مع أي قرأت قرآن روية إمامنا الشافعي عن ابن كثير كالبري وقيل  
ولد علم بذلك بعض أصحابنا من كبار الأئمة الشافعية قال لي : أريد أن أقرأ عليك  
القرآن بها

ومما يربطك تحفيظاً ما قاله أبو حاتم السجستاني ، قال : أول من تنبع «سورة وجوه»  
انقراءات وألفها وتتمتع لشاذ منها هارون بن موسى الأعمور ، قال : وكان من  
القرء . فكرو الناس ذلك ، وقالوا : قد أساء حين ألفها . وذلك أن القراءة إنما  
يأخذها قرون وأمة عن أهواء أمة ، ولا يلتفت منها إلى ما جاء من راي راي . قلت : يعني  
آحاداً آحاداً

وقال الحافظ العلامة أبو سعيد خليل كيكدي اعلافي في كتابه المجموع بهذه :  
وللشيخ شهاب الدين أبي شامة في كتابه المرشد الوخير وغيره كلام في الفرق بين انقراءات  
السمع<sup>(١)</sup> والشاذة منها . و<sup>(٢)</sup> «كلام غيره من متقدمي القراء ما يوهم أن انقراءات  
السمع ليست متواترة كلها ، وأن أعلاها ما اجمع فيه صحة لسند وموافقة خط  
المصحف الإمام والعصيح من لغة العرب ، وأنه يكفي فيها الاستعانة ، وليس الأمر  
كما ذكر هؤلاء . والشبهة دحت عنهم مع انحصار أسانيدنا في رجال مرويين ، وظنوها  
كاحتماد الآحاد<sup>(٣)</sup> .

(١) كذا بالأصل . ولعله قد سقطت هنا كلمة « المتواتر » ، ولعل كلمة « والشاذة »  
أصلها « والشاذ » بدون تاء مرسوطة . فتدبر .

(٢) كذا بالأصل . ولعله قد سقطت هنا كلمة « في » ويكون الصواب : « وفي كلام

غيره » فتأمل

(٣) لعل أصله : « وظنوها كأخبار الآحاد » .

قلت : « وقد سألت شيخنا إمام الأئمة أبا المعالي رحمه الله تعالى عن هذا الموضع فقال : المحصار الأساسي في طائفة ، لا يمنع مجيء القرآن عن غيرهم . فلقد كان يتلقاه أهل كل بلد ، يقرؤه منهم الحزم العمير عن مثلهم ، وكذلك دائماً ، والتواتر حاصل لهم . ولكن الأئمة الذين تصدوا لضبط الحروف وحفظوا شيوخهم منها وجاء السند من حمهم<sup>(١)</sup> . وهذه الأحاديث الواردة في حجة الوداع ومحوها أحلى<sup>(٢)</sup> ، ولم تزل حجة الوداع صقولة ، من<sup>(٣)</sup> يحصل بهم التواتر عن مثلهم في كل عصر ، فهذه كذلك . وقال : هذا موضع ينبغي التنبيه له . انتهى والله أعلم . »

ذلك ما قاله العلامة ابن الحرري في هذا المقام من كتابه المسند ، ولعله فصل الخطاب في هذا الموضوع ، ولذلك آثرا أن نقله إليك محاولين حسن عرصة وضبطه والتعليق عليه مختصراً بقدر الإمكان . ولقد كنت أود أن تكون النسخة التي نقلتُ منها أكثر تحريراً مما رأيت ، ولكن ما الحيلة ؟ وهي أول طبعة عن نسخة مخطوطة رواق المغاربة من الأثر الشريف ، ومن شأن البدايات أن يكون فيها نقص ، ثم تصير إلى الكمال في النهاية إن شاء الله .

(١) (٢) لعل في هذين الموضعين سقطاً .

(٣) صواب هذه النسخ أن تكون ميباً أو ميباً أو ميباً .

## ب - القراء

القراء جمع قارئ، وهو في اللغة اسم فاعل من قرأ، وبصق في الاصطلاح على إمام من الأئمة المعروفين الذين نسب إليهم القراءات السابقة، وقد سردنا عليك أسماءهم، وتجهلك هذا نبذة قصيرة عن كل واحد من مشهورهم وعن بعض من أشهر الرواة عنه، لتطلع على لمحة من قصصهم، ولتتقصص اتصالاً عسياً بهذه الفئة الكريمة التي لها هذا الأثر الرائع في المحافظة على أداء القرآن الكريم تلك الطرق المدوَّبة في جميع أنحاء العالم الإسلامي مدى تلك القرون الطويلة.

وبمن لا يريد هذه الكتابات استقصاء تاريخهم ولا الأدوار التي مرت قراءاتهم، وذلك شوط واسع أفردته بالتأليف جماعة، منهم الذهبي وابن الجسري في طبقات القراء<sup>(١)</sup>.

القراء السبعة رحمهم الله:

### ١ - ابن عامر

اسمه عبد الله البصري، سمي إلى يَحْصُب، وهو فقيه من حمير وبكى أما بصيم، وأبا عمران. وهو تلميذ حليل، تلميذ وائل بن الأُنْثَمِ، والمعمر بن بشير، وقد أخذ القراءة عن المعمر بن أبي شهاب الحنظلي، عن عثمان بن عفان، عن رسول الله ﷺ وقيل إنه

(١) طبقات القراء لابن الحرري عوّلت عليها في تراجم القراء خصوصاً عند الاختلاف بين المراجع، لأنه هو المعروف بالحقق. وهذه المناسبة أريد أن تعني المعجب أو الأسف معي على أن الذي عني بطبع هذا الكتاب وبشره هو السفسفوق لأنني (ج. رحستر) كما سمعت أنه طبع كتاباً مصر أيضاً في القراءات لاس حانوية، ثم نقله إلى بلاده، ومصر كلها محرومة منه.

قرأ على عثمان بن عفان ، وقد توفي بدمشق سنة ١١٨ ثمانى عشرة ومائة ، وقد اشتهر برواية قراءته هشام واسد كوان ، ولكن بواسطة أصحابه .

( وأما هشام ) فقد أحد القراءة عن عيرالك بن خالد المري ، عن يحيى بن الحارث الدمارى ، عن ابن عامر . وكان هشام قاصياً قصبياً محدثاً ثقةً صائفاً ، توفي بدمشق سنة ٢٤٥ حس وأربعين ومائتين .

( وأما ابن دكوان ) فهو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن شير بن دكوان القرشى ، الدمشقى . أحد القراءة عن أيوب بن تميم ، عن يحيى بن الحارث الدمارى ، عن ابن عامر يقول أبو زرعة فيه : « إنه الحافظ الدمشقى ، لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بالشام ولا بمصر ولا بحراسان في زمن ابن دكوان عنده أقرأ منه » ، توفي سنة ٢٤٢ اثنتين وأربعين ومائتين .

وفى ابن عامر وروايته يقول صاحب الشاطبية : -

« وأما دِمَشْقُ الشَّامِ ذَكَرَ ابْنُ عَمْرٍو فَتَلَّكَ بِعَبْدِ اللَّهِ طَائِفٌ مُخَلَّلًا  
هشامٌ ، وعبدُ اللَّهِ ، وهو انْقِسَاءُهُ إِذْ كُوانَ بِالْإِسْمَاعِيلِ عَمَلًا »

٢ - ابن كثير

هو أبو محمد ، أو أبو معبد ، عبد الله بن كثير الدارى . كان إمام الناس فى لقراءة عكة ، تحمى السكينة ويحوطه الوقار اتقى من العناية عبد الله بن الزبير ، وأما أيوب الأصبارى ، وأبى بن مالك

وروى عن معاهد عن ابن عن عباس عن أنى من كتب عن رسول الله ﷺ . وقرأ على عبد الله بن السائب الجرمى . وقرأ عبد الله هذا على أنى من كتب وعمر بن الخطاب . وكلاهما قرأ على رسول الله ﷺ . وتوفى سنة ١٢٠ عشرين ومائة بمكة المكرمة وقد اشتهر بالرواية عنه . ولكن بواسطة أصحابه - أنزى وقنيل

(أما الزبيري) فهو أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن نافع بن أبي ترعة. قاله زبيري نسبة إلى ترعة هذا وهو حذو الأعلى كان إماماً صاحباً ثقة انتهت إليه مشيخة الإقراء بمكة روى عن عكرمة بن سفيان عن شبل بن عباد وإسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين عن ابن كثير. وكان إمام المسجد الحرام ومقرنه ومؤدبه توفي سنة ٢٥٠ حسين ومائتين. (وأما فضل) فهو محمد بن عبد الرحمن بن خالد بن محمد المحرومي المكي بكنى أبا عمر، ويقف بقفل شدته<sup>(١)</sup> كان إماماً في إقراء صاحباً ثقة يؤمه لدا من أقطار الأرض. أحد إقراء عن أبي الحسن أحمد القواسم عن وهب، عن القسط، عن شبل ومعروف، وكلاهما قرأ على ابن كثير. توفي سنة ٢٩١ إحدى وتسعين ومائتين. وفي ابن كثير ورأيه يقول صاحب الشطبية :

« ومكة عبد الله فيها مقامه هو ابن كثير كثير القوم معتلاً  
روى أحمد الزبيري له ومحمد علي سمي وهو الملقب قمتلاً »

### ٣ - عاصم

هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي (والنجود بفتح النون وضم الجيم مأخوذ من محدث الثياب إذا سويت بعضها بعضاً).

كان قارئاً متقناً، آية في التحرير والإنقان والفصاحة وحسن الصوت قراءة القرآن قرأ على زر بن حبیش على عبد الله بن مسعود على رسول الله ﷺ وقرأ أبصاً على أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي، معلم الحسن والحسين.

وقرأ عبد الرحمن هذا على الإمام علي، وأخذ الإمام علي قراءته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي بالكوفة أو ماسجدة سنة ١٢٧ سبع وعشرين ومائة روى عنه شعبة وحمص كلاهما بدون واسطة.

(١) قُتِبِلَ كَقُتِفِدَ : الغلام الحادُّ الرأس الحفيف الروح. ذلك أصل معناه، ثم سمي به محمد بن عبد الرحمن لقاري. انظر القاموس إن شئت.

( أما شعبة ) فهو المشهور بابن عياش بن سالم الأسدي وقيل اسمه محمد، وقيل مطروق، ويكنى أبا بكر لأن شعبة اسم مشترك بينهما وبين أبي سبطاط شعبة بن الحجاج البصري. كان إماماً عالماً كبيراً. توفي بالكوفة سنة ١٩٣ ثلاث وتسعين ومائة .

( وأما حمص ) فهو أبو حمز حمص بن سليمان بن المغيرة الهزلي كان ربيب عاصم: تربي في حجره ، وقرأ عليه ، وتعلم منه كما يعلم الصبي من معلمه ، فلا جرم كان أحق إتياناً من شعبة . توفي سنة ١٨٠ ثمانين ومائة .

وفي عاصم رواه يه يقول صاحب الشاطبية :

« وبالكوفة الفراء منهم ثلاثة      أذاعوا فقد ضاعت شذوي وقرنفل  
فأما أبو بكر وعاصم اسمه      فشعبة راويه للبرز أفضل  
وذاك ابن عياش أبو بكر الرضا      وحفص وبالإتقان كان مفضلًا

#### ٤ - أبو عمرو

هو أبو عمرو زبّان بن العلا عمار البصري . كان من أعلم الناس بالقراءة مع صدق وأمانة وثقة في الدين . روى عن مجاهد بن جبر ، وسعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ . وقرأ على جماعة منهم أبو جعفر وزيد بن القفّاع والحسن البصري . وقرأ الحسن على حطان وأبي العالية . وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب . توفي سنة ١٥٤ أربع وخمسين ومائة

ومن أشهر الرواية عنه الدوري والسوسي ، ولكن بواسطة اليزيدي أبي محمد يحيى بن المبارك المدوي القوف سنة ٢٠٢ اثنتين ومائتين . وسمى باليزيدي نسبة إلى يزيد ابن منصور خال الخليفة المهدي ، لأنه كان يؤدب ولده .

(أما الدورى) فهو أبو عمر حمص بن عمر المقرئ العمري، ولقب بالدورى سنة إلى الدور، وهو موصف بالخاطب الشرقى من بغداد، كان ثقة صائفاً؛ أول من جمع القراءات روى عن اليربدي عن أبي عمرو، وتوفى سنة ٢٤٦ هـ وأربعين ومائتين (وأما السوسى) فهو أبو شبيب صالح بن رباح، روى عن اليربدي عن أبي عمرو. وكان ثقة صائفاً. توفى سنة ٢٦١ هـ إحدى وستين ومائتين.

وفى أبي عمرو وروايته بقول صاحب الشطبية

« وَأَمَّا الْإِمَامُ الْمَكْرِيُّ صَرَّيْحُهُمْ      أَبُو عَمْرٍو الْمَقْرِيُّ قَوْلُهُ الْعَلَا  
أَمَّا صَ عَلَى يَحْيَى الْيَرْبَدِيُّ سَيِّمُهُ      فَصَحَّ بِالْعَذِّبِ انْفِرَاتٍ مُعَلَّلَا  
أَبُو عَمْرٍو الدُّورِيُّ وَصَالِحُهُمْ أَوْ      شُعَيْبٍ هُوَ السُّوسِيُّ عَمُّهُ تَقْلَلَا »

### • حمزة

هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الرباط الكوفي مولى عمركة بن ربيع التميمى. قرأ على أبي محمد سليمان بن مهران الأعمش، على يحيى بن وثاب، على زر بن حبیش، على عثمان وعلى وابن مسعود، على أبي عبد الله. كان ورعاً مكثافاً لله، محموداً له عارفاً بالفرائض والعربية، حافظاً للحديث. توفى بحلول سنة ١٥٦ هـ وست وخمسين ومائة.

ومن أشهر الرواية عنه حلف وحلاد، لكن بواسطة أبي عيسى سليم بن عيسى الحنفى الكوفى المتوفى سنة ١٨٨ هـ، ثمان وثمانين ومائة.

(أما حلف) فهم أبو محمد حلف بن هشام بن طالب النخعي كان راهداً عابداً. روى عن سليم بن عيسى الحنفى عن حمزة. وتوفى سنة ٢٢٩ هـ تسع وعشرين ومائتين. (وأما حلاد) فهو أبو عيسى حلاد بن خالد الأحول البصري روى عن سليم بن



عيسى عن حمزة. وكان أضبط أصحاب سليم وأجلهم عرفاً وتحققاً. توفي بالكوفة سنة ٢٢٠ عشرين ومائتين .

وفي ذلك يقول صاحب الشاطبية :

« وَتَحَرُّهُ مَا أُرْكَاهُ مِنْ مُتَوَرِّعٍ      إِمَامًا ، صَبُورًا ، لِلْقُرْآنِ مُوْتَلًّا  
رَوَى خَلْفَ عَنْهُ وَخَلَا ذَا الَّذِي      رَوَاهُ سَلِيمٌ مُتَقِينًا وَتَحَصُّلًا ،

## ٦ - نافع

هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم اللدني . أخذ القراءة عن أبي جعفر القاري وعن سمعين من القابعين ، وهم أخذوا عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة ، عن أبي بن كعب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وانتهت إليه رئاسة الإقراء بالمدينة المنورة . توفي سنة ١٦٩ تسع وستين ومائة .

ومن اشتهر بالرواية عنه قالون وورش :

( أما قالون ) فهو أبو موسى عيسى بن مينا النحوي . ولقب بقالون لجودة قراءته لأن قالون معناه الجليد في أصل وضما . قرأ على نافع واختص به كثيراً ، وقال : قرأت على نافع غير مرة ، وكسبت عنه . توفي سنة ٢٢٠ عشرين ومائتين .

( وأما ورش ) فهو عثمان بن سعيد المصري ، يكنى أبا سعيد ، وينفب بورش لشدة بياضه<sup>(١)</sup> . رحل إلى المدينة فقرأ على نافع ختمات سنة ١٥٥ خمس وخمسين ومائة ، ثم رجع إلى مصر فانتهت إليه رئاسة الإقراء بها ، وكان حسن الصوت جيد القراءة . توفي سنة ١٩٧ سبع وتسعين ومائة .

وفي ذلك يقول صاحب الشاطبية :

(١) الوَرَشُ في أصل اللفظة : يطلق على شيء يصنع من اللبن . فيصح أن يضرب به المثل في البياض . انظر التماموس .

هـ فَأَمَّا الْكُرْسِيُّ الْمَشْرُوفُ فِي سَطِيبٍ <sup>(١)</sup> دَامِعٌ      ذَلِكَ الَّذِي أَحْتَارَ الْأَمِيرُ مِنْهُ لَا  
وَقَالُوا عَمِي نَمَ عَمَانُ وَرُشْمُهُمْ      بِصُحُفِهِ الْخَمْسَةِ لَوْ رُفِعَ تَأْتِلَا

## ٧ - الكسائي

هو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي . لقب بالكسائي لأنه كان في الإحرام  
لأبائكيس ، قال أبو مكر الأسدي : احتجعت في الكسائي أمور . كان أعلم الناس بالنحو  
وأوحدهم بالعرب ، وكان أوجد الناس بالقرآن ، فكانوا يكثرزون عليه ، حتى يضطر  
أن يجلس على الكرسي ويتلو القرآن من أوله إلى آخره ؛ وهم يسمون منه ويصطوبون  
منه . توفي سنة ١٨٩ هـ ثمانين ومائة .

وقد اشتهر بمرأية عنه أبو الحارث والقدوري .

(أما أبو الحارث) فهو الليث بن خالد اللوزي كان من أحلاء أصحاب الكسائي  
تفة وصعاً . توفي سنة ٢٤٠ أربعين ومائتين

(وأما القدوري) فهو أبو عمر حمص بن عمر القدوري الذي أنسا إليه في الرواية  
عن أبي عمرو .

وفي الكسائي وروايته يقول صاحب الشاطبية

« وَأَمَّا عَلِيٌّ فَالْكِسَائِيُّ تَمْتَلُكُهُ      لِمَا كَانَ فِي الْإِحْرَامِ فِيهِ تَمَرَاتِلَا  
رَوَى نَيْشُهُمْ عَنْهُ أَبُو الْحَارِثِ أَرَضَا      وَحَفْصٌ هُوَ الْقُدُورِيُّ وَالَّذِي كَرَّ قَدْ حَلَا »

(١) يشير بهذه الكلمة إلى ما روى عنه أنه كان إذا تكلم يشتم من فيه ريح المسك

سب قراءة النبي ﷺ في فيه صاماً ؛ كما أحر دافع بذلك .

### تمام القراء العشرة .

وهذه كلمة عن الثلاثة الذين إذا أصيبوا إلى السبعة السائقين ، تسكل بهم عدد القراء العشرة أصحاب القراءات العشر المعروفة ، والتي سبق الكلام عليها قريباً .

### ٨ — أبو جعفر

هو يزيد بن القمقاع القاري ، سببه إلى موضع بالمدينة يسمى : قارا . وقد سبق أنه أحد عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة ، عن أبي بن كعب ، عن رسول الله ﷺ . توفي أبو جعفر سنة ١٣٠ ثلاثين ومائة ، وكان تاسعاً لحليل القدر ، رفيع المنزلة .

وقد اشتهر بالرواية عنه أبو موسى عيسى بن وردان الخدّاء ، وأبو الربيع سليمان بن مسلم بن جبار .

( أما ابن وردان ) فهو أبو موسى عيسى بن وردان ، المدني ، الخدّاء ، من أصحاب جامع في القراءة على أبي حمزة . كان مقرئاً صاحباً ثقة . وتوفي سنة ١٦٠ ستين ومائة .

( وأما ابن جبار ) فهو أبو الربيع سليمان بن مسلم بن جبار . قرأ على أبي حمزة وشيئة بن مصاحبة ونافع . وتوفي بعد سنة ١٧٠ سبعين ومائة بالمدينة المنورة .

### ٩ — يعقوب

هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحمصي . قرأ على أبي السدر سلام بن سليمان الطويل . وقرأ سلام على عاصم وعلى أبي هريرة . توفي يعقوب سنة ٢٠٥ خمس ومائتين . ومن اشتهر بالرواية عنه روح بن عبد المؤمن ، ومحمد بن القوكل الأثولوي الملقب برؤوس وعيرها .

(أما روح) فهو أبو الحسن روح بن عبد المؤمن بن عمدة بن مسلم المدنى الحوى،  
قرأ على إمام البصرة أبى محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبى إسحاق  
الحصرى، وكان إماماً حليلاً ثقة روى عنه البخارى. وتوفى سنة ٢٣٤ أربع أو خمس  
وثلاثين ومائتين.

(وأما رؤس) فهو أبو عبد الله محمد بن الفضل التلوى البصرى، المعروف برويس.  
كان من أحذق أصحاب يعقوب. وتوفى بالبصرة سنة ٢٣٨ ثمان وثلاثين ومائتين.

#### ١٠ - خلف

هو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب، قرأ على سليم بن حمزة،  
وعلى يعقوب بن خليفة الأعشى، وعلى أبى زيد سعيد بن أوس الأنصارى صاحب الفضل  
الضبي، وعلى أبان المطار، وهم عن عاصم. وتوفى خلف سنة ٢٢٩ تسع وعشرين ومائتين  
كاسبق فى ترجمة حمزة.

وعن أشهر الرواية عنه أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن عثمان بن عبد الله، المروزي،  
ثم البغدادي، الوراق، المتوفى سنة ٢٨٦ ست وثلاثين ومائتين.  
وعن أشهر الرواية عنه أيضاً أبو الحسن إدريس بن عبد الكريم الحنابلة البغدادي،  
المتوفى سنة ٢٩٢ اثنتين أو ثلاث وتسعين ومائتين.

#### تمام القراء الأربعة عشر:

وهناك كلمة مختصرة عن الأربعة الذين إذا أضيفوا إلى العشرة السابقين كملت عدة  
القراء الأربعة عشر الذين تنسب إليهم القراءات المعروفة بالقراءات الأربع عشرة.

## ١١ الحسن البصري

هو السيد الإمام الحسن بن أبي الحسن إسار أبو سعيد البصري العوفي شهرته من  
تقريره . المتوفى سنة ١١٠ عشر ومائة

## ١٢ ابن عبيص

هو محمد بن عبد الرحمن السهمي الكوفي ، مقرئ أهل مكة مع ابن كثير . المتوفى سنة  
١٢٣ ثلاث وعشرين ومائة .

## ١٣ - يحيى اليزيدي

هو يحيى بن المنار بن المغيرة الإمام أبو محمد العدوي المصري المعروف باليزيدي .  
المتوفى سنة ٢٠٣ اثنين ومائتين .

## ١٤ - الشيبودي

هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن يوسف بن العباس بن ميمون أبو العرج الشيبودي  
الشطوي البغدادي . المتوفى سنة ٣٨٨ ثمان وثمانين وثلاثمائة .

هو لاء الأئمة وأمرهم هو الله بن خدموا الأمة والملة ، وحافظوا على الكتاب والسنة ،  
وفيهم يقول السيوطي بإتقانه : « ثم لما اتسع الطرق ، وكاث الباطل ، انتبس بالحق ،  
غام جهابذة الأمة والعوا في الاحتماد ، وجمعوا الحروف وانقراءات ، وعزوا أوجوه  
واروايات ، وميروا بصحيح والمشهور والشاذ ، بأصول أصوبها ، وأركان فصلوها . فأول  
من صنف في القواعد أبو عبيد القاسم بن سلام ، ثم أحمد بن حنبل الكوفي ، ثم إسماعيل

ابن إسحاق المالكي صاحب فالون ، ثم أبو جعفر بن حرير الطبري ، ثم أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الدحوي ، ثم أبو بكر محاهد ، ثم قام الناس في عصره وبعده بالتأليف في أنواعها ، جامعاً ومفرداً ، موجزاً ومسمياً وأئمة القراءات لا تحصى . وقد صنف طينتهم حافظ الإسلام أبو عبد الله الذهبي ، ثم حافظ القرآن أبو الخير بن الحرري « ١٠١ » .

أسأل الله تعالى أن يعمر الجميع بوسع رحمته ، وأن يحريهم أفضل الجزاء على خدمتهم اكفائه . آمين .

### حكم ما راء العشر :

وقع الخلاف أيضاً في القراءات الأربع التي ترد على العشر و لكل الأربع عشرة : فقبل ثوانر بعضها وقيل بصحتها . وقيل بشدودها ، إطلاقاً في السكل . وقيل : إن المسألة ليست مسألة أشخاص ولا أعداد ، بل هي قواعد ومبادئ . فبما قراءة تحققت فيها الأركان الثلاثة لذلك الصائط المشهور فهي مقبولة ، وإلا فهي مردودة . لا فرق بين قراءات القراء السبع والقراء العشر والقراء الأربعة عشر وغيرهم ، فإيرار واحد في السكل والحق أحق أن ينفع

قال صاحب الشافى . « التمسك بقراء سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا صفة ، وإعنا هو من جمع بعض المتأخريين فانتشروا ووهم من قال : إنه لا تحوز الرائدة على ذلك . وذلك لم يقل به أحد » ١٠٢ شىء من التصرف .

وقال الكواشى : « كل ما صح سند ، واستقام وجهه في العربية ، ووافق حظ المصنف الإمام ، فهو من السبعة المصوصة . ( يريد السبعة الأحرف في الحديث النبوى المعروف ) ثم قال : وقد اشتد إسكار أئمة هذا الشأن على من طرأ بمحصار القراءات المشهورة في مثل ما في التيسير والشاطبية » ١٠٣

وهذا رأى قريب من الصواب ، لولا أنه لم يقصر نظره على ما هو الواقع القائم  
بمسا اليوم من القراءات ، ولم يطبق الحكم ولم يفصل فيه ، بل ساق الكلام عاماً  
كما ترى .

والتحقيق هو ما ذهب إليه أبو الخير بن الجزري ، من أن للقراءات العشر التي بين  
أبدنا اليوم متواترة دون غيرها . قال في منجد للقرئين ما يفيد أن القى جمع في رمناهده  
الأركان الثلاثة ( أى في ذلك الضابط للشهور مع ملاحظة إبدال شرط صحة الإسناد  
متواتره ) هو قراءة الأئمة العشرة التي أجمع الناس على تلقياها بالقبول . أخذها الخلف عن  
السلف إلى أن وصلت إلى زماننا . قراءة أحدهم كقراءة الباقيين في كونها مقصوداً عنها .  
أما قول من قال : إن القراءات للمتواترة لا حد لها فإن أراد القراءات المعروفة في زماننا  
فغير صحيح ؛ لأنه لا يوجد اليوم قراءة متواترة وراء القراءات العشر . وإن أراد ما يشمل  
قراءات الصدر الأول فاعتل .

ثم إن غير المتواتر من القراء على قسمين :

( القسم الأول ما صحّ سنده بنقل المدل الصاطع من مثله إلى منتهاه ووافق العربية  
والرسم . وهذا صريحان : ضرب استفاض نقله وتلقته الأمة بالقبول ، كما انفرد به الرواة  
ومعص الكتب المعتمدة ، أو كراتب القراء في المدّ وعمو ذلك ، فهذا صحيح مقطوع به  
وبأنه منزل من عند الله على النبي ﷺ من الأحرف المبيحة . وهذا العرب يتفق  
بالقراءة المتواترة وإن لم يبلغ مبلغها ، لأنه من قبيل أخبار الآحاد التي احتفت بها قرآن  
تفيد العلم والضرب الثاني لم تلقه الأمة بالقبول ولم يستفيض . وهذا فيه خلاف العلماء :  
مهم من يجوز القراءات والصلاة به ، ومهم من يمنع القراءة بما وراء العشر مع تحريم  
لا كراهة . قال ابن السبكي في جمع الجوامع : « ولا تجوز القراءة بالثاذا » والصحيح أن  
ما وراء العشر فهو شاذا ، وفقاً للبنى والشيخ الإمام « . ويريد بالشيخ الإمام والله  
مجتهد العصر أما الحسن علي بن عبد الكافي السبكي .

( القسم الثاني ) من القراءة النصيحة ما وافق العربية وصح سنده وخالف الرسم ، كلذي برد عن طريق صحيح من زيادة ونقص ، وإبدال كلمة بأخرى ، مما جاء من أنى الدرداء وعمر وان مسعود وغيرهم ، وهذه القراءة نسي اليوم شاذة لكونها شذت عن رسم المصحف المجمع عليه ، وإن كان إسنادها صحيحاً . فلا تخور القراءة بها لا في الصلاة ولا في غيره . قال الإمام أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد : « وقال مالك إن من قرأ في صلاته بقرآن من مسعود أو غيره من الصحابة مما يخالف المصحف لم يسل وراه . وعلماء المسلمين يحمون على ذلك إلا قوماً شذوا لا يرجح عليهم » .

وحكى ابن عبد البر الإجماع أيضاً على أنه لا تخور القراءة بالشاذ .

وقال ابن الحرى : قال أصحابنا من الشافعية وغيره : لو قرأ بالشاذ في صلاته طلت صلاته إن كان عالماً . وإن كان جاهلاً لم يطل ولكن لا تحسب له تلك القراءة . واتفق علماء بغداد على تأديب الإمام ابن شاذوذ واستناتته على قراءته وإقرائه بالشاذ . ذلك كله فيما صح فيه النقل والعربية ولكنه خالف الرسم .

أما ما لم يصح فيه نقل فهو أقل من أن يسى شذاً ، ولو وافق العربية والرسم . بل هو قراءة مكذوبة يكفر متعمدها

حكى المحقق ابن الحرى أن استغناء رُفع من العجم إلى دمشق في حدود الأربعين والسجائة صورته . هل تخور القراءة بالشاذ ؟ وهل يجوز أن يقرأ الفارسي عشر أكل آية براءة ورواية ؟ . فأجاب عليه الإمامان : أبو عمرو بن الصلاح وأبو عمرو ابن الحارث

أما ابن الصلاح فقال : يشترط أن يكون لقوله به نوازي فله عن رسول الله ﷺ قرآناً ، واستفاد فله كذلك وتلقته الأمة بالفهم ، كهدم القراءات المسموعة لأنهم اعتبر



في ذلك اليقين والقطع ، على ما تقرر وتمهد في الأصول ، لما لم يوجد فيه ذلك كما عدا  
السمع أو كما عدا المشرك المسموع من القراءة بمنع تحريم لاصح كراهة في الصلاة وحارج  
الصلاة ، ومنع من عرف المصادر والمعاني ومن لم يعرف ذلك ، وواجب على من قدر  
على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يقوم بواجب ذلك . وإنما نقلها من نقلها  
من المعاصرين لقوائد فيها تتعلق بعلم العربية لا لقراءة بها . هذا طريق من استقام مسيله .  
ثم قال - والقراءة الشاذ ما نقل قرآننا من غير تواتر ولا استفاضة متلقاة بالقبول  
من الأمة كما اشتمل عليه المحاسب لابن جني وغيره . وأما القراءة بالمعنى من غير أن  
ينقل قرآننا فليس ذلك من الفراءات الشاذة أصلا . والمجتري على ذلك مجتري على  
عظيم ، وضل صلا لا بعيدا ، فيمزر ويمنع بالحبس ومحوه ، ولا يحل ذو ضلالة ،  
ولا يحل ذلك استمكن من ذلك إيماله . ويجب منع القاري بالشاذ وتأنيبه عند تعريفه ،  
وإن لم يمنع فعله التعزير بشرطه .

وإذا شرع القاري بقراءة ينبغى ألا يزال يقرأ بها ما في الكلام تعلق بما ابتدأ  
به . وما خالف هذا فنه جائز وممتنع . وعذر المرض مانع من بيانه بحقه . والعلم عند  
الله تعالى . اهـ .

وأما ابن الحاجب فقال : لا يجوز أن يقرأ بالقراءة الشاذة في صلاة ولا غيرها ،  
عالمًا كان بالعربية أو جاهلا . وإذا قرأ بها قاري ، فإن كان جاهلا بالتحريم عُرِفَ به  
وأمر بتركها ، وإن كان عالمًا أذَّب بشرطه ، وإن أصر على ذلك أذَّب على إصراره  
وحسب إلى أن يرتدع عن ذلك ، وأما تبديل آما ما عطا ، وسوّلت تربعت ، ومحوه ،  
فليس هذا من الشواذ ، وهو أشد تحريما ، والتأديب عليه أبلغ ، والسمع منه  
أوجب اهـ .

### وردة البحث .

يخص ما من هذا البحث بعد تحقيق وجود الخلاف فيه أمور مهمة ؛ يحذر من أن يوليهما الالتفات والانتباه الخاص :

أولها - أن القراءة ، لا تكون قرآناً إلا إن كانت متواترة ، لأن التواتر شرط في القرآنية .

ثانيها - أن القراءات العشر الدائمة في هذه المصوّر متواترة على التحقيق الآنف . وإذن هي قرآن . وكل واحدة منها يطلق عليها أنها قرآن .

ثالثها - أن ما وراء لقراءات العشر مما صحّت روايته آحاداً ولم يستقم ولم تعلقه الأمة بالقبول ، شاذّ وليس بقرآن ، وإن وافق رسم المصحف وقواعد العربية .

رابعها - أن ركن صحة الإسناد المذكور في صراط القرآن مشهور ، لا يراد به صحة فيه مطلق صحة ، بل المراد صحة معقّدة تصل بالقراءة إلى حدّ الاستفاضة والشهرة وتقرّب الأمة لها بالقبول ، حتى يكون هذا الركن بقرينة الركنين الآخرين في قوة التواتر الذي لا بد منه في تحقّق القرآنية . كما فصلنا ذلك من قبل .

خامسها - أن القراءة قد تكون متواترة عند قوم ، غير متواترة عند آخرين . والمأمور به ألا يقرأ لمسلم إلا بما تواتر عنده ، ولا يكفى ما روى له آحاداً وإن كان متواتراً عند الراوى له ، كما ردّ الشافعي رواية مالك مع صحّتها ، لمخالفتها ما تواتر عنده . ولا ننس ما قاله ابن الجزري في ذلك آنفاً .

سادسها - أن هذا الذي روى من طريق الآحاد الحصة ولم يصل إلى حد الاستفاضة والشهرة ، هو أصل الداء ، ومثّر كثير من اشبهات واختلاف . أم الشبهات فقد مرّ عليك منها بما دج ، وأما الخلافات فقد شهدت منها في هذا البحث ما شهدت ، ومقتضاهد ما شاهد : وإن أسرعى نظرك إلى أمرين .

أولهما أن طريق الآحاد المحضة هدا هو الذي فتح باب المطاعن لبعض الأئمة في بعض الروايات الواردة في القراءات السبع ، كان حرير الطائري الذي ذكر في مسيره شيئاً من ذلك ، وألف كتاباً كبيراً في القراءات وعلمها ، وصّفه بعض تلك المطاعن

ونابهما - أن وجود هذه الروايات على مدرتها جعل البعض يشتط ويسرف ، فسحب حكمها على الجميع وقال إن القراءات السبع وغيرها كلها قراءة آحاد وهذا قول في نهاية الإسعاف والخطر : أما إسعافه فلأنه لا يبين مطلقاً أن يسحب حكم الأقل الصئلي على الأكثر الجليل ، وأما خطره فلأنه يؤدي إلى نقص تواتر القرآن ، أو إلى عدم وجود القرآن الآن مادام القرآن مشروطاً فيه التواتر ولا تواتر على رأيهم . ولا يغفل أن يكون القرآن المفروض فيه انتواتر موحداً على حين أن وجود قراءاته كلها غير متواترة ، ضروره أنه لا يتحقق قرآن بدون أوجه للقراءة .

ذلك ما وصلنا إليه بعد إعادة النظر في هذا الموضوع . والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله »

### ج - نقض الشبهات التي أثيرت في هذا المقام

هناك شبهات أثيرت حول القراءات في اختلافها وتعددتها في صحتها وتواتر التواتر ، وفي القرآن الكريم وتواتره وإجماع الأمة عليه . من تلك الشبهات ما تمخذه مذكوراً في مسحت نزول القرآن على سبعة أحرف . ومنها ما تمخذه مذكوراً في مسحت جمع القرآن . خارج إليها - إن شئت - ولا داعي إلى التطويل بإعادتها

بيد أن الرواية التي بسوها لأن مسعود في إسكاه قرآنية المؤدنين تكاد تكون أقوى هذه الشبهات ، من جهة أنها وردت بأمايد صححتها بعض

أعلام الحديث يكابن جيعر . وقد سبق عرضها من توجهها وتمحيصها حتى على هذا الاحتمال .

وذكر يلك هنا في نوهدن هذه الشبهة ، لموراً :

( أولاً ) أن عاصماً وهو أحد القراء السبعة ، قرأ القرآن كله وفيه الموءذتان بأسانيد صحيحة ، بعضها يرجع إلى ابن مسعود نفسه . ذلك أن عاصماً قرأ على أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب ، وقرأ على أبي مريم رر بن حبش الأسدي ، وعلى سعيد بن عياض الشيباني .

وقرأ هؤلاء على ابن مسعود عنه ، وقرأ ابن مسعود على رسول الله ﷺ .

( ثانياً ) أن حمزة وهو من القراء السبعة أيضاً ، قرأ القرآن كله بأسانيده الصحيحة وفيه الموءذتان عن ابن مسعود عنه . ذلك أن حمزة قرأ على الأعمش أبي محمد سليمان ابن مهران وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب ، وقرأ يحيى على علقمة الأسود ، وعبيد ابن صلة الخراعي ، ودر بن حبش ، وأبي عبد الرحمن السلمي . وهم قرءوا على ابن مسعود ، على النبي ﷺ .

ولحمزة سند آخر بهذه القراءة إلى ابن مسعود أيضاً . ذلك أنه قرأ على أبي إسحاق السبيعي ، وعلى محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ؛ وعلى الإمام جعفر الصادق وهؤلاء قرءوا على علقمة بن قيس ، وعلى رر بن حبش ، وعلى زيد بن وهب ، وعلى مسروق . وهم قرءوا على السهال وعمره . وهم على ابن مسعود وأمير المؤمنين على كرم الله وجهه وعلى النبي ﷺ .

( ثالثاً ) أن الكسائي قرأ القرآن وفيه الموءذتان سنده إلى ابن مسعود أيضاً ذلك أنه قرأ على حمزة الذي انتهى بين يديك سنده إلى ابن مسعود من طريقين .

(رابعها) أن حنفاً يقرأ الموءذنين في صحن القرآن الكريم سيده إلى ابن مسعود أيضاً . وذلك أنه قرأ على سليم وهو على حرة .

وهذه القراءات كلها التي رويت لأصح الأسانيد وإجماع الأمة فيها الموءذتان والعامحة على اعتبار أن هذه السور الثلاث أحراء من القرآن وداحلة فيه

فالقول ببقاء ابن مسعود على إنكار قرآنية هذه السورة محض افتراء عليه . وكل ما في الأمر أنه لم يكتب العامحة في مصحفه اتسكالا على شهرتها وعدم الحوف عليها من النسيان حتى شكك . وكذلك القول في الموءذتين . وقيل إنه لم يكن يعلم أول الأمر أن الموءذتين من القرآن ، بل كان يظن أنهما رقية يعوذ بهما رسول الحسن والحسين . ومن هنا جاءت روايات إنكاره أنهما من القرآن . ثم علم بعد ذلك قرآنيتهما . ومن هنا جاءت الروايات عنه بقرآنيتهما كما سقناه نين بديك عن أربعة من القراء لسبعة أسانيد هي من أصح الأسانيد المؤيدة بما تواتر واستعاض ، وتما أجمعت الأمة عليه من قرآنية العامحة والموءذتين ، منذ عهد الخلافة الراشدة إلى يوم الناس هذا . أما بعد فيصح أن اعتبر ما كتب في هذا الموضوع هنا كلاماً عن الشبهة الأولى التي أثبتت فيه .

### الشبهة الثانية :

يقولون : إن التواتر في جميع القرآن غير مسلم ، لأن الدواعي التي ذكرتموها في دليل نواتره ، لا تتوافر في جميع أحراء القرآن . وآية ذلك أن السمة على رأى من يعدها من القرآن لا يجري فيها التعدي ، ولا يتحقق فيها أصل الأحكام ، حتى يكور ذلك من الدواعي للتواتر على نقلها وتواترها .

ومحيب (أولاً) بأن التحدى يجري فيها باعتبار انصافها إلى غير هاتين آيتين أخريين، ليتألف من الجميع ثلاث آيات يقوم من الإجماع. وذلك كافر في أن يكون من دواعي الاعتناء بها ونقلها وتواترها.

(ثانياً) أنه يتعلق بنظمها تلك الأحكام المعروفة من أن تقرأها أجراً عظيماً إن كان ظاهراً، ووعيداً شديداً إن كان جنبا وقرأها بقصد القرآنية أو مسها، ونحو ذلك. وهذا من الدواعي المتوافرة على نقلها وتواترها.

### الشبهة الثالثة :

يقولون : لو كان القرآن متواتراً لوقع التكفير في البسمة ، على معنى أن من يقول بقرآنيته يحكم بكفر متكررها ، ومن لا يقول بقرآنيته يحكم بكفر مثبتها . وعلى ذلك يكفر المسلمون بعضهم بعضاً .

والجواب : أن قرآنية البسمة في أوائل السور اجتهادية مختلف فيها . وكل ما كان من هذا القبيل لا يكفر متكرره ولا مثبتته ، شأن كل أمر اجتهادي . إنما يكفر من أنكر متواتراً معلوماً من الدين بالضرورة . وقرآنية البسمة في أوائل السور ليست متواترة معلومة من الدين بالضرورة .

أما منكر البسمة التي في قصة كتاب سليمان من سورة النمل . فهو كافر قطعاً ، لأن قرآنيته متواترة معلومة من الدين بالضرورة ، ولا خلاف بين المسلمين في قرآنيته حتى يكفر منهم من نساها كما يرغم أولئك المعتزمون .

### الشبهة الرابعة :

يقولون : إن استدلالكم على تواتر القرآن شواهد الدواعي على نقله ، منقوض

بالسنة النبوية، فإنها غير متواترة مع ذلك تنوافر الدواعي على نقلها، فإنها أصل الأحكام كما أن القرآن أصل الأحكام.

ومحيط (أولاً) بأن تنوافر الدواعي على نقل القرآن متواتراً، لم يحى من ناحية أصالة الأحكام فحسب. بل جاء منها ومن نواحي الإعجاز والتعدي والتمديد بتلاوته والتبرك به في كل عصر وقراءته في الصلاة وبحر ذلك.

والسنة النبوية لا يجمع فيها كل هذا. بل يوجد فيها بعضه فقط وذلك لا يكفي في تنوافر الدواعي على نقلها متواترة.

(ثانياً) أن المراد بأصالة الأحكام الفرد الكامل الذي لا يوجد إلا في القرآن. ذلك لأن أصالة الأحكام فيه ترجع إلى اللفظ والمعنى جميعاً. أما المعنى فواضح. وأما اللفظ فن ناحية الحكم بإيجازه، وبثواب من قرأه، وبإلغائه الكريمة والمطاطة المظيمة لمن حفظه، وبإلغائه الشديد لمن نسى بعد حفظه ولمن أمسه أو قرأه جنباً، إلى غير ذلك والسنة النبوية ليس للفظها شيء من هذه الأحكام. ولهذا تجوز روايتها بالمعنى. أما معناها فإن كان مما تنوافر الدواعي على نقله وحسب تواتره وإلا فلا. ولهذا يقطع بكذب نقل الروايات ما نسبوه إلى رسول الله ﷺ من أنه نص على أن الإمامة المظفى من بعده، محصورة في عليّ وولده. رضى الله عنهم. بيان ذلك أنه لو صح ما روى لنقل متواتراً، فإنه مما تنوافر الدواعي على نقله، لتعلقه بأمر يتصل بمستقبل الحكم الأهل والولاية المظفى في الإسلام لجميع بلاد الإسلام.

#### الشبهة السادسة :

يقولون : إن تواتر القرآن منقوص بأن ابن مسعود وهو من أئلاء الصحابة لم يوافق على مصحف عثمان بتدليل روايات الآتية وهي :

(١) أن شقيق بن سلمة يقول : « خطبنا عبد الله بن مسعود على المنبر فقال : « وَمَنْ يَقُولُ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى نَوْمٍ الْقِيَامَةِ » عموماً مصاحبتكم « أى أحوها حتى لا تحرق » وكيف تأمروني أن أقرأ على قراة ريد بن ثابت ، وقد قرأت من في رسول الله ﷺ مثله ؟ » رواه النسائي وأبو عوانة وابن أبي داود .

(٢) أن حبر بن مالك يقول : « لما أمر بالمصاحف أن تغير ساء ذلك عبد الله بن مسعود فقال : من استطاع أن يعمل مصحفه « أى يحمله حتى لا يحرق » فليعمل . وقال في آخره : أفترك ما أحدث من في رسول الله ﷺ ؟ »

(٣) أن الحسائكم يروى من طريق أبي ميسرة قال . « رحتُ فإذا أنا بالأشعري وحديبة وابن مسعود . فقال ابن مسعود : « والله لأأدعه بعمى مصحفه . أقرأني رسول الله ﷺ » فذكره .

ومحيط (أولاً) بأن هذه الروايات لا تدل أبداً ، على عدم تواتر القراءات ولا على عدم تواتر ما جاء في مصحف عثمان . غاية ما تدل عليه أن ابن مسعود لم يوافق أول الأمر على إحراق مصحفه . وهذا لا ينقص تواتر ما جاء في مصحف عثمان لأنه ليس من شرط التواتر على ما في مصحف عثمان أن يحرق ابن مسعود مصحفه ، ولا أن يحرق أحد مصحفه بل المحقق للتواتر أن يرويه جمع يؤمن بواقعهم على الكذب في كل طبقة وهذا موجود في مصحف عثمان لأن ما فيه رواه ووافق عليه جموع عظيمة من الصحابة محال أن تكذب وحسبك عثمان ودستوره في جمع القرآن فارجع إليه إن شئت .

(ثانياً) أنه على فرض مخالفة ابن مسعود لمصحف عثمان ، فإن هذه المخالفة لا تذهب بتواتر القرآن لأن أركان التواتر متحققة في المصحف العثماني على رغم هذه المخالفة المعروضة ولم يقل أحد في الدنيا : إن من شرط التواتر ألا يخالف فيه مخالف حتى تكون مخالفة ابن مسعود لمصحف عثمان باقصة لتواتر القرآن .



(ثالثاً) أن هذه الروايات التي ساقوها طعناً في تواتر القرآن ، لا تدل على أن ابن مسعود يخالف في انقراء مصحف عثمان . بل هو يقرأ به كما يقرأ روايته اني امرت بها وسمعتها وحده من قم النبي ﷺ . ألا ترى إلى قوله : « وقد قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم مثله » إلى كلمة « مثله » فيها اعتراف منه بأن زيد بن ثابت قرأ مثله من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن ما انفرد ابن مسعود به فمشتهر روايته آحادية . وأنت خير بأن رواية الآحاد لا تكفي في تهوي القرآن . لذلك لم يوافق الصحابة على ما انفرد به ابن مسعود ، بخلاف مصحف عثمان فقد وافقه عدد اتواتر ، وظهر بإجماع الأمة ولم يكتب فيه إلا ما استقر في العرصة الأخيرة من غير نسخ لقلاوته ، على ما سبق بيانه هناك في مبحث جمع القرآن .

(رابعاً) أن عدم دفع ابن مسعود مصحفه ليعرق كان توقعاً منه في أول الأمر . ثم عاد بعد ذلك وحرقه حين بلغه أن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كرهوا ذلك في مقاتله ، كما جاء في حديث شقيق من رواية ابن أبي داود عن حارث بن الزهري . وبهذا أخذت الصفوف ، وانتفتت السكك ، وتم للمصالحف الثمانية الظفر من كل وجه بإجماع الأمة حتى ابن مسعود . والحمد لله على هذا الكرم والجود . حمداً يوافي نعمه ، ويكافئ مزيده ، ويستبذل رضاه ، آمين .

# فهرس

مصح	المصوح
٢	حطلة الكتاب
١٠	مقدمة الكتاب
١٢ - ٢٨	المبحث الأول في معنى علوم القرآن
١٢	العلم عند الحكماء والمتكلمين
١٢	العلم في لسان الشرع العام
١٣	العلم عند الماديين وعماء التدوين
١٤	القرآن في اللغة
١٥	القرآن في الاصطلاح
١٧	القرآن عند المتكلمين
١٩	القرآن عند الأصوليين والفقهاء وعماء العربية
٢١	هل القرآن علم شخص ؟
٢١	هل نصاع للأعلام تعاريف ؟
٢٢	إطلاق القرآن على لكل وعلى أساسه
٢٣	معنى علوم القرآن بالمعنى الإصافي
٢٤	القرآن كتب هداية وإعجاز
٢٥	القرآن يحص على الاشتعاع بالسكون
٢٥	إعجاز علمي للقرآن
٢٧	علوم القرآن بالمعنى المدور ، وموضوعه ، وفائده .
٢٨ - ٤٠	المبحث الثاني في تريج علوم القرآن
٢٨	عهد ما قبل التدوين
٣٠	عهد التمهيد لعلوم القرآن
٣١	عهد التدوين لعلوم القرآن بالمعنى الإصافي

موضوع	صفحة
أول عهد لظهور هذا الاصطلاح	٣٤
عنوان القرآن في القرن السادس والسابع والثامن والتاسع	٣٦
عنوان القرآن في عصر الأخير	٣٨
خلاصة	٣٩
كلمة لامتدادها	٣٩
لمبحث الثالث في قول القرآن	٤٠
معنى قول القرآن	٤٠
ببرلات القرآن	٤٣
انتقل الأول إلى اللوح المحفوظ	٤٣
لتنزل الثاني إلى بيت لعل	٤٤
انتقل الثالث على النبي ﷺ	٤٧
كيفية أحد خبريل لقرآن ، وعن أحد ؟	٤٧
ما الذي نزل به خبريل ؟	٤٨
ما نزل على النبي ﷺ من سوى القرآن	٥٠
مدة النزول على النبي ﷺ	٥١
دليل صحيح هذا القول	٥٢
الحكم والأسرار في تفسير القرآن	٥٣-٦٢
الحكمة الأولى وحوها الخمسة	٥٣
الحكمة الثانية وحوها الخمسة	٥٥
الحكمة الثالثة وحوها الأربعة	٥٨
الحكمة الرابعة الإرشاد إلى مصدر القرآن	٦٠
الحركة الطائفة بين معتقدي الوحي ومكرويه ( وهو بحث جديد مفيد )	٦٣-٩١

الوسم	٦٣
حقيقة الوحي وأنواعه وكيفية	٦٥
الوحي من ناحية العلم	٦٦
الدليل الأول القنويم المختطيسي	٦٩
الدليل الثاني بعض مجانب المحرمات	٧٩
الدليل الثالث الحكي « القونفراف »	٧٠
الدليل الرابع مجانب بعض الحيوانات الدنيا	٧١
الدليل الخامس المبتدئة	٧٣
الدليل السادس المظاهر الروحانية في بعض الناس	٧٣
الوحي من ناحية العقل	٧٣
المعزة	٧٦
دفع الشبهات عن الوحي	٧٦
الشبهة الأولى وجوابها	٧٦
الشبهة الثانية وجوابها	٧٧
الشبهة الثالثة وإزالة والخامسة وجوابها	٧٨
الشبهة السادسة وجوابها	٧٩
الشبهة السابعة وجوابها	٨١
الشبهة الثامنة وجوابها	٨٢
الشبهة التاسعة وجوابها	٨٤
الشبهة العاشرة وجوابها	٨٤
دليل لهذه الشبهة والجواب عليه	٩١
خاتمة المبحث	٩٢ - ١٠٥
المبحث الرابع في أول مدثرين وآخر ما نزل من القرآن	٩٢
فوائد الإلهام ما نزل ما نزل وآخره	٩٣

الموضوع	الصفحة
القول الأول في أول ما نزل على الإطلاق	٩٣
القول الثاني في أول ما نزل على الإطلاق	٩٤
القول الثالث في أول ما نزل على الإطلاق	٩٥
القول الرابع في أول ما نزل على الإطلاق	٩٦
آخر ما نزل على الإطلاق	٩٦
القول الأول والثاني والثالث في آخر ما نزل على الإطلاق	٩٧
القول الرابع والخامس في آخر ما نزل على الإطلاق	٩٨
القول السادس والسابع والثامن والتاسع	٩٩
القول العاشر	١٠٠
مثلان من أوائل وأواخر محمودة	١٠١
ما نزل في الخبر	١٠١
ما نزل في أمر الجهاد والدفاع	١٠١
شبهة في هذا المقام	١٠٢
جواب هذه الشبهة	١٠٣
ملحوظة وتحفيظ	١٠٤
المبحث الخامس في أسباب النزول	١٠٦ - ١٣٦
وهي سبب النزول	١٠٦
قوائد معرفة أسباب النزول	١٠٩
المائدة الأولى والثانية	١٠٩
المائدة الثالثة والرابعة	١١٢
المائدة الخامسة والسادسة والسابعة	١١٣
طريق معرفة سبب النزول	١١٤

الموضوع	الصفحة
التعمير عن سبب الزول	١١٤
تعدد الأساليب والمارل واحد	١١٦
شبهة في الموضوع وحواشيها	١٢١
تعدد المارل والسبب واحد	١٢١
المعوم والخصوص بين لفظ الشارع وسببه	١٢٣
عموم اللفظ وخصوص سببه	١٢٥
أدلة الجمهور	١٢٧
شبهات المخالين وتقييدها	١٣٠
شبيه بالنسب الخاص من اللفظ العام	١٣٥
المبحث السادس في زول القرآن على سبعة أحرف	١٣٧ - ١٩١
أدلة زول القرآن على سبعة أحرف	١٣٩
شواهد بارزة في هذه الأحاديث الواردة	١٤٥
فوائد أخرى لاختلاف القراءة وتعدد الحروف	١٤٦
ممن زول القرآن على سبعة أحرف	١٥٣
الوجوه السبعة في مذاهب المختار	١٥٥
لماذا اخترنا هذا المذهب ؟	١٥٧
الذين قالوا بهذا المذهب	١٥٨
النسبة بين هذه المذاهب ومذهب الراي	١٦١
دفع الاعتراضات الواردة على المذهب المختار	١٦٤
بقاء الأحرف السبعة في المصاحف	١٦٨
الأقوال الأخرى ودفعها	١٧٢
القول الأول	١٧٢

ياوصوع	صحة
القول الثاني إلى القول السابع	١٧٣
القول الثامن والتاسع	١٧٤
العناية بدفع هذا القول لقوة شهرته	١٧٥
القول العاشر ودفعه	١٨٠
القول الحادي عشر إلى الأربعين	١٨٢
ردود إجابية لهذه الأقوال الأخيرة	١٨٣
علاج الشبهات الواردة على أصل الموضوع	١٨٤
الشبهة الأولى وحواسنها	١٨٥
الشبهة الثانية وحواسنها	١٨٧
الشبهة الثالثة وحواسنها	١٨٩
الشبهة الرابعة وحواسنها	١٩٠
للبحث السابع في المكي والمدني من القرآن الكريم	١٩٢ - ٢٣٨
الاصطلاحات في معنى المكي والمدني	١٩٣
فائدة العلم بالمكي والمدني	١٩٥
الطريق الموصل إلى معرفة المكي والمدني	١٩٦
الصوائط التي يعرف بها المكي والمدني	١٩٦
السور المكية والمدنية والمختلف فيها	١٩٨
أنواع السور المكية والمدنية	١٩٩
وحوه تتعلق بالمكي والمدني	٢٠٠
فروق أخرى بين المكي والمدني	٢٠٢
نقص الشبهات التي أثيرت حول هذا الموضوع	٢٠٥
الشبهة الأولى وفي طيها شبهات أربع	٢٠٦
مظاهرة مسكنة	٢١٣

المصحة	موسوع
٢١٦	الشبهة لثانية وجوابها
٢١٨	الشبهة الثالثة وجوابها
٢٢٠	الشبهة الرابعة وجوابها
٢٢٥	الشبهة الخامسة وجوابها
٢٢٥	رأى في فوائح السور المعترض بها
٢٢٨	الرأى الثانى في تلك الفوائح وتشتمل على وجوه مهمة
٢٣٧	الشبهة السادسة وجوابها
٢٣٩ - ٢٨٨	المبحث الثامن في جمع القرآن الكريم وما يتعلق به
٢٤٠	جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور
٢٤٦	جمع القرآن بمعنى كتابته في عهد رسول الله ﷺ
٢٤٩	جمع القرآن على عهد أبى بكر رضى الله عنه
٢٥٢	دستور أبى بكر في كتابة الصحف
٢٥٣	مزايا هذه الصحف
٢٥٥	جمع القرآن على عهد عثمان رضى الله عنه
٢٥٧	تنفيذ عثمان اقرار الجمع ودستوره في كتابة المصاحف .
٢٦٠	تمحيق عثمان للمصاحف والصحف المتخلفة
٢٦٢	فذلك المبحث
٢٦٣	الرد على ما يثار حول جمع القرآن من شبه
٢٦٣	الشبهة الأولى وهي تعتمد على سبع شبه
٢٦٥	نقص هذه المراعى الباطلة
٢٧٥	الشبهة الثانية وجوابها
٢٨٠	والثالثة وجوابها



المصحة	الوضع
٢٨٣	• الرابعة وجوابها
٢٨٤	• الخامسة وجوابها
٢٨٦	• السادسة وجوابها
٢٨٩-٣٣٧	خط منيع من خطوط الدفاع عن الكتاب والسنة (وهو بحث جديد مهم)
٢٩١	الجبلة الأولى في عوامل حفظ الصحابة للكتاب والسنة
٢٩١	العامل الأول أنهم كانوا أميين
٢٩٣	العامل الثاني أنهم كانوا مضرب القتل في الذكاء والحفظ
٢٩٤	• الثالث بساطة معيشتهم والعامل الرابع حبهم لله ورسوله
٢٩٦	• الخامس إيجاز القرآن وبلاغة النبي عليه الصلاة والسلام
٢٩٧	• السادس ترغيبهم في الإقبال على الكتاب والسنة
٢٩٩	• السابع منزلة الكتاب والسنة من الدين
٣٠٠	• الثامن ارتباط كلام الله ورسوله بما يثير الاهتمام
٣٠٢	• التاسع اقتران الكتاب والسنة بأمر خارق للعادة
٣٠٤	• العاشر حسن سياسة الكتاب والسنة لهذه الأمة
٣٠٨	• الحادي عشر الترغيب والترهيب المذان في الكتاب والسنة
٣١١	• الثاني عشر حمل الصحابة بالكتاب والسنة
٣١٢	• الثالث عشر وجود الرسول ﷺ بين ظهرانيهم
٣١٢	عوامل خاصة بالقرآن الكريم أولها التحدى
٣١٣	ثانيها العناية بكفاية القرآن الكريم وثالثها تشريع قراءته في الصلاة
٣١٣	رابعها الترغيب في تلاوة القرآن في غير الصلاة
٣١٤	خامسها عناية الرسول بتعليم القرآن وإذاعته وشره
٣١٥	سادسها القداسة التي امتاز بها القرآن

الموضوع	صفحة
الجهة الثانية في عوامل ثنت الصحابة من الكتاب والسنة	٣١٦
العامل الأول أمر القرآن بالثنت وسهيه عن التهم	٣١٦
العامل الثاني الترهيب الشديد في الكذب على الله ورسوله	٣١٧
العامل الثالث الحص على الصدق والتعير من الكذب	٣١٨
العامل الرابع عرام الصحابة بالتفقه والتعلم	٣٢٠
العامل الخامس بسر الوسائل لدى الصحابة إلى أن يشبعوا	٣٢١
العامل السادس شجاعة الصحابة ومراحمهم	٣٢٢
العامل السابع تكافل الصحابة تكافلا اجتماعياً	٣٢٣
العامل الثامن ترويضهم على الصدق عملاً	٣٢٥
العامل التاسع الأموة الحسنة التي كانوا يمدونها في رسول الله ﷺ	٣٢٦
العامل العاشر سمو تربية الصحابة على فضل الإسلام	٣٢٩
عوامل أخرى	٣٣٠
مظاهر هذا الثنت	٣٣١
نتيجة ذلك	٣٣٤
الموقف حطير	٣٣٥
شهادة علي من الله للصحابة	٣٣٦
شهادة الرسول ﷺ لأصحابه	٣٣٧
حكمة الله في اختيار الصحابة لحل شريته الخلقية	٣٣٧
لمبحث التاسع في ترتيب آيات القرآن وسوره	٣٣٨ - ٣٦٠
معنى الآية	٣٣٨
طريق معرفة الآية	٣٤٠
عدد آيات القرآن	٣٤٣

مقدمة	٣٤٤
موضوع	٣٤٤
سبب الاختلاف في عدد الآيات	٣٤٤
فوائد معرفة الآيات	٣٤٤
ترتيب آيات القرآن	٣٤٦
ملاحظة في عدد كلمات القرآن وحروفه	٣٤٨
شبهة تتصل بالموضوع وينتج عنها	٣٤٩
معنى السورة	٣٥٠
حكمة تسوير السور	٣٥١
أقسام السور	٣٥٢
المذاهب في ترتيب السور	٣٥٣
احترام هذا الترتيب	٣٥٨
شبهتان حقيقتان وحواسلها	٣٦٠
المبحث العاشر في كتابة القرآن ورسمه ومصاحفه	٣٦١ - ٤١٠
الكتابة	٣٦١
شأن الكتابة في الإسلام	٣٦٣
هل كان النبي ﷺ يقرأ ويكتب؟	٣٦٤
كتابة القرآن	٣٦٧
رسم للصحف وقواعد هذا الرسم	٣٦٩
قاعدة الحذف	٣٦٩
قاعدة الزيادة	٣٧٠
قاعدة الحذف وقاعدة البدل	٣٧١
قاعدة الوصل والفصل وقاعدة ما فيه قرأتان	٣٧٢
مرايا الرسم العثماني	٣٧٣

الموضوع	صفحة
هل رسم المصحف توقيفي؟	٣٧٧
الرأى الأول أنه توقيفي	٣٧٧
الرأى الثانى أنه اصطلاحى لا توقيفى	٣٨٠
والثالث وسط بين الرأين	٣٨٥
الشبهات التى أثبتت حول كتابة القرآن ورسمه	٣٨٦
الشبهة الأولى	٣٨٦
جواب هذه الشبهة	٣٨٦
الشبهة الثانية وجوابها	٣٨٨
الشبهة الثالثة وجوابها	٣٨٨
الشبهة الرابعة وجوابها	٣٨٩
الشبهة الخامسة	٣٩٠
جواب الشبهة الخامسة وتصوير الشبهة السادسة	٣٩٠
جواب السادسة وتصوير السابعة وجوابها	٣٩١
الشبهة السابعة وجوابها	٣٩٢
الشبهة الثامنة وجوابها	٣٩٣
تصوير الشبهة التاسعة	٣٩٥
جواب التاسعة وتصوير العاشرة وجوابها	٣٩٦
خلاصة الدقاع	٣٩٦
شبهة على التزام الرسم العثمانى فى هذا المصنف	٣٩٧
جواب هذه الشبهة	٣٩٧
المصاحف تفصيلا والحروف السبعة فى المصاحف العثمانية	٣٩٩
المصحف والمصاحف	٤٠٢

المصاحف	الموضوع
٤٠٢	عدد المصاحف العثمانية
٤٠٣	كيف أنشد عثمان المصاحف العثمانية
٤٠٤	أين المصاحف العثمانية الآن ؟
٤٠٥	المصاحف في دور التصوير والتعصين
٤٠٦	إجماع المصاحف
٤٠٧	شكل المصاحف
٤٠٨	حكم نقط المصحف وشكله
٤٠٩	تجزئة القرآن
٤١٠	احترام المصحف
٤١٢ - ٤٧٥	المبحث الحادى عشر في القراءات والقراء والشبهات فيها
٤١٢	القراءات
٤١٢	نشأة علم القراءات
٤١٤	طبقات الحفاظ المقرئين الأوائل
٤١٦	أعداد القراءات
٤١٨	ضابط قبول القراءات
٤٢٣	منطوق هذا الصابط ومفهومه
٤٢٧	ملاحظة في الاكتفاء بصحة الإسناد في الصابط المذكور
٤٢٩	أنواع القراءات من حيث السند
٤٣١	نواثر القرآن الكريم
٤٣٥	الآراء في القراءات السبع
٤٤٠	الآراء في القراءات الثلاث المتممة للعشر
٤٤١	التحقيق نواثر العشر كلها

الموضوع	الصفحة
القرآن	٢٥٦
ابن عامر	٢٥٦
ابن كثير	٢٥٧
عاصم	٢٥٨
أبو عمرو	٢٥٩
حزرة	٢٦٠
نافع	٢٦١
الكناني	٢٦٢
أبو جعفر ويعقوب	٢٦٣
خلف	٢٦٤
الحسن البصري وابن عيينة ويحيى اليزيدي والشلبوذي	٢٦٥
حكم ما وراء العشر	٢٦٦
فذلكة هذا البحث	٢٧٠
نقض الشبهات التي أنشئت في هذا المقام	٢٧١
الشبهة الأولى وجوابها	٢٧٢
الشبهة الثانية	٢٧٣
الشبهة الثالثة والرابعة	٢٧٤
الشبهة الخامسة	٢٧٥

## شكر ورجاء

أما بعد شكر الله تعالى وحده جداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فإن أتوجه بأجزل الشكر إلى كل من حاولني في هذا الكتاب برأيه ، أو بسميه ، أو بقرائه والإقبال عليه ، أو بتقديره وتشجيعه على المضي فيه .

وأرجو كل من يطلع عليه أن يلتمس لي العذر إن كنت قصرت ، وأن يرشدني إلى شاكلة الصواب إن كنت أخطأت ، وأن يصحح نسخه على ما جاء في هذه الطبعة ، وأن يسم أنني حاولت جهد طائفي حسن الإخراج وجودة الطبع ؛ ولكن الظروف أبت إلا أن تفق في عند هذا الحد . ولعلني سددت أو فارتبت ، وعلى كل حال فالعود أحد ، إن شاء الله .

وأستغفر الله من كل خطيئة وزلل ، وأسأله أن يقابل بالقبول ما وقفنا إليه من مافع العلم وصالح العمل ، وأن يصحح منا جميعاً الحال والبال ، وأن يحقق للإسلام والمسلمين جميع الآمال . والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان في البدايات والنهايات ، آمين . وسلامٌ على المرسلين ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

# مناهج العرفان في علوم القرآن

طبق مافورده مجلس الأهرام الأعلى في دراسة تخصص الكليات الأهرية

بم  
حصرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ

محمد عبد الحليم الزرقاني

مدرس علوم القرآن وعلوم الحديث متخصص الدعوة والإرشاد  
بكلية أصول الدين سابقاً

جميع الحقوق محفوظة

الجزء الثاني



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

• الرحمن • علم القرآن • خلق الإنسان • عله البيان • .

نحمده سبحانه على هذه النعم المترافقة ، ونصلي ونسلم على من نشر في العالم هدايته  
وهو أرفه ، سيدنا ومولانا محمد شارح الكتاب الحكيم بسنته ، ومفسر القرآن الكريم  
برسالته ، « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .  
وشمل الله برضوانه وإحسانه ، آل الرسول وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، والعلماء  
الغامرين ، وأصحاب الحقوق علينا أجمعين .

أما بعد فهذا هو الجزء الثاني من كتاب مناهل العرفان في علوم القرآن ، وكتبه  
تقراؤى الأكرمين كما كتبت لم الجزء الأول ، ضارعا إلى الله - جلّت قدرته - أن يسبغ  
علينا نوره ظاهرة وباطنة ، وأن يؤيدنا فيه بالإخلاص والتوفيق حتى يكون ذخيرة  
عنده نافعة ، كما أسأله سبحانه أن يلطف بالبلاد والمباد ، إنه تعالى الكريم الجواد ،  
الفتاح الوهاب ، لا ريب غيره . ولا مأمول إلا خيره ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . نعم  
للولى ونعم النصير ، آمين .

ولقد نهجت في هذا الجزء منهج سابقه ، ودرجت مباحثه على مباحثه ، وما أن ذاك  
قد قطع أحد عشر مبحثا ، فلنفتتح هذا بما يليها عددا ، وهو :

## المبحث الثاني عشر

في التفسير والمفسرين وما يتعلق بهما

١ - التفسير

التفسير في اللغة : الإيضاح والتبيين . ومنه قوله تعالى في سورة الفرقان : **وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** .

والتفسير في الاصطلاح : علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية .

( والمراد بكلمة علم المعارف التصورية . قال عبدالحكيم على المطول : إن علم التفسير من قبيل التصورات ، لأن المقصود منه تصور معاني ألفاظه ، وذلك من قبيل التعاريف ، لكن أكثرها بل كلها من قبيل التعاريف اللفظية . وذهب السهيد إلى أن التفسير من قبيل التصديقات ، لأنه يتضمن حكماً على الألفاظ بأنها متقدمة لهذه المعاني التي تذكر بجانبها في التفسير .

( وخرج بقولنا : يبحث فيه عن أحوال القرآن ) العلوم الباهتة عن أحوال غيره . ( وخرج بقولنا : من حيث دلالاته على مراد الله تعالى ) العلوم التي تبحث عن أحوال القرآن من جهة غير جهة دلالاته ، كعلم القراءات فإنه يبحث عن أحوال القرآن من حيث ضبط ألفاظه وكيفية أدائها . ومثل علم الرسم العثماني فإنه يبحث عن أحوال القرآن الكريم من حيث كيفية كتابة ألفاظه .

وخرج بهذه الحيثية أيضاً للمعارف التي تبحث عن أحوال القرآن من حيث إنه مخلوق أو غير مخلوق ، فإنها من علم الكلام وكذلك المعارف الباهتة عن أحوال القرآن من حيث حرمة قراءته على الجنب ومحوه . فإنها من علم الفقه .

( وقولنا بقدر الطاقة البشرية ) لبيان أنه لا يقدح في العلم بالتفسير عدم العلم بمعاني التفاسير ولا عدم العلم بمراد الله في الواقع ونفس الأمر .

وعرفوا علم التفسير أيضاً بأنه علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز من جهة بركه وسنده وأدائه وألفاظه ومعانيه المتعمقة بالألفاظ والمتعمقة بالأحكام .

( والمراد بكلمة نزوله ) ما يشمل سبب النزول ومكانه وزمانه .

( والمراد بكلمة سنده ) ما يشمل كونه متواتراً أو آحاداً أو شاذاً .

( والمراد بكلمة أدائه ) ما يشمل كل طرق الأداء كدنه وإدغام

( والمراد بكلمة ألفاظه ) ما يتعلق باللفظ من ناحيته كونه حقيقة أو مجازاً أو مشتركاً أو مرادفاً أو صحيحاً أو معتلاً أو معرباً أو مبنياً .

( والمراد بمعانيه المتعلقة بالألفاظ ) ما يشه الفصل ووصل

( والمراد بمعانيه المتعلقة بأحكامه ) ما هو من قبيل العموم والخصوص ، والإحكام

واسع

وهذا التعريف كما ترى يشمل كثيراً من حرييات ما يدرج في قواعد علم القراءات وعلم الأصول وعم قواعد اللغة من نحو وصرف ومعان وبيان ولديع

وعرفوا التفسير تعريفاً ثالثاً بأنه علم يبحث فيه عن كيفية اللفظ بناءً على القراءات ، ومدلولاته ، وأحكامها الإفرادية وتركيبية ، ومعانيها التي تحمل عليها حال التركيب ، وغير ذلك كعرفة النسخ وسبب النزول وما به توضيح المقام كالقصص والأمثل

وهذا تعريف وسط بين التعريفين ، ومن السهل الرجوع إلى التعريف الأول ، لأن ما ذكره بالتفصيل ، يُعتبر بياناً لما مراد الله من كلامه بقدر الطاقة البشرية في شيء من التفصيل .

التأويل :

والتأويل مرادف للتفسير في أشهر معانيه اللغوية قال صاحب القاموس :

« أَوَّلُ الْكَلَامِ تَأْوِيلًا وَتَأْوِيلُهُ : ذَبْرُهُ وَقَدْرُهُ وَفَسْرُهُ » ومنه قوله تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَاءُ مِنْهُ ابْتِغَاءَ تَفْتَخَةٍ وَآتِمَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا

يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ . وكذلك جاءت آيات كثيرة فيها لفظ التأويل ، ومعناه في جميعها البيان والاكتف والإيضاح .

أما التأويل في اصطلاح المفسرين <sup>(١)</sup> فإنه يختلف معناه فبعضهم يرى أنه مرادف للتفسير . وعلى هذا فاللغة بينهما التساوي . ويشيع هذا المعنى عند المتقدمين . ومنه قول مجاهد : « إن العلماء يعلمون تأويله ( يعني القرآن ) وقول ابن جرير في تفسيره : القول في تأويل قرآنه تعالى كذا . . . واختلاف أهل التأويل في هذه الآية . . . »

وبعضهم يرى أن التفسير يخالف التأويل بالمعنى والخصوص فقط ، ويجعل التفسير أعم مطلقاً . وكأنه يريد من التأويل بيان مدلول اللفظ بغير المتبادر منه لداهل . ويريد من التفسير بيان مدلول اللفظ مطلقاً ، أعم من أن يكون بالمتبادر أو بغير المتبادر . وبعضهم يرى أن التفسير مبين للتأويل . فالتفسير هو النقطع بأن مراد الله كذا ، والتأويل ترجيح أحد الاحتمالات بدون قطع . وهذا هو قول المازريدي . أو التفسير بيان اللفظ عن طريق الرواية ، والتأويل بيان اللفظ عن طريق الدراية . أو التفسير هو بيان المعاني التي تستفاد من وضع العبارة ، والتأويل هو بيان الداعي التي تستفاد بطريق الإشارة وقد اشتهر هذا عند المتأخرين كما نبه إليه العلامة الألويسي إذ قال بعد استعراضه للآراء في هذا الموضوع ما نصه : « كل ما قيل مما ذكرنا وما لم نذكر مخالف للمعرف اليوم . إذ قد تُعرف عند المؤلفين من غير مكبر أن التأويل معاني قديمة ، ومعارف رامية ، تنهل من حبيب الغيب على قلوب المارقين . والتفسير غير ذلك » اهـ تصرف قامت

(١) وإنا قلنا في اصطلاح المفسرين ليخرج اصطلاح للتكلمين ومن حاراه ، وإيهم يريدون من التأويل مذهب إليه اختلف من صرف نصوص ما تشابه من الكتاب والسنة عن ظاهره إلى معان تنفق وتزيع الله تعالى عن التشابه والماتة بخلاف مذهب إبيہ اسلف من التفويض والإمبالك عن تعيين معنى خاص .

ترى أنه حمل التأويل خاصاً عما كان مأخوذاً بالإشارة ، والتفسير بما كان مفهوماً من العبارة .

### التفسير تفسيران

لكن التفسير على وعين بالإجمال ( أحدهما ) تفسير جاف لا يتجاوز حل الألفاظ وإعراب الجمل ، وبيان ما يحويه نظم القرآن الكريم من إسكات بلاغية وإشارات فنية . وهذا النوع أقرب إلى التطبيقات العربية منه إلى التفسير وبيان مراد الله من هداياته .

( النوع الثانى ) تفسير يجاوز هذه الحدود ، ويحمل هذه الألفاظ على مجملية هدايات القرآن وتعاليم القرآن وحكمة الله فيها شرع للناس فى هذا القرآن ، على وجه يجتذب الأرواح ، ويذبح القلوب ، ويدفع النفوس إلى الاعتناء بهدى الله . وهذا هو الخلق باسم التفسير . وفيه بساق الحديث إذا تكلمنا من فضله والحاجة إليه .

### فصل التفسير والحاجة إليه :

نهضة الأفراد والأمم لا يمكن أن تكون صحيحة عن تجربة ، ولا سهلة ، فبسيطة ، ولا رائعة مذهبة . إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيم التى روعيت فيها جميع عناصر السعادة للروح النشوى على ما أحاط به علم خالقه الحكيم . وبذلك أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتدبره ، والوقوف على ما حوى من نصيح ورشد ، والإيمان بمبادئه من طريق تلك القوة الهائلة التى يحملها أسدوده السارع السمر . وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان لما تدل عليه أساطير القرآن « وهو ما سمي به التفسير » خصوصاً فى هذه العصور الأخيرة التى شهدت فيها ملوحة البيان العرفى ، وضاعت فيها حصائص العروبة حتى من حلائل العرب أنفسهم . فالتفسير هو مفتاح هذه الكنوز والذخائر التى احتواها هذا الكتاب الحيد النازل لإصلاح البشر ، وإيقاظ الناس ، وإعراة العالم .

ويدور لتفسير لا يمكن الوصول إلى هذه السكور والذخائر ، مهما بالغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن ، وتوفر واعى قراءته كل يوم ألف مرة بجميع وجوهه التي رول عليها .

وهنا تفتح السر في تأخر مُسَلِّية هذا الرمن على رغم وفرة المصاحف في أيديهم ووجود ملايين الجفّاذ بين ظهرانيهم ، وعلى رغم كثرة مدّهم ، وانساع بلادهم في حين أن سلفنا الصالح بجوابهم ذا القرآن نجاحاً مدهشاً كان وما زال . وضع إلهاب الفارخ والمؤرخين . مع أن أسلافنا أولئك كانوا في قلة من العدد ، وصيق من الأرض ، وخشونة من العيش ، ومع أن نسخ القرآن ومصاحفه لم تكن مبسورة لهم ، ومع أن حفاظه لم يكونوا بهذه الكثرة الغامرة .

أجل إن السر في ذلك هو أنهم توفروا على دراسة القرآن واستخراج كنوز هداياته ، يستعملون على هذه الثقافة العيا بجواهرهم الفطرية وملكاتهم السليمة العربية من ناحية ، وبما بشرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبيّنه لهم بأقواله وأعماله وأخلاقه وسائر أحواله كما قال سبحانه : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

وعلى ذلك كان مهم الأول هو القرآن الكريم يحفظونه ويفهمونه قبل أن يحفظوه ثم يعملون بفعاليه بدرجة ، ويبتدون بهديه في بقطة .

بهذا وحدة صفت أرواحهم ، وظهرت نفوسهم ، وعظمت آثارهم ؛ لأن الروح الإنسانية هو أقوى شيء في هذا الوجود . متى صفا وتهذب ، وحسن توجيهه وتأدّب ، أتى بالمحب المحاب ، « وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ » .

وكذلك أنت الأمة العربية بالمحب العاحب ، في الهداية والإرشاد وإيقاد العالم وإصلاح البشر ، وكتب الله لهم النصر والتأييد والدولة والظفر ، حتى على أقوى الدول

المادة لدعوة الحق والإصلاح في تلك العهد، ودولة القرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب تلك نحو ما من لوح الوجود بهدم طغيانها وإسلام شعبيها، وهذه سلوها ما كان في حوزتها من ممالك الشرق وشعوبه الكثيرة. ثم دانت لهم الدنيا فاستولوا على بعض بلاد أوربية، وأقاموا فيها دولة عربية شاذة البنيان، كانت بهمة الدنيا وربنة الحياة، ومنها شيع النور على الشعوب الأوربية، وكانت النواة الناجعة في نهضتهم الحديثة الحاصرة

( تلك هي فردوس الأندلس المفقود ) ١١

أما غالب مُسَلِّمَةِ اليوم . فقد اكتفوا من القرآن بالفاظ برَدِّ دوسها . وأنعام  
يَلْمُحُونَهَا ، في المآثم والمغابر والدور . وبمصاحف يحملونها أو يسود عونها نركة في  
البيوت . وسوا أن بركة القرآن المظني إنعاش في تدبره وتفهمه ؛ وفي الجلس  
إليه والاستفادة من هديه وآدابه ، ثم في الوقوف عند أولامره ومراضيه ، والحمد من  
مساخطه ونواميه . والله تعالى يقول : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ يَتَذَكَّرُ  
آبَاؤُهُ وَيَلْتَمِذُ كَثَرٌ أُولَئِكَ أَلْقَابُ » ، ويقول سبحانه : « أَمَلًا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ؟  
أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » ويقول جل ذكره : « وَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنَ الْمَذْكُورُ فَهَلْ  
مِنْ مُدِّ كَرٍّ » .

فما أشبه المسلمين اليوم بالملشأن يموت من الظلم والماد بين يديه ، والحيوان يهلك من الإغواء والنور من حوله يهديه السبيل لفتح عينيه . « ذَلِكَ هُوَ الْخَضِرَانُ لَسِينٌ » .

ألا إن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها ، وهو أن يعودوا إلى كتاب الله يستلهمونه الرشاد ويستنصرونه الهدى ، ويحكونه في قلوبهم وفي كل ما يتصل بهم كما كان آباؤنا الأولون يتلونه حتى تلاوته بتدريسه كبر في مجازاتهم ومساعدتهم وأنديتهم ويوتهم ، وفي صلواتهم المفروضة والناقلة ، وفي تعهدهم بالليل

والناس بيسام ، حتى ظهرت آثاره الباهرة عاجلة فيهم . فرجع نفوسهم وانتشروا من حصيص اوثنية ، وأعلى همهم وهذب أحلاقهم ، وأرشدتهم إلى الانتفاع بقوى الكون ومصادره . وكان من وراء ذلك أن مهروا في العلوم والفنون والصناعات كما مهروا في الأخلاق والآداب والإصلاح والإرشاد ، ووصلوا إلى غاية رؤايتها كل أم القدينا . حتى قال بعض فلاسفة الغرب في كتابه ( تعاوثر الأمم ) ما نصه : « إن مدسكة الفنون لا تستعكم في أمة من الأمم إلا في ثلاثة أجيال : حيل التقليد ، وحيل التضرمة ، وحيل الاستقلال . وندد الغرب وحدهم فاستحكمت فيهم مدسكة الفنون في حيل واحد » ١٠ .

قال السيوطي في بيان الحاجة إلى التفسير ما ملخصه : « القرآن إنما نزل بلسان عربي في زمن أفصح العرب ، فكانوا يملكون ظواهره وأحكامه .

أما دقائق باطنه فلا تظهر لهم إلا بعد البحث والنظر وسؤالهم النبي ﷺ مثل قولهم : « وَأَبْنَا لَمْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ » حينما نزل قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » . ففسره النبي ﷺ بالشرك ، واحتدل بقوله سبحانه : « إِنَّ الشِّرْكَ أَظْلَمُ قَظْلَمٍ » .

وكذلك حين قال النبي ﷺ : « مَنْ نُوْقِسَ بِحُطَابِ عُذْبٍ » سأله هاشم أم المؤمنين رضي الله عنها عن قوله تعالى : « فَسَوْفَ يَحْمَتُ حِسَابًا بَسِيرًا وَبِقَظْبٍ إِلَى أَهْلِ مَسْرُورٍ » فقال ﷺ : « ذَلِكَ الْمَرْصُ » وكقصة عدي بن حاتم في الحيط الأبيض والخيط الأسود . ونحن محتاجون إلى ما كانوا محتاجون إليه من بحس أحد الناس احتياجاً إلى التفسير ، فنصورنا عن مدارك اللغة وأسرارها بغير علم » ١١ .

مما تقدم يتبين أن فائدة التفسير هي التذكر والاعتبار ، ومعرفة هداية الله في المقائد والمعادات والمعاملات والأخلاق ، ليفوز الأفراد والمجاميع بحير الماحظة والاحلة .



ويتبين أيضاً أن هذا العلم من أشرف العلوم الدينية والعربية ، وإن لم يكن أشرفها جميعاً . وذلك لسُمو موضوعه ، وعظم فائدته .

وسمى علم التفسير لـ فيه من الكشف والتبيين . واختص بهذا الاسم دون بقية العلوم مع أنها كلها مشتملة على الكشف والتبيين ، لأنه جلالة قدره ، واحتياجه إلى زيادة الاستعداد ، وقصده إلى تبين مراد الله من كلامه ، كان كأنه هو التفسير وحده دون ما عداه .

## ب - أقسام التفسير

ورد من ابن عباس رضي الله عنهما أن التفسير أربعة : حلال وحرام لا يُمذر أبداً بجهالة ، وتفسير تفسره العرب بألسنتها ، وتفسير تفسره العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله . قال الزركشي في البرهان ما ملخصه : وهذا تقسيم صحيح . فأما الذي يُعرفه العرب بألسنتها فهو ما يرجع إلى لسانهم من اللغة والإعراب . فأما اللغة فعمل المفسر معرفة معانيها ومسئآت أمانيها . ولا يلزم ذلك القارئ . ثم إن كان ما يتضمنه ألفاظها بوجوب العمل دون العلم ، كفى فيه خبر الواحد والاثنين ، والاستشهاد بالبيت والبروتين . وإن كان بوجوب العلم ( أي الاعتقاد ) لم يكف ذلك ، بل لابد أن يستفيض ذلك اللفظ وتكثر شواهد من الشعر . وأما الإعراب فما كان اختلافه تحيلاً للمعنى وحسب على المفسر والقارئ تعلمه ، ليوصل المفسر إلى معرفة الحكم ، ويصل القارئ من الحق . وإن لم يكن تحيلاً للمعنى ، وجب تعلمه على القارئ ليسلم من الحق ، ولا يجب على المفسر لوصوله إلى المقصود مدونه .

وأما ما لا يُمذر أحد مجمله فهو ما تبادر إلى الأفهام معرفة معناه من الصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد ، وكل لفظ أفاد معنى واحداً حلياً يعلم

أما مراد الله تعالى . فهذا القسم لا يلتبس تأويله ، إذ كل أحد يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى : « مَا عَلَّمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » أنه لا شريك له في الألوهية ، وإن لم يعلم أن « لا » موضوعه في اللة لفتى « وإلا » موضوعه للإتيات ، وأن مقتضى هذه الكلمة المحصر وسلم كل أحد بالضرورة أن مقتضى « أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » ومحوه ، طلب إحياء الأمور به ، وإن لم يعلم أن صيغة أفضل للوجوب .

وأما ما لا يطلع إلا الله تعالى ، فهو ما يجري مجرى الميوب ، كالأبواب التي تذكر فيها السامة . والروح ، والحروف للقطعة . وكل مشابه في القرآن عند أهل الحق ، ولامساع للاجتهاد في تسميته . ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف ، بنص من القرآن أو الحديث أو إجماع الأمة على تأويله .

وأما ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم ، فهو الذي يطلب عليه إطلاقات التأويل وذلك باستقسط الأحكام ، وبيان المحل ، وتخصيص العموم . وكل لفظ احتمل معنيين فصاعداً فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه اعتماداً على الدلائل والشواهد دون مجرد الرأي « اهـ » بقصود منه . لكنه لم يلزم فيه ترتيب الأقسام على ما روى عن ابن عباس ولا صير في ذلك مادام أنه قد استوعب عدتها الأربعة كما رأيت .

وقسم بعضهم التفسير باعتبار آخر إلى ثلاثة أقسام : « تفسير بالرواية » ويسمى بالتفسير « مأثور » ، وتفسير بالدراية ويسمى التفسير بالرأى ، وتفسير بالإشارة ويسمى التفسير لإشادي ، وسنحدث عن كل واحد منها إن شاء الله .

## ج - التفسير المأثور

هو ما جاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابة بيانا لمراد الله تعالى من كتابه

(١) مثال ما جاء في القرآن قوله سبحانه : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَسْمُرَ آبُكُمْ أَنْخَبُطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ » فإن كلمة « من الفجر » بيان وشرح للمراد من كلمة « أَنْخَبُطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ » التي قبلها . وكذلك قوله سبحانه : « قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » فإنها بيان للفظ « كُفَرْنَا » من قوله تعالى : « فَتَلَوْنِ آدَمُ مِنْ رَبِّكَ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ » على « من وجوه التفسير . وقوله تعالى : « جُرْمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْيَاطِرِينَ » الآية ، فإنها بيان للفظ « مَا بَشَلَى عَلَيْكُمْ » من قوله سبحانه : « أَجَلَتْ لَكُمْ بِهِمْ قُلُوبُكُمْ إِلَّا مَا بَشَلَى عَلَيْكُمْ » وقوله تعالى : « آتَيْنَاكُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْنَاكُمْ الزَّكَاةَ وَآتَيْنَاكُمْ بَرُسُلِي وَعَزَّرْتُمْهُمْ وَأَقْرَضْتُمْهُمُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا لَّا كَمَرُنَ مِنْكُمْ سِبْطًا يَكُمُ » الآية فإنها بيان للمعنيين في قوله سبحانه : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ » الأول للأول ، والثاني للثاني . وقوله تعالى : « وَمَا أَذْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ الثَّاقِبُ » . فإن كلمة « النَّجْمُ الثَّاقِبُ » بيان لكلمة « الطَّارِقُ » التي قبلها . وغير ذلك كثير يعلم بالتدبر لكتاب الله تعالى .

(٢) ومثال ما جاء في السنة شرحا للقرآن ، أنه صلى الله عليه وسلم فسر الظلم باشتراك في قوله سبحانه : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ، أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » وأيد تفسيره هذا بقوله تعالى : « إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » وفسر صلى الله عليه وسلم الحساب اليسير بالعرض حين قال : « مَنْ نُوَفِّيَ الْحَسَابَ عَذَبٌ » فقالت له السيدة عائشة : أُولَئِكَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « فَلْيَمَازِنُوا قِيَمَتَهُمْ قَسُوفَ يُحَاسَبُ »

حَسَنًا بَسِيرًا ، وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا » قَالَ ﷺ : « ذَلِكَ الْقَرْنُ » بَيِّنًا لِلْحَصَابِ  
الْيَسِيرِ . وَكَذَلِكَ صَرَّحَ الرَّسُولُ ﷺ بِالقُوَّةِ بِالرَّمْيِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا  
أَمْسَتْ ظُهُورُهُمْ مِنْ قُوَّتِهِ » وَفِي صَحِيحِ كُتُبِ السُّنَنِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ كَثِيرٌ .

وَكَلَّا هَدَيْنَ الْقَسْبِينَ لَا شَكَّ فِي عِيَالِهِ . أَمَّا الْأَوَّلُ فَلَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمُ عِمْرَانَهُ  
مِنْ غَيْرِهِ ، وَأَمْدَقُ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى . وَأَمَّا اللَّتَانِ فَلَأَنَّ حَبِيبَ الْهُدَى هَدَى سَيِّدَنَا  
مُحَمَّدًا ﷺ ، وَوَعْدَهُ الْبَيَانَ وَالشَّرْحَ ، مَعَ أَمَّا قَطَعَ بِصِدْقِهِ وَتَوْفِيقِهِ . قَالَ تَعَالَى : « وَأَنْزَلْنَا  
إِلَيْكَ الْكِتَابَ الَّذِي كُنَّا نَعْبُدُكَ فِيهِ نَفَاسٍ مَا نَزَّلَ إِلَيْنَا » .

(٣) بَقِيَ الْقِسْمُ الثَّلَاثُ وَهُوَ بَيَانُ الْقُرْآنِ عَمَّا صَحَّ وَرَوَدَ عَنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانِ اللَّهِ  
عَلَيْهِمْ : قَالَ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ : « إِنَّ تَفْسِيرَ الصَّحَابَةِ الَّذِي شَهِدَ الْوَحْيَ وَلَمْ يَزَلْ لَهُ  
حُكْمُ الْمَرْفُوعِ » كَذَلِكَ أَطْلَقَ الْحَاكِمُ . وَقَدَّهَ بِمَعْنَاهُمْ بِمَا كَانَ فِي بَيَانِ الْانْزُولِ وَنَحْوِهِ  
لَا بِجَاهِ لِلرَّأْيِ فِيهِ ؛ وَإِلَّا فَهُوَ مِنَ الْمَوْقُوفِ .

وَوُجْهَةُ نَظَرِ الْحَاكِمِ وَمَنْ وَاقَفَهُ ، أَنَّ الصَّحَابَةَ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ قَدْ شَهِدُوا الْوَحْيَ  
وَانْزِيلَ ، وَعَرَفُوا وَعَايَنُوا مِنْ أَسْبَابِ الْانْزُولِ مَا يَكْشِفُ لَهُمُ النِّقَابَ عَنْ مَعَانِي الْكِتَابِ  
وَلَهُمْ مِنْ سَلَامَةِ طَرْتِهِمْ ، وَصَفَاءِ نَفْسِهِمْ ، وَهَلَوِ كَمْعِهِمْ فِي الْمَفْصَاحَةِ وَالْبَيَانِ ، مَا يُمْكِنُ لَهُمْ  
مِنْ الْفَهْمِ الصَّحِيحِ لِكَلَامِ اللَّهِ ، وَمَا يَجْمَلُهُمْ بِوَقْفَتِهِ عَمَّا رَدَّ مِنْ تَرْكِهِ وَهَذَا .

أَمَّا مَا يَنْفُلُ عَنِ التَّابِعِينَ فَفِيهِ حِلَافُ الْمَلَاءِ : مِنْهُمْ مَنْ اعْتَبَرَهُ مِنَ الْمَأْثُورِ . لِأَنَّهُمْ  
تَلَقَّوْهُ مِنَ الصَّحَابَةِ عَرَبِيًّا . وَمَعَهُمْ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ مِنَ التَّفْسِيرِ بِالرَّأْيِ .

وَفِي تَفْسِيرِ ابْنِ حَرِيرٍ الطَّائِفِي كَثِيرٌ مِنَ الْقَوْلِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِي بَيَانِ  
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .

يَبْدُو أَنَّ الْحَافِظَ ابْنَ كَثِيرٍ يَقُولُ : إِنَّ أَكْثَرَ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ قَدْ سَرَى إِلَى ارْتِوَاعٍ مِنْ  
رِيَاضَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَرَانِ وَكُلِّ أَهْلِ الْكِتَابِ . قَالَ بَعْضُهُمْ : وَجُلَّ ذَلِكَ فِي قِصَصِ الرِّسَالِ

مع أقوامهم ، وما يتعلق بكتبتهم ومعجزاتهم ، وفي تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف ، ومدينة إرم ذات المهاد ، وسحر بابل ، وعنوج بن عُنُق ، وفي أمور الغيب من أشراف الساعة وقيامتها وما يكون فيها وبعدها وحُلُّ ذلك حراقات ومفتريات ، صدقهم فيها الرواة حتى نعت الصحابة رضي الله عنهم . ولذلك قال الإمام أحمد : « ثلاثة أبس لها أصل : التفسير ، والملاحم ، والمأري »<sup>(١)</sup> . وكان الواجب جمع الروايات المفيدة في كتب مستقلة ، كبعض كتب الحديث ، وبيان قيمة أصاندها ، ثم يذكر في التفسير ما يصح منها بدون سند ، كما يذكر الحديث في كتب الفقه ، أيكن يعزى إلى محرجه أو ما أردنا نقله .

### د - المفسرون من الصحابة

قال السيرطي في الإنان : « اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزبير . أما الخلفاء فأكبر من رؤى عنه منهم ، على بن أبي طالب كرم الله وجهه . والرواية عن الثلاثة قليلة جداً وكان السبب في ذلك تقادم وفاتهم » هـ . ومعنى هذا السبب في إقلال الثلاثة : أبي بكر وعمر وعثمان من التفسير ، أنهم كانوا في وسط أغلب أهل علماء بكتاب الله ، واقفون على أسرار التنزيل ، عارفون بمعانيه وأحكامه مكتملة فيهم خصائص العروة . أما الإمام على رضي الله عنه ، فقد عاش بعدهم حتى كثرت حاجة الناس في زمانه إلى من يفسر لهم القرآن ، وذلك من اتساع رقعة الإسلام ، ودخول محم في هذا الدين الجديد كادت تدوب بهم خصائص العروة ، ونشأ عييل من (١) لعل مراد الإمام أحمد ببيانته تنبيهاً للأذهان إلى أن الصحيح قليل بالنسبة إلى غير الصحيح . وليس مراده عموم النقي ، فإن هناك روايات في التفسير صحيحة ولا ريب . وسيأتى ما نقل عن الإمام أحمد نفسه في صحيفته التفسير التي رواها على بن أبي طلحة عن ابن عباس .

أداء الصعابة كان في حاجة إلى علم الصحابة . فلا جرم كان ما نقل عن عليٍّ أكثر مما نقل عن غيره ، أصف إلى ذلك ما امتار به الإمام من خصوصية الفكر ، وحرارة العلم ، وإشراف القلب : ثم أصف أيضاً سبق اشتغالهم بمهام الخلافة وتصريف الحكم دونه .

روى مَعْمَرُ عَنْ وَهَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ : شَهِدْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَحْطُبُ وَيَقُولُ : « سَلُونِي ، فَوَ اللَّهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَحْبَبْتُمْكُمْ وَسَلُونِي مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، فَوَ اللَّهِ مَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أَيْلِيلَ زَلَّتْ أُمُّ يَمَامٍ ؟ أَمْ أَيْ سَهْلٍ أَمْ فِي جَبَلٍ ؟ » .

وفي رواية منه ، قال : « وَافَّهِ مَا زَلَّتْ آيَةٌ إِلَّا وَقَدْ عَلِمْتُ فِيهِمْ أَنْزَلَتْ ؟ وَابْنَ أَنْزَلَتْ ؟ إِنْ زَلَّ وَهَبَ لِي قَلْبًا مَقُولًا ، وَلَسْنَا سَوْدًا » . . .

وقد كثرت الروايات أيضاً عن ابن مسعود . وحديثك في معرفة خطره وجلالة قدره ما رواه أبو نعيم عن أبي البحتري قال : قالوا لعل : أخبرنا عن ابن مسعود ؟ قال : علم القرآن والسنة ثم انتهى ، وكفى بذلك علماً ! .

وأما ابن عباس فهو ترجمان القرآن بشهادة رسول الله ﷺ . فمن مجاهد قال : قال ابن عباس ، قال لي رسول الله ﷺ : « نِيَمٌ تَرَجُّحَانُ الْقُرْآنِ أَنْتَ ! » وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « نِيَمٌ تَرَجُّحَانُ الْقُرْآنِ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عَبَّاسٍ » . وقد دعا له النبي ﷺ بقوله : « اللَّهُمَّ قَهَّهِ فِي الدِّينِ وَعِلْمَهُ النَّوِيلَ » . وروى أن رجلاً أتى ابن عمر يسأله عن السموات والأرض كأنهما رَتَقَا فَفَتَقْنَاهُمَا . أى من قوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا » . فقال : اذهب إلى ابن عباس ، ثم قال أخبرني . فذهب ، فسأله فقال : « كَانَتِ السَّمَوَاتُ رَتْقًا لَا تَمُطِرُ ، وَكَانَتِ الْأَرْضُ رَتْقًا لَا تَنْبِتُ ، فَفَتَقَ هَذِهِ بِالطَّرِيقِ ، وَهَذِهِ بِالنَّبَاتِ » . فرجع

إلى ابن عمر فأخبره فقال : « قد كنت أقول : لا يصحى حراة ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فالآن قد علمت أنه أوثق علماً » .

سكن بحب الحبيطة فلما عزي إلى ابن عباس من التفسير ، فقد كثر عليه فيه لذ من الوضع ، كاسياني

وكذلك إلى بن كعب - رضي الله عنه - من قيس الأنصاري أحد كذب الوحي فقد كان رضي الله عنه من أكثرين في التفسير للبرزين فيه ، كما اشتهر في الرواة وبرز فيها روى له في التفسير أبو حمزة الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العافية ، عن أبي ابن كعب . وإسناده صحيح .

وأما الباقي من المشرة ، وهم زيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن ابراهيم ، فمع شهرتهم في التفسير كانوا أقل من الرواة الذين قبلهم . وقد ورد عن جماعة من الصحابة غير هؤلاء المشرة ، شيء من التفسير ، بيد أنه قليل . منهم أنس ، وأبو هريرة ، وابن عمر ، وجابر ، وهرون العاصي ، ومائشة أم المؤمنين ، رضي الله عنهم أجمعين .

### هـ - تفسير ابن عباس

الرواية عنه واختلف الرواة فيها

أكثر الصحابة تفسيراً ابن عباس . ذلك لما عرفت من أنه ترجمان القرآن ، ولذا أخر الزمان به حتى اشتدّت حاجه الناس إلى الأخذ عنه بعد اتساع الإسلام ، واستدجر الممران ، ولاقطاعه وتفرعه للفرس والدعوة والتعليم ، دون أن تنقطع خلافة ، أو تصرفه سياسة وتدير لشتون الرعية ، غير أن الرواية عنه مختلفة المراتب فمن السيوطي في الإيمان : « ورد عن ابن عباس في التفسير ما لا يحصى كثيره روايات

وطرق مختلفة ، فمن حيدّها طريق علي بن أبي طلحة الهاشمي عنه . قال أحد من حمل :  
« مصر صحيحة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة ، لو رجل رجل فيها إلى مصر فأصدا  
ما كان كثيراً » أسنده أبو حمزة العباس .

قال ابن حجر وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث ، رواها عن معاوية  
ابن أبي صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس . وقد اعتمد عليها البخاري  
في صحيحه كثيراً فيما يتعلق عن ابن عباس . وقال قوم : لم يسمع ابن أبي طلحة من ابن  
عباس التفسير ، وإنما أحده عن مجاهد أو سميدس حبير . ثم قال ابن حجر : بعد أن عرفت  
الواسطة وهو ثقة ، فلا صير في ذلك .

وأخرج منها ابن جرير الطبري ، وابن أبي حاتم ، وابن المنذر كثيراً ، ولكن بوسائط  
منهم وبين أبي صالح

ومن حيدّ العرق عن ابن عباس طريق قيس عن عطاء بن السائب عن سميدس حبير  
عنه وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين . وكذا طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي  
محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة ، أو سميدس حبير عنه . هكذا التردد ، وإسنادها  
حسن وقد أخرج فيها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً .

وأدعى طريقه طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . وكذا طريق مقاتل بن  
سليمان وطريق الصدّك بن مراحيم عن ابن عباس مدققة ، فإن الصدّك لم يلقه . وفي نسخة  
فقدروى عن أنس بن مالك : « لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شيء مما حدث » .



## و — الرواية عن غير ابن عباس من الصحابة

حدثك عن ثلاثة أعلام من الصحابة في التفسير ، غير ابن عباس :

( أولهم ) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، كان سادس ستة ماعلي وجه الأرض مسلم سواهم ، وكان خادم رسول الله ﷺ يلبسه نعليه ، ويغشى معه وأمامه ، وكان له من هذه الصلة النبوية خير مثقف ومؤيد . لذلك عدوه من أعلم الصحابة بكتاب الله ومعرفة حكمه ومثابه وحلاله وحرامه . قال في الإتيان : قد روى عن ابن مسعود في التفسير أكثر مما روى عن علي كرم الله وجهه . وأخرج ابن جرير وغيره عنه أنه قال : « والله الذي لا إله غيره ، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأما أعلم فحين نزلت وأين نزلت ؟ » . ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله للطلاب لأتيته . » . روى عنه كثيرون ، ولكن تلمذهم العلماء بالنقد والتبريح .

( ثانيهم ) علي بن أبي طالب رضي الله عنه . هو ابن عم رسول الله ﷺ ؛ وصهره علي ابنته السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وانظيفة الرابع من بعده . ولد رضي الله عنه وشبهه ودرج في الإسلام ؛ فلم يسجد لضم قط . وكان لصلته الوثيقة برسول الله ﷺ أثر عظيم في اعتقاده نفسه ، وغزارة مادته ، وسعة علمه ، له ما وهبه الله من فطرة صافية ، وذكاء مادي ، وعقل موهوب . حتى ضرب به الثقل في حل المشاكل صعب : « قصية ولا أياحس لها » . قال ابن عباس « ما أخذت من تفسير القرآن فسن علي بن أبي طالب » . اهـ وحسبك هذه الشهادة من ترجمان القرآن .

لكن ابتلى علي رضي الله عنه بشيعة أسرفوا في حبه ؛ وجاوزوا الحد في تقديره ، فنسبوا إليه ما هو منه بريء وقولوه ما لم يقل ، لذلك يلاحظ أن الروى عن علي فيه دس<sup>٢</sup>

كثير ، تصدق له صياقة التقدم رجال الرواية ، حتى ماروا ماصح مما لم يصح « ولا  
بُنْتُكَ مِثْلُ حَبِير »

( ثالثهم ) أبى بن كعب الأنصارى . كان من أعلام القراء ، ومن كتبة الوحي ،  
ومن شهد بدرأ . ورد فيه : « وأقرؤم لكتاب الله عز وجل أبى بن كعب » روى  
أبو حمزة الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب نسخة كبيرة فى  
التفسير ، أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم منها كثيراً وكذا أخرج الحاكم فى مستدركه ،  
وأحمد فى مسنده .

### ز — المفسرون من التابعين

طبقاتهم ، ونقد المروى عنهم

نستطيع أن نعتبر التابعين طبقات ثلاثاً : طبقة أهل مكة ، وطبقة أهل المدينة وطبقة  
أهل العراق

#### طبقة أهل مكة

أما طبقة أهل مكة من التابعين ، فقد كانوا أعلم الناس بالتفسير . نقل السيوطى عن  
ابن تيمية أنه قال : « أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس . كعاهد  
وعطاء بن أبى رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وطاووس » .

( أما عاهد ) فقد كان أوثق من روى عن ابن عباس . ولذا يستند على تفسير  
الشامى والبحارى وغيرهما من أقطاب العلم وأئمة الدين ، قال النووى : إذا جاءك التفسير  
عن عاهد محسبك به . وقال الفصيل بن ميمون : سمعت مجاهداً يقول : عرضت القرآن على  
ابن عباس ثلاثين مرة . وعنه أيضاً قال : عرضت للصنف على ابن عباس ثلاث عرضات ،

أفب عند كل آية منه ، أسأله عنها . فبم أنزلت ؟ وكيف كانت ؟ .

ولأنه عرض بين هذين الروایتين ، فالإحصاء بالليل لا ينافي الإحصاء بالكثير وباحتليل  
أن عرضه القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة كان طلباً بسيطاً وتجويداً وحسن أدائه . وأما  
عرضه إياه ثلاث مرات فكان طلباً بفسره ومعرفته أمراره وحكمه وأحكامه . كما يدل  
عليه قوله : أفب عند كل آية منه أسأله عنها : فبم أنزلت ؟ وكيف أنزلت ؟ .

( وأما عطاء وسعيد ) فقد كان كل منهما ثقة ببقاى الرواية من ابن عباس .  
قال سفیان الثوري : حدثنا انفسر عن أربعة : عن سعيد بن جبیر ، ومجاهد ، وعكرمة  
والضحاك . وقال قتادة : أعلم لتلاميذ أربعة ، كان عطاء بن أبى رباح أعلمهم  
بالمناسك ، وكان سعيد بن جبیر أعلمهم بالفسر الخ . وقال أبو حنيفة : ما فقه أحدنا  
أفضل من عطاء .

( وأما عكرمة مولى ابن عباس ) فقد قال الشافعى فيه : ما بقى أحد أعلم بكتاب الله من  
عكرمة هـ . وقال عكرمة : كان ابن عباس أعلم فى رضى السكبل<sup>(١)</sup> وبعدى القرآن  
والسنة وكان يقول : لقد فسرنا ما بين الفوجين ( لعله يريد ما بين دفقى المصحف ) .  
وكل شىء أحدثكم فى القرآن فهو عن ابن عباس هـ .

( وأما طاووس بن كيسان ليمانى ) فقد كان من رجال العلم والعمل . وأدرك من  
أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم نحو الحسين . ورد أنه حج بيت الله الحرام أربعين مرة  
وكان محب الدعوة<sup>١</sup> . قل فيه ابن عباس : إنا لأظن طاووساً من أهل الجنة هـ  
رمى الله عنهم أجمعين .

(١) السكبل « بفتح الكاف وكسرهما مع ي يكون الباء » : القيد ، انظر

طليقة أهل المدينة :

( منهم ) رند بن أسلم وقد أخذ عنه ، له عند الرحن ، ومالك بن أسلم إمام

دار المحبرة

( ومنهم ) أبو العافية ، وهو من رواية أبي بكر وقد روى عنه الربيع

بن أسلم

( ومنهم ) محمد بن كعب القرظي الذي قال فيه ابن عوف : ما رأيت أحداً أعلم من

القرآن من القرظي

طليقة أهل العراق :

( منهم ) مسروق بن الأنذلي ، كان ورعاً زاهداً صعباً ابن مسعود قال ابن معين

فيه : « ثقة لا يسأل عنه » وكان له صنف من شريح ستشيرة في معصلات مسائل روى عنه الشعبي وأبو وائل وآخرون صدق روايته وأمانته

( ومنهم ) فتدة بن دعة هو من رواية ابن مسعود ، شهد به ابن سيرين بالخط

والخط وقال فيه ابن أبي شيبة : ما رأيت عراقياً أحفظ من فتده ، غير أنه كان يحوض في

نقصه وفقره ، فتخرج من الناس من لرواية عنه وقد احتج به أرباب الكتب

الصحيحة .

( منهم ) أبو سعيد الحسن بن ميمون قال ابن سعد فيه : كان ثقة مأموناً وعالمًا

حليلاً ، وفصيلاً ، وتقياً يقياً حتى قيل إنه سيد المؤمنين

( ومنهم ) عطاء بن أنس بن مسلم الحراني أحد من الدهرة سكنه أقام بمرا

بعد أن دخلها لذلك سببهم كان من أحباء العلماء ، غير أنه كان مضطرباً بسوء

الخط ، لذلك احتلهوا في وثيقته .

( ومنهم ) مرة الهذلي أنكر في ، بكثرة عبادته قيل له : مرة لطيف ، ومرة الحير ،

أخذ عن أبي سكت وعمر بن الخطاب وغيرهما من الصحابة، وروى عنه الشعبي

وبيره

هؤلاء هم أعلام المفسرين من التابعين ، استمدوا آراءهم وعلومهم من تلقوه من  
الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين

وعندهم أحد تاسع التابعين ، وهكذا ، حتى وصل إيمان دين الله وكتابه وعلومه ومعارفه  
سليمه كاملة ، عن طريق التلقي والتفريق ، حيلًا عن حيل ، مصداقًا لقوله سبحانه :  
« إِنَّا نَحْنُ مُرْسِلُو الدِّكْرِ وَإِنَّ لَهُ تَخَافُطُونَ » واقوله ﷺ « يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ  
كُلِّ حَلَقَةٍ عِدْوَةٌ ، تَتَقَوَّى عَنْهُ تَحْرِيفَ أَلْمَائِهِ ، وَانْتِحَالَ السُّعْطَانِيِّ ، وَتَأْوِيلَ  
الْمُتَحِيلِينَ »

نقد المروى عن التابعين :

بلاحظ على ما روى عن التابعين اعتدلات مهمة ، ثمر الطعن فيه ، ووجه النقد إليه :  
( منها ) أنهم لم يشاهدوا عهد النبوة ، ولم يشرعوا بأخبار الرسول ، فبعث على الطعن  
أن ما يروى عنهم من تفسير القرآن ، إنما هو من قبيل الرأي لهم ، فليس له قوة المرفوع  
إلى النبي ﷺ

( ومنها ) أنه يندر فيه الإسناد الصحيح

( ومنها ) اشتباهه على إسرائيليات وخرافات انبثقت إليه تارة من رداقة النعمان ،  
وأخرى من بعض مُسَنِّعَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، إما بحسن بنية وإما بسوء بنية .

## ح - ضعف الرواية بالمأثور وأسبابه

علمنا أن الرواية بالمأثور ، تتناول ما كان تفسيراً للقرآن بالقرآن . وما كان تفسيراً للقرآن بالنسبة ، وما كان تفسيراً للقرآن بالموقوف على الصحابة أو التابعين على رأى .

أما تفسير بعض القرآن ببعض ، وتفسير القرآن بالنسبة الصحيحة المرفوعة إلى النبي ﷺ ، فلا خلاف في وجاهته وقبوله . وأما تفسير القرآن بما يرمى إلى الصحابة والتابعين فإنه ينطرق إليه الضعف من وجوه :

( أولها ) مادسته أعداء الإسلام مثل زنادقة اليهود والفرس ، فقد أرادوا هدم هذا الدين المكين عن طريق الدس والوضع ، حينما أعميتهم الخيل في النهل منه عن طريق الحرب والقوة ، وعن طريق التحليل والحجة .

( ثانياً ) ما لفته أصحاب المذاهب للتطرفة ترويحاً لظرفهم ، كشبهة على القطرئين الذين نسبوا إليه ما هو منه بريء . وكالمزلفين الذين حطبوا في حبل العباسيين ، فنسبوا إلى ابن عباس ما لم تصح نسبته إليه ، تعلقاً لم واستداراً لدينام .

( ثالثاً ) اختلاط الصحيح بغير الصحيح ، ونقل كثير من الأقوال المرفوعة إلى الصحابة أو التابعين من غير إسناد ولا تحرير ، مما أدى إلى التماس الحق بالباطل . رد عن ذلك أن من يرى رأياً يعتمد عليه دون أن يذكر له سنداً ، ثم يجهل من بعده حينئذ على اعتبار أن له أصلاً ، ولا يكلف نفسه البحث عن أصل الرواية ، ولا من يرجع إليه هذا القول .

( رابعاً ) أن تلك الروايات مليئة بالإسرائيليات ، ومنها كثير من الحرفات التي يقوم الدليل على إطلاقها . ومنها ما يتعلق بأمور العقائد التي لا يجوز لأحد فيها باطل ولا رواية

الآحاد، بل لا بد من دليل قاطع فيها، كالأدلة التي تتحدث عن أشرار الساعة، وأحوال القيامة، وأحوال الآخرة تذكر على أنها اعتقادات في الإسلام.

(حاشيا) أن ما نقلت نقلًا صحيحًا عن الكتب السابقة التي عند أهل الكتاب كالتوراة والإنجيل، أمرنا الرسول ﷺ أن نتوضف فيه، فلا تصدقهم لاحتمال أنه مما جرحوا في تلك الكتب، ولا مكذبهم لاحتمال أنه مما حفظوه منها، فقد قال تعالى فيهم: **لَا تَتَّبِعُوا مَنبِغَها مِنَّا** .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « والاختلاف في التفسير على نوعين: منه ما سنده النقل فقط، ومنه ما يسلّم به ذلك، والنقل إما عن المصوم أو غيره، ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره، ومنه ما لا يمكن ذلك. وهذا القسم (أي الذي لا يمكن معرفة صحيحه من ضميمه) عامته ما لا فائدة فيه ولا حاجة بنا إلى معرفته وذلك باختلافهم في كون كلب أهل الكهف واسمه، وفي البعس الذي ضرب به النمل من البقرة، وفي قدر سفينة نوح وخشبها، وفي اسم الغلام الذي قتله الغنجر، ومحو ذلك. فهذه الأمور طريقة العلم بها النقل. وما كان منها منقولًا نقلًا صحيحًا عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل. وما لا يأن نقل عن أهل الكتاب ككتب ووهب وقف من تصديقه وتكذيبه، أقوله صلى الله عليه وسلم: « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ». وكذا ما نقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أحده عن أهل الكتاب شئ اختلف الناسون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض وما نقل عن الصحابة نقلًا صحيحًا فانهس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين، لأن احتمال أن تكون سمعة من النبي صلى الله عليه وسلم أو من بعض من سمعه منه أقوى، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين. ومع حرم الصحابي ما يقوله كيف يقال: إنه أحده عن أهل الكتاب وقد جهوا عن تصديقهم؟

وأما القسم الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موحود كثيرًا. وفيه الحمد،

وإن قول الإمام أحمد : « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والمأثور ، وذلك لأن العاصب عليها المراسيل .

وأما ما يُعْم بالاستدلال لا بالنقل ، فهذا أكثر ما فيه الخطأ من حيثين حدثنا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان . . . ثم ذكر الجهتين اللتين هما مذهب الخطأ فقال : ( أحدهما ) حمل ألفاظ القرآن على معانٍ اعتقدها لتأبيدها به . ( والثانية ) التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية من غير مراعاة التكلم بالقرآن وعواطفه ، وحل ، وانزل عليه ، والمخاطب به ، اهـ أردنا نقله بتصريف قليل .

قال بعضهم : « هذا وإن كلام ابن تيمية لا ينقض قول الإمام أحمد ، فإنه لم يَنْهَ به أنه لا يوجد في تلك الثلاثة رواية صحيحة ألبتة . وإنما ينبغي أن أكثرها لا يصح له سند متصل ، وما صحَّ سنده إلى بعض الصحابة يقل فيه المرفوع الذي يحتاج به .

إلى أن قال : ثم إن أكثر ما رُوي في التفسير للمأثور أو كثيره ، حجابٌ على القرآن وشاغل لتأليه عن مقاصده العالية المزكية للأفئدة ، النورية العقول . فالنصارى للتفسير المأثور لهم شاعل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات التي لا قيمة لها سنداً ولا موضوعاً ، اهـ ما أردنا نقله .

وكلمة الإصناف في هذا الموضع أن التفسير بالمأثور نوعان : ( أحدهما ) ما نوافرت الأدلة على صحته وقبوله ، وهذا لا يليق بأحدرده ، ولا يجوز إجماله وإغفاله ، ولا يحمل أن يثبته من الموارف عن هذى القرآن ، بل هو على العكس عامل من أقوى العوامل على الاحتذاء بالقرآن .

( ثانيهما ) ما لم يصح لسبب من الأسباب الآتية أو غيرها . وهذا يجب ردُّه ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به ؛ إلا التحصيم والتنبية إلى ضلاله وخطئه حتى لا يفتن به أحد ولا يزال كثير من أبقاظ التفسيرين كابن كثير يتصرَّون الصحة فيما يقولون ، ويرثون ما هو باطل أو صيغ ولا يجابون ولا يجنبون .



ولعل الذين أطلقوا القول في رد للأثوري إنما أرادوا اللبائنة ؛ كما عرفت في وحيه كلمة الإمام أحمد بن حنبل . وعذرهم أن الصحيح منه قليل نادر ونزوح يدير ، حتى لقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : « لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيهة بمائة حديث » أي مع كثرة ما روى عنه . وقد أشار ابن حلدون إلى أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم وإما علمت عليهم البداوة والأمية . وإذا نشوقوا إلى معرفة شيء مما تنشرون إليه النعوس الدسرية في أسباب الكوثرات وبذء الغلظة وأسرار الوحود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ؛ ويستصفون منهم . إلى أن قال : وهؤلاء مثل كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الله بن سلام . فامتلات التفاسير من المقولات عنهم وتلقبت بالقبول ، لما كان لهم من المكانة السامية . ولكن الراسخين في العلم قد تحمروا الصحة ، وربوا عالم تنوافر أدلة صحته اه بتصرف .

ملحوظة :

إياد أن منهم هنا من عبارة ابن حلدون أو ابن ميمية أو غيرها ما يحملك تحو ص مع الحائضين في هؤلاء الأعلام الثلاثة : عبد الله بن سلام ، ووهب بن منبه ، وكعب الأحبار . فقد صل " بعض الأدباء والوزحين من كبار الكتاب في هذا العصر ، حين رجعوا ذلك ، حتى لقد سلكوا عبد الله بن سلام الصحابي الجليل في ذلك واحد مع عبد الله بن سبأ اليهودي الحبشي : الذي تظاهر بالإسلام ثم كاد له شر الكيد ، فتشيع إلى ، ورعم أن الله حل " في وطن علي عثمان ، وأظهر الرفص عند حكم الحكيمين "صقن" ، ودعا الناس إلى صلاة الأئمة ، حتى نقي مراراً .

والحقيقة أن تلاقنا هؤلاء عدول ثقات :

أما ابن سلام فحسبك أنه صحابي من حيرة الصحابة ، ومن البشرين بالجنة ، يروي الترمذي عن معاذ رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إياه

عشر عشرة في الحجة « وفيه رلت آية : « وشهد شاهد من بني إسرائيل على مشله »  
 وآية : « ومن عنده علم الكتاب » على ما جاء في بعض الروايات

وأما ذهب من منعه فقد كان دائماً ثقة واسع العلم . روى عن أبي هريرة كثيراً ، وله  
 حديث في الصحيحين عن أبيه هدم . بلغ من ثقته وصداقه أنه لبث عشرين سنة  
 يصلي لفجر بوصوء المشاء رضى الله عنه .

وأما كعب فقد كان تابعاً جليلاً ، أسلم في خلافة أبي بكر . وناهيك أن الصحابة  
 أخذوا عنه ، كما أخذوا عن الصحابة ، وروى عنه جماعة من التابعين مرسلاً . وله شيء  
 في صحيح البخاري وغيره .

ولم يكن يجب أن نفرق في هذا المقام بين ما يصح أن يقال فيهم وما يصح أن ينقل  
 عنهم . فأما ما يصح أن يقال فيهم فهو الثقة والتقدير على نحو ما أعلنا . وأما الذي ينقل  
 عنهم فإنه الصحيح وغير الصحيح . لم يكن عدم صحة ما لم يصح لا يصلح باتهامهم وجرحهم ؛  
 فقد عمت من هم ؟ إنما يصلح بأحد أمرين :

( أولها ) رجال السند الذين ينقلون عنهم ، فقد يكون بينهم منهم في عدالة أو ضبطه ،  
 وهذا يجب النظر في سلسلة الرواة عنهم ، رجالاً رجالاً . ولدينا من كتب الجرح والتعديل  
 ما يفي بهذه الغاية . ولا يكفي الاعتماد على ذكر السند في كتاب كبير ككتفير ابن جرير ،  
 فقد يذكر ابن جرير أو غيره أشياء غير صحيحة ، ويسوق أسانيد هائلة لا يبين الخروح  
 من رجال السند ولا المدد فيهم . وعذره في ذلك أن أحوال الرجال كانت معروفة  
 لأهل ذلك الزمان فاستطيعون أن يحكموا في ضوء هذه المعرفة بقبول الخبر أو رده . أما نحن  
 في هذا الزمان المتأخر فقد أهمل هذا الميراث ، ولم نكن بمعرفة حال الأسانيد والرجال ،  
 فاللوم علينا لا على أولئك الأعلام ، ولا ممدى لداعن الاسترشاد بكتب الجرح والتعديل  
 في هذا المقام

( الأمر الثاني ) أن يكون أولئك الثلاثة قد رَوَوْا ما رَوَوْه على أنه مما كان في

الإسرائيليات ، فضيلتها الآخذون على أنها من الإسلاميات . ولهذا يجب النظر في هذه  
 الروايات ، فإن كانت مما يقرره الإسلام قلناها . وإن كانت مما يردّه ردداها ، وإن  
 كانت مما سكت عنه سكتنا عنها عملاً بقوله ﷺ : « إذا حدثكم أهلُ كتابٍ  
 فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » . رواه البخاري بهذا اللفظ ورواه أحمد والبراء من حديث  
 جابر بن عبد الله : « لأناسوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم لن يهدوكم وقد صوا ، وإنكم  
 إما أن تكذبوا عنى أو تصدقوا بباطل . والله لو كان موسى بن أظهيركم ما حلّ له  
 إلا اتباعى » . وسبب هذا الحديث أن النبي ﷺ علم أن عمر كتب شيئاً من التوراة عن  
 اليهود ، فغضب ﷺ وقاله .

— - —

## ط — تدوين التفسير بالمأثور

### وخصائص الكتب المؤلفة في ذلك

حاء قرن تاسى الثمانين ، وفيه ألفت تفسيرات كثيرة ، حوت من أقوال الصحابة  
 وأتباعهم ، كتفسير سفيان بن عيينة ، ووكيعة بن الجراح ، وشعبة بن الحجاج ، وزيد بن  
 هارون ، وعبد الرزاق ، وأدم بن أبي إياس ، وإسحاق بن راهويه ، وروح بن عبادة ،  
 وعبد بن حميد ، وأبي بكر بن أبي شيبة ، وعلي بن أبي طلحة ، والبخاري وآخرون . ومن  
 سدهم أئمة ابن جرير الطبري كتابه المشهور ، وهو من أحلّ التماسير ثم ابن أبي حاتم ،  
 وابن ماجة ، والطحاكي ، وابن مردويه وابن حبان ، وغيرهم .

ولس في تفسير هؤلاء إلا ما هو مسند إلى الصحابة والتابعين وتابعيهم ، ما عدا ابن  
 جرير فإنه تعرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض . وذكر الإعراب  
 والاستقضا .

### (١) تفسير ابن جرير

ابن جرير هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ولد سنة ٢٢٤ أربع وعشرين ومائتين وتوفي سنة ٣١٠ عشر وثلاثمائة . كان فريداً عصره ، ووحيداً دهره ، عملاً وحفظاً الكتاب الله ، وحبرة عماويه ، وإحاطة بالآيات ناسخها ومنسوخها ، وطرق الرواية صحيحها وسقيمها ، ومأثورات الصحابة والتابعين .

لذلك كان تفسيره من أجل التفاسير بالأنوار وأصعبها وأجمعها . لما ورد من الصحابة والتابعين . عرّض فيه لتوجيه الأقوال ، ورجح بعضها على بعض ، وذكر فيه كثيراً من الإعراب واستنباط الأحكام وقد شهد المارءون بأنه لا نظير له في التفاسير :

قال النووي في تهذيبه : كتاب ابن جرير في التفسير لم يصف أحد مثله . وقال أبو حامد الأسعرايني شيخ الشافعية : لو رجع أحد إلى العين ليحصل تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً عليه .

ومن مزاياه أنه ، حرّر الأسانيد وقرب البعيد ؛ وجمع ما لم يجمعه غيره غير أنه قد يسوق أخباراً بالأسانيد غير صحيحة ثم لا يفي على عدم صحتها وتبين أن عذره في ذلك هو ذكر السند في من توافر الناس فيه على معرفة حال السند من غير توقف على تبيينه . وهذا التفسير موجود إلى اليوم ومنقشر مطبوع ، وهو عدة لأكثر المفسرين .

### (٢) تفسير أبي الليث السرقندي

هو تفسير بالأنوار يذكر فيه كثيراً من أقوال الصحابة والتابعين ، غير أنه لا يذكر الأسانيد . وهو مخطوط في مجلدين . وموجود في مكتبة الأزهر .

### (٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور

هو للإمام جلال الدين السيوطي ، قال في مقدمته : إنه تلخصه من كتاب ترحمان القرآن ، وهو التفسير المسند إلى رسول الله ﷺ ، وهو مطبوع بمصر ، وقد ذكر في كتابه الإثنان أنه شرع في تفسيره جامع لما يحتاج إليه من التفسير المنقول ، والأقوال المنقولة ، والاستنباط والإشارات ، والأعاريب واللفات ، ونسكت البلاغة ومحاسن البديع . وسماه مجمع البحرين ، ومطلع المدين . وذكر أنه جعل كتاب الإثنان مقدمة له . وذكر في خاتمة كتاب الإثنان نبذة صالحة من التفسير بالمأثور ترفع إلى النبي ﷺ من أول انفاحة إلى سورة الناس .

### (٤) تفسير ابن كثير

ابن كثير هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن الخطيب أبو حفص عمر القرشي الدمشقي الشافعي المولود سنة ٧٠٥ المتوفى سنة ٧٧٤ . وتفسيره هذا من أصح التفاسير بالمأثور إن لم يكن أصحها جميعاً . نقل فيه من النبي ﷺ وكبار الصحابة والتابعين . وقد أخرجته مطبعة المطار بمصر في تسعة أجزاء . ومعه بأسفل الصفحات تفسير البغوي الآتي ذكره ، وبآخره كتاب فضائل القرآن الذي يعتبر متمماً له .

### (٥) تفسير البغوي

هو العلامة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي العقيلي الشافعي . كان إماماً في التفسير والحديث له التصانيف المفيدة ، ومنها معالم التنزيل التي فيه بالمأثور ، ولكن محمداً عن الأسانيد .

### (٦) تفسير تقي بن محمد

ذكر الإمام السيوطي طبقات المعشرين أن تقي بن محمد بن يزيد بن عبد الرحمن

الأندلسي، القرطبي أحد الأعلام وصاحب التفسير والسند. أخذ عن يحيى بن يحيى الليثي. ورحل إلى المشرق. ولقى الكبار بالحجاز ومصر وبلاد. وسمع من أحمد بن حنبل وسمع بالكوفة أما بكر بن أبي شيبة. وسمع بمصر يحيى بن بكير. وسمع بالحجاز أمامة صعب الزهري. وسمع بدمشق هشام بن عمار. وشيوخه مائتان وأربعة وعثمانون رجلاً وكان إماماً، زاهداً، صوفياً، صادقاً، محاب الدعوة، قليل المثل، محراً في العلم، مجتهداً لا يقلد أحداً، غنى بالأنثر، وليس لأحد مثل سنده في الحديث ولا في التفسير.

قال ابن حزم: أقطع أنه لم يؤلف في الإسلام مثل تفسيره، لا تفسير ابن جرير ولا غيره. ولد سنة ٢٠٤ أربع ومائتين للهجرة. وتفسيره للوصوف بما ترى يؤمنون أنه لم يكتب له انقاء ولم يطرح به طفر به تفسير ابن جرير من هذا الخلود.

«وذكر في الخبر أبي من عروس ولكن للعروس الدهر ساعد»

(٧) أسباب البرول للواحدى :

هو أبو الحسن علي بن أحمد الواحدى النيسابورى: اقتصرت في تفسيره على بيان أسباب البرول بالأنثر، وهذا نوع من التعبير لا مجال للتأويل فيه. وهو من أعظم ما أنفق موضوعه، على دعم توسط حجمه.

(٨) النسخ والتسوخ لأبي جعفر النحاس :

هو كتاب نفيس. تحدث فيه مؤلفه عن النسخ وذكر أقوال العلماء في ذلك مسنده. وقد استوعب ما قيل في النسخ ولو لم يكن عنده صحيحاً. وهذا نوع لا مجال لأى فيه أبصاً، بل سبيله الوحيدة هي الرواية. وهو محدود هنا من التعبير بالأنثر، على مربب التوسع كما لا يخفى.

طرق المصيرين بعد العصر الأول

ثم إن كتب التفسير بالأنثر موسوعات كبيرة، لا يستطيع الإحاطة بها ولا بأسماء

جميع مؤلفيها ، ولا بطرق كل مؤلف فيها . غير أننا نستطيع أن نجعل القول في طرق  
المفسرين بعد العصر الأول فنقول :

بعد عصر الأولين الذين ألفوا في التفسير بالأنثور ، والتزموا ذكر السند بجملة ، جاء  
قوم صنفوا في التفسير ، واختصروا الأسانيد ، ولم ينسجوا الأقوال لقائلها . فالتيسر بذلك  
الصحيح وغيره . وصار الناظر في تلك الكتب يظنها كلها صحيحة . بيد أنها مفعمة بالقصص  
وبالإسرائيليات على وجه لا يتميز فيه كأنها كلها حقائق . ومن هنا استهدفت رواياتهم  
للمتجريح والظمن . ولولا ما يقوم به المحققون في كل عصر من إحقاق الحق ودحض الباطل ،  
لاطمست المعالم ، واختلط الحابل بالنابل ، ولكان ذلك مثار عظام توجع بلا حساب  
إلى الإسلام وللسلمين . فقد ذكروا في قصص الأنبياء ، وفي بدء الخليقة ، والزلازل ،  
وبأجوج ومأجوج ، وبرودة الماء القوي في الآبار زمن الصيف ، وحرارته و الشفاء ذكروا  
في ذلك كله ما ينسب له الجبن خبيلاً ، وما لا يتفق والحقائق العلمية أبداً . وباليتم  
ذهبوا على وضعه لو أنهم فعلوا السكان الأمر حيناً . ولكنهم لم يدكروا السند كما ذكر  
الأولون ليستطيع المطلع عليه بقده بالرجوع إلى كتب الجرح والتعديل . ثم لم يكلفوا  
أنفسهم الحكم على السند بعد عما كتبه إلى كتب العدل والتجريح . «وذلك ثالثة الأثافي» ..  
وقد عني بعض المفسرين بأن يسرد شقات الأقوال ، حتى إنه ذكر في تفسير قوله  
سبحانه : «عَبْرَ الْفُضُوبِ قَلْبِهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» نحو عشرة أقوال ، مع أن الوارد الصحيح  
تفسير الفُضُوب عليهم باليهود وتفسير الضالين بالنصارى . ولكن الولوع بكثرة القول ،  
نأى بهم عن الاختصار على التفسير للقبول .

وكذلك نلاحظ أن كل بارع في فن يقتصر غالباً في تفسيره على الفن الذي  
برع فيه . فالبرز في العلوم العقلية كالنضر الرازي ، أغرم باستعراض أقوال الحكماء  
والعلاسة وشبههم والرد عليها في تفسيره . والبرز في اللغة كالقرطبي ، أولع بتقرير الأدلة  
لمروغ الفقهية والرد على المخالفين . والبرز في النحو كالزجاج والمواجهدي في المنسبط  
وأبي حيان في المعجم . بهم أجماع الاهتمام بالإعراب ووجوبه ، ونقل قواعد النحو وفرعها .

وأصحاب المذاهب المتطرفة، وللتنقل العالة، يقصدون إلى تأويل الآيات على مروج  
مذاهبهم في التطرف والصلال .

والأخباريون يمتنعون أن يستقصوا القصص والأخبار عن سلف ، صحيحة كانت  
أو خاطئة .

وللإخباريون وأرباب التصوف تهمهم ناحية التعريب والترهيب والزهد والتمسدة  
وارص . فبفسرون القرآن بما يوافق مشاربهم وأذواقهم . وعلى الإجمال نرى كل ناحية  
في فن . أو داعية إلى مذهب أو فكرة ، يجتهد في تفسير الآيات بما يوافق منه ، ولا يلم  
مشربه ، ويناصر مذهبه ، ولو كان بعيداً كل البعد عن المقصد الذي نزل من أجله القرآن .  
واقصد عالى تهمهم فصل القرآن مشتغلاً على العلوم السكونية ، كالطبعية ، والكيمياء ،  
والجبر ، والخبر ، وما إلى ذلك . وقد سبق أن حققنا ذلك في البحث الأول ورجع إليه  
إن شئت . وربما نود إلى التول في هذا الموضوع مرة أخرى

والخلاصة هما : أنه يجب على المفسر ملاحظة أن القرآن كتاب هدية ، وأن  
يجعل هدفه لأعلى ، ومقصده الأسمى ، إظهار هدايات الله من كلامه ، وبين وحده  
، بحره في كنه : « إِنِّي أَنبِئُكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَغَيْبٌ مِّنْ حَقٍّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنْ  
أَفَقَ سَمِعَ عَلَيْهِ » .

### التفسير الحمود والتفسير للدهوم

تفسير حمادة والتامين ، وتفسير الذين اعتمدوا على أقوال حمادة والتامين  
، لأسباب التصحيح ، وتفسير أهل الرأي الموفق الذين جمعوا بين التأثر الصحيح مع حذف



أسانيدهم وبين آرائهم العلمية للعدالة ، كل هذه الثلاثة من التفسير المحمود . ويطلب هذا النوع الثالث في عصرنا الحاضر ؛ إذ تجمع التفسير لدينا بين معاني مأثورة ، ومعاني توسعوا في ذكرها عن طريق الرأي والاجتهاد للمتمد على العلم والاعتدال .

وهناك نوع رابع ، هو تفسير أهل الأهواء والبدع ، وحكمه أنه مذموم قالوا وأشهر المارقين في هذا الصلال الرماني والخُبثاني والقاضي عبد الجبار . ثم اختلفوا في المبحري ، منهم من عدّ تفسيره من هذا النوع لما فيه من مناحي الاعتزال . ومنهم من قال : إن فيه فوائد مهمة . يريد بذلك أن يلمس له المآذير وأن يُغلب جانب الفوائد التي فيه على جانب الاعتزال الذي يحتويه . ولكن عدالة الأحكام تقضي بأن نسوي بين جميع التفسيرات وأن نكفها إلى مبدأ واحد ، فما وافق منها وجه الصواب وكان معنأى عن البدع والأهواء فهو محمود . وما نورط منها في الخطأ وتحيط في الهوى والبدعة فهو مذموم ، لا فرق بين المبحري وغير المبحري ، ولا بين معتزلي وغير معتزلي .

### مبدأ المدح والمدح

ثم إن هناك ميزاناً لما يحمده من التفسير وما يذم ، وهو القِيَصَل الذي يجب أن يحكمه ورر كل تفسير به ، فأرجح في هذا الميزان قبلناه وحدناه ، وما طلائ رخصناه ودنمناه . والمدح والذم درجات بعضها فوق بعض ، على حسب استيفاء التفسير لوجوه المدح والذم أو نقصها قليلاً أو كثيراً . ونصنع هذا الميزان بين بديك تحت عنوان « مهج المفسرين بالرأي » . فانظروه رويداً .

غير أنا سترعى نظرك هنا إلى كلمة أهل البدع والأهواء ، ونريد أن تكون موافقاً لحكمك على أية طائفة أو أي شخص بدعة أو هوى ، وإلا حجب عليك أن تكون أنت صاحب البدعة والهوى في حكمك . « وَلَا تَقْسِمِ الْهَوَىٰ فَيُصِلَكَ عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ . إِنْ أَنْذِرِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا نَوْمَ الْحِسَابِ .

عللة التعمش للرأى :

واعلم أن هناك أفراداً بل أقواماً تنصبوا لأرائهم ومذاهبهم، ورعوا أن من خالف هذه الآراء والمذاهب كان مبتدعاً متبعاً لهواه، ولو كان معاً ولا تأويلاً سائماً يسمع له الدليل والبرهان . كان رأيهم ومذهبهم هو المقياس والميزان ، أو كأنه الكتاب والسنة والإسلام . وهكذا استرأهم الشيطان وأعماهم الغرور .

ولقد نجم من هذه الفطلة الشنيعة أن تفرق كثير من المسلمين شيعاً وأحزاباً ، وكانوا حرباً على بعضهم وأعداء . وغاب عنهم أن الكتاب والسنة والإسلام أوسع من مذاهبهم وآرائهم ، وأن مذاهبهم وآراءهم أصيق من الكتاب والسنة والإسلام ، وأن في ميدان الخنيفية السُّعَّة مدعاً لحربة الأفكار ، واختلاف الأنظار ، ما دام الجميع معتمداً بحول من الله . ثم غاب عنهم أن الله تعالى يقول : « وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا . وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِيَمِينِهِ إِخْوَاناً » ويقول جل ذكره : « إِنْ أَنْذِرِينَ قَوْمَهُ لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا شَيْعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » ويقول تَعَالَى : « وَلَا تَسْكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا فاختَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ نَوْمَ تَدْيِيسٍ وَخُوءَ وَتَسْوَدُّ وَخُوءَ »

لمثل هذا أَرَبُ يسمى ذلك أن أنهم مسمما بالكفر أو البدعة والهووى لحد أنه خالفوا في رأى إسلامى نظرى ، فإن الترامى بالكفر والبدعة من أشنع الأمور . وقد قرر عماؤنا أن الكلمة إذا احتملت الكفر من تسعة وسمين وجهاً ثم احتملت الإيمان من وجه واحد ، نُحِلَّت على أحسن محامل وهو الإيمان وهذا موصوع

معروغ منه ومن التذليل عليه . لكن يفت في عصدنا غفلة كثير من إخواننا المسلمين عن هذا الأدب الإسلامي العظيم ، الذي يحفظ الوحدة ، ويعمى الأخوة ، ويظهر الإسلام بصورته الحسنة ووجهه الجميل من السباحة واليسر ، واتساعه لكافة الاختلافات الفكرية والنزاع للذهبية ، وللصالح البشرية ، ما دامت ممتصة بالكتاب والسنة على وجه من الوجوه الصحيحة التي يحتملها الفكر السديد والتأويل الرشيد .

ولقد حدث مثل هذا الاختلاف على عهد رسول الله ﷺ بين أصحابه ، لما تنازعوا من أجله ، بل أحد كل برأيه وهو يحترم الآخر ورأيه ، وأقرهم الرسول ﷺ على ذلك ولم يريب أحداً منهم ، على رغم أنه يترقب على بعض هذه الاختلافات أن ترك بعضهم الصلاة في وقتها اجتهداً منه ، إذ قال الرسول ﷺ يوماً لعنة من أصحابه ولا يصالح أحدكم العصر إلا في بنى قريظة ، فافروا وجدوا ، ولكن الفزاة تدت للغروب وهم لا يزالون ضاربين في الأرض ، ولما يصلوا . هنالك اجتهدوا ، فمنهم من وقف عند ظاهر النص فترك العصر حتى خرج وقته مادام لم يصل إلى بنى قريظة . ومنهم من تأول النص وحمله على الكناية في الإسراع فصلى حين خاف على الوقت من قبل أن يصل إلى بنى قريظة .

نقول : إن مثل هذا الخلاف حدث على عهد صاحب الرسالة وأقره ، تيسيراً على المسلمين وإعلاماً بأن الإسلام دين الكفاية ، يسع جميع البشر في كل العصور والأحوال وشهد المسلمون بعد ذلك عصرًا سعيداً كان أئمة الدين فيه يختلفون فيما بينهم كثيراً ، وبكثرتهم كانوا بجانب هذا يتكادمون ويتعاونون ويتراحون كثيراً .

وإن كنت في شك فاسأل التاريخ عن إكرام مالك الشافعي ، واحترام الشافعي لأحمد بن حنبل حتى ورد أنه كان يتبرك بشافة قيصه ، أى يتبرك الأستاذ الإمام

مسألة قيمته الخائف له في الرأي والاجتهاد ثم سأل التاريخ عن معاونة صاحب  
أبي حنيفة للشاشي ، ودفعه إليه كتبه في كرم وحن ضيافة وصدق محبة ! ولا نس  
إباء مالك على الرشيد أن يحمل الناس في ملاد الإسلام كلها على موطئه ومذهبه ، ويعتد  
إليه بأن الإسلام أوسع من موطئه ومذهبه ، وأن أصحاب رسول الله ﷺ هم قوا في  
اسلامه ولكل وجه .

أرأيت هذا النبيل والطهر : أجيل أجيل !! . ولكنك ستقضي الأسف حين ترى  
بجانبه ذات من المسلمين أيضاً تراشقوا بالكفر ، وتراموا بالشرك ، وتقادوا بالتبذع  
والهوى ، لمجرد تأويل يفسيفسه النظر ، وتقع له صدر الاستدلال . ثم اتسع الحرق على  
الرافع في بعض الظروف حتى فارت ممالك طاحنة بين صفوف كلها مسلمة ، وأرقت  
دماء ركية كلها إسلامية ! ولا تزال تشهد من مثل هذا الصراع القائم على التقطع  
مشاهدة ما كان أغنانا عنها ، وما كان أحرانا بالحذر منها ، خصوصاً بعدد سمعنا من  
الآيات ، وبعد أن أقر الرسول أمثال هذه الخلافات ، وبعد أن قال في حديث واحد  
ثلاث مرات : « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » . وهي كلمة صغيرة ولكنها كبيرة ، تُحذَر وتُدر ،  
وتمثل الملاك حائماً في التنطع بأشكاله وألوانه ، في الأتس والاعراض والأموال ، وفي  
الجماعات والأفراد على سواء .

لا أريد أن أطيل في هذا . ولكني أريد أن أقرّر وأكرّر ، أن الحكم على فرد  
أو جماعة بالبدعة والهوى ، لا يجوز أن يكون مبنياً على غير بدعة أو هوى

ورى أن من أمثلة هذا التعصب والسير مع الهوى ، أن يرمى بعض المعتزليين في  
الاعتزال إخوانهم من أهل السنة بأنهم حير في جهالتهم ، وبأنهم على هوى في عقيدتهم ،  
ولم يكنهم أن يقولوا ذلك ثراً ، بل ردّوه شراً : وأشدوا . سبحانه الله :

« لِحَمَاقَةِ سَمَوَاتِهِمْ هَوَاهُمْ سُنَّةٌ وَجَمَاعَةُ خُرٍّ لَعْمَرَى - مُؤَكَّدَةٌ » الخ

وكذلك يرى من أمثلة هذا التعصب وحرع الهوى أن يرى بعض المصلين من أهل السنة إخوانهم المعتزلة ، والشرع والوثنية ، لاعتمادهم أن الله حاق لأفعالهم بالاحتياط .

ومعتقد أن كلنا الصائتين لو أنصت إلى وجهة نظر صاحبها في حدود وضعة ، لاحتجنا على الإساءة التي تجمع الجميع ، وعلى الإسلام الذي يؤلف بين الجميع ، وعلى الاحترام الذي يجب أن سود الجميع ، في سلك شرعة ومهاجراً في حدود الإسلام وأدلة الإسلام

ونصف ربه محاب هذا مثل ، مثل حق الأفعال ، يتصحيح الحل ، ونقيس عليه البطائر والأشياء عند الاختلاف والاشتداد ، ونسلم أن المتحالفين في ذلك ما كانوا مع خلافهم إخواناً مسلمين ، نطلبهم راية القرآن ، ويصممهم لواء الإسلام .

في القرآن الكريم والسنة السنوية صوص كثيرة على أن الله تعالى حاق كل شيء ، وأن مرجع كل شيء إلى الله وحده ، وأن هداية الحق وصلاتهم بيده سبحانه . مثل قوله عز وجل : « الله حاق كل شيء » هن من حاق غير الله ر قسكم من أسماء والأدنى والله خلقكم وما تعملون وإليه ترجعون لأمر كل شيء من يشاء الله بخصه ومن يشاء يخلقه على صراط مستقيم ونوشاء رثك . فقلوه ولو شاء رثك حمل الناس أمة واحدة ونوشاء رثك لا آمن من في الأرض كلهم جميعاً ولو أنما زرناهم فلا نكفهم أنموذ وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً . كانوا يقولون : إلا أن شاء الله إنا حمل على قلوبهم أكمة أن يفهموه وفي آذانهم وقراً . وحمل من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشىهم فهم لا يسمعون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون كذلك رث سلك أمة خلفهم فمن الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يردن

يُصِلُهُ يَحْمِلُ صَدْرُهُ صَيِّقًا حَرَحًا كَمَا يَصْمُدُ فِي أَعْمَاءَ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ .  
وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلِيَكَ اللَّهُ دَمِي .

وكذلك يقول النبي ﷺ : « إِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا . وَلَسَكُنْ قُلُوبُ قَدَرٍ أَفْقُهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ » ويقول : « الْإِيمَانُ أَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ حَبِيرُهُ وَشَرُّهُ » ويقول : « بِأَمَقَّتِ الْقُلُوبُ وَالْأَنْصَارُ ثَلَّتْ قُلُوبِي عَلَى دُبَيْكَ » . إلى غير ذلك .

هذه النصوص وأمثلة ، إذا نظر العبد إليها لا يسهه إلا أن يردَّ الأمور كلها إلى الله معتقداً أنه الواحد الأحد ، لا شريك له في ملكه ولا في ناحية من ملكه ، وهي أفعال التكليف من عباده ، وكثر نسبة الأفعال إلى العباد هي الأخرى بحسب فصل من الله . على حدِّ ما قال ابن عبَّاد الله « من فصله وكرمه عليك ، أن خلق العمل وسميه بإليك » .  
ويُطاهر هذه الأدلة العقلية أدلة أخرى عقلية ، دافعة بوحداية الله في كل شيء ، وإنَّ العبد لا يفعل أن يكون خالقاً لما اختاره من أفعاله ، لأنه لو كان خالقاً لما استكان علماً ، تفاصيلها ، ولكنه يشعر من نفسه أنه تصدر عنه أشياء كثيرة جداً من عمله الاحتيازي دون أن يعرف تفاصيلها ، كخطوات المشي وحركات المصع في الأكل ومحوها وإدخالها فليس العبد هو الخالق بها « أَلَا تَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ؟ » .

بحسب هذا يوجد نصوص كثيرة أصلاً من الكتاب والسنة ، تدلُّ على أعمال العباد إليهم ، ونسب رضوان الله وحمده لعمري فيها ، كما تضمن عظمته وجماله للمستبين منهم من ذلك قوله سبحانه . « مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسِنْتُمْ إِنْ تَسَاءَلُوا عَنْ أَنْعَمَ إِلَهُكُمْ فَأْتُوا بِنُورٍ إِنْ تَسَاءَلُوا عَنْ أَنْعَمَ إِلَهُكُمْ فَأْتُوا بِنُورٍ إِنْ تَسَاءَلُوا عَنْ أَنْعَمَ إِلَهُكُمْ فَأْتُوا بِنُورٍ إِنْ تَسَاءَلُوا عَنْ أَنْعَمَ إِلَهُكُمْ فَأْتُوا بِنُورٍ » .

أَنْ يَسْقُوتَا . أَمْ خِيبَ الَّذِينَ اخْتَرَحُوا السَّنَاتِ أَنْ تَحْكُمَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ نَحْيَاهُمْ وَنَنْهَاهُمْ ، مَا يَحْكُمُونَ . إِنْ تَكْفُرُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ عَمِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْحَمُ لِعِبَادِهِ الْكَافِرَ . وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ . وَإِنْ كَذَّبْتُمْ ، فَمَا تَكُنْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا تَرِيٌّ ، مِمَّا تَعْمَلُونَ . قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُخْرِجْنَا وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ . قُلْ بِأَقْوَمِ قَوْلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ إِيَّاكَ الْقَرَى يَظْلُمُ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ . وَقُلْ أَعْمَلُوا فَيَرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُسَبِّحُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَتِلْكَ آيَاتُ الَّتِي أُورِثْنَاهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

وكذلك نقرأ في السنة النبوية : « أعملوا فكل ميسر لما خلق له » \* . يادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم \* . الكبر من دان معه وعمل لما بعد الموت \* . يعباس بن عبد المطلب أعمل لا أعني عنك من الله شيئاً ، يعاطية بنت عبد المطلب لا أعني عنك من الله شيئاً » إلى غير ذلك .

وهذه نصوص إذا نظر العبد إليها لا يسعه إلا أن يرد أعمال العباد الاختيارية إليهم ، معتقداً أنهم يستحقون ثوابها إن أحسوا وعقابها إن أساءوا . ويظهر هذه الأدلة العقلية أدلة عقلية أيضاً شاهدة بمدالة الله وحكمته ، لأن العبد لو لم يكن موحداً إما احتار من أعماله لما كان ثمة وجه لاستحقاقه الثوبة أو العقوبة . وكيف ثواب أو عقاب على ما ليس له ولم يصدر منه .

عَبْرِي حَتَّى وَأَنَا الْمَعْدُ فِيكُمْ فَكَأَنِّي سَنَاءٌ لَتَتْلَمُنَّ

أهل السنة بهرهم النصوص الأولى والأدلة العقلية التي يجانها ، فرجحوها وقالوا :  
 إن المهد لا يخلق أفعال نفسه الاختيارية ، إنما هي خلق الله وحده . وإذا قيل لهم : كيف  
 تثاب المرء أو يعاقب على عمل لم يوجد هو ؟ وكيف يتفق هذا وما هو مقرر من عدالة  
 الله وحكمته في تكليف خلقه ؟ قالوا : إن العباد - وإن لم يكونوا حائزين لأعمالهم -  
 كاسبون لها . وهذا الكسب هو مناط التكليف ومدار الثواب والعقاب . وبه يتحقق  
 عدل الله وحكمته بما شرع للمكلفين .

وهكذا جروا النصوص الأولى على الخلق ، وحلوا الثانية على الكسب ، جمعا بين  
 الأدلة . ثم إذا قيل لهم : ما هذا الكسب اختلف الأعمري واللابري في تحديده :  
 أهو مقدرة القدرة القديمة للعادة أم هو المزمع للمصمم ؟ ولكل وجهة نظر يطول  
 شرحها وتوحيدها .

أما المعزلة فقد بهرهم النصوص الثانية وما بظاهرها من برهان النقل ، فرجحوها  
 وقالوا : إن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية . وإذا قيل لهم : أليس الله خالق كل شيء  
 ومنها أعمال العباد ؟ قالوا : بلى إنه خالق كل شيء حتى أعمال عباده الاختيارية بيد  
 أنه خلق بعض الأشياء بلا واسطة وخلق بعضها الآخر بواسطة ، وأعمال المكافئين  
 من القبيل الثاني . خلقها الله بواسطة خلق آلائها فيه ، وآلائها هي القدرة السكلية  
 والإرادة السكلية الصالحان للتملق بكل من الطرفين . وليس لنا من حَوْل ولا قوة  
 سوى أننا استعملناها على أحد وجهيها إما بحسن الاختيار وإما بسوء الاختيار . ثم  
 لا مانع عندنا من القول بأنه سبحانه خالق لأفعال عباده ولكن على سبيل الخراز ، باعتبار  
 أنه خالق أسبابها ووسائلها .

وإذا قيل لهم : إن مذهبكم يستلزم أن يكون لله شركاء كثيرون في فعله ، وهم عباده  
 المكلفون . وهذا يتناقض عقيدة التوحيد وبرهان الوجدانية قالوا : لا نسلم هذا



ولا نقول به ، فإن الوجدانية ليس معناها نفي وجود ذات أو صفات أو أعمال لمبدء .  
إما معناها أن يكون لمبدء شبهه في ذاته أو صفاته أو أفعاله وأنتم يا أهل السنة  
لا تسمعون وجود ذات لا تشبه ذاته ، ولا تسمعون وجود صفات لا تشبه صفاته ، فلم  
تسمعون وجود أعمال من العباد لا تشبه أعماله ؟ وهو ما نقول به في خلق العباد لأعمالهم ،  
فإنها لا تشبه أعمال الله محال .

هكذا نجد كلتا الطائفتين وجهة نظر قوية وأدباً شائفاً فيما تؤدونه من النصوص  
المقابلة للنصوص التي يهرتها فرحتها . وعند أوصاف أن كلتا الطائفتين لا تلزم المخطور التي  
تحاول الأخرى أن تلزمها إلهاء في مقام الحجاج والجدال ، بل توجه رأيها نحوها بشيء  
بها عن الوقوع في المخطور . ثم نجد كلتا الطائفتين يتلاقيان أخيراً بعد طول المطاف  
عند نقطة الاعتقاد السديد بوجدانية الله وحكمة الله ، ولكن على الوجه الذي استبان  
لها وراج عندها .

نكيف يرضى منصف إذا بتصریح إحداهما وردها بأشنع التهم من كفر أو شرك  
أو هوى ؟ وماذا علينا أن نرجح ما رجح من غير تسفيه للجانِب الآخر ؟ هل ماذا علينا  
أن نلذذ بالصمت ونقتصر بالسكون فلا نخوض في أمثال هذه الدقائق المويضة ، والمسالك  
الملتوية البعيدة ؟ لا سيما أن الرحمن الرحيم لم يكلفنا بها ولم يفرضها علينا .  
ولقد كان سلفنا الصالح يؤمنون بوجدانية الله وعمله . ويؤمنون بقدره وأمره .  
ويؤمنون بهذه النصوص وتلك النصوص . ويؤمنون بأن المبدء يعمل ما يعمل وأن  
الله خالق كل شيء . ويؤمنون بأنه تعالى تزه في قدره عن أن يكون معلوماً أو عاجزاً  
وتزهد في أمره وتكليمه عن أن يكون ظالماً أو عابثاً . ثم بعد ذلك يصمتون فلا  
يخوضون في تحديد نصيب عمل الإنسان الاختياري من قدرة الله ونصيبه من قدرة  
المبدء . ولا يترصون لبيان مدى ما يبلغ فعل الله في قدره ، ولالبيان مدى ما يبلغ

عمل البعدى أمثال أمره . ذلك عالم يلموهم ولم يحاولوه ، لأنهم لم يكتفوه . وكان سبحانه  
أرحم بمبادء من أن يكلفهم إياه لأتقن أسرار القدر أو يكاد ، والعقل البشرى محدود  
التفكير ضعيف الاستعداد . ومن شرّ القول طلب ما لا سبيل لها إليه . وما أوتيتكم  
من العلم إلا قليلا .

« لم يمتنعنا عما نقول به » حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

### واجبتنا إزاء الخلافات

ليس من شأى هنا أن أفصل القول في هذه المسألة ولا في أشباهها ، فهذا التفصيل  
علم آخر . إنما هو ضرب من التمثيل ، يجزى فيه بالقليل ، لنخلص منه بصفة مهمة :  
هى أن المسلمين لا يجوز لهم أن ينقسموا شيعاً وأحزاباً لأمر ليس من الدين ، فضلاً عن أن  
يكون من أصول الدين ، وإذا التمسنا للماذير غلوض من خاضوا أو يخوضون فيه دفماً  
لشبهات المشبهين أو ضلال المضيقين ، فلن نستطيع التماس عذر واحد لمن شنوها حرباً  
شمواً بينهم وبين إخوانهم في الدين . وما كان لهم أن يخرجوا من مثل هذا البعث  
أعداء متعادلين ، وقد كانوا بالأمس إخواناً متفاهمين متعاونين .

وإذا فلتت منك المروءة الوثقى ، ولنفسك صدورنا للخلافات مادام صدر الإسلام  
قد وسعها . ولنعم أن الإسلام أوسع من المذاهب والآراء . ونحن صمت ذرعاً رأى  
أحيك اليوم قد ترى أنت رأبه غداً عنكما تفتتح بوجهة نظره ، فقد رحح كثير من أعلام  
الأئمة عن آراء وأوهاء بل عن مذاهب كانوا قد ذهبوا إليها . ولعلك لا تجهل أن لثامى  
مذهبا قديما ومذهبا جديداً ، وأن الخلاف في لواحق العقائد والأصول ، كثير الشبه  
بالخلاف في الأحكام والفروع .

لهذا كله ترى لا أذهب مع التذاهبين في تضليل المعتزلة وتبقيهم أحلامهم وديهم

بألقاب السكر والعسوق ، كما لا أذهب مع الداهيين في تمهيل أهل السنة وتحقيرهم ونهرهم بالحالة والجود والحموى . « وَأَوَّلَا إِذْ تَبْتَغُوا قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَكَلِّمَ هَذَا . سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ » بِمَعْنَى أَنَّ تَعُدُّوا إِثْلَهُ أَيْ أَنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَيُفَهِّمُ عِلْمَهُمْ حَكِيمٌ » .

### تحذير :

وأحبُّ ألا يفهم القارىء الكريم أننى أريد بها فوضى أكل متأول فى القرآن ، متلاعب بالنصوص ، عابث بتماليم الدين . بل الذى أريد به وأرجوه هو أن تفرق بين متأول ومتأول ، ثم فطر هذا التأويل سائغ أم غير سائغ ؟ أى تساعد عليه قوانين اللغة العربية ، ومقررات الإسلام للقطوع بها ، المعلومة من الدين بالضرورة ، وبراهين العقل والمنطق أم لا ؟

فالسائغ قبله وترحب به وإن خالف رأينا ، وغير السائغ نردّه فى غير تردّد ، ونحاربه فى غير هوادة ، لأن تاريخ الإسلام لم يشهد أعداء كانوا أخطر عليه من أولئك المابئين الذين تلاعبوا بتصوصه ، وعبثوا بمقرراته . سواء منهم من ذهب به الماضى كالباطنية ، ومن برّم به الحاضر كاللهاثة . وقد تسمع قريباً شيئاً عن أمثالهم .

### سماحة الإسلام ويسر تعاليمه

بأن لك مما ذكرنا أن الإسلام دين سمح ، وأن الله تعالى لم تكلف الخلق من تعاليم دينه إلا ما حاء به كتابه الكريم ، وشرحه سيه العظيم ، على تلك الطريقة السهلة الواضحة ، البعيدة عن التعقيدات الفلسفية ، والتعقيدات العلمية

ولعل من تمام الفائدة فى هذا الموضوع الخطير أن تقتطف لك كلمة قامها حجة

الإسلام المراني في الإحياء ، عند بيانه لما يدل الناس من ألفاظ المعلوم به قال نعمده الله برحمته .

هـ اللفظ الثالث أي من الأسماء المحموده التي نُقِلَت بالأعراض المأسده إلى معان غير ما أراد السلف الصالح والقرن الأول - التوحيد - وقد جُمِلَ الآن بعبارة عن صناعة الكلام ، ومعرفة طريق المحادثة ، والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم ، ومعرفة على القشدي فيها تشكثير الأسئلة ، وإثارة الشبهات ، وتأليف الإلزامات ، حتى يُقْبَلُوا ، ثم منهم أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، وسمى المتكلمون بعباءة التوحيد - مع أن جميع ما هو حصة هذه الصناعة لم تكن يُعرف بها شيء في العصر الأول - بل كان يشهد منهم الكثير على من كان يفتتح باباً من الجدل والمجادلة - فأما ما شتمل عليه القرآن من الأدلة بدهرة التي تدل في الأدهان إلى قبولها في أول انماع ، فقد كان ذلك معلوماً للكل ، وكان الدم معروف هو - لم يكن ، وكان التوحيد عديم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر متفكرين ومن يفهمونه يتصوون به ، وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع عنه عن الأسس والوسائط ، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه حلٌ حلاله ، إلى أن قال .

والتوحيد جوهر عيسى ، وله قشران ، أحدهما أسد عن الله من الآخر ، محض أصل الاسم بالتشريع وصنعة الحراسة للتشريع ، وأهلوا الله بالكلية - فالقشر الأول هو أن يقول بلسانك - لا إله إلا الله - وهذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذي صرح به المصطفى ، وسكنه قد يصدر من الموافق الذي يحالف سره جهده والتشريع شيء ألا يكون في قلب محاربة وإنكار لمفهوم هذا القول ، بل يشتمل ظواهر القلب على اعتقاده واعتدقيق به ، وهو توحيد عوام الخلق . والمتكلمون كما سبق حُرِّسوا من هذا القشر عن

تشويش للمتدعة والثالث هو القلب أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التعمانه عن الوسائط، وأن يعبد عبادة مفردة بها، فلا يسجد غيره. ويخرج من هذا التوحيد اتباع الهوى، فكل متبع هواه قد اتخذ هواه معبوده. قال تعالى: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ». وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup>: «أَتَمَّ إِلَهُ عُبْدٍ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْهَوَى». وعلى المتحقق من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يمد الصنم وإنما يعبد هواه، إذ نفسه مائلة إلى دين آياته فيتبع ذلك الليل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى. ويخرج من هذا التوحيد القسحط على الخلق والاتصاف إليهم، فبِهِ مَنْ يَرَى الْكُلَّ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كهف يتخبط على غيره؟ فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام، وهو مقام الصدقين. فاضطر إلى ماذا حوّل؟ وبأي قشر قسح منه؟ وكيف اتخذوا هذا ممتصاً في التدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس من المعنى الذي يستحق الحمد الحقيقي؟ وذلك كإفلاس من يصيح بُكْرَةً ويتوجه إلى القبلة ويقول: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا» وهو أول كذب يفتخ الله به كل يوم إن لم يكن توجه قلبه توجهاً إلى الله تعالى على الخصوص. فإنه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجهه إلا إلى الكعبة، وما عرفه إلا عن سائر الجهات. والكعبة ليست جهة الذي فطر السموات والأرض حتى يكون للتوجه إليهم متوجهاً إليه تعالى عن أن تتخذ الجهات والأقطار. وإن أراد به وجه القلب وهو يعطوب التسديد فكيف صدق في قوله؟ وقوله متردد في أوطاره وحاجاته الدنيوية، ومتصرف في طلب الحتل في جمع الأموال والجلب واستكثار الأسباب ومتوجه بالكلية إليهم، ففي وجهه والذي فطر السموات والأرض؟ وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد، فالوجه

(١) قال العراقي في تخرج هذا الحديث: رواه الطبراني من حديث أبي أمامة

هو الذي لا يرى إلا الواحد ، ولا يوحه وجهه إلا إليه . وهو امتثال قوله تعالى : « قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ دَرَجَتْ فِي حَوَائِجِهِمْ يَلْمِزُونَ » . وليس المراد به القول باللسان ، وإنما اللسان ترجيحاً بصدق مرة ويكذب أخرى . وإنما موقع نظر الله لترجم عنه وهو القلب . وهو معدن التوحيد ومنبعه » ١٥ .

وإليك أن تفهم منه الفص من علم التوحيد ، خصوصاً بعد أن صرحنا بأنه يحصى قشرة العقيدة عن تشويش المبتدعة . ولكن نقده بنصب على الإسراف في القشور وإعمال الباب ، كما سمعت .

### تحقيق للأستاذ الإمام

وللأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كلام في هذه المسألة ، بحاشيته على المفاتيح المضنية ، توسع فيه كثيراً مع الفرق المخالفة ، حين عرض لحديث الترمذي أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة » ، كلها في النار إلا واحدة . قيل : ومن هم ؟ قال : « الذين هم على ما أنا عليه وأصحابي » . ثم ختم الحديث بحته فقال :

« والحق الذي يرشد إليه الشرع والعقل ، أن يذهب بالآخر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود ، ثم منه إلى إثبات السموات . ثم يأخذ كل ما جاء به السموات بالتصديق والتسليم بدون فحص فيما تكلم الأنبياء ، إلا فيما يتعلق بالأعمال على قدر الطاقة ثم يأخذ طريق التحقيق في تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحة ، كان ما أدت إليه ما كان ، سكر رعاية التحري والاحتياط .

ثم إذا قام من فكره إلى ما جاء من عذره ، فوجدته بظاهره ملائماً لما حقه ، فيحمد الله على ذلك . وإلا فليطرق من التأويل ويقول : « آمناً به كُفِّلَ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ »

عانه لا يعلم مراد الله ونبيه إلا الله ونبيه . على هذا الدوال يكون سعه فيبوء من الله برصوار ، حيث أسس عقائده على السيد حسن البراهين ، واستقبل الأخبار الإلهية بالقبول والتسليم . وتناولها بقب سليم .

وإن أراد التأويل لغرض ، كدفع معاند أو إقناع جاحد ، فلا بأس عليه إذا سلم برهانه من التقليد والتشويش . وهذا هو دأب مشايخنا كالشيخ الأشعر والشيخ أبي منصور ومن مائلهم ، لا يأخذون قولاً حقاً بدؤوه ببراهينهم القوية على حسب طاعتهم . وهذا ما يدعى باسم السني والصوفي والحكيم . وكل متعصب مجادل فيما يبنى المعتقد وتشقيت الكلمة ، فهو في النار بكل مقصر فطليه العار والشدة . فاسلك سبيل السلف . واحذر فقد خلف من بعدهم خلف .

ولا بد في كمال النعمان ونيل العادة الأبدية ، من أن ينضم إلى ذلك التخصي عن الرذائل ، والتعلى بالأحلاق السكامة والأعمال الفاضلة . ومن تلك الأحلاق والأعمال تكميل قوة النظر وارتكاب طريق العدل في كل شيء ، إذ لا ريب أن كل من خالف ما كان عليه النبي وأصحابه من الهمة والجداد والعدل والإنصاف ، وسلوك طريق الاستقامة في جميع الأحلاق والأعمال ، ونور البصيرة فيما يأخذ ويعطى ، فهو في النار . ومن كان على ما كانوا عليه فهو في أعلى غرف الجنان .

وسالك هذا الطريق إما أن يكون سلوكه من قبل الالتفات إلى ما جاء في الكتاب والنسبة وكلام أولى الفصل من الراشدين قديماً وحديثاً ، فذلك هو الحكيم العلي والمؤمن المتوسط . وإما أن يكون مع ذلك قد سلك بسعه مدارج الأنوار ، ووقف على ما في ذلك من دقائق الأسرار ، حتى حاس في حياته هذه في مقعد صدق عند ملك مقتدر ، فهو الصوفي ، وهو صاحب المقصد الأسنى والمطرب لأعلى . وفي هذا مراتب لا تحصى ، ومراق لا تستقصى وهذا وما قلته يشملهما اسم المؤمن الصادق .

من تحقق بهذا النور ، فله النجاة والحبور ، كان ما كان ، فإن هذا هو للتحقق فيما كان  
النبي عليه وأصحابه .

ولمسك القلم حيث إن المقصود هو الإيجاز . والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب  
فاسلك مسلك طريق السداد ، وانظر فيما يكون لك بين الرشاد « ١ » .  
وهذا أمسك أنا القلم أيضاً مؤملاً أن أكون قد وفيت هذا المقام اللهم حقّه ، وأن  
أكون قد محمت في تجلية مبدأ من المبادئ الإسلامية الرشيدة ، عند اختلاف وجهات  
الأنظار ، وتباين منافع الأفكار . كفانا الله شرّ العناد والفروغ والفتنة ، وجمع صفوف  
الأمة على حقائق الكتاب والسنة ، آمين .

## ي — التفسير بالرأى

### الجارز منه وغير الجارز

أراد ما رأى هنا الاجتهاد . فإن كان الاجتهاد موقفاً أى مستنداً إلى ما يجب الاستناد  
إليه بعيداً عن الخرافة والصلاة ، فالتفسير به محمود وإلا فمذموم . والأمور التى يجب  
استناد الرأى إليها في التفسير نقلها السيوطى في الإتيان عن الزركشى فقال ما ملخصه :  
فما طر في القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة أهمها أربعة :-

الأول : النقل عن رسول الله ﷺ مع التحرز عن الضعيف واللوغ .  
الثانية : الأخذ بقول الصحابة ، فقد قيل إنه في حكم اللرفوع مطلقاً . وخصه بعضهم  
بأسباب البرول ونحوها مما لا مجال للرأى فيه .

الثالثة : الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلا ما لا يدل عليه الكثير  
من كلام العرب .



الرأفة الأخذ بما يقتضيه الكلام وبدل عليه قانون الشرع . وهذا النوع الرابع هو الذي دعا به النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس في قوله : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَصَلِّهُ الْقُلُوبَ » .

فنفس القرآن رأييه أي باجتهاده ملتزماً بالوقوف عند هذه المآخذ معتمداً عليها فيما يرى من معاني كتاب الله ، كان تفسيره سائفاً جازماً حليفاً بأن يسي التفسير الجائز أو التفسير الممود . ومن ساد عن هذه الأصول وفسر القرآن غير معتمد عليها ، كان تفسيره سائفاً مردوفاً لا خليفاً بأن يسي التفسير غير الجائز أو التفسير المدموم .

فالتفسير بالرأى الجائز يجب أن يلاحظ فيه الاعتماد على ما نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بما ينبر السبيل للتفسير برأيه . وأن يكون صاحبه عارفاً بقوانين اللغة خبيراً بأساليبها . وأن يكون بصيراً بقانون الشريعة حتى يُترجم كلام الله على المعروف من تشرية .

أما الأمور التي يجب البعد عنها في التصير بالرأى فن أهمها التيهن على تبيين مراد الله من كلامه على جملة بقوانين اللغة أو الشريعة . ومنها حل كلام الله على المذاهب الفاسدة . ومنها انطوؤ في استأثر الله بملءه . ومنها القطع بأن مراد الله كذا ، من غير دليل . ومنها السير مع الهوى والاستعصان .

ويمكن تنظيم هذه الأمور الخمسة في كلمتين ، هما الجهالة والصلاة . وينبغي أن يعلم أن في القرآن علوماً تنقسم إلى ثلاثة : الأول : علم لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه بل استأثر به وحده كعرفة حقيقة ذاته وصفاته وعيوبه التي لا يطلعها إلا هو . وهذا النوع لا يحور الكلام فيه لأحد إجماعاً .

الثاني : ما أطلع الله عليه نبيه ﷺ واختص به . وهذا لا يحور الكلام فيه إلا أنه عليه الصلاة والسلام ولن أذن له الرسول . قيل : ومنه أوائل السور

الثالث : العلوم التي عليها الله تعالى لنبيه بما أمر بقبليته . وهذا النوع قسمان : (قسم) لا يجوز الكلام فيه بطريق السمع كالكلام في التلويح والفسوخ والقراءات ، وقصص الأمم الماضية ، وأسباب النزول ، وأخبار الخضر والفسر والمعاد . ( وقسم ) يعرف بطرق النظر والاستدلال ، وهذا منه المختلف في جوارده ، وهو ما يتعلق بالآيات الغشاهات . ومنه المتفق على جوارده وهو ما يتعلق بآيات الأحكام والمواعظ والأمثال والحكم ونحوها لمن له أهلية الاحتماد

### العلوم التي يحتاجها المفسر

وقد بين العلماء أنواع العلوم التي يجب توافرها في المفسر فقالوا : هي اللغة والنحو والصرف ، وعلوم البلاغة ، وعلم أصول الفقه ، وعلم التوحيد ومعرفة أسباب النزول ، والقصص ، والتلويح ، والفسوخ ، والأحداث للبيئة للعمل والمبهم ، وعلم الوعظ ، وهو علم «ور» ، الله تعالى لمن عمل بما علم ، ولا يناله من في قلبه بدعة أو كبر أو حجب دينا أو ميل إلى المعاصي . قال تعالى : « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِعِزِّ الْكُنُفِ » وقال الإمام الشافعي :

شكروني إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي  
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدي لمامي ،

ملاحظة :

هذه الشروط التي ذكرناها ، وهذه العلوم كلها ، إما هي لتحقيق أعلى مراتب التفسير : مع إضافة تلك الاعتبارات الهية المطورة في الكلمات القيمة الآتية . أما المعاني العامة التي يستشعر منها المرء عظمة مولاه ، والتي يهيمها الإنسان عند إطلاق اللفظ الكريم ، فهي قدر يكاد يكون مشتركا بين عامة الناس ، وهو الأمر الذي للتدبر والتدبر ، لأنه سبحانه سبها وبسره . وذلك أدنى مراتب التفسير .

قال العلامة للروح الشيخ محمد عبده ما خلاصته : -

للتفسير مراتب : أدناها أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتربيته  
وبصرف النفس عن الشر، ويحذبها إلى الخير. وهذه هي التي قلنا إنها متبصرة لكل أحد  
« وَأَقَدْ بَسْرًا لَقَرْنَا أَنْ لَدَّ كَرٍ ، فَهَلْ مِنْ مُدَّ كَرٍ ؟ » -

وأما المرتبة العليا فهي لا تتم إلا بأمور :

( أحدها ) : فهم حقائق الأنماط الفردية التي أودعها القرآن ، بحيث يحقق المفسر  
ذلك من استعمالات أهل اللغة ، غير مكثف بقول فلان وفهم فلان ، فإن كثيراً من  
الأنماط كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك زمن قريب  
أو بعيد. ومن ذلك لفظ التأويل. اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً أو على وجه محصور، ولكنه  
جاء في القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ  
يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ : قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ » . فإن المراد به العاقبة ،  
وما بعد به القرآن من العقوبة والعقوبة ، أي ما يؤدي إليه الأمر في وعده ووعيده ، وعلى  
الحق لمدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله والأحسن  
أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه ، بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه ، وينظر فيه ، وربما  
استعمل معان مختلفة كلفظ الهداية وغيره . وتحقيق كيف يتفق معناه مع حخته من الآية ؟  
فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه . وقد قالوا : إن القرآن يفسر بعبه معناه ، وإن  
أصل قريظة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقة لما سبق له من القول ، وانما مع جملة  
المعنى ، واتلافه مع التصدي الذي جاء له الكتاب يحملته .

( ثانيها ) : الأساليب. فينبغي أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرقيقة  
- وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولة ، مع التفطن لنسكته ومحاسنه ، والوقوف  
على مراد المتكلم منه . نعم إننا لا نقسم إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال

والنظام ولكن بمسكنهم ما يستحقه ، سدر الطاقة ، ويحتاج في هذه إلى عم الإعراب .  
وعلم الأساليب ( المعاني وليان ) واكثر مجرد العلم بهذه العصور ومهم مسائلها وحط  
أحكامها لا بعيد المطوب . ترون في كتب العربية أن العرب كانوا مسددين في انطق ،  
يتكلمون ، بوافق القواعد قبل أن توصح . أتخسبون أن ذلك كان طبيعياً لهم ؟ كلا .  
وإما هي مملكة مكتسبة بالمعاج والخكاة ، لذلك صدر أبناء العرب أشد حجة من الأمم  
عندما اختلطوا بهم . ولو كان طبيعياً ذاتياً لهم ، لما فقدوه في مدة خمسين سنة من إهداهم حيرة .  
( ثانياً ) : علم أحوال لبشر . فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب  
وبيّن فيه ما لم يبينه في غيره . وبين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعه وسننه  
الإلهية في البشر ، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنة فيها .  
فلا بدّ للنظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم ومناشئهم  
اختلاف أحوالهم ، من قوة وضعف ، وعز وذل ، وعلم وجهل وإيمان وكفر . ومن  
العلم بأحوال العالم الكبير علوه وسفليه . ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة ؛ من أهمها  
التاريخ بأنواعه .

أجل القرآن الكلام عن الأمم ، وعن أسنن الإلهية ، وعن آياته في السموات  
والأرض وفي الآفاق والأنفس ، وهو إجماع صادر من أحاط بكل شيء عماً . وأمر  
بالنظر والتفكير والسبر في الأرض لفهم إجماله ، لتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكألاً . ولو  
اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره ، لكثرت كثر يعتبر الكتاب بلون جلده ،  
لأننا حوالة من علم وحكمة .

( رابعاً ) : العلم بوجه هداية البشر كلهم «القرآن» ، فيجب على المفسر القائم بهذا  
الفرص الكفائي أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم ، لأن  
القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وصلال ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم نزل  
به لهدايتهم وإسعادهم . وكيف يفهم المفسر ما قدحه الآيات من عوائد على وجه الحقيقة

أو ما يترتب منها إذا لم يكن عارفاً أحوالهم وما كانوا عليه . يروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال : « إن أجهل الناس بأحوال الجاهلية هو الذي يحشى أن ينقص عن رعى الإسلام عروةً عموداً » . والمعنى : والمراد أن من شأه الإسلام ، ولم يعرف حال الناس قبله ، يحمل تأثير هدايته وعنايته الله بحمله مغيراً لأحوال البشر ، ومخرجاً لهم من الظلمات إلى النور .

ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمر عادي ، كما ترى بعض الذين يقربون في النظافة والتعميم بعدد ون التشديد في الأمر بالنظافة والسواك من قبيل القنوع لأنه من ضروريات الحياة عندهم ، ولو اعتبروا غيرهم من طهارة الناس لعرفوا الحكمة في تلك الأوامر ، وتأثير تلك الآداب من أين جاء ؟ .

( خامسها ) : العلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه ، وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيوية وأخروية . انتهى من تفسير للنار بتصريف قليل .  
الاختلاف في جوار التفسير بالرأى :

يختلف العلماء في التفسير بالرأى بين مجيز ومانع . والتحقيق ما قدمناه بين يديك من الجواز بشرطه ، ولمع عدم توافر شروطه . وأن ذلك في غير أدنى مراتب التفسير . أما هذا الأدنى فهو جائز من غير اعتبار تلك الشروط ، لأن الله يسره حتى للعامة كما أسلفنا . ونسوق إليك هنا أدلة المذاهب والمجيزين لتزداد حجة وتنور في هذا الموضوع :

أدلة للمانعين :

يستدل المانعون بأدلة : ( الأول ) أن التفسير بالرأى قول على الله غير علم ، والقول على الله غير علم مهيى عنه . والتفسير بالرأى مهيى عنه .

خليل الصمري أن مسر ما رأى ليس متيقناً أنه مصيب ، وقصارى أمره أنه يظن ،  
والقائل بالظن قائل على الله بغير علم . ودليل الكبرى قوله تعالى : « وَأَنْ تَقُولُوا  
حَتَّىٰ آتِيَ مَا لَا تَعْلَمُونَ » المخطوف على ما قبله من المحرمات في قوله سبحانه :  
« قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَالْإِنَّمِ وَالْمَعَىٰ يَغْتَرِ  
اتْلَقُوا وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَهُمْ بِهِ سُلْطَانٌ ، وَأَنْ تَقُولُوا حَتَّىٰ آتِيَ  
مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

لكن أجاب المخبرون عن هذا الدليل مع الكبرى ، لأن القائل بالظن فيما  
لا يوجد عليه نص فاطع ، ولا دليل عقلي ، إنما يستند إلى علم من الله أى إلى دليل  
قطعي منه سبحانه على صحة العمل بهذا الظن كقوله تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا  
إِلًّا وَنُفْسًا » . وكقوله صلى الله عليه وسلم مامعاه « مَنْ أَحْتَمَدَ وَأَحْطَأَ لَهُ آخِرٌ ، وَإِنْ  
أَصَابَ لَهُ آخِرَانِ » .

( الدليل الثاني ) الحديثان الآتيان :

(١) ما يرويه الترمذى عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « اتَّقُوا الْحَدِيثَ عَلَى  
إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَى مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَوَّأْمَقْدَهُ مِنَ النَّارِ . وَمَنْ قَالَ فِي  
الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَوَّأْمَقْدَهُ مِنَ النَّارِ »

(٢) ما يرويه أبو داود عن حماد قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ  
بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَضْطَأَ » .

وأحيب عن هذين الحديثين بأخوة ثلاثة : -

( أولاً ) أنهم محمولان على من قال رأيه في نحو مشكل القرآن ومثابه مما لا يعلم  
إلا من طريق النقل عن النبي ﷺ وأصحابه .

(ثانيها) أنهما محمولان على من قال في القرآن قولاً وهذا هو الذي أحق حلافاً ،  
كأصحاب المذاهب الفاسدة الذين يتأولون القرآن على وفق هواهم ليحتجوا به على صحة  
آرائهم

(ثالثها) أنهما محمولان على قول من يأخذ بظاهر الكلام ، من غير أن يستند إلى  
نقل أو يكاف نفسه البحث عن مبهكات القرآن ومافيه من حذف وإخفاء وتقديم وتأخير  
ومحو ذلك . . . فالنقل لا بد منه لكل مفسر ، كيلا يقع في الخطأ . أما التوسع في انهم  
واستنباط صحيح الآراء فهو خطوة أخرى بعد النقل . لأن الأحدث بظاهر العربية وحده غير  
كاف ولا سديد . تأمل قوله سبحانه : « وَآتَيْنَا نَمُودَ النَّاقَةِ مُبِيعَةً فَطَلَّوْا بِهَا »  
فإن معناه : وآتينا نمود الناقة مبيعة ، وبينة لائحة ، تدلهم على صدق صالح عليه  
الصلاة والسلام وصدق ما جاء به ، فطلبوا بقرها أنفسهم .

والواقف عند ظاهر اللغة العربية ينظر أن المراد من الإصار نظر العين ، ولا يدري  
إذا ظلموا ؟ ولا من ظلموا ؟ أظلموا أنفسهم أم غيرهم ؟

هذه احتمالات في الحديثين . والدليل إذا تطرق إلى الاحتمال ، سقط به الاستدلال .  
ويجاب عن حديث حنبل بزيادة على سابقه بأنه حديث لم تثبت صحته ، وعلى  
فرض صحته فإنه يحتمل أن يكون معناه : « فقد أخطأ طريق الناس المعنى » ذلك لأن  
السبيل في معرفة ألفاظ القرآن إنما هي اللغة وعلومها . والسبيل إلى معرفة أسباب نزوله  
وتمييزه منسوخه ومسوحه ومحو ذلك إنما هو النقل الصحيح . والسبيل إلى القطع بمراد  
الله إنما هو الوارد عن النبي ﷺ . فإن لم يظفر بوارد فلا بأس من أن يبس ويعهد  
ويستدل بما ورد على ما لم يرد .

الدليل لثالث : ما ورد عن الصحابة ولتأسيين من أنهم كانوا يتعرجون عن  
القول في القرآن بأرائهم . ومن ذلك ما روى عن الصادق رضي الله عنه أنه قال :

« أَيْ سَمَاءُ تَطْلُبُ ؟ وَأَيْ أَرْضِي تَلْتَبِ ؟ إِذَا قُلْتُ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِ أَوْ بِمَا لَا أَعْلَمُ ؟ » .  
وما ورد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال : أَمَا لَا أَقُولُ  
فِي الْقُرْآنِ شَيْئًا وَرَوَى عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ : ثَلَاثٌ لَا أَقُولُ فِيهِنَّ حَتَّى أَمُوتَ . الْقُرْآنُ ،  
وَالرُّؤْيَى ( أَيْ تَأْوِيلُ الْأَحْلَامِ ) ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْيَارِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى  
امْتِنَاعِهِمْ مِنْ أَنْ يَقُولُوا فِي الْقُرْآنِ بِأَرَأَيْهِمْ .

وَأَحِبُّ عَنْ ذَلِكَ ( أَوَّلًا ) : أَنَّ إِحْجَامَهُمْ عَنِ الْقَوْلِ فِي الْقُرْآنِ كَانَ وَرَعًا حَشِيَّةً أَلَّا  
يَصِيبُوا عَيْنَ الْيَقِينِ . وَالْوَرَعُ : تَرْكُ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا مِنَ الْوُقُوعِ فِيهِ . نَاسٌ  
( نَدِيمٌ ) أَنَّ إِحْجَامَهُمْ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ مُقِيدٌ بِمَا يَعْرِفُوا وَجْهَ الصَّوَابِ فِيهِ . أَمَا إِذَا  
عَرَفُوا وَجْهَ لُصُوبِ قَائِمِهِمْ لَا يَتَمَنُّونَ وَلَوْ كَانَ وَجْهَ الصَّوَابِ ظَنًّا لَا قَطْعِيًّا . هَذَا أَبُو بَكْرٍ  
نَفْسَهُ يَعْنِي فِي الْكَلَالَةِ حِينَ سَمِعَ عَنْهَا فِي آيَةِ الْكَرِيمَةِ ، « يَسْتَفْتُونَكَ ، قُلْ أَفْعُ  
بِفَتْحَيْكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » الخ وَيَقُولُ : أَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي . فَإِنْ كَانَ صَوَابًا عَنْ اللَّهِ . وَإِنْ  
كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ . الْكَلَالَةُ : كَذِبٌ وَكَذًا . وَمِثْلُ هَذَا وَرَدَ عَنْ عَلِيٍّ  
وَإِبْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

( ثَلَاثٌ ) أَنَّ إِحْجَامَهُمْ يَحْتَمِلُ أَيْضًا التَّقْيِيدَ بِمَا كَانَ مِنَ التَّفْسِيرِ عَلَى وَجْهِ قَاطِعٍ فَمَا لَمْ  
يَقُمْ فِيهِ دَبِيلُ قَاطِعٍ .

( رَابِعًا ) : أَنَّ إِحْجَامَهُمْ يَحْتَمِلُ أَيْضًا التَّقْيِيدَ بِمَا إِذَا قَامَ غَيْرُهُمْ عَنْهُمْ بِوَاحِدٍ  
تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَبَيَانِهِ . أَمَا إِذَا انْحَصَرَتِ السُّؤَالِيَّةُ فِيهِمْ فَهَقُولُ أَنَّهُمْ لَا يَتَمَنُّونَ وَتَقْتَدِرُ  
وَلَا كَانُوا كَاتِبِينَ لِلْعِلْمِ وَآتَمِينَ . حَاشَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَاشَاهُمْ . رَجَاهُمْ اللَّهُ وَأَحْسَنَ  
حِرَاهُمْ وَمَثْوَاهُمْ .

أدلة المحيزين للتفسير بالرأي :

استدل المحيزون للتفسير بالرأي استدلالات عدة أيضا :



(أولها) : « أَنْ تَقْرَأَ الْقُرْآنَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِنَفْسِهِ » .  
 ويقول : « كِتَابُ أَمْرِنَا إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ » .  
 ويقول : « وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَشِيرُونَ مِنْهُمْ » .  
 وجه الاستدلال أن الله تعالى حث على تدبر القرآن والاعتبار بآياته ،  
 والانتباه بمواعظه . وهذا يدل على أن أولى الألباب عالمهم من العقل السليم والقلب  
 الصافي ، عليهم أن يتأولوا ما لم يستألفه بلسانه . إذ التدبر والانتباه فرع الفهم والتفهم  
 في كتاب الله . والآية الكريمة تدل على أن في القرآن ما يستنبطه أي يستخرجه أولو  
 الألباب والفهم المتأقب .

(ثانيها) : « لَمَّا رَأَى الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي دُعَائِهِ لِأَنْ مَبَاسٍ : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ  
 فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ » . فلو كان التأويل مقصوراً على السماع والنقل للفظ التعرُّيل  
 لما كان هنالك فائدة لتخصيصه . فدل على أن التأويل خلاف النقل . وإذن فهو التفسير  
 بالاجتهاد والرأى .

(ثالثها) : لو كان التفسير بالرأى غير جائز لتمطل كثير من الأحكام . واللازم باطل .  
 ووجه الملازمة أن النبي ﷺ لم يذكر تفسير كل آية . والاجتهاد مأجور وإن أخطأ ،  
 مادام أنه قد استفرغ وضعه ، ولم يهمل الوسائل الواحدة في الاحتماد ، وكان غرضه  
 الوصول إلى الحق والصواب .

ويمكن أن يحمل الخلاف لفظياً بأن يحمل كلام المحيزين للتفسير بالرأى على التفسير  
 بالرأى المستوفى لشروطه الماصية ؛ فإنه يكون حينئذ موافقاً لما كتبه الله وسنة رسوله  
 صلى الله عليه وسلم وكلام العرب . وهذا جائز ليس بمذموم ولا منهي عنه . ثم يحمل  
 كلام السامعين للتفسير بالرأى على ما فقدت شروطه السابقة ، فإنه يكون حينئذ مخالفاً  
 للأدلة الشرعية واللغة العربية . وهذا غير جائز بل هو محط النهي ومصب الام . وعليه

يحمل كلام ابن مسعود إذا قال ستحدون أقواماً يدعوكم إلى كتاب الله وقد يبدوه وراء ظهورهم مصيكم بالعلم، وإياكم والتدفع، وإياكم والتقطع » وكذلك يحمل قول عمر أيضاً : « إني أخاف عليكم رحلين رحلاً يتأول القرآن على غير تأويله، ورحلاً يباس أنملك أهل أخيه » .

وقول عمر أيضاً : ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن بهاء إيمانه ، ولا من طسق بين فسقه ، وإنكفي أخاف عليها رجلاً قد قرأ القرآن حتى أذلقه لسانه ثم تأوله على غير تأويله » .

فكل هذا محمول على ما لم يوافق تفسيره الأدلة الشرعية ولا قواعد اللغة العربية ولا يخفى أن القول في القرآن بالرأى معناه أن الله أراد بكلامه كذا . وهذا أمر له خطره الخطير ، ومسئوليته الجسيمة ، سأل الله تعالى السلامة .

### ل - منهج المفسرين بالرأى

وخلاصة ما مضى أنه يجب على من يحاول أعلى مراتب التفسير بالرأى أن يأخذ حذره وأن يتذرع بكل العلوم التي نوهها بها ، ليكون قد أصاب المراد أو كاد ، ووجب عليه أن يهتج منهج الصواب والساد ، باتبع ما يأتي :

( أولاً : أن يطلب المعنى من القرآن ، فإن لم يجد طلبه من السنة لأنها شارحة للقرآن ، فإن أعياء الطلب رجع إلى قول الصحابة ، فإنهم أدركوا بالتبزيل وظروفه ، وأسباب نزوله . شاهدوه حين نزل ، فوق ما امتاروا به من علم وعمل . « وحير ما حيرته طواوود » .

( ثانياً ) : إن لم يطرأ شيء في الكتاب والسنة وما نورات الصحابة وحب عليه أن يحتجده وسعه مقبلاً ما يأتي

- ١ - لعله بما يتعلق بالألفاظ المعردة من اللفظة والصرف والاشتقاق ملاحظاً للمعاني التي كانت مستعملة زمن نزول القرآن الكريم .
- ٢ - إرداب ذلك بالكلام على التراكيب من جهة الإعراب والبلاغة ، على أن يتدوَّق ذلك محاسنه اللمبانية .
- ٣ - تقديم المعنى الحقيقي على المجازى، بحيث لا يُصار إلى الجمار إلا إذا تعددت الحقيقة .
- ٤ - ملاحظة سبب النزول . فإن سبب النزول مدحلاً كبيراً في بيان المعنى المراد، كما سبق تحقيقه في مبحث أسباب النزول .
- ٥ - مراعاة التناسب بين السابق واللاحق، بين فقرات الآية الواحدة، وبين الآيات بعضها وبعض .
- ٦ - مراعاة المقصود من سياق الكلام .
- ٧ - مطابقة التفسير للمعنى من غير نقص ولا زيادة .
- ٨ - مطابقة التفسير لما هو معروف من علوم الكون ، ومن الاجتماع ، وتاريخ البشر العام ، وتاريخ العرب الخاص أيام نزول القرآن .
- ٩ - مطابقة التفسير لما كان عليه النبى ﷺ في حديثه وسيرته ولأنه ﷺ هو المصوم للقرآن مسته الجامعة لأقواله وأعماله وشهادته وتقريراته .
- ١٠ - حتام الأمر ببيان المعنى والأحكام المستنبطة منه في حدود قوانين اللفظة والشرعية والعلوم الكونية .
- ١١ - رعاية قانون الترجيح عند الاحتمال ، وهو ما مائى :

## م - قانون الترجيح عند الاحتمال

قال السيوطي في الإتيان مانته : « كل لفظ احتمل معنيين فصاعداً ، فهو الذي لا يحور لغير العلماء الاجتهاد فيه . وعليهم اعتماد الدلائل دون مجرد الرأي . فإن كان أحد للمنيين أوضح وجب الحمل عليه ، إلا أن يقوم الدليل على إرادة غيره . »

وإذا تساوى والاستعمال فيهما حقيقة ، لكن في أحدهما لغوية أو عرفية ، وفي الآخر شرعية ، فالحمل على الشرعية أولى ، إلا أن يدل الدليل على إرادة اللغوية ، كما في قوله تعالى : « وَصَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ تَكُنْ لَهُمْ » وإن كانت في أحدهما عرفية والآخر لغوية ، فالحمل على اللغوية أولى .

وإن اتفقا في ذلك أيضاً ، فإن تنافى اجتماعهما . ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد ، كالقصر للحيض والظهر ، اجتهد في المراد منهما ، بالأمارات الدالة عليه فما ظنّه فهو مراد الله تعالى في حقه .

وإن لم يظهر له شيء فهل يتخير أو يأخذ بالأعاض أو بالأحرف ؟ أقوال . وإن لم يتناهما ، وحسب الحمل عليهما عند الحققين . ويكون ذلك أبلغ في الإيجاز والنصاحة ، إلا أن دل دليل على إرادة أحدهما ، كما .

## ن - أوجه بيان السنة للقرآن .

سبق غير مرة أن بيننا أن السنة متارخة للقرآن ، لأن الرسول ﷺ وظيفته التبليغ والبيان ، مثل قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ كَرِهَ لِّلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَفِيهِ مَعِيَ ، أَلَا يُوشِكُ رَسُولٌ شَيْعَانٌ عَلَى أُرَيْكَتِهِ ( وجاء في رواية ) مُتَكِيٌّ عَلَى أُرَيْكَتِهِ ، يَفُونَ : « عَلَيْكُمْ هَذَا الْقُرْآنُ فَأَوْجِدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ » ، وما وجدتم فيه من حرام فنهوا عنه الخ » .

ومعنى قوله ﷺ : « لقد أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَفِيهِ مَعِيَ » أنه أُوتِيَ مِنَ الْوَحْيِ عِبَرُ الْمَثَلِ ، مثل الوحي للتلو ، تبييناً له وتوضيحاً ، وكلٌّ من عند الله . قال تعالى : « وَمَا يَنْصِقُ عَلَى الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى » .

وقوله في هذا الحديث : ( يُوشِكُ رَجُلٌ الْخ ) يدل على أنه سيأتي قوم منسكون بظاهر القرآن ، كالروافض والخوارج ، ويتكبرون الاستدلال بالسنة المبينة للقرآن ، فصبروا وأصلوا .

والمراد بقوله على أُرَيْكَتِهِ - وهي السرير - أنه ممن أطمعته النعمة ، وأنبهته عن السعي إلى طلب العلم ، ولنبعث عن أحاديث الرسول ﷺ .

وهذا الحديث يدل على أن ما صح ثبوته عن النبي ﷺ قولاً أو فعلاً فهو حجة بعينه كالقرآن الكريم .

ثم إن بيان السنة على وجوه شتى :-

( أحدها ) بيان الحمل في القرآن ، كبيان مواقيت الصلوات الخمس ، وعدد ركعاتها ، وكيفية ركوعها وسجودها وغير ذلك ، وبيان مقادير الزكاة وأوقاتها وأواعها ،

وبيان مناسك الحج ونحوها. مما ورد في القرآن مجملًا وسبغته السنة. ولذا قال **عليه السلام** :  
**« خذوا عني مناسككم »** وقال : **« صلوا كما رأيتموني أصلي »** .  
 قال أحمد بن حنبل : **« السنة تفسر الكتاب وتبينه »** .  
 ( ثانيا ) بيان أحكام زائدة على ما جاء به القرآن : كتحريم نكاح امرأة على عمها  
 وخالتها ، وتحريم أكل الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع ، والنساء بالبرصين  
 والشاهد ، وغير ذلك مما هو مقرر في علم الأصول والفقه .  
 ( ثالثا ) بيان معنى لفظ أو متملقه ، كتفسير **« المنسوب عليهم »** باليهود ،  
**« والضالين »** بالنصارى . وبيان قوله تعالى : **« لهم فيها أزواج مطهرة »** بأنها مطهرة  
 من الحيض والفائض والنجاسة والبراق . . وتفسير قوله تعالى : **« فبدّل الذين ظلموا**  
**قولا غير الذي قيل لهم »** بأنهم يزحفون على أستاههم ويقولون : حبة في خميرة ، بدلا  
 من امتثال قوله تعالى لهم : **« ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة »** . وغير ذلك مما خصص  
 به العام ، أو قيّد به المطلق ، وهو كثير في كتب السنة .

### من — التمازض بين التفسير بالرأى

والتفسير بالمأثور وما يقع في الترجيح بينهما

ينبغي أن يعلم أن التفسير بالرأى المذموم ليس مراداً هنا ، لأنه ساقط من أول الأمر  
 فلا تقوى على ممارسة المأثور .  
 ثم يسمى أن يعلم أن التمازض بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى المحمود معناه  
 التناقض بينهما ؛ لأن مدلول أحدهما على إثبات والآخر على نفي ، كأن كلاً من المتضادين  
 وقف في عرض الطريق ففتح الآخر من السير فيه .  
 وأما إذا لم يكن هناك تناقض فلا تمازض وإن تناير ، كتفسيرهم للصرط المستقيم

بالقرآن ، أو بالسنة ، أو بطرق اليهودية ، أو طاعة الله ورسوله . فهذه للمأني غير متناهية وإن تبارت . وكذا ما قيل في قوله تعالى : « فَيَنْهَوْنَهُمْ عَنْ أَنْ يَخْبُوا مِنْهُمْ مُتَعَدِّدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِيَنَّهُ اللَّهُ » مما هو مذكور في كتب الفقير ، وليس غشافي ، فلا يكون متعارضاً ولا متناقضاً .

قيل في تفسير هذه الآية : الظالم هو المرءياً إلى أمر الله ، والمقتصد هو الذي خلط حملاً صالحاً وآخر سيئاً ، والسابق للخيرات باذن الله هو الذي تمحص الخير . وقيل : السابق المخلص ، والمقتصد للرأى ، والظالم كافر للنعمة غير الجاحد كما . وقيل : السابق من رجعت حسنة ، والمقتصد من استوت حسنة وسيناته ، والظالم من رجعت سيناته . وقيل : السابق العالم ، والمقتصد للتملم ؛ والظالم الجاهل . وقيل الظالم الذي يعبده على الغفلة والغفلة ، والمقتصد الذي يعبده على الرغبة والرغبة ، والسابق الذي يعبده على الهبة والاستمقاق . وقيل : الظالم من أخذ الدنيا حلالاً كانت أو حراماً ، والمقتصد من يتعهد ألا يأخذها إلا من حلال ، والسابق من أعرض عنها جملة . وقيل : الظالم طالب الدنيا ، والمقتصد طالب المقبى ، والسابق طالب المولى . وقيل غير ذلك . وفي دار الكتب المصرية بمصر مجلد مخطوط لمولى بن محمد بن عمر الفوسى اسمه : « تحفة الأحياء » في تفسير قوله تعالى : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ » .

إذا تقرر هذا فإن التفسير بالأنوار الثابت بالنص القطعى ، لا يمكن أن يعارض بالتفسير بالرأى ؛ لأن الرأى إما على وإما على أى مقتد إلى دليل قطعى من عمل أو نقل ، فإن كان قطعياً فلا تمارض بين قطعيين . بل يؤول للأنوار ، ليرجع إلى الرأى المقتد إلى القطعى ، إن أمكن تأويله ، جمعاً بين الدليلين . وإن لم يمكن تأويله تحيل المقطد الكريم على ما يقتضيه الرأى والاجتهاد ، تقديماً للأرجح على المرجوح .

أما إذا كان الرأي ظنيًّا بأن خلا من الدليل القاطع واستند إلى الأمارات وما من  
الظاهرة قط فإن الثأور القطعي يقدم على الرأي الظني ضرورة أن للبتين أفسوى  
من الطرفين .

هذا كله فيما إذا كان للثأور قطعياً . أما إذا كان للثأور غير قطعي في دلالة لكونه  
ليس نصاً ، أو في مقبه لكونه خبراً آحاداً ، ثم عارضه التفسير بالرأي ؛ فلا يخفى الحال ،  
إما أن يكون ما حصل فيه التمازض محالاً بمجال للرأي فيه ، وحينئذ فالمؤول عليه للثأور  
قطعي ولا يقبل الرأي .

وإن كان للرأي فيه مجال ، فإن أمكن الجمع فيها وسمت . وإن لم يمكن قدم الثأور  
عن النبي ﷺ أو عن الصحابة لأهم شاهدوا الرعي ، وهم يدعون عليهم أن يتكلموا في  
القرآن بمجرد الهوى والشهوة .

أما الثأور عن القاسمين فإذا كان مقولاً عن أهل الكتاب قدم التفسير بالرأي  
عليه . وأما إذا لم ينقل عنهم رحماً به إلى السمع فما أمده السمع محل انضمام ككرم  
عليه . فإن لم يترجح أحدهما سمع ولا غيره من المرجحات فإننا لا نقطع بأن أحدهما  
هو المراد بل نزل اللفظ الكريم مرة الحمل قبل تفصيله ، والمشتبه أو اللبهم  
قبل بيانه .

### ع - أهم كتب التفسير بالرأي

قد علم من سبق أن التفسير بالرأي منه المدوح الجائز ومنه المذموم غير الجائز  
وهذا بياناً بأشهر من ألف في القسم الأول من أهل السنة ومؤلفاتهم .

١ الإمامان الحليان - حلال الدين محمد الحلي ، وحلال الدين عبد الرحمن

السيوطي .



وهما صاحبا التفسير المرووف بتفسير الجلالين .

٢ - الإمام السيصاوى ناصر الدين بن سعيد صاحب التفسير المسمى « أبواب التبريل وأمرار التأويل » .

٣ - الإمام فخر الدين الرازى محمد بن العلامة صبا الدين عمر المشهور بخطيب المرى صاحب لتفسير المسمى « مفاتيح الغيب » .

٤ - أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى الطحاوى صاحب التفسير المسمى « إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم » .

٥ - العلامة شهاب الدين الألوسى صاحب التفسير المسمى : « روح المعاني » .

٦ - نظام الدين الحسن محمد البياورى صاحب التفسير المسمى « غرائب القرآن ورغائب الفرقان » .

٧ - علامة الشيخ محمد الشريدى الخطيب صاحب التفسير المسمى « سراج المنير فى الإعانة على معرفة كلام ربنا الخبير » .

٨ - أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى صاحب التفسير المسمى « مدارك التبريل وحقائق التأويل » .

٩ - علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البمداوى صاحب التفسير المرووف « تفسير المنار » .

تفسير الجلالين :

أما تفسير الجلالين فككتاب قيم ، سهل المأخذ إلى حد ما ، مختصر المصادر كثير ، يكاد يكرر أعظم التفسير انتشاراً ونصاً ، وإن كان أصغرهما أو من أصغرهما شرحاً وحصناً ، داوخته طبعات مختلفة من أهل العلم وغيرهم . وطبع طبعات كثيرة متنوعة

طلع مرة وحده مجرداً، وأخرى بحاشية الصحف ، وثالثة مع حاشية الصاوى ، وراعية مع حاشية الحل وأوسع حواشيه حاشية الجمل . والعجيب أن كثيراً من فطاحل العلماء كانوا يختارونه لأعلى دراسة عرفت في التفسير ، كإدلة أساسية بدورون حولها ! ويستنبهون وحياً . حتى إن دروس التفسير الشهيرة ؛ للعلامة المرحوم الشيخ محمد عبده ، كانت مادته فيها تفسير الجلالين ، على ما سمعت .

#### تفسير البيضاوى :

وأما تفسير البيضاوى فهو كتاب جليل دقيق ، جامع بين التفسير والتأويل على قانون اللغة العربية ، وقرر الأدلة على أصول أهل السنة . وقد التزم أن يحتم كل سورة ١٥ يروى في فضلها من الأحاديث ، غير أنه لم يحرر فيها الصحيح . وأحسن حواشيه المتداولة حاشية الشهاب نظامي ، وإن كان له حواش أخرى كثيرة ، منها حاشية سعدى أفندي ، وحاشية الروشنى ، وحاشية الشحرى ، وحاشية الشيرازى ، وحاشية السمرقندى على تفسير الماعزى ، وحاشية الإسفراينى على جزء عم ، وحاشية ابن أميرحان على سورة الملك .

#### تفسير النفخر الرازى :

سائر الكلام عليه تحت عنوان تفاسير أهل الكلام .

#### تفسير أبى السعود :

تفسير رائع مختار يستهويك حسن تعبيره ؛ وبروقك سلامة تفكيره ، وبروعك ما أخذ منه به من تجلية بلاغة القرآن ، والعناية بهذه الناحية المهمة في بيان إيماره ،

مع سلامة في الفروق ، وتوفيق في التطبيق ، وحفاظة على عقائد أهل السنة . وسعد عن الحشو والتطويل .

### تفسير اليسابوري :

يمتاز بسهولة عبارته ، وبصحة ما يحتاج إلى تحقيق ، مع قصد وحو من الحشو وقد هيأ أمرين يثر بهما: الكلام على القراءات والأوقف في أول كل مرحلة من مراحل التفسير . والكلام على التأويل الإشاري في آخر كل مرحلة من تلك المراحل . وهو مطبوع طبعة شهيرة على هامش تفسير ابن جرير . وهو مختصر لتفسير الفخر الرازي مع تهذيب كبير .

### تفسير الألوسي :

سيأتي الكلام عليه عند التفسير الإشاري .

### تفسير السني :

كتاب حليل . متداول مشهور ، سهل ودقيق . قال فيه صاحب كشف الظنون: هو كتب وسط في التأويلات ، جامع لوجوه الإعراب والقراءات ، متضمن لدقائق علم البديع والإشارات ، مرشح لأقاويل أهل السنة والجماعة ، خال من أباطيل أهل البدع والعلالة . ليس بالطويل الممل ، ولا بالقصير المحلل ١٥١ .

### تفسير الخطيب :

كتاب عظيم يمتد بثلاثة أشياء ، تحرير للأدلة وتوجيهها ، والكلام على المناسبات بين النور والآيات ، وسرد كثير من القصص والروايات .

### تفسير الحارثي :

تفسير مشهور ، يعنى بالأمور ، بيد أنه لا يذكر السند ، وله ولوع بالتوسع في الروايات والقصص ، ومن مزاياه أنه يقبع القصة ببيان ما فيها من باطل ؛ حتى لا يصدع بها عرث ولا يفتن جاهل .

### ف - تفاسير الفرق المختلفة

كالتفسير الإشاري وتفسير أهل الكلام وأشهر الكتب في ذلك

مبني الأمة بأن تقرق أكثر من سبعين فرقة ، وأن يلبسها الله شيكاً ويدبق بعضها بأمن بعض ، وإن كانت لا تزال طائفة من هذه الأمة ظاهرين على الحق لا يصرم من حادهم ، حتى يأتي أمر الله . وقد تناولت كل طائفة كتاب الله تفسره بما ارتعته لنفسها من اعتدال أو تطرف . فظهرت مجموعة التفاسير كالمرآة المحلوة تنطبع فيها صور المفسرين لها على اختلاف مشاربهم ، وتباين متازعهم . ولا غرو ، فكل إمام عا فيه ينصح ، وكل يفتي على ليلاه .

ومن هنا تجد تفاسير أهل السنة تظهر فيها عقيدة أهل السنة ، وتفسير المعتبرة تظهر فيها عقيدة الاعتزالي ، والشيعية تظهر في تفسيرهم عقيدة الشيعة ، وهلم وهلم . وقد سكلما تحت العنوان السابق على نماذج من تفاسير أهل السنة ، فليتكلم بها على نماذج من تفاسير الفرق المختلفة .

### ص - تفسير المعترلة

ولسداً بكتاب الكشف للمحشى ، ثم كتاب نوره القرآن عن انطاعن للقاضي  
عبد الحار ، وها محمودان من تفسير أهل الكلام من المعترلة

### كتاب كشف :

أما كتاب الكشف فصاحبه هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر الجوى اللعوى المعترلى  
المعرب بحار الله . ولد سنة ٤٦٧ هـ سبع وستين وأربعمائة ونوف سنة ٥٣٨ ثمان وثلاثين  
وحصانة ، بعد أن ربح فى اللغة والأدب والنحو ومعرفة أسرار العرب حتى طاف أقرانه  
ثم تظاهر بالاعتراض ودعم إياه . وكتابه خير كتاب أو من خير الكتب التى يرجع  
إليها فى التصبر من ناحية لملاعه ، ثم رعبه الاعتراضية ، وأعلب التفسير من بعده أحدث  
منه واعتمدت عليه

ويتم كشف أمور : ( منها ) حلوه من الحشو والطويل ( ومنها ) سلامته من  
انقص والإسرائيليات ( ومنها ) اعتماده فى بيان معانى على لغة العرب وأساسهم ( ومنها )  
عماقته فى المعانى والسيار والسمكت الملاعية ، تحقيقاً بحوء الإبحار ( ومنها ) سموكه فيها  
بقصد بصاحبه طريق السؤال والجواب كثيراً . ويصور السؤال بكلمة « إن قلت »  
ومع التاء . ويصور الجواب بكلمة « قلت » هم بالقاء . وللكشاف حواش كثيرة .  
من حاشية أس كان . ش راده ، وحاشية علاء الدين المعروف « سهلان » وحاشية الشيخ  
حيد ، وحاشية أرهاوى

واليك مواضع من كتبه ينحو فيها نحو الاعتزال ، ويبرر عقيدته بقول « بركة  
بين المبرتين ، وأن أول الأعداء ينحرفه هم ، وأن رؤية الله فى الدار الآخرة مستحيلة .

(١) نقول عند تفسير قوله تعالى : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » الخ ما نصه :  
 ( من قلت ) : ما الإيمان الصحيح ، ( قلت ) : أن يعتقد الحق ، ويصرب عنه الباطل  
 ويصدقه بعمله . فمن أخذ بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق . ومن أحل  
 بالشهادة فهو كافر . ومن أخذ بالعمل فهو فاسق . فانت تراه قسرا الإيمان عسا  
 يثبت به المدة بين المزلتين . . . . . وهي منزلة الفاسق بين منزلة المؤمن ومنزلة الكافر .  
 فيسمى الإيمان عن حليم العقيدة ما دام أنه قد أخذ بواجب العمل . وهو محجوج من  
 أهل السنة بأن هذا التفسير لا يوافق اللغة ولا الشرع . أما اللغة فلأن معنى الإيمان  
 التصديق لا غير ؛ وكذا الشرع بدليل عطف العمل عليه . والعطف يقتضى المعاصرة  
 بين المتعطفين .

(٢) ونقول في تفسير قوله سبحانه « وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » ما نصه :  
 وإسناد الرق إلى نفسه للإعظام بأنهم ينفقون الحلال المطلق الذى يستأهل أن  
 يُصاف إلى الله . وهذا منه إعاء ورمز إلى أن الرزق الحلال من الله ، وأن الرق  
 الحرام من العبد .

وردد عليه أهل السنة بقوله سبحانه : « هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ  
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » فأنه هو الخالق الرارق لا غيره . سواء أ كان الرق حلالا  
 أم حراما

(٣) ويقول في تفسير قوله تعالى : « حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم » الخ ما نصه : -

( من قلت ) لم أسند الختم إلى الله تعالى وإسناده إليه يدل على المنع من قبول  
 الحق والتوصل إليه بطرقه ، وهو قبيح . والله تعالى معزه عن فعل العبيح بدليل :  
 « وَمَا أَعْطَاهُمُ الْيَمِينَ » . « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ » . « إِنَّ  
 اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ » الخ ما ظال : ثم أول إسناد الختم إلى الله يأت الكلام

استمارة أو محارز . على معنى أن الشيطان هو الخاتم أو الكافر ، وأسند إلى الله تعالى لأنه هو الذي أقدره ومكّنه . وهذا المذهب يازمه في نظر أهل السنة أمور كلها باطلة :

( منها ) مخالفة الدليل القلي القائم على وحدانية الله تعالى ، وأنه لا شيء من الكائنات إلا وهو أثر من آثار القادر لا غيره .

( ومنها ) مخالفة الدليل القلي كقوله تعالى : « اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » .

( ومنها ) القول بأن هذه الأشياء ، نفذ فيها مراد الشيطان أو الكافر ، بخلاف مراد الله . وهذا أشنع ما يقال :

( ومنها ) قياس الثائب على الشاهد ، إذ جعلوا للنس من قبول الحق قبيحاً من الله قياساً على قبحه منا .

( ومنها ) الجهل بحقيقة الظلم . وحقيقته أنه التصرف في ملك الغير بغير إذنه . ولا ملك إلا لله . « لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » . « إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا » فلا ظلم في ضله تعالى على أي وجه كان .

( ومنها ) أن ما عسكروا به من أقوال العباد لو كانت مخلوقة لله تعالى لما نساها عليهم ، ولما عاقبهم بها . ولما قامت له حجة عليهم ، كل ذلك مبني على قاعدتهم الخاطئة من التحسين والتفويض العقلين ، وعلى قياسهم الثائب على الشاهد كما سبق ، وكلا هذين لا يسلم هم ، ثم يرد عليهم بالمثل فيقال لهم : يوجب من الشاهد أن يمكن غيره من فعل شيء ثم يعاقبه عليه ، فكذلك العذاب . وأنتم تقولون إن القدرة التي يخلق بها العبد فعله في دفعكم هي مخلوقة لله تعالى مع علمه بما سيفعله العبد بها . ولا ينبغي أن ذلك بمثابة إعطاء سيوف لمن يبيع به على الناس ، وذلك قبيح في الشاهد ، فهو قبيح في الثائب . وما يجيبون به عن هذه نجيبكم به عن تلك . فالجواب هو الجواب .

(٤) ويقول في تفسير قوله تعالى «فَمَنْ رُخِرَ عَنِ التَّائِبِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ»  
 مانصه : ولا غاية للصور وراء الحجة من سخط الله والعداب السرمدي وبيل رصوا الله  
 والنعيم المخلد اهـ . وأنت ترى أن في ذلك تعريضا ، بإسكار رؤية الله ؛ إذ يصرح بأن النجاة  
 والرصوا والنعيم لا غاية للصور وراءها مع أنه لم يذكر الرؤية . وقد صرح بإنكارها في  
 سورة الأنعام إذ قال في تفسير قوله تعالى : «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ»  
 مانصه : البصر هو الجوهر اللطيف الذي زكّبه الله في حاسة النظر ؛ به تدرك المبصرات  
 قاله أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه ، لأنه متعل عن أن يكون مبصرا في ذاته ،  
 إذ الأبصار إما تتعلق بمـا كان في جهة أصالة أو تبعاً ، وذلك كالأجسام  
 والهيئات اهـ .

وبرد عليه أهل السنة (أولا) بأن الإدراك المنفي عبارة عن الإحاطة . ومما قوله  
 تعالى «حَقِّ إِذَا أَدْرَكَهُ الْمَرْقُ» أي أحاط به . وقوله سبحانه حكاية عن قوم موسى :  
 «إِنَّا لَمُدْرِكُونَ» أي مُحاطٌ به . فالمنفي إذن عن الأبصار إحاطتها به عز وجل ، لا مجرد  
 الرؤية . ومن المعلوم أنه تعالى لا تحيط به الأوهام ؛ وهذا لا يمنع أن نعرفه . فالإحاطة  
 للعقل ونفية كنفى الإحاطة للبصر . وما دون لإحاطة من المعرفة للعقل والرؤية للبصر ،  
 ثابت غير منفي .

(ثانياً) أن الزنخري لم يذكر على إحاطة الرؤية عقلاً دليلاً ولا شبه دليل ، سوى  
 أنه استبعد أن يكون المرئي لافي جهة . وهذا تعارضه بالمثل فنقول : يلزمكم استبعاد أن  
 يكون الموحود لافي جهة ، إذ الاتباع للوهم يبعدها جميعاً ، والافتقار للعقل يبطل هذا الوهم  
 ويحيرهما معاً

وحسبنا هذا محل النقاش بين أهل السنة والمعتزلة طويل وميدان الأحد والرد بينهما  
 علم انكلام ، فارفع إليه إن شئت المزيد عصمى الله وإيدك من الزلل ، ووفقنا لتمام  
 في الاعتقاد والعمل ، آمين .



كتاب ترجمه القرآن عن المطاعن :

مؤلفه هو القاضي عبد الجبار بن أحمد بن الخليل . وكيفية أبو الحسن البغدادي رجع  
عن الكلام ، وفق أهل زمانه ، ووضع كتباً جلية ، وإليه انتهت رئاسة لعزلة ومشيعتها ،  
صاروا يأخذون برأيه ، ويعتمدون على كتبه ، إلى أن توفي سنة ٤١٥ هـ خمس عشرة  
وأربع مائة . وله مصنفات كثيرة ، من أهمها كتابه هذا : « تنزيه القرآن عن المطاعن » .  
وهو مرتب على مسائل تتضمن سؤالا وجوابه ، ولم تكن همه تفسير القرآن ،  
بل كان كل هم ، موجها نحو تأييد مذهبه . لذلك تراه لم يفسر جميع القرآن ، بل يذكر من  
السورة الآية التي يستطيع أن يؤوطها على مقتضى عقيدته ويؤيد بها مذهب المعتزلة على نخط  
حامل الزمخشري في الأمثلة التي بين يديك . وهذا الكتاب يحتوي كثيرا من الفوائد على  
رغم أنه مذهب المذاهب وعدم عمايته ، التفسير كما يجب .

### ق - تفاسير الباطنية

الباطنية قوم رخصوا الأحد بظاهر القرآن وقالوا : القرآن ظاهر وباطن ، ومراد منه  
باطنه دون ظاهره . ويستدلون بقوله تعالى : « قُصِّرَتْ بَيْنَهُمْ سُورَةُ آتَابَ بِاطْنُهُ فِيهِ  
الرَّحْمَةُ وَالْغَيْبُ مِنْ قَبْلِ الْمَدَابُ » . وهم فرق متعددة على المثال الآتي .

١ - لقرامطة : نسبة إلى حمدان قرامط إحدى قرى واسط ، وهو الذي ترجمهم فيما  
دهوا إليه .

٢ - الإسماعيلية : نسبة إلى إسماعيل أكبر أولاد جعفر الصادق ، وذلك لأنهم  
كانوا يعتقدون الإمامة فيه . وقيل إنهم سموا إسماعيلية ، لأنهم أتوا إلى محمد بن إسماعيل .

٣ - السبعية : نسبة إلى عدد السبعة ذلك لأنهم يعتقدون أن في كل سبعة إماماً يقتدى به .

٤ - الحرمية : نسبة إلى الحرمه وذلك لأنهم يستنبطون الحرمات

٥ - الناكية : نسبة إلى رعيهم بابل الخرمى الذى خرج بأدريجار .

٦ - المحمرة : سموا بذلك للنسبهم الحمره .

ومذهب الناطلية على عمومته ومن انتقل إليهم بطريق العدوى من الخووس ومن تأويلاتهم العاسدة في القرآن أنهم يقولون في تفسير قوله تعالى : «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ» : إن الإمام عليّ وَرِثَ النبي في علمه .

ويقولون : معنى الحماة أنها صادرة المستعجب بإقضاء انسر قس أن ينال رتبة الاستحقاق . ومعنى الفضل تحديد العهد على من فعل ذلك ومعنى الطهارة التبري من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام ومعنى انيئتم . الأخذ من المأذون إلى أن يشاهد الداعى الإعدام ، ومعنى الصيام : الإمساك عن كشف السر .

ويقولون : إن ( الحكمة ) هي النبي ﷺ ، ( والباب ) عليّ ، ( ولصفا ) هو النبي ، ( والمروة ) عليّ ، ( وبار إرهم ) هي عصا الخمرود عليه ، ( وعصا موسى ) هي جعته . إلى غير ذلك من الخرافات التي لا يقبلها عقل ولا يؤيدها نقل .

وهذه الغزوات العاسدة من أشد وأسى ما يصاب به الإسلام والمسلمون ؛ لأنها تؤدى إلى نقص بناء الشريعة حجراً حجراً ، وإلى الخروج من ريشة الإسلام وحلّ غمره عروة عروة ، ولأنها تجعل القرآن ولغة فوضى فاحشة يقال فيها ما شاء الهوى أن يقال ، كأنهما نعو من الكلام ، أو كلاً مناح للنهائم والأفهام وأخيراً يفرط عقد المسلمين ، ويكون ناسهم بينهم من حراء هذا باعث تلك الصوائط لديية السكرى ،

والحفاظ الأدبية المعطى ومادام بكل واحد أن يفهم من القرآن ما شاء منه الهوى والشهوة دون اعتصام بالشريعة ، ولا التزام لقواعد اللغة ، لم يعد القرآن قرآناً ، وإنما هـا الهوى والشهوة محض .

لهذا شرطنا في التفسير ما شرطنا وفي مقدمة شروطه التزام قوانين الشريعة والتزام قواعد اللغة العربية . أما التزام قوانين الشريعة فلكيلا تنهات المصوص ونقاطص التعاليم .

وأما التزام قواعد اللغة فلأن القرآن نزل بلسان عربى مبين . ويقول مبرله جل " شأه : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » وقضية عربيته هذه أن يفهم على قوانين لغة العرب ، وإلا فلا يرحى أن يعقل ما فيه ، ولا أن يفهم ما يحويه . وذلك معنى قوله : « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » بعد قوله « عَرَبِيًّا » .

### ر - تفاسير الشيعة

الشيعة طائفة كبيرة تانت في حبها للإمام على وتقديرها إياه ، ولطاعته والإسراف حتى في النصائل يعود بها إلى الرذائل . ولهذا يقول علماء الأخلاق العصية وسط بين رذلتين . ويقولون : إذا خرج الشىء عن حده عاد إلى صده .

ومن هنا أمر الإسلام بالاعتدال حتى في حب النبى ﷺ وتقديره يقول الله تعالى لنبى ﷺ : « قُلْ لَا أُمْنِيكَ لِمَقْبَرِي نَعْمًا وَلَا صَرْفًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ . وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَفَزْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّيَ السُّوءُ إِنَّا إِنَّا لَا نَدِيرُ » وَتَشِيرُ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ويقول النبى ﷺ لأمة : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم . ولكن قولوا عبدُ الله ورسوله » .

وسكن الشيعة بالنوا وأسرفوا في حب الإمام وتقديره . وهم فرق فقيم من أعرق في نفس القشيع حتى كثر . وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن سبأ اليهودي عدو الله الذي ما أظهر الإسلام إلا بقصد الكيد والإفساد فيه . ولهذا كانت تلك الفرقة في موقف حصومة وحرب من المسلمين . حتى ورد أن الإمام علياً نفسه شنّ العدة عليهم وحاربهم وطاردهم .

ومهم قوم معتدلون لم يقطوا في هاوية الكفر ، وإن خالفوا أهل السنة والجماعة في تفصيل أبي بكر و عمر وعثمان ، وتدينهم على الإمام علي في الخلافة رضي الله عنهم أجمعين وهؤلاء مدافع ودراست ، وكتب وتفسيرات ، وأدلة وأويلات .

ومن تفاسير الشيعة كتاب يسمى :

مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار .

مؤلفه يدعى للولي عبد اللطيف الكارلاني من النجف . وهذا التفسير مشتمل على تأويلات تشبه تأويلات الباطنية السابقة . فالأرض يضرها بالكين ، وبالأمّة عليهم السلام ؛ والشيعة ، وبالقلوب التي هي محل العلم وقراره ، وبأخبار الأمم الماضية الخ فيقول في قوله تعالى : « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِمَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا » لمعاد دين الله وكتب الله . ويقول في قوله : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ » للراد أو لم ينظروا في القرآن الخ فأنت ترى أنه قد حل اللفظ الذي لا يحل أحد على معان عربية من غير دليل . وما حله على ذلك إلا مركب الهوى والتعصب الأعمى للدعي . وذلك لا شك ضلال لا يقل عن ضلال الباطنية ولا البهائية .

« وَمَنْ يُضِلِّي اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ حَافٍ » .

## ش - التفسير الإشاري

هو تأويل القرآن بمير ظاهره لإشارة حكمة تظهر لأرباب السلوك والتصوف، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضاً .

وقد اختلف العلماء في التفسير المذكور ، فمنهم من أجازوه ومنهم من منعه . وإليك شيئاً من أقوال العلماء لتعرف وجه الحق في ذلك :

قال الزركشي في البرهان : كلام الصوفية في تفسير القرآن قيل : إنه ليس بتفسير ، وإنما هو معاني ومواجيد يجدونها عند التلاوة ، كقول بعضهم في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ » إن مراد النفس . يريدون أن علة الأمر بقتال من يلينا هي القرب ، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه

وقال ابن الصلاح في فتاويه : وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدى المفسر أنه قال : صنف أبو عبد الرحمن السمعى حقائق في التفسير ، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كبر . قال ابن الصلاح : وأنا أقول : الظن عن يورق به منهم إذا قال شيئاً من ذلك أنه لم يذكره تفسيراً ، ولا ذهب به ، مذهب الشرح للكلمة ، فإنه لو كان كذلك كانوا قد ملكوا ملك ابطنية ، وإما ذلك منهم تظاهر لما ورد به القرآن . فإن الظن يذكر بالظنير . ومع ذلك فباليتم لم يتماثلوا بمثل ذلك لما فيه من الإيهام والالتباس .

وقال السمعى في عقائده : « المصوص على ظواهرها : والعقول عنها إلى معاني بدعها أهل الدائل إلحاد » ١ هـ . قال التفتازانى في شرحه : سمعت الملاحدة باطنية لادعائهم أن المصوص ليست على ظواهرها ، بل لها معاني لا يعرفها إلا الملم . وقصدهم بذلك نفي الشريعة

بالسكية قال : وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ، ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السالك يمكن التوفيق بينها وبين الطواهر المرادة ، فهو من كمال الإيمان ، وبعض العرفان .

ومن هنا يعلم الفرق بين تفسير الصوفية المسمى بالتفسير الإشاري ، وبين تفسير الباطنية الملاحدة . فالصوفية لا يعمنون إرادة الظاهر ، بل يحضون عليه ويقولون : لا بد منه أولاً . إذ من ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم الظاهر ، كن ادعى بلوغ سطح البيت قبل أن يجاوز الباب .

وأما الباطنية فمنهم يقولون : إن الظاهر غير مراد أصلاً ، وإنما المراد الباطن . وقصدهم نفي الشريعة .

ونقل السيوطي في الإتيان عن ابن عطاء الله في لطائف اللغات ما نصه : أعلم أن تفسير هذه العائقة لكلام الله وكلام رسوله بالماضي القريبة ، ليس إحالة لظاهر عن ظاهره ، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان . ولهم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث أن فتح الله قلبه . وقد جاء في الحديث : ( لكل آية ظهر وبطن ) . فلا يصح أن نلقى هذه المعاني منهم ، أن يقول لك ذو جدل ومعارضة : هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله ﷺ . فليس ذلك بإحالة . وإنما يكون إحالة لو قالوا : لا معنى للآية إلا هذا . وهم لم يقولوا ذلك بل يقررون الظواهر على ظواهرها ، مراداً بها موضوعاتها ، ويذهبون عن الله ما ألهمهم الله .

منعوظة :

لعل من المناسب هنا أن نقول إليك عبارة عن السيوطي في بيان معنى ظهر الآية وبطنها ، وحد الحرف ، ومطلع الحرف . قال نور الله ضريحه : « فإن قلت » . قد قال العرياني . حدثنا سعيان بن يونس بن عبيد عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ولكل حد مطلع » قلت : أما الظاهر والباطن ففي معناه أوجه :

( أحدها ) أنك إذا بحثت عن باطنها ، وقست على ظاهرها ، وقعت على معانيها .  
( الثاني ) أنها من آية إلا عمل بها قوم ، ولما قوم سيميلون بها ، كما قال ابن مسعود  
( للثالث ) أن ظاهرها لفظها ، وباطنها تأويلها .

( الرابع ) قال أبو عبيدة : - وهو أنسبها بالصواب - إن القصص التي قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ، ظاهرها الإخبار بهلك الأولين وحديث حدث به عن قوم ، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كمن فعلهم ، فيعمل بهم مثل ما عمل بهم .

وحكى ابن النقيب ( قولاً خامساً ) : أن ظاهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر وباطنها ما تضمنته من الأسرار التي أطلع الله عليها أرباب الحقائق . -

ومعنى قوله ( ولكل حرف حد ) أي منتهى فيما أراد الله من معناه . وقيل : لتكمل حكم مقدار من الثواب والعقاب .

ومعنى قوله : ( ولكل حد مطلع ) لكل غاية من المعاني والأحكام مطلع يتوصل به إلى معرفته ، ويوقف على المراد به . وقيل : كل ما يستحق من الثواب والعقاب يطالع عليه في الآخرة عند الجزاء . وقال بعضهم : الظاهر التلاوة والباطن اللهم والحد أحكام الحلال والحرام ، وللطالع الإشراف على الوعد والوعيد . قلت : يؤيد هذا ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : إن القرآن ذو شجون ونور ، وظهور وعلون لا تنقضي عجائبه ، ولا تُبلى غايته ، فمن أوغل فيه ، بقرعها ، ومن أوغل فيه جفف هوى ، أخبار وأمثال . وحلال وحرام ، وناسج ومسوح ، وحكم ومقتضاة . وظهر وبطن : فظهره للتلاوة ، وباطنه للأوويل

مخالصوا به اعماء ، وحاسوا به لسعواء اه غير أن الوجه الأول الذي نعه السيوطي في  
معنى الظهور والظن ليس بواضح . وإذا التمس له بعض الاحتمالات تشابه أو اتحد بما بعده  
من الأقوال والقول الخامس متحد كذلك مع الثالث أو قريب منه فتأمل .  
شروط قبول التفسير الإشاري

بما تقدم يعلم أن التفسير الإشاري لا يكون معصوماً إلا بشروط خمسة وهي :

(١) ألا يقتضى وما يظهر من معنى المظم السكر

(٢) ألا يُدعى أنه مراد وحده دون الظاهر .

(٣) ألا يكون ثابواً لا بعيداً صحيحاً ، كتفسير بعضهم قوله تعالى : « وَإِنَّ أَفْقَهُ أَمَحٌ »

« الخسرين » بحمل كلمة « لمع » ماصيةً وكلمة « الخسرين » معنوية

(٤) ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي

(٥) أن يكون له شاهد شرعي يؤيده

كذلك اشترطوا . بيد أن هذه شروط مبدئية ، ويمكن الاستبعاد الأول عن الثالث ،

والخامس عن الرابع ونحس ملاحظه شرطين بذلما أحدهما يعني موضوع اللفظ

السكراني أولاً فذهبوا إلى أن يكون من وراء هذا التفسير الإشاري آشوش على التفسير له

وسواءً يثبت في صيغته وفي كلام المراد منه ، فقرر هذين الشرطين

ثم إن هذه شروط نسوية بمعنى عدم رخصه لحسب ، وليست شروطاً لوجوب اتساعه

والأخذ به ذلك لأنه لا يثبت في وظاهر الأمر ، ثم إن به شاهداً يعضده من الشرع ،

كل ما كان كذلك لا يرفض وإن لم يحب الأحدث به لأن المظم السكراني لم يوضع

للدلالة عليه ، بل هو من قبيل الإلهامات التي يوح لأصحاب غير معصومة به ، ولا مقيدة

خوابين



## أهم كتب التفسير الإشاري

وأهم كتب التفسير الإشاري أربعة: تفسير النيسابوري، وتفسير الألوسي، وتفسير

الفسري، وتفسير يحيى الدين بن عربي.

(١) أما تفسير النيسابوري: فقد تقدم الكلام عليه، وبقى أن نذكر لك عنه أنه بعد أن يوفى الكلام على ظاهر معنى الآية أو الآيات بقول: قال أهل الإشارة. أو بقول: (العاويل) ثم يسوق المعنى الإشاري لتلك الآية أو الآيات تحت هذا العنوان. مثال ذلك أنه قال بعد التفسير الظاهر لقوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ أَنْ تَدْخَبُوا بَقَرَةً الْآيَاتِ. قال مانصه: «العاويل: ذبح البقرة إشارة إلى ذبح النفس الشهوية، فإن في ذبحها حياة القلب الروحاني، وهو الجهاد الأكبر: «مُوتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا».

« أَقْتُلُونِي بِأَنْفَاقِي إِنْ فِي قَتْلِي حَيَاتِي  
وَحَيَاتِي فِي سَمَاتِي وَتَمَاتِي فِي سَمَاتِي »

مُتْ بِالْإِرَادَةِ تَحْيَى بِالطَّبِيعَةِ. وقال بعضهم: مُتْ بِالطَّبِيعَةِ تَحْيَى بِالْحَقِيقَةِ «مَا هِيَ؟ إِنَّهَا بَقَرَةٌ»: نفسٌ تصلح للذبح بسيف الصدق، «لَا قَارِضَ» في سن الشيخوخة، فيمجهز عن وظائف سلوك الطريق لضعف القوى البدنية، كما قيل: الصوفي بعد الأربعين بارد. «وَلَا يَكْرَهُ» في سن شَرُّخِ الشباب، يستهويه سكره. «عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ» لقوله تعالى: «حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً» «بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ» إشارة إلى صفرة وحوه أصعب الرياضات. «فَأَقْبَعَ لَوْهَا» يرمد أنها صفرة زين، لاصفرة شين فيها سلب الصالحين «لَا دَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ»: لا تحمل ذلة الطمع، ولا تثير ماله الخرص أرض الدنيا بطلب راحتها ومشتبهاتها «وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ» ولا تسقي حرث الدنيا بطلبها وجهه عند الخلق؛ وعاء وحاحته عند الخالق، فيذهب ماؤه عند الحق وعند الخلق. «مُسَلَّمَةٌ» من آفات صفاتها، ليس فيها علامة طلب غير الله «وَمَا كَادُوا يَمْعُنُونَ» تقتضى الطبيعة،

لولا فضل الله وحسن توفيقه :

« وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا » يعنى القلب . « فَأَدَّارَ أَنْتُمْ » فاحتلتكم أنه كان من الشيطان .  
 أم من الدنيا أم من النفس الأمارة « قَتَلْتُ أَصْرِيؤُهُ بِبَعْضِهَا » ضرب لسان البقرة  
 المدبوحة بسكين الصدق على قتل القلب عداومة الذكر ، يعنى بإذن الله ، وقال « إِنَّ  
 النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ »

« وَإِنَّ مِنْ لَاحِجَاتِهِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ لَأَنْهَارٌ » مراتب القلب فى لقوة مختلفة :  
 قالى يتفجر منها الأنهار فوب يظهر عليها لغليان أنوار الروح بترك الهذات والشهوات  
 بعض الأشياء المشبهة بخرق العادات ، كما يكون لبعض الرهبان والحنود . واللى تشق  
 فيخرج منها الماء ، هى التى يظهر عليها فى بعض الأوقات عند انخراق الحجب البشرية من  
 أنوار الروح فيريه بعض الآيات والمعاني المعقولة ، كما يكون لبعض الحكماء ؛ واللى تهبط  
 من حشة الله ما يكون لبعض أهل الأدبان والمبل من قبول عكس أنوار الروح من وراء  
 الحجب فيقع فيها الخوف والخشعة .

وهذه المراتب مشتركة بين المسلمين وغيرهم . والفرق أنها فى المسلمين مؤيدة بنور  
 الإيمان ، فيزيدون فى قربهم وقلوبهم ودرجاتهم ، وغيرهم ليست مؤيدة بالإيمان ، فيزيدوا  
 فى غرورهم وعجزهم وعدم واستدراجهم ، والمسلمون محتصون بكرمات وفراشات تظهر لهم  
 من تجلى أنوار الحق ورؤية برهانه .

فإراءة الآيات للخواص « سُبْحَانَهُمْ أَكَانَتْ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ » . « وَيُرِيكُمْ  
 آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » لكن إراءة البرهان لأخص الخواص كالخاصة فى حق يوسف  
 « تَوَلَّى أُرْ رَأَى رُءُوسَ رُءُوسٍ » .

مثل الحسن بن منصور عن البرهان فقال : واردات ترد على القلوب ، فتعجز القلوب

عن تكذيبها . والله أعلم اهـ

( مثال ثان ) قال النيسابورى أيضا قد تفسر قوله تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ » مانعه : « التأويل » مساجد الله التى يذكر فيها اسمه عند أهل النظر ، النفس ، والقلب ، والروح ، والسر ، والخطى وهو سر السر . وذكر كل مسجد منها مناسب لذلك السجد . وذكر مسجد النوى الطاعات والعبادات ، ومنع الذكر فيه بترك الحسنات وملازمة السيئات . وذكر مسجد القلب التوحيد والتميز ، ومنع الذكر فيه بالتفكير بالشبهات ، والتعلق بالشهوات ، فكل القلوب المعلقة بالشهوات عقولها عن محسوبة . وذكر مسجد الروح بالتشوق والمحبة ، ومنع الذكر فيه بالخطو وذو السمكات . وذكر مسجد السر للراقبة والشهود ، ومنع الذكر فيه بالركون إلى السكرات . وذكر مسجد الخطى وهو سر السر ، بذل الوجود ، وترك اللوجود . ومنع الذكر فيه بالاتفات إلى المشاهدات والمكاشفات الخ ما قال .

( ٢ ) وأما تفسير الألويسى فاسمه روح المعاني . ومؤلفه العلامة المحقق شهاب الدين السيد محمد الألويسى البغدادي متوفي سنة ١٢٧٠ هـ . سبى من ومائتين وألف . وهذا التفسير من أجل التفاسير وأوسعها وأجمعها . نظم فيه روايات السلف بحساب آراء الخلف المقبولة . وألف فيه بين ما يفهم بطريق العبارة وما يفهم بطريق الإشارة رحمه آراء الخلف المقبولة . وألف فيه بين ما يفهم بطريق العبارة وما يفهم بطريق الإشارة رحمه الله وتجاوز عنه .

ومما قاله في التفسير الإشاري بعد أن فسر قوله تعالى : « وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى إِنَّ نُورُونَا لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ، فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » إلى آخر الآيات بعدها . قال مانعه :

ومن مقام الإشارة في الآيات : « وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى الْقَلْبُ ، لَنْ نُؤْمِنَ إِلَّا بِإِيمَانِ الْخَطِيقِ حَتَّى نَصِلَ إِلَى مَقَامِ الشَّاهِدَةِ وَالْبَيَانِ . فَأَخَذَتْكُمْ صَاعِقَةُ الْمَوْتِ الَّتِي هِيَ الْقَاءُ فِي النَّحْلِ الدَّائِي وَأَنْتُمْ تَرَامِقُونَ أَوْ تَشَاهِدُونَ . ثُمَّ يَمْتَنِّكُمْ بِالْحَيَاةِ الْخَطِيقَةِ . وَالْقَاءُ عِدَّةُ الْمَاءِ ،

لكي تشكروا نعمة التوحيد والوصول بالسلوك في الله عز وجل . وظللتنا عليكم غمام تحمل الصفات ، لسكونها ، حجبتم الشمس ، الذات ، الخ ما قال .

( مثال ثان ) : قال بعد تفسير قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا قَوْصَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ يَتُوبَ وَإِذْ كُرِّرُوا مَا فِيهِ لَكُمْ تَنْتَوُونَ » قال ما نصه :

وإذ أخذنا ميثاقكم التأخوذ بدلائل العقل ، توحيد الأفعال والصفات ، ورفعنا قوفكم طور الدماغ ، لتتمكن من فهم للماني وقبولها . أو أشار سبعائه بالطور ، إلى موسى القلب ، ورفعنا إلى علوه واستيلانه في جر الإرشاد والشرائع لكي تتقوا الشرك والجهل والنسق ، ثم أعرضتم بإقبالكم إلى الجهة السفلية بعد ذلك . فلا حكمة الله بامهاله ، وحكمه بفضله ، لعاجلتكم العقوبة ، ولحل بكم عظيم العذبة .

« إلى الله يُدعى بالبراهين مَنْ أُنِيَ »

فَإِنْ لَمْ يُجِبْ ، مَا دَنَتْ يَبِضُ الصُّوَارِمِ »

فهذه الإشارة إنما برفها ذو الواحد والشاهدة ، وهي لأصعابها رياض بانمة ؛ وأنوار لامة . ا هـ .

( ٣ ) تفسير القسري : هو أبو محمد سهل بن عبد الله القسري المتوفى سنة ٣٨٣ ثلاث وثلاثين وثمانمائة وتفسيره هذا لم يستوعب كل الآيات ، وإن استوعب السور ، وقد سلك فيه مسلك الصوفية مع موافقته لأهل الظاهر . وإليك نموذجاً منه إذ يقول في تفسير المسبطة ما نصه : -

( الداء ) ساء الله عز وجل . ( والسين ) سناء الله عز وجل . ( واليم ) حمد الله عز وجل . ( والله ) هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها . وبين الألف واللام

منه حرف مكى عيب إلى غيب ، وسر من سر إلى سر ، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة لا يقال فيه إلا الطاهر من الأدناس ، الآخذ من الحلال قواما ضروره الإيمان .

( والرحمن ) اسم فيه خاصة من الحروف للسكنى بين الألف واللام . ( والرحيم ) هو العاطف على عباده بالرزق في الفرع ، والانتداء في الأصل ، رحمة لسابق هذه القديم . قال أبو بكر : أى بنسب روح الله اخترع من ملكه ما شاء رحمة لأه رحيم وقال صلى الله عليه وسلم : أى طالب رضى الله عنه : الرحمن الرحيم . اسمان رفيقان أحدهما أرق من الآخر . فنفى الله بهما القنوط عن المؤمنين من عباده ٥١ .

ومن تفسيره بما هو قريب من المعنى الظاهر قوله في تفسير الآية الكريمة .

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخْبِتُ النُّجُومَ » الخ ما مره :-

أمكن شاكاً في إيمانه حتى سأل ربه أن يريه آية معجزة ليصح معها إيمانه ؟ فقال سهل : لم يكن سؤاله ذلك من شك ، وإنما كان طالباً لريادة اليقين ، بيقيناً في قدرة الله ونعمته في خلقه . ألا تراه كيف قال : « أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَتْ بَلَى » فلو كان شاكاً لم يحب بلى . ولو علم الله منه الشك وهو أحير ببلى وسر الشك ، فكشف الله ذلك : إذا كان مثله محالاً يخفى ٥١ .

وهذا الكتاب صنفه الحليم ، غير أنه غزير المادة في موضوعه ، مشتمل على كثير من علاج الشبهات ، ودفع الإشكالات . يقع في نحو من ٣١٤ أربع عشرة وثلثمائة صفحة وهو مطبوع عصر .

(٤) - سير ابن عربى : هو عبد الله محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله .

محبي الدين بن عربى ، الحاتمي ، الصوفي ، الفقيه ، المحدث . ولد بمصر سنة ٥٦٠ هـ وتوفي في دمشق سنة ٦٣٨ هـ وتلحين وستانة .

ومن مصنفاته كتاب الجمع والتفصيل ، في إبداء معاني التفسير . ومنها إيجاز البيان  
في الترجمة عن القرآن . وقد طبع تفسيره في جزأين بالطبعة الأميرية سنة ١٢٨٧ هـ سبع وثلاثين  
جواناً من الألف ، وقد قال في خطبته مانعه :

قد ذكرت خبراً قد أتاني فاردعاني ، مما وراء المقاصد والأمانى ، قول النبي الأمي  
الصادق ، عليه أفضل الصلوات من كل صامت وناطق : « ما من القرآن آية إلا ولها ظهير  
وبطن ، وبطن كل حرف حد ، ولكل حد مطلع » . وفهمت منه أن الظهير هو التفسير ، والبطن  
هو التأويل ، والحد ما ينتهي إليه الفهم من معنى الكلام ، والمطلع ما يصعد إليه منه  
فيطلع على شهود الملك العلام .

وقد نقل عن الإمام الخليلي السابق ، جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال :  
لقد نبلي الله تعالى لعباده في كلامه ولكن لا يهتدون . وروى عنه عليه السلام أنه  
سُئل : « ما من آية إلا لها حظان » فقال : « ما من آية إلا لها حظان » .

قال : فرأيت أن أعلق بسمى ما يستعمل في الأوقات ، من أسرار حقائق البطون ،  
وأوار شوارق الكائنات ، دون ما يتعلق بالظواهر والحدود ؛ فإنها قد عين لها حظان  
محدود . وقد قيل : « من فسر القرآن برأيه فقد كفر » وأما التأويل فلا يبقى ولا يذر ،  
فإنه باختلاف أحوال المستمع وأوقاته ، في مراتب سلوكه وتفاوت درجته . وكلما رُفِّي  
عن معص امتنع له باب فهم جديد ، واطلع به على لطيف معنى عتيق إلى أن قال :  
« وكل ما لا يصل التأويل عندي أو لا يحتاج إليه ، فما أورده أصلاً » الخ .

ومن تفسيره الإشاري لقول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذَرُوا سَفَرَةَ »

« لَنْ يَنْفَعَكَ أَنْ تَدْعُوهُ » هي النفس الجبوية وذمها قبح هواها الذي هو حياتها ومعيها ، من الأفعال الخاصة بها شجرة سكين الرياضة . وقل في تفسير آية « وَلَسْلَيْتَ أَرَجَّ عَصِيفَةً » إلى قوله : « وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ » من سورة الأنبياء ، قال مانصه :

ولسليان الرّيح « أئى سخرنا لليمان العقل المبلى ، والتمسكن على عرش النفس في الصدر ، ربح الهوى « عاصفة » في هبوبها . « تَجْرِي بِأَمْرِهِ » عطيفة له « إلى الأرض » أرض البدن المتدرب بالطاعة والأدب . « أَلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » بتمييز الأخلاق والمسلكات العاضلة والأهوال الصالحة . « وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ » من أسباب الكمال « عَالِمِينَ » . « وَمِنَ الشَّيَاطِينِ » شياطين الوهم والتضليل ، « مَنْ يَنْوُصُونَ لَهُ » في بحر الهوى الجبائية ويستخرجون « دُررَ الماعى الجزئية » وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ » من التركيب والتفصيل والمصنوعات ، وتهيج الدوامى الكسوبات وأمثالها . « وَكُنَّا أَوْهُمْ حَافِظِينَ » من الزينج والخطأ والتسويل للباطل والكذب « وَأُتُوبَ » انفس للطمثنة المتحنة بأنواع البلاء في الرياضة ، البالغة كال الزكاء في المجاهدة « إِذْ نَادَى رَبَّهُ » عند شدة الكرب في الجدة ، وبلوغ الطاقة والوسلح في الجهد . « أَلَّتِي مَسَّيَ الضَّرُّ » من الضعف والانكار والعجز . « وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » بالتوسعة والروح . « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ » روح الأحوال من كد الأهوال ، عند كمال العلمانية ونزول الكينة « وَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ » من ضر الرياضة سور الهداية . ونسبنا منه قطعة الكرب ، بإشراف مور القلب « وَآيَاتِنَا أَهْنُ » القوى النفسية التي مسكهاها وأمتاها بالرياضة ، بإحيائها بالحياة الحقيقية « وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ » من إمداد القوى الروحانية وأموار الصفات العقلية ، ووفرنا عليهم أسباب المصائل الخلقية ، وأحوال العلوم الجامعة الخثرية « وَرَحَّةٌ مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ » اهـ

## ت - نصيحة خالصة

يبد أن هذا التفسير كما ترى، جاء كله على هذا النمط دون أن يتعرض أيان المعاني الوصفيه للمصوص القرآنية . وها الخطر كل الخطر . فإنه يخاف على مطالعته أن يفهم أن هذه المعاني الإلهية، هي مراد الخالق إلى خلقه في الهداية إلى تعاليم الإسلام، والإرشاد إلى حقائق هذا الدين الذي أرسناه لهم .

ولعلك تلاحظ على أن بعض الناس قد فتنوا بالإقبال على دراسة تلك الإشارات والخواطر ، فدخل في رؤيهم أن الكتاب والسنة بل الإسلام كله مأمى بالإسواح وواردات ، على هذا المصو من التأويلات والتوجيهات . ودرعوا أن الأمر هو ، لا تحييلات ، وأن المصو منهم هو الشطح مع الخيال أبىما شطح ، فلم يفتقدوا تكاليف الشريعة ، ولم يحترعوا فواين اللغة العربية في فهم أبلغ النصوص العربية : كتب الله وسنه رسول الله ﷺ .

والأذهى من ذلك أنهم يتخيّلون ويحيلون إلى الناس ، أنهم هم أهل الحقيقة الذين أدركوها بعدة ، وانصروا بالله اتصالاً أحفظ عنهم التكليف ، وسماهم عن حصيص الأجر بالأسباب ، مداموا في زعمهم مع رب الأرباب . وهذا - لعمر الله - هو اللصاب العظيم ، الذي عمل له انطسه وأضرابهم من أعداء الإسلام ، كما يهيموا القشرع من أصوله . ويأتون سيانه من فواعده « يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ . وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَبِأُكْرَهَ الْكَافِرُونَ » .

فواحب الصبح لإخواننا المسلمين ، نقصينا أن نحدّرهم الوقوع في هذه الشباك ، ونشير عليهم أن سمعوا أديهم من أمثال تلك التعاسير الإشارية للتوعية ، ولا يملؤوا على أشباهها معارود في كلام القوم بالكتب الصوفية . لأنها كلها أذواق ومواجيد، خارجة



عن حدود الضغط والتقييد . وكثيراً ما يحتلط فيها الخيال بالحقيقة والحق بالباطل . وإذا  
تحدث من ذلك قلما يظهر منها مراد القائل . وإذا ظهر فقد يسكون من انكساربات  
الحشة ، التي تسبب صدورها من الطماء والمتصوفة بل من صدق عامة المسلمين  
والتي يرى الطمن فيها بالفس والوضع ، أقرب وأسلم من الطمن فيس غررت إبيه بالكفر  
والعشق

فالأخرى بالطمن للعاقل ، أن تنأى بنفسه عن هذه الزايق ، وأن يفرّ مذنبه من هذه  
الشبهات وأمامه في الكتاب والسنة وشر وجهها على قوانين الشريعة والاعتقادات وحماة .  
« أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ » !! .

قال تعالى : « فَمَنْ اتَّبَعَ الشَّيْطَانَ فَقَدْ اسْتَمْتَرَ إِلَىٰ ذِي بَيْتِهِ وَعِزِّهِ » .

وقال تعالى : « دَعَا مِيرْيُوكَ إِلَىٰ مَالٍ بَرِيكٍ » وبالله تعالى توفيق وتوفيقك  
سأله تعالى أن يخرجنا من ظلمات الأوهام ، وأن يحققنا بحقائق الهدى وتعاليم الإسلام ،  
آمين

كلمة لحجة الإسلام الغزالي :

وأحتم نصيحتي هذه بكلمة قيمة تفصل بموضوعنا اتصالاً مائلاً ، وهي مدحة براءة  
الإمام الغزالي ، حين عرض في كتابه الإحياء للذكر والتذكير وما أدخله الناس فيهما ،  
فقال - بلل الله نراه - :

وأما الشطح فتعني به صنفين من الكلام أحدهما بعض الصوفية :

( أحدهما ) الدعوى الطويلة المربكة في العشق مع الله تعالى ، ووصول المعنى  
عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب ،  
ولشبهة الرؤية ، وللشبهة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا وقلنا كذا ، ويقشرون  
فيه بالحسين من منصور الخلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس

ويستشهدون بقوله : أنا الحق ورعا حكى عن أبي يزيد البسطامي أنه قال : سبحان  
سبحان . أم وهذا من الكلام عظيم ضرره على العوام ، حتى لقد ترك جماعة من  
أهل العافية ولاحتهم ، وأظهروا مثل هذه الدعاوى ، فإن هذا الكلام يستلذه الطمع ،  
إذ فيه البطالة من الأعمال مع تركية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تهبز الأعيان  
من دعوى ذلك لأنفسهم ، ولا من تلقب كلات مخبطة مزحرفة . ومنها أنكر عليهم  
ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجلد ، والعلم حجاب ، والجلد  
عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق . . فهذا ومثله  
عما قد استطار في البلاد شرره ، وعظم في العوام ضرره ، حتى من نطق بشيء منه فقتله  
أفضل في دين الله من إحياء عشرة . وأما أبو يزيد البسطامي رحمه الله ، فلا يصح عنه  
ما يحكى ، وإن سمع ذلك منه فعنه كان يحكيه عن الله عز وجل في كلام يردده في نفسه ،  
كانوا سمع وهو يقول : « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني » فإنه ما كان يسعى أن يفهم  
منه ذلك إلا هل سبيل الحكاية .

( الصنف الثاني من الشطح ) : كلات غير مفهومة ، لها ظواهر رائجة ، وفيها عبارات  
هائلة ، وليس وراءها طائل . وتلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها ، بل يصدرها  
عن حبط في عقله ، وتشويش في خياله ، لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه . وهذا هو  
الأكثر وإما أن تكون مفهومة له ، ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بصارة تدل  
على صبره ، لقلة ممارسته للعلم وعدم آدبه طريق التعمير عن المعاني بالأنفاط الرشيقة ولا  
قئدة لهذا المجلس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويبحر الأذهان ،  
أو يحمل على أن فهمهم معار ما أريدت ، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه  
وطبيعته . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ما حدث أحدكم قوماً يحدث لا يفقهوه ، إلا كان

فتنة عليهم <sup>(١)</sup> ، وقال <sup>(٢)</sup> : كلموا الناس بما يعرفون ، ودمسوا ما ينكرون ،  
أريدون ، أن يكذب الله ورسوله <sup>(٣)</sup> ، وهذا فيما يخصه صاحبه ولا يطلع عقل المستمع ،  
فكيف فيما لا يهمه فاته ؟ فإن كان يخصه التقاتل دون اللشع فلا يحل ذكره . وقال  
عيسى عليه السلام : « لا تغموا الحكمة عند غير أهلها فتظفونها ، ولا تغموها أهلها  
فتظفروهم ، كونوا كالطبيب الرفيق بضع الدواء في موضع الداء » وفي لفظ آخر : « لا من  
وضع الحكمة في غير أهلها فقد جهل ، ومن منعه أهلها فقد ظلم . إن الحكمة حق ، وإن  
ما أهلها ، فأعط كل ذي حق حقه » .

وأما الطامات فيدخلها ما ذكرناه في الشطح ، وأمر آخر يخصها ، وهو صرف ألفاظ  
الشرح من ظواهرها المقصودة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأنفهام فائدة ، كدأب  
الباطنية في الأقوال . هذا أيضاً حرام وضرره عظيم ، فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقصود  
ظواهرها من غير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرح ، ومن غير ضرورة تدعو إليه من  
دليل القتل ، اقتضى ذلك سلطان الثقة بالألفاظ ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام  
رسوله <sup>(٤)</sup> ، فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لا يصطقله ، بل تتلخص  
فيه الغواطر ، ويمكن تنزيله على وجوه شتى . وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر  
وإنما قصد أصحاب الإعراب ، لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستعدة له . وبهذا الطريق  
توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها ، وتزويلها على رأيهم ، كالحكيما  
من مدامهم في كتاب المستظهرى للصنف في الرد على الباطنية .

(١) هذا الحديث رواه مسلم في مقدمة صحيحه ، موقوفاً على ابن مسعود . ورواه  
المقط في الضعفاء .

(٢) هذا الحديث رواه البخارى موقوفاً على علي ، ورفضه أبو منصور الديلمي في مسند  
الردوس من طريق أبي نعيم .

ومثاله تأويل أهل الطائفت قول بعضهم في تأويل قوله تعالى « تَلَاهَا إِلَى فِرْعَوْنَ »  
 « تَلَاهَا طَلَى » إنه إشارة إلى قلبه ، وقيل هو المراد فرعون وهو الطاعى على كل إنسان .  
 وفي قوله تعالى : « وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ » أي كل ما يشركا عليه ويستعده مما سوى الله عز  
 وجل فيمنى أن يلقيه . وفي قوله عَلَيْهِ السَّلَام : « تَسَحَّرُوا بِهِ فِي الشُّعُورِ وَكَذَلِكَ <sup>(١)</sup> »  
 أراد به الاستغفار في الأسحار ، وأمثال ذلك حتى ليحرفون القرآن من أوله إلى آخره  
 عن ظاهره ، وعن تفسيره المقول عن ابن عطية وحائز العلماء . وبعض هذه التأويلات  
 يعلم بطلانها قطعاً ، كتأويل فرعون على القلب ، فإن فرعون شخص محسوس تواتر إليها  
 النقل بوجوده ودعوة موسى له ، كأي حيوان وأبي لهب وغيرهما من الكفار وليس من  
 جنس الشياطين والملائكة مما لم يذكر بالحس حتى يتطرق التأويل إلى ألقائه وكذلك  
 حمل الشعور على الاستغفار ، فإنه كان صلى الله عليه وسلم يتناول الطعام ويقول :  
 « تَسَحَّرُوا <sup>(٢)</sup> » « واهلوا إلى العداء المذكور <sup>(٣)</sup> » فهذا أمور يذكر بانواتها والحس  
 بطلانها قطعاً ، وبعضها يعلم بحال الظن ، وذلك في أمور لا يتعلق بها الإحساس . فكل  
 ذلك حرام وصلاة وإسعاد المدين على الخلق ولم يبق شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن  
 التابعين ولا عن الحسن البصري مع إكسابه على دعوة الحق ووعظهم فلا يظهر لقوله  
 صلى الله عليه وسلم : « من سر القرآن رآه فليندأ مقعده من النار » <sup>(٤)</sup> معنى إلا هذا

(١) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم

(٢) هذا الحديث رواه البخاري

(٣) هذا الحديث رواه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث العرياض بن سارية .

ومعناه من التظاهر .

(٤) رواه البخاري ومسلم وقيل تنواته

الخط . وهو أن يكون غرضه وراءه تقرير أمر وتحقيقه . فيستجبر شهادة القرآن إليه ، وبحملة عليه ، من غير أن يشهد لتزيده عليه دلالة لفظية لقوية أو عقلية .

ولا يسمى أن يفهم منه أنه يجب ألا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر ، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معانٍ وحقة وسبعة ، وعلم أن جميعها عبر مسموع من النبي ﷺ ، فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع ، فيكون ذلك مستسطاً بحس الفهم وطول الفكر . ولهذا قال ﷺ لابن عباس رضي الله عنه : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » .

ومن يستعيز من أهل الطائفات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ ، ويرغم أنه قصد بها دعوة الخلق إلى الخلق ، يضاهي من يستعيز بالاحتراع والوضع على رسول الله ﷺ لما هو في نفسه حق ولكن لم ينطق به . كمن يصع في كل مسألة يراها حقاً حديثاً عن النبي ﷺ ، فذلك ظلم وضلال ودخول في الوعيد المفهوم من قوله ﷺ : « من كذب على متعمداً فلينبهوا مقتطعة من النار » . بل الشر في تأويل هذه الألفاظ أظلم وأعظم لأنه مبطل للثقة بالألفاظ وقاطع طريق الاستعادة والفهم من القرآن بالسكينة . فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعي الخلق عن القوايين المحدودة إلى المدمومة . فكل ذلك من تلييس عطاء السوء يقبيل الأسماء . فإن تمتعت هؤلاء اعتماداً على الاسم للشيور من غير التفات إلى ما عرفت في المصير الأول ، كنت كمن طلب شرف الحكمة بالتلع من يسي حكياً ، فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والنحّث في هذا المصير . وذلك بالفتنة عن تبديل الألفاظ .

ثم قال : « اللفظ الخامس - أي من الألفاظ التي وقع فيها التلييس - لفظ الحكمة فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والنحّث حتى على الذي يدحرج القرعة

على أكف السوادة في شوارع الطرق ، . والحكمة هي التي أثنى الله عز وجل عليها فقال : « بُوِيَّتِ الْحِكْمَةُ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ بُوِيَّتِ الْحِكْمَةُ فَقَدْ أُوتِيَ حَيْرًا كَثِيرًا » وقال ﷺ : « كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل حيلة من الدنيا وما فيها <sup>(١)</sup> » فانظر ما الذي كانت الحكمة عبارة عنه ؟ وإلى ماذا نقل ؟ وقس به من بقية الألفاظ واحترز عن الاختار بعدييات علماء سوء فإن شرهم على الدين أعظم من من شر الشياطين ، إذ الشياطين بواسطتهم يتدرج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق . ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن شر الخلق أتى وقال : « ألقمهم عقرأ <sup>(٢)</sup> » حتى كرروا عليه فقال : « هم عماء سوء » . فقد عرفت العلم الحمود والعلم المذموم ومدر الانقباس . وإليك نظيرة في أن تنظر لعكسك فتعدي بالسف ، أو تتدلى بحبل القرور وتشبهه بالغلف ، فكل ما ارتضاه السلف من العلم قبل المدرس ، وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث . وقد صح عن رسول الله ﷺ : « بدأ الإسلام عربيا . وسيمود غريبا كما بدأ » فطوى للغرباء فقيل : يا رسول الله ومن الغرباء ؟ قال : « الذين يصلحون ما أفسد الناس من سقي ، والذين يحبون ما أسأوه من سئتي <sup>(٣)</sup> » وفي خبر آخر : « هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم <sup>(٤)</sup> » وفي حديث آخر : « الغرباء ناس قليل صالحون بين ناس كثير . من يبيضهم في الخلق أكثر ممن يجههم <sup>(٥)</sup> » .

(١) هذا الحديث روى ابن المبارك في الزهد والرقائق مثله مرسلًا ، وفي مسند

الترمذي مسند ضعيف .

(٢) هذا الحديث رواه الترمذي في مسنده مسند ضعيف

(٣) هذا الحديث رواه مسلم من حديث أبي هريرة مختصرًا ، وهو بتمامه عند الترمذي

من حديث عمرو بن عوف وحسنه .

(٤) هذا الحديث يقول الحافظ العراقي في تحريجه . لم أر له أصلاً .

(٥) هذا الحديث رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو

وقد سارت تلك العلوم غوية بحيث يحقت ذكرها. وتلك قال الثوري رحمه الله :  
 « إنما رأيت العالم كثير الأسداء ظلم أنه عظم ، لأنه إن فطلق ناطق المنصوم »  
 انتهى كلام الإمام القزالي ، صاعف الله أجور وأحسن ذخيره ، ووهبها السلامة والله ، فيعنه  
 وكرمه ، آمين .

## ت - تفاسير أهل الكلام

كل إنسان تغلب عليه زعمته في كتابته ، ونحو عقيدته من حلال ألبه وتحديثه كما  
 قدنا وذلك هو الشأن في علماء الكلام حين تقدموا والتصير كتاب الله فالتسلي لا تحت  
 على تفسيره أنوار أهل السنة . وللقزالي فاحتمل حواش بيانه دواعي الاعتراض والتسلي  
 همت من بواحي تأويله ربح الفشيع . وهكذا .

نبد أن الفرق بينهم كبير ، في التصب أو العمد ، وفي الإيجاد أو البسط .

وقد عسى بك الحديث في تفسير المخرقة والشيعة . ورأت كيف كان الرمحشري  
 اعتراله مقتضياً مستحقاً ؟ وكيف كان القاضي عبد الجبار متعصباً مستغنياً ؟ وكيف كان  
 أبو علي عند التأليف بقتيلاً مسرفاً .

وكذلك تجد في أهل السنة أنفسهم من هو قاصد في تأييد عقيدته بتفسيره  
 كأولئك الذين ترجمهم وترجمنا تفاسيرهم من قبل ، عند الكلام على أشهر كتب التصير  
 بارأي المحمود .

ومن أهل السنة من استقبل في الدفاع عن عقيدتهم في تفسيره . وعلى رأس هؤلاء  
 الإمام محمد بن العربي ، الذي شها حارباً شعواء في كل مناسبة ، على أهل الربع

والأحرف في العقيدة وقد سلك في تفسيره « معانيح لعيب » المشهور بتفسير الضمير ،  
مسلك الحكاء الإلهيين ، فصاع أدته في مباحث الإلهيات على عطف استدلالاتهم العقيدية ،  
وسكن مع تهميدهم ، موافق أصول أهل السنة وكذلك تعرف من أشبههم باستقصاء العقيد  
في كثير من المواضع .

كما أنه سلك طريقة الطسميين في الكوينات فتكلم في الأفلاك والأجرام ، وفي السموات  
والأرض ، وفي الحيوان والنبات ، وفي أحرار الإنسان ، وغير ذلك من حرم إلهيه للاستدلال  
على وجود الله جل جلاله ، عز الله ، وشكر صديقه « والله خير الشاكرين »

### ح - مرجع العلوم الأدبية والكوبية

وعنه ، بتفسير ، وسبب ذلك ، وأثره

القرآن كتاب هداية وإعجاز ، وهديته وإعجازه صورهما اللطيفة وبشرهما في تفسيره ،  
على قدر مادية من استعداد ومقدرة ، وعلى قدر ماعدا ، من علوم ومعارف وأوصاف .

ولقد مرت على قرآن الكريم منذ روله إلى الآن عصور وقرون ، وأمم وأحزاب  
و لقرآن كما كان وكما ينبغي كتب ببشرور ، هداية ويرفع نوا ، الإعجاز ، وكان الذين  
شؤهم هو ، لأول مرة ، عرفوا كنهيتهم خصائص العروة ، ومن كانوا مع ذلك أميين  
لا إلمام لهم بالقراءة والكتابة ، ولا شأن لهم بعلوم مدرس ، ولا تكتب تقرأ

لقد وداه كان فهمهم هداية هذا الكتاب وإعجازه ، وتصويرهم له بتفسير والميان ،  
من الأمور أهمية نسبية ، الخيرية على أمطره ، لسطه ، لا تحت حوز في ذلك إلى اصطلاحات  
هنية ، ولا إلى قواعد نحوية ، ولاغية ، ولا إلى تعريبات عمية

أما إعجازه وكان معروف لهم بمحض أسبقية ، العربية ، السامية ، والدوق البلاغى الرقيق  
وأما هدايته فكانوا يفهمونها ، كذلك يقولهم الصافية ، ودكأهم ، وهوب ، وأمنهم بحرية  
الاصحى التي رل في القرآن



وإذا استبانوا فبالنظر في كتاب الكون وآيات الله في الآفاق ، وبما خلق الله فيهم وحولهم من عجائب السموات والأرض ، ثم بما يسمعون من بيان رسول الله ﷺ .

مضى الأمر على ذلك مدة . ثم جاء نصر الله والفتح ووطأت الأرض أكتافها للمسلمين ، وأغلقت راية الإسلام أمماً وشموباً لم تكن تعرف العربية ، ولكمها كانت هي ثقافة في العلوم والفنون والفلسفة . وقد اختلطت هذه الأمم المتوحدة بذلك الأمم الفاتحة ، فكان من نتائج هذا الاتصال مع امتداد الزمان أمران :

( أحدهما ) أن قدمت اللغة العربية ، وأصبح الجميع بحاجة إلى ضوابط تضبطها وتضمن سلامتها ، وتضمن الناس من الخطأ في فهم الكتاب والسنة . فنشأت بسبب ذلك العلوم الأدبية أو علوم اللغة العربية .

( ثانيهما ) أن تراجعت علوم هذه الأمم المداخلة في الإسلام وحُدَّت ونقعت وذاعت ثقافتها بين المسلمين على اختلاف أجناسهم فكان من مقتضيات الحكمة التوفيق بينها وبين القرآن من ناحية ، وفهم القرآن في ضوئها من ناحية أخرى . وإنما كان ذلك من مقتضيات الحكمة ، لأن الإسلام ليس عدواً للعلم كما يزعم الأفاكون ، بل هو صديق العلم وحليفه ، إن لم نقل كأنه هو .

بهذه الأسباب بدأت العلوم الأدبية والعلوم الكونية تتدخل في تفسير القرآن وتنتزع به على اعتبار أن هدايته وإعجازه لا يُفهمان فهماً صحيحاً كاملاً بالنسبة إليهم إلا عن طريق هذه العلوم والمعارف .

أما علوم اللغة والآداب ، فلأن بها يعرف خبط الكلمات أبييتها وهيتها وأواخرها ، ومدلولات الألفاظ على اختلاف أنواعها ؛ والإحاطة بمعاني التراكيب ، والتمييز بين

العالى والشار من الأساليب. ولاريب أن إدراك معاني القرآن، وذوق بلاعته وإبحاره، لا يتأتى لعرب العرب اخلص إلا عن هذا الطريق .

وأما العلوم الكونية، فلأن الله تعالى دعا الناس كثير أن ينظروا في هذا الكون، وحصم بقوة أن يقرروا حقيقة هذا الوجود، ليصلوا من الكون إلى مكوّناته، وليستدلوا بالوجود على موجدّه، وليتقصوا أبلغ انتفاع بتلك القوى العظيمة التي حانها لأحلامهم، وسحرها لتفهمهم . قال تعالى في سورة الجاثية : « اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِيَتَخَرَّيَ أَلْعَلَّكُمْ فِيهِ بِأَمْثَرِهِ ، وَلِيَتَّخِذُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » . وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

فلا عجب إذا فهموا تلك الألفاظ الكونية التي في القرآن على النحو الذي هداهم إليه العلم ، والثقافة التي تتفوقها في علوم الكون .

ومعلوم أن المفسر لا يفسر لنفسه ، إنما يفسر للناس ، فكان من الواجب أن يسائر أفكارهم ، ويشرح ألفاظ القرآن في الظواهر الطبيعية والطبية ، ومن الله الكونية ، وقوانين الاجتماع والسياسة، وقواعد الاقتصاد والأخلاق، وسائر التشريعات الشخصية والمدنية والجنائية والحربية ، نقول : يجب على المفسر أن يشرح ألفاظ القرآن في ذلك كله وفيما يشبهه ، بالطريقة العلمية المألوفة لهم ، وبالأفكار الغالبة عليهم الملائمة لأذواقهم وإلا فإنا بلغ رسالته ، ولا أدنى أمانته . وكيف يخاطب العالم بمير ما يهيمون ، ويدخل إليهم من غير الباب الذي يدخلون ؟ .

هذه هي الأسباب التي جعلت التفسير يمتزج بالعلوم الأدبية والكونية وغيرها، وحصنت العلوم الأدبية والكونية تحتل مكانها في كتب التفسير. وإن كان هذا الامتزاج يختلف

صعماً وقوة ، رقة وكثرة ، وتوفيقاً وخذلاناً ، باختلاف مواهب المفسرين واستعداد الجمهور ، وتقدم الزمان وتأخره في هذه العلوم .

فتناسير الزجاج وأبي حيان وأخراجهما مليئة بالمباحث للنحوية ، ونماصير الرمحشري وأبي السعود وأشباهها مليئة بالمباحث البلاغية ؛ وتفسير الخازن ومن لبّ لفه مليء بالأخبار والتقصص وتفسير الجواهر للعلامة للرحوم الشيخ طنطاوي جوهرى مليء بالعلوم الكونية وهو تفسير حديث يشتمل - كما قال صاحبه - على مجانب بدائع المكنونات ، وغرائب الآيات الباهرات . يقع في خمسة وعشرين مجلداً ، وقد تمّ طبعه بمصر عام ١٣٥٢ الثمين وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة ، رحمه الله مؤلفه وجزاه خيراً .

### آثار هذا الامتزاج :

أما آثار امتزاج العلوم الأدبية بالتفسير ، فيمكن تلخيصها فيما يأتي :

(١) بيان معاني القرآن وهداياته .

(٢) إظهار فصاحة القرآن وبلاغته .

(٣) الهدالة على وجوه إيجاز القرآن ، من ناحية الأسلوب والبيان .

وأما آثار امتزاج العلوم الكونية بالتفسير ، فيمكن تلخيصها فيما يلي :

(١) مسابقة أفكار الناس ومعارفهم ، وتفسير القرآن لهم تفسيراً يشبع حاجتهم من

الثقافة الكونية .

(٢) إدراك وجوه جديدة للإعجاز في القرآن من ناحية ما يحويه أو يرمر إليه من

علوم الكون والاجتماع .

(٣) دفع مزاعم القائلين بأن هناك عداوة بين العلم والدين .

(٤) استمالة غير المسلمين إلى الإسلام من هذا الطريق العلمي الذي يحصرون له دون

سواه في هذه الأيام .

(٥) الخشوع على الاتباع نفوى لكون ومواجهه

(٦) امداء نفس يمدد مظمة الله وقدرته حبيب صف الإله في تفسير كلام الله على

حواصن الأنبياء ودقائق الخوفات حسب تصورهم علوم الكون

هذا - وإن لا مترج العلوم السكونية والأدبية بالتفسير أكثرأ أخرى مشتركة بينهما

بمحمدا فيما يأتي :

(١) زيادة لثقة ، الترقا وعرويته ومعارفه وإشعاره .

(٢) والإيمان بأنه كتاب عني بكل ما يحتاج إليه البشر من ألوان السعادة .

(٣) والإيمان بأنه كتاب لساعة ، ودستور للناس إلى يوم القيمة ، يصلح لكل

رمان ومكان . ولا يستغنى عن كموره وذخائره بنسب .

### شروط لابد منها :

تلك الآثار الجلية التي أهدانا إليها ، لا تتحقق حالاتها إلا إذا دوعيت فيها

الأمر الآتية :

(١) ألا تظني تلك نباحث عن المقصود لأول من اقرأت ، وهو الهداية

والإبحار . أما إن أسرف المفسر واشتغل بهزيمت العلوم لأدبية ، ونظريات الفنون

السكونية ، فقد عكست الآية ، ولم يعد التفسير تفسيراً ، بل يسكون أشبه مكتف

العلوم وعموم منه نكتب تفسير كذا قال بعض أعلامه الأطراف يصعب عسيراً مشهوراً

«لاستطرد وانتطوبين وانصرف في كثير من العلوم قال « قد حوى هذا التفسير كل

شيء . لا تفسير » .

(٢) أن يلاحظ في امتزاج تفسير تلك العلوم ، ما يلائم العصر ، ووائم الوسط ،

لأن تلك الأبحاث الكونية والأدبية ، قد تكون ضرورية ومفيدة أيما فائدة إذا نرحب بها القرآن في عصر من عصور الثقافة ، أو لجمهور من اللقوتين بالمادة وعلوم الكون ، أو لطائفة من المتأدين للشفوفين بفتون البلاغة في القول . بينما تكون هذه الأبحاث نفسها مكسبة وفتنة ، إذا شرح بها القرآن في عصر من عصور الجهالة ، أو لئمة أخرى من فئات الناس . « وما من أحد يخاطب قوماً بغير ما تمسه عقولهم إلا كان فتنة عليهم » .

(٣) أن نذكر تلك الأبحاث على وجه يدفع المسلمين إلى النهضة ، وبلغتهم إلى جلال القرآن ، ويحركهم إلى الانتعاش بغير هذا التكون العظيم الذي سنوره الله لنا ، انطباعاً يبعد لأمة الإسلام نهضتها ومجدها .

وهناك نموذجاً على سبيل التمثيل ، وإن أسرف في هذا السبيل ، إسرافاً أساءه نفس التفسير والتأويل .

قال العلامة المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى في كتابه « القرآن والمعلوم المصرية » :  
مانعه :

قال الله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَاسِكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ . وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . وَإِنَّا لَنَعْلَمُ مَا سَأَلْتُمُوهُ . وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا . إِنَّا لِلْإِنْسَانِ أَطْلُومٌ كَفَّارٌ » عبر الله تعالى بكاف الخطاب ست مرات ، فجعل لنا ، ونسبح الشمس والقمر لنا ، ونسخير الليل والنهار لنا . وقد آتانا من كل ما سألناه في صماثرنا ، وما تمنحه نفوسنا .

هل هذا الخطاب استغنى منه للسكون ؟ فهل جعل الله الثمرات في الأرض خاصة للمسلمين ؟ أم الخطاب عام ؟ . وهل الفلك التي تجري في البحر ما بين آسيا وأفريقيا وأوردة في المحيط الهندي والهادى والبحر الأحمر وبحر العظلمات بين أوردة وأمريكا . هل هذه

العلم خاصة بالإفراج ، وكيف نام اللغزون عن علوم التجارة فأصبحت بأيدي غيرهم من  
 العرجة وأهل أمريكا وهم صغار اليدين ؟ . فالعلم التي تختر عِيَابَ الأنهار والبحار في سائر  
 أنحاء كرسا الأرضية بيد الفرنجة ، وهم هم الذين يدرسون علوم المادن والكهرباء والبحار  
 و « التلفراف » البرق الذي له سلك ، والبرق الذي بلا سلك . أليس من العار عليكم  
 أيها المسلمون أن تكونوا ٣٥٠ مليوناً <sup>(١)</sup> ولا سقن لكم في البحار كما لميزكم ، وقد خاطبكم  
 الله تعالى فقال : « وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ » على نواهد علمية  
 بعد معرفة صناعة الحديد لبنائها ، والخشب لتكليفها ، والبخار لتسييرها ، والكهرباء  
 والمفناطيس لمعرفة الأخبار فيها ، وقراءة علم الفلك والكواكب اليازة والثابتة للاعتدائها  
 على طرق البحار ، ودرس علوم البحار وطرقها ومناطقها وما فيها من مسالك . حتى لا تضل  
 اسفن سواء السبيل فتضيق ويهلك ما فيها . وبعد دراسة علوم السحب والرياح والمواصف ،  
 حتى يلبس ارباب لكل حال لباسها ، وينهج النهج الذي ينبغي السفينة . ثم قال : « وَسَخَّرَ  
 لَكُمُ الْأَنْهَارَ » . ولا جرم أن الأنهار تنقى الردوع ، ولها في جريانها قوة تستخرج منها  
 الكهرباء فتغني عن الفحم والبتروول . والمحطون في بقاع الأرض غافلون عن أنهارهم ،  
 وتكاد تصبح بيد غيرهم . « وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ » ، وَسَخَّرَ لَكُمُ  
 الْقَلِيلَ وَالْكَثِيرَ . والليل والشمس والقمر ؛ لها حساب دقيق لا يهتدي إليه إلا علم الحساب  
 والهندسة والجبر ثم الفلك ، فلا تطلع الشمس ولا تغرب ، ولا يشرق النجم ولا يغرب ،  
 ولا يطلع سيار ولا يأمل ، إلا بمواعيد موقوتة لاتنقض ثانية ، بل كل ذلك بمقدار ولو حرم  
 البشر ذلك يوماً واحداً لاختل أمر حياتهم . فما هي سفن البحار وقطرات اليازة ؛ كلها  
 تدبر بحساب الشمس والكواكب . ولو أغفل الناس بعض ذلك لاختلت مواعيدهم ،

(١) جاء في بعض المصادر للوثوق بها أن عدد المسلمين يزيد الآن كثيراً على  
 أربعمائة مليون .

ولقد صدمت قضايتهم ؛ ولما كثير منهم . ويعرف ذلك كل من اطلع على طرفه من علم  
الفلك في هذه الأيام ، انتهى ما أردنا قوله بقليل من التصرف .

## كلمة ختامية

لأنه من أن ما نوهنا به في هذا البحث قد أحاط بما كتب من تفسير القرآن ،  
ولأنه من أن ما كتب من جميع التفسير قد أحاط بكل ما أودعه الله القرآن من أحكام  
وحكم ومعارف وأسرار . بل إن ما ذكرناه هنا من التفسير قل من كثير ، ثم إن ما حوته  
تلك المصنفات التفسيرية على كثرتها لم تأخذ من القرآن إلا كما يأخذ الخيط إذا أدخل  
البحر . ويروقني ما قاله بعض الأعلام حين سئل : ما خير تفسير للقرآن ؟ فأجاب : الدهر .  
يعني أن العلوم والمعارف والأفكار والحوادث والتجارب التي تجدد في الزمن مواسم  
مهمة في شرح القرآن . وكل حقبة من سلسلة هذه الأزمان الطويلة ، تكشف عن بعض  
غيبوات أسرارها التي لم تكن معروفة من قبل .

وإن كنت في شك فهاك دور الكتب ومكتبات العالم ، فإنها لا تزال - على كثرة  
ماضع واندر - زاخرة بأموج كالجبال من التفسير ، مما لا يمكن أن يحيط به إلا العليم  
الغدير . وإنه ليُعييك استقصاء أسماؤها ، فضلاً عن استقراء مسمياتها . وإنك لتجد فيها  
فنونا وألوانا وشذوذاً مما فتح الله على العلماء في بيان كتابه : منها تفاسير بالمأثور وتفسير  
بالرأى . ومنها تفاسير بظواهر العبارة وتفسير غوامض الإشارة . ومنها تفاسير يظلب عليها  
صحة الكلام ، وأخرى يظلب عليها صنعة البلاغة وثالثة يظلب عليها المعنى والإعراب ،  
ورابعة يظلب عليها تفاريع الأحكام وخامسة يظلب عليها علوم الكون ، إلى غير ذلك  
ومنها تفاسير كل القرآن وتفسير جزء منه أو سورة أو آية .

وافد اطلمت - وأنا قصير الباع قليل الاطلاع - على فهارس تفاسير خاصة بكل  
عما يأتي ، وقد يكون مع ذلك تنوع التأليف وتمدد المؤلفين في الشيء الواحد :

مها تفاسير الجزء عجم ، وجزء نبارك ، ولسورة الفاتحة ، ولسورة يوسف ، وسورة  
الرعد ، ولسورة الكهف ، ولسورة النور ، ولسورة يس ، ولسورة الحجرات ، وسورة  
الحديد ، ولسورة القدر ، ولسورة الفيل ، ولسورة الكاثر ، ولسورة الكون ، ولسورة  
الإخلاص وحدها ، ولسورة الإخلاص مع المؤمنين .

ومنها تفاسير السبعة : ولآية الكرسي ، ولأول سورة الأنبياء ، ولأول سورة الفتح ،  
ولحروب المعجم في فوائد السور ، ولآية « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ » . ولآية « إِنَّا الَّذِينَ  
كَذَبُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ » ، ولآية « إِنَّا اللَّهُ لَا يَحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَجُورٍ » .  
ولآية « إِنَّمَا يَتَمَنَّاهُ سَاجِدٌ لِلَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » ولآية « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا  
أَنْفُسَهُمْ بِمَنْدُوبٍ » ولآية « فَإِنْ لَمْ يَنْتَهِزُوا عَنْهُ فَأْتُواهُمْ بِبُحَائِشِهِمْ » . ولآية « قُلْ هَذَا  
نُكِّلْتُكُمْ بِالْأَحْسَنِ مِنْ أَمْعَالِكُمْ » ولآية « لَا يَنْبَغُ فِيهَا اخْتِابَا » . ولآية « وَلَقَدْ  
أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ » . ولآية « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ » . ولآية « وَآيَةٌ لَهُمْ تَلِيلُ  
تَلَخُّ مِنْهُ أَنْبَارٌ » ولآية « إِنْ تَسْتَكْفِرُوا تُمْرَءٌ مَبِينٌ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » . ولآية  
« إِنْ عِدَّةُ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا » . ولآية « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْسِقَةٍ » .  
ولآية « مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ أَنْ » ولآية « لَا يُسْأَلُ عَنْهَا  
بِنَفْسٍ » عبر ما ظله المفسرون من قبل . وهو تفسير للعلامة الجليل الشيخ يوسف الدجوي  
وإن نعتب هناك رسالة في معنى حرف الواو ، أو وجه نبوت الواو في قوله تعالى :  
« وَفُتِحَتْ أَنْوَارُهَا » من أواخر سورة الزمر .

إِذَا تَدَلَّكَ وَأَصْحَابُ ذَلِكَ إِيَّاهُ قَبَسَ مِنْ نُورِ الْقُرْآنِ ، وَشَاعَ مِنْ شَمْسِ الْحَقِيقَةِ  
الْكُورِي ، وَنَصِيصَ مِنْ تَحَلِّيَّاتِ هِدَايَاتِ اللَّهِ لِمَعْصِيَةِ عِبَادِهِ .



أما المورد كله ، وإنهذى كله ، فذلك سرٌّ من أسرار الربوبية ، وكثر من كسور  
الأنوذية . وشتان ما بين علم الخالق وعلم الخلق ، وأيس كمال السيد من نقص العدد ١٩ .

### سهاية القول :

وسهاية القول أن هذا فنٌ حديد أيضاً من فنون إجماع القرآن ، حيث أقام الله كتابه  
آياتٍ بينات للناس في معارفه ومعانيه ، كما أقامه آياتٍ بينات لهم في ألقاظه ومبانيه .  
« قُلْ : فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ » .

« وَكَمَتْ كُلُّ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »  
اللهم أنعم علينا نعمتك ولا تحرمنا هدايتك ، واحمكنا بالقرآن في سلك المهديين  
المهادين ، وارفعنا به إلى أهل عليين ، آمين آمين .

و « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ » ،  
والصلاة والسلام على أشرف الخلق ومبعوث الحق سيدنا محمد وآله وصحبه ومن والاه .

## المبحث الثالث عشر في ترجمة القرآن وحكمها تفصيلا

أهمية هذا البحث .

نوحه الأذهان في فائحة هذا البحث إلى أهميته وخطره ، من بواح ثلاث .  
( أولاها ) دقته وغوصه إلى حد جعل علماءنا يختلفون فيه قديما وحديثا ، وجعل  
مصرنا العزيزة منذ أعوام ميدانا لتطاحن الأفكار والآراء فيه منعاً ونجواً .  
( ثانيها ) أن كثيرا من الناس قاموا في زعمهم بنقل القرآن إلى لغات كثيرة ، وترجمات  
متعددة ، بلغت بإحصاء بعض الباحثين مائة وعشرين ترجمة في خمس وثلاثين لغة ما بين  
شرقية وغربية ، وتكرر طبع هذه الترجمات حتى إن ترجمة واحدة هي ترجمة جورج  
سهل الانجيزي طبعت أرمسا وثلاثين مرة .

وأوفر هذه الترجمات وأكثرها طبعا هي الترجمات الانكليزية فالفرنسية فالألمانية  
فالإيطالية . وهناك خمس ترجمات في كل من اللغتين الفارسية والتركية ، وأربع ترجمات  
باللغة الصينية ، وثلاث باللانينية ، واثنان بالأفغانية ، وواحدة بالجسابة ، وأخرى  
بالأوردية .

ومن هؤلاء الذين ترجموه من يحمل للإسلام عداوة ظاهرة ، ومنهم من يحمل حبا له  
واسكنه جاهل به ، وعدو حافل خير من صديق جاهل .

( ثالثها ) وفورع أغلاط فاحشة في هذه التي سموها ترجمات ؛ وكان وجودها ممولا  
هداما لبهاء عهد الإسلام ، ومحاولة سيئة لزلزلة الوحدة الدينية واللغوية والاجتماعية للأمم  
الإسلامية ( صانها الله ) .

أحاط هذه الوقائع الناعمة ، والحقائق المائنة ، والمحاولات الخطيرة ما كان ينبغي لنا أن  
نقف مكتوفي الأيدي ، مكسبي الأفواه ، كأن الأمر لا يستيتنا في قليل ولا كثير ، هو حين  
أن الذي وضع منهم فكرة هذه الترجمات ، وتولى كبر هذه المؤامرة ، رجل من رجال

ديهم ، ومطران من مطارنهم ، يدعى يعقوب بن الصليبي ، إذ خيل إلى قومه أنه ترجم آيات حجة من القرآن باللسان السرياني في القرن الثاني عشر لليلاهي . ثم شرت حلاصتها في هذا القرن سنة ١٩٢٥ خمس وعشرين وثم مائة وألف ميلادية ، فلاح من نسخة مخطوطة بالمتحف البريطاني بلندن ، مشفوعة بترجمة إنكليزية لها . وتابع هذا المطران أحيار ورهبان ، كانوا أسبق من غيرهم في هذا الميدان .

وأنت حبيب بما يربدون ، « والله أعلم بما يبيتون » .

راجع في ذلك محاضرات الفيكنت دي طرازى<sup>(١)</sup> ، ثم انظر ما كتبه العلامة أبو عبد الله الرماني في كتابه : تاريخ القرآن إذ يقول :

« ربما كانت أول ترجمة إلى اللغة اللاتينية لغة العلم في أوروبا ، وذلك سنة ١١٤٣ قلم ( كست ) الذي استعان في عمله ببطرس الطليطلي وعالم ثان عري ، فيكون القرآن قد دخل أوروبا عن طريق الأندلس ، وكان الغرض من ترجمته عرضه على كل من يقصد الدار عليه . وبعد فيما بعد أن القرآن ترجم ونشر باللاتينية ، ( ١٥٠٩ ) ولكن لم يسمح للقراء أن يقتنوه ويتداولوه ، لأن طبعته لم تكن مصحوبة بالردود . وفي عام ( ١٥٩٤ ) أصدر هيكلمان ترجمته ، وحامت على الأثر ( ١٥٩٨ ) طبعته مترائني مصحوبة بالردود ، انتهى ما أردنا نقله .

ألا ترى معي أنه يجب علينا بإزاء ذلك أن ندلي برأي سديد في هذا الأمر الخلل ؟ نعلم ما يراد بنا ونقرأنا ، ولننظر إلى أي طريق نحن مسوقون ؟ عني أن يدفع هذا التحري والنسب ، إلى اتخاذ إجراء حارم ، فننصف فيه للحق من الباطل ، ونؤدى « رسالة » شر هداية الإسلام والقرآن على بصيرة ونور ١

ثم ألا ترى معي أنه يجب علينا بإزاء ذلك أيضا أن نذكر في هذا البحث عن العصبية (١) هي محاضرات خلفت بها في نسخة مخطوطة تحت عنوان « القرآن : محاضرات علمية تاريخية » ألهاها سنة ١٩٤١ م الفيكنت فيلب دي طرازى مؤسس دار الكتب في بيروت . والعضو في عدة مجامع علمية شرعية وغربية .

والعادات الشخصية، فمهما رقيقا هادئا، وندرسه دراسة واسعة منظمة، ولتقدم فيه أدب البحث، وإتصاف الباحث، وبجمل الله وحده عائقا فنيا نحاول ودالح؟ لا والله يقول الحق وهو يهتدي السبيل .»

ولنبدا الكلام بيان معنى الترجمة لغة وعرفا، ثم بتقسيمها إلى حرفية وتفسيرية، ثم بين الفرق بين الترجمة والتفسير؛ فإن تحديد معنى الألفاظ وتحقيق المراد منه، مجهود مهم ومعين، لاسيما ما كان من الأبحاث الخلاقية؛ كهذا البحث الذي نعالجه. فلقد هدانا الاستقراء إلى أن تحديد معنى الأمور الخلاقية، أو تحرير محصل النزاع (تعبارة تسمية أهرية). كثيرا ما قرب بين وجهات النظر المختلفة، وطالما أظهر أن خلاف المختصين كان اعطوا لاحقيقيا، لأن المعنى والإتيان بينهم لم يتواردا على أمر واحد، بل إن ما أئنته بعضهم لم يخالف أحد في إثباته بالمعنى الذي أراده، وما نقاه البعض لآخر لم يخالف أحد في معناه بالمعنى الذي أراده كذلك، ورجع الأمر أخيرا إلى مجرد اختلاف في العبارات لاختلاف في الاعتبارات. ولو أنهم اتفقوا مادي ذي بدء على هذه الاعتبارات. لما اختلفت العبارات، ولما حدث خلاف أئنته

إذن فإذا ستميح قارئنا الكريم عذرا، إذا أطمسنا توصيح المعنى المراد الذي يدور عليه الكلام في هذا الموضوع، وإذا استطردنا ببيان ما اشتباه به وكان سببا في النزاع، فنذكر أن لفظ (ترجمة) يطلق على معان متعددة، بعضها لغوي؛ وبعضها عرفي عام، انترجمة في اللغة :

وصعت كلمة ترجمة في اللغة العربية، لتدل على أحد معان أربعة .

(أول) - يسمي الكلام لمن لم يبلغه . ومنه قول الشاعر :

ولم يخباين وبلغتها قد أحوجت سمي إلى ترجمان

(ثانيها) تسمى الكلام بلغته التي جاء بها . ومنه قيل في ابن عباس : إنه ترجمان

القرآن ولعل الزمخشري في كتابه أساس البلاغة يصددها المعنى إذ يقول : لكل ما ترجم

عن حال شيء فهو تفسرته .

( ثالثها ) تفسير الكلام بلغة غير لنته . وجاء في لسان العرب وفي القاموس ، أن الترجمان هو التفسير للكلام . وقال شارح القاموس مانعه : « وقد ترجمه وترجم عنه إذا عسر كلامه بلسان آخر قاله الجوهري » ١٠١ .

وجاء في تفسير ابن كثير والبغوي أن كلمة ترجمة تستعمل في لغة العرب بمعنى التبين مطلقا سواء التحدث بالغة أم اختلقت .

( رابعها ) قل الكلام من لغة إلى أخرى . قال في لسان العرب : « الترجمان بالضم والفتح <sup>(١)</sup> هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى أخرى . واجمع تراجم <sup>(٢)</sup> » ١٠٢ . وشارح القاموس بعد أن أورد للمعنى السابق في ترجمه وترجم عنه قال : « وقيل نقله من لغة إلى أخرى » ١٠٣ .

ولكون هذه المعاني الأربعة فيها بيان ، جاز على سبيل التوسع إطلاق الترجمة على كل ما فيه بيان بما عدا هذه الأربعة ، فقيل ترجم لهذا الباب بكذا أي عنون له . وترجم لفلان أي بين تاريخه . وترجم حياته أي بين ما كان فيها . وترجم هذا الباب كذا أي بيان المقصود منه . وطم جرا .

### الترجمة في العرف :

نريد بالعرف هنا عرف التضاد بين اللفظ ، لا عرف طائفة خاصة ولا أمة معينة . جاء هذا العرف الذي نواضع عليه الناس جميعا . يخص الترجمة بالمعنى الرابع المعنوي في إطلاقات اللفظة السابقة ، وهو قل الكلام من لغة إلى أخرى . ومعنى قل الكلام من لغة إلى أخرى ، التعبير عن معناه بكلام آخر من لغة أخرى ، مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده كما لك قلت الكلام نفسه من لنته الأولى إلى اللغة الثانية .

( ١ ) عبارة القاموس تدل على أنه يضبط بضم التاء والجيم ويفتحهما ، ويفتح التاء وضم الجيم . ( ٢ ) وهذا خلاف ما ذاع على الألسنة من استعمال تراجم جمعا لترجمة . فاحفظ ذلك .

وهذا هو السر في تسميهم بتقل الكلام. مع العلم بأن الكلام نفسه لا يتقل من لفظه بحال. ويمكننا أن نعرف الترجمة في هذا المصطلح بعبارة مبسطة فنقول : هي التعبير عن معنى كلام في لغة بكلام آخر من لغة أخرى مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده . فكلية ( التعبير ) جنس ، وما بعده من القيود فصل وقولنا : ( عن معنى كلام ) يخرج به التعبير عن المعنى القائم بالنفس حين يخرج في صورة اللفظ أول مرة . وقولنا : ( بكلام آخر ) يخرج به التعبير عن المعنى بالكلام الأول نفسه ، ولو تكرر ألف مرة .

وقولنا : ( من لغة أخرى ) يخرج به التفسير بلغة الأصل ، ويخرج به أيضا التعبير بمرادف مكان مرادفه ، أو بكلام بدل آخر مساو له ، على وجه لا تفسير فيه ، واللمة واحدة في الجميع .

قولنا : ( مع الوفاء بجميع معاني الأصل ومقاصده ) يخرج به تفسير الكلام بلغة غير لفته ؛ فإن التفسير لا يشترط فيه الوفاء بكل معاني الأصل للتفسير ومقاصده ، بل يكفي فيه البيان ولو من وجه . وصنوافيك قريبا بتفصيل ذلك .

### تفسير الترجمة :

وتنقسم الترجمة بهذا المعنى العرفي إلى قسمين : حرفية وتفسيرية ، فالترجمة الحرفية هي التي تراعى فيها محاكاة الأصل في نظمه وترتيبه . فهي تشبه وضع المرادف مكان مرادفه . وبعض الناس يسمي هذه الترجمة ترجمة لفظية ، وبعضهم يسميها مساوية . والترجمة التفسيرية هي التي لا تراعى فيها تلك المحاكاة أي محاكاة الأصل في نظمه وترتيبه ، بل المهم فيها حسن تصوير المعاني والأغراض كما هي . ولهذا تسمى أيضا بالترجمة للمعنوية . وسميت تفسيرية لأن حسن تصوير المعاني والأغراض فيها جعلها تشبه التفسير ، وما هي بتفسير كما يبين لك بعد .

فالترجمة حرفية يقصد إلى كل كلمة في الأصل فيفهمها ، ثم يستبدل بها كلمة تساويها في اللغة الأخرى مع وضعها موضعها وإحلالها محلها ، وإن أدى ذلك إلى خفاء المعنى المراد

من الأصل ، سبب اختلاف المتن في مواقع استعمال الكلام في المعاني المرادة إنفاً واستحساناً .

أما المترجم ترجمة تفسيرية ، فإنه يمد إلى المعنى الذي يدل عليه تركيب الأصل حينئذ ، ثم يصبه في قالب يؤديه من اللغة الأخرى ، موافقاً لما صاحب الأصل ، من غير أن يكلف نفسه عناء الوقوف عند كل مفرد ولا استبدال غيره به في موضعه . ولنضرب مثلاً للترجمة بنوعها على فرض إمكانها في آية من الكتاب الكريم : قال الله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » فإنك إذا أردت ترجمتها ترجمة حرفية ؛ أنيت بكلام من لغة الترجمة ؛ يدل على النهي عن ربط اليد في العنق وعن مدّها غاية المد ، مع رعاية ترتيب الأصل ونظامه ، بأن تأتي بأداة النهي أولاً ، يليها الفعل للنهي عنه متصلاً بمفعوله ومضراً فيه فاعله ، وهكذا . . . ولكن هذا التعبير الجديد قد يخرج في أسلوب غير معروف ولا مأثور في تفهيم المترجم لم يجرى إليه الأصل من النهي عن التقدير والتبذير . بل قد يستفكر المترجم لم هذا الوضع الذي صيغ به هذا النهي ويقولون : ما باله ينهى عن ربط اليد بالعنق وعن مدّها غاية المد ؟ ! وقد يلاحظون هذا الغيب بالأصل ظناً ، وما الموبّ إلا فيما يزعمونه ترجمة للقرآن من هذا النوع . أما إذا أردت ترجمة هذا النظم الكريم ترجمة تفسيرية ، فإنك تمد أن تفهم المراد وهو النهي عن التقدير والتبذير في أبشع صورة منفردة ، منها تمد إلى هذه الترجمة فتأتي منها عبارة تدل على هذا النهي المراد ، على أسلوب يترك في نفس المترجم هم أكبر الأثر في استنباع التقدير والتبذير . ولا عليك من عدم رعاية الأصل في نظمه وترتيبه المعطى . وإنما قلنا عند عرض هذا المثال : « على فرض إمكانها » لما ستعرفه بعد من استحالة الترجمة بهذا المعنى للعرق في القرآن الكريم . والمثال لا يشترط صحته كما هو معلوم .

ما لا بد منه في الترجمة مطلقا :

لا بد لتحقيق معنى الترجمة مطلقا حرفية كانت أو تفسيرية ، من أمور أربعة :

( أولها ) معرفة المترجم لأوضاع اللغتين لغة الأصل ولغة الترجمة !

( ثانيها ) معرفته لأصاليهما وخصائصهما .

( ثالثها ) وفاء الترجمة بجميع معاني الأصل ومقاصده على وجه مطمئن .

( رابعها ) أن تكون صيغة الترجمة مستقلة عن الأصل ، بحيث يمكن أن يسغى

بها عنه ، أن يحمل محله ، كأنه لا أصل هناك ولا فرع . وسيأتي بيان ذلك في الفروق بين

الترجمة والتفسير .

ما لا بد منه في الترجمة الحرفية :

ثم إن الترجمة الحرفية تتوقف بعد هذه الأربعة على أمرين آخرين :

( أحدهما ) وجود مفردات في لغة الترجمة مساوية للمفردات التي تألف منها الأصل :

حتى يمكن أن يحمل كل مفرد من الترجمة محل نظيره من الأصل ، كما هو ملحوظ في معنى

الترجمة الحرفية .

( ثانيهما ) تشابه اللغتين في الصبائر المستقرة ، والروابط التي تربط المفردات لتأليف

التراكيب ، سواء في هذا التشابه ذوات الروابط وأمكنها . وإنما اشترطناه هذا التشابه ،

لأن محاكاة هذه الترجمة لأصلها في ترتيبه تقتضيه . ثم إن هذين الشرطين عسيران ، وثانيهما

أعسر من الأول . فهيات أن تجد في لغة الترجمة مقارنات مساوية لجميع مفردات الأصل

ثم هيات هيات أن تظهر بالتشابه بين اللغتين للقول منها وللقول بإيها في الصبائر

المستقرة وفي دوام الروابط بين المفردات لتأليف المركبات .



ومن أجل هذه العزة والنفرة قال بعضهم : إن الترجمة الحرفية مستحبة . وقال آخرون : إنها ممكنة في بعض الكلام دون بعض . ولقد علمت أنها بعد هذه الصعوبات يكتنفها الغموض وخفاء المعنى المقصود كما مر في المثال السابق أما الترجمة التفسيرية فيسورة فيا لا يجوز عنه البشر ، وللعاني للزادة من الأصل واضحة فيها غالبا . ولهذا اعتمدوا عليها في الترجمات الزمنية ، وفضلها التراجع والمشتغلون بالترجمات على قسيتها الترجمة الحرفية .

### فروق بين الترجمة والتفسير :

ومهما تكن الترجمة حرفية أو تفسيرية فإنها غير التفسير مطلقا ، سواء أكان تفسيراً بلمة الأصل ، أم تحيراً بتورية الأصل . وقد أشرنا إلى ذلك إجمالاً في شرح تعريف الترجمة آنفاً . ولكن كثيراً من الكاتبين اشتبه عليهم الأمر ، فحسبوا أن الترجمة التفسيرية هي التفسير بتورية الأصل ؛ أو هي ترجمة تفسير الأصل .

ثم رتبوا على ذلك أن خلطوا حكمها على ترجمة الأصل نفسه ، وكان لهذا التسلسل والاشتباه مدخل في النزاع والخلاف . لهذا نستطيع لأقننا أن نفهم هنا وقفة طويلة رسم فيها فروقا أربعة لا فرقاً واحداً بين هذين المشتهين في نظرم .

( الفارق الأول ) أن صيغة الترجمة صيغة استقلالية يراعى فيها الاستعانة بها عن أصلها وحلولها محلها . ولا كذلك التفسير ، فإنه قائم أبداً على الارتباط بأصله ، بأن يؤتى مثلاً بالتفرد أو للركب ، ثم يشرح هذا التفرد أو للركب شرحاً متصلاً به اتصالاً يشبه اتصالاً للبتدأ بخبره إن لم يكن إياه . ثم ينتقل إلى جزء آخر معزود أو جمه ، وهكذا من بداية التفسير إلى نهايته ، بحيث لا يمكن تجزئته التفسير وقطع

وشأن اتصاله بأصله مطلقاً ولو حرد لتفكك الكلام وصار لغواً أو أشبه بالغو ، فلا يؤدي معنى سليماً ، فصلاً عن أن يحل في حلقته وتعصيه محل أصله .

( الفارق الثاني ) أن الترجمة لا يحور فيها الاستطراد ، أما التفسير فيحور بل قد يجب فيه الاستطراد . وذلك لأن الترجمة معروض فيها أنها صورة مطابقة لأصلها حاكية له ، فمن الأمانة أن تساويه بدقة من زيادة ولا نقص ، حتى لو كان في الأصل خطأ لموجب أن يكون الخطأ عينه في الترجمة ، بخلاف التفسير فإن المفروض فيه أنه بيان لأصله وتوضيح له . وقد يقتضي هذا البيان والإبصار أن يذهب المفسر مذاهب شتى في الاستطراد ، توجيهاً لشرحه ، أو سويراً إن يفسر لهم على مقدار حاجتهم إلى استطراده . ويظهر ذلك في شرح الألفاظ اللغوية خصوصاً إذا أريد بها غير ما وضعت له ، وفي المواضع التي يتوقف فهمها أو الاقتناع بها على ذكر مصطلحات أو سوق أدلة أو بيان حكمة .

وهذا هو السر في أن أكثر تعامير القرآن الكريم تشتمل على استطرادات متنوعة ، في علوم اللغة ، وفي العقائد ، وفي الفقه وأصوله ، وفي أسباب الروايات ، وفي الناسخ والمنسوخ ، وفي العلوم الكونية والاحتمالية ، وغير ذلك .

ومن ألوان هذا الاستطراد ، تشبيهه على خطأ الأصل إذا أخطأ ، كما يلاحظ ذلك في شروح الكتب العلمية . ويستحيل أن تحد مثل هذا في الترجمة ، وإلا كان خروجاً عن واجب الأمانة والدقة فيها .

( الفارق الثالث ) أن الترجمة تتضمن عرفاً دعوى الوفاء بجميع معاني الأصل ومقاصده ، ولا كذلك التفسير ، فإنه قائم على كمال الإبصار كما قد ساء ، سواء أكان هذا الإبصار بطريق إجمالي أو تفصيلي ، متناولاً كافة المعاني والمقاصد أو مقتصر على بعضها دون بعض ، طوعاً للطروء التي يحصع لها المفسر ومن يفسر لهم .

والدليل على هذا الفارق، هو حكم العرف العام الذي نتحدث الآن لمسامه وإليك مثلاً من أمثاله :

رجل عثر في مخلفات أبيه على صحيفتين مخطوطتين بلغة أجنبية وهو غير عالم بهذا اللسان الأحبى ، فدفعهما إلى خير بالغات يستفسره عنهما . وإذا انخير بحجبه قائلاً : إن الصحيفة الأولى خطاب تافه من معوز أجنبي يستجدي أباك فيه ويستعبد ، أما الثانية فوثيقة مدين كبير لأبيك على أجنبي . هناك مرق الرجل خطاب الاستعداد ولم يحفل به ، أما الوثيقة فاعتد بها وطلب من هذا للتسكن في المهاد أن يترجمها له ، ليقاضى للدين أمام محكمة أمته لغة الترجمة .

أليس معنى هذا أن التفسير لم يكنه ؟ بدليل أنه طلب الترجمة من المترجم ، علماً بأنها هي التي تفي بكل ما تضمنته تلك الوثيقة وبكل ما يقصد منها ، فلا تصعب له بها حجة ، ولا يصعب عليه حق ؟ .

ثم ألت ترى في هذا المثال أيضاً أن العرف يحكم بأن التفسير لا يشترط أن يعرض لجميع التفاصيل ، بل يكفي فيه بيان للضمون ، على حين أنه يرى الترجمة ضرورة مطابقة لأصدها ، وافية بكافة معانيه ومقاصده ؟ .

( الفارق الرابع ) أن الترجمة تضمن عرفاً دعوى الاطمان إلى أن جمع المعاني والمقاصد التي قلها المترجم ، هي مدلول كلام الأصل وأنها مرادة لصاحب الأصل منه . ولا كذلك التفسير بل للقصر تارة يطعى الاطمان ، وذلك إذا توافقت لديه أدلته . وتارة لا مدعيه ، وذلك عند ما تموزه تلك الأدلة . ثم هو طوراً يصرح بالاحتمال ويذكر وحوها بمشكلة مرجحاً بعضها على بعض ، وطوراً يسكت عن التصريح أو عن الترجيح وقد يبلغ به الأمر أن يعلن عجزه عن فهم كلمة أو جملة ويقول : رب السكلام أعلم بمراده عن نحو ما يحفظه لكثير من المفسرين إذا مرصوا لمشاهات القرآن ولقوا أجمع السور المعروفة .

ودليلاً على أن الترجمة تتضمن دعوى الاطّشاش إلى ماحوت من معان ومقاصد، هو شهادة العرب العام أيضاً بذلك، وحرّبان عمل الناس جميعاً في الترجمات على هذا الاعتبار. فهم يحسبونها محل أصولها إذا شاءوا، ويستعمون بها عن تلك الأصول، بل قد ينسبون هذه الأصول جملة، ويفيب عنهم أن الترجمات ترجّيات، فيحذفون لفظ ترجمة من الاسم، ويطلقون عليها اسم الأصل نفسه، كأنما الترجمة أصل، أو كأنه لا أصل هناك ولا فرع.

وإن كنت في ريب فاسأل ما بين أيدي من ترجمات عربية لطائفة من كتبهم التي يقدسونها، ويطلقون على بعضها اسم تورا، وعلى بعضها اسم إنجيل، وما هما بالتورا ولا بالإنجيل، إنما هما ترجمتان عربيتان لأصلين عبريين<sup>(١)</sup> باعترافهم، ولكنهم أسقطوا وأسقط العرب العام معهم لفظ ترجمة من العنواوين الاثنين. وما ذلك إلا لما وقر في النفوس من أن الترجمة صورة مطابقة للأصل، معاشقة إلى أنها تؤدي جميع مؤداه، لا فرق بينهما إلا في القشرة اللفظية. وفي مثل ذلك فجا نعرفه من ترجمات للقوانين والوثائق الدولية والشخصية، ومن ترجمات للكتب العلمية والفنية والأدبية، وهي كثيرة عنية عن القنوبه والتمثيل.

يقال كل هذا في الترجمات، ولا يمكن أن يقال مثله في التفسير، فإننا ما سمعنا ولا سمع المفسر أن كلمة تفسر أسقطت من عنوان كتاب من كتبه. بل المعروف انعكس ذلك. فكثيراً ما يستعمل اسم الأصل المفسر، على حين أن لفظ التفسير لا يسقط محال. وبذلك على هذا تلك الإطلاقات الشائعة: تفسير اليساوى، تفسير النسي، تفسير الجلالين، وما أشبهها من تفسيرات القرآن الكريم. ألم يكف هذا سداً على

(١) صوابه: «عبرانيين» وذلك لأن إنجيل مرقس ولوقا وبوحنا أصلها يوناني، أما إنجيل متى فأصله عبري.

أن التفسير مرادف فيه أنه بيان لا يمكن أن يقوم مقام اللين ، ولا أن يدمى فيه الاطنشان إلى أنه واف بجميع أعراضه ومسانيه .

### الترجمة والتفسير الإجمالي بغير لغة الأصل :

يبدأ هنا دقيقة نرشدها إليها . هي أن التفسير بغير لغة الأصل يشبه الترجمة بتفسيرية شهاً قريباً . إذا كان هذا التفسير إجمالياً قائماً على اختيار معنى واحد من المعاني المحتملة . ولعل هذا التشابه هو الذي أوقع بعضهم في الاشتباه ودعوى الاتحاد بين الترجمة التفسيرية وترجمة التفسير . أو التفسير بغير لغة الأصل . ولكن النظر لصحيح لا يزال يقضى بوجود الفوارق الأربعة السابقة بين هذين النوعين أيضاً . فالمفسر يقتضيه واجب البيان ألا يسوق المعنى الإجمالي المختار من بين عدة معان محتملة حتى يوجه هذا الاختيار ، وهذا التوجيه محقق للامتطارد الزائد على مدلول الأصل . ثم إن صنيعة هذا سيشرح القارىء أن للأصل معاني أخرى قد يكون هذا الذي اختبر من بينها غير سديد . وقد يتوقف المفسر جملة ويطن بحججه إذا ما أشكل عليه المعنى ورأى أن يلوذ بالصست . هذا محقق لعدم الوفاء بجميع معاني الأصل ولعدم الاطنشان الذي نوهنا به . ثم إن صنيعة هذا التفسير لا بد من أن ترتبط بالأصل ولو بالإشارة والتلويح ، يقال : معنى هذه الآية أو الجملة هو كذا . أو يقال معنى الآية للرقومة رقم كذا من سورة كذا هو كذا وكذا . . . وذلك محقق لعدم استقلال الصيغة . بخلاف الترجمة في ذلك كله .

فإن افترضنا أن هذا المفسر صيرك وجه الاختيار وسقط طمع الملة قطعاً بين التفسير وأصله ، أحسناك بأن هذا التصرف في الحقيقة لا تفسير ولا ترجمة ، بل هو دونه حرجها الكلام مما يجب في التفسير وفي الترجمة جميعاً . لأنه لم يشرح ولم يبين حتى يكون مفسراً كما يجب ، ولم يصور معاني الأصل ومقاصده كلها حتى يكون مترجماً كما يجب . فإن أدى ذلك إلى الناس بعنوان أنه ترجمة للأصل ، فإما أن يكون صادراً في هذا الأداء عن قصور أو عن تقصير . فإن كان عن قصور فهو العجز والجهالة ، وإن كان عن تقصير فهو تضليل

للناس وإيهام لهم أن ما أتاه ترجمة ، وما هو بترجمة . وتلك حياطة لهم ولما رعم ترجمته ،  
واقف لا يهدى كيد الخائنين .

### تبيين معيدان :

( أولها ) : أنه لا فرق بين الترجمة الحرفية والتفسيرية من حيث الحقيقة ، وسكاتها  
تعبير عن معنى كلام في لغة بكلام آخر من لغة أخرى مع الوفاء لجميع معاني الأصل  
ومقاصده . وما الفرق بينهما إلا شكلي وهو أن يحمل كل مفرد في الترجمة الحرفية محل مقابله  
من الأصل ، بخلاف التفسيرية كما بينا . فلا نظن بعد هذا أن كلمة ترجمة تنصرف إلى  
الحرفية أكثر مما تنصرف إلى التفسيرية كما يظن بعض الناس . بل التفسيرية أثبت قدما ،  
وأعرف وحدودا ، وأقرب إلى الأذهان عند الإطلاع لأنها هي المبسورة ؛ وهي الواضحة ،  
وهي التي يتداولها الترحمون والقراء جميعا . أما الحرفية فإنها تكاد تكون نظرية بحتة ،  
وذلك من نمرها أو تضرها ، ومن غموضها وحفاها أحيانا ، ومن ندرة إقبال التراجم  
والقراء عليها كما سبق .

( ثانيهما ) أن تفسير الأصل بلمته ، يساوى تفسيره بمبرامته ، فيما عدا القشرة اللفظية .  
ألا ترى أنك إذا قرأت درس تفسير للخاصة كاشفا فيه عن معان معينة باللغة العربية ، ثم  
قرأت هذا الدرس عيه العامة كاشفا عن هذه المعاني نفسها ولكن بلغة الخطابين المسموعة ،  
فهل نشك في مساواة هذا التفسير لذلك في بيان المعاني المعينة التي فهمتها من الأصل ؟  
وهل تعد سببا حلالا إلا في لغة للتعبير وقشرة القنط ؟ .

هذا لا حظا لذلك أمّا الاشتباه من هذه الناحية ، وأمكن أن يستعمل في بحث هذا  
بذكر المساوي عن ذكر مساويه ؛ تته بأن ما خال في أحدهما خال مثله في الآخر . فتتجه  
إلى ذلك دائما ، والله موثق وتوفيقك .

### الترجمة ليست تعريفاً مطلقاً

أوحس بعض الباحثين حيلة من أن يطرأ أحد أن الترجمة من قبيل التعريف المطلق. ولكننا إذا انصنا النظر رأينا أن الترجمة مالمعنى العرفي الذي قررناه ، لا يمكن أن تكون تعريفاً مطلقاً ولا حقيقياً وذلك من وجهين :

( أحدهما ) أن التعاريف كلها من قبيل التصورات ، أما الترجمة فكلام تام ، وفصايل كاملة ، وهي بلا شك من قبيل التصديقات .

( ثانيهما ) أن صيغة التعريف مرتبطة دائماً بالمعروف ، لأنها قول شارح له ، والشرح والبيان مرتبطان . في صيغته بالمشروح والمبين ، أما الترجمة فقد فرغنا من أن صيغتها مستقلة عن الأصل المترجم ، لأن الفرض منها أن تقوم به بذلا منه ، وأن يستغنى بها عنه ، ولا معنى لأن يجتمع فيها البديل والمبدل منه .

نعم إن تفسير المفرد بلغة غير لفظه ، يكون من قبيل التعريف الحقيقي إن أعاد حصول صورته في ذهن المفسر له ويكون من قبيل التعريف اللفظي إن أعاد حضور صورته الخاصة من قبل ، على نمط قولهم في تعريف الإنسان لن لا يعرف حقيقته : « الإنسان حيوان ناطق » وقولهم في تعريف البشر لن يعرف حقيقة الإنسان ولا يعرف دلالة لفظ البشر عليه : « البشر هو الإنسان » . ولكننا لسنا هنا بصدد المفردات وتفسيرها ، فبحثنا في الترجمة لافي التفسير ، وفي الكلام المفيد لا الكلمات المفردة .

### القرآن ومعانيه ومقاصده

الآن وقد انتهينا من الكلام على أول التصايفين في لفظ ( ترجمة القرآن ) ، ننبأ بملك وقعة أخرى محانت ثاني هذين للتصايفين وهو القرآن نفسه ، لتبيين المراد به ههنا ولعرف أنواع معانيه ومقاصده تمهيدا للحكم الصحيح عليه بأنه يمكن ترجمته أو لا يمكن .

للمراد بالقرآن هنا :

وقد سقت كلنا في بيان مدلول القرآن، وعرض الآراء والذاهب فيه عرضا واسعا، بالمبحث الأول في الجزء الأول من هذا الكتاب . فارجع إليه إن شئت .

بيد أما ملأت نظرك إلى أن المراد هنا في مبحث الترجمة هو اللفظ المجزء ، لا الصفة القديمة صفة الكلام ، ولا الكلمات النفسية الحكيمية ، ولا النقوش المكتوبة ، على ما قررناه ثمة . وإنما كان المراد بالقرآن حصص اللفظ للمجزء ، لأن الترجمة أصيغت إليه . وبدهى أن الترجمة لا تتناول إلا ما كان لفظا حقيقيا مصورا صورة الحرف والأصوات ، ولا تتناول الصفة القديمة ، ولا الكلمات الحكيمية الغيبية ، ولا النقوش المكتوبة ، اللهم إلا بضرب من التأويل .

معاني القرآن نوعان :

ونما أن الترجمة ملحوظ فيها الإحاطة بمعاني الأصل كلها ، محيطك علما بأن القرآن الكريم ، بل أى كلام بليغ ، لا بد أن يحتمل ضربين من المعاني هما المعاني الأولية والمعاني الثانوية ، أو المعاني الأصلية والمعاني التابعة . فالمعنى الأولى لأى كلام بليغ هو ما يستفاد من هذا الكلام ومن أى صيغة تؤديه سواء ، ولو بلغة أخرى . كمراد إسناد محكوم به إلى محكوم عليه . وسمى معنى أوليا لأنه أول ما يفهم من اللفظ . وسمى أصليا لأنه ثابت بثبات الأصوات ، لا يختلف باختلاف للتكلمين ولا المخاطبين ولا لغات التخاطب بل هو مما يستوى فيه الربى والجنى ، والحصرى والبدوى ، والفكى والنهى .

أما المعنى الثانوى فهو ما يستفاد من الكلام زائدا على معناه الأولى . وسمى ثانويا لأنه متأخر فى فهمه عن ذلك . وسمى تابعا لأنه أشبه بقييد فيه ، والقييد تابع المقيد .



أو لأنه يتغير بتغير التواضع ، فيختلف باختلاف أحوال المخاطبين ، وباختلاف مقدرة  
 للفكرين ، وباختلاف الألسنة والقلوب ، عكس ما تقدم . ولننصرف لك أمثالا توضح  
 دقائق هذين النوعين :

إذا أردت أن تحير من حاتم بالحدود قلت : ( حاد حاتم ) إن كنت تخاطب حالي الذهن  
 من هذا الظاهر . وقلت : ( حاتم جواد ) إذا كنت تخاطب شاكا متريدا فيه . وقلت : ( إن  
 حاتما جواد ) إذا كنت تخاطب منكرا غير مسرف في إنكاره . وقلت : ( والله إن حاتما  
 لجواد ) إذا كان مخاطبك مسرفا في الإنكار . وقلت : ( حاتم ضئي جواد ، كريم معطاء ) إذا  
 كان المقام مقام مدح . وقلت : ( ما جواد إلا حاتم ) إذا كان مخاطبك يمتدح العكس وأن  
 غير حاتم هو الجواد . وقلت ( حاتم ممدود الساط ) . أو ( كان في بني طيء بحر كثير القيسان )  
 إذا كان مخاطبك على شيء من الذكاء . وقلت : ( حاتم مهزول الفصيل . أو غير حاتم  
 بإنعامه الأنعام ) إذا كان مخاطبك على جانب عظيم من الذكاء .

فأنت ترى أن هذه الأمثلة كلها دارت على معنى واحد استوت جميعها في أدائه ، هو  
 نسبة الجود إلى حاتم ، فذلك هو المعنى الأول أو الأصل . ثم أنت ترى بعد ذلك أن المعنى  
 الأول زيدت عليه خصوصيات مختلفة ، ومزايا متضاربة بتغاير هذه الأمثلة ، ففي المثال  
 الأول تحرد من مؤكادات الحكم ، لأن المخاطب خالي الذهن . وفي الثاني تأكيد باسمية  
 الجملة استحصانا ، لأن المخاطب شاك . وفي الثالث تأكيد بمؤكدتين : اسمية الجملة وإن ،  
 لأن المخاطب منكرا إنكارا يفتضح بهما . وفي الرابع تأكيد بمؤكدات أربعة ، اسمية الجملة .  
 وإن واللام والقسم ، لأن المخاطب مسرف في الإنكار . وفي الخامس إطناب لأن للتمام  
 للمدح ، وهو يقتضى الإطناب . وفي السادس قصر للحدود على حاتم ، لأن المخاطب يمتدح  
 العكس ، فقصرت أنت قصر قلب لتعكس مراده عليه . وفي السابع تجويز في التعبير بكناية  
 قريبة واستعارة تصريحية ، لأن المخاطب على شيء من الذكاء . وفي الثامن تجويز في التعبير  
 بكناية بعيدة واستعارة مكنية ، لأن المخاطب على جانب عظيم من الذكاء ، بحيث تكفيه  
 الإشارة الخفية واللمحة القصية .

ثم إن هذه السمات البلاغية ، والاعتبارات الزائفة ، يختص بها اللسان العربي كما أن لكل لغة خصائصها .

وهذه الاعتبارات مع فصاحة القدرات هي مناط بلاغة الكلام وللتكلم . وعلوم البلاغة على سمتها ووفرة مباحثها وحسن بلاه الباحثين فيها ، لا تكفي وحدها لتصل بدارسها إلى مصاف البلغاء وذوى اللسان والبيان ، بل غابها أن يعرف بها أن هذه الحال تقتضى هذا الاعتبار . وأن تلك الحال تقتضى ذلك الاعتبار ، وهكذا . أما التطبيق والقدرة على الصياغة البلاغية فتشأ وبهد ، يتوقف على أمور كثيرة . منها الإلمام بظروف الكلام وأحوال مخاطبين . ومنها الإحاطة بدرجة تلك الأحوال قوة وضعفا . ومنها الإتيان بالخصوصيات المناسبة لهذه الأحوال والمقائمت . ومنها الذوق البلاغى أو الحاسة البهائية التى تكسب بممارسة كلام البلغاء وأسمائهم . وترويض النفس على محاكاةهم وتقليدهم وإلا فكم رأينا من موهبة فى علوم اللسان لا يحسنون صناعة الكلام ، ولا يستطيعون حيلة إلى أقل درجات البيان ، فضلا عن أن يبرزوا فى هذا الميدان . والكلام البليغ يشاوت تفاوتا بعيدا الذى ، تبعاً لدرجة توافر هذه الأمور فيه كلاً أو بعضاً . ولم تعرف الدنيا ولن تعرف كلاماً بلغ الطرف الأعلى والنهاية العظمى ، فى الإحاطة بكل انخواص البلاغية ، سوى القرآن الكريم ، الذى انقطعت دونه أعناق الفحول من البلغاء وانصهرت فى حليته أعاس الوهوبين من الفصحاء . حتى شهدوا على أنفسهم بالمرح حين شاهدوا روائع الإعجاز ، ورواوا أن كلامهم وإن علا فهو طبخة الخلق أما القرآن فهو طبخة الخلاق !

« صفة الله ! ومن أحسن من الله صفة ؟ ونحن له عابدون » .

### مقاصد القرآن الكريم

عنا أن الترجمة عرفنا لا بد أن نتناول مقاصد الأصل جسيماً ، فإننا نفتك على أن قد تعالى

في إيراد كتابه العزيز ثلاثة مقاصد رئيسية : أن يكون هداية للتأمين ، وأن يقوم آية لتأييد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن يشهد الله خلقه بتلاوة هذا الطرار الأمل من كلامه للقدس .

### هداية القرآن :

وهداية القرآن تمتاز بأنها عامة ، وتامة ، وواضحة .

أما هو مأ فلائها تنظم الإنس والجن في كل عصر وعصر ، وفي كل زمان ومكان . قال الله سبحانه : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » . وقال جالت حكمت : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مُصدقُ الذي بين يديه ، ولتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا » ، وقال عز اسمه : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » . وقال محم رحمة : « وإذ صرّفنا إليك نقرأ من الجن يستمعون القرآن ، فلما صروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين » . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه ، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم \* يا قومنا أجبوا داعي الله وآمنوا به ، ينفر لكم من ذنوبكم ويُخْرِجْكم من عذاب أليم \* ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك في ضلال مبين » .

وأما تمام هذه الهداية فلائها احتوت أرقى وأدق ما عرفت البشرية وعرف التاريخ من هدايات الله والناس ، وانتظمت كل ما يحتاج إليه الخلق في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أوضاعها وجمعت بين مصالح البشر في الحاجة والآلة ، وطبعت علاقة الإنسان به وبالكون الذي يعيش فيه ، ووقفت بطريقة حكيمة بين مطالب الروح والمجد . اقرأ - إن شئت - قوله سبحانه « ليس البر أن توكروا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن باليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ،

وأقام الصلاة وآتى الزكاة، والوفون يهدم إذا عاهدوا، والصابرين في البأساء والعسراء  
وحين البأس. أولئك الذين صدقوا، وأولئك هم للتقون». وقال حل حلاله «يا أيها  
الناس! إذا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند  
الله أتقاكم، إن الله عليم خبير». وقال عز من قائل «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات  
ما رزقناكم، واشكروا لله إن كنتم تعبدون». وقال تعالى حكاه «فإذا قضيت  
الصلاة فانكسروا في الأرض وابتنوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون»  
إلى غير ذلك من آيات كثيرة.

وأما وضوح هذه الهداية: فلعرضها عرضاً رائعاً مؤثراً، نوافرت فيه كل وسائل  
الإيضاح وعوامل الإقناع: أسلوب فذ مسجور في بلاغته وبيانه، واستدلال بسيط عميق  
يستمد بساطته وعمقه من كتاب الكون الناطق وأمثال خلاصة تخرج أدق لامةولات في  
صورة أجل للموسسات. وحكم بالانبات تبهر الأبواب بمحاسن الإسلام وجلال التشريع.  
وقصص حكيم مختار بقوى الإيمان واليقين، ويهذب النفوس والفرائز ويقتل الأفكار  
والمعاطف، ويدفع الإساءة دفعا إلى الصحة والنهضة ويصور له مستقبل الأبرار  
والفعار، تصويراً يحمله كأنه حاضر تراه الأبصار في رايقة النهار. والأمثلة على ذلك كثيرة  
في القرآن، نخرجنا استعراضها عما نحن بسبيله الآن.

ولهم أن نعلم في هذا المقام أن الهدايات القرآنية للكرمة، منها ما استفيد من معاني  
القرآن الأصلية، ومنها ما استفيد من معانيه التابعة، أما القسم الأول فواضح لا يحتاج  
إلى تمثيل، وهو موضع اتفاق بين الجميع. وأما القسم الثاني فخصه دقة جعلت بعض الباحثين  
يحادل فيه إما نوضحه لك بأمثلة نستمدّها من فائحة الكتاب العزيز:

مما: استفادة أدب الابتداء بالبسطة في كل أمر ذي بال، أخذاً من اعتداء الله  
كتابها، ومن افتتاحه كل سورة من سورته بها عدا سورة التوبة.

ومنها : استفادة أن الاستعانة في أى شئ لا تعتمد إلا من اسم الله وحده ، أخذنا من إضافة الاسم إلى لفظ الجلالة موصوفا بالرحمن الرحيم ، ومن القصر المعلوم من المسئلة على تقدير عامل الجار والمجرور متأخرا ، ومن تقدير هذا العامل عاما لا خاصا .

ومنها : استفادة الاستدلال على أن الحمد مستحقه بأمور ثلاثة : تربته تعالى للعوالم كلها ، ورحمته الواسعة التي ظهرت آثارها وتأصل اتصافه تعالى بها ، وتصرفه وحده بالجزاء العادل في يوم الجزاء . وذلك أخذنا من جريان هذه الأوصاف على اسم الجلالة في مقام حمده بقوله سبحانه : « الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين » .  
ومنها : استفادة التوحيد بتوحيده الألوهية وتوحيده الربوبية من النصرة الماثلة في قوله سبحانه : « إياك نعبد وإياك نستعين » .

ومنها : استفادة دليل هذا التوحيد من الآيات السابقة عليه ووقوعه هو في سياقها عقيها كما تقع النتيجة عقب مقدماتها .

ومنها : استفادة أن الهداية إلى الصراط المستقيم هي الطمع الأسمى الذي يجب أن يرمى إليه الناس ويتنافس فيه المتنافسون . يدل على ذلك اختيارها والافتقار على طلبها والدعاء بها ، ثم انتهاء سورة القائمة بها كما تنهى البدايات بمقاصدها .

ومنها : استفادة أن الهداية لا يرحى فيها إلا الله وحده ، لأنها انظمت مع آيات التوحيد قلما في سمط واحد .

ومنها : استفادة أدب من الآداب ، هو أن يقدم الداعي ثناء الله على دعائه ، استنباجا من ترتيب هذه الآيات الكريمة ، حيث تقدم فيها ما يتصل بحمد الله وتمجيده وتوحيده ، على ما يتصل بدعائه واستهدائه .

هذه أمثلة اقتبسناها من سورة القائمة وعن لا نظن أن أحدا يخاصم فيها . وهناك مثالين مما وقع فيه خلاف العلماء :

( المثال الأول ) استعادة وجوب الترتيب بين أعضاء الوضوء في الطهارة ، أحداً من جماعة مقتضى الظاهر في ذكر هذه الأعضاء بآية الوضوء ، إذ يقول الله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين » فانت ترى أنه - تعالت حكمته - ذكر الرأس وهو مسح بين الأعضاء لأخرى وهي معسولة ، وكان مقتضى الظاهر أن تتصل الممسولات بعضها ببعض وتذكر قبل المسوح أو بعده لأن للفضولات تماثلة ، والعرب لا تفصل بين التماثلات إلا بحكمة . والحكمة هنا هي إعادة وجوب الترتيب بين أعضاء الوضوء في الطهارة .  
على نمط الترتيب المائل في هذه الآية .

وثمة وجه آخر لاستعادة حكم هذا الترتيب أيضاً ، ذلك أن الآية المذكورة لم تعرض فيها أعضاء الوضوء مرتبة ترتيباً تصاعدياً ولا ترتيباً تنازلياً ، فلم يبدأ فيها بالأعلى متبوعة بالأسفل ولا بالأسفل متبوعة بالأعلى ، بل ذكر فيها عال ثم سافل ثم أعلى ثم أسفل ، وذلك خلاف مقتضى الظاهر ، ومثله لا يصدر في لغة العرب إلا بالحكمة وما الحكمة هنا فيها نفهم إلا إعادة وجوب الترتيب في الوضوء . وبهذا قال الشافعية والحنابلة وإن خالفهم الحنعية والمالكية .

( المثال الثاني ) استعادة وجوب مسح ريع الرأس في الوضوء ، أحداً من جماعة مقتضى الظاهر أيضاً في قوله سبحانه : « وامسحوا برؤوسكم » حيث دعت «ءاجر على الرأس وهي لمسوحة ، مع أن الظاهر كان يقتضي دخولها على آلة المسح وهي راحة اليد ، ولكن محله هذا الظاهر في كلام عربي بليغ ، دللتنا على أنه نزل الرأس مرة آلة المسح إرشاداً إلى أن اليد موضع على الرأس وتحرك كأساً مسحنا اليد بالرأس . وهذه الطريقة مسح الناصية عادة ، وهي تنشر برقع الرأس ، فالواجب إذن هو مسح ريع الرأس ، وهذا أحد الحنعية ، وإن خالفهم الأئمة الثلاثة ( رضوان الله عليهم أجمعين ) .

ولسا هنا بصد مقارنات قهية أو مولزات مذهبية ؛ حتى ندمر رأياً على رأى ، أو ربح فيها على فهم . فحيتاقى هذا الموضوع بيان دلالة نظم القرآن الكريم باعتبار معانيه الثابوية على هدايات متنوعة من عقائد وأحكام وآداب وأدلة ولطائف ، وإن اختلف الناس فى إدراكها على مقدار اختلاف مواهبهم واستعدادهم ، لأن هذه المعاني الثابوية دقيقة الطرق ، لطيفة السالكات ، ومن شأن الدقائق واللطائف أن يكون مجال التساوت بين الماهرين لها بعيداً . بخلاف دلالة نظم القرآن الكريم على هداياته باعتبار معانيه الأصلية فيها واضحة قلى أن يقع فيها تفاوت أو خلاف ، لأن هذه المعاني - كما قررنا - يستوى فيها العربى والمجسى ، والحضرى والبدوى ، والذكى والنهى .

واعلم أن قرآنية القرآن وامتيازه ، ترتبط بمعانيه الثابوية وما استفيد منها ، أكثر مما ترتبط بمعانيه الأصلية وما استفيد منها ، للاعتبارات الآتية ، ولأن المعاني الأصلية ضيقة الدائرة محدودة الأفق ، أما المعاني الثابوية فبحر زاخر متلاطم الأمواج ، تنجلى فيها علوم الله وحكمته وعظمته الإلهية ، وتظهر منها فيوصات الله وإلهاماته العلوية على من وهبهم هذه الفيوضات والإلهامات من عباده المصطفين وورثة كلامه للقرينين ، وأهل الذوق والصفاء من العلماء العاملين ، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه آمين .

### إشاز القرآن :

المقصود الثانى من نزول القرآن الكريم ، أن يقوم فى قم الدنيا آية شاهدة برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يبق على جهة الدهر معجزة خالدة تنطق بالهدى ودين الحق ظاهراً على الدين كله ١ . ووجوه إشجاز القرآن كثيرة فخصمها فى مبعتها إلى شاء الله . بيداًنا نفيك هنا إلى أن بلاغته العليا وجه بارز من هذه الوجوه . بل هى أبرز وجوه وجوداً وأعظمها أفراداً ، لأن كل مقدار ثلاث آيات قصار معجز ، ولو كان هذا

للقدر من آية واحدة طويلة . فقد تعذى الله أئمة البيان أن يأتوا بسورة من مثله ، وأقصر سورة هي سورة الكونر ، وآياتها ثلاث قصار . وإذا كان أئمة البيان في عصر ازدهاره والنباعة فيه قد عجزوا فبما نطق أشد عجزا . ولقد فرغنا من أن بلاعة القرآن منوطة بما اشتمل عليه من الخصوصيات والاعتبارات الزائدة وأنت خير بأننا صارية فيه سريان اللاء في العود الأخضر أو سريان الروح في لبس الحى ، وأن قلم القرآن الكريم مصدر الهداياته كلها سواء منها ما كان طريقه هيكل النظم ، وما كان طريقه تلك الخصوصيات الزائدة عليه . وهنا يطالعك العجب العاجب حين تجد دليل صدق الهداية الإسلامية قد آخاها ؟ وأحمد مطلعها في سماء القرآن فأدله وأداهما ١١ .

### التبذ بتلاوة القرآن .

للمقد الثالث من نزول القرآن أن يتعبد الله خلقه بتلاوته ، ويقرهم إليه وبأجرهم على مجرد تردد لفظه ولو من غير فهم ، فإذا ضوا إلى التلاوة فيها زادوا أحراراً ، قال الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ كُتِبَ اللَّهُ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ » لِيُؤْتِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ . .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة ، والحسنة بمشر أمثالها . لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » رواه الترمذى وقال : حسن صحيح . وروى الحاكم مثله مرفوعاً وقال : صحيح الإسناد وجاء في حديث آخر عن أنس أنه قال : أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن وسنده ضعيف غير أنه يتقوى بغيره ثم إن هذه خصيصة امتاز بها القرآن ، أما غيره فلا أجر على مجرد تلاوته ، بل لابد من التذكر فيه وتدبره ، حتى الصلاة هي عماد الدين ، ليس للمرء من ثوابها إلا بمقدار ما عقل منها . .



ولأننا ننفرد للقرآن بهذه اللزجة لحكم سامية ، وفوائد ذات شأن :

( أولها ) توفير عامل مهم من عوامل المحافظة على القرآن وبقائه مصوناً من التفسير والتبديل اللذين أصابا كتب الله من قبل ذلك أن هذا الأجر العظيم الذي وعده الله من يتلو كتابه العزيز ولو عبر متفهم لمعانيه ، من شأنه أن يحجب الناس في قراءة القرآن ويدفعهم إلى الإكثار منها ، ويحركهم إلى استظهاره وحفظه . ولا ريب أن انتشار انقراءه والقراء والمخفاط ، يجعل القرآن كثير الدوران على الألسنة ، واضح للعالم في جميع الأوساط والطبقات ، وهنا لا يجرؤ أحد على تغيير شيء فيه ، وإلا نقي أشد العنت من عارفيه ، كما حدث لبعض من حاولوا هذا الإجراء ، من أعداء الإسلام .

( ثانيها ) إيجاد وحدة للمسلمين لقوة ، تزرز وحدتهم الدينية ، وتيسر وسائل التفاهم والتعاون فيما بينهم ، فتقوى بذلك صفوفهم ، وتعظم شوكتهم ، وتعلو كلمتهم . وتلك سياسة إلهية عالية ، فطن لها الإسلام على يد هذا النبي الأسمى في عهد قدیم من عهود التاريخ ، ونجحت هذه السياسة نجاحاً باهراً ، حتى انصوى تحت اللسان العربي أمم كثيرة مختلفة اللغات ، وبيع منهم ناسون سبقوا كثيراً من العرب في علوم القرآن وعلوم لغة القرآن ، بينما أمم كبيرة في هذا العصر الحديث الذي يرعمونه عصر العلم والنور ، قد حاولت مثل هذه المحاولة بتفريز لسان عام ولغة عالمية مشتركة أسموها لغة « الاسبرنتو » ، فشكت محاولة فاشلة ، فصلا عن أسسها جاءت مسبوبة متأخرة

( ثالثها ) استدراج القارىء إلى التدبر والاهتمام بهذا القرآن عن طريق هذا الترميم المشوق ، وبوساطة هذا الأسلوب الحكيم .

فإن من يقرأ القرآن في يومه وهو غافل عن معانيه ، بقرؤه في عهده وهو ذاكرها . ومن قرأه في عهده وهو ذاكرها ، أو شك أن يعمل بعد عده يهديها وهكذا يشغل القارىء من درجة إلى درجة أرقى منها ، حتى يصل إلى الغاية بعد تلك البداية . « كل من سار على

الهدى وصل « ويرحم الله ابن عطاء الله الكندي إذ يقول في حكمة : « لا تترك الذكر  
لنعم حضورك مع الله فيه ؛ لأن غفلتك عن وجود ذكره ، أشد من غفلتك في وجود  
ذكره . فسي أن يرفلك من ذكر مع وجود غفلة ، إلى ذكر مع وجود يقظة ومن ذكر  
مع وجود يقظة ، إلى ذكر مع وجود حضور . ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع  
وجود غيبة عما سوى الله كور . وما ذلك على الله بعزيز » .

## حكم ترجمة القرآن تفصيلا

على صر . هذه الملاحظات التي سقناها في تحلية معنى المتضامين من ألفظ ترجمة القرآن ،  
يسهل علينا أن ندرك أن لهذا المركب الإضافي أربعة معان رئيسية ؛ ثلاثة منها ترجع إلى  
اللغة وحدها ، والرابع تشترك فيه اللغة والعرف العام للدائع بين الأمم . ولا ريب أن هذا  
المعنى الرابع هو الجدير بالناية والاهتمام ؛ لأنه المتبادر إلى الأفهام ، والمقصود في لسان  
التخاطب العام .

وها نحن أولاء نعرض تلك المعاني الأربعة ، مشفوعا كل معنى منها بحكمة المناسبة له ،  
عسى أن تكون هذه الطريقة أبعد عن الخطأ والشطط ، وأهدى إلى الصواب والاعتدال .

### ١ - ترجمة القرآن بمعنى تبليغ ألفاظه

نطلق ترجمة القرآن إطلاقا مستندا إلى اللغة ويراد بها : تبليغ ألفاظه . وحكمها حينئذ  
أنها جائزة شرعا . ولراد بالجواز هنا ما يقابل الحظر فيصدق بالوجوب وبالهدى . وإن  
شئت دليلا على ما هو صلى الله عليه وسلم كان قرأ القرآن ويسمعه أولياؤه وأعداءه وبعده  
إلى الله في موته ومهاجره ، وفي سفره وحضره ، والأمتن ورائه نهجت نهجه ، فباعت ألفاظ  
القرآن ، وتلقاها بعضهم عن بعض فردا عن فرد ، وجماعة عن جماعة ، وجيلا عن جيل ،

حتى وصل إليهم متواترا : ثم حاهو القرآن فيه بقوله كلامه ويقول : « إن الذين يكفون ما أنزلنا من التبينات والمهدي من بعد ما ينشأ للناس في الكتاب . أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » إلا الذين تابوا وأصلحوا ويتوبوا ، فأولئك أنوب عليهم وأنا التواب الرحيم » .

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « بلغوا غنى ولو آفة ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج . ومن كذب على متعمدا فليقبوا مقطعه من النار » رواه البخاري والترمذي وأحمد . ويقول صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » رواه الشيخان .

## ٢ - ترجمة القرآن بمعنى تفسيره بلغة العربية

هذا هو الإطلاق الثاني للسند إلى اللغة أيضا كامر . ويراد به تفسير القرآن بلغة العربية لا بلغة أخرى . وغنى من البيان أن حكمة الجواز بالعنى الآنف . وإن كنت في شك فهك القرآن فك يقول الله فيه لنبيه صلى الله عليه وسلم . « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » . ولقد قام الرسول صلوات الله وسلامه عليه ببيان العربى خير قيام ، حتى اعتبرت السنة النبوية كلها شارحة له ، وقيل عنها في التفسير بالماثور شي كثير . ولقد تأثر العلماء رسول الله في ذلك منذ عهد الصحابة إلى اليوم ، وهذه المسكتيات العامة والخاصة زاهرة بالتفاسير العربية للقرآن الكريم على رغم ما اندثر منها ، وعلى رغم ما بأتى به المستعمل من تفاسير يؤلفها من لا يقتنعون بقديم ، ويقلقها عنهم من محدثين أنفسهم حاجة إلى عرض جديد لمعوم القرآن والدين . مما يدل على أن القرآن بحر الله الخضم ، وأن الماء جيعا من قدامى ومحدثين ، لا يزالون وقوا بساحله ، يأخذون منه على قدر قرائنهم وفهمهم . والبحر بعد ذلك هو البحر في فيضائه واستلانه ، والقرآن هو القرآن في ثروته وغناه بمعومه وبأسرارده . « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لقد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بحمته مددا » .

## ترجمة القرآن بمعنى تفسيره بلغة أجنبية

هذا هو الإطلاق الثالث المقند إلى الامة أيضاً ويراد به تفسير القرآن بلغة غير لغته، أى بلغة عممية لا عربية. ولادىب عندنا فى أن تصير القرآن بلسان أجنبى لمن لا يحسن العربية، يجرى فى حكمه يجرى تفسيره بلسان عربى لمن يحسن العربية. وكلاهما عرض لما يفهمه المفسر من كتاب الله بلغة يفهمها مخاطبه، لا عرض لترجمة القرآن «معه»، وكلاهما حكاية لما يستطاع من المعانى والمقاصد، لا حكاية لجميع المقاصد. وتفسير القرآن الكريم يكفى فى تحفته أن يكون بياناً لمراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ولوجاه على احتمال واحد؛ لأن التفسير فى الامة هو الإيضاح والبيان، وهما يتحققان ببيان المعنى ولو من وجه، ولأن التفسير فى الاصطلاح علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية، وهذا يتحقق أيضاً عرض معنى واحد من جملة معانى اهتمام التنزيل. وإذا كان تفسير القرآن بياناً لمراد الله بقدر الطاقة البشرية، فهذا البيان يستوى فيما كان بلغة العرب وما ليس بلغة العرب، لأن كلاهما مقدور للبشر، وكلاهما يحتاجه البشر، بيد أنه لابد من أمرين: أن يستوفى هذا النوع شروط التفسير باعتبار أنه تفسيره وأن يستوفى شروط الترجمة باعتبار أنه نقل لما يمكن من معانى اللفظ العربى بلغة غير عربية. وشروط التفسير ذكرناها فى الجزء الأول بالبحث الثانى عشر من هذا الكتاب، وشروط الترجمة ذكرناها بهذا البحث من كتب.

### أمر مهم :

ونستعنى نظرك إلى أمور مهمة : ( أولها ) أن علماءنا حظروا كتابة القرآن بحروف غير عربية وعلى هذا يجب عند ترجمة القرآن بهذا المعنى إلى أية لغة أن تكتب

الآيات التراكبية إذا كتبت بالحروف العربية . كيلا يقع إخلال وتحريف في لفظه ؛  
فيشتمها تغير وفاد في معناه .

سئلت لجنة الفتوى في الأزهر عن كتابة القرآن بالحروف اللاتينية ، فأجابت بعد  
حمد الله والصلاة والسلام على رسوله بما نصه <sup>(١)</sup> « لا شك أن الحروف اللاتينية المعروفة  
خالية من عدة حروف نوافق العربية ، فلا تؤدي جميع ما تؤد به الحروف العربية ، فوكتب  
القرآن الكريم بها على طريقة النظم العربي - كما يفهم من الاستفتاء - لوقع الإخلال  
والتحريف في لفظه ، ويقيمها تغير للمعنى وفاده . وقد قضت نصوص الشريعة بأن يسان  
القرآن الكريم من كل ما يضره للتبديل والتحريف . وأجمع علماء الإسلام سافنا وخلفا  
على أن كل تصرف في القرآن يؤدي إلى تحريف في لفظه أو تغيير في معناه ممنوع مما  
بأننا ، ونحرم تحريما قاطعا . وقد التزم الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم إلى يومنا  
هذا كتابة القرآن بالحروف العربية » .

( الأمر الثاني ) : أن تفاسير القرآن المتداولة بيننا تتناول للفرد من الأصل ، ويحاييه  
شرحه ، ثم تتناول الجملة أو الآية وشرحها متصل بها كذلك غالبا . ومعنى هذا أن ألفاظ  
القرآن مذبذبة في تداني التفسير على وجه من الارتباط والإحكام ، بحيث لو جردنا التفاسير  
من ألفاظ الأصل لعادت التفاسير لقوا من القول ، وضربا من الضعف ونحن لا نريد هنا  
في تفسير القرآن بلغة أجنبية أن تذكر مفردات القرآن وجملة مكتوبة تلك اللغة الأجنبية  
أو مترجمة هذه اللغة ، ثم تشفع بتفسيرها للذكور ؛ فلقد قررنا أن كتابة القرآن بغير  
العربية ممنوعة وستقرر أن ترجمته بالمعنى العرفي مستحيلة . إنما يريد هذا نوعا من  
التفسير يحور أن يصدر بطائفة من ألفاظ الأصل على ما هي عليه في عروتها رسما ولفظا ،  
إذا وصح لطائفة من المسلمين ثم يذكر عتبها للمعنى الذي فهمه للقرآن غير مختلط بشئ من

ألفاظ الأصل ولا ترجمته ، بل يكون هذا اللفظ كله من كلام المفسر ، وبصاغ طريقة تدل على أنه تفسير لا ترجمة كأن يقال : معنى الآية للرقومة برقم كذا من سورة كذا هو كذا وكذا . أو يقال في أول كل نوبة من نوبات التفسير : معنى هذه الجملة أو الآية كذا . ثم يبين في كلتا الطريقتين أن هذا اللفظ مقطوع به أو أنه محتمل ، ويستطرد بما يظن أن حاجة المخاطبين ماسة إليه من التعريف بالمصطلحات الإسلامية ، والأسرار والحكم التشريعية والتفنيه على الأخطاء التي وقعت فيها الترجمات للرغومة ، وبمحو ذلك مما يوقع في روع القارئ أن ما يقرؤه ليس ترجمة للأصل محبطة بجميع معانيه ومقاصده ، إنما هو تفسير فحسب ، لم يحمل من معاني القرآن ومقاصده إلا قُلًّا من كثر ، وقطرة من بحر . أما القرآن نفسه فأعظم من هذا التفسير بكثير ، كيف وهو النص المنجز في ألفاظه ومعانيه من كلام العظيم الخبير ١٩ .

( الأمر الثالث ) : أن ترجمة القرآن بهذا اللفظ مساوية لترجمة تفسيره العرفي . لأن الترجمة هنا لم تتناول في الحقيقة إلا رأى هذا المفسر وفهمه لما أراد الله على قدر طاقته ، خطأ كان فهمه أو صواباً ، ولم تتناول كل مراد الله من كلامه قطاً . فكأن هذا المفسر وصح أولاً تفسيراً عربياً ثم ترجم هذا التفسير الذي وضعه . وإن شئت فقل : إنه ترجم تفسير القرآن قائم هو به غير أنه لم يدونه ، وأنت خير بأن التفسير هو التفسير ، سواء أدونه صاحبه أم لم يدونه .

( الأمر الرابع ) ذهب بعضهم إلى تسمية هذا النوع وما يشبهه ترجمة تفسيرية للقرآن بالمعنى العرفي . ونحن - مع علمنا بأن الخلاف في التسمية تافه - لا نستطيع أن نرى رأيهم ، لشهادة العرف التي ألفناها ثم اعتمدنا عليها في رسم الفوارق الأربعة بين أي ترجمة وأي تفسير . فترجمة القرآن - على فرض إمكانها - تصوير لكل ما أراد منزهة من معانيه ومقاصده وترجمة التفسير تصوير لكل ما أراد للمفسر من معانيه ومقاصده . والقرآن لا يمكن أن يكون في معانيه للريادة لله خطأ أبداً ، فإذا صعدت ترجمته على فرض إمكانها ، وجب ألا

تحمل ولا تصور خطأ . أما التفسير فيمكن أن يكون في معانيه المرادة للتفسير خطأ أى خطأ ، وعلى هذا فترجمة هذا التفسير ترجمة صحيحة لابد أن تحمل هذا الخطأ ونصوره ؛ وإلا لما صح أن تكون ترجمة له لأن الترجمة صورة مطابقة للأصل ، ومراة حاكية له على ما هو عليه ؛ من صواب أو خطأ ، إيمان أو كفر ، حق أو باطل .

والفرق بين المعاني والأسرار الجلية والظنية إلى درجة تميز الحقوق عن الإحاطة بها ، فضلا عن قدرته على محاسنها وتصورها ، بلغة عربية أو أجنبية . أما التفسير فماني محدود ، لأن قدرة صاحبه محدودة ، مهما خلق في سماء البلاغة والفلم . وعلى هذا فمقدمة أى مصوره ، نستطيع التقاطه ونصوره بالترجمة إلى أية لغة .

( الأمر الخامس ) : يجب أن نسمى مثل هذه الترجمة ، ترجمة تفسير القرآن ، أو تفسير القرآن بلغة كذا . ولا يجوز أن نسمى ترجمة القرآن بهذا الإطلاق القنوى الخفى ، لما علمت من أن لفظ ترجمة القرآن مشترك بين معان أربعة ، وأن المعنى الرابع هو المتبادر إلى الأذهان عند الإطلاق ، فنارا إلى أن العرف الأسمى العام لا يعرف سواء . ولا يجوز أيضا أن نسمى ترجمة معاني القرآن ، لأن الترجمة لأنصاف إلا إلى الألفاظ ، ولأن هذه القسمية توهم أنها ترجمة للقرآن نفسه ، خصوصا إذا لاحظنا أن كل ترجمة لا تنقل إلا للمعاني دون الألفاظ .

( الأمر السادس ) يحسن أن يكون التفسير العربي ونشفع به ترجمته هذه ، ليكون ذلك أنقى للريب ، وأحدى للحق ، وأظهر في أنه ترجمة تفسير لا ترجمة قرآن ، ومن عرف قدر القرآن لم يبتل عليه بهذا الاحتياط ، لاسيما في هذا الزمن الذى تسرف فيه أعداء الإسلام ، وحاربوا فيه بأسلحة مسمومة من كل مكان .

( الأمر السابع ) يجب أن يصدر هذا التفسير للترجم بمقدمة تنق عنه في صراحة أنه ترجمة للقرآن نفسه ، وتبين أن ترجمة القرآن نفسه بالمعنى المتعارف أمر ذو محرمات اعتقاد ،

لأن طبيعة تأليف هذا الكتاب تأبى أن يكون له نظير بما كيه، لا من لفته ولا من عرلته، وذلك هو معنى إبحاره البلاغى. ومن أراد أن يتصور هذا اللون من ألوان إبحره فليقتل هو إلى هذا الكتاب ولفته، ويتدوق بها وبأساليبها، ومن الحال أن يقتل هذا الكتاب العرب، تاركاً عرشه الذى يراه الله إياه وهو عرش اللغة العربية. وماذا ببقى لله من عره وسطان إاده على عرشه وملكه ؟ وهذا القرآن جعله الله ملك الكلام، ووجه شج الإبحر، واحتار لفته العربية مظهر لهذا الإعجاز والاعتزاز ! وإنه لكتاب عربى لا يأنه الساطل من بين يديه ولا من خلفه، سزيل من حكم جيد .

### فوائد الترجمة بهذا المعنى

لترجمة القرآن بهذا المعنى فوائد كفا فى غنى عن بيانه، عما أشرنا إليه من أنها كالنفس العربى الذى اتفق الجميع على جوازه بشرطه . ولكن بعض الباحثين توقعوا فى حوار هذه الترجمة كما توقعوا فى حوار الترجمة بالمعنى الآتى مع بعد ما بينهما ؛ ثم تدرعوا به لا فائدة ترجى منها، وأثاروا شبهات حولها. لهذا بسط القول ببيان فوائد هذه الترجمة، ثم دفع الشبهات عنها . أما فوائدنا فنشرها فيما يأتى :

( المائدة الأولى ) : رفع النقاب عن جمال القرآن ومحاسنه لمن لم يستصع أن يراها عنظر اللغة العربية من السالمين الأعاصم ، وتيسير فهمه عليهم بهذا النوع من الترجمة، ليردادوا، يتدأوا مع إيمانهم ، ومعظم تقديرهم للقرآن، وبشتد شوقهم إليه، فيبتدوا بهديه، ويعترفوا من بحره، ويستمتعوا بما حواه من نبل فى القاصد وقوه فى الدلائل، وسمو فى الانتعاصم ، ووصوح وعنى فى العقائد، وطهر ورشد فى العبادات، ودفع قوى إلى مكارم الأخلاق ، وردع زاجر عن الرذائل والآثام ، وإصلاح معجر للفرد وللجموع، واحتفير موقف لأحسن القصص ، وإخيار عن كثير من أنباء الغيب ، وكشف عن معجزات



أكرم الله بها رسوله وأمه ، إلى غير ذلك مما من شأنه أن يسو بالنفوس الإنسانية ، ويملا العالم حضارة صحيحة ومدنية .

وإليك لتستطيع أن ترى هذه الفائدة ماثلة بين عينيك إذا ما شاهدت أستاذاً يمتدحها بلقى درسا من دروس التفسير على العامة ، يحل معاني القرآن لم يمهارة ، ويتعلل إلى مستوهم فيخططهم ، ويتغير من المعاني أصحها وأمسها بمخاطبتهم ، ويعالج هذا المناسبة ما يعرف من حوائجهم وشبهتهم . والله لكأنى بهذا الدرس المثلوق قد نفع فيهم من روح القرآن فأحيا موائهم ، وداوى أمراضهم ، ولادهم إلى النهضة ، وجعلهم يؤمنون بهذا الكتاب من علم وذوق وشعور ووجدان ، مدان كانوا يؤمنون به إيمانا أشبه بالتقليد الأعمى أو بمحاكاة المصبيان .

ولقد دلتنا التجارب على أن كثيرا من هؤلاء الذين أحسوا جلال القرآن من طريق تفسيره ، فكرروا في حفظه ، واستظهاره ودراسة معناه وعلموه ، وليرثعوا بأفهامهم من منبهه الروى ، ويشبعوا نهمتهم من غذائه المعنى ، مادام هذا التفسير وغيره لا يعمل كل معنى الأصل ، وما دام ثواب الله يجرى على كل من ظرف الأمل أو تلا نفس ألقاظ الأصل .

( الفائدة الثانية ) دفع الشبهات التى لفتها أمداء الإسلام وألصقوها بالقرآن وتفسيره كدبا وانفراء ثم ضلوا بها هؤلاء المسلمين الذين لا يمحذون اللسان العربى فى شكل ترجمات مزعومة للقرآن ، أو مؤلفات علمية وتاريخية للطلاب ، أو دوائر معارف للقراء ، أو دروس ومحاضرات للجمهور ، أو صحف ومجلات للعامة والخاصة .

( الفائدة الثالثة ) تنوير غير المسلمين من الأجانب فى حقائق الإسلام ونسليمه ، خصوصا فى هذا العصر القائم على المعايير ، وبين تيران هذه الحروب التى أوقدها أهل الملل والمحل الأخرى ، حتى ضل الحق أو كاد يضل فى سواد الباطل ، وخنقت صوت الإسلام أو كاد يمحى بين ضجيج غيره من المذاهب للطرفة والأديان المنعومة .

(الفائدة الرابعة) إدارة الحواجز والمواثيق التي أقامها الخبيثاء الماكرون الحيلولة بين الإسلام وعشاق الحق من الأمم الأجنبية. وهذه الحواجز والمواثيق تتركز في الغالب على أكاذيب اغتروها تارة على الإسلام، وتارة أخرى على نبي الإسلام - وكثيرا ما يسبون هذه الأكاذيب إلى القرآن وتفسيره، وإلى تاريخ الرسول وسيرته، ثم يدمسوها فيما يزعمونه ترجحات للقرآن، وفيما يقرأ الناس ويسمعون بالوسائل الأخرى - فإذا نحن ترجمنا تفسير القرآن أو فسرنا القرآن لغة أخرى مع العناية بشروط التفسير وشروط الترجمة، ومع العناية العامة بدفع الشبهات والأباطيل الرائجة فيهم عند كل مناسبة، تزلزلت بلا شك تلك القصور التي أقاموها من المفارقات والأباطيل، وزالت العقبات من طريق طلاب الحق وعثقه من كل قبيل.

وهالك كلمة يؤيدنا بها للكتاب الإنجليزي الشهير (برناردشو) إذ يقول : « لقد طبع رجال السكينة في القرون الوسطى دين الإسلام بطابع أسود حالك، إما جهلا وإما نهماء، لأنهم كانوا في الحقيقة مسوقين سامل بنفي محمد ودبته، فعندهم أن محمداً كان هدوا للمسيح . ولقد درست سيرة محمد الرجل المجيب ، وفي رأي أنه بعيد جداً من أن يكون هدواً للمسيح . إنما ينبغي أن يندى منفذ البشرية، الخ ما قال بمجلة ذي مسلم ريفوبلسكنو المحدث في جزء مارس سنة ١٩٣٣ .

(الفائدة الخامسة) براءة ذمتنا من واجب تبليغ القرآن بلفظه ومعناه ، فإن هذه الترجمة جمعت بين النص الكريم بلفظه ورسمة التربين ، وبين معاني القرآن على ما فهمه القصر وشرحه مائة الأجنبية ، قال السيوطي وابن بطال والحافظ ابن حجر وغيرهم من العلماء : « إن الرحي يحب تبليغه . ولكنه قسبان : قسم تبليغه بلفظه ومعناه وحبوا ، وهو القرآن . وقسم يصح أن يبلغ بمعناه دون لفظه ، وهو ما عدا القرآن . وبذلك يتم التبليغ » .

## دفع الشبهات عن هذه الترجمة

### الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون : إن المترجم للتعريب مصطلح إلى الترجمة العرفية المسووعة وهي ترجمه كل ما يسوقه في كل نوبة للتعريب من آية أو آيات ، لأن التفسير بيان ، فلا بد أن يعرف المبين أولاً ثم يعرف البيان ، ولأنه إذا ترجم التفسير بدون الآية كانت الترجمة غير مؤدية للمطلوب ، لعدم التقاسم مع ما قبلها .

ونحيب على هذا بأننا شرطنا ألا تكون اللفظ الأصل ولا ترجمتها العرفية منبثقة بين ثنايا التفسير بلغة أجنبية ، بل قلنا : إن التفسير يحزأ أجزاء ، ونساق الآية أو الآيات في كل نوبة من نوبات هذه التجزئة باللفظ والرسم العربيين ، إن كنا نترجم هذه الترجمة طائفة من إخواننا المسلمين ، ثم يشار إليها في تفسيرها فيقال : معنى هذه الآية أو الآيات كذا . أو يقال : الآية للرقومة رقم كذا من سورة كذا مصاحها كذا وكذا . . بعبارة مجردة من اللفظ الأصل وترجمتها ترجمة عربية . ويمكن في ارتباط المبين ببيانه أن يكون بأي وجه من وجوه الارتباط وهو هنا قد ذكر أولاً بلفظه ورسمه العربيين ، ثم أشير إليه باسم إشارة أو ببيان رقمه من السورة واسم سورته من القرآن .

أما الانتقام فمن السهل رعاية الانسجام بين جل التفسير بعضها مع بعض في كل نوبة في نواته . وأما انسجام هذه النوبات كلها بعضها ببعض ، بحيث يتألف منها كلام واحد متراط كأنه سبيكة واحدة شيء لم يشترطه أحد في التفسير ، ولا يصيرنا فقد شينا مادام التفسير كلاما متجا على نوبات متفرقة ، لا كلاما واحدا في نوبة واحدة ، وأما انتقام الآيات بعضها ببعض فهو حاصل لا محالة ولكن ليس من الواجب أن يمرض في هذا التفسير ولا غيره من التعاسير

### الشبهة الثانية ودفعها :

يقولون : إن تفسير القرآن يشتمل عادة على كيفية تعلق ألفاظه ومدلولات معردياته ، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التي تحمل عليها حال التركيب ، واختلاف أسماى عند الوقف على بعض الكلمات والابتداء بما بعدها وعند وصل الأولى والثانية . ويشتمل أيضا على معرفة السنة لأسماى بيان القرآن ، وعلى أقوال الصحابة ولأئمة المجتهدين وغير ذلك وترجمة مثل هذا مع الاستيفاء أمر متعذر .

ونجيب على هذا بأن استيفاء الأمور المذكورة لم بشرطه أحد في أصل التفسير العربي ، فبعضه ألا يشترط ذلك في ترجمته وهي صورة له . كيف وقد علمنا أن التفسير هو البيان ولو من وجه . وكل ما على المفسر أن يكون حكما ، يلاحظ حال من يفسر لم على قدر طاقته ، فيضمن تفسيره ما يحتاجون إليه ، ويفهم مما لا تسمع عقولهم ، وإلا كان فتنه عليهم . ولعل ذلك سر من أسرار تنوع التفاسير العربية التي بين أيدينا ، ما بين مختصر ومتوسط ومطول ، وما بين تفسير بالأثر وتفسير بالمعقول . وما بين تفسير معنى بالمعنى البلاغية وآخر معنى بالمعنى النحوية ، وثالث معنى بالمعنى الكلامية ، ورابع معنى بالمعنى الفقهية ، إلى غير ذلك .

وإذا كان هذا مما لا أمام أعيننا في التفاسير العربية ، فكيف نذهب إلى إنكاره إذا وقع مثله في التفاسير بلغة أجنبية ؟

### الشبهة الثالثة ودفعها :

يقولون : لا حاجة إلى هذا التفسير لمن غير عربي ، ولا إلى ترجمة أي تفسير من التفاسير ، لإسكان الاستعلاء عنها بترجمة تعاليم الإسلام وهداياته .

والجواب أما أننا نرى الحاجة إليه في المواضع التي ذكرناها آنفا ثم إن ترجمة تفسير القرآن وتفسير القرآن بلغة أجنبية . كلاهما مثل ترجمة تعاليم الإسلام وهداياته . فكلاهما

معارف دينية ، وكلها من كلام البشر لا من كلام الله المجز . وقد جوزتم ترجمة تعاليم الإسلام وهداياته . فلتبصروا ترجمة التفسير بلغة أجنبية أيضا ، لأن ما جاز على أحد اللذين يجوز على الآخر قطعا .

ثم إن الرسائل المتعددة من الإسلام وتعاليمه بلغات أجنبية ، قد تكون ضرورية لا بد منها في بعض الظروف والمنااسبات ، ولكنها لا تنفي من هذا التفسير الذي نحن بصدده الآن ، الفوائد التي شرحناها قريبا فيه ، فوجوده شاهد من مشاهد الحق على إعلان ما جاء في تلك الترجمات الخطاطة ، ييسر على النعمتين وطلاب الحقائق أن يحاكموا تلك الترجمات إلى ما جاء في هذا التفسير خصوصا إذا صدر من هيئة إسلامية موثوق بها ، ومرض عند كل مناسبة - كقلنا - لنقص الشبهات التي صلت فيها الترجمات الزائفة . يضاف إلى هذا أن المسلم الأعجمي يستعين بهذا التفسير على تدبر كتاب الله وتفهمه لأية آية من أية سورة يريد . والرسائل المقترحة لا يمكن أن تنفي بذلك كله .

وإن آيت إلا مثلا مما قرره علمونا في ذلك فاستمع إلى حار الله الزمخشري عند تصديره لقوله سبحانه : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » إذ يقول ما نصه : « فإن قلت : لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث إلى الناس جميعا » قل يا أيها الناس إن رسول الله إليكم جميعا » ، بل إلى الثقلين وهم على السنة مختلفة . فإن لم تكن العرب حجة فليقرهم الحجة . . . قلت : لا يخلو : إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها . فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تدوب عن ذلك وتكفي التطويل فيبقى أن ينزل لسان واحد . فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول ، لأنهم أقرب إليه ، وإذا هموا عنه ويعصوه وتوقل عنهم وانقشروا قامت التراجم ( كذا ) بدوانه وتفهمه ، كما ترى الحال وتشاهد ما من بياضة التراجم في كل أمة من أمم العالم ، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاغة والنباهة ، والآثار المتشابهة والأمم المختلفة ، والأجيال المتعاقبة على كتاب واحد ،

واحتياطهم في تعلّم لفظه وتعلّم معانيه ، وما يقتضب عن ذلك من جليل الفوائد ، وما يشكّر في إغناء النفوس وكثرة القرائح فيه من القرب والطاعات ، الفضية إلى حزيل الثواب .  
ولأنه أسد من الحصرى والتبديل ، وأسلم من التفرع والاختلاف . ولأنه لو نزل باللسنة الثنتين كلها مع اختلافها وكثرتها وكان مستقلاً بصفة الإيجاز في كل واحد منها ، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها يتلو عليهم معجراً ، لكان ذلك أمراً قريباً من الإجماع . ١٠ باختصار طفيف .

وقوله : « قامت التراجم بيباه وتفهيمه » يشعر بأن مراده تفاسير القرآن بلغات أجنبية ، لا ترجمات القرآن نفسه بالعنى العرفي . وذلك لأن التفسير هو الذى يبين القرآن ويفهمه . أما الترجمة فتصوير للأصل بحسب ولبس من وظيفتها البيان والتفهيم . ولو كان مراده بالترجمات ترجمات القرآن نفسه لم يستقم كلامه لأن الذين فهموا القرآن عن الرسول والذين يتلوهم لم يفهموا بترجمة القرآن الكريم إلى الأمم المختلفة . إنما شرحوه لهم بعد أن يفهم نفس ألفاظه العربية .

وما يؤيد ذلك قوله : « مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد للتباعدة الخ » . لأن اجتماع الجميع على كتاب واحد ، لا يأتى مع وجود ترجمات لنفس الكتاب ، بل هو مدعاة إلى الانصراف عن الأصل اكتفاء بالترجمات كما تقدم تفصيل ذلك . فتأمل .

#### ٤ — ترجمة القرآن بمعنى نقله إلى لغة أخرى

هذا هو الإحلاق الرابع للسقند إلى اللغة . ثم هو الإحلاق الوحيد في معرفة الصحاح الأسمى للمام .

ويمكننا أن نعرف ترجمة القرآن بهذا الإحلاق تعريفاً مضبوطاً على نمط تعريفهم فنقول : هي نقل القرآن من لغة العربية إلى لغة أخرى . ويمكننا أن نعرفها تعريفاً

منسوطا فنقول: ترجمة القرآن هي التعبير عن معاني ألفاظه العربية ومقاصدها بألفاظ غير عربية ، مع الوفاء بجميع هذه المعاني والمقاصد .

ثم إن لوحظ في هذه الترجمة ترتيب ألفاظ القرآن ، فذلك ترجمة القرآن الحرفية أو اللفظية أو المساوية ، وإن لم يلاحظ فيها هذا الترتيب ، فذلك ترجمة القرآن التفسيرية أو اللغوية .

والناظر فيما سلف من الكلام على معنى الترجمة وتفسيرها والفروق بينها وبين التفسير يستفي هنا من شرح التعريف والمتمثل للمعرف في قسميه ؛ كما يستفي من الدليل على أن هذا المعنى وحده هو المعنى الاصطلاحي للترجمة في لسان المتخاطب العام بين الأمم ، ويعلم أن ترجمة القرآن بهذا المعنى خلاف تفسيره بلغة العربية . وخلاف تفسيره بشير لفته العربية ، وخلاف ترجمة تفسيره للمعنى ترجمة حرفية أو تفسيرية ، فارجع إلى هذا الذي أسلفناه إن شئت .

### الحكم على هذه الترجمة بالاستعانة بالمادية :

أما حكم ترجمة القرآن بهذا المعنى فالاستعانة بالمادية والشرعية أي عدم إمكان وقوعها عادة ، وحرمة محاولتها شرعا . ولنا على استعانتها بالمادية طريقتان في الاستدلال :

( الطريق الأول ) أن ترجمة القرآن بهذا المعنى تستلزم الخيال ، وكل ما يستلزم الخيال محال . والدليل على أنها تستلزم الخيال أنه لا بد في تحقيقها من الوفاء بجميع معاني القرآن الأولية والثانوية ، وبجميع مقاصده الرئيسية الثلاثة ، وكلا هذين مستحيل . أما الأول فلأن المعاني الثانوية للقرآن مدلوله علمائمه العليا التي هي مناط بلاعته وإعجازه كما يسا من قبل ، وما كان لبشر أن يحيط بها فضلا عن أن يحاكيها في كلام له ، وإلا لا تحقق هذا الإعجاز . وأما الثاني فلأن المقصد الأول من القرآن - وهو كونه هداية - إن

أمكن تحقيقه الترجمة بالنسبة إلى كل ما يفهم من معاني القرآن الأصلية فهو لا يمكن تحقيقه  
بالنسبة إلى كل ما يفهم من معاني القرآن التابعة ؛ لأنها مدلولات لخصائصه العليا التي هي مناط  
إشارته البلاغي كما سبق .

وكذلك مقصد القرآن الثاني وهي كونه آية لا يمكن تحقيقه فيما سواه من كلام البشر  
عرب كان أو عجماء وإلا لما صح أن يكون آية حارقة ، ومعجزة غير ممكنة ، حين تناول  
هذا المقصد قدرة البشر . كيف والفروض أن القرآن آية بل آيات ، ومعجزه بل معجزات  
لا تقدر عليها إلا الله وحده حل وعلا ؟ !

وبجري هذا الجري مقصد القرآن الثالث . وهو كونه مقصداً لتلاوته ، فإنه لا يمكن  
أن يتحقق في الترجمة ، لأن ترجمة القرآن غير القرآن قطعا . وللتعبد بالتلاوة إنما ورد في  
حصوص القرآن وألفاظه عيها بأسمائها وترتيبها نفسها ، دون أي ألفاظ أو أساليب  
أخرى ، ولو كانت عريضة مرادفة لألفاظ الأصل وأسمائها .

( انظر إلى الثاني ) أن ترجمته القرآن بهذا المعنى مثل القرآن ، وكل مثل للقرآن  
مستحيل أما أنها مثل له فلاها جمعت معانيه كلها ومقاصده كلها لم تترك شيئا ، والجامع  
لمعاني القرآن ومقاصده مثل له أي مثل . وأما أن كل مثل للقرآن مستحيل ، لأن القرآن  
تحدى العرب أن يأتيوا بمثله أقصر سورة منه ، معجزوا عن المعارضة والحكاية ، وهم يومئذ  
أئمة البلاغة والبيان ، وأحرص ما يكونون على التلبية والفوز في هذا الليدل وإذا كان  
هؤلاء قد عجزوا وانقطعوا ، معجزهم بمنهم دوسهم بلاغة وبيانا أشد عجرا وانقطاعا . « وإن  
كسبتم في رب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن  
كنتم صادقين » . « وإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة »  
أعدت للكافرين » . وإذا كان الإس والجن قد حقت عليهم كلمة العجز عن أن يأتيوا  
بمثله أقصر سورة منه بقلته العربية ، فأحرى أن يكون عجزهم أظهر لو حاولوا عبده  
للمعارضة بلغة غير عربية لأن اتحاد اللغة في الساجدة بين كلامين ، من شأنه أن يقرب



التشابه والمماثلة إذا كانا ممكنين . نظرا إلى أن الخصائص البلاغية واحدة فيما به التحدى وما به الممارسة . أما إذا اختلفت لغة التحدى ولغة الممارسة فهذه أن يتحقق التشابه والمماثلة بدقة ، لأن الخصائص البلاغية في أحد اللغتين غير الخصائص البلاغية في اللسان الآخر . ويوجد منها في أحدهما ما يوجد في الآخر . فيتميز المتماثل ويتميز المتماثل قطعا . ولهذا بصرح كثير من المتكلمين في اللغات بأن ترجمة النصوص الأدبية في أية لغة ترجمة دقية أمر مستحيل . وأن ما يتداوله الناس مما يرمونه بترجمات لبعض كتب أدبية فهو مبني على صرب من التسامح في نقل معاني الأصل وأعراسه بالتقريب لا بالتحقيق . وذلك عبر الترجمات الدقيقة لمثل العلوم والقوانين والوثائق للتبسيط ، فإنها ترجمات حقيقية ، مبنية على نقل معاني الأصل وأعراسه كلها بالتحقيق لا بالتقريب .

واسكنى موضع لك معنى للتالية المستحيلة في ترجمه القرآن بهذا المعنى ، رشداً إلى أن هذه الترجمة لا تتحقق إلا بأمر بعضها مستحيل وببعضها ممكن . ذلك أنه لا بد فيها - على صوة ما تقدم - من أن تكون وافية بجميع معاني القرآن الأصلية والثانية على وجه معناه . وأن تكون وافية كذلك بجميع مقاصده الثلاثة الرئيسية ، وذلك أمور مستحيلة التحقق كما سبق بيانه . ثم لا بد فيها أيضا من أن تكون مبنية على صحة استقلالية ، خالية من الاستطراد والتريد ، وذلك أمور ممكنة الوقوع في ذاتها ، لكنها إذا أضيفت إلى ما فيها من المجموع مستحيلا ، لأن للترائف من الممكن والمستحيل مستحيل .

فإذا أريد بذلك أن تكون ترجمة القرآن هذه حرفية ، وجب أن يشتر فيها أمران رائدان : وجود مفردات في لغة الترجمة مساوية لمفردات القرآن ، ووجود مبادئ وروابط في لغة الترجمة مساوية لروابط القرآن ، حتى يمكن أن يحل كل مفرد من الترجمة محل نظيره من الأصل ، كما هو للشرط في الترجمة الحرفية . وهذا - لمعنا - مما يريد التمدد استفحالا والاستحالة أيضا ، ويجعل هذه الترجمة - لو وجدت - مثلا للقرآن ياله - مثل ، وشيها لا يطاوله شيء ، ومطارضا لا يقابله معارض . وقد عرفت دلائل

إعلان كل ما يصدق عليه أنه مثل للقرآن وفي هذا يقول الله سبحانه : « قل نحن اجتمعنا الإس والخن على أن يأتيوا بمثل هذا القرآن لا يأتيون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظمراً » . فعلى المثلية عن القرآن كما هي المثلية عن الله في قوله « ليس كغير شيء » ، وبالع في النفي وفي التعدي لجميع الإس والخن على هذا المعنى . ثم أكد هذا النفي وهذا التعدي مرة أخرى بتقرير عمر الثقلين عن المثلية ، على قرص معاونة بعضهم لبعض فيها ، واجتماع قواهم الباطنية والعلمية عليها .

الحكم على هذه الترجمة بالاستحالة الشرعية :

الآن وقد قرر أن ترجمة القرآن بهذا المعنى العرفي من قبيل المستحيل العادي ، لا يتردد في أن يقرر أيضاً أنها من قبيل مستحيل شرعي ، أي المحذور الذي حرمه الله . وذلك من وجوه ثمانية :

« الوحة الأولى » أن طلب استحليل العادي حرمه الإسلام ، أي كان هذا الطالب ولو بطريق الدعاء ، وأما كان هذا استحليل برحمة أو غير ترجمة ، لأنه صرب من العت ، وتصيب الوقت والمجهود غير طائل والله تعالى يقول : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » . وانس صلى الله عليه وسلم يقول : « لا صرر ولا صرار » . رواه الحاكم في المستدرك وقال : صحيح على شرط مسلم ، يضاف إلى ذلك أن طلب المستحيل ما أدى إلى أو جعل من الله الكونية ، ومحكمة في ربط الأسباب بمسماها العادية ، تأميمها خلفه ، ورحمة بمبادئ « إن الله بالأساس لهوف رحيم » .

ولقد بعدد بعض الجهلة إذا ظنوا أن بعض الحالات أمور محكمة فصدوها ، ولكن الذي يحاول ترجمة القرآن بهذا المعنى لا بعدد محال . لأن القرآن منه أعذر حين أئذ بأنه لا يمكن أن يأتي الخن والإس مثله ، وإن احتموا له وكان بعضهم لبعض ظميراً وبذلك « قطعت جبهة قول كل حطيب » .

« الوجه الثاني » أن محاولة هذه الترجمة فيها ادعاء عمل لإمكان وجود مثل أو أمثال للقرآن ، وذلك تكذيب شنيع لأصريح الآية السابقة . ولقوله سبحانه . « وقال الذين لا يرجون لقاءنا انتِ بقرآنٍ غير هذا أو بذِّكْ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبْدِلَهُ مِنْ يَدَيْهِ نَفْسٌ ، إِنْ أُنْعِمُ إِلَّا مَا يَوْحِي إِلَيَّ . إِنْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَدَّتْ عَذَابِي وَمِنْ عَظِيمِ \* قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَذَلَّلْتُ فَيْكُمْ عَمْرًا مِنْ قَبْلِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ »

في المأمل في هاتين الآيتين يجد فهما وجوهاً دالة على التحريم ، حيث عبور الله عن طلب التبديل بأنهم لا يرجون لقاءه ؛ وأمر الرسول أن ينهى شعباً عما لم يمكنه بدله من لفظ نفسه ، كما أمره أن يعلن أن اتباعه مقصور على ما يوحى إليه سبحانه أو إحصاءه . ومعنى هذا أن التبديل هو هوى من الأهواء الماطلة ، والرسول لا يطيع أهواءهم ولا هوى نفسه ولا هوى أحد . « وما نطقُ عن الهوى \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى » وفي حتم الآية الأولى إشارة إلى أن هذه المحاولة التي يحاولونها عصيان لله ، وأنه يحاسبهم عذاب يوم عظيم . وفي الآية الثانية إعلام بأن القرآن من محض فضل الله ، وأن الرسول لا كان يستطيع بلادته عليهم ، ولا كان الله يملهم به على لسان رسوله ، لولا مشيئة الله وإيجازه به . ثم ما كهم إلى الواقع وهو أن الرسول نشأ بينهم وعاش عمرًا طويلاً فيهم ، حتى عرفوا حديثه وأسلوبه وأمنههما خلق في سماء البلاغة ؛ فينبغي وبين حديث القرآن وأسلوبه بُعد ما بين مكانه الخالق وأفضل الخلق . وأنه ما كان ينبغي أن يفتري الكذب على الله ويدعى أنه أوحى إليه ولم يوح إليه ، على حين أنه معروف بينهم بأنه الصادق الأمين ، « فَمَا كَانَ لِيُنْفِرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ » ثم أعس القرآن أخيراً أن هذا الطلب إهمال مهم يقتضى العقل والنظر ، واعطاط إلى دركة الحيوان والحجر ، إذ قال لهم « أفلا تعقلون » .

وإذا كان هذا ما سمع من القرآن على طلاب بدل القرآن أو مثيل له من الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وهو أفصح الناس لساناً وبيانا وأعلمهم بما في القرآن ومقاصده ، وأعرفهم بأسرار الإسلام وروح شريعته ؛ فما بالك بالطلاب هذه الترجمة والساعين إليها من أقل شأن من الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ بما قيل في علمهم وفهمهم وجلالة قدرهم ؟ .

( الوجه الثالث ) أن محاولة هذه الترجمة تشجع الناس على انصرافهم عن كتبهم ، مكتفين ببذل أو أبدال يزعمونها ترجمات له . وإذا امتد الزمان بهذه الترجمات فسيذهب عنها اسم الترجمة ويبقى اسم القرآن وحده علماً عليها ، ويقولون : هذا قرآن بالانجليزية ، وذلك قرآن بالفرنسية ، وهكذا ، ثم يحدون هذا للمتلقي بعد ، ويخبرون بإطلاق مذهب القرآن على الترجمة . ومن كان في شك فليدأل متعارف الأمم فيما بين أيديهم من ترجمات . وما لنا بذهب بعيداً ؟ فلنأتل أمستنا نحن : ما بالنا نقول بل . فمذا هذه رواية محدوين ، ترجمتها العربية والأصل فرنسي ، وهذا لم يعمل ربانا أو يوحنا لترجمتها العربية والأصل عبري ، إلى غير ذلك من إطلاقاتنا الكثيرة على ترجمات شتى في الدين ولعلم والأدب والقوانين والوثائق ومحوها .

وهذا شأن هذا المذهب من ذلك كله : جاء في ملحق مجلة الأهرام أن أهالي جدوة لمسيين ، بقرهون ، الترجمة لأفرنجية وبقرونها أولادهم ويعتقدون أن ما يقرءون هو القرآن الصحيح . فقل لي . بركت . ما الذي يمنع كل قارئ من الأقطار الإسلامية وغير الإسلامية من أن يكون له قرآن من هذا الطراز ، لو ذهب إلى القول بجوار هذه الترجمة ؟ وهل تشك بعد ذلك في حرية كل ما يؤدى إلى صرف الناس عن كتاب الله ، وإلى صرفهم عنه وصلاحهم في صباه ؟

( الوجه الرابع ) أما لو جوزنا هذه الترجمة ، ووصل الأمر إلى حد أن يسمى الناس عن الله أن ترجمناه ، لتعرض الأصل العربي للصباغ كاصباغ الأصل العربي للتورية

والإحسان وضياح الأصل للموتى مسكة كبرى تقرى النفوس على التلاعب مدس الله  
 -دلا ونميراء مادام شاهد الحق قد صاع ، ومور الله قد اطلعاً ، والهمين على هذه ترجمات  
 قد وال ( لا قدر الله ) . ولادب أن كل ما يمرض الدين للتنوير والسدبيل ، وكل ما يمرض  
 القرآن للإهمال والصياح ، حرام بإجماع المسلمين .

( الوجه الخامس ) أننا إذا فتحنا باب هذه الترجمات الصالحة ، تراحم الناس عليها  
 ، لما كب ، وحملت كل أمة وكل طائفة على أن تترجم القرآن في ردها بلغتها الرسمية  
 ولامية ، ونعم عن ذلك ترجمات كثيرات لأعداد لها ، وهي بلا شك مختلفة فيما بينها ،  
 ينشأ عن ذلك الاختلاف في الترجمات ، خلاف حتى بين المسلمين ، أشبه باختلاف اليهود  
 و نصارى في التوراة والإنجيل . وهذا الخلل بصدع بناء المسلمين ويغرق شعهم ، ويهيئ  
 لأعدائهم فرصة للنيل منهم ، ويوقظ فيهم فتنة عماية كقطع الليل للظلم ، فيقول هؤلاء : لأولئك :  
 قرآننا خير من قرآنكم ، ويرد أولئك على هؤلاء تارة بسب اللسان ، وأخرى بحد الحسام ،  
 ويخرجون صحابيا هذه الترجمات ، بعد أن كانوا بالأمس إخوانا بوحديتهم القرآن ، ويؤلف  
 بينهم الإسلام وهذه الفتنة لا أدن منها الله . أشبه بل هي أشد من الفتنة التي أوحس  
 حيفة منها أمير المؤمنين عثمان بن عفان . وأمر بسبها أن تحرق جميع المصاحف الفردية ،  
 وأن يحتمل الملوك على تلك المصاحف العثمانية الإجماعية .

( الوجه السادس ) أن قيام هذه الترجمات الآتية بذهب مخوم كبير من مقومات  
 وجود المسلمين الاجتماعي ، كأمة عزيزة الجنتاب قوية العدد ؛ ذلك أنهم سيقعون عدداً  
 بهذه الترجمات كما قلنا ومتى قنعوا بها مستغنون لا يحتجوا عن أمة الأصل وعلومها  
 وآدابها وأنت تعلم والتاريخ يشهد ، أنها رباط من أقوى الروابط فيما بينها وكان لهذا  
 أثره العظيم في مدعيم وحدة الأمة وبنائها ، حين كانوا مرموز القرآن  
 معه ، ومدرسون من أحله علوم لغة العربية وآدابها ، تدرع إلى حسن أدائه وفهمه ، حتى  
 خدموا هذه أممهم وسعوا فيها ، ولمع في سمائها رجال من الأعجاء يروا كثيراً من أعلام

العرب في خدمتها وخدمة كتاب الله وعلومها . وهذا قامت اللغة العرصة لسداً . اما  
للمسلمين ، ورائط مشتركاً بينهم على اختلاف أحاسيسهم ولغاتهم الإقليمية ؛ بل داب  
كثير من اللغات الإقليمية في هذه اللغة الحديثة لغة القرآن الكريم

ولما كانت في ركب مسائل التاريخ من وحدة المسلمين وعروشهم يوم كانت اللغة  
العربية صاحبة الدولة والسلطان في الأقطار الإسلامية شرقية وعربية ، عربية ومهمية .  
يوم كانت لغة التخاطب بينهم ، ولغة المراسلات ، ولغة الأذان والإقامة والصلوات ، ولغة  
الخطابة في الجمع والأعياد والجهوش والحفلات ، ولغة المكاتبات الرسمية بين خلفاء المسلمين  
وأمرائهم وقوادهم وجنودهم ، ولغة مدارسهم ومساجدهم وكتبهم ودواوينهم .

ومعنى في هذا العصر الذي راحنا فيه اللغات الأجنبية وصارت حرباً على لغتنا العربية ،  
حتى نلبست ألسنتنا وألسنة أبنائنا وخصفنا وعامتنا ، يتأكد عند أمم هذا الغزو اللغوي  
الجامح ، أن يحدد قواماً للحياة لغتنا وادفاعة من وسائل بقائها وإفشارها ، وفي مقدمة هذه  
الوسائل إبقاء القرآن على عربيته ، والضرب على أيدي العالمين على ترجمته . وما ينبغي لنا  
أن نعطب في حطهم ، ولا أن سايرهم في قياس ترجمة القرآن بهذا المعنى على ترجمة غيره  
في الجواز والإمكان . فإين الأثرى من الفراء ؟ وأين كلام العبد العاجز من كلام الله  
المعجز ؟ . وما أشبه هؤلاء بالمنفوقين من أمة موسى حين جاوز الله بهم البحر وأنوا  
على قوم يكفنون على أصنام لهم « قالوا لا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » ، قال إنكم  
قوم تجهلون « إن هؤلاء متبرهأ من فهمٍ وباطلٍ ما كانوا يعلمون » ا

ح . في كتاب الرسالة للشافعي ما خلاصته : « إنه يجب على غير العرب أن يكونوا  
تابعين لسان العرب ، وهو لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعاً كما يجب أن  
يكونوا تابعين له دماً . وأن الله تعالى قصي أن سدروا لسان العرب خاصة . ثم قال :  
« فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما يلزمه جهده ، حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن  
محمداً عبده ورسوله ويتوجه بكتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير

وأمر به من التسبيح ولتشهد وغير ذلك وكله أردد من العلم باللسان الذي جعله الله  
 لسان من حتم به موته وأمر به آخر كتبه ، كان حيرا له .

وهو في كتب الرسالة أيضا أن المسور من محرمه رأى رجلا أعشى اللسان أراد  
 أن يتقدم للصلاة . فنهى المسور من محرمه وقدم غيره ولما سأله عمر رضي الله عنه في ذلك  
 قال له : إن الرجل كان أعشى اللسان وكان في الحج ، تخشيت أن يسمع بعض الحج  
 فراءته فيأخذ به صوته فقال له عمر : أصمت ، وقال الشافعي : « لقد أحسب ذلك » . اه  
 قال في الكشف « الأعشى من لا يفهم كلامه للكنه أو اقراءة افته ، فخر أن يكون  
 لسانه ألكن أو تكون لفته غريبة » .

( الوحة السابع ) أن الأمة أجمعت على عدم حوار رواية القرآن بالمعنى . وأنت حبير  
 بأن ترجمة القرآن بهذا المعنى العرفي ، تساوى روايته بالمعنى فكلماتها صيغة مستقلة وادية  
 بجميع معاني الأصل ومقاصده ، لا فرق بينهما إلا في القشرة اللفظية ، فالرواية بالمعنى معناها  
 لغة الأصل . وهذه الترجمة لغتها غير لغة الأصل وعلى هذا يقال إذا كانت رواية القرآن  
 بالمعنى في كلام عربي بمجموعة إحصاءها ، فهذه الترجمة متنوعة كذلك ، قياسا على هذا  
 المجمع عليه ، بل هي أخرى بالمنع ، للاختلاف بين لغتها ولغة الأصل .

( الوحة الثامن ) أن الناس جميعا مسلمين وغير مسلمين ، تواصلوا على أن الأعلام  
 لا يمكن ترجمتها سواء أكانت موضوعة لأشخاص من بني الإنسان ، أم لأفراد من  
 الحيوان ، أم لبلاد وأطاليم ، أم مكتوب ومؤلفات حتى إذا وقع علم من هذه الأعلام أثناء  
 ترجمة ما ، المعينة هو هو ، لا يتغير ، عربيا لا بدل ، متمسكا بمحاصنه العلمية ، لا تزوم  
 الترجمة شيئا ، ولا تنال منه مبالا وما ذلك إلا لأن واضعي هذه الأعلام قصدوا إعطائها  
 مداتها واحدا ، وهذا دون سواها ، فلذلك على مسمياتها ، وكذلك القرآن الكريم عم ناس  
 قصد الله سبحانه ألقاها دون غيرها وأصاليه دون سواها ، لتدل على هداياته وليؤيدنها

سوله ، ويتعمد تولاؤهم عدده . وكار سمح به حكما في هذا لتخصيص الاحتياط ، لما كان لفصل والامتياز في هذه الأساليب والأدب المختارة .

ومن عهده في أساليب اللغة العربية ، وعرف أن حفة الأندلس على الأسماع وحسن حرمها في النفوس مدحلا في فصحة الكلام وبلاغته ، أمر أن الأمر آن قد الأفراد في ما ، وعلم الأعلام في ما به لأن فيه من الأساليب البلاغة ونوسيقى اللطيفة ، أمر فاق كل فوق ، وخرج عن كل طوق « ولو أن قرأنا سبوت به اخذنا أو قطعت به الأرض أو كلم به موتى » بل لله الأمر جميعا ، وفي حقوق مدعده أن يحاكميه بترجمه مدونة أو بلفظ « سمح بك هذا من عظيم »

### دفع الشبهات الواردة على مع هذه الترجمة

#### شبهة الأولى ودفعها

نقول : إن سمح هذه الترجمة إلى الأمم الأحسية واجب ، وهو معروف من أن الدعوى إلى الإسلام عامة لا تخص بحيل ولا ضيل . وهذا المصباح الواجب تنوقف على ترجمة القرآن غير العرب بلغاتهم ، لأنهم لا يفهمون لغة العرب بلب لقرآن عربي وما لا تتم الواجب إلا ، فهو واجب . ونحب على هذه الشبهة ( أولا ) أن هذا التخليع لا يتوقف على ترجمة القرآن لهم تلك الترجمة المعروفة ، بل مجموعة من يمكن أن يحصل ترجمته على معنى القموي . بل هو نصيره غير اعته على ما شرحه آله . ويمكن أن يكون تفسيرهم هذه القرآن ومعانيه ، ومحسن الإسلام ومرايه . ودفع الشبهات التي تعرضهم في ذلك إما بتجاذبات شعبية ، وإما مؤلفات على شكل رسم شر ، أو محلات مدع ، أو كشف نظم ، مختار الداعي من ذلك ما هو أسبغ محال المدعوي ، وما هو أسبره وأصح لدعوه فيهم



(ثانياً) أن الله تعالى لم يكلفنا بالتجليل «لا يكلف الله شأ إلا وسعها» وقد أشهد رسول في بيان استعالة ترجمة القرآن بذلك المعنى العرفي استعالة عادته فواضح ألا يكلفنا الله إياها .

(ثالثاً) أن القول بوجوب هذه الترجمة يستلزم الحال ؛ وهو التناقص في أحكام الله تعالى ، ذلك أن الله حرمها كما تقرر من قبل ، فكيف يستقيم القول بأنه أوجبها ، مع أن الحاكم واحد وهو الله ، ومحل الحكم واحد وهو الترجمة ، والمحكوم عليه واحد وهم المكلفون على كل زمان ومكان .

(رابعاً) أن الرسول ﷺ وهو أعرف الناس بأحكام الله وأشط الخلق في الدعوة إلى الله ، لم يتخذ هذه الترجمة وسيلة إلى تبليغ الأجاب مع أنه قد دعا العرب والمسلمين ، وكتب كسرى وقبصر ، وراسل القوقس والحاشي . وكانت جميع كتبه لهم عربية العبارة ، ليس فيها آية واحدة مترجمة ، فصلا عن ترجمة القرآن كله . وكان كل ما في هذه الكتب دعوة صريحة جريئة إلى نيل الشرك واعتناق التوحيد والاعتراف برسالة ﷺ ووجوب طاعته وإنصاعه وكان ﷺ يدفع كتبه هذه إلى سفراء مختارهم من أصحابه فيؤدون بها على وجهتها ، وهؤلاء الملوك والحكام قد يذهبون تراجم يفسرونها لهم ، وقد يسألون السفراء ومن يتصل بهم عن تعاليم الإسلام ، وشأن نبي الإسلام ، وصفات الدين اتيموه ، ومدى نفع هذه الرحالة عما عساه أن يلقى صواباً على حقيقة الداعي ودعوته .

انظر حديث هرقل في أوائل صحيح البخاري .

(خامساً) أن الصحابة رضوان الله عليهم ، وهم مصابيح الهدى وأصل طليقة سلف هذه الأمة الصالح ، وأحرص الناس على مرصاة الله ورسوله ، وأعزهم بأسرار الإسلام وروح تشريعه ، لم يهكروا يوماً ما في هذه الترجمة ، فضلاً عن أن يحاولوها أو يؤولوها . بل كان شأنهم شأن الرسول الأعظم ﷺ يدعون بالوسائل التي دعا بها ، على شاطئ رائج

عجيب في النشر والدعوة والفتح. فلو كانت هذه الترجمة العرفية من مواهب الإسلام  
كان أسرع الخلق إليها رسول الله وأصحابه. ولو قبلوه لنقل ونوّار، لأن مثله ما  
تتوافر الدواعي على نقله ونوّاره.

### الشبهة الثانية ودومها

يقولون: إن كتبه صلى الله عليه وسلم إلى العظماء من غير العرب بدموم إلى الإسلام،  
تستلزم إقراره على ترجمتها؛ لأنها مشتقة على قرآن وهم أعجام، ولأن الروايات الصحيحة  
ذكرت في مراعاة أن هرقل وهو من هؤلاء المدعويين، دعا ترجمته فترجم له الكتاب  
النسوي وفيه قرآن.

والجواب أن هذه الكتب النبوية لا تستلزم إقرار الرسول ﷺ على تلك الترجمة  
العرفية الممنوعة. بل هي إذا استلزمت فلما تستلزم الإقرار على نوع جائز من الترجمة  
وهو التفسير بغير العربية، لأن التفسير بيان ولو من وجه وهو كاف في تفهم مضمون  
الرسائل المرسلّة. على أن هذه الرسائل الكريمة لم تشتمل على القرآن كله، ولا على آيات  
كاملة منه. بل كل ما فيها مقتضيات نادرة جداً. ولا ريب أن للفتنات من القرآن ليس  
لها حكم القرآن.

وما كم مادج تفينون منها مبلغ هذه الحقيقة :

١ - كتابه صلى الله عليه وسلم الذي أرسله مسيح دحية بن حليفة الكلبي إلى  
هرقل، هذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله ، إلى هرقل  
عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك  
الله أحرك مريض . وإن توليت فإيما عليك إثم الأربسين ( أي القلاحين ) وبأهل الكذب

تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا شريك له شيئاً، ولا نتخذ  
لعنوا بعضنا أئمة من دون الله، وإن أولوا، فقولوا شهدوا أنه مسنون

فأنت ترى أن ما في هذا الكتاب من الغرر، يسع به، لأن الآية مستدانة  
بقوله تعالى: «قل يا أهل الكتاب» ولكن الكتاب حذف منه، بقوله (قل) ورده  
فيه حرف الواو، والحذف والزيادة دليلان مادبان على الاقتباس.

٢ - وكتابه عليه السلام الذي بعث به مع عبد الله بن جداعة إلى كسرى، هذا نصه:  
«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى كسرى عظيم الفرس.

سلام على من تبع هدى وآمن بآية ورسوله. أدعوك بدعاية الله، إلى أن رسول الله  
إلى الناس كافة، لأبدر من كان حياً ويحقق القول على الكافرين. أستم تسلم فإن توليت  
فعليتك إثم المحوس»

فأنت ترى في هذه الرسالة لنسوبة أنها اشتملت على كلمة (لأبدر من كان حياً) ويحق  
قول (على الكافرين)، على حين أن نص الآية في القرآن الكريم، (أبدر من كان  
حياً) وهذا دليل الاقتباس

٣ - وقال مثل ذلك في سائر رسائله عليه السلام. فإن كتبه إلى نفوس هو من كتبه  
إلى هرقل، لا فرق بينهما إلا في كلمة (الأريسين) إذ أبدلت بها كلمة (القط)،  
وله في اسم رسل إليه ومكانته كما هو واضح.

٤ - وكذلك كتبه إلى حيدر وعبد ماديكي هون، ليس فيه إلا كلمة (لأبدر)  
من كان حياً ويحق قول (على الكافرين) وهي التي في رسالته صلى الله عليه وسلم  
إلى كسرى<sup>(١)</sup>

(١) راجع في ذلك ما كتبه إرفاقاً على المؤلف (ص ٢٢٦ - ٢٦٩ ج ٣) وأخيه.

الحلبي (ص ٣٦٢ - ٣٧٨ ج ٢) وكتبه المؤلف من صحيح البخاري

### الشبهة الثالثة ودفعها :

يقولون : إن جميع المجدورات التي تحشى من الترجمة موحودة في تفسير اللفظ العربي نفسه . وقد أحصت الأمة على عدم التجاشي عن هذه المجدورات ، فيجب ألا يتجاشى عنها في ترجمة أصلا ، إذ لا فرق بين التعبير باللفظ العربي والتعبير باللفظ المحشى عن المراد بالآيات ، بعد أن يكون المعبر والمعبر والمترجم مستكملًا للشروط والمؤهلات الواحدة لمن يعرض نفسه للتفسير والترجمة

والجواب أنهم ، إن أرادوا «ترجمة في كلامهم تلك ترجمة العربية ، فقد سخطا من وجوه المجدورات فيها ما جعلها حجرا محجورا ، وإنما يحظورا . ورسمها من العروق ما حمل فيها وبين التفسير نوعا بعيدا ؛ سواء أكانت هي ترجمة حرفية أم تفسيرية ، وسواء أكان هو تفسيريا بلغة الأصل أم يعبر لغة الأصل

وإن أرادوا «ترجمة في كلامهم تلك الترجمة للعامة ، على معنى التفسير لغة أجنبية ، فكلامهم في محل التفسير والقول ولكن لا يجوز أن يتحاطب المعروف العاملي العام بهذا الإطلاق العامي الخاص ، لأنه لا يعرفه

ر

### الشبهة الرابعة ودفعها :

يقولون : إن الترجمة لعربية للقرآن إذا اتمدت بالنسبة إلى معانيه لتأنيده ، فإنها يمكن بالنسبة إلى معانيه الأصيلة . وعلى هذا فترجم القرآن بمعنى أنها تنقل معانيه الأصيلة وحدها . لا سيما أنها هي المشتقة على الهداية المقصودة منه دون معانيه التامة .

ونعيب على هذه الشبهة ( أولا ) بأن نقل معاني القرآن الأصيلة لا يسمى ترجمة للقرآن عرفا ، لأن مدلول اللفظ القرآن مؤلف من المعاني الأصيلة والتامة فترجمته نقل معانيه كلها لا فرق بين ما كان منها أوليا وما كان ثانويا ، ونقل مقاصده كلها كذلك ، وبحال

نقل جميع هذا كما سبق . وعلى هذا لا يجوز أن يستبر مجرد نقل المعاني الأصلية دون  
الثامعة ودون بقية مقاصده ترجمة له . اللهم إلا إذا جاز أن نسمى هذا الإنسان إنساناً ،  
ورحل الحيوان حيواناً .

ثم إن إطلاق الترجمة على هذا المعنى للراد، لو كان مقصوراً على ظاهريه ولم يتصل بالعرف  
العام ، من الخطأ وسهل الأمر ، وأمكن أن يلتبس وجه التحور ولو سيديا ولكن  
العرف الذي مخاطبه لا يفهم من كلمه ترجمة إلا أنها صورة مطابقة للأصل ، وأبديه بجميع  
معانيه ومقاصده ، لا فرق بينهما إلا في التشرة العقلية . فإذا نحن نقلنا المعاني الأصلية  
للعرف وحدها ، ثم قلنا لأهل هذا العرف المعاني العام : هذه هي ترجمة للعرف ، تكون  
قد صلتنا أهل هذا العرف من ناحية ، ثم تكون قد بحثنا القرآن حقه من الإحلال  
والإكدار من ناحية أخرى ، فزعما أن له مثلاً خاصيه ، وشيئاً بخاصيه ، على حين أن الذي  
خشي به ما هو إلا صورة مصفرة طرء منه ، وبين هذه الصورة وحلال الأصل مراحل  
شقي . كالأدب بصور الجزء الأسفل من إنسان عظيم ، ثم يقول للناس : هذه صورة  
فلان العظيم .

( بيك ) أن تلك المعاني الثامعة الثابرة ، خاصة بهدايات راعده ، ومعارف واسمه  
فلا اسم أن معاني القرآن الأولية وحدها هي مصدر هداياته . وارجع إلى ما ذكره سابقاً  
في هذا المقصد ، فإن فيه الكفاية .

اشارة الخاتمة ودفعها :

يقولون إن الذين رحموا القرآن إلى اللغات الأجنبية ، غيروا معانيه ، وشوهوا  
حجته ، وأخطأوا أخطاء فاحشة ، فإذا نحن ترجمنا القرآن سبابة ، أمكن أن يصحح لهم  
تلك الأخطاء . وأن رد إلى القرآن الكريم اعتباره في نظر أولئك الذين يقرءون تلك  
الترجمات الصالحة ، وأن نزيل العقبات التي وضعت في طريقهم إلى هداية الإسلام ؛ وبذلك  
سكون قد أدبنا رسالتنا في النشر والدعوة إلى هذا الدين الخفيف .

وَحَيْبَ عَلَى هَذَا بَأَن الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ تَرَجُّمُوا الْقُرْآنَ تَرْجُمَةً عَرَبِيَّةً شَوْهًا حَالَهُ وَعَصَوْا مِنْ مَقَامِهِ بِاعْتِرَافِهِمْ. فَإِنَّ أَسْمَ تَرْجَمَ تَرْجَمَتَهُمْ وَحَاطَتُمْ بِمَحَاسِنِهِمْ فَسَتَقْمُونَ لِأَحْوَالِهِ فِي قَرِيبَ مَا وَقَعُوا فِيهِ ، وَاسْتَسُونَ بِدَوْرِكُمْ عَظَمَةُ هَذَا الْقُرْآنِ وَجَلَالُهُ ، مِمَّا دَلَّتْ فِيهِ الْحَيْطَةُ ، وَأَمْسَتْ فِي الْحَقِّ ، وَنَبَتْ فِي الْعِلْمِ ، وَتَفَوَّقَتْ فِي الْفَهْمِ ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ أَمْرٌ وَأَمْعٌ مِنْ أَنْ تُمَاهِرَ رِيشَةُ أَى مَصُورٍ كَانَ ، مِنْ إِنْسٍ أَوْ حَيٍّ كَمَا يَبِينُ ذَلِكَ أَوْفَى بَيَانٍ .

أَمَّا إِذَا حَاطَتُمْ تَرْجُمَةَ الْقُرْآنِ عَلَى مَعْنَى تَفْسِيرِهِ بِلُغَةٍ أَعْجَنِيَّةٍ ، هَذَاكَ مَوْقِفٌ آخَرٌ ، نَزِيدُكُمْ فِيهِ ، وَنَوَافِئُكُمْ عَلَيْهِ ، وَدَعُو الْقَادِرِينَ مَعَكُمْ إِلَيْهِ .

#### الشبهة السادسة ودفعها :

يَقُولُونَ : جَاءَ فِي صَرِيحِ السَّنَةِ مَا يُؤَيِّدُ الْقَوْلَ بِمُجَازِ تَرْجُمَةِ الْقُرْآنِ ؛ فَقَدْ قَالَ الشَّرْهَبَالَانِيُّ فِي كِتَابِهِ « النِّعْمَةُ لِلْقُدْسِيَّةِ » مَا نَحْنُ :

« رَوَى أَنَّ أَهْلَ فَارَسَ كَتَبُوا إِلَى سُلْدَانِ الْمَارَسِيِّ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمُ الْفَاتِحَةَ بِالْفَارْسِيَّةِ فَكْتُبَ لَهُمْ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - بِنَامِ يَزْدَانَ بِخَشَائِدِ » فَكَانُوا يَقْرَءُونَ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ حَتَّى لَانَتْ أَلْسِنَتُهُمْ . وَبَعْدَ مَا كُتِبَ عَرْضُهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ . كَذَبُوا فِي الْبَسُوطِ ، وَقَالَهُ فِي الْإِنْبَاءِ وَالْهَدَايَةِ » .

وَحَيْبَ عَلَى هَذَا مِنْ وَجْهِهِ : ( أَوَّلُهُ ) أَنَّ هَذَا خَيْرٌ مِنْ جَهْلٍ الْأَصْلِ ، لَا يَدْرِي لَهُ سِدٌّ ، فَلَا يَجُوزُ الْعَمَلُ بِهِ ، ( ثَانِيًا ) أَنَّ هَذَا الْخَيْرَ لَوْ كَانَ لِنَقْلِ وَتَوَاتُرٍ ، لِأَنَّهُ بِمَا تَتَوَاتَرُ الدُّعَا عَلَى عِلَّةِ وَتَوَاتُرِهِ . ( ثَالِثًا ) أَنَّهُ يَحْمِلُ دَلِيلَ وَهْنِهِ فِيهِ . ذَلِكَ أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ تَرْجُمَةَ الْفَاتِحَةِ فَلَمْ يَكْتُبْهَا لَهُمْ . إِنَّمَا كَتَبَ لَهُمُ تَرْجُمَةَ الْبِسْمَةِ وَلَوْ كَانَتْ التَّرْجُمَةُ مُمَكِّنَةً وَحَاضِرَةً ، لَأَجَابَهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا وَاجُوبًا ، وَإِلَّا كَانَ كَأَنَّمَا وَكَلَّمَ الْعِلْمَ مَلْعُونًا . ( رَابِعًا ) أَنَّ الْقَائِلَ فِي الْخَيْرِ بِدَرْكِ أَنَّ الْبِسْمَةَ نَفْسُهَا لَمْ تَتَرَجَّمْ لَهُمْ كَامِلَةً ، لِأَنَّ هَسْدَهُ

الألفاظ التي ساقها الرواية على أنها ترجمة لبسلة، لم يؤت فيها بلفظ مقابل للمعطوف الرحمن .  
وكان ذلك لمعبر اللغة الفارسية عن وجود نظير فيها لهذا الاسم الكريم . وهذا دليل  
مادى على أن المراد بالترجمة هنا الترجمة اللغوية لا العرفية ، على فرض ثبوت الرواية  
( خامسها ) أنه قد وقع اختلاف في لفظ هذا الخبر بالزيادة والتقص وذلك موجب لاضطراره  
ورده . والدليل على هذا الاضطراب أن النووي في المجموع نقله بلفظ آخر هذا نصه :  
« إن قوماً من أهل فارس طلبوا من سلمان أن يكتسبهم شيئاً من القرآن ، وكتب لهم  
القامحة بالفارسية » .

وبين هذه الرواية وتلك مخالفة ظاهرة، إذ أن هذه ذكرت القامحة وتلك ذكرت  
البسلة بل بمض البسلة . ثم إنها لم تعرض لحكاية العرض على النبي صلى الله عليه وسلم ،  
أما تلك عرضت له .

(سادسها) أن هذه الرواية على فرض صحتها معارضة للقاطع من الأدلة الدالة القامحة  
على استحالة الترجمة وحرمتها . ومعارض القاطع ساقط .

### حكم قراءة الترجمة والصلاة بها

تكاد كلمة الفقهاء تنفق على منع قراءة ترجمة القرآن بأي لغة كانت فارسية أو غيره ،  
وسواء أكانت قراءة هذه الترجمة في صلاة أم في غير صلاة . لولا خلاف واضطراب في  
بعض أقوال الخنفية .

وإليك مدأ من أقوال الفقهاء على اختلاف مذاهبهم ، تنور بها في ذلك .

#### مذهب الشافعية :

١ - قال في المجموع ( ص ٣٧٩ ج ٣ ) : مذهبنا أي الشافعية - أنه لا يجوز  
قراءة القرآن بغير لسان العرب ، سواء أمكنته العربية أم يحجز عنها ، وسواء أكان في

الصلاة أم في غيرها . فإن أتى بترجمة في صلاة بدلا عنها لم تصح صلاته ، سواء أحسن القراءة أم لا . وبه قال جماعة العلماء ، منهم مالك وأحمد وأبو داود .

٢ - وقال الزركشي في البحر المحيط : « لا تجوز ترجمة القرآن بالعربية ولا بغيرها ، بل يجب قراءته على الهيئة التي يتعلق بها الإعجاز . لتقصير الترجمة عنه ، ولتقصير فهمه من الألسن عن البيان الذي حص به دون سائر الألسن .

٣ - وجاء في حاشية ترشيح المستفيدين ( ص ٥٢ ج ١ ) : « من جهل بالعامة لا يجوز له أن يترجم عنها ، لقوله تعالى : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا » والمعنى ليس كذلك . وللعهد بالعامة القرآن .

٤ - وجاء في الاتفاق السيوطي : « تجوز قراءة القرآن بالمعنى لأن جهل أداه باللفظ ، ولم يبح له إيماءه بالمعنى » .

#### مذهب المالكية :

١ - جاء في حاشية المسوق على شرح الدردير للمالكية ( ص ٢٣٢ - ٢٣٦ ج ١ ) . ولا تجوز قراءة القرآن بغير العربية . بل لا يجوز التكبير في الصلاة بغيرها ولا إيماءه من العربية . فإن هجر عن اللسان بالعامة بالعربية وجب عليه أن يأتى بمن يحسنها . فإن أمكنه الاتيان ولم يأتى بطلت صلاته . وإن لم يجد إماما سقطت عنه العامة ، وذكر الله تعالى وسبحه بالعربية وقالوا : على كل مكلف أن يتعلم العامة بالعربية وأن يبذل نفسه في ذلك ، ويحصد نفسه في تعلمها ومازاد عليها ، إلا أن يحول الموت دون ذلك وهو محال الاجتهاد فيمنع .

٢ - وجاء في الدود ( ص ٦٢ ج ١ ) : « سألت ابن القاسم عن انتصح الصلاة بالهشمية وهو لا يعرف العربية : ما قول مالك فيه ؟ فقال : سئل مالك عن الرجل يحلف بالمحمية فكره ذلك وقال : أما يقرأ ؟ أما يصلي ؟ إنكارا لذلك « أي ليتكلم بالعربية ( ١٦١ - سائل العرب - ٢ )



لألمعية . قال : وما يدريه الذي قال ، أموكا ظل ؟ أي الذي تحلف به أنه هو الله ، ما يدريه أنه هو أم لا . قال : قال مالك : « أكره أن يدعو الرجل بالمعية في الصلاة ولقد رأيت مالكا يكره السجى أن يحلف ويستغفره . قال ابن القاسم : وأخبرني مالك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى عن رحانة الأعمام ، وقال : إنها خب سبي خبيث وعش » .

### مذهب الحنابلة :

١ - قال في المفتي ( ص ٥٢٦ ج ١ ) : « ولا تجزئه القراءة بغير العربية ، ولا إبدال لفظ عربي ، سواء أحسن القراءة بالعربية أم لم يحسن . ثم قال : فإن لم يحسن القراءة بالعربية لزمه التعلم فإن لم يفعل مع القدرة عليه لم تصح صلاته » .

٢ - وقال ابن حزم الحنبلي في كتابه المحلى ( ص ٢٥٤ ج ٣ ) من قرأ أم القرآن أو شيئاً منها أو شيئاً من القرآن في صلاته مترجماً بغير العربية ، أو بألفاظ عربية غير الألفاظ التي أنزل الله تعالى ، عامداً لذلك ؛ أو قدم كلمة أو آخرها عامداً لذلك ؛ عطلت صلاته ، وهو فاسق ؛ لأن الله تعالى قال : « قرآناً عربياً » ، وغير العربي ليس عربياً ؛ فليس قرآناً ، وإحالة عربية القرآن تحريف لكلام الله . وقد ذم الله تعالى من فعلوا ذلك فقال : « يحرقون الكلام عن مواضعه » .

ومن كان لا يحسن العربية فليذكر الله تعالى بلفظه لقوله تعالى : « لا يكلف الله شيئاً ولا وسماً » . ولا يحل له أن يقرأ أم القرآن ولا شيئاً من القرآن مترجماً على أنه الذي افترض عليه أن يقرأه ، لأنه غير الذي افترض عليه ، كما ذكرناه . فيكون مفترياً على الله .

مذهب الحنفية :

احتلت نقول الحنفية في هذا المقام ، واضطرب للنقل بسوء حاص عن الإمام . ونحن مختصر لأن الطريق بإيراد كلمة فيها تلخيص للموضوع ، وتوفيق بين النقول ، اقتطعنا من

مجلة الأذهار (ص ٣٢ و ٣٣ و ٦٦ و ٦٧ من المجلد الثالث) بقلم عالم كبير من علماء لأحاف ،  
إذ جاء فيها باختصار وتصرف ما يلي :

أصح الأئمة على أنه لا يجوز قراءة القرآن بغير العربية خارج الصلاة . وبمعنى فاعل ذلك  
أشد المنع ، لأن قراءته بغيرها من قبيل التصرف في قراءة القرآن عما يخرج به عن إيجازه ،  
بل بما يوجب الركعة .

وأما القراءة في الصلاة بغير العربية فتعبر إجماعاً للمعنى المتقدم ، لكن لو فرض وقراً  
المعنى بغير العربية ، أتصح صلاته أم تنفس ؟ .

ذكر الحنفية في كتبهم أن الإمام أبا حنيفة كان يقول أولاً : إذا قرأ المعلى بغير  
العربية مع قدرته عليها اكتفى بذلك القراءة . ثم رجع من ذلك وقال : ( متى كان قادراً  
على العربية ففرضه قراءة النظم العربي . ولو قرأ بغيرها فسدت صلاته بطلوها من القراءة  
مع قدرته عليها ، والإتيان بما هو من حسن كلام الناس حيث لم يكن المفروض قرآناً ) .

ورواية رجوع الإمام هذه تنزى إلى الأقطاب في الذهب . ومنهم نوح بن هريم ، وهو  
من أصحاب أبي حنيفة ، ومنهم علي بن الجعد وهو من أصحاب أبي يوسف . ومنهم أبو بكر  
الرازى ، وهو شيخ علماء الحنفية في عصره بالقرن الرابع .

ولا يعني أن الحنفية إذا رجع من قوله ، لا يبعد ذلك للرجوع عنه قولاً له ، لأنه لم يرجع  
عنه إلا بعد أن ظهر له أنه ليس بصواب وحينئذ لا يكون في مذهب الحنفية قول بكفاية  
القراءة بغير العربية في الصلاة للقادر عليها ، فلا يصح التمسك به ، ولا النظر إليه ، لاسيما  
أن إجماع الأئمة - ومنهم أبو حنيفة - صريح في أن القرآن اسم لفظي لمخصوص الدال على  
المعنى ، لا للمعنى وحده .

أما العاجز عن قراءة القرآن بالعربية فهو كالأمي في أنه لا قراءة عليه . ولكن إذا  
مرض أنه حالف وأدى القرآن بلفظ أخرى ، فإن كان ما يؤديه قصة أو أمراً أو شيئاً فسدت

صلاته، لأنه متكلم بكلام وليس ذكراً. وإن كان ما يؤيده ذكره أو نزيهاً لانعقد صلاته، لأن الذكر بأى لسان لا يفقد الصلاة لأن القراءة بترجمة القرآن جائزة، فلهذا معى القول بأن القراءة بالترجمة محظورة شرعاً على كل حال.

## توجيهات وتعليقات

١- فى كلام بعض الأئمة وأقطاب علماء الأمة، ما أوقع بعض كبار الباحثين فى اشتباه. لذلك رى إتماماً للمبحث، وتعميماً للحقيقة، أن نسوق تاذج من هذا الكلام، ثم نتبها، نعتقد توجيهها لها، أو تعليقا عليها.

## ١ - كلمة للإمام الشافعى

حاء فى كتاب الأم للشافعى رحمه الله تحت عنوان: (إمامة الأعشى) ص ١٤٧ ج ١ ما نصه: « وإذا اختصوا به، فإن أقاموا مع أم القرآن، ولحن أو بطن أحدهم، لا محبة أو لسان أعشى فى شيء من القرآن غيرها، أحزانه ومن حلقه صلاتهم، إذا كان أراد القراءة، لا يطق به من عجمة ولحن، فإن أراد به كلاماً غير القراءات فسدت صلاته » اهـ

قوال فى بيان مراد الشافعى من كلمته هذه: « ومراده أن الإمام والمؤتم إدا أحدا قراءه النعمة، ثم لحن أو نطق أحدهما بلهجة أعجمية أو لغة أعجمية فى شيء من القرآن غير النعمة، لا تعطى صلاتهما. والمراد من الأعجمية اللهجة، ومن اللسان اللغة، كاهو استعماله فى هذه المواطن. فهذا النص يدل على أن اللسان الأعجمى عند قراءه، مبرور عن عيبه. وهو النعمة. لا يبطل الصلاة. وهو موافق للحقيقة فى هذا » اهـ

ونقول توجبها الكلام الشافعي، وتأييداً لما ذهبنا إليه: قد أسلفنا الكلام في مذهب الحنفية، فلا نصيده. أما الذي ذكرناه من أن هذا هو مراد الشافعي - رحمه الله - فسلم، بيد أنه يحتاج إلى تسكلة لا بد منها، وهي أن عدم بطلان الصلاة في هذه الصورة، وشروط بأن تقصد القراءة، أما إذا كان المقصود كلاماً غير القراءة فيها تعطل. ثم إن منشأ عدم البطلان ليس هو حوار قراءة غير العاتمة بالأصحية كما فهموا، وإنما منشؤه أن هذه القراءة بالأصحية وقعت في غير ركني وفي غير واجب للصلاة، لما هو مقرر في مذهب الشافعية من أن قراءة ما راد على العاتمة ليس واجباً في الصلاة بحال. وهذا لا ينافي أن القراءة بالأصحية محرمة كما سبق فيصوص الشافعية بين يديك، وكما عرف من كلام الشافعي رحمه وقد أسلفناه قريباً، ولهذا المسألة نظائر، منها الصلاة في الأرض المصونة، فإنها محرمة، ومع حرمتها فإنها صحيحة، وتؤيد حرمة القراءة بالأصحية أن الشافعي في كلامه هنا، قد سوى بين التحنن والقراءة بالأصحية ونظمهما في سلك واحد مع ما هو معلوم من أن التحنن في القرآن حرام بإجماع المسلمين.

## ٢ - كلمة للمحقق الشاطبي

قال الشاطبي - وهو من أعلام المالكية - (في ص ٤٤، ٤٥ ج ٢) من كتابه لواقعات تحت عنوان (مع ترجمة القرآن) ما نصه: «لغة العرب من حيث هي لغة دالة على معان نظران: أحدهما من جهة كونها ألفاظاً وعبارات دالة على معان مطلقة، وهي الدلالة الأصلية، والثاني من جهة كونها ألفاظاً وعبارات مقيدة دالة على معان حادثة، وهي الدلالة النافعة. فالجهة الأولى هي التي تشترك فيها الألسنة وإليها تنتهي مقاصد المتكلمين ولا تختص بأمة دون أخرى. فإذ حصل في الوجود فعل يزيد مثلاً كالقيام، ثم أراد كل صاحب لسان الإخبار عن ريد «القيام»؛ تأتى له ما أراد من غير كلمة ومن هذه الجهة يمكن في لسان العرب الإحصاء عن أقوال الأوائل من ليسوا من أهل اللغة العربية، وحكاية كلامهم ويتأنى في لسان المعجم حكاية أقوال العرب والإخبار عنها وهذا لا إشكال

فيه . وأما الجهة الثانية فهي التي يختص به لسان العرب في ملك الحكاية وذلك الإحدا ،  
 في كل حبر يقتضى في هذه الحلة أموراً حادثة لذلك الإحدا ، بحسب الخبر واخبر عنه  
 والخبر ، ، ونفس الإحدا في الحال والمساق ، ويوقع لأسلوب من الإيضاح والإحدا ، ، والإحدا  
 والإحدا ، ، وغير ذلك ، ، وبعد أن مثل الشاطبي لهذا بنوع ما يتبادر إلى ذهنه : « وهذا  
 النوع الثاني اختلفت العبارات وكثير من أخصيص القرآن ، لأنه يأتي مساق القصة في  
 بعض السور على وجه ، ، وفي بعضها على وجه آخر ، وفي ثالثة على وجه ثالث ، وهكذا  
 ما تقر في من الإحدا ، لا بحسب ادوع الأول ، إلا إذا سكت عن بعض التفاصيل  
 في بعض ، ونص عليه في بعض . وذلك أيضاً لوجه افتضاء الحال والوقت ، وما كان  
 ريك نسباً » .

ثم قال : « إذا ثبت هذا فلا يمكن من اعتبار هذا الوجه الأخير ( أى الدلالة القائمة )  
 أن يترجم كلاماً من الكلام العربى ، بكلام اصحفضلاً عن أن يترجم القرآن ويفضل  
 إلى لسان غير عربى ، إلا مع فرض استواء اللسانين في استعمال ما تقدم تمثيله ونحوه .  
 فإذا ثبت ذلك في اللسان المنقول إليه مع لسان العرب ؛ أمكن أن يترجم أحدهما إلى  
 الآخر . وإثبات مثل هذا بوجه بين » .

« وقد دعى ابن قتيبة بإمكان الترجمة في القرآن ، يدعى على هذا الوجه الثاني . فأما  
 على الوجه الأول فهو ممكن ، ومن جهة صح تيسير القرآن وبيان معناه للعامة ومن  
 ليس له فهم يقوى على تحصيل معناه . وكان ذلك سائراً متفقاً أهل الإسلام . فصار  
 هذا الاتفاق حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلى » . ما أردنا نقله بتصريف  
 طفيف .

قلنا : هذا كلام مدلل ، ومبحث موحد ، من علماء حليل محقق ، وأصولى نظار  
 مدقق ، وهو سطق محوار ترجمة القرآن ، مع الدليل والبرهان

ويمكن نقول : إن كلام الشاطبي صريح في أن الممكن هو قول اللماي الأصلية للقرآن دون القاسية ، وعلى هذا فإطلاقه لفظ ترجمة القرآن على ما أدى تلك اللماي الأصلية وحدها ، إطلاق لمعنى محض لا يخالف فيه ، بل تدعو إليه وتشجع عليه ، مع التحفظات التي سطناها فيما سبق .

أما الترجمة العربية - وبها يساق الحديث - فإن الشاطبي لا يربدها قطعا ، ولا يذهب إلى القول بها لا في القرآن ولا في غير القرآن من النصوص الأدبية . ولما على ذلك أدلة خفية سوقها إليك .

( أولها ) أنه قال في لغة الوائين تلك الكلمة الصريحة : « إذا ثبت هذا فلا يمكن من اعتبار هذا الوجه الأخير أن يترجم كلاما من الكلام العربي بكلام المجمع ، فضلا عن أن يترجم القرآن وينقل إلى لسان غير عربي » .

( ثانيها ) أنه نقل في كلمته المذكورة عن ابن قتيبة أنه نقل إمكان الترجمة في القرآن على هذا الوجه الثاني . ثم أقره على هذا النفي بهذا التوجيه .

( ثالثها ) أنه مال إلى كالدبيب والمالكية من أشد الناس تمجدا من الترجمة ، على ما علمت من نصوصهم السابقة .

( رابعها ) أنه تردد أثناء بحثه في الترجمة ترددا يدل على أنه لم يقطع رأى بخالف مذهبه . إنما هو مجرد بحث غيب ، أما الحكم فسلم ، على حد قولهم : البحث ولورد واحكم مسلم . والدليل على تردده ما جاء في الجزء الثاني من كتابه للواضحات ( ص ٦٣ ) إذ يقول : « إذا ثبت أن لا كلام من حيث دلالة على معنى جيهتين ، كان من الواجب أن يتطرق الوجه الذي تدفع منه الأحكام : هل يختص بمجهتين الأصلية أو بمجهتين . أما استفادتها من الجهة الأولى فلا خلاف فيه . وأما استفادتها من الجهة الثانية فهو محل تردد . ولكل واحد من الطرفين وجهة من النظر » ثم قال : « قد تبين قمارض الأدلة في المسألة ، وظهر

أن اللغوي من الجهتين جهة اللامين استفادة الأحكام منها . لكن بقي فيها نظر آخر :  
ربما إحال أن لما دلالة على معان رائدة على المعنى الأصلي ، هي آداب شرعية ، وتحلفات  
حسنة ، فيكون لها اعتبار في الشريعة ، فلا تكون الجهة الثانية حالية من الدلالة بجملة .  
ومند ذلك بشكل القول بالمع مطلقا ، اهـ مختصرا .

أرأيت هذا التردد كله ؟ ثم أرأيت كيف أخطأه المتفوق في أن يحزم كما جزمنا  
باستفادة أنواع الهدايات الإسلامية ، من جهة لغوي الثانوية للقرآن الكريم ، على نحو  
ما فصلناه تفصيلا ، ومثناه تمثيلا ؟ . والسكال لله وحده .

( خامسها ) أنه قال في الجزء الثاني من كتابه للوافقت أيضا ( ص ٤٢ ) : « إن  
القرآن أنزل بلسان العرب ، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة ... ثم قال :  
« فمن أراد تفهمه فن جهة لسان العرب يفهمه . ولا سبيل إلى تفهمه من غير هذه الجهة » .  
وذلك برهان يدل على أن ترجمة القرآن في نظره ، لا يمكن أن تفي بهداهاته ومقاصده .  
وأن طالب فهمه لا طريق له إلا أن ينتقل هو إلى القرآن وافقه ، فيدرسه على صوء ما تقرر  
من قواعد هذه اللغة وأساليبها . ولا سبيل إلى هذه الدراسة طبعها إلا بحذق هذه  
اللغة وطولها .

### ٣ - كلمة لحجة الإسلام القراني

جاء في كتاب المستصفي للقراني ( ١٦٩ ج ١ ) مانصه : « وبدل على حوازه ( أى  
حواز رواية الحديث بالمعنى للعالم ) الإجماع على حوار شرح الشرع للمعجم بنصهم .  
فإذا حار إبدال العربية بمعجمة ترادفها فلأن يحور إبدال عربية عربية ترادفها وتساويها  
أولى . وكذلك كان سمراء رسول الله ﷺ في البلاد بينهم وأمره بامتهم وهذا لما  
نعم ألا تعبد في الله ، وإنما المقصود بهم المعنى وإبصاله إلى الخلق ، وليس ذلك كالتشبه  
والتكبير وما تعبد فيه بالله » . اهـ

قالوا : إن هذه العبارة بسمومها تناول القرآن والسنة ، لأهما أسس الشرع ، فترجمتهما بإذن جائزة . والكتاب كالسنة في هذا الجواز .

ومن نقول : إن عبارة الغزالي هذه تأبى هذا الاستنتاج من وجوه : ( أولها ) ما حكاه من الإجماع في هذا اللقائ ، ومعلوم أن الإجماع لم يستند أبداً على حوار ترجمه القرآن ، بل كاد يستند على عدم الجوار كما مر بك قريباً .

( ثانياً ) أن سفراء الرسول ﷺ وهم الذين ساقهم الغزالي هنا مذاق الاستدلال ، لم يترجموا القرآن للأعاجم . ولو ترجموه لنقل تواتراً ، لأنه مما تنوفاً الدوامى على نقله وتواتره إنما كانوا يترجمون نصائيم الإسلام وأوامر الرسول ﷺ ، كما ذكر الغزالي نفسه ( ثالثاً ) أن الغزالي في عبارته المستورة ، قد صرح بأن ما تمودنا الله فيه باللفظ لا يجوز روايته بالمعنى . وعلى هذا لا يجوز أن يترجم بالأولى . ولا ريب أن القرآن الكريم مستند بلفظه لإجماعاً ، فلا يجوز أن يروى بالمعنى ولا أن يترجم أبداً .

( رابعاً ) أن عبارة الغزالي في كتابه الوجيز ( ص ٢٦ ، ٢٧ ) موافقة بالأساس لما جاء في كشف الشافعية ، إذ يقول : « لا تقوم ترجمة اللامعة مقامها . ولا تجزى الترجمة للعاجز من العربية » . وعبارته في كتابه إبلان الموام ( ص ١٤ - ١٩ ) يدعي فيها مذهب المشددين ، فيقول بوجود إبقاء أسماء الله وصفاته وللقشابه من الحديث على ما هي عليه وعدم المطلق بها وبألفاظ القرآن بسير العربية .

### موقف الأزهر من ترجمة القرآن الكريم

مدد سبع سنوات اتجه الأزهر أجمعاً قوياً إلى بحث موضوع ترجمة القرآن الكريم وانتهى الأمر بمد طول النقش والحوار إلى أن قررت مشيخته الجليلة ترجمة تفسيره



وأما «بعض» من حيزه علمائه ورحلات ودراسة لمعارف فوضع عسير عرى دقيق للقرآن ، تعهداً لترجمته ترجمة دقيقة ومساعدة لحمة فنية مختارة . وقد احتتمت لحمة التفسير صمغ مرات رياسة العلامة ، باحث مفتي مصر الأكبر ، وكان من أثر هذه الاجتماعات أن وضعت دستوراً تلزمه في عهدنا العظيم ، ثم بعثت بهذا الدستور إلى كبار العلماء واجتماعات إسلامية في الأقطار الأخرى ، لتستطعمهم آراهم في هذا الدستور ، رغبة منها في أن يخرج هذا التفسير العربي في صورة ما أجمع عليه إلا يمكنه .

وعما أن هذا الدستور قد حوى من أنون الخطة واختره ، يتفق وحلال العاية ، فإن تعرض عليك هنا موارده وقواعده ، ننصيحها أنت إلى ما أبدته من التحفظات السابقة . وهما هي تلك اقواعد كاحات في مجلة الأهرام (٦٤٨، ٦٤٩ . من المجلد السابع) :  
١ - أن يكون التفسير حالياً ما أمكن من مصطلحات والباحث العمية ، إلا ما استدعاه فهم الآية .

٢ - ألا يتعرض فيه للتفريعات العمية ، فلا يذكر مثلاً التفسير المعنى للزعماء والبرق عند آية فيها رعد ورق ، ولا رأى الملكيين في السماء والنجوم عند آية فيها سماء ونجوم . إنما تفسر الآية بما يدل عليه اللفظ العربي ، ويوضح موضع العبارة والمدة في .

٣ - إذا مست الحاجة إلى التوسع في تحقيق بعض المسائل وضعت اللوحة في حاشية التفسير .

٤ - ألا تنحصر اللوحة إلا لما يدل عليه الآية الكريمة ، فلا تنفرد عدهب معين من المذهب لفقهاء ولا مذهب معين من المذاهب الكلامية وغيرها ، ولا تنصف في قول آيات معجرات وأمور الأخرى ونحو ذلك

٥ - أن يفسر القرآن بقراءة حفص ، ولا يتعرض لتفسير قراءات أخرى إلا عند الحاجة إليها .

٦ - أن يختلف التفسير في ربط الآيات والصور بعضها ببعض .

٧ - أن يذكر من أسباب النزول ما صح بعد البحث ، وأعان على فهم الآية .

٨ - عند التفسير تذكر الآية كاملة أو الآيات إذا كانت كلها مرتبطة بموضوع واحد . ثم تحرر معاني الكلمات في دقة . ثم تفسر معاني الآية أو الآيات مسلسلة في عبارة واضحة قوية ، وبوضع سبب النزول والمرتبط وما يؤخذ من الآيات في الوضع المناسب .

٩ - ألا يشار إلى النسخ إلا عند تذكّر الجمع بين الآيات .

١٠ - بوضع في أوائل كل سورة ما نصل إليه المعنى من معناها في السورة : أمكية هي أم مدنية ؟ وماذا في السورة المكية من آيات مدنية ، والعكس .

١١ - توضيح للتفسير مقدمة في التعريف بالقرآن وبيان مسلكه في كل ما يحتويه من فنونه ، كالدعوة إلى الله ، وكان الشريعة ، والنقص والجدل ، ونحو ذلك ، كما يذكر فيها منهج المعنى في تفسيرها

### طريقة التفسير :

ورأت اللجنة بعد ذلك أن تضع قواعد خاصة بالطريقة التي تتبعها في تفسير معاني القرآن الكريم ، بشرها فيما يلي :

١ - بحث أسباب النزول والتفسير بالأنوار ، فتفحص مروياتها ونقدها ، وبدون الصحيح منها بالتفسير ، مع بيان وجه قوة القوى ، وضعف الضعيف من ذلك .

٢ - تبحث مفردات القرآن الكريم معنا لغويا ، وحدها نص القرا كس القرآنية  
معنا بلاغيا ، وتدوين .

٣ - بحث آراء المفسرين بالرأى والتفسير بالمأثور ، ويختار ما تفسر الآية به ، مع  
بيان وجه رد الردود وقبول للقبول .

٤ - وبذلك كله يصاغ التفسير مستوفيا ما يصح على استيفائه في الفترة الثانية  
من المواعيد السابقة . وتكون هذه الصياغة بأسلوب مناسب لأهمام جهة المتعلمين ،  
حال من الإعراب والصحة .

### فذلك المبحث

لقد انتهى بنا هذا البحث - كما نرى - إلى حقائق مهمة ، أعتقد أنها إذا روعيت  
بإتصاف ، أرالت خلاف المختلفين في هذا الموضوع ، أو حملته خلافا لعلها لا يبين أن  
يكون مذكراً لحدالي ، ولا محالاً لنزاع : فترجمة القرآن حرفية كانت أو تفسيرية ، غير  
تفسيرية لغة عربية أو أجنبية وتفسير القرآن لغة أجنبية ، يساوي ترجمة . ثم يراعى  
للقرآن الكريم . وترجمة القرآن بالمعنى العرفي العام لا بد لتحقيقها من الوفاء بجميع معاني  
القرآن ومقاصده ، سواء أكانت ترجمة حرفية أم تفسيرية . وما الفرق بين الحرفية  
والتفسيرية إلا شكلي ، هو مراعاة ترتيب الأصل ونظامه في الأولى دون الثانية وترجمة  
القرآن مشترك لفظي بين معاني أرسية ، منها ما اتفقوا على حواره ، وهو ترجمته بمعنى  
تبليغ أساطره ، وترجمته بمعنى تفسيره لغة عربية ومنها ما يجب أن يتفقوا على معناه  
وهو ترجمته بمعنى نقله إلى لغة أجنبية ، مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده ، ومنها  
ما اختلف فيه ولكن الأدلة متضاربة على حواره ، وهو ترجمة بمعنى تفسيره لغة  
أجنبية مع استيفاء شروط التفسير والترجمة فيه ، ومع التحفظات التي أبدتها وأدلتها  
لغة التفسير الأدرية من قبل .

ونسمى هذه الترجمة كلمة تركش في كتابه البحر المحيط أسوقها إليك في الختام

إذ قللي :

« ( مائة ) لا يجوز ترجمة القرآن بالفارسية وغيرها ، بل يجب قراءته على هيئته التي جعل بها الإيجاز ؛ لتفسير الترجمة عنه ، وتفسير غيره من الألسن عن البيان الذي خص به دون سائر الألسن . قال الله تعالى : « بلسان عربي مبين » . وهذا لو لم يكن مختصاً بنظمه وأسلوبه ، وإذا لم تجز قراءته بالتفسير العربي المختص بنظمه ، فأسرى ألا يجوز بالترجمة بلسان غيره . ومن هنا قال القفال في فتاويه : صدى أنه لا يقدر أحد أن يأتي بالقرآن بالفارسية . قيل له : « إذن لا يقدر أحد أن يفسر القرآن » ، قال : ليس كذلك ، لأن هناك يجوز أن يأتي ببعض مراد الله ويحذف عن البعض . أما إذا أراد أن يقرأه بالفارسية ، فلا يمكن أن يأتي بجميع مراد الله » .

« ولفق غيره بين الترجمة والتفسير فقال : يجوز تفسير الألسن بعضها ببعض ، لأن التفسير عبارة عما قام في النفس من المعنى ، للحاجة والضرورة ، والترجمة هي إبدال اللفظة بلفظة تقوم مقامها في مفهوم المعنى للسامع المعتبر لتلك اللفظة ، فكأن الترجمة إحالة فهم السامع على الاعتبار ، والتفسير تعريف السامع بما فهم المترجم . وهذا فرق حسن » . هـ .  
أحسن الله لنا انطاعة ، وجعلنا جميعاً على الحق والرشد ، وجعلنا ممن يستمعون القول فيتمنون أحسنه « أولئك الذين هداهم الله » ، وأولئك هم أولو الألباب » .

## المبحث الرابع عشر في النسخ

أهمية هذا بحث :

لهذا المبحث أهمية خاصة ، وذلك من وجوه خمسة : ( أولها ) أنه طويل الدليل ،

كثير التعارض ، متشعب المسالك .

( ثابها ) أنه تناول مسائل دقيقة ، كانت مثاراً لخلاف الباحثين من لأصوبين ، الأمر الذي يدعو إلى اليقظة والتدقيق وإلى حسن الاختيار مع الإنصاف والتوفيق .  
 ( ثالثها ) أن أعداء الإسلام من ملاحدة ومشرين ومعتزلة قد اتخذوا من النسخ في الشريعة الإسلامية أسلحة مسمومة ، طعنوا بها في صدر الدين الحنيف ، وبالوا من قدسية القرآن الكريم . ولقد أحكوا شرك شهادتهم ، واحتجوا في ترويض مطاعهم ، حتى سحروا عقول بعض النقيبين إلى العلم والدين من الملين فصعدوا وقوع الدج وهو واقع ، وأمعنوا في هذا الجحود الذي ركبوا له أخشن الراكب ، من تعلات سافطة وتأويلات غير سافطة .

( راسمها ) أن الإلزام بالناسخ والفسوخ ، يكشف النقاب عن سير التفسير الإسلامي ، وبطلان الإنسان على حكمة الله في تربيته للخلق وسياسته للشر ، واتلانه للناس ، مما يدل دلالة واضحة ، على أن نفس محمد النبي الأمي لا يمكن أن تكون لمصدر لنقل هذا قرآن ، ولا للنسخ لمثل هذا التفسير إنما هو تنزيل من حكيم حميد

( خامسها ) أن معرفة الناسخ والفسوخ ركن عظيم في فهم الإسلام وفي الاهتداء إلى صحيح الأحكام ، خصوصاً إذا ما وجدت أدلة متعارضة لا يدعم التناقض بينها إلا بمعرفة سابقها من لاحقها ، وباسخها من منسوخها . ولهذا كان سلفنا الصالح سور هذه الباحية ، يحذقونها ، ويلفتون أنظار الناس إليها ، ويحملونهم عليها . حتى قد جاء في الأثر أن ابن عباس رضي الله عنهما فسر الحكمة في قوله تعالى : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » عمرقة ناسخ القرآن ومنسوخه ، وبحكمة ومقتضاه . ومقدمه ومؤخره وحلاله ، وحرامه . وورد أن علياً كرم الله وجهه دخل المسجد فإذا رجل يحرق الناس فقال ما هذا ؟ قالوا : رجل يذكر الناس . فقال : ليس برجل يذكر الناس ، ولكنه يقول أما فلان بن فلان فاعرفوني فأرسل إليه فقال : أنتوف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا بل فاعرف من منسوخنا ولا تذكر فيه . . . وروى أنه - كرم الله وجهه - مر على قاصص .

فقال : أتعرف الناسخ من النسخ ؟ قال : لا قال : هلكت وأهلك ، يريد أنه عرض نفسه وعرض الناس للهلاك ، مادام أنه لا يعرف الناسخ من النسخ .  
هذه الوجوه الخمسة التي سطهاها ، يقتضيه الواجب أن نرى بهذا البحث ، وأن سير فيه بقدر على حذر ، متوسعين فيما ينبغي التوسع فيه ، مقتضين فيما وراء ذلك ، وحسبنا الله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

### ماهو النسخ ؟

#### النسخ في اللغة :

يطلق النسخ في لغة العرب على معنيين : ( أحدهما ) : إزالة الشيء وإعدامه . ومنه قول الله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبي إلا إذا أتى آلئ الشيطانُ في أمْرئته . فينسخُ اللهُ ما بقاء الشيطانُ ثم يحْكُمُ اللهُ آياته » . ومنه قولهم نُسخت الشمس الظل ، ونسخ الشيب الشباب ، ومنه تناسخ القرون والأزمان .

( والآخر ) نقل الشيء وتحويله مع بقائه في نفسه . وفيه يقول الجعفاني من أمته اللغة : « والنسخ أن تحول ما في الخفية من النحل والنمل إلى أخرى . ومنه تناسخ الموارث بانتقالها من قوم إلى قوم ، وتناسخ الأنفس بانتقالها من بدن إلى غيره ، عند القائلين بذلك . ومنه نسخ الكتاب لما فيه من مشابهة النقل . وإليه الإشارة بقوله تعالى : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » . والمراد به نقل الأعمال إلى الصحف ، ومن الصحف إلى غيرها » ا هـ

وقد اختلف العلماء بعد ذلك في تعيين المعنى الذي وضع له لفظ النسخ : فقيل إن لفظ النسخ وضع لكل من المعنيين وصفا أوليا . وعلى هذا يكون مشتركا لفظيا ، وهو الظاهر من تبادر كلا المعنيين بنفسه واحدة عند إطلاق لفظ النسخ . وقيل إنه وضع للمعنى الأول

وحده ، فهو حفيظة فيه مجز في الآخر . وقيل عكس ذلك . وقيل وصح للقدر المشترك بينهما . ولكن هذه الآراء الأخيرة يسورها الدليل ولا يحلو توجيها من سكاف وأويل

### النسخ في الاصطلاح :

لقد عرّف النسخ في الاصطلاح بتمايزه كثيرة محطمة لا يرى من الحكمة استمرارها ، ولا لثباتها فيها . وما دام الفرص منها كلها هو تصوير حفيظة للنسخ في سائر الشرع ، فإننا نحتمل بتعريف واحد راه أقرب وأشب ، وهو ( رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي ) .

ومعنى رفع الحكم الشرعي قطع نفعه بأفعال المكلفين لارفعه هو ، فإن رفعه ، والواقع لا يرتفع . . . والحكم الشرعي هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين إما على سبيل الطلب أو التكليف أو للتنبيه ، وإما على سبيل كونه الشيء سبباً أو شرطاً أو مانعاً أو مبيحاً أو فاعداً . . . والدليل الشرعي هو وحى الله مطلقاً متلو أو غير متلو ، فيشمل الكتب والسنة . أما القياس والإجماع ففي سبيلهما والشيخ بهما كلاماً نكتة به في موضع آخر . وقولنا : ( رفع ) محسوس في التعريف ، خرج عنه ما ليس برفع ، كالتخصيص فإنه لا يرفع الحكم وإنما ينصره على معنى أصداؤه . وسببنا سطر المروق بين النسخ والتخصيص فانتظروه .

وقولنا : ( الحكم الشرعي ) قيد أول ، خرج به ابتداءً إيجاب العبادات في الشرع ، فإنه رفع حكم العقل بمرادة التهمة ، وذلك كإيجاب الصلاة فإما رفع إرادة التهمة لإسنادها من ورود الشرع بها ، ومع ذلك لا يقال له نسخ وإن رفع هذه الإرادة ، لأن هذه الإرادة حكم على لا شرعي ؛ بمعنى أنه حكم يدل عليه العمل حتى من قبل معنى " شرع " ولا مدح في كونه حكماً عقلياً ، أن الشرع جاء يؤيده بمثل قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » .

وقولنا : ( الدليل شرعي ) قيد ثان ، خرج به دفع حكم شرعي بدليل عقل ، وذلك كسقوط التكليف عن الإنسان بموته أو حيوانه أو غفلته ، فإن سقوط التكليف عنه بأحد هذه الأسباب يدل عليه العقل ، إذ لليت والمجنون والمأفل لا يعقلون خطاب الله - حق يستمر تكليفهم ، والعقل يقضي بعدم تكليف المرء إلا بما يشعقله ، وأن الله تعالى إذا أخذ ما وهب أسقط ما وجب . ولا يتدح في كون هذا الدليل عقليا محيى والشرع معرزا له بمثل قوله ﷺ : « رفع القلم عن ثلاث ، النائم حتى يستيقظ ، وعن العصى حتى يحتلم ، وعن الحيوان حتى يفارق » .

### توجيهات أربعة :

ولمّا أوجه نظرك في هذا التعريف إلى نقاط أربع :

( أولاها ) أن التفسير برفع الحكم يفيد أن النسخ لا يمكن أن يتحقق إلا بأمرين ( أحدهم ) أن يكون هذا الدليل الشرعي مقرا حيا عن دليل ذلك الحكم الشرعي المرفوع . ( ولآخر ) أن يكون بين هذين الدليّين تعارض حقيقي ، بحيث لا يمكن الجمع بينهما وإصلاحهما معاً . أما إذا انقضى الأمر الأول ولم يكن ذلك الدليل الشرعي مقرا حيا عن دليل الحكم لأول فلا نسخ ، وذلك كقوله تعالى : « وأنتم أوال الصيام إلى الليل » فإن الغاية المذكورة وهي قوله : « إلى الليل » تفيد انتهاء حكم الصوم ، وهو وجوب إتمامه بمجرد دخول الليل . ولكن لا يقال لهذه الغاية الدالة على انتهاء هذا الحكم إنها نسخ وذلك لانصافها بدليل الحكم الأول ، وهو قوله : « ثم أعوا الصيام » بل تعتبر الغاية المذكورة ميانا أو إتماما لدفع الكلام وتقديره أنه عدة أو شرط . فلا يكون دافعا وإنما يكون دافعا إذا ورد الدليل الثاني بعد أن ورد الحكم مطلقا واستقر من غير تقييد ، بحيث يدوم لولا الباسخ . ولهذا أراد مصمم تقييد الدليل الشرعي في تعريف الباسخ بأنه آخر . وزاد بصهم كلمة حل وحلوله



لكن الحكم الأول ثابتاً . وقد علمت من هذا القدي ذكرناه أنه لا حاجة إلى هاتين الزيادةين ، بل هما تصرّح بما علم من التعبير في التعريف بكلمة «رفع» وأما إذا اتفق الأمر الثاني ، بأن لم يسكن بين الدليلين تعارض حقيقي ، فإنه لا نسخ ، لأن النسخ ضروري لا إصرار إليها إلا إذا اقتضاها التعارض الحقيقي ، دفعا للتناقض في تدريع الحكيم العالم ، القدي لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وحيث لا تعارض هناك على الحقيقة فلا حاجة إلى النسخ ، لأنه لا تناقض . ولا ريب أن إعمال الدليلين وتوابع تأويل ، خبر من إعمال دليل وإعداد آخر . ولهذا حكم القراني في كتابه للنسخي فاطم من رعموا تعارض وتوهموا نسخاً بين قوله سبحانه : « وامشيدوا شهيداً من رجالكم » وبين الخبر الوارد بقول شهادة الواحد واليدين ، معتمدين على مآظهم في الآية من أنها تدل على أنه لا حاجة للحكم سوى المذكور فيها من شهادة اثنين ، مع أن هذا الظاهر لم يبر صريح ، لأن الآية لا تدل إلا على كون الشاهدين حجة وعلى جواز الحكم بقولها ، أما امتناع الحكم بحجة أخرى كما فهموا ، فلا تدل الآية عليه حتى يكون تعارض بينها وبين الخبر المذكور ، بل هو كالحكم بالإقرار . وذكر حجة واحدة لا يمنع وجود حجة أخرى .

( ثانياً ) أن التعريف المذكور بعيد أن النسخ لا يتوجه إلا إلى الحكم وهو كذلك في الواقع ومنس الأمر ، وتضميم النسخ إلى نسخ تلاوة ونسخ حكم نسيم صوري الإيصاح محسب ، لأن ما أسماه نسخ تلاوة لم يخرج عن كونه نسخ حكم ، إذ أن نسخ تلاوة الآية لا معنى له في الحقيقة إلا نسخ حكم من أحكامها ، وهو رفع الإثابة على محرد ترتيبها ، وصحة الصلاة بها ، ومحوها .

( ثالثاً ) أن هذا التعريف يشمل للنسخ الواقع في الكتاب وفي السنة جميعاً ،

سواء أكانت السنة قولية أم صليية أم وصفية أم تقريرية ، وسواء معها ما كان سوياً وما كان قدسياً ، لأنها كلها وحى بالفعل أو بالقوة ، والرسول ﷺ أقامه الله في محراب الإمامة خلفه ، وحمله الأسوة الحسنة لصادقه ، وأمر الجميع بالتأديعة ، فهو إذن لا يمكن أن يصدر فيما يشرع لأئمة ابتداء أو نسخاً ، إلا عن إحياء الله إليه نصريها أو تقريراً .

مثال نسخ كتاب بالكتاب قوله سبحانه : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج » فإنها نسخت بقوله سبحانه : « يا أيها النبي إنا أحللت لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ، وما ملكت يمينك مما آفأ الله عليك ، وبنات عمك وبنات عماتك ، وبنات أخيك وأخواتك اللاتي هاجرن منك ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها ، خالصة لك من دون المؤمنين » .

ومثال نسخ السنة بالسنة نسخ الوصوه مما مست النار بأكله ﷺ من الشاة ولم يتوضأ .

( راجعنا ) أن الإضافة في كلمة « دفع الحكم الشرعي » الواردة في تعريف النسخ ، من قبيل إضافة المصدر لمفعوله ، والفاعل مضرو وهو الله تعالى وذلك يرشد إلى أن النسخ في الحقيقة هو الله ، كما يدل عليه قوله سبحانه : « ما ننسخ من آية أو ننسها » ويرشد أيضا إلى أن المنسوخ في الحقيقة هو الحكم المرتفع . وقد يطلق المنسوخ على الحكم الراجع فيقال : وجوب صوم رمضان نسخ وجوب صوم عاشوراء . وقد يطلق السح على دليله كذلك ، فيقال : أنه الموارث نسخت آية الوصية للمؤمنين والأقربين . ويقال : خير أكل لرسول من الشاة ولم يتوضأ ، ناسخ لخبر وصوته ﷺ مما مست النار . وهم . والخطب في ذلك جديس .

## مالا بد منه في النسخ

ولعلك تدرك بما سبق أنه لا بد في تحقق النسخ من أمور أربعة :

( أولا ) أن يكون للنسخ حكما شرعيا .

( ثانيا ) أن يكون دليل رفع الحكم دليلا شرعيا .

( ثالثا ) أن يكون هذا الدليل الرفع متراخيا عن دليل الحكم الأول غير متصل به

كإتصال النيد بالفيد والتأقيت بالوقت .

( رابعا ) أن يكون بين ذينك الدليلين تعارض حقيقي .

تلك أربعة لا بد منها لتحقيق النسخ باتفاق جمهرة الباحثين . وثمة شروط اختلها في

شرطيتها . منها أن يكون ناسخ القرآن قرآنا وناسخ السنة سنة . ومنها كون النسخ

مشتقلا على بدل للحكم للنسخ . ومنها كون النسخ مقابلا للنسخ مقابلة الأمر للمعى

والصيق للموسع . ومنها كون النسخ والنسخ نصين قاطعين ، إلى غير ذلك مما يطول

شرحه ، وقد يأتيك نبؤه .

## الفرق بين النسخ والباء

البداء ( بفتح الباء ) يطلق في لغة العرب على معنيين متقاربين .

( أحدهما ) الظهور بعد الخفاء . ومنه قول الله سبحانه : « وبداء لهم من الله

ما لم يكنوا يحتسبون » ، « وبداء لهم سيئات ما عملوا » . ومنه قولهم : بداءنا

سور المدينة .

( والآخر ) نشأة رأى جديد لم يك موجودا . قال في التاموس : « وبداءه في الأمر

بدوا ، وبداء ، وبداء : أى نشأه فيه رأى » اهـ . ومنه قوله الله تعالى : « ثم بداهم من

مدِّ مارُوا الآيَاتِ لِيَسْجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ . أَى تَشَأْمُ فِي يَوْسُفَ رَأَى جَدِيدَ ، هُوَ أَنْ  
 يَسْعَى سَعَا وَفْتِيَا ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : « لِيَسْجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ » . وَلَمَّا هَذَا الْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ  
 الْأَنْسَبُ وَالْأَوْفَى مَعَ هَذِهِ الْقَائِلِينَ بِهِ - قَبِيحِهِمْ اللَّهُ - . وَلَئِنْ عِبَارَاتِهِمْ لِنُورَةٍ مَعَهُمْ  
 جَرَتْ هَذَا الْخُرُوجُ فِي الْإِسْتِمَالِ دُونَ الْإِسْتِمَالِ الْأَوَّلِ . كَقَوْلِكَ السَّكْرَةُ الَّتِي نَسَبَهَا كَذِبًا  
 إِلَى جَمْفَرٍ الصَّادِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « مَا بَدَأَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَيْءٍ كَمَا بَدَأَ فِي إِسْمَاعِيلَ » .  
 ذَلِكَ مَعْنِيَانِ مُتَقَارِبَانِ لِلْبَدَاءِ ، وَكِلَاهُمَا مُسْتَحِيلٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، لِمَا يَلْزِمُهُمَا مِنْ صِدْقِ  
 الْجَهْلِ وَحُدُوثِ الْعِلْمِ ، وَالْجَهْلِ وَالْحُدُوثِ عَلَيْهِ مُحَالٌ ؛ لِأَنَّ النَّظَرَ الصَّحِيحَ فِي هَذَا الْعَالَمِ ،  
 دَلَّنَا عَلَى أَنَّ خَالِقَهُ وَمُدَبِّرَهُ ، مُتَصِفٌ أَرَلًا وَأَبَدًا بِالْعِلْمِ الْوَاسِعِ الْمَطْلُوقِ الْحَيْطُ بِكُلِّ مَا كَانَ  
 وَمَا سَيَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ ، كَمَا هَدَانَا هَذَا النَّظَرُ الصَّحِيحُ إِلَى أَنَّهُ تَعَالَى لَا يُمْكِنُ أَنْ  
 يَكُونَ حَادِثًا وَلَا مُحَلًّا لِلْحَوَادِثِ . وَإِلَّا لَسَكَانٌ مُفَصِّلٌ يَعْزِزُ عَنْ أَنْ يَبْدَعَ هَذَا السَّكُونُ  
 وَيُدَبِّرُهُ هَذَا الْقُدِيرُ الْمُعْزِزُ ! . ذَلِكَ إِجْمَالٌ لِلدَّلِيلِ الْمَثَلِ .

أَمَّا أَدَلَّةُ الدَّنَلِ فَمِنْ صَوْنِ فَيَاضَةٍ نَاطِقَةٍ بِأَنَّهُ تَعَالَى أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَمًا ، وَأَنَّهُ لَا تَخْفَى  
 عَلَيْهِ خَائِيَةٌ « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ  
 نَبْرَأَهَا ، إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » . « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي  
 الْبُرْءِ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْفُطُ مِنْ وَرْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ  
 وَلَا بَاسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ، وَمَا تَرْمِيهِ مِنَ الْأَرْحَامِ ،  
 وَمَا تَزِدُّهُ مِنْ شَيْءٍ عِنْدَهُ عِتْدَارٌ . عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ . حَوَاءُ  
 مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْفَوَلِّ وَمَنْ حَمَرَ بَدَنُهُ ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالْأَيْدِي وَسَارِبٌ بِالْبَهَارِ .  
 إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَثَلِ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ .

وَلَكِنْ عَلَى رَغْمِ أَمْرِ هَذِهِ الْبِرَاهِمِينَ السَّاطِمَةِ مِنْ عَقْلِيَّةٍ وَفَلْئِيَّةٍ ، ضَلَّ أَقْوَامٌ سَدَّوْا  
 أَعْيُنَهُمْ ، فَأَعْمَوْا عِيُونَهُمْ عَنِ النَّظَرِ فِي كِتَابِ الْكَوْنِ لِلنَّاطِقِ ، وَصَمُّوا آدَانَهُمْ عَنْ

سماع كلا الله وكلام نبيه الصادق ، ورعوا أن النسخ ضرب من البداء أو مستلزم للبداء ! وهكذا اشتبهوا أو شبهوا على الناس الأمر ، وقالوا لولا ظهور مصلحة الله ، ونشوء رأى جديد له ، ما نسخ أحكامه ، وبطل تعاليمه . ونسوا أو تناسوا أن الله تعالى حين نسخ بعض أحكامه ببعض ، ما ظهر له أمر كان خافيا عليه ، وما نشأ له رأى جديد كان يفقده من قبل ، إنما كان سبحانه يعلم الناسخ والنسوخ أزلا من قبل أن يشرعها لعباده ، بل من قبل أن يخلق الخلق ، ويبرأ السماء والأرض . إلا أنه - جلت حكمته - علم أن الحكم الأول للنسوخ متوط بحكمة ، أو مصلحة تنهى في وقت معلوم ، وعلم بحاجب هذا أن الناسخ يحى في هذا الليقات للعلوم متوطا بحكمة وبمصلحة أخرى . ولا رب أن الحكم والمصالح تختلف باختلاف الناس ، وتتجدد بتجدد ظروفهم وأحوالهم ، وأن الأحكام وحكمها ، والبياد ومصالحهم ، والنواسخ والنسوخات ، كانت كلها معلومة لله من قبل ، ظاهرة لديه لم يخف شيء منها عليه . والجديد في النسخ إنما هو إظهاره تعالى ما لم لعباده ، لا ظهور ذلك له ، على حد التعبير للعروب : ( شؤن يديها ولا يتنديها ) . « وما كان ربك نسيا » .

اجتمعت اليهود والرافضة على هذه الضلالة ، ضلالة استلزام النسخ للبداء ، لسكرهم افترقوا بعد ذلك إلى ناحيتين خطيرتين . فاليهود أنكروا النسخ وأسرفوا في الإسكار ، لاستلزامه في زعمهم البداء وهو محال . ومنناقشهم الحساب فيما صد إن شاء الله . أما الرافضة فأنشئوا النسخ ثم أسرفوا في إثبات هذا البداء اللازم له في زعمهم ، وبسوءه إلى الله في صراحة ووقاحة « سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا » . ولقد رأيت كيف أنطلما مراعمهم بأدلة عقلية وقولية ؟ ورأيت كيف فتدنا شبهتهم التي رعموها دليلا وماهى بدليل ؟ إن هي إلا خلط في أوهام ومشى في غير سبيل . وشتان شتان بين الدسح القديم على الحكمة ورعاية للمصلحة ، وبين البداء للاستلزام لسبق الجهل وطرد العلم !

بقى أنهم تمسحوا في أمرين : ( أولهما ) قوله سبحانه : « يحو الله ما يشاء ويثبت

وعنده أم الكتاب « والخواب أنه لا مستند لهم في الآية الكريمة، بل هي ترد عليهم كما ردت على أشباههم من عذوا الفرج على النبي ﷺ

ومعناه أن الله يعبر ما شاء من شرائعه وحلقه، على وفق علمه وإرادته وحكمته، وعلمه سبحانه لا يتغير ولا يتبدل، إنما لتغير في المعلوم لا في العلم به بل قوله: «وعنده أم الكتاب» أي وعنده المرجع لثابت الذي لا نحو فيه ولا إثبات، وإنما يقع الحو وإثبات على وفقه، فيمحو سبحانه شريعة ويثبت مكانها أخرى، ويمحو حكما ويثبت آخر، ويمحو مرضا ويثبت صحة، ويمحو فقرا ويثبت غنى، ويمحو حياة ويثبت موتا. وهكذا تعلم يد الله في خافه وتشرعياته تغييراً وتبدلاً، وهو الحق وحده لا يبروه تغيير ولا تبدل، ولا يتطرق إلى علمه نحو ولا إثبات.

وخلاصة هذا التوجيه أن نوسع تبدل في المعلوم لا في العلم، وتغيير في الخلق لا في الخلق، وكشف لنا ويؤان عن بعض ما سبق به علم الله القديم المحيط بكل شيء. ولهذا ذهب كثير من عمائنا إلى تعريف النسخ بأنه بمان انتهاء احكام الشرعي الذي تقرر في أوامنا استمراره بطريق آخرى. ثم قلوا توجيه لهذا الاختيار، إن في هذا التعريف دفعا ظاهرا للبداء، وتقريراً لكون النسخ تبديلاً في حق، بما ناهضاً في حق صاحب الشرع.

(الأمر الثاني) أنهم نشئوا بآثار نبوها إلى أئمة طاهرين. منها أن علياً - كرم الله وجهه - كان يقول: «لولا البداء لحدثكم بما هو كائن إلى يوم القيامة» ومنها أن جعفر الصادق رضي الله عنه قال: «ما بدا الله تعالى في شيء كما بدا به في إسماعيل» ومنها أن موسى بن جعفر قال: «البداء دسا ودين آت في الحمية»

وبدفع هذا بأسها مفتريات وأكاذيب، كان أول من حارب شبه الكفر الكذاب انتفى الذي كان يتفعل بمسألة النصه وعدم لعيب، وهذا ما اقتضاه أمره وكذبتة الأيام قر. (إن الله وعدى ذلك غير أنه بداله) فإذا أوحى في مسه حيلة من

أن يؤاخذ الناس ومنتقوا منه على هذا للكفر الشيع ، نسب تلك الكهومات إلى  
أعلام بيت السوء وهم منها براء . وهكذا كان الحسين وأشياعه يمتنعون بكفر على كفر ،  
ويستدلون بكذب على كذب ، ويمالجون داء بداء : « ومن يصل الله فما له من هـ  
نسأل الله السلامة بمنه وكرمه آمين .

### الفرق بين النسخ والتخصيص

قد عرفنا النسخ بأنه رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي . وقد عرفنا التخصيص  
بأنه قصر العام على بعض أفراد . وبالنظر في هذين التعريفين نلاحظ أن هناك تشابها  
قويا بين التعريفين . فالنسخ فيه ما يشبه تخصيص الحكم ببعض الأزمان والتخصيص  
فيه ما يشبه رفع الحكم عن بعض الأفراد . ومن هذا التشابه وقع بعض العلماء في  
الاشتباه ، فمنهم من أنكر وقوع النسخ في الشريعة ، راعيا أن كل ما سمي به نحن  
نسغا هو تخصيص . ومنهم من أدخل صورا من التخصيص في باب النسخ ، وراد سبب  
ذلك في عداد المنسوخات من غير موجب .

لهذا نقيم لك فروقا سبعة بين النسخ والتخصيص ، تهديك في ظلمات هذا الاشتباه ،  
وتعصمك من أن تتورط فيما تورط فيه سواك .

( أولا ) أن العام بعد تخصيصه محاز ، لأن مدلوله وقتئذ بعض أفراد ، مع أن  
لفظه موصوع للسكل ، والتعريف هو التخصيص . وكل ما كان كذلك فهو محاز . أما  
النسخ المنسوخ فما زال كما كان مستعملا فيما وضع له ، عابته أن الناسح دل على إرادته  
الله تملكت ألا باستمرار هذا الحكم إلى وقت معين ، وإن كان النص المنسوخ مقابلا  
جميع الأزمان . وبظهر ذلك حليا فيما إذا قال الشارع مثلا : أصلا كذا أبدا ، ثم نسخ  
بعد زمن قصير . فإنه لا يمتثل أن يكون مدلوله ذلك الزمن القصير دون غيره ، بل هو

ما وإن كان مستعملا في جمع الأزمان صا ؛ بدليل قوله : « أبدا » ، غير أن أصل هذا النص أنه مل لجميع الأزمان لفظاً قد أسقطه الناسخ ؛ لأن استمرار العمل بالنسخ مشروط بعدم ورود نسخ بنسخه . أيا كان ذلك النص وأيا كان ناسخه

فإن سأل سائل : ما حكمة تأييد النص لفظا ، بينما هو مؤقت في علم الله أرلأ أحسنه ؟ إن حكمته إتمام الله إبادته : أيخصمون لحكمه مع تأييده عليهم هذا التأيد الظاهري أم لا ؟ فإذا ما الله الحديث من الطيب ، واللطيف إلى حكمه من المنعقد عبده ، جاء النسخ حكمة أخرى من التذليل وبخوه .

( ثانيا ) أن حكم ماخرج بالتخصيص لم يك مرادا من إتمام أصلا ، بخلاف ماخرج بالنسخ ، فإنه كان مرادا من المنسوخ لفظا .

( ثلثا ) أن التخصيص لا يثبت أن يأتي على الأمر لأمر واحد ولا على الشيء لشيء واحد ، أما النسخ فيمكن أن يرض لهذا كما يرض لغيره ، ومن ذلك نسخ بعض الأحكام الخاصة به ﷺ .

( رابعا ) أن النسخ يبطل حجية المنسوخ إذا كان رافعا للحكم بالنسبة إلى جميع أفراد العام ، وينتهي على شيء من حصته إذا كان رافعا للحكم من بعض أفراد العام دون بعض . أما التخصيص فلا يبطل حجية العام أبدا ، بل العمل به قائم دائما في من أمراده عند تخصيصه .

( خامسا ) أن النسخ لا يكون إلا بالكتاب والسنة ، بخلاف التخصيص فإنه يكون فيها وبغيرها كدليل الحسن والعلل هذا قول الله سبحانه : « والبارق والبارقة فاعلموا أندهم » قد حصصه قوله ﷺ : « لا قطع إلا في ربع دينار » . وهذا قوله سبحانه : « يدمر كل شيء بأمر ربها » قد حصصه ماشهد به الحسن من سلامة السماء والأرض ،



وعدم تدمير الريح لهما . وهذا قوله تعالى : « إن الله على كل شيء قدير » قد خصه ما حكم به العقل من استحالة تعلق القدرة الإلهية بالواجب والمستحيل العقليين .

(سادسها) أن النسخ لا يكون إلا بدليل متراجح عن المنسوخ أما التخصيص فيكون بالسابق واللاحق والمقارن . وقال قوم : لا يكون التخصيص إلا بمقارن ، فلو تأخر عن وقت العمل بالعام كان هذا التخصيص ناسخا للعام بالنسبة لمسا تعارضا فيه . كما إذا قال الشارع : « اقتلوا المشركين » وبعد وقت العمل به قال : « ولا تقتلوا أهل الذمة » . ووجه نظر هؤلاء أن المقصود بالتخصيص بيان المراد بالعام ، فلو تأخر وقت العمل به لزم تأخير البيان من وقت الحاجة ، وذلك لا يجوز ، فلم يبق إلا اعتباره ناسخا .

(سابعها) أن النسخ لا يقع في الأخبار ، بخلاف التخصيص فإنه يكون في الأحكام وفي غيرها .

## النسخ بين مثبتيه ومنكريه

يذهب أهل الأدیان مذاهب ثلاثة في النسخ :

(أولها) : أنه جائز عقلا وواقع ممما . وعليه إجماع المسلمين ، من قبل أن يظهر أبو مسلم الأصفهاني ومن شابهه . وعليه أيضا إجماع النصارى ، ولكن من قبل هذا العصر الذي خرقوا فيه إجماعهم ، وركبوا فيه ردوسهم وهو كذلك رأى العيسوية ، وهم طائفة من طوائف اليهود الثلاث .

(ثانيها) أن النسخ ممنوع عقلا وممما . وإليه حنح المصارى حيماء في هذا العصر ، وتشيموا له تشيعا ظهر في حملاتهم المتكررة على الإسلام ؛ وفي طعنهم على هذا الدين القويم من هذا الطريق طريق النسخ . وهذه الفرقة أيضا يقول الشعوبية ، وهم طائفة تانية من اليهود

(ثالثها) أن النسخ جائز عقلا بمنتهى سماء. وبه تقول السنية وهي الطائفة الثالثة من طوائف اليهود. ويمرّ هذا الرأي إلى أبي مسلم الأصفهاني من السنيين، ولكن على اضطراب في النقل عنه وعلى تأويل يحمل خلافه لجمهرة المسلمين شيئا ما لخلاف العنق إلا بكنه. ذلك إجمال لأراء المتدينين في النسخ، وسنعمل القول فيها بما مرصه عليك، ففرع له بالآلة، ووجه إليه انتباهك. ولنبدأ بتأييد للذهب الحق وعرض أدلته، ثم لسين حكمة الله فيه. وبعد ذلك نستعرض للذاهب الأخرى وما استندت إليه على أنها شبهت تدفعها عن هرين الحق، وأعشية نرمها عن وجه الصواب.

### أدلة ثبوت النسخ عقلا وصحفا

لأجل أن ثبت النسخ في مواجهة منكره جميعا، قيم أدلة على جوازه العقلي، وأدلة أخرى على وقوعه السمي.

#### ١ - أدلة جواز النسخ عقلا.

أما أدلة جوازه العقلي. فأربعة إجمالا، ولا يصير بعضها أن يكون دليلا على الجواز والوقوع معا.

(الدليل الأول) أن النسخ لا يحظور فيه عقلا، وكل ما كان كذلك جائز عقلا. أما الكبرى فسلمة. وأما المفرد فيختلف دليلها عند أهل السنة عن دليلها عند المشرقة، نعم لا اختلاف للفرقتين في أن أحكام الله تعالى يجب أن تنفع للصالحه لعمده أو لا يجب أن تقدمها.

وهل السنة يقولون: إنه لا يجب على الله تعالى لعباده شيء، بل هو سبحانه القاعل المختار والكبير المتعال، وله بناء على اختياره ومشيته، وكبريائه وعظمته، أن يأمر عباده بما شاء، وينهاهم عما شاء وأن يبقى من أحكامه على ما شاء، وأن ينسخ منها ما شاء.

لا معق لحكمة ، ولا راد لقضائه ، ولا ملزم يلزمه برعاية مصالح عباده . ولكن ليس معنى هذا أنه عايت أو مستبد أو ظالم ، بل إن أحكامه وأفعاله كلها - حل جلاله - لا تخلو عن حكمة بالغة ، وعلم واسع ، وتنزه عن البنى والظلم ؛ « وما ربك بظلام للعبيد » . « ولا يظلم ربك » . « إن ربك عليم حكيم » . « إن الله بالناس لرؤوف رحيم » .

والمتأمل يقولون : إنه تعالى يجب أن يقع في أحكامه مصالح عباده ، فما كان فيه مصلحة لم أمرهم به ، وما كان فيه مضرة عليهم نهىهم عنه ، وما دار بين المصلحة تارة وللضدة أخرى ، أمرهم به تارة ونهىهم عنه أخرى .

إذا تقرر هذا . فإن صفى ذلك الدلائل استدلال عليها من مذهب أهل السنة هكذا :  
الشيخ تصرف في التشريع من التفاعل المختار الكبير النعمان ، الذي لا يجب عليه رعاية مصالح عباده في تشريعه ، وإن كان تشريعه لا يخلو من حكمة . وكل ما كان كذلك لا يحظر فيه عقلا .

وأما على مذهب أهل الاعتزال فنسظم الدلائل هكذا : الشيخ مبنى على أن الله تعالى يعلم مصلحة عباده في نوع من أفعاله وفقاً لما في أمرهم به في ذلك الوقت ، ويعلم ضرر عباده في هذا النوع نفسه من أفعاله ولكن في وقت آخر ، فينهىهم عنه في ذلك الوقت الآخر . وكل ما كان كذلك لا يحظر فيه عقلا .

وكيف يكون محظوراً عقلاً ونحن نشاهد أن للمصالح تختلف باختلاف الأشخاص . والأمران والأحوال فالطبيب يأمر مريضه بتناول الدواء مادام مريضاً ثم ينهيه عنه إذا أبل من مرضه وعاد سليماً . والربة تهم إلى طفلها أخف الأغذية من لبن وعجوه دون غيره ، فإذا ترعرع ودرج حرمت عليه للراضع ثم انتقلت به إلى غذاء غير اللبن وعجوه وهكذا تنتقل به من الخفيف إلى الثقيل ، ومن الثقيل إلى الأثقل ، تبعاً لتدرجه في مدارج القوة والصبح .

والعلم تتعهد تلاميذه اليادئين بأسهل للعلوم ، ثم يتدرج بهم من الأسهل إلى السهل ، ومن السهل إلى الصعب ، ومن الصعب إلى الأصعب ، حتى يصل بهم إلى أدق النظريات ، متتصياً في ذلك آثار خطايم إلى السو الفكري . والكالم العقلي كذلك الأمم تتقلب كما يتقلب الأفراد في أطوار شتى . فن الحكمة في سياستها وهدايتها أن يصلح لها من التشريعات ما مناسب حالها في الطور الذي تكون فيه ، حتى إذا انتفت منه إلى طور آخر لا يناسب ذلك التشريع الأول ، حق أن يصاغ لها تشريع آخر يمتق وهذا الطور الجديد . وإلا لاختل ما بين الحكمة والأحكام من الارتباط والإحكام ، ولم يمر تدبير الخلق على ما نشهده من الإبداع ودقة النظام ١ .

وإلى هذا الدليل تشير الآية الكريمة : « ما ننسخ من آية أو ننسها ننسخ بحير منها أو مثلاً » . فإنه يفهم منها أن كل آة ينسب بها الله تعالى على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من إرالة لفظها أو حكمها أو كليهما معا ، إلى بدل أو إلى غير بدل ، بانه - حسب حكيمه - تأتي عباده بسوع آخر هو خير لم من الآية القاهية أو مثلاً . وإخيرة قد تكون في النفع وقد تكون في التواب ، وقد تكون في كليهما . أما المثالية فلا تكون إلا في التواب فقط . وذلك لأن الماتلة في النفع لا تتصور ، لأنه على تقدير ارتفاع الحكم الأول ، فإن للمصلحة للوط بها ذلك الحكم ترتفع ، ولا تبقى إلا مصلحة الآية الثاني ها ، فتكون خير امن القاهية في نفعها لا محالة . وإذا قدر بقاء الحكم الأول وكان النسخ للتلاوة وحدها ، فالمصلحة الأولى باقية على حالها ، لم يجد غيرها حتى يكون خيراً منها أو مثلاً .

( الدليل الثاني ) - وهو دليل إلزامي المنكرين - أن النسخ لو لم يكن جائزا عقلا وواقعا سمما ، لما حوزوا أن يأمر الشارع عباده بأمر مؤقت ينتهي بانتهائهم وقته ، لكنهم يحوزون هذا عقلا ويقولون بوقوعه سمما ، فليحوزوا هذا ، لأنه لا معنى

لتسح إلا انتهاء الحكم الأول لبيقات معلوم عند الله ، بيد أنه لم يكن معلوما لنا من قبل ، ثم أعلمنا الله بإياه بالنسخ . وهذا ليس بخارق مؤثر .

فقول الشارع مثلاً أول يوم من رمضان ، « صوموا إلى نهاية هذا الشهر » مساو لأن يقول أول يوم من رمضان : « صوموا » من غير تقييد بعبارة ، حتى إذا ما انتهى شهر رمضان قال أول يوم من شوال : « أفطروا » وهذا الأخير مسخ لا ريب فيه . وقد حوز منكره ثلثال الأول ، فليجوروا هذا المثال للثاني ؛ لأنه مسدود ، والمقاسويان يجب أن يتحد حكمهما . وإلا لما كانا متساويين .

( الدليل الثالث ) أن النسخ لو لم يكن حائراً حقلاً وواقفاً معاً ، لما ثبتت رسالة سيدنا محمد ﷺ إلى الناس كافة ، لكن رسالته العامة للناس ثابتة بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي يطول شرحها ، إذ أن الشرائع السابقة ليست باقية ، بل هي منسوخة بهذه الشريعة الختامية . وإذن فالتسخ جائز وواقع . أما ملارمة هذا الدليل فبهر من عليها بأن التسخ لو لم يكن حائراً وواقفاً ، لكانت الشرائع الأولى باقية ولو كانت باقية ما ثبتت رسالته ﷺ إلى الناس كافة .

( الدليل الرابع ) ما يأتي من أدلة وقوع التسخ ، لأن الوقوع يستلزم الجواز وزيادة .

ب . أدلة وقوع التسخ معاً :

الأدلة السمعية على وقوع التسخ نوعان : أحدها تقوم به الجماعة على ما ذكرى النسخ من اليهود والنصارى ، من غير توقف على إثبات نبوة الرسول لهم والآخر تقوم به الجماعة على من آمن بنبوته ﷺ كأي مسلم الأصفياني من المسلمين ، وكاليسوية من اليهود ، فيهم يستمررون برسالته عليه الصلاة والسلام ، ولكن يقولون : إلى الرب حاصه وهؤلاء

لهم بأسمهم متى سلوا برسالته وحب أن يصدقوه في كل ما جاء به ، ومن ذلك عموم  
دموته ، والتمسح لوارده في الكتاب والسنة .

### النوع الأول :

أما النوع الأول فحاده كثيرة ، يعمس بها كتبهم الدينية ، ويمن بجترى منها بما  
يبي ، لإرصاد لهم ، وإن كما لا يؤمن بكل ما آمنوا به .

( أولا ) جاء في السمر الأول من التوراة أن الله تعالى قال لنوح عند خروجه من  
السفينة : « إني جعلت كل دابة حية ما كلالك ولذريتك ، وأطعمت ذلك لكم كنبت  
العشب ، ماحلا الدم فلا تأكلوه » ثم عترفوا بعد ذلك بأن الله حرم كثيرا من  
الدواب على أصحاب الشرع من بعد نوح ، ومنهم موسى نفسه ، كما جاء في السفر الثالث  
من توراتهم .

( ثانيا ) جاء في التوراة أن الله تعالى أمر آدم أن يزوج بهاته من بنيها ، وورد أنه كان  
يولده في كل بطن من العطون ذكر وأنثى ، فكان يزوج نوأمة هذا للآخر ،  
ويزوج نوأمة الآخر لهذا ، وهكذا ، إقامة لاحتلاف سطون مقام اختلاف الآباء  
والأمهات والأبناء ، ثم حرم الله ذلك بإجماع المتدينين من المسلمين واليهود  
والنصارى وغيرهم .

( ثالثا ) أن الله تعالى أمر إبراهيم بالذبح ولده - حينها السلام - ثم قال الله له :  
لا تذبحه ، وقد اعترف منكرو النسخ بذلك .

( رابعا ) أن عمر لنديا كان مساحا يوم السبت ، ومنه الاصطيد ، ثم حرم الله  
الاصطيد على اليهود واعتزاهم .

( خامسا ) أن الله أمر موسى بإسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم القتل ، ثم أمرهم برفع

(سادسا) أن الجمع بين الأختين كان مباحا في شريعة يعقوب ، ثم حرم في شريعة موسى ، عليهما الصلاة والسلام .

(ساما) أن الطلاق كان مشروعا في شرعية موسى ، ثم جاءت شرعة عيسى بحرمته إلا إذا ثبت الزنى على الزوجة .

(ثامنا) أنهم نقلوا عن عيسى في إنجيل متى أنه قال : « لم أرسل إلا إلى حراف بيت إسرائيل الصالحة » ثم بدأ يدل على أن رسالة عيسى رسالة محلية خاصة بالإسرائيليين . ثم نقلوا عن عيسى نفسه في إنجيل مرقس أنه قال : « ادعوا إلى العالم أجمع ، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها » فإذا أحسننا التوبة بالإنجيلين كان لا مناص لنا من القول بنسخ النص الأول بآخر ، وإلا فإن النصين يتناقضان ويتساقطان ، ويسقط سقوطهما الإنجيلان ، بل تسقط الأناجيل كلها ، لأنها متناقضة ، وما جاز على أحد الأمتثال بحور على الآخر .

(ثامنا) أن الختان كان مريضة في دين إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم . ولكن الحواريين جاءوا مدافع عيسى فهدوا عن الختان ، كما ثبت ذلك في رسائل الحواريين . فإما أن يكون هذا نسخا ، وإما أن يكون افتراء وكذبا ، لأنه لم يؤثر عن عيسى كلمة واحدة تدل على نسخ الختان .

(عاشرنا) أن أكل لحم الخنزير محرم في اليهودية ، ومضى عهد عيسى دون أن يعرف عنه ما يدل على إباحته ، ولكن الحواريين جاءوا بصدور عيسى أيضا فأباحوا لحم الخنزير على رعم المسيحيين . فإما أن يكون هذا نسخا ، وإما أن يكون افتراء وكذبا نحو ما سبق .

#### النوع الثاني :

ذلك هو النوع الأول من أدلة النسخ السمعية ، أما النوع الثاني فثمة ما يثبت

( أولا ) قوله تعالى : « ما نسخ من آية أو غُلبها مات بخير منها أو مثله » .  
 ( ثانيا ) قوله تعالى : « يدعو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » وقد  
 أسلفنا الكلام على هاتين الآيتين . وزيدك أنت دلالتهما على وقوع النسخ ماحوظ  
 فيهما أنها ترانا ردا على طعن المعتنقين على الإسلام ونبي الإسلام بوقوع النسخ في  
 الشريعة المطهرة .

( ثالثا ) قوله تعالى « وإذا بدلنا آية مكان آية - والله أعلم بما ينزل - قالوا : إنما  
 أنت ممتتر . بل أكثرهم لا يعلمون » .

ووجه الدلالة في هذه الآية أن التبديل يتألف من رفع لأصل وإثبات لبدل ، وذلك  
 هو النسخ ؛ سواء أكان الرفع تلاوة أم حكما .

( رابعا ) قوله تعالى : فيظلم من الدين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » .  
 ووجه الدلالة فيها أنها تعيد تحريم ما أحل من قبل وما ذلك إلا نسخ وكذا أحلت لهم »  
 يفهم منها أن الحكم الأول كان حكما شرعيا لإبراء أصالة .

( خامسا ) أن سلف الأمة أجمعوا على أن النسخ وقع في الشريعة الإسلامية كوقوعها .

( سادسا ) أن في القرآن آيات كثيرة نسخت أحكامها .

وهذا دليل على صحة أدلة متعددة ، لأن كل آية من هذه الآيات للنسخة ، تعتبر مع  
 ناسخها دالة كالأولى على وقوع النسخ . إذ الوقوع يكفي في إثباته وجود فرد واحد .  
 وسنحدث فيما بعد إن شاء الله عن هذه الآيات للنسخة وما نسخها .



## حكمة الله في النسخ

الآن وقد عرفنا النسخ ، وفرقنا بينه وبين ما يلبس به ، وأيدناه بالأدلة ، يحذر منا أن يبين حكمة الله تعالى فيه ، لأن معرفة الحكمة ترجع النفس ، وتزيل القس ، وننعم من الوسوسة والفس . خصوصاً في مثل موضوعنا الذي كثر منكره ، ونصيده والإسكاره الشهات من هنا وهناك .

ولأجل تفصيل القول في الحكمة نذكر أن النسخ وقع بالشرعية الإسلامية ووقع فيها على معنى أن الله نسخ بالإسلام كل دين سبقه ، ونسخ بعض أحكام هذا الدين ببعض أما حكمته سبحانه في أنه نسخ به الأديان كلها ، فترجع إلى أن تشريعه أكل تشريع يفي حاجات الإنسانية في مرحلتها التي انتهت إليها ، مد أن بلغت أشدها واستوت . وبيان ذلك أن النوع الإنساني قلب كما يتقلب الطفل في أدوار مختلفة ولكل دور من هذه الأدوار حال تناسبه ، غير الحال التي تناسب دوراً غيره . فأنشأ أول عهدهم بالوجود ، كانوا كالوليد أول عهده بالوجود ، حذاجة وبساطة ، وضعفاً وحالة ، ثم أخذوا يتحرفون من هذا العهد رويداً رويداً ، وعرفوا في هذا التحول أو مرت عليهم أعراض متباينة ، من صالة العمل ، وعناية الجهل ، وطيش الشباب ، وعشم القوة على تفاوت في ذلك بينهم اقتضى وجود شرائع مختلفة لهم ، تبعاً لهذا التفاوت . حتى إذا بلغ العالم أوان نضجه واستوائه ، وربطت مدينته بين أقطاره وشعوبه ، جاء هذا الدين الحبيب ختاماً للأديان ، ومتمماً للشرائع ، وجامعاً لعناصر الحيوية ومصالح الإنسانية ومروية القواعد ، جمعاً وفق بين مطالب الروح والجسد ، وأخى بين العلم والدين ، وظلم علاقة الإنسان بالله وبالعالم كله من أفراد وأسر وجماعات وأمم

وشعوب وحيوان ومات وحاد. مما حله بحق ديناً عاماً خالداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

هذا إحسان له تفاصيله التي ألفتنا إليها في مناسبات سابقة . وسعرض لها يرث الله في مناسبات آتية .

وأما حكمة الله في أنه نزع بعض أحكام الإسلام بهم ، فترجع إلى سياسة الأمة ونعمدها ، يرقمها ويحصيها . . . وبيان ذلك أن الأمة الإسلامية في بدايتها حين صدعها رسول بدعوته ، كانت تعاني فترة اعتدال شاق ، بل كان أشق ما يكون عليها ، ترك عقائدها وموروثاتها وعاداتها خصوصاً مع ما هو معروف من العرب الذي شوقوا للإسلام ، من التعمس لما يعتقدون أن من مفاخرهم وأجدد ، هو أخذوا بهذا الدين الجديد مرة واحدة ، لأدى ذلك إلى نقص المقصود ، ومات الإسلام في مهده ، ولم يجد أنصاراً ينفقونه ويدافعون عنه ، لأن الظلمة من نوع المستعيل الذي لا يعاونه إلا من لها جاذب الشريعة إلى الناس تشي على سهل ، متافئة هم ، متطرفة في دعوتهم متدرجة بهم إلى الكمال رويداً رويداً ، صاعدة بهم في مدارج الرقي شيئاً فشيئاً . متفجرة فرصة الألف والفران والأحداث الجادة عليهم ، لتغير بهم من الأسهل إلى السهل ، ومن السهل إلى الصعب ، ومن الصعب إلى الأصعب ، حتى تم الأمر وجمع الإسلام محالاً لم يعرف مثله في سرعته وامتزاجه بفسوس ، ونهضة البشرية بسببه .

تلك الحكمة على هذا الوجه ، تتجلى فيما إذا كان الحكم للناسخ أصعب من المنسوخ ، كموقف لإسلام في سموه وملكه من مشكلة الحرق في عرب الجاهلية بالأمس . وقد كانت مشكلة معقدة كل التعقيد ، يحسونها بصورة تسكاد تكون إجماعية ، ويأتونها لا على أنها عادة محرمة . بل على أنها أمانة القوة ، ومظهر الفتوة وعنوان الشهامة أقل لي

- ربك - هل كان معقولا أن يصح الإسلام في قطعهم عنها ، لو لم يتألمهم وشاغلهم ، إلى درجة أن يأتى عليهم بها أول الأمر ، كأنه يتركهم في شعورهم . وإلى حد أنه أى أن يحرمها عليهم في وقت استعدت فيه بعض دوائرهم كلمة تحريره ، حين سألوه عليه السلام : « سألوك عن الخمر والميسر » ؟

أما حكمه في سح الخمر الأصعب ، هو أنه منه ، والضعيف على الناس ، ترويضهم ، وإظهار العسل الله عليهم ورحمته بهم ، وفي ذلك إعراف لهم على المبالغة في شكره وتمجيده ، وتحميد لهم فيه وفي دينه

وأما حكمه في سح الخمر بمساوئه في صغورته أو سهواته ، فلا قتلا ، والاحتياط ، يظهر لمن يفهم ، ولما في ذلك لخير يحدث من الخطيئة

وفي الكلام في حكمة بقاء الملاوة مع سح الخمر ، وفي حكمه سح لتلاوة مع بقاء الخمر

أما حكمه بقاء التلاوة مع سح الخمر ؛ فلهذا تلك الصادرة ، الحكمة ، ظاهرة سياسة الإسلام للناس ، حتى يشهدوا أنه هو الدين الحق ، وأرضيه بي حدوده ، أن الله هو الحق ليس ، أعلم الحكم ، ( نحن أرجو به ) ، إلى ذلك ما يكاد يكون من الثواب على هذه التلاوة ، ومن الاستمتاع بما حوته تلك الآيات المنسوخة من الأمانة ، ومن قدم معجرات بديهة أو عمية أو سياسية .

وأم سح التلاوة مع بقاء الخمر ، فلهذا تنصير في كل آية ما ساسها وإليه تنبذوا لنا حكمه رغبة في مثل مشهور من هذا النوع

ذلك أنه صح في الرواية عن عمر بن الخطاب وأبي بكر أنهما قالا كان فيما أزل من القرآن « شيع وشيعة إداريا فارحوهما أذنة » أى كان هذا النص آية تنفى ثم سح تلاوته ، وبقي حكمها معقولا ، إلى اليوم والمر في ذلك أنها كانت تنفى

أولا لنقرر حكمها ، ودعنا لن تحدده نفسه أن يتلخّص بهذا العار الفاحش من شيوخ وشيعات . حتى إذا ما تحرر هذا الحكم في النفوس ، نسخ الله تلاوته لحكمة أخرى ، هي الإشارة إلى شناعة هذه الفاحشة ، وشاعة صدورها من شيوخ وشيخة ، حيث سلكها مسلك مالا يابى أن يذكر فضلا عن أن يفعل ، وسار بها في طريق يشبه طرق مستحيل الذي لا يقع كانه قال : زهوا الأسماع عن سماعها ، والألسنة عن ذكرها ، فضلا عن الفرار منها ومن القلوث رحسها . « كتب الله لنا الحفظ والمصنعة » إنه ولي كل نعمة وتوفيق .

### شبهات المنكرين للنسخ ودفعها

سنطيع أن ننوع المنكرين لاذبح أنواعا : فنوع ينكر حوازه عقلا ووقوعه سمعا ، وهم نصارى هذا العصر ، وخرقة الشمعونية من اليهود ونوع ينكره سمعا ويحوره عقلا ، وهم المعتانية من اليهود أيضا . ونوع يحوره عقلا ويقول بوقوعه سمعا ، بيد أنه ينكر أن الشريعة الإسلامية ناسخة لليهودية ، وهم المسيحية تمام فرق اليهود الثلاث . ونوع يحوره عقلا وينكره سمعا ، ولكن إنكاره صوري يتناول فيه مما يحمل خلافه لجهرة المسلمين حذافا ، نظاير أو شبيها بالله على وهو أبو مسلم الأصغراني ومن تبعه .

بين أيدينا إذن . من انفرادوا بإنكار النسخ عقلا ، وهم نصارى هذا العصر وشمعونية اليهود . ومن توفوا على إنكاره سمعا ، وإن اختلفوا في مدى هذا الإنكار وفي كينيته ، وهم نصارى هذا العصر ، ومعتانية اليهود ، والمسيحيون منهم ، وأبو مسلم الأصغراني وأتباعه من المسلمين .

وسلك من هؤلاء جميعا شبهات حسيوها أدلة وليست أدلة . كما ندين لك ذلك في هذا الاستعراض الجامع .

## (١) - شبهات المنكرين لجواز عقله

لا ريب أن منعب المنكرين لجواز النسخ عقلا ، هو أخطر الداه وأشدّها ، وأشدّها عن الحق وأوعاها في الباطل . ومجرد إسكاده الجوار العقل يستلزم إسكار الوقوع الشرعي ، وهل يقع في الوجود ما أحاله العقل ؟ لهذا تبدأ بتفنيد هذا المذهب ودفع شبهاته .

الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون : لو جاز على الله تعالى أن ينسخ حكما من أحكامه ، لكان ذلك إما لحكمة ظهرت له كانت خافية عليه ، وإما لنزير حكمة . وكل هذين باطل . أما الأول فلأنه يستلزم تجويز البداء والجهل بالمواقف على علام الغيوب ، وأما الثاني فلأنه يستلزم تجويز العبث على الحكيم المأمم اللطيف الخبير والبداء والعبث مستحيلان عليه سبحانه بالأدلة العقلية والنقلية ، فما أدى إليهما وهو حوّل النسخ محال .

وندفع هذه الشبهة بأن نسخ الله تعالى ما شاء من أحكامه ، مبني على حكمة كانت معلومة له أولا ، ظاهرة لم تخف عليه ولن تخفى عليه أبدا ، غاية الأمر أن مصالح العباد تتعدد بتعدد الأزمان ، وتختلف باختلاف الأشخاص والأحوال ، وأسراره وحكمه سبحانه لا تنفاهي ، ولا يحيط بها سواه . فإذا نسخ حكما محكما ، لم يخل هذا الحكم الثاني من حكمة جديدة غير حكمة الحكم الأول ، هي مصلحة جديدة للعباد في الحكم الجديد ، أو هي غير تلك . وسبحان من أحاط بكل شيء علما . وإذن فلا يستلزم نسخ الله لأحكامه بداء ولا عبثا .

ولكن هؤلاء الجاحدين غفلوا أو تغافلوا عن هذا ، حتى جاء الترديد في شتمهم ناقضا لم يستوب وجوه الاحتمالات كما ترى . ولو استوفوه لقالوا : النسخ إما أن يكون لحكمة ظهرت لله كانت خافية عليه ، أو لحكمة كانت معلومة له لم تكن خافية عليه ، أو لمعبر

حكمة وأكره نظر أسهم لم يفتنوا إلى هذا ، ولو فطنوا له ما اشتبهوا ولو اشتبهوا ما مد  
وطتهم له لاحترام الشق الثاني من هذا التردد ، ثم أبدناه بتوافر أدلة العقل وسفل عليه  
كما قررنا

الشبهة الثانية ودفعها :

يهولون لو جار على الله تعالى أن يسح حكما محكم ، لزم على ذلك أحد باطلين  
حكمة حس وعلا ، وتحصيل الحاصل . وبيان ذلك أن الله تعالى إما أن يكون قد علم الحكم  
الأول منسوخ على أنه مؤبد ، وإما أن يكون قد علمه على أنه مؤقت . فإن كان قد علمه  
على أنه مستمر إلى الأبد ثم نسحه وصيره غير مستمر ، انقلب علمه جهلا والجهل عليه  
تعالى محذور . وإن كان قد علمه على أنه مؤقت بوقت معين ثم نسحه عند ذلك الوقت ،  
ورد عليه أن المؤقت ينتهي بمجرد انتهاء وقته ، فبإساقه بالنسخ تحصيل للحاصل ،  
وهو «طل

ودفع هذه الشبهة : بأن الله تعالى قد سبق في علمه أن الحكم المنسوخ مؤقت لا مؤبد ،  
ولم يكن علم بجانب ذلك أن نأقته إنما هو بورد النسخ لا شيء آخر كالتفديد بعد في  
دليل الحكم الأول ، وإذن فعلمه بانتهائه بالنسخ لا يمنع النسخ بل بوجهه ، وورد النسخ  
محقق في علمه لا يخالف له . شأنه تعالى في الأسباب ومصباتها ، وقد تعلق علمه بها  
كلم ولا تنس ما قررناه ثمة من أن النسخ بيان مالمية إلى الله ، ربح مالمية إينا

الشبهة الثالثة ودفعها :

يهولون لو جار النسخ لزم أحد باطلين : تحصيل الحاصل ، وما هو في معناه وبين  
ذلك أن الحكم المنسوخ إما أن يكون دليله قد غياه نهاية ينتهي عندها ، أو يكون قد أبداه  
نسخ . فإن كان قد غياه بماية فإنه ينتهي بمجرد وجود هذه الماية ، وإذن لا دليل إلى  
إسقاطه ، وبإلا لزم تحصيل الحاصل . وإن كان دليل الحكم الأول قد نص على  
نفيه ثم جاء النسخ على رغم هذا التأييد ، لزم الخلل من وجوه ثلاثة :

(أولها) التناقض ، لأن التأييد يقتضى بقاء الحكم ولا ريب أن

النسخ ينافيه :

(ثانيها) فمدر إقامة التأييد من الله للناس ، لأن كل نص يمكن أن يبيده تبطل إعادته باحتمال نسخه ، وذلك بغضى إلى القول بسجز الله وعييه عن بيان التأييد لعاده وبما أبدله لهم تعالى الله عن ذلك .

(ثالثها) استلزام ذلك لجوار نسخ الشريعة الإسلامية مع أنها باقية إلى يوم القيامة عند القائين بالنسخ .

وندمع هذه الشبهة (أولا) بأن حصر الحكم للنسخ في هذين الوجهين اللذين ذكرهما الناس ، غير صحيح ، لأن الحكم للنسخ يجوز ألا يكون مؤقتا ولا مؤبدا ، بل يحىء مطلق عن التوقيت وعن التأييد كليهما . وعليه فلا يستلزم طروا نسخ عليه شيئا من الحالات التى ذكروها وإطلاق هذا الحكم كاف فى صحة نسخه ، لأنه يدل على الاستمرار بحسب الظاهر ، وإن لم يعرض له النص .

(ثانيا) أن ما ذكره من امتناع نسخ الحكم للتأييد غير صحيح أبصا ، وما استندوا إليه منقوض بوجوه ثلاثة :

(أولها) أن استدلالهم بأنه يؤدى إلى التناقض ، مدفوع بأن النسخات الشرعية مقيدة من أول الأمر بالأمر بالرد ناسخ ، كما أنها مقيدة بأهلية المكلف للتكليف وألا يطرا عليه حنون أو عفة أو موت . وإذن فحيء النسخ لا بغضى إلى ما نص به وبينه للنسخ بحال .

(ثانيها) أن استدلالهم بأنه يؤدى إلى أن يعفى على الله بيان التأييد منه ، مدفوع بأن التأييد بعموم الناس بسهولة من مجرد خطابات الله الشرعية المتعلقة على أئمة ، وهو ما يشعر به كل واحد مناه وذلك لأن الأصل بقاء الحكم الأول وما انفصل به من تأقيت

أو تأييد ، وطرو الداسح ، حتماً مرحوح : واستصحاب الأصل أمر يعيل إليه الطبع ، كما يؤيده العقل والشرع .

( ثالثها ) أن حور نسخ الشريعة الإسلامية إن لزمنا معاشر لقائين باسح - وبه يلزمنا هل اعتبار أنه احتمال عني لا شرعي ، بدليل أننا نكلم في الجواز ، على لا الشرعي . أما نسخ الشريعة الإسلامية غيرها من الناحية الشرعية فهو من المحلات الظاهرة ، لانهاد الأدلة على أن الإسلام دين عام خالد . ولا يضير المحل في حكم الشرع ، أن يكون من قبيل الجائز في حكم العقل .

#### الشبهة الرابعة ودفعها :

يقولون : إن النسخ يستلزم اجتماع الصدين ، واجتماعهما محسن . وبيان ذلك أن الأمر بالشئ يقتضى أنه حسن وطاعة ومحبوب لله ، والنهى عنه يقتضى أنه قبيح وممقصة ومكرره له تعالى فلو أمر الله بالشئ ثم نهى عنه ، أو نهى عن الشئ ثم أمر به ، لاجتمعت هذه الصفات المتضادة في الفعل الواحد الذى تعلق به الأمر والنهى .

ويدفع هذه الشبهة بأن الحسن والقبح وما الفصل مهمما ، ليست من صفات الفعل الذاتية حتى تكون ثابتة فيها لا تنغير : بل هي تابعة لتعلق أمر الله ونهى به به . وعلى هذا يكون الفعل حسنا وطاعة ومحبا لله مادام ما أمورا به من الله ، ثم يكون حسداً قبيحاً وممقصة ومكرره له تعالى ما دام ممقيا عنه من الله . والفتاوى والحسن والقبح لعقلين من المعتزلة ، ومروا ناسها يحتجوا بـ " اختلاف الأشخاص والأوقات والأحوال . وهذا التوجيه متى احتج الصدين ، لأن لوقت الذى يكون فيه الفعل حسنا ، غير لوقت الذى يكون فيه ذلك الفعل قبيحاً ، فلم يجمع الحسن والقبح في وقت واحد على فعل واحد .



## ب شبهات المنكرين للنسخ مما

نفذ نوعاً هؤلاء فيما سبق إلى أنواع. وقلنا: إن لكل منهم طريقة خاصة في تكليف دعواه وفي صياغة شبهته. وها هي ذى دعاويهم وشبهاتهم تلقى حقتها بين يديك، فيما سوفه إليك.

### ١ - شبهة العنانية والشمونية :

يقولون: إن التوراة التي أنزلها الله على موسى، لم تزل محفوظة لدينا، عنقولة التواتر فيما بيننا، وقد جاء فيها: « هذه شريعة مؤبدة مادامت السموات والأرض » وجاء فيها أيضاً: « الزموا يوم السبت أبداً ». وذلك يفيد امتناع النسخ، لأن نسخ شيء من أحكام التوراة لاسيما تعظيم يوم السبت، إبطال لما هو من عنده تعالى -

ویدفع هذه الشبهة بوجوه خمسة :

( أولاً ) أن شبهتهم هذه أقصر من مدعاهم قصوراً يفتأ، لأن قصارى ما تقتضيه - إن سمت - هو امتناع نسخ شريعة موسى عليه السلام بشريعة أخرى : أما تماسيح شرائع سواها، فلا تدل هذه الشبهة على امتناعه . بل يبعد أن ينكر اليهود انقاسح شرائع الإسرائيليين قبل اليهودية بشريعة موسى . فكان للظن أن تحيى دعواهم أقصر مما هو يحكى عنهم بحيث تتكافأ ودليلهم الذى زعموه أو أن يحى دليلهم الذى زعموه أعم من هذا حتى يتكافأ ودعواهم التي ادعواها .

( ثانياً ) أنا لا سلم لهم ما زعموه من أن التوراة لم تزل محفوظة في أيديهم حتى يصح

استلزامهم بها . بل الأدلة متضافرة على أن التوراة الصحيحة لم يعد لها وجود ، وأنه أصنامها من التعبير والتبديل ما جعلها في خير كان .

من تلك الأدلة أن نسخة التوراة التي بأيدي السامريين . تزيد في عمر الدنيا نحواً من ألف سنة على ما جاء في نسخة العتانيين . وأن نسخة النصارى تزيد ألفاً وثلاثمائة سنة .

ومنها أنه جاء في بعض نسخ التوراة ما يفيد أن نوحاً أدرك جميع آباءه إلى آدم وأنه أدرك من عهد آدم نحواً من مائتي سنة . وجاء في بعض نسخ أخرى ما يفيد أن نوحاً أدرك من عمر إبراهيم ثمانياً وخمسين سنة . وكل هذا باطل تاريخياً . .

ومنها أن نسخ التوراة التي بأيديهم تحكى عن الله وعن أنبيائه وملائكته أموراً يفكرها العقل . ويحجبها الطبع . ويتأذى بها السمع مما يستحيل معه أن يكون هذا الكتاب صادراً عن نفس بشرية مؤمنة ظاهرة فضلاً عن أن ينسب إلى ولي ، فضلاً عن أن يدس إلى نبي ، فضلاً عن أن ينسب إلى الله رب العالمين .

من ذلك أن الله تدم على إرسال الطوفان إلى العالم ، وأنه بكى حتى رمدت عيانه ، وأن يعقوب صارعه ! جل الله من ذلك كله .

ومن ذلك أن نوحاً شرب الخمر حتى عمل وزنى بانبتيه ١ .

ومنه أن هارون هو الذى اتخذ العجل ليقى إسرائيل ودعاهم إلى عبادته من دون الله

ومن الأدلة أيضاً على فساد دعوى بقاء التوراة وحفظها ، ما ثبت بالدوائر عند المؤرخين بل عند اليهود أنفسهم ، من أن نبي إسرائيل . وهم حلة التوراة وحفاظها . قد ارتدوا عن الدين مرات كثيرة ، وعبدوا الأصنام ، وقتلوا أنبياءهم شر قتيل . ولا ريب أن هذه

مطاعن شنيعة جارحة ، لا تبقى لأى واحد منهم أى نصيب من عدالة أو ثقة ، ولا نحصل لهذه النسخ التى رجموا أسماها التوراة أقل شيء من القيمة أو الصعة ، ما داموا هم روايتها وحفاظها ، وما دامت هى لم تعرف إلا عن طريقهم وروايتهم

( ثالثها ) أن هذا التواتر الذى حمله على التوراة لا يسلم لهم أيضا لأنها لو كانت متواترة لاحتواها أفضل الرسل عليه السلام ، ولعارضوا دعواه عموم رسالته بقول التوراة التى يؤمن بها ولا يمجدها ، بل يجهز بأنه حاء مصدقا لها ؛ ويدعو المسلمين أنفسهم إلى الإيمان بها ولكن ذلك لم يكن . ولو كان لقل واشتهر . بل الذى نقل واشتهر هو أن كثيرا من أحياء اليهود وعلماهم كعبد الله بن سلام وأضراره ، قد ألفوا القياد لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤمنين ودوا الشريعة مسلمين واعترفوا بأنه الرسول الذى بشرت به التوراة والإنجيل .

( رابعها ) أن لفظ التأييد الذى اعتمدوا عليه فيما نقلوه لا يصلح حجة لهم ، لأنه يستعمل كثيرا عند اليهود معدولا به عن حقيقته من ذلك ما جاء فى النقرة التى أمروا بذكرها : « هذه سنة لكم أبدا » وما جاء فى القرآنية : « قربوا كل يوم حرومين قربانا دائما » مع أن هذين الحكيمين منسوخا باعتراف اليهود أنفسهم ، على رغم التصريح بهما بما يفيد التأييد كما ترى

( خامسها ) أن نسخ الحكم مؤيد يعطى حائر على الصحيح ، كما أشرنا إلى ذلك قبل . فنسكن هاتان الممارتان التال اعتمدوا عليهما منسوخين أيضا . وشبهة التناقض تندفع بأن التأييد مشروط بعدم ورود ناسخ ، فإذا ورد النسخ انقضى ذلك التأييد ، وتبين أنه كان مجرد تأييد لمعطى لا ابتلاء والاحتقار له .

٢ - شبهة للمصارى :

يقولون إن المسيح عليه السلام قال « السماء والأرض تزولان وكلامى لا يزول » . وهذا يدل على امتناع النسخ سماعا

ويدمع هذه الشبهة (أولاً) بأنها لا تسلّم أن الكتاب الذي بأيديهم هو لإصحاح  
الذي نزل على عيسى، إن هو إلا قصة تاريخية وضعت في أيديهم وبينهم  
حيثما لا يسبح وولادته وشأبه ودموه. وأنما كن التي نقل فيها، والآيات التي صهرت  
على يديه، ومواعظه ومناظراته كما تصدّث فيها عن ذلك الحوادث التي حدثت  
أصحب وعلى رغم أنها قصة فقد عجزوا عن إقامة الدليل على صحتها وعدالة كتابها  
وأما به وصطفه، كما أعيانهم اتصال السند وسلامته من الشذوذ والتملة بل ثبتت أصابها  
ساقص سج هذه القصة التي أسموها الإنجيل، مما يدل على أنها ليست من عند الله  
ولو كانت من عند الله ما أناها الناطل من بين يديها ولا من خلفها وصدق الله في  
قوله عن القرآن: «ولو كان من غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»

(٢٠) أن حياى هذه الكلمة في الإنجيل، يدل على أن مرادهم  
بشأنه، وتكيد أنها مستفح لا محالة، أما التبع فلا صلة لها به فيها ولا غيره.  
وذلك لأن المسيح حدث أصحابه بأمر مستقلة، وبعد أن انتهى من حديثه  
أى هذه الحقبة التي تشتمل عليها: «السماء والأرض تزولان وكلامي لا يزول»  
ولا رب أن السياق الكلام تأثيره في الراد منه. وهكذا شرحها المنسرون منهم  
لإصحاح وقالوا: «إن فهمها على عمومها لا يتفق ونصريح المسيح بأحكامه، ثم هرب  
مبايحتها من ذلك أنه قال لأصحابه: «كما جاء في الإنجيل متى» - «في طريق  
أمم لا تعصوا، ومدينة للسامريين لا تدخلوا بل اذهبوا إلى الجري إلى حراف من إسرائيل  
بصلة» وهذا اعتراف بخصوص رسالته لبني إسرائيل. ثم قال مرة أخرى: «كما في  
إنجيل مرقس» -

«ذهبوا إلى العالم أجمع. واكرروا الإنجيل لكلية». فاقول الذي هو صحيح

(ثالثا) أن هذه الجمل على تسليم صحتها وصحة روايتها وكتابتها الذي جاءت به لا تدل على امتناع النسخ مطلقا ؛ إنما تدل على امتناع نسخ شيء من شريعة المسيح فقط وشبهتهم على ما فيها فاصرة قصورا بيننا عن مدعاهم .

### ٣ - شبهة الميمنية :

يقول هؤلاء اليهود أتباع أنى عيسى الأصغرى : لا سبيل إلى إسكار نبوة محمد ﷺ ، لأن الله تعالى قد أبداه بالمعجزات الكثيرة القاهرة ، ولأن التوراة قد شرحت بعصمه ، ولا سبيل أيضا إلى القول بمسوم رسالته ، لأن ذلك يؤدي إلى انتساح شريعة إسرائيل وشريعة ، وشريعة إسرائيل مؤيدة ، بدليل ما جاء في التوراة من مثل : وهذه شريعة مؤيدة عليكم ما دامت السموات والأرض ، وإنا هورسول إلى لرب خاصة . وعلى هذا فالخلاف بينهم وبين من سبقهم ، أن دعواهم مقصورة على منع انتساح شريعة موسى بشريعة محمد ﷺ . وشبهتهم التي ساقوها متكافئة مع دعواهم هذه ، وبهم من اقتصرهم على هذا أنهم يجوزون أن تنسخ الشرائع سما ، فيما عدا هذه الصورة . ويدفع شبهتهم هذه بأمرين :

(أولها) أن دليلهم الذي دعوهم ، هو دليل العناينة والشمومية من قبلهم ، ولأن أشيعناه تزييفا وتوهينا ، بالوجوه الستة التي أحققناها آنفا . فالدمع ما هو عين الدمع هناك ، فيما عدا الوجه الأول .

(ثانيها) أن اعترافهم بأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله ﷺ بالمعجزات وحدها المشار بها في التوراة ، يقضى عليهم لا محالة أن يصدقوه في كل ما جاء به ، ومن ذلك أن رسالته عامة ، وأنها ماضية للشرائع قبله ، حتى شريعة موسى عليه ، الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم بخصوصه : « لو كان آخى موسى حيا ما وسعني إلا انما عي » .

لما أن يؤمنوا برسالته ، ثم لا يصدقوه في عموم دعوته ، فذلك تناقض منهم لأنفسهم ، ومكارة للعبعة الطاهرة لهم ، « يجادلونك في الحق بعد ما تبين » ، كأما ساقون إلى اللوت وهم ينظرون » ا .

#### ٤ - شبهة أبي مسلم :

القول عن أبي مسلم مضطرب ، من قائل : إنه يمنع وقوع النسخ مما على الإطلاق . ومن قائل : إنه ينكر وقوعه في شريعة واحدة . ومن قائل : إنه ينكر وقوعه في القرآن خاصة . ورجعت هذه الرواية الأخيرة بأنها أصح الروايات ، وأن النسخ يلازم المنقولة هذه لم تخرج من حدود ما نسخ من القرآن . وأبعد الروايات عن الرجل هي الرواية الأولى ، لأنه لا يفتل أن مسدا فصلا عن عالم كآبي مسلم ينكر وقوع النسخ جملة اللهم إلا إذا كانت المسألة ترجع إلى التسمية فقط ، فإياها نهون حينئذ ، على معنى أن ما سمي به من نسخ ، بسميه هو تخصيصا بالزمان مثلا . وإلى ذلك ذهب بعض المحققين ؛ قال التاج السبكي : إن أبا مسلم لا ينكر وقوع المعنى الذي سمي به نحن نساء ، ولكنه يتعاضى أن يسميه باسمه . وبسميه تخصيصا ا هـ .

احتج أبو مسلم بقوله سبحانه « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » تبريل من حكيم حديد . وشبهته في الاستدلال أن هذه الآية ميدان أحكام القرآن لا تعطل أبدا . والله سبحانه وإبطال لحكم سابق .

ويدفع مذهب أبي مسلم وشبهته بأمور أربعة :

( أولا ) أنه لو كان معنى الباطل في الآية هو متروك العمل به مع بقاء قرآنيته ، فكان دليلا قاصرا عن مدعاه ، لأن الآية لا تنفذ حينئذ إلا امتناع نوع خاص من النسخ



الإيمان عن نطاق الشهات الآخرة التي دحضناها. لهذا نكتفي بما ذكرناه مما لم نذكره ،  
فرارا من التكرار وتجنبنا لإثارة الخصام ، وحيث في الوصول إلى الحقيقة سلام .

### طرق معرفة النسخ

لا بد في تحقق النسخ - كما علمت - من ورود دليلين عن الشارع ، وهما متعارضان  
تعارضاً حقيقياً ، لا سبيل إلى تلافيه بإمكان الجمع بينهما على أى وجه من وجوه التأويل .  
وحيث فلا مناص من أن يعتبر أحدهما ناسخاً والآخر منسوخاً ، دعماً للتعارض في كلام  
الشارع الحكيم . ولكن أى الدليلين يتعين أن يكون ناسخاً ، وأيهما يشين أن يكون  
منسوخاً ؟ هذا ما لا يجوز الحكم فيه بالهوى والشهوة . بل لابد من دليل صحيح يقوم  
على أن أحدهم متأخر عن الآخر . وإذن فيكون السابق هو المنسوخ ، واللاحق هو  
الناسخ . ولذا إلى هذا الدليل مائة ثلاثة :

( أولاً ) أن يكون في أحد النصين ما يدل على تعيين للتأخر منهما ، نحو قوله تعالى :  
« أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيَّ بَحْأَكُم مَّصَدَقَاتٍ ، فإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقْبَرُوا  
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » والله خير بما تعملون » . ونحو قوله :  
« الْآنَ خَفِيَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَمْعًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَنْصَبُوا  
مَائِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَفْلَبُوا أَلْفِينَ يَأْذَنَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »  
ونحو قوله : ﷺ « كُنتُمْ تَنْهَيْتُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ إِلَّا فَرَدَّوْهَا ، وَلَا تَقُولُوا هَرَا » .  
( ثانياً ) أن يعتقد إجماع من الأمة في أى عصر من عصورها على تعيين المتقدم  
من النصين والمتأخر منهما .

( ثالثاً ) أن يرد من طريق صحيحة عن أحد من الصحابة ما يفيد تعيين أحد النصين  
للتعارضين للسبق على الآخر أو التراخي عنه . كأن يقول : مررت هذه الآية بمد تلك الآية ،



أو نزلت هذه الآية قبل تلك الآية أو يقول : نزلت هذه عام كذا ، وكان معروفاً صدق نزول الآية التي تناقضها أو كان معروفاً تأخرها عنها .

أما قول الصحابي : هذا ناسخ وذلك منسوخ ، فلا ينهض دليلاً على النسخ ، لجوار أن يسكون الصحابي صادراً في ذلك عن اجتهاد أخطأ فيه فلم يصب فيه ، من السابق ولا يمين اللاحق خلافاً لأن الحصار . . . وكذلك لا يعتمد في معرفة الناسخ والمنسوخ على المسالك الآتية :

١ - اجتهاد المجتهد من غير سند ، لأن اجتهاده ليس بحجة .

٢ - قول للمفسر هذا ناسخ أو منسوخ من غير دليل ، لأن كلامه ليس بدليل .

٣ - ثبوت أحد النصين قبل الآخر في المصنف ، لأن ترتيب المصنف ليس على ترتيب النزول .

٤ - أن يكون أحد الراويين من أحداث الصحابة دون الراوي للنص الآخر ، فلا يحكم بتأخر حديث الصغير عن حديث الكبير . لجواز أن يكون الصغير قد روى للنسخ من تقدمت صحبته ، ولجواز أن يسمع للكبير النسخ من الرسول ﷺ بعد أن يسمع الصغير منه النسخ ، إما إحالة على زمن مضى ، وإما لتأخر تشريع النسخ والمنسوخ كليهما .

٥ - أن يكون أحد الراويين أسلم قبل الآخر فلا يحكم بأن ما رواه سابق الإسلام منسوخ ، وما رواه المتأخر منه فاسخ ، لجواز أن يكون الواقع عكس ذلك .

٦ - أن يكون أحد الراويين قد انقطعت صحبته ، لجواز أن يكون حديث من بقيت صحبته سابقاً لحديث من انقطعت صحبته .

٧ - أن يكون أحد النصين موافقاً لبراءة الأصلية دون الآخر ، مما يقتضيه أن الواقع لها هو السابق ، والمتأخر عنها هو اللاحق ، مع أن ذلك غير لازم ، لأنه ، لا مانع من تقدم ما حالف البراءة الأصلية على ما وافقها . مثال ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : لا وصية لي منكم .

النار ، فإنه لا يلزم أن يكون سابقا على الخبر الوارد بإيجاب الوصوه مما سمت النار ، ولا يحلو وقوع هذا من حكمة عظيمة ، هي تخفيف الله عن عباده بعد أن ابتلاهم بالشديد .

### قانون التعارض :

وعلى ذكر التعارض في هذا الباب ، فينبغي لك أن النصين المتعارضين إما أن يتفانى أحدهما قطعا ، أو طينيان ، وإما أن يختلفا فيكون أحدهما قطعيا والآخر ظاهريا أما المتفانيان فلا نسخ بينهما ، لأن القطعي أقوى من الظاهري ، فيؤخذ به ، وما كان اليقين ليركض بالظن . وأما المتفانيان فإن علم تأخر أحدهما بطريق من تلك الطرق الثلاث للتعلمة ، فهو النسخ والآخر المنسوخ . وإن لم يدل عليه واحد منها وجب للتوقف . وقيل بتغيير الظاهر بين العمل بهما .

هذا كله إذا لم يمكن الجمع بين النصين بوجه من وجوه التخصيص والتأويل . وإلا وجب الجمع ، لأن إعمال الدليلين أولى من إعمال دليل وإهدار آخر ، ولأن الأصل في الأحكام بقاؤها وعدم نسخها فلا ينبغي أن يترك استصحاب هذا الأصل إلا بداول بين .

### ما يتناولُه النسخ

إن تعريف النسخ بأنه رفع حكم شرعي بدليل شرعي ، يفيد في وضح أن النسخ لا يكون إلا في الأحكام . وذلك موضع اتفاق بين القائلين بالنسخ ، لكن في خصوص ما كان من هروع العادات والمعاملات . أما غير هذه الفروع من العقائد وأهميات الأخلاق وأصول المبادئ والمعاملات ومطلوبات الأخبار المحضة ، فلا نسخ فيها على الرأى السديد الذي عليه جمهور العلماء .

أما العقائد فلا نسخها حقائق صحيحة ثابتة لا تقبل التغيير والتبديل ، وبذلك لا يتعاقب نسخها .

وأما أهميات الأخلاق فلأن حكمة الله في شرعها ، ومصلحة الناس في التخلق بها .

أمر ظاهر لا يتأثر بمرور الزمن ، ولا يختلف باختلاف الأشخاص والأسماء حتى يتناولها  
الشيخ بالتعديل والتغيير .

وأما أصول العبادات وللملأملات فلو صوح حاحه ، لخلق إليهما باستمرار ، التركيبة النعوس  
ونظيرها ولتدظيم علاقة الخبوق بالخلق والخلق على أساسهما فلا يظهر وجه من وجوه  
الحكمة في رفعها بالشيخ .

وأما مدلولات الأخبار المحضة فلأن نسخها ، يؤدي إلى كذب الشارع في أحد خبريه  
الناسخ والنسوخ . وهو محال عقلا ونقلا . أما عقلا فلأن الكذب نقص ، والنقص عليه  
تعالى محال . وأما نقلا فمثل قوله سبحانه : « ومن أصدق من الله قيلاً » ومن  
أصدق من الله حديثاً » .

نعم إن نسخ لفظ الخبر دون مدلوله حائز بإجماع من قالوا بالنسخ ولذلك صورتان :  
إحداها أن تنزل الآية مخيرة عن شيء ثم تدسخ تلاوتها ، فقطع والأخرى أن يأمر الشارع  
بالفخذ عن شيء ثم ينهانا أن نفخذ به .

وأما الخبر الذي ليس بمحض . بأن كان في معنى الإشاء ، ودل على أمر أو مهي متصين  
بأحكام فرعية عدية ، فلا نزاع في حوار نسخها والنسخ به ، لأن العبارة بادهى لا ، للفظ .  
مثال الخبر بمعنى الأمر قوله تعالى : « تَزَارَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا » فإن معناه اررءوا .  
ومثال الخبر بمعنى النهى قوله سبحانه : « الزَّالِمِينَ لَا يَمْسِكُهُ إِلَّا زَانِيَةٌ أَوْ مُشْرِكَةٌ ،  
والزانية لا يمسكها إلا زانية أو مشرك » فإن معناه لا يسكحو مشرك ولا زانية (فتنح  
النساء) ولا يسكحوها (نهم النساء) ، لكن على بعض وجوه الاحتمالات دون بعض .  
والفرق بين أصول العبادات والمعاملات وبين فروعها ، أن فروعها هي ما يتعلق  
بامهيات والأشكال والأحكام والأرسة والعدد ، أو هي كميته وكمياتها وأما أصولها  
فهى دوات العبادات والمعاملات بقطع النظر عن الحكم والكميات .

و علم أن ما قروناه هنا من قصر النسخ على ما كان من قبيل الأحكام الفرعية العمية دون سواها ، هو الرأى السائد الذى ترتاح إليه النفس وبؤيده الدليل ، وقد ندرع فى ذلك قوم لا وجه لهم ، فلنصرب عن كلامهم صفحا :

« وليس كل خلاف جاء معتبرا إلا خلاف له حظ من النظر »

ويقتضى عما ذكرنا أن الأديان الإلهية لا تنسخ فيها فيما يبعث من الأمور التى لا يتبدلها النسخ . بل هى متحدة فى المقائد وأمهات الأخلاق وأصول العبادات والعاملات والى صدق الأخبار المحضة فيها صدقا لا يقبل النسخ والنقص . ومن شئت أدلة هناك ما يأتى من القرآن الكريم :

١ - « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَاهُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » .

٢ - « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِىَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي » .

٣ - « بِأَيِّهَا الدِّينَ آمَنُوا كَتَبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كَتَبَ عَلَى الدِّينِ مِنْ قَبْلِكُمْ » .

٤ - « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » .

٥ - « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَأَ بِأَقْرَبَ بَنَاتِهِ فَأَتَى مِنْ أَحَدِهِمْ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ لَاحِرٍ قَدَلٍ : لَأَقْبَلَنَّ قَالَ : لِمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » .

٦ - « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ لَنْفُسَ الْنَفْسِ ، وَالْمِئِينَ بِالْمِئِينَ ، وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ ، وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ ، وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ » .

٧ - « كل الطعام كان حلالاً لدى إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تحرل التوراة »

٨ - « إن أردت أن أسكتك إحدى سنتي هاتين على أن تأخروني عندي حتى يخرج »

٩ - « فظلم من الذين هادوا حرموا عليها طيبات أكلت لهم »  
١٠ - « وإذا قال قائل لاسي وهو يعطيه : يا بني لا تُشرك بالله » إلى آخر ما جاء في قصة لقمان .

## أنواع النسخ في القرآن

النسخ الواقع في القرآن ، ينسوع إلى أنواع ثلاثة : نسخ التلاوة والحكم معاً ، ونسخ الحكم ، دون التلاوة ، ونسخ التلاوة دون الحكم

(١) أما نسخ الحكم والتلاوة جميعاً ، فقد أجمع عليه القائلون بالنسخ من المسلمين ويدل على وقوعه بما ما ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « كان فيما أنزل من القرآن عشر رصعات معلومة يحرّم ، ثم نسخ بحسب معلومات وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن فيما يقرأ من القرآن » وهو حديث صحيح . وإذا كان موقوفاً على عائشة رضي الله عنها فإن له حكم مرفوع ، لأن مثله لا يقال دبراً ، بل لا بد فيه من توقيف . وأما خبر أن حلة : عشر رصعات معلومات يحرّم ، ليس لها وجود في المصنف حتى تنقضي ، وليس العمل بما يبيده من الحكم ناقياً ، وإذن ثبت وقوع نسخ التلاوة والحكم جميعاً ، وإذا ثبت وقوعه ثبت حواره ؛ لأن الوقوع أول دليل على الحوار . وبطل مذهب الناعمين لحواره شرعاً ، كأبي مسلم وأضرابه .

(٢) وأما نسخ الحكم دون التلاوة فيدل على وقوعه آيات كثيرة :

مها أن آية تقديم الصدقة أمام متاجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي قوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة » منسوخة بقوله سبحانه: « أأشفتكم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات؟ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فاقبضوا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله ». على معنى أن حكم الآية الأولى منسوخ بحكم الآية الثانية، مع أن تلاوة كليهما باقية.

ومنها أن قوله سبحانه: « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » منسوخ بقوله سبحانه: « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » على معنى أن حكم تلك منسوخ بحكم هذه، مع بقاء التلاوة في كليهما كما ترى.

(٣) وأما نسخ التلاوة دون الحكم، فيدل على وقوعه ما صحت روايته عن عمر ابن الخطاب وأبي بن كعب أنها قالوا: « كان فيما أنزل من القرآن: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما آتية ١٠١ ». وأنت تعلم أن هذه الآية لم يعد لها وجود بين دفعي المصحف ولا على السنة القراء، مع أن حكمها باق على إحكامها لم يفسخ.

ويدل على وقوعه أيضاً ما صح عن أبي بن كعب أنه قال: « كانت سورة الأحزاب توازي سورة البقرة أو أكثر » مع أن هذا التقدير الكبير الذي نسخت تلاوته لا يخلو في الغالب من أحكام اعتقادية لا تقبل النسخ.

ويدل على وقوعه أيضاً الآية الناسخة في الرضاع؛ وقد سبق ذكرها في السور الأول.

ويدل على وقوعه أيضاً ما صح عن أبي موسى الأشعري أنهم كانوا يقرءون سورة على عهد رسول الله ﷺ في طول سورة براءة، وأنها سميت إلا آية منها، وهي: « لو كان لابن آدم واديان من مال لا يفتي واديا ثالثا. ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب. ويعتوب الله على من تاب ».

وإذا ثبت وقوع هذين النوعين كما ترى ، ثبت جوازهما ، لأن الوقوع أعظم دليل على الجواز كما هو مقرر . وإذن بطل ما ذهب إليه الماسنون له من ناحية الشرع ، كأي مسلم ومن لف لفة . ويطلق كذلك ما ذهب إليه الماننون له من ناحية العقل ، وهم فريق من المعتزلة نذ من الجماعة فزعم أن هذين النوعين الأخيرين مستحيلان عقلاً .

ويمكنك أن تصمم هؤلاء الشذاذ من المعتزلة بدليل على الجواز العقل الصرف لهذين النوعين فنقول : إن ما يتعلق بالنصوص القرآنية من التعبد بلفظها ، وجواز الصلاة بها ، وحرمتها على الجنب في قرائتها ومسمها ، شبيه كل الشبه بما يتعلق بها من دلالتها على الوجوب والحرمه ونحوهما في أن كلام من هذه المذكورات حكم شرعي يتعلق بالنص الكريم ، وقد تقتضى المصلحة نسخ الجميع ، وقد تقتضى نسخ بعض هذه المذكورات دون بعض ، وإذن يجوز أن تنسخ الآية تلاوة وحكما ، ويجوز أن تلغ تلاوة لاحكام أو يجوز أن تنسخ حكماً لا تلاوة . وإذا ثبت هذا بطل ما ذهب إليه أولئك الشذاذ من الاستعانة العقلية للنوعين الأخيرين .

### شبهات أولئك الماننين ودفعها

وتصميا للعائدة نعرض عليك شبهاتهم ، مفتدين لما شبهة شبهة .

#### الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون : إن الآية والحكم المستفاد منها متلازمان تلازم الطوق والمعلوم ، ولا يمكن استكاث أحدهما من الآخر .

والجواب أن التلازم بين الآية وحكمها مشروط فيه انتفاء للمارض وهو الماسخ ، أما إذا وجد الماسخ فلا تلازم ، والأمر حينئذ للناسخ ، إن شاء رفع الحكم وأبقى على التلاوة ، وإن شاء عكس وإن شاء رفعها معاً على حسب ما يقتضيه الحكم أو المصلحة وطير

ذلك أن القلازم بين منطوق القبط ومعهومه مشروط فيه انتهاء المدرس . أما إذا وجد  
منطوق معارض للمعهوم ؛ فإن المعهوم حينئذ يمتلئ ، ويبقى العمل بالمنطوق وحده .

### الشبهة الثانية ودعمها :

يقولون : إن نسخ الحكم دون التلاوة ، يستلزم تعطيل الكلام لإلهي وتجريده  
من لفائدة . وهذا عيب لا يرضى به عقل لأقل نوع من كلامه ، فكيف يرضى به  
الله لأفضل كلامه ؟ .

والجواب أنا لا نسلّم هذا القزوم . بل الآية بعد نسخ حكمها دون تلاوتها ، تبقى مفيدة  
للإيجاز ، وتبقى عبادة للناس . وتبقى تذكيرا بمنابة الله ورحمته بعباده حيث من لهم في كل  
وقت ما يسائر الحكمة والمصلحة من الأحكام يضاف إلى ذلك أن الآية بعد نسخ حكمها  
لا تحوّل غالبا من دعوة إلى عقيدة ، أو إرشاد إلى فصيحة ، أو ترغيب في خير ؛ ومثل  
ذلك لا ينسخ بنسخ الحكم ، بل تبقى الآية مفيدة له ، لأن النسخ لا يتعلق به كما مر .

### الشبهة الثالثة ودعمها :

يقولون : إن بقاء التلاوة بعد نسخ الحكم ، يوقع في روع المكلف بقاء هذا  
الحكم ، ذلك تلبس وتوريط للعبد في اعتقاد فاسد ومحال عن الله أن يشكك أو  
يورط عبده .

والجواب أن ذلك التلبس وهذا التوريط ، كان يصح ادعواؤهما واستلزام نسخ الحكم  
دون التلاوة لهما ، لو لم ينصب الله دليلا على نسخ أم . وقد نصب عليه الدلائل ، فلا عذر  
لجاهل ولا محل لتوريط ولا تلبس ، لأن الذي أعلن الأحكام الأول بالآية وشرعه ، هو  
الذي أعلن بداسخ أمه نسخه ورفعها : « قل والله الحقة لبالغة فلنؤمن بهداكم أمهين » .



اللهم اهدنا هداك يارب العالمين . فإنه لا هادي إلا أنت . » ومن يصل الله لنا  
له من هادي .

### الشبهة الرابعة ودعمها :

يقولون : إن الآية دليل على الحكم ، فلو مسخت دونه لأشعر مسحها  
مارتداع الحكم وفي ذلك ما فيه من التليس على المكلف والتوريط له في اعتقاد  
فاسد .

ويدفع هذه الشبهة بأن تلك القوارم الباطلة تحصل لو لم يصب الشارع دليلاً على نسخ  
التلاوة ، وعلى إبقاء الحكم . أما وقد نصب الدليل على نسخ التلاوة وحدها ، وعلى إبقاء  
الحكم وتقرير استمراره كافي رجم الزناة المحصنين ، فلا تليس من الشارع على عبده  
ولا توريط .

### الشبهة الخامسة ودعمها :

قولون : إن نسخ التلاوة مع بقاء الحكم عبث لا يليق بالشارع الحكيم ؛ لأنه  
من التصرفات التي لا تعدل لها فائدة .

ويدفع هذه الشبهة بمجوابين :

( أحدها ) أن نسخ الآية مع بقاء الحكم ليس مجرداً من الحكمة ، ولا حالياً من  
العائدة ، حتى يكون عبثاً ، بل فيه فائدة أي فائدة . وهي حصر القرآن في دائرة محدودة  
تيسر على الأمة حفظه واستظهاره ، وتسهل على سواد الأمة التحقق فيه وعرضه ،  
وذلك سور محكم ، وسياج منيع ، يحمي القرآن من أبدى التلاعبين فيه بالزيادة أو النقص  
لأن الكلام إذا شاع وذاع وملاً البقاع ، ثم حاول أحد تحريفه ، سرعان ما يعرف ، وشد

ما يقابل بالإسكار. وبذلك يبقى الأصل سليماً من التعمير والتعديل، مصداقاً لقوله سبحانه: «إِذَا مَنَّ لِلْإِنسَانِ نِعْمَةً كَثِيرَةً وَلَهُ الْفِتْنَةُ أَكْثَرُ مِنَ النِّعَمِ»

والخلاصة أن حكمة الله قصت أن تمرل بعض الآيات في أحكام شرعية عملية ، حتى إذا اشتهرت تلك الأحكام ، نسخ سبحانه هذه الآيات في تلاوتها فقط ، رجوعاً بالقرآن إلى سيرته من الإحلال ، وطرداً لعادته في عرص فروع الأحكام من الإقلال ، تيسيراً لحفظه وصاناً لصونه « والله يعلم وأنتم لا تعلمون »

(ثانيهما) أنه على فرض عدم علمه بحكمة ولا فائدة في هذا النوع من النسخ ، فإن عدم العلم بأشياء لا يصلح حجة على العلم بعدم ذلك شيء ، وإلا فحق كان الخلل طرقاً من طرق العلم ؟ ثم إن الشأن في كل ما صدر عن العليم الحكيم الرحمن الرحيم ، أن يصدر الحكمة أو لعادته ، تؤمن بها وإن كنت لا تعلمها على التعيين وكما في الإسلام من أمور أمددة ، استأثر الله بعلم حكمتها ، أو أطلع عليها بعض خاصته من المقربين منه والمحبوبين لديه ، « فوق كل ذي علم عليم » وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً .

ولا بدع في هذا ، فرب البيت قد يأمر أحدهما بما لا يدركون فائدته لنقص عقولهم ، على حين أنه في الواقع مفيد ، وهم يأتمرون بأمره وإن كانوا لا يدركون فائدته والرئيس قد يأمر مرءوسيه بما يعجزون عن إدراك سره وحكمته ، على حين أن له في الواقع سرّاً وحكماً ، وهم يطيعون أمره وإن كانوا لا يفهمون سره وحكمته

كذلك شأن الله مع خلقه فيما حفي عليهم من أسرار تشريعهم ، وفيما لم يدرخوا من فائدة نسخ التلاوة دون الحكم . « والله المثل الأعلى ، وهو المنزير الحكيم »

## النسخ ببدل وبغير بدل

الحكم لشرعي الذي ينسخه الله ، إما أن يحل - سبحانه - محله حكماً آخر أو لا .  
هذا أحل محله حكماً آخر فذلك هو النسخ ببدل . وإذا لم يحل محله حكماً آخر فذلك  
هو النسخ بغير بدل ، وكلاهما جائز عقلاً وواقع معاً على رأى الجمهور

مشر النسخ ببدل أن الله تعالى هي السنين أول الأمر عن قتال الكفرة ، ورعهم  
في المعو والصبح ؛ عثل قوله سبحانه : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد  
إيمانكم كفراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعصوا وأطيعوا  
حتى تأتي أمراً من الله ، فإن الله على كل شيء قدير » .

ثم نسخ الله هذا النسخ وأذنهم بالجهاد فقال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ،  
وإن الله على بصيرم لقدير » الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا  
الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت صوامع وبيع وصوات ومساكن  
يدكر فيها اسم الله كثيراً . ولينصرون الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز \* الذين  
إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن  
لمسكر . والله عاقبة الأمور » .

ثم شدد الله وعزم عليهم في التغير للقتال ، وموعدهم إن لم يتفروا فقال : « إلا تنصروا  
يعدنكم عدائنا وليا ويقتلن قوماً غيركم ولا تصرون شيئاً والله على كل شيء قدير \*  
إلا تنصرون فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ  
يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . فأرسل الله حكيمته عليه وأبده محمداً لم تروها  
وحمل كلمة الدين كفروا السفلى . وكلمة الله هي العليا . والله عزيز حكيم » .

ومثال الدخ بلا بدل أن الله تعالى أمر بتقديم الصدقة بين يدي متاجرة الرسول فقال :  
 « يا أيها الذين آمنوا إذا ما جئتم الرسول فقدموا بين يديكم نجواكم صدقة » ثم دفع هذا  
 التكليف عن الناس من غير أن يكلفهم شيء مكانه ، بل تركهم في حل من ترك  
 للحكم الأول دون أن يوجه حكماً آخر . فقال : « أأشقتم أن تقدموا بين يدي  
 نجواكم صدقات » فإذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا  
 الله ورسوله »

### شبهة ودفعها

ذلك مذهب الجمهور من العلماء ، ولكن بعض المعتزلة والظاهرية يقولون . إن الدخ  
 مبرر بدل لا يجوز شرعاً . وشبهتهم في هذا أن الله تعالى يقول : « ما نسخ من آية أو  
 منسأ بات بخير منها أو مثلها » . ووجه اشتباههم أن الآية تفيد أنه لا بد أن تأتي مكان  
 الحكم لمسخ بحكم آخر هو خير منه أو مثله . ولكنها شبهة مدفوعة بما ذكرنا من  
 المصين لسابقين في تقديم الصدقة بين يدي الرسول ﷺ . واحتجاجهم بآية « ما نسخ »  
 على الوجه الذي ذكروه احتجاج داحض ، لأن الله تعالى إذا نسخ حكم الآية مبرر بدل ،  
 فهم بمقتضى حكمته أو رعايته لمصلحة عباده أن عدم الحكم صواب خير من ذلك الحكم  
 المنسوخ في نفسه للناس . وصح أن يقال حينئذ إن الله نسخ حكم الآية السابقة ، وأتى  
 بخير منها في الدلالة على عدم الحكم الذي بات في وقت النسخ أنفع للناس وخير لهم من  
 الحكم المنسوخ . ومعنى آية « ما نسخ » لا يأتي هذا التأويل ، بل يتبين له كالتأويل  
 سواء ، والنسخ فيها أعم من نسخ التلاوة والحكم محتتمين ومفتردين ، بدل ومبرر بدل  
 والخيرية والمنفعة فيها أعم من الخيرية والمنفعة في الثواب وفي النفع . وقدمر بيان ذلك فيما  
 سبق عند الكلام على أدلة النسخ عقلاً .

## نسخ الحكم يبدل أخف أو مساو أو أثقل

النسخ إلى بديل يقتنع إلى أنواع ثلاثة :

( أولها ) النسخ إلى بديل أخف على نفس المكلف من الحكم السابق كنسخ نحر الأكل والشرب والجماع بعد النوم في ليل رمضان بإباحة ذلك ؛ إذ قال سبحانه : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى مساكنكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » . علم الله أنكم كنتم تخافون أنفسكم فتلب عليكم وعصايتكم . فالآن بأمره هن ، وابتسوا ما كعب الله لكم . وكُلوا واشربوا حتى يبين لكم الخطيط الأبيض من الخطيط الأسود من الفجر » .

( ثانيها ) النسخ إلى بديل مساو للحكم الأول في خفته أو قلة على نفس المكلف ، كنسخ وجوب استقبال بيت المقدس بوجوب استقبال الكعبة في قوله سبحانه : « قد ترى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

وهذان النوعان لا خلاف في جوارهما حقلا ووقوعهما معهما عند الفئتين بالنسخ كافة .

( ثالثها ) النسخ إلى بديل أثقل من الحكم للتسوخ . وفي هذا النوع بدت الخلاف : فجمهور العلماء يذهبون إلى جوازه عقلا ومما ، كالنوعين السابقين ، ويستدلون على هذا بأمثلة كثيرة تثبت الوقوع المسمى ، وهو أحل ذليل على الجوار الثقل كاعطت من تلك الأمثلة أن الله تعالى نسخ إباحة الخمر بقصرها . ومنها أنه تعالى نسخ ما فر من مسالة الكفار المحاربين بما فرض من قتالهم « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » . ومنها أن حد الزنى كان في حجر الإسلام لا يمدو التعنيف والحبس في البيوت ، ثم نسخ

ذلك سخطه والسبب في حق المكر ، وبارحم في حق الثيب . ومنها أن الله تعالى فرض على المسلمين أولاً صوم يوم عاشوراء ، ثم سحبه فرض صوم شهر رمضان كله مع تحيير الصحيح للقيم بين صيامه وإفدائه ، ثم سمح سبحانه هذا التحيير بتعيين الصوم على هذا الوجه لمقر إزالته .

### مشبهات المانعين ودفعها

ذلك ما ارتأه الجمهور . وانكس قوماً شطوا فسمعوا هذا النوع الثالث عقلاً . وآخرون أسرفوا فسمعوه سمعاً . وكلهم محجوجون عما ذكرنا من الأدلة . غير أنما لا استكتفى بذلك ، بل فرض عليك شبهتهم ، وعندها بين ذلك ثلثاً تمحذع ولا يسمح لأحد أن يحدع ؟

### اشبهة الأولى ودفعها

يقول المانعون هذا النوع عقلاً . إن التكليف لله لعمدة لا بد أن يكون لمصلحة راجعة إلى العباد لا إليه . ومحال أن يكون غير مصلحة ، وإلا كان الله سبحانه عاذاً ومحال أن يكون لمصلحة تعود على الله ، لأنه تعالى هو المعنى عن حقيقة جميعاً . وإذا كان التكليف راجعاً لمصلحة العباد وحدهم ، فلا بد أن يكون على حالة تدعو إلى امتثالهم . وليس في نقل العباد من الأحف إلى الأشدد داعية إلى امتثالهم . بل هو العكس من ذلك . فيه ترهيد لهم في الطاعة ، ونشيطهم عن الواجب . وكل ما كان كذلك يمتنع أن يصدر من الله عقلاً . ودفع هذه الشبهة : ( أولاً ) أن هذه سمعيات معصوية ، ومعاصيات مكشوفة ، عني بها هؤلاء ، أو تعمدوا عن الحق في الواقعة في التشرع ، وهي نقل العباد فعلاً من أحكام حقيقة إلى أحكام أشد منها . كما مضى آتياً .

( ثانياً ) أنها نقل حجة هؤلاء عليهم ، ورد كيدهم في محرم ، وسعمل سلاحهم

في أعناقهم ، ونقول لهم : إن مصدعة العباد التي هي مقصود الشارع الحكيم الرحيم ، تنص  
أن يكون تكليفه إياهم على حالة تدعو إلى اعتدالهم ، وذلك بأن يتدرج بهم ، فيمهد  
ويمهد لتكليف الحميم بتكليف أحف منه ، ويمهد للتكليف الثقيل بتكليف حبيب ،  
وللتكليف الأثقل بتكليف ثقيل ، لأن الناس لو بوهتوا من أول الأمر بالثقل مثلاً  
لهزوا ونفروا وانكس المقصود من هدايتهم . ولذلك نشاهد حكاء الرين ، وساسة  
الأمم القادرين يتقدمون في تربيتهن وميائتهن بأبصر الأمور ، ثم بعد ذلك يتدرجون  
ولا يطفرون .

( ثالثاً ) أن دليلهم هذا منقوض بما لا يسهم إنكاره ، وهو تكليف الله عباده  
ابتداءً ونظمهم من الإباحة المطلقة أو البراءة الأصلية إلى مشقة التكليف المتنوعة . فما  
يكون جواباً لهم عن هذه يكون جواباً لنا عما منعه هنا .

( رابعاً ) أنهم متناقضون ، فإن مقصود العباد التي حملوها مذاط شمتهم تأبى مفاجأة  
الناس بالأشد من غير تمهيد بالأحف ، ومذهبهم لا يأبى التكليف من أول الأمر بالأشد  
دون تمهيد بالأحف .

( خامساً ) أننا لا سلم أن مقصود الشارع من التكليف هو مجرد مصالح الناس ،  
بل تارة يكون المقصد هو المصلحة ، وتارة يكون المقصد هو الابتلاء والاختبار ، ليميز  
الله الخبيث من الطيب ، حتى لا يكون لأحد بعد تمايز الناس بابتلائه حجة . وقد أعلن  
الله هذا المقصد الثاني في آيات كثيرة ، منها قوله سبحانه : « ولنبوئكم حتى نعلم مجاهدين  
منكم والصلح بيني وبينكم » ومنها قوله عز وجل : « ولنبوئكم بالشر والخير فتنة »  
وإليها ترجعون . ومنها قوله عز وجل : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم  
أحسن عملاً » .

وإن صرح الحكم بأشد قد يكون ابتلاء للعباد ، إن لم يكن مصدعة لهم وذلك  
حكمة مألوفة من الله العلي .

(سادسا) أن الحكم الأشد الناسخ ، قد يكون هو المصلحة للعباد ، دون الحكم الأخف للمسوح ، لأنه على رغم شدته وقلة يشمل على داعية لاحتلاله لا توجد في الحكم الأول وقت النسخ . من ترغيب أو ترهيب ، أو تجلية لمزايا وفوائد من وراء الحكم الجديد في الدنيا أو في الآخرة . تأمل آتقى التحريم النهائي للحمر وما انطوت عليه من هذه الألوان ، ثم تأمل آيات مشروعية الجهاد وما فيها من ضروب الترغيب والترهيب وتحريك العزائم إلى السخاء بالنفوس والأموال إلى غير ذلك مما تدركه في الأحكام الناسخة بأقل تبصر وإيمان .

#### الشبهة الثانية ودفعها :

يقول المانعون لنسخ الأحف بالأقل سما قط : إن الله تعالى يقول : « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » . ومعنى هذا أن الشدائد التي كانت على من قبلنا رفعها الله عنا . ونسخ الأحف بالأشد مخالفا لهذا الوعد الصريح ، فهو مجموع سما .

وندفع هذه الشبهة بأن قصارى ما تنفذه هذه الآية أن الله تعالى أعفى هذه الأمة المحمدية من أن يكلفها بما يصل في شدته إلى تلك الأحكام القاسية التي فرضها على الأمم الماضية ، والتي ألزمهم بها إلزاما كأنها أغلال في أعناقهم . وهذا لا يبنى أن تكون بعض الأحكام في الشريعة الإسلامية أشد من بعض ، وأن ينسخ الله فيها حكما أخف بحكم أنفل منه ، ولكن لا يصل في شدته وصرامته إلى مثل أحكام الماضين في شدتها وصرامتها . فوعد الله بالتخفيف على هذه الأمة حق ، ونسخه حكما عما هو أنفل منه حق . وحلاصة الخراب أن شدته بعض الأحكام الإسلامية إنما هو بالنسبة إلى بعضها الآخر . أما بالنسبة إلى أحكام الشرائع الأخرى فهي أخف منها قطعا .



### الشبهة الثالثة ودفعها :

يقول هؤلاء أيضاً : « إن الله تعالى يقول : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ويقول : « يريد الله أن يخفف عنكم » ولا يسير ولا تخفيف في قلنا من الأخف إلى الأثقل .

وتدفع هذه الشبهة : ( أولاً ) بأن قصارى ما يدل عليه هذان النصان الكريمان ، هو أن الأحكام الشرعية كلها ميسرة مخففة في ذاتها ، لا إرهاق فيها للمكلفين ، وإن كانت فيما بينها متفاوتة ، فبعضها أثقل أو أخف بالنسبة إلى بعض .

( ثانياً ) أنه لو كان مفهوم الآية هو ما فهموا من التيسير والتخفيف المطلقين ، لانتقض ذلك بأصل التكليف ، لأن التكليف إزام ما فيه كلفه .

( ثالثاً ) أن النص الأول : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » قد سبق في معرض خاص ، هو الترخيص للمرضى والمسافرين أن يفتروا ويقضوا عدة من أيام أخر . وعلى هذا يكون معناه يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، في ترخيصه للمرضى والمسافرين أن يفتروا رمضان ويقضوا عدة ما أفطروا .. وكذلك النص الثاني : « يريد الله أن يخفف عنكم » قد سبق في معرض خاص ، هو إباحة الله لعباده ، أن يتزوجوا الفتيات اللواتي من الإماء ، إذا لم يستطيعوا عاولاً أن يتزوجوا الحرائر من المحصنات اللواتي ، وبشرط أن يخشوا العنت أى يخافوا الوقوع في الزنى .

وعلى هذا فالتخفيف المذكور في هذا السياق ، معناه التخفيف بالترخيص لمؤلاة الغراء الحائمين من العنت ، أن يتزوجوا إماء الله اللواتي .

### الشبهة الرابعة ودفعها :

يقول هؤلاء أيضاً : إن قوله سبحانه « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بحير منها أو مثلها » يفيد أن النسخ لا يكون إلا بالأخف ، لأنه الخير ، أو بالسوى ، لأنه لئلا ، أما الأثقل فلا .

وتدفع هذه التهمة بأن الخيرية والثلية في الآية الكريمة ليس المراد منهما ما فهموا من الحقة عن الحكم الأول أو المساواة به . بل المراد بها الخيرية والثلية في النفع والثواب ، على ما مر به . وعلى هذا فالنافع من أن يكون الأقل النسخ أكثر فائدة في الدنيا وأعظم أجراً في الآخرة من الأخف للنسخ ؟ أو يكون مساوياً له في الثواب ومما لا شك فيه في الأجور ؟ .

### نسخ الطلب قبل التمكن من امتثاله

هناؤنا اتفقوا على أن نسخ الطلب قبل التمكن من العلم به ممتنع ، كما اتفقوا على أن نسخه بعد تمكن المكلف من امتثاله جائز ، لم يخالف في ذلك إلا الكرخي فيما روى عنه من امتناع النسخ قبل تحقق الامتثال بالعمل . . أما نسخ الطلب بعد التمكن من العلم وقبل التمكن من الامتثال ، فيه اختلاف العلماء : ذهب جمهور أهل السنة ومن وافقهم إلى جوازه ، وذهب جمهور المعتزلة ومن وافقهم إلى منعه . مثال ذلك قوله سبحانه : وكتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين المعروف حقاً من المتقين ، فإن جمهورنا يحجرون نسخ وجوب الوصية المذكور في هذه الآية بعد التمكن من العلم به وقبل أن يحضر الموت أحد للكافرين . أما جمهور المعتزلة فيقولون باستحالة نسخ هذا التشريع إلا بعد احتضار أحد للكافرين وتمككه من الوصية . ولا يكتفى الكرخي فيما روى عنه بمجرد تمكن المكلف من الوصية ، بل لابد بعده من أن يرضى بالعمل ، حتى يحوز النسخ بعده .

أدلة المثبتين لهذا النوع من النسخ :

إن الدين أجازوا هذا النوع من النسخ ، استدلاله بثلاثة أدلة :

( أحدهما ) أن نسخ الطالب قبل التمكن من امتثاله لا يترتب على وقوعه محال عقلي .  
وكل ما كان كذلك فهو جائز عقلا .

( ثانيا ) أن النسخ قبل التمكن من الفعل ، مانع كسائر اللوائح التي تمنع العمل منه ،  
إد لا فاروق بينه وبينها يؤثر . فلو لم يجر هذا النوع من النسخ لم يحز أن يأمر الله عبده بعمل  
في مستقبل زمانه ثم يموت عنه بمرض أو موت أو نحوهما ، لكن للشاهد غير ذلك باعتداف  
الناظرين أنفسهم ، فكثيرا ما تحول الحوائث بين الله وما أمره الله في مستقبله . فيبصر  
هذا النوع من النسخ أصا .

( ثالثها ) أن هذا النوع من النسخ قد وقع فعلا . والوفوع دليل الحوار  
وربادة

ثم إن لهم على وقوع هذا النوع من النسخ دليلين :

( الدليل الأول ) أن الله تعالى حين حدثنا عن إبراهيم وولده إسماعيل صلات الله  
وسلامه عليهما . قال : « فشرناه نغلاما حلیم » هذا بلغ منه السعي قال : « يا أيُّ إني أرى  
في اسم أيُّ أذبحك فأنظر ماذا ترى ؟ » قال : « سأبذل أفضل ما تؤمر ، ستجدني إن شاء الله  
من الصابرين » هذا أسدا وتله للحيين « وما ديناه : أن يا إبراهيم \* قد صدقت الرؤيا  
إذا كذلك محرى الحسين \* إن هذا هو البلاء المبين \* وديناه مدح عظيم \* وتركنا  
عليه في الآخرين \* سلام على إبراهيم \* كذلك محزى الحسين \* إنه من عباده  
المؤمنين » فأتت ترى في هذا العرض الكريم ، لقصة إبراهيم الخليل وولده إسماعيل  
إسماعيل ما يعيد أنه سبحانه قد أمر إبراهيم بمدح ولده ، ثم نسخ ما أمره به قبل أن  
أن يتمكن من تنفيذه وقوله .

أما أنه أمره بالدخول فيرشد إليه :

( أولا ) قول إبراهيم لولده : « إني أرى في سمي أني أدعوك فاطر مذا تری ؟ »  
لأن رؤيا الأنبياء حق من ناحية ، ولأن معاوضة إبراهيم لولده في هذا الأمر الحلال ، بل على  
أن هذا أمر لابد منه من ناحية أخرى ، وإلا فلا فائدة من معاوضة الخطيئة لمصلحة التي  
هي أول مراحل السعي إلى التمسيد .

( ثانيا ) أن إسماعيل أحب أمه ، إعلان حصوله وامتناله لأمره ، وقال : يا أبت اعمل  
ما تؤمر . ستجدني إن شاء الله من الصابرين .

( ثالثا ) أن إبراهيم أخذ مسيله إلى مباشرة الأسماء القريبة للدخول ، حيث أسلم ولده ،  
واسم إسماعيل نفسه « فلما أسلما وتلّه للحدين »

( رابعا ) أن الله ناداه بأنه قد صدق رؤيا ، أي فعل فعل من صدقها وحققها وبه لا  
يكن هذا أمرا من الله واجب لطاعة ، ما مدحه الله على تصديقه رؤياه ، وسعيه إلى تحقيق  
ما أمره مولاه

( خامسا ) أن الله هدى إبراهيم بدخول عظيم . فهو لم يكن يدع إسماعيل مطورا لما كان  
ثم داع يدعو إلى العداة

( سادسا ) أن الله امتدح إبراهيم بأنه من المؤمنين ومن المحسنين المستجيبين لإكرام الله  
إياه بالعرج عند الشدة ، وقرر سبحانه أن هذا هو الملاء للمدين ، وكافاه بأنه ترك عليه  
في الآخرين « سلام على إبراهيم » وكل ذلك يدل على أن الله أمره بقطع ، واتلاء  
أشد الاتلاء فاستسلم وانصاع .

وأما أن الله سح هذا الأمر قبل تمكن إبراهيم من امتثاله ، فيرشد إليه بحول إبراهيم  
للتمسيد بالخطوات التي حضاها والمحاولات التي حاولها ، وهي معاوضة ولده حتى يستوثق منه  
أو يتخذ إجراء آخر ، ثم استسلامهما ، فعمل لحادث الدخول ، وصرعه ولده كذبه وقرع عينه  
على حبه كيما يصع السكين ويدمحه كما أمره رب العالمين . ولكن هذا المبدأ ما بعد ذلك قبل التمكن

من الامتثال وتمييد الذبح وسميد كل السعد ، بل محال في محرمي العادة ، أن يكون إبراهيم قد وجد فرصة يتمكن فيها من الامتثال قبل ذلك ثم تركها ، حتى يقال : إن النسخ بالعداء حصل بعد التمكن من الذبح فثبت أن أمره بالذبح قد نسخ بالعداء قبل التمكن من الامتثال ووقوع هذا دليل الجوار ، بل هو أول دليل على الجوار .

( الدليل الثاني ) أنه جاء في السنة المطهرة ، ما يفيد أن الله فرض ليلة المراج على النبي ﷺ وعلى أمته حمين صلاة ، ثم نسخ الله في هذه الليلة نفسها حمسا وأربعين منها ، بعد مراجعات نسخ من النبي ﷺ بين موسى وره . وواضح أن هذا النسخ في تلك المرات التسع كان من قبل أن يتمكن النبي وأمته من الامتثال . وهذا الوقوع أول دليل على الجوار كما هو مقرر .

### شبهات المنكرين ودفعها

للمنكرين شبهات كثيرة منها ما صاهوه في صورة أدلة على إسكارهم ، ومنها ما وجهوه إلى أدلة المشركين السابقة في صورة مناقشة لها وإبطال لدلائلها . وهاهي ذي نضعها بين يديك مشفوعة بما يدحضها .

#### الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون : لو نسخ الطلب قبل التمكن من امتثاله ، لكان طلبا محمداً من العائدة ، ومثل هذا يكون عبثاً . والعش على الله محال .

ودفع هذه الشبهة بأن الطلب في هذه الصورة لم يتحدد من العائدة كما يزعمون . بل إن من فوائده وحكمته ابتلاء الله لعباده . أيقنون أم يرفضون ، فإن قبوله وأدعوا له وآموا به ووطنوا أنفسهم على امتثاله فلم أحمر كبير ، وظهر فضاهم كما ظهر فصل إبراهيم في ابتلائه بدخ ولده إسماعيل مع أنه لم يتمكن من تمييد ما أمر به . ومن أنى من عباد الله مثل هذا الطلب ما صلواته وحلاله واستحق الحرمان والموان ، عن عدل وإنصاف ، « وما ربك بظلام للعبيد » .

### الشبهة الثانية ودفعها

يقولون : إن الفعل الذى يمسح طلبه قبل التمسك من امتثاله إما أن يكون مطلوباً وقت ورود المسح أو لا حين كان مطلوباً وقت ورود المسح أدى ذلك إلى نوارداسي والإثبات على شيء واحد ، وهو محال ، وإن لم يكن لفعل مطلوباً وقت ورود المسح فلا مسح ، لأن المسح لابد لتحقيقه من حكم سابق يرد عليه ويرفعه والفرض هنا أنه ورد والحكم مرتفع ويدفع هذه الشبهة (أولاً) بأن الفعل لم يكن مطلوباً وقت ورود المسح ولكن هذا لا ينفي حقيقة المسح كما عموماً بل هو المحقق له ، لأن المسح كالعلة في ارتفاع الحكم والمعامل مقارن للعنة في الزمن ، وإن تأخر عنها في التعقل فالحكم إذن لابد أن يرتفع عند ورود المسح سبب ورودها ، ولا لم يقبل المسح

( ثانياً ) أن هذه الشبهة تجري في كل صورة من صور المسح ، وحينئذ لا مغرلهم من إحدى اثنتين - أن يعموا المسح مطلقاً ، مع أنهم لا يقولون به ، أو يكونوا في شبهتهم هذه مطالبين .

### الشبهة الثالثة ودفعها :

يقولون : إذا قلنا الشارع « صوموا عدا » ثم أن تكون صوم العدا حساً وفيه مصلحة ، فإنها هي عنه قبل محيئ أعداء لم أن يكون قسماً فيه معصية واحتماع الحسن والمصحح في شيء واحد في آن واحد محال

ويدفع هذه الشبهة : ( أولاً ) بأنها قامت على أساس خاطئ ، هو قاعدة الحسن والقبح العقليين وتقرير بطلان هذه القاعدة معروف عند الأشاعرة من أهل السنة ( ثانياً ) أن معنى الشارع عن شيء المطلوب قبل التمسك من أدائه ، يقتضي منه أن ذلك الشيء ، مباح عقلاً متى هيئ الله عنه . أما طلبه قبل ذلك فلا يدل على حسه هو ، إنما يدل على حس ما اتصل به ، مما استلزمه ذلك الطلب ، وهو إيمان الله به ، وإطمئنان

نفسهم إليه وعزمهم على تنفيذه . وفي ذلك ما فيه من ترويضهم على الطاعة ، وتمويلهم الامتثال ، وإثباتهم على حسن نياتهم وكأن للأمور به في هذه الصورة هو المقدمات التي تسبق الفعل لا نفس الفعل ؛ بدليل نسخ الفعل قبل التمكن من امتثاله ، لكنهم أمروا بالفعل نفسه ، لأن عزمهم عليه والإتيان بمقدماته لا يتأتى إلا بالأمر على هذه الصورة فتأمل .

### الشبهة الرابعة ودفعها :

يقولون : إن استم لالكم بقعة إبراهيم وولده الذبيح ، استدلال لا يسل من جملة مؤاحدات .

( أولا ) أن رؤيا إبراهيم ما هي إلا رؤيا رآها . فخيّل إليه أنه مأمور بالذبيح ، والحقيقة أنه لم يؤمر به .

والجواب أن رؤيا الأنبياء وحى حق ، لا باطل فيه ولا تخيّل . والوحى يصعبه علم سرورى فى الوحى إليه بأن ما أوحى إليه حق . والأنبياء لا يشتمل لهم الشيطان ، ولا سلطان له عليهم لاقى القنطة ولا فى المنام .

ومن ذا الذى يهمل عقله ، ويسته نفسه ، فيصدق أن شيخنا كبير فى حلالة إبراهيم خليل الرحمن يتأثر بخيال قاصد ، ويصدر عن وهم كاذب ، فى أن يقدم على أكبر الكسائر وهو قتل ولده ، وذبح وحيد وفقة كبده ، بعد أن بشر بمولاه بأنه غلام حليم ، وررقه إياه على شيخوخة وهرم ، وحقق فيه ما بشره به فشب الوليد وترعرع ، حتى بلغ مع أبيه السعى وكان إبراهيم يراه وهو يسمى منه ، فيلاً عينه نورا ، وقلبه بهجة وجورا .

( ثانيا ) قالوا : إن إبراهيم على فرض كون رؤياه إحقا ، لم يك مأمورا بدمج ولده ، إنما كان مأمورا بالزعم على الذبيح فصعب ، امتحانا له بالصبر على هذا المزم . ولا ريب أن إبراهيم بمحاولته التى حاولها وصورها القرآن ، قد عزم وأدى ما وجب عليه ، فلا سح

والجواب من وجهين (أحدهما) أن الامتنان الذي ذكره، لا يتحقق إلا بالكرم على ما أوجه عليه لأن العزم على ما ليس بواجب لا يجب. وهذا إبراهيم كان قد وحب عليه دمع ولده، حتى تكون مرمه على ذلك واحد يتحقق به معنى الامتنان والاحتبار. (والآخر) أن المأمور به لو كان هو العزم دون الذبح، ما كان هناك معنى للعداء لأن إبراهيم قد فعل كل ما أمره به ربه، لم يترك شيئا ولم يحفظ لله عنه شيئا. على زعمهم.

(ثالثا) قالوا: إن الأمر في الحقيقة كان بتقديم الذبح من إصباح إبراهيم لولده، وصرعه إليه على جبينه، ومراره لسكبه، وما أمر إبراهيم بالذبح. والجواب أن إبراهيم قد جاء بهذه المقدمات، فإذا كانت هي المأمور به دون الذبح فقد أدى إبراهيم كل ما عليه، فأى معنى للفداء إذن؟

(رابعا) قالوا: إن إبراهيم على فرض أنه كان مأمورا بالذبح نفسه، قد بذل وسعه في الامتنان والتفديد. وانكف الله تعالى فبق عن الذبيح بحاسا أو حديدا حتى لا ينقطع. فنقط التكليف عن إبراهيم لهذا العذر لما منع الوجود الناصح.

والجواب من ثلاثة أوجه: (الأول) أن ما ذكره من انقلاب عنقه حديدا وبحاسا، خبر موضوع ورواية هائلة لأصلها. (الثاني) أن وجوب الذبح لو سقط لهذا العذر، لما كان هناك معنى للفداء. (الثالث) أنهم إذا حوروا أن يأمر الله تعالى بشيء ثم يحول عنه وسعه عذر من الأعذار، فلا معنى لأن يسكروا أن يأمر الله بالشئ ثم يحول عنه وسعه ما مسح، لأنه ليس بين الحيولتين فرق مؤثر.

(خامسا) قالوا: إن إبراهيم قد أدى الواجب ودمع ولده فعلا، ولكن خرج قد يذبل، وعنى للذبيح قد أنزل والتزم، فلا مسح.



والجواب (أولاً) أن هذه الرواية موضوعة أيضاً ، بل هي أدخل في الكذب وأبعد من صاهر آيات القصة من الرواية السابقة . ولو حصل ذلك لحدثنا القرآن به ، لأنه ليس أقول شأنا من أمر الفداء ، أو لحدثنا الرسول ﷺ به على الأقل . ولو كان النقل متواتراً ؛ لأن مثله مما تتوافر الدواعي على نقله وتواتره .

(ثانياً) أن هذا الواجب إذا كان قد أدى على أم وحوهه ، وذبح إبراهيم ولده بالفعل ، ولم يحدث مانع ولم يوجد ناسخ ، فأى معنى لفداء ؟

(سادساً) قالوا : لانسلم أن وجوب الذبح قد سقط عن إبراهيم بورود الفداء ، بل هو باق حتى يذبح الفداء ، فلو قصر في ذبحه لأنتم إنم من كلف بذبح ولده ولم يذبحه ، ولو كان وجوب ذبح الولد مرتفعاً بورود الفداء ماصح تسمية الفداء فداء ، كما لم يصح تسمية استقبال الكعبة بعد استقبال بيت المقدس هداء ، وذلك لأن حقيقة الفداء لا بد فيها من أمرين يقوم أحدهما مقام الآخر في تلقى الذكر وه . وعلى هذا لا نسخ .

والجواب ، أن هذا كلام أشبه بالقول ، فإنهم لا يستطيعون أن ينكروا أن إبراهيم لو ذبح ولده بعد نزول الفداء كان آمناً . فيكون ذبحه إياه وتضجره أو قد كان قبل نزول الفداء واجباً . وينطبق عليه تمام الإطلاق أنه رفع حكم شرعى بدليل شرعى . ولا معنى للنسخ إلا ذلك .

### الشبهة الخامسة ودفعها :

يقولون : إن استدلالكم بنسخ فرضية الصلوات الخمسين في ليلة المراج ، استدلال باطل ، لأنه خبر غير ثابت . وجمهور المعتزلة منكرون للمراج بجهة . ومن أئمتهم من نفى خبر فرضية الصلوات الخمسين وماورد عليها من نسخ . وقال : إن ذلك من وضع القصاص واستدل على أنها زيادة موضوعة بأنها تقتضى نسخ الحكم قبل التمكن من العلم به ، وهو ممنوع بالإجماع . ووجه هذا الاقتصار أن فرض الخمسين صلاة لم يكن على النبي ﷺ خاصة ، بل

كان عليه وعلى أمته معه . وقد نسخ قبل أن تعلم به الأمة . وعلى تسليم صحة هذه الزيادة لا اسم أن ذلك كان فرضاً على المزم والتعين ، بل فوض الله تعالى ذلك إلى اختيار الرسول ومشيئته . فإن احتار الحسين فرضها ، وإن اختار الحسن فرض الحسن .

ويدفع هذه الشبهة ( أولاً ) بأن خبر للمراج ثابت من طرق صحيحة متعددة ، لا من طريق واحد . وإنكار أهل الأهواء والبدع له ، لا يفض من قبة ثبوته ، بل يفض من قيسهم هم . قال عبد الظاهر البغدادي : وليس إنكار القدرية حبر المراج إلا كإنكارهم خبر الرؤية والشفاعة وعذاب القبر والحوض والمبران . والخبر الصحيح لا يرد بظن أهل الأهواء كما لم يرد خبر السج على الخلفين بظن الرافض والخوارج فيه ، وكما لم يرد خبر الرجم بإنكار الخوارج له .

( ثانياً ) أن هذه الزيادة ثابتة في الصحيحين وغيرهما . وعلى فرض خلاف بعض الروايات منها ، فإن ذلك لا يضرها ، لأن زيادة الثقة مقبولة ، وهذه رواية ثقات مدول ضابطين بلغوا شأنوا بعيداً من الثقة والمداقة والاصط ، حتى روى البخاري ومسلم عنهم في صحيحيهما ، وحسبك رجال البخاري ومسلم في الصحيحين .

( ثالثاً ) أن قولهم : هذا نسخ لمحكم قبل تمكن الأمة من العلم به ، لا يفيد شيئاً ، لأن الرسول ﷺ فرض الله عليه الحسين صلاة في كل يوم وليلة كما فرضها على أمته . وقد علم الرسول بذلك طبعاً ونسخ الله هذا الفرض بعد علم الرسول به وقبل تمكن من امتثاله وذلك كاف في إثبات ما نحن بسبيله من نسخ الطلب قبل التمكن من الامتثال .

( راساً ) أن قولهم : إن فرض الحسين لم يكن فرضاً عزماء كلام حاسد لا يبرهن لهم به ، بل نفس الرواية ترد عليهم ، وثبت أن الأمر لم يوكّل إلى مئة الرسول ، وإن احتار الحسين فرضها الله حسين ، وإن اختار الحسن فرضها الله حسناً كما يزعمون . ذلك أن الله قال له في هذا المرض : « فرضت عليك وعلى أمتك حسين صلاة » وقبل الرسول

ذلك طائفا مختارا، وهبط على اسم الله، حتى إذا أتى موسى سألته موسى: ما فعل ربك؟ قال: فرض عليّ وعلى أمّتي حدين صلاة فقال له موسى: ارجع إلى ربك واسأله التخفيف، وذكره أنه حارب بني إسرائيل من قلعه ففتحوا وما زال به حتى رجع إلى مهم المناجاة، وسأل التخفيف من مولاه، فخط عنه حسا، وعاد إلى موسى فراحه، وما زال يرجع بين موسى وربه، وفي كل مرة يحط الله عنه خمسا، حتى لم يبق إلا خمس من الخسين. وأشار عليه موسى أيضا أن يرجع ويسأل التخفيف، فاعتذر بأنه سأل حتى استعصى. فهل بعد ذلك كله يصح في الأذهان أن يقال أو أن ينهم أن فرض الخسين لم يكن فرضا عزمًا، وأن الله فرض الأمر في اختيار الخسين أو الخمس إلى مشيئة رسوله ؟ إن يقولون إلا كذبا .

## النسخ في دورانه بين الكتاب والسنة

النسخ في الشريعة الإسلامية قد يرد به القرآن وقد ترد به السنة. والنسخ كذلك قد يرد به القرآن وقد ترد به السنة. فالأقسام أربعة

### ١ - نسخ لقرآن بالقرآن

( القسم الأول ) نسخ القرآن بالقرآن . وقد أجمع المأثور ما نسخ من المسنين على جواره ووقوعه أما حواره فلاز أمانات القرآن متساوية في العلم ٣ وفي وجوب العمل بتفصيها . وأما وقوعه فما ذكرنا وما صدكر من الآيات السبعة وسبوخة ١١ ١٢ القسم يتنوع إلى أنواع ثلاثة . نسخ التلاوة والحكم معا، ونسخ الحكم دون التلاوة، ونسخ التلاوة دون الحكم . وقد أشيع الكلام عني، فيما سبق

## نسخ القرآن بالسنة

( القسم الثاني ) نسخ القرآن بالسنة . وقد اختلف العلماء في هذا القسم بين محور ومانع . ثم اختلف المحورون بين فائل بالوقوع وقائل بصدقه . وإذن يجري البحث في مقامين اثنين . مقام الجواز ومقام الوقوع . .

### ( ١ ) مقام الجوار :

القائلون بالجوار هم مالك وأصحاب أبي حنيفة وجمهور المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة . ووجههم أن نسخ القرآن بالسنة ليس مستحيلا لذاته ولا لغيره . أما الأول فظاهر ، وأما الثاني فلأن السنة وحى من الله كما أن القرآن كذلك ، لقوله تعالى « وما ينطق عن الهوى » إن هو إلا وحى يوحى « ولا فارق بينهما إلا أن الفاظ القرآن من ترتيب الله وإشائه ؛ وألفاظ السنة من ترتيب الرسول وإشائه ، والقرآن له خصائصه والسنة خصائصها . وهذه الفوارق لا أثر لها فيما نحن بسبيله ، مادام أن الله هو الذى ينسخ وحيه بوحيه . وحيث لا أثر لها ، فنسخ أحد هذين الوحيين مآل آخر ، لا مانع بمعه عقلا كما أنه لا مانع بمعه شرعا أيضا ، فتعين حواراه عقلا وشرعا .

عدم صحة المحيرس أما الماسون . وهم الشافعى وأحمد بن حنبل . واثنين عنه وأكثر أهل الظاهر . فتدللون على النسخ بأدلة خفية ، وهما هي دى مشفوعة بوجوه نفسها :

( دليلهم الأول ) أن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ : « وأزلنا إليك الذكر لتبين للمناس ما نزل إليهم » . وهذا يهيد أن وظيفة الرسول منحصره في بيان القرآن . والسنة إن سنحت القرآن لم تكن حيث يدبنا له ، بل تكون راحة إليه .

ونقص هذا الاستدلال (أولاً) بأن الآية لا تدل على انحصار وظيفة السنة في البيان ؛ لأنها خالية من جميع طرق الحصر . وكل ما تدل عليه الآية هو أن سنة الرسول مبيحة للفراق ، وذلك لا ينفى أن تكون ناسخة له . ونظير هذه الآية قوله سبحانه « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ، فإنه يفيد أنه ﷺ نذير للعالمين . ولا تنفي عنه أنه نذير أيضاً للعالمين .

(ثانياً) أن وظيفة السنة لو انحصرت في بيان القرآن ، ما صح أن تستقل بالتشريع من نحو إيجاب ونحریم ؛ مع أن إجماع الأمة قائم على أنها قد تستقل بذلك كتشريعه ﷺ كل ذي مخب من الطهور وكل ذي ناب من السباع ، وكحظره أن يورث بقوله « نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » .

(ثالثاً) أن السنة نفسها نصت على أنها قد تستقل بالتشريع وإفادة الأحكام ، يحدثنا العرياض بن سارية رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فقال : « يا أيها أهل بيتي ، لا يحدكم منكم شيء من شيءي إلا ما في هذا القرآن . ألا إنى قد أمرت ووعظت وهيت من أشياء إنما مثل القرآن أو أكثر . وإن الله لم يعمل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا صرت سائهم ولا أكل ثمارهم إلا إذا أعطوكم الذي فرض عليهم » .

(رابعاً) أنه على فرض دلالة الآية على الحصر ، فالمراد بالبيان فيها التلميح لا الشرح . ولقد بلغ الرسول كل ما أنزله الله إلى الناس ، وهذا لا ينافي أنه سبحانه ما شاء الله سبحانه ما يشاء .

(خامساً) أنه على فرض دلالة الآية على الحصر ، ودلالة البيان على حصر الشرح ، فإن المراد بما أنزل إلى الناس ، هو جنسه المصادق ببعضه ، وهذا لا ينافي

أن تكون السنة فاعحة لبعض آخر ، فيكون الرسول مبيها لما ثبت من الأحكام وناسحا لما ارتفع منها .

( دليلهم الثاني ) أن القرآن نفسه هو الذي أثبت أن السنة المنسوبة حجة ، وهو نسخة السنة بمادته على مصها بالإسقاط ، لأن النسخ رفع ، وإذا ارتفع الأصل ارتفع الفرع . والدليل على أن القرآن هو الذي أثبت حجية السنة ما قرؤه فيه من مثل قوله سبحانه : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبسكم الله ويغفر لكم ذنوبكم . ونقض هذا الاستدلال ( أولا ) بأن كلامنا ليس في حوار نسخ السنة لنصوص القرآن الدالة على حجيتها حتى ترجع على مصها بالإسقاط ، بل هو في حوار نسخ ما عدا ذلك بما يصح أن يتملق به النسخ .

( ثانيا ) أن ما استدلوأ به حجة عليهم لأن وجوب طاعة الرسول واتباعه ، يقضى بوجوب قبول ما جاء به على أنه ناسح .

( دليلهم الثالث ) أن قوله تعالى : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق » قد جاء ردا على من أنكروا النسخ وعابوا به الإسلام وبعبى الإسلام بدليل قوله سبحانه قبل هذه الآية : « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما يعزل قالوا إنما أنت مُمْتَرٍ بئ أكثرهم لا يعلمون » . ومعلوم أن روح القدس إنما ينزل بالقرآن . وإذا فلا ينسخ القرآن إلا بقرآن .

وننقض هذا الاستدلال بأن الكتاب والسنة كلاما وحى من الله ، وكلاما رل به روح القدس ، بدليل قوله سبحانه « وما ينطق عن الهوى » إن هو إلا وحي بوحى . فالذهاب إلى أن ما رل به روح القدس ، هو خصوص القرآن ، باطل .

( دليلهم الرابع ) أن الله تعالى يقول : « وإذا تنصلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا : انت بقرآن غير هذا أو ببدله . قل : ما يكون لى أن أبدله من نقضه . وهذا يبيد أن السنة لا تنسخ القرآن ، لأنها ناسخة من نفس الرسول ﷺ .

وندمع هذا الاستدلال بمثل ما دفعنا به سابقه ، وهو أن السنة ليست ماسة من  
عسى الرسول على أبي هوى منه وشهوة ؛ بل معانيها موحاة من الله تعالى إليه ، وكل  
ما استقل به الرسول أنه عبر عنها بألفاظ من عنده ، فهي وحى يوحى وليست من تلقاء نفسه  
على هذا الاعتبار ، وإذن فليس نسخ القرآن بها تبديلاً له من تلقاء نفسه ، إنما هو  
تبديل يوحى .

( دلتهم الخامس ) أن آية : « ما ننسخ من آية أو ننسها » تدل على امتناع نسخ  
القرآن بالسنة ، من وجوه ثلاثة : ( أولها ) أن الله تعالى قال : « نزل بغيرها أو منسها »  
والسنة ليست خيراً من القرآن ولا مثله .

( ثانيها ) أن قوله : « نأت » يفيد أن الآتى هو الله . والسنة لم يأت بها الله ، إنما  
الذى أتى بها رسوله .

( ثالثها ) أن قوله : « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » ألم تعلم أن الله له ملك  
السوات والله رضى وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ، يفهم أن النسخ  
لا يصدر إلا من له الاقتدار الشامل ، والملك الكامل ، والسطان المطلق ، وهو الله  
وحده .

وندمع الوجه الأول من هذا الاستدلال بأن النسخ فى الآية الكريمة أعم من أن  
يكون فى الأحكام أو فى التلاوة ، والخبرية والمثلية أعم من أن تكون فى المصلحة أو فى  
الثواب ، وقد سبق بيان ذلك ، وإذن فقد تكون السنة النسخة خيراً من القرآن  
مدح من هذه الناحية ، وإن كان القرآن خيراً من السنة من ناحية امتياده معصاته  
المبدا دائماً .

وندمع الوجه الثانى بأن السنة وحى من الله ، والرسول إلا مبعث وممير عنها فقط .  
فالآتى بها عن الحقيقة هو الله وحده .

ويدفع الوجه الثالث بأننا نقول بموجبه وهو أن النسخ في الحقيقة هو الله وحده ،  
والسنة إذا نسخته فإنما تنسخه من حيث إنها وحى صادر منه سبحانه .

### شبهتان ودفعهما

(١) لقائل أن يقول : إن من السنة ما يكون ثمرة لاجتهاده صلى الله عليه وسلم ،  
وهذا ليس وحياً أوحى إليه به ، بل دليل العتاب الذى وحى به القرآن إلى الرسول في  
تطاع تارة وفى عصف أخرى . فكيف يستقيم بعد هذا أن نقول : إن السنة وحى  
من الله ؟ .

والجواب أن مرادنا هنا بالسنة ، ما كانت عن وحى جلى أو خفى ، أما السنة الاجتهادية ،  
فليست مرادة هنا السنة ، لأن الاجتهاد لا يكون إلا عند عدم النص ، فكيف يمارسه  
وبرعه ؟ وقد شرحنا أنواع السنة فى كتابنا ( للنهل الحديث فى علوم الحديث ) فارجع  
إليه إن شئت .

(٢) ولقائل أن يقول : إن من السنة ما كان آحادياً . وخير الواحد منهما صح فيه  
للايميد القطع ، وانقرآن قطعى المتن ، فكيف ينسخ بالسنة التى لا تفيد القطع ؟ ومتى  
استطاع الظن أن يرفع اليقين ؟ .

والجواب أن المراد بالسنة هنا السنة للتواترة دون الآحادية . والسنة للتواترة قطعية  
الثبوت أيضاً كالتقرآن . فهما متكافئان من هذه الناحية ، فلامانع أن ينسخ أحدهما الآخر .  
أما خبر الواحد فالخلق عدم جواز نسخ القرآن به ، للمعنى المذكور ، وهو أنه على القرآن  
خطى ، والخطى أصعب من القطى فلا يقوى على رفعه .

والقائلون بحسبوا نسخ القرآن بالسنة الآحادية ، اعتماداً على أن القرآن خطى  
للدلالة ، محتجهم بالدخلة ، لأن القرآن إن لم يكن قطعى الدلالة فهو قطعى



الثبوت ، والسمة الأحادية كلية الملاحة والثبوت معا فهي أصف منه فكيف  
ترفعه ؟

### (ب) مقام الوقوع :

ما أسأفناه بين يدك كان في الجواز. أما الوقوع فقد اختلف المحورون فيه : منهم  
من أبده ومنهم من نفاه « ولكل وجهة هو موليها » وهاك وجهة كل من الفريقين ،  
لتعرف أن الحق مع الباقين .

استدل للثبوت على الوقوع بأدلة أربعة :

( الدليل الأول ) أن آية الجلد وهي : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما  
مائة جلدة » تشمل المحصنين وغيرهم من الزناة. ثم جاءت السنة فنسخت عمومها بالنسبة  
إلى المحصنين ، وحكت بأن جزاءهم الرحم .

وقد ناقش النافون هذا الدليل بأمرين : ( أحدهما ) أن الذي ذكره مخصص  
لانسح . ( والآخر ) أن آية « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » هي المخرجة  
لصور التخصيص . وإن جاءت السنة موافقة لها . وقد سبق الكلام على آية « الشيخ  
والشيخة » في مداد ما سخط تلاوته وبقي حكمه ، فلا تغفل .

( الدليل الثاني ) أن قوله تعالى : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك  
خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على الصنيين » . منسوخ بقوله ﷺ :  
« لا وصية لوارث » .

وقد نفت النافون بأمرين :

( أولهما ) أن الحديث المذكور خير آحاد ، وقد قرر أن الحق عدم حوا رسيح القرآن

بغير الآحاد .

(ثانيها) أن الحديث بتمامه يفيد أن الناسخ هو آيات الوارث ، لا هـدا الحديث . وإليك النص الكامل للحديث المذكور : « إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث » .

وبزيد ذلك ما أخرجه أبو داود في صحيحه ، ونصه « عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : « لئن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين » وكانت الوصية كذلك حتى نسخها آية الوارث .

(الدليل الثالث) أن قوله سبحانه : « وللائي يأتين الفاحشة من نساءكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم . فإن شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً » . منسوخ بقوله صلى الله عليه وسلم : « خذوا عني خذوا عني . قد جعل الله لهن سبيلاً : البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام . والنبه بالنهب جلد مائة والرجم » .

وقد ناقشة النافون (أولاً) بأن الناسخ هنا هو آية الجلد وآية الشبهة ، وإن جاء الحديث موافقاً لهما .

(ثانياً) بأن ذلك تخصيص لانسح ، لأن الحكم الأول حمل الله له عاباً هو الموت أو صدور تشريع جديد في شأن الزانيات . وقد حققنا أن رفع الحكم برفع غايته الضرورية في ذليله الأول ليس نسخاً .

(الدليل الرابع) أن نهية صلى الله عليه وسلم عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخالب من الطيور ، منسوخ لقوله سبحانه : « قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ، فإنه رجس » ، أو فسقاً أهل الله به » .

وقد ناقشة النافون بأن الآية الكريمة لم تنمض لإباحة ما عدا الذي ذكر فيها ،

إما هو مباح بالبراءة الأصلية والحديث المذكور ما رفع إلا هذه البراءة الأصلية ،  
وردها لا يسمى نسخا كما سلف بيانه .

من هذا الموضع يخلص لنا أن نسخ القرآن بالسنة لا مانع يمنعه عقلا ولا شرعا ،  
عنه الأمر أنه لم يقع لعدم سلامة أدلة الوقوع كما رأيت .

### ٣ - نسخ السنة بالقرآن

هذا هو القسم الثالث . وفيه خلاف العلماء أيضا بين تجويز ومنع على نطق ما مر في  
القسم الثاني ، بيد أن صوت الماسمين هنا خافت ، وحجتهم داحضة . أما المنتصرون فيؤيدونهم  
دليل الحوار كما يسمعونهم رهان الوقوع . ولهذا نجد في صف الإثبات جدهم المقتضاه  
والد كالمعين ، ولا ترى في صف النفي سوى الشافعي في أحد قوليه ومعه شردمة من  
أصحابه ، ومع ذلك فنقل هذا عن الشافعي فيه شيء من الاضطراب أو إرادة  
خلاف الظاهر

#### دليل الحوار :

استدل المنتصرون على الجوارها ، بمثل ما استدلوا على القسم السالف ، فقالوا : إن  
سبح الله بالقرآن ليس مستحيلا لدانته ولا لغيره . أما الأول فظاهر ، وأما الثاني فلا  
اسية وحى كما أن القرآن وحى ولا مانع من نسخ وحى موسى لمكان التكافؤ بينهما  
من هذه الناحية .

#### أدلة للوقوع والحوار :

واستدلوا على الوقوع بوقائع كثيرة ، كل واقعة منها دليل على الحوار كما هي دليل  
على الوقوع ، لما علمت من أن الوقوع يدل على الحوار وريادة .

(من تلك الوقائع) أن استقبال بيت القدس في الصلاة لم يعرف إلا من السنة ،  
وقد نسخ قوله تعالى : « قول وجهك شطر المسجد الحرام . وحيثما كنتم فولوا  
وجوهكم شطره » .

(ومنها) أن الأكل والشرب والباشرة كان محرما في ليل رمضان على من صام  
ثم نسخ هذا التحريم بقوله تعالى : « فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا  
واشربوا حتى ينهبين لكم الحيط الأبيض من الحيط الأسود من الفجر » .

(ومنها) أن النبي ﷺ أكرم مع أهل مكة عام الحديبية صلحا كان من شروطه  
أن من جاء منهم مسلما رده عليهم . وقد وفي هذه في أبي جديل وجاعة من المكيين  
جاءوا مسلمين . ثم جاءت امرأة ففهم أن يردوها فأمر الله : « بأبيها بالدين آمنوا فإذا  
جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنعوهن » الله أعلم بإيمانهم . فإن علمتموهن مؤمنات فلا  
ترجموهن إلى الكفار لانهن حلن لهم ولا هم يحلون لهن » الآية .

#### شبهة للماتيين ودفعها :

أورد الماتيون على هذا الاستدلال للتمسك على تلك الوقائع شبهة قالوا في تعويرها :  
يجوز أن يكون النسخ فيما ذكرتم ثابتا بالسنة ثم جاء القرآن موافقا لها ، وبهذا يؤول  
الأمر إلى نبيح السنة بالسنة . ويجوز أن الحكم للنسخ كان ثابتا أولا بقرآن نسخت  
تلاوته ثم جاءت السنة موافقة له ؛ وبهذا يؤول الأمر إلى نسخ قرآن بقرآن .

ويدفع هذه الشبهة بأنها قائمة على مجرد احتمالات وأهمية لا يؤيدها دليل ، ولو اقتضا  
ناسها وحملها لها اعتبارا ، لما حار لفقهاء أن يحكم على نهي بأنه ناسخ لآخر إلا إذا  
ثبت ذلك صريحا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن ذلك باطل بإجماع الأمة  
على خلافه ، وانفاقها على أن الحكم إنما يستند إلى دليله الذي لا يعرف صوابه بمد  
الاستقراء الممكن .

### أدلة الماسيين وخضها :

١ - قالوا : إن قوله سبحانه ونعالى : « وأزولنا إليك الذكركم لتبين للناس ما نزل إليهم » يعيد أن السنة ليست إلا بياناً للقرآن ، فإذا نسخها القرآن خرجت عن كونها بياناً له .

وننقض هذا بأن الآية ليس فيها طريق من طرق الحصر . وعلى فرض وجود الحصر فالمراد بالبيان في الآية التبليغ لا الشرح ، ولا ريب أن التبليغ إظهار . وعلى فرض أن الآية حاصرة للسنة في البيان بمعنى الشرح لا التبليغ ، فبيانها بعد النسخ باق في الجملة ، وذلك بالنسبة لما لم ينسخ منها ، وأنت تعلم أن بقاء الحكم الشرعي مشروط بعدم ورود نسخ . فتدبر . ولا حظ للتفصيل الذي ذكرناه هناك في فضيل الدليل لما نفي نسخ القرآن بالسنة ، فإنه يفيدك هنا .

٢ - قال المانسون أيضاً : إن نسخ السنة بالقرآن يلبس على الناس دينهم ويزعزع ثقتهم بالسنة ، ويوقع في روعهم أنها غير مرضية لله ، وذلك يفوت مقصود الشارع من وجوب اتباع الرسول وطاعته واقتداء الخلق به في أقواله وأفعاله . ولا ريب أن هذا باطل ، فإستلزامه وهو نسخ السنة بالقرآن باطل .

وننقض هذا الاستدلال ( أولاً ) بأن مثله يمكن أن يقال في أي نوع آخر من أنواع النسخ التي تقولون بها . فما يكون جواباً لكم مثله جواباً لنا .

( ثانياً ) أن ما ذكره من استلزام نسخ السنة بالقرآن لهذه الأمور الداطلة ، غير صحيح ، لأن أدلة القرآن متوافرة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يبطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى . وذلك يمنع لزوم هذه المحاولات الفاسدة ، ويجعل نسخ السنة بالقرآن كسح السنة بالسنة والقرآن بالقرآن ، في نظر أي متصف كان .

## ٤ - نسخ السنة بالسنة

نسخ السنة «سنة يقتنع إلى أنواع أربعة ، نسخ سنة متواترة بمتواترة ، وسح سنة آحادية بآحادية ، وسح سنة آحادية بسنة متواترة ، ونسخ سنة متواترة سنة آحادية . أما الثلاثة الأول فحائزة عقلا وشرعا . وأما الرابع وهو نسخ سنة متواترة بآحادية ، فاتفق علماءنا على جوارحه عقلا ، ثم اختلفوا في جوارحه شرعا ، فنقاء الجمهور وأثبت أهل الظاهر .

### أدلة الجمهور :

استدل الجمهور على مذهبهم بدليلين :

( أولهما ) أن للتواتر قطعي الثبوت وخبر الواحد ظني : والقطعي لا يرتفع بالظني ،

لأنه أقوى منه ، والأقوى لا يرتفع بالأضعف .

( ثانيهما ) أن عمر رضي الله عنه رد خبر فاطمة بنت قيس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعمل لما سكتي ، مع أن زوجها طلقها وبث طلاقها وقد أفر الصحابة عمر على رده هذا ، فكان إجماعا . وما ذاك إلا لأنه خبر آحادي لا يفيد إلا الظن ، فلا يتولى على معارضة ما هو أقوى منه ، وهو كتاب الله إذا يقول : « أسكنوهن من حيث سكنتم من وبنديكم » وسنة رسوله المتواترة في جبل السكن حقا من حقوق البيوتنة .

### ملاحظة :

روت كتب الأصول في هذا للوضع خبر فاطمة بنت قيس نصيعة مدخولة ، فيها أن عمر قال حين بلغه الخبر : « لا تترك كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى أصدقت أم كذبت ، حطت أم نسيت » وعزا بعضهم هذه الرواية للدخولة إلى الإمام مسلم في صحيحه . والحقيقة أن الرواية بهذا الصورة غير صحيحة ، كما أن عزوها إلى مسلم غير صحيح .

والرواية الصحيحة في مسلم وغيره ليس فيها كلمة «أصدقت أم كذبت» بل اقتصر على كلمة «أحفظت أم سبت» ومثلك - حاك الله - يعلم أن الشك في حفظ قاطبة وسيانها ، لا يقدح في عدالتها وصدقها ، وإلا لكان أن تحوض مع الخائضين من المستشرقين وأذئابهم فتطمئن في الصحابة وتجرحهم في تنبئهم لئلا هذا الخبر المردود .

وإن شئت المزيد من التعليق على هذا الخبر ومشايبهه ، فإقرأ ما كتبه تحت عنوان :  
( دفع شبهات في هذا المقام ) من كتابنا ( ناهل الحديث في علوم الحديث ) .

### أدلة الظاهر

اعتمد أهل الظاهر في جواز نسخ المتواتر بالآحاد ثم راعوا على شبهات فذووها أدلة ، وما هي بأدلة .

( منها ) أن النسخ تخصيص للموم الأزمان ، فيجوز بخبر الواحد وإن كان المنسوخ متواترا ، كما أن تخصيص موم الأشخاص يجوز بخبر الواحد وإن كان العام المخصوص متواترا .

وندفع هذا ( أولا ) بأن المقصود من النص لنسخ جميع الأزمان ، وليس المقصود منه استمرار الحكم إلى وقت النسخ فقط ، وإذن فالنسخ رفع لقتضى الموم لا تخصيص للموم . فكيف يقاس النسخ على التخصيص الذي هو بيان محض لمقصود من اللفظ .

( ثانيا ) أننا نمنع جواز تخصيص المتواتر بخبر الواحد كما هو رأى الحنفية .

( وسها ) أن أهل قباء كانوا يصلون متجهين إلى بيت المقدس فأباهم أتى يحرمهم من دخول القبلة إلى السكبة ، فاستصحبوا له ، وقبلوا خبره ، واستداروا وهم في صلاتهم ، وسمع ذلك رسول الله فأقرم . وهذا دليل على أن خبر الواحد ينسخ المتواتر .

وندفع هذا بأن خبر الواحد في هذه الحادثة احتجت به قرآن حملته يفيد الظاهر ، وكلامه .

في خبر الواحد الذي لا يعيد انقطع؛ وهذه القرائن التي تفيد انقطاع هذا، مع ما من أن الحادثة  
المروية حادثة حثية حسية، لا تختمل الخطأ ولا السيل، وأنها تنصل بأمر عظيم هو صلاة  
جمع من المسلمين، وأن الراوي له صحابي حليل، وأنه لا واسطة بينه وبين الرسول، وأنه  
واقف من أنه إن كذب وسيمتصيح أمره لا محالة، وسيلاني من العتد والعقاب ما يحيل  
العقل عادة معه تسبب هذا الراوي العظيم له. يضاف إلى هذا أن التوجه إلى بيت المقدس  
كان متوقع الانقاسخ، لما هو معروف من حب العرب وحب الرسول معهم لاستقبال  
الكعبة التي هي منفرتهم ومنفرة آبائهم وأجدادهم، فكان عليه الصلاة والسلام يرفع وجهه  
إلى السماء انتظاراً ليزول الوحي بذلك. وقد نرى قلب وجهك في السماء فلنزلت قبلة  
ترضاها. فقل وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره .

### نسخ القياس والنسخ به

ينطوي تحت نسخ القياس والنسخ به صور ثلاث: (أولها) أن ينسخ القياس حكماً  
دل عليه قياس. ومثلاً لذلك بأن يوجب الشارع إكرام زيد لسفاهه، فتقيس عليه عمر  
لوجود علة السفاه فيه. ثم بعد ذلك يوجب الشارع إهانة بكر لكونه سكيراً، فتقيس عليه  
عمر المذكور لوجود علة السكر فيه وبذلك ينسخ وجوب إكرام عمر ووجوب إهانة  
عند ترجيح هذا القياس الثاني على الأول.

(ثانيها) أن ينسخ القياس حكماً دل عليه نص، كأن ينص الشارع على إباحة النبيذ،  
ثم بعد ذلك يحرم الخمر لإسكاره، فتقيس السيد عليه لوجود علة الإسكار فيه. وبذلك  
ينسخ حكم الإباحة الثابت نصاً، بحكم التحريم الثابت قياساً.

(ثالثها) أن ينسخ النص قياساً، كأن يحرم الشارع الخمر لكونه مكراً، فنحصر  
عليه السيد لإسكاره، ثم بعد ذلك ينص الشارع على إباحة السيد، فتسبح حرمة السيد  
الثابت قياساً، بإباحته الثالثة نصاً.



وقد اختلف علماؤنا. فبعضهم من نسخ القياس والنسخ به مطلقا. وبعضهم من حوره مطلقا. وبعضهم من فصل والجمهور على جواز نسخه والنسخ به إن كان قطعيا، وعلى منعه إن كان ظاهريا. والقطعي ما قطع فيه بنى الفارق، كقياس صب البول في الماء الراكد على البول فيه، فيأخذ حكمه وهو الكراهة.

### أدلة الماتمين مطلقا:

وقد استدل القائلون بمنع نسخ القياس مطلقا؛ بأن نسخه يقتضى ارتفاع حكم الفرع مع بقاء حكم الأصل. وهذا لا يقبله العقل؛ لأن الملة التي رتب عليها الشارع حكم الأصل موجودة في الفرع، وهي قاضية ببقاء الحكم في الفرع مادام باقيا في الأصل. ولورق هذا الاستدلال بأمرين: (أحدهما) أن نسخ القياس لا يقتضى ما ذكروه، بل يقتضى ارتفاع حكم الأصل تبعاً لارتفاع حكم الفرع على معنى أن نسخ حكم الفرع يدل على أن الشارع قد ألقى الملة التي رتب عليها حكم الأصل وإلغائها يقتضى ارتفاع حكمه.

(والآخر) أنه لا مانع عقلا من أن ينسخ الشارع الفرع بناء على أنه اعمير فهذا في الملة لم يكن معبرا من قبل. وهذا التيد موجود في الأصل وليس موجودا في الفرع. هذا دليل الماتمين لجواز نسخ القياس مطلقا مع مناقشته. أما الدليل على منعهم جواز النسخ به مطلقا، فمقتضى أن المنسوخ به إما أن يكون نصا أو إجماعا أو قياسا. لا جاز أن يكون نصا، لأن دلالة أقوى من دلالة القياس. والضعيف لا يرفع ما هو أقوى منه. ولا حائر أن يكون المنسوخ به إجماعا، لأن الإجماع لا يصلح أن يكون ناسحا ولا مبدوخا، كما سيأتي تحقيقه. ولا جاز أن يكون قياسا، لأنه يشترط لصحة القياس أن يسلم من المراض المساوى له والأرجح منه؛ وهذا القياس التآخر مقروض أنه أرجح من الأول، وإلا يتبين ظهوره بطلان القياس الأول. وإذا تبين بطلانه بطل القول بنسخه، لأن المنع روع

الحكم ثابت من قبل . وهذا قد تبين خطأ وعدم ثبوته .

وموقف هذا الاستدلال بأن إطلاق القول بأن المص أقوى دلالة من القياس غير مسلم ، فإن هناك من المصوم ما يحكي دلالة حق لا يقفها إلا الحواص على حين أن هناك من الأقيسة ما تظهر دلالة لكل باحث مصمم .

### دليل المجوزين مطلقا :

واستند المجوزون لنسخ القياس والنسخ به مطلقا ، إلى أن القياس دليل شرعي لم يتم دليل عقل ولا نقل على امتناع نسخه أو النسخ به .

وموقف هذا الاستدلال ، بأن إطلاقهم هذا يستلزم النسبية بين ظلي القياس وقطعيه ، ويستلزم جواز ارتفاع القطعي منه بالظني ، وكلاهما غير مقبول عقلا ولا نقلا .

### دليل الجمهور :

واستدل الجمهور على جواز نسخه والنسخ به إن كان قطعيًا ، بأن القياس القطعي لا يستلزم نسخه ولا انسخ به محالا عقليا ولا شرعيا . واستدلوا على عدم جواز نسخه والنسخ به إن كان ظاهريا ، بأن جواز ذلك يستلزم الحال . أما بيانه بالنسبة لعدم جواز نسخه ، فهو أن النسخ له إما أن يكون قطعيًا أو ظاهريا ، وكلا هذين مبطل للقياس الأول ، والبطل لا ثبوت له حق بالنسخ . ويستدلون على أن كلا هذين مبطل للقياس الأول بأن اقتضاء القياس للحكم مشروط بألا يظهر له معارض مساو له أو أرجح منه . ولا ريب أن القياس القطعي المتأخر أقوى من الأول ، وأن الظني أرجح منه حتى يفصل نسخه به ، وبظهور أحدهما يثبت بطلان ذلك القياس الأول وإدخاله نسخ ودليلهم على عدم حوار النسخ به ، هو أن التسويع بالقياس الظني ، ما أن يكون قطعيًا أو ظاهريا . ولا حائر أن يكون قطعيًا ، لأن الظن لا أقوى على رفع اليقين . ولا حائر أن يكون ظاهريا ، لأن اقتضاء القياس للحكم ، مشروط بألا يظهر له معارض مساو له أو أرجح منه . وفي هذه الصورة قد ظهر له معارض وهو القياس المتأخر عنه الذي لا بد أن يكون

أرجح منه ، حتى يعقل نسجه له . وعلى هذا يكون القياس المتأخر مبدئياً بطلان اقتضائه .  
القياس المتقدم للحكم ، لا ناسجاً له .

### نسخ الإجماع والنسخ به

جمهور الأصوليين على أن الإجماع لا يجوز أن يكون ناسجاً ولا منسوخاً ، واستدلوا على أنه لا يجوز أن يكون ناسجاً ؛ بأن المنسوخ به إما أن يكون نصاً أو إجماعاً أو قياساً . لا حائز أن يكون نصاً ، لأن الإجماع لابد أن يكون له نص يستند إليه ؛ خصوصاً إذا اعتقد على خلاف النص . وإذن يكون المنسوخ هو ذلك النص الذي استند إليه الإجماع لا نص الإجماع ، ولا حائز أن يكون المنسوخ بالإجماع إجماعاً ؛ لأن الإجماع لا يكون إلا عن مستند يستند إليه من نص أو قياس ، إذ الإجماع بدون مستند قول على الله غير علم ، والقول على الله غير علم صلاة ، والأمة لا تجتمع على صلاة . ومستند الإجماع الثاني لابد أن يكون نصاً حدث بعد الإجماع الأول ، لأن ذلك النص لو تحقق قبل الإجماع الأول ما أمكن أن يستند الإجماع على خلافه . ولا ريب أن حدوث نص بعد رسول الله ﷺ محال ، فما أدى إليه وهو نسخ الإجماع بالإجماع محال . ولا حائز أن يكون المنسوخ بالإجماع قياساً ، لأن الإجماع على خلاف القياس يقتضي أحد أمرين : إما خطأ القياس ، وإما انقاسه . يستند الإجماع ، وعلى كلا التقديرين فلا يكون الإجماع ناسجاً ، واستدلوا على أنه لا يجوز أن يكون الإجماع منسوخاً ، بأن الإجماع لا يعتبر حجة إلا بعد رسول الله ﷺ . وإذن فالناسج له إما أن يكون نصاً أو قياساً أو إجماعاً . لا حائز أن يكون نصاً ، لأن الناسج متأخر عن المنسوخ أو لا يعقل أن يحدث نص بعد رسول الله ﷺ . ولا حائز أن يكون الناسج بالإجماع قياساً لأن نسخ الإجماع بالقياس يقتضي أن يكون الحكم الدال على الأصل حادثاً بعد الرسول وهو باطل . ولا حائز أن يكون الناسج بالإجماع إجماعاً ، لما سبق . وأما قولهم : هذا الحكم منسوخ إجماعاً ، فمعناه أن الإجماع اعتقد على أنه نسخ بدليل من الكتاب أو السنة ؛ لا أن الإجماع هو الذي نسجه .

### المجورون ومناقشتهم :

ما تقدم هو مذهب المجورون : ولكن بعض المعتزلة وآخرون ، حوروا أن يكون الإجماع داسحا لكل حكم صلح النص فاستخلاه . واستدلوا بأدلة : منها أن نصيب المؤلفه قلوبهم من الزكوات ثابت بصريح القرآن ، وقد نسخ بإجماع الصحابة في زمن الصديق على إسقاطه .

ونوقش هذا بوجوه : « أولا » أن الإجماع المذكور لم يثبت ، بدليل اختلاف الأئمة المجتهدين في سقوط نصيب هؤلاء .

« ثانيا » أن الأمة في اعتبار المؤلفه قلوبهم من مصارف الزكاة ، هي إعراز الإسلام بهم . وفي عهد أبي بكر اعترى الإسلام فعلا ، بكثرة أنبائه واتساع رقعة ، فأصبح غير محتاج إلى إعراز ، وسقط نصيب هؤلاء المؤلفه لسقوط علته .

« ثالثا » أنه على فرض صحة هذا الإجماع ، فإن الإجماع لا بد له من مسند . وإذن فالناسخ هو هذا المسند ، لا الإجماع نفسه .

### موقف العلماء من الناسخ والمنسوخ

العلماء في موقفهم من الناسخ والمنسوخ يختلفون ، بين منصر ومفتصد وغال فأنصرون هم الذين حاولوا التخلص من النسخ إطلاقا سالكين به مسلك التأويل بالتحصيل ومحوه ، كأبي مسلم ومن وافقه . وقد بينا الرأي في هؤلاء سابقا والمتصدون هم الذين يقولون بالنسخ في حدوده المقولة ، لم يتفوه إطلاقا كم «أبو مسلم وأضر به» ولم يتوسعوا فيه جزافا كالنزالين ، بل يفتقون به موقف الضرورة التي يقتضيها وجود التعارض الحقيقي بين الأدلة ، مع معرفة المتقدم منها والمتأخر .

والعالون هم الذين تزيدوا ، فأدخلوا في النسخ ما ليس منه ، بناء على شبه سابقة . ومن هؤلاء أبو جعفر النعمان في كتابه « الناسخ والمنسوخ » وهبة الله بن سلامة ،

وأبو عبد الله محمد بن حرم ، وعبرهم فإنهم ألفوا كتب في النسخ أكثرها منها من ذكر  
النسخ والنسوخ ، أشد ها منهم وعلطا . ومنشأ تريد هذا أنهم ائخذوا بكل ما مل  
عن السلف أنه منسوخ وقاتهم أن السلف لم يكونوا يقصدون بالنسخ هذا المعنى الاصطلاحي  
بل كانوا يقصدون به ما هو أهم منه ، مما يشمل بيان الجمل وتقييد المطلق ومحوها .

### منشأ غلط المتزيدين تفصيلا

وانستطيع أن نرد أسباب هذا الغلط إلى أمور ثمة :

( أولها ) ظنهم أن ما شرع لسبب ثم زال سببه ، من المنسوخ . وعلى هذا عدوا  
الآيات التي وردت في الحث على الصبر وتحمل أذى الكفار أيام ضعف المسلمين وقتهم ،  
منسوخة بآيات القتال ، مع أنها ليست منسوخة . بل هي من الآيات التي دارت أحكامها  
على أسباب ، فإما أمر المسلمين بالصبر وعدم القتال في أيام ضعفهم وقلة عددهم ، لعدة  
الضعف والقلة ثم أمرهم بالجهاد في أيام قوتهم وكثرتهم ، لعدة القوة والكثرة . وأما  
خبرهم بأن الحكم بدور مع طلوعه وجودا وعدما وأن انتفاء الحكم لا انتفاء علته لا يبدل نسخا  
بدليل أن وجوب التعمل عند الضعف والقلة لا يزال قائما إلى اليوم ، وأن وجوب الجهاد  
والدفاع عند القوة والكثرة لا يزال قائما كذلك إلى اليوم .

( ثانيها ) توهمهم أن إبطال الإسلام لما كان عليه أهل الجاهلية ، من قبيل ما نسخ  
الإسلام فيه حكما بحكم ، كإبطال نكاح نساء الآباء ، وكعصر عدد الطلاق في ثلاث ،  
وعدد الزواج في أربع ، عد أن لم يكونا محصورين ، مع أن هذا ليس سببا ، لأن النسخ  
مع حكم شرعي ، وما ذكره من هذه الأمثلة ومحوها مع الإسلام فيه إبرة الأصلية  
وهي حكم عقلي لا شرعي .

( ثالثها ) اشتباه التخصيص عليهم بالنسخ ، كالآيات التي خصصت باستثناء أوعية  
مثل قوله سبحانه : والشعرية يبيعهم العدو • ألم تر أنهم في كل واد يهيمون • وأنهم

يقولون مالا يفعلون • إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكر الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا • ومثل قوله « واعفوا واصتقوا حتى يأتي الله بأمره » .

( رابعها ) اشتباه البيان عليهم بالنسخ ، في مثل قوله سبحانه : « ومن كان غنيا فليستغفف . ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » فإن منهم من توم أنه ناسخ لقوله سبحانه « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » . مع أنه ليس ناسخاً ؛ وإنما هو بيان لما ليس بظلم ، وبيان ما ليس بظلم يعرف الظلم ، وبضدها تتميز الأشياء » .

( خامسها ) توم وجود تعارض بين نصين ، على حين أنه لا تعارض في الواقع . وذلك مثل قوله تعالى : ( وأنفقوا مما رزقناكم ) وقوله : ( وما رزقناكم ينفقون ، فإن بعضهم توم أن كلنا الآيتين منسوخة بآية الزكاة . لتومه أنها تعارض كلا منهما . على حين أنه لا تعارض ولا تناقض ، لأنه يصح حل الإنفاق في كلتا الآيتين الأوليين على ما يشمل الزكاة وصدقة التطوع ونفقة الأهل والأقارب ونحو ذلك وتكون آية الزكاة معها من قبيل ذكر فرد من أفراد العام بحكم العام . ومثل هذا لا يقوى على تخصيص العام ، فضلاً عن أن ينسخه ؛ وذلك لعدم وجود تعارض حقيقى لا بالنسبة إلى كل أفراد العام حتى يكون ناسخاً ولا بالنسبة إلى بعضها حتى يكون مخصصاً .

### الآيات التي اشتهرت بأنها منسوخة

قد عرفت أن للتزديد أكثر من القول بالآيات المنسوخة غلطاً منهم واشتقاقاً . وتزيدك هنا أن بعض فطاحل العلماء تعقب هؤلاء للتزديد بالتعد كالتقاضى أبى بكر بن العربي وكمال الدين الموهبى الذى حصر ما يصلح لدعوى النسخ من آيات القرآن في اثنتين وعشرين آية ، ثم ذكر أن الأصح في آئتي الاستئذان والقسم الإحكام لا النسخ . وما هي ذى مشغوعة بالتعلق عليها ، مرتبة بترتيب المصحف الشريف :

## الآية الأولى

« والله للشرق والغرب ، فأبينا تولوا عن وجه الله » قيل إنها منسوخة بقوله سبحانه :  
 « قول وحده شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » لأن الآية  
 الأولى تفيد جواز استقبال غير المسجد الحرام في الصلاة ، ما دامت الآفاق كلها لله ،  
 وليست له جهة معينة . والثانية تفيد عدم جواز استقبال غيره فيها ، ما دامت تحتم استقبال  
 المسجد الحرام في أى مكان نكون فيه .

وقيل إن الآية المذكورة ليست منسوخة ، وإنما هي محكمة ، وهذا ما رجحه ؛ لأنها  
 نزلت ردا على قول اليهود حين حولت القبلة إلى الكعبة : « ما ولّاهم من قبلهم التي  
 كانوا عليها » إذن فهي متأخرة في النزول عن آية التحويل كما قال ابن عباس . وليس  
 بمعقول أن يكون الناسح سابقا على المنسوخ . ثم إن معناها هكذا إن الآفاق كلها لله ،  
 وليس سبحانه في مكان خاص منها ، وليس له جهة معينة فيها . وإذن فله أن يأمر عباده  
 باستقبال ما يشاء من الجهات في الصلاة ، وله أن يحولهم من جهة إلى جهة . وهذا المدعى  
 - كما ترى - لا يتعارض وأن يأمر الله عباده وجوبا باستقبال الكعبة دون غيره ، بل  
 أن أمرهم باستقبال بيت المقدس . وحيث لا تعارض فلا نسخ بل الابقان محتملان ، وبؤيد  
 لإحكام هذه الآية أن جملة « والله للشرق والغرب » وردت بنفسها في سياق الآيات المنازلة  
 في التحويل إلى الكعبة ؛ ردا على من ظنوا فيه . اقرأ - إن شئت - قوله سبحانه  
 « يقول السماء من الناس ما ولّاهم عن قبلهم التي كانوا عليها . قل لله المشرق  
 والمغرب » . . . ومعهم يتنحى التعارض ويدفع النسخ ، بأن آية « والله للشرق والمغرب »  
 مفيد حوار الترحه إلى غير الكعبة في خصوص صلاة النافذة سفرا على الهداية ، ويقول -  
 إن هذا الحكم نافى لم ينسخ . أما الآية الثانية فتفيد وجوب استقبال الكعبة في المراتع .  
 ومعهم يحمل الآية الأولى على التوجه في الدعاء ، والثانية على التوجه في الصلاة ، وإذن

لأقارب على هذين الاحتمالين وجوب لأقارب، فلا سح، ولكن هذين الرأيين وإن وافقا الرأي السابق في أحكام الآية فيها مبدیان على تأويل في معنى الآية يختلف الظاهر كما هو ظاهر. نعم إن آية (فول) وحبك شطر السعد الحرام) ماسخة لا كان واحدا بالسنة من وجوب استئصال بيت المقدس، على رأى من لا يجمع نسخ السنة بالقرآن

### الآية الثانية

(كتب عليكم إذا حضر أحدكم اللوت إن ترك حبرا الوصية لأقربيه والأقربين بالمعروف، حقا على للتقين). فيها تعيد أن الوصية للأقربين والأقربين مرض مكتوب، وجب واجب، على من حضره اللوت من المسلمين وقد اختلف في نسخ هذه الآية وفي ناسخها. الجمهور على أنها منسوخة وأن ناسخها آيات الموارث. وقيل إنها منسوخة بالسنة، وهي قوله يُؤْتَى: «لا وصية لوارث». وقيل منسوخة بإجماع الأمة على عدم وجوب الوصية للأقربين والأقربين... وقيل إنها محكمة لم تنسخ. ثم اختلف هؤلاء القائلون بالإحكام، بعضهم يحملها على من حرم الإرث من الأقربين، وبعضهم يحملها على من له ظروف نفسي زيادة العطف عليه، كالمعرة وكثيري العيال من الورثة.

ورأى أن الحق مع الجمهور في أن الآية منسوخة وأن ناسخها آيات الموارث أما القول بإحكامها فتكاف ومشي في غير سبيل، لأن الوالدين - وقد جاء ذكرهما في الآية لا يجرمان من الميراث محل، ثم إن أدلة السنة متوافرة على عدم حوا الوصية لوارث، محفلة على كتلة الوارثين أن تفتت، وحماية الرحم من العطية التي ترى آثارها السيئة بين من ربي الشيطان لورثهم أن يروع لهم شجرة الصمية قبل موته، بمعاملته بينهم في ميراث من طريق الوصية



وأما القول بأن النسخ السنة فيدفعه أن هذا الحديث آحادى والآحادى غلطى والظن لا يقوى على نسخ القطعى وهو الآية . . . وأما القول بأن النسخ هو الإجماع فيدفعه ما يبياه من علم جواز نسخ الإجماع والنسخ به ، نعم إن نسخ آية الوصية بآيات اللوارث فيه شيء من انقضاء الاحتمال ، ولكن السنة التبريرية أزلت انقضاء ورفضت الاحتمال ، حين أفادت أنها ناسخة ، إذ قال ﷺ « قد نزل آية اللوارث » إن الله أعطى كل ذي حق حقه ، فلا وصية لوارث . . . وفي هذا المعنى ينقل عن الشافعى ما خلاصته . . . « إن الله تعالى أنزل آية الوصية وأنزل آية اللوارث ، فاحتمل أن تكون الوصية باقية مع اللوارث واحتمل أن تكون اللوارث ناسخة للوصية . وقد طلب العلماء ما يرجح أحد الاحتمالين ، فوجدوه في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . « لا وصية لوارث » : وهذا الظاهر وإن كان آحادا لا يقوى على نسخ الآية فإنه لا يصف من بيانها وترجيح احتمال النسخ على احتمال عدمه فيها .

هذا . ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الشافعى والنسعى ذهبا إلى عدم نسخ آية الوصية ( مستندين إلى أن حكمها هو الندب لا الوجوب فلا تعارض بينها وبين آية اللوارث ، كما لا تعارض بينها وبين حديث : لا وصية لوارث ) لأن معناه ، لا وصية واجبة وهو لا ينافى ندب الوصية ؛ وحيث لا تعارض فلا نسخ : ولكن هذا الرأى سقيم فيها نفهم ، لأنه خلاف الظاهر المتبادر من لفظ ( كتب ) للمرووف فى معنى ، المرضية ، ومن لفظ ( حقا على المتقين ) للمرووف فى معنى الإلزام . ومن شواهد السنة الناهية عن الوصية لوارث .

### الآية الثالثة

« وعلى الذين يطيقونه مدية طعام مسكين » ، فمن تطوع خيرا فهو خير له ، وأن تصرموا خير لكم إن كنتم تعلمون » فإنها بعد تحيير من يطبق للصوم بين الصوم

والإفطار مع العذبة : وقد نسخ ذلك بقوله سبحانه : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه »  
للعبد لوجوب الصوم دون تحيير على كل صحيح متيم من المسلمين .

وقيل إن الآية محكمة لم تنسخ ، لأنها على حذف حرف النفي والتقدير « وعلى  
الدين لا يطيقونه فذبة طعام مسكين » . وهذا على هذا الحذف قراءة « يطيقونه »  
بتشديد الواو وفتحها ، والمعنى يطيقونه بجهد ومشقة . وإذن لا تعارض ولا نسخ ، ويرد  
هذا الرأي ( أولا ) بأنه مبنى على أن في الآية حدا ، ولا ريب أن الحذف خلاف  
الأصل . أما قراءة « يطيقونه » بالتشديد ، فلا تدل على مشقة تصل بصاحبها إلى جواز  
الفطر بعد إيجاب الصوم من غير تحيير ، بل تدل على مشقة ما ، ولا شك أن كل صوم  
فيه مشقة ما خصوصا أول مشروعيته ( ثانيا ) أن أبا جعفر النعمان روى في كتابه الناسخ  
والنسخ عن أبي سلمة بن الأكوع أنه قال : لما نزلت هذه الآية : « وعلى الدين  
يطيقونه فذبة طعام مسكين » كان من شاء منا صام ومن شاء أن يفدى فعل ، حتى  
نسختها الآية بعدها .

### الآية الرابعة

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » فإن  
هذا التشبيه يقتضى موافقة من قبلنا فيما كانوا عليه من تحريم الوطء والأكل نهار الصوم  
ليلة الصوم . وقد نسخ ذلك بقوله سبحانه : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى  
نساءكم » . كذلك قالوا ، ولكلك تعلم أن التشبيه لا يجب أن يكون من كل وجه ،  
وإن التشبيه في الآية الأولى لا يقتضى ما ذكرناه من وجوب موافقة أهل الكتاب  
فيما كانوا عليه في صومهم ، استدلالا بالتشبيه في قوله « كما كتب على الذين من قبلكم »  
وعلى هذا فلا تعارض بين الآيتين ، وحيث انتفى التعارض انتفى النسخ .

## الآية الخامسة

« يَأْتِيكَ مِنَ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٌ فِيهِ . قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ » فإنها تعيد حرمة القتال في الشهر الحرام . وقد روى ابن جرير عن عطاء بن مسرّة أنها منسوخة بقوله تعالى : « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا قَاتَلْتُمُوكُمْ كَافَّةً » . وهل أبو جعفر المتعالي إجماع العلماء ما عدا عطاء على القول بهذا النسخ . ووجه ذلك أن آية « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً » أضافت الإذن بقتال المشركين عموماً . والصوم في الأشخاص يستلزم الصوم في الأزمان . وأيدوا ذلك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل هوازن بمحنين وتقيما بالمطائف في شوال وذي القعدة سنة ثمان من الهجرة . ولا ريب أن ذا القعدة شهر حرام ، وقيل إن النسخ لم يقع بهذه الآية ، إنما وقع بقوله سبحانه : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » فإن صوم الأمكنة يستلزم صوم الأزمنة .

ذلك رأى الجمهور . وهو محجوج فيما نفهم بما ذهب إليه عطاء وسيرته . وروى عموم الأشخاص في الآمة الأولى ، وعموم الأمكنة في الآية الثانية ، لا يستلزم واحد منهما عموم الأزمنة . وإذن فلا تعارض ولا نسخ . بل الآية الأولى نهت على العموم في الأشخاص ، والثانية نهت على العموم في الأمكنة . وكلاهما غير مناف لحرمة القتال في الشهر الحرام ، لأن عموم الأشخاص وعموم الأمكنة يتحققان في بعض الأزمان الصادق بما عدا الأشهر الحرم . وبذلك أن حرمة القتال في الشهر الحرام لا تزال باقية ، اللهم إلا إذا كان حراماً لما هو أشد منه ، فإنه يجوز حينئذ لهذا العارض ، كأجل عليه قول الله في الآية نفسها : « وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرُوا بِهِ وَاللَّهُ عَالِمُ الْغُيُوبِ » وإخراج أهل مكة أكبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل .

## الآية السادسة

« وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنكُمُ وَيَدْرُونَ أَرْوَاحًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ ، متاعاً إلى الحول غيرَ إخراجٍ ، فَإِنْ حَرَّخْنَ فَلَا حُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهِمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ »  
 فإنها مفسوحة ، قوله سبحانه : « وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنكُمُ وَيَدْرُونَ أَرْوَاحًا يَتَّقُونَ »  
 بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً . فإذا لم يَأْخُضْنَ فَلَا حُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهِمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ  
 المعروف ، لأن الآية الأولى أفادت أن من موى عنها زوجها يومئذ لها سنة سنة وسكى  
 مدة حول ما لم تخرج ، فإن حرخت فلا شيء لها . وأما الثانية فقد أفادت وجوب انتظارها  
 أربعة أشهر وعشراً ، ولأن هذا أنه لا يجوز لها أن تخرج في هذه المدة أو تزوج .

وقيل إن ذلك تخصيص لانسح ، فإن المرأة قد تكون عندئذ سنة كاملة إذا كانت  
 حاملاً ، ويرد هذا بأن الآية الأولى تعيد اعتداد المرأة حولاً كاملاً إذا كانت غير حامل  
 أو كانت حاملاً ولم يَمُتْ حملها سنة . والآية الثانية قد رفعت هذا حرماً . وذلك محقق  
 بالنسح على أن الاعتداد حولاً كاملاً فيما إذا كانت المرأة حاملاً ، ليس لدلالة الآية الأولى  
 عليه ، بل لآية « وَأُولَاتُ الْأَحْصَالِ أَهْلُهُنَّ أَنْ يَصْنَعْنَ حَمْلَهُنَّ » وهذا لا تنقيذ لعام ،  
 بل ربما يزيد أو ينقص

وقيل : إن الآية الأولى محكمة ، ولاضافة بينها وبين الثانية ، لأن الأولى خاصة بما إذا  
 كان هناك وصية للزوجة بذلك ولم تخرج ولم تزوج . أما الثانية فهي بيان المدة والمدة التي  
 يجب عليها أن تمكثها . وهما زمانان مختلفان . ويرد هذا بأن الآية الأولى تحمل للتوفي  
 عنها حق الخروج في أي زمن وحق الزواج ، ولم تحرم عليها شيئاً منها قبل أربعة أشهر  
 وعشر . أما الثانية فقد حرمتها وأوجب عليها الانتظار ، دون خروج ودواج طوال هذه  
 المدة ، فالحق هو القول بالنسح ، وعليه جمهور العلماء .

## الآية السابعة .

« وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْنَ عُجَابَكُمْ بِهِ اللَّهُ » فإنها منسوخة بقوله سبحانه « لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » لأن الآية الأولى تفيد أن الله يكلف العباد حتى بالخطرات التي لا يملكون دفعها ، والآية الثانية تفيد أنه لا يكلفهم بها ، لأنه لا يكلف عبداً إلا وسعها . والذي يظهر لنا أن الآية الثانية محصنة للأولى وليست ناسخة لأن إفادة الأولى لتكليف الله عباده بما يستطيعون مما أبدوا في أنفسهم أو أخفوا ، لا تزال هذه الإفادة باقية ، وهذا لا يعارض الآية الثانية حتى يكون ثمة نسخ .

وقال بعضهم : إن الآية محكمة ، لأنها خاصة بكتان الشهادة وإظهارها . ويرده أنه لا دليل على هذا التخصيص .

وقال بعضهم : إنها محكمة مع بقائها على عمومها ، وللمنى أن الله يحاسب المؤمنين والكافرين بما أبدوا وبما أخفوا ، فينظر للمؤمنين ويذهب الكافرين والمباغين . ويرده أن هذا المصوم لا يسلم بعد ما تقرر من أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، سواء أكانت نفساً مؤمنة أم كافرة . لأن لفظ « نفساً » نكرة في سياق النفي فيمض .

## الآية الثامنة

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ » قال السيوطي : ليس في آل عمران آية يصح فيها دعوى النسخ إلا هذه الآية . فقد قيل إنها منسوخة بقول الله تعالى : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » .

والذي يبدو لنا أنها غير منسوخة ، لأن التماسخ الحقيقي بين الآيتين غير مسلم ، فإن تقوى الله حق تفراده للأمور بها في الآية الأولى ، معناها الإتيان بما يستطيعه المكلفون من هداية الله ، دون ما خرج عن استطاعتهم ، وقد ورد تفسيرها بأن يحفظ الإنسان رأسه وماوعى ،

وسطه وما جرى ، وذكر الموت والبل . ولا ريب أن ذلك مستطاع بتوفيق الله بادن  
لاتصارص بينها وبين قوله « فأتقوا الله ما استطعتم » وحيث لا تمارض فلا نسخ

### الآية التاسعة

« وإد حصر القصة أولو القرى والتمامى ولما كين قارر قوم منه ونقولوا لم قولاً  
سروفاً » قيل إنها منسوخة بآيات المواريث . والظاهر أنها محكمة ، لأنها تأمر بإعطاء  
أولى القرى والتمامى ولما كين الحاصرين لقصة التركة شيئاً منها . وهذا الحكم باق على  
وجه الدب مادام المذكورون غير وارثين ولا تمارض ولا نسخ  
سواء لو كان حكم إعطاء هؤلاء هو الواجب ، ثم رفع بآيات المواريث ، وتقرر الدب  
بدليل آخر بدلالة الحكم الأول ، فلا مفر من القول بالنسخ ولكن للأتور عن  
ابن عباس أن الآية محكمة غير أن الناس تهاونوا بالعمل بها . وهذا يحتمل  
مخرج أن الأمر في الآية كان للدب لا للوجوب من أول الأمر ، حتى شأني القول  
بإحكامها ؛ فتأمل

### الآية العاشرة

« والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم » سبحانه قول الله : « وأولو الأرحام  
نصيبهم أولى منكم في كتاب الله » وقيل إنها غير منسوخة ، لأنها تدل على توريث  
مولى للوالاء . وتوريثهم باق غير أن رتبهم في الإرث صد رتبة ذوي الأرحام . وبذلك  
يقول فقهاء العراق

## الآية الحادية عشرة

وَاللّٰنِ يٰٓأَيُّهَا الْفَاحِشَةُ مِنْ نِّسَائِكُمْ ، فَامْتَشْهَدُوا عَلَيْنَّ أَرْسَةً مِنْكُمْ بَارِ شَهِدُوا  
فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا  
مِنْكُمْ فَاَدْوِمَا ، فِئْزَن تَابَا وَاسْلَخَا ، فَأَمْرَضُوا عَنْهُمَا ۝ فَإِنَّمَا مَسْوُوحَةٌ بِآيَةِ الدُّورِ ، وَهِيَ  
« الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ  
كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » وَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ  
إِلَى الْبِكْرِ رَجُلًا كَانَ أَوْ امْرَأَةً ، أَمَّا النِّسْبُ مِنَ الْجَنَسَيْنِ فَهُوَ سِيَخُ الْحُكْمِ الْأَوَّلِ بِالنِّسْبَةِ  
إِلَيْهَا ، وَأَبْدَلُ بِالرَّحِمِ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْآيَةُ لِلدُّخُوعِ فِي التَّلَاوَةِ ، وَهِيَ « الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ .  
إِذَا زَانِيَا فَرَجَسُوهُمَا أَلْبَتَهُ » دَلَّتْ عَلَيْهِ السَّنَةُ أَيْضًا .

وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ بِالْإِحْكَامِ وَغَدَمِ السَّيْخِ ، ذَاهِبًا إِلَى أَنَّ الْآيَةَ الْأُولَى جَاءَتْ فِيمَنْ أَنْبَى  
مَوَاضِعِ الرِّبِّ وَالْفُسُوقِ وَلَمْ يَتَعَقَّقْ زَنَاهُ . أَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّمَا فِيمَنْ تَحَقَّقَ زَنَاهُ . وَلَكِنْ  
هَذَا مُرَدُّهُ مِنْ وَجْهَيْنِ : « أَحَدُهُمَا » أَنَّهُ تَأْوِيلُ يَصَادِمُ الظَّاهِرَ بِدُونِ دَلِيلٍ ، لِأَنَّ قَوْلَهُ :  
« يَأْتِيَانِيَا الْفَاحِشَةُ يَقْبَادِرُ مِنْهُ مَقَارَفَتُهُنَّ فَضِلَّ الْفَاحِشَةُ ، لَا يَحْدُثُ عَشْيَانِ مَكَانَهَا وَالْأَخْذُ  
بِأَسْبَابِهَا . ( وَالْآخِرُ ) قَوْلُهُ يُخْلَعُ ؛ خَذُوا عَنِّي ، خَذُوا عَنِّي ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا :  
الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جُلْدُ مِائَةٍ وَفَرِيبُ عَامٍ ، بِالنِّسْبِ بِالنِّسْبِ جُلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ )

## الآية الثانية عشرة

يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْمِلُوا شَمَآئِرَ الْفَحْشَى وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ۝ قِيلَ إِنَّ قَوْلَهُ « وَلَا  
الشَّهْرَ الْحَرَامَ » مَنسُوخٌ بِمَقْصُودِ عَمَمِ قَوْلِهِ : « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً » وَقَدْ سَقَى الْقَوْلُ  
فِي هَذَا فَالْحَقُّ عِلْمُ النَّسْخِ .

### الآية الثالثة عشرة

« إِنْ جَدُّوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ » فإنها منسوخة بقوله: « وَأَنْزِلْ أَحْكُمْ بِهِمْ » بما أنزل الله « وقَدَقِيلْ مَدَمُ النِّسْخِ » وأن الآية الثانية متممة للأولى . فالرسول غير مقتضى الآية الأولى بين أن يحكم بينهم وأن يعرض عنهم ، وإذا احتار أن يحكم بينهم وجب أن يحكم بما أنزل الله بمقتضى الآية الثانية . وهذا ما رجحه لأن النسخ لا يصح إلا حيث تنذر الجلع .

### الآية الرابعة عشرة

يأتها الدين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ : فإن قوله « أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ » منسوخ بقوله: « وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ » وقيل إنه لا نسخ ؛ لأن الآية الأولى خاصة بما إذا نزل الموت بأحد المسافرين وأراد أن يوصي ، فإن الوصية ثبتت بشهادة اثنين عدلين من المسلمين أو غيرهم توسعة على المسافرين لأن ظروف السفر ظروف دقيقة ، قد يتسر أو يتعذر وجود عدلين من المسلمين فيها ، فلم يبيح الشارع إشتداد غير المسلمين لضيق الأمر ، وربما ضاعت الوصية . أما الآية الثانية فهي القائمة العامة في غير ظروف السفر .

### الآية الخامسة عشرة

« إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَارُونَ يَتْلُوا مَا تَتْلُونَ . وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَتْلُوا أَلْفًا مِنَ الدِّينِ كَفَرُوا ، بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَهْتَقُونَ » فإنها منسوخة بقوله سبحانه: « الْآنَ خُفَّ عَنْكُمْ وَحِيلَ أَنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَتْلُوا مَا تَتْلُونَ . وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَتْلُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ . وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » ووجه النسخ أن الآية الأولى أفادت وجوب ثبات الواحد عشرة ، وأن الثانية أفادت وجوب ثبات الواحد للاثنتين وهما حكمان متعارضان .



فتكون الثانية ماسعة للأولى . وقيل لانعاضه عن الآيتين ولاسح؛ لأن الثانية لم ترع الحكم الأول ، نداهة أنه لم يقل وبها : لا تقابل الواحد العشرة إذا قدر على ذلك . بل هي بحسب محسب ، على معنى أن المحاهد لم قدر على قتال العشرة فله الخيار رحمة من الله به بعد أن اعترف للسلمون . ولكذلك ترى أن النسخ على هذا الوجه لا مفر منه أيضا ، لأن الآية الأولى عينت على المحاهد أن يثبت لعشرة ، والثانية حيرته بين اثبات لعشرة ، وعدم الثبات لأكثر من اثنين . ولا ريب أن التعبير يعارض الإلزام على وجه التبيين .

### الآية السادسة عشرة

« انفروا خِفَافًا وَثِقَالًا » فإنها سخت بآيات العذر ، وهي قوله : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله » وقوله : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة . فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » وقيل إن الآية الأخيرة في النفر للتعليم والتفقه لا للحرب ، والآيتين فيها محصنتان لا تأسختان للآية الأولى ، كأنه قال من أول الأمر : لينفر منكم خِفَافًا وَثِقَالًا كل من احتجج إليه وهو قادر لا عذر له .

### الآية السابعة عشرة

الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ، فَإِنَّمَا مَنْسُوخُهُ قَوْلُهُ سَخَطَ : « وَأَنْكِحُوا الْأَمَانِيَّ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ » لأن الآية حبر عمى النسي ، يدلل قراءة « لَا يَنْكِحُ » بالحرم ، والقراءات بغير بعضها . وقيل بعدم النسخ ، تعبير الآية الأولى بأن الزاني للمعروف بالزنى ، لا يستطيع أن ينكح إلا زانية أو مشركة ، لعور المحصنات المؤمنات من رواجه وكذلك للمرأة المعروفة بالزنى لا يرعب في نكاحها إلا زان أو مشرك ، لعور المؤمنتين الصالحين من رواجهن .

والحق أن الآية منسوخة ، لأنها خبر بمعنى النهي كما سبق ، ولأن الأمر بالنسبة للمشارك وللشركة لا يستقيم إلا مع القول بالنسخ .

### الآية الثامنة عشرة

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَتَّذِّقُكُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَإِيمَانُكُمْ وَلَدِينُكُمْ لَمْ يَتْلَمُوا أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَمُحَرَّمُونَ عَلَيْهِ مَعَاشُ مَا كَسَبُوا وَكَسَبَتِ أَيْمَانُكُمْ وَأَنَّهُمْ هُمُ السَّاعُونَ » .  
ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تفتنون نياكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء . قيل إن هذه الآية منسوخة . لكن لا دليل على نسخها . فالحق أنها محكمة ، وهي أدب عظيم يلزم الخدم والصغار ، البعد عن مواطن كشف العورات ، حاية للأعراض من الانتهاك ، وحفظاً للأفكار أن ترى حالاً تليق رؤيته في أوقات التبديل .

### الآية التاسعة عشرة

« لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَدَأَ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مَنْ أَزْوَاجَ » .  
« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَعْلَمُكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ ، وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ ، وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَنْكَحَهَا ، فَحِلٌّ لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » .

وأعلم أن هذا النسخ لا يستقيم إلا على أن هذه الآية متأخرة في العزل من الآية الأولى ، وأن الله قد أحل للرسول في آخر حياته ما كان قد حرّمه عليه من قبل ، وقوله : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَدَأَ » الخ .

وذلك مروى من علي كرم الله وجهه ، وعن ابن عباس رضي الله عنه ، وعن أم سلمة رضي الله عنها ، وعن الضحاك رحمه الله ، وعن الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها . أخرج أبو داود في ناسخه ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، والحاكم وصححه أيضاً ،

وإن المصدر وخبرهم، عن عائشة رضى الله عنها قالت: «لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله تعالى له أن يتزوج من النساء إلا ذات محرم» الخ.

والسرفى أن الله حرم على الرسول أولاً ما عدا أزواجه، ثم أحل له ما حرمه عليهن، هو أن الفتحيم الأول فيه تطيب لقلوب سائمه، ومكافأة لمن، على اختيارهم الله ورسوله والدار الآخرة، بعد أن زلت آيات التنخيري القرآن ثم إن إحلال هذا الذي حرم على رسوله مع عدم رواج الرسول من غيرهم بعد هذا الإحلام، كما ثبت ذلك، عيه بيان نفسه ﷺ ومكرمه عليهن، حيث قصر فيه ولم يتزوج غيرهن، مع إباحة الله له ذلك

وقد جاءت روايات أخرى في هذا اللوصوع تخالف ما ذكرناه، لكن لم شئت لذيها صيغة شئ منها ولهذا رحنا ما بطناه. ولا يصكر صفو القول بالقبح هنا، ما ملاحظ من تأخر الآية للوصحة عن السائمة في المصحف. لأن المداز على ترتيب العرول لا على ترتيب المصحف كما تلم.

### الآية المشرون

«بأيها الذين آمنوا إذا ما حيم الرسول فقدموا بين يدي عوا كم صدقة» وبها سعت قوله سبحانه عقب تلك الآية: «الشفتم أن تقدموا بين يدي عوا كم صدقات. ودم تعملوا وتاب الله عليكم فاقموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله». قيل لا مسح، بحجة أن الآية الثانية بيان للصدقة للأمور بها في الأولى، وأنه يصح أن تكون صدقة غير مالية، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله. وأستحير بأر هذا صرب من التكلف في التأويل، بإياه ما هو معروف من معنى الصدقة حتى أصبح لفظها حقيقة عرفية في النقل للالى وحده. وقيل: إن وجوب تقديم الصدقة إنما لبر والسمه، وهو نمير المتابع من غيره. وهذا مردود بأن كل حكم مدوخ فإما نسحه الله لحكمة، من هو مصلحة أو سبب كان يرتبط به الحكم الأول، ثم زالت تلك للمصلحة أو ذلك السبب.

## الآية الحادية والعشرون

« وَإِنْ مَنَعَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ مَعَاقِمٌ، فَاتُّوا الدِّينَ وَدَهِيتْ أَرْوَاحُكُمْ مِثْلَ مَا أَصَبْتُمْ ۚ » . قيل نسخها آية الغنيمية، وهي قوله سبحانه: « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ » فَأَنَّ فِيهِ خُمُسَةٌ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّائِكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ » . ويبار ذلك أن الآية الأولى تفيد أن زوجات المسلمين الثلاث ارتددن ولحقن بدار الحرب، بحسب أن يدفع إلى أزواجهن مثل مهورهن، من الغنائم التي يضمنها المسلمون ويقاوبون العدو بأخذها. والآية الثانية تفيد أن الغنائم تخمس أخماسا ثم تصرف كما رسم الشارع. ولكذلك بالتأمل تستظهر معنا أنه لا نسخ، لأن الآيتين لا تعارضان، بل يمكن الجمع بينهما، بأن يدفع من الغنائم أولا مثل مهور هذه الزوجات المرتدات اللاحقات بدار الحرب، ثم تخمس الغنائم بعد ذلك أخماسا وتصرف في مصارفها الشرعية .

## الآية الثانية والعشرون

« بِأَيِّهَا الْمُرْزَلُ ۚ قُمْ الْهَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۚ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۚ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۚ » فيها منسوخة بقوله سبحانه في آخر هذه السورة: « إِنْ رَبُّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي الضَّلَاجِلِ وَمَنْ يَقُمْ مِثْلَ شَأْنِكَ مِنَ الدِّينِ مِمَّا مَلَكَ . وَاللَّهُ بِتَدَابُّرِ الْأَشْيَاءِ عَلِيمٌ . » علم أن لن تحسوه فئات عميكم فاقروه وما تبسر من القرآن » الخ . . وبين أن ذلك أن الآية الأولى أهدت وحب قيامه ﷺ من الليل نصه، أو أنقص منه قليلا، أو أريد عليه . أما الثانية فقد أعادت أن الله تاب على النبي وصحابه في هذا، بأن رخص لهم في ترك هذا القيام المقدر، ورمع عنهم كل تسعة في ذلك الترك، كما رمع التبعات عن المدنيين بالتوبة إذا تابوا .

ولا ريب أن هذا الحكم الثانى رافع للحكم الأول ، فتعين النسخ .  
وقد قيل فى تفسير هذه الآيات كلام كثير ، لا يرى حاجة إلى ذكره ، والله يكفيننا  
كثرة القيل والقال ، ويحجب علينا من التزاع والخلاف ، ويجمع صفوفنا على دينه ووجهه ،  
آمين . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

## المبحث الخامس عشر فى محكم القرآن ومنشأه

للمنى القزوى :

لهذين المنظيرين إطلاقات فى الفقه وإطلاقات فى الاصطلاح . فالقزوين يستعملون مادة  
الإحكام ( بكسر المز ) فى معان متعددة ، لكنها مع تعددها ترجع إلى شئ واحد ، هو  
المنع . فيقولون : أحكم الأمر أى أتقنه ومنعه عن الفساد . ويقولون : أحكمه عن الأمر أى  
رجعه عنه ومنعه منه . ويقولون : حكم نفسه وحكم الناس أى منع نفسه ومنع الناس عما لا يبنى  
ويقولون : أحكم الفرس أى جعل له حكمة ( بنوعات ثلاث ) والحكمة ما أحاط بمسكى  
الفرس من لجانه تمنعه من الاضطراب . وقيل : « آتاه الله الحكمة » أى المدل أو العلم أو  
الحلم أو النبوة أو القرآن ؛ لما فى هذه الذكورات من الحواظ الأديبة الرادعة مما لا يليق .  
وكذلك يستعمل القزوين مادة التشابه فيما يطل على للشاركة فى المماثلة والمشكلة ،  
المؤدبة إلى الالتباس غالباً . يقال : تشابه واشتبهاء أى أشبه كل منهما الآخر حتى التباس .  
ويقال : أمور مشبهة ومشبهة على وزن معظلة . أى مشكلة والشبهة بالعمى : الالتباس  
والثقل . ويقال شبه عليه الأمر تشبيهاً أى لبس عليه ( بضم الأول وتشديد التاء ) مع كسره  
فى السمعين ) . ومنه قول الله سبحانه وصفاً لوزن الجنة « وأنوا به مقشاه » . ومنه  
قوله حكايمة عن بنى إسرائيل : « إن البقر تشابه علينا » اعطى القاموس فى هاتين المادتين

## القرآن محكم ومقشاه :

ولقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على أنه كله محكم ، إذ قال سبحانه : « كتاب أحكمت آياته » وجاء فيه ما يدل على أنه كله مقشاه ، إذ قال جل ذكره : « الله نزل أحسن الحديث كتابا مقشاه » . وجاء فيه ما يدل على أن بعضه محكم وبعضه مقشاه ، إذ قال عز اسمه : « هو الذي أنزل عليك الكتاب » ، « آيات محكمات هن أم الكتاب » ، وأخر مقشاهات » ولا تعارض بين هذه الإطلاقات الثلاثة ، لأن معنى إحكامه كله أنه منظم وصين ، متقن متين ، لا يتطرق إليه خلل لفظي ولا معنوي ، كأنه بناء مشيد محكم يتحدى الزمن ، ولا يفتابه تصدع ولا وهن . ومعنى كونه كله مقشاه أنه يشبه بعضه بعضا في إحكامه وحسنه وبلوغه حد الإيجاز في الفاظه ومعانيه ، حتى إنك لا تستطيع أن تفاضل بين كلماته وآياته في هذا الحسن والإحكام والإيجاز ، كأنه حلقة مفرغة لا يدرى أين طرفها . وأما أن بعضه محكم وبعضه مقشاه ، فمنه أن من القرآن ما انضحت دلالة على مراد الله تعالى منه ، ومنه ما خفيت دلالة على هذا المراد الكريم . فالأول هو المحكم ، والثاني هو المقشاه على خلاف باني بين العلماء في ذلك . بيد أن الذي انفقوا عليه ولا يمكن أن يحتفلوا فيه ، هو أنه لا تنافي بين كون القرآن كله محكما أى متقنا ، وبين كونه كله مقشاه أى يشبه بعضه بعضا في هذا الإتيان والإحكام ، وبين كونه متقسما إلى ما انضحت دلالة على مراد الله وما خفيت دلالة ، بل إن انضمام هذا الانضمام يحقق لنا فيه كله من إحكام ومقشاه بمعنى السابق . وسيأتيك نبأ ذلك في بيان الحكمة من وجود مقشاهات حية إلى جانب واضحات ظاهرة في القرآن الكريم .

ويمكنك أن ترجع هذه التأويلات إلى الإطلاقات القنوية السابقة . فالقرآن كله محكم أى متقن ، لأن الله صاعه صياغة تمنح أن يتطرق إليه خلل أو فساد في اللفظ أو المعنى ، والقرآن مقشاه ، لأنه يماثل بعضه بعضا في هذا الإحكام ، مماثلة مفصية إلى التباين . التمييز بين آياته وكلماته في ذلك ، والقرآن منه محكم أى واضح المعنى المراد وصوحا يمدح الخفاء عنه ، ومنه مقشاه فيه وجوه مختلفة من المماثلة مستلزمة لخفاء هذا المعنى المراد .

### المعنى الاصطلاحي :

يطلق المحكم في لسان الشرعيين على ما يماثل النسخ تارة ، وعلى ما يقابل النقاش به تارة أخرى . فيراد به على الاصطلاح الأول ، المحكم الشرعي الذي لم يتطرق إليه نسخ . ويراد به على الثاني ما ورد من نصوص الكتاب أو السنة دالا على معناه بوصوح لاحفاء فيه ، على حاسياتي تفصيله . وموضوع بحثنا هنا هو هذا الاصطلاح الثاني أما الأول فقد بيناه في البحث السابق ، حيث عرفنا النسخ وسطاً أدلته وأحكامه وما قيل فيه ، ومنه يعرف مقاله وهو المحكم ، « ونصدها تمييز الأشياء » وعلى هذا الاصطلاح يحمل ما أخرج عند ابن عمير عن الصعدي قال : المحكمات ما لم ينسخ ، والنقشاهات ما قد نسخ

### آراء العلماء في معنى المحكم والنقشاه

يختلف العلماء في تحديد معنى المحكم والنقشاه اختلافات كثيرة

- ١ - منها أن المحكم هو الواضح الدلالة الظاهر الذي لا يحتمل النسخ ، أما النقشاه فهو المعنى الذي لا يدرك معناه عقلاً ولا نقلاً ، وهو ما استأثر الله تعالى بعلمه ، كقيام الساعة والحروف لمقطعة في أوائل السور . وقد عرأ الألويسي هذا الرأي إلى السادة الحنفية .
- ٢ - ومنها أن المحكم ما عرف المراد منه إما بالظهور وإما بالتأويل أما النقشاه فهو ما استأثر تعالى بعلمه ، كقيام الساعة وحروج الدجال والحروف الملقطة في أوائل السور . وينسب هذا القول إلى أهل السنة على أنه هو المختار عندهم .
- ٣ - ومنها أن المحكم ما لا يحتمل إلا واحداً من التأويل . أما النقشاه فهو ما احتمل أوجهاً . ويمرر هذا الرأي إلى ابن عباس ، ويمرر عليه أكثر الأصوليين .
- ٤ - ومنها أن المحكم ما استقل بعلمه ولم يمنح إلى بيان . أما النقشاه فهو الذي لا يستقل بعلمه ، بل يحتاج إلى بيان ، فتارة بين كذا ، وتارة بين كذا ، للحصول الاختلاف في تأويله ، ويمرر هذا القول من الإمام أحمد رضي الله عنه

٥ - ومنها أن الحكم هو السديد النظم والترتيب ، الذى يقضى إلى إثارة المعنى المستقيم من غير مضاف . أما التشابه فهو الذى لا يحيط العلم بمعناه المطلوب من حيث اللمعة ، إلا أن تقتصر به أمانة أو قرينة . ويندرج المشترك فى التشابه بهذا المعنى . وهو منسوب إلى إمام الحرمين .

٦ - ومنها أن الحكم هو الواضح المعنى الذى لا يتطرق إليه إشكال ؛ مأخوذ من الإحكام وهو الإتقان . أما التشابه فنقيضه . وينظم الحكم على هذا ما كان معاً وما كان ظاهراً . وينظم التشابه ما كان من الأسماء المشتركة وما كان من الألفاظ للوحدة التشبيهية فى حقه سبحانه . وقد نسب هذا القول إلى بعض المتأخرين ، ولكنه فى الحقيقة رأى الطوى ؛ إذ قال فيها حكى السيوطى عنه :

« المراد بالحكم ما اتضح معناه ، والتشابه بخلافه ، لأن اللفظ الذى يتقبل معنى ، إما أن يحتمل غيره أولاً . الثانى النسخ ، والأول إما أن تكون دلالة على ذلك الغير أرجح أولاً . الأول الظاهر ؛ والثانى إما أن يكون مساوياً أولاً . الأول هو الحمل ، والثانى المؤول . فالشترك بين النسخ والظاهر هو الحكم ، والشترك بين الحمل والمؤول هو التشابه .

ويؤيد هذا التقسيم أنه تعالى أوقع الحكم مقابلاً للتشابه . فالواجب أن يفسر الحكم بما يقابل به ويضد ذلك أسلوب الآية ، وهو الجمع مع التقسيم ، لأنه تعالى فرق ما جمع فى معنى الكتاب ، بأن قال : « منه آياتٌ محكماتٌ هنَّ أم الكتاب ، وأخر متشابهاتٌ » . وأراد أن يصيغ إلى كل منهما ما شاء فقال أولاً : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ » إلى أن قال : « وإراستون فى العلم يقولون آمنا به » وكان يمكن أن يقال : (وأما الذين فى قلوبهم استقامة فيؤمنون بالحكم) لكنه وضع موضع ذلك « وإراستون فى العلم » لإتيان لفظ الروح ، لأنه لا يحصل إلا بعد التثبت العام والاجتهاد البالغ . فإذا استقام القلب على طريق الرشاد ودرج القدم فى العلم ، أفصح صاحبه التعلق بالقول الحق . وكفى بدعاء



الراسخين في العلم : « ربنا لا نزغ قلوبنا سد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، إناك أنت الوهاب » شاعدا على أن « الراسخون في العلم » مقابل لقوله : « والدين في قلوبهم ريح » . وفيه إشارة إلى أن الوقت تام على قوله « إلا الله » وإلى أن علم بعض المتشابه يحتص بالله تعالى ، وأن من حاول معرفته فهو الذي أشار إليه في الحديث بقوله : ( فاحذروهم ) اه .

وهو كلام نبيي كاتراء : والحديث الذي نوه به أخرجه الشيخان وغيرهما من عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ هذه الآية : « هو الذي أنزل الكتاب » إلى قوله : « وأولو الألباب » قالت : قال رسول الله ﷺ ( فإننا رأيت الذين يقيمون ماتت به منه ، فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم ) .

(٧) ومنها أن الحكم ما كانت دلالة راجعة ، وهو النص والظاهر ، أما التشابه في كانت دلالة غير راجعة ، وهو الجمل والؤول وللشكل . ويبرز هذا الرأي إلى الإمام الرازي واختاره كثير من المحققين . وقد سطره الإمام فقال ما خلاصته .

« اللفظ الذي حمل موضوعا لمعنى ، إما ألا يكون محتملا لغيره ، أو يكون محتملا لغيره . الأول النص ، والثاني إما أن يكون احتماله لأحد المعاني راجعا ولغيره مرجوحا ، وإما أن يكون احتماله لما بالسوية . واللفظ بالنسبة للمعنى الراجح يسمى ظاهرا ، بالنسبة للمعنى المرجوح يسمى مؤولا ، وبالنسبة للمعنيين للتساويين أو للمعاني المتساوية يسمى مشتركا ، وبالنسبة لأحدهما على التمييز يسمى مجعلا . وقد يسمى اللفظ مشكلا إذا كان معناه الراجح باطلا ، ومعناه المرجوح حقا .

إذا عرفت هذا فالحكم ما كان دلالة راجعة ، وهو النص والظاهر ؛ لا شترأ كهما في حصول الترجيح ، إلا أن النص راجح مانع من الغير ، والظاهر راجح غير مانع منه .

أما التشابه فهو ما كانت دلالة غير راححة ، وهو المحمل والتأويل والشكل ؛ لا شترأ كلها  
 في أن دلالة كل منها غير راححة ، وأما المشترك فإن أريد منه كل معانيه فهو من قبيل  
 الظاهر ، وإن أريد بعضها على التعمين فهو محمل

ثم إن صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرحوح ، لا بد فيه من دليل  
 منفصل . وذلك الدليل المستعمل إما أن يكون لفظياً ، وإما أن يكون عقلياً ، والدليل اللفظي  
 لا يكون قطعياً ، لأنه موقوف على فعل اللفظ ، ونقل وحسوه ، والنحو والتصرف ،  
 وموقوف على عدم الاشتراك ، وعدم المحار ، وعدم الإحصار ، وعدم التخصيص ، وعدم  
 المعارض العقلي واللفظي . وكل ذلك مطبوع والموقوف على انطباع مظهر

وعلى ذلك فلا يمكن صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معنى مرحوح بدليل لفظي  
 في المسائل الأصولية الاعتقادية . ولا يجوز صرفه إلا بواسطة قيام الدليل القطعي العقلي  
 على أن المعنى الراجح محال عقلاً ، وإذا عرف المكلف أنه ليس مراد الله تعالى ، فبعد ذلك  
 لا يحتاج إلى أن يعرف أن ذلك المرحوح ماهو ؟ لأن طريقه إلى تعينه إما أن يكون بترجيح  
 محار على محار ، وترجيح تأويل على تأويل . وذلك الترجيح لا يكون إلا بالدلائل  
 العقلية ، وهي لا تعيد إلا الظن . والتعويل عندها في مسائل القطعية لا بعيد . لذا كان  
 مذهب السلف عدم الخوض في تعيين التأويل في التشابه ، بعد اعتقاد أن ظاهر اللفظ  
 محال ، لقيام الأدلة العقلية القطعية على ذلك « ١ »

#### نظرة في هذه الآراء :

نحن إذا نظرنا في هذه الآراء ، لا نجد بينها تنافساً ولا تعارضاً ، بل نلاحظ بينها  
 تشابهاً وتنازلاً . بيد أن رأى الزاري أهدأها سديلاً ، وأوصحها بياناً ؛ لأن أمر الإحكام  
 والتشابه يرجع فيما بينهم ، إلى وصوح المعنى المراد للشارع من كلامه وإلى عدم وصوحه  
 ونعرف الزاري جامع مانع من هذه الناحية ، لا تدخل في الحكم ما كان حقيقياً ، ولا في

المنشأه ما كان جلياً ، لأنه استوفى وجوه الظهور وانخفاء استيفاء تاماً في بيان تقسيمه الذي ساء على راجح ومرجوح ، والذي أعلن لنا منه أن الراجح ما كان واصعاً لاحتماء فيه ، وأن المرجوح ما كان حقياً لاجلاء معه .

وقرب منه رأى الطبيب الذي قبله حتى كأنه هو ، غير أنه لم يستوف وجوه الظهور وانخفاء استيفاء الرازي . أما رأى إمام الحرمين فقيه شيء من الإلهام .

وكذلك رأى الإمام أحمد لاندري ما مراده بالبيان الذي يحتاج إليه المنشأه ، ولا يحتاج إليه المحكم ؟ .

ورأى ابن عباس يخرج الظاهر من المحكم ، ويدخله في المنشأه ، مع أنه من الواضحات واحتماله لتغير معناه الراجح احتمال ضعيف ، لا يتقدح في ظهوره ووضوحه

وارأى الثاني بعكس الآلة ، فيدخل في المحكم كثيراً من الخفيات ، ويحصر المنشأه على نوع واحد منها . فيكون تعريف المحكم فيه غير مانع ، وتعريف المنشأه غير جامع ، بالنسبة إلى المذهب المختار ، وهو مذهب الرازي .

والرأى الأول التسوب إلى الأحناف ، يقصر تعريف المحكم على النص ، وتعريف المنشأه على ما استأثر الله بعلمه ، ويلزم عليه وجود واسطة لا تدخل في المحكم ولا في المنشأه . ويكون تعريفهما غير جامع بالنسبة للمذهب المختار أيضاً .

### آراء أخرى :

واعلم أن وراء هذه الآراء آراء أخرى :

(١) منها أن المحكم هو الذي يعمل به ، أما المنشأه فهو الذي يؤمن به ولا يعمل به

وقد روى السيوطى هذا القول عن عكرمة وقتادة وغيرهما. وفيه أن ذلك قصر للحكم على ما كان من قبيل الأعمال ، وقصر للنشابة على ما كان من قبيل العقائد ، وإطلاق القول فيهما على هذا الوجه غير شديد فإن أرادوا الحكم أنه هو الواضح الذى يؤخذ بهما على التبيين ، وبالنشابة ما كان حقيقيا يجب الإيمان به دون تعيين لمعناه ، نقول : إن أرادوا ذلك بالمعبرة قاصرة من أداء هذا المراد ، والمراد منها لا يدفع الإراد عليها .

(٢) ومنها أن الحكم ما كان معقول المعنى ، والنشابة بخلافه ، كأعداد الصلوات ، واختصاص الصيام برمضان دون شعبان ، وفيه أن هذا التفسير قاصر عن الوفاء بكل ما كان واضعاً وكل ما كان خفياً .

(٣) ومنها أن الحكم ما لم يتكرر لفظه والنشابة ما تكرر لفظه ، وفيه أن هذا المعنى بالنسبة إلى النشابة أقرب إلى الثقة منه إلى الاصطلاح الذى عليه الجمهور ، وفيه إهمال ما اعتبر هنا من أمر انقضاء والظهور .

(٤) ومنها أن الحكم ما لم ينسخ ، والنشابة ما نسخ ، وفيه أن هذا اصطلاح آخر فوهنا به سابقا .

ونظراً إلى أن هذه الآراء أضعف من تلك الآراء التى قدمناها ، وأبعد عنها فى ملحظها ومغزاها ؛ أردناها بالذكر ، ولم نسلكها مع تلك فى صمت واحد .

وعلى كل حال فالأمر سهل وهين ؛ لأنه يرجع إلى الاصطلاح أو ما يشبه الاصطلاح ، ولا مشاحة فى الاصطلاح . ولولا أن تفسير آية آل عمران التى مروت فى كلامنا وكلام الطيبي ، لا يتمشى بسهولة على هذه الآراء المرحوحة ، لما أنعمنا أوسعاً فى مناقشتها ونقدتها ، وفى اختيار رأى الرأى من بينها .

## مدشأ التشابه وأقسامه وأمثلة

سعم بما سبق أن مدشأ التشابه إجمالاً ، هو حماء مراد الشارع من كلامه أما مصيلاً فندكر أن منه ما يرجع خفاؤه إلى اللفظ ، ومنه ما يرجع حداثه إلى المعنى ، ومنه ما يرجع خفاؤه إلى اللفظ والمعنى معاً .

( فاقسم الأول ) وهو ما كان التشابه فيه راجعاً إلى خفاء في اللفظ وحده ، منه مفرد ومركب ، والمفرد قد يكون الخفاء فيه ناشئاً من جهة غرابته أو من جهة اشتراكه ، والمركب قد يكون الخفاء فيه ناشئاً من جهة اختصاره ، أو من جهة بسطه ، أو من جهة ترتيبه .

مثال التشابه في المفرد بسبب غرابته ونادرة استعماله ، لفظ الأب بتشديد الباء في قوله سبحانه : « وفاكهة وأباً » وهو ما نزعاه البهائم . نداول قوله بمد ذلك : ( مثاماً لكم ولأنعامكم ) .

ومثال التشابه في المفرد بسبب اشتراكه بين معان عدة ، لفظ اليمين في قوله سبحانه : ( فراغ عليهم ضرباً باليمين ) أى فأقبل إبراهيم على أصدده قومه ضارباً لها باليمين من يديه لا بالشمال ، أو ضارباً لها ضرباً شديداً بالقوة ؛ لأن اليمين أقوى الجرحتين ، أو ضارباً لها بسبب اليمين التى حلفها وفوه بها القرآن إذ قال « وتالله لأكيدن أصداسكم لعل أن تولوا مدرسين » . كل ذلك حائر ولفظ اليمين مشترك بينهما

ومثال التشابه في مركب بسبب اختصاره ، قوله تعالى : « وإن حنتم ألا تقسطوا فى اليتامى فأمكحوا ما طاب لكم من النساء » فإن حفا ، راد فيه ، حاء من ناحية إيجاره ولأصل وإن حنتم ألا تقسطوا فى اليتامى لو ترو حنموهن ، وسكحوهن من غيرهن ما طاب لكم من النساء . ومعناه أمكنكم إذ اتحزمت من رواج اليتامى بحاة أن تطعموهن ؛ فأما منكم غيرهن فترحوا

منهم ما طاب لكم . وقيل إن القوم كانوا يتخرجون من ولاية اليتامى ولا يتخرجون من الرزى ، وأمر الله الآيه ومعه : إن حقهم الجود في حق اليتامى فخرجوا الرزى أيضا ، وتدلوا به رواج الذى وصح الله عليكم فيه فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع .

ومثل التشابه يقع في المركب بسبب سطره والإطباب فيه ، قوله حلت حكتة : ( ليس كمثل شيء ) فإن حرف الكاف لو حذف وقيل ( ليس مثله شيء ) كان أظهر للامع من هذا تركيب الذى ينحل إلى : ( ليس مثل مثله شيء ) وفيه من الدقة ما يعود على كثير من الألفهام .

ومثل التشابه يقع في المركب لترتيبه ونظمه ، قوله جل ذكره ( الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قبيحا ) فإن الخفاء هنا جاء من جهة الترتيب بين لفظ ( قبيحا ) وما قبله . ولو قيل : أنزل على عبده الكتاب قبيحا ولم يجعل له عوجا لكان أظهر أيضا .

وأعلم أن مقدمة هذا التسمي موضح السور المشهورة ، لأن التشابه والخفاء في المراد منها . جاء من ناحية ألفاظها لا محقة .

( والنفس الناقية ) وهو ما كان التشابه فيه واجعا إلى حماة النفس وحده ، مثاله كل ما جاء في الفرق السكرية وصفا لله تعالى ، أو لأهوال القيامة ، أو لعظيم الجنة وعذاب النار . النفس البشرية لا يمكن أن يحيط بمقتضى صفات الخالق ، ولا بأهوال انقيامه ، ولا بعظيم أهل الجنة وعذاب أهل النار . وكيف السبيل إلى أن يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه ، وما يكن قسما مثله ولا حنسه ؟ .

وأعلم أن في مقدمة هذا القسم للشكلات اللعروقة بتشابهات الصفات . فإن التشابه

والخفاء لم يحىء بحية عرانة في اللفظ أو اشتراك فيه بين عدة معان أو بحرف أو بإطراب مثلا . فتميز أن تكون من بحية معنى وحده .

( لتسم اثلاث ) وهو ما كان التثنية فيه راجعا إلى اللفظ ومعنى مع ، له أمثلة كثيرة منها قوله عرانه : « وليس البر » أن تأتوا البيوت من ظهورها » فإن من لا يعرف عادة العرب في الجاهلية ، لا يستطيع أن يفهم هذا النص الكريم على وجهه . ورد أن اسما من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطا ولا دارا ولا فسطاطا من باب . فإن كان من أهل المدر قرب نقبا في ظهر بيته ، يدخل ويخرج منه وإن كان من أهل نوبر حرج من حلف الخباء ، فنزل قول الله : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها » ولكن البر من نفى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله يمسكم تقصير »

فهذا الخفاء الذي في هذه الآية ، يرجع إلى اللفظ بسبب اختصاره ؛ ولو بسط قيل : وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها إذا كنتم محررين معج أو عمرة . ويرجع الخفاء إلى المعنى أيضا ، لأن هذا النص على فرض بسطه كما رأيت ، لا بد منه من معرفة عادة العرب في الجاهلية وإلا لتعدر فهمه .

قال الراغب في المفردات القرآن : التثنية بالجر ثلاثة أضرب : تثنية من جهة اللفظ فقط ، ومن جهة المعنى فقط ، ومن جهتهما . ( فالأول ) ضربان ، أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة ، إما من جهة الضاربة ، نحو ألأب ويرفون ، أو الاشتراك كاليد واليمين . وثانيهما يرجع إلى جملة الكلام المركب ، وذلك ثلاثة أضرب ، صرنا لاختصار الكلام ، نحو « وإن كنتم ألا تفسطوا في الدين » « كتحوا مطاب لكم » وصرنا بسبب نحو « ليس كمثل شيء » لأنه لو قيل . ليس مثله شيء كان أطهر للسمع ، وصرنا بصح الكلام ، نحو « أرل على عدده الكتاب ولم يحمل له عوجا » قينا » تقديره . أرل على عدده الكتاب قينا ولم يحمل له عوجا

(والنشأه من جهة المعنى) أوصاف الله تعالى وأوصاف القديمة، فإن تلك الأوصاف لا تتصور لما، إذ كان لا يحصل في موضوع صورة عالم محض أو ليس من جهة (والنشأه من جهتهما) جهة أصرب الأول. من جهة الكيفية كالسموم وخصوص، نحو اقتوا المشركين، وشأنى: من جهة الكيفية كالوجوب والبدب، نحو: «نكحوا ما طاب لكم من النساء» والثالث: من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ، نحو: «اتقوا الله حق تقاته» والرابع: من جهة المكان والأمر التي نزلت فيها، نحو: «وليس البر بناتوا البيوت من ظهوره» «إلى الله استعبدوا» من جهة لشروط التي يصح بها الفعل وبفسد: كشروط الصلاة والسكاح... وهذه الجهة إذا تصورت علم أن كل ما ذكره المفسرون في تفسير المنشأه لا يخرج من هذه التقسيم (١٥١).  
وهو كلام جيد، غير أن في بعضه شيئاً.

## أنواع المنشأهات

يمكننا أن نفهم المنشأهات - على ضوء ما سبق - ثلاثة أنواع:  
(النوع الأول) ما لا يستطيع البشر جميعاً أن يصحوا إليه، كما علم بهات الله وحقائق صفاته، وكأعلم بوقت القيامة ونحوه من الغيوب التي استأثر الله تعالى بها «وعنده مفاتيح الغيب لا يعلم إلا هو» «إن الله عنده علم الساعة، وينزل الوحي، ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ما تكسب عداً، وما تدرى نفس دنى أرض تموت، إن الله عليم خبير».

(النوع الثاني) ما يستطيع كل نفس أن يعرفه عن طريق البحث والدرس، كالمنشأهات التي نشأ النشأه فيها من الإحتمال والنسب والترتيب ونحوها من سبق.



( السورة الثالثة ) ما يملأه خواص العلماء دون عامةهم ، ولذلك أمثلة كثيرة من المعاني العالية أتت تفيض على قلوب أهل الصفاء والاحتماد عند تدبرهم لكتاب الله .  
 و اربع ( للشهادة على ثلاثة أضرب : ضرب لاسبيل إلى الوقوف عليه ، كوقت الساعة وخروج الدابة وبحو ذلك ، وضرب للإسان سبيل إلى معرفته كالأدب العريضة والأحكام العنقة . وضرب متردد بين الأمرين يختص به بعض الراسخين في العلم ويحكي على من دوسهم وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم لان عباس : ( اللهم اقمها في الدين وعلها التأويل ) .

### هل في ذكر التشابهات من حكمة

عرفنا أن التشابهات أنواع ثلاثة ، وزيدك هنا أن لهذه التشابهات المتسوعة حكمة بل حكا في ذكر الشارع إياها .

فالوع الأول - وهو ما احتأثر الله بطله - تلوح لنا فيه حكم خمس :

( أولاها ) رحمة الله بهذا الإنسان الضعيف الذي لا يطيق معرفة كل شيء وإدراك كل الحبل حين تحلى له ربه حمله دكا وخر موسى صغفا ، فكيف لو تجلى سبحانه بده وحنوق صماته لإسان ؟ ومن هذا القبيل أحق الله على الناس معرفة الساعة رحمة بهم كيلا يتكاسلوا ويقعدوا عن الاستعداد لها ، وكيلا هتك بهم الخوف والهلح لو أذكروا بالتعديب شدة قرنها منهم ولثل هذا حب الله عن العباد معرفة آجالهم ، ليعيشوا في محبة من أعمارهم ، سبحانه من إله حكيم ، رحن رحيم .

( ثانياها ) الابتلاء والاختبار : أيؤمن البشر بالمعيب فمة عبر الصادق أم لا ؟ فالذين اعتدوا بقوم آمناء وإن لم يعرفوا على التمييز . والذين في قلوبهم زيغ يكذبون به ، وهو الحق من رهم ، ويقعون ما نشأه منه ابتلاء الفتنه والخروج من الدين حنة

( ثالثها ) ما ذكره المحرر اراى بقوله : « إن القرآن يشتمل على دعوة خوص والعوام . وطائفة العوام سوى أكثر الأمور عن إدراك الخلق هي جميع من العوام في أول الأمر إنبات موحود ليس بحسم ولا متعجب ولا مشرئبه ، ص أ هذا عدم وعي بحص ؛ فيتم في تعديل وكحل لأصلح أن يحاطوا بالباطل دالة على معنى ما ياسب ما تحبوه وما توهموه ، ويكون ذلك مخلوطا بدل على الحق الصريح . فانقسم لأول وهو الذي يطلبون به في أول الأمر من باب مدته ، وانقسم الثاني وهو الذي يكشف عن الحق الصريح هو الحكيم » . وهذه الحكمة ظاهرة في منشأه لصحت .

( رابعها ) إقامة دليل على غير لإسان وجهته ، مهم اعظام اعتقاده وعذر عما ، وإقامة شاهد على قدرة الله الخارقة ، وأنه وحده هو الذي أحاط بكل شيء عما ، وأن الخلق جميعا لا يحيطون بشيء من علمه إلا بشيء . وهذا لا يحصى العبد ويخشع ، وبطامن من كبريائه ويخضع ، ويقول ما قلت الملائكة بالأمر : « سبحانك لا أعلم ما إلا ما علمت إنك أنت العالم الحكيم » .

قال بعض العارفين : ( العقل مبتلى بعتقاد أحقية نفسه ، كابتلاء البدن بأداء العبادة . كالحكيم إذا صنف كتاب أجل فيه أحيانا ، ليسكون موضوع مضموع شتم لأستاده . وكذلك يتخذ علامة يفتخر بها من يضعه على سره . وقيل : لو لم يتن العقل الذي هو أشرف البدن ، لاستمر العالم في أهله على لغو ، فذلك يستأسر إلى شغل بدل العبودية . وبشبهه هو موضع مضموع مقول بدارتها ، سقلا ، واعترافا قصورها ، ولهذا حذر الآباء برهانة « هو لدى أول علمك الكتب منه آتت بحسب كبره أم الكتب وأحرر منشأها » بقوله « وما يذكر إلا أولو الألب » تعرض برأيه . ولهذا لا إسجين . ومعنى من يذكر ويتعطف ويخلف هو ، فليس من أولى العقول .

ومن ثم قال الراشحون في العلم : « ربما لا تُرغ قلوبنا بعد إدهدبنا ، وحب لنا من  
لذلك رحمة إيت الوهاب » خصصوا التاريخ لاعتزال العلم الذي بعد أن استعادوا  
به من الزيف النفسي ( ١٥ ) .

( خامستها ) ما ذكره الفخر الرازي أيضا بقوله : ( لو كان - أي القرآن -  
كله محكما بالكلية ، لما كان مطابقا إلا لمذهب واحد . وكان يصير مبعلا لجميع  
المذاهب المخالفة له . وذلك متفر لأرباب المذاهب الأخرى عن النظر فيه ، أما وجود  
التشابه والمحكم فيه فيقطع كل ذي مذهب أن يجد فيه كل ما يؤيد مذهبه . فيضطر  
إلى النظر فيه ، وقد يقتنع بالبطل - من باطله ، إذا أمعن فيه النظر ، فيصل إلى  
الحق ) .

يضاف إلى هذه الحكم الخمس ما ذكرناه عند الكلام على فواتح السور  
ودفع الشبهات عنها بالجزء الأول من هذا الكتاب ( ص ٢١٩ - ٢٣٠ )  
بالطبعة الثانية .

( وأما النوع الثاني والثالث من التشبهات ) فنلوح لنا في ذكره واشتغال القرآن  
عليه حكم خمس أيضا .

( أولاها ) تحقيق إعجاز القرآن ، لأن كل ما استمتع فيه شيئا من الحفاء المؤدى إلى  
انقشاه ، له مدخل عظيم في بلاغته وبلوغه الطرود الأعلى في الميار . ولو أحدا في شرح  
هذا لصاق بها اللغام ، وحررنا حملة من هذا الميدان . إلى ميدان علوم البلاغة وما حوت  
من حواص وأسرار للإيجار والإطاب والمساواة ، والتقديم والتأخير ، والذكر والحذف ،  
والحقيقة والحمار ، وبحو ذلك

( ثالثها ) تيسير حفظ القرآن والمحافظة عليه ، لأن كل ما احتواه من تلك الوجوه المستمرة للجماء ، دال على معان كثيرة زائدة على ما يستمد من أصل الكلام ، ولوعبر عن هذه المعاني الثناوية الكثيرة بالفاظ ، طرغ القرآن في مجلدات واسعة صحة ، بقدر معها حطة والمحافظة عليه . « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لم يغد البحر قبل أن ينفد كلمات ربي . ولو جئنا بحمله مددا » .  
وكذلك بدرك القارى لفقة القرآن وعلو أسلوبه روعة ولذة قريحه على قراءته ، ونشجعه على احتفظاره وحفظه .

( ثالثها ) ما ذكره المعمر الرازي بقوله : ( متى كانت للتشابهات موحودة كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق . وزيادة للشقة توجب مزيد الثواب . قال تعالى : « أم حسنت أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » ) :  
( رابعها ) ما ذكره القنبر أيضاً بقوله : ( باشغال القرآن على المحكم والنشأه ، يصطر الذاظر فيه إلى تحصيل علوم كثيرة ، مثل اللغة والنحو وأصول الفقه مما يبينه على انظر والاستدلال . فكان وجود التشابه سببا في تحصيل علوم كثيرة ) .

( خامسها ) ما ذكره أيضاً بقوله : ( باشغال القرآن على المحكم والنشأه يصطراة فخر فيه إلى الاستعانة بالأدلة العقلية ، فيخلص من ظلمة التقليد . وفي ذلك تنويه شأن العقل والتعويل عليه ، ولو كان كله محكما لا احتاج إلى الدلائل العقلية ، واقتل العقل مهلا ) اهـ .

ملاحظة :

يمكن اعتبار بعض هذه المحكم في النوع الأول ، كما يمكن اعتبار بعض حكم النوع الأول ها ، لكن بشيء من التكليف . ولقد راعينا ما يجب أن تراعيه من أن بعض هذه المحكم لا تنأى إلا في أنواع خاصة من التشابهات ، ولكن المجموع يتعنى في المجموع ، وذلك كاف في صحة هذا العرض ، كما كتف أنت به ولا حظ ، وبالله تعالى التوفيق .

### متشابه الصفات

عرفنا أن التشابهات تجمع أوالا مختلفة ويزيدكها أن من بينها لو بين كثير الكلام فيهما (أولها) قوايح السور ، نحو آثم ، ق ، طس وما أشبهها ، وقد أفصحت القول فيها بالمبحث السابع من الجزء الأول من هذا الكتاب . (ثانيهما) الآيات لمشكلة الواردة في شأن الله تعالى ، وتسمى آيات الصفات ، أو متشابه الصفات ، ولأن الأيمان فيها تصنيف مفرد ، سماء : (رد المتشابهات إلى الآيات المحكمات) مثل قوله سبحانه : « الرحمن على العرش استوى » وما أشبهه . وإنما أفرد هذا النوع بالذكر وبالتأليف لأنه كثير فيه القيل والقال ، وكان فتنه ارتكس فيها كثير من القدامى والمحدثين .

### الرأى الرشيد في متشابه الصفات

علماؤنا أجزل الله مثوبتهم - قد اتفقوا على ثلاثة أمور تتعلق بهذه التشابهات ، ثم اختلفوا فيما وراءها .

( فأول ما اتفقوا عليه ) صرفها من ظواهرها المستحيلة ، واعتقاد أن هذه الظواهر غير مرادة للشارع قطعا . كيف وهذه الظواهر باطلة بالأدلة القاطعة . وبما هو معروف عن الشارع نفسه في محكماته ؟

( ثانيه ) أنه إذا توقف الدافع عن الإسلام على التأويل لهذه التشابهات ، وجب تأويلها بما يدفع شبهات المشككين ، ويرد طعن الطاعنين

( ثالثه ) أن المنشأه إن كان له تأويل واحد يعهم منه فهم قريباً ، وحب القول به إجماعاً وذلك كقوله سبحانه « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْمًا كُتِمَ » فإن الكيفية بالذات مع الخلق مستحيلة قطعا . وليس لها بعد ذلك إلا تأويل واحد ، هو الكيفية معهم بالإحاطة علما وسمما ونصرا وقدرة وإرادة

وأما اختلاف العلماء فيما وراء ذلك فقد وقع على ثلاثة مذاهب :

( المذهب الأول ) مذهب السلف ، ويسمى مذهب القوضه ، ( بكسر الواو ونشد يده ) وهو يعو بص معاني هذه للتشابهات إلى الله وحده بعد تنزيهه تعالى عن ظواهرها المستحيلة .  
و يستدون على مذهبهم هذا بدليلين .

أحدهما عقلى وهو أن تعيين المراد من هذه التشابهات إما يجرى على قوايين اللغة واستعمالات العرب ، وهى لا تنقيد إلا الظن ، مع أن صفات الله من الصفات التى لا يكتفى فيها النظر ، بل لابد فيها من اليقين ولا سبيل إليه ، فلنتوقف وانشكل التعيين إلى لعين الحير .

والدليل الثانى عقلى ، يستدون فيه على عدة أمور : منها حديث عائشة السابق ، وبه « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه ؛ فأولئك الذين سبى الله ، فاحذرهم »

ومنها ما رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى مالك الأشعرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « لا أحاب على أمتى إلا ثلاث حلال : أن يكثر لهم المال فيتعاسدوا فيقتلوا ، وأن فتح لهم انكتب فيأخذ المؤمن بيمينى تأويله « وما يعلم تأويله إلا الله » الحديث .

ومنها ما أخرجه ابن مردويه عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن القرآن لم ينزل ليكذب بضمه بضا . فاعرفم منه فاعملوا ، وما تشابه فأمسوا به »

ومنها ما أخرجه الدارمى « عن سليمان بن يسار أن رجلا قال له ابن صبيح <sup>(١)</sup> قدم المذبة ففعل يسأل عن محشاه القرآن ، فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين الخمل ، فقال له :

(١) كذلك جاء اسم ابن صبيح فى كتاب الإتيان للسيوطى ، بلنظ ابن ، وبالعين

المصحة فى صبيح مع صورة التصغير .

من أمّ؟ فقال: أما عند الله من صبيح . فأخذ عمر عرجوا فصر به حتى دنى رأسه وحاء في رواية أخرى : فصر به حتى ترك ظهره ذرة ، ثم تركه حتى رأى ، ثم عد ، ثم تركه حتى رأى ، فدعاه ليعود ، فقال : إن كنت تريد قتلى فأقتل قتيلا حيلة فأدله إلى أرضه ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري : « لا يحالسه أحد من المسلمين » اهـ والذرة محتاجات ثلاث هي قرحة الدابة في أصل الوصع القوي ، والمراد بها أنه صير في ظهره من الصرب حرجا داميا كأنه قرحة في دابة ، ورمى الله عن عمر ، فإن هذا الأثر يدل على أن ابن صبيح فتح أو حاول أن يفتح باب فتنة بنته مع مشاهير القرآن بكثرة الكلام فيها ويسأل الناس عنها .

ومنها ما ورد من أن الإمام مالكاً رضى الله عنه سئل عن الاستواء في قوله سبحانه : « ارجحن على العرش استوى » فقال : « الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والـؤال عن هذا بدعة ، وأطاك رجل سوء أخرجوه عني » . يريد - رحمة الله عليه - أن الاستواء معلوم الظاهر بحسب ما تدل عليه الأوضاع اللغوية ، ولكن هذا الظاهر غير مراد قطعاً ، لأنه يستلزم انقشبه الحال على الله بالدليل القاطع والكيف مجهول أي تعيين مراد الشارع مجهول لما لا دليل عندنا عليه ، ولا سلطان لنا به ، والـؤال عنه بدعة أي الاستفسار عن تعيين هذا المراد على اعتقاد أنه مما شرعه الله ، بدعة : لأنه طريقة في الدين محترمة مخالفة لما أرشدنا إليه الشارع من وجوب تقديم المحكمات وعدم اتناع المشاهير وما خراف المتدع

— وذكرى رابته شيخ الإسلام المالكي نقوس ، وهو السيد محمد الطاهر بن عاشور ، بصوب في بحث له أن اسمه « صبيح بن شريك أو ابن عمل النخعي » من غير كلام ، ونصاد مهملته مفتوحة ، وباء مكسورة ، وعين معجمة . ثم ذكر أنه هذا التصويب أن كثير من الناس يعرفونه فيقولون « صبيح نصاد معجمة ، وعين مهملته ، والصيغة القصيرة ثم قل : ويقولون : أبو صبيح .

إلا أن يطرد ويبعد عن الناس ، خوف أن يقتلهم ، لأنه رجل سوء . وذلك سر قوله « وأهلك رجل سوء . أخرجوه عني » ١ هـ .

قال ابن الصلاح « على هذه الطريقة مضي صدر الأمة وساداتها وإيادها احتار أئمة العقلاء وقادتها ، وإليها دها أئمة الحديث وأعلامه . ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدق عنها وبأبائها » ١ هـ .

( المذهب الثاني ) مذهب الخلف ، ويسمى مذهب المؤولة بتشديد الواو وكسرهما وهم فريقان : فريق يؤولها بصفات سمعية غير معلومة على التعمين ثابتة له تعالى زيادة على صفاته المعلومة لنا بالتعمين ، وينسب هذا إلى أبي الحسن الأشعري ، وفريق يؤولها بصفات أو عيان ندمها على التعمين ، فيعمل اللفظ الذي استحال ظاهره من هذه التشابهات على معنى يسوغ إلفه ، ويلحق بالله عقلا وشرعا ، وينسب هذا الرأي إلى ابن برهان وجماعة من المتأخرين . قال السيوطي : وكان إمام الحرمين يذهب إليه ثم رجع عنه فقال في الرسالة النظامية : « الذي ترتضيه ديننا ، ومدين إله به عقدا ، اتباع سلف الأمة ، فإنهم درجوا على ترك العرض لها أيها » ١ هـ .

أما جملة أصحاب هذا المذهب فيما ذهبوا إليه فهو أن المطلوب صرف اللفظ من مقام الإحمال الذي يوجب الخيرة سبب ترك اللفظ لامنهم له ، ومادام في الإمكان حمل كلام الشارع على معنى سليم ، فالنظر قاض بوجوبه ، انتفعا بما ورد من الحكيم العظيم ، وتربها له عن أن يجرى مجرى المحذور المقيم .

( المذهب الثالث ) مذهب المتوسطين . وقد نقل السيوطي هذا المذهب فقال : وتوسط من دقيق العيد فقال « إذا كان التأويل قريبا من لسان العرب لم يسكر ، أو بعيدا توخضا عنه وأما معناه على الوجه الذي أريد به مع التعرید وما كان معناه من هذه الألفاظ



ظاهر مفهومنا من تحاطب العرب قلنا به من غير توقف ، كما في قوله تعالى : « يا حسرتنا على ما فرغلت في جنب الله » فمحمله على حق الله وما يجب له « ا هـ » .

- تطبيق وتمثيل :

وليطبق هذه المذاهب على قوله سبحانه : « الرحمن على العرش استوى » ، فنقول : يتفق الجميع من سلف وحلف على أن ظاهر الاستواء على العرش ، وهو الخلو من عليه مع التمكن والتجبر ، مستحيل لأن الأدلة القاطعة تنزه الله عن أن يشبه خلقه أو يحتاج إلى شيء منه ، سواء أكان مكانا يحل فيه أم غيره . وكذلك اعق السلف والخلف على أن هذا الظاهر غير مراد لله قطعا ، لأنه تعالى نهي عن نفسه المائلة لخلقه ، وأثبت لنفسه المعنى عنهم ، فقال : « لنس كنهه شيء » وقال « وهو المعنى الحميد » . فلو أراد هذا الظاهر لكان متناقضا

ثم احباب السلف والخلف بعد ما تقدم ، ورأى السليمنون أن يعوضوا تبيين معنى الاستواء إلى الله ، هو أعلم بما نسب إليه إلى نفسه وأعلم بما يليق به ، ولا دليل عندهم على هذا التبيين . ورأى الخلف أن يؤولوا ، لأنه بعد كل المعدان يحاطب الله عباده بما لا يفهمون ، ومعادام ميدان الالهة مقسما للتأويل وحب التأويل . بيد أنهم اختلفوا في هذا التأويل فرقتين ؛ فطائفة الأشاعرة يؤولون من غير تعيين ، ويقولون : إن المراد من الآية إثبات أنه تعالى متصف بصفة سمعية لا علمها على التعيين ، تسمى صفة الاستواء . وطائفة المتأخرين يعينون فيقولون : إن المراد بالاستواء هنا هو الاستيلاء والتمر ، من غير معاناة ولا تكاف ؛ لأن الالهة تنسج لهذا المعنى ، ومنه قول الشاعر العربي :

قد استوى شر على العراق من عسير صيف ودم مهراق

أي استوى وقهر ، أو دبر وحكم ؛ فكذلك يكون معنى النص الكريم : الرحمن

استقوى على عرش العالم، وحكم العالم بقدرته، ودرره عششته وإن دقيق العيد يقول بهذا التأويل إن رآه قريباً، ويتوقف إن رآه بعيداً.

وقل مثل ذلك في نحو « وبقى وجه ربك - ولتضع على عيني - يد الله فوق أيديهم - والسموات مطويات بيمينه - يحاؤون ربهم من فوقهم - وجاء ربك - وعنده معارج العيب » فالمدفوعون في معانيها ، وإصام صدقاً بعد تزييه الله عن ظواهرها المستحيلة . والأشعره يسروها بصغات مضمرة رائدة على انصغات التي نعلمها ، ولكنهم يفوضون الأمر في تعيين هذه الصغات إلى الله . فهم مؤولون من وجه معوضون من وجه . والمتأخرون يسرون الوجه بالذات ولعل ( ولتضع على عيني ) بترية موسى لما حوط بعناية الله وجهه ورعايته ، ولعل اليد بالقدرة ، ولفظ اليمين بالقوة ، والله وقية ناعلو لمعوى دون الحسى ، والخى في قوله ( وجاء ربك ) محى أمره والمعدية في قوله ( وعنده معارج العيب ) بالإحاطة والتمكن . أو يمثل ذلك في الجميع .

#### إرشاد وتحذير

لقد أمرت بعض الناس في هذا العصر ، لخاصوا في مشاهد الصغات بغير حق ، وأنوا في حديثهم عما وتعليقهم عليها بما لم يأت به الله ، وهم فيها كذبت عامصة تختمل التشبيه والتزييه ، وتحتمل السكر والإيمان ، حتى تآتت هذه السمكيات بعضها من انقذات ، ومن المؤسف أنهم يواحدون العامة وأشباههم بهذا . ومن الخسر أنهم يسبون ما يقولون إلى سلعنا الصالح ، ويحولون إلى لباس أنهم سعيون ، من ذلك قولهم . إن الله تعالى بشار إليه بالإشارة الحسية ؛ وله من الجهات الست : جهة الفوق . ويقولون . إنه استوى على عرشه بذاته استواء حقيقياً ؛ بمعنى أنه استقر فوقه استقراراً حقيقياً ، غير أنهم يودون فيه ولون : ليس كما استقرارنا وليس على ما نعرف ، وهكذا يتناولون أمثال هذه الآية وليس لهم مسدد فيما يعلم إلا القشت ما طواهر . وقد تجلى لك مذهب السلف والخلف ، فلا تظيل بإعاده .

ولقد علمت أن محل التشابهات في الصفات على غلواهرها مع القول بأنها باقية على حقيقةها، ليس رأياً لأحد من المسلمين، وإنما هو رأي لبعض أصحاب الأديان الأخرى كاليهود والنصارى، وأهل النحل للمذاهب كالشبهة والحجسة. أما نحن — معاصر المسلمين — فالعمدة عندنا في أمور العقائد هي الأدلة القطعية، التي توافق على أنه تعالى ليس جسماً ولا متجيزاً ولا متجزئاً ولا متراكباً، ولا محتاجاً لأحد، ولا إلى مكان ولا إلى زمان، ولا نحو ذلك؛ وأما جاء القرآن بهذا في محكماته إذ يقول: «ليس كنهه شيء» ويقول: «قل هو أحد» الله الصمد • لم يلد ولم يولد • ولم يكن له كفواً أحد • ويقول: «إن تكفروا فإن الله غنى عنكم، ولا يرضى لعباده الكفر. وإن تشكروا يرضه لكم» ويقول: «يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله». والله هو الغنى الحميد • وغير هذا كثير في الكتاب والسنة، فكل ما جاء مخالفاً بظاهره لتلك القطعيات والحججيات، فهو من التشابهات التي لا يجوز اتباعها، كما تبين لك فيما سلف.

ثم إن هؤلاء المدسعين في السلف متناقضون، لأنهم يثبتون تلك التشابهات على حقائقها، ولا ريب أن حقائقها تنتلزم الحدود وأعراض الحدود كالجسمية والتجزؤ والحركة والانتقال، لكنهم بعد أن يثبتوا تلك التشابهات على حقائقها يثبتون هذه الواوالم، مع أن القول بثبوت الملزومات ونفي لوازمها تناقض لا يرضاه لنفسه ما قبل فصلنا من طالب أو عالم. فقولهم في مسألة الاستواء الآتية: إن الاستواء باق على حقيقةه بنفي أنه الجلوس المعروف المنتلزم للجسمية والتجزؤ، وقولهم بعد ذلك: ليس هذا الاستواء على ما يعرف، بنفي أنه ليس الجلوس المعروف المنتلزم للجسمية والتجزؤ. فكأنهم يقولون: إنه مستور غير مستور، ومستقر فوق العرش غير مستقر، أو متجزئ غير متجزئ وجسم غير جسم، أو أن الاستواء على العرش ليس هو الاستواء على العرش. والاستقرار فوقه ليس هو الاستقرار فوقه، إلى غير ذلك من الإسفاف والتهافت! فإن أرادوا بقولهم الاستواء على حقيقةه: أنه على حقيقةه التي يعلمها الله ولا نعلمها نحن، فقد اختلفنا، لكن يجي أن نصير هذا صوم، لا يجوز أن يصدر

من مؤمن ، خصوصاً في مقام التحليم والإرشاد . وفي موقف النقاش والحجاج ، لأن القول بأن اللفظ حقيقة أو محاز . لا ينظر فيه إلى علم الله وما هو عنده ، ولكن ينظر فيه إلى المعنى الذي وضع له اللفظ في عرف القلة . والاستواء في القلة المربية يدل على ما هو مستعمل على الله في ظاهره . فلا بد إذن من صرفه عن هذا الظاهر . واللفظ إذا صرف عما وضع له واستعمل في غير ما وضع له خرج عن الحقيقة إلى المجاز لا محالة ما دامت هناك قرينة مائة من إرادة المعنى الأصل . . . ثم إن كلامهم بهذه الصورة فيه تلبس على العامة وفتنة لهم . فكيف يواحدونهم به ويحولونهم عليه ؟ وفي ذلك ما فيه من الإضلال والتزييق وحدة الأمة الأمر الذي سببنا القرآن عنه . والذي جعل امر بفعل ما يفعله أو ابن صبيح ، وجعل ما سكا يقول ما يقول ويفعل ما يفعله بالذي سأله عن الاستواء . وقد مر بك هذا وذلك .

لو أنصف هؤلاء اسكتوا عن الآيات والأخبار الشاذة ، واكتفوا بقرينة الله تعالى عما توهمه ظواهرها من الحدوث ولو امره ؛ ثم فرضوا الأمر في تعيين معانيها إلى الله وحده وبذلك يكونون سلفين حقاً لكنها شبهات عرضت لهم في هذا اللقاع ، فشوشت حالهم ، وبلبلت أفكارهم فلنعرضها عليك مع ما أشبهها والله يتولى عداها وهداها ، ويجه منا جميعاً على ما يجهه ويرضاه آمين .

### دفع الشبهات الواردة في هذا المقام

#### الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون : إن القول بأن الله لاجهة له ، وأنه ليس فوقنا ولا تحتنا ولا يميننا ولا شمالاً إلى غير ذلك ، يستلزم أن الله غير موجود ، أو هو قول بأن الله غير موجود ، فإن التجرد من الإضاف هذه تلقا بطلان جلة أمر لا يؤسم به إلا اللعوم ومن لم يقشرف بشرف الوجود ويدفع هذه الشبهة بأمور :

( أولا ) أن هذا قياس للعائب على الشاهد ، وقياس الفائت على الشاهد فاسد . ذلك أن الله تعالى لم يشبه خلقه حتى يكون حكمه كحكمهم في وجوب أن يكون له جهة من الجهات . لست مادام موجودا وكيف يقاس الخرد عن المادة بما هو مادي ؟ ثم كيف يستوى الخالق وخلقه في حريان أحكام المخلوق على خالقه ؟ إن المادي هو الذي يجب أن يتصف بشيء من هذه الصفات ، وأن تكون له جهة من تلك الجهات . أما غير المادي فترفع عنه هذه الصفات كلها ، ولا يمكن أن تكون له أية جهة من هذه الجهات جميعها . وتظهر ذلك أن الإنسان لابد أن يكون له أحد الوصفين ، فإما حائل وإما عام . أما الحاجر فلا يتصف بواحد منها ألبتة ، فلا يقال : إنه حائل ولا إنه عالم ، بل العلم والجهل مرتفعان عنه ، بل هما بمنزلة عليه لا محالة ، لأن طبيعته تأتي قابلية لكل منهما . وهكذا تنفي الصفات كلها بانقضاء قابلية الخلق لها ، أي كانت هذه الصفات ، وأيما كان هذا الخلق الذي ليس قابلا لها . فيمتنع مثلا أن توصف الدار بأنها مسمية أو صماء ، وأن توصف الأرض بأنها متحركة أو حرساء ، وأن توصف السماء بأنها متزوجة أو أيم ، وهلم جرا .

( ثانيا ) يقول هؤلاء : أين كان الله قبل أن يخلق المرش والفرش والسماء والأرض ؟ وقبل أن يخلق الزمان والمكان وقبل أن تكون هناك جهات سبب أن قالوا : لم يكن له جهة ولا مكان ، نقول : قد اعترفتم بما نقول نحن به ، وهو الآن على ما عليه كان ، لا جهة له ولا مكان . وإن زعموا أن العالم قديم قدم الله ، فقد ندواوا من داء بداء ، واستعدوا من الرصاص بالنار ، ووجب أن تنتقل بهم إلى إثبات حدوث العالم ، والله هو ولي الهداية والتوفيق .

( ثالث ) يقول هؤلاء : إذا كنتم تأخذون نظواهر المصومس على حقيقتهم ، كما تعلمون بمثل قوله تعالى : « أَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ السَّمَاءِ » مع قوله : « وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ » ؟ أم تعلمون إنه في السماء حقيقة ، أم في الأرض حقيقة ، أم فيهما معا حقيقة ؟ وإذا كان في الأرض وحدها حقيقة فكيف يكون له جهة فوق ؟ وإذا كان فيهما معا حقيقة فلماذا يقال

له حبة فوق ولا مثال له حبة تحت ؟ ولماذا يشار إليه فوق ولا يشار إليه تحت ؟ ثم ألا يعلمون أن الخبثات أمور نسبية ، فما هو فوق مائبة إليسا ، يكون تحتها مائسة إلى غير ذلك ؟  
فأين سمعوا ؟

( رابعاً ) يقول هؤلاء : ماذا تقولون في قوله تعالى « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ سُدُورِهِمْ » بإيراد اليد ، مع قوله « لَّا حِصَّةٌ يَدَيَّ » فتفتيتها ، ومع قوله : « وَالسَّمَاءُ بِيَمِينِهِ ، بَأَيْدٍ » مجمعها . وإذا كنتم تطعون النصوص على ظواهرها حقيقة ، فأخبرونا : أله يد واحدة سواء على الآله الأولى ؟ أم له يديان امتتان بناء على الآية الثانية ؟ أما له أيد أكثر من اثنتين بناء على الآية الثالثة ؟

( خامساً ) يقول هؤلاء : قد ورد في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « يزل رسا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من مدعوني فستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأعفه له ؟ » رواه البخاري ومسلم وغيرهما . وكيف أحدون نظاهر هذا الخبر ، مع أن الليل مختلف في البلاد باختلاف المشارق والمغرب ؟ وإذا كان يزل لأهل كل أمة نزولا حقيقيا في ثلث ليلهم الأخير ، متى يستوى على عرشه حقيقة كما تقولون ؟ ومتى يكون في السماء حقيقة كما تقولون ؟ مع أن الأرض لأنحو من الليل في وقت من الأوقات ، ولا في ساعة من الساعات كما هو ثابت مسطور ، لا يدرى فيه إلا جهول ما فون !

( سادساً ) يقول هؤلاء ما قاله صحة الإسلام العراقي ، ونصه : « يقول المفسر ظواهر الألفاظ : إن كان روله من السماء الدنيا ليسمع مداءه فما أسمعنا نداءه فأى فائدة في نزوله ؟ ولقد كان يمكنه أن ينادينا كذلك وهو على العرش أو على السماء العليا . فلا بد أن يكون ظهر الرفع غير مراد ، وأن المراد به شيء آخر غير ظاهره . وهل هذا إلا مثل من يردد وهو المشرق يسمع شخص في المغرب ، فتقدم إلى المغرب خطوات معدودة ، وأحد حاديه وهو يسمع أنه لا يسمع مداءه ؛ فيكون نقله الأقدام عملا باطلا ، وسمعه نحو العرب عن صر ولا فائدة فيه . وكيف يستقر مثل هذا في قلب عاقل ؟ » اهـ .

### الشبهة الثانية ودفعها :

قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله في حاشيته على العقائد العصبية: «إن قلت : إن كلام الله وكلام النبي ﷺ مؤلف من الألفاظ العربية ، ومدلولاتها معلومة لدى أهل اللغة ، فيجب الأحد مدلول اللفظ كائنا ما كان .

قلت : حينئذ لا يكون ناحيا إلا طائفة المحسنة الظاهريون القائلون بوحوب الأحد لجميع النصوص وترك طريق الاستدلال رأسا مع أنه لا يحى ما فى آراء هذه الطائفة من الضلال والإصلال، مع سلوكهم طريقا ليس بعيد اليقين بوجه، فإن للتحاطبات مناسبات ترد بمطابقتها فلا سبيل إلا الاستدلال العقلى وتأويل ما يفيد ظاهره نقصا إلى ما يفيد الكمال . وإذا صح التأويل للبرهان فى شيء صح فى بقية الأشياء ، حيث لا فرق بين برهان وبرهان ، ولا لفظ ولفظ .

وقال فى قوله تعالى : « ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات » إن الوحي من الله لدى صلى الله عليه وسلم تدرىلا وإنزالا وزولا، لبيان علو مرتبة الربوبية لا أن هناك رولا حسيا من مكان مرتفع إلى مكان منخفض. ومن العرب أنهم يقولون فى الرد على هذا : إن علو الله على خلقه، حقيقة أثبتتها لنفسه فى كتابه ، لا حاجة لتأويله بعلو مرتبة الربوبية ؟ ولما تشعروا إذا لم يؤوله بعلو مرتبة الربوبية ، فمادام يريد منه ؟ وهل نقي بعد ذلك شيء غير العلو الحسى الذى يستلزم الجهة والتعير ؟ ولا يمكن نفي ذلك اللزم عنه متى أردنا العلو الحسى، فإن نفي التعير عن العلو الحسى غير مقبول، ولا معنى للاستلزام إلا هذا . أمامه هينون القوارم . ولا أدى كيف نبنى القوارم مع فرضها لقوارم ؟ هذا حلف . ولكن القول ليسوا أهل مطلق والمتعير لكلامهم يحذف فيه العبارات الصريحة فى إثبات الجهة لله تعالى . وقد كثر العراق وغيره مثبت الجهة لله تعالى، وهو واضح، لأن معتقد الجهة لا يمكنه

إلا أن بمنزلة التمجيد والخساسة ولا يتأتى غير هذا ، فإن سمعت منهم سوى ذلك فهو قول متناقض ، وكلامهم لا معنى له « ١٥ » .

### الشبهة الثالثة ودفعها :

نقل السيوطي عن بعضهم أنه قال : « إن قيل : ما الحكمة في إنزال المنشأه عن أراد لعباده البيان والهدى . ( قلنا ) إن كان ( أى المنشأه ) مما يمكن علمه فله فوائد : منها الحث للعلماء على النظر الموحب للعلم بنوامض والبحث عن دقائقه ، فإن استندعاه المهم لمعرفة ذلك من أعظم لقرب . ومنها ظهور القعاصل وتفاوت الدرجات ، إذ لو كان كله محكما لا يحتاج إلى تأويل ونظر لاستوت مدارل الخلق ، ولم يظهر فصل العالم على غيره . وإن كان ( أى المنشأه ) مما لا يمكن علمه ( أى بأن استأثر الله به ) فله فوائد : منها ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقف فيه والتفويض والتسليم ، والتعبد بالاشتغال به من جهة القلاوة كالفسوخ وإن لم يحز العمل بما فيه ، وإقامة الحجة عليهم ، لأنه لا نزل بأسانهم ولغتهم ؛ وعجزوا عن الوقوف على معناه مع بلاغتهم وأقناتهم « دل على أنه نزل من عند الله ؛ وأنه هو الذى أهرزم من الوقوف « ١٥ » .

وستبقى نظرك هنا إلى ما استنفذه في الحكم الماضية ، ثم إلى ما ذكره ابن اللبانة في مقدمة كتابه : ( رد الآيات المنشأهات إلى الآيات المحكمات ) إذ قال ما خلاصته . « ليس في الوجود فاعل إلا الله ، وأعمال العباد منسوبة الوجود إليه تعالى بلا شريك ولا معين فهو في الحقيقة فعله ، وله بها عليهم الحجة « لا يسأل عما يعمل وهم يألون « . ومن المعلوم أن أعمال العباد لا تد فيها من توسط الخوارح مع أنها منسوبة إليه تعالى وبذلك يعلم أن لصفاته تعالى في تجلياتها مظهرين : مظهر عبادى . منسوب لعباده ، وهو انصود والجوارح الجثمانية . ومظهر حقيقى منسوب إليه ، وقد أحرى عليه اسم . المظاهر المبادية



«نسوة لمبادءه ، على سبيل التقريب لأفهامهم والتأيس لقلوبهم . ولقد نهى في كتابه تعالى على القسمين وأنه معزى عن الجوارح في الحالين فنهى على الأول بقوله : « فأنتم بمنهم الله يأبديكم » فهذا يفيد أن كل ما يظهر على أيدي العباد فهو منسوب إليه تعالى وبه على الثاني بقوله فيما أخبر عنه نبيه ﷺ في صحيح مسلم : « ولا يزال عدى يقترب إلى بالموافق حتى أحبه : فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها . وقد حقيق الله ذلك لنبيه بقوله : « إن الذين يهايمونك إنما يهايمون الله » وبقوله : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وبهذا يفهم ما جاء من الجوارح منسوباً إليه تعالى ، فلا يفهم من نسبتها إليه تشبيه ولا تجسيم . ولكن الغرض من ذلك التقريب للأفهام ، والتأيس للقلوب . والواجب سلوكه إنما هو رد التشابه إلى الحكم على القواعد العمومية ، وعلى مواضع العرب وعلى ما كان يفهمه الصعابة والتأبون من الكتاب والسنة « اهـ ما أردنا نقله .

#### الشبهة الرابعة ودفعها :

نقل السيوطي أيضاً عن الإمام فخر الدين الرازى أنه قال : « من للمعدة من طعن في القرآن لأجل اشتباهه على التشابهات وقال : إنكم تقولون إن تكاليف الخلق مرتبطة بهذا القرآن إلى قيام الساعة ، ثم إننا نراه بحيث يمتك به صاحب كل مذهب على مذهبه ، فالجبرى يمتك بآيات الجبر ، كقوله تعالى « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً » ، والنفردى يقول : هذا مذهب الكفار بدليل أنه تعالى حكى عنهم ذلك على مرض القدم في قوله : « وقالوا قلوبنا في أكنة مما ندعونا إليه ، وفي آذاننا وقراً » وفي موضع آخر « وقالوا قلوبنا غلف » ومتكررة الرؤية متمك بقوله تعالى « لا تدركه الأبصار »<sup>(١)</sup> ومثبت الجهة متمك بقوله تعالى : « يخافون ربهم من فوقهم » « الرحمن

(١) يظهر أن هنا سقطاً، لأنه هكذا : ومثبت الرؤية متمك بقوله تعالى : « وحوه

يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة » .

على العرش استوى ،، والثاني متسك بقوه تعالى : ( يس كئله شيء ) ثم يسمى كل واحد الآيات لموافقة مذهبه بحكمة ، والآيات الخمسة متشابهة ، وإعما ل في ترجيح بعضها على بعض إلى ترجيحها حماية وحوه ضعيفة فكيف يليق بالحكيم أن يجعل الكتاب الذي هو للرجوع إليه في كل الدين إلى يوم القيامة هكذا ؟ .

والجواب أن العلماء ذكروا الوقوع المتشابه فيه فوائد : منها أنه يوجب مزيد المشقة في الوصول إلى المراد ، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب إلى آخر ما نقلناه عنه فيما سبق من بيان حكم الله وأسراره في ذكر التشابهات فاجعلها على بال مدك في رفع هذه الشبهة ، وأضف إليها ما نقلناه آنفا عن ابن الهبان ، وما بسطناه في دفع الشبهات السالفة ، وارجع إلى ما كتبته في مثل هذا المقام بالمبحث السابع من هذا الكتاب .

### الشبهة الخامسة بدفعها .

قال السيوطي في كتابه الإتيان : أورد بعضهم سؤالا وهو أنه هل للمحكم مزية على المتشابه أو لا ؟ فإن قلتم بالثاني فهو خلاف الإجماع وإلا فقد تضمنتم أصحكم في أن جميع كلامه سبحانه سواء ، وإنه منزل بالحكمة .

وأجاب أبو عبد الله أنكر باذى بأن المحكم كالنشاء من وجه ويخالفه من وجه فويفتقدان في أن الاستدلال بهما لا يمكن إلا بعد معرفة حكمة الواضع وأنه لا يختار التبيين ، ويحتمل أن المحكم بوصف اللزوم لا يمتثل إلا الواحه الواحد فمن سمعه أمكه أن يستدل به في الحال ، وانتشاه يحتاج إلى فكرة ونظر ليحمله على الوجه مطابق ولأن المحكم أصل والعلم بالأصل أسبق . ولأن المحكم يعلم مبعصلا والمتشابه لا يعلم إلا عملا هـ

أقول : ويمكن دفع هذه الشبهة بوجه أقرب ، وهو أن المحكم له مرتبة على التشابه ، لأنه نص القرآن هو أم الكتاب على ما سلف بيانه والاعتراض بأن هذا نص الأصل المجمع عليه وهو أن جميع كلامه سبحانه سواء وإنه من الحكمة الاعتراض من هذا ساقط من أسسه لأن المساواة بين كلام الله تعالى في حصائص القرآن العامة ، كما كونه مبررا على النبي ﷺ بالحق والحكمة وكونه متبداً بتلاوته ومنجدياً بقهر سورة منه ، وهكذا في المصاحف ومنقولاً بتواتر ومحرماً حمله ومسه على الجنب ومحرماً ذلك . ومساواة في هذه الخصائص لا تنافي ذلك الامتياز الذي امتازت به الحكمة ، وكيف يتصور التفاضل على حين أن كلام المحكم والتشابه له حكمه وله مراتب ، فربما المحكم أنه أم الكتاب إليه ترد التشابهات ، ومرتبة التشابه أنه محك الاختبار والابتلاء ، ويحل التسابق والاحتداد إلى غير ذلك من العوائد التي عرفتها . ثم كيف يتصور هذا التفاضل والقرآن كله مختلف باختلاف موضوعاته وأحواله ، فمنه عقائد وأحكام ، وأوامر ونواه ، وعبادات وقصص ونبؤات ، ووعد ووعيد ، ونسخ ومنسوخ ، وهمى يستند ذكره ، وثنا طوبى لا يرب أن كل نوع من هذه الأنواع له مرتبة أو خاصية التي تميزها بالآخر ، وإن اشترك الجميع بذلك في أنها كلها أحراز للقرآن ، ومساوية في القرآنية وخصائصها العامة وحلاصة هذا الجواب أن امتياز المحكم على التشابه في أمور ، ومساوئته في أمور أخرى ، فلا تنافس ولا تعارض ، كما أن كل عضو من أعضاء جسم الإنسان له مرتبة وخصائصه التي صار بها عضواً ، والكل بمد ذلك يساوى الآخر في أنه جزء للإنسان في خصائصه العامة من حسن وحياء .

الشبهة السادسة ودفعها :

يقولون : إن الفاضل في موقف الساق والخلف من التشابه ، يحرم أنفسهم جميعاً ، ويقولون : لأنهم اشتركوا في صرف أنه طمشتهم عن طواهرها وصرفها عن طواهرها ، وبطلانها

لا محالة. وإذا كانوا جميعاً مؤولين فقد وقعوا جميعاً فيما نهى الله عنه، وهو اتباع المشابهات بالتأويل، إذ وصف سبحانه هؤلاء بأن في قلوبهم ريباً، فقال في الآية السابقة: «فأما الذين في قلوبهم ريبٌ فيتمتعون بما تشاءه مصرةً بغفلةٍ وانصتوا تأويله» .

وندفع هذه الشبهة (أولاً) بأن نقول تكون السلف وانصت مجمعين على تأويل المشابهة، قول له وجه من الصحة، لكن بحسب المذهب الأقوى أو ما يقرب من المعنى الأقوى. أما بحسب الاصطلاح السائد فلا؛ لأن السلف وإن وافقوا اختلف في التأويل، فقد خالفوه في تعيين المعنى المراد باللفظ بعد صرفه عن ظاهره، وذهبوا إلى التفويض الحض بالنسبة إلى هذا التعمين. أما اختلف فركبوا متن التأويل إلى هذا التعمين كما سبق تفصيله.

(ثانياً) أن القول بأن السلف اختلف جميعاً وقعوا به صرفهم السابق فيما نهى الله عنه، قول خاطيء، واستدلالهم عليه بالآية المذكورة استدلال فاسد، لأن النهى فيها إنما هو عن التأويل الآثم الناشئ عن الريغ واتباع الهوى بقرينة قوله سبحانه (وأما الذين في قلوبهم ريبٌ) أي ميل عن الاستقامة والخلة إلى الهوى والشهوة. أما التأويل القائم على تحكيم البراهين القاطنة واتباع الهداية الراشدة، فليس من هذا القبيل الذي ظاهراً الله وحرمه. وكيف ينهان عنه وقد أمرنا به ضمناً بإيجاب رد المشابهات إلى المحكمات، إذ جعل هذه المحكمات هي أم الكتاب، على ما سبق بيانه؟ ثم كيف يكون مثل هذا التأويل الراشد محرماً وقد دعا به الرسول ﷺ لأن «ما من فقال في الحديث المشهور: (الأم قطة على الدين وعلمه التأويل)؟ .

ونتلخص من هذا أن الله أرشدنا في الآية إلى نوع من التأويل وهو ما يكون به رد المشابهات إلى المحكمات ثم سها عن نوع آخر منه وهو ما كان ناشئاً عن الهوى والشهوة، لأعلى البرهان والخلة، قصداً إلى الضلال والغفلة وهدوا ما يحتمل أن يصرمان بعيدان، بينهما رزخ لا يبعين

وإذن فمن لم يصرف لفظ التشابه عن ظاهره اللوم للتشبيه أو الخجل فقد ضل ،  
كالظاهرية والمشيبة . ومن فرس لفظ التشابه تقييداً سيفاعن المحبة والبرهان قائماً على الربح  
والهتان فقد ضل أيضاً كالباطنية والإسماعيلية ، وكل هؤلاء يقال فيهم إنهم معتمدون على التشابه  
ابتغاء الفتنة . أما من يؤول للتشابه أى يصرفه عن ظاهره بالحجة القاطعة ، لا طبعاً للفتنة ،  
ولكن معاً لها ، وتثبيتاً للناس على المعروف من دينهم ، ورداً لهم إلى محكمات الكتاب القائمة  
وأعلامه الواضحة ، فأولئك هم المادون للهديون حقاً . وعلى ذلك درج سبع الأمة وحلها  
وأئمتها وعلمائها . روى عن البخارى عن سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس : « إني أحد  
في القرآن أشياء تختلف على . قال : ما هو ؟ قال : « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا أنساء لول »  
وقال : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » وقال « ولا يكتمون الله حديثه » وقال « قالوا  
والله ربنا ما كنا مشركين » قال ابن عباس : « فلا أنساب بينهم في السعة الأولى ولا  
يتساءلون » ثم في التفعة الثانية أقبل بعضهم على بعض يتساءلون . . فأما قوله « والله ربنا  
ما كنا مشركين » فإن الله يفخر لأهل الإخلاص ذنوبهم ، فيقول للمشركون : نه لو أنشول  
ما كنا مشركين ، فيختم الله على أفواههم فتتعلق جوارحهم بأعمالهم ، فعند ذلك لا  
يكتمون الله حديثاً » إلى آخر الحديث . . نأل الله أن يسلنا ، وأن يهدينا سواء الصراط ،  
وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وصحبه وسلم ، آمين .

## المبحث السادس عشر في أسلوب القرآن الكريم

### الأسلوب في اللغة :

يطلق الأسلوب في لغة العرب إطلاقاً محظنة : فيقال للطريق بين الأشجار ، والسن ،  
واللوح ، ، والمذهب ، ، والشموخ بالأف ، ولعنق الأسد . ويقال لطريقة التكلم في كلامه

أيضا ، وأنسب هذه المعنى بالاصطلاح ، لأننى هو المعنى الأخير ، أو هو المن أو المذهب  
السكر مع التقييد .

### الأسلوب فى الاصطلاح :

تواضع المذنبون وهذه العربية ، على أن الأسلوب هو الطريقة الكلامية التى  
يستعملها المتكلم فى تأليف كلامه واختيار ألفاظه ، أو هو المذهب الكلامى الذى يورد  
به المتكلم فى تأدية معانيه ومعاصده من كلامه . أو هو طبع الكلام أو منه الذى ينفرد  
به المتكلم كذلك .

### معنى أسلوب لفران :

ومعنى هذا الأسلوب القرآن الكريم هو طريقته التى ينفرد بها فى تأليف كلامه واختيار  
ألفاظه ، ولا عراية أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به ، فبكل كلام الله  
أو بشرى أسلوبه الخاص به . وأسلوب المتكلمين وطرائقهم فى عرض كلامهم من شعر  
أو نثر ، تعدد بتعدد أشخاصهم ، بل تعدد فى الشخص الواحد بتعدد لموضوعات التى  
يقادها ، وإلغنون اننى يصلح .

### الأسلوب غير المفردات والتراكيب :

ونعت نظركم على أن الأسلوب غير المفردات والتراكيب التى يتألف منها الكلام  
ولمّا هو الطريقة التى اتبعها المؤلف فى اختيار المفردات والتراكيب لكلامه .

وهذا هو السر فى أن لأساليب مختلفة باختلاف متكلمي من دترين وناظرين ،  
مع أن المفردات التى يستعملونها جميع واحدة ، والتراكيب فى جملتها واحدة ، وقواعد  
صوغ المفردات وسكوبين الجمل واحدة ، وهذا هو سر أيضا فى أن القرآن يخرج عن معمول  
العرب فى لغتهم العربية ، من حيث دوات مفردات والجمل وقواعدها العامة ، بل جاء كتاب  
عربيا جريئا على ما لوف العرب من هذه الدحية ، فمن حروفهم تألفت كلمته ، ومن كلماتهم

تأملت تراكيبة، وعلى قواعدهم العامة في صياغته الفردات وتكوين التراكيبة جاء تأليفه، ولكن المعجز والدمش وللثير لأعجب العجب، أنه مع دخوله على العرب من هذا الباب الذي عهدوه، ومع مجيئه بهذه الفردات والتراكيبة التي توافروا على معرفتها، وتأسفوا في حليتها، وبلغوا الشأو الأعلى فيها، نقول: إن القرآن مع ذلك كله وبرعم ذلك كله، قد أجهزهم بأسلوبه الفذ، ومذهبه الكلامي للعجز ولو دخل عليهم من غير هذا الباب الذي يعرفونه، لأمكن أن يلتبس لهم عذر أو شبه عذر، وأن يسلم لهم طعن أو شبه طعن «ولو حملنا، قرآنًا أعجيبًا لقالوا: لو آفقت آياته، أعجيب وعربي؟» وهذا المعنى وصف بالله كتابه بالعروبة في غير آية. قال جل ذكره في سورة يوسف «إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون» وقال في سورة الزخرف: «إنا جعلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون» وقال في سورة الزمر: «قرآنًا عربيًا غير ذي عوج لعلهم يعقلون».

• مثال لهذا التفارق:

وبما أن الأمر قد اشتبه على بعض الناس حتى ضلوا فيه أو كادوا عثل للفرق بين الأسلوب وبين المرادات والتركيب بمقالين حسين أحدهما صناعة الخياطة، والآخر صناعة الصيدلة أو تحصيل العقاقير والأدوية: فالخياطون يختلفون فيما بينهم اختلافا بعيدا ما بين حامل وبابه في صمته، وصعيف وبارع في حرفته. وهذا الاختلاف لم يجر من ناحية مواد الخياطة، ولا من ناحية الآلات والأدوات والطرق العامة التي تستخدم في الخياطة. إنما جاء الاختلاف من جهة الطريقة الخاصة التي اتبعت في اختيار هذه المواد وتأليفها واستخدام قواعد هذه الصناعة في شكلها وهندستها. وكذلك الصيدلة يختلفون فيما بينهم نياحة وحولا وبراءة وقصورا. لا من حيث مواد الأدوية وعناصرها، ولا من حيث القواعد الفنية العامة في تركيبها، بل من حيث حسن اختيار هذه المواد، ودقة تطبيق هذه القواعد في تحصيل العقاقير والأدوية، حتى لقد نشاهد أن مزاج الجيد منها وآثره ونقصه، يختلف بوضوح عن مزاج الرديء منها وآثره وضرره. وكل مثل هذا في كل ما حاولت من صناعاتي يختص فيها الصانعون ومصنوعاتهم بحدود عامة مع اتحادهم في الصناعة الأولى بقواعدها العامة في الجميع.

كذلك إكتم البيان اللغوي في آلهة ، ما هو إلا صناعة ، موادها وقواعدها و حدة في  
المفردات والتراكيب ، ولكن البيان يختلف بعد ذلك باختلاف الطرائق والأساليب ، وإن  
شئت قبل . يمتد باختلاف الأذواق واللواهب التي انتعت هذه المفردات اللاموية ، واصطفت  
تلك الجمل التركيبية . حتى إنك لترى أهل اللغة الواحدة ، يؤدون القرض الواحد بوجوه مختلفة  
من مفردات ، ومداهب شتى من التراكيب ، يتفاوت حظه من الجودة والرداءة ، ومن الحسن  
والقدم ، ومن القبول والرد ، بمقدار ما بينهم من اختلاف في طرائق اختيار هذه الاختراجه  
عن مواد اللغة إيراداً وتركيباً ، ولما لاحظوه من المناهيات مع هذا الاختيار ، إذا سلم ذوق  
المفكر وسمت حاسته البيانية ، حسن اختياره ، وسما كلامه ، سموأ قد بأحد عينك حرك  
وبهيك قبضت رايك وإذا مدد ذوق المتكلم واصطفت حاسته البيانية ، ساء اختياره ، ونزل  
كلامه ، نزولاً قد تنقرر منه نعلك ، ويتأذى به سمك ، وربما فررت منه وأنت تعلم  
بقول الشاعر :

هو الذي فاستأنت بالذهب إدا صوى وصوت إسان فكنت أظير

### بين دلالت في اللغة العربية :

بين ذلك في لغتنا المحبوبة العربية ، أن مفرداتها منها متألف في حروفه ومتناظر ،  
وواضح مدانس ، وحمى غريب ، ورفيق حفيف على الأصماع ، ونموت كربة نعمة الأصماع ،  
وسوان ، وباس اللغة ومخالف له . ثم من هذه المفردات علم وخاص ، ومضائق ومقيد ، ومحل  
ومعبر ، ومعرف ومسكر ، وظاهر ومضمهر ، وحقيقة ومجاز . وكذلك التراكيب العربية ،  
مما ما هو حقيقة ومجاز ، ومما متألف الكلمات ومتناظرها ، وواضح المدنى ومدها .  
وموافق للمعنى واللغوى والخارج عليه ، ومما الاسمية والفعلية ، والتجريدية والإشائية ، وفيها  
التي والإنبات ، والإيجار والإطباب ، والتقديم والتأخير ، والاصل والوصل ، إلى غير  
ذلك مما هو مفصل في علوم اللغة وكتبها .



ثم إن ما يؤيده معهود اللغة من المتنوعات المذكورة وما أشبهها، هو المسلك العام الذي ينقذ منه المتكلمون إلى أعراسهم ومقاصدهم. ولكن ليس شيء من هذه المتنوعات بالذي يحسن استعماله إطلاقاً ولا شيء مما بها بالذي يسوء استعماله إطلاقاً، أي في كافة الأحوال وجميع المقامات. بل لكل مقام مقال، في يحمل في موطن قد يفتح في موطن آخر، وما يجب في مقام قد يتفتح في مقام آخر، ولولا هذا لكان الوصول إلى الطواف الأهل من البلاغة هينا ولأصبح كلام الناس نونا واحداً وطعماً واحداً. ولكن الأمر يرجع إلى حسن الاختيار من هذه المتنوعات بحسب ما يناسب الأحوال والمقامات، فخطاب الأذكىاء غير خطاب الأغبياء. وموضوع العقائد التي يتعمس لها الناس غير موضوع القصص. وميدان الجدل الصاخب غير مجلس التسميم الهادي. ورافة الوعد والتبشير غير لغة الوعيد والإنذار إلى غير ذلك مما يجعل احتيار المناسبات عبيراً ضرورة أن الإحاطة بجميع أحوال المخاطبين قد تكون متعسرة أو متعذرة وما يجعل اللفظ الواحد في موضع من المواضع كأنه نجمة وضوء لامة، وفي موضع آخر كأنه نكتة سوداء مظلمة.

ولعلنا نأثـر أكرمهم الله. أذواق محصنة في استنباط الفروق الدقيقة بين استعمال حرف أو كلمة، مكان حرف أو كلمة. ومن السابقين في حلقة هذا الاستنباط الخطيب الإسكافي المتوفى سنة ٥٤١٢ في كتابه (درة التنزيل وغرة التأويل) وهناك مثالا منه يفيدنا فيما نحن فيه، إذ يتحدث عن سر التعبير «إفاء» في لفظ (كلوا) من قوله سبحانه في سورة البقرة: «وإذ قلنا: ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم» وعن سر التعبير «أبوا» في قوله سبحانه في سورة الأعراف: «وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم» مع أن القصة واحدة، ومدحول الحرف واحد؛ قال رحمه الله: «الأصل أن كل فعل عطف عليه ما تعلق به تعلق الخواب بالابتداء، وكان الأول مع الثاني بمعنى الشرط والخزاء، فالأصل فيه عطف الثاني على الأول بالفاء، ومنه «وإذ قلنا»

ادخوها هذه القرية فاكلوا » وبه وجود الأكل متعلق بالدخول والدخول موصل إلى  
الأكل فالأكل متعلق بوجوده بخلاف « وقد قيل لم اسكنوا هذه القرية واكلوا »  
لأن السكنى مقام مع طول بث ، والأكل لا يختص بوجوده ووجوده ، لأن من بدّل  
مستأن قد نكل منه حجة رأ ، وما يتعلق بشئ في الأول متعلق بحواب لا ابتداء ، وحسب  
العصف الجوادون له . ه . ه

### باب القوى والقدرة

ولا بد أن القوى والقدرة تتفاوت بتفاوت مدتها ، فمن الأحوال ومدتها ،  
وأن ميدان الاختيار في شتى الأحوال وانصور للمعدرات ومركبتها فتداعى  
أن تملك قدرة الإنسان في استقراض كل هذه الأحوال وانصور ، وفي إقامة ميران دقيق  
بها ، تمهيداً لحسن الاختيار ، على ضوء تلك الأحوال لمقتضيه ، بمعنى أن يكون معها  
هنا يفسح المجال ثم يفسح ، ثم يهتدى إليه حكمة الحكم قد يعمل عنه متسكماً ، وما يتبعه  
كأن قد يعمل عنه كاسب ، وما يدركه شئ قد عرفت شاعر حرّس به يدركه الإنسان  
الواحد في موضع قد يخصه في موضع سواه ، وهكذا .

والس من عرضها ما ستنقضي الأحوال ومدتها ، ولأن ضرب الأمان والشواهد  
لكل حال وما داسها ، في ذلك محله من علوم اللغة وكيفية كافتها ولكن الذي يرد  
نصع يرد عيني هذا المقام ، هو أن أسلوب أي كلام تابع معناه صورته القيمة أو طابعه  
الخاص ، أو مرجه شخصي انتهى تهيه له رعاية صحيحة خلة الأحوال ومدتها في هذا  
الكلام وأنه على حسب ما تنموى أساسيات الكلام من الأحوال ومدتها ، يتفاوت  
هذا الكلام في درجات البلاغة عو وروايات خطه عدد السمعين رداً وقبولا وأنه  
م يظهر انوار كلام إلى ولا بشرى مع طرف الأعلى في البلاغة ، ووصل إلى قمة  
الإعجاز من هذه الحجة ، عبر القرآن الكريم : لأن مشي هذا يكتب هو وحده  
الذي تعقبت إرادته بأن يكون معجزة في الإسلام من هذا الطراز لحكمة شرحها ، وقد  
أمرص ه فيها شأني ولأنه سبحانه هو الذي انتهت إليه الإحاطة بجميع أحوال الخلق وحده

ولأنه عز سلطانه هو القادر وحده . على تضمين كلامه كل المناسبات التي اقتضتها تلك الأحوال الكثيرة التي لم يحيط ولن يحيط بها سواه ! . ومن الذي يستطيع أن يحيط بكل أحوال الخلق وبها الحق الذي لا يعلمه من يعلم السر وأخفى ؟ ثم من ذا الذي يستطيع أن يحيط بكل أحوال الخلق ؟ وم أجيال متعددة ، منهم من لم يحلفوا وقت نزول القرآن ، ومنهم من لم يعرفوا لنا إلى الآن ؟ بعد بضعة عشر قرناً من نزول هذا القرآن . وأنت حبير بأن القرآن هو كتاب الساعة الذي يخاطب الأجيال كافة ؛ حتى يرث الله الأرض ومن عليها . فلا غرو أن يصممه منزله كل ما يحتاج إليه الأمم على اختلاف أحوالها من المناسبات الملائمة لأحوالهم ، وليس ذلك في قدرة أحد إلا الله بما يراد الخلق وخفيات السموات والأرض . « قل أنزلني الذي يعلم السر في السموات والأرض » . « تنزيلاً من حق الأرض ولسموات الأعلى » . الرحمن على العرش استوى \* له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى \* .

ومن شواهد ما لم نذكر ، أثناء ملاحظ في كثير من ألفاظ القرآن أنها اختبرت اختياراً يتعلل فيه وجه الإعجاز من هذا الاختيار ، وذلك في الألفاظ التي عرست على القرون والأجيال ، منذ نزل القرآن إلى اليوم فإذا نصوص الأجيال يفهم منها ما يماسب تفكيره ، وبلأمر ذوقه ، وبوائيم ممارعه ، وإذا أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ عينا غير ما فهمته تلك الأجيال ، ولو استبدلت هذه الألفاظ بمعناها لم يصلح القرآن لمخاطبة الناس كافة ، وكان ذلك قدحاً في أنه كتاب الدين العام الخالد ، ودستور البشرية في كل عصر ومصر . فصالح من أرسل هذا القرآن مشيعاً لحاجات الجميع ، وأهياً لمحارب الجميع ، ملائماً لأدق الجميع ، مقفياً ومعارف الجميع ، بما يدل دلالة واضحة ، على أنه كلام الله وحده ، أمره معه والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيداً .

ولعل لنا عودة لمثل هذا الكلام في فرصة أخرى . فلنتمسك التمسك عن الحولاء في هذا الميدان . ونترجم عودنا على بدء إلى أحوال القرآن ولندكر شيئاً من خصائص

أسلوب القرآن ومراياه التي اُعرب بها . وكانت هي السرف في إشارته اللموى أو اللعاعى أو الأسونى .

### خصائص أسلوب القرآن :

إن الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن . والمزايا التي توافرت فيه حتى جعلت له طابعا معجزا في لغته وبلاغته ، أخاض العباد فيها بين مقل ومكثر ، ولكنهم بعد أن طال بهم المطاف ، وبعد أن دميت أقدامهم ، وحفيت أقدامهم ، لم يزيدوا على أن قدوا وإمينا قُلا من كثرة وقطرة من بحر ، معترفين بأهم عجزوا عن الوفاء ، وأن ماخفي عليهم فلم يذكره أكثر مما ظهر لهم فذكروه ، وأنهم لم يزيدوا على أن قربوا لنا البعيد بضرب من التمثيل رجاء الإيضاح والتبيين . أما الاستقصاء والإحاطة بمزايا الأسلوب القرآنى وخصائصه على وجه الاستيعاب فأمر استأثر به منزله الذي عنده علم الكتاب .

وإذن فنذكر نحن بدورنا شيئا من خصائص أسلوب القرآن ، على وجه التمثيل والتقريب أيضا . . . ومالا يدرك كله لا يترك أمله .

### الخاصة الأولى :

مسحة القرآن اللغوية . فإمسا مسحة خلاصة هجينة ، تقعى في نظامه الصوتى ، وحاله اللغوى .

١ - ونريد بنظام القرآن الصوتى ، اتساق القرآن واتساقه في حركاته وسكناته ، ومداته وعنده ، واتصاله وسكناته ، اتساقا هجيا ، واتساقا رائعا ، يستمرى الأسماع ويستوى الهموس ، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أى كلام آخر من منظوم ومثور . وبيان ذلك أن من أتى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية ، وهى مرسله على وجه السداحة

في الهواء ؛ مجردة من هيكل الحروف والكلمات ، كأن يكون السامع يبدع القارىء  
 المحمدي ، بحيث لا تبلغ إلى سمع الحروف والكلمات متغيراً بعضها عن بعض ، بل يسمعه  
 مجرد الأصوات الساذجة المألوفة من اللغات والفنات ، والحركات والسككات ، والاتصالات  
 والسككات ، نقول : إن من ألقى سمعه إلى هذه المجموعة الصوتية الساذجة يشعر من سمعه  
 ولو كان أعجمياً لا يعرف العربية ، بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب ، يفوق في حسنه  
 وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر ، لأن الموسيقى تشابه أحرارها وتقارب  
 أنغامها فلا يفتأ السمع أن يعلها ، والطبع أن يحجبها ، ولأن الشعر تتعد فيه الأوزان وتشابه  
 القوافي في القصيدة الواحدة غالباً وإن طالت ، على محط بورت سامعه السام والمثل ، بينما  
 سامع لحن القرآن لا يسأم ولا يمل ، لأنه يفتل فيها دائماً بين ألحان متنوعة ، وأنغام متعددة ،  
 على أوضاع مختلفة يهز كل وضع منها أوتار القلوب ، وأحصاب الأنفذة .

وهذا الجمال الصوتي أو النظام الدوقي ، هو أول شيء أحسنه الأذان العربية أيام  
 نزول القرآن ، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منشور الكلام ، سواء أكان مرسل  
 أم مسجوعاً ، حتى خيل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر ، لأنهم أذكوا في إيقاعه وترجييعه  
 لذة ، وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع والفرجيع هزة ، لم يعرفوا شيئاً قريباً منها إلا في الشعر ،  
 ولكن سرعان ما عادوا على أنفسهم بالنضج فيما ظنوا ، حتى قال قائمهم - وهو الوليد  
 ابن الغيرة - : « وما هو بالشعر » مطلقاً ذلك بأنه ليس على أعاريض<sup>(١)</sup> الشعر في رجزه<sup>(٢)</sup>  
 ولا في قصيده . نريد أنه تورط في خطأ أخش من هذا الخطأ ، حين زعم في غلام العماد

(١) جمع عروض على غير قياس كأنهم جمعوا عريضا وهو ميزان الشعر أو الجزء الذي

في آخر الصف الأول من البيت ؟ مختار .

(٢) الرجز ضرب من الشعر وزنه مستعملن ست تمرات . وزعم الخليل أنه ليس شعر

وإعاء هو أنصاف أبيات أو أثلاث ؟ قاموس .

والخبرة أنه سحر ، لأنه أحد من أنثر حلاله ووعته ، ومن العلم حلاله ومتعته ووقف مديها  
في قطعه وسط حارة لحدود العادة البشرية ، بين إطلاق أكثر وإرساله وتعيينه أشعر  
وأور . وبما أصف هؤلاء لعمري أنه كلام منشور لكنه معجز يس كمثل كلام ، لأنه  
صادر من متحكم قادر ليس كمنه شيء . وما هو بالشعر ولا بالسحر ، لأن الشعر معروف  
لجميع بقرينه ووربه ولانوته ورسمه ، و القرآن ليس منه ؛ ولأن السحر محذورات خبيثة لا تصدر  
إلا من نفس خبيثة ، ولقد علمت قرش أكثر من غيرهم طهارة النفس الحميدة ومعها  
ونبيها ، إذ كانوا أعلم الناس به وأعرفهم بحسن سيرته وسوكة ، وقد أشبههم وشب وشاب  
بينهم هذا إلى أن لقرآن كله ، وهو إلا دعوة طيبة لأهداف طيبة ، لا يحل فيها إلى حيث  
ورحس ، بل هي تحارب السحر وخبيثه ورجسه ، ونسبه بأنه كفر ، إذ قال : « ولا تكن  
الشیاطین کفروا بملء لسان السحر » . وما أُرسل على الملکین بآل هررؤت وما روت  
وما بملکان من أحده حتى يقول : إنا نحن فتنه فلا تكفر » .

ثم إن السحر معروف المقدمات والوسائل ، ليس بمعجز ، ولا يمكنه ومن يمكنه أن  
يأتي في يوم من الأيام بمثل هذا الذي جاء به القرآن .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن أميرة جاء إلى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ، فلما قرأ عليه القرآن كأنه رق له فباع ذلك أبا جهل ، فأثام فقال له : يا أبا  
إني قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا يهطوكه ، فإني أتيت محمدًا فاعرض لنا قبله  
( تكسر القاف وفتح الباء ) . قال الوليد : لقد علمت قرش أي من أكثرها مالا ، قال :

فقل فيه قولاً سمع قومك أنك منكراه وكاره . قال : وماذا أقول ؟ فو الله ما فيكم من  
رجل أعلم مني بالشعر لا بجره ولا بقصيده ولا بشعار الحن . والله ما شبه الذي يقوه  
شيء من هذا . ووافق ابنه خلاوة ، وابن عليه لطلاوة ، وإليه لير أعلاه ، مشرق أسفله  
وإليه نيمه ولا يعلى ، وإليه ليحطم ما تحته ؛ قل أبو جهل للوليد لا يرصني عليك قومك حتى  
تقول فيه قول الوليد : دعني أفكر فلما فكر قال : هذا سحر بأثره عن غيره . وفي ذلك قول

قوله تعالى «درى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا» وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَدَدًا وَبَيْنَ شُهُودًا \* وَمَهْدُ  
 لَهُ تَهْمِيدًا \* ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ \* كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا \* سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا \* إِنَّهُ سَكَرَ  
 وَقَدَرُ \* نَجَلِ كَيْفَ قَدَرُ \* ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَرُ \* ثُمَّ نَظَرَ \* ثُمَّ عَبَسَ وَسَكَرَ \* ثُمَّ أَذَرَ  
 وَاسْتَكْبَرَ \* فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سَعْرٌ يُؤْتَرُ \* إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ \* «رواه الشيخان في مسندهما»  
 صحيح على شرط البخارى . فانظر إلى الرجل حين أرسل نفسه على سجينها المرسة ،  
 وديتها العظمية كيف أنصف في حكمه ، حين تجرد ساعة من عناده ، وكبره ، وقيل . والله  
 ما يشبه الذى قوله شيئاً من هذا إلى أن قال : وإياه يحطم ما تحته . ثم انظر إلى الرجل حين  
 علت عليه شقوته ، وعارده عناده وتعصبه ، كيف قاوم فطرته وأكرهه . ثم انظر إلى  
 شهوده ووجدانه وقال ما قال بعد أن حار وذهب كل مذهب في صلاته وجبرته ، على نحو  
 ما يصور القرآن تلك الحيرة والقائمة والاستكراه بقوله : «إِنَّهُ فَكَّرُ وَقَدَّرَ» الحج . سأل  
 الله الحمية والمداية بمنه وكرمه . آمين .

٢ - ويريد بحمال القرآن القوى تلك الظاهره الحميه التي امتارها القرآن في رصف  
 حروفه وترتيب كلماته ، ترتيباً دونه كل ترتيب ونظام تعاطاه الناس في كلامهم . ويدرك ذلك  
 أنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجه من محارحها الصحيحه ، تشعر بمدة جديدة  
 في رصف هذه الحروف بعضها مخائب بعض في الكلمات والآيات هذا سقر وذلك بصير  
 وهذا يحي وذلك يظهر ، وهذا يهيس وذلك يجهز ، إلى غير ذلك مما هو مقرر في باب محاج  
 الحروف وصفاها في علم التحويد . ومن هنا يتجلى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس  
 في هذه المجموعة المحتامة للؤلؤة ، الجامعة بين اللين والشدّة ، والخشونة والرفقة ، والظهر  
 والحمية ، على وجه دقيق محكم ، وضع كلام الحروف وصفاها المتعاطلة في موضعه غير أن  
 حتى أنب من المجموع قالب لفظي مدهش ، وقشره سطحية أحاذة أمرحت فيه حلة  
 البداهة في غير خشونة ، رقة الحضارة من غير ميوعة ، ولما لقت عندها أدواق انقباض المرية  
 على احتلالها بكل يسر وسهولة . ولقد وصل هذا الجمال القوى إلى فيه الإعجاز ، بحيث

لو داخل في القرآن شيء من كلام الناس لأعتل مذاق في أفواه قارئيه ، واحتل نظامه في آذان سامعيه

ومن عجيب أمر هذا الخيال اللعوي ، وذلك النظام الصوتي ، أنها كما كان دليله عمار من ناحية ، كما «سوراً مبيعا لحفظ القرآن من ناحية أخرى» وذلك أن من شأن الخيال اللعوي والنظام الصوتي ، أن يسترعى الأسماع ، ويثير الانتباه ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان ، إلى هذا القرآن الكريم . وذلك يبقى أنه لا يهر سائداً على ألسنة الخلق وفي آذانهم ، ويعرف بداته ومروياته بينهم ، ولا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا لَهُ عَابِدُونَ ﴾

#### الخاصة الثانية :

إرصاده العامة والخاصة . ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته على العامة أوقى عليهم ، أحسوا حلاله ، وذاقوا حلاوته ، وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضى عقولهم وعواطفهم . وكذلك الخاصة إذا قرأوه أوقى عليهم ؛ أحسوا حلاله وذاقوا حلاوته ، وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة ، وراوا أنهم بين يدي كلام ليس ككلام لا يلهي إشراق ديباحته ولا يلهي امتلائه ونوره ، ولا كذلك كلام البشر ، فإنه إن أَرْضَى الخاصة والأدكياء ، لخنوحوه إلى التجود والإعراب والإشارة لم يَرْضَ العامة لأنهم لا يفهمونه وإن أَرْضَى العامة لخنوحوه إلى التصريح والحقائق العارية المكشوفة ، لم يَرْضَ الخاصة لردوله إلى مستوى ليس فيه مقاع لأدواقهم ومشاربهم وعقولهم .

#### الخاصة الثالثة :

إرصاده العقل والعاطفة . ومعنى هذا أن أسلوب القرآن يحاطب العقل والقلب معاً



ويجمع الحق والجمال معا . انظر إليه مثلا وهو في مصمان الاستدلال الغنى على النعم والإعادة في مواجهة منكرينها ، كيف يسوق استدلاله سوا قاهر القلوب بهراء ، ويمتص العاطفة إمتاعا ، مما جاء في طي هذه الأدلة للسكتة اللقطة ، إذ قال الله سبحانه في سورة قصص : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى . إنه على كل شيء قدير » . وإذا قال في سورة ق : « أقم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وربناها ومالمنا من فروع » والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأبقنا فيها من كل زوج بهيج » تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » ونزلنا من السماء ماء مباركا فأبناها به جنات وحب الحصيد » والنخل باسقات لها طلع نضيد » رزقا للمهاد وأحيينا به بلدة ممكنا كذلك أنطروج » . تأمل في الأسلوب البارع ، الذي أقم العقل وأمتع العاطفة في آن واحد ، حتى في الجلة التي هي بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل ، إذ قال في الآية الأولى : إن الذي أحياها لمحي الموتى وفي الآيات الأخيرة « كذلك أنطروج » بالإنجاء الساحر ، وبالإنجاز المباهر الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معا بأنصع الأدلة وأمتع المعروضات ، في هذه الكلمات للتدودات أ .

ثم انظر إلى القرآن وهو يسوق قصة يوسف مثلا ، كيف يأتي في خلالها بالعظات البالغة ، ويطلع من خلالها بالبراهين الساحقة ، على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة ، إذ قال في فصل من فصول تلك الرواية الرائعة « وراودته التي هو في بينها عن نفسه » وعلفت الأبواب ، وقالت هيئت لك . قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يضح الظالمون » . فتأمل في هذه الآية كيف قوبلت دواعي الشهوة الثلاث ، بدواعي العفاف الثلاث ، مقابلة صورت من القصص الملتصقة جدا لا عتيفا بين حند الرحمن وحند الشيطان ، ووصفتها أمام العقل للمصنف في كفتي ميزان ! وهكذا تجرد القرآن كله مريحا حلوا سائما ، يحفف على النفوس أن تخرج الأدلة العقلية ، ويرفع عن العقول بالهفوات العاطفية ، ويوجه العقول والمواطف مما جنبها إلى جنب الهداية الإنسان وخير الإنسان أ .

وعل تسعد بمثل هذا في كلام البشر؟ لا ، نعم لا . بل كلامهم إن وفي بحق العقل بحس  
العاطفة حقها ، وإن وفي بحق العاطفة بحس العقل حقه ، وبمقدار ما يقرب من أحدهما يبعد  
عن الآخر ، حتى أقدم بات العرب العام . يقسم الأساليب الشعرية إلى نوعين لاثالث لها :  
أمدوب ممد وأمدوب أدبي : فطلاب العلم لا يرضيهم أسلوب الأدب ، وطلاب الأدب  
لا يرضيهم أسلوب العلم . وهكذا نجد كلام العلماء والمحققين فيه من الجفاء والعري ، مالا  
يهز القلوب ويحرك النفوس ، وتجذب في كلام الأدباء والشعراء من الهزال والعقم الملعن مالا  
يفذى الأفكار ويقنع العقول ؛ ذلك لأن القوى العاقلة والقوى الشاعرة في بني الإنسان  
غير متكافئة . وعلى فرض تكافئها في شخص فإنها لا تعملان دفعة واحدة بل على  
سبيل البديل والمتناوب . فكلام الشخص إما وليد فكرة ، وإما وليد عاطفة ، وإما ثوب  
مرقع يتألف من جل نظرية تكون ثمرة للتفكير ومن جل عاطفية تكون ثمرة للشعور .  
أما أن تأتي كل جهة من جهة جامعة لثابتهين معارف دون ذلك صعود السجاء ، وكيف يلقى  
ذلك للإنسان ، وهو لم يوهب القوتين متكافئتين ، ولو تكافأتا لديه فإنه لا يستطيع أن  
يرجعهما اتجاهها واحد في آن واحد متقاربتين « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه »  
أما القرآن فإنه انفرد بهذه اللمزة بين أنواع الكلام ، لأنه تنزيل من القادر الذي لا يشغله  
شأن من شأن ، والذي جمع بين الروح والجسد في قرآن ، « فبارك الله رب العالمين » .

#### الخاصة الرابعة :

حودة سلك القرآن وإحكام سرده <sup>(١)</sup> . ومعنى هذا أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه  
وتماسك كلماته وحملو آياته وسوره ، مبلقا لا يدانيه فيه أى كلام آخر ، مع طول نفسه ،

(١) يقال درج مسرودة ومسرودة أى منسوجة متداخلة حكمها بعضها في بعض

فالراودها أن القرآن مترابط الأجزاء متقاسم تقاسمها قويا .

وتسوع مقاصده وافتقانه وتلوينه في الموضوع الواحد . وآية ذلك أنك إذا تأملت في القرآن الكريم ؛ وجدت منه جسا كاملا ترطب الأعصاب والجلود والأعشية بين أحراجه ولحمت فيه روحا عاما يبعث الحياة والحس على تشابك وتناظر بين أعصابه وإذا هو وحدة متماسكة متآلفة ، على حين أنه كثرة متنوعة متخالفة . فبين كلمات الجملة الواحدة من الناحي والفساق ، ما جعلها رائحة التماس والتجاذب وبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط ، ما جعلها وحدة صغيرة متآلفة الأجزاء متعاقبة الآيات . وبين سور القرآن من التناسب ما جعله كتابا سويا أطلق حسن السمات ، « قرآنًا عربيًّا غير ذي عوج » . فكأنما هو سبيكة واحدة تأخذ بالأنوار وتلمع بالبدول والأفكار ، على حين أنها مؤلفة من حلقات ، لكل حلقة منها وحدة مستقلة في نفسها ذات أحزاء ، ولكل جزء وضع خاص من الحلقة ، ولكل حلقة وضع خاص من السبيكة ، لكن على وجه من جودة السبك وإحكام السرد ، جعل من هذه الأجزاء المنشرة المتفرقة ، وحدة بدية متآلفة ، تربك كال الأسجاس بين كل جزء وجزء ، ثم بين كل حلقة وحلقة ثم بين أوائل السبيكة وأواخرها وأواسطها .

يُعرف هذا الإحكام والترابط في القرآن ، كل من أتى بالله إلى التناسب الشائع فيه ، من غير تفكك ولا تماثل ، ولا انحلال ولا تنافر بينا للوصوعات مختلفة متنوعة ، فمن تشريع إلى قصص إلى جدل إلى وصف إلى غير ذلك . وكشبت التفسير طائفة ببيان الماسبات ، فتصمكت عليها ، ونكتفى بمثل واحد بضربه مع الاختصار والاقترار .

هذه سورة الفاتحة ، تأمل كيف تترايط وتتناسق في حين تخلص من معنى إلى معنى ومن مقصد إلى مقصد : لقد انتفعت متوجة « باسم الله » كما يتوج القاضي كل حكم من أحكامه باسم جلالة الملك ؛ لإعلان الجهة التي يستند عليها فتوى صدور أحكامه ، ثم انتقل الكلام فيها سريعا إلى الاستدلال على أن الاستعانة إنما هي به تعالى وحده ، وذلك بإدعاء الاسم إلى لفظ الخلافة الذي هو اسم الذات الجامع لصفات الكمال ، ويوصف لفظ الخلافة بأنه

« الرحمن الرحيم » . ثم انتقل الكلام إلى إعلان أنه تعالى مستحق الحمد كله ، مادام أنه المستعان وحده بالذليل . ثم انتقل الكلام إلى تدعيم هذا الاستحقاق بأدلة ثلاثه حوت على اسم جلالة عجز الأوصاف في مقام حده . « الحمد لله رب العالمين » الرحمن الرحيم \* مالك يوم الدين \* . ثم انتقل الكلام إلى إعلان وحدانيته ، في ألوهيته و ربوبيته « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » مادام أنه هو المعبود وحده ، ومستحق الحمد كلها وحده . ثم انتقل الكلام في راحة إلى بيان اللطع الأعلى للإنسان ، وأن هذا اللطع الأعلى هو الهداية إلى الصراط المستقيم ، وأهلا سبيل إلى الوصول إلى هذا اللطع عن طريق أحد إلا عن طريق الله وحده ، فربما ما سبق من أدلة التوحيد والتحيد قبله . « اهتدنا للصراط المستقيم » ثم انتقل الكلام من حيث لا تشعروا من حيث تشعرون ، إلى تقسيم الخلق بالنسبة إلى هذه الهداية الثلاثة أقسام ، تنبها وإقراء على القصود ، وتحذيرا ونذيرا من الوقوع في تقصير هذا القصود « صراط الدين أُنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » . وهذا ليس أمام عيبك بن منعم عليه بمعرفة الحق واتباعه ، ومغضوب عليه بمخالفة الحق مع العلم به ، وصال رضى أن يعيش عيشة الأنعام ؛ في متاهة الجهالة والخيرة والصلال ، لا يكلف نفسه عناء البعث عن الحق ليتشرف بعرفته ويهدى باتباعه . ثم تنظر في سورة النقرة ، وإذا هي وما بعدها ترتبط بالناقحة ارتباطا للفصل بالجمل ، فالهداية إلى الصراط المستقيم صراط من أمه الله عليهم من النبيين والمصدقين والشهداء والمصلحين ، تشير بها سورة النقرة وما فيها من سور القرآن . حيث جاءت بتفاصيل هذه الهداية ، في بيان كامل ، وعرض شامل .

أما سد ، فقد يظن بعض الجهلة ، أن هذه الوحدة الفنية البيانية في القرآن ، أمر نافع حين ، لا يسو إلى حد التنويه به ، فضلا عن أن ينظم في عداد ما هو صراط للإعجاز . ولأجل الرد على هؤلاء ، نطلب منهم أن ينظروا نظرة فاحصة في كلام الدعاة وحلقة الأقلام حين لم يكن عندهم نظر ولا ذوق ، فليستعموا إلى حكم نقدة البيان وصيادته عندهم ، بأنهم

كثيراً ما يحطون في تنظيم أعراسهم إذا قالوا بل يأتون بها شقيقاً مفككاً غير متماسك ولا متعاضد، مما يوجب للشراء من أجله سوء التخلص حين ينتقلون من عرض إلى عرض في القصيدة الواحدة وما يضطر الكتاب والسائد والمؤلفين إلى تلافى هذا النقص، مما يستحدثون في تفلاتهم بين أعراسهم، من أسماء الإشارة وأدوات التنبيه والحديث عن النفس وكثرة التقسيم والترقيم والتبويب والمعنونة ولفظ أما بعد نحو: هذا، وإن، ألا، وإن قلد كذا وتقول كذا، ينقسم الكتاب إلى مباحث. المبحث الأول في كذا الخ، - ينقسم هذا المبحث إلى نقاط أولها كذا الخ. ملاحظة. تنبيه. فذلكة. أما بعد الخ.

هذا في كلام البشر. أما كلام مالك القوى والقدرة فإنه على تنوع أعراسه وطول مداه في سورة وآياته. ينتقل من مقصد إلى مقصد وينتقل أنت معه بين هذه المقاصد. غير مستعين بوسائل الحجز المذكورة. بل بطريقة سحرية قد تشعر بها وقد لا تشعر. وحسبك أن تنظر في اللال الآنف الذي قدمناه لك في سورة القاعة، وحدها أن تنظر في أطول سور القرآن وهي سورة البقرة فإنك ستغرب وتحب. وسيدهب بك العراب والمحب إلى حد الذوق البالغ لهذا اللون من الإعجاز القاهر. وأدلك على كتاب الماعظم فقد أجاد في بيان هذا اللون وأبدع. وأشبع العقول والقلوب وأمتع بمرس من القاسم والتراحم بين آحاده هذه السورة

#### الخاصة الخاصة :

براعته في تصريف القول، وثروته في أطنان الكلام، ومعنى هذا أنه يورد المعنى الواحد بألماط وطرق مختلفة، بمقدرة فائقة خارقة، تنقطع في حيلها أنفاس لوهو بين من الفصحاء والبلغاء. ولنا هنا بسبيل الاستيعاب والاستقراء، وركبها أمانة تهديك، ومادج تكفيك.

١ - منها تسموه عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجوه الآتية :

١ - الإتيان بصريح مادة الأمر ، نحو قوله سبحانه : « إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ أَوْدَدٌ » الأمانات إلى أهلها .

٢ - والإخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين ، نحو « كُتِبَ عَلَيْكُمْ أَنْصَبُوا »

٣ - والإخبار بكونه على الناس نحو « وَفَقَّ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ امْتِنَاعِ إِبْرَاهِيمَ » صديلاً .

٤ - والإخبار عن التكليف بالعمل المطلوب منه ، نحو « وَالطَّلَاقُ بِتَرِيصٍ أَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » أي مطلوب منهن أن يتريصن .

٥ - والإخبار عن المبتدأ بمعنى بطلب تحقيقه من غيره ، نحو « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » أي مطلوب من المخاطبين تأمين من دخل الحرم .

٦ - وطلب الفعل بصيغة فعل الأمر ، نحو « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى » أو بلام الأمر ، نحو « ثُمَّ لِيَقْصُوا تَعْتَمِدُوا وَيُؤَدِّعُوا وَيُؤَدِّعُوا » .  
٧ - والإخبار عن الفعل بأنه خير : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى : قُلْ إِصْلَاحُهُمْ خَيْرٌ » .

٨ - ووصف الفعل وصفا عموماً بأنه بر ، نحو « وَلَسَكُنَّ الْيَتَامَى »

٩ - ووصف الفعل بالفرسية ، نحو « قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ » أي من بدل مهور والنفقة .

١٠ - وترتيب الوعد والثواب على الفعل ، نحو « مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » فيضاعفه له وله أجرٌ كريمٌ .

١١ - وترتيب الفعل على شرط قبله نحو « فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدَى » .

١٢ - وإيقاع الفعل متفياً مطوفاً عقب استفهام نحو : « أفن يحق كس لا يحق .  
أولاً تدكرون » أى يتذكروا .

١٣ - وإيقاع الفعل عقب ترج ، نحو « ولعلكم تشكرون » .

١٤ - وترتيب وصف شنيع على ترك الفعل ، نحو « ومن لم يحكم بما أمر الله فأولئك هم الكافرون » .

ب - ومنها تعبيره عن النهى بالوسائل الآتية :

١ - الإنياف في جاب الفعل عادة الفعل عادة النهى ، نحو « إنا بما حكم الله عن الدين فأتولكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم » .

٢ - والإنياف في جابه عادة التحريم ، نحو « إنا حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والنهى ينهى الحق وأن نشركو بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

٣ - ونفى الخلل عنه ، نحو « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » .

٤ - والنهى عنه ملفظ لا ، نحو « ولا تقربوا مال اليتيم إلا باقى هي أحسن » .

٥ - ووصفه بأنه ليس را ، نحو « وليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها » .

٦ - ووصفه بأنه شر ، نحو « ولا تحسبن الذين يبخسون بما أنعم الله من فضله هم خيراً لهم ، بل هو شرٌّ لهم » .

٧ - وذكر الفعل مقروناً بالوعيد ، نحو « والذين يكفرون الذهب والنقصة ولا يعفوها في حبيلى الله فيشرهم سذاب أليم » الخ .

٨ - وذكر الفعل منسوماً إليه الإنم ، نحو « من بدلعه بعد ما سمعه بأذى إن الله عى  
عالمين يمدكونه » .

٩- ٢٥ ونظم الأمر في سلك ما هو بالغ الإثم والحرمة ، والإخبار عن الفعل بأنه  
 رحس ، ووصفه بأنه من عمل الشيطان ، والأمر باحتمابه ورحاء العلاج في تركه ، وترتيب  
 مصار مؤدية على فعله ، والأمر بالانتهاء عنه في صورة الاستعظام . ويمثل لهذه الطرق  
 كلها ، تحريم الحر والسفر في قوله سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْحَرْمُ وَالْيَسْرُ  
 وَالْأَنْصَابُ وَالْأَرْحَامُ رَحْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، فَاحْتَمُوا لَكُمْ بُعْدَ حَرْمِهِ ، إِنَّمَا يَرِيدُ  
 الشَّيْطَانُ أَنْ يُفْضِعَ بَيْنَكُمْ الْمُدَاوَةَ وَالْمَعْصَاةَ فِي الْحَرْمِ وَالْيَسْرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ  
 الْمَعْلَاجِ : هَلْ أَنْتُمْ مُسْتَهْوُونَ ؟ »

ج . ومنها تعبيره عن إحاطة العمل بالطرق الآتية

١ - التصريح في حاشية مادة الحل ، نحو « أَحَلَّتْ لَكُمْ مِهْمَةَ الْأَهَامِ »

٢ - والأمر به مع قرينة صارفة عن الطلب ، نحو « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا » .

٣ - وبقي الإثم عن الفعل ، نحو « هُنَّ اضْطَرَّ بِغَيْرِ مَاءٍ وَلَا عَادٍ فَلَا يُثْمَ عَلَيْهِ » .

٤ - وبقي الحرج عنه ، نحو « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا  
 عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ » أي في ترك القتل . أو في الأكل من الميت<sup>(١)</sup> .

٥ - وبقي الحجاج عنه في غير ما ادعى فيه الحرمة ، نحو « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ حِجَابٌ فِيهَا طَعَمُوا ، إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » الخ<sup>(٢)</sup> أما ما ادعى

(١) تجد هذا النص الكريم في سورة الفتح عقب بوعده من تتطلع عن القتال في

قوله سبحانه « قُلْ لِلْمُحْسِنِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ » الخ . تجد هذا النص الكريم

أيضاً في سورة النور داراً لا نسب وهو أن يسهين كانوا إذا حرحوا إلى العرو ووصعوا

حفاتيج بيوتهم عند الأعْمَى والمريض والأعرج وعدد أفارهم وأذوهم أن يأكلوا من

بيوتهم فكانوا يتحرحون ويقولون يحشى ألا تسكون نفوسهم بذلك طيبه

(٢) قلت فيما نفاطى شيئاً من الحر واليسر قبل التحريم ففردهم أن ذلك كان

حاشا لهم .



فيه الحرمة فإن نفي الجناح عنه يصدق بوجوبه ، نحو « فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » .

٦ - وإسكار تحريمه في صورة استفهام ، نحو « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ » .

٧ - والامتنان بالشئ ووصفه بأنه رزق حسن ، نحو « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً » .

وهكذا نجد القرآن يفتن في أداء المعنى الواحد بألفاظ وطرق متعددة ، بين إنشاء وإخبار ، وإظهار وإضمار ، وتكلم وغيبة وخطاب ومضى وحضور واستقبال ، واسمية وفعلية ، واستفهام وامتنان ، ووصف ووعد ووعيد إلى غير ذلك . ومن عجب أنه في نحو هذه الكلام من عطف إلى نعت . كثيراً ما نجد سريلاً لا يجارى في سرعته . ثم هو على هذه السرعة المارقة لا يمشي مكباً على وجهه ، مضطرباً أو متمثراً ، بل هو يحتفظ دائماً بمكانته العليا من البلاغة ، « يمشي سويّاً على صراط مستقيم » .

ولقد خلع هذا التصرف والافتنان ، لباساً فضفاضاً من الجدّة والروعة على القرآن ، ومسحه بطابع من الحلاوة والطلاوة ، حتى لا يمل قارئه ، ولا يئس سامعه ، مهما كثرت القراءة والسماع . بل يتقل كل منهما من لون إلى لون ؛ كما يتقل الطائر في روضة عناء من فنن إلى فنن ؛ ومن زهر إلى زهر .

واعلم أن تصرف القول في القرآن على هذا النحو ؛ كان فناً من فنون إحصاء الأسعوى كما ترى ، وكان في الوقت نفسه منة يمنها الله على الناس ؛ ليستفيدوا عن طريقها كثرة المنظر في القرآن والإقبال عليه قراءة وسماعاً ؛ وتذكراً وحملاً ، وأنه لا عذر ممها لمن أهمل هذه النعمة وحسنه . اقرأ إن شئت قوله سبحانه : في سورة الإسراء : « ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ؛ فأبى أكثر الناس إلا كموراً » .

وقوله سبحانه في سورة الكهف : « ولقد صرفنا في هذا القرآن لِقْدَمِ من كل مثلي ، وكان الإنسانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا » وقوله سبحانه في سورة الرعد : « كذلك يصرفُ الله الأمثالَ » .

#### الخاصة السادسة :

جمع لقرآن بين الإجمال والبيان مع أنها عايتان متقابلتان لا يجتمعان في كلام واحد للنسأ بل كلامهم إما محمل وإما ليسين<sup>(١)</sup> لأن الكلمة إما واضحة للمعنى لا تحتاج إلى بيان ، وإما حتمية للمعنى تحتاج إلى بيان ، ولكن القرآن وحده هو الذي انحرفت له العادة ، فلتسمع الجملة منه وإذا هي بيّنة محتملة في آن واحد ، أما أنها بيّنة أو مبينة (متشبهة بالياء ، ونقصها) فلا لب و واضحة للمعنى وضوحاً بهج السس من عاء الشقيب والبحث لأول وهمة ، فإذا أمنت النظر فيها لاحت منها ممان جديدة كلها صحيح أو محتمل لأن يكون صحيحاً ، وكما أمنت فيها النظر رادتكم من المعارف والأسرار ، بقدر ما نصيب أنتم من النظر وما تمحّل من الاستعداد على حد قول القائل .

« يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حُسْنًا إِذَا مَارَدَتْهُ ظُفْرًا »

وهذا أسر وسع كتاب الله لجميع أصحاب اللذهب الحضر من أساء البشر ، ووجد أصحاب هذه نساءب المختلفة وللشارب للتباسة ، شفاء أنفسهم وعقولهم فيه ، وأحدث الأحيار المتعاقبة من مدده للعباض ما جعلهم يحسمون عليه ويدبتون به ولا كذلك البشر

(١) الخمس ماله دلالة غير واضحة ، مخرج للهمل والبيان . واللين ما لا حياء فيه لا ما وقع إليه السياق مقال الأول لعظ القرء وللفظ مختار ، وقوله تعالى : « إلام يتلى عليكم » لأن الأول مررد بين الحيض والطهر ، والثاني بين الماعل والمفعول والثالث محمول معناه قبل رول آية ( حرمت عليكم اللينة ) . واللين نحو : والسارق والسارقة فاقطعوا - و - حرمت عليكم أمهاتكم .

في كلامهم ، وإيهم إذا قصدوا إلى توضيح أعراضهم ، صاقت أعماظهم ولم تنفع لاستنباط وتأويل . وإذا قصدوا إلى إجماعها ، لم يتصح ما أرادوه ، وربما التصق بمبدئ بالآخر وما لا يفيد .

والأمر في هذه الخاصة ظاهر عن بظهوره عن التمثيل ، وحسبك أن ترجع إلى كتب التفسير ، ففيها من ذلك الشيء الكثير ، ولا يثبتك مثل خير .

#### اخلاصة الساعة :

قصد القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى . ومعنى هذا أنك في كل من جمل القرآن ، تجد بيانا مقاصدا مقدرا على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية ، دون أن يزيد اللفظ على المعنى ، أو يقصر عن الوفاء بحاجات انطلق من هداية الخالق ومع هذا التقصد اللفظي البريء من الإسراف والعنفير ، تجده قد حلّى لك المعنى في صورة كاملة ، لا تنقص شيئا يعتبر عنصرا أصليا فيها أو حلية مكملتها ، كما أنها لا تزيد شيئا بغير دخلها فيها وغريب عنها . بل هو كما قال الله : ( كقاب أحكت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ) .

ولا يمكن أن نظفر في عبر القرآن ، بمثل هذا الذي نظفر به في القرآن ، بل كل منطوق بليغ مهما تفوق في البلاغة والبيان ، تجده بين هاتين الفاصلتين ، كزوج بين ضربين : بمقدار ما يرضى إحداهما ينصب الأخرى . فإن ألقى البليغ ياله إلى التقصد في اللفظ وتحليصه بما عسى أن يكون من الفصول فيه ، حمله ذلك في العالب على أن يعبر من شأن المعنى ، فتجنى صورته بأقصة حفية ، ربما يصل اللفظ معها إلى حد الإلغار والتعمية . وإذا ألقى السامع به إلى الوفاء بالمعنى وتحلية صورته كاملة ، حمله ذلك على أن يخرج عن حد التقصد في اللفظ ، كما متى الإسهاب والإكثار ، حرصا على ألا يبرأ شيء من المعنى الذي يقصده ويسكن بذكر حيث أنه يسلم هذا اللفظ من داء التعمية في إسماره ووصوله ، تلك التعمية التي تذهب سهاته ودونته ، وتجعل السامع يتعثر في دبوله ، لا يكاد يميز بين روائد المعنى وأصواته .

وإذ افترض أن يلزم كذب ، خوفيق بين هاتين الامرين وهما : قصد في اللفظ مع الوفاء بمعنى - في حجة أو حجتين من كلامه ، وبين - كلال والإعياء لاند لاحق ، في قيمة هذا الكلام ، ونذر أن صدقه هذا التوفيق مره ثانية ، إلا في الغصة عند الحاجة كما يصادف الإنسان قطعة من الذهب أو لاس في الخبز عند خبز ، وهو يبعث في الترتب أو يفت بين لصحور

وهي كدت في شك فثبت أنه اليأس وصيرفته - هن طفرتم نقطة من لثرت ، أو صدقه من الشعر ، كانت كلها أو أكثره حاصلا بين وقاء المعنى وقصد اللفظ ؟ هاهم أولاء بعدون حكمهم صريحاً أن أربع الشعراء لم يكتب له اقتدير وإلحاده ، والجمع بين معنى الناصع واللفظ الجامع إلا في أبيات معدودة من قصائد معدودة أم سائر شعرهم بعد ، فهم متوسط ودي . وهاهم أولاء يفسرون حكمهم هذا عنه أو أقل منه ، على البائرين من الخطاء والكتائب

وبن أدت أن من بعدك هذه الخاصة ، فافتح لمصنف شريف مرة ، واعمد إلى عملة من كتاب الله ، وأحصها عدد ، ثم حدد عدد تلك الكلمات من أي كلام آخر ، وقارن بين ختمين ، ووال من الكلامين ، وانظر أيهم أملاً تاماً مع قصد في اللفظ مع فهم ، نظر أي كلمة يستطيع أن يقطعها أو يقطعها ، هو خير منها في ذلك الكلام الإلهي ؟ وذكر كلمة يجب أن يقطعها أو يقطعها في ذلك الكلام البشري ؟ إنك إذا حاولت هذه المحاولة ، فتستأنس إلى هذه الحقيقة التي أعلم من عطية في يحكي - يوصلني عنه وهو يتحدث عن ابن أبي الكرم إذ يقول : «لو رعت منه غصة ثم أدركت من أرب على أعطه أحسن منها لم توجد » . وذلك بخلاف كلام الناس مما سمع وعلا ، حتى كلام رسول الله ﷺ الذي أوتي حوامع الحكم ، وأشرقت به سور العموة والوحى ، وصيغ على أكل ما خلق الله ، فيه مع تحميته في سماء حيا ، وسموه على كلام كل إنسان ، لا يزال هناك بول بعد الله ومن القرآن وسعد الله ومحمده سبحانه الله العليم

## تطبيق وتمثيل :

يحلولى أن أسوق إليك هذه كلمة قيمة، فيها تطبيق وتمثيل لما نحن نعدده، وهي لصديقنا العلامة الخليل الشيخ محمد عبدالله درار في كتابه (النسأ العظيم) الذى اقتسم اسمه فيما يتصل بإيجاز القرآن كثيراً .

« قس : إن القرآن الكريم يستثمر دائماً برفق أقل ما يمكن من اللفظ ، فى توليد أكثر ما يمكن من المعانى . أجل : تلك ظاهرة بارزة فيه كله ، يستوى فيها مواضع إيجاله التى يسميها الناس مقام الإيجاز ، ومواضع تفصيله التى يسمونها مقام الإطناب . ولذلك نسميه إيجازاً كله ، لأننا نراه فى كلا المقامين لا يمسأوز سبيل القصد ، ولا يميل إلى الإسراف ميلاً ما . ونرى أن مرايميه فى كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العاصر والخلق بأقل من ألفاظه ولا بما يساويها ، فبمس فيه كلمة إلا هى مفتاح لفائدة جليلة ، وليس فيه حرف إلا جاء لمضى .

دع عنك قول الذى يقول فى بعض الكلمات القرآنية : إنها « مقنعة » وفى بعض حروفه إنها « زائدة » زيادة معنوية . ودع عنك قول الذى يستخف كلمة التأكيد فىرمى بها فى كل موطن يظن فيه الزيادة لا يبالى أن تكون تلك الزيادة فيها معنى المزيد عليه فتصلح لتأكيد أو لا تكون ، ولا يبالى أن يكون بالموضع حاجة إلى هذا التأكيد أو لا حاجة له به . أجل : دع عنك هذا وذاك ؛ فإن الحكيم فى القرآن بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها ، إنما هو ضرب من الجمل - مستورا أو مكشورا - بدقة الميزان الذى وضع عليه أسلوب القرآن . وحذ نفسك أنت بالنصوص فى طلب أسراره اليبسية على ضوء هذا الصباح ، فإن عسى عليك وحده الحكمة فى كلمة منه أو حرف ، فأياك أن تعجل كما يعجل هؤلاء الغفاهون ، ولكن قل قولاً سديداً هو أدى إلى الأمانة والإصاف قل : « الله أعلم بأسرار كلامه ، ولا علم لنا إلا بتعليمه » ثم إياك أن تركى إلى راحة اليأس فتعصد عن استخلاص تلك الأسرار

خائلاً : « أين أنا من فلان وفلان » كلا ، « قرب صغير مفضل قد فطن إلى ما لم يعطن له الكبير لهاصل ، ألا ترى إلى قصة عمر في الأحجية المشهورة <sup>(١)</sup> نجد في الطلب (وقل رب زدني علماً) فحسى الله أن يفتح لك باباً من الفهم تكشف به شيئاً مما عسى على عبرك - والله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور .  
ولضرب لك مثلاً قوله تعالى : « ليس كذلك شيء » .

أكثر أهل العلم قد ترادفت كلمهم على زيادة الكاف بل على وجوب ربانها في هذه الحجة ، فرأى من الحال العقل الذي يقضى إليه بقاءها على معناها الأصلي من التشبيه ؛ إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافية التشبيه عن مثل الله ، فتكون تسلية بشوت المثل له سبحانه : أو على الأقل محتملة لثبوته وانتفاءه ، لأن السالبة كما يقول علماء المذاهب تصدق بعدم الموضوع ، أو لأن النفي - كما يقول علماء النحو - قد يوجه <sup>(٢)</sup> إلى التقييد وقيد حياً . نقول : ليس لفلان ولد يماونه ، إذا لم يكن له ولد قط ، أو كان له ولد لا يماونه . ونقول ( ليس محمد أحاً لعل ) إذا كان أحاً لغير علي - أو لم يكن أحاً لأحد - وقليل منهم من ذهب إلى أنه لا بأس ببقائها على أصلها ، إذ رأى أنها لا تؤدي إلى ذلك الحال لا صا -  
(١) قرأ النبي ﷺ قوله تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة الآية ٢٤ من سورة إبراهيم ١٤ » وقال : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، ولها مثل السلم . فحدثوني ما هي ؟ » نفى على القوم علمها ، وجعلوا يذكرون أمواها من شجر البادية . وفهم ابن عمر أنها النخلة ، وكان عاشر عشرة هو أحدثهم ساء ، وفيهم أبو بكر وعمر . فقال ﷺ : « هي النخلة » الحديث رواه الشيخان . وفي القرآن : « فهما سليمان » الآية ٧٩ من سورة الأنبياء ٢١٥ .

(٢) لعل تمام الكلام : أو لأن النفي - كما يقول علماء النحو - قد يوجه إلى التقييد وحده وقد يوجه إلى التقييد وقيد حياً الخ .

ولا احتمالا ، لأن من مثل المثل يثبته في العقل على المثل أيضا . وذلك أنه لو كان هناك مثل لله . لسكان هذا المثل مثل قطعا وهو الإله الحق نفسه ، فإن كل مماثلين يعد كلاما متلا لصاحبه ، وإذا لا يتم اختفاء مثل المثل إلا بانتفاء المثل ، وهو المطلوب .

وقصارى هذا التوجيه - لو تأملته - أنه مصحح لامرئح ، أى أنه سعى الصرر عن هذا الحرف ، ولكنه لا ثبت قائده ، ولا يبين مسبب الحاجة إليه . أليس ترى أن مؤدى الكلام منه كؤداه بدونه سواء ، وأنه إن كان قد ارداد به شيئا فإنما ارداد شيئا من التكلف والدوران وضربا من التعمية والتعميد . وهل سبيله إلا سبيل الذى أراد أن يقول هذا أخو فلان . قال : هذا ابن أخت خالة فلان ؟ فآله إذا إلى القول بالزيادة التى يثرونها باسم التأكيد . ذلك الاسم الذى لا نعرف له معنى ها هنا ، فإن تأكيد المماثلة ليس مقصودا أبدا ، وتأكيد النفي بحرف يدل على التشبيه هو من الإحالة بمكان .

ولو رجعت إلى نفسك قلها لرأيت هذا الحرف في موقعه محتفظا بقوة دلالة قائما بقطر جليل من المعنى المقصود في جمته ، وأنه لو سقط منها لسقطت معه دعامة المعنى أو تهدم ركن من أركانه . ونحن نبين لك هذا من طريقين أحدهما أدق مسلكا من الآخر : ( الطريق الأول ) وهو أدنى الطريقين إلى فهم الجمهور : أنه لو قبل ( ليس مثله شيء ) لكان ذلك نفيًا للمثل للكافي ، وهو المثل القائم للمماثلة فحسب ؛ إذ أن هذا المعنى هو الذى ينساق إليه الفهم من لفظ المثل عند إطلاقه . وإذا لدب إلى النفس ديب الوسواس والأوهام ؛ أن لعل هنالك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية ولكنها تليها ، وأن عسى أن تكون هذه المنزلة للانسكة والأنبياء ، أولئك الكواكب وقوى الطبيعة ، أو للجن والأوثان والكيهان ، فيكون لهم بالإله الحق شبه ما في قدرته أو علمه ، وشرك ما في حقيقته أو أمره فكان وصع هذا الحرف في الكلام إقصاء لعالم كله عن المماثلة عما يشبه المماثلة وما يبدو منها ، كأنه قيل : ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلا لله ، فضلا عن أن تكون مثلا له على الحقيقة ، وهذا باب من التنفية بالأدنى على الأعلى على حد قوله تعالى ( فلا تغل لها أفع ولا تنهرها ) نهيًا عن يسير الأدنى صريحًا ، وعما فوق اليسير بطريق الأخرى .

( الطريق الثاني ) وهو أدق مسلكاً : أن المقصود الأول من هذه الجملة - وهو  
بني التشبيه - وإن كان يكفى لأدائه أن يقال ( ليس كآفة شيء ) أو ( ليس مثله شيء )  
لكن هذا القدر ليس هو كل ما ترمى إليه الآية الكريمة . بل إنها كما تريد أن تعطيث  
هذا الحكم ، تريد في الوقت نفسه أن تلفتك إلى وجه حجته وطريق برهانه لعقل .

ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفي عن امرئ قبيصة في خلقه قلت : « فلان  
لا يكذب ولا يبيخل » أخرجت كلامك عنه مخرج الدعوى المجردة عن دليلها - فإذا  
ردت فيه كلمة قلت (مثل فلان لا يكذب ولا يبيخل) لم تكن بذلك مشيراً إلى شخص  
آخر بخلافه مبرأ من تلك الصفات ، بل كان هذا تبرئة له هو ببرهان كلي ، وهو أن من  
يكون على مثل صفاته وشبهه الكريمة لا يكون كذلك ؛ لوجود التناقض بين طبيعة هذه  
الصفات وبين تلك النقص للوهوم .

على هذا المنهج البليغ وصحت الآية الكريمة الحكيمة قاطبة : ( مثله تعالى لا يكون  
له مثل ) نعم أن من كانت له تلك الصفات الحسنى وذلك للتل الأعلى ، لا يمكن أن  
يكون له شبه ، ولا يقع الوجود لاثنتين من جنسه ؛ فلا حرم حتى فيها لمغنين كل  
واحد منهما يؤدي معنى الماثلة ليقوم أحدهما ركناً في الدعوى . والآخر دعامة لها وبرهانها .  
فالتشبيه المدلول عليه ( بالكاف ) لما تصوب إليه النقي تأدى به أصل التوحيد المطلوب ،  
ولفظ ( المثل ) للمصرح به في مقام لفظ الجلالة أو صيره نه على برهان ذلك المطلوب .  
واعلم أن البرهان الذي ترشد إليه الآية على هذا الوجه برهان حطريف في إثبات  
وحدة الصانع : لا يعلم أحداً من علماء الكلام حاتم حوله فكل براهينهم في الوحدة  
قائمة على إسقاط التعدد بإبطال لوازمه وآثاره العملية ، حسب ما أرشد إليه قوله تعالى .  
( لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ) .

أما آية الشورى المذكورة فإنها ناظرة إلى معنى وراءه ينتقض فرض التعدد من



أساسه : ويقرر استعجاله الذاتية في نفسه بقطع النظر عن تلك الآثار ، فكأننا بها  
تقول لنا : -

إن حقيقة الإله ليست من تلك الحقائق التي تقبل التعدد والاشتراك والتماثل في  
مفهومها ، كلا ، فإن الذي يقبل ذلك إنما هو السكال الإضافي الناقص . أما السكال التام  
الطلق الذي هو قوام معنى الإلهية فإن حقيقته تأتي على العقل أن يقبل فيها المناجاة  
والانثنية ؛ لأنك مهما حققت معنى الإلهية حققت تقديما على كل شيء ، وإشياء لكل  
شيء ( فاطر السموات والأرض ) ، وحققت سلطانا على كل شيء ، وعلا فوق كل شيء ،  
( له مقاليد السموات والأرض ) . فلو ذهبت تفترض اثنين يشتركان في هذه الصفات  
لتناقضت ، إذ تجعل كل واحد منهما سابقا مسبوقا ومنشأ منشأ ، ومستعليا ، مستعل على  
أو لأحدث السكال المطلق إلى كمال مقيد فيها ، إذ تجعل كل واحد منهما بالإضافة إلى  
صاحبه ليس سابقا ولا مستعليا ، فأى يكون كل منهما إلهًا ، وللا إله المثل الأعلى ؟  
أرايت كم أفدنا من هذه ( الكاف ) وجوها من الداعي كلها شاب كاف . فاحفظ  
هذا المثال ، ونعرف به دقة الميزان الذي وضع عليه النظام الحكيم حرفا حرفا ٥١ .  
وهو كلام حد نفيس ، فاحرص عليه .

### الشبهات الواردة على أسلوب القرآن

نشر أمداء الله على القرآن ، وأتوا في طريق الإيمان به حبلا وعصيا من التخييلات  
والأوهام . من ذلك شبهات لفقوها ووجهوها إلى أسلوبه . وهي مع التوائها وحبها  
تراها مصروحة منقوطة في هذا الكتاب ، ( بالجزء الأول ، من ص ٧٢ - ٧٤ ومن  
صفحة ١٩٩ - ٢٣٢ بالطبعة الثانية ) فارجع إلى ذلك هناك ، والله يتولى توفيقه هدايا  
وهذاك وهو حيننا ونعم الوكيل .

## المبحث السابع عشر

في إعجاز القرآن وما يتعلق به .

إعجاز القرآن مركب إضافي ، معناه بحسب أصل اللفظ : إثبات القرآن هو الخلق من الإتيان بما أتى به . فهو من إضافة المصدر لمفعله ، والمفعول وما تعلق بالفعل محدود للعلم به . والتقدير : إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما أتى به . ولكن التعجيز المذكور ليس مقصودا لذاته ، بل للمقصود لازمه وهو إظهار أن هذا الكتاب حق ، وأن الرسول الذي جاء به رسول صدق . وكذلك الشأن في كل معجزات الأنبياء ، ليس المقصود بها تعجيز الخلق لذات التعجيز ، ولكن لازمه وهو دلالتها على أنهم صادقون فيما يبلغون عن الله . فينتقل الناس من الشك فيهم إلى إيمانهم بصدقهم ، إلى شعورهم بإيمانهم بأنها صادرة من الإله العاقل ، الحكيم العاقل ، وهي إرشادهم إلى تصديق من جاء بها ليسعدوا باتباعه في الدنيا والآخرة .

ولقد تناولنا في المبحث الثالث من هذا الكتاب ، الكلام على المعجزة ما هي أو هي الفرق بينها وبين السحر وغيره ، وعلى وجه دلالتها على تأييد الحق وتصديق الرسل ، مع ضرب الأمثال ونقض الشبهات فارجع إلى ذلك هناك ( ص ٥٦ - ٨٤ من الجزء الأول ) .  
وقبل أن نخوض في موضوعنا هذا ، نشك إلى أننا سنخصص سبداً لنا محمداً ﷺ بالذكر في نفي شبهة القرآن إليه ، وذلك لتنصيص من أول الأمر على ما يشبه محل الراجح أو موصع الاشتباه عند كثير من أشباه الناس . ولأنه إذا كانت طبيعة القرآن تأتي أن ينسب إلى أصل الخلق على أنه من تأليفه ، فأحرى بها أن تأتي نسبتاً إلى غيره بالطريق الأول .  
ومعنى سم الدليل على أن القرآن كلام الله وحده ، سلبت نهوة نبي الإسلام ، وسلم كل ما جاء به القرآن ؛ وسلم الإسلام كله بل سلبت الأديان الصحيحة والكتب الإلهية كلها ؛

لأنه لم يبق على وجه الأرض شاهد مقبول الشهادة إلا هذا الكتاب الذى أنزله الله مقرأً  
لنبوة الأنبياء السابقين وأديانهم ، ومصحفاً لأعلاط اللاعطين فيها والخروجين لها . « وأرسلنا  
إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه »

« الله أكبر ! إن دين محمد وكتابه أهدى وأقوم قيلاً  
لاتدركوا الكتب السوائف عنده طلع الصباح فأنطقى القنديل »

### وجوه إعجاز القرآن

الناظر في هذا الكتاب الكريم بإنصاف ، تترادى له وجوه كثيرة مختلفة من الإيجاز ،  
كما تترادى للناظر إلى قطعة من اللباس ألوان عجيبة متعددة بتعدد ما فيها من زوايا وأصلاع ،  
ومختلفة باختلاف ما يكون عليه الناظر وما تكون عليه قطعة اللباس من الأوضاع . وسنبداً  
بما نراه سليماً من المطاعن ، ثم نقف بما لا يسلم في نظرها من طعن .

### الوجه الأول : لفته وأسلوبه

أما الوجه الأول لفته وأسلوبه ، على نحو ما فصلناه في المبحث السابق ، وبيان ذلك  
أن القرآن جاء بهذا الأسلوب الرائع المخلاب ، الذى اشتمل على تلك الخصائص العليا التى  
تحدثنا عنها والتى لم تجتمع بل لم توجد خاصة واحدة منها فى كلام على نحو ما وجدت فى القرآن  
وكذلك ما كان من هذا الذليل فهو لا شك معجز ، خصوصاً أن النبى ﷺ تحدث به فأعجز  
أساطين النصحاء ، وأعيان مقادير السفهاء ؛ وأخرس ألسنة لقول البيان من أهل صناعة  
اللسان وذلك فى عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإحادة والتبرير فى هذا الميدان ،  
وفى أمة كانت مواهبها محشودة للتموق فى هذه الناحية . وإذا كان أهل الصناعة هؤلاء  
قد عجزوا عن معارضة القرآن ، فمعيهم أشد عجزاً وأخشع عيا .

وها قد مرت على اللغة العربية من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا ، أدوار مختلفة

بين علو و رول ، واتساع واتقباض ، وحركة وجود ، وحساسة وبداعة ، والقرآن في كل هذه الأدوار واقف في عليائه ، يطل على الجميع من سمائه ، وهو يشع نوراً وهداية ، وينصع مذوبة وجلالة ، ويبيل رقة وجزالة ويرف جنة وطلاوة . ولا يزل كما كان غصاً طروباً يحمل راية الإعجاز ويتحدى أمم العالم في يقين وثقة قائلاً في صراحة الحق وقوته ، وسبطان الإعجاز وصولته : « قل لئن احصيت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

### القدر المحجز من القرآن

ومن معيب أمر هذا القرآن وأمر هؤلاء العرب ، أنه طاولهم في المارضة ، وتنازل لهم عن التعدي بجميع القرآن إلى التعدي بمشرسود مثله ، ثم إلى التعدي بسورة واحدة من مثله ، وهم على رغم هذه اللطافة ، ينتقلون من حجر إلى حجر ، ومن هزيمة إلى هزيمة ، وهو في كل مرة من مرات هذا التعدي وهذه اللطافة ، ينتقل من فوز إلى فوز ، ويخرج من نصر إلى نصر .

تصور أنه قال لهم في سورة الطور أول ما تعدهم : « أم يقولون نقوله؟ بل لا يؤمنون » . فنبأوا بمحدث مثله إن كانوا صادقين \* . فلما انقطعوا مد لهم في الحبل وقال في سورة هود : « أم يقولون افتراء؟ قل فأتوا بمشرسود مثله معجزات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » . فإن لم يستحيوا لكم فاعلموا أن الله أول يعلم الله وأن لا إله إلا هو . فهل أنتم مسلمون ؟ » . فلما عجزوا هذه المرة أيضاً طاولهم مرة أخرى ، وأرجى لهم الحبل إلى آخره ، وقال في سورة البقرة : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين \* فإن لم يعملوا ولن يعملوا فأتوا بالدار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » . فكان معمرهم بعد ذلك أشنع وأبشع ، وسجل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر ، فلم يعملوا ولن يعملوا ودحضت

حجتهم وافصح أمرهم ، وظهر أمر الله وم كارهون .

هذا يتبين لك أن القدر المعجز من القرآن هو ما يقدر بأقصر سورة منه ، وأن القائلين بأن المعجز هو كل القرآن لا صفه وهم المعتزلة والمقاتلين بأن المعجز كل ما يصدق عليه أنه قرآن ولو كان أقل من سورة ، كل أولئك عنأى عن الصواب ، وهم محجودون عما بين يديك من الآيات .

### معارضة القرآن

وهل أتاك نبأ الظلم إذ هموا أن يمارضوا القرآن ؟ فكان ما أتوا به باسم المعارضة ، لا يخرج عن أن يكون محاولات مضحكة مخجلة : أخطبهم أمام الجماهير وأصاحت الجماهير منهم . فساءوا بتهذيب من الله وسخط من الناس . وكان مصرعهم هذا كسأ حديد الحق ، ورهاناً مادياً على أن القرآن كلام الله القادر وحده ، لا يستطيع معارضته إنسان ولا جان . ومن ارتاب فأمامه الليدان .

يذكر التاريخ أن مسيلة الكذاب : دغم أنه أوحى إليه بكلام كالقرآن . ثم طلع على الناس بهذا المنكر : « إنا أعطيناك الجاهر » فصل لربك وجاهر » وهذا السجع : « والطاحات طحنا ، والمجانجات عجننا ، والمخايزات خعزأ » . وأنت خير بأن مثل ذلك الإسفاف ليس من المعارضة في قليل ولا كثير ، وأين محاكاة البيهق من فصاحة الإنسان ؟ وأن هذه الحكامات السوقية الركيكة ، من ألقاظ القرآن الرفيعة ومعانيه العالمة ؟ وهل المعارضة إلا الإتيان بعقل الأصل في لفته وأسلوبه ومعانيه أو بأرق منه في ذلك ؟

بمول حجة الأدب العربي ، قبيدنا الرافضى عليه سحائب الرحمة : إن منيفة لم يرد أن يمرض للقرآن من ناحية الصنعة البيانية ؟ إذ كانت هذه الناحية أوضح من أن يتنس أمرها عليه ، أو أن يستطيع تليسها على أحد من العرب ، وإنما أراد أن يتخذ سبيله إلى استهواء قومه من ناحية أخرى ظمها أهون عليه وأقرب تأثيراً في نفوسهم . ذلك أنه رأى معرباً تمظم

السكمان في المحاملة ، وكانت عامة أساليب السكمان من هذا الجمع لقلق الذي يرمون  
أه من كلام الجر ، كقولهم : « يا حييح أمر حييح . رحل فصيح : بقول لا إله إلا  
الله » - ليجاري في المنقب : إسلام عمر وكذلك جعل يطع مثل هذه الأسجاع في  
محاكاة القرآن ، ليومهم أنه يوحى إليه كما يوحى إلى محمد ، كأنها النبوة والسكمانه ضرب  
واحد . على أنه لم يطع في هذه الحيلة أيضاً ، فقد كان كثير من من أشياعه يعرفونه بالكذب  
والخفة ويقولون : إنه لم يكن في تعاطيه السكمانه حاذقاً ولا في دعوى النبوة صادقاً وإنما  
كان اتباعهم إياه كقل قاتلهم : « كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر » .

ويروى التاريخ أن أبا العلاء المعري وأبا الطيب المتقي وابن اللقنع ، حدثهم بقوسهم  
مرة أن يعارضوا القرآن ، فما كادوا يبدؤون هذه المحاولة حتى استهوا منها بتكسير أقلامهم  
وتمزيق صحفهم ؛ لأنهم لم يسمو بأنفسهم ومعرفة الطريق واستعالة المحاولة . وأكبر ظنهم  
وظن السكانيين من قبل ، أنهم كانوا يستقدون من أهمى قلوبهم بلاغة القرآن وإيجازه  
من أول الأمر ، وإنما أرادوا أن يضروا دليلاً حديداً إلى ما لديهم من أدلة ذاقوها بحاستهم  
البيانية ، من باب « ولكن ليطعن قاي » . ويليت شمري ، إن لم يتذوق أمثال هؤلاء  
بلاغة القرآن وإيجازه فن غيرهم ١٩

وتحدثنا الأيام القريبة أن رجاء البهائية ، وقاديانية وضمووا كتباً يزعمون أنهم  
يعارضون بها القرآن ، ثم خافوا وخجلوا أن يظهرها للناس ، فأخفوها وسكن على أمل  
أن تتميز الظروف وبأنى على الناس رسان تروج فيه أمثال هذه السفساف ، إذا ما استقر  
فيهم الجمل « لغة العربية وآدابها ، والدين الإسلامي وكتابه » ألا حيبهم الله وحيب  
ما ياملون .

### في القرآن آلاف المعجزات

عصا من قبل أن القرآن يربده على مائتي آية وستة آلاف آية . وعلمنا اليوم أن رحل  
التحدى قد طال حتى صار سورة ، وأن السورة تصلى سورة الكون وهي ثلاث آيات

قصار، وأن مقدارها من آية أو آيات طويلة له حكم السورة، وأن لأسلوب التبريل سبع خواص لا توجد واحدة منها على كمالها في أي كلام آخر، كما سطر القول في ذلك بالمبحث الآنف . . . فيخلص لنا في ضوء هذه الحقائق أن القرآن مشتمل على آلاف من المعجزات لا معجزة واحدة كما يبدو لبعض السذج والسطحيين؟ وإذا أضعنا إلى هذا ما يحمل القرآن من وجوه الإعجاز التالية، تراءت لنا معجزات متنوعة شتى تحمل عن الإحصاء وانتعداد وسعان من يحل من الواحد كثرة ومضى الفرد أمة! « أولم تكلمهم أنا أرسلناك بالكتاب يتلى عليهم، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » . « ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته حاشماً مُتَصَدِّعاً من خشية الله » . « ولو أن قرآننا سُيِّرَتْ بِهِ الجبالُ أو قُطِعَتْ بِهِ الأرضُ أو كُذِّبَ بِهِ الموتى » أي لكأن هذا القرآن ! .

### معجزات القرآن خالدة

وهنا نلفت النظر إلى أن القرآن لما اشتمل عليه من هذه المعجزات الكثيرة، قد كتب له الخلود فلم يذهب بذهاب الأيام، ولم يمت عوت الرسول عليه الصلاة والسلام بل هو قائم في قم الدنيا يحاج كل مكذب، ويتحدى كل منكر، ويدعو أمم العالمين إلى ما فيه من هداية الإسلام وسعادة بني الإنسان . ومن هذا يظهر الفرق جلياً بين معجزات نبي الإسلام ﷺ ومعجزات إخوانه الأنبياء عليهم أركى الصلاة وأتم السلام . فمعجزات محمد في القرآن وحده آلاف مؤلفة، وهي متمتعة بالبقاء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم حتى يرث الله الأرض ومن عليها . أما معجزات سائر الرسل فمحدودة العدد، قصيرة الأمد، ذهبت بذهاب زمانهم، وماتت بموتهم، ومن يطلبها الآن، لا يجدها إلا في حجر كان، ولا يسلم له شاهدها إلا هذا القرآن! . وتلك نعمة يحيا القرآن على سائر الكتب والرسل وما صح من الأديان كافة . قال تعالى : « وأرسلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليه » . وقال عز اسمه « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله » .

## حكمة بالغة في هذا الاختيار

وهذه صفة هبيلة ، لنظم أن حكمة الله البالغة قضت أن تكون معجزة الإسلام باقية عماده تؤيده وتبرزه إلى قيام الساعة ، حتى لا يكون لأحد عذر في ترك هذا الدين الأخير ، والذي هو حاتمة الأديان والشرائع . لذلك اختار سبحانه أن تكون معجزة الإسلام شيئاً يصلح للنساء ، فكانت دون سواها كلاماً يتلى في أذن الدهر ، وحديثاً يقرأ على سمع الزمان . وكان من أسرار الإعجاز فيه بلوغه من الفصاحة والبيان مبلغاً يعجز الخلق أجمعين . وكان من عدله تعالى ورحمته ، أن اللغة التي صيغت بها هذه المعجزة ، هي اللغة العربية دون غيرها من اللغات ؛ لأن اللغة العربية حين مبعث الرسول ﷺ ، كانت قد بلغت لدى الشعب العربي أوج عطمتها من الاعتناء بها ، والاعتداد بالتأنيث فيها ، والاعتزاز بالحيد منها . وكان هذا الشعب العربي قد استكمل له حينذاك ملكة في التقدير والفاطنة ، تؤهله بسهولة وسر ، للحكم على حيد الكلام وزيقه ، ووضع كل كلام في درجته من الملو أو العرو . ورجع راعتهم في هذه الناحية إلى أنهم كانوا قد وقفوا عليها حياتهم ، والتسوا من وراثتها عطمتهم . وعلقوا عليها آمالهم .

ولا يعبى عنك أن هذا الشعب العربي كان مطبوعاً أيامئذ على الصراحة في الرأي ، لا يعرف الدفق ولا الدبذبة . وكانوا فوق ذلك شجعاناً يأثرون للذل ويمامون لصيم ، مهما كادتهم سعادياتهم منه من يذل مال وسفك دم . فلما نزل القرآن لم يسع هذا الشعب الحر الصريح إلا أن يتمهر في لغته ، إلا أن يلقي السلاح من يده ، ويخضع لسلطان هذا التبريل وبلاعة . وبغير له ويؤمن به ، عن إدراكه ووجدانه ، بعد أن داق حلاوته . ولمس إعجازه وحكمه بمسكنه العربية الناقدة وصراحته المروقة السافرة ، وشجاعته النادرة العاقبة ، أن هذا الذكر الحكيم ، لا يمكن أن يكون كلام مخلوق من البشر ولا غير البشر ، إنما هو تنزيل من حكيم حميد .



## بهذه الشهادة يتضح العالم كله

شهادة هذا شأنها، وهذا شأن من شهد بها، جديرة أن يتضح بها العالم حين يتفحصها بالقبول، كما يتلقى بالقبول شهادة لجان التحكيم في هذا العصر، قوة مما بأنهم يقيمون بحسنون المقارنة وللوازنة، وأطمئنانا إلى أنهم عادلون لا يعرفون المحاباة وللداهنة. بل شهادة أولئك العرب أركى وأظهر، وأحكم وأقوم؛ لأنها صدرت عن أعداء القرآن حين نزوله، بعد محاولات، ومساومات، ومحضهم محضا عنيفا، وألحظهم إلحافاً مريراً. « وانفضل ما شهدت به الأعداء ».

## أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي

وبما يفيد في هذا المقام ويدفع التلبس، أن تعرف بدمابين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي الشريف. ولا أدل على ذلك من أن بين يدي التاريخ إلى يوم الناس هذا آلافا مؤلفة من كتب السنة، تملأ دور الكتب في الشرق والغرب، وتنادى كل من له إلمام وذوق في البيان العربي: أن علم لتحس بحاستك البيانية، للذي البعيد بين أسلوب القرآن والحديث، ولتؤمن من وجدان بأن أسلوب التبريل أصل وأجل من أسلوب الأحاديث النبوية، علواً خارجاً للعادة، خارجاً عن محيط الطاقة البشرية، وإن بلغ كلام الرسول ﷺ في جودته وروعته وجلالاته، ما جعله خير بيان لغير إنسان.

غير أن هذه الفوارق - كما قلنا - فوارق فنية لا يدركها إلا الذين أوتوا حظاً عظيماً من معرفة السان العربي والذوق العربي. ولقد زل القرآن أول ما زل، على أمة العرب وهم مطبوعون على اللغة القصصية، منقطعون لإحيائها وترقيتها وكأوا يتعاملون بينهم بالتعوق في علو البيان وفصاحة اللسان، حتى بلغ من تقديسهم لهذا أنهم كانوا يقيمون المعارض العامة للتفاخر والتفاضل بصيغ المنظوم ويبلغ للشعر، وحتى إن القبيلة كان يرفعها بيت

واحد من لشعركون رائياً في مدحها ، ويصعها بيت تكون لادعاف في دمها . ولقد كان هؤلاء العرب يعرفون نبي الإسلام ويعرفون مقدرته الكلامية من قبل أن يوحى إليه ، فلم يحطّر بدل مصعب منهم أن يقول : إن هذا القرآن كلام محمد ، وذلك لما يرى من المدرجات الواضحة بين لغة القرآن ولغة الرسول عليه الصلاة والسلام .

بصاف إلى هذا أنه لم يعرف في شأنه بينهم بالخطأ ولا بالكتابة ولا بشعر ، ولم يؤثر أنه شاركهم في معاصمهم وأسواقهم العامة التي كانوا يجتمعون فيها للتسابق في البلي . بل كان متبلاً عن شأنه . راعداً في الظهور ميالاً إلى الدرة وكل ما شتهر به قبل النبوة أنه كان صادقاً لم يجربوا عليه كذبا ، أميناً ما خان أبداً ، ميمون العقيدة على الأخلاق علواً ممتازاً ! . فهل يعقل أن رجلاً سلخ عهد شبابه وكهولته على هذا النمط ، يجيء في سن الشيخوخة ينافس العالم كله ويتعداه شيء من لدنه ، وهو الذي ما نافس أحداً قبل ذلك ولا نتحده ، بل كان من حافة الحياء والنواضع وعدم الاستطالة على خلق الله ؟ . ثم هل يتصور أن هذا الإنسان الكامل يتورع عن الكذب على الناس في صباه وشبابه وكهولته ، ثم يجيء في سن الشيخوخة فيكذب أو طع الكذب على الله ؟ . ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ؟ .

ألا إن وجود القرآن كلاماً مثلاً لم ينقص كلمة ولا حرفاً ، لرحمة واسمة من الله ، مادام لم تنس لأحد كتاب في أمه ، عبر هذا الكتاب الذي يهمل الظالمون من محرم الروى في كل عصر ، وماوى المصعون إلى هذه الزمان في كل مصر ، وبكتبت فيهم فيه من سمات الألوهية أرباعاً في كل أقط ، مصداقاً لقوله سبحانه « سريرهم أيتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ولقوله صلى الله عليه وسلم « ما من نبي من الأنبياء إلا أعطى من الآيات ما أمته عليه البشر ، وإماما

كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله تعالى إلى فأرحو أن أكون أكثرهم ناساً يوم القيامة»  
رواه الشيخان .

### الوجه الثاني طريقة تأليفه

وبيان ذلك أن القرآن لم ينزل جملة واحدة، وإنما نزل منفراً منعجاً على أكثر من عشرين عاماً، على حسب الوقائع والدواعي المتعددة، كما تقدم بيانه في المبحث الثالث من هذا الكتاب، وكان الرسول ﷺ كلما نزل عليه نجم من تلك النجوم قال : ضموه في مكان كذا من سورة كذا. وهو بشر لا يدري (طبعاً) ما ستحي به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث، فضلاً عما سينزل فيها . ثم مضى العمر الطويل والرسول على هذا العهد، وإذا القرآن كله بعد ذلك يسكل ويتم، وينظم ويقاخي وبأنلف وينسجم، ولا يؤخذ عليه شيء من الغفائل والغفوات، بل كان من ضروب إجهازه ما فيه من انسجام ووحدة وترايط، حتى إن الناظر فيه دون أن يعلم بتلجيم نزوله، لا يخطر على باله أنه نزل منعجاً، وحتى إنك مهما أعمت النظر وبجست، لا تستطيع أن تجد فرقاً بين السور التي نزلت جملة والسور التي نزلت منعجة، من حيث أحكام الربط في كل منهما، فسورة البقرة مثلاً وقد نزلت بضمة وثمانين نجماً في تسع سنين<sup>(١)</sup>. لا تجد فرقاً بينها وبين سورة الأنعام التي نزلت دفعة واحدة كما يقول الجمهور<sup>(٢)</sup> من حيث

(١) وحده نزولها في تسع سنين أنها جمعت بين ما نزل في مبادئ السنة الثانية للهجرة، كآيات تحويل القسلة وآيات تشريع صوم رمضان وبين آخر القرآن رولا على الإطلاق، وهو آية « واتقوا يوماً ترحمون فيه إلى الله » التي ورد أنها نزلت قبل وفاته ﷺ بتسع ليال فقط .

(٢) رواه الطبراني موقوفاً على ابن عباس ورواه أبي بن كعب مرفوعاً بسند ضعيف.

نظام المبني ودقة المعنى وتماسك الوحدة الفنية وإذا قرأت سورة الصبح وسورة  
اقرأ وسورة الماعون، لا تشعر بفارق بينها وبين كثير من السور القصار مثلها من حيث  
الإحكام والوحدة والاستجمام كذلك، على حين أن تلك السور الثلاث رلت كل واحدة  
مما مفرقة على محمين ! قل لي بريك : هل يجوز في عقل عاقل أن يكون هذا القرآن  
كلام محمد أو غير محمد، مع ما علمت من هذا الانفصال الزماني البعيد بين أول ما نزل وآخره،  
ومع ما علمت من ارتباط كل نجم بمعادته من أحداث الزمن ووقائعه، ومع ما علمت من  
أن ترتيب هذه النجوم في القرآن ليس على ترتيب هذا النزول الخاضع للعدتان، بدليل  
أن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً - وهو صدر سورة اقرأ - مدون بالمصحف في أواخره،  
وبدليل أن آخر ما نزل منه إطلاقاً - وهو آية « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » -  
مدون بالمصحف في أوائله ؟؟

إن كنت في شك من أن هذا الكتاب الحكم الرصين قد جاء في طريقة تأليفه  
مجزأة، فاجمع أهل الدنيا بظاهر مصمم مضاء، واطلب إليهم أن يؤثفوا لك كتاباً في حجم  
سورة البقرة لا في حجم سور القرآن كله، لكن على شرط أن تكون طريقة تأليفه هي  
الطريقة التي حصلت لها سورة البقرة، من الارتباط بأحداث الزمن ووقائعه، ومن وضع  
هذه النجوم - مرة غير مرتبة في الكتاب بترتيب الأحداث والوقائع ثم من تمام هذا الكتاب  
أخيراً على وحدة دمية تربط بين بداياته ونهاياته وأواسطه وسائر أجزائه ؟ فإن لم يفعلوا  
ولم يفعلوا ؟ فاطلب إليهم أن يسدوا مثلاً إلى حديث النبي ﷺ وهو ما هو في روعته  
وبلاغته وطهره وسعوه، وقد قاله الرسول ﷺ في أوقات مختلفة، وألم بعد ذلك هل  
فيمكنهم أن يظفروا من هذا السرد الثابت للماثل أمامهم، كتاباً واحداً يصح له الاسترسال  
والوحدة كالتفرآ، من غير أن يقتصوا منه أو يريدوا عليه أو يتصرخوا به ؟! ذلك ما إن  
يكون ولا يمكن أن يكون، ومن حاوله من الخلق فإنما يحاول الميت العائم، وسيخرج إلى

الناس من هذه المحاولة بثوب مرقع ، وكلام مشوش ، ينقصه التراط والاسهام ، ونوره  
الوحدة والاسترسال ، ونعته الاستماع والأفهام .  
إذن فالقرآن الكريم تنطق طريقة تأليفه ، بأنه لا يمكن أن يكون صادراً إلا من  
له سلطان الكامل على الفلك ودورته ، والعلم المحيط بالزمان وحوادثه ، والبقاء السرمدي  
حتى يبلغ مراده وينفذ مشيئته . ذلكم الله وحده الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض  
والذي يعلم الغيب في السموات وفي الأرض ، والذي لا يذوق الموت ولا تأخذه سنة ولا نوم  
لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه . « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس  
لا يعلمون » .

### الوجه الثالث علومه ومعارفه

وبيان ذلك أن القرآن قد اشتمل على علوم ومعارف في هدابة الخلق إلى الحق .  
بلغت من نبالة القصد ، ونصاعة الحجة وحسن الأثر وعموم النفع ، مبلغاً يستحيل على  
محمد وهو رجل أمي نشأ بين الأميين أن يأتي بها من عند نفسه . بل يستحيل على أهل الأرض  
جميعاً من علماء وأدباء وفلاسفة ومشرعين وأخلاقيين ، أن يأتوا من تلقاء أنفسهم بمثله .  
هذا هو التنزيل الحكيم ، تروؤه فإذا بحر المعلوم والمعارف متلاطم زاهر ، وإذا روح  
الإصلاح فيه قوى ظاهر . ثم إذا هو يجمع الكمال من أطرافه . فبينما تراه يصلح ما أفسده  
الفلاسفة وفلسفتهم ، إذ تراه يهدم ما تروى فيه الوثنيون بشركتهم . وبينما تراه يصحح  
ما حربه أهل الأديان في دياناتهم ، إذ تراه يقدم للإنسانية مزيجاً صالحاً من عقيدة راشدة  
ترمى همه العبد ، وعبادة قومة تطهر نفس الإنسان ، وأخلاق عالية تؤهل المرء لأن يكون  
حليمة الله في الأرض ، وأحكام شخصية ومدنية واجتماعية تكفل حياة المجتمع من العوصى  
والعساد ، ونصن له حياة للطائفة والنظام والسلام والسعادة . ديناً قياً يباوق العطرة ،  
ويؤتم الطبيعة ، ويشبع حاجات القلب والعقل ، ويوفق بين مطالب الروح والجسد ، ويؤام  
بين مصالح الدين والدنيا ، ويجمع بين عز الآخرة والأولى . كل ذلك في قصد واعتدال ،

وبراهين واضحة مقبحة تهر العقل وتلك تلك . والكلام على هذه التفاصيل يستبعد محلاً بل محلات ، فنتجىء من أمثلة وإشارات ، ولتجربها في موضوع العقائد التي هي واحدة في جميع أديان الله بحسب أصلها بل لتجرب . ولتعرض في هذه الأمثلة إلى شيء من المقارنة بين تعاليم الإسلام وتعاليم اليهود والمصارى على عهد برونه ، ثم إلى شيء من رد القرآن عليهم وتصحيحه لأعلاطهم ووضحه لأبطليلهم ، ومقتضينا من هذا قطع السمة خراصة ، زعم أصحابها أن تعاليم القرآن استمدتها محمد من بعض أهل الكتاب في عصره ثم أسبغ إلى ربه ، ليستمد من هذه النسبة قدسيته « كبريت كلمة تخرج من أفواههم . إن يقولون إلا كذباً » .

### ١ - أمثلة من عقيدة الإيمان بالله :

١ - جاء القرآن بالعقيدة في الله بوضاء نفية ، نزهه فيها عن جميع الصفات ، ونص على استعالة الولد وكل ما يشبه بمشابهة الخالق بالخلق ، ووصف الله بانكسار المطلق ، ونص على وحدانيته في ربوبيته وحدانيته في ألوهيته ، بمعنى أنه أحد في تدبير خلقه وأحد في استعاقبة العبادة دون غيره ، ألم تر أنه يقول : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » ويقول : « قتل الخلد الذي لم يتخذوها ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الدن وكبره تكبيراً » ويقول : « قل أغير الله أحمد ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطمع ولا يطمع » . ويقول : « قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ؟ إن كنتم تعلمون » . ويقول : « فلا تدع مع الله أحداً » ويقول : « ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فربك إذن من الظالمين » . وإن يتسلسل الله بصير فلا كاشف له إلا هو ، وإن ير ذلك بحير فلا راد لمصيره ، يصيبه من شاء من عباده وهو الغفور الرحيم . ويقول : « إن الله يعمد الدنوب حقيقاً بأنه هو الغفور الرحيم » ويقول : « ومن يعمد الدنوب إلا الله ؟ » ويقول : « قل لا أقول لكم عدي حرائث الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك » . ويقول : « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطير » .

إلى تدسوم لا يسمو دعيكم ، ولو تيموا ما استعابوا سكر . ويوم القيمة تكفرون  
شرككم ، ولا يستك مثل حبر \* يأتيه الدين أنتم عقراء إلى الله ، والله هو العلي الجيد \*  
ويقول : « قل ادعوا إلى ربهم من دونه ، فلا يسكون كشمع المبرء . كم ولا عمو لا \*  
أولئك الذين يدعون ينعون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرحون رحمة الله ، ويخشون  
عذابه ؛ إن عذاب ربك كان محذورا » إلى غير ذلك وهو حد كثير .

٢ - وضل اليهود بعد موسى فعبدوا بعل ، وزعموا في عهد من عهدهم ما رعت  
لنصارى من أن الله أبنا ، وشبهوا الله تعالى بالإنسان فعموه بأنه تمب من خلق السموات  
والأرض فاستراح يوم السبت وركبوا رءوسهم فقالوا إنه سبحانه ظهر في شكل إنسان  
وصارع إسرائيل فلم يقدر على التفات منه حتى باركه فأطلقه . إلى غير ذلك من أعلامهم  
وفصائحهم .

٣ - وضل النصارى بعد عيسى ، فذهبوا إلى عقيدة معتدة من التثليث وصارت  
كسائسهم من عهد قسطنطين كما ياكل الوثنية الأولى وخلصوا على رجال كهواتهم ، هو  
حق الله وحده من التشريع والتعليل والتعريم ، حتى تعرى سم وثنيو العرب ورأوا أنهم  
أمثل من هؤلاء المسيحيين في الوثنية ، « ولا ضرب أن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون \*  
وقالوا : أكنهن خير أم هو ؟ ثم احتجوا على شركهم بأنهم ما سمعوا دعوة القوي هذا الذي  
جاء به الإسلام في الملة الآخرة ، « وانطلق للآ منكم أن أمشوا واصبروا على آهتكم إن  
هذا شيء يراد \* ما سمعت بهذا في الملة الآخرة » أي النصرانية .

٤ - فانظر مدى ابهون الشاسع بين الحق الذي جاء به القرآن في هذا الباب ، وبين  
الباطل الذي جاء به هؤلاء أو هؤلاء على أن كتاب الله لم يكتب سلك ، بل رد على  
المبطلين براهينه الساطعة وأدلتها الداعمة استمع إليه وهو يقول . « قل بأهل الكتاب  
تعملوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعد إلا الله ولا نشرث به شيئا ولا نتحد  
بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ويقول :

« يَا هَلْ الْكُفَّابَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ . إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَفَنَتْهُ أُنْقَاةَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَأَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً ، انْتَهَوْا حَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ . سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ : لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . لَنْ يَتَّخِذَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ لِلْقُرُونِ . وَمَنْ يَتَّخِذَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرُ فَيُحْشَرُ إِلَيْهِ جَمِيعًا » . ويقول : « مَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ، كَانَتْ بَابًا كَلَانِ الطَّامَامِ . انْظُرْ كَيْفَ نَبِيٍّ لَمْ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَيُّ يَوْمَئِذٍ يَكُونُ » قل أنبيدوا من دون الله م لا يملك لكم ضرًا ولا نفعًا والله هو السميع العليم \* قل يا هَلْ الْكِتَابَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا مِنْ صُلُوبٍ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ \* . ويقول : « بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَيُّ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَحَقُّ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » ويقول في بني الشعب الذي اتَّخَذَهُ الْيَهُودَ عَلَى اللَّهِ : « وَلَتَنْبِئَنَّ خَلْقًا لِلْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَبْجَامٍ ، وَمَامَسَّا مِنْ نُحُوبٍ » . ويقول نبيًا عليهم في عَادَةِ صَلَّ : « اتَّعِدُّوا مَلَأًا وَتَذَرُوا أَحْسَنَ الْخَلْقَيْنِ \* اللَّهُ رَكِبَكُمْ وَرَبُّ أَمَّاكُمْ الْأَوَّلِينَ \* » ويقول نبيًا عليهم في قِرْبَةِ أُخْرَى : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ نَدُّ اللَّهِ مَمْلُوءَةٌ . عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعَنُوا بِمَا قَالُوا . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفْتَقُ كَيْفَ يَشَاءُ » ويقول في مِي ابْنُوهُ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُمُ وَالنَّصَارَى « وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزٌ ابْنُ اللَّهِ ، وَهُوَ ابْنُ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ . ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ، يُصَاهِنُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ . قَالَهُمْ اللَّهُ أَيُّ يَوْمَئِذٍ يَكُونُ » اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ . وَمَا أَمْرُوهُ إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَهًُا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ \* يَرِيدُونَ أَنْ يُطْعَمُوا يَوْمَ اللَّهِ بِاللَّهِ بِالْقَوْلِ . وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ تَوْرَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ \* . »

ب - أُمَّتُهُ مِنْ عَقِيدَةِ الْبَيْتِ وَالْجِزَاءِ :

١ - جاء القرآن بتعقيد البيت ضد اللوث واضعة شاملة للروح والجسد ، عادلة لا ظلم



حيها ولا عيابة، مقسطة لا شفاعة هناك بالمعنى القاسط ولا فداء، عامة لا فصل لحسن ولا لطائفة ولا لشخص إلا بالتقوى. اقرأ إن شئت قوله سبحانه: « والله أمتكم من الأرض نبأنا » ثم يسيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً » وقوله: « أيعجب الإنسان أن يترك سدى؟ ألم يك طعة من منى يعنى » ثم كان علقه علقى فوسى » فجعل منه الرّوحين المذكور والأثنى » أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ » وقوله: « ونضع الموارير القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً . وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها » وكفى بما حاسبين » وقوله: « فن يسل مثقال ذرة خيراً يره » ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . وقوله: « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يضل بها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » » وقوله: « فإذا نفخ في الصور فلا أسأب بينهم يومئذ ولا يفسألون » .

٢ - وصل اليهود فرحموا أنهم الشعب المختار من بين شعوب الأرض ، وأهم أساء الله وأحباؤه ، وأن النار الآخرة خالصة لهم من دون الناس ، وأن النار لن تمسهم إلا أباما معدودة هي مدة عبادتهم العمل أربعين يوماً .

٣ - وصل النصارى فرحموا أيضاً أنهم أبناء الله وأحباؤه وذهبوا مذهب اليهودى كرسنة أنه قتل وصلب ليخلص الإنسان ويفديه من الخطيئة ، فهو المخلص العادى الذى يخلص اساس من عقوبة الخطايا ويفديهم بنفسه ، وهو الأقنوم الثانى من الثلوث الإلهى الذى هو عين الأول والثالث وكل منهما عين الآخر . كذلك قال اليهودى كرسنة، ثم جاء محرقة النصارى فتاسوم على هذا الخيال القاسد، الذى تأباه العقول والنطاع، ولا يتفق وعدل الله وحكمته فى الجزاء والمسؤولية . ولم يستطع الخاطئون فى الصلال أن يروحوه فى ضحاياهم إلا بترويضهم عليه من عهد الصخر ، وتفتشهم على سماعة واعتقاده من غير بحث ولا نظر ، بل قالوا : « اعتقدوا أنت أحمى » .

٤ - وصل نساك النصارى فتاسوا المنود أيضاً ، فى احتقار اللغات المادية ، وفى

تربية المعوس على الحرمان وتنذيب الجسد ، وزادوا الطين بلة فقالوا : إننا نبعث  
روحاً من مجرد عن إعادة الجسم ، محدوعين بتلك النظرية الفلسفية الخاطئة وهي احتقار الذات  
المادة وضمهم إليها بأنها حيوانية . وغاب عنهم أنها لا تكون نقصاً إلا إذا سخر الإنسان  
عقله وقواه لها ، وأسرف فيها إسرافاً يشغله عن الذات العملية والروحية القائمة على العلم  
الدافع ولعمل الصالح . أما إذا اعتدل فيها ووفق بين اللطائف الروحية والجسمية ، فذلك  
مفخرة للإنسان وميزة لنوع الإنسان ، بها صار عالمًا عجيباً جمع بين روحانية الملائكة وجنانية  
الحيوان والنبات ، وقد خلقه الله في الدنيا مظهرًا من مظاهر إبداعه وإقناده ، فكيف  
ينقص ما كوت الآخرة هذا المظهر العجيب ، على حين أن الآخرة هي دار البهائم  
والغرائب ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؟ ! وإن الآخرة  
لهي الحيوان لو كانوا يعلمون .

• وكذلك ضل متطرفة اليهود فمكسوا الأمر ، وأفرطوا في حب المادة حتى  
أحلوا لأنفسهم جميعاً من أي طريق ، وبالفوا في استنزاف دماء العالم بالربا وأكل أموال  
الذس بالباطل وظنوا أن لا جناح عليهم إذا دزءوا أي عنصر غريب عنهم ذلك بأنهم  
ظالموا لبس علينا في الأميين سبيل .

٦ - ولما كان القرآن قد جاء برد هؤلاء وهؤلاء إلى حادة الاعتدال ، ووقف موقفاً  
وسطاً يرجع إليه العالي وينتهي إليه المنصر ، فأعلن عقيدته في وصوح على نحو ما ذكرناه .  
وناول أخطأهم المذكورة بالإصلاح والتقويم فقال في معرض الرد على أهم الشعب المختار :  
« قل إن كانت لكم الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين •  
ولم يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم . والله عليم بالظالمين • » وقال في هذا المرض أيضاً : « يا أيها  
الناس ! ما حلفكم من ذكر وأنتى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله  
اتقاكم ! إن الله عليمٌ خبيرٌ • » وقال أيضاً : « ليس بآمانتكم ولا أمانتي أهل الكتاب .  
من يعمل سوءاً يجز به ولا يجز له من دون الله ولياً ولا نصيراً • » ومن يعمل من الصالحات



«ورهبانية استدعوا، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها»  
وعاب على اليهود خيانتهم وظلمهم للشعوب فقال: «ومنهم من إن نأمنه بدينار لا يؤده  
إليك إلا ما دمت عليه ظمًا. ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل». ويقولون  
على الله لكذب وهم يعلمون \* بلى من أوفى بعهده وانقضى فإن الله يحب المتقين \* إن  
الذين يشترون عهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة، ولا يكلمهم  
الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكهم، ولهم عذاب أليم \* . وقال: «الذين  
يأكلون الرمالا يقومون إلا كما يقوم الذي تتخبطه الشيطان من اللس ذلك بأنهم قالوا  
إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا». وقال: «ولا تأكلوا أموالكم بينكم  
مسلطاً وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون».  
إلى غير ذلك من آيات كثيرة في هذه اللواضع.

والذي يريد أن تفطن له هنا، هو أن هداية القرآن كما رأيت هداية نامة عامة  
صححت معارف القلام فقلالكين على البحث والنظر كما صححت معارف الأميين ومن  
لا ينتهي إلى العلم بسبب. وصححت أغلاط أهل الكتاب من يهود ونصارى، كما  
صححت أغلاط مؤلفة الحجر وعبد الوثن. وإذن فليس يصح في الأذهان شيء إذا قيل  
إن هذه الهدايات القرآنية ليست وحيا من الله، وإنما هي نامة من نفس محمد الأمي الناصي.  
في الأميين وليس يصح في الأذهان شيء إذا قيل إنه ~~مخترع~~ قد استقى هذه الهدايات من  
معص أهل الكتاب الذين لديهم في الجزيرة العربية، ولو صح هذا لكانوا هم أولى منه  
بدعوى الرسالة والنبوة. وكيف يصح هذا والقرآن هو الذي علمهم ما جهلوا من حقائق  
ديهم؟ وهل فاقده شيء يعطيه؟ وحسبك ما قدمناه لك من تلك الأمثلة التي تتصل  
بأساس الأديان وصميم العقائد، والتي تريك بالمتظار الكبير أن القرآن جالس على كرسى  
الاستاذية العالي للعالم كله يعلم اليهود والنصارى وغير اليهود والنصارى، لا على مقعد  
التلمذة الدنيا تتلف من هؤلاء وهؤلاء.

إلى لم يكفك ما سمعت، فدونك القرآن تصفحه وتحول في آفاقه وماهيك مثل قوله :  
 « يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْبُو  
 عَنْ كَثِيرٍ . قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ \* يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ حُرُوفَهُ سُبُلَ  
 السَّلامِ . وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ومثل  
 قوله : « يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ هِيَ فَتْرَةٌ مِنَ الرِّسَالِ أَنْ تَقُولُوا  
 مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ . فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

وإن شئت أكثر من هذا فعامل كيف أعلن الحق في صراحة أن بيانه لأهل  
 الكتاب ما اختلفوا فيه هو من مقاصده الأولى ، إذ قال في سورة النحل : « وما أَرْسَلْنَا  
 عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِمُبَيِّنٍ لَهُمْ » الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » هكذا  
 قدم أنه بيان لما اختلف فيه الكتابيون ، قبل أن يقول : وهدى ورحمة لقوم يؤمنون !  
 وكذلك قال في سورة النحل : « إن هذا القرآن يقصص على بني إسرائيل أكثر  
 الذي هم فيه يختلفون » وإياه هدى ورحمة للمؤمنين \* إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو  
 العزيزُ العليمُ \* فتوكل على الله فإنه على الحق المبين » .

لقد لفت القرآن نفسه أنظار الناس إلى هذه الناحية من الإيجاز وأقام الدليل على  
 أنه كلام الله ولا يمكن أن يكون كلام محمد ، إذ قال جنت حكمته في سورة المائدة :  
 « وكذلك أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ، فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ  
 يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ \* وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ  
 وَلَا تَحِطُ بِمِيقَاتِهِ ، إِذْ لَا رَتَابَ لِلْعَاطِلِينَ \* بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا  
 العلمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ » وإذ قال سبحانه مرة أخرى في سورة الشورى :  
 وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان  
 ولكن جعلناه نورا هدى من شاء من عباده . وإليك تهدي إلى صراط مستقيم \*  
 صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » .

ويرحم الله البوصيري في قوله :

« كمالك بالعلم في الأمي مُعْجَزَةٌ في الجاهلية والتأديب في اليم »  
صلى الله عليه وسلم ، ومجد وعظم ، وشرف وكرم ، ورزقنا كمال الإيمان به وكمال  
اتساعه ، آمين .

### الوجه الرابع وقاؤه بحاجات البشر

ومعنى هذا أن القرآن الكريم جاء بهدايات تامة كاملة ، تفي بحاجات البشر في كل عصر  
ومصر ، وفاء لا نظير له في أي تشريع ولا في أي دين آخر . ويتجلى لك هذا إذا استعصمت  
المقاصد السبيلة التي رعى إليها القرآن في هدايته ، والتي نعرض عليك من عاصيلها ما يأتي :  
أولا : إصلاح العقائد عن طريق إرشاد الخلق إلى حقائق الابدأ والعاد وما بينهما  
تحت عنوان الإيمان بالله تعالى وملائكه ورسوله واليوم الآخر .

ثانيا : إصلاح العبادات عن طريق إرشاد الخلق إلى ما يتركب النفوس ويمد الأرواح  
ويقوم الإرادة ويميد الفرد والمجموع منها .

ثالثا : إصلاح الأخلاق عن طريق إرشاد الخلق إلى صفاتهم وتغييرهم من ردائلها ، في  
قصد واعتدال وعند حد وسط لا إفراط فيه ولا تعريط .

رابعا : إصلاح الاجتماع عن طريق إرشاد الخلق إلى توحيد صفوفهم ومحو العصبية  
وإزالة العوارق التي تباعد بينهم . وذلك بإشعارهم أنهم جلس واحد من نفس واحدة ومن  
عائلة واحدة أبوم آدم وأمه حواء ، وأنه لا فصل لشعب على شعب ولا لأحد على أحد  
إلا بالتعوى . وأهم مقاصد أمام الله ودينه وتشريعه ، متكاثرون في الأممية وفي  
الحقوق والتمتع من غير احتقانات ولا امتيازات . وأن الإسلام عقد إحياء بينهم  
أقوى من إحياء النسب والمصعب . وأن لساهم العام هو لسان هذا الدين ولسان كتابه :  
(لغة العرب) وأهم أمة واحدة يؤلف بينها للبدأ ولا تفرقها الحدود الإقليمية ولا العواصم

السياسية والوصفية ؛ « وإن هذه أمتكم أمة واحدة » ، وأنا ربكم فاتقوا » ،

خامس : إصلاح السياسة أو الحكم للدولة ، عن طريق تقرير العدل المطلق والمساواة بين الناس ، ومراعاة الفصائل في الأحكام والعاملات من الحق والعدل والوفاء بالعهود والرحمة وبمواساة والمجبة ، واحتساب الدلائل من الظلم والمدر ونقض العهود والكذب والحياة والعش وأكل أموال الناس بالباطل كالرشوة والربا والتجارة بالدين واخراقات .

سادس : الإصلاح المالي عن طريق الدعوة إلى الاقتصاد وحماية المال من التلف « صبيح » ووجوب إنفاقه في وجوه الخير وأداء الحقوق الخاصة والعامة والسعي المشروع .

سابعاً : الإصلاح النسائي عن طريق حماية المرأة واحترامها وإعطائها جميع الحقوق الإنسانية والمدنية والمادية .

ثامناً : الإصلاح الحربي عن طريق تهذيب الحرب ووضعها على قواعد سببية نظير الإنسانية في مبدئها وعاقبتها ، ووجوب احترام الرحمة فيها والوفاء بمعاذنها ، ويشر السلم عنها ، والاكتفاء بالجزية عند النصر والظفر فيها .

تاسعاً : محاربة الاسترقاق في المستقبل وتحرير الرقيق الموجود بطرق شتى ، منها اقترعيب العبيد في تحرير الرقاب ، وبجملة كفارة لقتل وإطهار ، وإلصاق الصيام بطريقة فاحشة ، وللبس الحائشة ، وإلبداء الملوك بالعلم أو الضرب .

عاشرأ : تحرير المنول والأسكار ، ومنع الإكراه والاضطهاد والسيطرة الدينية ، فائمة على الاستبداد والبطرسة « مذكر إنما أنت مذكر » لست عليهم بمسيطر » .

دليل على هذا الوجه من الإعجاز :

والدليل على هذا الوجه من إعجاز القرآن ، أن غير المسلمين كانوا ولا يزالون حائرين يعتقدون من دور ، وينقون مما يبق بمحاحهم في كثير من مواحي حياتهم ، حتى اضطروا تح صعط هذه الحاجة وبعد طول اللطاف وقوة التجارب ، أن يرجعوا إلى هداية القرآن من حيث يشعرون أو لا يشعرون وإليك شواهد على ذلك :

- ١ - أمريكا حرمت الخمر أجيراً ، ولكنها قتلت ولم تنجح لأنها لم توفق إلى الطريقة الحكيمه التي اسمها الإسلام في تحريم الخمر .
- ٢ - أمريكا أباحث الطلاق ، وإن كانت قد أسرفت فيه إلى درجة صاره .
- ٣ - أمريكا أصدرت حكومتها قانوناً يمنع البغاء الرسمي في بلادها ، وتمنع النساء من البروز على الشواطئ في ثياب الاستحمام .
- ٤ - مصدره أوروبا يرعون أصواتهم ضرورة الرجوع إلى مبدأ تعدد الزوجات ، حتى يرضى مطالبين بهذا .
- ٥ - اليهود يطالبون أيضاً بتعدد الزوجات وقد تزعم هذه الحركة يهودي اسمه مورشه ليسكندر مان ، ورهن على أن ذلك من أحكام الدين اليهودي . وطلب إلى اليهود إلغاء قرار الماخام شرشون الذي يمدى حدود الدين اليهودي بإبطاله الزواج ما أكثر من واحدة وأصبح له أتباع كثيرون .
- ٦ - زعيم فرنس ، نادى غذاءه هريمنها في الحرب القائمة الآن يقول : إن سبب انهيار دولتهم هو انغمسهم في الشهوات الجنسية ، وإسرافهم في اللغاص والمقاتل .

## الوجه الخامس

### موقف القرآن من العلوم الكونية

ومعنى هذا أن القرآن روعيت فيه بالنسبة إلى العلوم الكونية اعتبارات حمية ، لا يصدر مثلاً عن محقق ، فصلا عن رجل أمي شأ في الأميين ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

( أود ) أنه لم يعمل تلك العلوم الكونية من موضوعه . وذلك لأنها خاصية لقصور البشر والشجر والارتقاء ، وفي تفاصيلها من الدقة والخطأ ما يعلو على أفهام العامة . ثم إن أمرها بعد



ذلك حين يازاء ما يقصده القرآن من إقناذ الإنسانية المائرة ، وهداية الضمير إلى سعادة الدنيا والآخرة . فالقرآن - كما أسلفنا في البحث الأول - كتاب هداية وإعجاز ، وعلى هذا فلا يدق أن نتجاوز به حدود الهداية والإعجاز . حتى إذا ذكر فيه شيء من الكونيات ، فبما ذلك للهداية ودلالة الخلق على الخالق . ولا يقصد القرآن مطلقاً من ذكر هذه الكونيات أن يشرح حقيقة علمية في الهيئة والفلك أو الطبيعة والكيمياء ، ولا أن يحل مسألة حسابية أو معادلة جبرية أو نظرية هندسية ، ولا أن يزيد في علم الطب ماناً ولا في علم التشريح فصلاً ، ولا أن يتحدث عن علم الحيوان أو النبات أو طبقات الأرض إلى غير ذلك .

وسكن بعض الباحثين طالب لم أن شوسموا في علوم القرآن ومعارفه ، فطموا في سلكها ما بدا لهم من علوم الكون ، وهم في ذلك محطون ومسرهمون ، وإن كانت بينهم حسنة وشعورهم نبيلة ، ولكن التية والشعور مهما حسنا لا يسوعان أن يحكي الإنسان غير الواقع ، ويجعل كتاب الله على ما ليس من وظيفته ، خصوصاً بعد أن أعلن الكتاب فيه هذه الوظيفة وحدد ما مرات كثيرة . منها قوله سبحانه : « ذلك » الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » ومنها قوله جلّت حكته : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بدينه ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

وبما يجب للتفتن له أن عظمة القرآن لا تتوقف على أن نتفعل له وظيفة محددة ، ولا أن يحمله مهمة ما أنزل الله بها من سلطان ؛ فإن وظيفته في هداية العالم أسمى وظيفته في الوجود ، ومهمته في إقناذ الإنسانية أهل مهمة في الحياة وما العلوم الكونية براء الهدايات القرآنية ؟ أبس العالم الآن يشق بهذه العلوم ويحترق ويتعمر ؟ ثم أليست العلوم الكونية هي التي ترمى للناس في هذه الأيام بالنايا وتقذفهم بالحلم ، وتظهر لهم على أشكال معينة مريحة ، من مدافع رشاشة ، ودبابات خاكة ، وطائرات أرازة ، وقنابل مهندكة ، وعارات

محركة ، ومدمرات في البر والبحر وفي الهواء ولثاء ؟ . وما أشبه هذه العلوم للإنسان مد  
تجرده من هدى الله ووحى السماء ، بالأنبياء والتخالب والوحوش الصارية والسباع الواصلة  
في أديم الأبراء ١١ .

( ثانيه ) أن القرآن دعا إلى هذه العلوم في جملة ما دعا إليه من البحث والمظر ،  
والانقطاع بما في الكون من سم وعبر . قال سبحانه : « قل انظروا ماذا في السموات  
والأرض » . وقال جل شأنه : « وسفر لكم مافي السموات وما في الأرض جميعا  
منه ، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون » .

( ثالثها ) أن القرآن حين عرض لهذه الكونيات أشعرنا أنها مربية له تعالى ومتمورة  
لمراد ، ونفى منها ماعلق بأذهان كثير من الضالين الذين توهموها آلهة وهي مأوأة ،  
وزعموها ذات تأثير وسلطان بينما هي حاصصة لقدرة الله وسلطانه « إن الله يمسك  
السموات والأرض أن تزولا ، وإن زالتا لأمكهما من أحد من بعده » . وكذلك  
أشعرنا القرآن أنها هالكة « كل شئ هالكٌ إلا وجهه » « وما قدرُوا الله حق قدره  
والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطوياتٍ بيمينه » « يوم تُبدل الأرضُ  
غير الأرض والسموات » .

( راسمها ) أن القرآن حين يعرض لأية كونية في معرض من مراض الهداية ، يتحدث  
عنها حديث المحيط بعلوم الكون ، الخبير بأسرار السموات والأرض ؛ الذي لا تخفى عليه  
خافية في البر والبحر ، ولا في النجوم والكواكب ، ولا في السحاب والدماء ، ولا في  
الإنسان والحیوان والنبات والجماد . وذلك هو الذي يهر بعض اللشتملين بالعلوم الكونية ؛  
وأوقع من أوقع منهم في الإسراف واعتبار هذه العلوم من علوم القرآن .

( خامسها ) أن الأسلوب الذي اختاره للقرآن في التعبير عن آيات الله الكونية ،  
أسلوب بارع جمع بين البيان والإجمال في سمط واحد ، بحيث يمر النظم القرآني الكريم

على سامعية في كل جبل وقبيل ، فإذا هو واضح فيما سبق له من دلالة الإنسان وهدايته إلى الله ، ثم إذا هو محل التفاصيل ، يختلف الخلق في معرفة تقاربه ودقائقه ، باختلاف مآلهم من مواهب ووسائل وعلوم وفتون .

وسفر بذلك مثلاً : تلك الآية الحكيمة وهي قوله عز اسمه : « ومن كل شيء خفصا روحين لعلكم تدكرون » . فإنها مرت على بني الإنسان منذ زلت إلى الآن ، ففهموا منها جميعاً أن الله تعالى يدل على قدرته وإبداعه وكأله بأنه خلق من الأشياء متنوعة بمختلفة الأشكال والخصائص . لكنهم احتفظوا بذلك ، فأولئك يؤثرون عن أن الزوجين في الآية الكريمة ، هما الأمران المتقابلان قابلاً ما . لا بخصوص الذكورة والأنوثة ؛ روى من الحسن أنه فسر الزوجين بالليل والنهار والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والبر والبحر ، والحياة والموت ، وهكذا عدد أشياء وقال : كل اثنين منها زوج ، الله تعالى ارد لا مثيل له . . أما المتأخرون فهموا أن الزوجين في الآية ، هما الأمران المتقابلان بالذكورة والأنوثة ، ويقولون : إنه ما من شيء في الوجود إلا منه الذكر والأنثى ، سواء في ذلك الإنسان والحيوان والجماد وغيرها مما لا يعلم ، ويستدلون على ذلك بقوله سبحانه : « سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يحصون » . ويقولون : إن أحدث نظرية في أصول الأكوان تقرر أن أصول جميع الكائنات تتكون من زوجين اثنين ، وبلسان العلم الحديث ( الكثرئون وبروتون ) . ولا أحب أن أتوسع في هذا ، فبين أيدينا أمثلة كثيرة ومؤلفات جمة ، ثمج ونصطب ما تتطلب علوم الكون من القرآن ، أو بتفسير القرآن وشرحه علوم الكون وأحدثها بما أعم كتاب تحت الطبع الآن ألفه شاب فاضل متقف وسماء ( بين القرآن والعلم ) وسمه شتبتا من الأبحاث المختلفة في الاجتماع وعلم النفس وعلم الوراثة والزراعة والتعديب وفيما وراء العبيد ، مما لا نضع القام لذكره ، وما لا يرى حاجة إليه ، خصوصاً بعد أن تبين لنا أن العلوم الكونية حاصلة لطبيعة الجرد واللذ ، أن أبحاثاً كثيرة منها لا تزال قلقة حائرة بين

إثبات ونفى وإنا قاله علماء الهيئة بالأمس ينتقصه علماء الهيئة اليوم . وما قرره علماء الطبيعة  
وإمامي بفرع غيره علماء الطبيعة في الحاضر . وما أنته المؤرخون قديماً بعبية المؤرخون حديثاً  
وما أسكروا لماديين وأسرفوا في إسكاره باسم العلم ، أصبحوا يشتتونه ويسردونه في إثباته  
باسم العلم أيضاً ، إلى غير ذلك مما رمزع هتتنا بما يسمونه العلم ، وبما حملنا لانهاء إلى كل  
ما قرروه باسم هذا العلم ، حتى لقد ظهر في عالم الطبوعات كتاب خطير من مصدر على محترم  
عندهم ، له حظوته وجلالته وشأنه ، فصدع هذا الكتاب بناء علمهم وزلزل أركان الثقة  
به ، بعد أن نص بالدليل والبرهان كثيراً من التقررات والمسلطات التي يزعمونها يقينية .  
ثم انتهى بقراره إلى أن هذا الكون عامس متغلغل في الموض والظواهر ، ومن هنا  
سمى تأليفه ( الكون التامض ) ، وهذا المؤلف هو السيد جيسس جينز .

فهل يليق - بعد ذلك كله - أن يبقى مخدوعين مغرورين بعلمهم الذي اصطنعوا عليه  
وتعابكوا إليه ، وقد سجنوه وسجنوا أنفسهم معه في سجن ضيق هو دائرة المادة ، تلك  
الدائرة المسجونة هي أيضاً في حدود ما تفهم عقولهم وأصل تجاربهم ، وقد تكون عقولهم  
خاطئة وتجاربهم فاشلة ؟ ثم هل يليق بعد ذلك كله أن نحكم للقرآن إلى هذه العلوم المادية  
القفنة الخائرة بينما القرآن هو تلك الحقائق الإلهية العلوية القارة الثابتة ، المنزلة من فوق الحق  
الأصل الذي يعلم السر وأخفى ؟

ألا إن القرآن لا يجر من وجه العلم . ولكنه يهفو إلى العلم ويدعو إليه ويقم بناءه  
عليه ، «نشوا العلم أولاً وودروا له الثقة وحقنوه» ، ثم اطلبوه في القرآن فاسكم لاشك بومئذ  
واحدوه . وليس من الحكمة ولا الإصاف في شيء أن نحكم المعارف العليا إلى المعارف  
الدنيا ، ولا أن نحبس القرآن في هذا القفص الضيق الذي انحبست فيه طائفة محدودة من  
النشر ، بل الواجب أن نتحرر من أغلال هذه المادة للظلمة ، وأن نطير في سموات القرآن  
حيث تستشرف المعارف النورانية للطلقة ، والحقائق الإلهية للشرقة ، وأن نوجه اهتمامنا  
دائماً إلى استحقاق عظات هذا التنزيل وهداياته الفاتحة ، وألا تقطع برأى في تفاصيل

ما عرض له القرآن من الكوميات إلا إن كان لنا عليه دليل ورحمة لاشك فيه ولا  
سكران ، وإلا وجب أن نتوقف عن هذه التفاصيل ، ونكل علمنا إلى العالم الخبير ،  
قائلين ما قالت الملائكة حين أظهر الله لهم على لسان آدم عالم يكونوا يحسبون : « سيعادك  
لاعلم لنا إلا ما علمتنا . إنك أنت المليم الحكيم » .

### كلمة في الموضوع :

والآن بروفي أن أثبتك منطقات قيمة للعلامة الرحوم الشيخ عبد العزيز جابوش  
في هذا الموضوع لكن بتصرف قليل :

١ - ليست مهمة القرآن كسائر الكتب السماوية البحث في الشئون الكونية والمسائل  
العلمية والفنية ، على النحو المألوف في الكتب الخاصة للموضوع فيها .

٢ - لما جاء بالقرآن الكريم كان في جزيرة العرب من العقائد الفاسدة والعلم الخاطيء  
بالكوميات أضعاف ما كان منها لدى بني إسرائيل عند ما أخرجهم موسى عليه السلام من  
مصر ، فكان من الحكمة الإلهية أن ينزل على محمد عليه السلام في سبيل تصحيح تلك العقائد  
والمعلومات أضعاف ما نزل على موسى في سفر التكوين . . والحكمة البالغة في ذلك أن  
الدعوة إلى توحيد الخالق وتقرير الحق من العقائد وقبول ما يلي ذلك من الشرائع والأخلاق ،  
ما كانت تجد مسيلها إلى قلوب عرفت للأجرام العلوية في أوهامها وتزاورها وما كان من  
أثرها في تكوين هذه السكائنات ونظامها ، ما قرره العقلية القديمة في بلاد مصر والإغريق ،  
وما يشتبه في جزيرة العرب وما حولها أساطير الآشوريين والبابليين والكلدانيين إذ أن كان  
لما أن يستوعب القرآن انقياد الناس إلى وجه الخطأ في عقائدهم ، وأن يشككهم في الباطل  
الذي اتسموه ، لأهم وجدوا عليه آباءهم ، وأن يطلقهم بذلك من الحجر الذي أشتاقهم  
والحقهم بالأمام من الحيوان .

٣ - كانت إذن مهمة القرآن الحكيم التي أرادها لتمهيد السبيل إلى التعرف بالحائق حل شدة ، أن يعين العقول بضرب الأمثال ، لم تفكروا؟ وفيكم تفكروا؟ وكيف تفكروا؟ فهو في حرمه هذا كان يحطط أرض العلم لتقيم العقول البشرية عليها صروحه الشجعة المتينة ، ويرسم الخطوط الأساسية للصور كي يملأها الرسام بما يلزم لها من الألوان والطلاء ومعالم الجمال .

٤ - لم يقف القرآن الكريم عند هذا الحد فيما ضرب لنا من الأمثال ، في بيان بعض عوامس الحقائق السكونية ، بل جاء في ذلك بحقائق أمر الأميين وغير الحاصلين بالتدريج بها والتعويض فيها ، كما أمر العقول الناضجة الفتدرة بطلابها والوقوف على دقائقها والعلم بوجوده الصواب فيها . ثم يصح الفريقين أن يمتدحا معجز عقولهم وألا يقطعا بشيء فيها لا تبلفه أبحاثهم وسعيهم ، بل يهتمون أنفسهم بالمعجز والتصور ؛ ويسألون أهل الذكر فيما لا يعملون ، أو يكلون أمر ما لا يدركون إلى من يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

٥ - أن المسيحيين حينما ثاروا في وجه العلم ونظام الحكم ثوراتهم القمعية في أوربة ، لم يكونوا ليشبهوا في شيء من مواقفهم تلك أهدأ من الشعوب الإسلامية ، فإما كان مبعث حركتهم العنيفة ومصدر ثورتهم القموية ، أن رجال الكنيسة باسم الدين حجروا على العقول والوجدان ، وقرروا للكنيسة فلسفة حرموا على الناس حتى استباح ما غش عندهم منها . ثم قرروا تكفير من يقول بغيرها ، ولو اعتمد في رأيه على الحس والمعاملة . حتى نفذ كان منهم ميلانشتون وكيرمونتيني اللذان دفعنا أن ينظر إلى السماء بالالة المفرقة ( تكوب ) وقد روى عن غاليلو أن من تلاميذ للذهب الارسطاطالي من كانوا يسكرون وحود أجسام مرئية بالمثل ، وأنهم كانوا يستبرون طلبة أرسطو كنزلة واحدة لا تغفل التعكيك ، إذا قض منها حجر النهار سائر بنيانها على أثره . فكان ذلك سبب معالاهم في التمسك بها والحرص عليها بمجتمعة .

ثم قال في تعدد الأرضين :

« لم يذكر القلماء شيئاً في أمر تعدد الأرضين سوى ما نقله ابن سينا عن قدماء حكماء  
الفرس من أن هنالك أراضى كثيرة غير أرضنا . وما زال رأى السائد بين نثر الحكماء  
والعلاسة ، يقول بعدم تعددها ، حتى جاء عاليلو اللثوق سنة ١٦٤٢ بمناظيره المسكرة والمقربة  
وكذلك من جاءوا بعده ، فافتتوا بمشاهداتهم العينية الصادقة أن السيارات جميعها أراض  
كأرضنا ، وقد يكون بها ما بأرضنا من الجبال والوهاد والماء والهواء والحلائق والعمرات  
ولم يمتدوا في هذا التصور إلا على الخلد والظن ، فإن مناظيرهم لم تثبت لهم ذلك بعد .  
أما القرآن فقد صرح بتعدد الأرضين في آية « الله الذى خلق سبع سموات ومن  
الأرض مثلهن » ففي تفسير أبى السعود (من مفسرى القرن التاسع للهجرة) أن الجمهور على  
أنها سبع أرضين بعضها فوق بعض ، وفي تفسير النيسابورى أنها سبع أرضين ما بين كل  
واحدة منها إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام<sup>(١)</sup> ، وفي كل أرض منها خلق إلى أن قال  
وهم يشاهدون السماء من جانب أرضهم ويشهدون الغياض منها . ومن أصرح الآيات في أن  
السيارات أراض مأهولة آية الشورى : « ومن آمانه خلق السموات والأرض وما بينهما  
من دابة » إذ المراد بالسموات هنا السيارات على ما أتى لنا من التأويل ومن الآيات  
(١) مسألة تقدير المسافات التى بين السيارات متعللة بمسيرة خمسمائة عام يقصرها الشهر ستانى

بالدانة نسير فرسناً إسلامياً في كل ساعة على ما هو للمرووف ومصطلح عليه في سائر الكتب  
الإسلامية ، مما يبلغ مجموعه نحو ١٦ ميلاً تقريباً . وهو قريب جداً من تقدير المفاخرين  
للمسافات العاصلة بين السيارات كما قول ذلك الأستاذ الشهرستانى في كتابه للسمى  
( أهمية والإسلام ) ص ٩٠ - أول .

( وقد يذكر ذكره أن الشهرستانى هذا ليس هو صاحب اللؤلؤ والنحل بل هو أحد  
مجتهدى الشيعة المعاصرين لنا . واسمه هبة الله ) .

البينة في هذا الموضوع قوله تعالى: «ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن دهرهن»، بل أتناهم بد كرم فهم عن ذ كرم معصون » :

ومن قصرت عقولهم استنبطوا وحود الحيوان في الأجرام السماوية ولكن في الزمخشري والبيضاوي وغيرها استنباد أن يخلق الله فيها صنوها من الحيوان بمشور فيها مشى الإنسان على الأرض ؛ فأنه خلق كما قالوا : « ما نعلم وما لا نعلم » أه ما أردنا نقله .

## الوجه السادس

### سياسته في الإصلاح

ومعنى هذا أن القرآن اتبع طريقاً عجيباً في إصلاحه ، وسلك سياسة حكيمه وصل بها من مكان قريب إلى ما أراد من هداية الخلق ، فتفرع بجميع الوسائل لتؤدي إلى نجاح هذا الإصلاح الموافق بكل ما يحتاج إليه البشر . مما يدل بوضوح على أن القرآن في سياسته هذه لا يمكن أن يصدر عن نفس محمد ولا غير محمد .

وبيان ذلك من وجوه :

( أولها ) محيى هذا الكتاب متعصماً ، ومحافظته بذلك سائر كتب الله الإلهية ، بعداً بأساس عن الطفرة ، وببسياراً لتفهم إياه وقبولهم ما جاء به ، على نحو ما يينا في أسرار التنجيم بالمبحث الثالث من هذا الكتاب .

( ثانياً ) محيى هذا الكتاب بذلك الأسلوب الشائق الرائع الحبيب إلى قلوبهم ، ليكون لهم من هذا الأسلوب دافع إلى الإقبال عليه والاستئناس بما جاء من تعاليمه وإن كانت معالجة لا مردوا عليه من قبل .

( ثالثاً ) محيى هذا الكتاب على غير اليهود في تأليف التواتين والعلوم والعلوم والآداب ، من مناه تهييمها وتوبيها على الموضوعات بحيث يختص كل باب من الكتاب بموضوع معين ، ويختص كل فصل من فصول هذا الباب بمأفة أو مسائل وهكذا .



هأت نجد في العالب كل سورة من سور القرآن حامعة لمزيج من مقاصد وموصوعات ، يشمر الناظر فيها منعمة ولذة ؛ كلما تنقل بين هذه المقاصد في السورة الواحدة ، كما يشمر الآكل باللذة والمتعة كلما وجد ألوا ما شقى من الأطعمة على المائدة الواحدة . وإذن ففي هذا النمط الذي احتاره القرآن قائدتان : دفع السأم والملل عن الناظر في هذا الكتاب ، واقتياد النفوس إلى هداياته بلباقة من حيث لا تحس بفضاضة . يضاف إلى هذا ما نلحه من الوحدة الفنية في السورة أو القطعة الواحدة ، ومن وفاء القرآن بجميع الاصطلاحات البشرية ، على رغم هذا الانتشار القاضى في العادة بعدم الاسجام وبفوات شىء أو أشياء من مقاصد التأليف وأغراض المؤلفين . حتى ليهود ذلك وجهاً جديداً من وجوه الإعجاز ، يؤمن به من خبرة وإحساس كل من ابتلى بتأليف أو مزاوله آثار المؤلفين .

(رابعها) تكرار ما يستحق التكرار من الأمور المهمة ، حتى يجد سبيله إلى النفوس الفائرة والطباع المعصية ، فلسس له القيادة وتلقى إليه السلم ، مثال ذلك تقرير القرآن العقيدة التوحيد واحتشاله لشافة الشرك ، بواسطة الحديث ههما مراراً وتكراراً ؛ تارة يصرح وأخرى بلوح . وتارة يوجز وأخرى يطب . وتارة يذكر العقيدة مرحلة وأخرى يذكرها مدلة . وتارة يشغمها بدليل واحد وأخرى بحملة أدلة . وتارة يضرب لها الأمثال وأخرى بسوق فيها القصص . وتارة يقرها بالوعد وأخرى بالوعيد . وهلم .

(خامسها) غصابة القول والأفكار ، ودعوته إلى إعمال النظر وطلب الدليل والبرهان ، ونسبه على من أهملوا القول واستمروا التقليد الأعمى ، وركدوا إلى الجمود . اقرأ قوله سبحانه : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم لايقلون شيئاً ولا يهتدون » . وقوله : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » وقوله : « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » .

وهكذا كثيراً ما سمع في القرآن أمثال قوله سبحانه « أفلا يسمعون - قبيلا ما تدكروا - أي يؤفكون - قروا ما رواه الله لكم من كتبه صادقين - أفلا ينظرون إلى الإبل كيف حصت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصت ، وإلى الأرض كيف سطحت » « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » إلى غير ذلك مما يرفع كرامة الإنسان ، ويحاكم أهم الأمور حتى العقيدة في الله تعالى إلى القول ، ليصل المرء من وراء ذلك إلى اقتناع الضمير واطمئنان القلب وبرد اليقين وحرارة الإيمان .

( سادسها ) استعماله القرائن النفسية استفلالا صالحا بعد أن يهذبها بالدليل ويصنعها بالبرهان . هذه عريضة لتقليد والمحاكاة في الإنسان مثلاً قد نأى بها القرآن عن اعتناء الأمثلة السيئة من أجهلة والفسفة ، وذهب بها إلى مقام أمين من وجوب اتباع الأمثلة الطيبة والتأسي بمن أنعم الله عليهم من النبيين والصلوات والصلوات « وحسن أولئك رفيقا » . « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » ، « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » ، « أولئك الذين هدى الله فبهم اقتد » .

وهذه عريضة حب البقاء والعلو في الإنسان ، قد نأى بها القرآن أيضاً عن الظلم والظن ، وذهب بها إلى حيث الدفاع عن النفس والمرض والدين والوطن ، وقاد بها عباد الله إلى الحق والتغير ، إذ وعدم حياة ثانية فيها الخلود والبقاء ، وفيها الملك الواسع والاستعلاء العادل « وإذ رأيت ثم رأيت نعيماً ومُلْكاً كبيراً » .

وهكذا دخل القرآن على الناس من هذا الباب فقادهم من عرائضهم حتى ناطق أوامرهم ومصالحهم ، وبواهيهم ومخاسمهم ، وجعل ذلك قاعدة عامة قال فيها : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » . « إن أحسنتم أحسنتم لأفئدتكم وإن أسأتم فعليها » .

وإن أردت تدصيلاً وتمثيلاً فانظر إلى تلك المقارنة الرائعة بين المؤمن ولشرك إذ يقول سبحانه : « حارب الله مثلاً رحلاً فيه شركاء مثلاً كدواً ورحلاً سهلاً رحلاً » .

هل ستويان مثلاً؟ الحمد لله، بل أكثرهم لا يعلمون. فانت ترى في هذه الآية الكريمة أن الشريك مع معبوديه، مثله مثل عبد اشترك فيه شركاء متعارفون مختلفون، كل واحد منهم يدعى أنه عبده، فهم يتجادلون ويتناورون في أعمال شتى، وهو متعبر متعب بجهود لا بدري أيهم يرضى بخدمته؟ وعلى أيهم يعتمد في حاجاته؟ ولا بدري ممن يطلب رزقه وعن يمين رزقه؟ فيه شعاع، وقلبه أوزاع. أما الزمن فتله مثل عبده سيد واحد، فيه واحد وقلبه مجتمعة وضيرة صديحة وعمله مريح. «أرأب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟»

وإن أردت مثلاً ثانياً فاستمع إلى القرآن وهو يقول في فريضة الصلاة: «إن الإنسان خلق ذليلاً» إذا مسه الشر جرحاً وإذا مسه الخير منوعاً، إلا للصالحين الخ. وقوله: «ألا يذكر الله تظنون القلوب».

وإن أردت أمثلة أخرى فاقرا قوله سبحانه في فرض الزكاة: «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها» وفي فرض الصيام: «كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون». وفي فرض الحج: «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم الخ. وفي عموم الإيمان والعمل الصالح: «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحسب له حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون».

(سابها) ترتيبه الأوامر والنواهي ترتيباً يسع جميع الناس، على تفاوت استعدادهم ومواهبهم فالأوامر الدينية درجات: هذا إيمان، وهذا إسلام، وهذا رك، وهذا فرض وهذا واجب، وهذا مندوب مؤكّد، وهذا مندوب غير مؤكّد. وللنهي كذلك درجات: هذا نهي، وهذا شرك، وهذا كفر، وهذه كبيرة وهذه صغيرة، وهذا مكروه تحرماً، وهذا مكروه تنزيهاً... وما وراء هذه الأوامر والنواهي قباحات، لكل أن يأخذ وأن يدع منها ما شاء.

ولأرب أن وضع لتشريع على هذا الوجه، فيه منفع لجميع وفيه عواء للنفوس الضعيفة أن تقشرب باعتناق لإسلام ولو في أدنى درجة من درجاته حتى إذا أسست به ودأبت حللوه، تدرجت في مذارج انرف، فمن إيمان إلى إسلام إلى أداء، ركن إلى أداء فرض إلى أداء واجب إلى أداء مندوب مؤكد إلى أداء مندوب غير مؤكد. ومن ترك ففاق إلى ترك شرك وكفر إلى ترك كبيرة إلى ترك صغيرة إلى ترك مكروه تحريماً إلى ترك مكروه تنزيهاً إلى ترك ما لا بأس به حذراً، به بأس. ومن مجرد أداء للنوافل إلى ريادة فيها وإكثار منها، حتى يصل العبد إلى ذلك المقام الذي جاء فيه عن الله تعالى: « ولا يزال عبيدي يقترب إلى بانفواقل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به؛ وبه الذي يمشي به، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني لأعطينه، وإنني استعاذ في لأعبدنه » رواه مسلم في صحيحه عن أنى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فيها يرويه عن ربه.

على ضوء هذه السياسة لشريعة الحكمة التي نزل بها القرآن، كان عليه السلام بتدرج الأنوام رويداً رويداً، كما كان يساهل معهم تأليفاً لقلوبهم واستمالة لهم إلى اعتناق الدين على أى وجه. ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد بسنده عن نصر بن عاصم الليثي عن رجل منهم أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم على أن يصل صلاتين ( لا خساً ) فقبل منه وحاء في رواية أخرى: على ألا يهني إلا صلاة فقبل. وعن وهب قال: سألت جابراً بن شأان ثقيف إذ دبست فقال: اندرطت على النبي صلى الله عليه وسلم أن لا صدقة عليها ولا جهاد، وأنه مع النبي صلى الله عليه وسلم يقول بعد ذلك « سيتصدقون ويحسدون » رواه أبو داود وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ارحن. « أسلم » قال أحدي كارها قال « أسلم ولم كنت كارها » رواه أحمد قال الشوكاني في بين الأوطار بعد أن سرد هذه الأحاديث « فيها دليل على أنه يحور مبايعة الكافر وقبول الإسلام منه ولم شرط شرطاً باطلاً »

وللراغب نرون القرآن وسير التشريع الإسلامي، يرى من مظاهر هذه السياسة

البارعة لمعجزة شتبا كثيرا ، وحسبك أن يبتدىء الأمر بتقرير عقيدة التوحيد ، وألا تعرض لصعوبات الجنس إلا بعد عشر سنوات تقريباً من البعثة ، ثم سائر العبادات حصتها هو بعض . أما المعاملات فلم يتغير الأمر فيها إلا بعد المعجزة . وقبل مثل ذلك في التنبؤات . ولعلك لم تنس التدرج الإلهي الحكيم في تحريم الخمر

( ناهيها ) يحىء القرآن بمطالب الروح والجسد جميعاً ، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر . وفي ذلك آيات كثيرة تقدم التنويه بها في مناسبات أخرى ، من أجلها كان المسلمون أمة وسطاً بين من تغلب عليهم المادية والمخطوط الجسدية كاليهود ، ومن تغلب عليهم النواحي الروحية وتمذّبب الجسد لإدلال النفس كالمندوس والصداري في تعاليمهم ، وإن حالقها الكثيرة الفائرة منهم .

( اسمها ) يحىء القرآن بمطالب الدنيا والآخرة جميعاً ، عن طريق التزام تعاليمه وهداياته التي أبجأنا مقاصدها فيما سبق ، لا عن طريق الاعتقادات الخاطئة والأدبي السكاذبة والنواكل وترك العمل . والآيات في هذا للمعنى أظهر من أن تذكر .

( عاشرها ) يحىء القرآن بالتيسير ورفع الحرج عن الناس : « جعل عديكم في الدين من حرج » - « ما يريد الله ليصعب عليكم من حرج وأيسر يريد ليبسط لكم وييسر نعمته عليكم » - « لا يكلف الله نفساً إلا وُسْعها » . « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » - « فمن اضطر في نخلة غير متعافى لإثم فإن الله عفونٌ رحيم » .

« من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلمه مطعون » ، وإيمان « وهذا باب واسع وضع منه علماءنا قواعد عامة كقولهم : للشقة تحلب التمير ، وانصرورت تبيح المخطورات ثم فرعوا عليها فروعاً وسعت ولا تزال تسع الناس أحسين والمجد لله رب العالمين .

## الوجه السابع أنباء الغيب فيه

ومضى هذا أن القرآن قد اشتمل على أخبار كثيرة من الغيوب التي لا علم للمحمد ﷺ بها ، ولا سبيل لثقله أن يعلمها بما يدل دلالة بيّنة على أن هذا القرآن المشتمل على تلك الغيوب ، لا يعقل أن يكون ما بها من نفس محمد ولا غير محمد من الخلق بل هو كلام علام الغيوب وقوم الوحود ، الذي يملك زمام العالم وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر .

من ذلك قصص عن الماضي البعيد للتلقي في أحشاء القدم . وقصص عن الحاضر الذي لا سبيل للمحمد إلى رؤيته ومعرفته فصلا عن التحدث به . وقصص عن المستقبل المضمّن الذي اضططعت دونه الأسباب ، وقصص عن إدراكه القرامطة والألعية والذكا . وسر الإعجاز في ذلك كله أنه وقع كما حدث وما تخلف . وجاء على المعوال الذي أحبر به في إجمال ما أجل وتعصيل ما فصل . وأنه إن أحبر عن غيب الماضي صدقه ما شهد به التاريخ وإن أحبر عن غيب الحاضر صدقه ما جاء به الأنبياء . وما يجد في العالم من تحارب وعوم . وإن أحبر عن غيب المستقبل صدقه ما نله الأيالي وما نجي به الأيام .

غيب لماضي :

أما غيوب الماضي في القرآن وكثيرة ، تشتمل في تلك القصص الرائعة التي يعرض بها القرآن ، ولم يكن للمحمد بها من سبيل .

ومنها قصة نوح التي قال الله فيها : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك . ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا . »

ومنها قصة موسى التي يقول الله فيها : « وما كنت بمجانس العرب إذ قصينا

إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين \* ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر .  
وما كنت ناورياً في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ، ولكننا كنا مرسلين \* وما كنت  
محاسب الطور إذ ناديتنا ولكن رحمة من ربك ؛ لتتذرك قوماً ما أنام من ندير من قبلك  
لعلهم يتذكرون \* .

ومنها قصة مريم وفيها يقول الله : « ذلك من أنباء الأنبياء موحى إليك . وما كنت  
لديهم إذ يكفون أقلامهم أيهم يكفل مريم . وما كنت لديهم إذ يختصمون \* » .  
غيب الحاضر :

أما غيب الحاضر فنزيد به ما يتصل بالله تعالى والسلائكة والجن والجنة والنار  
ونحو ذلك ، لما لم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم سبيل إلى رؤيته ولا العلم به ،  
فضلاً عن أن يتحدث عنه على هذا الوحه الواضح ، الذي أيده ما جاء به الأنبياء  
وكتبهم عليهم الصلاة والسلام . وأمثله هذا الصرب كثيرة في القرآن ، لا تحتاج إلى  
عرض ولا بيان .

ومنه أيضاً ما فصّح الله به المنافقين في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم مما كان قائماً بهم  
وخفي أمره عليه كقوله : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على  
ما في قلبه وهو ألد الخصام \* وإذا تولى سعى في الأرض ليفسدوها ويهلك الحرث والنسل \*  
والله لا يحب الفساد \* » وكقوله في مسعد المرار الذي يناله المنافقون : « والذين اتخذوا  
مسجداً مراراً وكفراً وتفرقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل  
ويجئهم إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون \* » .

وسورة التوبة فيها من هذا الصرب شيء كثير .

ومن غيب الحاضر أو الماضي ما جاء في القرآن من حقائق ومناقب ومبادئ لم يكشف  
عنها إلا العلم بالحديث . وسيأتي التمثيل له .

غيب للمستقبل :

وأما غيب المستقبل ، فتمثل في بأمتاة عشرة :

( المثل الأول ) إخبار القرآن عن الروم بأنهم سينتصرون في بضع سنين من إعلان هذا النبأ الذي يقول الله فيه : « غلبت الروم \* في أدنى الأرض . وهم من بعد غدهم سيفسون \* في صعر سين . لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون . نصرتهم نصر من يشاء وهو العزيز الرحيم \* وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، وسكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وبين ذلك أن دولة الرومان وهي مسيحية كانت قد انهزمت أمام دولة الفرس وهي وثنية ، في حروب طاحنة بينهما سنة ٦١٤م فاعظم المسلمون بسبب أنها هزيمة لدولة متدنية أمام دولة وثنية ، وخرج المشركون وقالوا للمسلمين في شماعة العدو : إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب وقد سلمهم الجيوش ، وأنتم تزعمون أنكم ستعلموننا بالكتاب الذي أرسل عليكم ، فسلمكم كما غلبت فارس الروم . فنزلت الآيات الكريمة يبشر الله فيها المسلمين بأن هزيمة الروم هذه سيعقبها انتصار في بضع سنين ، أي في مدة تتراوح بين ثلاث سنوات ونسبع . ولم يك مغلطوا وقت هذه الإشارة أن الروم ينتصر على الفرس في مثل هذه المدة (وخرجهم) بل كانت القدمات والأسباب تأتي ذلك عليها ؛ لأن الحروب الطاحنة أمكنها حتى عرت في عقر دارها ، كما يدل عليه النص الكريم : « في أدنى الأرض » . ولأن دولة الفرس كانت قوية متينة وراحتها الظفر الأخير قوة ومهنة . حتى إنه سبب استحالة أن ينتصر الروم عادة أو تقوم لهم قائمة ، راعين بعض الشر كين أبى نكر على تحقق هذه السوءة . ولكن الله تعالى أحجز وعده وتحققت نبوءة القرآن سنة ٦٢٢م الموافق لثلاثة أنشائية من الهجرة المحمدية .

ومما هو حدير بالذكر أن هذه الآية نفسها حملت سوءة أخرى ، وهي الإشارة بأن المسلمين سيفرحون بنصر عيسى في هذه الوقت الذي ينتصر فيه الروم ؛ « ويومئذ يفرح المؤمنون



نصر الله ! ولقد صدق الله وعده في هذه كما صدقه في تلك. وكان ظفر المسلمين في عروة بدر الكرى واقفا في الطرف الذي ظفر فيه الرومان . وهكذا تحققت السوءان في وقت واحد ، مع تقطع الأسباب في انتصار الروم كاعتلت ، ومع تقطع الأسباب أيضا في انتصار المسلمين على الشركين على عهد هذه البشارة ؛ لأنهم كانوا أيامئذ في مكة في صدر الإسلام والمسلمون في قلة وذلة ، يضطهدون للمشركين ولا يرقبون فيهم إلا ولا دمة ولكن على رغم هذا الاستبعاد أو هذه الاستحالة العادية ، زالت الآيات كما ترى تؤكد البشارتين وتسوقهما في موكب من التأكيذات البالغة التي تنأى بها عن التكهنات والتخمينات . وإن كنت في شك فأعد على سمك هذه الكلمات : « نصر الله نصر من شاء ، وهو العزيز الرحيم » وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ثم ألت ترى معي أن هذه العبارة الكريمة : « في بضع سنين » قد حاظت هاتين البيوتين سياج من الدقة والحكمة ، لا يترك شبهة لمثقبه ولا فرصة لمعاد : لأن الصع كما عمت من ثلاث إلى تسع . والناس يختلفون في حاسب الأشهر والسنين : فهم من يؤث الشمس ومنهم من يؤث بالقمر . ثم إن منهم من يحجر الكسرة ويكمله إذا عد وحسب ، ومنهم من يلقيه . يضاف إلى ذلك أن زمن الانتصار قد يطول حله ، فتندى بشارته في عام ولا تنتهي مواقفه الفاصلة إلا بعد عام أو أكثر . ونظر الحاسبين يختلف تما لذلك في تعيين وقت الانتصار : فهم من يضيقه إلى وقت تلك البشارة ومنهم من يصره إلى يوم الفصل ، ومنهم من يضيقه إلى ما بينهما . لذلك كله جاء التعبير بقوله حلت حكمته : « سيظلبون في بضع سنين » من الدقة البيانية والاعتراض الدارع بحيث لا بدع محال لطاعن ولا حاسب . وظهر أمر الله وصدق وعده على كل اعتبار من الاعتبارات وفي كل اصطلاح من الاصطلاحات . « ومن أصدق من الله قيلا » ؟ !

( المثل الثاني ) إياه القرآن بأن الله حاسم رسوله وحافظه من الناس ، لا يهون إليه قتل ، ولا يتمكنون من اغتيال حياته الشريفة محال ، وذلك في قوله عز وجل « والله

يعصمك من الناس هـ ولقد تحمّلت نبوءة القرآن هذه، ولم يتمكن أحد من أعداء الإسلام أن يقتله عليه الصلاة والسلام، مع كثرة عددهم ووفرة استمدادهم ومع أهمهم كما وا بترصرون به الدوائر ويتحينون القرض للإيقاع به والقضاء عليه وعلى دعوته؟ وهو أصعب منهم استمداداً وأقل جنوداً فمن الذي يملك هذا الوعد وتنفيذه إخن إلا الله الذي يغلب ولا يذهب، والذي لا يقف شيء في سبيل تنفيذ مراده «وهو الظاهر فوق» هـ؛ وإن لم تصدق فسل التاريخ وللورخين، كم من الملوك والأمراء والفراعين ضربت الأرض بدمائهم، وهم بين جنودهم وحدهم وحشهم؟

فهل يمكن بعد هذا أن يكون القرآن الذي احتوى ذلك الضمان من كلام محمد وهو من قد عدت ضعفه وقوة أعدائه يومئذ؟ حتى لقد كان يتخذ الحراس قبل نزول هذه الآية، فلما نزلت إذا ثقته واعتداده بها أعظم من ثقته واعتداده بمن كانوا يحرسونه، وسرهم ما صرف حراسه وسرحهم عند نزول الآية قائلاً: «أيها الناس انصرفوا فقد عصني الله» كما رواه الطبراني عن أبي سعيد الخدري وكذلك روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: «كنا إذا أتينا في سفرنا على شجرة ظليفة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فلما كنا بدات الرقاع نزل نبي الله تحت شجرة وعلق سيفه فيها، فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاختطه وقال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنحافى؟ قال: لا، قال من يمسك منى؟ قال: «الله يمسك منك» ضع السيف» فوضعه، وما يحذر التفتيه له أن هذا الأمن كان في الغزوة التي شرعت فيها صلاة الخوف!

ومن شواهد حماية الله لرسوله وإجازه له هذا الوعد، ما ورد عن علي رضي الله عنه قال كما إذا أحر اليأس وحى الوطيس اتقينا برسول الله ﷺ فما نكون أحد مما أقرب إلى العدو منه

ومن أبلغ التواضع على ذلك أيضاً ما ثبت من أنه ﷺ في يوم حنين حين أحببت للمسلمين كثرتهم وأديهم الله بالهزيمة حتى ولوا مدبرين، أنزل سبحانه سكينته على رسوله،

حتى لقد حمل يركض بقلته إلى جهة العدو ، والعباس بن عبد المطلب أحد بلعاهما يكفها بإرادة ألا تسرع . فأقبل للشركون إلى رسول الله ﷺ . فلما غشوه لم يفر ولم ينكص ، بل نزل عن مكانه كأنما يمكنهم من نفسه وجعل يقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » كأنما يتعداهم ويدلهم على مكانه : فوافقه ما نالوا منه غيلا ، بل أيده الله عنده ، وكيف أيديهم عنه بيده » رواه الشيخان .

( المثال الثالث ) ما جاء في معرض التعدي بالقرآن ، من قوله سبحانه : « فإن لم تعملوا ولن تعملوا » . وقوله : « قل لن اجتمعن الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » فإن ما تراءى في هاتين الآيتين من التقاطع بانتفاء قدرة الخطابين وجميع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، قد تدل على أطوار المستقل ( والمستقل عيب ) لا يمكنه محمد ولا مخلوق غيره ، ومع ذلك فقد تحققت نبوءة القرآن ولا تزال متعقبة ، حيث انقضت طبقة الخطابين به دون أن يستطيعوا معارضة أقصر سورة منه ، ومضت بدم أجيال وأجيال من عرب وأعجم ، وكلهم قد باهوا فالحجر ولم يستطيعوا للمارضة إلى اليوم ، مع وجود أعداء للإسلام في هذه العصور المتأخرة ، أكثر وأقدر وأحرص على هدم بناء هذا الدين من أولئك الأعداء الأولين .

لاحظ مع هذا ما يثيره مثل هذا التعدي للطويل المريض الجريء ، من الحمية الأدبية التي يمت روح النفاة على أشدها في غيوس من يتعداهم . ثم لاحظ أن التأخر من السابقين لا يعينهم في العادة أن يستدركوا على السابقين ، إما قصفاً يسالحوه بالكمال ، أو كالا يخالطونه بما هو أكل منه . وإذا فرضنا أن واحداً قد عجز عن هذا فن البعيد أن نحر عنه جماعة . وإذا عجزت جماعة فن البعيد أن تعجز أمة . وإذا عجزت أمة فن البعيد أن يعجز حيل . وإذا عجز حيل فن البعيد أن تعجز أجيال ، فكيف يصدر إذن مثل هذا التعدي عن رجل يعرف ما يقول ، فضلا عن رجلا عظيم ، فضلا عن رسول كريم ، فضلا عن محمد أوصل للرسلين ١١ . وهل يمكن أن يفسر هذا التعدي الجريء ، الطويل العمر من

إلا بأنه استمداد من وحي السماء ، واستناد إلى من يملك السمع والأبصار ، وحديث عن يده سيكون كل شيء وهو يحير ولا يحار عليه ؟ !

( المثل الرابع ) : ما جاء من التعمق بمسئلة الإسلام ومحامه محاماً باهراً ، فقد أحمر القرآن واستمعون في مكة قليل مستصغرون في الأرض يخادون أن يتخطفهم الناس - ين الإسلام سيظهر ويبقى ، وأن كتابه سيكتب له الحفظ والخلود منفرداً بهذه الميزة عن سائر كتب الله . قرأ إن شئت قوله تعالى في سورة الرعد : « كذلك يصرتُ الله الحق والباطل فاما الزبدُ فيذهب جُفاءً ، وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض » . وفي سورة إبراهيم : « صرتُ الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين أبداً رسماً » وفي سورة الحجر : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

أصل في هذه السور الثلاث المكية ، قطع القرآن هذه اليهود للو كدة ، تلك لئلا الوائيه ، والإسلام يؤمن في مكة مدفوع مصطفي ، وللذين قليل مستصغرون في لأرض يحرقون أن يتخطفهم الناس ، وليس هناك من يؤاسم الآمال ما يلقى ضوءاً على محام هذا الدين بويده ، وثمن التمس هذه الآمال في من الداعي من طيبة دعونه ، فما كانت نص في هذه الخدم من اليقين والتأكيد . وثمن وصلت إلى هذا الحد مادام صاحبها حيّاً بعهده . نفسه ومعنيها بنشاطه ، فليس لده من العوامل ما يحمله شق هذا التخطح « مد مودة » مع ما هو معروف من التمس على شققت للمحاحات ، والتمالي من الزمان حيالى مشكلات ، والتاريخ لا يزال قص علينا وعلى الناس نأ من قتل من الأنبياء ، وما صاع أو حرف من كتب الله ووحى السماء وما حبط من دعوات الحق وهب من دعوات الباطل . كل ذلك قد كان ومحمد ﷺ لم يكن في يوم من الأيام بالرحل الأحرق الذي سير مع الأوهام ، أو غير مع الخيل ، أو يطلب الخدم عن طريق الأحلام المكذوبة والآمال اللعوبة . بل كان معروفاً مد شقته ، شواصمه ورجاحة عقله وأترابه ودقته ، حتى لقد كان تشتت في كلامه ويتجرى في أن فب وإنشهر بأنه الصادق الأمين ، وجاء القرآن نفسه بشهد بأنه ﷺ كان قبل موته

لا تطع في سيرة ولا يمين في وحي : » وقد كنت نرجو أن سقى إليك الكتب إلا رجعة من ربك . » وكذلك لم يكن بعد سيرة بالذي ضمن الله هذا الوحي وحفظه ، وإن شئنا بعدهم الذي أوحينا إليك ثم لا تحذرك به علينا وكيلاً . إلا رجعة من ربك إن قصته كان عليك كبراً . »

فلا مباح من أن تكون تلك الدشارات المؤكدة والمعهود الموثقة ، صادرة من أوق غير أوقه ، آتية من ه لك فاهر لا راد لحكمه معترة عن مراد من يملك العلم ويحكمه في ماضيه وحاضره ومستقبله .

و قد يؤيد صدق هذه التنبؤات ، أن الإسلام بقي من صروب العت مراد أو تنكر أزاراً ، في أرم من منطولة وعمود مخففة ، ما كان بعضه كافياً في محو ورواله ، ولكنه على دعم أرف هذه الأعاصير ، أدي به بقي شياً سامي الخلد ، شامخاً يطول السماء . وكذلك اتقى كفة العرب ولا يزال يهي من المحر والمحر والطن والسب والمجاولات أفا لله ، فلا تصوره إيس في أي رم ، وما لم تنق كمناف فيه من التكييد والتصيل والتمثال ، ومع ذلك كله فاقترآن هو الف آ ، لا يزال حاسا على عرشه في سمائه ، بعد العلم كله بحرارة وصيانه ، ولم تنل منه هذه المجاولات إلا كما تنل من ساح السحاب من عذبات السحاب

﴿ لمثال أحد من يتنبؤ القرآن بأن المستقبل السعيد ينتظر المسلمين في وقت لم يكن عوامل هذا المستقبل سعيد مواه ، ثم إذا تأول هذا النبأ أتى على نحو ما أخبر الله آ ، في أقصر ما يكون من الزمن أحسن ، إنما له آ في سورة الصافات لمكية . » وإن حدث لهم العادون . » وفي سورة عاف لمكية أيضاً . » إنما يصبر رسدا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . » وكذلك نقرأ في سورة المور انديه . » وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخذهنهم في الأراض كما استخذه الذين من قبلهم ولينكس لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدنهم من بعد خوفهم أمداً . » على حين أن سجلات التاريخ لا تترنح تحت يدين طينها ما يشيب لو يبد من ألوان الاصطهاد والأذى لدى أصحاب الرسول وأتباعه

في مكة والمدسة ، على عهد نزول هذه الوعود للؤكددة السكرية . حتى لقد كان أكبر  
أمانى المسلمين بعد هزتهم ونقضهم الصعداء قليلا ، أن يسلم لهم دينهم ويعيشوا آمنين في  
مهاجرهم كما يدل على ذلك ما صححه الحاكم عن أبي بن كعب قال : « لما قدم رسول الله  
ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوس واحلة . وكانوا لا يبيتون  
إلا بأسلح ولا يصبحون إلا فيه ، قالوا : « أترون أنا نبيت حتى نبيت آمنين مطمئنين  
لا نحاف إلا الله ؟ » ثم أتت الآية . وكذلك روى ابن أبي حاتم عن البراء قال : « زلت هذا  
الآية ونحن في خوف شديد ( أى قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا  
الصالحات » ) الخ . . هكذا كان حال الصحابة أيام أن وعدهم الله بما وعد ، وما أهمل  
تحقق هذا الوعد لإلهي رعم هذه الحال المتأفة في العادة لما وعد ، فذلت الدولة لهم ،  
واستخلفهم في أفطر الأرض ، وأورثهم ملك كسرى وقبصر ، ومكن لهم دينهم الذي  
ارتمى لهم ، وأبد لهم من بعد خوفهم أمنا . بالها بيوة تأتي عادة أن يتحدث بها إلا من يملك  
تحقيقها ، ومن يخرق . إن شاء . عادات الكون ونواميسه من أجلها . « إن تنصروا  
الله يصركم ويثبت أقدامكم » . « ولينصرون الله من ينصروه . إن الله أقوى عزيز » .  
( المثل السادس ) نفي القرآن بأن الرسول وأصحابه وفد كانوا بالمدينة ، سيدخون  
حكة آمنين محققين رءوسهم ومقصرين ، إذ قال سبحانه : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا  
بالحق ، لقد خسر السجد المرام إن شاء الله آمين محققين رءوسكم ومقصرين  
لأنهم » ثم وقع هذا التنبؤ كما أخبر ، مع أن ظروفه لم تكن تسع بهل يجرى عادة  
فدل ذلك على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون كلام محمد ولا مخلوق سواه ، بل هو  
كلام القادر على أن يبلغ مراده ويحقق العادة .

وزيادة انبيان تذكر أن الرسول ﷺ رأى في نومه كأنه هو وأصحابه قد دخلوا  
مكة آمنين محققين رءوسهم ومقصرين ، فمن رؤياه على أصحابه فقرحوا وحلبوا أهدم  
داخلوها من عامهم . ثم خرجوا محرمين يسوقون الهدى إلى مكة لا يقصدون حرما ،  
وي يفسدون حرما وسكا . ولكنهم ما كادوا يلفنون الحديبية حتى صدتهم قريش وأبوت

عليهم . أرادوا . وكادت تكون حرب لولا أن الرسول رضى بالصلح معه ومعه دونه .  
كان قاسية ، إشتدأ منه لفسالة وحال لسلام العام . ثم قبل راحما على أن يؤدى صلح في  
العام التالي بولا على مواد هذا الصلح القاسى . وعرف ذلك على أصحابه ، واتخذوا منه .  
خطا . فقاموا ومادة لفسهم ولهم ، فقال عبد الله بن أبى راسهم . والله حنفا ولا قسوة .  
ولا رأينا لفسد الحرام . ولكن على رغب هذا وعلى رغب ما هو معروف من عذر قريش  
وسكنهم اليهود وتقطيعهم الأرحام ، نزلت الآية الكريمة تحمل هذا الوعد بل تلك الوعود  
الثلاثة المؤكدة ، وهى دخول مكة وأداء النسك والأمن على أنفسهم من قريش حتى يتحدوا  
ونقلوا راحمين إلى المدينة وقد أمر الله وعده فتم الأمر على أكفاه في العام الذى بعدهم  
الحديبية . « ويأتى الله إلا أن يتم موزة ولو كره الكافرون » ١ .

( المثل السابع ) تبوء الكفار هزيمة جموع الأعداء في وقت لا يحل فيه لفكرة الحرب ،  
فصلا عن التقاء الجيوش وانتصار المسلمين وإهزام المشركين وذلك قوله سبحانه في سورة القمر  
المكية : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » وأنت حبير بأن الجهاد لم يشرع إلا في أسنة انشائية  
للهمجة . فأين ما ينسأ به القرآن إذن ؟ إنه لا بد أن يكون كلاما تنزل ممن يعلم الغيب في  
السموات والأرض . أما محمد الرجل الأمى فأتى له ذلك إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم  
عليم ؟ . روى ابن أبى حاتم وابن مردويه أن عمر رضى الله عنه جعل يقول حين نزلت  
هذه الآية : أى جمع هذا ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله  
وسلم يقولها .

( المثل الثامن ) « هو القرآن في مكته هذا المستقبل الأسود الذى ستطرقه قريش »  
ثم وفور ذلك كما نبأ . اقرأ قوله سبحانه : « فارتقت يومئذ السماء مدحاة من بين »  
يعنى المسح عدا عذاب ألم » ربما اكتشف عما العذب : إنما مؤمنون . « أتى هم »  
الذكر وقد جاءهم رسول من بين » ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » . « إنما كاشموا العذاب »  
قليلًا لاسمك عندون » يومئذ يسطش البطشة الكبرى إنما منتقمون » : وصف رسول الله

الآيات أن أهل مكة لما تمردوا على رسول الله ﷺ واستمعوا، دعا عليهم نبي كسى يوسف، أى بالجوع والقطع الشديدين، عسى أن يتوبوا ويؤمنوا بالله ورسوله فأجابهم الله بهذه الآيات . وفيها عند التأمل خمسة تنبؤات :

( أولا ) الإخبار بما يشاء من القطع وشدة الجوع ، حتى ينظر الرجل إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان .

( ثانيا ) الإخبار بأنهم سيضربون إلى الله حين تحمل بهم هذه الأمانة : « هذا عذاب ألیم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » .

( ثالثا ) الإخبار بأن الله سيكشف عنهم ذلك العذاب قليلا .

( رابعا ) الإخبار بأنهم سيعودون إلى كفرهم وعتوم .

( خامسا ) الإخبار بأن الله سينتقم منهم يوم البطشة الكبرى وهو يوم بدر . ولقد حقق الله ذلك كله ما انخرم منه ولا نبوءة واحدة ، فأصيبوا بالقطع حتى أكلوا العظام ، وجعل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من شدة جوعه وجده . ثم قالوا متضرعين ذلك الذى حكاه الله عنهم : « هذا عذاب ألیم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » . ثم كشف الله عنهم هذا العذاب قليلا ، ثم عادوا إلى كفرهم وعتوم . ثم انتقم الله منهم يوم بدر فبطش بهم البطشة الكبرى حيث قتل منهم سبعون وأسر سبعون وأدبل للصلبين منهم ١ .

أرايت ذلك كله ؟ وهل يمكن أن يصدر منه من مخلوق ؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم .

( المثال التاسع ) تنبؤ القرآن بهذا المستقبل للظلم الأسود، المصروب على اليهود بوجه مؤكد مؤبد، ثم تحقق هذا التنبأ كاملا عاما بقتال القرون والأجيال من عهد رسول القرآن



لم يصبر مرة من المرات في يوم واحد من الأيام اقرأ ما رل في شأنهم من قوله سبحانه في سورة آل عمران : « لن يصبروكم إلا أدى ولم يقاتلوكم يؤثوكم الأذى . ثم لا يصبرون » ضربت عليهم البلاء أيما ثقلوا إلا يحل من الله وجل من الله . وبادوا بهصب من الله . وضربت عليهم المسكنة . ثم انظروكم نهبوا في هذا النظم الكريم ، وصحه الله كانه الأهلل في عنق هذا الشعب الماكر الشيم ؟ أنت ترى فيه أنهم لا يستطيعون أن يتناولوا من المسلمين بالحرب والقتل والأسر ؟ إنما ضرهم أذى بالغدر وسوء الاستغلال والمكر . وعلى فرض أنهم يقاتلون للمسلمين ، فهل يذون حينئذ بالفرار ، ويولون الأدبار ، ولا سبيل لهم في المستقبل إلى الانتصار ثم إن البلاء قد ضربت عليهم كما يضرب المحر على السفهاء لا يستطيعون الفكك إلا إن دخلوا في عهد من الله أو عهد من الناس ثم إن للمسكنة وهي خوف الفقر قد ضربت عليهم كذلك ، فهم أشد الشعوب خوفا من الفقر ، ولذلك كانوا أشدها طمعا وشرها في جمع الدنيا ، لا يعرفون القناعة وإن غرقوا في المال إلى أم رء وسهم ، ولا يتورعون من الجري وراء الدنيا بأحط الوسائل ، وإن كانوا يمسكون الآن ما يقرب من نصف ثروة العالم ! .

ثم اقرأ في شأن هذه الطائفة قول الله تعالى في سورة الأعراف : « وإذا تأذن ربك لطمعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » . وخبري ألت تقرأ في هذا النص الكريم ، صكا معلا بعبودية هؤلاء وذلتهم إلى الأبد ؟ ثم أنت ترى أن تداول القرون والأحزاب من لدن نزول القرآن إلى اليوم لم يزد هذا القبط إلا تصديقا وتحقيا ، ما حره مرة وإما أشبهه إعجارا وتأبيدا ؟ إن كنت في شك فسل التاريخ قديمه وحديثه ، أو فاستمع إلى صوت المآلة القريبة ، ثم قل : صدق الله ما القرآن إلا كلامه ، وما عند إلا عنده ورسوله ! .

واليك مثالا آخر في شأن هؤلاء ، أمدع في الإعمار وأروع .  
( المثل العاشر ) نحدي القرآن لأعداء الله اليهود في شيء يظهر أنه سهل بسيط ، وأنه

كان في متناول قدرتهم وفي دائرة استطاعتهم ، ومع ذلك انصرفوا عنه وعبروا . فدل هذا التحدى مع الاصراف والمعجز ، على أن القرآن كلام من يستطيع تصريف القلوب وتحريك الأنسنة ، وهو الله وحده . أما محمد صلوات الله وسلامه عليه فمحال أن «امر بنفسه ويدعونه ويتحدى بهذا الأمر الظاهرة سهولته، وهو شر لا يعم أمم ولا يستطيع أن يفلت القلوب ولا أن يفقد الآسنة

وبين ذلك أن اليهود دعوا أسهم هم الشعب المختار من بين شعوب الخلق ، وادّعوا أن الدار الآخرة وقف عليهم وحاصلة لهم من دون الناس ، فخطب الله رسوله في سورة البقرة يرد عليهم ويتحداهم بقوله : « قل : إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمسوا الموت إن كنتم صادقين \* » ثم قال : « ولن يتموه أبداً بما قدمت أيديهم . والله عليم بالظالمين » ، فأنت ترى هذا المظم الكبريم ينطل مراغم اليهود يطلب يبدو لكل باظر أنه هين ، وهو أن يتموا الموت لو كانوا صادقين في ادعائهم أن نعم الآخرة وقف عليهم . ولقد كان مقدور اليهود في العادة أن يقولوا ولو «ألسنتم . نحن نتمى الموت ، كي نهض حجتهم على محمد وبكتوه . لكنهم صرفوا دم يقولوا ، ولم يستطع أحد أن يقول إني أنتمى الموت . وعلى ذلك قامت الحجة عليهم ، وبان كذبهم في كبريائهم وعزورهم . وسع من أمر القرآن معهم أنه بى عنهم هذا التمسى فيما شمل آحاد المستقبل فقال : « ولن يتموه أبداً »

وها قد مضى على رول القرآن قريب من أربعة عشر قرناً ، وما تمى أحد منهم الموت لو كانوا صادقين . بل أعدس القرآن في السورة نفسها مبلغ حرصهم على الحياة وأملهم فيها فقال : « وتحدثهم أحرض الناس على حياة . ومن الذين أشركوا لو أنهم لو يعمر ألف سنة . وما هو بمرحزهم من العذاب أن يعمر . والله بصير بما يعملون » . فكان ذلك عملاً حذراً من أعلام النبوة ، لأنه تنوّه بعيب حاصر لم يكن يعلمه محمد ولا قومه

حبرى - ربك - هل تصور عاقل أن محمداً وهو في موقف الخصومة الشديدة من اليهود، تطوع له به أن يتحداهم هذا التحدى من عنده في امة اوانق الى لا يردده والام الى لا يخاف مستقبل؟ وهل كان يأمن أن يرد عليه واحد منهم فيقول: إني أنمى الموت؟ وهنا تكون لقاصية، فقة طلع - لا قدر الله - حجة الرسول، ويظهر عجزه وتفشل دعوته، أمام قوم هم من أشد الناس عداوة للذين آمنوا، ومن أحرصهم على إلحاح الرسول وتوجيهه.

فهدور هذا التحدى من رجل عظيم كعبد، ثم استخذاء هؤلاء وانصرفهم عن الرد عليه وعن إسكاته وهو مقدور أقل رجل منهم، ثم تسجيل هذا الاستخذاء عليهم في الحال بقوله: « ولتعدهم أحرص الناس على حياة » وفي الاستقبال بقوله: « ولن يتمنوه أبداً »: كل أولئك أدلة ساطعة على أن القرآن كلام علام الغيوب، ظاهر الألسنة ومقلب القلوب. وهي أيضاً براهين قاطعة على أن محمداً لا يمكن أن يكون مصدر هذا الكذب ولا منبع هذا الفحص، بل قصاره أنه مهبط هذا التنزيل، وأنه يتلقاه من لدن حكيم عليم.

(المثال الحادى عشر) وهو من معائب هذا الباب، أن القرآن عرض لتعيين بعض أحداث جزئية، تقع في المستقبل لشخص معين، ثم تحقق الأمر كما أخبر. هذا هو الوليد بن المغيرة المخزومي بقول الله فيه: « سنسسه على الخرطوم » أى سنجعل له علامة على أذنه يعرف بها وقد كان، ففي غزوة بدر الكبرى حطم ذلك الرجل بالسيف أى ضرب به أذنه، وبقي أثر هذه الصربة سمة فيه وعلامة له ولعلك لم تنس أن الوليد هو الذى زل فيه « ذرى ومن حدثت وحيدا » وما بعدها من الآيات التى ذكرها قديما وهو أيضاً الذى رلت فيه ما هذه الآيات من سورة الفلم: « ولا تطلع كل حلاف مهين \* حمير مشاء سبيم \* مدع للحير معتد أئيم \* عتل بعد ذلك ربيم \* أن كان دامل وسيم \* إذا نعى عليه آياتنا قال أساطير الأوبين \* سنسسه على الخرطوم \* » يعود، تعالى من الكفر والعباد وسوء الأخلاق، وسأله الإيمان الكامل والعمل الصالح والخلق الفاضل، آمين.

## على هامش الوجه السابع

في هذا الوجه من الإصحاح على ما شرحنا ومثلاً ، معجزات كثيرة لا معجزة واحدة ، لأن كل نبأ من أنبياء العيب معجزة . فاطر ما عدة تلك الأنبياء ، يتبين لك عدد تلك المعجزات .

وإنه ليرجعك هذا الإجماع إذا لاحظت أن هذه الكثرة الفائرة لم تقتضب منها قط نبوة واحدة ، بل وقعت كما أنبأ عن الحال الذي أنبأ ، ولو تحامت واحدة لقامت الدنيا وقدمت ، وطبل أعداؤه ورقصوا فرحاً بالعثور على سقطة لهذا الذي جاءهم من فوقهم ، وتحدام عماليس في طوقهم . وسفه معبوداتهم ومعبودات آباءهم . ولو كان ذلك لنقل جنواثر ما دامت هذه الدواعي متوافرة على فقه وتواتره كما ترى .

ويزيد في أمر هذا الإجماع أن لم يحدث بهذه الأنبياء لغيبية أمي شأ في الأميين ، وأن من هذه الأنبياء ما كان تحدياً وإجابة سؤال العهد من أهل الكتاب ، كما سأله عليه السلام عن أصحاب الكهف وذي القرنين وعن الروح ومحرها ، وأحاديثهم عما سألوا وهم يسمون أنه غيب بالنسبة إليه ، ليست يديه وسيلة عادية لهم به . ولم يؤثر عنهم أنهم كذبوه في شيء مما أحبر تكذيبها يستندون فيه إلى دليل ، بل هو الذي كان يكذبهم فيما حرموه ، ويرشدكم إلى حقيقة ما بدلوه ، وينعدهم بما في أيديهم إذا جادلوه . وإليك شاهد هذا على ذلك :

قال ليهود مرة للنبي عليه السلام : إياك ندعى أبك على ملة إبراهيم وأبنا كل لحوم الإنبل وأناسها . فقال عليه السلام : كان ذلك حلالاً لإبراهيم فحرمه فقات اليهود : لها لم تزل محرمة في ملة إبراهيم وموح عليهما السلام . فبرل سكدهم لهم ، وتحدياً بالتوراة التي عندهم « كل الطعم كان حلالاً لدى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن يرسل للتوراة : قل فأتوا بالتوراة فابوها إن كنتم صادقين . ثم افترى على الله

الكذب من صدر ذلك فأولئك هم الظالمون \* فن صدق الله . فاتبعوا آية إبراهيم حبيماً  
وما كان من المشركين \* .

يصدق إلى ما ذكرنا أن النبي ﷺ كبر بحسن عييه وجه الصواب في بعض ما يعنيه  
من الشؤون وبهذه من الأمور فكان يتوقف تارة كما توقف في حديث الإفاة مدة حتى  
نزل الوحي بهراءة عائشة روحه وبنت صدقته . وكان يجتهد ويحلى تارة أخرى ، كما  
حدث في أسرى بدر على ماسياني . فبركات هذه الأنباء العينية نامة من نفسه ولم تكن  
من ربه ، لكان الأخرى به أن يعرف وجه الصواب في أمثال تلك الشؤون والمهام ، مع  
أن أسباب العلم بهم أقرب إلى اليسر وسهولة من تلك الغيبات التي تقطعت أسبابها العادية  
حالة ومع أن الرسول قد كمل ما أصابه من جراء عدم عده بأمثال تلك الشؤون والمهام .  
وإلى ذلك يشير القرآن في قوله : « قل لا أملك لنفسي نقماً ولا ضراً إلا ما شاء الله . ولو  
كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير »  
لقوم يؤمنون » .

### معجزات يكشف عنها العلم الحديث

وبتصل بما ذكرنا من أنباء الغيب ، نوع حريف لم يكشف عنه إلا العلم في العصر  
الحديث . وكان قبل ذلك محبوا في صير الزمن ، خفياً على المعاصرين لرسول قرآن ،  
حتى صاع أعداء الله من هذا إعطاء شبهة ولغوا منه شبهة ، وما عصفوا أيدى أهلهم لا يصح  
أن يكون حده « بل كذبوا » لم يحيطوا به ، ولا ينهم تأويله » وإسيت أمثلة  
ثلاثة من هذا النوع

#### ١ - معجزة تكشف عنها التدرج الحديث

قال العلامة صاحب مجلة لفتح النور في سورة متونه قرأ هذه الآية الكريمة :

« وقالت اليهود عزير ابن الله . وقالت النصارى المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يصاهتون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله ، أتى يؤفكون » ؟ مصدر هذه الآية وهو حلة . وقالت اليهود عزير ابن الله . يتضمن من وظائف التاريخ وحقائق العلم ، أمراً لم يكن أحد يعرفه على وجه الأرض في عصر نزول القرآن .

ذلك أن اسم عزير ، لم يكن معروفاً عند بني إسرائيل إلا بعد دخولهم مصر واحتلالهم بأهلها وانصالحهم بمقائدها ووثوقها . واسم عزير هو (أوريس) كما ينطق به الإفرنج أو (عوزر) كما ينطق به قدماء المصريين ، وقدماء المصريين منذ تركوا عقيدة التوحيد وانتحلوا عبادة الشمس ، كانوا يعتقدون في عوزر أو أوريس أنه ابن الله . وكذلك هو إسرائيل في دور من أدوار حلولهم في مصر القديمة ، استحسنوا هذه العقيدة أن أوريس ابن الله . وصار اسم أوريس أو عوزر (عزير) من الأسماء المقدسة التي طرأت عليهم من ديانة قدماء المصريين . وصاروا يسمون أولادهم بهذا الاسم الذي قدسوه كفرا وضلالا . فعاب الله عليهم ذلك في القرآن الحكيم ، ودلهم على هذه الوقائع من تاريخهم الذي نسيه البشر جميعاً . إن اليهود لا يستطيعون أن يدعوا في وقت من الأوقات أن اسم عزير كان معروفاً عندهم قبل احتلالهم بدماء المصريين وهذا الاسم في لغتهم من مادة (عوزر) وهي تدل على الألوهية ، ومصاه الإله المعين . وكانت مالمعى نفسه عند قدماء المصريين في اسم عوزر أو أوريس الذي كان عندهم في الدهر الأول معنى الإله الواحد ، ثم صاروا يعتقدون أنه ابن الله عقب عبادتهم للشمس . واليهود أخذوا اسم هذا الاسم في العصور التي عدا ما كانوا يعتقدون أن أوريس ابن الله .

فهذا سر من أسرار القرآن ، لم يكشف إلا بعد ظهور حقيقة ما كان عليه قدماء المصريين في العصر الحديث . وما كان شيء من ذلك معروفاً في الدنيا عند نزول القرآن ؟ حتى إن أعداء الإسلام كانوا يصوعون من جهلهم هذه الحقيقة التاريخية شبهة يلطجون بها وجه الإسلام ويطعنون بها في القرآن ، فقال اليهود منهم : إن القرآن يقول ما لم يدل

على كتبنا ولا في عقائدنا وأتى دعاة النصرانية منهم بما شاء لهم أدبهم من السب والعلم  
والرأية بافترار دين الإسلام ونبي الإسلام ! - « ا » بتصرف لطيف

## ٢ - معجزة يكشف عنها الطب الحديث

كتب العلامة للرحوم الدكتور عبد المزيّر إسماعيل (باشا) في مجلة الأهرام  
نقوس في مقال له تحت عنوان : ( الطب وصيام شهر رمضان ) : « من الناس من تقوم  
أن في صيام رمضان - وهو من أركان الإسلام - مصرة بلحق بالصائم لما يصيب الجهد  
العضي خاصة وغيره عامة ؛ ولما يكون من نص الصائمين من أعمال وعصب وهذا خطأ ؛  
لأن ما ذهبوا إليه ليس من الصيام في شيء ، ولكنه من ترك الاعتدال في طعام الإفطار  
والسجور ، ولأنهم لم يراعوا ما يقتاس مع حلول للمدة النهار كله في وقت الإفطار ، لأن  
السجور يجب أن يقتصر على نضع لقيات لأنه لا ضرر من الجوع في حدوداته

وعما أن للصيام يستعمل طبيا في حالات كثيرة ، ووقايه في حالات أكثر . وأن  
كثيرا من الأول مر الدفعية لم تظهر حكمها وستظهر مع تقدم العلوم ، رأيت من لواحب  
على أن أكتب عما ظهر طبيا للآن من فوائد هذه الأوامر . وإبصار آيات قرآنية لأبين  
معناها الذي لا يظهر إلا لي بحث عنها في نور الطب الحديث . وسأبدأ بالصيام .

الصيام :

لصيام فوائد في ثلاث جهات : (أولها) وأهمها الجهة الروحية وهذه أتركها لعلماء  
الدين والمتصوفة منهم . (ثانيها) الجهة الأخلاقية وهذه أتركها لعلماء الأخلاق . ومن السهل  
أبرهنة على أن للصيام يعود الإنسان النظام والقناعة ، وطاعة الرؤساء ، والصبر وكبح  
شهوات النفس ، وحب الخير والصدقة ، وغير ذلك من الفضائل . (وثالثها) وأقلها أهمية  
الجهة المادية أو الصحية ، وهي محل بحثنا .

تقد ظهر أن الصيام يفيد في حالات كثيرة، وهو العلاج الوحيد في أحوال أخرى وهو أم علاج إن لم يكن العلاج الوحيد للوقاية من أمراض شتى .

فللعلاج يستعمل في :

١ - اضطرابات الأسماء الزمزمة للصعوبة بتخمر في المواد الزلالية والنشوية . وهنا يسمح الصيام وخصوصا عدم شرب الماء بين الأكلتين وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما في صيام رمضان ويمكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمير وهذه الطريقة هي أنجع طريقة لتطهير الأسماء .

٢ - زيادة الوزن الناشئ من كثرة الغذاء وقلة الحركة . فالصيام أجمع من كل علاج مع الاعتدال وقت الإفطار في الطعام ، والاكتفاء بالماء في السحور

٣ - زيادة الضغط الذاتي . وهو آخذ في الانتشار بازدياد القرب والاضطرابات النفسية حتى هذه الحالة يكون شهر رمضان نمرة وبركة . خصوصا إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعي لثله .

٤ - البول السكري . وهو منتشر انتشار الضغط . ويكون في مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوبا غالبا بزيادة الوزن فهنا يكون الصيام علاجا نافعا ، إذ أن السكر يهبط مع قلة السعير ويهبط السكر في المادة بعد الأكل خمس ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي في حالات البول السكري الخفيف . وسد عشر ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي بكثير . ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات في الغذاء أم علاج لهذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين ، خصوصا إذا كان الشخص يزيد على الوزن الطبيعي ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام .

٥ - التهاب الكلى الحاد والزمن الصعوب بارتشاح وتورم .



## ٦ - أمراض القلب للصعوبة بشورم .

٧ - التهاب المفاصل المزمنة خصوصاً إذا كانت مصحوبة بسمن ، كما يحصل عند السيدات غالباً بعد سن الأربعين ، وقد شوهت حالات تمشي في شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تمشي مع علاج سنوات بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث .  
ورب سائل يقول : ولكن الصيام في كل هذه الحالات يحتاج إلى إرشاد طبيب في كل مريض على حدة ، والصيام الذي كتب على السليمين إنما كتب على الأصحاء . . .  
وهذا صحيح ، ولكن فائدة الصيام للأصحاء هي الوقاية من هذه الأمراض ، وخصوصاً الأمراض التي مر ذكرها تحت رقم ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧

وهذه الأمراض كلها تبتدىء في الإنسان تدريجاً ، بحيث لا يمكن الجرم بأول المرض ولا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض ، لأن الطب لم يتقدم بعد إلى الحد الذي يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها ولكن من التؤكد طبيياً أن الوقاية من كل هذه الأمراض هي في الصيام : بل إن الوقاية فعالة جداً قبل ظهور أعراض المرض بوضوح . وقد ظهر بإحصاءات لا يتقبل الشك أن زيادة السمن يصحبها استعداد للبول ، السكري ، ورياء الضغط الدائى لدم ، والتهاب المفاصل الزمن ، وغير ذلك . ومع فلة الورى الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها . وهذا هو السر في أن شركات التأمين لا تعمل تأمينا على الأشخاص الذين يزيد وزنهم إلا بشروط تنقل كلأراد الورى .  
والصيام مدة شهر كل سنة هو خير وقاية من كل هذه الأمراض .

وهذه الأمراض تنقشر بزيادة الحضاره والترف . فقد انتشرت في أوردية أكثر من الأول وفي مصر يكاد يكون البول السكري وزيادة ضغط الدم مقتصرين على الطبقات الوسطى والعليا وهو قليل جداً في الفقراء .

وبطل على الظن أن ذلك هو السر في الصيام في الإسلام أشد منه في الأديان

السابقة ، لأن الإسلام - وهو آخر الشرائع السماوية - جاء في زمن يحتاج فيه إلى الوقاية من أمراض تزداد كلما ازداد الترف « ارحمة الله عليه .

### ٣ - معجزة يكشف عنها علم الاجتماع

كتب العلامة مدير مجلة الأهرام القراء تحت عنوان : ( معجزات القرآن العلمية - القرآن يضع أصول علم الاجتماع قبل العلم بأكثر من ألف سنة ) مقالا ضافيا ، يقتطف منه ما يلي :

« لما جاء الإسلام وشرع أهله في إحياء موات العلم ونقل كتبه القيمة إلى نفوسهم ، انظروا في كل شيء ، مستهدين بالأصول الأولية للقرآن الكريم ، كقوله تعالى : « إنا نكل شيء خلقناه بقدر » وقوله : « وإن من شيء - إلا عندنا خزائنه . وما ننزله إلا بقدر معلوم » فأدركوا على وجه عام أن لكل شيء - في هذا الوجود نظاما يجرى عليه كما فعل بعض المؤرخين ، وخاصة ابن خلدون . ولكن المعارف التي كانت قد جمعت عن الأمم ، لم تكن تكفي لتسكين علم خاص بها . وتلك هذا المورد نهضة أوربا . فأدرك الله هذا سبق الفيلسوف الفرنسي الكبير ( أوجست كومت ١٧٩٨ - ١٨٥٣ ) واضع أصول الفلسفة الوضعية فإنه أول من حمل للاحتجاج علما ووصفه في رأس جميع العلوم البشرية لشرف موضوعه من ناحية ، ولأنه لا ينسئ إلا لمن يأخذ من كل علم بطرف ، انشعب بحوثه ، واستنادها على مجلة المعارف البشرية .

علم الاجتماع البشري أحدث العلوم وضما ، ولكنه أشرعها موضوعا ، إذ يعرفنا على أى الأصول تقوم الجماعات ، وبأىها تحفظ وجودها وترتقى ، وما هي عوامل التأليف التي تقوى وجودها ؟ وعوامل التحليل التي تنقسم عرا ألقها . وهذه كلها معارف عالية ضرورية للمجتمع ضرورة على قوانين الصحة والطب لآحاده .

ثم ذكر من قواعد علم الاجتماع : أن الإنسان لا يستطيع أن يؤثر في المجتمع لمجرد رأى

يبدؤه في إصلاحه . ولكن ذلك لا يكون إلا إذا فهم الكافة صدق هذا الرأي وعملوا به . عند ذاك يوحى في المجتمع ميل جديد للعول عن الجهة التي يراد تحويلها إلى الوجهة التي يريد على أن يكون عليها . وهذا كله مصداق لقوله تعالى : « إن الله لا يمسر ما يقوم حتى يبروا ما بأنفسهم » . فحق الآية أن الأمة التي تريد أن تحول الله منها حالا لا ترصاه لغيره ، يجب عليها أن تغير من قسيتها أولا . فإن ضلعت حول الله ، هما ما نكرهه ، ووجه إليها من صه ما نحب . وهذا وحده معجزة علمية للقرآن كان يجب أن يفصلها فصل خاص ، وأن يشاد بذكرها أعظم إشادة ! فكشف هذا السر يجعلنا ندرك سر تنبيه القرآن على وجوب الدعوة إلى المروء والنهي عن المنكر . وقد أن ساق أدلة من الكتاب والسنة على ذلك قال :

القرآن أثبت أن للاجتماع نوااميس ثالثة قيل أن بتحويلها أحلم علماء الأرض تخيلا وقد رأيت أن نعيين تلك للنوااميس والتعسس مما خفى منها هو الشغل الشاغل اليوم لفلاسفة الاجتماع . فقال : « سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا » . وقال تعالى « فهل يظنون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » . « سنة الله التي قد خلت من قبل . ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

ولم يكف للكتاب بهذا وحده . ولكنه قرر أيضا أن الجماعات كالأحاد ، لها آجال لا نستطيع أن نتمدها . وهو ما هدى إليه علم الاجتماع بعد أن وجد أن وحوه الشبه بين الفرد والمجتمع واحدة ، فقال تعالى : « ولكل أمة أجل ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » . وقد سكرر مثلها في سور كثيرة من القرآن الكريم .

فلذى يتأمل في سبق القرآن الكريم العالم كله أكثر من عشرة قرون في وضع أصول العلم الاجتماعي ، ويكون من غير أهل هذا الدين ، يدعش كل الدعش ، ولا يكاد يصدق عيبه . وسندأب نحن من جهتنا على تجلية الأصول المطية مستمر حين إياها من

الكتاب الكريم ، ليتحقق العالم أنه على ما يقوله مؤحيه سبحانه وتعالى : « ما فرطت في الكتاب من شيء » .

وذلك يتضح سر نهضة المسلمين التي حصلت لم رعاية العلم والحكمة في العالم في سنون معدودة ، فإنهم لو كانوا يبدوا حائهم العلمية على النحو الذي تبتذنها به كل أمة ، ما استطاعوا أن يبرزوا الأمم التي تقدمتهم في هذا السبيل بقرون كثيرة . ولكم لبذئهم إياها مستبشرين بهذه الأصول القرآنية العالية ، بلغوا منها أوجاً في مدى قصير لم تبلغه أمة في آحاد طويلة . وعلى المسلمين اليوم أن يدركوا هذا الأمر الجلل ، وأن يجعلوا كتابهم نبراساً لهم في اقتباسهم العلم عن الأمم الغربية ، ليبلغوا منه ما بلغه أسلافهم في عهدهم الأول ، ويزيدوا عليه ما هدى إليه النشر في النصور الأخيرة .

### الوجه الثامن آيات العتاب

ومعنى هذا أن القرآن سجل في كثير من آياته بعض أخطاء في الزأى على الرسول ﷺ ؛ ووجه إليه بسببها عتاباً شمر بلفظه نارة وصنفه أجرى . ولا ريب أن العقل المنصف يحكم جارماً بأن هذا القرآن كلام الله وحده ، ولو كان كلام محمد ما سجل على نفسه هذه الأخطاء وهذا العتاب ، يطلعها الناس بل وبغفرون إلى الله بتلاوتها حتى يوم للآب .

### الخطأ في الاجتهاد ليس معصية :

وسبب في هذه المناسبة إلى أن هذا الخطأ ليس معصية ، حتى يقدح ذلك في عصية الرسول ﷺ ، إنما هو خطأ فحسب ، بل هو من نوع الخطأ الذي يستحق صاحبه أحراً ، لأنه صادر عن اجتهاد منه . والاجتهاد الصالح وهو مثل الجهد في الاطلاع والبحث والموارنة والاستنتاج . محمود شاق يئله صاحبه لمرض شريف ، فليس من الإنصاف حرمانه من المكافأة متى كان أهلاً للاجتهاد وإن أخطأ ، لأن الإنسان ليس في وسعه أن يكون معصوماً

من الخطأ . بل المجتهد يخطئ . بعد أن يبذل وسعه في طلب الصواب وهو يتمنى ألا يخطئ .  
 بل وهو يخشى أشد الخشية أن يخطئ . ، والله تعالى يقول : « لا يكلف الله بشئاً إلا  
 وسعها » وعلى هذا قررت شريعتنا السخنة أن المجتهد له أجر إن أخطأ وأجر إن إدا  
 أصاب . روى الجماعة كلهم حديث « إذا حكم الحاكم في شئ فاجتهد ثم أصاب لله  
 أجران . وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد » بل كان النبي ﷺ يعطى أمراء  
 الجيوش والسر الأحق الحكم بما يرون فيه الصلحة ، ويقول لواحد منهم : « وإذا  
 حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن  
 أنزلهم على حكمك ؛ فإنك لا تدري أنصيب فيهم حكم الله أم لا » رواه أحمد ومسلم  
 والترمذي وابن ماجه .

ولا ريب أن الرسول ﷺ كان في موضع الإمامة الكبرى للخلق فكان من حكمة  
 الله أن يجتهد ليله الخلق في الاجتهاد ، وأن يخطئ في بعض الأمور لئلا يصرفهم  
 خوف الخطأ في الاجتهاد عن الاجتهاد ، مادام أفضل الخلق على الإطلاق قد أخطأ ومع  
 خطئه لم يمتنع من الاجتهاد ، بل عاش طوال حياته يجتهد في كل ما لم ينزل عليه فيه وحى  
 حتى يقرر في الناس مبدأ الانتفاع بمواهب العقول وتمسك القرائح ، ويتحرر الفكر  
 البشري من رقي الجود والركود . . ثم كان من حكمة الله أيضاً أن يقف رسوله على وجه  
 الصواب فيما أعور به الصواب ليملم الناس أنه ليس كأحد ، ولأن اجتهاده كاجتهادهم  
 بل اجتهاده حجة دونهم ، لأنه ﷺ مؤيد من لدن ربه ، بتولاه مولاه دائماً حتى لا يقره  
 على خطأ في الأمور الاجتهادية . وهنا يزداد الذين آمنوا إيماناً به ، وثقة بكل ما صدر  
 عنه . ثم يقتدون به في وجوب الخضوع للحق إذا ظهر ، كما كان الرسول يصحح له ويضبطه  
 ويعلن خطئه فيما أخطأ فيه لا تأخذه المرة بالإثم ، ولا تلويه العظمة عن حق ، بل هنا سر  
 العظمة وسر الهبة وسر تربية الأمة بالقدوة . « قد كان لكم في رسول الله أسوة  
 حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » .

إنما العار الحارح لشكرامة البشر ، أن يحمّد الإنسان فلا يحتمد وهو أهل للاحتهاد ، أو يحمد المتمدّد على رأيه وإن كان عظيماً بعد أن يستعمل له خطؤه ، مع أن الرجوع إلى الحقّ فصيلة ، والرجوع إلى الحقّ خير من التماهى في الباطل . والكمال المطلق لله وحده . وفي الحديث : « كل بنى آدم خطاء . وحير الخطائين التوايرون » .

بصاف إلى ما ذكرنا من الحكم والأسرار في أخطاء الرجول الاجتهادية ، أمر آخر له قيمته وخطره ، وهو إقامة أدلة مادية ناطقة على بشرية الرسول وعبوديته ، وأنه - وهو أفضل خلق الله - لم يخرج عن أن يكون عبداً من عبيد الله ، يصيبه من أعراض العبودية ما يصيب العباد ، ومن ذلك خطؤه في الاجتهاد ، وبذلك لا يفضل المسلمون في إطرائه ، ولا يفضلون في إجلاله ، كما ضلّ النصارى في ابن مريم . ولقد نبّه الرسول ﷺ إلى ذلك فقال : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » . رواه البخاري وقال : « إنما أنا بشر مثلكم . وإن الظن يخطئ » . وبصيب . ولكن ما قتلكم قال الله فلن أكذب على الله » . رواه أحمد وابن ماجه . وقال ﷺ : « إنما أنا بشر . وإنكم تختصمون إلي فملل بفضم أن يكون الحق بجمعة من بعض فأحسب أنه صادق فأقصي له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له بحق فإنما هي قطعة من النار ، فبأخذها أو ليركها » . رواه مالك والشيخان وأصحاب السنن .

وحلاصة نقول أن في هذا للقيام أموراً ثلاثة :

( أولاً ) أن خطأ الرسول ﷺ لم يكن من جنس الأخطاء للعروة التي يتدرى فيها كثير من دوى النفوس الوضيعة ، كخالفه أمر من الأوامر الإلهية الصريحة ، أو ارتكاب فعل من الأفعال القبيحة . إنما كان خطؤه عليه الصلاة والسلام في أمور ليس لديه فيها نص صريح ، فأهمل نظره وأجال فكره وبذل وسعه ولكن على رعم ذلك كله أخطأ .

( ثانياً ) أن الله تعالى لم يقر رسوله على خطأ أبداً ، لأنه لو أقره عليه لسكان إقراراً صنيهاً بمحاولة انخطأ للصواب والحق للماطل مادامت الأمة مأمورة من الله بالناسخ الرسول فيما يقول ويعمل . ولما كان في ذلك تلييس على الناس وتصليل لهم عن الحق الذي فرض الله عليهم اتباعه . ولما كان ذلك مدعاة إلى التشكيك فيما يصدر عن الرسول ، ضرورة أنه على هذا الفرض قد يجتهد ويخطئ ، ولا يرشده الله إلى وجه الصواب فيما أخطأ . وهنالك التوازن كما باطل لا محالة ، فبطل ما زعموا وثبت أن الحكيم العليم لا يمكن أن يقر القدوة العظمى على خطأ أبداً ، بل أن يبين له وجه الصواب . وقد يكون مع هذا البيان لون من ألوان العقاب لطيفاً أو حقيقاً ، توجبها له وتكملها ، لا عقوبة وتكملها .

( ثالثاً ) أن الرسول كان يرجع إلى الصواب الذي أرشده إليه ، ولا بد أن يبدى غضاضة ، ودون أن يكتم شيئاً مما أوحى إليه من تسهيل الأخطاء عليه ، وتوجيه العقاب إليه ، وفي ذلك - لا ريب - أنصح دليل على عصمته وأمانته ، وعلى صدقه في كل ما يبلغ عن ربه ، وعلى أن القرآن ليس من تأليفه ووضعه ، ولكنه تنزيل العزيز الرحيم .

#### آيات العقاب نوعان :

أما بعد فإن العقاب الموجه للرسول في القرآن على نوعين نوع لطيف لين ونوع منهف خشن . ولنقتل لها بأمثلة ثلاثة :

( المثال الأول ) قوله تعالى في سورة القوبة : « هَذَا اللَّهُ عِنْدَكَ . لَمْ أَذَنْ لَهُمْ حَقِّي بِمَنْ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَمْلِكُ الْكَافِرِينَ » وذلك أنه عليه السلام كان قد أذن لهم في المسافقين في التحلف عن عروة تبوك حين جاءوا يستأذنون ويمتدرون ، فقبل منهم تلك الأعداد . أحداً نظواهم ، ودعوا لأن يقال إنه لا يقبل المدر من أصحاب الأعداد ، ولكن الله تعالى عاتبه كما ترى ، وأمره بكال الفتنة والتجري ، وألا يتخذ بتلك الظواهر ، فإن من ورائها أسهل المقاصد « والله أعلم بما يبيتون » ولعله لم يخف عليك لطيف هذا العقاب بتصدير المعنى فيه خطأ للرسول من رب الأرباب ! .

(المثال الثاني) قوله تعالى : « ما كان لبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في

الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم » لولا كتاب من

الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » فكلوا مما عنتكم حلالاتكم . واتقوا الله لما

الله عزيز رحيم » . وذلك أنه وقع في أسرى المسلمين يوم بدر سبعون من أشرف قريش .

فاستشار الرسول أصحابه فيهم . فبهم من اشتد وأبى عليهم إلا السيف . ومنهم من رفق

لأهلهم وأشار بقبول الفداء منهم . وكان **ع** مطبوعا على الرحمة ، حاجر بين أمرين إلا

اختار أسرها ما لم يكن إثمًا ، فرجع عنتضى طبعه الكريم ورحته الواسعة رأى من أشار

بقبول الفداء عسى أن يملوا أو يخرج الله من أصلابهم من يمهده ويمعده ، ولينتفع

المسلمون بمال الفدية في شؤونهم الخاصة والعامة . ولكن ما لبث حتى نزلت الآيات

الكريمة المذكورة . وبها تسهيل خطأ ذلك الاجتهاد المحمدي . فلو كان القرآن كلامه

صلى الله عليه وسلم ما سجل على نفسه ذلك الخطأ ! .

أمر آخر : في هذه الآيات ظاهرة عجبية ، هي الجمع بين مقابلات لا تجتمع في نفس

بشر على هذا الوجه ، وصدرها استنكار فعمل « ما كان لبي أن يكون له أسرى حتى

يثخن في الأرض » . وعقب هذا الاستنكار عتاب قاس مر ونحويف من المذاهب

« تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم » لولا كتاب من الله سبق

لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » وفي أثر هذا الاستنكار والعتاب والتخويف إذن

مأكل ، ووصف له بالطيب والحل ، وشارة بالغفرة والرحمة لمن أكل « فكلوا مما

عنتكم حلالاتكم . واتقوا الله . إن الله غفور رحيم » ومثل ذلك يعلم أن نظم هذه المقابلات

في سلك واحد هذه الصورة لأمر واحد وأمور واحد ، لا يمكن أن يصدر من نفس

شربة هكذا من غير فاصل بين الإنكار والإذن ، ولا بين اللذع والهدم . ولا بين الوعيد

والوعد ؛ لأن من طبيعة البشر أن يشغلهم شأن عن شأن ، ولا يجتمع لهم في أمر واحد

ووقت واحد حاطران متقابلان ، ولا حالان متناقضتان . كالنضب والرحا والاستهجان



والاستعصان . بل إذا وارد على النفس فأبداً يردان متعاقبين في رمعين وإذا تضاف  
خالفها معها يحصى السابق . وإذا عاها لم يبق معنى لإثباته وتسهيله ، بل من الصنى تركه  
والإصرار عنه ، خصوصاً إذا كان هذا الخطر الأول وإعلاماً لتخطئه التفتكهم وفقد  
ولومه ، كقول العدا في هذا المقام وأكله .

ولا حرم أن هذه الظاهرة تأتي في الأخرى إلا أن تكون دليل إغراء ، ورهان  
صدق على أن هاتين نفسيتين مختلفتين : نفسية لا يشغلها شأن ، ولا تنأثر بخواص  
الغضب والرضا كما يتأثر الإنسان . ونفسية أخرى سببتا إلى الأخرى سبب المأمور من  
أمره ، والمسود من سيده ، لكن مع الحب والقرب . وهذه الآيات الكريمة ليست إلا  
كلام سيد عزيز يقول لسيده الحبيب : أخطأت فيما مضى وما كان لك أن تفعل ، ولكنى  
عفوت وغفرت وأدنت لك بمنتهى في المستقبل !

( المثل الثالث ) قوله عز وجل : « عيسى وتولى » أن جاءه الأنهى \* وما يدريك  
عله يزكى \* أو يذكر فضله الذكرى \* أما من استغنى \* فأنت له نصدي \* وما عليك  
الأيزكى \* وأما من جاءك يسعى \* وهو يحشى \* فأنت عنه ظلمى \* كلا إنها  
تذكارة \* وذلك أن النبي ﷺ كان مشتغلاً ذات يوم بدعوة أشراف من قريش إلى  
الإسلام ، وإذا عبد الله بن أم مكتوم يحى ، ويسأل الرسول عليه الصلاة والسلام وكان  
عبد الله رجلاً أحمى تشرف بهداية الإسلام من قبل ، ولم يقدر تشاعله ﷺ بدعائه هؤلاء  
الصناديد الذين كان النبي ﷺ حريصاً على هدايتهم كل الحرص ، وكان يستميلهم  
وتشاعهم إليه طمناً في أن يسلموا ، فلا يلتجئهم العرب أن تقتدى بهم في إسلامهم  
وفي أى شىء جاء هذا الصحابي يسأل : إنه مسلم ، فطبعى أنه لم يسهل عن الإسلام بل  
جاء يستريده من الهداية والعلم ويقول : « يا رسول الله عطفى بما علمك الله »

وحدد الرسول عليه بين قوم غلاظ مشركين بدعوم إلى الإسلام ، ورجل ودع  
سلم يستريده من العلم فآثر الإقبال على أولئك الصناديد . وعيسى في وجه ابن أم مكتوم  
هذا وأعرض عنه ، لا احتقاراً له وغصاً من شأنه ، ولكن حرصاً على هدائه هؤلاء .

من أن موت هذه المرحمة السامحة لدعوتهم . فأُزِلَ الله على رسوله تلك الآيات الباهرة ،  
بعبائه فيها ذلك العذاب القاسي الخشن ، ومعهم أن حرصه على الهداية ما كان يسعى أن  
يصل ، إلى حد الإقبال الشديد على هؤلاء الصناديق وهم عنه معرصون ، ولا إلى حد  
الإعتر من العباس في وجه هذا الضعيف الأحمى وهو عليه مقل .

وكأنى لك تحس معنى حرارة هذا العذاب . وذلك لتقرير مبدأ من المبادئ العالية ،  
هو الإعراض عن المعصين مهما عظم شأنهم ، والإقبال على المقبلين مهما رفق حالهم  
« وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك  
عنهم تريد ربة الحياة الدنيا . ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ، وكان  
أمره فُرطاً » ولعلك تلح متى من وراء هذا العذاب ، راحة الرسول بأعدائه وإحلامه  
لدعوتهم ، وتغايبه في وظيفته ، وحرصه على هداية الناس أجمعين . راده الله شرفاً على  
شرفه وعزاً على عزه ، آمين .

## الوجه التاسع

مازل بعد طول انتظار

ومعنى هذا أن في القرآن آيات كثيرة تناولت مهمات الأمور ، ومع ذلك لم نعرز  
إلا بعد تسبب وصول انتظار . فدل هذا على أن القرآن كلام الله لا كلام محمد ، لأنه لو  
كان كلام محمد ما كان معنى لهذا الانتظار فإن الانتظار في ذاته شاق ونمطه مهمات  
الأمور محملة أشد ، خصوصاً على رجل عظيم يتحدى قومه بل يتحدى العالم كله .  
ولبيان هذا الوجه نمثل بأمثلة حمسة :

( أود ) حدث تحويل القلعة من بيت للقدس إلى الكعبة ، رن فيه قول الله تعالى  
« قد رى قلبك وحبك في السماء . فلنولينك قبلة ترضاها . فول وحبك شطر المسجد  
الحرام . وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » فأتت تفهم معنى من هذه الآية أن محمداً ﷺ

كان يتعرق شوقاً إلى تحويل القيلة إلى الكعبة ، ومن أجل ذلك كان يفتل وجهه في الماء نلها إلى نزول الوحي بهذا التحويل . ولقد طال به الأمر سنة ونصف سنة وهو يستقبل بيت المقدس ، فلو كان القرآن من وضعه لنفسه عن نفسه وأسمعه بهذا الذي يهوى إليه نفسه ويصبو إليه قومه لأن الكعبة في ظنهم ، هي مغفرتهم ومعجزة آياتهم من قبلهم

( ثانياً ) حادث الإفك ، وهو من أخطر الأحداث وأشنعها ، لم يزل القرآن فيه إلا بعد أن مضى على الحادث قرابة أربعين يوماً . هل حين أنه يتصل بعرض الرسول وعرض صديقه الأول أبي بكر . وقام على اتهام أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق ورميها بأقذر العار وهو عار الزنى . فلو كان القرآن كلام محمد ما يحل على نفسه مثلك الآيات التي تنفذ سمعته وسمعة زوجه الحصان الطاهرة ؟ ولما انتظر يوماً واحداً في القضاء على هذه الوشائات الخبيثة الآفة ، التي تولى كبرها أعداء الله للناقضون . اقرأ قوله سبحانه « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم - إلى قوله - أولئك يريدون مما يقولون لهم محرمة » وردد كرم « في سورة النور . ثم حدثني بعد قراءتها : ألم يكن الواجب على محمد ﷺ أن يجعل الحكم بهذه البراءة لو كان الأمر إليه ، خصوصاً أنه قد علم الناس وحواس الدفاع عن المرمى ولو بالنص ؟ ثم أخبرني : ألا ترى فارقاً كبيراً بين هذه الفتنة الجريئة القاطعة ، المندرة واللبسة ، التي صيغت بها آيات البراءة ، وبين الفتنة المرسلة المندرة التي رويت عنه في هذه الحادثة ؟ إن كنت في شك فأمامك آيات البراءة وهاتك كلمتين مما أتر عنه في هذا الأمر الجلل : ورد أنه قال حين طال الانتظار وبلغت القلوب الحاسر : « إني لا أعلم إلا خيراً » . وورد أنه قال قبيل الساعة التي قرأت فيها آيات البراءة : « يا عائشة ، أما إنه قد بلغني كذا وكذا . فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت أمت بذهب فاستغفرى الله » .

فهل يجوز في عقل عاقل أن يكون صاحب هذا الكلام هو صاحب آيات البراءة ؟

دع عنك الأسويين ولكن تأمل النفيجين للتميزتين في الكلامين ، غير السيد من  
المسود ، والمابد من اللبود

( ثالثاً ) ماورد من أن النبي ﷺ سئل عن أصحاب الكهف وعن دى القرين  
وعن الروح فقال لثالثيه: « اخوى عدأ أحبركم » ولم يقل : إن شاء الله فاعطاه الوحي  
حتى شق ذلك عليه وكذبه قريش وقالوا : ودعه ربه وقلاه أى تركه ربه وأمهه ،  
حارل الله : « والنصحي • والليل إذا سجي • ماودعك ربك وما قل » ثم ساء مولاه  
لأن يترك شيئاً مرة أخرى! إذ قال له في سورة الكهف: « ولا تقولن شيئاً لى فاعل ذلك  
عدأ إلا أن يشاء الله . واذكر ربك إذا سبت وقل عسى أن يهدين رضى لأقرب من  
هدا رشداً . ولما نزل جبريل بد هذا الإطاء والتهمل قال له ما حكاك الله عنه في  
سورة مريم « وما فتزل إلا بأمر ربك . له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك  
وما كان ربك نسيا » . يعنى أن عدم الإسراع بالنزول لم يكن سببه إغرام الله عنه  
كما يزعمون . بل كان لعدم الإذن به لحكم الفقه قد عرصنا البعض فى الكلام على أسرار  
منجم القرآن من الجزء الأول . وحسبك هنا أن يستدل للنصف بهذا الإطاء والقرأى  
على أن القرآن منيرل العزيز الرحيم لا كلام للنبي الكريم .

( رابعاً ) ماورد من أنه لما نزل قوله سبحانه: « وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخموه  
يحاسبك به الله » انحلت قلوب الصحابة وذعروا ذعراً شديداً ؛ لأنهم فهموا من هذه الآية  
أن الله تعالى سيحاسبهم على كل مايجول بخاطرهم ولو كانت خواطر رديئة، ثم سألوا فقالوا:  
يا رسول الله ، أنزلت علينا هذه الآية ولا تطيقها ، فقال لهم النبي ﷺ « أنريدون أن  
تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وسمعنا بل قولوا : سمعنا وأطعنا عرارك  
رسا وإليك المصير » فجعلوا يقولونها ويصرعون إلى الله بها حتى أنزل - تعدت أسماؤه -  
الآية الأخيرة من سورة البقرة وهى : « لا يكلف الله عبأً إلا وسعها » إلى آخر السورة  
عسكنت بمرسهم واطمأنت قلوبهم ، وهموا أنهم لا يحاسبون إلا على مايقع تحت اختيارهم

وفي دائرة طاقتهم من نية وعزم وقول وعمل . أما خلطات الصائغر العائرة ، وحطرات السوء ولو كانت كافرة . فلا يتعلق بها تكليف ، لأنها ليست في مقدور العبد ، والقرآن يقول . « لا يكلف الله بشئاً إلا وسعياً » .

فأنت ترى أن النبي ﷺ لم يبين لم هذا البيان حين سألوه ، لأنه لم يوح وقتئذ إليه . ولو كان من وحى نفسه كما يقول الأفاكون لأسف أصحابه بالآية الأخيرة ، وأنفدم من هول هذا الخوف الذي أكل قلوبهم لا سيما أنهم أصحابه وهو نبهم ، ومن خلقه الرحمة خصوصاً بهم « بالمؤمنين رؤوف رحيم » . وأيضاً لو كان يملك هذا الكلام لعاجلهم بالبيان ، وإلا كان كاتماً قلم : « وكاتم العلم ملعون . فإين يذهبون ؟ » .

( خامسها ) ورد أن كبير المنافقين عبد الله بن أبي لئوف ، قام إليه النبي ﷺ فكفنه في ثوبه وأراد أن يستغفر له ، فقال له عمر : أنتستغفر له وتصل عليه وقد هلك ربك ؟ فقال ﷺ : إنما خيرني وفي فقال : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم . إن نستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » وسأزيده على السبعين ، ثم صلى عليه . فأنزل الله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » فترك الصلاة عليهم .

اقرأ الرواية بتمامها في الصحيحين ، ثم نبشئ : هل يقل أن يكون القرآن كلام محمد مع ما ترى من أنه ﷺ فهم في الآية الأولى غير ما فهم عمر ثم جاءت الآية الثانية صارفة للرسول عن فهمه ومؤيدة لمصر ؟ أفما كان الأجدر به لو كان القرآن كلامه أن يكون هو أدرى الناس بمرادهم وأعمهم بحقيقة القصود من ألفاظه ، وأن يعي . آخر الكلام مؤيداً لما فهمه هو لا لما فهمه غيره ؟ لكن الواقع غير ذلك فقد سبق إلى فهمه ﷺ أن كلمة (أو) في الآية الأولى للتعبير ، وفهم عمر أنها المساواة وفهم الرسول أن الراد بكلمة (سمعي) حقيقة العدد المعروف في العشرات بين الثنتين والثمانين ، وفهم عمر أنها لبيان أنه لا تعدد فلا مفهوم لما ولا كان ما فهمه الرسول جارياً على أصل الوضع في معنى (أو) وفي معنى (سبعين مرة

تمسك رأيه ، خصوصاً أن فيه راحة رجل من الناس وإن كان منافقاً ، وكان ﷺ مطبوعاً على الرحة « وما أرسلناك إلا راحة للعالمين » .

### الوجه المباشر

مظهر النبي ﷺ عند سقوط الوحي عليه

وبيان ذلك أن للنبي ﷺ كان في أول عهد الوحي ، يتمهل في تلقفه ، وبحرك لسانه بالقرآن من قبل أن يفرغ أمين الوحي من إيجائه إليه ، وذلك الإسراع بحفظه والحرم من هل استظماره حتى يبلغه للناس كما أنزل . وكان عليه الصلاة والسلام يحذر من ذلك شدة على نفسه فوق الشدة لأعظم التي يحسها من نزل الوحي عليه ، حتى إن جبينه ليتصد مرقاً في اليوم الشديد البرد ، وحتى إن حسه لينقل بحيث يحس ثقله من يجواره ، وحتى أن وجهه ليحمر ويسمع له غطيط . روى مسلم « أنه ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتردد وجهه الشريف » فاقصص راحة الله محمد طه أن يحثف عنه هذا العناء ، فأزل عليه في سورة القيامة : « لا تمرك به لسانك لتجعل به » . إن علينا جمعه وقرآنه « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » ثم إن علينا نبأه « . وبهذا اطمأن الرسول ثقة بأن الله قد تكفل له بأن يجمع القرآن في صدره ، وأن يقرأه على الناس كاملاً لا ينقص كلمة ولا حرفاً ، وأن يبين له معناه فلا تخفى عليه حامية منه . وكذلك قال الله في سورة الأهل : « سنترنك فلا تنسى » وقال له مرة ثالثة في سورة طه : « ولا تنجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه . وقل رب زدني علماً » .

ألا ترى في هذا كله مورا يهدي إلى أن القرآن كلام الله وحده ، ومحال أن يكون كلام محمد ، وإلا لما احتاج إلى هذا العناء الذي كان يعانيه في نزول القرآن عليه ، ولمكان المدد والسكون والصمت أجدي في إضاح الفكرة وانتقاء ألقائها لديه ، ولا كان ثمة من داع إلى أن يطمأن على حفظه وبلينه وبيان معانيه . أضف إلى ذلك أن هذه الحال

التي كانت تمروه عليه عند الوحى ، لم يسكن من عادته فى تحصيل كلامه لافى السوء ولا بعدها ، ولم يسكن من عادة أحد من قومه مل كان ديدهم جميعا تحصيل الكلام فى نفوسهم وكفى .

## الوجه الحادى عشر

### آية المبهلة

وذلك أن القرآن دعا إلى المباهلة - وهى مفاعلة من الاتهام واضراعة إلى الله بحجارة واحتداد ، فأتى المدعون وهم المصارى من أهل بجران ، أن يستجيبوا لها وحافوها ولاذوا بالفرار منها ، مع أنها لا تكلفهم شيئا سوى أن يأتوا بآياتهم وبيئاتهم وياتى الرسول بأدلة ونساء ، ثم يجتمع الجميع فى مكان واحد يثبتون إلى الله ويصرعون إليه ، بإخلاص وقوة ، أن يبرل لعنة وعصبة على من كان كاذبا من الفريقين . قال سبحانه فى سورة آل عمران : « فمَنْ حَاكَمْتُمْ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَقُلْ بَدَعُوا بَيِّنَاتِي وَأَبْدَأْتُمْ بِنِسَاءٍ » ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتل فنعمل لعنة الله على المكاذبين • إن هذا هو القصص الحقيقى . وما من إله إلا الله . وإن الله هو العزيز الحكيم • • •

« ورد أنه عليه السلام لما دعاهم إلى مباهلة قالوا : حتى ينظر ، فقل يعاقب وكان ذرايعهم : والله لقد عرفتم بمعشر المصرى أن محمداً نبى مرسل ، وما بهن قوم سياقط فداش كبير ولا بيت صغير . ونش قطعتم نهبنا سكر . فإن آياتكم إلا آلاف ديبكم فوادعوا الرجل واصرفوا إلى بلادكم . فأتوا رسول الله ﷺ وقد عدا يختصم للعصيين آخذ بيد المصرى ، وعاطمة تشى خلعه وعلى حنم وهو يقول . « يا أبا ادعوت فأمسوا » . فقل أسقف بجران . يا معشر المصرى ، لى لأرى وجوهاً تود أنوافى أن يريل حملات من مكانه لأزاله • • • فلا تناهلوا فتهبكوا ولا سقى على وجه الأرض نصر إلى ا « قالوا آزاله ميه • رأينا ألا ساهلك فصالحهم الذى ﷺ على أى حجة كل سنة ففان عليه السلام « واندى • • • ميه • • • من الهلاك قد ندى على أهل بجران ولولا لاسوا المستحوذة وحارير • »

وإلما ضم الأسماء والنساء وإن كانت المباحلة محصنة وعن يكذبه ، لأن ذلك أكيد  
في الدلالة على نفعه بحاله واستيقانه صدقه حتى جرو على تمرير أعزته وأطلال كبدته ذلك ،  
ولم يقتصر على تمرير نفسه له ، وعلى نفعه بكذب حصه حتى يهلك حصه مع أحبته  
وأمرته إن تمت المباحلة. وخص الأبياء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب وقدمهم  
في الذكر على الأنفس لينبه من قرب مكانهم ومزاجهم. وفيه دليل على صحة نبوة النبي  
ﷺ لأنه لم يرو أحد من موافق أو مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك « ١ » من تفسير النسي .  
ونقول : أليس هذا دليلا ماديا على أن هذا القرآن كلام القادر على إزاله اللعنة وإهلاك  
الكاذب . ثم أليس قبول محمد هذه المباحلة مع امتناع أعدائه دليلا على أن صدقه في نبوته  
كان أمرا معروفا مقررأ حتى في نفوس مخالفيه من أهل الكفاب . وإلا فماذا سكتوا على  
أعقابهم ولاذوا بالفرار من المباحلة ( تأمل كلمة العاقب وأسقف بجران في الرواية الآتية ) .  
ثم كنه الحق والكبرياء أكلا فوجهم ، غشوه أن آتاه الله النبوة دونهم مع أنه أمي وهم  
أهل كتاب . وكبر عليهم أن يؤمنوا به ويذبحوا له فتضيع رياستهم وتنهط منزلتهم في نفوس  
العامية . والخد والكبر من الحصب الكثيفة التي تحول بين المرء وسعادته ، فالخسود  
لا يسود ، والتكبر مخدول لا يسترشد ولا يتوب ؛ « ما صرف من آياتي الذين يتكبرون في  
الأرض غير الحق » . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه  
سبيلا . وإن يروا سبيل الحق يتخذوه سبيلا . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها  
غافلين « ٢ » . « ما ذاك اللهم من مقتك وعصيتك ، ومن كل ما يؤدي إلى مقتك وعصيتك ،  
آمين . »

### الوجه الثاني عشر

محر الرسول عن الإنثيان مدلل له

بذلك أن أعداء الإسلام طسوا من النبي ﷺ أن يأتي قرآن غير هذا القرآن أو أن



يبدله ، فلم يمتثل ، وماذا لك إلا لأن القرآن ليس كلامه ، بل هو خارج عن طوقه ، أنت من حوقه ، ولو كان كلامه لاستطاع أن يأتي بنيره وأن يبدله حين اقترحوا عليه ، وحينئذ يكتب أنصاراً إلى أنصاره ، ويضيق أعواناً إلى أعوانه ، ويكون ذلك أروج لدعوته التي يحرم على نجاحها ، لكنه أعلن حمزه عن إجابته هذه للقرحات وأبدى مخاوفه إن هو أقدم على هذا الذي سأله ، وتنصل من نسبة القرآن إليه مع أنه الضمير كل الضمير ، وأنهم حجبوا في أفواههم بطلائع الحجج التي أقامها عليهم ، وهي أنه نشأهم لا يعرف ولا يعرفون عنه ذلك الذي جاء به وهو القرآن .

اقرأ - إن شئت هاتين الآيتين من سورة يونس : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا انتبه لفرآنك غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبده من تلقاء نفسي . إن أتبع إلا ما يوحى إلي . إنى أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » قل لو شاء الله ما أتوته عليكم ولا أدرككم به فقد لبثت فيكم محرماً من قبله أفلا تعقلون ؟ » والمعنى : أن القرآن فوق طائفتي وليس من مقدوري ، وما أنا إلا ناقل له أتبع ما يوحى إلي منه . وإنى أخاف سطوة صاحب هذا الكتاب إذا أنا تلاعبت بنصومه أو غيبت فيه . فالقرآن كلامه ، ولو أراد ألا أكون رسولا بينه وبينكم ، ما كانت حيلة إلى أن أتله هذا الكتاب عليكم وأخذوه عنى ، فقد نشأت بينكم ومكثت أكثر من أربعين سنة قبل زولته . وهو حر طویل . وأنتم لا تعرفون معنى هذا الاستعداد الأعلى ، ولا تسمعون معنى مطلقاً مثل هذا الكلام المصغر ، ولم تأخذوا عنى قط أى كد متمرة على عبد من عباد الله ، فكيف أكذب على الله ضد هذا العمر الطویل ؟ ( أفلا تعقلون ) ؟ يا لها كلمة فيها من لدغة التعنيف والتضجيل بمقدار ما فيها من لعت النظر إلى قوة الدليل !!

## الوجه الثالث عشر

### الآيات التي تجرد الرسول من سنته إليه

وذلك أنك تقرأ القرآن فتجد فيه آيات كثيرة ، تجرد الرسول محمد ﷺ من أن يكون له فيها حرف أو كلمة ، ونصفه بأنه كالقوس تقرأ لا تدرى ما يكتب ولا الإيمن وتؤمن عليه بأن الله ﷻ يكتب والحكمة بعد أن كان بعيداً عنها وغير مستعد لها ، ولم يكن عمله راحة من قبل لأن تكون مهمل هذا لبعض ولا مشرق ذلك المورد . اقرأ قوله سبحانه في سورة النساء : « وأرسل الله عليك الكتاب والحكمة وعملك مما كنت تعمل . وكان فصل الله عليك عطياً » وقوله في ختم سورة اشورى وكذلك أوحينا إليك رؤوساً من أمور ما كتب تدرى ما يكتب ولا لإيمن » وقوله في سورة القصص : « وما كنت ترحوأل « في إليك الكتاب إلا راحة من ربك »

إن كان ﷺ يحرف انقطع هذا لمداد انقيص عنه ، وإذا قرأ الوحي عراه من الحس على فترته والتهف على عودته ، ما يجعله يعيش في شعاب والحال كأنه شمس ، حتى أنه قد يردى مرة من شفق وهو بطشه ! وأكثرت من هذا أنه كان يحشى أن تنبت منه شجرة أو شيء إلى شيء ، به لولا أن طلع الله عليه ( كما تقدم شرحه في أوجه العشر ) وأكثرت من هذا وداء أنه كان يحاف أن يبرع الله من قلبه ما أرسل عليه وحده فإنه ، « وأنشئت لندهم » « أي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً » إلا راحة من ربك ، إن فصله كان عليك كبيراً .

قل لي - وربك - هل يتصور منصف على وجه الأرض أن لقرآن كلام محمد ؛ بعد ما قصص عليك من هذه الآيات التي تجرده من إيشائه ووصفه ، بل تجرده من راحة برؤيه عليه قبل ممته ، ومن راحة مدائه لديه بعد برؤيه عليه ؟ وهل يصح في الأذهان أن أحداً

بتشكر بصيرته أمراً هو معجزة المعجز ومعجزة المعجزات ، ثم يقول للدم في صراحته :  
 يس هذا البحر عذري ، وما هو من صنعي ، وما كان لدى استعداد أن آتي شيء منه ،  
 وأنتم تعرفونني وتعرفون استعدادي من قبل ؟

ألا لئن هذا يخالف العقل والمنطق ، ويخاف العرف والمادة ، ويخاف مقررات عم  
 النفس وعلم الاحتجاج ، فإن النفوس البشرية مجبولة على الرغبة في حلائل الأمور ومعاليها ،  
 مطبوعة على حب كل ما يخلد ذكرها ويرفع شأنها ، لا سيما إذا كان ذلك ناعماً منها وصادراً  
 عنها ، وكان صاحب هذه النفس صدوقاً ما كذب قط ، رافعاً عقيرته برعاية الناس  
 ودعوتهم إلى الحق . وليس شيء أجمل شأناً ولا أخلد ذكرًا من القرآن الكريم ، الذي  
 جمع الله به شمل أمة ، وأقام به حيرمة ، وأسس به أعظم دولة ؛ فما كان لحمد أن يرهده  
 في هذا العهد الخالد ، ولا أن يتصل من نسبت إليه لو كان من وصفه وصفاً ، وهو يدعو  
 الحق إلى الإيمان به وتما جاء به !

وأى وجه لحمد في أن يتصل من نسبة القرآن إليه وهو صاحبه ؟ إنه إن كان يطلب  
 التواضع والتمسك والحمد ، فليس شيء أوجه له ولا أعلى ولا أجد من أن يكون هذا القرآن  
 كلامه ، وإن كان يطلب هداية الناس ، فالتناس يسرهم أن يأخذوا الهداية مباشرة من حجر  
 الحق والإنس بكلامه ، ويتحدى كل حيل وقيل ببيانه ، ويظهر كل معارض ومكار  
 بمرهده . ولو كان القرآن من تأليف محمد لآتيت به ألوهيته بدلاً من سواه ، لأن هذا  
 القرآن لا يمكن أن يصدر إلا عن إله كما بينا في الوحود السالفة للإمام ، وإذن لم كانت تلك  
 الألوهية أصح في نجاح دعوته ، وأرجى في ترويح ديانته ، لأن الناس هم هم الألوهية .  
 أكثر مما هم النبوة ، وبشرهم أنهم أتباع إله أكثر من أن يشرفهم أنهم أساع رسول  
 لم يخرج من أرض المبودنة ، ولم يرتق ولن يرتق يوماً إلى سموات ربوبية .

« المبدع عبد وإن تعالى واللؤلؤ مولى وإن نزل »

ولهذا كن أعداء الرسل كثيراً ما عظم عليهم أن يخضعوا الرجل منهم يركبوا محمول  
 أن يوحى إلى نشر مثلهم ويقترون أن يروا الله جهرة أو تنزل لهم التلاوة عينا

فلو كان محمد صاحب هذا التنزيل، مخرج من مستوى انطلق حلة، ولظهر في أفق الألوهية، يعال على العالم بطلانة تقطع دونها الاعتناق وتحض لها الرقاب، وأن يحقق كل ما افترحه معاصره من الآيات، ولكنه اعترف بمبودجته حينذاك، وتبرأ من حوله وقوته إزاء هذا الكتاب وغيره من المعجزات وخوارق الماديات. اقرأ في سورة الإسراء : « وقالوا : لن نؤمن بك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً \* أو تكون لك جنة من محبيل ونسب فتفجر الأنهار خلالها تسفيرا \* أو نمقط السماء كزعمت علينا كسفاً أو تأتي بالهلال ككرة قبلاً \* أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء . ولن نؤمن لرريك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . قل : سبحان ربي ، هل كنت إلا بشراً رسولا ٤٤ » .

### الوجه الرابع عشر تأثير القرآن ونجاحه

ومضى هذا أن القرآن بلغ في تأثيره ونجاحه مبلغاً خرق به العادة في كل ما عرف من كذب الله والناس . وخرج من اليهود في سنن الله من التأثير النافع بالكلام وغير الكلام . وبيان ذلك أن الإصلاح العام الذي جاء به القرآن والانقلاب العالني الذي تركه هذا الكتاب ، ما حدث ولم يكن ليحدث في أي عهد من عهود التاريخ قديمه وحديثه إلا على أساس من الإيمان العميق القائم على وجدان قوى، بحيث يكون له من السطون الفاهر على النفوس، والحكم النافذ على المواطن والميول، ما يصد الناس عن هجمهم الأول في عثمائهم التي توارثوها، وعبادتهم التي ألفوها، وأخلاقهم التي شأوا عليها، وعاداتهم التي امتزجت بدمائهم ، وما يحملهم على اعتناق هذا الدين الجديد الذي هدم لك اللوروثات فيهم ، وحارب تلك الأوضاع للألوة لديهم .

وهذا الأساس الذي لا بد منه ، تنصر عنه في العادة جميع الكتب التعليمية التي يؤلفها العلماء والمصلحون، وتحتج عن إجماعه كافة القوانين للبشرية التي يضعها القادة والمشرعون، لأن قصارى هذه الكتب والقوانين - إذا وقت - أن تشرح الحقائق وتبين الواجبات،

لا أن تحمل على الإيمان والإذعان ، وتدفع إلى العمل بوحى هذا الإيمان . وإذا فرض أن  
نؤمن بها أصحاب الاستعداد السليم ، فإيمانهم مجرد حيفتد من قوة الدفع ودفعة التحويل .  
ولا سبيل في العادة إلى التأثير بها على الجماهير ومجاهداتهم بما حاصروا إلا بأمرين : أحدهما  
تربية الأحداث وترويضهم عليها علما وعملا من عهد الطفولة . والآخر قوة حاكمة تحمل  
الكبار على احترامها حملا بالقوة والقهر ، ومع هذا وذلك ، فتربية الصغار على هذا الفراغ  
هيئات أن تكون تربية استقلالية ؛ بل هي تقليدية تنفذ الدليل والبرهان ، وكذلك إجبار  
الكبار هيئات أن يصل إلى موضع الإذعان والوجدان ١ .

لكن القرآن الكريم وحده ، هو الذى نفخ الإيمان فى الكبار والصغار نفثا ، وبثه  
روحا عاما ، وأشمر النفوس بما جاء فيه إنذارا ، ودفعها إلى التخل عن موروثاتها وقداستها  
جملة ، وحملها على التخل بهدبه الكريم علما وعملا ، على حين أن الذى آتى بهذا القرآن  
رحل أمى لا دولة له ولا سلطان ، ولا حكومة ولا جند ، ولا اضطهاد ولا إجبار ، إنما هو  
الافتناع والرغبة والرضا والإذعان ، ولا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي .  
أما السيف ومشروعية الجهاد فى الإسلام ، فلم يكن لأجل تقرير عقيدة فى نفس ، ولا  
لإكراه شخص أو جماعة على عبادة ، ولكن لدفع أصعاب السيوف من إذلاله  
واضطهاده ، وحملهم على أن يتركوا دعوة الحق حرة طليقة ، حتى لا تكون فتنه  
وبكون الدين لله .

هذا الأساس الذى وضعه القرآن وحده هو سر نهضته ، وإن شئت فقل هو نار  
تورته ، بل هو نور هدايته ، والروح السارى لإحياء العالم بدعوته ، وذلك عن طريق أسلوبه  
المعبر الذى هو النفوس والمشاعر ، وملاك القلوب والمقول ، وكان له من السلطان ما حصل  
أعداءه مد زوله إلى اليوم ، يخشون بأسه وصورته ، ويخافون تأثيره وعمله ، أكثر مما  
يخافون الجيوش الفاتحة والحروب الجائرة ، لأن سلطان الجيوش والحروب لا يبدو هياكل

«الأحسام والأشباح» ، أما سلطان هذا الكتاب فقد امتد إلى خرائط السموات وكرام  
الآرواح ، عالم يمد له نظير في أية نهضة من النهضات .

واند أشار القرآن نفسه إلى هذا الوحي وجوه إعجازه ، حين سمي الله كتابه روحاً  
من أمره بقوله : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » . وحين سماه نوراً بقوله :  
« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » . وحين وصف بالحياة والنور من آمن به في قوله :  
« أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلناه نوراً يمشي به في الناس كمن مثله من الظلمات ليس  
بخارج منها » . وفي قوله : « من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه  
حياة طيبة » . وفي قوله : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله ولرسله إذا دعاكم  
لما يحْيِيكُمْ » .

هذا التأثير الخارق أو النجاح الباهر الذي نتج عنه ، أدركه ولا يزال يدركه  
كل من قرأ القرآن في تدبر وإمعان ونصفه ، حاذفاً لأساليبه العربية ، ملماً بطروفه وأسباب  
نزوله . أما الذين لم يحذقوا لغة العرب ولم يحيطوا بهذه الظروف والأسباب الخاصة ،  
فليس كفيهم أن يسألوا التاريخ عما حل هذا الكتاب من قوة محولة غيرت صورة العالم ،  
ونقلت حدود الممالك ، عن طريق امتلاكها على قلوب المخاطبين به لأول مرة استيلاء  
أشبه بالقهر وما هو بالقهر ، وأقل من السحر وما هو بالسحر ، سواء في ذلك أنصاره  
وأعداؤه ، ومخالفوه ومخالفوه ! وما ذاك إلا لأنهم ذاقوا بسلامة فطرتهم العربية بلاغة ،  
ولسوا محاسنهم البيانية بإعجازها ؛ فوجد تياره الكهربائي موضحاً نفوسهم لشرارة ناره ،  
أو لمصول غيبته وإبلاج أمواره .

تأثيره في أعدائه :

أما أعداؤه للشركون ، فقد ثبت أنه جذبهم إليه بقوة في مظاهر كثيرة ، مذكر  
محصها على سبيل التمثيل :

(المظهر الأول) أن هؤلاء الشركيين مع حرمهم له ، ونفوذهم بما جاء به ، كما و  
يخرجون في جميع الليل للسهم يستمعون إليه والساكنون يرتفون في بيوتهم . فهل ذلك إلا  
لأنه استولى على مشاعرهم ، ولكن أي عليهم عنادهم وكبرهم وكراحتهم للحق أن يؤمنوا  
به « بل جاءهم بالحق » وأكثرتهم للحق « كارهون » .

(المظهر الثاني) أن أئمة الكفر منهم كانوا يحتدون في صدر رسول الله ﷺ عن  
قراءته في المسجد الحرام وفي محامع العرب وأسواقهم ، وكذلك كانوا يعمدون المسلمين من  
إظهاره ، حتى لقد هالهم من أي بكر أن يصل به في فناء داره ، وذقت لأن الأولاد  
والنساء كانوا يهتممون عليه يستمعون بقلوبهم لهذا الحديث ويتأثرون به ويهتدون له .  
(المظهر الثالث) أنهم دعروا ذعراً شديداً من قوة تأثيره ونفوذه إلى النفوس على  
رغم صدمته واضطهادهم لمن أدعى له . فتواصوا على ألا يسموه ، وتعاقدوا على أن  
يلعوا فيه إذا سموه ، « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه  
لعلكم تفلحون » .

(المظهر الرابع) أن بعض شعبانهم وصناديدهم ، كان الواحد منهم يحمله طمعه به  
وكفره ونمسه لمؤدته ، على أن يخرج من بينه شاهراً سيفه ، معلنًا غدده ، ناكبًا القصة  
على دعوة القرآن ومن جاء بالقرآن ، فما يلبث حين تذكره لغة من لغات العماية ،  
وينصت إلى صوت القرآن في سورة أو آية ، أن يدل للتحقق ويخشع ، ويؤمن بالله ورسوله  
وكتابه وبمجمع . وإن أردت شاهداً على هذا فاستعرض قصة إسلام عمر وهو مشهوره  
أو قاتل كيف أسلم سعد بن معاذ سيد قبيلة الأوس هو وابن أخيه أسيد بن حصير ،  
رضي الله عنهم أجمعين . وإليك كلمة قصيرة عن إسلام سعد وأسيد فيها مع كبير :

تروى كتب السيرة أن رسول الله ﷺ وهو في مكة قبل الهجرة ، أرسل مع أهل  
المدنة أديرا جاءوا وبايعوه بيعة العبة ، مبعوثين خليلين بفطاهم الإسلام وبشرائه

في المدينة ، ما مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنهما ، وقد نجح هذان في مهمتهما أكبر نجاح ، وأحدثا في المدينة ثورة فكرية أو حركة تبشيرية جزع لها سعد بن معاذ سيد قبيلة الأوس ، حتى قال لابن أخيه أسيد بن حضير : ألا تذهب إلى هذين الرجلين اللذين أيا يسفها ضعفاء فتزجرهما . فلما انتهى إليهما أسيد قال لهما : ما جاءكما نكاحا نكاحا صغارا ؟ ثم هددهما وقال : اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة . رضي الله عن مصعب فقد تعاضى عن هذا التهديد وقال لأسيد في وطار للؤمن ونباته : أو تجلس قسما ؟ بار رصيت أمرا قسنته ، وإن كرهته كنفنا عنك ما نكره . ثم قرأ مصعب القرآن وأسيد بسمع ، فقام من مجلسه حتى أسلم ، ثم كر راجعا إلى سعد فقال له : والله ما رأيت بالرجلين أساء . مصعب سعد وذهب هو نفسه نائرا محتاجا ، فاستقبله مصعب بما استقبل به أسيدا وانتهى الأمر بإسلامه أيضا ، ثم كر راجعا فجمع قبيلته وقال لهم : ما تعلمونني فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا . فقال سعد : كلام رجالكم ونساءكم على حرام حتى تدوا . فأسلموا أجمعين .

### تأثير القرآن في نفوس أوليائه :

تلك مظاهر لقول القرآن بنفوس شائفة ، فهل تدري ماذا فعل بهم بعد أن ذابوا له وآمنوا به وأصغعوا من تابعيه ومحبيه ؟ لملك لم تنس ما فعل القرآن نصر وسعد وأسيد الذين وهنواهم بين يديك . ألم يعودوا من خيرة جنود الإسلام ودعائه من يوم أسلموا ؟ بل من ساعة أسلموا ؟ وهناك مظاهر أربعة لهذا الضرب أيضا .

( المظهر الأول ) تنافسهم في حفظه وقرآته في الصلاة وفي غير الصلاة ، حتى لقد طاب لهم أن يهعروا لذيذ منامهم من أجل تهجدهم به في الأسحار ، ومتاجاتهم العريز العفار . وما كان هذا حالا نادرا فيهم ، بل ورد أن المار على بيوت الصعابة بالليل كان يسمع لها دوي كدوى النحل بالقرآن . وكان التفاضل بينهم بمقدار ما يحفظ أحدهم من القرآن . وكانت



المرأة ترمى بل تقتبط أن يكون مهرها سورة يملها إياها زوجها من القرآن .

( المظهر الثاني ) علمهم به وتقديم تعاليمه ، في كل شأن من شؤونهم تاركين كل ما كسبوا عليه مما يخالف تعاليمه ويخالف هداياته . طيبة بذلك همسهم ، طيبة أجسامهم ، صحبة أيديهم وأرواحهم ، حتى صهرهم القرآن في بوقته ، وأخرجهم للعالم خلفاً آخره سننهم المفيدة ، قويم العبادة : طاهر المادة ، كريم الخلق ، نبيل الطمع .

( المظهر الثالث ) استبسالهم في نشر القرآن والدفاع عنه وعن هدايته ، فأخلصوا له وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قصى نحيبه وهو مدافع عنه ، ومنهم من انشغل بسدق أناته اليقين وهو محاهد في سبيله مصحح بنفسه ونفسه . ولقد بلغ الأمر إلى حد أن الرسول ﷺ كان يرد بعض من يتطوع بالجنديّة من الشباب لحدائفة أسنانهم . وكان كثير من ذوي الأعدار يؤلمهم التعطّل من العزو حتى يضطر الرسول أن يتخلف معهم خوفاً لظواهرهم ، ويرسل سراياه وبموته بعد أن ينظمها ويرودها بما تحتاجه ولا يخرج معهم . روى مالك والشيخون أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قدمت خلافاً سرية تنزوي في سبيل الله أبداً . ولكن لأجد سعة فأتبعهم ، ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني والذي نفس محمد بيده لو ددت أن أعزو في سبيل الله فأقتل ، ثم أعزو فأقتل ، ثم أعزو فأقتل » ١ .

( المظهر الرابع ) ذلك النجاح الباهر الذي أحرره القرآن في هداية العالم . فقد وجد قبل النبي ﷺ أنبياء ومصلحون ، وعلماء ومثقفون ، وفلاسفة وأخلاقيون ، وحكام ومتحكمون ، فما نسى لأحد من هؤلاء بل مائسى لجميعهم أن يحدتوا مثل هذه النهضة الرامة التي أحدثها محمد في العقائد والأخلاق ، وفي العبادات والعاملات ، وفي السياسة والإدارة وفي كافة مواحي الإصلاح الإنساني . وما كان لحمد ولا لأفصر رجل غير محمد أن يتوا مثل هذا الدستور الصالح الذي أحيى موات الأمة العربية في أقل من عشرين سنة ، ثم مع بهم من دوحه ، بهوا بعد وفاته بتفدون العالم ففتحوا ملك كسرى وقيصر ، ووصموا أرحلا

بني الشرق وروحاني نمرب، وحقت رأيهم على نصف المعمور في أقل من قرن ونصف قرن من الزمان.

أمسح هذا؟ أم هو رهن عمي لمح المحضون من السحنيين فاكثفوا من محمد ﷺ بهذا النجاح الباهر دليلاً على أنه رسول من رب العالمين.

هذا فيسوف من فلاسفة فرسا يذكر في كتاب له مآرعه دعاء النصرانية من أن محمداً لم يأت بأية على نبوته كآيات موسى وعيسى، ثم يفند هذا الزعم ويقول: «إن محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً أواهاً متألهاً، فتمل قراءته في جذب الناس إلى الإيمان به ما لم تفعله جميع آيات الأنبياء الأولين».

أجل: لقد صدق الرجل، فإن فعل القرآن في نفوس العرب كان أشد وأرق وأبلغ مما فعلت معجزات جميع الأنبياء. وإن شئت مقدرة بسيطة فمذاً موسى عليه السلام قد أتى بنبي إسرائيل آيات باهرة من عصا يلقها فإذا هي أعنان مبيت، ومن يديخرجها فإذا هي بيضاء للناظرين. ومن انفلاق البحر فإذا هو طريق يابسة يمشون فيها ناحيتين آمنين، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في مصر وفي طور سيناء مدة التيه. فهل لم يمد تأثير هذه الهدايات في إيمانهم بالله ووحدايته، وإخلاصهم لدينه ونصرة رسوله؟ إنهم ما كادوا يخرجون من البحر بهذه المعجزة الإلهية الكبرى ويرون بأعينهم عبدة الأصنام والأوثان، حتى كان منهم ما حكاه الله في القرآن: «وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يَكْفُرُونَ على أصنام لهم. قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. قال إنكم قوم تجهلون» إن هؤلاء منبر ما هم فيه وماطل ما كانوا يعبثون به قال أغبر الله أبصيركم إلهاً وهو فاصدكم على العائين».

ثم لما ذهب موسى إلى مسجده ربه واستخاف عليهم أحياه هارون عليهما السلام، سوا الله تعالى وحدها إلى ما وقر في موسى من الوثنية المصرية وحرافاتهما. فعبداً للمعل كما تحدثت سورة الأعراف بذلك: «وانحمد قوم موسى من عبده من خديهم محلاً حسداً له

جوارحهم لم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا طليعاً ولا سقطة في أيديهم ورأوا أنهم قد صاروا قلوباً لنبيهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحاسرين . . .  
ولما دعاهم موسى إلى قتال الجبارين ودخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، أهبوا وحالفوا ووصلوا القعود والاستعداد، على الجلاء والنزول إلى ميادين الجهاد، قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين، وإننا لن ندخلها حتى نخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإننا ندخلون . . .  
قال رجلان من الذين يهافون اسم الله عليهما ادخولا عليهم الباب، فإذا دخبوه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . . . قالوا يا موسى إننا لن ندخلها أبداً ما دُموا فيها فاذهب أنت وربك قتلتا إننا ههنا قاعدون . . . ١ . . هؤلاء أصحاب موسى فانظر إلى أصحاب محمد كيف تأثروا بالقُرآن حتى يحدث التاريخ عنهم أنهم قطعوا شجرة الرضوان؛ وهي تلك الشجرة التاريخية المباركة التي ورد ذكرها في القرآن، وما هذا إلا لأن الناس تبركوا بها، فعادهم حر إن طال الزمان بالناس أن يعودوا إلى دينهم ويبدوها، فأمر بقطعها ووافقه الصحابة على ذلك . ١ .

وكذلك يذكر التاريخ أن محمداً ﷺ استشار أصحابه حين عزم على قتال المشركين في غزوة بدر فقالوا: « والله لو استمرضت بنا هذا البحر ( يريدون البحر الأحمر ) لخصناه معك ما تخلف منا رجل واحد . إنا لا نقول لك ما قال قوم موسى لموسى: « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » : ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ! . هكذا كانوا يفضلون مصالحة المشركين في الجهاد، وبها فتون على الغر طمعا في الاستشهاد وهكذا حرصوا على الموت فوجههم الله الحياة، وأتقوا أصابع الموت فذات لهم الملوك وعتت الحكمة ! : « ومن حاهد يوماً محمداً لمسه إن الله لحق عن العالمين » .  
« وليسر الله من ينصرة . إن الله أقوى من غير » .

وجوه معلولة

ذكر منهم وحوها أخرى للإيجاز، ولكنها لا تسلم في بطون من طمس، لأن منها

ما تتداخل معه في بعض ، ومنها ما لا يجوز أن يكون وجها من وجوه الإبحار بحال .  
وعن هذا الذي ذكره يتك الأوجه المشرة التي عدتها القرطبي ، وهي :

- ١ - نظمه البديع الخالف لكل نظم معروف .
- ٢ - أسلوبه المصوب الخالف لجميع الأساليب .
- ٣ - جزالة التي لا تمكن الخلق .
- ٤ - التصرف في الألفاظ العربية على وجه لا يستقل به عربي .
- ٥ - الوفاء بالوعد المدرك بالحس والعيان ، كوعد المؤمنين بالنصر وغير ذلك .
- ٦ - الأخبار عن المذاهب المتبعة التي لا يطلع عليها إلا بالوحى .
- ٧ - ما تضمنه القرآن من العلوم المختلفة التي بها قوام الأديان .
- ٨ - اشتغال على الحكم البالغة .
- ٩ - عدم الاختلاف والتناقض بين معانيه .
- ١٠ - الإخبار عن الأمور التي تقدمت من أول الدنيا إلى وقت نزوله ، لم يجر العادة  
حصوده من لم يقرأ الكتاب ولم يتعلم ولم يسافر إلى حيث يختلط بأهل الكتاب  
فإن المأمل في هذه الأوجه ملاحظ أن أسلوب القرآن المصوب يشمل جزالة التي  
لا تمكن الخلق ، ويشمل التصرف في الألفاظ العربية على وجه لا يستقل به عربي . وملاحظ  
أيضاً أن الوفاء بالوعد المدرك بالحس والعيان كوعد المؤمنين بالنصر ينصوي تحت مضمون  
الإخبار بالمعانيات ، وكذلك الأمور التي تقدمت من أول الدنيا إلى وقت نزوله تنتظم في  
سلك الإخبار بالمعانيات . وملاحظ كذلك أن الاشتغال على الحكم البالغة ، وعدم الاختلاف  
والتناقض بين معانيه ، لا يصلح واحد منها أن يكون وجها من وجوه الإبحار ، لأنها  
لا يحرران عن حدود الطاقة ، بل كثيراً ما يجد كلام الناس مشتتاً على حكم وسليما  
من التناقض والاختلاف .

ومصنوع جمل وجه الإبحار في القرآن هو الفصاحة وحدها ، وذلك غير شديد أيضاً ،

لأن مجرد المصاححة دون مراعاة لمقتضى الحال ، أمر لا يخرج بالكلام عن المهود في مقدور النشر . فكثيرا ما يكون الكلام النشري فصيحاً لكن تودره انغماس وانكسرات الزائدة التي هي مماط بلاغته في أقل درجاته فصلا عن إيجاده .

### شبهة القول بالصرفه

ومن الباحثين من طوعت له نفسه أن يذهب إلى القول بأن وجه إعجاز القرآن هو الصرفة أى صرف الله العرب عن معارضته على حين أنه لم يتجاوز في بلاغته - سوى طاعتهم البشرية ، وضربوا لذلك مثلاً فقالوا : إن الإنسان كثيراً ما يترك عملاً هو من جنس أفعاله الاختيارية وما يقع مثله في دائرة كسبه وقدرته ، إما لأن البوائت على هذا العمل لم تتوافر ، وإما لأن الكسل أو الصدود أصابه فأفقد همه وثبط عزيمته وإما لأن حادثه مفاجئ لا قبل له به قد اعترضه فعمى آلائه ووسائله وعاق قدرته فمراجه ، على رغم انبعاث همه نحوه وتوجه إرادته إليه . فكذلك انصرف العرب عن معارضتهم للقرآن ، لم ينشأ من أن القرآن بلغ في بلاغته حد الإعجاز الذي لا تسمو إليه قدرة البشر عادة ، بل لواحد من ثلاثة :

( أولاً ) أن بوائت هذه المعارضة ودوائعها لم تتوافر لديهم .

( ثانياً ) أن صارفاً إليهم زهدهم في المعارضة فلم تتعلق بها إرادتهم ولم تنبعث إليهم عزائمهم ، فكسلوا وقعدوا على رغم توافر البوائت والدوائع .

( ثالثاً ) أن صارفاً مفاجئاً عمى مواهبهم النبائية ، وعاق قدرهم البلاعية ، وسلبهم أسبابهم العادية إلى المعارضة على رغم تعلق إرادتهم بها وتوجه همهم إليها .

بهذا التوجيه أو نحوه يرمى القول بالصرفه إلى أى إسحاق الإسرايلى من أهل السنة والنظام من المعتزلة ، والمرضى من الشيعة . وأمت إذا تأملت هذه العروض الثلاثة التي التمسوها أو التمس لهم ، علمت أن عدم معارضة العرب للقرآن لم تجب من ناحية إعجازه . البلاعى في رغمهم . بل جاءت على العرصين الأولين من ناحية عدم اكتراث العرب بهذه

المعارضة ، ولو أنهم حارلوها لنالوها . وجاءت على الفرض الأخير من ناحية مجزم عنها  
لكن بسبب خارجي عن القرآن ، وهو وجود مانع منعهم منها قهرا . ذلك للسابع هو  
حماية الله لهذا الكتاب وحفظه إياه من معارضة المعارضين وإبطال الباطلين . ولو أن  
هذا المانع زال لجاء الناس بمثله ، لأنه لا يعلو على مستوهم في بلاغته ونظامه .

### تفنيد هذا القول

وهذا القول بفروضة التي افترضوها ، أو بشبهاته التي فُخِهلوها ، لا يثبت أمام البحث ،  
ولا يتفق والواقع .

( أ. الفرض الأول ) فيقتضيه ما سجل التاريخ وأثبتت القوائم ، من أن دواعي  
المعارضة كانت قائمة موفورة ودوافعها كانت ماثلة متأخذة ، وذلك لأدلة كثيرة :

( منها ) أن القرآن تحداهم غير مرة أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة منه ؛ ثم سجل  
العجز عليهم وقال بشفة واثقة إنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ولن يفعلوا ولو ظاهروهم الإنس  
والجن . فكيف لا تنثور جهتهم إلى المعارضة بعد هذا ولو كانوا أجبن خلق الله ؟ ..  
( ومنها ) أن العرب الذين تحداهم القرآن كانوا مضرب المثل في الحمية والألفة وإيالة  
الضيء . فكيف لا يحركهم هذا التحدي والاستفزاز ؟ .

( ومنها ) أن صفاتهم البليان ، وديبتهم القنافس في ميادين الكلام . فكيف  
لا يطبرون بعد هذه الصيغة إلى غلبة المساجلة ؟ .

( ومنها ) أن القرآن لثار حفاظهم وسمعه عقولهم وعقول آبائهم ، ونسى عليهم الجود  
والجهالة والشرك . فكيف يسكتون بعد هذا التثريح والتشنيع ؟ .

( ومنها ) أن القرآن أقام حربا شعواء على أعرضيهم وهي عقائدهم المتعاملة فيهم ،  
وعواندهم المتكئة منهم ، فأى شيء يلهب الشاعر ويحرك المحم إلى المساجلة أكثر من هذا ؟  
مادامت هذه المساجلة هي السبيل المتعين لإسكات خصمهم لو استطاعوا .

(وأما الفرض الثاني) فيقتضه الواقع التاريخي أيضا . وحليلنا على هذا ما تواترت به  
الآباء ، من أن يراعت العرب إلى المارضة قد وجدت سبيلها إلى نفوسهم ، وبالت  
حنالها من عرائضهم . فهيوا هبة رجل واحد يحاولون القضاء على دعوة القرآن بمختلف  
الوسائل ؛ فلم يتركوا طريقا إلا سلكوه ، ولم يدعوا بابا إلا دخلوه .  
لقد آذوه عليه السلام وآذوا أصحابه ، قسبوا من سيوا ، ومذبوا من عذبوا ، وقتلوا من  
قتلوا .

ولقد طلبوا إلى محم أي طالب أن يكفه ، وإلا فازلوه وإياه .  
ولقد قاطعوه وقاطعوا أسرته الكريمة لا يبيعون لهم ولا يتعاونون ولا يتزوجون منهم  
ولا يزجون ، واشتد الأمر حتى أكلت الأسرة الكريمة ورق الشجر .  
ولقد طأضوه أثناء هذه القاطعة التي تلين الحديد مفاوضات عدة وعرضوا عليه  
معرضا سخية مغربة ، منها أن يسطوه حتى يكون أكثرهم مالا ، وأن يعقدوا له لواء  
الزعامة فلا يقطعوا أمرا دونه ، وأن يتوجه ملكا عليهم إن كان يريد ملكا ، وأن  
يلتصوا له العلب إن كان به مس من الجن . كل ذلك في نظير أن يترك هذا الذي جاء به .  
وإلى أبي عليهم ذلك عرضوا عليه أن يهادهم ويهداهم ، فيبد آلهتهم سنة ويهدون  
إليه سنة . فأبى أيضا وزل قول الله : « قل أطيعوا الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون »  
وزلت كذلك سورة الكافرون .

ولقد صدره وصادروا أصحابه في عبادتهم ، وانبعث شقي منهم فوضع الحداثة على  
ظهره عليه السلام وهو يصلي . وخفقه طاعة من طواغيتهم كولا أن جاء أبو بكر دفعه وقال :  
« اتعلمون رجلا أن يقول ربنا لله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن لكم كادنا عليه كده »  
ولقد أتهموه عليه السلام مرة بالسحر ، وأخرى بالشر ، وثالثة بالجنون ، ورابعة  
بالكهاة . وكانوا تحبونه وهو يرض نفسه على قبائل العرب أيام الموسم ، فيبتهونه  
ويكذبونه أمام من لا يعرفونه . ولقد شدوا وطأنهم على أتباعه حتى اضطروهم أن يهاجروا  
من وطنهم ، ويتركوا أهلهم وأولادهم وأموالهم فرارا إلى الله بدينهم .

ولقد تأمروا على الرسول أن يثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، لولا أن حفظ الله  
وحده من مكرم وأمره بالهجرة من بينهم .

ولقد أرسلوا إليه الأذى بعد ذلك في مهاجرة ، فثبت الحرب بينه وبينهم في خمس  
وسبعين موقعة ، منها سبع وعشرون غزوة وثمان وأربعون سرية .

فهل يرضى عاقل لنفسه أن يقول بعد ذلك كله : إن العرب كانوا مصروفين عن  
معارضة القرآن ونبي القرآن ، وإنهم كانوا مغلدين إلى المعجز والكسل زاهدين في  
النزول إلى هذا الميدان ؟

وهل يصح مع هذا كله أن يقال : إنهم كانوا في نشاط عن القرآن غير معنيين به  
ولا آبهين ؟ ٤

وإذا كان أمر القرآن لم يحركهم ولم يستقرع انقباهم ، فلماذا كانت جميع هذه  
التهاترات والمساومات ؟ مع أن خصمهم الذي يزعمون خصومته قد قصر لهم المسافة ،  
ودلهم على أن سبيلهم إلى إسكانه هو أن يأثروا مثل أقصر سورة مما حادهم به ، أليس  
ذلك دليلاً مادياً على أن قعودهم عن معارضة القرآن ، ليست إلا بسبب شعورهم بمعجزهم  
عن هذه المعارضة وانتعاشهم بإعمار القرآن ؟ وإلا فلماذا آثروا اللامعة على اللامعة ،  
وللمفرعة بالسيوف على المعارضة بالحروف ؟ ١

وقد يظن جاهل أن حماسهم في خصومتهم هذه ، ليس مبنيًا شعورهم بقوة القرآن  
وإعصاه ، وإنما مبنيًا أنفسهم لحد وأصحابه ، ولكن هذا الظن يكذبه ما هو مقرر تاريخياً ،  
وثابت ثبوتاً قطعياً ، من أن محمداً ﷺ وأصحابه لم تكن بينهم وبين هؤلاء مداوة فضل نزول  
القرآن ، بل كانوا أمة واحدة وقبيلة واحدة ، وكان الرسول وأصحابه من أحب  
الناس إليهم لدمامة أخلاقهم . ولرحم للناس التي بينهم .

وقد نال آخر أن حماسه قرش في خصومتهم للنبى وأتباعه ، إنما كان مبنيًا مجرد  
للمخلة والدين ، بقطع النظر عن إيجاز هذا القرآن الكريم . وهذا ظن خاطئ أيضاً



لأمرين. أحدهما أنه كان بين المشركين في جزيرة العرب يهود وأهل كتاب يحالونه في الدين، فآثرت ذلك بينهم حريا ولا أوقد لخصومتهم نارا، على مثل ما كان بينهم وبين محمد. والآخر أنه كان يوجد بين العرب حنفاء من مقاويل الخطباء، وغول الشراء، كأمية بن أبي الصلت وقس بن ساعدة، فما كان هذا ليثير حفاظهم ولا ليقف موقف الخصومة منهم. بل رضوا بتعنتهم ومخالفتهم لدينهم ودين آبائهم، وزادوا على ذلك أن سجدوا كلامهم في التوحيد وشهرم في التعزية والتعجيد، لأنهم لم يجدوا في هذا المنظوم والمنثور مثل ما وجدوا في القرآن من شدة التأثير وقوة الدفع. ذلك الكتاب الذي جاءهم من فوقهم، وكان له شأن عظيم شأنهم ورأوا فيه من مسحة الألوهية ما جعله روحا من أمر الله يتحرك به كل من سمع صوته، ويهتز له كل من شام برفه، ولا سبيل إلى وقف نياره وأثره، إلا بالوقوف في وجهه والحيولة بين الناس وبينه. روى أبو داود والترمذي أن الرسول ﷺ قال: «ألا رجل يحملني إلى قومه فإن قريشا ممنوني أن أبلغ كلام ربي» فزامل كلته أن أبلغ كلام ربي «ولم يقل: ممنوني أن أتلو أو أعمل في نفسي بكلام ربي، لأن التلاوة والعمل من غير استعماله لا ينفعه، ونشره، كان لا يؤثر على قريش كثيرا إنما الذي كان يحرق في نفوسهم ويقض من مصاحبتهم، هو نشر هذا النور الذي يكاد يحطف الأبصار، وإعلان هذا الكتاب الذي يحذب القلوب والأفكار. وكان من تأثيره وفنعه وغزوه ولفظوس ما ألما إليه في إسلام عمر وسعد وأسيد»

(وأما العرض الثالث) فينتفضه ما هو معروف من أن العرب حين خوطبوا بالقرآن قعدوا عن معارصته، اقتصاعا بإيجازه وعجزهم الفطري عن مساجلته. ولو أن عجزهم هذا كان لطاري صاعت عطل قوام البليانية، لأثر عجزهم أنهم حاولوا المارصة بقتضى تلك الدواع القوية التي شرعها ففوجئوا بما ليس في حسابهم، ولكان ذلك مثار عجب لهم. ولأعلموا ذلك في الناس يلبتسوا المذم لأنهم لم يلقوا من شأن القرآن في ذاته، ولسجدوا إلى كلامهم القديم فعدوا مقارنة بين القرآن يفضون بها من مقام القرآن وإعجازه، ولسكنوا بعد

رول القرآن أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله، ولأمكننا نحن الآن وأمكن المشركين بالأدب العربي في كل عصر أن يثبتوا الكذب في دعوى إعجاز القرآن . وكل هذه الهوازم باطلة ؟ فبطل ما استلزمها وهو القول بالصرقة بناء على هذه الشبهة الهاربة .

ثم ألم يكف هؤلاء مشاهدة أعداء القرآن أنفسهم في أوقات تخليهم من مهامهم، كذلك الشهادة التي خرجت من فم الوليد « والفضل ما شهدت به الأعداء » ؟ .

ثم ألم يكفهم ما في القرآن من وجوه الإعجاز الكثيرة التي ظفنا عليها فيما سبق ؟ والتي لا تزال قائمة ماثلة ناطقة إلى يومنا هذا ولا تريد الألبام وما يجد في العالم من علوم ومعارف وتجارب إلا وضوحاً وبياناً ١٢ .

إلى لأعجب من القول بالصرقة في ذاته، ثم لبشعة مجبى وأسفى حين ينسب إلى ثلاثة من علماء المسلمين الذين ترجعهم الدفاع عن القرآن، ونزباً بأمتلهم أن بشيروا هذه الشبهات في إعجاز القرآن ١ .

على أننى أشك كثيراً في سببه هذه الآراء السقيمة إلى أعلام من العلماء وبيدوا أن العلم في نسبتها إليهم ، والقول بأنها مدموسة من أعداء الإسلام عليهم ؛ أقرب إلى القول ، وأقوى في الدليل، لأن ظهور وجوه الإعجاز في القرآن من ناحية ، وعلم هؤلاء من ناحية أخرى ، قرينتان مانعتان من صحة عزو هذا الرأي إليهم .

ولقد عرودنا أعداء الإسلام أن يقرؤا على رسول الله وعلى أصحابه وعلى الأئمة والعلماء ، فلم لا يكون هذا منه ؟

على أن الحق لا يعرف بالرجال، إنما يعرف الحق بسلامة الاستدلال . وما قد طاش هذا الرأي في الميراث ، فطرد على فاته أيا كان .

« وليس كل خلاف جاء مستبرأ إلا خلاف له حظ من النظر »

وأحب أن تلخص إلى أن هذه الشبهة قد أثارها أعداء الإسلام في أشد وأصو وأ  
 منها سبها ما نشأ إلى القرآن وإعجازه. فليكتف بتفصنا لها هنا عن إعادتها بين ما سذكره  
 في دفع الشبهات هناك إن شاء الله .

### دفع الشبهات الواردة في هذا المقام

لقد كان ما ذكرناه من وجوه الإعجاز الأربعة عشر ، كافياً للقضاء على كل شبهة ،  
 ورد كل فرية ومحو كل تهمة. لولا أن المخدولين من أعداء الإسلام وجدوا آذاً صاعية  
 من نفوس عزيزة علينا ، وفئات متملة تملأ مديناً ، فتأثروا بدخلهم ، ثم رضوا أن  
 يكوئوا أبواقاً لهم ، يرددون شبهاتهم ، على تلاميذها في الجامعات والمدارس ، ويطبقون  
 محورهم على جماهيرها في المطبوعات والأندية والجالس . لهذا كان من واجبنا أن نعيد  
 قواً تطهير الجو الإسلامي من هذه الجرائم الفتاكة والطاعن الجارحة الهدامة ، وألا  
 نكفني عند المناسبة بذكر أحد المثارمين عن الآخر ، اللهم إلا إذا كان الأمر ظاهراً  
 لا يحتاج إلى تنبيه. أما عند الحاجة فقد سكرنا ما سبق لنا ذكره ، ولكن بمقدار الحاجة  
 من غير إكثار .

وننت نظرنا إلى ما أسلفناه من الكلام على الوحي بين مثبتيه ومكبريه ، فليبحث  
 انث من هذا الكتاب ( ص ٥٧ - ٨٤ ) من الجزء الأول ، وإلى ما حواه هذا  
 لكلام من أدلة علميه عقلية ، ومن تعديد شبهات عشر تتصل بإعجاز القرآن على  
 قرب أو بعد .

ثم يلعب نظرنا أيضاً إلى نقص تلك الشبهات الست التي أثيرت حول المكى ونمدى  
 من القرآن ( ص ١٩٨ - ٢٣٢ من الجزء الأول ) .

ورشدنا إلى أنشاد أعيننا عند كلامنا على أسلوب القرآن وإعجازه تفصيلات

وتوحيات ، يعتقد أن فيها عاء عن دفع كثير من الشهادت فاحرص عليها ، ثم اشدد  
يدبك على ما يلقى إليك .

### الشبهة الأولى ودفعها

يقولون : إن محمداً ﷺ لقي محيرا اراهب فأحد عنه وأعلم منه . وما تلك اعازف  
التي في القرآن إلا ثمرة هذا الأحد وذاك التعلم .

وطمع هذا ( أولا ) نأبها دعوى مجردة من الدليل ، حالية من التحديد والتعيين .  
ومثل هذه الدعاوى لا تقبل مادامت غير مدللة ، وإلا فليخبرونا ما الذي سمعه محمد من  
محيرا اراهب ؟ ومتى كان ذلك ؟ وأين كان ؟ .

( ثانيا ) أن التاريخ لا يعرف أكثر من أنه ﷺ سافر إلى الشام في نجارة مرتين ،  
مرة في طفولته ومرة في شبابه . ولم يسافر غير هاتين لمرتين ، ولم يحاور سوق نصرى فيها  
ولم يسمع من محيرا ولا من غيره شيئا من الدين . ولم يك أمره سرأ هالك بل كان معه  
شاهد في المرة الأولى وهو عبد أبو طالب ، وشاهد في الثانية وهو مبصرة علام حديجة التي  
خرج ارسول تجارتها أيامئذ . وكل ما هنالك أن محيرا اراهب رأى سحابة تطلعه ﷺ  
من الشمس ، فدكر لعمه أن سيكون لهذا العلام شأن ، ثم حذره عليه من اليهود . وقد  
رجع به عمه خوفا عليه ولم يتم رحلته . كذلك روى هذا الحادث من طرق في بعض  
أصايدھا صعب . ورواية الترمذي ليس فيها اسم محيرا . وليس في شيء من الروايات أنه  
ﷺ سمع من محيرا أو تنقّى منه درسا واحداً أو كلمة واحدة ، لاقى العقائد ولا في  
المبادات ولا في المعاملات ولا في الأخلاق . فإني يؤمكون ؟ .

( ثالثا ) أن تلك الروايات التاريخية نفسها تحيل أن يقع هذا اراهب موقف المعلم  
للمرشد لمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه شره أو بشره سمعته ، وليس بمعقول أن يؤمن

رحل هذه الشارة التي يرهبها ، ثم يمصب منه أستاذاً لصاحبها الذي سيأخذ عن الله ،  
وبتقى عن حبريل ويكون هو أستاذ الأستادين ، وهدى الهداة والمرشدين ! وإلا كان  
هذا الراهب متناقصاً مع نفسه .

( رابعاً ) أن عمر الراهب لو كان مصدر هذا الميصر الإسلامي المعجز ، لكان  
هو الأخرى بالنبوة والرسالة والانتداب لهذا الأمر العظيم .

( خامساً ) أنه يستحيل في مجرى العادة أن يتم إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته ،  
ثم ينضج النضج الخارق للمعهود فيما تعلم وثقف ، بحيث يصبح أستاذ العالم كله ، لجرد أنه  
لقى مصادفة وانتفاها واحداً من الرهبان مرتين . على حين أن هذا التلميذ كان في كلتا المرتين  
مشتغلاً عن التعليم بالتجارة ، وكان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ، وكان صغيراً تابعاً  
لعمه في تارة الأولى ، وكان حاملاً لأمانة ثقيلة في عنقه لا بد أن يؤديها كاملة في المرة الثانية ؛  
وهي أمانة العمل والإخلاص في مال خديجة وتجارها .

( سادساً ) أن طهيمه الدين الذي ينتسب إليه الراهب بحبراً ، تأبى أن تكون  
مصدراً للقرآن وهداياته . خصوصاً بعد أن أصاب ذلك الدين ما أصابه من تضيق  
وتحريف .

وحسبك أدلة على ذلك ما أقناه من المقارنات السابقة بين تعاليم القرآن وتعاليم غيره .  
وما قررناه من الوفاء في تعاليم القرآن دون غيره ، وما أشرنا إليه من أن القرآن قد صور علوم  
أهل الكتاب في زمانه بأنها الجبال التي ثم قصدي لتصحيحها وصور عقائدهم بأنها الصلوات  
ثم عمل على تقويمها . وصور أعمالهم بأنها الحجري والمسكرات ثم حرص على تركها . فارتفع  
إلى ما أسعاه ، ثم تذكر أن ما قد الشيء لا يمكن أن يعطيه ، وأن الخطأ لا يمكن أن  
يكون مصدراً للصواب ، وأن الظلام لا يمكن أن يكون مشرقاً للورد

( سابعاً ) أن أصحاب هذه الشبهة من الملاحدة قولون . إن القرآن هو الأثر التاريخي

الوحيد الذي يمثل روح عصره أصلى تثليل . فلذا كانوا صادقين في هذه الكلمة  
 فإننا نحاكمهم في هذه الشبهة إلى القرآن نفسه ، ونسوم أن يقرروه ولو مرة  
 واحدة تنقل ونسفة ، ليعرفوا منه كيف كانت الأديان وعلماؤها وكتابها في  
 عصره ؟ وليعلموا أنها ما كانت تصلح لأستاذية رشيطة ، بل كانت هي في أشد الحاجة  
 إلى أستاذية رشيطة ! . إنهم إن فعلوا ذلك فيستريحون ويربحون الناس من هذا  
 الصلال والزيج ، ومن ذلك الخبط والخلط . هدانا وهدام الله فإن الهدى هده . « ومن »  
 لم يحمل الله له نورا فإنه من نور » .

(ثامنا) أن هذه التهمة لو كان لها نصيب من الصحة ، لفرح بها قومه وقاموا لها وقعدوا ،  
 لأنهم كانوا أعرف الناس برسول الله ، وكانوا أحرم الناس على تبجيله وتكذيبه وإحباط  
 دعوته بأية وسيلة لكنهم كانوا أكرم على أنفسهم من هؤلاء اللاحدة الذين أرادوا طعنه  
 بأنه تعلم القرآن من غيره لم يفكروا أن يقولوا إنه تعلم من بحيرا الراهب كما قال هؤلاء ،  
 لأن العقل لا يصدق ذلك والمحل لا يسه . بل لجأوا إلى رجل في نسبة الأستاذية إليه شيء  
 من الطرافة والمزل ، حتى إذا مجت المقول نسبة الأستاذية إليه لاستعصاليها ، قبلتها النفوس  
 لحزنها وطرافتها ، فقالوا : إنما يملأه شر ، وأرادوا بالبشر حداداروميا مبهكا بين مطرقه  
 وسناده ، ضالا طول بومه في حبث الحديد وغاره ودحانه ، غير أنه اجتمع فيه أمران  
 حسوهما مناطا رويج نهتهم أحدهما : أنه مقيم بمكة إقامة تيسر له الحد الاتصال الدائم الوثيق  
 به ، والتلقى منه . والآخر غريب عنهم وليس منهم ، ليتخلوا إلى قومهم أن عند هذا الرجل  
 علم عالم يعمواهم ولا آباؤهم ، فيكون ذلك أدى إلى التصديق بأستاذيته لحمد . وعابهم  
 أن الحق لا يراى موره ساطعا مثل عليه ، لأن هذا الحدادارومى أعجمى لا يحسن العربية ،  
 وليس معقول أن يكون مصدرا لهذا القرآن الذي هو أبلغ نصوص العربية ، بل هو معجزة  
 المعجزات ومعجزة العرب واللغة العربية . « لسان الذين يلحدون إليه أعجمي » وهذا لسان  
 عربى مسين ١٥ .

### الشبهة الثانية ودفعها :

يقولون : نحن لا نشك في صدق محمد في إحيائه عما رأى وسمع . ولكننا نعتقد أن نفسه هي منبع هذه الأحمار ، لأنه لم يشت عمياً أن هناك عيباً وراء المادة ، مع أن مقرل منه قرآن أو يهبط عنه علم أو يأتي منه دين . ثم ضربوا لذلك مثلاً فقالوا : إن الفتاة الفرنسية ( جان دارك ) انتشئت في القرن الخامس عشر الميلادي ، قد حدث القاريخ عنها أنها اعتقدت - وهي في بيت أهلها بعيدة عن التكليف السياسية - أنها مرسنة من عند الله لإتقاذ وطنها ودفع المدو عنه ، واعتقدت أنها تسمع صوت الوحي الإلهي يحضها على القتال والجهاد . وانطلقت تحت هذا التأثير فعدت حملة على أعداء وطنها وقادت الجيش بنفسها ففهرتهم ثم دارت الدائرة فوقت أسيرة وماتت ميتة الأبطال في ميدان الزوال ولا يزال ذكرها يعللأ نوراً ويعبق أريجاً ، حتى لقد قررت الكنيسة الكاثوليكية قداسها بعد موتها بزمن .

### والدفع هذه الشبهة بأمور :

( أولاً ) تلك الأدلة العلمية التي أقنأها هناك على إثبات الوحي الإلهي الخفيقي لا الوحي النفسى الحىالى ، مع دفع الشبهات الواردة عليه ( بالمبحث الثالث من هذا الكتاب ) .  
( ثانياً ) هذه الأدلة الأربعة عشر التي أقنأها وجوها لإعجاز القرآن في هذا المبحث ؛ ففي كل وجه منها دفع كاف لهذه الشبهة عند التأمل والإنصاف ، لأن الإنسان محدود القوى والمواهب ، فلا يستطيع أن يحرق السواميس الكونية العادية . وهذا ذكرناه من وجوه إعجاز القرآن فيه أربعة عشر دليلاً على خرق القرآن للسواميس الكونية المعتادة . وحرقتها لا يملكها إلا من قهر الكون وسواميسه ، وكان له السلطان المطلق على العالم وما فيه ، وهو الله وحده لا محمد ولا غير محمد لا بالعقل الباطل ولا الظاهر ، لا بالوحي المعنى ولا بالأعمال العصى .

( ثالثاً ) أن المدارس لتاريخ هذه الفتاة يعلم أن أعصابها كانت تائرة تحت  
الانقسامات الداخلية التي مزقت فرنسا ، والتي كانت تراها وتسمعها كل يوم بين أيديها  
و في بلادها ( حوارد ورمي ) مع ماشاع في عهدنا من حرافات كان لها أثرها في نفسها  
وعقدها وعيها . من تلك الحرافات أن فتاة عذراء سقطت في هذا الزمن تحلص فرنسا  
من عدوها . صاف إلى هذا أن الفتاة كانت بعيدة الخيال تسبح فيه بقطعة وعصاها ، وتقوم  
منذ حداثتها ، أنها ترى وتسمع ما لم تر ولم تسمع حتى خيل إليها دعيت لتحلص بلادها  
وتفوج مسكها . ولما تمدي الرعنيور على قريبها التي ولدت فيها قوى عهد هذا الخيال  
حتى صار عقيدة إلى غير ذلك مما يدل على أن الفتاة كانت أعصابها منهيجة تهيئها ناشئا  
عن ثدها من الحال السياسية السيئة في بلادها ، وعن تأثيرها بالاعتقادات الخرافية التي  
سادت زمنها .

وبس هذا بدعا ، وسكن رأينا ومعدنا أصحاب دعابات عريضة يمتدون فيها على مثل  
هذه الخيالات الباطلة ، كالتين قاموا باسم للهدى المنتظر بدعون ومحاربون ، وكفلام  
أحمد القادري والباب السمان الدين أقام كل منهما محلته الباطلة على أوهام فارعة .  
لكن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يك عصيباً ثائراً مهناحاً . بل كان وقوراً متراً  
للعقل ثابت العزاد قوى الأعصاب . ينور الشععان من حوله وهو لا ينور ، وبشاح  
اللباس ويسردون في الخيال وهو واقف مع الحقبة يكره الشطح والإسراف في الخيال ؛  
بل يحارب الإسراف في الخيال وما يستلزمه ، ويرد هؤلاء للسرفين إلى حظيرة الخفافين  
ويحكمهم إلى لعن . ألم تر إلى القرآن كيف يدم الشعراء الذين يركون مطايا الخيال  
إلى حد العوانه ويقول : « والشعراء يتبعهم الغاؤون » \* ألم تر أنهم في كل واد يهيمون \*  
وأهم يهيمون ما لا يفعلون \* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً  
وانتصروا من سد ما ظلموا .



واظر كيف بنى القرآن أنه شر وأن الرسول شاعر فيقول : « وما علنناه الشعرَ  
 حوماً يبسى له . إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبينٌ » . لينذر من كان حياً ويحق القول على  
 الكافرين . » .

وتأمل ما جاء في صحيح مسلم وغيره من أنه ﷺ أبى على عائشة أم المؤمنين أن  
 تقول في شأن صبي من الأنصار جىء به ميتاً ليصل عليه طوبى لهذا لم يعمل شراً  
 فقال ﷺ : « أو غير ذلك يا عائشة ؟ إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وخلقها لهم وهم  
 على أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلاً ، وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم » .  
 مع أن أطفال المسلمين يعلم الله أنهم في الجنة ، لكن توقف الرسول وإبائه على عائشة أن  
 تقول هذا ، كان قبل أن يعلمه الله ذلك . فلم يسمح لها أن تسير مع الوهم أو الظن مادام  
 الأمر غيباً ، ولا يعلم الغيب إلا الله .

وتدبر ما رواه البخاري من أنه لما توفي عثمان بن مظعون رضي الله عنه قالت أم العلاء  
 - امرأة من الأنصار - رحمة الله عليك أبا السائب مسأدي عليك لقد أكرمك الله  
 فقال ﷺ : « وما يدريك أن الله أكرمك » ؟ فقالت : بأبي أنت يا رسول الله فمن  
 بكرمه الله ؟ قال : أما هو فقد جاءه اليقين . والله إن لأرحوه الخير . والله ما أدرى  
 وأنا رسول الله ما يفعل بي . قالت : فوالله لا أركى أحداً صده أبداً ، وكذلك يقول  
 القرآن الكريم : « قل ما كنت بدماء من الرسل . وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم .  
 إن أنزع إلا ما يوحى إلي . وما أنا إلا نذيرٌ مبينٌ » .

هل يعقل أن يقاس صاحب هذه الحقبة البالغة والتثبت الدقيق بفتاة حميدة ساذجة في  
 أوهامها غريزة في أحلامها ١٩ .

( راسها ) أن تلك الفتاة : جان دارك ، لم تأت ولا بدليل واحد معقول على صدق  
 أوهامها وتحيلاتها التي تزعمها حياً وحديثاً من الله إليها . لكن محمد ﷺ له حل وحبه

الذى يدعيه ألف دليل ودليل ، كما سبق بيانه . فآين الثرى من الثرى ؟ وآين الظلام من انور ؟

( خامسها ) أن هذه الفتاة الهاجبة الثائرة لم تكن صاحبة دعوة إلى إصلاح ولا ذات أثر باق فى التاريخ . إنما كانت صاحبة سيف ومسرة حرب فى فترة من الزمن ، اعرض مشترك بين الإنسان والحيوان وهو الدفاع عن النفس والوطن بمقتضى غريزة حب للبقاء ؟ ثم لم تلبث جذوتها أن بردت ، وحاسنها أن خدعت .

« كان لم يكن بين المحبون إلى الصفا أنيس ولم يسم بمكة سامر »

فآين هذه الآسة الثائرة من أصل الخلق فى دعوته الكبرى ، وآثره انعكاس فى إصلاح أديان البشر وشرائعهم وأحلامهم وأخلاقهم ، وفى إنقاذ الإنسانية المانية وتجديد دمه بدمه الجديد الذى قلب به أوضاع الدنيا ، ونقل سببه العالم إلى طور سعيد ، بل إلى الطور السعيد الذى لولاه لدام يتخبط فى الظلمات ، ولبات فى عداد الأموات ؟ « أو من كان سيقات فاحييناهُ وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ »

### الشبهة الثالثة ودفعها :

يقولون : إنه ﷺ كان يلقى ورقة بن نوفل فىأخذعه ويسمع منه ، وورقة لا يبين عليه لأنه قريب لخديجة زوج محمد . يريدون بهذا أن يوهوا قراءهم وسامعهم بأن هذا القرآن استمد علومه من هذا النصرانى الكبير الذى يجيد اللغة العبرية ويقرأ بها ما شاء الله .

ودفع هذه الشبهة بمثل مادفنا به ماقبلها . وقرر أنه لا دليل عديم على هذا الذى يتوهمونه ويوهمون الناس به ، بل الدليل قائم عليهم ؛ فإن الروايات الصحيحة تثبت أن خديجة ذهبت مالى ﷺ حين بدأ الوحي إلى ورقة ، ولما قص الرسول قصصه قال :

هذا هو الساموس الذي أنزل الله على موسى. ثم تنفى أن يكون شاباً فيه حياة وقوة بصر  
 بهما الرسول ويؤاخره حين يخرجه قومه ولم يذكر هذه الروايات الصحيحة أنه ألقى  
 إلى الرسول عظة أو درس له درساً في العفائد أو الفسريع ولا أن الرسول كان يتردد عليه  
 كما يتوهمون أو يوهمون. فأي لهم ما يقولون ؟ وأي مصنف يسمع كلمة ورقة هذه ولا  
 بهم منها أنه كان يتمنى أن يعيش حتى يكون تلميذاً لحمد ، وجدياً مخلصاً في صفه  
 بنصره وبدائع عنه في وقت الحجة ؟ ولكن القوم ركزوا رؤسهم على رعم ذلك ،  
 وحاولوا قلب الأوصاف وإيهام أن ورقه هو الأستاذ الخصوصي الذي استغنى منه محمد بن  
 وقرآنه : ألا ساء ما يحكمون ؟

#### الشبهة الرابعة ودفعها :

يقولون : إن إيجاز القرآن للشرع أن يأتوا بمثله ، لا يدل على قدسبته وأنه كلام  
 الله . وشاهد ذلك أن لكل متأذب أسلوباً خاصاً به يقع استعداده الأدنى ومراحه  
 الشخصى وهذا الأسلوب الخاص يستحيل على غيره أن يأتي بمثله ضرورة اختلاف  
 مواهب المتأدبين وأمرحهم. ومع هذا فإن كل أسلوب ليس صاحبه ، وعجز كل متأذب  
 عن الإتيان بأسلوب غيره ، لم يصف على الأساليب البشرية شيئاً من القدسية وأنها كلام  
 الله . وكذلك القرآن يرفعون أنه كلام محمد ويمتدحون بإيجازه على هذا النحو .  
 ويدفع هذه الشبهة ( أولاً ) بوجوه الإيجاز التي بسطها سابقاً غير وجه الإيجاز  
 بالأسلوب

( ثانياً ) أن هذه الشبهة معالطة ، فإن التصديق بالقرآن ليس معناه مطالبة الناس أن  
 يحثوا نفس صودته الكلامية ومنهاجهم المميز الذي ائتمروا به أسلوبه ، حتى ترد هذه  
 الشبهة بل معناه مطالبة الناس أن يحثوا بكلام من عندهم أي كانت صودته ومراحه ،  
 وأما كان عمله ومنهاجهم ، ولكن على شرط ألا يطيش في الميزان ، إذ قيس هو والقرآن

بتقياس واحد من البيان، بل يظهر أنه يماثل أو يقاربه في خصائصه، وإن كان كل صورة بياضية غير صورته. هذا هو ما يتحداهم به الرسول، وهو القدر الذي يتناسب فيه البلاء عادة فيما تلون أو يتفاضلون، مع احتفاظ كل منهم بمناجيه الخاص وعطه المميز.

ومثال ذلك أن يقارن قوم في العدد والجرى إلى هدف واحد، ويرسم لكل واحد من هؤلاء المتبارين طريق معين بحيث لا يمشى أحدهم من طريق صاحبه، ولا يصح قدمه في موضع قدم أحيه. بل يمشى في طريقه هو غير مزاحم ولا مزاحم، ويسير مواراة لفرقه في المبدأ وفي الاتجاه، ثم يحصون جميعاً إلى الهدف المشترك الذي إليه يقاسفون، وإذا هم بعد ذلك بين سابق ومرور، ولا حق متخلف. ومساو متكافئ. دون أن يكون اختلاف طرقهم قادحاً فيما يكون بينهم من هذا التفاضل أو التماثل. بل يعرف التناسب بينهم بعرفة نسبة ما قطعاه كل من طريقه إلى ذلك الهدف المشترك... كذلك المتفاضلون في ميدان البيان، يختار كل منهم طريقته التي يستمدّها من مزاجه الشخصي واستعداداته الخاص للوصول إلى الغاية البياضية العامة. ثم هم بعد ذلك يتفاضلون أو يتعادلون، بمقدار وظائفهم بخصائص البيان أو نقصهم منها. فالمدعوون إلى معارضة القرآن إن افترضتهم أكفاء لنبي القرآن فسيفانون بمثل ما جاء به، وإن افترضتهم أهل منه كمها فسيفانون بأحسن مما جاء به، وإن افترضتهم دونه فلن يشق عليهم أن يأنوا بقريب مما جاء به، مع احتفاظ كل منهم بنسقه في الكلام ومنهجه في البيان. لكن شيئاً من هذه المراتب الثلاث لم يكن. فلم يستطيعوا أن يأنوا بمثل القرآن ولا بما يملوه ولا بما يقرب منه، لا بالنسبة إليه كله، ولا بالنسبة لشر سور، ولا بالنسبة لسورة واحدة من مثله، ولا لمعتردين ولا محتملين ولو كان معهم الإنس والجن وكان بعضهم لبعض ظهيراً يصاب إلى ذلك أنهم كانوا أئمة البيان ونقد الكلام. وكانوا أهل إياهم يحرصون على الملتقى هذه الحسنة من معارضة القرآن.

أبسى ذلك بدليل كاف على أن هذا الكتاب تنزيل العزيز الرحيم ولا يمكن أن يكون كلام محمد ولا غير محمد من المخلوقين ١٩

### الشبهة الخامسة ودفعها :

قولون : إن عجز الناس عن الإتيان بمثل القرآن ، ما هو إلا نظير محرم عن الإتيان بمثل الكلام النبوي . وإذا فلا يتجه القول بقسمة القرآن وأنه كلام الله ، كما لا يتجه القول بقسمة الحديث النبوي وأنه كلام الله .

ويدفع هذه الشبهة ( أولاً ) بأن الحديث النبوي إن عجز عامة الناس عن الإتيان بمثله ، فإن بمجز أحد خاصتهم عن الإتيان ولو بمقدار سطر واحد منه ، وإذا مجز أحد هؤلاء المقارين من بمقدار سطر واحد منه نفسه ، فلن يصح عن مقدر سطر واحد من هؤلاء القريب منه . وإن مجز أن يأتي سطر من هذا المثل وهو وحده ، فلن بمجز عنه إذا انضم إليه ظهير ومعين أما كان ذلك الظهير والمعين . وإن مجز عن هذا مع الظهير والمعين ألا كان ، فلن بمجز الإس والجن جميعاً أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً كما قال القرآن .

ذلك شأن الحديث النبوي مع مدارضيه . أما القرآن الكريم لله شأن آخر ، لأن أحداً لا يستطيع الإتيان بمثل أقصر سورة منه لا هو وحده ولا مع غيره ولو اجتمع من بأطرافهم من الثقلين .

وأي قلنا إن الحديث النبوي لا بمجز بعض الخواص المتأخرين أن يأتي بمثله ، لأن التفاوت بين الرسول ولقاء العرب مما يتفق مثله في محاربي العادة بين بعض الناس وبعض و حدود الطاقة البشرية ، كالتفاوت بين البليغ والأملح والفتيحي والأفصح والحن والأحسن . وليس هذا التفاوت بالأمر الشاذ الخارق للقوانين المادية حيلة ، بحيث تنقطع الصلة بين الرسول وسائر البلاء جميعاً ، لا احتصاصه من بينهم بمطرة شادة لا تمت إلى سائر المطر نسب إلا كما ينتسب التقيض إلى التقيض والصد إلى الصد ، كلا بل إن هذا القول ماطل من وجهين :

( أحدهما ) أنه يخالف للمقول وللشاهد ، لما هو معروف من أن الطبيعة الإنسانية

العامة واحدة ، ومن أن الطبائع الشخصية يقع بينها التشابه والتماثل ، في شيء أو أشياء ، في واحد أو أكثر ، في زمن قريب أو أزمنة متطاولة ، في كل فنون الكلام أو في أمم من أمم . ( والآخر ) أنه يخالف للقول في الكتاب والسنّة ، من أن البشرية قدر مشترك بين الرسول وجميع آحاد الأمة . ولا ريب أن هذه البشرية للشركة وحدهم يؤدي لا محالة إلى المائنة بين كلامه وكلام من تجمعه بهم رابطة أو روابط خاصة على نحو ما قررنا أن ليس الله يقول . « قل سبحان ربي ! هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟ » ويقول : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ » ثم ليس الرسول يقول في الحديث الآنف « إنما أنا بشر وإياكم تختصمون إليّ » الخ ، ويقول لرجل رآه قائماً منه قرطاً ورعباً : « هون عليك وإني لست ملك . إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » ١ .

( ثانياً ) أما بعد تشابهها بين كلام النبوة وكلام بعض الخواص من الصحابة والتابعين ، حتى لقد سمع الحديث فيثيقه علينا أمره : « هو مرفوع ينتهي إلى النبي ﷺ ؟ أم موقوف عند الصحابي ؟ أم مقطوع عند التابعي ؟ إلى أن يرشدنا السند إلى عين فائده .

ومن أوتي حاسة بيانية يدرك هذا الشبه كثيراً كلما كان صاحب البيان المشابه نصلاً بالرسول صلات قوية ، كتلك الصلات أو العوامل المتأخذة التي توافرت في علي بن أبي طالب حتى مسحت بيانه مسحة نبوية ، وحملت نفسه في الكلام من أشبه الأناس بكلام رسول الله لأن لم يكن أشبهها .

أما القرآن وما أدراك ما القرآن ، فلن نستطيع أن نجعله شبيهاً أو نداً ، لأن الذي سمعه على عبيده لن نستطيع أن نجعله شبيهاً أو نداً . فكيف يعاين القرآن بالحديث في هذا المقام ؟ أم كيف يجمع بينهما في قرآن ؟ .

( ثالثاً ) أن القرآن لو كان كلام محمد كالحديث الشريف ، لكان أسلوبهما واحداً ، ضرورة أنهم على هذا الغرض - صادران عن شخص واحد ، استعداده واحد ومزاجه واحد ، لكن الواقع غير ذلك ، فأسلوب القرآن ضرب واحد نظهر عليه سمات الألوهية التي تبجل عن المشابهة

والله أعلم ، وأسود الحديث النوى صرب آخر لا يحمل عن المشاهدة والمباشرة ، بل هو محلق في  
حوالتيه يعلم أساليب الناس في حلقه دون تفصيله ، ولا يستطيع بحال أن يصعد إلى سماء  
إعجاز القرآن ! فإن افترست أنه عليه الصلاة والسلام كان له أسلوبان مختلفان : أحدهما  
يحصره ويتعمل له وهو ما سماه بالقرآن ، والآخر يرسله ولا يحصره وهو ما سمي بالحدِيث :  
إن افترست ذلك فأنظر علاج الشبهة المباشرة في المبحث الثالث من هذا الكتاب (ص ٧٨ -  
٨٤ من الجزء الأول ) فإن فيه شاء ما في نفسك ، والله يكتب العافية لي ولك .

#### الشبهة السادسة ودفعها .

يقولون : إن أبناء القرآن العينية ، لا نستقيم أن نكون وحدها من حوالة الإعجاز الدالة  
على أنه كلام الله بل هو كلام محمد استقى أسماء من أهل الكتاب في الشام وغيرها ، أو رمى  
فيه الكلام على عوامه وصادق الحقيقة اتفاقاً ، أو استنسط الأبناء رأيه استنباطاً ثم  
سما إلى الله .

ويدفع هذه الشبهة (أولاً) بأن أكثر أسماء العيين التي في القرآن لم يكن لأهل الكتاب  
علم بها على عهد .

( ثانياً ) أنه صحيح أعلامهم في كثير من هذه الأبناء فليس بمعقول أن يأخذوا عنهم  
وهو الذي صححها لهم ! .

( ثالثاً ) أن أهل الكتاب في رسمه كانوا أمحل الناس عما في أيديهم من علم  
الكتاب .

( راسماً ) أنه لو كان لهذه الشبهة ظل من الحقيقة بطر بها أهل الكتاب فرحاً ،  
وطعموا بها في محمد وقرآنه ، ولطبل لها المشركون ورقصوا - لكن شيئاً من ذلك لم يكن ،  
بل إن حجة من علماء أهل الكتاب آمنوا بهذا القرآن ، ثم لم يمس رمس طويلاً حتى  
أعطت قريش حداثتها له عن إيمان وإدعان .

(حاشية) أن محمداً كان رجلاً عظيماً شهادة هؤلاء الطاعينين، وصاحب هذه العظيمة البشرية يستحيل أن يكون ممن يرمى بالكلام على عواهنه خصوصاً أنه رجل مسؤول في موقف المحسومة بينه وبين أعداء ألداء، فما يكون له أن يرحم بالغيث ويقامر نفسه ويدعوته، وهو لا يصنع الأيام وما تأتي به مما ليس في الحسان.

(سادساً) أنه على فرض رحمة بالغيث حرافاً من غير حجة، يستحيل في محض إعادة أن تتحقق كل ما جاء به مع هذه الكثرة. بل كل يحطى ولو مرة واحدة، إما في عيوب لماضي أو الحاضر أو المستقبل لكنه لم يحطى في واحدة منها على كثرتها وتوابعها.

(سابعاً) أن هذه الأدباء العظيمة ليست في كثرتها مما يصلح أن يكون محالاً للرأى، ثم إن ما يصلح أن يكون محالاً للرأى أحبر محمد ﷺ في بعضه أمير ما يقضى به طاهر الرأى والاحتشاد. انظر ما ذكرناه تحت عنوان أساء لغير من هذا المنحى وتأمل بهوة انتصار الروم على الفرس وانتصار المسلمين على مشركين في وقت لم تتوافر فيه عوامل هذا الانتصار كما نلاحظ سابقاً.

#### الشبهة السابعة ودفعها :

يقولون : إن ما ذكرناه من عيوب القرآن ومعارفه وأشريعائه انكسامة، لا يستقيم أن تكون وجهاً من وجوه الإعجاز. فهذا سولون اليوناني وضع وحده قانوناً واقعياً كان موضع التقدير والإحلال والطاعة، وما قال أحد إنه أتى سلك معجزة ولا إنه صار بهذا التشريع سيئاً.

ويدفع هذه الشبهة (أولاً) بأن المور شامع بين ما جاء به القرآن وما جاء به هذا الدين، سولون اليوناني ونحن نتبعهم أن يثبتوا لما كماله ووفاءه بكافة صروب الإصلاح البشرية على نحو ما شرحنا سابقاً بالنسبة إلى القرآن الكريم.



(ثانياً) أن الفرق بين ظروف محمد ﷺ التي جاء فيها القرآن وظروف سولون التي وضع فيها القانون . وهذا الفرق البعيد مدخل كبير في إثبات هذا الوجه من الإعجاز بالنسبة إلى محمد ﷺ دون سولون : فمحمد كان أمياً نشأ في الأميين ، أما سولون فكان فيلسوفاً نشأ بين فلاسفة ومتململين ، بل هو أحد الأفلاسفة السبعة الذين كان يشار إليهم بالبنان في القرن السابع قبل الميلاد المسيحي . . .

ومحمد ﷺ لم يتقلد قبل القرآن أهمالاً إدارية ولا عسكرية ، بل جاءه القرآن بعد أن حبت إليه الخلة والعزة ، أما سولون فقد تولى قبل وضعه القانون أهمالاً إدارية وعسكرية ، وانتخب في عام ٥٩٤ قبل الميلاد (أرخونا) أي رئيساً على الأمة بإجماع أحراسها، وقلدوه سدة مطلقة ليغير ما شاء من نظم البلاد وقانونها الذي وضعه (دراكوت) من قبله . فوضع لهم نظاماً جديداً أقرته الأمة حكومة وشعباً وقررت اتباعه والعمل به عشر سنين .

فهل يجوز حتى في مقول المنفلين أن تقام موازنة وإصاغ قياس مع هذه الفارقات الهائلة بين محمد الأُمِّي النَّاشِئ في الأميين ، وسولون الميُلسوف والحاكم والقائد والزعيم والنَّاشِئ في أعظم أمة من أمم الحضارة ؟

(ثالثاً) أين ذلك القانون الذي وضعه أو عدله سولون ؟ وما أثره وما مبلغ نجاحه ؟ بجانب قانون القرآن الجامع ودستوره الخالد وأثره البارز ونجاحه للعجز ! ثم ما قيمة قانون وضع تحت تأثير تلك الظروف ومات وأصبح في خيبر كان ، بجانب القرآن الذي جاء في ظروف مصادمة حملته محزنة بل محبزنة ، ثم حي حياة دائمة لا مؤقتة ، ولا يزال يرداد مع مرور العصور والقرون جدة وحياء وتباتاً واستقراراً ، حتى أصبح كثير من الأمم المتحضرة تستمد منه ، وقررت مؤتمرات دولية اعتباره مصدراً من مصادر القانون المقارن في هذا العصر ، إلى غير ذلك مما أشرنا إليه قبلاً ؟

## خلاصة

والخلاصة أن القرآن من أمة ناحية أثبتته، لا ترى فيه إلا أموراً مثبته وأدلة ساطعة على أنه كلام الله . ولا يمكن أن تجد فيه نكتة من كذب ، ولا وصية من روز ، ولا لطفة من جهل . وإني لأقضي المحب من هؤلاء الذين أغضوا أعينهم عن هذه الأنوار ، وطوعت لهم أنفسهم اتهام محمد ﷺ بالكذب ، وزعموا أن القرآن من تأليفه هو لا من تأليف ربه ، مع أن المكاذب لا بد أن تكشف عن خبيثته الأيام والمصل لا مفاصل له من أن يفتضح أمره ويهتك ستره .

« ثوب الرياء يثقب عمامته فإذا التحققت به فإليك عار »

فيا أيها اللاعبون بالنار المهارثون بقوانين العقل والمنطق ، العابثون بمقررات علم النفس وعلم الاجتماع . الغافلون عن نوااميس الكون وأوضاع التاريخ ، الساخرون بدين الله وكتابه ورسوله . كلمة واحدة أنزلها لكم فاعقلوها: معقول أن يكذب المكاذب ليجلب إلى نفسه أسباب العظمة والمجد ، وليس بمعقول أبداً ( حتى عند البهايم ) أن يكذب الصادق الأمين ليمدح نفسه أعظم مظلة وأمجد مجد. ولا شيء أعظم من القرآن ولا أجدد ، فكيف يتصل محمد ﷺ منه ولا يتشرف بنسبته إليه لو كان من تأليفه ووصفه ١٩

يحيى لا حدث فيها ، لو أن محمداً كان كاذباً لكذب في أن يسب هذا القرآن إلى نفسه ، هل حين أنه ليس من إشتهاء ووصفه . كما يحرز به الشرف الأهل ، ويدرك به المقام الأسمى ، لو كان ينال شرف ويملو مقام بالافتراء والكذب . ولكن كيف يكذب الصادق الأمين ومولاه يتوعد ويقول : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين » ثم قطعنا منه الوتين • فما منكم من أحد عنه حاجزين • وإياه لتذكر مرة

للمتقين \* وإياهم أن يمسككم مكمدين \* وإياهم لحسرة على الكافرين \* وإياهم ح. ق.  
اليقين \* فبسم ربك العظيم \* »

ومن أعجب العجب أن نسمع أمثال تلك الشبهات الباطنة في محيطها الإسلامي ؛ على  
حين أن طوائف كثيرة من علماء الإفرنج في هذه المصور الأخيرة ، قد أعلنوا بعد دراستهم  
للقرآن ونهى القرآن : « إن محمداً كان سليم العطرة ، كامل العقل ، كريم الأخلاق ، صادق  
الحديث ، عفيف النفس ، فروع بالقليل من الرزق ، غير طموع في المال ولا حنوح إلى الملك .  
ولم يكن به كان يمي به قومه من الغر والشراة في تحبير الخطب وقرض الشعر وكان يفت  
ما كانوا عليه من شرك وحرافات الوثنية ، ويحتمر ما يفتنسون فيه من الشهوات البهيمية ،  
كالخنزير ولا يمسر وأكل أموال الناس بالباطل . وهذا كله وما ثبت من سيرته ويقينه بعد  
النسوة جرموا بأنه كان صادقاً فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنه ، من رؤية ملك  
الوحي ، ومن إفرانه إياه هذا القرآن ، ومن إنبائه بأنه رسول من الله هداية قومه وسائر  
الندس . » ولقد وصل الأمر ببعض هؤلاء الباحثين الأجانب ، أن أعس هذه الحقيقة :  
« لو وجدت نسخة من القرآن ملقاة في فلاة ، ولم يجزها أحد عن اسمها ومصدرها ، بعضها  
بجرد دراستها ، ككلام الله ، ولا يمكن أن تكون كلام سواء . »

## كلمة الختام

أما بعد : فإن الكلام في إعجاز القرآن طويل ، وعلاج جميع الشبهات التي لعنها أعداء الإسلام أطول . حتى لقد اطلعت على رسالة حيثمة أسموها ( كتاب حسن الإبحار في إبطال الإعجاز ) فوجدتها قد حملت من الأكاذيب والأراخيف ، ومن اللب والدوران ، أشكالا وألوانا في الصيغة الواحدة . وعقيدتي أن ما بسطنا في هذا المبحث وما يتصل به ، فيه الكفاية لمن أراد الهداية . ولو أننا استقصيت وجوه ارد على مثل هذه الرسالة لاقتصنا الأمر كتابا كبيرا كاملا ، على حين أنها هي لا تزيد على اثنتين وعشرين صفحة من القطع الصغير . ثم أي لنا ذلك الرد السهب الآن ؟ وأزمة الورق طاحنة ، وأدوات الطباعة عزيزة ، حتى لقد اضطررنا من أجل هذا ، أن نقف في الكتابة عند هذا الحد ( بالطبع ) ولقد كنا نود أن نضي قدمنا حتى نأتي على قصص القرآن وأمثاله وحده ، ولكن الضرورات تبيح المحظورات . وعسى أن يكون خيرا .

محمد سبغانه أن كتب لنا التوفيق في هذه الحجة حتى انتهيما إلى هذه الغاية ، ونستغفره ونتوب إليه من كل خطأ وزلل . ودأله القبول والربد والتمجيل بشرايح الكروب ، وأن يصلح الحال والمآل لنا وللمسلمين جميعا في مشارق الأرض ومقاربها .

## رجاء

و رجو من كل مطلع على هذا الكتاب أن يتفضل فيدعو لنا بالتخير، وأن يرودنا بملاحظات واستدراكاته، فإن الدين الصيحة؛ وللمؤمنين بحير ما نأصحبوا  
وليعلم القارى الكريم أننا لا نزعم لأنفسنا الكمال. ولكن قصارنا أن نحاول  
لكمال، وأن نؤدى رسالتنا في هذه الحياة كما يجب. أما الكمال المطلق فهو لله تعالى  
وحده.

« وَنَمَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا . لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ . وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »  
« سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » \* « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » \* « وَاحْمَدٌ لِلَّهِ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ » \* .

وصلى الله على أفضل خلقه، وخاتم رسله، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه،  
ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وأصحاب الحقوق علينا أجمعين، آمين آمين .

وكان التراجع من طبع هذه المذكرات في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٦٢ هـ  
موافق لشهر يونيو ١٩٤٣ م .

# فهرس الجزء الثاني

من مناهل العرقان

الموضوع	صفحة
المبحث الثاني عشر في التفسير والمفسرين وما يتعلق بهما	٢
التفسير ومعناه	٣
التأويل ومعناه	٤
فصل التفسير والحاجة إليه	٦
أقسام التفسير	١٠
التفسير بالمأثور	١٢
المفسرون من الصحابة	١٤
تفسير ابن عباس	١٦
الرواية عن غير ابن عباس من الصحابة	١٨
المفسرون من التابعين ومطبقهم وقد مروى عنهم	١٩
ضعف الرواية بالمأثور وأسبابه	٢٣
ملحوظة في ثلاثة من الأعلام	٢٦
تدوين التفسير بالمأثور وخصائص الكتب الموثقة في ذلك	٢٨
تفسير ابن جرير	٢٩
• أبي الليث السمرقندي	٢٩
الدر المنثور في التفسير بالمأثور	٣٠
تفسير ابن كثير	•
• البعري	•
• بقي من غلاد	•

الموضوع	صفحة
أسباب النزول - لرواحي	٣١
الناسخ والنسخ لأن جعفر المنصور	٣٢
طرق المفسرين منذ العصر الأول	٣٣
التفسير المحمود والتفسير المذموم	٣٣
ميران للدخ والمقم	٣٤
عاطلة التعصب للرأى ( وهو موقف حميد مفيد )	٣٥
مثال من أمثلة هذا التعصب	٣٧
مثال حلق الأضال بين أهل السنة والمعتزلة	٣٨
واجبتنا إزاء الخلافات	٤٣
تحذير	٤٤
صحة الإسلام ويسره	»
حدث لحجة الإسلام	٤٥
تحقيق للأستاذ الإمام	٤٧
التفسير بالرأى الجائز منه وغير الجائز	٤٩
العلوم التي يحتاج إليها المفسر	٥١
الاختلاف في حوار التفسير بالرأى	٥٤
أدلة الثائمين	»
أدلة المجيزين	٥٨
منهج المفسرين بالرأى	٥٩
قانون الترجيح عند الاحتمال	٦١
أوجه بيان السنة للقرآن	٦٢
التمازض بين التفسير بالرأى والتفسير بالأنوار	٦٣
أهم كتب التفسير بالرأى	٦٥

الموضوع	صفحة
تفسير الجلالين	٦٦
مناشير اليمصاوى والفخر الرازى وأبى السموذى	٦٧
مناشير النيسابورى ، والنسفى ، والخطيب	٦٨
تفسير المنار	٦٩
تفاسير الفرق المختلفة	»
» للمنزلة	٧٠
كتاب الكشاف	»
» تنزيه القرآن عن اللطاعن	٧٤
تفاسير الباطنية	»
» الشيعة	٧٦
مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار	٧٧
التفسير الإشارى	٧٨
ملحوظة فى معنى الظاهر والباطن والمحد والطلع	٧٩
شروط قبول التفسير الإشارى	٨١
أهم كتب التفسير الإشارى	٨٢
تفسير النيسابورى	»
» الأتوسى	٨٤
» القسرى	٨٥
» ابن العربى	٨٦
بصيرة خالصة فى الموضوع	٨٩
كلمة قيمة لحجة الإسلام الغزالى فى الموضوع	٩٠
الشطح	٩١
العقائد	٩٢



المصنف	الموضوع
٩٥	التلخيص في إطلاق لفظ الحكمة
٩٦	تقاسير أهل الكلام
٩٧	مرج العلوم الأدبية والكونية بالتعريف وسببه
١٠٠	آثار هذا الامتزاج
١٠١	شروط لا بد منها
١٠٤	كلمة ختامية
١٠٦	نهاية القول
١٠٧	المبحث الثالث عشر في ترجمة القرآن وحكمها تفصيلاً.
»	أهمية هذا المبحث.
١٠٩	الترجمة في اللغة.
١١٠	الترجمة في الصرف
١١١	تفسير الترجمة
١١٣	مالا بد منه في الترجمة مطلقاً.
»	مالا بد منه في الترجمة الحرفية.
١١٤	فروق بين الترجمة والتفسير.
١١٨	الترجمة والتفسير الإجمالي بغير لغة الأصل
١١٩	تبيينان مقيدان.
١٢٠	الترجمة ليست تعريفاً منطقياً.
١٢٠ - ١٣١	القرآن ومعانيه ومقاصده.
١٣١	للرأى بالقرآن هنا.
»	معاني القرآن نوعان
١٣٣	مقاصد القرآن الكريم.
١٣٤	هداية القرآن.

إيجاز القرآن	١٢٨
اختصار بقلاوة القرآن	١٢٩
حكم ترجمة القرآن بمصيلا	١٣١ - ١٣٩
حكم ترجمة القرآن بمعنى تبسيط ألفاظه .	١٣٦
حكم ترجمة القرآن بمعنى تفسيره بلغة العربية .	١٣٣
حكم ترجمة القرآن بمعنى تفسيره بلغة أجنبية .	١٣٣
أمر مهم .	»
فوائد الترجمة بهذا المعنى .	١٣٧
دفع شبهات الواردة على جوار هذه الترجمة .	١٤٠ - ١٥٣
دفع شبهة استلزامها للترجمة العرفية المتنوعة .	»
» استلزامها لما يقمذر الوفاء به .	١٤١
» عدم الحاجة إليها .	»
حكم ترجمة القرآن بمعنى نقله إلى لغة أخرى .	١٤٣
الحكم على هذه الترجمة بالاستعانة بالعادية .	١٤٤
الحكم على هذه الترجمة بالاستعانة الشرعية .	١٤٧
دفع الشبهات الواردة على منع هذه الترجمة .	١٥٣
نقض استدلالهم بأن تبسيط الإسلام إلى الأجانب واجب .	»
نقض استدلالهم بأن الرسول كاتب عظيم الأسماء يدعوهم إلى الإسلام .	١٥٥
نقض استدلالهم بقياس هذه الترجمة على التفسير .	١٥٧
» » بإمكان نقل المعاني الأصلية للقرآن .	»
» » أن الدين ترجموا القرآن أحفظوا .	١٥٨
» » رواية أن سلمان له ارسى ترجم ما ترجم .	١٥٩
حكم قراءة الترجمة والصلاة بها .	١٦٠

الموضوع	صفحة
مذهب الشافعية .	١٦٠
مذهب المالكية .	١٦١
مذهب الحنابلة .	١٦٢
مذهب الحنفية .	»
توجيهات وتعليقات .	١٦٤
كلمة للإمام الشافعي .	»
كلمة للمحقق الشاطبي .	١٦٥
كلمة لمحبة الإسلام الفزالي .	١٦٨
موقف الأزهري من ترجمة القرآن الكريم .	١٦٩
فذلكة هذا البحث .	١٧٢
البحث الرابع عشر في النسخ .	١٧٣
أهمية هذا البحث .	»
النسخ في اللغة .	١٧٥
النسخ في الاصطلاح .	١٧٦
توجيهات أربعة .	١٧٧
ما لا بد منه في النسخ .	١٨٠
الفرق بين النسخ والبداء .	»
الفرق بين النسخ والتخصيص .	١٨٤
النسخ بين مثبتيه ومنكبريه .	١٨٦
أدلة ثبوت النسخ عقلا ومما .	١٨٧
أ . أدلة جوار النسخ .	»
ب . أدلة وقوع النسخ .	١٩٠
حكمة الله في النسخ .	١٩٤

صفحة	الموضوع
١٩٨	دفع شبهات المسكرين لجوارحه عقلا .
»	دفع اعتراضهم بأن النسخ يستلزم البدء أو البحث .
١٩٩	دفع اعتراضهم بأن النسخ يستلزم الجهل أو تحصيل الحاصل
»	دفع اعتراضهم بأن النسخ يستلزم تحصيل الحاصل أو ما هو في معناه
٢٠٦	دفع اعتراضهم بأن النسخ يستلزم اجتماع الصدين .
٢٠٣	شبهات المسكرين للنسخ سما ودفعها .
»	شبهة الغناية والشموية ودفعها .
٢٠٤	شبهة المصارى ودفعها .
٢٠٦	شبهة الميسوية ودفعها .
٢٠٧	شبهة أبي مسلم ودفعها .
٢٠٩	طرق معرفة النسخ .
٢١٢	قانون التمازض .
٢١١	ما يناوله النسخ .
٢١٤	أنواع النسخ في القرآن .
٢١٦	دفع شبهات الماديين لنسخ التلاوة أو الحكم دون الآخر .
»	أ - دفع شبهتهم بأن التلاوة والحكم متلازمان .
»	ب - دفع شبهتهم بأن نسخ الحكم دون التلاوة يستلزم تعطيل الكلام الإلهي
٢١٧	دفع شبهتهم بأن نسخ الحكم دون التلاوة يوقع في القس .
٢١٨	دفع شبهتهم بأن نسخ التلاوة دون الحكم يوقع في القبس أيضا .
»	دفع شبهتهم بأن نسخ التلاوة دون الحكم عبث .
٢٢٠	النسخ ببدل وغير بدل .
٢٢١	شبهة المعترزة في منع النسخ بغير بدل ودفعها .
٢٢٢	نسخ الحكم ببدل أحف أو مساو أو أثقل .

مادة	للوصوع
٢٢٣	شبهات للاسعين للنسخ بيدل أثقل ودفعها .
»	نقص استدلالهم بأن في ذلك ترهيدا في الطاعة وثبيطا عن الواجب .
٢٢٥	نقص استدلالهم بآية « وبصع عنهم إحرام » .
»	نقص استدلالهم بآيات التثقيف في القرآن .
٢٢٦	نقص استدلالهم بآية « ما نسخ » .
٢٢٧	بسح الطلب قبل التمكن من امتثاله .
»	أداة المثبتين لهذا النوع من النسخ .
٢٣٠	شبهات للمسكرين لهذا النوع ودفعها .
»	دفع قولهم إنه عبث .
٢٣١	دفع قولهم إنه يستلزم أحد محالين .
»	دفع قولهم إنه يستلزم الجمع بين الصدين .
٢٣٢	دفع نقضهم للاستدلال بقصة ذبح إسماعيل .
٢٣٤	دفع نقضهم للاستدلال بسح فريضة الصلوات المحيين .
٢٣٦	النسخ في دوراه بين الكتاب والسنة .
»	نسخ القرآن بالقرآن .
٢٣٧	نسخ القرآن بالسنة .
٢٣٧	مقام جواره
٢٤١	دفع الاعتراض بالسنة الاجتهادية والآحادية
٢٤٢	مقام وقوعه .
٢٤٤	نسخ السنة بالقرآن .
»	دليل جوازه وأدلة وقوعه .
٢٤٥	دفع الاعتراض باحتمالين واهيين .
٢٤٦	نقص استدلال الاسعين بآية « وأزلنا إليك الذكر لتبين لكس » .

نسخ السنة بالسنة .	٢٤٧
أدلة الجمهور على عدم جواز نسخ السنة المتواترة بالآحادية شرعاً .	»
أدلة أهل الظاهر على حواز هذا النسخ شرعاً .	٢٤٨
نسخ القياس والنسخ به .	٢٤٩
أدلة اللاتين له مطلقاً .	٢٥٠
دليل المجورين له مطلقاً .	٢٥١
دليل الفصلين فيه وم الجمهور .	»
نسخ الإجماع والنسخ به .	٢٥٢
المعوزون له ومناقشتهم في هذا التجويز .	٢٥٣
موقف العلماء من النسخ والنسخ .	»
منشأ غلط المتزبدین تفصيلاً .	٢٥٤
الآيات التي اشتهرت بأنها منسوخة .	٢٥٥
آية « والله للشرق والمغرب » .	٢٥٦
« كتب عليكم إذا حضر أحدكم اللوت » .	٢٥٧
« وعلى الذين يطيقونه فدية » .	٢٥٨
« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام » .	٢٥٩
« يسألونك عن الشهر الحرام » .	٢٦٠
« والذين يقفون منكم » .	٢٦١
« وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه » .	٢٦٢
« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » .	٥٦٢
« وإذا حضر القسمة أولو القربى » .	٢٦٣
« والذين عقدت أيمانكم » .	»
« واللاتي يأتين الفاحشة من نساءكم » .	٢٦٤

آية « يا أيها الذين آمنوا لا تحملوا شعائر الله » .	٢٦٤
« « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » .	٢٦٥
« « يا أيها الذين آمنوا شهادة بيمينكم » .	»
« « إن يكن منكم عشرون صابرون » .	»
« « افروا حفافا وثقالا »	٢٦٦
« « الزاني لا يمكح إلا رانية أو مشركة » .	»
« « يا أيها الذين آمنوا لبستكم » .	٢٦٧
« « لا يحمل لك النساء من نكح » .	»
« « يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول » .	٢٦٨
« « وإن تكلمتم شيئا من أرواحكم »	٢٦٩
آيات « يا أيها الرمل » . . إلخ .	»
للبعث الخامس عشر في محكم القرآن ومثابه .	٢٧٠
المعنى المعوى .	»
القرآن محكم ومثابه .	٢٧١
المعنى الاصطلاحي .	٢٧٢
آراء العلماء في معنى المحكم والمثابه	»
نظرة في هذه الآراء .	٢٧٥
آراء أخرى .	٢٧٦
مبدأ المثابه وأقسامه وأمثلة .	٢٧٨
أنواع المثابهات .	٢٨١
هل في ذكر المثابهات من حكمه ؟	٢٨٢
مثابه الصوات .	٢٨٦
الرأى الرشيد في مثابه الصوات .	»

٢٩٠	٢٩٠	تطبيق وتمثيل .
٢٩١	٢٩١	إرشاد وتحذير .
٢٩٣	٢٩٣	دفع الشبهات الواردة في هذا المقام .
٥	٥	نقض قولهم : إن نفي الجهة عن الله يستلزم عدم وجود الله .
٢٩٦	٢٩٦	نقض شبهتهم في وجوب تأويل اللفظ بدليل
٢٩٧	٢٩٧	نقض قولهم إن إنزال التشابه لا يتفق وهداية الخلق .
٢٩٨	٢٩٨	نقض قولهم إن ذكر التشابه لا يليق بالحكيم .
٢٩٩	٢٩٩	نقض قولهم إن وجود التشابه مع الحكم يستلزم أحد محذورين
٣٠٠	٣٠٠	نقض قولهم إن السلف والتلف وقموا في محذور التأويل جميعا .
٣٠٢	٣٠٢	المبحث السادس عشر في أسلوب القرآن الكريم .
٥	٥	الأسلوب في اللغة .
٣٠٣	٣٠٣	الأسلوب في الإصلاح .
		معنى أسلوب القرآن .
٥	٥	الفرق بين الأسلوب وبين المفردات والتراكيب .
٣٠٤	٣٠٤	مثال لهذا الفارق .
٣٠٥	٣٠٥	بيان ذلك في اللغة العربية .
٣٠٧	٣٠٧	تفاوت القوى والتقدير .
٣٠٩	٣٠٩	خصائص أسلوب القرآن .
٥	٥	(١) مسحة القرآن اللفظية .
٣١٣	٣١٣	(٢) إرضاء العامة والخاصة .
٥	٥	(٣) إرضاء العقل والعاطف .
٣١٥	٣١٥	(٤) جودة السبك وإحكام السرد .



المنوع	صفحة
(٥) براعته في تصريف القول .	٣١٨
(٦) جمع القرآن بين الإجمال والبيان .	٣٢٣
(٧) القصد في اللفظ مع الوفاء بالمعنى .	٣٢٤
تمليق وتمثيل .	٣٢٦
الشبهات الواردة على أسلوب القرآن .	»
البعث السابع عشر في إعجاز القرآن وما يتعلق به .	٣٣١
وجوه إعجاز القرآن .	٣٣٢
الوجه الأول : لفته وأسلوبه .	»
القدر المعجز من القرآن	٣٣٣
معارضة القرآن .	٣٣٤
في القرآن آلاف المعجزات .	٣٣٥
معجزات القرآن خالدة .	٣٣٦
حكمة بالغة في هذا الاختيار .	٣٣٧
بهذه الشهادة ينجح العالم كله .	٣٣٨
أسلوب القرآن وأسلوب الحديث .	»
الوجه الثاني : طريقة تأليفه .	٣٤٠
الوجه الثالث : علومه ومعارفه .	٣٤٢
أمثلة من عقيدة الإيمان بالله .	٣٤٣
أمثلة من عقيدة البعث والجزاء .	٣٤٥
الوجه الرابع : وقاؤه بمحاجات البشر .	٣٥١
الوجه الخامس : موقف القرآن من العلوم النكونية .	٣٥٣
كلمة في الموضوع .	٣٥٨
الوجه السادس : سياسته في الإصلاح .	٣٦١

الوضوح .	٣٦٧
الوجه السابع : أنباء الغيب فيه .	٣٦٧
غيب الماضي .	٣٦٨
غيب الحاضر .	٣٦٩
غيب المستقبل .	٣٨١
على هامش الوجه السابع .	٣٨٢
معجزات يكشف عنها العلم الحديث .	٣٨٤
معجزة يكشف عنها التاريخ .	٣٨٧
معجزة يكشف عنها الطب .	٣٨٩
معجزة يكشف عنها علم الاجتماع .	٣٨٩
الوجه الثامن : آيات العقاب .	٣٩٢
انطباع في الاجتهاد ليس معصية ( وهو بحث نفيس )	٣٩٥
آيات العقاب نوحان .	٣٩٩
الوجه التاسع : ما نزل بعد طول انتظار .	٤٠٠
الوجه العاشر : مظاهر النبي عند نزول الوحي عليه .	٤٠١
الوجه الحادي عشر : آية للباهلة .	٤٠٣
الوجه الثاني عشر : عجز الرسول عن الإتيان ببديل له .	٤٠٥
الوجه الثالث عشر : الآيات التي تجرد الرسول من نسبة القرآن إليه	٤٠٧
الوجه الرابع عشر : تأثير القرآن ونماجه .	٤٠٩
تأثير القرآن في أعدائه .	٤١٢
تأثير القرآن في أوليائه .	٤١٤
وجوه معلولة في الإجماز .	
شبهة القول بالصرقة .	
دفع هذه الشبهة بقرورها الثلاثة .	

الموضوع	صفحة
دفع الشبهات الواردة في هذا المقام .	٤٢٠
(١) دفع شبهة أن النبي تعلم من بحيرا الراهب .	٤٢١
(٢) دفع شبهة أن نفسه <sup>عليه السلام</sup> هي منبع الوحي	٤٢٤
(٣) دفع شبهة أنه تعلم من ورقة بن نوفل	٤٢٧
(٤) دفع شبهة أن إجاز القرآن لا يدل على أنه كلام الله، بل هو كلام محمد.	٤٢٨
(٥) دفع شبهة قياس القرآن على الكلام النبوي .	٤٣٠
(٦) دفع اشتباههم في أن أنباء الغيب وجه من وجوه إيجازه .	٤٣٢
(٧) دفع اشتباههم في أن علوم القرآن ومعارفه وجه من وجوه إيجازه .	٤٣٣
خلاصة المبحث	٤٣٥
كلمة الختام .	٤٣٧
رجاء .	٤٣٨